



كتاب الشعب

مقدمة

ابن خلدون
من قبله

دار الشعب
طبعة الأولى ١٩٦٥

بين يدي هذه الطبعة من مقدمة ابن خلدون

الفيلسوف الموزع عبد الرحمن بن خلدون ومقمته أشهر وأسطر من أن نحاول التعريف بها أو تقديمها للقارئ . ومن ثم نعلم حلة الطبعة مع المقدمة مستقيمة النص ، حمرة العبارة في أقرب صورها إلى الحال التي كانت عليها يوم كتبها ابن خلدون . ولكي نعين القارئ على الإحاطة بما تقدم بين يديه جلاء ما قد يشق عليه ذكره من أسماء البلاد والأماكن التي حطت بها المقدمة وعاصمة في الجزء الأول منها . كما كتبها إن شاء الله ببيان آخر يضم نفاً من الأعلام ، والرجال الذين ذكرهم ابن خلدون ، أو مرعى طعنهم ، مع الفهارس التحليلية الشافية . ولعلنا بهذا نكون قد يسرنا لجمالير المتقنين أن تقي من علم ابن خلدون ، وأن تتطالع بعض جوانب فكره الثاقب السليم وفيما يلي بيان أهم الأماكن التي ورد ذكرها في المقدمة :

أَسْفَى : بلدة على شاطئ البحر الهبيط بأقصى المغرب .
أَشْرُوسَةُ : بلد كبير فيما وراء البحر من بلاد الحبشة من ميجون وسمرقند ، وينسب إليها بعض أهل العلم مثل أبي طلحة بن نصر الأندلسي وغيره .
أَصْطَحَر : أنشأها هو إصطخر بن طهمورث ملك الفرس ، وينسب إليها كثير من العلماء . منهم الاصطخري الجغرافي الشهير .
أَغَمَات : قرية في بلاد المغرب قرب مراکش ، كثيرة الخير ، وفيرة الحبوب .
أَقْرِيطُس : جزيرة في البحر تقابلها ليبيا من البر الأفريقي ، أعند المسلمون في فتحها على أيام معاوية ، ثم في خلافة الرشيد ، ثم في خلافة المأمون .
أَنْطَرطوس : بلد من سواحل بحر الشام ، وهي آخر أعمال دمشق ، وأول أعمال حمص . قيل إن التي فتحها عبادة بن الصامت سنة ١٧ هـ بعد فتح اللاتنية ، وينسب إليها طائفة من الحاشدين والعلماء .
الأنكبيدة : بلاد واسعة في شمال البحر المتوسط ، بين القسطنطينية والأندلس .
الأهواز : كورة بين البصرة وفارس ، وأصلها بالعربية الأصواذ بإلحاح ، واسمها الفارسي القديم غوزستان ، وقيل هوزشير .
أَوَيْل : إحدى مدن المغرب على نهر البحر - كما يقول ياقوت - وهي من مدن الملح ببلاد المغرب ، وبينها وبين لجة - مدن الودق - خمسة وعشرون ميلاً .
إِيلَان : موضع قرب مراکش ورد ذكره كثيراً في حروب عبد المؤمن بن علي .
بَلْجَبَاة : قرية في شرق مدينة الموصل على نهر حبل ، وكان نهر الخمرس يمر قديماً تحت قنطرةها .
بَارَى : قرية من أعمال كلواز في نواحي بغداد كانت ذات بساطين يقصدها أهل البطالة ، وفيها يقول الحسين ابن الضحاك :
أحب الحسن من تغلات بارى وجوسقها المشيد بالصليح
مدينة على ساحل البحر بين أفريقية ، وكان أول من ربحها :
احتلها التامر بن طلس حوالي سنة ٥٧ هـ ، ٥٥ هـ
وقسمي التامرية أيضاً باسم يانها .

أَبَل : بالكسر ، اسم لأربعة مواضع منها : أبَل القمح من نواحي بانفاس من أعمال دمشق ، وأَبَل السوق قرية كبيرة في غوطة دمشق ، وأَبَل من قرى حمص بينها وبين حمص نحو ميلين وغيرها .
أَبَد : بكسر الميم ، أعظم مدن ديار بكر ، وأجملها قدراً ، وأشهرها ذكراً ، اقتسمها المسلمون سنة ششرين من الهجرة بعد فتح الجزيرة على يد عباس بن غم ، وينسب إليها طائفة من العلماء منهم الحسن بن بشر الأمدى صاحب الموازنة بين أبي تمام والبحتري .
أَمَل : بالضم أكبر مدينة بطبرستان في السهل ، وقد خرج منها طائفة من العلماء ، لكنهم ينسبون إلى طبرستان ، فيقال : الطبري ، ولا يقال : الأملي .
الْأَيْلَةُ : على شاطئ دجلة في زاوية الخليج التي يدخل إل مدينة البصرة ، وهي أقدم منها لأن البصرة مصرت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت الأيكة يومئذ مدينة .
الأَحْصَاء : مدينة بالبحرين مرفوقة ، أول من عمرها وجعلها عاصمة بحر : أبو طاهر الجنابي القرطبي ، ونعم أكثر من مكان هذا الاسم في طريق مكة وغيره .
أَفْرِعَات : بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان ، وتنسب إليه الخمر .
أَرْبُونة : قرية نحو ألف ميل في طرف البحر من أرض الأندلس ، وبينها وبين أَرْجَان : علامة الحجم يسوتها أَرْجَان ، مدينة كبيرة كثيرة أنوشروان لما استرجع الملك من أخيه جلماسب .
أَرْجَان : الخير ، كان أول من أنشأها قتياد بن قيروز والد أنوشروان لما استرجع الملك من أخيه جلماسب .
أَرْحَب : غلات باليمن سبي بقية كبيرة من هذان وإليه تنسب الإبل الأرحبية ، وقيل : على ساحل البحر ، بينها وبين ظفار نحو عشرة فراسخ .
أَسْتَرَابَاد : من أعمال طبرستان بين سادية وجرجان ، أخرجت كثيراً من أهل العلم في كل فن ، منهم أبو نعيم الإسترابادي أحد الأئمة في علوم الحديث .
أَشْغَرَايِين : بلدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان ، واسمها القديم مهرجان ، وينسب إليها الأسفراييني الحافظ الصحيح على كتابه سلم .

يحر فارس: الخليج العربي الآن .

يحر القازم: البحر الأحمر .

يحر الزنج: كانت الكلمة تنطق على المحيط الهندي في الجزء المواجة لشرق أفريقيا وجنوب شرقها .

يحر سطلس: بالسين المهملدة كلمة يونانية معناها البحر الذي منه خليج القسطنطينية ، ثم يمتد إلى الغرب والجنوب حتى يصل بحر الشام ، ويتصلها كثيرون بالشين المحمية .

يخششان: بلدة في أهل طارستان ، متاخمة لبلاد الترك ، بينها وبين بلخ ثلاث عشرة مرحلة وكان بها رباط بنته السيدة زبيدة زوج الرشيد ، وأم الأمن ، وبها كثير من الأحجار الكريمة والمعادن النادرة .

يهرغش: قرية قرب طليطلة بالأندلس .

يسطام: بلدة كبيرة على الطريق إلى فسايدور بعد دافنام ، ومنها الصوفى الزاهد ، أبو زيد البساطي ، ويقال إن من غراسها أن لم يرها عاشق قط ، وأن العاشق إذا دخلها وشرب من مائها زال المشقة . وتحكى عن مائها وهوائها طرائف صينية .

يظليوس: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة غربي قرطبة ، وينسب إليها خلق كثير من العلماء .

يلاق: بلدة في آخر حل الصيد ، وأول التوبة ، كاخده بينهما .

يكرم: أصل مدينة في جزيرة صقلية ، وقد تحدث ابن حوقل عنها كثيراً .

يكتشيبية: مدينة مشهورة بالأندلس ، برية بحرية ، ذات أشجار وأنهار ، وتعرف بمدينة الراب ، ويسمى أهلها « حرب الأندلس » ، وود ذكرها كثيراً في الشعر الأندلسي ومنه قول أبي النجاس الزقاق :

كان بالشيبية كاهن ومليها الشمس الأخضر
إذا جنتها سرت وجهها بأكلها فهي لا تظهر

بلد بالأندلس من ناحية بلنسية ينسب إليها الشاعر يمت :

أبو عبد الله البني البلسي .

يوشنج: بليدة نزع خصيبة في واد مشجر من نواحي هرات ، ذكرها الداودي في شعره يخاطب إليها إسحاقاً لاسفرائين وحلت إليك من يوشنج أروجو بك المزم الذي لا يستقام

بلدة صغيرة بالقرب من ناحية هتين من سواحل تلمسان كان بها موله عبد المؤمن بن علي صاحب المغرب

من جبال البربر بالقرب قرب تلمسان وفاس منها أبو عبد الله القرطبي الأديب الشاعر .

مدينة قديمة مشهورة في برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام ، ويكرم قوم أنها ما بنته البين ، وفي هذا

يقول النابغة الذبيلي :

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فاحددا من الفت

وعبر البين أن قد أمرتكم يبتون تعمر بالصفا والسو

يهرم: يفتح الشام وكسرها مدينة مشهورة على نهر جيحون واشتهر من رجالها أبو عيسى الترمذي الصغير صاحب الصحيح ، وأحد الأئمة المحدثين بهم في علوم الحديث .

يهرم: أصل مدينة بخورستان ، وكانت غطلة حل شكل قسطنطينية ، كما خلطت جنة يمايور على شكل رقعة الشطرنج ، وبها قبر البراء بن مالك الأنصاري ، وينسب إليها سهل

ابن عبد الله بن يونس بن عيسى التستري شيخ الصوفية المعروف .

بلد تنسب إلى قبائل من السودان في أقصى جنوب المغرب .

يهرم: بلدة صغيرة في أطراف الشام يطل عليه « الأبلق الفرد »

يهرم: حسن السمويل بن عديله اليهودي وكان أهلها قد صالحوا النبي (ص) سنة تسع على الجزية ، فلما أجل عمر بن الخطاب

اليهود عن جزيرة العرب أجلاهم منهم .

وتسمى أيضاً « جبال القنس » والسين المهملدة وهي من جبال القنس .

جبال كرمات ما على البحر .

الصمان أرض غليظة دون الجبل فيها ارتفاع وقيمان جبال الصمان .

واسعة : وقيل : هو جبل القمان في أرض تيم ، وبينه وبين البصرة تسعة أيام .

جبرفت: مدينة بكرمان جليلة كبيرة بها نخل كثير وفواكه كثيرة إلا أنها شديدة الحر ويقول الاصطخري: إن

لأهلها سنة حسنة فهم لا يرضون من تورم ما أسقطه الريح ، بل هو للمصاليك ، وربما كثرت الرياح فيصير فيها إلى المصاليك أكثر ما صار إلى أربابها .

ها واحد ، وهو اسم كورة واسعة

جوزجان : جوزجانان : من كورد بلغ خراسان ، وهي بين مرو الروذ وبلخ ، وبها قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين رضي

الله عنه ، وينسب إليها جماعة كثيرة من العلماء . منهم أبو إسحاق السعدي الجوزجاني المذكور في تاريخ دمشق . (١١٩/٢) .

بلد من أعمال التبرهان الأسفل بين واسط وبغداد من جرجان .

الجانب الشرقي ، ومن ينسب إليها محمد بن الفضل البرجاني وزير المتوكل بعد ابن الزيات ، وقد ذكرها السعدي في

شعره إذا قال :

ألا يا حيداً يوماً جرجاناً ذبول اللهب فيه بجرجانيا

على طريق خراسان ، وبها كانت الوقعة المشهورة جلولاء :

للسلبيين على الفرس سنة ١٩ هـ ، وسيت جلولاء الوقعة ، لما أوقع بهم المسلمون من القتل ، وفيها يقول التقياع بن عمرو

ويوم جلولاء الوقعة أفتيت بنو فارس لما سوتها الكتاب

جندليسايبور : مدينة بخورستان بتناها يمايور بن أردشير قضيت إليه

وقد انتصها المسلمون سنة ١٩٩ هـ في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة التي تم فيها فتح ناهوند .

مدينة مشهورة بالأندلس ، وقبائلها من الجزيرة الخضراء :

البر في أفريقيا سبت ، ولا يحيط بها البحر من جميع جهاتها ، وبهذا الاسم أيضاً جزيرة عظيمة بأرض

الزنج يحيط بها البحر من كل جانب .

مقدمة ابن خلدون

خيراً ، وينسب إليها قوم من أهل العلم منهم : عزاد بن موسى الخليل وابنه إسحاق وغيرهما .

قورن : من جبال البربر بالقرب من مدينة تيبال وبلدان وقرى .
دَحَلَك : اسم أصبى معروف ويقال له دحك أيضاً وهي جزيرة في بحر الصين ، وكانت المرسى بين بلاد الصين والهند وهي بلاد هضبة حارة ، حرجية ولها كان يتوألمة إذا سقط على أسف قفوه إليها .

ديار بكر : بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قنسط ، وسعداً - كما ذكر ياقوت - ما حارب من دجلة من بلاد الجبل المثل على نصيبين إلى دجلة ، ومنه حسن كيفا وآند ، وديار بكرين .

دومة الجندل : بضم الدال ، ويفتحها بمقيم وأكره ابن دويد ، وأحد من أغلاط الحثثين ووردت في حديث الواقدي بلفظ « دوما الجندل » وهي حل سمع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة المنورة وسُميت بذلك لأن حصبها من الجندل ، ويعرف حصبها باسم « عاود » وهو حسن الأكلين بن عبد الملك السكوني . الذي أسره خالد بن الوليد وفتح دومة الجندل سنة تسع من الهجرة ، فأطلقه الرسول وصاحبه وآتته ثم تقضى الصلح به وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

داهمزمز : من مدن خوزستان جميع التخل والجوز والأفرنج ، وتسمي العامة « داهمزمز » اختصاراً ، وقد ورد

ذكرها في شعر ورد بن الورد الجملي إذ قال :
لغيرها أصبحت في داهمزمز ألا كل كسبي هناك غريب
وأصله كل أرض إلى جنب واد متبسط عليها الماء
الرقعة : وجسمها رفاق ، وهي مدينة مشهورة على نهر الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام ، ويقال لها الرقة البيضاء ، وقد ورد ذكرها في شعر سبيل بن عدي ، ويحيى الله بن قيس الرقيات ، وفي وصفها يقول ديمية الرق :

حبلنا الرقة داراً وبلد بلد ساكنه من تود
ما وأينما بلدة تصدحها لا ولا أعبرنا عنها أحد

دم : قيل : دمر بكاء ، ودم بالكسر ما في البئر ، ودم : بالفتح اسم مواضع بفارس هي أماكن للأكراد على ما ذكره : ياقوت

الرها : وقد يقال : الرها مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام . سبت باسم التي استعملتها وهو الرها ابن سبت بن مالك . وقد ذكرها ابن خلدون فقال :

رهاوية مترج دونها ترجع من عود وصر حرة

روزان : بلدة قريبة من أبرقوية بأرض فارس ، وأيضاً قرية من قرى خوارزم .

الجزائر الخالدات ، أو : جزر السعادة : في كتبهم ، وهي حارة في أقصى المغرب في البحر المحيط وكان بها مقام طائفة من الحكماء بنوا عليها قواعد علم النجوم .

جزيرة شقر : قال ياقوت : في شرق الأندلس ، وهي أجزء بلاد الله وأكثرها روضة وشجر أوماء ، وكان ابن عائشة الأندلسي كثيراً ما يقم بها وفيها يقول :

فيها راكبا مستعمل المطر قاصداً ألا صبح بشقر رائحا ومغاديا

بلدة فوق الموصل بينها ثلاثة أيام أول من حرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي ، وينسب إليها طائفة من أئمة فقه الشافعية .

الجيوة : مدينة كانت على ثلاثة أيام من الكوفة حل موضع يقال له والتجيش وهي غير الحيرة : الهلة المشهورة بنيسابور والتي ينسب إليها كثير من الحثثين .

حران : مدينة عظيمة مشهورة كانت في القديم عاصمة ديار مصر وهي حل طريق الشام والروم ، وقد اختصها المسلمون على يد عياض بن ضم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وحران أيضاً قرية بقوطة دمشق ، وأخرى ببلد ، وثالثة ورواية بالبحرين . بالفلس وتخفيف الراء : سكة مشهورة بأصبهان ، وينسب إليها طائفة من العلماء .

الحيجر : حجير الكعبة وهو ما تركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام وحسرت على الموضوع ليعلم أنه من الكعبة فسمى حجيراً ، وكان ابن الزبير أدخله في الكعبة حين بنائها ، فلما هدم الحجاج بنده حرقه عما كان عليه في الجاهلية ، وفي الحجير قبر هاجر أم إسماعيل عليه السلام .

الحوزة : قال القاضي : كورة من كور مصر القبلية في آخر حدودها من جهة الحجاز على شاطئ البحر الأحمر ، وقيل : مرافق مصر إلى المدينة .

حازر : مكان بين نهر أدب والموصل ، ثم بين الزاب الأعلى والموصل ، وهو موضع كانت عنه واقعة بين حيد الله بن زياد ومالك بن الأشتر النخعي في أيام المختار ، ويوهما قتل ابن زياد وذلك سنة ٩٩ للهجرة .

خونجكان : قرية من قرى أصفهان منها أبو محمد بن أبي نصر بن إبراهيم التوماني .

خوزستان : مكان يتنامي تشر وجنيسابور من ناحية ، ويتنامي دجلة وأرض العراق من ناحية وأرضها أشبه بأرض العراق وعرها ، وخوزستان اسم لجميع بلاد « الخوز » وكلية « استان » فيها كراه السب في العربية ، وقد تحدث ياقوت الحموي كثيراً عن أهلها في منجبه .

الختل : كورة واسعة على نفوس الهند ، قال ياقوت : هي أهل من سنتان وأوسع حطة وأكبر حفاً وأكثر

صَمِيصَاط : مدينة حل شاطئ الفرات ، وينسب إليها السيماطي المعروف بالحشيش ، وقد ذكرها المتنبي فقال :

ودون صمياط المطاير وللأدلس وأودية سهولة وهواجل

شَاطِيطَة : مدينة في شرق الأندلس شرق قرطبة ، وينسب إليها طائفة كبيرة من العلماء .

شَوَيْش : مدينة كبيرة من أعمال ثلوثة بالأندلس وتسمى أيضاً شوش .

شَقُورَة : مدينة بالأندلس شمال مرسية تنسب إليها أبو الاسبغ عبد المزيّن حل الدافقي الشقوري الفقيه الحافظ .

شِيرَاز : بلدة عظيمة مشهورة كانت عاصمة فارس وقد أطلال في وصفها والحديث فيها ياقوت في مجمه .

الصُغْد : قال ياقوت : هي كورة صبية قصبها (عاصمتها) سمرقند ، وقد نسب إليها طائفة من أهل العلم .

صِفِين : موضع بقرق الرقة حل شاطئ الفرات من الجانب الغربي وكانت بها الرقعة المشهورة بين حل ودعي الله حه ومداوية سنة ٣٧ هـ .

طَرَاث : بلد قريب من أسبجيان من ثنور الترك ، وينسب إليه طائفة من المحدثين والعلماء .

طَلْبِيْرَة : مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة ، وقد حرها وجدها عبد الرحمن الناصر .

الْعُرُوش : دار العروش قرية ، أو ماء بالبادية كما نقل ياقوت من أبي حفصة .

غَافِقُ : حصن بالأندلس من أعمال فخص البلوط .

غَدَامَس : ذكر ياقوت أنها مدينة بالمغرب في جنوبه تبغ فيها الجلود الفدلسية .

قَنْطَرَة السَيْف : بالأندلس وينسب إليها ابن القنطري ، وذكره ابن بشكوال .

مَرُو الشَّاهِجَان : هي مرو العظمى أشهر مدن غراسان ، وعاصمتها القديمة ، ذكره الحاكم أبو عبد الله في تاريخ نيسابور ، والنسب إليها مروزي .

مَرُو الرُّوز : به ، والنسب إليها مروزي ، ومروزي ، وبها مات المهلب بن أبي صفرة .

مَكْرَان : وأكثر ما يجده في شعر العرب مشددة وهي التي يقول مكران : فيها عمرو بن معد يكرب .

قوم هم شريوا الجبابر إذ بنوا بالمشرقية من بني سلسان حتى استبج قرى السواد وفارس والسهل والأجيسال من مكران

هَوَاة : قال ياقوت : محنة عظيمة من أمهات مدن غراسان محنة عظيمة من أمهات مدن غراسان

هَوَاة : قال ياقوت : محنة بالعلماء ، ملوطة بأهل الفضل والراء .

الزَّاب : أنجز بالمرق يصل كل منها هذا الاسم وتكتب لك من حفرها قديماً وهو حل مذكور ياقوت : زاب ابن

لوكان ، ومنها الزاب الأول ، والزاب الأسفل ، وحل كل نهر منها قرى تسمى زابات . و يوم الزاب مشهور كان بين مروان

والملقب ، بالحساد آخر المومنين وبين بني الهباس وكان حل الزاب الأول ، بين للوصل ولابل .

زَعَاوَة : قبل جنس من السودان ، وقيل : بلد في جنوب أفريقيا بالمغرب ، ويقال إنه كانت لزعاوة ملكة عظيمة من

ملك السودان في جهة الشرق منها ملكة التوية .

سَابُور : مدينة تحمل اسم سابور الملك التي ابتاعها ، وبينها وبين شيراز حمة وحشرون فرسناً ، وكانت

المهلب بن أبي صفرة وقائع مع انوارج ذكرها الشراء ومنهم كتب الأتقري إذ قال :

نصافوا بكأس الموت يوماً وليلة سابور حتى كانت الشمس تطلع وبالحجرين أيضاً موضع يسمى سابور ، فتح حل يد البلاد

ابن الحضري .

سَالِم : مدينة بالأندلس تنصل بأعمال ياروشة ، وكان طارق ابن زياد لما افتتح الأندلس ألفها غراباً فسمرها .

سِجْلَمَاسَة : مدينة في جنوب المغرب ، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب ، وهي حه نهاية جبال درن .

سِجِسْتَان : أطلال ياقوت الحديث فيها في مجمه فليراج .

سَمَرْخَس : مدينة كبيرة من لواسي غراسان بين نيسابور ومرو ، وقد نسب إليها طائفة من الأئمة في الفقه والحديث ، والقرامات .

سَمَرْقَانِيَة : جزيرة في بحر المغرب كبيرة ، غزاها المسلمون وملكوها سنة ٩٢ هـ في صكر موسى بن نصير ،

ويقال : إنها مدينة بصقلية .

السُّوس : بلدة بخوزستان يقال إن بها قبر النبي دانيال ، وأنها كانت آخر ما فتح من الأموار حل عهد عمر .

سَمَرْقُوسَة : مدينة بجزيرة صقلية كان بها قديماً عرش ملك الروم ، ذكرها ابن قنطري فقال في شعره : في وصف

صقلية : وتكفلت سرقوسة بأماننا في مجلساً للشائقين أمين

صَرُوج : بلدة قريبة من حران من ديار مصر فتحها مسلماً وهيض بن غم سنة ٨١٧ حل عهد عمر رضي الله عنه .

وهي التي ذكرها الحريري حل لسان أبي زيد الروجي في مقاماته .

صَفَالَة : آخر مدينة تعرف بأرض الزنج ، وتعرف عند التجار قديماً بلهجها السغال .

بسم الله الرحمن الرحيم

فِي مَظَاهِرِهِ وَلَمَّا رَوَّعَهُمُ الشَّمْلُ الْقَنِيْتُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَيْهِمْ مَا اتَّصَلَ بِالإِسْلَامِ جَدُّهُ الْمَبْنُوتُ . وَانْقَطَعَ
بِالْكَفْرِ جَدُّهُ الْمَبْنُوتُ . وَسَلَّمْ كَبِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فَنَ التَّارِيخِ مِنَ الْفَنُونِ الَّتِي
تَتَدَاوَلُهَا الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ . وَتُعَدُّ إِلَيْهَا الرُّكَائِبُ
وَالرَّحَالُ . وَتَسْمُو إِلَى مَرْقَبَةِ السُّوقَةِ وَالْأَغْفَالِ .
وَتَتَنَاقَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ وَالْأَقْيَالُ . وَتَسَاوَى فِي
فَهْمِهِ الْمَلِكَةُ وَالْجَهْلُ . إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ
عَلَى إِتْبَاعِهِ عَنِ الْأَيَّامِ وَاللُّوْلُ وَالسُّوَالِيَةِ بَيْنَ
الْقُرُونِ الْأُولِ . تَتَمُ فِيهَا الْأَقْوَالُ . وَتُضَرَّبُ فِيهَا
الْأَمْثَالُ . وَتُطْرَفُ بِهَا الْأَنْدِيَةُ إِذَا غَضِبَهَا الْأَخْيَالُ .
وَتُودَى إِلَيْهَا شَأْنُ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقْلَبَتْ بِهَا
الْأَحْوَالُ وَاتَّسَعَ لِلدُّوْلِ فِيهَا النُّطَاقُ وَالسَّجَالُ .
وَعَمَرُوا الْأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمْ الْأَرْيَحَالُ وَحَانَ
بَيْنَهُمُ الزُّوَالُ . وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ . وَتَمْلِيلٌ
لِلْمَكَائِنَاتِ وَمَبَادِيهَا دَقِيقٌ يُوعَلِمُ بِكَيْفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ
وَأَسْبَابِهَا حَقِيقٌ . فَهُوَ لِلْمَلِكِ أَصِيلٌ فِي الْحِكْمَةِ
عَرِيقٌ . وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ .
وَأَنْ تُحَوَّلَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي الْإِسْلَامِ قَدِ اسْتَوْعَبُوا
أَخْبَارَ الْأَيَّامِ وَجَمَّعُواهَا . وَسَطَّرُوا فِي صَفَحَاتِ
التَّفَاقِيرِ وَأَوْدَعُواهَا . وَخَطَّطُوا الْمُتَطَقُّونَ بِدَسَائِسِ
مِنَ الْبَاطِلِ وَجَمَّعُوا فِيهَا أَوْبُنْتَغَرُهَا . وَزَخَرَفَتْ
مِنَ الرُّوَايَاتِ الْمُضَعَّفَةِ لَعُفُوهَا وَوَضَعُواهَا . وَاقْتَفَى

يَقُولُ التَّبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى رَحْمَتِهِ الْقَنِيُّ يُلْقِيهِ
حَيْثُ الرَّحْمَنُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ بَيْنَ خَلْقِهِ الْحَضَرِيُّ
وَقَفَّ اللَّهُ تَعَالَى .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْبِزَّةُ وَالْجَبْرُوتُ . وَبِيَدِهِ
الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ . وَكَلَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالنُّشُوتُ
الْعَالِمُ . فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مَا تُظْهِرُهُ النُّجُومُ أَوْ تُخْفِيهِ
السُّكُوتُ . الْقَادِرُ فَلَا يُغَيِّرُهُ شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَا يَمُوتُ . أَنْشَأْنَا مِنَ الْأَرْضِ نَسَبًا
وَاسْتَعْمَرْنَا فِيهَا أَجْيَالًا وَأَسْمَاءً . وَصَمَّرْنَا لَنَا مِنْهَا
أَرْزَاقًا وَقِسَمًا . مَنَكُفْنَا الْأَرْحَامَ وَالْبَيُوتَ وَبَيَّكُفْنَا
الرِّزْقَ وَالْقُوتَ وَبَيَّكُنَا الْأَيَّامَ وَالْوُقُوتَ وَبَيَّكُنَا
الْأَجَالَ الَّتِي عَطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا الْمَوْقُوتُ . وَكَلَّهُ الْبَقَاءُ
وَالثَّبُوتُ . وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ . وَالصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ
الْمَكْتُوبِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمُنْعُوتِ . الَّذِي
تَمَحَّضَ لِفَضَالِهِ الْكَوْنُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ الْأَحَادُ
وَالسُّبُوتُ . وَيَتَبَايَنَ زَحْلُ الْيَهُودِ (١) وَشَهِدَ بِصَدَقِهِ
الْحَمَامُ وَالْعَنْكَبُوتُ وَعَلَى آلِهِ وَأَسْحَابِهِ الَّذِينَ لَهُمْ فِي
مَحَبَّتِهِ وَأَتْبَاعِهِ الْأَثَرُ الْبَعِيدُ وَالصِّبْتُ . وَالتَّشْمُلُ الْجَمِيعُ

(١) فِي حَقْلِ الْأَصْلِ : الْيَهُودُ هُوَ التَّوْرَةُ أَيْ الْحَيَاتِ
وَهِيَ أَيْضًا لَوْنًا كَأَنَّ الزَّهْرَ وَدُوحَ الْبَيَانِ . وَمَعْلُومٌ
أَنْ يَكُنْ دُوحٌ زَحْلُ الْهَيَّ هُوَ فِي فَكِّ السَّامِ يُونَا يَهْدَى . وَقَالَ
الْقَهَّابُ الْخَلَّاسُ فِي حَاجَتِهِ حَلَّ الْبُضُولَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ قُورَنَ
الْيَهُودُ يَفْتَحُ الْمَنَازِلَ الْحَسَنَةَ وَسُكُونُ الْمَاءِ . وَمَا اسْتَحْرَمَ مِنْ أَنَّهُ بِالْهَلِ
لِلْوَحْدَةِ فَطَلَّ حَلَّ وَطَلَّ فِي دُوحِ الْبَيَانِ .

يَنْقُلُونَ أَوْ اخْتَارِهِمْ • فَلِلْمُتَرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ
تُرْجَعُ إِلَيْهَا الْأَخْبَارُ مَوْخَلٌ عَلَيْهَا الرِّوَايَاتُ وَالْأَنَارُ •
ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لِهَوْلَاءُ عَامَّةُ النَّاسِ
وَالْمَسَالِكُ • لِعُمُومِ الدَّلِيلَيْنِ صَدْرُ الْإِسْلَامِ فِي
الْآفَاقِ وَالْمَسَالِكِ • وَتَنَاقُلُهَا الْبَيْدُ مِنَ الْقَابَاتِ
فِي الْمَنَازِلِ وَالْمَتَارِكِ مَوْجِنٌ هَوْلَاءُ مَنْ اسْتَوْعَبَ مَا قَبِلَ
الْيَلَّةُ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ مَوَالِمُ الْعَمْرِ • كَالْمَسْعُودِ
وَمَنْ نَحَا مَنَحَاهُ • وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنْ
الْإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ مَوْقِفٌ فِي الْعُمُومِ وَالْإِحَاطَةِ
عَنِ الشَّأَوِ الْبَيْدِ • فَقَبِدَ شَوْلَادَ عَصْرِهِ •
وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أَفْقِهِ وَقَطْرِهِ • وَاقْتَصَرَ عَلَى
تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ • كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُورَخُ
الْأَنْدَلُسِ وَالِدَوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِهَا • وَابْنُ الرِّقْيِيِّ مُورَخُ
أَفْرِيقِيَّةِ وَالِدَوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ •
ثُمَّ لَمْ يَهْتِ بِمَنْ بَعْدَ هَوْلَاءُ إِلَّا مُقَلِّدُهُ وَبَلِيدُ الطَّنْعِ
وَالْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدُهُ • يَنْسِجُ عَلَى ذَلِكَ الْبِنَاقِ وَبِخَلْدِي
مِنْهُ بِالْيَمَالِ • وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَاطَهُ الْأَيَّامُ مِنْ
الْأَحْوَالِ وَاسْتَبَدَّتْ بِهِ مِنْ عَوَالِدِ الْأُمَمِ وَالْأَجْبَالِ •
فَيَجْلِيوْنَ الْأَخْبَارَ عَنِ الدُّوَلِ • وَجِيكَايَاتِ الْوَقَائِعِ
فِي الْمَصُورِ الْأَوَّلِ • صَوْرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا •
وَصِفَاحًا انْتَضَيْتْ مِنْ أَغْمَادِهَا • وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ
لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا • إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ
تُظَلَمْ أَسْوَلُهَا • وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرِ أَجْنَاسُهَا وَلَا
تَحَقَّقَتْ قُصُوفُهَا • يُكْرَرُونَ فِي مَوْضِعَاتِهِمْ
الْأَخْبَارَ الْمَدْدُولَةَ بِأَعْيَانِهَا • اتِّبَاعًا لِمَنْ عَنَى مِنْ
الْمُقَلِّدِينَ بِشَأْنِهَا • وَيُنْقَلُونَ أَمْرَ الْأَجْبَالِ النَّاشِئَةِ
فِي دِيَوَانِهَا • بِمَا أُخْرِجَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجُمَانِهَا •

يِلْكَ الْآثَارَ الْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعَثَهُمْ وَاتَّبَعُوا •
وَأَدَوْنَهَا إِلَيْنَا كَمَا سَمِعُوهَا • وَلَمْ يَلْحِظُوا أَسْبَابَ
الْوَقَائِعِ وَالْأَحْوَالِ وَلَمْ يَرَاعَوْهَا • وَلَا رَفَضُوا
تُرَاهَاتِ الْأَحَادِيثِ وَلَا دَقَقُوا • فَالْتَفَتِ قَلِيلٌ •
وَعَرَفُ التَّنْقِيحِ فِي الْقَالِبِ كَلِيلٌ • وَالْقَلْطُ
وَالْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ • وَالتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ
فِي الْأَدَبِيِّينَ وَسَلِيلٌ • وَالطُّفُلُ عَلَى الْفُنُونِ عَرِيسٌ
وَطَوِيلٌ • وَمَرَحَى الْجَهْلِ بَيْنَ الْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ •
وَالْحَقُّ لَا يَقَاوِمُ سُلْطَانَهُ • وَالْبَاطِلُ يُفْذَلُ بِشَهَابِهِ
النَّظَرِ شَيْطَانَهُ • وَالنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ بِمِثْلِ وَيُنْقَلُ •
وَالْبَصِيرَةُ تَنْقُذُ الصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلُ (١) • وَالْيَلْمُ
يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ الْقُلُوبِ وَيَصْفُلُ •

هَذَا وَقَدْ دَوَّنَ النَّاسُ فِي الْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا •
وَجَعَلُوا تَوَارِيخَ الْأُمَمِ وَالِدُّوَلِ فِي الْعَالَمِ وَسَطَرُوا •
وَاللَّيْنِ دَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهَرَةِ وَالْأَمَانَةِ الْمُعْتَبَرَةِ •
وَأَسْتَفَرَّحُوا دَوَائِرَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِ الْمُنْخَرَةِ •
هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَاثُونَ يَجَاوِزُونَ عِنْدَ الْأَنَامِلِ •
وَلَا حَرَكَاتِ الْعَوَالِمِ • مِثْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ وَالطَّبْرِيِّ
وَابْنِ الْكَلْبِيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الْوَائِلِيُّ، وَسَيِّدُ
ابْنِ عُمَرَ الْأَسَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيرِ الْمُتَمَيِّزِينَ
عَنِ الْجَمَاهِيرِ • وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ الْمَسْعُودِيِّ
وَالْوَائِلِيِّ مِنَ الْمَطْمَنِ وَالْمَقَرِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ
الْأَذْيَاتِ • وَشَهْرُورٌ بَيْنَ الْحَفَظَةِ وَالنَّفَاتِ •
إِلَّا أَنَّ الْكَافَّةَ اخْتَصَمَتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ •
وَاقْتِفَاءَهُ سُنَنِيهِمْ فِي التَّصْنِيفِ وَاتِّبَاعِ آثَارِهِمْ •
وَالنَّاقِذُ الْبَصِيرُ يَمْسُكُ نَفْسَهُ فِي تَرْجِيمِهِمْ يَمَّا

فَنَسْتَعِينُهُمْ صُحَّتُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا . ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا
لِذِكْرِ الدَّوَلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا . مُحَافِظِينَ
عَلَى نَفْلِهَا وَهَذَا أَوْ صِدْقًا . لَا يَتَعَرَّضُونَ لِيَدْلِيلِهَا .
وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي رَفَعَ مِنْ رَأْيِهَا . وَأَظْهَرَ
مِنْ آيَتِهَا . وَلَا عِلَّةَ الْقُوفِ حَيْثُ غَايَتِهَا . فَيَتَّبِعِي
النَّاظِرُ مُتَطَلِّمًا يَبْدُو إِلَى اقْتِنَادِ أحوَالِ مَبَادِيهِ الدَّوَلِ
وَمَرَاتِبِهَا . مُتَقَنًّا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاجِجِهَا أَوْ تَمَاقِجِهَا .
بَاجِنًا عَنْ الْمُفْجِرِ فِي تَبَايُهَا أَوْ تَنَاسُجِهَا . حَسْبَمَا
تَذَكَّرَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ .

ثُمَّ جَاءَ اتَّخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الْإِخْصَارِ . وَذَهَبُوا إِلَى
الِاخْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْصَارِ . مَقْطُوعَةً عَنْ
الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ . مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَهْدَادُ أَيَّامِهِمْ
يَحْرُوفُ الْقَبَارِ . كَمَا قَعَلَهُ ابْنُ وَدَيِّقٍ فِي يَزِيدِ
الْعَمَلِ . وَمَنْ أَتَقَنَّى هَذَا الْأَثَرُ مِنَ الْهَلِكِ . وَلَيْسَ
يُحْتَسِبُ لَهُوْلَاهُ مَقَالٌ . وَلَا يَعْدُ لَهُمْ قُبُورٌ وَلَا انْتِقَالٌ .
لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ الْقَوَائِدِ . وَأَخْلَوْا بِالْمَذَاهِبِ

الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْقَوَائِدِ .

وَلَمَّا طَالَعْتُ كُتُبَ الْقَوْمِ . وَسَمِعْتُ حُورَ
الْأُمَمِ وَالْيَوْمِ . تَبَهَّتْ عَيْنَ الْفَرِيحَةِ مِنْ سِنَةِ
الْقَفْلَةِ وَالنُّومِ . وَسَمْتُ التَّضْيِيفَ مِنْ نَفْعِي وَأَنَا
الْمُفْلِسُ أَحْسِنُ السُّومِ . فَانْتَشَأْتُ فِي التَّارِيخِ
كِتَابًا . وَفَعْتُ بِهِ عَنْ أحوَالِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ
حِجَابًا . وَفَعَلْتُ فِي الْأَخْبَارِ وَالْإِخْبَارِ بَابًا بَابًا .
وَأَبْنَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَةِ الدَّوَلِ وَالْعُمَرَاءِ عِلَلًا وَأَسْبَابًا .
وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبَارِ الْأُمَمِ الَّذِينَ عَمَرُوا الْمَغْرِبَ فِي
هَذِهِ الْأَعْصَارِ . وَمَلَأُوا أَكْتَافَ الصُّوَاخِي مِنْهُ
وَالْأَمْصَارِ . وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الدَّوَلِ الطَّوَالِ أَوْ

وَمَا بِمِثْلِهِ . وَرَبَّنْهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ :
الْمُقَدِّمَةُ : فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ
مَذَاهِبِهِ وَالْإِلْمَاعِ بِمَعَالِيقِ الْمُؤَرِّخِينَ .

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ : فِي الْعُمَرَاءِ وَذِكْرِ مَا يَعْزُصُ
فِيهِ مِنَ الْوَارِثِ الدَّائِيَةِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ .
وَالْكِتَابُ الثَّانِي : فِي الْأَنْسَابِ وَالْأَسْبَابِ .

الْكِتَابُ الثَّالثُ : فِي أَخْبَارِ الْمَغْرِبِ وَأَجْيَالِهِمْ
وَدَوْلِهِمْ مُنْذُ مَبْدَأِ الْخَلْقِ إِلَى هَذَا الْمَهْدِ . وَفِيهِ
الْإِلْمَاعُ بِبَعْضِ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَشَاهِيرِ
وَدَوْلِهِمْ . مِثْلُ النَّبِطِ وَالسَّرَّيَانِيِّينَ وَالْقُرَيْشِ وَبَنِي
إِسْرَائِيلَ وَالْقُرَيْشِ وَالْيُونَانِ وَالرُّومِ وَالْمَرْكُوبِ وَالْإِفْرَنْجِ .

الْكِتَابُ الرَّابِعُ : فِي أَخْبَارِ الْبُرْجِيِّ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ

وَأَصَاحَةٍ . وَأَحْوَالٌ مُتَقَلِّبَةٌ مُشَاحَةٌ . وَيَبْغُو وَحَسَرُ .
وَوَاقِعٌ وَمُنْتَظَرٌ . إِلَّا وَاسْتَوْعِبْتَ جُمْلَهُ . وَأَوْضَحْتُ
بِرَأْيَيْنِهِ وَعِلَّةً . فَجَاءَ هَذَا الْكِتَابُ قُلًّا بِمَا ضَمَّتْهُ
مِنَ الْعُلُومِ الْقَرِيبَةِ . وَالْحِكْمِ الْمَخْجُوبَةِ الْقَرِيبَةِ .
وَأَنَا مِنْ بَعْلِهَا مُوقِنٌ بِالْقُصُورِ بَيْنَ أَهْلِ الصُّورِ .
مُتَعَرِّفٌ بِالْمَعْجَزِ عَنِ الْمَضَاءِ فِي يَثَلِ هَذَا الْقَضَاءِ .
وَأَغْبِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْدِ الْبَيْضَاءِ . وَالْمَعَارِفِ الْمُنْشَعَةِ
الْقَضَاءِ . فِي النَّظَرِ يَتَمَيَّنُ الْإِنْتِقَادُ لَا يَتَمَيَّنُ
الْإِرْضَاءُ . وَالتَّعْمُّدُ لِمَا يَتَعَرَّوْنَ عَلَيْهِ بِالْإِصْلَاحِ
وَالْإِغْضَاءِ . فَالْبِضَاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَطْرِ مُرْجَاةٌ .
وَالْإِغْتِرَافُ - مِنْ الْقَوْمِ - مُنْجَاةٌ . وَالْحُسْنَى مِنْ
الْإِخْوَانِ مُرْجَاةٌ . وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا
خَالِصَةً لِرُؤُوسِهِ الْكَرِيمِ . وَهُوَ حَسْبِي وَيَعْنِي الْوَكِيلُ .
وَبَعْدُ أَنِ اسْتَوْفَيْتُ عِلَاجَهُ . وَأَثَرْتُ مُشْكَاتِهِ
لِلْمُسْتَشْفِرِينَ وَأَذْكَيْتُ بِرَاجِهِ . وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ
الْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمَنْهَاجَهُ . وَأَوَّسَعْتُ فِي فَصَاهِ
الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ وَأَثَرْتُ بِسَاجَهُ . أَنْصَحْتُ بِهِذِهِ
النُّسْخَةَ مِنْهُ (١) خِزَانَةَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْإِمَامِ

(١) قوله اختمت هذه النسخة مع فتح وجه في نسخة بخط
بعض فضلاء المعاربة زبادة قيل قوله وبهذه قوله وأوردت سياجه
ونصها زبادة استعمله الذي يلحق بين الاستيعار ونونه . وبلغت
بفكره الشريفة سياده الصحيح وقائمه . وبميز رفيعه في المعارف
عما دونه . فسرحت ذكرى في فضاء الوجود . وأبليت نظري ليل
انتماء الموجود . بين العالم والوجود . في القلمه الركن والسجود .
والخلق أهل الكرم والوجود حتى وقف الاختيار بساحة الكمال .
وظللت الأفكار بموقف الآمال . وفطرت أبهى المسامح والاحبال
بمستوى المعارف مشرقه فيه غرور الجبال وحداث الموم الرواة الطلال ،
عن الجبين والقيال . فأختمت على الأفكار في عرصاتها . وجلوت
محاسن الانتظار على مصانها . واختمت بجيوها مفاصلها لولائها .
ولطحت كوكبا وقادا في ألق خزانها وصوانها . ليكون آية
للعلماء بجمعون بشاره . ويعرفون فضل الماركة الإنسانية في آثاره .
وهي خزانة مولانا السلطان الإمام المجدد . الفاتح الماهد . إل آخر =

وَنَاقَةٍ . وَذَخَرُ أَوْلِيَّتِهِمْ وَأَجْبَالِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ يَلْبِغَارِ
الْمَرْبِ حَاصَّةً مِنَ الْمُلْكِ وَالْمُلُوكِ .
قَدْ كَانَتْ الرِّخْلَةُ إِلَى الْمَشْرِقِ لِإِجْلَاهِ أَنْوَارِهِ .
وَقَضَاءُ الْقَرْنِ وَالسُّنَّةِ فِي مَقَالِهِ وَمَزَارِهِ . وَالْوَقُوفُ عَلَى
آثَارِهِ فِي دَوَابِّهِ وَأَشْفَارِهِ . فَلَقَدْ تَمَاقَصَ مِنْ أَخْبَارِ
مُلُوكِ الْعَمْرِ بِجَلِّ النَّبَارِ . وَدَوَّلِ الثَّرَكِ فِيمَا
مَلَكَهُ مِنَ الْأَقْطَارِ . وَأَنْبَغَتْ بِهَا مَا كَتَبَتْهُ فِي
يَلِّكَ الْأَسْطَارِ . وَأَدْرَجْتُهَا فِي ذِكْرِ الْمُعَاصِرِينَ
لِيَلِّكَ الْأَجْبَالِ مِنْ أَمْرِ النَّوَاسِي . وَمُلُوكِ الْأُمُصَارِ
وَالْفُصَاحِي . سَالِكًا سَبِيلَ الْإِخْتِصَارِ وَالْتَلْخِصِ .
مُفْتِدِيًا بِالْمَرَامِ السَّهْلِ مِنَ الْعَرِيسِ . فَخِيلًا مِنْ
بَابِ الْأَسْبَابِ عَلَى الْمُعُومِ . إِلَى الْإِغْيَارِ عَلَى
الْخُصُوصِ . فَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ الْعَلِيَّةِ اشْتِغَابًا .
وَذَلَّلَ مِنَ الْحِكْمِ النَّافِرَةَ صَبَابًا . وَأَعْطَى لِحَادِثِ
الدُّوَلِ حِلًّا وَأَسْبَابًا . فَاصْبَحَ لِلْحِكْمَةِ صَوَانًا .
وَكَلَّاتُ رِخِّ جَرَابًا .

وَلَمَّا كَانَ مُشْتَبِلًا عَلَى أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ .
مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ وَالْوَيْرِ . وَالْإِلْمَاعِ بِحَنِّ عَاصِرَهُمْ مِنْ
الدُّوَلِ الْكَبِيرِ . وَأَفْصَحَ بِالذِّكْرِ وَالْبَرِّ . فِي مُبْتَلَا
الْأَحْوَالِ وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْخَبَرِ . سَمِعْتُهُ وَكِتَابَ الْبَرِّ .
وَيَبْوَكَ الْمُبْتَلَا وَالْخَبَرِ . فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْمَعْجَرِ
وَالْبَرْبَرِ . وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ .
وَلَمْ أَتْرُكْ شَيْئًا فِي أَوْلِيَةِ الْأَجْبَالِ وَالْدُّوَلِ .
وَتَمَاصِرِ الْأُمَمِ الْأُولَى . وَأَسْبَابِ التَّصَرُّفِ
وَالْحَوْلِ . فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْبُلْدِ . وَمَا يَعْزُضُ
فِي الْمَعْرَانِ مِنْ دَوْلَةٍ وَمِلَّةٍ . وَمَلِيَّةٍ وَجِلَّةٍ . وَجَزَةٍ
وَذَلَّةٍ . وَكَثْرَةٍ وَكَلَّةٍ . وَعِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ . وَكَسْبٍ

السُّلْطَانِ الْمُتَكَمِّلِ الشَّهِيدِ الشَّهِيدِ أَبِي سَالِمٍ إِبْرَاهِيمَ
ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُتَكَمِّلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .
أَبِي الْحَسَنِ ابْنِ السَّادَةِ الْأَعْلَامِ بْنِ مُلُوكِ بَنِي
مُرَيْنَ . الَّذِينَ جَدُّوهُمُ الدِّينَ . وَتَهَجُّوا السَّبِيلَ
لِلْمُهْتَلِينَ . وَمَحَا آثَارَ الْبَغَاةِ الْمُفْسِدِينَ . أَنَا
اللَّهُ عَلَى الْأُمَّةِ ظِلَالُهُ . وَبَكَتْهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ
الْإِسْلَامِ آمَنَاهُ . وَبَعَثَتْهُ إِلَى هِزَانَتِهِمُ التَّوْفِيقَ لِبَلَدِهِ
الْعِلْمِ بِجَمَاعِ الْقُرُوبِينَ مِنْ مَلِكِيَّةِ قَانَسَ حَاسِرَةِ
مُلْكِهِمْ وَكَرْبَى سُلْطَانِهِمْ . حَيْثُ مَقَرَّ الْهَدَى .
وَرِيَاضِ الْمَعَارِفِ خِصْلَةُ النَّدَى . وَقَفَاءِ الْأَسْرَارِ
الرُّبَانِيَّةِ فَيْسَحُ الْمَدَى . وَالْإِمَامَةِ الْكَرِيمَةِ الْقَارِصَةِ (١)
الْعَزِيزَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِنَظَرِهَا الشَّرِيفِ . وَكُفْلِهَا
الْقَنَى عَنِ التَّعْرِيفِ . تَبَسُّطُ لَهُ مِنَ الْإِنْيَابِ مَهَادَا .
وَتَفَسُّحُ لَهُ فِي جَانِبِ الْقُبُولِ آمَنَادَا . فَتَوْضِيعُ بِهَا
أَدْلَةُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَأَشْهَادَا . قَبِي سَوْرُهَا تَنْفَقُ
بِفَضَائِلِ الْكُتَابِ وَعَلَى حَضَرِهَا تَعَكُّفُ رِكَابِ
الْعُلُومِ وَالْآدَابِ . وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا الشَّيْرِ
نَتَائِجُ الْقَرَالِيعِ وَالْأَلْبَابِ . وَاللَّهُ يُوَزِّعُنَا
شُكْرَ نِعْمَتِهَا . وَيُوَفِّرُنَا حُظُوظَ مَوَاقِبِ بَيْنَ
رَحْمَتِهَا وَيُؤَيِّدُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا . وَيَجْعَلُنَا
مِنْ السَّابِقِينَ فِي مِيزَانِهَا الْمُحِطِّينَ فِي حَقَائِقِهَا .
وَيُضْفِي عَلَى أَهْلِ إِيَّانِهَا . وَمَا أَرَى مِنَ الْإِسْلَامِ
إِلَى حَرَمِ عِمَالَتِهَا . لُبُوسَ جَمَالَتِهَا وَحُرْمَتِهَا .
وَهُوَ سُبْحَانَهُ السَّنُورُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً
فِي وَجْهِهَا . بِرِيشَةٍ مِنْ شَوَالِبِ الْفَلَاحِ وَغَبِيَّتِهَا
وَهُوَ حَسْبُنَا وَيَعْمُ الْوَكِيلُ .

(١) القارصة هي النسوة إلى أي فارس العظيم ذكره

الْمُجَاهِدِ . الْقَاتِعِ التَّاهِدِ . الْمُتَحَلِّ مُنْذُ غَلَرِ
النَّعَامِ . وَكَرْبَتِ الْعَمَامِ . بِحُلِيِّ الْقَانِتِ الزَّاهِدِ .
الْمُتَوَشِّحِ بِزَكَاتِ السَّنَابِ وَالْمَحَادِ . وَكَرَمِ
الشَّمَائِلِ وَالشَّوَاهِدِ . بِأَجْمَلِ مِنَ الْقَلَادِ . فِي
نُحُورِ الْوَلَادِ . الْمُتَنَاوِلِ بِالْعَزَمِ الْقَوَى السَّاعِدِ .
وَالْجِدِّ الْمَوَاتِي الْمُسَاعِدِ . وَالْمَجْدِ الطَّارِفِ وَالشَّالِدِ .
فَوَائِدِ مُلْكِهِمُ الرَّأْيِ الْقَوَاعِدِ . الْكَرِيمِ الْمُعَالِ
وَالْمُسَاعِدِ . جَامِعِ أَشْجَاتِ الْعُلُومِ وَالْقَوَائِدِ .
وَنَاطِقِ شَمْلِ الْمَعَارِفِ الشَّوَارِدِ . وَمُظْهِرِ الْآيَاتِ
الرُّبَانِيَّةِ . فِي فَضْلِ الْمَدَارِكِ الْإِنْسَانِيَّةِ . بِفِكْرِهِ
الْقَائِمِ النَّاقِدِ . وَزَايِدِ الصَّحِيحِ الْمَعَادِ النَّبَرِ الْمُنَادِ
وَالْمَعَادِ . نُورِ اللَّهِ الْوَاضِحِ الرَّائِدِ . وَيَعْنِيهِ
الْمُتَبَّهِ الْمَوَارِدِ . وَلُطْفِهِ الْكَامِنِ بِالْمَرَامِدِ لِلشَّدَائِدِ .
وَوَحْيِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَالِدِ . الَّتِي وَسَعَتْ صَلَاحَ
الْزَّمَانِ الْقَائِدِ . وَاسْتِقَامَةَ الْمَالِدِ مِنَ الْأَحْوَالِ
وَالْمَوَارِدِ . وَدَمَبَتْ بِالْخُطُوبِ الْأَوَالِدِ . وَخَلَعَتْ
عَلَى الزَّمَانِ رَوْنَقَ الشَّيَابِ الْمَائِدِ . وَحَجَّجَتْهُ إِلَى
لَا يَبْطُلُهَا إِنْكَارُ الْمَجَادِ وَلَا تُبْهَتُ الْمَعَادِ .
(أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) أَبِي غَالِسِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ مَوْلَانَا

== التمرات المذكورة هنا ثم قال : الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على وجه
العالمين أبو العباس أحمد ابن مولاتنا الأمير الطاهر المتقسط أبي عبد الله
أحمد ابن مولاتنا الخليفة المتقسط أمير المؤمنين ، أبي يحيى أبي بكر ابن
الخلفاء الراشدين . من أئمة الموحدين الذين جددوا الدين . ونهضوا
السبل المهتلين . وعمر آثار الحياة للمسلمين من الحسنة والمصلتين .
ملاحة إلى حصن الفايوق . والنية النامية على تلك المناسخ الزاكية
والبروق . والفرور الخلال من تلك الأكمة والبروق . فأوردته من
موضعها إلى البل بحيث مقر الهدى . ورياض المعارف خصلة القنى
إلى آخر ما ذكر هنا إلا أنه لم يقيد الإملاء بالقارصة لكن النسبة
المذكورة مختصرة من هذه النسبة المنقولة من خزائن الكتب الفارسية
ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة إلى الشرق الخ .

المقدمة .

في فضل علم التاريخ وتحقيق ملاحبه والإلاع لما يعرض للمؤرخين من المخاطر وذكر شيء من أسبابها

وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل
بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد
أن أجاز من يطبق حمل السلاح، خاصة من ابنو
عشرين عاماً فوقها، فكانوا اثني مائة ألف وأربع مائة رجل
في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما ليحمل هذا
العدو من الجيوش. لكل مملكة من الممالك حصّة من
العامة تنسج لها وتقوم بوظائفها وتضيق صفاتها،
تشهد بذلك العوائد المعروفة، والأحوال المألوفة

ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل
هذا العدد، ينبغي أن يقع بينها زحف أو قتال،
ليضيّق ساحة الأرض عنها، ويغلبها إذا اضطفت عن
مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً، فكيف يقتتل
هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفتين؟
من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد
لذلك فالناسي أشبه بالآتي من الماء بالماء .

ولقد كان ملك الفرس - وقد لئنهم أعظم، من ملك
بني إسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب
يختصر لهم والتهام بلادهم واشتدادهم على أمرهم
وتحريض بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم، وهو
من بعض عمال مملكة فارس، يقال إنه كان
مرزبان المغرب من تخومها، وكانت ممالكهم
بالبراقين وخراسان وما وراء النهر، والأبواب
أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير. ومع ذلك

لا علم أن فن التاريخ فن عزيز المتعب، جم
القوائد، غريب القايّة، إذ هو يوقفنا على أحوال
الماضي من الأمم في أخلاقهم . والأنبياء في
سيرهم . والملوك في دولهم وسياساتهم . حتى
تقيم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال
الدنيا والدنيا، فهو محتاج إلى ماخذ متعددة،
ومتعارف متنوعة، وحسن نظري وثبتت يفضيان
بصاحبها إلى الحق، وينكبان به عن المرات والمغالط
لأن الأخبار إذا اعتيد فيها على مجرد النقل، ولم
تحكم أصول المادة، وقواعد السياسة، وطبيعة
الأمم والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس
القايّة بينها بالشاهد، والخاص بالذاهب، فربما
لم يؤمن فيها من العنبر وتزلة القدم، والعيد
عن جادة الصديق. وكثيراً ما وقع للمؤرخين
والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات
والوقائع . لا عيادهم فيها على مجرد النقل غنا
أوسينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها
بأشباهها، ولا سبورها بغير الحجة والوقوف
على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة
في الأخبار، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيته الزمهر
والظلم، ولا سيما في إحصاء الأعداء من الأموال
والتساجر إذا حرصت في الحكايات، إذ هي مظنة
الكذب ومطية الهدى ولا بد من رجوع إلى الأصول
وتعرضها على القواعد، وهذا كما نقل المبتدئ

لَمْ يَنْجُ جَبُوشُ الْقُرْنِسُ قَطُّ مِثْلَ هَذَا الْمَدَدِ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ ، وَأَعْظَمُ مَا كَانَتْ جُمُوعُهُمْ بِالْقَادِسِيَّةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا ، كُلُّهُمْ مَتَّبِعُونَ عَلَى مَا نَقَلَهُ سَيِّفٌ قَالَ : وَكَانُوا فِي أَتْبَاعِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ يَأْتِي أَلْفٌ . وَهَنَ عَالِيَتُهُ وَالزُّهْرِيُّ أَنَّ جُمُوعَ رُسُومِ النَّاسِ زَحَفَ بِهِمْ لَسَدَ بِالْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ أَلْفًا ، كُلُّهُمْ مَتَّبِعُونَ . وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِثْلَ هَذَا الْمَدَدِ لَأَتَمَّعَ نِصَافُ مُلْكِهِمْ ، وَانْفَسَحَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ ، فَإِنَّ الْعَمَالَاتِ وَالْمَمَالِكِ فِي الدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاجَةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا ، فِي قَلَّتِهَا وَكَثُرَتْهَا حَسَبًا نَبِيْنُ فِي فَضْلِ الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، وَالْقَوْمُ لَمْ تَنْسَحْ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْأُذُنِ وَفَلَسْطِينَ مِنَ الشَّامِ وَيَلَادٍ يَتَرَبَّ وَخَبِيرَ مِنَ الْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ . وَأَيْضًا فَإِلَى بَيْنَ مُوسَى وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُتَّفِقُونَ فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ يَصْغَرِ بْنِ قَاهَتَ يَفْتَحُ الْهَاهُ وَكَسَرَهَا ابْنُ لَادِي يَكْشِرُ الرِّوَا وَيَنْسَحُهَا ، ابْنُ يَنْفُوبَ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ اللَّهُ هَكَذَا نَسَبُهُ فِي التَّوْرَةِ ، وَالْمَدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا نَقَلَهُ الْمُصَنِّعُ قَالَ : دَخَلَ إِسْرَائِيلُ يَصْرَ مَعَ وَلِيِّهِ الْأَسْبَاطِ وَالْوِلَادِهِمْ حِينَ أَتَوْا إِلَى يَوْسُفَ سَبِينَ نَفْسًا مَوْكَنَ مَقَامَهُمْ بِحَصْرٍ إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى التِّيْمَانِ مِائَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً تَقْدَاوَلَهُمْ مُلُوكُ الرِّيَاطِ مِنَ الْفَرَاجَةِ وَيَبْتَدَأُ أَنْ يَتَشَعَّبَ النُّسْلُ فِي أَرْبَعَةِ أَجْيَالٍ إِلَى يَنْدُلِ هَذَا الْمَدَدِ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تِلْكَ الْجَبُوشِ إِنَّمَا كَانَ فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمَنْ يَتَدَبَّرُ قَبِيْعَهُ أَيْضًا إِذَا لَيْسَ بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَإِسْرَائِيلَ إِلَّا أَحَدُ عَشَرَ أَبًا فَإِنَّ سُلَيْمَانَ

ابْنُ دَاوُدَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ عُزْرِيْلَ وَيُقَالُ ابْنُ عُزْرِيْلَ بْنِ يَازَرَ وَيُقَالُ يُوَزَّرُ بْنُ سَلْمُونَ بْنِ نَحْشُونَ بْنِ عَمِيْنُوْدَ وَيُقَالُ حَمِيْنَادَابُ بْنُ دَمَّ بْنِ حَضْرُونَ وَيُقَالُ حَضْرُونَ بْنُ بَارَسَ وَيُقَالُ بَيْرَسَ بْنُ يَهُوَنَّا ابْنُ يَنْفُوبَ وَلَا يَتَشَعَّبُ النُّسْلُ فِي أَحَدٍ عَشَرَ مِنَ الْوُلْدِ إِلَى يَنْدُلِ هَذَا الْمَدَدِ الَّذِي زَعَمُوهُ اللَّهُ إِلَى التِّيْمَانِ وَالْأَلْفِ فَرُبَّمَا يَكُونُ ، وَأَمَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ إِلَى مَا يَتَدَبَّرُهَا مِنْ عُقُودِ الْأَعْيَادِ قَبِيْعَهُ ، وَاقْتِصِرَ ذَلِكَ فِي الْحَاضِرِ الْمَشَاهِدِ وَالْقَرِيبِ الْمَعْرُوفِ نَجِدَ زَعَمَهُمْ بَاطِلًا ، وَتَقْلِبُهُمْ كَانِيَا (وَالَّذِي ثَبَتَ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ) أَنَّ جُنُودَ سُلَيْمَانَ كَانَتْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا خَاصَّةً ، وَأَنَّ مُقَرَّبَاتِهِ كَانَتْ أَلْفًا وَأَرْبَعِيْنَ فَرَسٍ مُرْتَبِطَةٍ عَلَى أَبْوَابِهِ ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ ، وَلَا يُلْفِظُ إِلَى خَرَافَاتِ الْكَاذِبِ يَنْهَمُ وَفِي الْيَوْمِ سُلَيْمَانَ (عليه السلام) وَمَلِكِهِ ، كَانَ خُفُونًا دَوْلَتِهِمْ وَأَسْمَاعُ مُلْكِهِمْ ، هَذَا وَقَدْ نَجِدُ الْكَافَّةَ مِنْ أَهْلِ النَّصْرِ إِذَا أَقَاضُوا إِلَى الْحَلِيقِ عَنْ عَسَاكِرِ الدُّوَلِ النَّبِيَّ لِيَعْلَمَهُمْ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ وَتَقَاضُوا فِي الْأَخْبَارِ عَنْ جَبُوشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ النَّصَارَى أَوْ أَخَذُوا فِي إِخْصَاءِ أَمْوَالِ الْجَبَلِيَّاتِ وَخَرَاجِ السُّلْطَانِ وَنَفَقَاتِ الْمُتَرَفِينَ ، وَيَتَضَلَّعُ الْأَغْنِيَاءُ الْمُؤَسِّرِينَ تَوَلَّوْا فِي الْمَدَدِ وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ التَّوَارِيدِ ، وَلَطَوَعُوا وَسَلَّوَسَ الْإِعْرَابَ ، فَإِذَا اشْتَكَيْتُ أَصْحَابُ الدُّوَلِ ابْنِ عَسَاكِرِهِمْ وَاسْتَنْبَطَتْ أَمْوَالُ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فِي بَقَاعِهِمْ وَفَوَاقِهِمْ وَاسْتَعْلَيْتُ عَوَالِدَ الْمُتَرَفِينَ فِي نَفَقَاتِهِمْ ، لَمْ تَجِدْ مِثْلًا مَا يَحْدُثُونَهُ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِيُؤَكِّدَ

أبو كرب وكان على عهد يستألف من ملوك
الفرس الكيانية : أنه ملك الموصل وأذربيجان
وكفى الترك هزيمتهم وأنحن ، ثم هزاهم ثانية
وثالثة كذلك ، وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بني
بلاد فارس وإلى بلاد السند من بلادهم الترك وراه
النهر ، وإلى بلاد الروم ، فملك الأول البلاد إلى
سمرقند ، وقطع المعازة إلى الصين ، فوجد أخاه
الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها ،
فلحقا في بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنائم
وتركوا بلاد الصين قبائل من جسر فهم بها
إلى هذا العهد ، وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فمرسها
ودوخ بلاد الروم ورجع ، وهدية الأخبار كلها
بعيدة عن الصحة عريضة في الروم ، والظلم وأشباه
يلحاديث القصص الموضوع .

وذلك أن ملك التباية إنما كان بجزيرة العرب
وقرارهم وكرسيهم يصنعاه اليمن . وجزيرة العرب
يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر الهند من
الجنوب ، وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من
المشرق ، وبحر السويس الهابط منه إلى السويس من
أعمال مصر من جهة المغرب ، كما تراه في مظهر
الجغرافيا ، فلا يجد السالكون من اليمن إلى
المغرب طريقا من غير السويس ، والمسلك هناك
ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر ممرتين
فما دونهما ، ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك
عظيم في عساكر موفورة من غير أن نصير من
أعماله وهذا ممتنع في العادة . وكذا كان يملك
الأعمال الصالحة وكنعان بالشام والقيط ومصر ،

النفس بالترائب وشهولة التجاوز على اللسان ،
والغلبة على الشعب والمتفدي حتى لا يحاسب
نفسه على خطأ ولا عند ، ولا يبالها في الخير
يتمسك ولا عقالة ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش
فيرويل حناته ، ويسم في مراتب الكذب لسانه ،
ويتخذ آيات الله هزوا ، ويشترى لهو الحديث
لئيل عن سبيل الله وحسبك بها ضيقة خائفة .

ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه
كافة في أخبار التباية ، ملوك اليمن وجزيرة
العرب ، أنهم كانوا يزورون من قرأهم باليمن إلى
أفريقية والبربر من بلاد المغرب ، وأن أفريقش بن
قيس بن صبيح من أعظم ملوكهم الأول - وكان
ليعهد موسى عليه السلام أول قبله بقليل - غزا أفريقية
وأنحن في البربر ، وأنه الذي ساءهم بهذا الاسم
حين سمع رطانتهم ، وقال ما عليه البربر فلحق هذا
الاسم عنه ودعوا به من حينئذ وأنه لما انصرف
من المغرب حذر هنالك قبائل من حمير فلقموا
بها واخططوا بأهلها ، ومنهم صنهجة وكنانة ، ومن
هذا ذهب الطبري والجزائري والسعودي وابن
الكلبي والبيهي ، إلى أن صنهجة وكنانة من
حمير وتاباه نسابه البربر وهو الصحيح . (وذكر
السعودي أيضا) أن ذا الإذعار من ملوكهم قبل
أفريقش - وكان على عهد سليمان (عليه السلام) -
غزا المغرب ودوخه وكذلك ذكر مثله عن يايو
ابن من بنعيه ، وأنه بلغ وادي الرمل في بلاد
المغرب ، ولم يجد فيه مسلكا لكثر الرمل
فرجع ، وكذلك يقولون في تبع الآخير ، وهو أشد

ثُمَّ مَلَكَ التَّمَلِيقُ بَصْرَ ، وَتَمَكَّ بِشَوِ إِسْرَائِيلَ
الشَّامَ ، وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَابِيحَ حَارَبُوا أَحَدًا
مِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ ، وَلَا تَمَكَّوْا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ ،
وَأَيْضًا فَالْشَّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ
وَالْأَزُودَةُ وَالطُّلُوفَةُ لِلْمَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ ، فَادَّارُوا
فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ احْتِاجُوا إِلَى انْتِهَابِ الزُّرْعِ وَالنَّعْمِ
وَانْتِهَابِ الْبِلَادِ فِيمَا يَمْشُونَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَخْشَى ذَلِكَ
لِلْأَزُودَةِ وَالطُّلُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ نَقَلُوا كَيْفَ بَتُّهُمْ مِنْ
ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا نَفْضَ لَهُمُ الرُّوَا حُلَّ بِنَقْلِهِ ،
فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَمْشُوا فِي طَرِيقِهِمْ كُلُّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ
مَلَكَوْهَا وَدَوَّعُوهَا لِتَكُونَ الْمِيرَةُ بَيْنَهَا ، وَإِنْ قُلْنَا
إِنْ تِلْكَ الْمَسَاكِرُ تَمْشُ بِهَؤُلَاءِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يُجِيعَهُمْ فَتَحْضُلَ لَهُمُ الْبَيْرَةُ بِالسَّلَامَةِ ، فَلِلْكَ
أَبْعَدُ وَأَشَدُّ اثْنَانَا فَتَدَّ عَلَى أَنَّ عَلَيْهِ الْأَخْبَارَ وَاهِيَةً
أَوْ مُنْصَوِّعَةً .

(وَأَمَّا وَادِي الرُّمْلِ) الَّذِي يُعْجِزُ السَّالِكَ فَلَمْ
يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي الْمَغْرِبِ عَلَى كَثَرَةِ سَالِكِيهِ وَمَنْ يَفْضُ
طَرَفَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَأَهْلِ الْقَرْىِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَكُلِّ جِهَةٍ ،
وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْغَرَابَةِ تَتَوَقَّرُ الدَّوَابُّ عَلَى نَقْلِهِ .
وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَأَرْضَ التُّرْكِ ،
وَلَنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْسِ
إِلَّا أَنَّ الشَّقَّةَ هُنَا أَثْبَتُ ، وَأَمُّ فَارِسَ وَالرُّومِ
مُتَحَرِّضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ ، وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ
أَنَّ التَّبَابِيحَ مَلَكَوْا بِلَادَ فَارِسَ وَلَا بِلَادَ الرُّومِ
وَلَمَّا كَانُوا بِحَارِبِيُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ
الْبَرَّاوِ ، وَتَابَعَيْنِ الْبَحْرَيْنِ وَالْحِجْرَةَ وَالْجَزِيرَةَ بَيْنَ
بِحْطَةَ وَالْقُرَّاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَعْمَالِ وَقَدْ وَفَّ

ذَلِكَ بَيْنَ هَذِي الْإِذْعَارِ بَيْنَهُمْ وَبِكَيْكَائِمْ ، وَمِنْ مَلُوكِ
الْكَيْبَانِيَّةِ ، وَبَيْنَ تَبَعِ الْأَصْفَرِ ، أَلِ كَرْبَ وَتَبَعِيَّاتِ
مِنْهُمْ أَيْضًا ، وَتَبَعُ مَلُوكِ الطَّوَالِفِ بَعْدَ الْكَيْبَانِيَّةِ
وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمَجَاوِزَةِ أَرْضِ فَارِسَ
بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ وَهُوَ مُسْتَنْعٍ عَادَةً
مِنْ أَجْلِ الْأُمَمِ الْمُتَغَرِّبَةِ مِنْهُمْ ، وَالْحَاجَّةِ إِلَى
الْأَزُودَةِ وَالطُّلُوفَاتِ مَعَ بَعْدِ الشَّقَّةِ كَمَا مَرَّ ، فَلَا أَنْهَارَ
بِلَيْلِكَ وَاهِيَةً مَذْخُولَةً ، وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً
النَّقْلِ لَكَانَ ذَلِكَ قَارِحًا فِيهَا فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ
تُنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ ، وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي
خَبَرِ يَنْزِلِ الْأَوْسِ وَالْخَزَرِجِ ، أَنَّ تَبَعًا الْآخِرَ
سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ مَحْمُولًا عَلَى الْبَرَّاوِ وَبِلَادِ فَارِسَ
وَأَمَّا بِلَادُ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا
بِوَجْهِ ، لِمَا تَقَرَّرَ فَلَا تَقْضَى بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ
ذَلِكَ وَتَكْمُلُ الْأَخْبَارَ وَاعْرِضْهَا عَلَى الْقَوَائِيهِ
الصَّحِيحَةِ يَقَعُ لَكَ تَمْحِصُهَا بِأَحْسَنِ وَجْهِ وَاللَّهُ
الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ .

فصل

وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْرِقَ فِي الرُّوْمِ ، مَا يَتَنَاقَلُهُ
الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ ، فِي قَوْلِهِ تَكَلَّى
وَاللَّهُ تَرَكَّيْفَ تَكَلَّى رَبِّكَ عِمَادَ إِدَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ
فَيَجْتَلُونَ لَفْظَةَ إِدَمَ اسْمًا لِمَدِينَةٍ وَصِفَتْ بِأَنَّهَا
ذَاتُ عِمَادٍ أَيْ أَسَاطِينُ وَيَنْتَقِلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعِمَادِ بْنِ
عَوْنِ بْنِ إِدَمَ اثْنَانِ هُمَا شَدِيدٌ وَشَدَادٌ مَلَكَ مِنْ
بَعْدِهِ ، وَهَلْكَ شَدِيدٌ فَظَهَرَ الْمَلِكُ لِلشَّدَادِ وَكَانَتْ
لَهُ مَلُوكُهُمْ وَسَمِعَ وَصَفَ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ لِأَبْنَيْهِ
مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةً إِدَمَ فِي صَحَارَى حُلَّتْ فِي مَلِكَةٍ

الْإِعْرَابِ فِي قِصَّةِ ذَاتِ الْعِمَادِ ، أَنَّهَا صِفَةُ إِدَمَ وَحَمَلُوا
الْعِمَادَ عَلَى الْأَسَاطِينِ ، فَتَعَبَنَ أَنْ يَكُونَ بِنَاءٌ وَرُشِعَ
لَهُمْ ذَلِكَ قِرَاعَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ ، «عَادَ إِدَمَ» عَلَى الْإِضَافَةِ
مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ ، ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ الْحِكَايَاتِ
الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِالْأَقَاصِصِ الْمَوْضُوعَةِ وَالَّتِي هِيَ
أَقْرَبُ إِلَى الْكَلِيبِ ، الْمَنْقُولَةِ فِي عِدَادِ الْمُضْحِكَاتِ
وَلَا فَا لْعِمَادِ هِيَ عِمَادُ الْأَخْيَةِ بَلَى الْحَيَامِ ، وَإِنْ
أُرِيدَ بِهَا الْأَسَاطِينُ فَلَا يَذْغُ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ
أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينُ عَلَى الْمُعْجَمِ بِمَا اشْتَهَرَ مِنْ
قُوَّتِهِمْ لَا أَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا
وَأَنْ أَضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَعَلَّ الْإِضَافَةَ
الْفَصِيلَةَ إِلَى الْقَبِيلَةِ كَمَا نَقُولُ قُرَيْشُ كِنَانَةَ وَالْيَاسُ
مُضَرٌّ وَرَبِيعَةُ نِزَارٍ ، وَأَيُّ ضَرُورَةٍ إِلَى هَذَا الْمَحْضِلِ الْبَعِيدِ
الَّذِي تَحْمَلَتْ لِتَوْجِيهِهِ لَأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِيَةِ
الَّتِي يُنَزِّهُ كِتَابُ اللَّهِ عَنْ يَثْلُهَا لِبُعْدِهَا عَنِ الصَّحِيحَةِ .

وَمِنْ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ
مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ
لِلْبِرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسَةِ أُخْيَةِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ
يَحْيَى بْنِ هَالِدٍ مَوْلَاةً وَأَنَّهُ لِكَلْفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ
مُعَاقَرَتِهِ إِثَامَهَا الْخَمْرَ أَذِنَ لَهَا فِي عَقْدِ النِّكَاحِ
قُدُونُ الْعَطْوَةِ جِرْصًا عَلَى اجْتِمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ
وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحِلَّتْ عَلَيْهِ فِي التَّكَاثُرِ الْعَطْوَةُ
بِوَلِيمَا شَغَفَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَهَا (زَعَمُوا فِي
حَالَةِ السُّكْرِ) فَحَمَلَتْ وَوُضِعَ بِهَا لِلْمَلِكِ لِلرَّشِيدِ
فَاسْتَضَبَّ ، وَهِيَ هَاتِئَ ذَلِكَ مِنْ مَنَاصِبِ الْعَبَّاسَةِ
فِي حِينِهَا وَأَبَوَيْهَا وَجَلَّالَهَا وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَبَّاسٍ ، لَيْسَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ ، هُمْ

لِلْعَبَّاسَةِ سِتَّةٌ وَكَانَ عُمَرُ تَسْعِمَاتٍ سَنَةً وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ
عَظِيمَةٌ قُصُورُهَا بَيْنَ اللَّحْمِ وَأَسَاطِينُهَا بَيْنَ الزُّبَيْرِ
وَالْيَاقُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ ، وَالْأَنْهَارُ الْمَطْرُودَةُ
وَكَمَا تَمَّ بِنَاؤها سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى
إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعَثَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ السَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ . ذَكَرَ
ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ وَالتَّلْطَلِيُّ وَالْمُخَضَّرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ
الْمُفَسِّرِينَ ، وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَلَابَةَ مِنْ
الصَّحَابَةِ أَنَّهُ هَجَرَ فِي طَلَبِ إِبْلِيلَ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا
وَحَمَلَ مِنْهَا مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَيْرُهُ مِائَتِيهَ فَاخْتَصَرَهُ
وَقَصَّ عَلَيْهِ فَبَحَثَ عَنْ كُتُبِ الْأَخْبَارِ وَسَأَلَ
عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : هِيَ إِدَمُ ذَاتُ الْعِمَادِ وَسَيَدُّهَا
وَجَلَّ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشْفَرُ قَصِيرُ عَلَى حَاجِبِهِ
هَالِ يُوَعَّى عُنُقِهِ خَالٌ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبْلِيلَ لَهُ ثُمَّ
الْتَفَتَ فَأَبْصَرَ ابْنَ قَلَابَةَ فَقَالَ هَذَا وَاللَّهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ .

وَهَلِوِ الْمَدِينَةُ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا خَيْرٌ مِنْ
يُومَيْدٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ ، وَصَحَارَى عَدَنَ
الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسْطِ الْيَمْرِ
وَمَا زَالَ عُمَرَانُهُ مُتَعَابًا وَالْأَدْلَاءُ تَقْصُ طَرَفَهُ مِنْ
كُلِّ وَجْهِ ، وَلَمْ يَنْقُلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَيْرٌ ، وَلَا ذَكَرَهَا
أَحَدٌ مِنَ الْإِسْخَارِيِّينَ ، وَلَا مِنْ الْأُمَمِ ، وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا
فَدَسَتْ فِيمَا فَدَسَ مِنَ الْأَثَارِ لَكَانَ أَشْبَهُ ، إِلَّا أَنَّ
ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا
يَمُتَقَى بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادَ مَلَكُوهَا ، وَقَدْ بَنَتْهُ
الْهَلْدِيَانُ بِمَنْصِبِهِمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَخْتَرُ عَلَيْهَا ،
أَهْلُ الرِّيَاضَةِ وَالسَّحْرِ مَرَامُ كُلِّهَا أَشْبَهُ بِالْخَرَفَاتِ ،
وَالَّذِي حَمَلَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ مَا اقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ

في أمور ملوكه، فَنَقَطَتْ أثارهم وبعدهم صيبتهم وعَمَرُوا
مَرَاتِبَ النُّوْلَةِ وَخِطَطَهَا بِالرُّؤَسَاءِ مِنْ وَلَدِهِمْ
وَصَنَائِعِهِمْ وَاخْتَارُوا عَنْ يَوْمِهِمْ مِنْ وَزَارَةِ
وَكِتَابَةِ وَقِيَادَةِ وَجَنَابَةِ وَسَيِّفٍ وَقَلَمٍ . وَيُقَالُ إِنَّهُ
كَانَ يَدَارِ الرُّشِيدَ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ خَمْسَةَ
وَعِشْرُونَ وَكَيْسًا مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ
قَلَمٍ زَاخَمُوا فِيهَا أَهْلَ النُّوْلَةِ بِالْمَنَاقِبِ ، وَدَفَعُوهُمْ
عَنْهَا بِالرَّاحِ لِمَكَانِ أَبِيهِمْ يَحْيَى مِنْ كَهْلَةِ هَارُونَ
وَكُلَى عَهْدٍ وَخَلِيفَةٍ حَتَّى شَبَّ فِي حَجَرِهِ وَدَرَجَ مِنْ
عُشْدٍ وَعَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ يَنْدَعُوهُ يَا أَبَتِ ، فَتَوَجَّهَ
الْإِيْشَارَ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ ، وَعَظَمَتِ الدَّالَّةُ بَيْنَهُمْ
وَاتَّبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ ، وَانْفَرَسَتْ نَحْوُهُمُ الرُّجُوعُ ،
وَحَضَمَتْ لَهُمُ الرُّقَابَ ، وَتَصَرَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَمَالُ
وَنَخَطَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْصَى الشُّحُومِ هَذَايَا الْمُلُوكِ
وَتَحَفُّ الْأُمَرَاءَ ، وَسُيِّرَتْ إِلَى خِرَازِيْنِهِمْ فِي سَبِيلِ
التَّزْلُفِ وَالْإِسْتِمَالَةِ أَمْوَالُ الْعِبَادِيَّةِ ، وَأَفَاضُوا فِي
رِجَالِ الشَّيْعَةِ وَعُظَمَاءِ الْقَرَابَةِ الْعَطَاءَ وَطَوَّقُوهُمْ
الْمِنْنَ ، وَكَيْسُوا مِنْ بَيِّنَاتِ الْأَشْرَافِ الْمُتَعَدِّمِ ، وَفَكَّرُوا
الْمَعَانِي وَمَلَّحُوا بِمَا لَمْ يَمْدَحْ بِهِ خَلِيفَتُهُمْ ، وَأَسْتَوُوا
لِعَمَلَانِهِمُ الْجَوَائِزَ وَالصَّلَاحَاتِ ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْقُرَى
وَالضِّيَاعِ مِنَ الصُّوَاكِمِ وَالْأَنْصَارِ فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ
حَتَّى آسَفُوا الْبَطَانَةَ ، وَأَخَذُوا الْخَاصَّةَ ، وَأَغْصَرُوا أَهْلَ
الْوِلَايَةِ ، فَكَيْفِيتْ لَهُمْ رُجُوعُ الْمَنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ ،
وَدَبَّتْ إِلَى مَهَادِيهِمُ الْوَلِيْرُ مِنَ النُّوْلَةِ عَقَارِبُ
السَّكَايَةِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ يَبْنُو قُطْبَةَ أَمْوَالٍ جَنْفَرُ
مِنْ أَكْظَرِ السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ ، لَمْ تَعْطِفْهُمْ لِمَا وَقَرَّ فِي
نَفْسِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ - عَوَاطِفُ الرَّحْمِ وَلَا وَزَعَتْهُمْ

أَشْرَافُ الدِّينِ وَعُظَمَاءُ الْيَلَةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَالْعَبَاسَةُ
بِنْتُ مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَنْفَرٍ
الْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّجَّادِ ابْنِ عَلِيٍّ أَبِي الْخَلَفَاءِ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ تَرْجَمَانِ الْقُرَّانِ بْنِ الْعَبَّاسِ عَمِّ
النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) ابْنَةُ خَلِيفَةٍ وَأَخْتُ خَلِيفَةٍ ،
مَحْفُوفَةٌ بِالْمُلُوكِ الْعَزِيزِ وَالْخِلَافَةِ النَّبَوِيَّةِ وَصَحْبَةِ
الرُّسُولِ وَعُصَمَائِهِ ، وَإِمَامَةُ الْيَلَةِ وَنُورُ الزُّهْدِ وَمُهَيْطُ
الْمَدَائِكِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا ، قَرِيبَةٌ عَهْدَ بَيْلَانَةِ
الْقُرُوبِيَّةِ وَسَلَاحَةِ الدِّينِ الْبَيْدَةِ عَنْ عَوَالِدِ التَّرَفِّ
وَمَرَاجِعِ الْقَرَارِيضِ ، فَلَمَّا بَلَغَتْ السُّنُونَ وَالْمَنَافَاتِ
إِذَا كَذَبَ عَنْهَا ، أَوْ إِذَا تَوَجَّدَ الطُّهَارَةُ وَاللَّذَاكَ إِذَا
فَقِدَا مِنْ بَيْنِهَا ، أَوْ كَيْفَ تَلَحَّمُ نَسَبَهَا جَنْفَرُ
ابْنِ يَحْيَى وَتَلَدَّسَ شَرَفَهَا الْعَرَبِيُّ بِمَوَالِي مِنْ مَوَالِي
الْمَجَرِ بِمَلَكَةِ جَلُو مِنْ الْقُرَيْشِ أَوْ بَوْلَاهُ جَلُّهَا مِنْ
عُصْمَةِ الرُّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، وَغَابَتِ أَنْ جَلَّتْ
فَوَلَّتْهُمْ بِضَبِّهِ وَصَحْبِ أَبِيهِ ، وَاسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَقَّتْهُمْ
إِلَى مَنَازِلِ الْأَشْرَافِ ، وَكَيْفَ يَسُوعُ مِنَ الرُّشِيدِ أَنْ
يُضْهِرَ إِلَى مَوَالِي الْأَعْجَامِ عَلَى بَعْدِ هِمَّتِهِ وَعِظَمِ آيَاتِهِ ؟
وَلَوْ نَظَرَ الْمُتَأَمِّلُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ الْمُنْصِفِ وَقَاسَ
الْعَبَاسَةَ بِابْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ
لَا مَسْتَنْكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوَالِي مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا
وَفِي سُلْطَانٍ قَوْمِهَا وَاسْتَنْكَرَهُ وَلَجَ فِي تَكْلِيْبِهِ ، وَإِنْ
قَلَّتْ الْعَبَاسَةُ وَالرُّشِيدُ مِنَ النَّاسِ .

وَأَمَّا نَكَبُ الْبَرَامِكَةِ مَا كَانَ مِنْ اسْتِغْنَائِهِمْ عَلَى
النُّوْلَةِ وَاسْتِجَابَتِهِمْ (١) أَمْوَالُ الْعِبَادِيَّةِ حَتَّى كَانَ الرُّشِيدُ
يَطْلُبُ الْجَيْمِرَ مِنَ الْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ ، فَغَلِبَهُ عَلَى
أَمْرِهِ وَشَاوَكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ

(١) انقطاعها وانفرد بها .

مِنَ الْبَطَانَةِ فِيمَا دَسَّوهُ لِلْمُغْنَيْنِ مِنَ الشُّعْرِ اخْتِيَالًا
عَلَى إِسْمَاعِيلِ الْخَلِيفَةِ وَتَحْرِيرِكَ حَقَائِقِهِ لَهُمْ، وَهَوَافِلُهُ
لَيْتَ هِنَا أَنْزَجْنَا مَا تَجِدُ
وَشَفَّتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا لَجِدُ
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً

إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَعِيدُ
وَلَا الرَّشِيدُ لِمَا سَمِعَهَا قَالَ دُونَ ذَلِكَ إِنِّي عَاجِزٌ
حَتَّى يَحْتَوُوا بِأُتْلُوهُ هَلْوَ كَابِرٌ غَيْرِيَّةٍ، وَسَلَطُوا عَلَيْهِمْ
بِأَسْ أُنْقِيَابِهِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَلْبَةِ الرَّجَالِ وَمُؤْوَ الْحَالِ.
وَأَمَّا مَا تَعَرَّاهُ بِدِ الْحِكَايَةِ مِنْ مَعَاقِرَةِ الرَّشِيدِ الْخَمَرِ
وَاقْتِرَانِ سَكْرِهِ بِسَكْرِ النَّدْمَانِ فَمَعَاشَا اللَّهُ مَا عَلَيْنَا عَلَيْهِ
مِنْ سُوءٍ نَوَافِلُ هَلَا مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَبَيَاوِيهِ بِمَا يَجِبُ
لِمَنْ صِيبَ الْخِلَافَةِ مِنَ الدِّينِ وَالْعَدَالَةِ عَوْنًا كَانَ عَلَيْهِ
مِنْ صَحَابَةِ السُّلْطَانِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَشُحَرَاءِ رَأْيِهِ لِلْفَضِيلِ
ابْنِ عِيَّاضٍ وَابْنِ السَّمَاكِ وَالْحَمَرِيُّ وَمُكَاتِبَتَيْهِ سَفِيَّانِ
النُّوْرِيُّ وَبُكَاتِيهِ مِنْ مَوَاعِيظِهِمْ وَدَعَائِهِ بِسَكْفِي طَوَائِفِهِ،
وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيَادَةِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَوْقَاتِ
الْصَّلَوَاتِ وَشُهُودِ الصُّبْحِ لِأَوَّلِي وَفَتَاهَا ؟

حَكِي الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يَصِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ
مِائَةَ رَكْعَةٍ نَافِلَةٍ نَوَافِلُ غَزْوَةٍ عَامًا وَنَافِلُ جَزْ
ابْنِ أَبِي مَرْثَمٍ مُضْحِكُهُ فِي سِرِّهِ جِيْنٌ تَعَرَّضَ لِهَيْمَنَلِ
ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ، وَمَا لِي لَا أَقْبِدُ
الَّذِي فَطَرَنِي، وَقَالَ وَاللَّهِ مَا أَقْرَى لِي، فَمَا تَمَّا لَكَ
الرَّشِيدُ أَنَّ حَسْبَكَ ثُمَّ انْقَضَتْ إِلَيْهِ مُنْغَبِهَا، وَقَالَ
يَا ابْنَ أَبِي مَرْثَمٍ : فِي الصَّلَاةِ أَيْضًا ١١، لِيَاكَ لِيَاكَ
وَالْقُرْآنَ وَالَّذِينَ وَلَكَ مَا شَفَّتْ بَهْمَا .

لَوَائِصُ الْقَرَابَةِ، وَكَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ نَوَائِي،
لَمِيرَّةً وَالْإِسْتِنكَافُ مِنَ الْحَجَرِ وَالْأَنْفَةِ وَكَانَ مِنْ
الْمَحْذُورِ الَّتِي يَحْتَنِيهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ الدَّالَّةِ وَانْتَهَى بِهَا
الْإِضْرَافُ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى كِبَائِرِ الْمُخَالَفَةِ، كَمَا صُنِعَتْهُمْ
فِي يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ
ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ
الْمَلْفَقِ بِالنَّفْسِ الرَّكِيَّةِ الْخَارِجِ عَلَى الْمَنْصُورِ
وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى
مِنْ بِلَادِ اللَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ الرَّشِيدِ بِخَطِّهِ وَبَدَّلَ لَهُمْ
فِيهِ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ، وَدَفَعَهُ
الرَّشِيدُ إِلَى جَنْفَرٍ وَجَلَّ احْتِفَالُهُ بِدَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ
فَحَبَسَهُ ثَمَّةً، ثُمَّ حَكَمَهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ،
وَالْإِسْتِيْدَادِ بِحَلِّ حَقَائِقِهِ حَرَمًا لِدِمَائِهِ أَهْلُ الْبَيْتِ
- بِزَعْمِهِ - وَقَالَتْ عَلَى السُّلْطَانِ فِي حُكْمِهِ . وَسَأَلَهُ
الرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وَجَّهَ بِهِ إِلَيْهِ فَقَطِنٌ وَقَالَ : أَطْلَقْتَهُ .
فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَ الْإِسْتِحْسَانِ وَأَسْرَمَهَا فِي نَفْسِهِ، فَلَوْجَدَ
السَّبِيلَ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ، حَتَّى ثَلَّ عَرْشَهُمْ
وَأَلْفَيْتَ عَلَيْهِمْ سَمَاوَهُمْ، وَخَسَفَتْ الْأَرْضُ بِرُوحِهِمْ
وَيَدَارِهِمْ، وَذَهَبَتْ سُلْفَاً وَمَتَلَأَ لِلْآخِرِينَ أَيْمَانُهُمْ،
وَمَنْ تَأَمَّلَ أَعْيَارَهُمْ وَاسْتَفْقَصَ سِيرَ الدُّوَلَةِ وَسِيرَتَهُمْ،
وَجَدَ ذَلِكَ مُتَحَقِّقَ الْأَثَرِ مُتَهَدِّ الْأَسْبَابِ .

وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي مَقَاوِصِ الرَّشِيدِ
عَمَّ جَدِيدًا وَكُنْ عَلَى شَأْنِ كِتَابَتِهِمْ، وَمَا ذَكَرْتُهُ فِي بَابِ
الشُّعْرَاءِ فِي كِتَابِ «الْبَقِيدِ» فِي مُكَافَرَةِ الْأَصْمَعِيِّ
لِلرَّشِيدِ وَلِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فِي سِرِّهِمْ تَتَفَهَّمُ أَنَّهُ
إِنَّمَا قَتَلَتْهُمْ الْغِيْرَةُ وَالْمُنَافَسَةُ فِي الْإِسْتِيْدَادِ مِنْ
الْخَلِيفَةِ فَمَنْ دُونَهُ، وَكَذَلِكَ مَا تَحِيلَ بِهِ أَعْدَاؤُهُمْ

وَأَنْظَرْنَا نَفَقَةَ الطَّبَرِيِّ وَالْمُسَوْدِيِّ فِي عَهْدِ
جَبْرِئِيلَ بْنِ بَخْتِشُوعَ الطَّبِيبِ حِينَ أَخْضَرَ لَهُ
السَّمَكُ فِي مَالِئَتِهِ قَعْمَاهُ عَنْهُ ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ
الْمَالِيَّةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَزْلُوقِ الرُّشَيْدِ وَارْتَابَ بِهِ
وَدَسَّ خَادِمَهُ حَتَّى عَابَنَهُ بِتَنَاوُلِهِ، فَأَعَدَّ ابْنُ
بَخْتِشُوعَ لِلْإِغْتِدَارِ ثَلَاثَ قَطِرٍ مِنَ السَّمَكِ فِي
ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ، مَخْلُطٌ إِحْدَاهَا بِاللَّحْمِ الْمُتَمَلَّجِ بِالتَّوَابِلِ
وَالْبَحْوَ وَالْبَوَارِدِ وَالْحَلْوَى وَصَبَّ عَلَى الثَّانِيَةِ مَاءٌ
مُتَلَجًا وَعَلَى الثَّالثَةِ خَمْرًا حَمْرًا وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ
وَالثَّانِي هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلَطَ السَّمَكُ
بِغَيْرِهِ أَوْ لَمْ يَخْلُطْهُ، وَقَالَ فِي الثَّالثِ هَذَا طَعَامُ
ابْنِ بَخْتِشُوعَ وَدَقَعَهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَالِيَّةِ، حَتَّى إِذَا
انْتَبَهَ الرُّشَيْدُ وَأَخْضَرَهُ لِلتَّبَوُّعِ، أَخْضَرَ ثَلَاثَةَ
الْأَقْدَاحِ فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخَمْرِ قَدْ اخْتَلَطَ وَأَمَاعَ
وَتَفَتَّتْ، وَوَجَدَ الْآخَرِينَ قَدْ لَسَدُوا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا
فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعْلَبَةٌ، وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ خَالَ
الرُّشَيْدِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ
بَطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَالِئَتِهِ .

وَلَقَدْ نَبَتْ عَنْهُ أَنَّهُ عَهْدَ بِحَبِيسِ أَبِي نُؤَاسٍ
لَمَّا بَلَغَهُ مِنْ أَهْمَاكِهِ فِي الْمُعَاهَاةِ حَتَّى تَابَ
وَأَقْلَعَ، وَإِنَّمَا كَانَ الرُّشَيْدُ يَغْرَبُ نَيْبَ التَّغْيَرِ
عَلَى تَلَهِّبِ أَهْلِ الرِّقَاقِ وَقَتَائِبِهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ،
وَأَمَّا الْخَمْرُ الصَّرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى انْتِهَائِهِ بِهَا،
وَلَا تَقْلِيدِ الْأَخْبَارِ الرَّاهِيَةِ فِيهَا، فَلَمْ يَكُنِ
الرَّجُلُ يَحِثُّ يُوَاقِعُ مَحْرَمًا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَايَرِ عِنْدَهُ
أَهْلَ الْبَيْلَةِ، وَلَقَدْ كَانَ أَوَّلِيكَ الْقَوْمِ كُلُّهُمْ بِمَنْجَاةٍ
مِنْ ارْتِكَابِ السَّرَفِ وَالتَّرَفِّ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ

وَأَيْضًا فَقَدْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ وَالسَّالِجَةِ بِمَكَانٍ قُرْبِ
هَدِيدِ بْنِ سَلْفِيهِ الْمُتَنَحِّلِينَ لِنَيْلِكَ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
جَدِّ أَبِي جَعْفَرٍ بَعِيدَ زَمَنٍ، إِنَّمَا خَلَفَهُ غُلَامًا وَقَدْ كَانَ
أَبُو جَعْفَرٍ بِمَكَانٍ مِنَ الْعِلْمِ وَاللِّبَنِ قَبْلَ الْخِلَافَةِ
وَبَعْدَهَا، وَهُوَ الْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ
بِتَأْلِيْفِ الْمُوطَأِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى
وَجْهِ الْأَرْضِ أَكْثَمُ مِنِّي وَمِنْكَ، وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتَنِي
الْخِلَافَةُ فَضَحَّ أَنْتَ لِلثَّانِسِ كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَتَجَنَّبَ
فِيهِ رُخَسَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَدَايَةَ ابْنِ هَمْرٍ وَوَطْئَهُ
لِلثَّانِسِ تَوَلِيَّةً فَقَالَ مَالِكٌ : «فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتَنِي التَّصْنِيفَ
يَوْمَئِذٍ» . وَلَقَدْ أَذْرَكُهُ ابْنُهُ الْمَهْدِيُّ أَبُو الرُّشَيْدِ هَذَا
وَهُوَ يَتَوَخَّعُ عَنْ كُسُوفَةِ الْجَبَالِيَةِ لِيُعَالِيَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ .
وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يُبَايِسُ الْعَبَّاسِيَّ فِي
لِإِرْقَاعِ الْمُطْفَأِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَاسْتَنْكَفَ الْمَهْدِيُّ
مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى كُسُوفِهِ هَلِيهِ
الْعِيَالُ عَانَاهَذَا مِنْ عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذَلِكَ وَلَكَمْ
بِصُدَّهِ عَنْهُ وَلَا تَسْمَحْ بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ .

فَكَيْفَ يَلِيْقُ بِالرُّشَيْدِ عَلَى قُرْبِ الْعَهْدِ
مِنْ هَذَا الْخِلَافَةِ وَأَبُوهُ وَمَا دُعِيَ عَلَيْهِ مِنْ أَشْأَالِ
هَلِيهِ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَالتَّخَلُّقِ بِهَا أَنْ يُعَايِرَ
الْخَمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ الْأَشْرَافِ مِنَ
الْعَرَبِ الْجَبَالِيَةِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ مَطْلُومَةً وَلَمْ
يَكُنِ الْكَرْمُ شَجَرَتَهُمْ، وَكَانَ شَرِبَتُهَا مَنَعَةً عِنْدَ
الْكَثِيرِ مِنْهُمْ وَالرُّشَيْدُ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى نَيْجٍ مِنْ
اجْتِنَابِ الْمُنْتَهَمَاتِ فِي بَيْنِهِمْ وَدُونِهِمْ وَالتَّخَلُّقِ
بِالسَّامِيَةِ وَأَوْصَافِ الْكَمَالِ وَتَرْغَاتِ الْعَرَبِ •

وَتَقُولُ فِي قَضَائِلِ الْمُؤْمِنِ وَحَسَنِ عَشْرَتِهِ، أَنَّهُ
اِئْتَبَهُ ذَاتُ كَلِيلَةٍ عَطْلَانٌ فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَلْتَوِسُّ الْإِنَاءَ
مَخَافَةَ أَنْ يَوْقُظَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ، وَتَبَتَ أَتُهُمَا كَانَا
يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعًا فَمَلَيْنِ هَذَا مِنَ الْمَعَارِفَةِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ
حِلْيَةِ أَهْلِ الْحَلِيمَةِ وَقَدْ أَتَانِي عَلَيْهِ الْإِمَامُ
أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي وَخَرَجَ عَنْهُ
التِّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ الْجَامِعَ، وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ الْمَخَافَةَ أَنَّ
الْبَخَارِي رَوَى عَنْهُ فِي خَيْرِ الْجَمَاعِ، فَالْقَدْحُ فِيهِ
قَدْحٌ فِي جَوِيهِمْ، وَكَذَلِكَ مَا يَنْبَغُ الْمُجَانُّ بِالْمَلِكِ
إِلَى الْإِطْلَاقِ بَهْتَانًا عَلَى اللَّهِ وَفِرْيَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ،
وَيَسْتَنْبِدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ النُّصَايِبِ الْوَاهِبَةِ
الَّتِي لَعَلَّهَا مِنْ أَفْرِادِهِ أَعْدَائِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ مَحْسُودًا
فِي كَمَالِهِ وَخَلِيلِهِ لِلْإِطْلَاقِ، وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ
وَالدِّينِ مُنْزَعًا عَنْ مَثَلِ ذَلِكَ، وَقَدْ كَرِهَ لِبَنِي حَنْبَلٍ مَبْرُورِيهِ
يَوْمَ النَّاسِ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ! وَتَقُولُ
هَذَا؟ وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا، وَأَتَانِي عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ
الْقَاضِي، فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ
أَنْ تَقُولَ عَدَاةً فِيهِ بِحُكْمٍ بِأَعْيُنِ الْحَايِدِ، وَقَالَ
أَيْضًا: يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ
فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْإِطْلَاقِ، وَلَقَدْ
كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ مِنَ
اللَّهِ، لَكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحَسَنُ خُلُقٍ، فَرُمِيَ بِمَا
رُمِيَ بِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثَّقَاتِ، وَقَالَ:
لَا يَسْتَعْلَ بِمَا يُحْكِي عَنْهُ لِأَنَّهُ أَكْثَرُهُمَا لَا يَصِحُّ عَنْهُ .
وَمِنْ أَثْنَالِ هَلِهِ الْجَوَابَاتِ، مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رُبِّهِ
صَاحِبُ الْبَقْدِ مِنْ حَدِيثِ الزُّبَيْدِيِّ فِي سَبْرِ إِسْمَاعِيلِ

وَسَائِرِ مَنَاقِلِهِمْ، لِمَا كَانُوا عَلَيْهِمْ مِنْ خُشُوعَةِ الْبَدَاوَةِ
وَسَلَابَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يَغَارِفُوهَا بَعْدَ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا
يَخْرُجُ عَنْ الْإِنْسَانِ إِلَى الْحِطِّ، وَعَنِ الْجَلْبَةِ إِلَى الْخُرْمَةِ .
وَلَقَدْ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ: الطَّبْرِيُّ وَالنُسَوْدِيُّ
وَهَرَبَرَهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي
أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ، إِنَّمَا كَانُوا يَرَكِبُونَ بِالْحِلْيَةِ
الْخَفِيفَةِ مِنَ الْفِضَّةِ فِي السَّنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ وَاللَّحْجَمِ
وَالسُّرُوجِ، وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَخَذَتْ الرُّكُوبَ بِحِلْيَةِ
الْغَبِّ هُوَ الْمُعْتَزُّ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَانِي الْخُلَفَاءِ بَعْدَ
الرَّشِيدِ، وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَايِسِهِمْ، فَمَا
ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ، وَبِوَسْطِيَّتِ ذَلِكَ يَأْتِمُّ مِنْ هَذَا إِذَا
فُهِمَتْ طَبِيعَةُ التَّوَلَّى فِي أَوْلِيَاهِمِ الْبَدَاوَةِ وَالنُّصَايِبَةِ،
كَمَا نَشَرَحُ فِي مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ .

وَنَبَايِسُ هَذَا أَوْ قَرِيبُ مِثْلِهِ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً
عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَاضِي الْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ، وَأَنَّهُ
كَانَ يُعَاقِرُ الْخَمْرَ، وَأَنَّهُ سَكَّرَ لَيْلَةً مَعَ صَرِيهِ قَدْحُونِ فِي
الرِّيْحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَتَنَبَّضُوا عَلَى لِسَانِهِ :
يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ .

قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْتَفِينِي
إِنِّي خَفَلْتُ عَنْ السَّاقِي فَصَبَرْتُ
كَمَا تَرَانِي مَلِيبَ الْعَقْلِ وَاللِّبَنِ
وَحَالَ ابْنُ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُونُ فِي ذَلِكَ مِنْ خَالِ
الرَّشِيدِ وَخَرَابِهِمْ إِنَّمَا كَانَ النَّبِيذُ، وَكَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا
عِنْدَهُمْ، وَأَمَّا الشُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَنُصَحَاتُهُ
لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَتْ خَلَّةً فِي الدِّينِ، وَلَقَدْ قَبِتَ أَنَّهُ
كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ .

لنأتهم، فليلك تراهم كثيرا ما يلهجون بالشبه
هذه الأخبار ويؤمنون عنها عند تصحيحهم لأوراق
الساوون ويؤمنوا بهم في غير هذا من أحوالهم،
وصفات الكمال اللاحقة بهم، المشهورة عنهم،
لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون وكفد ذلك
يوما ينحس الأمره من أبناء الملوك في كل يوم
بتكلم الفناء ولوعه بالأوتار، وقلت له: ليس
هذا من شأنك ولا يليق بمصيبك، فقال لي أفلا
تري إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام
هذه الصنعة وركب الثمنين في زمانه، فقلت له
يا سيحان الله أو ملا تأسيبت بإبي وأخيه؟ أو ما رأيت
كيف فقد ذلك إبراهيم عن مناصبهم؟ فصم
عن علي وأعرض والله يهدي من يشاء.

ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من
المؤرخين والأخبارات في التبيين خلفاء الشيعة
بالقروان والقاهرة من نفوسهم عن أهل البيت صلوات
الله عليهم، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام
ابن جعفر الصادق، يتعمدون في ذلك على أحاديث
لُفقت للمنتصفين من خلفاء بني عباس،
تزلها إليهم بالفتح فيمن ناصبهم، وتفتنا في
الشمات يملوهم حسبا نذكر بعض هذه الأحاديث
في أخبارهم، ويغفلون عن التفتن لشواهد الواقيات
وأولئك الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من
تكذيب دعوائهم والرد عليهم، فإنهم متفقون في
حليتهم عن مثل قولة الشيعة أن أبا عبد الله
المختص لما دعي بكلمة الرضى من آل محمد
واشتهر خبره وعلم تحريمه على عبيد الله المهدي

الساوون إلى الحسن بن سهل في يديه بوران، وأنه عثر
في بعض النبال في تطوافه بيسلك بغداد في زنبيل
مثل من بعض السطوح بمعلق وجعل مغارة القتل
من الحرير فاعتقله، وتناول المعلق فاهتزت وذهب
به صعدا إلى مجلس شانه كذا ووصف من زين
فرويه وتنفيد أبيه وجمال رؤيته ما يشوق
الطرف، ويملك النفس وأن امرأة برزت له من
خلل السور في ذلك المجلس رقيقة الجمال
فنانة الحاسن، فحيته ودعته إلى المائدة فلم
يزل يفاقرها الخمر حتى الصباح، ورجع إلى
أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حيا
بخته على الإسهار إلى أبيها وأين هذا كله من
حال الساوون المروفة في دينه وعليه واقتضاه
سمن الخلفاء الراشدين من آباءه وأخوه يسير
الخلفاء الأربعة أركان الملة، ومناظرته العلماء،
وحفظه لحود الله تعالى في صلواته وأحكامه،
فكيف يصح عنه أحوال الفساق المستهزين (١)

في القلوب بالليل وطروق المنازل وغشيان
السمر سبيل عشاق الأعراب؟ وأين ذلك من
منصب ابن الحسن بن سهل وقرعها يوما كان
يلبس ألبها من الصون والصفاء، وأمثال هذه
الحكايات كثيرة، وفي كتب المؤرخين مروفة.

(١) السمر بالفتح الموع بالتي لا يزال يال في والي
كثرة البله له قوس.

حَبِيبُهُمْ وَمَكْرَهُمْ قَسَاةٌ عَاقِبَتُهُمْ وَقَاتُوا وَبَالَ
أَمْرِهِمْ، وَكَوْثَرَ كَأَمْرُ الْمُبِيدِينَ بِذَلِكَ لَعْنَتُ
وَكُثْرَ بَعْدَ مُهْلَةٍ .

وَمَهْمَا تَكُنْ جِنْدَ أَمْرِهِ مِنْ خَلِيقَةٍ

وَلَاِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُظْهِرُ
فَقَدْ اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوًا مِنْ يَمَانِينَ وَسَبْعِينَ
سَنَةً وَمَلَكَوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُصَلَّاهُ
وَمَوْطِنُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَدَنُهُ وَمَوْقِفُ
الْحَجَّاجِ وَمَهْبِطُ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ انْفَرَضَ أَمْرُهُمْ
وَشَبِعَتْهُمْ فِي ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى أَتَمِّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ
الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبِّ فِيهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ بِنَسَبِ
الْإِمَامِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَلَقَدْ خَرَجُوا
يَرَارًا بَعْدَ دَعَايِ الدَّوْلَةِ وَقُدُوسِ أَرْهَا، دَاعِينَ
إِلَى بَذْعِهِمْ هَاتِفِينَ بِأَسْمَاءِ صِبْيَانٍ مِنْ أَغْضَابِهِمْ،
يَزْعُمُونَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْخِلَافَةِ وَيُزْعِمُونَ إِنْ تَخَيَّرْتُمْ
بِالْوَصِيَّةِ، يَمُنُّ سَلَفَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَثَمَةِ، وَكَوْثَرَ زَانِبُوا
فِي نَسَبِهِمْ لِمَا رَكِبُوا أَضَاقَ الْأَخْطَارُ فِي الْإِنْصَارِ
لَهُمْ، فَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ لَا يَلْبِسُ فِي أَمْرِهِ، وَلَا يَشْبَهُ فِي
بَذْعِهِ، وَلَا يَكْذِبُ نَفْسَهُ فِيمَا يَنْتَحِلُهُ .

وَالْمَجْبُوبُ الْقَاضِي ابْنُ بَكْرِ الْبَاقِلَانِي شَيْخُ الشُّطْرَانِ
الْمُتَكَلِّمِينَ، كَيْفَ يَجْعَلُ إِلَى هَلِيقَةِ الْمَقَالَةِ الْمَرْجُوحَةِ،
وَيَرَى هَذَا الرَّأْيَ الضَّعِيفَ؟ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا كَانُوا
عَلَيْهِ مِنَ الْإِلْحَادِ فِي الدِّينِ، وَالْتَمَعِي فِي الرَّافِضِيَّةِ
فَلَيْسَ ذَلِكَ بِذَائِرٍ فِي صَدْرِ دَعْوَتِهِمْ وَكَيْسَ لِنَبَاتِ
مُنْتَسِبِهِمْ بِاللَّذِي يُنْعَى عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا فِي كُفْرِهِمْ،
فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِيُوجِزَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ
« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ هَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا

وَيُزِيدُ أَبِي الْقَاسِمِ، هَشِيئًا عَلَى أَنْفُسِهِمَا قَهْرًا مِنْ
الْمَشْرِقِ حَتَّى الْخِلَافَةِ وَاجْتِازًا بِمَضَرٍّ وَأَنْفُسُهُمَا خَرَجًا
مِنْ الْأَسْكَنْدَرِيَّةِ فِي زَيْ التُّجَّارِ وَنَحْوِ حَبْرُهُمَا إِلَى
جَيْشِ التُّوْغْرَيْ حَامِلِ بَضَرٍ وَالْأَسْكَنْدَرِيَّةِ فَسَرَجَ
فِي طَلَبِهِمَا الْخِلَافَةَ حَتَّى إِذَا أَذْرَكَا خَضَى خَالَهُمَا
عَلَى تَابِعِهِمَا بِمَا لَبَسُوا بِهِ مِنَ الشَّارَةِ وَالزُّيِّ فَاظْلَمُوا
إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَنْ الْمُتَحَفِّدَ أَوْعَزَ إِلَى الْأَغَالِيَةِ
أَمْرَاهُ أَفْرِيقِيًّا بِالْقَيْرَوَانِ وَيَنْبَى مِلْوَإِ أَمْرَاهُ
سِجْلَمَاسَةَ بِأَخْذِ الْأَفَاقِ عَلَيْهِمَا وَإِذْكَاهُ الْمُؤِينِ
فِي طَلَبِهِمَا فَتَشَرَّ الْبَيْعُ صَاحِبُ سِجْلَمَاسَةَ مِنْ
آلِ مِلْوَإِ عَلَى خَضَى مَكَانِهِمَا بِبَلَدِهِ وَاسْتَقْلَمَهُمَا
مَرْصَاةً لِلْخُلَيفَةِ، هَذَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الشَّيْءُ عَلَى
الْأَغَالِيَةِ بِالْقَيْرَوَانِ، ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ
ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَالْأَفْرِيقِيَّةِ، ثُمَّ بِالْبَلَحِينَ
ثُمَّ بِالْأَسْكَنْدَرِيَّةِ، ثُمَّ بِمَضَرٍّ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ،
وَقَاسَمُوا بَنَى الْعَبَّاسِ فِي مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ شَيْءَ
الْأَبْلَغِ وَكَادُوا يَلْجُونَ عَلَيْهِمْ مَوَاطِنُهُمْ وَيُزِيلُونَهُ
مِنْ أَمْرِهِمْ، وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتُهُمْ بِخُنَادٍ وَغِرَاقَهَا
الْأَمِيرُ الْبَسَاسِيرِيُّ مِنْ مَوَالِي النَّبِيلِ الْمُتَطَلِّينِ
عَلَى خُفَاءِ بَنَى الْعَبَّاسِ فِي مُغَاضَبَةِ جَرَتْ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ أَمْرَاهُ الْعَجَرِ، وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا
حَوْلًا كَامِلًا، وَمَا زَالَ بَنَى الْعَبَّاسِ يَتَشَوَّنُ بِمَكَانِهِمْ
وَقُدُوسُهُمْ وَمُلُوكُ بَنَى أُمِّيَّةٍ وَزَاءِ الْبَحْرِ يُتَادُونَ
بِالْوَلِيلِ وَالْحَرْبِ مِنْهُمْ، وَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا كُلُّهُ
لِذَمِّ فِي النَّسَبِ يَكْذِبُ فِي انْتِحَالِ الْأَمْرِ بَوَاعِثٍ
حَالِ الْقُرْمَطِيِّ إِذْ كَانَ دَعِيًّا فِي انْتِسَابِهِ، كَيْفَ
تَلَاثَتْ دَعْوَتُهُ وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ، وَظَهَرَ سَرِيمًا عَلَى

تَسْأَلُنَّ مَا نَبِئْتُكَ بِهِ عَلِيمٌ^(١)، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَاطِمَةَ يَا فَاطِمَةُ: أَهْمِي فَلَنْ أَغْنِيَنَّ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَمَتَى عَرَفْتَ امْرَأَةً قَبِيضَةً أَوْ اسْتَيْقَنَ امْرَأًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصُدَّقَ بِهِ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ، وَالْقَوْمُ كَانُوا فِي مَجَالٍ لِيُظَنُّوا الدُّوَلُ بِهِمْ وَتَحْتَ رِقَبَةٍ مِنَ الطُّغَاةِ لِيُتَوَقَّرَ شَيْعَتُهُمْ وَانْتِشَارُهُمْ فِي الْقَاصِيَةِ يَدْعُوهُمْ وَتُكْرَبُ خُرُوجُهُمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، فَلَاذَتْ رِجَالُهُمْ بِالْإِخْفَاءِ وَلَمْ يَكُنْ أَوْ يَعْرِفُونَ كَمَا قِيلَ :

فَلَوْ تَسْأَلِ الْأَيَّامَ مَا اسْمِي مَا دَرَّتْ
وَأَيْنَ مَكَالِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

حَتَّى لَقَدْ سَمِعْتُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامُ
جَدَّ عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيَّ بِالْمَكْتُومِ، سَمِعْتُهُ بِذَلِكَ
شَيْعَتُهُمْ لِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِمْ حَلَّوْا مِنْ
الْمُتَخَلِّبِينَ عَلَيْهِمْ فَتَوَصَّلَ شَيْعَةُ بَنِي التَّبَاسِ بِذَلِكَ
حِينَ ظَهَرُوا إِلَى الطُّغَاةِ فِي نَسَبِهِمْ وَأَزْدَلُّوْا هَذَا
الرَّأْيَ الْقَائِلَ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفَائِهِمْ، وَأَعْجَبَ
بِهِ أَوْلِيَائُهُمْ، وَأَمْرَاهُ دَوْلَتِهِمُ الْمُتَوَكِّلُونَ لِيُخْرِجُوهُمْ مَعَ
الْأَعْدَاءِ يَدْعُوْنَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَرَّةً
الْعَجَزَ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُدَافَعَةِ لَنْ غَلِبَهُمْ عَلَى الثَّامِ
وَمَضَى وَالْحِجَازَ مِنَ الْبُرْجَرِ الْكَنَامِيِّينَ شَيْعَةَ الْعَبِيدِيِّينَ
وَأَهْلَ دَعْوَتِهِمْ، حَتَّى لَقَدْ أَشْجَلَ الْقَضَاءُ بِيَهْدَاذَ
يَنْفِيهِمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ، وَشَهِدَ بِذَلِكَ جَنَّتُهُمْ مِنْ
أَعْلَامِ النَّاسِ جَمَاعَةً، مِنْهُمْ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ وَأَخُوهُ
الْمُرْتَضَى وَابْنُ الْبَطْحَاوِيِّ وَمِنْ الْعُلَمَاءِ أَبُو حَامِدٍ
الْإِسْفَرَايِينِيُّ وَالْقُدُورِيُّ وَالصِّمَرِيُّ وَابْنُ الْأَكْثَفَانِيِّ
وَالْأَبْيُورِيَّيْنِ وَأَبُو حَبِيدٍ اللَّهِ بْنُ النُّعْمَانِ قَبِيضَةُ الشَّيْعَةِ

وَمِثْلُ، هَذَا وَأَيْدِيَهُ كَثِيرًا مَا يَتَنَاجَى
بِهِ الطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ
ابْنِ حَبِيدٍ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ ابْنِ عَلِيٍّ
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضَوَانِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) الْإِمَامُ يَتَدَلُّ
أَبِيهِ بِالْمَعْرُوبِ الْأَقْصَى وَيُعَرِّضُونَ تَعْرِيفَ الْحَسَنِ
بِالنَّظَرِ فِي الْجِذْلِ الْمُخْطَفِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْأَكْبَرِ
إِنَّهُ لَرَأْسُ مَوْلَاهُمْ قَبِيضَتُهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَلَتْهُمْ مَا أَجْهَلَهُمْ

أَمَا يَتْلُمُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ إِسْهَارَهُ فِي
الْبَرِّ، وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ عَرِيقٌ فِي الْبَيْتِ، وَأَنَّ حَالَهُ الْبَيَّابِيَّةَ فِي بَثَلٍ
لِلَّغَيْرِ حَافِيَةً إِذْ لَا مَكَانَ لَهُمْ يَتَأَتَّى فِيهَا الرَّبُّ
وَأَحْوَالُ حُرْمِهِمْ أَجْمَعِينَ يَرَى مِنْ جَارَاتِيهِمْ
وَمُسْمَعٍ مِنْ جِيرَانِهِمْ لِتَلَاصُقِ الْجُلُثَانِ، وَنَطَاقِ
الْبَيْتَانِ، وَعَلَمِ الْفَوَاصِلِ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَقَدْ كَانَ
وَالِدُهُ يَتَوَلَّى خِدْمَةَ الْحَرَمِ أَجْمَعٍ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ،
يَحْشُدُهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ وَيُسَبِّحُهُمْ بِوَمَرَاتِهِ مِنْ كَافِيهِمْ
وَقَدْ اتَّفَقَ بِرَأْيِهِ الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى عَامَةً عَلَى بَيْعَةِ
إِدْرِيسَ الْأَصْغَرَ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِ، وَأَتَوْهُ طَاعَتُهُمْ عَنْ
رَضَى وَأَصْفَاقٍ، وَيُتَابِعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ الْأَخْمَرِ، وَخَاصُوا
هُوَ بِحَلِّ الْمَنَاسِكَ فِي حُرُوبِهِ وَعَزَّوَاتِهِ، وَكَوْنُ حَدَّثُوا
أَنْفُسَهُمْ بِحُثُلِ هَذِهِ الرَّبِّيَّةِ أَوْ قُرَعَتْ أَسْمَاعُهُمْ
وَكُوْنُ مِنْ عَدُوٍّ كَاشِحٍ أَوْ مُنَافِقٍ مُرْتَابٍ لَتَخْلَفَ
عَنْ ذَلِكَ وَكَوْنُ بَعْضُهُمْ، كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ
الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ، أَقْبَالِهِمْ وَمِنْ بَنِي
الْأَغْلَبِ عَمَالِهِمْ، كَانُوا بِإِفْرِيقِيَّةٍ وَلَوَاتِهِمْ وَذَلِكَ
أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ إِدْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَقْعَةٍ
بَلَغَ أَوْحَرَ الْهَادِي إِلَى الْأَغْلَبِيَّةِ أَنْ يَمْعُدُوا لَهُ
الْمَرَايِدَ وَيُذَكُّوا عَلَيْهِ التَّيُونَ فَلَمْ يَنْظُرُوا بِهِ
وَحَلَّصَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَتَمَّ أَمْرُهُ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ وَظَهَرَ
الرَّيْثُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحِ مَوْلَاهُمْ
وَعَامِلِهِمْ عَلَى الْأَسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْ دَيْبَسَةِ النَّشِيعِ
لِلْمَطْلُوبَةِ وَإِذْعَانِيَّةِ فِي نَجَاةِ إِدْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَفَعَلَتْهُ
وَتَسَّ الشَّمَاخُ مِنْ مَوَالِي الْمَهْدِيِّ أَبِيهِ لِلتَّحْيِيلِ،
عَلَى قَتْلِ إِدْرِيسَ فَأَظْهَرَ الْخَلْقَ بِهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْ

بَنِي الْعَبَّاسِ، مَوَالِيهِ فَاسْتَحْمَلَ عَلَيْهِ إِدْرِيسَ وَخَطَطَهُ
بِنَفْسِهِ وَتَوَلَّاهُ الشَّمَاخُ فِي بَعْضِ خَلْقَاتِهِ سُمًّا
اسْتَهْلَكَهُ بِهِ وَوَقَعَ غَيْرَ مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ
أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ يَلْمَا رَجُوهَ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ
الْمَطْلُوبَةِ بِالْمَغْرِبِ، وَاقْتِلَاعِ جُرُثُونِهَا، وَكَمَا تَأْدَى
إِلَيْهِمْ خَبَرُ الْجَمَلِ الْمُخْلَفِ لِإِدْرِيسَ فَلَمْ يَكُنْ
لَهُمْ إِلَّا كَلًّا وَلَا وَادًا بِالدَّعْوَةِ قَدْ عَادَتْ وَالشُّبُعَةُ
بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ يُوَدُّوْلَتُهُمْ بِإِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ
قَدْ تَجَدَّدَتْ فَكَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أُنْكَى مِنْ وَقَعِ
السَّهَامِ وَكَانَ الْقَتْلُ وَالْهَرَمُ قَدْ نَزَلَا بِدَوْلَةِ الْقُرْبِ
عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ فَلَمْ يَكُنْ مَنَهِى
قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى إِدْرِيسَ الْأَكْبَرَ بِمَكَانِهِ مِنْ
قَاصِيَةِ الْمَغْرِبِ وَاشْتِمَالِ الْبَرِّ عَلَيْهِ إِلَّا التَّحْيِيلُ
فِي إِخْلَاقِهِ بِالْأُسُومِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَزَعُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ
مِنَ الْأَغْلَبِيَّةِ بِإِفْرِيقِيَّةٍ فِي سَدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ
نَاجِيَتِهِمْ وَحَسْمِ النَّهْرِ الْمُتَوَقِّعِ بِالدَّوْلَةِ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَاقْتِلَاعِ تِلْكَ الْعُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تَنْشِبَ (١) مِنْهُمْ
يُخَاطِبُهُمْ بِتِلْكَ الْمَأْمُونِ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ خُلَفَائِهِمْ
فَكَانَ الْأَغْلَبِيَّةُ عَنْ بَرَابَرَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى أَحْجَرَ
وَكَيْشَلِهَا مِنْ الرُّبُوبِ عَلَى مُلُوكِهِمْ أَخْرَجَ يَلْمَا طَرَفَ
الْخِلَافَةِ مِنْ انْتِزَاهِ سَمَائِلِ النَّجْمِ، عَلَى سُلْطَانِهَا
وَأَنْتِظَالِهَا صَوْرَةَ التَّخَلُّبِ عَلَيْهَا وَتَضَرِيفِهَا أَحْكَامَهَا
طَوَعَ أَغْرَاضَهُمْ فِي رِجَالِهَا وَجَبَابَتِهَا وَأَعْمَلَ خِطْلَهَا
وَسَائِرَ نَقْصِهَا وَإِزَامِهَا كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ .

خَلِيفَةُ فِي قَفْصِ بَيْنَ وَصِيفِ وَبَنَّا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ كَمَا تَقُولُ الْبَيْتَا
فَخَشِيَ مَوْلَاهُ الْأَمْرَاءُ الْأَغْلَبِيَّةَ بِوَادِ السَّمَايَاتِ، وَكَوَلُوا

بالمناذير، فطُورُوا بِاخْتِيارِ المَغْرِبِ، وَأَهْلِهِ، وَطُورُوا
بِالإِذْهَابِ بِشَأْنِ إِدْرِيسَ المَخَارِجِ بِهِ وَتَنْ قَامَ مَقَامَهُ
مِنْ أَغْشَائِهِ، بِمَخَاطِبِهِمْ بِتَجَاوُزِهِ حُلُودَ النُّجُومِ مِنْ
عَسَلِهِ، وَيَنْفَعِلُونَ بِسَكَّتِهِ فِي تَحْيِهِمْ وَهَدَايَاهُمْ وَمُرْتَفَعِ
جِبَابَاتِهِمْ تَهْرِيقًا بِاسْتِغْثَالِهِ وَتَهْوِيلًا بِاسْتِغْنَائِهِ وَشَوْكِيهِ،
وَتَعْظِيمًا لِمَا دُعُوا إِلَيْهِ مِنْ مَطَالِبِهِ وَمِرَاسِهِ وَتَهْلِيلًا
بِقَلْبِ الدَّعْوَةِ إِنْ أَلْجَأُوا إِلَيْهِ، وَطُورُوا بِطَعْنُونَ فِي
نَسَبِ إِدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الطَّعْنِ الكَاذِبِ تَخْفِيفَ
لِغَايِهِ، لَا يَبَالُونَ بِصَلْفِهِ مِنْ كَلْبِهِ لِيُسَدَّ الْمَسَافَةُ مَا
وَأَقْبَى (١) عَقُولَ مَنْ خَلَفَ مِنْ صَبِيهِ بَنِي النُّبَّاسِ،
وَمَمَالِكِهِمُ الصِّمَمِ فِي الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ قَاتِلٍ بِوَالِ السَّمْعِ
لِكُلِّ نَاعِقٍ بَوَلَمَ يَزُولُ هَذَا ذَابُهُمْ حَتَّى انْقَضَى أَمْرُ
الْأَعْيَالِ، فَقَرَعَتْ عَلَيْهِ الْكَلِمَةُ الشَّعْبَاءُ اسْتِمَاعَ التَّوَعَّاهِ
وَصَرَ طَلَبًا بِمَعْضِ الطَّائِفِينَ أَذْنَهُ وَاعْتَدَاهَا ذَرِيَّةً إِلَى
النَّبِيلِ مِنْ خَلْفِهِمْ جِنْدَ التَّنَافُسِ، وَمَالَهُمْ قَبْضَهُمُ اللَّهُ
وَالْمَعُولُ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فَلَا تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ
الْمَقْطُوعِ وَالْمَطْنُونِ وَإِدْرِيسَ وَلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِيهِ
وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ عَلَى أَنْ تَنْزِيهِ أَهْلَ الْبَيْتِ عَنْ مِثْلِهِ
هَذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الإِيمَانِ، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ
عَنْهُمْ الرُّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا، فَمِرَاشُ إِدْرِيسَ
طَاهِرٌ مِنَ النَّفْسِ وَمُتَوَّهٌ عَنِ الرُّجْسِ بِحُكْمِ الْقَرَارِ
وَمَنْ اعْتَقَدَ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ بَاءَ بِأَلِيمِهِ وَوَلَّجَ الْكَفَرُ
مِنْ بَابِهِ، وَإِنَّمَا أُطْقِيتُ فِي هَذَا الرَّدِّ سَدًّا لِأَيُّوَابِ
الرُّبُوبِ وَكَفَالًا فِي صَدْرِ الْحَايِدِ لِمَا سَمِعْتَهُ أَكْثَا مِنْ
قَائِلِهِ الْمُعْتَدِي عَلَيْهِمُ الْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِغَيْرِ رِيءٍ
وَيَنْفَعُهُ بِزُغْيِهِ عَنْ بَعْضِ مَوَاضِيِ الْمَغْرِبِ مِنْ

انْصَرَفَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَارْتَابَ فِي الإِيمَانِ بِسَلَفِهِمْ
وَالْأَلْحَلُّ مُتَوَّهٌ عَنْ ذَلِكَ مُتَّصُومٌ مِنْهُ بَوْنُ
الْقَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ قَيْبُ، لِكُنْثَى جَانَلَتْ عَنْهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
وَلَيَنْظُرَنَّ أَنَّ أَكْثَرَ الطَّائِفِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمْ
الْحَسَنَةُ لِأَغْفَابِ إِدْرِيسَ، هَذَا مِنْ مُتَمَرِّدٍ إِلَى أَهْلِ
الْبَيْتِ أَوْ تَحْيِيلِ فِيهِمْ فَإِنَّ ادِّعَاءَ هَذَا النَّسَبِ
الْكَرِيمِ دَعْوَى شَرِّفٍ عَرِيفَةٍ عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَجْبَالِ
مِنْ أَهْلِ الْآفَاقِ فَتَقَرُّسُ التَّهْمَةُ فِيهِ، وَلَكِنَّا كَانُوا نَسَبُ
بَنِي إِدْرِيسَ هَؤُلَاءِ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ قَارِسَ وَسَائِرِ
دِيَارِ الْمَغْرِبِ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ مِثْلَهَا
لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي دَرْكِهِ، إِذْ هُوَ نَقْلُ
الْأُمَمِ وَالْجِبَالِ مِنَ الْخَطَرِ عَنِ الْأُمَمِ وَالْجِبَالِ مِنْ
السُّلُوفِ، وَبَيَّتَ جَدُّهُمُ إِدْرِيسُ مُخْطَطَ قَارِسَ وَمَوْسِمَهَا
مِنْ بَيُوتِهِمْ وَمَوْسِمَ جَدِّهِ لِقَبْضِ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبِهِمْ وَسَيْفَهُ
مُنْتَضَى بِرَأْسِ الْمَازِنَةِ الْمُطْلَقِ مِنْ قَرَارِ بِلَدِهِمْ وَغَيْرِ
ذَلِكَ مِنْ آثَارِهِ الَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارَهَا حُلُودَ التَّوَاتُرِ
مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تُلْحَقُ بِالْعِيَانِ فَإِذَا نَظَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ
أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إِلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا
عَصَدَ شَرَفُهُمُ النَّبِيُّ مِنْ جِلَالِ الْمُلْكِ الَّذِي كَانَ
لِسَلَفِهِمْ بِالْمَغْرِبِ، وَاسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمِثْلٍ عَنْ ذَلِكَ
وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَدَّ أَحَدِيهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ وَأَنَّ غَايَةَ أَمْرِ
الْمُنْتَمِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ
أَمْثَالُ هَذِهِ الشُّوَاهِدِ أَنْ يُسَلَّمَ لَهُمْ حَالَهُمْ لِأَنَّ النَّاسَ
مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ، وَيَبُونُ مَا بَيْنَ الْيَمْرِ وَالْقَلْبِ
وَالْبَقِيَّةِ وَالنَّسْلِ، فَإِذَا عَلِمَ بِالْمُلْكِ مِنْ نَفْسِهِ فَصِ
بِرِيقِهِ وَوَدَّ كَثِيرَ مِنْهُمْ لَوْ يَرَوْهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ
سُوقَةً وَوَضَاعًا حَسَنًا مِنْ جِنْدِ أَنْفُسِهِمْ

فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْيَنَادِ وَارْتِكَابِ الْجُنَاحِ وَالْبُهْتِ
يُجِثِلُ هَذَا الطَّنْزِ الْفَائِلِ ^(١) بِرَأْيِ الْقَوْلِ الْمَكْلُوبِ تَعْلًا
وَالْمُسَوِّاةِ فِي الظَّنِّ وَالْمُشَاهِدَةِ فِي تَطَرُّقِ الْإِحْصَالِ
وَمَقَامَاتِ لَهُمْ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي الْمَغْرِبِ فِيمَا نَعْلَمُهُ
مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الْكَرِيمِ، مَنْ يَبْلُغُ فِي صِرَاحَةِ
تَسْبِيهِ وَوُضُوحِهِ مَبَالِغَ أَغْصَابِ إِدْرِيسَ هَذَا مِنْ آلِ
الْحَسَنِ، وَكِبَرِ أَوْفُقِهِمْ لِهَذَا الْمَهْدِ بَنُو عِمْرَانَ بِقَاسِ
مِنْ وَلَدِ يَحْيَى الْحُرِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى التَّوَّامِ
ابْنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَدْرِيسَ، وَهُمْ نَقَبَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ
هُنَاكَ، وَالسَّائِكُونَ بِبَيْتِ جَدِّهِمْ إِدْرِيسَ، وَلَهُمُ السِّيَادَةُ
عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ كَأَفْوَ حَسْبًا نَذَرَهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ
الْأَدَارِسَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَيَلْحَقُ بِهَذِهِ الْمَقَالَاتِ الْقَاسِيَةِ وَالْمَنَازِبِ
الْقَائِلَةِ، مَا يَتَوَلَّاهُ ضَعْفُ الرَّأْيِ مِنْ
فَقْهَاءِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْقَدَحِ فِي الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ
صَاحِبِ دَوْلَةِ الْمُؤَحِّدِينَ وَرِسْمَتِهِ إِلَى الشُّعُوذَةِ
وَالْتَلْبِيسِ فِيمَا آتَاهُ مِنَ الْقِيَامِ بِالتَّوْحِيدِ الْحَقِّ
وَالنُّعْيِ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ قَبْلَهُ وَتَكْلِيهِمْ لِجَمِيعِ
مُدْعِيَاتِهِ فِي ذَلِكَ حَتَّى فِيمَا يَزْعُمُ الْمُؤَحِّدُونَ اتِّبَاعَهُ
مِنْ انْتِسَابِهِ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ وَإِنَّمَا حَكَلَ الْفَقْهَاءُ عَلَى
تَكْلِيهِمْ مَا كَمَنَّ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَأْنِهِ
فَانْتَهَمَ لَمَّا رَأَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَنَافَقَتَهُ فِي الْإِلْمِ
وَالنُّبَيَّا وَفِي الدِّينِ يَزْعُمُهُمْ ثُمَّ اخْتَارَ عَنْهُمْ بِلَانَهُ
مَتَّبِعُ الرَّأْيِ، مَسْمُوعُ الْقَوْلِ، مَوْطَأُ الْعَيْبِ نَفَسُوا
ذَلِكَ عَلَيْهِ وَغَضُّوا يَدَهُ بِالْقَدَحِ فِي مَلَاهِيهِ وَالتَّكْلِيهِ
لِإِدْعِيَاتِهِ، وَابْتِغَاءً فَكَانُوا يُؤَيِّسُونَ مِنْ مُلُوكِ لِمَنُوتَةِ
أَعْيَانِهِ تَجَلَّةً وَكَرَامَةً لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ لِمَا

وَيَلْحَقُ بِهَذِهِ الْمَقَالَاتِ الْقَاسِيَةِ وَالْمَنَازِبِ
الْقَائِلَةِ، مَا يَتَوَلَّاهُ ضَعْفُ الرَّأْيِ مِنْ
فَقْهَاءِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْقَدَحِ فِي الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ
صَاحِبِ دَوْلَةِ الْمُؤَحِّدِينَ وَرِسْمَتِهِ إِلَى الشُّعُوذَةِ
وَالْتَلْبِيسِ فِيمَا آتَاهُ مِنَ الْقِيَامِ بِالتَّوْحِيدِ الْحَقِّ
وَالنُّعْيِ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ قَبْلَهُ وَتَكْلِيهِمْ لِجَمِيعِ
مُدْعِيَاتِهِ فِي ذَلِكَ حَتَّى فِيمَا يَزْعُمُ الْمُؤَحِّدُونَ اتِّبَاعَهُ
مِنْ انْتِسَابِهِ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ وَإِنَّمَا حَكَلَ الْفَقْهَاءُ عَلَى
تَكْلِيهِمْ مَا كَمَنَّ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَأْنِهِ
فَانْتَهَمَ لَمَّا رَأَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَنَافَقَتَهُ فِي الْإِلْمِ
وَالنُّبَيَّا وَفِي الدِّينِ يَزْعُمُهُمْ ثُمَّ اخْتَارَ عَنْهُمْ بِلَانَهُ
مَتَّبِعُ الرَّأْيِ، مَسْمُوعُ الْقَوْلِ، مَوْطَأُ الْعَيْبِ نَفَسُوا
ذَلِكَ عَلَيْهِ وَغَضُّوا يَدَهُ بِالْقَدَحِ فِي مَلَاهِيهِ وَالتَّكْلِيهِ
لِإِدْعِيَاتِهِ، وَابْتِغَاءً فَكَانُوا يُؤَيِّسُونَ مِنْ مُلُوكِ لِمَنُوتَةِ
أَعْيَانِهِ تَجَلَّةً وَكَرَامَةً لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ لِمَا

(١) مكان فرق طم الورلا لا يلمه إلا خلقه .

لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ إِنْ بُهِتَ أَنَّهُ أَدْعَاهُ وَانْتَسَبَ إِلَى الْبَيْتِ فَلَا

التاريخ. وأما مخيلنا ونأظره مرتبكا وعُد من
مناجى العامة

فلما يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم
بقواعد السياسة وطرائق الموجودات وأحوالات
الأمر والباق والأخصار في السير والأخلاق والعوائد
والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والإحاطة
بالتأثير من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغالب
من الواقع أو بون ما بينهما من الخلاف وتطويل
المتغير منها والمخلف، والقيام على أصول الدول
والعيل ومبادئ ظهورها وأسباب حلوها وتوابع
كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون
مستوعبا لأسباب كل خبره، وحينئذ يعرض خبر
المتحول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن
وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا، وإلا
زيغه واستغنى عنه.

وما استكبر القنمته علم التاريخ إلا
لذلك، حتى انتحل الطبري والبخاري وابن
إسحاق من قبلهما وأمثالهم من علماء الأمة، وقد
ذهل الكثير عن هذا السرفيه حتى صار انتحاله
مجهلة، واستخف العوام ومن لا رسوم له في المعارف
مطالعة وحمله والخرص فيه والتطفل عليه، فاستغلط
المرجى بالهمل، والكتاب بالفسر بوالصادق بالكاذب،
وللى الله عافية الأمور.

ومن القليل الغنى في التاريخ الدهور
عن تبدل الأحوال في الأمر والأجبال بتبدل
الأخصار وتروير الأيام، وهو ذاك قوى شديد الخفاء
إذ لا يقع إلا بعد أصاب متعلولة، فلا يكاد يتفطن

قليل يقوم على بطلانه لأن الناس صدقون في
أنسابهم. وإن قالوا إن الرئاسة لا تكون على
قوم في غير أهل جلدتهم، كما هو الصحيح، حسبنا
يأتى في الفصل الأول من هذا الكتاب والرجل قد
رأس سائر المصايد ودأبنا باتباعه والإنقياد إليه
والى عصابه من فرقة حتى تم أمر الله في ذميره
فاعلم أن هذا النسب الفاطمي لم يكن أمر
المهدي يتوقف عليه ولا اتبته الناس بسببه وإنما
كان اتباعهم له بصيغة الهزيمة والمضموية
ومكانه منها ورسوم شجره فيها وكان ذلك
النسب الفاطمي خفيا قد درس عند الناس وبقي
جنه وعند غيري يتناقلونه بينهم، فيكون النسب
الأول كأنه انسلخ منه، وليس جلدة هؤلاء وظهور
فيها فلا يصره الانتساب الأول في عصبته، إذ هو
مجهول عند أهل المصايد ومثل هذا واقع كثيرا
إذا كان النسب الأول خفيا وانظر قصة فرقة
وجريه في رئاسة بجيلة وكيف كان فرقة من الأزدي
وليس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جريه رئاستهم
عند عمر رضى الله عنه كما هو مذکور تتفهم منه
وجه الحق والله الهادي للصواب.

وقد كذا أن نخرج عن فرض الكتاب
بالطباب في ذكر هذه المغالط، فقد زلت
أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين الحفاظ
في مثل هذه الأحاديث والآراء وعلقت بالكاهن
وتلقاها عنهم الكافة من صحة النظر والتملة عن
القياس وتلقوها هم أيضا كذلك من غير بحث
ولارؤية واندرجت في مضبوطاتهم، حتى صار

فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَمَرَّعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَتَأَخَّلُوا
الكثيرَ مِنْهَا، وَلَا يُغْفَلُونَ عَوَائِدَ جَبَلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ
فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ الدُّوَلَةِ بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْجَبَلِ
الأولِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْلِهِمْ وَمَزَجَتْ
مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا، خَالَفَتْ أَيْضًا بَعْضَ الشَّيْءِ
وَكَانَتْ لِلأُولَى أَشَدَّ مُخَالَفَةً، ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّنْزِيجُ
فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى التَّبَايُنِ بِالْجُمْلَةِ، فَمَا
كَانَتْ الأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ تَتَقَابَلُ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ
لَا تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ وَاقِعَةً وَالْقِيَاسُ
وَالْمُحَاكَاةُ لِلإِنْسَانِ طَبِيعَةً مَرُوءَةً، وَمِنْ الْقَلْبِ خَيْرُ
مَأْمُونَةٍ تُخْرِجُهُ مَعَ الدُّهُورِ وَالْقَلْبَةِ عَنْ قَصْدِهِ وَتَوَجُّعِ
بِهِ عَنْ مَرَايِهِ، فَارْتِمَا يَسْمَعُ لِسَامِعٍ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ
الْمَاضِينَ، وَلَا يَنْفَقُلْنَ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ
وَانْقِلَابِهَا فَيُخْرِجُهَا لِأَوَّلِ وَهَلَّةٍ عَلَى مَا عَرَفُوا بِقِيَمِهَا
بِمَا شَهِدَ، وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقَعُ
فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْقَلْبِ .

فَإِنْ هَذَا الْبَابُ مَا يَنْقُلُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ
أَحْوَالِ الْحَجَّاجِ وَأَنْ أَبَاهُ كَانَ مِنَ الْمُطْلَبِينَ
مَعَ أَنْ التَّخْلِيفَ لِهَذَا التَّهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ
الْمَعَايِشِيَةِ الْبَحِيَّةِ مِنْ اخْتِزَانِ أَهْلِ النَّصِيبَةِ، وَالْمُعَلِّمِ
مُسْتَضْعَفٍ يَسْكِينُ مُنْقَطِعَ الْجُلْمِ (١) فَيَتَشَوَّفُ
الكثيرَ مِنَ الْمُتَشَفِّعِينَ أَهْلَ الْحَرْفِ وَالصَّنَائِعِ
الْمَعَايِشِيَةِ إِلَى تَبْيِيلِ الرُّتَبِ الَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ
وَيَعْلَوْنَهَا مِنَ التُّمَكِّنَاتِ لَهُمْ، فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَسَاوِسُ
الطَّمَاعِ، وَرُبَّمَا انْقَطَعَ جَبَلُهُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَسَقَطُوا
فِي مَهْوَاةِ الْهَلَكَةِ وَالتَّلَفِ وَلَا يَتَلَمَّحُونَ اسْتِحَالَاتَهَا

(١) الجلم : بكر الجلم الاصل .

لَهُ إِلَّا الْاِسْتِدَارَ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ، وَكَذَلِكَ أَنَّ أَحْوَالَ
الْمَلِكِ وَالْأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَيَحْتَكُمُ لَا تَدُومُ عَلَى
وَبَرَةٍ وَاجِدَةٍ وَمِنْهَا يَخْرُجُ مُسْتَفْتٍ إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ عَلَى
الْأَيَّامِ وَالْأَزْمِنَةِ وَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَكَمَا
يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَشْخَاصِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَمْصَارِ فَكَذَلِكَ
يَقَعُ فِي الْأَقَائِقِ وَالْأَقْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالْأَدْوَالِ سُنَّةُ اللَّهِ
الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ، وَقَدْ كَانَتْ فِي الْمَلِكِ أُمَمُ
الْفَرَسِ الْأُولَى وَالسَّرِيَانِيِّينَ وَالنَّبَطَ وَالنَّبَايِعَةَ وَبَنُو
إِسْرَائِيلَ وَالْقَبِطَ، وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَةٍ بِهِمْ
فِي دَوْلَتِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ
وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارَكَتِهِمْ مَعَ آبَائِهِمْ جَنَسِهِمْ.
وَأَحْوَالُ اخْتِصَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ ثُمَّ
جَاءَ مِنْ بَعْلِهِمُ الْفَرَسُ الثَّانِيَةُ وَالرُّومُ وَالْعَرَبُ
فَقَبَّلَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالَ، وَانْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى
مَا يَجَانِبُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا وَإِلَى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاغِدُهَا،
ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةٍ مُضَرَّ فَاَنْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالَ
أَجْمَعُ انْقِلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارَفٌ
لِهَذَا التَّهْدِ بِأَخْذِهِ الْخَلْفَ عَنِ السَّلَفِ، ثُمَّ دَوَسَتْ
دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَتْ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ
شِيدُوا عِزَّهُمْ وَمَهْوُوا مَلِكُهُمْ، وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَيْدِي
يَوْمَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ يَهْدِي التُّرْكَ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ
بِالْمَغْرِبِ، وَالْبَرْبَرِ نَجَبَ بِالشَّمَالِ، فَتَلَحَّتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَمُ
وَانْقَلَبَتْ أَحْوَالُ وَعَوَائِدُ نَبِيٍّ شَأْنُهَا وَأَغْوَلَ أَمْرُهَا .
وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ
عَوَائِدَ كُلِّ جَبَلٍ تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يَقَالُ
فِي الْأَنْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ، النَّاسُ عَلَى دِينِ السُّلْطَانِ مُوَأْفَلُ
الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا اسْتَوَلُوا عَلَى الدُّوَلَةِ وَالْأَمْرِ

فِي حَقِّهِمْ وَأَنَّهُمْ أَهْلُ حِرَفٍ وَصَنَائِعٍ لِلْمَعَايِشِ، وَأَنَّ
التَّعْلِيمَ صَنْدُ الْإِسْلَامِ وَالذُّلُوتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ
وَلَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً إِنَّمَا كَانَ نَفْلًا لِمَا
سُمِعَ مِنَ الشَّارِعِ وَتَعْلِيمًا لِمَا جُهِلَ مِنَ الدِّينِ عَلَى
جِهَةِ الْبَلَاغِ، فَكَانَ أَهْلُ الْأَنْسَابِ وَالْعَصَبِيَّةِ الَّذِينَ
قَامُوا بِالْجُمْلَةِ هُمُ الَّذِينَ يُكَلِّمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ
نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ الْخَبَرِيِّ
لَا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ الصَّنَاعِيِّ، إِذْ هُوَ كِتَابُهُمُ الْمُنَزَّلُ
عَلَى الرُّسُولِ مِنْهُمْ وَبِهِ هِدَايَتُهُمْ وَالْإِسْلَامُ بَيْنَهُمْ
قَاتِلُوا عَلَيْهِ وَقَتَلُوا وَاخْتَصَمُوا بِهِ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ
وَعَرَّفُوا بِخَبَرِ صَوْنٍ عَلَى تَبْلِيغِ ذَلِكَ وَتَفْهِيمِ لِلْأُمَّةِ
لَا تَصُدِّقُهُمْ عَنْهُ لِأَمَّةِ الْكَبِيرِ، وَلَا يَزَعُهُمْ عَادِلُ الْأَنْفَةِ،
وَيَشْهَدُ لِلذَلِكَ بِعَثِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبَارَ
أَصْحَابِهِ مَعَ وَفُودِ الْعَرَبِ، يُعَلِّمُونَهُمْ حُدُودَ الْإِسْلَامِ
وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ، بَعَثَ فِي ذَلِكَ مِنْ
أَصْحَابِهِ الْعَشْرَةَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ
وَوَسَّجَتْ عُرُوقُ الْمِلَّةِ حَتَّى تَنَالَهَا الْأُمَمُ الْبَيْيِئَةُ
مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا، وَاسْتَحَالَتْ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ أَحْوَالُهَا
وَكَثُرَ اسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ
لِيَتَعَدَّ الْوَقَائِعُ وَتَلَاحُظَهَا فَاجْتِنَابُ ذَلِكَ لِقَانُونٍ
يَحْفَظُهُ مِنَ الْخَطَا، وَصَارَ الْعِلْمُ مَلَكَةً يَحْتَاجُ إِلَى
التَّعَلُّمِ، فَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ كَمَا
يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فُصْلِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ، وَاسْتَحَالَ أَهْلُ
الْعَصَبِيَّةِ بِالْقِيَامِ بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ فَتَفِيعَ لِلْعِلْمِ
مَنْ قَامَ بِهِ مِنْ يَوْمَانِ، وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَايِشِ وَتَمَحَّضَتْ
أَنْوَابُ الْمُتَرَفِّعِينَ وَأَهْلُ السُّلْطَانِ عَنِ التَّصَدُّقِ لِلتَّعْلِيمِ،
وَاخْتَصَّ انْتِحَالُهُ بِالْمُسْتَغْنِيَيْنِ، وَصَارَ مُتَنَحِّلُهُ

مُخْتَفِرًا حَيْثُ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ وَالْمُلْكِ وَالْحَبَاجُ بِهِ
يُوصَفُ كَانَ أَبَوُهُ مِنْ سَادَاتِ نَقِيبٍ وَأَشْرَافِهِمْ
وَمَكَانَهُمْ مِنَ عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ وَمُنَاقَضَةً قَرِيبَةً
فِي الشَّرَفِ مَا حَلِمَتْ وَلَمْ يَكُنْ تَعْلِيمُهُ لِلْفُرَّانِ عَلَى
مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ لِلْمَعَايِشِ،
وَأِنَّمَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَا مِنْ الْأُمُورِ الْأُولَى فِي الْإِسْلَامِ،
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا مَا يَتَوَعَّمُهُ الْمُتَفَحَّرُونَ
لِكُتُبِ التَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ الْقَضَاءِ وَمَا كَانُوا
عَلَيْهِ مِنَ الرَّقَاسَةِ مِنَ الْحُرُوبِ وَقُودِ الْمَسَاكِرِ، فَتَتَرَامَى
بِهِمْ وَسَاوِسُ الْمَهْمِ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ الرَّبِّ يَحْصِبُونَ
أَنَّ الشَّأْنَ فِي خُطَّةِ الْقَضَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ
عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَيَتَطَوَّنُ بِإِبْنِ أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ هِسَامِ
الْمُسْنَدِ عَلَيْهِ وَابْنِ عِبَادٍ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِإِسْبِئِلِيَّةِ
إِذَا سَمِعُوا أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ كَانُوا قَضَاءَ أَنَّهُمْ مِثْلُ الْقَضَاءِ
لِهَذَا الْعَهْدِ، وَلَا يَتَفَحَّرُونَ لِمَا وَقَعَ فِي رُبْعَةِ الْقَضَاءِ مِنْ
مُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي فُصْلِ الْقَضَاءِ مِنَ
الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَابْنُ عِبَادٍ كَانَا مِنْ
قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ
وَأَهْلِي عَصَبِيَّتِهَا، وَكَانَ مَكَانُهُمْ فِيهَا مَعْلُومًا، وَلَمْ يَكُنْ
تَبْلِيغُهُ لِمَا نَالُوهُ مِنَ الرَّقَاسَةِ وَالْمُلْكِ بِخُطَّةِ الْقَضَاءِ
كَمَا هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ، بَلْ إِنَّمَا كَانَ الْقَضَاءُ فِي الْأُمُورِ
الْقَلِيمَةِ لِأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ الدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا
كَمَا هِيَ الْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِالْمَغْرِبِ وَأَنْظَرُوا هُجُومَهُمْ
بِالْمَسَاكِرِ فِي الطَّوَائِفِ وَتَقْلِيدَتَهُمْ عَقَائِمَ الْأُمُورِ الَّتِي
لَا تَقْلُدُ إِلَّا لِمَنْ لَهُ الْعَنَى فِيهَا بِالْعَصَبِيَّةِ قَبْلَظُهُ
السَّامِعِ فِي ذَلِكَ وَيَحْوِلُ الْأَحْوَالَ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ .
وَكَثُرَ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْخَلِيقِ ضَعْفَاءُ الْبَصَائِرِ مِنْ

الرَّجَالِ مِنْ خَلْفِ تَوَلِّيهِمْ وَتَقْلِيدِ الْخَطِّاءِ وَالْمَرَاتِبِ
لَأَيَّامِ صَنَائِعِهِمْ وَذَوِيهِمْ، وَالْقَضَاءُ أَيْضًا كَانُوا مِنْ
أَهْلِ حَصْبَةِ الدَّوْلَةِ وَفِي جِنَادِ الزُّرَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ
لَكَ فَحَاجُّونَ إِلَى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ .

وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ الدُّوَلُ وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْعُصُورِ
وَوَقَفَ الْقَرْصُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً وَبِنَسَبِ
الدُّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فِي قُوَّتِهَا وَعَلَبَتِهَا وَمَنْ كَانَ
يُنَاسِبُهَا الْأُمَمُ أَوْ يُقَصِّرُ عَنْهَا، فَمَا الْفَائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ
فِي هَذَا التَّهْلِيهِ ذِكْرَ الْأَيَّامِ النَّسَائِيَّةِ وَنُفُوسِ الْخَاتَمِ وَالْقَبْرِ
وَالْقَضَى وَالزُّرَرِ وَالْحَاجِبِ مِنْ قَوْلِهِ قَلْبِي لَا يَكْتَرِفُ
فِيهَا أَصُولَهُمْ وَلَا أَنْسَابَهُمْ وَلَا مَقَامَاتِهِمْ، إِنَّمَا حَاطَلَهُمْ
عَلَى ذَلِكَ التَّقْلِيدُ وَالْقَلْبَةُ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُؤَلِّفِينَ
الْأَقْدَمِينَ، وَالذُّهُونُ عَنْ تَحَرُّي الْأَغْرَاضِ مِنَ التَّارِيخِ
اللَّهُمَّ إِلَّا ذَكَرَ الزُّرَرَاءَ الَّذِينَ عَظُمَتْ أَعْيَانُهُمْ وَصَفَتْ
عَنِ الْمُلُوكِ أَعْيَانُهُمْ كَالْحَاجِجِ وَبَنَى الْمُهَلِّبِ
وَالْبَرَامِكَةِ وَبَنَى سَهْلِ بْنِ نُوَيْخَةَ وَكَانُوا لِأَعْيُنِي
وَابْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ فَغَيْرُ نَكِيرٍ الْأَلْسَاعُ بِأَبَائِهِمْ
وَالْإِشَارَةُ إِلَى أَحْوَالِهِمْ لِاتِّبَاعِهِمْ فِي جِنَادِ الْمُلُوكِ .
وَلْتَذَكَّرْ هُنَا فَالِدَةً قَدْ خُذِمَ كَلَامُنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ
بِهَا وَهِيَ أَنَّ التَّارِيخَ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ الْأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ
بِخَصَرٍ أَوْ جَيْلٍ، فَأَمَّا ذِكْرُ الْأَحْوَالِ الْعَامَّةِ لِلْأَقْدَامِ
وَالْأَجْيَالِ وَالْأَعْيَانِ فَهُوَ أَسْلُوبُ الْمُرُوءِخِ نَتَبَّنِي عَلَيْهِ
أَكْثَرَ مَقَاصِدِهِ وَتَتَبَّنِي بِهِ أَعْيَانُهُ، وَقَدْ كَانَ النَّاسُ
يُفْرِدُونَهُ بِالتَّأْلِيفِ كَمَا فَعَلَهُ الْمُسَوْدِيُّ فِي كِتَابِ
«مُرُوجِ الدَّبَرِ» . شَرَحَ فِيهِ أَحْوَالَ الْأُمَمِ وَالْأَقْدَامِ
لِعَمْدِهِ فِي عَصْرِ التَّلَاكِينِ وَالتَّلَاكِيَةِ خَرَبًا وَشَرَفًا
وَذَكَرَ يَحْيَاهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ وَوَصَفَ الْبُلْدَانَ وَالْجِبَالَ

أَهْلِي الْأَتْلَسِ لِهَذَا التَّهْدِ، لِفَتْكَانِ الْحَصْبَةِ فِي
مَوَاطِنِهِمْ مِنْدَ أَصْغَارِ بَيْمَاتِهِ بِغَنَاءِ الرَّبِّ وَكَوْلَتِهِمْ
بِهَا وَخُرُوجِهِمْ عَنْ مَلَكَةِ أَهْلِ الْحَصْبَاتِ (١) مِنْ
الْبَرِّيَّةِ قَبِيحَتِ أَنْسَابَهُمُ الْعَرَبِيَّةُ مَحْضُوعَةٌ وَاللَّيْثِيَّةُ
إِلَى الْبُرِّيَّةِ الْحَصْبَةِ وَالنَّصَابِرُ مَقْضُوعَةٌ بَلْ صَارُوا
مِنْ جُمْلَةِ الرُّعَايَا الْمُتَحَافِلِينَ الَّذِينَ تَعَبَّدَهُمُ الْقَهْرُ
وَوَكَيْمُوا الْمَلَكَةَ يَحْتَسِبُونَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ مَعَ مَخَاطَلَةِ
الدَّوْلَةِ هِيَ الَّتِي يَكُونُ لَهُمْ بِهَا الْقَبْضُ وَالْحُكْمُ
فَتَجِدُ أَهْلَ الْحَرْفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَصَدِّقِينَ لِلذَّكَ
سَامِعِينَ فِي نَبَلِهِ، فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ الْقَبَائِلِ وَالْحَصْبَةِ
وَقَوْلَهُمْ بِالْمُطَوِّعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَكَيْفَ يَكُونُ التَّغْلِبُ بَيْنَ الْأُمَمِ
وَالْعَشَائِرِ، فَقَلْبًا يَخْطِئُونَ فِي ذَلِكَ وَيُخْطِئُونَ فِي اعْتِبَارِهِ .
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا مَا يَسْلُكُهُ الْمُؤَرِّخُونَ
عِنْدَ ذِكْرِ الدُّوَلِ وَنَسَبِ مُلُوكِهَا فَيَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ
وَنَسَبَ وَأَبَاءَ وَأُمَّه وَنِسَاءَهُ وَلَقَبَهُ وَخَاتَمَهُ وَقَضِيصَهُ
وَحَاجِبَهُ وَوَزِيرَهُ، كُلُّ ذَلِكَ تَقْلِيدُ لِمُؤَرِّخِي الدَّوَلَتَيْنِ
مِنْ غَيْرِ تَقْلِيدٍ لِمَقَاصِدِهِمْ، وَالْمُؤَرِّخُونَ لِذَلِكَ التَّهْدِ
كَانُوا يَصْعَقُونَ تَوَارِيخَهُمْ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ، وَأَبْنَاوَهَا
مُتَشَوِّقُونَ إِلَى سِيرِ أَسْلَابِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ لِيَتَقَنُّوا
أَعْيَانَهُمْ وَيَنْسَجِبُوا عَلَى مَنَازِلِهِمْ، حَتَّى فِي اضْطِنَاعِ

(١) الحصبية بفتح الحاء : التصبى أو ان يلب الرجل من حرج صاحبه ويحبذ في نصره . منسوبة إلى الحصبية حركة وهم اقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم القادرون من حرج من هو متاهم وهي بهذا اللفظ بمعنى .

وأما الحصبية المنسوبة في الحديث إلى الجاهل الصغير طيس متلهم دعا إلى حصبية وليس متا من قاتل على حصبية . فهي تصب رجالا لقبيلة على رجال لقبيلة أخرى للبر ديانة نسبة إلى الحصبية بمعنى قوم الرجل الذين يتصحبون له ولو من غير اقاربه ظلالا كان له حظا في ذلك وفي القتل والحرية . من مواعظ قبول الشهادة : الحصبية هي أن يعض الرجل الرجل لآفه من بين فلان أو من فيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر .

أصله ، وتحوّل العالم بأسره ، وسكّنه خلق جديدة
وتشقة شتاتة ، وعالم محدث ، فاحتاج لهذا العهد
من يكون أحوال الخليفة والآفاق وأجاليها ، والمراكب
والنحل لأهلها ، ويقفوا مشكّة المسعودى ليصرو
ليكون أصلاً يقتدى به من يلقى بين المورخين من بعثه .

وأنا فأكبر في كتابي هذا ما أمكنني منه في
هذا القطر المغربى إما صريحاً أو مندرجاً في أخباره
وتلويحاً لاختصاص قصدى في التأليف بالمغرب
وأحوال أجياله وأميه وذكر ممالكه وقوكه دون
ما سواه من الأقطار ليمتد اطلاع على أحوال المغرب
وأميه ، وأن الأخبار المتناقلة لأنفى كنه
ما أريد منه ، والمسعودى إنما استوفى ذلك ليغنى
رحلته وتقليبه في البلاد كما ذكر في كتابه ، مع
أنه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء أحواله
وقوى كل ذي علم عليهم ، ومرد العلم كله إلى
الله بوالبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب
ومن كان الله في عونى تيسرت عليه التأليف ،
وأنجحت له المسامحة والمطالب ، ونحن آملون
يعون الله فيما دشناه من أغراض التأليف ، والله
المستد والمعين وعليه التكلان .

وقد بقي علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع
الحروف التى ليست من لغات العرب إذا حرّست
في كتابنا هذا .

اعلم أن الحروف في النطق كما يتأني
شرحها بعدد هي كيفية الأصوات الخارجة من
الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع
اللهة وأطراف اللسان مع الحلق والحنك والأضراس

والبحار والممالك والدول وقرق شعوب العرب
والعجم فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلاً
يمولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه ، ثم جاءه
البكرى من بعثه ففعل مثل ذلك في المسالك
والممالك خاصة دون غيرها من الأحوال ، لأن الأمم
والأجيال لهمه لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم
تغير ، وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد
انقلبت أحوال المغرب الذى نحن شأهوه
وتبدلت بالجملة واختاض من أجيال الزبر أهلكه
على القلم بما طرأ فيه من هذه المائة الخامسة
من أجيال العرب بما كسروهم وظببهم وانتزعوا
منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من
البلدان ليملكهم هذا إلى ما نزل بالمران شرقاً
 وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون
الجارف الذى تحيت الأمم ، ودعب بأهل الجبل
وطوى كثيراً من محاسن المران ومحاها وجهه
للدول على حين حرماها وبلغ الغاية من مذاهبها
فقلص من ظلالها ، وفل من حلقها ، وأوهن من
سلطانها وتناحرت إلى الثلاثى والاضمحلال أموالها
وانتقص عمران الأرض بانتقاض البشر ، فخربت
الأمصار والمصانع ودوس السبل والمعاليم ، وخلت
الديار والمنازل ، وصفت الدول والقبائل ، وتبدل
السكن وكفى بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل
بالمغرب لكن على نسبيته ومقدار هوانه وكانما
نادى لسان الكون في العالم بالحنول والانقباض
فبادر بالإجابة والله وكوث الأرض ومن عليها
ولذا تبدلت الأحوال جملة فكانما تبدل الخلق من

عَلَيْهِ فَأَصْلَحْتُ فِي كِتَابِي هَذَا عَلَى أَنْ أَصْعَ ذَلِكَ
الْحَرْفَ السَّجْمِي بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَرْفَيْنِ اللَّذَيْنِ
يَكْتَنِفَانِيهِ ، لِيَتَوَسَّطَ الْقَارِئُ بِالنُّطْقِ بِهِ بَيْنَ
مَخْرَجِي ذَيْنِكَ الْحَرْفَيْنِ فَتَحْصُلَ تَأْيِيدُهُ وَإِنَّمَا
اِقْتَبَسْتُ ذَلِكَ مِنْ رَسْمِ أَهْلِ الْمُصَحَّفِ حُرُوفِ
الْإِسْكَامِ كَالصَّرَاطِ فِي قِرَاءَةِ خَلْفَ فَإِنَّ النُّطْقَ
يَصَادِقُ فِيهَا مُعْجَمَ مُتَوَسَّطٍ بَيْنَ الصَّادِ وَالزَّوْءِ
فَوَضَعُوا الصَّادَ وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ الزَّوْءِ
وَذَلِكَ ذَلِكَ جَنْدُهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ
فَكَذَلِكَ رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ حَرْفَيْنِ
مِنْ حُرُوفِنَا كَالْكَافِ الْمُتَوَسِّطَةِ جَنْدَ الْبَرْبَرِ بَيْنَ
الْكَافِ الصَّرِيحَةِ جَنْدَنَا وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ بِمِثْلِ اسْمِ
بَلْكَينَ فَأَضَعُهَا كَافًا وَأَنْفَطَحُهَا بِنُقْطَةِ الْجِيمِ وَاحِدَةً
مِنْ أَشْفَلِ أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقِ أَوْ أَتَنَنَيْنِ
فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسَّطٌ بَيْنَ الْكَافِ وَالْجِيمِ
أَوِ الْقَافِ وَهَذَا الْحَرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي لُغَةِ
الْبَرْبَرِ وَتَاجَأَ مِنْ غَيْرِهِ فَقُلْتُ هَذَا التَّيَّاسُ أَصْعَ
الْحَرْفَ الْمُتَوَسَّطِ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ لُغَتِنَا بِالْحَرْفَيْنِ
مِمَّا لَيْتَحَمُّ الْقَارِئُ أَنَّهُ مُتَوَسَّطٌ فَيَنْطِقُ بِهِ كَلِيلِكَ
فَتَكُونُ قَدْ دَلَّلْنَا عَلَيْهِ وَلَوْ وَضَعْنَاهُ بِرَسْمِ الْحَرْفِ
الْوَحِيدِ عَنْ جَانِبِهِ لَكُنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ مَخْرَجِهِ
إِلَى مَخْرَجِ الْحَرْفِ الَّذِي مِنْ لُغَتِنَا وَغَيْرُنَا لُغَةً
الْقَوْمِ فَأَعْلَمُ ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمُؤَقِّدُ لِلصَّوَابِ يَسْمُو وَفَضِيلُهُ .

لَوْ يَقْرَعُ الشَّفَتَيْنِ أَيْضًا فَتَنْتَابِرُ كَيْفِيَّاتُ
الْأَصْوَاتِ بِتَغَايِرِ ذَلِكَ الْقَرَعِ ، وَتَجِيءُ الْحُرُوفُ
مُتَمَايِزَةً فِي السَّمْعِ ، وَتَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ الدَّالَّةُ
عَلَى مَا فِي الصَّمَائِرِ ، وَلَيْسَتْ الْأُمُّ كُلُّهَا مُتَمَاوِيَةً فِي
النُّطْقِ بِذَلِكَ الْحُرُوفِ ، فَقَدْ يَكُونُ لِأُمَةٍ مِنَ الْحُرُوفِ
مَا لَيْسَ لِأُمَةٍ أُخْرَى وَالْحُرُوفُ الَّتِي نَطَقْتُ بِهَا
الْعَرَبُ هِيَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا كَمَا عَرَفْتُ ،
وَتَجِدُ لِلْبَرْبَرِيِّينَ حُرُوفًا لَيْسَتْ فِي لُغَتِنَا وَفِي لُغَتِنَا أَيْضًا
حُرُوفٌ لَيْسَتْ فِي لُغَتِهِمْ ، وَكَذَلِكَ الْإِفْرَنْجِيُّ وَالْتُرْكُ
وَالْبَرْبَرُ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنَ السَّجْمِ ، ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ
مِنْ الْعَرَبِ أَصْلَحُوا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمْ
الْمُسَمَّوَةِ بِأَوْضَاعِ حُرُوفٍ مَكْتُوبَةٍ مُتَحَيِّزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا
كَوَضْعِ أَلِفٍ وَبَاءٍ وَجِيمٍ وَرَاءَهُ وَطَاءُ إِلَى آخِرِ
الْثَمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ ، وَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ الْحَرْفُ الَّذِي
لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ لُغَتِهِمْ بَقِيَ مُهْمَلًا عَنِ الدَّلَالَةِ
الْكِتَابِيَّةِ مُخْلًا عَنِ الْبَيَانِ ، وَوَيْحًا يَرَسُمُهُ بَعْضُ
الْكِتَابِ بِشَكْلِ الْحَرْفِ الَّذِي يَكْتَنِفُهُ مِنْ لُغَتِنَا
قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ ، وَلَيْسَ بِكَافٍ فِي الدَّلَالَةِ بَلْ هُوَ
تَغْيِيرٌ لِلْحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ . وَلَكِنَّا كَانَ كِتَابُنَا
مُتَحَيِّزًا عَلَى اخْتِبَارِ الْبَرْبَرِ وَبَعْضِ السَّجْمِ وَكَانَتْ
تَعْرِضُ لَنَا فِي أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ
لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ كِتَابَتِنَا وَلَا أَصْلَاحِ أَوْضَاعِنَا
أَضْطَرُّرُنَا إِلَى بَيَانِهِ وَلَكِنْ نَكْتَفِ بِرَسْمِ الْحَرْفِ
الَّذِي يَلِيهِ كَمَا قُلْنَا ، لِأَنَّهُ جَنْدُنَا غَيْرُ وَافٍ بِالدَّلَالَةِ

الكتاب الأول

في طبيعة العمران في الخلقة وما يعرض فيها في البدو والحضر والطلب والكسب
والعاش والهناء والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب

وَلَمَّا بَيَّنَّا فِي الْأَكْثَرِ مِنْ جِهَةِ النَّفْعِ بِالنَّاقِلِينَ،
وَمِنْهَا الْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ الْأَحْوَالِ عَلَى الْوَقَائِعِ لِأَجْلِ
مَا يُدْخِلُهَا مِنَ التَّلْبِيسِ وَالتَّصْنُوعِ فَيَنْقَلِبُهَا الْمُخْبِرُ
كَمَا رَأَاهَا وَهِيَ بِالتَّصْنُوعِ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فِي نَفْسِهِ .
وَمِنْهَا تَقَرُّبُ النَّاسِ فِي الْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ السَّجَلَةِ
وَالْمَرَاتِبِ بِالنَّشَاءِ وَالْمَدْحِ ، وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَشَاعَةِ
الدُّخْرِ بِذَلِكَ ، فَيَسْتَفِيزُ الْإِخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ
حَقِيقَةِ ، فَالْغَفُوسُ مُولَمَّةٌ بِحُبِّ النَّشَاءِ وَالنَّاسِ
مُتَطَلِّعُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ قُرْبَةٍ
وَكَيْسُوا فِي الْأَكْثَرِ بِرَأْيِيهِمْ فِي الْفَضَائِلِ وَالْمُنَافِيسِ
فِي أَهْلِهَا . وَمِنْ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضًا وَهِيَ
سَابِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ مَا تَقْدَمُ الْجَهْلُ بِطَبَائِعِ الْأَحْوَالِ
فِي الْعُمَرَانِ ، فَإِنَّ كُلَّ حَدِيثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ ذَاتًا كَانَ
أَوْ فِعْلًا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخْصُهُ فِي ذَاتِهِ ، وَيُفِيدُهَا
يَعْرَضُ لَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ ، فَإِذَا كَانَ السَّامِعُ عَارِفًا بِطَبَائِعِ
الْحَوَادِثِ وَالْأَحْوَالِ ، فِي الْوُجُودِ وَمُقْتَضِيَاتِهَا أَعَانَهُ
ذَلِكَ فِي تَمْحِيزِ الْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ الصَّدَقِ مِنَ
الْكَلِبِ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّمْحِيزِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
يَعْرَضُ . وَكَثِيرًا مَا يَعْرَضُ لِلْسَّامِعِينَ قَبُولُ الْأَنْبَارِ
الْمُسْتَحِيلَةِ وَتَقَبُّلُهَا وَتَوَثُّرُ عَنْهُمْ كَمَا نَقَلَهُ
الْمَسْرُودُ عَنِ الْإِسْكَنْدَرِ لَمَّا صَلَّاهُ ذَوَابَّ الْبَحْرِ
عَنْ بِنَاءِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَكَيْفَ اتَّخَذَ صُنُوفَ الرِّجَاجِ

إِعْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ التَّلْوِيحِ أَنَّهُ خَبَرٌ
عَنِ الْإِجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ عُمَرَانُ الْعَالَمِ
وَمَا يَعْرَضُ لِطَبِيعَةِ ذَلِكَ الْعُمَرَانِ مِنَ الْأَحْوَالِ بِمِثْلِ
التَّوَحُّسِ وَالنَّاسِ وَالْمَصِيبَاتِ وَأَصْنَافِ التَّغْلِبَاتِ
لِلْبَشَرِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ
الْمُلْكِ وَالْمَوْلَى وَمَرَاتِبِهَا وَمَا يَنْتَحِلُهُ الْبَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ
وَتَسَامِيهِمْ مِنَ الْكُنْسِ وَالْمَعَاشِ وَالْأَلُومِ وَالصَّنَائِعِ
وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ الْعُمَرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِنْ
الْأَحْوَالِ .

وَلَمَّا كَانَ الْكَلِبُ مُتَطَرِّقًا لِلْخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ
وَكُلُّ أَسْبَابٍ تَقْتَضِيهِ . فَمِنْهَا التَّشْبِيعَاتُ لِلْأَرَاهِ
وَالْمَذَاهِبِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ الْإِعْتِدَالِ
فِي قَبُولِ الْخَبَرِ أَهْلَتْهُ حَقُّهُ مِنَ التَّمْحِيزِ وَالنَّظَرِ
حَتَّى تَتَبَيَّنَ صِدْقُهُ مِنْ كَلِبِهِ ، وَإِذَا غَامَرَ مَا تَشْبَعُ
لِرَأْيٍ أَوْ نَحَلَةٍ قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ الْأَنْبَارِ لِأَوَّلِ
وَهَلَةٍ ، وَكَانَ ذَلِكَ التَّيْلَ وَالتَّشْبِيعُ غِلَظًا عَلَى عَيْنِ
يَجِيرُهَا عَنِ الْإِنْتِقَادِ وَالتَّمْحِيزِ ، فَتَقَعُ فِي قَبُولِ
الْكَلِبِ وَتَقْلِبِهِ ، وَمِنْ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَلِبِ
فِي الْأَنْبَارِ أَيْضًا ، النَّفْعُ بِالنَّاقِلِينَ ، وَتَمْحِيزُ ذَلِكَ
يَرْجِعُ إِلَى التَّيْلِيلِ وَالتَّجْرِيعِ ، وَمِنْهَا التَّهْوُلُ عَنْ
الْمَقَاصِدِ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاقِلِينَ لَا يَتَرَفَّ الْقَصْدُ بِمَا
عَالَمٌ أَوْ سَمِعَ وَيَنْقَلِبُ الْخَبَرُ عَلَى مَا فِي ظَنِّهِ وَتَحْيِينِهِ
فَيَقَعُ فِي الْكَلِبِ . وَمِنْهَا نَوَهُمُ الصَّدَقِ وَهُوَ كَثِيرٌ

حَارَ ، فَيَسْتَوِي الْحَارُ عَلَى رُوحِ الْحَيَوَانِي وَيَهْلِكُ دَفْعَةً .
وَمِنْهُ هَلَاكُ الْمَصْعُوقِينَ وَأَنْثَالُ ذَلِكَ .

وَمِنَ الْأَنْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِي أَيْضًا
فِي تِمْنَالِ الرَّزْزُورِ الَّذِي يَرُومُهُ تَجَمُّعُ إِلَيْهِ الزَّرَّازِيرُ
يَوْمَ مَقْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ ، حَامِلَةً لِلزَّيْتُونِ ، يَوْمَهُ يَنْجَلُونَ
زَيْتَهُمْ . وَانْظُرْ مَا أَبْعَدَ ذَلِكَ عَنِ الْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ
فِي اتِّخَاذِ الزَّيْتِ .

وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ الْبُكْرِيُّ فِي بَنَاءِ الْمَدِينَةِ الْمُسَاءَةِ
ذَاتِ الْأَبْوَابِ ، تُحِيطُ بِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ
مَرَحَلَةً ، وَتَنْتَهِي عَلَى عَشْرَةِ آلَافِ بَابٍ
وَالْمَدُنُ أَيْضًا اتَّخَذَتْ لِلتَّحْصِينِ وَالْإِعْصَامِ كَمَا
يَلْتَمِ يَوْهَدِيو حَرَجَتْ عَنْ أَنْ يَحَاطَ بِهَا فَلَا يَكُونُ
فِيهَا جُصٌّ وَلَا مَعْصَمٌ ، وَكَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِي أَيْضًا
فِي حَلِيبِ مَدِينَةِ الْحَاسِ ، وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ كُلُّ بَنَاتِهَا
نَحَاسٌ يَصْخَرُهَا سِجْلَامَاةٌ ظَفِيرُ بِهَا مَوْسَى بْنُ
نُصَيْرٍ فِي غُرُوبِهِ إِلَى الْمَغْرِبِ بِوَأَنَّهَا مُطْلَقَةُ الْأَبْوَابِ
وَأَنَّ الصَّاعِدَ إِلَيْهَا مِنْ أَسْوَارِهَا إِذَا أَشْرَفَ عَلَى
الْحَائِطِ صَفَّقَ وَرَمَى بِنَفْسِهِ ، فَلَا يَرْجِعُ آخِرُ الدَّغْرِ
فِي حَلِيبِ مُسْتَحِيلَةٍ عَادَةً مِنْ خَرَائِفِ الْقَصَاصِ .
وَصَخْرَاهُ سِجْلَامَاةٌ قَدْ نَفَضَهَا الرُّكَابُ وَالْأَدْلَامُ وَكَمْ
يَقِفُوا لِيَهْلِكُ الْمَدِينَةُ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ إِنَّ هَلِيهِ الْأَحْوَالَ
الَّتِي ذَكَرُوا عَنْهَا كُلُّهَا مُسْتَحِيلٌ عَادَةً ، مُتَأَنٍّ
لِلْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي بَنَاءِ الْمَدُنِ وَاخْطِاطِهَا ، وَأَنَّ
الْمَعَادِينَ غَايَةَ الْمَوْجُودِ مِنْهَا أَنْ يُصْرَفَ فِي الْآثِيَةِ
وَالْغُرَى (١) وَأَمَّا تَشْيِيدُ مَدِينَةٍ مِنْهَا فَكَمَا نَرَاهُ
مِنَ الْإِسْتِحَالَةِ وَالْبَعْدِ بِوَأَنَّثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَتَمْنِيحُهُ
إِنَّمَا هُوَ بِمَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْقَمَرَانِ وَهُوَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ

(١) انظر في القسم الثالث البيت : قلموس .

وَقَاصُ فِيهِ إِلَى قَمَرِ الْبَحْرِ حَتَّى صَوَّرَ تِلْكَ الدَّوَابَّ
الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي رَأَاهَا وَعَمِلَ تَمَازِيلَهَا مِنْ أَجْسَادِ
مَدِينَةٍ يَوْصَفُهَا حِلَاءُ الْبَنَاتِ ، فَفَرَّتْ تِلْكَ الدَّوَابُّ
حِينَ خَرَجَتْ ، وَعَايَنْتَهَا وَتَمَّ يَنْلُوكَهَا فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ
مِنْ أَكَايِدِ هَرَاةٍ مُسْتَحِيلَةٍ ، مِنْ قِبَلِ اتِّخَاذِهِ
الثَّابُوتِ الرَّجَاجِيِّ وَمُضَادَّةِ الْبَحْرِ وَأَمْوَاجِهِ بِجُرُوبِهِ ،
وَمِنْ قِبَلِ أَنَّ الْمَلُوكَ لَا تَحِيلُ أَنْفُسَهَا عَلَى مِثْلِ هَذَا
الْقُرُوبِ ، وَمَنْ اعْتَصَمَ مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ
وَاتْتِفَاقِ الْمُنَادِيَةِ وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ . وَفِي
ذَلِكَ إِتْلَافُهُ وَلَا يَنْتَقِظُونَ بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غُرُوبِهِ ذَلِكَ
طَرَفُهُ عَيْنٍ . وَمِنْ قِبَلِ أَنَّ الْجَنَّ لَا يَعْرِفُ لَهَا صُورَ
وَلَا تَمَازِيلَ تَخْتَصُّ ، بِهَا إِنَّمَا هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى التَّشْكِكِ ،
وَمَا يَذْكَرُ مِنْ كَثَرَةِ الرُّؤُوسِ لَهَا فَيَنْتَهِى الْمَرَادُ بِهِ
الْبَشَاعَةُ وَالْتَهْوِيلُ لَا أَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهَلِيهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ
فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ ، وَالْقَادِحُ الْمُحِيلُ لَهَا مِنْ طَرِيقِ
الْوُجُودِ أَتَيْنَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُنْفِيسَ فِي
الْمَاءِ وَكَزَّ كَانَ فِي الصُّنْدُوقِ يَنْفِيسُ عَلَيْهِ الْهُوَاءُ
لِلنَّفْثِ الطَّبِيعِيِّ ، وَتَمْتَحِنُ رُوحَهُ بِمِرْمَحِهِ إِقْلَاطِهِ
فَيَفْقَدُ صَاحِبَهُ الْهُوَاءُ الْبَارِدَ الْمُتَعَلِّقَ لِمِزَاجِ الرُّوَّةِ
وَالرُّوحِ الْقَلْبِيِّ وَيَهْلِكُ مَكَانُهُ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي
هَلَاكِ أَهْلِ الْحَمَامَاتِ إِذَا أُطِيقَتْ عَلَيْهِمْ عَمَرُ الْهُوَاءِ
الْبَارِدِ وَالْمُتَعَلِّقِينَ فِي الْأَبَارِ وَالْمَطَامِيرِ الْعَمِيقَةِ الْمَهْوَى
إِذَا سَخَنَ هَوَاؤُهَا بِالْمُصُونَةِ ، وَلَمْ تَدْخُلْهَا الرِّيحُ
فَتُخْطِلُهَا ، فَإِنَّ الْمُتَعَلِّقَ فِيهَا يَهْلِكُ لِحَيْثِهِ ، وَمِنْهَا
السَّبَبُ يَكُونُ مَوْتُ الْمُوتِ إِذَا فَارَقَ الْبَحْرَ فَإِنَّ
الْهُوَاءَ لَا يَكْفِيهِ فِي تَغْيِيلِ رَقَبَتِهِ إِذْ هُوَ حَارٌّ بِإِفْرَاطٍ
وَالْمَاءُ الَّذِي يَغْدُلُهُ بَارِدٌ ، وَالْهُوَاءُ الَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ

وَأَرْزَقَهَا فِي تَمْجِيسِ الْأَخْبَارِ وَتَمْيِيزِ صِدْقِهَا مِنْ كَذِبِهَا . وَهُوَ سَابِقٌ عَلَى التَّمْجِيسِ بِتَحْلِيلِ الرُّوَاةِ ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَى تَحْلِيلِ الرُّوَاةِ حَتَّى يُقَيِّمَ أَنَّ ذَلِكَ الْخَبَرَ فِي نَفْسِهِ مُمَكِّنٌ أَوْ مُمْتَنِعٌ ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُسْتَحِيلًا فَلَا فَايِدَةَ لِلنَّظَرِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّجْرِيعِ . وَلَقَدْ عَدَّ أَهْلُ النَّظَرِ مِنَ الْمَطَالَعِينَ فِي الْخَبَرِ اسْتِحَالَةَ تَمْلُوكِ اللَّفْظِ وَتَأْوِيلَهُ بِمَا لَا يَقْبَلُهُ الْقَلْبُ ، وَإِنَّمَا كَانَ التَّحْلِيلُ وَالتَّجْرِيعُ هُوَ الْمُتَعَبِّرُ فِي صِحَّةِ الْأَخْبَارِ الشَّرْعِيَّةِ ، لِأَنَّ مُنْطَمَهَا تَكَالِيفُ إِنشَائِيَّةٌ أَوْجَبَ الشَّارِعَ الْعَمَلَ بِهَا حَتَّى حَصَلَ الظَّنُّ بِصِدْقِهَا وَسَبِيلُ صِحَّةِ الظَّنِّ الثَّقَةُ بِالرُّوَاةِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ . وَأَمَّا الْأَخْبَارُ عَنِ الْوَاقِعَاتِ فَلَا بُدَّ فِي صِدْقِهَا وَصِحَّتِهَا مِنْ اخْتِبَارِ الْمَطَالَعَةِ ، فَلِلَّذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يُنْظَرَ فِي إِمْتِنَانِ وَكُوفِهِ بِوَصَارٍ فِيهَا ذَلِكَ أَمَمٌ مِنْ التَّحْلِيلِ وَمُقَدِّمًا عَلَيْهِ ، إِذْ فَايِدَةُ الْإِنشَاءِ مُقْتَبَسَةٌ مِنْهُ فَقَطْ ، وَفَايِدَةُ الْخَبَرِ مِنْهُ مِنَ الْخَارِجِ بِالْمَطَالَعَةِ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْقَانُونُ فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ بِالْإِمْتِنَانِ وَالْإِسْتِحَالَةِ أَنْ تَنْظُرَ فِي الْإِجْتِمَاعِ الْبَشَرِيَّ الَّذِي هُوَ الثَّمَرَانُ ، وَنُعَيِّرَ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ بِوَيْسُفْتَنَظِي طَبِيعِهِ ، وَمَا يَكُونُ عَارِضًا لَا يُعْتَدُّ بِهِ وَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُضَ لَهُ . إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ لَنَا قَانُونًا فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ ، وَالصَّدَقِ مِنَ الْكَذِبِ بِوَجْهِ بَرَهَانِي لَا مَخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ وَسُيُفْتَدُ فَاذًا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ فِي الثَّمَرَانِ عَلَيْنَا مَا نَحْكُمُ بِقِيُولِهِ وَمَا نَحْكُمُ بِتَرْجِيْفِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ لَنَا يَمِينًا صَحِيحًا يَخْرُجُ بِهِ الْمُؤَرِّخُونَ

طَرِيقِ الصَّدَقِ وَالصَّوَابِ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ . وَهَذَا هُوَ غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ مِنْ تَلْيِيفِنَاوْكَانَ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ يَنْفَسِي عَنْهُ ذُمُوعُ وَهُوَ الثَّمَرَانُ الْبَشَرِيَّ وَالْإِجْتِمَاعُ الْإِنْسَانِي بِوَذُوسَايِلَ وَهِيَ بَيَانٌ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْعَارِضِ وَالْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاجِدَةً بَعْدَ أُخْرَى . وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَضَعِيًّا كَانَ أَوْ عَقْلِيًّا . وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْقَرِصِ مُسْتَحْدَثٌ الصَّنْعَ ، فَارِيبُ التَّرَعَةِ ، فَارِيزُ الْفَالِيدَةِ ، أَخْفَرُ عَلَيْهِ الْبَحْثُ ، وَأَدَّى إِلَيْهِ الْقَوُصُ وَكَيْسَ مِنْ عِلْمِ الْخِطَابَةِ ، إِنَّمَا هُوَ الْأَقْوَالُ الْمُتَعَبِّةُ النَّافِعَةُ فِي اسْتِحَالَةِ الْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيٍ ، أَوْ صَدْعِهِمْ عَنْهُ ، وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ الْمَدَنِيَّةِ ، إِذْ السِّيَاسَةُ الْمَدَنِيَّةُ هِيَ تَنْبِيْهُرُ الْمَنْزِلِ أَوْ الْمَلِكِيَّةِ بِمَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى الْأَخْلَاقِ وَالْحِكْمَةِ ، لِيَحْمَلَ الْجُمْهُورُ عَلَى مَنَاجِزِ يَكُونُ فِيهِ جَفْطُ النُّوعِ وَيَقَافُوهُ فَقَدْ خَالَفَ مَوْضُوعَهُ مَوْضُوعَ هَذَيْنِ الْفَنَيْنِ اللَّذَيْنِ رُبَّمَا يَشْهَدَانِهِ وَكَانَهُ عِلْمٌ مُسْتَنْبِطُ النُّشَاءِ وَكَمَعَرِي لَمْ أَقِفْ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَنْحَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلِيقَةِ مَا أَذْرَى الْإِغْلَافِ عَنْ ذَلِكَ وَكَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلُّهُمْ كَتَبُوا فِي هَذَا الْقَرِصِ وَاسْتَرْفَوْهُ وَلَمْ يَعْمَلِ الْإِنْسَانُ بِالْعُلُومِ كَثِيرَةً ، وَالْحِكْمَاءُ فِي أَمَمِ النُّوعِ الْإِنْسَانِي مُتَعَدِّونَ ، وَمَا لَمْ يَعْمَلِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعُلُومِ أَكْثَرَ مِمَّا وَصَلَ بَقَائِهِ عُلُومُ الْقُرْسِ الَّتِي أَمَرَ عَمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَحْفُومِهَا عِنْدَ الْفَتْحِ ، وَأَبْنُ عُلُومِ الْكَلْدَانِيِّينَ وَالسَّرْيَانِيِّينَ بِوَأَهْلِ بَابِلَ ، وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَتَنَالِجِهَا بِوَأَبْنِ عُلُومِ الْقِيْطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ ، وَإِنَّمَا وَصَلَ الْإِنْسَانُ عُلُومَ أُمِّهِ وَاجِدَةٍ ، وَهُمْ يُؤْنَنُ خَاصَّةً لِكُلِّ مَلَأُوهِ

وَكَلِّكَ أَيْضًا بِعَقِّ الْبَنَاتِ الْقَلِيلِ مِنْ تَسَائِلِهِ فِي
كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ لِحُكْمَاءِ الْخَلِيقَةِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَوْفَوْهُ.
فَمِنْ كَلَامِ الْمَوْلَدَانِ بِهَرَامِ بْنِ بِهَرَامِ فِي حِكَايَةِ
الْيَوْمِ الَّتِي نَقَلَهَا السُّعُودِيُّ: «أَبَاهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْمَلِكَ
لَا يَتِمُّ عَزُّهُ إِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَالْقِيَامِ فَيُطَاعُ وَيُتَصَرَّفُ
تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَلَا قِيَامَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْمَلِكِ،
وَلَا عِزٌّ لِلْمَلِكِ إِلَّا بِالرَّجَالِ، وَلَا قِيَامَ لِلرَّجَالِ إِلَّا
بِالْمَالِ وَلَا سَبِيلَ لِلْمَالِ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ
لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ، وَالْعَدْلُ الْمِيزَانُ الْمَنْصُوبُ بَيْنَ
الْخَلِيقَةِ، نَصَبَهُ الرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قِيَمًا وَهُوَ الْمَلِكُ».
وَمِنْ كَلَامِ أُنُوشِيرَوَانَ فِي هَذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ «الْمَلِكُ
بِالْجُنْدِ وَالْجُنْدُ بِالْمَالِ، وَالْمَالُ بِالْخَرَاجِ، وَالْخَرَاجُ
بِالْعِمَارَةِ وَالْعِمَارَةُ بِالْعَدْلِ وَالْعَدْلُ بِإِصْلَاحِ الْعُمَالِ،
وَإِصْلَاحُ الْعُمَالِ بِاسْتِقَامَةِ الْوُزَرَاءِ، وَرَأْسُ الْكُلِّ
بِإِقْبَادِ الْمَلِكِ حَالَ دَعِيَّتِهِ بِنَفْسِهِ وَاقْتِدَارِهِ عَلَى
تَأْدِيبِهَا حَتَّى يَمْلِكَهَا وَلَا تَمْلِكُهُ». وَفِي الْكِتَابِ
الْمَنْسُوبِ لِأَرْسَطُو فِي السِّيَاسَةِ الْمُنْدَاوَلِ بَيْنَ النَّاسِ
جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْهُ، إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَوْفٍ وَلَا مُنْطَقِي حَقِّهِ
مِنْ الْبَرَاهِينِ وَمُخْتَلِطٌ بِغَيْرِهِ، وَقَدْ أَشَارَ فِي ذَلِكَ
الْكِتَابِ إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي نَقَلْنَاهَا عَنْ
الْمَوْلَدَانِ وَأُنُوشِيرَوَانَ وَجَعَلَهَا فِي الدَّائِرَةِ الْقَرِيبَةِ الَّتِي
أَعْظَمَ الْقَوْلُ فِيهَا هُوَ قَوْلُهُ: «الْعَالَمُ بِسِتَانٍ سِيَاحُهُ
الدَّوْلَةُ، الدَّوْلَةُ سُلْطَانٌ تَحْيَا بِهِ السَّنَةُ، بِالسَّنَةِ سِيَاسَةٌ
يُسَوِّسُهَا الْمَلِكُ، الْمَلِكُ نِظَامٌ يَتَّصِدُهُ الْجُنْدُ، الْجُنْدُ
أَعْوَانٌ يَكْتَلُمُهُمُ الْمَالُ، الْمَالُ رِزْقٌ تَجْعَلُهُ الرِّيحَةُ، الرِّيحَةُ
عَبِيدٌ يَكْتَفُهُمُ الْعَدْلُ، الْعَدْلُ مَالُوفُوعِيهِ قِيَامُ الْعَالَمِ».
الْعَالَمُ بِسِتَانٍ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ الْكَلَامِ. فَهَذِهِ سِتَانُ

بِإِتْرَاجِهَا مِنْ لُغَتِهِمْ، وَاقْتِدَارُوهَا عَلَى ذَلِكَ بِكَثَرَةِ
الْمُتَرَجِّمِينَ، وَيَتَلَوُّ الْأُمَوَالِ فِيهَا بَوْلَمْ تَقِفْ عَلَى
قُوَّةِ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِمْ. وَإِنَّمَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ
مُتَعَلِّقَةً طَبِيعِيَّةً يَصْلُحُ أَنْ يَبْحَثَ عَمَّا يَعْزِضُ لَهَا
مِنَ الْعَوَارِضِ لِذَاتِهَا وَجِبَّ أَنْ يَكُونَ بِإِغْتِيَابِ كُلِّ
مَقْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ، عِلْمٌ مِنَ الْعُلُومِ يَخْصُهُ، لَكِنْ
الْحُكْمَاءُ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا لَاحَظُوا فِي ذَلِكَ الْبِنَاءِ
بِالْخَرَائِجِ وَهَذَا إِنَّمَا تَمَرَّتْهُ فِي الْأَخْبَارِ فَقَطَّ، كَمَا
رَأَيْتَ. وَإِنْ كَانَتْ مَسَائِلُهُ فِي ذَاتِهَا وَفِي اخْتِصَاصِهَا
شَرِيفَةً لَكِنْ تَمَرَّتْهُ تَصْصِيحُ الْأَخْبَارِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ
فَلِهَذَا مَجْرُوهٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَمَا لُونِيسُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.
وَهَذَا الْقَنْءُ الَّذِي لَاحَظْنَا التَّنَظُّرَ فِيهِ نَجِدُ
مِنْهُ مَسَائِلَ تَخْرِجِي بِالْعَرَضِ لِأَهْلِ الْعُلُومِ فِي
بَرَاهِينِ عُلُومِهِمْ بَوَهْمٍ مِنْ جَنْبِ مَسَائِلِهِ بِالْمَوْضُوعِ
وَالطَّلَبِ، مِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ الْحُكْمَاءُ وَالْعُلَمَاءُ فِي إثْبَاتِ
النَّبُوَّةِ مِنْ أَنَّ الْبَشَرَ مُتَعَاوِنُونَ فِي وُجُودِهِمْ، فَيَحْتَاجُونَ
فِيهِ إِلَى الْحَاكِمِ وَالْوَزِيرِ - وَمِثْلُ مَا يَذْكُرُ فِي أَصُولِ
الْفِقْهِ فِي بَابِ إثْبَاتِ الْفُتَا، أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ
إِلَى الْعِمَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ بِطَبِيعَةِ التَّعَاوُنِ وَالْإِجْتِمَاعِ
وَيَبْتَنِيَانِ الْيَسَارَاتِ أَخْفَ وَمِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ الْفُقَهَاءُ فِي
تَحْلِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْمَقَاصِدِ فِي أَنَّ الزَّانَا
مُخْلِطٌ لِلْإِنْسَابِ مُفِيدٌ لِلنُّوعِ، وَأَنَّ الْقَتْلَ أَيْضًا
مُفِيدٌ لِلنُّوعِ، وَأَنَّ الظَّلْمَ مُؤَدِّنٌ بِخَرَابِ الْعُمَرَاءِ
الْمُنْفَعِي لِإِسَادِ النُّوعِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْمَقَاصِدِ
الشَّرْعِيَّةِ فِي الْأَحْكَامِ، غَانَتْهَا كُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْحَافَظَةِ
حَلِّ الْمُتَرَاكِ، فَكَانَ لَهَا النَّظَرُ فِيمَا يَعْزِضُ لَهُ وَهُوَ
ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامِنَا هَذَا فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْمُثَلَّةِ.

الصَّنَائِعِ أَنْظَارُهُ وَأَنْعَامُهُ قَتْلُوقٌ مِنْ اللَّهِ وَهَدَايَةُ، وَإِنْ
قَاتَنِي شَيْءٌ فِي إِحْصَائِهِ وَاسْتَبْهَتْ بِغَيْرِهِ، فَلِلنَّاسِ
الْمُحَقِّقِ إِسْلَامَهُ وَلِلْقَضَى لَأَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ
وَأَوْضَحْتُ لَهُ الطَّرِيقَ وَاللَّهُ يَهْدِي بَنُوهُ مَنْ يَشَاءُ.
وَنَحْنُ الْآنَ نَبِينُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا يَخْرُجُ لِلْيَشْرِ
فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَاءِ فِي الْمُلْكِ وَالْكَسْبِ
وَالطُّلُوبِ وَالصَّنَائِعِ بِوُجُوهِ بَرَهَانِيَّةٍ يَنْفَعُ بِهَا
التَّحْقِيقُ فِي مَعَارِفِ النَّاسِ وَالْعَامَّةِ وَتَنْفَعُ بِهَا
الْأَوْدَامُ وَتُرْفَعُ الشُّكُوكُ وَنَقُولُ :

لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مُتَمَيِّزًا عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ
بِخَوَاصِّ اخْتَصَّ بِهَا : فِيمَنْهَا الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ
نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تُمَيِّزُ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَشَرَفُ
يَوْضَعِهِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ ، وَمِنْهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْحُكْمِ
الْوَالِئِ وَالسُّلْطَانِ الْقَائِمِ ، إِذْ لَا يُمَكِّنُ وَجُودُهُكَ ذَلِكَ
مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا إِلَّا بِإِقْبَالِ عَنِ النُّحْلِ وَالْجَرَادِ ،
وَهَلْهَذَا وَإِنْ كَانَ لَهَا يَنْفُلُ ذَلِكَ قِبَاطِيقِي إِلَهَامِي
لَا يَفِكُرُ وَرُوبِيَّةً يَوْمِنَهَا الشُّعُ فِي الْمَعَايِشِ وَالْإِقِيمَاتِ
فِي تَحْصِيلِهِ مِنْ وَجُوهِهِ وَاسْتِحْسَابِ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ
اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْإِقْتِفَارِ إِلَى الْغَذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَايِهِ
وَهَذَا إِلَى التَّمَامِ وَطَلَبِهِ قَالَ تَعَالَى : أَعْطَى كُلَّ
شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (١) . وَبَيْنَهَا الْعُمَرَاءُ وَهُوَ التَّمَاكُنُ
وَالْتَنَازُلُ فِي بَضَرٍ أَوْ حَلَةٍ لِلنَّاسِ وَالْعَشِيرَةِ وَاقْتِضَاءُ
الْحَاجَاتِ لِمَا فِي طَبَاعِهِمْ مِنَ التَّوَامُلِ عَلَى الْمَعَايِشِ
كَمَا نَبَّيْتُهِ يَوْمَ هَذَا الْعُمَرَاءُ مَا يَكُونُ يَلُوبًا وَهُوَ
الَّذِي يَكُونُ فِي الضَّرَاجِعِ وَفِي الْجِبَالِ وَفِي الْجُلُجِ
الْمُتَنَجِّجَةِ فِي الْقِفَارِ وَأَطْرَافِ الرَّمَالِ ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ
خَضْرِيًّا وَهُوَ الَّذِي بِالْأَنْصَارِ وَالْقُرَى وَالْبُدُنِ وَالْأَنْدَرِ

(١) الآية رقم ٥٥ من سورة طه .

كَلِمَاتٍ حِكْمِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ ارْتَبَطَتْ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ،
وَارْتَبَطَتْ أَعْمَارُهَا إِلَى صُلُوبِهَا ، وَاتَّصَلَتْ فِي خَالِيقِهَا
لَا يَتَعَيَّنُ طَرَفُهَا ، فَخَرَّ بِخُورِهِ عَلَيْهَا وَعَظَمَ مِنْ
قُوَّتِهَا . وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ كَلَامَنَا فِي فَصْلِ النُّوْلِ
وَالْمُلْكِ بَوَاعِظِيَّتِهِ حَقَّ مِنَ التَّصَفُّحِ وَالتَّفَهُّمِ ، عَزَّرْتَ
فِي أَتْنَائِهِ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَتَفْصِيلِ
إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفَى بَيْنَنَا بِأَوْعَبِ بَيَانٍ ، وَأَوْضَحِ دَلِيلٍ
وَبَرَهَانٍ ، أَطْلَعَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيلٍ أَوْ سَطْوَةٍ
وَلَا إِفَادَةٍ مُؤَبَّدَانِ ، وَكَذَلِكَ تَجِدُ فِي كَلَامِ ابْنِ الْمُفَفِّعِ
وَمَا يُمْتَدُّ فِي رَسَائِلِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ الْكَثِيرِ
مِنْ مَسَائِلِ كِتَابِنَا هَذَا ، غَيْرَ مُبَرَّهَنَةٍ كَمَا بَرَهَنَاهُ ،
إِنَّمَا يُجَلِّسُهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى مَنْحَى الْخَطَابَةِ فِي أَشْلُوبِ
الْفَرَسِ وَبَلَاغَةِ الْكَلَامِ . وَكَذَلِكَ حَوْمُ الْقَائِمِ أَبُو بَكْرٍ
الطُّرُوقِي فِي كِتَابِ « سِرَاجِ الْمُلُوكِ » وَبَوَّابُهُ عَلَى
أَبْوَابِ تَقَرُّبٍ مِنْ أَبْوَابِ كِتَابِنَا هَذَا وَمَسَائِلِهِ .
لَكِنَّهُ لَمْ يَصَادِفْ فِيهِ الرُّمِيَّةُ بَوْلًا أَصَابَ الشَّائِكَةَ ،
وَلَا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ بَوْلًا أَوْضَحَ الْأَدْلَةَ ، إِنَّمَا يَبُوبُ
الْبَابَ لِلْمَسْأَلَةِ ثُمَّ يَسْتَكْبِرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْأَنْبَارِ
وَيَنْفُلُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً لِحُكْمَاءِ الْفُرْسِ يَنْفُلُ
بِزُرْجَمِهِ وَالْمُؤَبَّدَانِ وَحُكْمَاءِ الْهِنْدِ وَالْمُتَأَوِّرِ عَنْ ذَانِيَالِ
وَهَرْمِيسَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكْبَابِ الْخَلِيقَةِ وَلَا يَكْتَفِ
عَنِ التَّحْقِيقِ قَنَاعًا وَلَا يَرْفَعُ بِالْبَرَاهِينِ الطَّبِيعِيَّةِ
حِجَابًا إِنَّمَا هُوَ تَقْلُ وَتَرْكِيبُ شَيْءٍ بِالْمَوَاطِئِ وَكَأَنَّهُ
حَوْمٌ عَلَى الْقُرْصِ وَكَمْ يَصَادِفُهُ وَلَا تَحَقُّقُ قَصْدُهُ
وَلَا اسْتَوْفَى مَسَائِلَهُ وَنَحْنُ إِلَهْمَا اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ إِلَهَامًا
وَأَخْبَرْنَا عَلَى عِلْمِ جَهْلَنَا سَنَ بَكْرِهِ وَجَهْنَةُ خَبَرِهِ
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ اسْتَوْفَيْتُ مَسَائِلَهُ وَتَمَيَّزْتُ عَنْ سَائِرِ

للاختصاص بها والتحصين بجلواتها ، وله في كلِّ هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع غروضا ذاتيا له فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة أبواب .

الأول في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض .
والثاني في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية .

والثالث في الدول والخلافة والملوك وذكر المراتب السلطانية .

والرابع في العمران الحضري والبلدان والأنصار :

والخامس في الصنائع والمعايش والكنسب ووجوهه .

والسادس في العلوم واكتسابها وتعليمها .
وقد قلعت العمران البدوي لأنه سابق على جبروتها كما نبين لك بعد ، وكذا تقديم الملك على البلدان والأنصار ، وأما تقديم المعاش فلأن المعاش ضروري طبيعي ، وتعلم العلم كماله أو حاجته ، والطبيعي أقدم من الكمال ، وجعلت الصنائع مع الكنسب لأنها منه بمنافع الوجوه ، ومن حيث العمران كما نبين لك بعد والله الموفق للصواب والمعين عليه .

الباب الأول

من الكتاب الأول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

الأول: في أن الإجماع الإنساني ضروري، ويحبر الحكماء عن هذا بقولهم: «الإنسان مدني بالطبع» أي لا بد له من الإجماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران، وببأنه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حيائها وبثاقها إلا بالغذاء، وهذه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر فاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه. وكثر فرغنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو كون يوم من الجنة مثلاً، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطبخ والمجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات، لا تنم إلا بصناعات متعددة، من خداج ونجار وفخوري، ومب أنه يأكله حياً من غير علاج، فهو أيضاً يحتاج إلى تحصيله أيضاً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه، من الزراعة والجساد والدراس، الذي يخرج الحب من غلاف السنبلي. ويحتاج كل واحد من هذه الآلات متعددة، وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن نفى بملك كله أو ينفذه قدرة الواحد، فلا بد من إجماع القدرة الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوة له ولهم، فيحصل بالفعلون قدر الكفاية من

الحاجة لأكثر منهم بأصناف. وكل ذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الإشتغال بآبائهم، لأن الله سبحانه لما ركب الطبع في الحيوانات كلها، وقسم القدرات بينها، جعل حظها كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان، فقدرته القريس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان، وكلما قدرته العجم، والثور وقدرته الأسد والذئب أصناف من قدرته. ولما كان الملوك طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها حصواً يختص بمداقته ما يصل إليه من عاينه غيره. وجعل للإنسان روحاً من ذلك كله الفكر، واليد، فاليد مهيأة للصنائع بمقدرة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المملدة في سائر الحيوانات للدفاع، مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناحية، والسيف النابية عن المخالب الجارية، والدراس النابية عن البصرات الجارية. إلى غير ذلك وغيره مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الأغصاء، فالواحد من البشر لا تقوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما الممترسة، فهو عاجز عن مداقته وحده بالجملة، ولا نفى قدرته أيضاً باستعمال الآلات المملدة لها، فلا بد في ذلك كلو

وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ لِلْإِنْسَانَ خَاصَّةً طَبِيعَةً ،
وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ يُوَجَدُ فِي بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ
الشَّجَرِ عَلَى سَادَ كَرَةِ الْحُكْمَاءِ كَمَا فِي النَّحْلِ وَالْبَرَادِ ، لِمَا
اسْتَفْرَى فِيهَا مِنْ الْحُكْمِ وَالْإِنْفِيَادِ وَالْإِتِّبَاعِ بِرُكُوسِ
مِنْ أَشْخَاصِهَا مُتَعَيِّرٍ عَنْهُمْ فِي خَلْقِهِ وَجَسَمَانِهِ ،
إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ بِمُقْتَضَى الْفِعْلَةِ
وَالْهَدَايَةِ لِمُقْتَضَى الْفِكْرَةِ وَالسِّيَاسَةِ ، وَأَعْطَى كُلَّ
شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَتَزِيدُ الْفَلَاسِيفَةُ عَلَى هَذَا
الْبَرَّهَانِ حَيْثُ يُحَاوِلُونَ إثْبَاتَ النُّبُوَّةِ بِاللَّيْلِ
الْعَقْلِيِّ وَأَنَّهَا خَاصَّةٌ طَبِيعَةٌ لِلْإِنْسَانِ ، فَيَقْرَرُونَ هَذَا
الْبَرَّهَانِ إِلَى غَايَةٍ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ الْحُكْمِ
الْوَارِثِ ، ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذَلِكَ وَذَلِكَ الْحُكْمُ يَكُونُ
بِشَرْعٍ مَقْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَأْتِي بِهِ وَاحِدٌ مِنَ
الْبَشَرِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَعَيِّرًا عَنْهُمْ بِمَا يُوَدَّعُ
اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصِّ هَذَا بَيْتِهِ ، لِيَتَّعِ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ
مِنْهُ ، حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فَيُومَ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ انْكَارٍ
وَلَا تَزْيِيفٍ ، وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكْمَاءِ غَيْرِ بَرَهَانِيَّةٍ ، كَمَا
قَرَأَهُ . إِذِ الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ تَتِمُّ مِنْ دُونِ ذَلِكَ
بِمَا يَفْرِضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ ، أَوْ بِالْعَصْبِيَّةِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا
بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَخَلْقِهِمْ عَلَى جَانِبِهِ ، فَأَمَّا الْكِتَابُ
وَالْمُتَّبِعُونَ لِلْإِتِّبَاعِ فَلْيَدُلُّونَ بِالنَّسَبِ إِلَى الْمَجْرُوسِ ،
الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ ، فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ
وَسِعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ الدُّوَلُ وَالْأَثَارُ فَضْلًا عَنْ
الْحَيَاةِ ، وَكُلِّيكَ حَيٌّ لَهُمْ لِهَذَا الْمَهْدِ فِي الْأَقَالِيمِ
الْمُنْحَرِفَةِ فِي الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ ، بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ
فَوْضَى دُونَ وَارِثِ لَهُمُ الْبَيْتَةُ ، فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ بِهَذَا يَتَّبِعُونَ
لَكَ خَلْقَهُمْ فِي وَجُوبِ النُّبُوتِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلٍ ،
وَلِنَا مَلَكُوتُ الشَّرْعِ ، كَمَا هُوَ مُلْكُ السُّلْطَانِ مِنَ
الْأُمَّةِ وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهَدَايَةِ .

مِنْ التَّمَاوُنِ عَلَيْهِ بِإِنْتَاهِ جَنِينِهِ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا
التَّمَاوُنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا عِلْمٌ ، وَلَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ
لِمَا رَكَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي
حَيَاتِهِ ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا دِفَاعٌ عَنْ نَفْسِهِ لِفَقْدَانِ
السَّلَاحِ ، فَيَكُونُ قَرِيبَةً لِلْحَيَوَانَاتِ ، وَمِمَّا جُلُّهُ الْهَلَاكُ
عَنْ مَدَى حَيَاتِهِ ، وَيَبْطُلُ نَوْعُ الْبَشَرِ . وَإِذَا كَانَ
التَّمَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ لِلْغِذَاءِ ، وَالسَّلَاحُ لِلْمُدَافَعَةِ
وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي بَقَايِهِ وَحِفْظُ نَوْجِهِ ، فَإِذَا هَذَا
الْإِجْتِمَاعُ ضَرُورِيٌّ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَإِلَّا لَمْ يَكْمُلْ
وُجُودُهُمْ ، وَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ اغْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ ،
وَأَسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُمْ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمُتَرَاثِ الَّذِي
جَعَلَنَاهُ مَوْضِعًا لِهَذَا الْعِلْمِ . وَفِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعُ
إثْبَاتِ الْمَوْضُوعِ فِي فَنِّهِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ .
وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَى صَاحِبِ الْفَنِّ لِمَا
تَقَرَّرَ فِي الصَّنَاعَةِ الْمُنَظَّمَةِ ، أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ
عِلْمِهِ إِثْبَاتُ الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ ، فَلَيْسَ أَيْضًا
مِنْ الْمَسْئُوعَاتِ عِنْدَهُمْ فَيَكُونُ إِثْبَاتُهُ مِنَ التَّبَرُّعَاتِ
وَاللَّهُ الْمُؤَقِّ بِفَضْلِهِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِجْتِمَاعَ إِذَا
حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ ، وَتَمَّ عَمْرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ ،
فَلَا بُدَّ مِنْ وَارِثٍ يَدْفَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، لِمَا فِي
طَبَاعِهِمُ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ التَّمَاوُنِ وَالظُّلْمِ ، وَلَيْسَتْ
السَّلَاحُ الَّتِي جُعِلَتْ دَافِعَةً لِلتَّمَاوُنِ الْحَيَوَانِيَّةِ
الشَّجَرِ عَنْهُمْ كَافِيَةً فِي دَفْعِ التَّمَاوُنِ عَنْهُمْ ، لِأَنَّهَا
مَوْجُودَةٌ لِجَبِيحِهِمْ ، فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ
خُلُوتَانِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ . وَلَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ
لِقُصُورِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَالْهَامَاتِيهِمْ ،
فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَارِثُ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِمْ
الْقَلْبَةُ وَالسُّلْطَانُ الْيَدُ الْقَاهِرَةُ ، حَتَّى لَا يَجْعَلَ أَحَدٌ
إِلَى غَيْرِهِ بِمُتَوَانٍ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمَلِكِ .

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه
من الأشجار والأهوار والأقاليم

إِذْ عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كِتَابِ الْحِكْمَاءِ النَّاطِلِينَ
فِي أحوالِ الْعَالَمِ ، أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ كُرْوِيٌّ ، وَأَنَّهَا
مَحْضُوقَةٌ بِخُصْرِ الْمَاءِ ، كَأَنَّهَا عِنَبٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ
فَإِنْ خُسِرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا ، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ
تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا بِوَعْمَانِهَا بِالنُّوعِ الْبَشَرِيِّ
الَّذِي لَهُ الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَكَذَلِكَ يَتَوَهَّمُ مِنْ
ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ، وَإِنَّمَا
الْفَتْحُ الطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَتَوَسُّطُ كُرَّتِهَا الَّذِي
هُوَ مَرْكَزُهَا ، وَالْكُلُّ يُطْلَبُ بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّقَلِ ، وَتَمَازُجًا
ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا ، وَأَمَّا الْمَاءُ الْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ
الْأَرْضِ ، وَإِنْ قِيلَ فِي قِيَمِهَا إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ
فَبِالإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا الَّذِي انْخَسَرَ
عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النُّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَّتِهَا
فِي شَكْلِ دَائِرَةِ أَحَاطَ الْمُخْصَرُ الْمَائِي بِهَا مِنْ جَمِيعِ
جِهَاتِهَا ، بَحْرًا يُسَمَّى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ ، وَيُسَمَّى أَيْضًا
لِجَلَالِهِ بِتَفْخِيمِ اللَّامِ الثَّانِيَةِ ، وَيُسَمَّى أَوْقِيَانُوسَ
أَسْمَاءً أَعْجَبِيَّةً ، وَيُقَالُ لَهُ الْبَحْرُ الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ .
ثُمَّ إِنَّهُمَا الْمُتَكَشِّفَانِ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمَرَانِ فِيهِ الْقِفَارُ
وَالْخَلَاءُ أَكْثَرُ مِنْ عُمَرَانِهِ ، وَالْخَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ
مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ ، وَإِنَّمَا الْمُعْمُورُ مِنْهُ أَمِيلٌ
إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحٍ كُرْوِيٍّ
يَنْتَشِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَى خَطِّ الْاِسْتِوَاةِ وَيَنْ

جِهَةَ الشَّمَالِ إِلَى خَطِّ كُرْوِيِّ ، وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْقَاصِمَةُ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ الْمُخْصَرِ الَّذِي بَيْنَهُمَا سَدٌّ يُلْجُوجُ
وَمُلْجُوجُ ، وَهَلِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ .
وَيَنْتَشِي مِنَ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى خُصْرِ الْمَاءِ
أَيْضًا يَقْطَعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ ، وَهَذَا الْمُتَكَشِّفُ
مِنْ الْأَرْضِ قَالُوا هُوَ يَقْدَرُ النُّصْفُ مِنَ الْكُرَّةِ أَوْ أَقَلُّ ،
وَالْمُعْمُورُ مِنْهُ يَقْدَرُ رُبُعُهَا وَهُوَ الْمُتَقَسِّمُ بِالْأَقَالِمِ
السَّبْعَةِ ، وَخَطُّ الْاِسْتِوَاةِ يَقْسِمُ الْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ
الْمَغْرِبِ إِلَى الشَّرْقِ وَهُوَ طَوْلُ الْأَرْضِ ، وَأكْبَرُ
خَطٍّ فِي كُرَّتِهَا . كَمَا أَنَّ مِنْطَقَةَ فَلَكِ الْهَرُوجِ وَدَائِرَةَ
مُعْدِلِ النَّهَارِ أَكْبَرُ خَطٍّ فِي الْفَلَكَ . وَمِنْطَقَةُ الْهَرُوجِ
مُنْقَسِمَةٌ بِخُلُيْعَاتٍ وَبِثَمَنٍ دَرَجَةٍ ، وَاللَّوَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ
الْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرَسَخًا ، وَالْفَرَسَخُ اثْنَا عَشَرَ
أَلْفَ ذِرَاعٍ ، وَالذِّرَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إصْبَعًا وَالْإصْبَعُ
بِثَلَاثِ شُعَيْرٍ مَضْغُوقَةٍ مُلْتَصِقَةٍ بِنَفْسِهَا إِلَى بَعْضِ
ظَهْرِ الْيَسْطَنِ . وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعْدِلِ النَّهَارِ الَّتِي تَقْسِمُ
الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ ، وَتَسَامَتْ خَطُّ الْاِسْتِوَاةِ مِنَ الْأَرْضِ ،
وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُطْبَيْنِ ثَمَنُونَ دَرَجَةً ، لَكِنْ
الْمِيزَانَةُ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَةِ مِنْ خَطِّ الْاِسْتِوَاةِ أَرْبَعٌ
وِثْمُونَ دَرَجَةً ، وَالبَاقِي مِنْهَا خِلَافٌ لَا مِيزَانَةَ فِيهِ وَلِيَشْفِدَ
الْبَرْدَ وَالْمُجْدَمَ ، كَمَا كَانَتْ الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خِلَافَ كُلِّهَا
وَلِيَشْفِدَ الْحَرَّ ، كَمَا نَبَّهَنَّ ذَلِكَ كَلِمَةُ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَالُوا وَيَخْرُجُ مِنْهُ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ بَحْرَانِ آخَرَانِ
مِنْ خَلِيجَيْنِ : أَحَدُهُمَا سَمَّيْتُ لِلْفُسْطَنْطِينِيَّةِ
بَيْنَا مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُتَضَابِقًا فِي عَرْضِ دُمَيْهِ السُّهْمِ
وَيَمُدُّ ثَلَاثَةَ بِحَارٍ فَيَتَّصِلُ بِالْفُسْطَنْطِينِيَّةِ ، ثُمَّ يَنْفَسِحُ
فِي عَرْضِ أَرْبَعَةِ أَمْيَالٍ ، وَيَعُرُّ فِي جَزِيرَةِ سِتِّينَ مِيلًا ،
وَيُسَمَّى خَلِيجَ الْفُسْطَنْطِينِيَّةِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ فُوهَةٍ
عَرْضُهَا سِتَّةُ أَمْيَالٍ ، فَيَمُدُّ بَحْرًا يَبْطِشُ وَهُوَ بَحْرُ
يَنْحَرَفُ مِنْ هُنَاكَ فِي مَلْعَمِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ
فَيَعُرُّ بِلُؤُسَ حَرَقِيَّةٍ ، وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الْخَزَرِيَّةِ عَلَى
أَلْفٍ وَثَلَاثِينَ مِيلًا مِنْ فُوهَتِهِ ، وَعَلَيْهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
أُمَّةٌ مِنَ الرُّومِ وَالتُّرُكِ وَبَرْجَانِ وَالرُّوسِ . وَالْبَحْرُ
الثَّانِي مِنْ خَلِيجِي هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيُّ وَهُوَ بَحْرُ
الْبَنَادِقَةِ ، يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ
فَإِذَا انْتَهَى إِلَى سَمْتِ الْحَبَلِ انْحَرَفَ فِي سَمْتِ
الْمَغْرِبِ إِلَى بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ ، وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الْكَلْبَةِ
عَلَى أَلْفٍ وَمِائَةٍ مِيلًا مِنْ مَبْلَكِهِ ، وَعَلَى حَافَتَيْهِ مِنَ الْبَنَادِقَةِ
وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ أُمَّةٌ ، وَيُسَمَّى خَلِيجَ الْبَنَادِقَةِ .
قَالُوا : وَيَنْسَحُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْمُحِيطِ
أَيْضًا مِنَ الشَّرْقِ وَعَلَى ثَلَاثِ عَشْرَةَ دَرَجَةً فِي الشَّمَالِ
مِنْ نَظَرِ الْاِسْتِوَاءِ ، بَحْرٌ عَظِيمٌ مُتَسِعٌ يَحُرُّ فِي الْجَنُوبِ
قَلِيلًا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ يَمُرُّ بِهِ
مَغْرِبًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الْخَاسِ مِنْهُ إِلَى
بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالزُّنْجِ ، وَإِلَى بِلَادِ بَابِ الْمَنْدَبِ مِنْهُ
عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافِ فَرَسَخٍ مِنْ مَبْلَكِهِ ، وَيُسَمَّى الْبَحْرُ
الصَّيْنِيُّ وَالْهِنْدِيُّ وَالْحَبَشِيُّ ، وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ
بِلَادُ الزُّنْجِ وَبِلَادُ بَرْبَرٍ الَّتِي ذَكَرَهَا امْرُؤُ الْقَيْسِ
فِي شِعْرِهِ ، وَلَيْسُوا مِنَ الْبَرْبَرِ الَّذِينَ هُمْ قَبَائِلُ الْمَغْرِبِ .

ثُمَّ إِنَّ الْمُخْبِرِينَ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ
وَحَمَا فِيهِ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُدُنِ وَالْجِبَالِ وَالْبَحَارِ
وَالْأَنْهَارِ وَالْفِجَارِ وَالرَّمَالِ ، مِثْلَ بَطْلِيمُوسَ فِي كِتَابِ
الْجُغَرَاْفِيَا ، وَصَاحِبِ كِتَابِ رَجَارٍ مِنْ بَعْدِهِ ، قَسَمُوا
هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ ، يُسَمُّونَهَا الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ
يَحُلُودُ وَهَمِيَّةٌ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٌ
فِي الْعَرْضِ مُخْتَلِفَةٌ فِي الطُّولِ ، فَالْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ أَطْوَلُ
وَمَا بَعْدَهُ وَهَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهَا ، فَيَكُونُ السَّابِعُ
أَقْصَرَ لِيَمَّا اقْتَضَاهُ وَضَعُ الدَّائِرَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ انْجِسَالِ
السَّاعَةِ كَرَّةِ الْأَرْضِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ
عِنْدَهُمْ مُنْقَسِمٌ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى
الْمَشْرِقِ عَلَى التَّوَالِي ، وَفِي كُلِّ جُزْءٍ الْخَبَرُ عَنْ أَحْوَالِهِ
وَأَحْوَالِ غُرَمَائِهِ . وَذَكَرُوا أَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الْمُحِيطَ
يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ
الْبَحْرُ الرُّومِيُّ ، الْمَعْرُوفُ وَيَبْدَأُ فِي خَلِيجِ مُتَضَابِقِ
فِي عَرْضِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا ، أَوْ نَحْوَهَا مَا بَيْنَ طَنْجَةِ
وَطَرِيفَ ، وَيُسَمَّى الرُّفَاقَ ، ثُمَّ يَذْهَبُ مَشْرِقًا وَيَنْفَسِحُ
إِلَى عَرْضِ سِتِّينَ مِيلًا ، وَيَهَابَتُهُ فِي آخِرِ الْجُزْءِ
الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عَلَى أَلْفِ فَرَسَخٍ وَمِائَةٍ
وَسِتِّينَ فَرَسَخًا مِنْ مَبْلَكِهِ ، وَعَلَيْهِ هُنَاكَ سَوَاحِلُ الشَّامِ ،
وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ سَوَاحِلُ الْمَغْرِبِ ، أَوَّلُهَا
طَنْجَةُ حِنْدِ الْخَلِيجِ ، ثُمَّ أَفْرِيْقِيَّةٌ ثُمَّ بَرْقَةُ إِلَى
الْاِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ سَوَاحِلُ الْفُسْطَنْطِينِيَّةِ
حِنْدِ الْخَلِيجِ ، ثُمَّ الْبَنَادِقَةُ ثُمَّ رُومَةُ ثُمَّ الْاِفْرَنْجَةُ ثُمَّ
الْأَنْدَلُسُ إِلَى طَرِيفِ حِنْدِ الرُّفَاقِ قِبَالَ طَنْجَةِ بُوَيْسُ
هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيُّ وَالشَّامِيُّ بُوَيْدَ جُزْرٍ كَثِيرَةٍ عَالِمَةٌ كَبِيرَةٌ
يَمْلَأُ أَفْرِيْقِيَّةً وَبَرْقُسَ وَصِغْلِيَّةً وَبُوَيْدَةَ وَسِرْكَالِيَّةً .

نَهَابِيَّةَ مِنْ جِهَةِ الْقَرَبِ سَوَاحِلَ الْبَحْرَيْنِ وَالْبَحْرَيْنِ وَالْبَحْرَيْنِ
وَعَمَّانَ وَالشَّعْرَ، وَالْأَحْقَافُ عِنْدَ مَلِكِهِ. وَكَيْفَا بَيْنَ
بَحْرِ قَارَسَ وَالْقَلْزَمِ جَزِيرَةُ الْقَرَبِ كَتَايَا فَخَلَّةٌ
مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ يَحِيطُ. الْبَحْرُ بِهَا الْحَيَّةُ مِنْ
الْجَنُوبِ، وَبَحْرُ الْقَلْزَمِ مِنَ الْقَرَبِ، وَبَحْرُ قَارَسَ
مِنَ الشَّرْقِ وَتَقْضَى إِلَى الْبَرِّاقِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ
عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ بَيْنَهُمَا، وَهَذَا لِكَوْنِهِ
وَالْقَادِسِيَّةَ وَبَغْدَادَ وَلِأَنَّهُ كَثُرَ وَالْحِيرَةُ. وَوَدَّ
ذَلِكَ أَمُّ الْأَعَاجِمِ مِنَ التُّرْكِ وَالْجَزْرِ وَغَيْرِهِمْ،
وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِلَادُ الْحِجَازِ مِنْ جِهَةِ الْقَرَبِ بِهَا،
وَبِلَادُ الْيَمَنِ وَالْبَحْرَيْنِ وَعَمَّانُ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ بِهَا،
وَبِلَادُ الْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ بِهَا، وَسَوَاحِلُهُ عَلَى
الْبَحْرِ الْحَيَّةِ. قَالُوا وَفِي هَذَا الْمَعْمُورِ بَحْرٌ آخَرُ
مَنْقَطِعٌ مِنَ سَائِرِ الْبَحَارِ فِي نَاحِيَةِ الشَّامِ بِأَرْضِ
الْأَنْبَلِ يُسَمَّى بَحْرُ جُرْجَانَ وَطَبْرِسَانَ طَوَّلَهُ أَلْفُ
مِيلٍ فِي حُرُوفِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ، فِي غَرْبِهِ أَفْرِجِيحَانُ
وَالْمَيْلَمُ، وَفِي شَرْقِهِ أَرْضُ التُّرْكِ وَخَوَارِزْمُ، وَفِي
جَنُوبِهِ طَبْرِسَانَ، وَفِي شَمَالِيهِ أَرْضُ الْخَزَرِ وَالْأَلَانِ.
هَذِهِ جُمْلَةُ الْبَحَارِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغُرَايَا.
قَالُوا وَفِي هَذَا الْجَزَاءِ الْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ
أَعْظَمُهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ وَهِيَ: النَّيْلُ وَالْفُرَاتُ
وَدِجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخِ الْمُسَمَّى جِيحُونَ.

فَأَمَّا النَّيْلُ فَمِنْهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَدَاهِ خَطُّ
الْأَشْيَاطِ عِشْرَةَ حِجَازَةٍ عَلَى سِتِّمِائَةِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ
الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلُ الْقَمَرِ، وَلَا يُعْلَمُ فِي الْأَرْضِ
جَبَلٌ أَكْبَرُ مِنْهُ. تَخْرُجُ مِنْهُ مَعْدَنٌ كَثِيرَةٌ، فَمِنْهَا بَعْضُهَا
فِي بَحْرِهِ هُنَاكَ، وَبَعْضُهَا فِي أُخْرَى، ثُمَّ تَخْرُجُ أَنْهَارُ

ثُمَّ بِلَادُ مَعْدَنُ ثُمَّ بِلَادُ سَفَالَةَ وَأَرْضُ الرَّاقي وَاقِي وَأَمُّ
أُخْرَى لَيْسَ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا الْفَقَارُ وَالْمَخْلَاةُ. وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ
الشَّامِ الصَّبْنُ مِنْ عِنْدِ مَلِكِهِ، ثُمَّ الْهِنْدُ ثُمَّ السُّنْدُ
ثُمَّ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ مِنَ الْأَحْقَافِ وَزَيْدٌ وَغَيْرُهَا، ثُمَّ
بِلَادُ الزَّنْجِ عِنْدَ نَهَابِيَّةِ وَيَعْلَمُهُمُ الْحَيَّةُ.

قَالُوا وَتَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْحَيَّةِ بَحْرَانِ
أَخْرَانِ، أَحَدُهُمَا يَخْرُجُ مِنْ نَهَابِيَّةِ عِنْدَ بَابِ الْمَنْدَبِ
فَيَبْدَأُ مُتَضَايِقًا، ثُمَّ يَمُرُّ مُسْتَبْجِرًا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ
وَمُغْرَبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْقَلْزَمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ
مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ مِيلٍ مِنْ
مَلِكِهِ، وَيُسَمَّى بَحْرُ الْقَلْزَمِ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ، وَبَيْنَهُ
وَبَيْنَ فُسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَاكَ ثَلَاثُ مَرَاكِلَ يَوْعَلِيهِ
مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ ثُمَّ الْحِجَازُ وَجَلَّةٌ، ثُمَّ
مَدِينٌ وَأَبْلَةُ وَقَارَانُ عِنْدَ نَهَابِيَّةِ. وَمِنْ جِهَةِ الْقَرَبِ
سَوَاحِلُ الصَّيْدِ وَحِذَابٌ وَسَوَاحِلُ زَيْلُغُ، ثُمَّ بِلَادُ
الْحَبَشَةِ عِنْدَ مَلِكِهِ وَآخِرُهُ عِنْدَ الْقَلْزَمِ يُسَمَّى
الْبَحْرُ الرَّوْبِيُّ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَبَيْنَهُمَا تَحْوِي سَوَاحِلُ.

وَمَا زَالَ الْمُلُوكُ فِي الْإِسْلَامِ وَقَبْلَهُ يَرْمُونَ خَرَقَ
مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ^(١)، وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِنْ هَذَا
الْبَحْرِ الْحَيَّةِ وَيُسَمَّى الْخَلِيجُ الْأَخْضَرُ يَخْرُجُ
مَا بَيْنَ بِلَادِ السُّنْدِ وَالْأَحْقَافِ مِنَ الْيَمَنِ، وَيَخْرُجُ إِلَى
نَاحِيَةِ الشَّامِ مُغْرَبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْأَبْلَةِ
مِنْ سَوَاحِلِ الْبَصْرَةِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ

الثَّانِي عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ فَرَسَخٍ وَأَرْبَعِينَ فَرَسَخًا مِنْ
مَلِكِهِ يَوْعَلِيهِ بَحْرُ قَارَسَ، وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ
سَوَاحِلُ السُّنْدِ وَمَكْرَانَ وَكَرْمَانَ وَقَارِسَ وَالْأَبْلَةَ. وَعِنْدَ

(١) يعني توصيل البحرين الأحمر والأبيض في المنطقة التي تم لها
مخرج لثة السويس لها بعد.

في الشرق على يمين الفرات، وتنجلب إلى أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب، وفيما بين الفرات ودجلة من أوليه جزيرة الموصل قبالة الشام من علوتى الفرات وقبالة أذربيجان من علوة دجلة . وأما نهر جيحون فمبئوه من بلخ في الجزء الثامن من الإقليم الثالث من عبون هناك كثيرة، وتنجلب إلى أنهار عظام، ويذهب من الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان، ثم يخرج منها إلى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الإقليم الخامس فيصب في بحيرة الحرانية التي يسفل مبيئتها وهي مسيرة شهر في يثليد، وإليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك، وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم، وعلى شرقي بلاد بخارى وكرمذ وسمرقند، ومن هنالك إلى ما وراء بلاد الترك وفرغانة والخرجيه وأسم الأعاجم، وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه، والشريف في كتاب «دجار»، وصودروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية، واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله، ولأن جناننا في الأكثر إنما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالأوطان التي للغرب من المشرق والله الموفق .

من البحيرتين تنصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل، ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على ستميه، ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا، وتنصب كلها في البحر الرومي عند الإسكندرية ويسمى نيل مصر، وعليه الصعيد من شرقيّة والواحات من غربيّة، ويذهب الآخر منقطعاً إلى المغرب ثم يمر على ستميه إلى أن يصب في البحر المحيط، وهو نهر السودان وأممهم كلهم على ضفتيه، وأما الفرات فمبئوه من بلاد أرمينية في الجزء السادس من الإقليم الخامس، ويمر جنوباً في أرض الروم وملطية إلى منبج، ثم يمر بصفين ثم بالرقّة ثم بالكوفة إلى أن ينتهي إلى البطحاء التي بين البصرة وواسط، ومن هناك يصب في البحر الحبيش، وتنجلب إليه في طريقه أنهار كثيرة، ويخرج منه أنهار أخرى تنصب في دجلة . وأما دجلة فمبئوها حين ببلاد خيلاط من أرمينية أيضاً، وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وينفذ إلى واسط، فتتفرق إلى طجان كلها تنصب في بحيرة البصرة، وتغشى إلى بحر فارس، وهو

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي
وذكر السبب في ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالشَّاهِدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ ،
أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمَرَانًا
مِمَّا بَقِيَئَهُمَا ، وَمَا وَجَدَ مِنْ عُمَرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ
الْخَلَاةُ وَالْقِفَارُ وَالرَّمَالُ ، وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ (١)
الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا ، وَأَمَّمْ هَلْبَيْنِ الْإِفْلَاحَيْنِ
وَأَنَا سَبِيحُهُمَا لَيْسَتْ لَهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ ، وَأَمْصَارُهُ
وَمُدُنُهُ كَذَلِكَ .
وَالثَّلَاثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَقِيَئَهُمَا يَخْلَافُ ذَلِكَ ؛
فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلٌ وَالرَّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَقْنُومَةٌ ،
وَأَمَّتْهَا وَأَنَا سَبِيحُهَا نَجُوزُ الْحَدِّ مِنَ الْكَثْرَةِ ، وَأَمْصَارُهَا
وَمُدُنُهَا تَجَاوَزُ الْحَدَّ عَدَدًا ، وَالْعُمَرَانُ فِيهَا مُنْتَرِجٌ
مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ وَالسَّادِسِ ، وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ .
وَقَدْ ذَكَرْتُ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ
الْحَرِّ وَقِلَّةِ مِيلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّوُوسِ ،
فَلَنُوضِحَ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَتَبَيَّنَ مِنْهُ سَبَبُ كَثْرَةِ
الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ
الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِيسِ وَالسَّابِعِ ، فَذَقُوا :
إِنَّ قُلُوبَ الْقَلْكَ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا
عَلَى الْأَفْقِ فَهَذَاكَ دَائِرَةُ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْقَلْكَ
بِخُصْفَيْنِ ، هِيَ أَكْثَرُ الدَّوَائِرِ الْمَكْرُورَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ
(١) هي العهد المعروف بهذا الاسم

إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَتُسَمَّى دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ .
وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْجِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْقَلْكَ
الْأَعْلَى مُنْحَرَكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً
يَوْمِيَّةً يُحْرَكُ بِهَا سَائِرُ الْأَفْلاكِ فِي جَوِّهِ قَهْرًا ،
وَعَلَيْهِ الْحَرَكَةُ مَحْشُوسَةٌ . وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ
لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا حَرَكَةً مُخَالِفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ
وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَتَخْلِفُ آتَاذَهَا
بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي السَّرْعَةِ وَالْبُطْءِ .
وَمَعَرَاتُ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا نَوَازِيهَا
كُلُّهَا دَائِرَةُ عَظِيمَةٌ مِنَ الْقَلْكَ الْأَعْلَى تَقْسِمُهَا
بِخُصْفَيْنِ ، وَهِيَ دَائِرَةُ قَلْكَ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ
بِاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا ، وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْجِعِهِ
مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ
مِنْ الْبُرُوجِ ، هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ ، وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ ،
فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بِخُصْفَيْنِ . وَبُصْفُ
مَائِلٍ عَنْ مُعَدِّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ ، وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ
الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ ، وَبُصْفُ مَائِلٍ عَنْهُ
إِلَى الْجَنُوبِ ، وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ
الْحُوتِ .

وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى الْأَفْقِ فِي جَمِيعِ
نَوَازِيهِ الْأَرْضِ كَانَ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ حُطٌّ

كذلك يقدار مَسَاوِي فِي الثَّلَاثَةِ ، وَهُوَ الْمَسْمُوعُ
عِنْدَ أَهْلِ الْمَوَاقِيتِ عَرْضَ الْبَلَدِ .

وَإِذَا مَالَتْ دَايِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَنْ سَمْتِ
الرُّوْسِ ، عَلَتْ عَلَيْهَا الْبُرُوجُ الشَّمَالِيَّةُ
مُنْدَرِجَةً فِي مِقْدَارِ عُلُوِّهَا إِلَى رَأْسِ السَّرَطَانِ ،
وَانْخَفَضَتِ الْبُرُوجُ الْجَنُوبِيَّةُ مِنَ الْأَفْقِ كَلَيْكُ
إِلَى رَأْسِ الْجَنِيِّ ، لِانْتِحَالِهَا إِلَى الْجَانِبَيْنِ
فِي أَفْقِ الْاِسْتِوَاءِ - كَمَا قُلْنَا - فَلَا يَزَالُ الْأَفْقُ
الشَّمَالِي يَرْتَفِعُ حَتَّى يَصِيرَ أَبْعَدَ الشَّمَالِيَّةِ ، وَهُوَ
رَأْسُ السَّرَطَانِ فِي سَمْتِ الرُّوْسِ ، وَفِي ذَلِكَ حَيْثُ
يَكُونُ عَرْضُ الْبَلَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ فِي الْحِجَازِ
وَمَا يَكِيهِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَيْلُ الَّذِي إِذَا مَالَ رَأْسُ
السَّرَطَانِ عَنْ مُعَدِّلِ النَّهَارِ فِي أَفْقِ الْاِسْتِوَاءِ ، ارْتَفَعَ
بَارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَاوِيًا .

فَلِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ ،
نَزَلَتْ الشَّمْسُ عَنْ الْمُسَامَةِ ، وَلَا تَزَالُ فِي
انْخِفَاضٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ ارْتِفَاعُ الْقُطْبِ أَرْبَعًا
وَيَسْتِينَ ، وَيَكُونُ انْخِفَاضُ الشَّمْسِ عَنْ الْمُسَامَةِ
كَذَلِكَ وَانْخِفَاضُ الْقُطْبِ الْجَنُوبِيِّ عَنِ الْأَفْقِ
مِثْلَهَا ، فَيَنْقَطِعُ التَّكْوِينُ لِإِفْرَاطِ الْبَرْدِ وَالْجَمْدِ
وَعُطُولِ زَمَانِهِ خَيْرَ مُتَوَرِّجٍ بِالْحَرِّ .

ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ عِنْدَ الْمُسَامَةِ وَمَا يَقَارِبُهَا ،
تَبَعَتْ الْأَشْيَاءَ قَائِمَةً ، وَفِيهَا دُونَ الْمُسَامَةِ عَلَى
زَوَايَا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ . وَإِذَا كَانَتْ زَوَايَا الْأَشْيَاءِ
قَائِمَةً عَظَمَ الْقُصُورُ وَانْتَشَرَ . بِخِلَافِهِ فِي الْمُنْفَرِجَةِ
وَالْحَادَّةِ فَلِهَذَا يَكُونُ الْحَرُّ عِنْدَ الْمُسَامَةِ وَمَا يَقْرُبُ

وَإِذَا يُسَامَتْ دَايِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بِحَرِّ مِنَ الْمَغْرِبِ
إِلَى الْمَشْرِقِ وَيُسَمَّى خَطُّ الْاِسْتِوَاءِ . وَوَقَعَ
هَذَا الْخَطُّ بِالرُّصْدِ عَلَى مَا رَعَوْا فِي مَيْدَانِ الْإِفْلِيمِ
الْأَوَّلِ مِنَ الْأَقَالِيمِ ^(١) السَّيِّئَةِ . وَالْعُمَرَانُ كُلُّهُ فِي الْجِهَةِ
الشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنْ آفَاقِ هَذَا الْمَقْصُورِ بِالتَّدرِجِ
إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ارْتِفَاعُهُ إِلَى أَرْبَعٍ وَيَسْتِينَ دَرَجَةً ،
وَهَذَا لِكَ يَنْقَطِعُ الْعُمَرَانُ ، وَهُوَ آخِرُ الْإِفْلِيمِ
السَّابِعِ . وَإِذَا ارْتَفَعَ عَلَى الْأَفْقِ يَسْمَعُ دَرَجَةً ،
وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ الْقُطْبِ وَدَايِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى
الْأَفْقِ ، بَقِيَتْ سِتَّةٌ مِنَ الْبُرُوجِ فَوْقَ الْأَفْقِ ،
وَهِيَ الشَّمَالِيَّةُ ، وَسِتَّةٌ تَحْتَ الْأَفْقِ وَهِيَ الْجَنُوبِيَّةُ .

وَالْعِمَارَةُ فِيمَا بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ وَالسَّيْنِ إِلَى
التَّسْعِينَ مُمْتَنِعَةٌ ، لِأَنَّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ حِينَئِذٍ
لَا يَخْصُلَانِ مُتَوَزِّجَيْنِ لِبُعْدِ الزَّمَانِ بَيْنَهُمَا ،
فَلَا يَخْصُلُ التَّكْوِينُ . فَلِذَا الشَّمْسُ تُسَامِتُ الرُّوْسَ
عَلَى خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ فِي رَأْسِ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ ،
ثُمَّ تَمِيلُ عَنْ الْمُسَامَةِ إِلَى رَأْسِ السَّرَطَانِ وَرَأْسِ
الْجَنِيِّ ، وَيَكُونُ نَيْبَانِيَّةً مِيلَهَا عَنْ دَايِرَةِ مُعَدِّلِ
النَّهَارِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً .

ثُمَّ إِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنِ الْأَفْقِ
مَالَتْ دَايِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَنْ سَمْتِ الرُّوْسِ
يَقْدَارُ ارْتِفَاعِهِ ، وَانْخَفَضَ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ

(١) سَمَاتُ الْكَلَامِ فِيهَا فِي الْفَصْلِ الثَّالِي عَوْنَاهُ وَتَعْلِيلُ الْكَلَامِ

مِنْ عِلْمِ الْجَوَارِحِ .

(٢) فِي طَبَقَةِ التَّجَارِيذِ: التَّكْوِينُ بِالرَّاءِ الْهَمْزَةُ وَمَا أَتَتْهَا هَا
عَنْ طَبَقَةِ الْمَشْرِقِ بِتَحْقِيقِ التَّكْوِينِ مِنْ حَالِهَا وَاقٍ وَنُسْخَةٍ
صَاحِبِ الطَّبَقَةِ الْهَيْبَةِ .

فَلِللَّيْلِ كَانَ الْمُعْرَانُ فِي الْإِيلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي
قَلِيلًا ، وَفِي الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا ،
لَاغِيْدَالِ الْحَرِّ يَنْقُصَانِ الضَّوْءَ ، وَفِي السَّادِسِ
وَالسَّابِعِ كَثِيرًا لِيَنْقُصَانَ الْحَرَّ ، وَأَنْ كَيْفِيَّةَ
الْبَرْدِ لَا تَوَثَّرُ جِذْدَ أُولَاهَا فِي قَسَادِ التَّكْوِينِ كَمَا
يَفْعَلُ الْحَرُّ ، إِذْ لَا تَجْهِيفُ فِيهَا إِلَّا جِذْدَ الْإِفْرَاطِ
بِمَا يَخْرُصُ لَهَا جِذْدُهَا مِنَ الْبَيْسِ كَمَا بَعْدَ السَّابِعِ .
فَلِهَذَا كَانَ الْمُعْرَانُ فِي الرَّبِيعِ الشَّمَالِيِّ ،
أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَآخِرَ أَكْثَمَ .

وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الْمُكَلِّمُ خِلَافَ خَطِّ الْاِسْتِيَوَاءِ
وَمَا وَرَأَاهُ ، وَأَوْرَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالشَّمَاةِ
وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ ، فَكَيْفَ يَتِمُّ الْبَرْدَانُ عَلَى ذَلِكَ .
وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا اسْتِنَاعَ الْمُعْرَانِ فِيهِ
بِالْكَلِيَّةِ ، إِنَّمَا أَكْثَرَهُمُ الْبَرْدَانُ إِلَى أَنْ قَسَادَ
التَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ الْحَرِّ ، وَالْمُعْرَانُ فِيهِ ،
إِمَّا مُنْتَنِعٌ أَوْ مُمَكِّنٌ أَقْلَى ، وَهُوَ كَلِيلُكَ . فَلِأَنَّ
خَطَّ الْاِسْتِيَوَاءِ وَالَّذِي وَرَأَاهُ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ
مُعْرَانٌ ، كَمَا نَقُلُ فَهُوَ قَلِيلٌ جَدًّا .

وَقَدْ زَعَمَ ابْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطَّ الْاِسْتِيَوَاءِ مُتَعَدِّلٌ
وَأَنَّ مَا وَرَأَاهُ فِي الْجَنُوبِ بِحَقَابَةٍ مَا وَرَأَاهُ فِي الشَّمَالِ
فَيَعْتَرِثُهُ مَا حَصَرَ مِنْ هَذَا . وَالَّذِي قَالَهُ غَيْرُ
مُنْتَنِعٌ مِنْ جِهَةِ قَسَادِ التَّكْوِينِ ، وَإِنَّمَا اسْتَفْتَحَ
فِيهَا وَرَاءَهُ خَطَّ الْاِسْتِيَوَاءِ فِي الْجَنُوبِ ، مِنْ جِهَةِ
أَنَّ الْمُعْصَرِ الْمَادِي حَمَرُ وَجْهِ الْأَرْضِ هُنَاكَ إِلَى
الْحَدِّ الَّذِي كَانَ مُقَابِلَهُ مِنَ الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ قَابِلًا
لِلتَّكْوِينِ ، وَلَكِنَّا اسْتَفْتَحَ الْمُتَعَدِّلُ لِيَقْبِيَةِ الْمَاءِ ،
نَيْعَةً مَا يَوْهَهُ ، لِأَنَّ الْمُعْرَانَ مُتَلَوِّجٌ . وَيَتَأَخَذُ

مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدَ لِأَنَّ الضَّوْءَ سَبَبُ الْحَرِّ
وَالْتَّخْفِيفِ .

ثُمَّ إِنَّ الْمُسَامَنَةَ فِي خَطِّ الْاِسْتِيَوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ
فِي السَّنَةِ عِنْدَ نَقْطَتَيْ الْحَمَلِ وَالْجُوزِانِ ، وَلَكِنَّا
مَالَتْ فَعَبْرُ بَعِيدٍ . وَلَا يَكَادُ الْحَرُّ يَتَعَدَّلُ فِي آخِرِ
مَبْلَغِهَا عِنْدَ رَأْسِ السَّرَطَانِ وَالْجُذَى إِلَّا أَنْ صَبَحَتْ
إِلَى الْمُسَامَنَةِ ، فَتَقْبِي الْأَشْيَةَ الْقَائِمَةَ الزَّوَابَا نَلْبَحُ
عَلَى ذَلِكَ الْأَقْفَى ، وَيَطُولُ مُكْنَهَا أَوْ يَتَوَدُّمُ ،
فَيَسْتَعِجِلُ الْهَوَاءُ حَرَارَةً ، وَيَغْرِطُ فِي شِدَّتِهَا .
وَكَلِّذَا مَا دَامَتْ الشَّمْسُ نَسِيبَتْ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ
الْاِسْتِيَوَاءِ إِلَى عَرَضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ ، فَإِنَّ الْأَشْيَةَ
مُحِبَّةٌ عَلَى الْأَقْفَى فِي ذَلِكَ يَقْرِبُ مِنَ الْحَاحِيهَا
فِي خَطِّ الْاِسْتِيَوَاءِ .

وَالْإِفْرَاطُ الْحَرُّ يَفْعَلُ فِي الْهَوَاءِ تَخْفِيفًا وَيَبْسًا
يَمْنَعُ مِنَ التَّكْوِينِ ، لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ الْحَرُّ جَحَّتِ
الْيَمَاءُ وَالرُّطُوبَاتُ ، وَقَسَدَ التَّكْوِينُ فِي التَّعْدِيلِ
وَالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ ، إِذِ التَّكْوِينُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّطُوبَةِ .
ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنْ صَحْتِ الرُّوُوسِ
فِي عَرَضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ فَمَا بَعْدَهُ ، نَزَلَتْ الشَّمْسُ
عَنِ الْمُسَامَنَةِ ، فَيَصِيرُ الْحَرُّ إِلَى الْاِغْيَادِ ، أَوْ
يَسِيلُ عَنْهُ مَبْلَغًا قَلِيلًا ، فَيَكُونُ التَّكْوِينُ ، وَيَتَزَابَدُ
عَلَى التَّلْوِيجِ ، إِلَى أَنْ يَغْرِطَ الْبَرْدُ فِي شِدَّتِهِ
- لِقَلَّةِ الضَّوْءِ ، وَكَوْنِ الْأَشْيَةِ مُنْفَرَجَةً الزَّوَابَا -
فَيَنْقُصُ التَّكْوِينُ ، يَقْصُدُ .

بَيِّنَةٌ أَنَّ قَسَادَ التَّكْوِينِ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَرِّ أَكْثَمُ
مِنْهُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْبَرْدِ ، لِأَنَّ الْحَرَّ أَسْرَعَ تَأْثِيرًا
فِي التَّجْهِيفِ مِنْ تَأْثِيرِ الْبَرْدِ فِي الْجَمْدِ .

إِلَّا أَنَّ الْخَلَاءَ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ أَقْلُ بِكَثِيرٍ مِنْ
الْخَلَاءِ الَّتِي فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ .

ثُمَّ إِنَّ أَرْزَمَةَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَتَفَارَقُ فِي هَذِهِ
الْإَقْلِيمِ بِسَبَبِ مِثْلِ الشَّمْسِ عَنْ دَائِرَةِ مُعَدَلِ
النَّهَارِ ، وَارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ عَنْ آفَاقِهَا ،
فَيَتَفَارَقُ قَوْسُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِلْمَلِكِ .

وَيَنْتَهِي طَوْلُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ
الْأَوَّلِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ الْجَدِيِّ
لِلَّيْلِ ، وَبِرَأْسِ السَّرَطَانِ لِلنَّهَارِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
إِلَى ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ ، وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ .
الْإِقْلِيمِ الثَّانِي مِمَّا يَكِلِي الشَّمَالَ ، فَيَنْتَهِي
طَوْلُ النَّهَارِ فِيهِ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ
السَّرَطَانِ ، وَهُوَ مُثْقَلُهَا الْعَصِينِي ، إِلَى ثَلَاثِ
عَشْرَةِ سَاعَةٍ وَنِصْفِ سَاعَةٍ ، وَمِثْلُهُ أَطْوَلُ اللَّيْلِ
عِنْدَ مُثْقَلِهَا الشَّمْوِيُّ بِرَأْسِ الْجَدِيِّ ، وَيَبْقَى
لِلْإِقْلِيمِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَا يَبْقَى بَعْدَ الثَّلَاثِ
عَشْرَةِ وَنِصْفِ مِنْ جُمْلَةِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ السَّاعَاتِ
الزَّمَانِيَّةِ لِمَجْمُوعِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهِيَ ذُوْرَةُ
الْقَلْبِ الْكَامِلَةِ .

وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِمَّا يَكِلِي
الشَّمَالَ أَيْضًا يَنْتَهِيَانِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ .
وَقِي آخِرِ الرَّابِعِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَاعَةٍ وَنِصْفِ
سَاعَةٍ ، وَقِي آخِرِ الْخَامِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةِ
سَاعَةٍ ، وَقِي آخِرِ السَّادِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةِ
سَاعَةٍ وَنِصْفًا وَقِي آخِرِ السَّابِعِ إِلَى سِتِّ عَشْرَةِ

فِي التَّوْجِيعِ مِنْ جِهَةِ الْوُجْدِ ، لَا مِنْ جِهَةِ الْإِخْتِنَاعِ .
وَأَمَّا الْقَوْلُ بِإِخْتِنَاعِهِ فِي خَطِّ الاسْتِيَوَاءِ ، فَيَرُدُّهُ
النُّقْلُ الْمُتَوَاتِرُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَلْتَرَسُمْ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ صُورَةُ الْجُغْرَافِيَا
كَمَا رَسَمَهَا صَاحِبُ كِتَابِ رُجَاوِ (١) ، ثُمَّ نَأْخُذُ
فِي تَفْصِيلِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ .

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إِعْلَمُ أَنَّ الْمُحْكَمَاءَ قَسَمُوا هَذَا الْمُعْمُورَ كَمَا
تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَلَى سَبْعَةِ أَقْسَامٍ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى
الْجَنُوبِ ، يُسَمَّوْنَ كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا إِقْلِيمًا ،
فَانْقَسَمَ الْمُعْمُورُ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهِ عَلَى هَذِهِ
السَّبْعَةِ الْإَقْلِيمِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا آخِذٌ مِنَ الْقَرْبِ
إِلَى الشَّرْقِ عَلَى طَوِيلٍ . فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَارٌ مِنْ
الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ مَعَ خَطِّ الاسْتِيَوَاءِ ، بِحُدُودِهِ
مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ ، وَكَيْسَ وَرَاءَهُ هُنَاكَ إِلَّا الْفِقَارُ
وَالرَّمَالُ وَبَعْضُ عِمَارَةٍ ، إِنْ صَحَّتْ فِيهِ كَلَا
عِمَارَةٍ . وَثَانِيهِ مِنْ جِهَةِ شَمَالِيهِ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي ،
ثُمَّ الثَّلَاثُ كَذَلِكَ ، ثُمَّ الرَّابِعُ وَالْخَامِسُ وَالسَّادِسُ
وَالسَّابِعُ ، وَهُوَ آخِرُ الْمُعْرَانِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ .
وَكَيْسَ وَرَاءَهُ السَّابِعُ إِلَّا الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ ،
إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ . كَذَلِكَ
فِيهَا وَرَاءَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ .

(١) صاحب الكتاب: هو الشريف الإدريسي وقد أنه لصاحب
صقلية في عهد ملك روجير الثاني . انظر النسخة المنشورة بتحقيق
د. وافي حاش ص ٤٢٦ ج ١ رسالتي ذكره في الصفحة التالية .
(٢) يختلف هذا الفصل من نظيره في نسخة المكتبة البغدادية
للإرجاع إليه من هذه .

وابن حُرْدَانِيَّةَ وَالْمَرْقَلِيَّ وَالْقَذْرِيَّ (١) وَابْنَ
إِسْحَاقَ الْمُتَجَمِّمِ وَبَطْلَيْمُوسَ وَغَيْرِهِمْ ، وَبَدَأَ
بِئِنَّهَا بِالْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى بِتَقْصِيمِنَا بِسَنِهِ وَقَفْلِهِ .

الإقليم الأول

وَكَيْفَ مِنْ جِهَةِ غَرْبِيهِ الْجَزَائِرُ الْخَالِدَاتُ الَّتِي
مِنْهَا بَدَأَ بَطْلَيْمُوسُ بِأَعْدَاطِهَا الْبِلَادَ ، وَكَيْسَتْ
فِي بَرِّيَّةِ الْإِقْلِيمِ ، وَلِنَمَّا هِيَ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ
جَزُرٌ مُتَكَثِرَةٌ ، أَكْبَرُهَا وَأَشْهُرُهَا ثَلَاثُ ، وَبَقَا
إِنَّهَا مَعْمُورَةٌ .

وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ سَفَائِنَ مِنَ الْإِفْرَنْجِ مَرَّتْ بِهَا
فِي أَوَاسِطِهِ هَذِهِ الْيَاثِيَّةُ ، وَقَاتَلَوْهُمْ فَغَنِمُوا مِنْهُمْ
وَسَبَّوْا ، وَتَاغَوْا بَعْضُ أَشْرَافِهِمْ بِسَوَاحِلِ الْقُرْبِ
الْأَقْصَى ، وَتَسَاوَرَا إِلَى خِيَمَةِ السُّلْطَانِ ، فَلَمَّا
تَعَلَّمُوا اللَّسَانَ الْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِ جَزَائِرِهِمْ ،
وَأَنَّهُمْ يَخْتَفِرُونَ الْأَرْضَ لِلزَّرْعَةِ بِالْقُرُونِ ، وَأَنَّ
الْحَبِيدَ مَقْقُودٌ بِأَرْضِهِمْ ، وَحَيْثُ هُمْ مِنَ الشَّيْخِيرِ ،
وَمَا شَيْئُهُمُ الْمَعْرُوقُنَالَهُمْ بِالْحِجَارَةِ ، يَرْتُمُونَهَا
إِلَى خَلْفَتِ ، وَحَيْثُ هُمْ السُّجُودُ لِلشَّمْسِ إِذَا
طَلَعَتْ ، وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَكَمْ تَبَلَّغُهُمْ دَعْوَةٌ .

وَلَا يَوْفُقُ عَلَى مَكَانِ هَذِهِ الْجَزَائِرِ إِلَّا بِالْخُورِ ،
لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ سَفَرَ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ إِسَاءَةٌ
هُوَ بِالرِّيَاحِ ، وَمَتَرَفَةٌ جِهَاتِ مَهَايَا ، وَإِلَى
أَيِّنْ يُوَصِّلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الْاِسْتِقَامَةِ مِنَ الْبِلَادِ
الَّتِي فِي مَتَرِ ذَلِكَ الْمَهَبِ ، وَإِذَا اخْتَلَفَ الْمَهَبُ

سَاعَةً ، وَهَذَا بَلَكٌ يَنْقَطِعُ الْمَعْرَاةُ ، فَيَكُونُ تَقْلُوتُ
هَذِهِ الْأَقْلِيمِ فِي الْأَطْوَلِ مِنْ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا بِنِصْفِ
سَاعَةٍ ، لِكُلِّ إِقْلِيمٍ بِتَرَاكُفٍ مِنْ أَوَّلِهِ فِي نَاحِيَةِ
الْجَنُوبِ إِلَى آخِرِهِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ ، مُوزَّعَةٌ
عَلَى أَجْزَاءِ هَذَا الْبَلَدِ .

وَأَمَّا عَرْضُ الْبُلْدَانِ فِي هَذِهِ الْأَقْلِيمِ ، وَهُوَ
حِيَارَةٌ عَنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ سَمْتُ رَأْسِ الْبَلَدِ وَكَالِيرَةِ
مُعْدَلِ النَّهَارِ ، الَّذِي هُوَ سَمْتُ رَأْسِ خَطِّهِ
الْاِسْتِوَاءِ وَبِجِلِّهِ سَوَاءٌ يَنْخَفِضُ الْقُطْبُ الْجَنُوبُ
عَنْ أَفْقِ ذَلِكَ الْبَلَدِ ، وَيَرْتَفِعُ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ
عَنْهُ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَبْعَادٍ مُتَسَاوِيَةٍ ، نَسَمَى عَرْضُ
الْبَلَدِ كَمَا مَرَّ ذَلِكَ قَبْلَ .

وَالْمُسْكُلُونَ عَلَى هَذِهِ الْجُغَرَايَا ، فَتَسَوَّاهُ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْلِيمِ السَّيِّئَةِ ، فِي طَوْلِهِ مِنْ
الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءِ مُتَسَاوِيَةٍ ،
وَيَبْذُرُونَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ ، كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مِنْ
الْبُلْدَانِ ، وَالْأَمْصَارِ ، وَالْجِبَالِ ، وَالْأَنْهَارِ ،
وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي الْمَسَالِكِ ، وَتَحْنُ الْآنَ
نُوجِزُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ ، وَنَذْكُرُ مَشَاهِيرَ الْبُلْدَانِ
وَالْأَنْهَارِ وَالْجِبَالِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا ، وَنُحَادِثُ
بِذَلِكَ ، مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ «نَزْمَةِ الشُّشَاقِ» الَّذِي
أَلْفَهُ الْفَلَوِيُّ الْأَفْرِجِيُّ الْحَمُودِيُّ لِمَلِكِ صِقِلِيَّةَ
مِنْ الْإِفْرَنْجِ ، وَهُوَ رُجْلَانُ بْنُ رُجَارٍ ، حِينَ مَا كَانَ
نَازِلًا عَلَيْهِ بِصِقِلِيَّةَ ، بِتَعْدِ عُرُوجِ صِقِلِيَّةَ مِنْ
إِمَارَةِ مَالِقَةَ ، وَكَانَ تَأْلِيْفُهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَهَى
الْيَاثِيَّةِ السَّادِسَةِ ، وَجَمَعَ لَهُ كِتَابًا جَمَّةً : لِلْمَسْعُودِيِّ

(١) في النسخة المطبوعة .

الاقصى ، وبالقرب منها من شمالها بلاكيتونة
وسائر طوائف المسلمين ، ومقاويز يجولون فيها .

وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان ،
يقال لهم لطم ، وهم كفار ويكفرون في وجوههم
وأصداعهم ، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ،
ويستبونهم ويبيعونهم للشجار ، فيجلبونهم إلى
المغرب ، وكلهم عامة رقيقهم .

وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر
إلا أناس أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق ،
يسكنون الفياض والكهوف ، ويأكلون القشب
والحبوب ، غير مهينة ، وربما يأكل بعضهم
بعضا ، ويسوا في جناد البشر .

وقواك بلاد السودان كلها من قصور صحرها
المغرب مثل توات وتكرارين ووركلان . فكان
في غانة - فيما يقال - ملك ودولة لقوم من الملوكيين
يعرفون ببيتى صالح ، وقال صاحب كتاب
رجل : إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن
الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن
حسن ، وقد ذهبت إليه الدولة لهذا العهد صارت
غانة لسلطان مالي .

وفي شرق هذا البلد ، في الجزء الثالث من الإقليم ،
بلد كوكو ، على نهر يتبع من بعض الجبال
هناك ويسمى مغربا فينوص في رمال الجزء الثاني
وكان ملك كوكو قائما بنفسه ، ثم استولى
عليها سلطان مالي ، وأصبحت في مملكته وخربت
لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك ، نذكرها
حين نذكر دولة مالي ، في مجلها من تاريخ البربر .

وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوى به
القلع محاكاة بحمل السفينة بها على قوائين
في ذلك محصلة عند النوايا^(١) والملأحين اللين
هم رؤساء السفن في البحر .

والبلاد التي في حافات البحر الرومي ،
وفي علويها مكتوبة كلها في صحيفة على شكل
ماهي عليه في الوجود ، وفي وضعها في سواحل
البحر على ترتيبها ، ومهاب الرياح وممراتها
على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ،
ويسمونها الكتاب^(٢) ، وعليها بتعليمون في أسفارهم .

وهذا كله مفقود في البحر المحيط ، فلذلك
لا تلج فيه السفن ، لأنها إن غابت عن مرمى
السواحل ، قل أن تهتدي إلى الرجوع إليها
مع ما يتعقد في جز هذا البحر ، وعلى سطح
مايه من الأبحر المائية للسفن في صيرها ،
وحى إليها لا تدرى أحوال الشمس المنمكة
من سطح الأرض فتحللها ، فلذلك حشر الاختلاف
إليها ، وضعب الوقوف على خبرها .

وأما الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مقب
النيل الاتي من مبدئه عند جبل القمر ، كما
ذكرناه ويسمى نيل السودان ويلتج إلى البحر
المحيط ، فيصب فيه عند جزيرة أوليك .

وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانة ،
وكلها لهذا العهد في مملكة ملك ، مالي ، من
أمر السودان ، وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب

(١) جمع نواف وهو اللوح في البحر .

(٢) Compass (البوصلة)

وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ بِلَادُ النُّوبَةِ وَالْحَبَشَةِ وَيَتَحَصَّنُ
بِلَادُ الْوَاحَاتِ إِلَى أَسْوَاةٍ ، وَخَاصِرَةُ بِلَادِ النُّوبَةِ
مَدِينَةُ دُنْقَلَةُ ، وَهِيَ فِي غَرْبِيِّ هَذَا النَّيْلِ ، وَيَتَلَحَّاهَا
عَلَوَةُ وَيَلَاقِي ، وَيَتَلَحَّاهَا جَبَلُ الْجَنَادِلِ عَلَى مِصْرَ
مَرَايِلَ مِنْ بَلَاقِي فِي الشَّمَالِ ، وَهُوَ جَبَلٌ هَالِكٌ مِنْ
جِهَةِ مِصْرَ وَمُنْخَفِضٌ مِنْ جِهَةِ النُّوبَةِ ، فَيَنْقُذُ فِيهِ
النَّيْلُ وَيَتَصَبُّ فِي مَهْوًى بَعِيدٍ ضَبًّا هَائِلًا ، فَلَا يُمْكِنُ
أَنْ تَسْلُكَهُ الْمَرَائِبُ ، بَلْ يُحَوَّلُ الْوَسْقُ مِنْ مَرَائِبِ
السُّودَانِ ، فَيَحْمَلُ عَلَى الظَّهْرِ إِلَى بَلَدِ أَسْوَاةٍ
قَاعِدَةُ الصَّيْدِ إِلَى فَوْقِ الْجَنَادِلِ .

وَيَبِينُ الْجَنَادِلُ وَأَسْوَاةُ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرْتَلَةً ،
وَالْوَاحَاتُ فِي غَرْبِهَا عَذْوَةُ النَّيْلِ وَهِيَ الْآنَ غَرَابُ ،
وَبِهَا أَقَارُ الْبِمَارَةِ الْقَصِيحَةِ .

وَقَى وَسَطُ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ
مِنَهُ بِلَادُ الْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَنْتَهِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ
الْاِسْتِوَاءِ ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ النُّوبَةِ ، فَيَتَصَبُّ هُنَاكَ
فِي النَّيْلِ الْهَابِطِ إِلَى مِصْرَ ، وَقَدْ وَفِّمَ فِيهِ كَثِيرٌ
مِنَ النَّاسِ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نَيْلِ الْقَمَرِ ، وَيَطْلُبُ نَوْسُ
ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ « الْجغرافيا » ، وَذَكَرَهُ أَنَّهُ
لَيْسَ مِنْ هَذَا النَّيْلِ .

وَالَّذِي وَسَطَ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ
يَنْتَهِي بَحْرُ الْهِنْدِ (١) الَّذِي يَدْخُلُ مِنْ تَاجِيَةِ
الصِّينِ وَيَخْرُجُ عَامَةً هَذَا الْإِقْلِيمِ ، إِلَى هَذَا الْجُزْءِ
الْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ عُمُرَانٌ إِلَّا مَا كَانَ فِي الْجَزَائِرِ
الَّتِي فِي تَاجِيلِهِ ، وَهِيَ مُتَطَهَّرَةٌ يَقَالُ تَنْتَهَى إِلَى
أَلْفِ جَزِيرَةٍ أَوْ فِيمَا عَلَى سَوَاطِلِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ ،

(١) لُغَةُ الْعَرَبِ .

وَقَى جَنُوبِيُّ بَلَدِ « كُوكُو » بِلَادُ كَاتِمِ ،
مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ ، وَيَتَلَحَّاهُمْ وَنَغَارَةُ عَلَى ضِفَةِ
النَّيْلِ مِنْ شَمَالِيهِ .

وَقَى شَرْقِيُّ بِلَادِ « نَوَّارَةَ » وَكَاتِمِ ، بِلَادُ « زَعَاوَةَ »
وَتَاجِرَةُ الْمُتَصِلَةِ بِأَرْضِ النُّوبَةِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ ،
مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ ، وَقِيَهُ بَحْرُ نَيْلِ مِصْرَ ذَاهِبًا مِنْ مَدِينَةِ
جَنْدُ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الرَّومِيِّ فِي الشَّمَالِ .

وَمَخْرَجُ هَذَا النَّيْلِ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي
فَوْقَ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً . وَاتَّخَلَفُوا
فِي ضَبِطِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فَضَبَطَهَا بَعْضُهُمْ بِمَنْحِ الْقَافِ
وَالْيَمِيمِ ، نِسْبَةً إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ لِشِدَّةِ بَيَاضِهِ
وَكثْرَةِ ضَوْئِهِ ، وَقَى كِتَابِ « الْمُشْتَرَكِ » لِيَاقُوتُ
يَقْصِمُ الْقَافَ وَشُكُونِ الْيَمِيمِ ، نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ مِنْ
أَهْلِ الْهِنْدِ ، وَكَذَا ضَبَطَهُ ابْنُ سَعِيدٍ ، فَيَخْرُجُ
مِنْ هَذَا الْجَبَلِ عَشْرُ عِوَنٍ تَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ
مِنْهَا فِي بُحِيرَةٍ وَيَبْتَنُّهُمَا بَيْتُهُ أَشْبَالُ ، وَيَخْرُجُ
مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ ،

تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي بَحِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فِي أَصْفَلِهَا جَبَلٌ
مُعْتَرِضٌ يَشُقُّ الْبَحِيرَةَ مِنْ تَاجِيَةِ الشَّمَالِ ، وَيَنْفَقِسُ
مَآوُهَا بِقِسْمَتَيْنِ : فَيَخْرُجُ الْقَرْيَةُ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ
مُقَرَّبًا حَتَّى يَتَصَبُّ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، وَيَخْرُجُ
الشَّرْقِيُّ مِنْهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّمَالِ عَلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ
وَالنُّوبَةِ ، وَفِيمَا بَيْنَهُمَا ، وَيَنْفَقِسُ فِي أَعْلَى أَرْضِ
مِصْرَ فَيَتَصَبُّ ثَلَاثَةً مِنْ جَدَائِلِهِ فِي الْبَحْرِ الرَّومِيِّ
جَنْدُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَرَشِيدٌ وَفَيْطَاطُ ، وَيَتَصَبُّ
وَاحِدٌ فِي بُحِيرَةٍ يَلْحَقُ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ

فِي وَسَطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ .

وَتَحْتَ بَابِ الْمُنْدَبِ جَزِيرَةُ سَوَاكِينْ وَتَقَالَتْ مِنْ غَرْبِيَّةِ مَجَالَاتِ الْبَحْجَةِ مِنْ أَسْمِ السُّودَانِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ ، وَمِنْ شَرْقِيَّةِ فِي هَذَا الْمَرْءِ تَهَامِيمْ (١) الْيَمَنَ ، وَهِيَ عَلَى سَاحِلِهِ بَلَدٌ عَلَى بْنِ يَعْقُوبَ .

وَقِي جِهَةُ الْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالِجَ ، وَعَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيَّةِ قَرْيَ بَرَبَرِ يَتَلَوُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَنْتَظِفُ مِنْ جَنُوبِيَّةٍ إِلَى آخِرِ الْجَزْءِ السَّادِسِ .

وَيَلِيهَا هُنَالِكَ مِنْ جِهَةِ شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الزُّنْجِ ، ثُمَّ بِلَادُ (سَفَالَةَ X) مِنْ سَاحِلِهِ الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادُ الْوَقُوقِ (٢) مُتَّصِلَةٌ إِلَى آخِرِ الْجَزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عِنْدَ مَدْخَلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ .

وَأَمَّا جَزَائِرُ هَذَا الْبَحْرِ فَكَثِيرَةٌ . مِنْ أَكْثَرِهَا جَزِيرَةُ سَرَنْدِيبِ (٣) مَدَوْدَةُ الشَّكْلِ وَبِهَا الْجِبَلُ الْمَشْهُورُ ، يُقَالُ : لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى مِنْهُ ، وَهِيَ قِبَالَةُ سَفَالَةَ ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقَمَرِ وَهِيَ جَزِيرَةُ مُسْتَطِيلَةٍ ، تَبْدَأُ مِنْ قِبَالَةِ أَرْضِ سَفَالَةَ وَتَلْعَبُ إِلَى الشَّرْقِ مُنْحَرِفَةً بِكَثِيرٍ إِلَى أَنْ تَقْرُبَ مِنْ سَوَاحِلِ أَعَالَى الصِّينِ ، وَيَحْتَفُ بِهَا فِي هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَنُوبِهَا جَزَائِرُ الْوَقُوقِ ، وَمِنْ شَرْقِيَّهَا جَزَائِرُ السُّبُلَانِ إِلَى جَزَائِرِ آخَرٍ فِي هَذَا الْبَحْرِ كَثِيرَةٌ الْعَدَدُ ، وَفِيهَا أَنْوَاعُ الطَّيْبِ وَالْأَفَاوِيهِ ، وَفِيهَا يُقَالُ : تَمَادِنُ اللَّحَبِ وَالزُّمُرُودُ ، وَعَامَّةُ أَهْلِهَا عَلَى

وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَقِي بِلَادِ الْيَمَنِ .

وَقِي الْجَزْءُ السَّادِسُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ ، فِيمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ الْهَابِطَيْنِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ ، إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَهِيَ بَحْرُ قَلْزُومْ (١) ، وَبَحْرُ قَارَسْ (٢) ، وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ الْقَرْبِ ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ وَبِلَادِ الشَّحْرِ فِي شَرْقِيَّهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ ، وَعَلَى بِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا لِيْهَا ، كَمَا نَذَكَّرُهُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ .

أَمَّا الَّذِي عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيَّةِ فَبَلَدُ زَالِجَ ، مِنْ اطْرَافِ بِلَادِ الْحَبَشَةِ ، وَمَجَالَاتُ الْبَحْجَةِ (٣) فِي شَمَالِيَّ الْحَبَشَةِ مَا بَيْنَ جِبَلِ الْمَلَأَقِ فِي أَعَالَى الصِّيدِ ، وَبَيْنَ بَحْرِ الْقَلْزُومِ الْهَابِطِ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ .

وَتَحْتَ بِلَادِ زَالِجَ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فِي هَذَا الْجَزْءِ خَلِيجُ بَابِ الْمُنْدَبِ إِذْ يَتَّصِقُ الْبَحْرُ الْهَابِطُ . هُنَالِكَ بِحْزَاحِمَةِ جِبَلِ الْمُنْدَبِ الْمَائِلِ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ ، مُتَّصِلًا مَعَ سَاحِلِ الْيَمَنِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فِي طُولِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا ، فَيَتَّصِقُ الْبَحْرُ بِسَبَبِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ أَوْ نَحْوِهَا ، وَيُسَمَّى بَابَ الْمُنْدَبِ ، وَعَلَيْهِ تَعَرُّ مَرَاكِبُ الْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ السُّوْنِينَ قَرِيبًا مِنْ مِصْرَ .

(١) البحر الأحمر .

(٢) الخليج العربي الآن .

(٣) ويقال أيضًا: البحجة وهي اسم لبعض القبائل يذكر به أهل من أم السودان . وزالغ هي نيل المرولة الآن .

(٤) جمع جملة وهي ما انخفض من الأرض ومقابلها : نجد .

(٥) مدينة وميناء أنشأه البرتغاليون بأفريقيا الشرقية في القرن

السابع عشر الميلادي .

(٦) في بعض النسخ بلاد الرافد . وتشير عند العامة باسم

« واد الرافد » . وهي في شمال الصين .

(٧) التي نزل إليها زعماء الثورة العراقية بعد فشلها .

الْشَّرْقِ أَعْلَى أَرْضِ غَاةَ ، ثُمَّ مَجَالَاتُ زَغَاوَةَ مِنْ
السُّودَانِ ، وَفِي الْجَنَابِ الْأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَحْرَاهُ (١)
يَسْتَرْ مَصْلَعًا مِنَ الْقَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ ذَاتَ مَقَاوِزَ
تَسْلُكُ فِيهَا التَّجَارُ ، مَا بَيْنَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَبِلَادِ
السُّودَانِ ، وَفِيهَا مَجَالَاتُ الْمَلُكِيِّينَ مِنْ صِنْعَانَةٍ ،
وَهُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ كَزُولَةِ ، وَكِمْتُونَةِ
وَمَسْرَاتَةِ ، وَ لِمَطَّةَ ، وَ وَرَبْكَةَ .

وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْمَقَاوِزِ شَرْقًا أَرْضُ «فَزَانَ» ،
ثُمَّ مَجَالَاتُ أَرْكَارَ مِنْ قِبَالِ الْبَرْبَرِ ، ذَاهِبَةً إِلَى
أَعْلَى الْجُزْءِ الثَّلَاثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ ،
وَيَتَدَخَّلُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّلَاثِ وَجْهُ جِهَةِ الشَّمَالِ
يَتَبَقَّى أَرْضُ وَدَّانَ ، وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ
سِنْتِيرِيَّةَ ، وَتُسَمَّى بِالْوَسَاتِ الدَّاخِلَةِ .

وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ أَعْلَاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ
الْبَرْبَرِيِّينَ ، ثُمَّ يَخْتَرُضُ فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ
بِلَادُ الصَّمِيدِ ، حَافَاتُ النَّيْلِ الدَّاهِبِ مِنْ مَبْدُئِهِ
فِي الْإِفْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى مَقْصَبِهِ فِي الْبَحْرِ ، فَيَمُرُّ
فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ الْجِبَلَيْنِ الْحَاجِزَيْنِ ، وَهُمَا :
جِبَلُ الْوَسَاتِ مِنْ غَرْبِهِ ، وَجِبَلُ الْمُقَطَّمِ مِنْ
شَرْقِهِ ، عَلَيْهِمَا مِنْ أَعْلَاهُ بِلَادُ «إِسْنَا» ، وَارْمَتَتْ ،
وَتَتَّصِلُ كُلُّكِلَا حَافَاتِهِ إِلَى «أَسِيوطَ» ، وَ«قُوصَ» ،
ثُمَّ إِلَى «صُولِ» ، وَيَقْتَرِفُ النَّيْلُ هُنَاكَ عَلَى
شُعْبَتَيْنِ يَنْتَهِي الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هَذَا الْجُزْءِ عِنْدَ
«الْمَاهُونِ» وَالْأَيْسَرُ عِنْدَ «دِلَاسَ» ، وَكَيْمَا يَنْتَهِي
أَعْلَى دِيكْرِ مَضَرَ .

(١) المسارح الأثرية الكبرى .

بَيْنَ الْمَجْرُوبِيِّ ، وَكَيْفَهُمْ مُلُوكٌ مُتَعَدِّتُونَ ، وَيَهْدِيهِ
الْجَزَائِرُ مِنْ أَمْوَالِ الْعَرَمَانِ عَجَابٌ ذَكَرْهَا أَهْلُ
الْجِغَرَايَا .

وَعَلَى الصَّفْعِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي الْجُزْءِ
السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ ، بِلَادُ الْيَحَنَ كُلُّهَا ،
فَمِنْ جِهَةِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ بِلَادُ «زَيْدَةَ» ، «الْمَهْجَمَ» ،
وَيَهْمَةُ الْيَحَنَ ، وَيَتَدَخَّلُ بِلَادُ صَعْنَةَ ، مَقَرُّ الْإِمَامَةِ
الزُّبَيْدِيَّةِ ، وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَعَنِ
الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ ، وَكَيْمَا يَتَدَخَّلُ ذَلِكَ مَدِينَةُ «عَدَنَ» ،
وَفِي شَمَالِهَا «صَنْعَانَةُ» ، وَيَتَدَخَّلُهَا إِلَى الْمَشْرِقِ
أَرْضُ الْأَخْفَافِ وَطِفَارٍ وَيَتَدَخَّلُ أَرْضَ حَضْرَمَوْتَ ،
ثُمَّ بِلَادُ الشُّحْرِ ، مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَبَحْرِ
فَارِسَ .

وَهَذِهِ الْقِبْطَةُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ هِيَ الَّتِي
انْكَشَفَتْ عَنْهَا الْبَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْإِفْلِيمِ ،
الْوَسْطَى وَيَنْكَشِفُ بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ ،
وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الْعَاصِرِ ، فِيهِ أَعْلَى بِلَادِ الصِّينِ ،
وَمِنْ مَدِينَةِ الشَّهِيرَةِ خَانِكُو ، وَقِبَالَتُهَا مِنْ جِهَةِ
الشَّرْقِ جَزَائِرُ السَّيْلَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَكَرْهَا ،
وَهَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْإِفْلِيمِ الْأَوَّلِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى وَكَيْ التَّوْفِيقُ يَمُنُّهُ وَقَضَايِهِ .

الْإِفْلِيمُ الثَّانِي

وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْأَوَّلِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ ، وَقِبَالَةُ
الْمَغْرِبِ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، جَزِيرَتَانِ مِنَ
الْجَزَائِرِ الْخَالِدَتَانِ ، الَّتِي مَرَّ ذَكَرْهَا .

وَفِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْهُ فِي الْجَنَابِ
الْأَعْلَى مِنْهُمَا أَرْضُ قَنْوَرِيَّةَ ، وَيَتَدَخَّلُ فِي جِهَةِ

بِلَادَ السُّنْدِ إِلَى بِلَادَ مَكْرَانَ ، وَتَقَابِلُهَا بِلَادُ
الطُّوْبِرَانِ ، وَحَيَّ مِنَ السُّنْدِ أَيْضًا فَيَتَّصِلُ السُّنْدُ
كُلَّهُ فِي الْجَانِبِ الْقَرْيَبِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ ، وَتَحُولُ
الْمَقَاوِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ الْهِنْدِ ، وَبَرٌّ فِيهِ نَهْرُهُ
الْأَيْمَى مِنْ نَاحِيَةِ بِلَادِ الْهِنْدِ وَيَصُبُّ فِي الْبَحْرِ
الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنْوِبِ .

وَأَوَّلُ بِلَادِ الْهِنْدِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ ،
وَقَى سَمِيحًا شَرْقًا بِلَادَ بَلَهَرَا ، وَتَحْتَهَا فِي الْجَانِبِ
الْأَسْفَلِ أَرْضُ كَابِلَ ، وَتَعْلَاهَا شَرْقًا إِلَى الْبَحْرِ
الْمُحِيطِ . بِلَادُ الْقَنْوَجَرِ ، مَا بَيْنَ قَشْمِيرِ الدَّاخِلَةِ
وَقَشْمِيرِ الْخَارِجَةِ حَتَّى آخِرِ الْإِقْلِيمِ .

وَقَى الْجُزْءُ التَّاسِعُ ، ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْقَرْيَبِ
مِنْهُ بِلَادُ الْهِنْدِ الْأَقْصَى ، وَتَتَّصِلُ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ
الشَّرْقِيِّ فَيَتَّصِلُ مِنْ أَغْلَاهُ إِلَى الْمَآثِرِ ، وَتَبْقَى
فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الْجَانِبِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ
فِيهَا مَدِينَةُ شِيغُونْ ، ثُمَّ تَتَّصِلُ بِلَادُ الصِّينِ فِي
الْجُزْءِ الْمَآثِرِ كُلُّهُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ .

وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ وَيَدُ مُبِحَاةِ التَّوْفِيقِ وَهُوَ
وَكِيُّ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ .

الإقليم الثالث

وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ ، فَفِي
الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ وَعَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ أَغْلَاهُ جَبَلٌ
قَرَنٌ مُتَّخِذٌ فِيهِ مِنْ غَرْبِيهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ
إِلَى الشَّرْقِيِّ حَتَّى آخِرِهِ ، وَتَسْكُنُ هَذَا الْجَبَلَ بَنُو
الْبَرْبَرِ أُمَّمٌ لَا يُخْبِصُهُمْ إِلَّا خَالَفَهُمْ حَسَبًا يَلْقَى
ذِكْرَهُ ، وَقَى الْقِطْعَةُ الَّتِي بَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ وَالْإِقْلِيمِ
الثَّانِي ، وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ . مِنْهَا رِبَاعَةٌ مَاسَّةٌ ،

وَقَى الشَّرْقِ مِنْ جَبَلِ الْمُقَطَّرِ صَحَارَى عَيْدَابَ
دَاجِيَةً فِي الْجُزْءِ الْخَاسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ
السُّوَيْسِ وَهُوَ بَحْرُ الْقَلْزَمِ الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ
الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنْوِبِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَقَى عُنُقِيهِ
الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ الْحِجَازِ مِنْ جَبَلِ
يَكْمَلَمَ ، إِلَى بِلَادِ يَثْرِبَ ، وَقَى وَسَطِ الْحِجَازِ
مَكَّةَ شَرْفَهَا اللَّهُ ، وَقَى سَاحِلِهَا مَدِينَةَ جَدَّةَ ، تَقَابِلُ
بَلَدَ عَيْدَابَ فِي الْمَدِينَةِ الْقَرْيَبَةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ .

وَقَى الْجُزْءُ السَّادِسُ مِنْ غَرْبِيهِ بِلَادُ نَجْدَ ،
أَغْلَاهَا فِي الْجَنْوِبِ وَتَبَالَهُ (١) وَجَرَسُ (٢) إِلَى عَكَاظَ .
مِنْ الشَّمَالِ ، وَتَحْتِ نَجْدَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ
أَرْضِ الْحِجَازِ ، وَعَلَى سَمِيحِهَا فِي الشَّرْقِ بِلَادُ
نَجْرَانَ ، وَتَحْتَهَا أَرْضُ الْيَمَامَةِ ، وَعَلَى
سَمْتِ نَجْرَانَ فِي الشَّرْقِ أَرْضُ سَبَأَ وَمَلُوبَ ثُمَّ
أَرْضُ الشَّحْرِ .

وَتَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارَسَ ، وَهُوَ الْبَحْرُ الثَّانِي
الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّمَالِ ، سَمَا
مَرَّ ، وَيَلْجَأُ فِي هَذَا الْجُزْءِ بِأَنْجَارِافَ إِلَى الْقَرْبِ ،
فِيهِ مَا بَيْنَ شَرْبِيهِ وَجَوْبِيهِ قِطْعَةٌ مُتَلَفَةٌ عَلَيْهَا مِنْ
أَغْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتَ ، وَحَيَّ سَاحِلُ الشَّحْرِ ، ثُمَّ
تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ بِلَادُ عُمَانَ ثُمَّ بِلَادُ الْبَحْرَيْنِ ،
وَحَجَرٌ ، مِنْهَا فِي آخِرِ الْجُزْءِ .

وَقَى الْجُزْءُ السَّابِعُ فِي الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيهِ قِطْعَةٌ
مِنْ بَحْرِ فَارَسَ تَتَّصِلُ بِالْقِطْعَةِ الْأُخْرَى فِي السَّادِسِ ،
وَيَتَخَرَّجُ بَحْرُ الْهِنْدِ جَانِبَهُ الْأَعْلَى كُلَّهُ يَوْعَلِيهِ هُنَالِكَ

(١) بلد باليمن .

(٢) بلد بالاردن .

وق سمّت هذه البلاد شرقاً بلاد المغرب الأوسط ، وقاعلتها تلمسان ، في سواحلها على البحر الرومي بلد همنين ووهزان والجزائر لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الإقليم الرابع ، ويذهب مشرقاً فينتهي إلى بلاد الشام ، فلما خرج من الخليج المضيق غير بعيد انفتح جنوباً وشمالاً ، فدخل في الإقليم الثالث والخامس فليها كان على ساحلها من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلادها ، ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسطنطينة في الشرق منها .

وق آخر الجزء الأول ، وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوبي هذه البلاد ومرتفعاً إلى جنوب المغرب الأوسط ، بلد أسير ، ثم بلد السيلية ، ثم الزاب ، وقاعلته بركرة تحت جبل أوراس المتصل بدار كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق . والجزء الثاني من هذا الإقليم على هيئة الجزء الأول ، ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبيها في غرب إلى شرق ، فيقسمه بقطعتين . ويعبر البحر الرومي مسافة من شماليه فالقطعة الجنوبية عن جبل درن ، غربيها كله مفاوز ، وفي الشرق منها بلد غدامس الثاني كما مر والقطعة الجرفية عن جبل درن وفي سمتها شرقاً أرض ودان التي بقيتها في الإقليم ما بينة وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس ، وتبسة والأوبس ، وعلى ساحل البحر ، بلد بونة .

ويتصل به شرقاً بلاد سوس ، وتول ، وعلى سمتها شرقاً بلاد درعة ، ثم بلاد سجلماسة ، ثم قطعة من صحراء ينشر المقارة التي ذكرناها في الإقليم الثاني .

وهذا الجبل مطلق على هذه البلاد كلها في هذا الجزء ، وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسلمت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه ، إلى أن ينتهي .

وفي هذه الناحية منه أمم المصامبة (١) ، ثم هنتانة ، ثم تيملك ، ثم كنيوة ، ثم مشكورة وهم آخر المصامبة فيه ، ثم قبائل صنهاكة ، وهم صنهاجة وق آخر هذا الجزء منه بقى قبائل زناتة .

ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس ، وهو جبل كثامة وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم .

ثم إن جبل درن هذا ، من جهة غربيه مطلق على بلاد المغرب الأقصى ، وهي في جوفيه ، ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراکش ، وأغامت وقادلا ، وعلى البحر المحيط منها رباط أسفي وتلمينة سلا .

وفي الجوف عن بلاد مراکش ، بلاد فاس ويكناسة ، وتازا ، وقصر كمامة ، وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا ، والعرش .

(١) والهم بنسب الإمام يحيى للموصى له ناسري موطا الإمام مالك .

ثُمَّ فِي مَرَقِ الْمُتَعَطِّفِ مِنَ الْجَبَلِ مَجَالَاتٌ هَبِيبٌ ،
وَرَوَاحَةٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ .

وَقِي الْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ ، وَفِي الْأَعْلَى
مِنْ غَرْبِيهِ صَحَارَى بَرَقِيئِي ، وَأَسْفَلُ مِنْهَا بِلَادُ
هَبِيبٍ وَرَوَاحَةٍ ، ثُمَّ يَدْخُلُ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ فِي هَذَا
الْجُزْءِ ، فَيَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى
يُزَاجِمَ طَرَفَهُ الْأَعْلَى ، وَيَبْتَقِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرِ
الْجُزْءِ قِفَارًا ، تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ .

وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ الْقِيُومِ ، وَهِيَ عَلَى
مَقْصَبِ أَحَدِ الشَّعْبَتَيْنِ مِنَ النَّيْلِ الَّذِي يَمُرُّ عَلَى
الْأَهْوَانِ مِنْ بِلَادِ الصَّيِّدِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ
الْإِقْلِيمِ الثَّانِي ، وَيَصْبُ فِي بَحِيرَةٍ يَوْمًا (١) وَعَلَى
سَمْتِهِ شَرْقًا أَرْضُ مِصْرَ ، وَمَدِينَتُهَا الشَّهِيرَةُ عَلَى
الشَّعْبِ الثَّانِي الَّذِي يَمُرُّ بِدَلَايَسِ مِنْ بِلَادِ الصَّيِّدِ
عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّانِي .

وَيَقْتَرِفُ هَذَا الشَّعْبُ افْتِرَاقًا ثَانِيَةً ، مِنْ
تَحْتِ مِصْرَ عَلَى شُعْبَتَيْنِ آخَرَتَيْنِ ، مِنْ شَطْنُوفِ ،
وَرَفْنِي ، وَيَنْقَسِمُ الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا مِنْ قُرْمَطِ بِشْعَتَيْنِ
آخَرَتَيْنِ ، وَيَصْبُ جَمِيعُهُمَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ،
فَعَلَى مَقْصَبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الشَّعْبِ بَلَدُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ
وَعَلَى مَقْصَبِ الْوَسْطِيِّ بَلَدُ رَشِيدَ ، وَعَلَى مَقْصَبِ
الْشَّرْقِيِّ بَلَدُ دِمِيَّاطَ ، وَبَيْنَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ وَبَيْنَ
هَذِهِ السَّوَاخِلِ الْبَحْرِيَّةِ أَسْفَلُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ
كُلُّهَا مَحْشُوءَةٌ عُمَرَاتًا وَقَلْعَاتٍ (٢) .

(١) بحيرة قارون .

(٢) يعني تلح الأرض وإصلاحها لزراعة .

ثُمَّ فِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ أَفْرِيْقِيَّةِ ،
فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ تُونِسَ ، ثُمَّ السُّوسَةُ ،
ثُمَّ الْمَهْدِيَّةُ ، وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ تَحْتِ جَبَلِ
دَرَنْ بِلَادُ الْجَرِيدِ : تَوَزَّرَ ، وَقَفَصَةُ ، وَتَفَزَاوَةُ ،
وَكَيْمَا بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ السَّوَاخِلِ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانِ ،
وَجَبَلُ وَصَلَاتٍ وَسَبِطَلَّةُ . وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ
كُلُّهَا شَرْقًا بَلَدُ طَرَابُلُسَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ،
وَيَلْزِمُهَا فِي الْجَنُوبِ جَبَلُ دَمَرَ ، وَتَفَرَّةُ مِنْ قَبَائِلِ
هَوَارَةَ مُتَّصِلَةٌ بِجَبَلِ دَرَنْ ، وَفِي مُقَابِلَةِ هَذِهِ
الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي آخِرِ الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ .

وَأَخِيرُ هَذَا الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ سَوِيقَةُ ابْنِ
مَشْكُورَةَ عَلَى الْبَحْرِ وَفِي جَنُوبِهَا مَجَالَاتُ الْعَرَبِ
فِي أَرْضِ وَدَّانَ ، وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا
الْإِقْلِيمِ يَمُرُّ أَيْضًا فِيهِ جَبَلُ دَرَنْ إِلَّا أَنَّهُ يَنْتَعِطُ
عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ ، وَيَلْتَقِي عَلَى سَمْتِهِ
إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، وَيُسَمَّى هُنَالِكَ
طَرَفَ أَوْقَانِ .

وَالْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنْ شَمَالِيهِ يَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ
إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنْ ، فَالَّذِي
وَرَاءَ الْجَبَلِ فِي الْجَنُوبِ وَفِي الْقَرَبِ مِنْهُ بَقِيَّةُ
أَرْضِ وَدَّانَ ، وَمَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا ، ثُمَّ زَوِيلَةُ
ابْنِ الْخَطَّابِ ، ثُمَّ رِمَالُ وَقِفَارَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
فِي الشَّرْقِ ، وَكَيْمَا بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فِي الْقَرَبِ
مِنْهُ بَلَدُ سَرَتْ عَلَى الْبَحْرِ ، ثُمَّ خَلَاةُ وَقِفَارَ ،
تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ ، ثُمَّ أَجْدَابِيَّةُ ، ثُمَّ بَرْقَةُ عِنْدَ
مُنْتَهَا الْجَبَلِ ، ثُمَّ طَلَمَسَةُ عَلَى الْبَحْرِ هُنَالِكَ ،

بِلَدِّ الْعَرَبِشِ ، وَهُوَ آخِرُ الْبَيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَعَسَقْلَانُ وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هَذَا الْبَحْرِ .

ثُمَّ تَنْتَهِي هَذِهِ الْقِطْعَةُ فِي انْعِطَافِهَا مِنْ هُنَالِكَ إِلَى الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُكُسَ وَغَزَّةَ ، وَهُنَالِكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ الرَّوْبِيُّ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ الشَّامِ ، فَفِي شَرْقِ غَزَّةَ ، ثُمَّ عَسَقْلَانَ وَبِأَنْجَرِافٍ يَسْمَى عَنْهَا إِلَى الشَّامِ بِلَدُّ قَيْسَارِيَّةَ ، ثُمَّ كَلْدِيكَ بِلَدُّ عَمَّاكَا ، ثُمَّ صُورُ ثُمَّ صَيْدَا ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إِلَى الشَّامِ فِي الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ .

وَيُقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادَ السَّاحِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ ، مِنْ بَحْرِ الْقُلْزُمِ وَيَذْهَبُ فِي نَاحِيَةِ الشَّامِ مُنْحَرِفًا إِلَى الشَّرْقِ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هَذَا الْجُزْءَ ، وَيَسْمَى جَبَلُ اللَّكَّامِ ، وَكَانَتْ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ فَفِي طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةَ الْعَقَبَةُ الَّتِي يَسُرُّ عَلَيْهَا الْحُجَّاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ ، ثُمَّ بَعْدَهَا فِي نَاحِيَةِ الشَّامِ مَدَنُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ السَّرَاةِ ، يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ جَبَلِ اللَّكَّامِ الْمَذْكُورِ مِنْ شَمَالِ الْعَقَبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلًا .

وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ بِلَدُّ الْحِجْرِ ، وَدِيَارُ ثُمُودَ وَتَيْمَامَا وَدُومَةُ الْجَنْدَلِ ، وَهِيَ أَسْفَلُ الْحِجَازِ ، وَتَوَقُّفُهَا جَبَلُ رَضْوَى ، وَحُصُونُ خَيْبَرَ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ عَنْهَا .

وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِفْلِيمِ بِلَادُ الشَّامِ ، وَأَكْثَرُهَا عَلَى مَا أَصِفُ وَذَلِكَ لِأَنَّ بَحْرَ الْقُلْزُمِ يَنْتَهِي مِنَ الْجَنُوبِ وَفِي الْقَرَبِ مِنْهُ عِنْدَ السُّوَيْسِ ، لِأَنَّهُ فِي مَرَّتِهِ مُتَبَدِّلٌ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّامِ ، يَنْعَطِفُ آخِذًا إِلَى جِهَةِ الْقَرَبِ فَتَكُونُ قِطْعَةٌ مِنْ انْعِطَافِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ طَوِيلَةً ، فَيَنْتَهِي فِي الطَّرَفِ الْقَرِيبِ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ . وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ بَعْدَ السُّوَيْسِ غَارَانُ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ ، ثُمَّ أَيْلَةُ (١) مَدِينَتَانِ ، ثُمَّ الْحَوْرَاءُ فِي آخِرِهَا ، وَفِي هُنَالِكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ إِلَى الْجَنُوبِ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَمَا مَرَّ فِي الْإِفْلِيمِ الثَّانِي فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ .

وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّامِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرَّوْبِيِّ غَمَرَتْ كَثِيرًا مِنْ غَرْبِيَّةِ عَلَيْهَا الْقُرْمَا ، وَالْعَرِيشُ ، وَقَادِيبَ طَرَفُهَا بِلَدُّ الْقُلْزُمِ ، فَيُضَافُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَالِكَ ، وَبَقِيَ شِبْهُ الْبَابِ مُفَضِّيًا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ، وَفِي غَرْبِي هَذَا الْبَابِ قَحْصُ النَّبِ ، أَرْضُ جَزْدَاءَ لَا تُنْبِتُ ، كَانَتْ مَجَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ ، وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، كَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ .

وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرَّوْبِيِّ ، فِي هَذَا الْجُزْءِ ، طَائِفَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ قَبْرُصَ ، وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ ، كَمَا تَدْكُرُهُ وَعَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ الطَّرَفِ الْمُتَضَافِي لِلْبَحْرِ السُّوَيْسِ

مُضَابِقَةً لِلْحَدِّ الشِّمَالِيِّ مِنْهُ ، وَعَلَى عُدُوتِهَا الْقَرْيَةُ
مِنْهُ أَسَافِلُ الْبَحْرَيْنِ ، وَهَجَرٌ ، وَالْإِحْسَاءُ ، وَفِي
غَرْبِهَا أَخْطَبٌ ، وَالصَّمَانُ ، وَبَقِيَّةُ أَرْضِ الْيَمَامَةِ .
وَعَلَى عُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ أَغْلَاهَا
وَهُوَ مِنْ حِنْدٍ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ عَلَى طَرَفِ
قَدِ اسْتَدْرَجَ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُشْرِقًا وَوَرَاءَهُ إِلَى الْجَنُوبِ
فِي هَذَا الْجُزْءِ جِبَالُ الْقَفْصِ مِنْ كُرْمَانَ .

وَتَحْتَ هِرْمِزٍ بِلَادُ فَارِسَ مِثْلَ سَابُورَ ، وَدَارَ
أَبْجَرَةَ ، وَتَسَا ، وَاصْطَحَرَ ، وَالشَّاهِجَانَ ، وَشِيرَازَ ،
وَهِيَ قَاعِنَتُهَا كُلُّهَا .

وَتَحْتَ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى الشِّمَالِ حِنْدُ طَرَفِ الْبَحْرِ ،
بِلَادُ خُوزِشْتَانَ وَمِنْهَا الْأَهْوَازُ ، وَتَمَسَّرُ ، وَصَدَى
وَسَابُورَ ، وَالسُّوسَ ، وَرَامَ هَرْمُزَ ، وَغَيْرَهَا ، وَأَرْجَانَ
وَهِيَ حَدُّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُوزِشْتَانَ ، وَفِي شَرْقِ بِلَادِ
خُوزِشْتَانَ جِبَالُ الْأَكْرَادِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ ،
وَبِهَا مَسَاكِنُهُمْ ، وَتَجَالَاتُهُمْ وَرَافِدَا فِي أَرْضِ
فَارِسَ ، وَتُسَمَّى الرُّسُومَ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْهُ مِنَ الْمَغْرِبِ
بَقِيَّةُ جِبَالِ الْقَفْصِ ، وَبِلَيْهَا مِنَ الْجَنُوبِ وَالشِّمَالِ
بِلَادُ كُرْمَانَ وَمُتَمَكِّنَانِ ، وَمِنْ مَثَلِهَا الرُّودَ ، وَالشَّيْرَجَانَ ،
وَجِيرْفَتَ وَيَزْدَ شِيرَ وَالْبَهْرَجَ . وَتَحْتَ أَرْضِ كُرْمَانَ
إِلَى الشِّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ ،
وَمَثَلِهَا أَصْبَهَانَ فِي طَرَفِ هَذَا الْجُزْءِ مَا بَيْنَ
غَرْبِهِ وَشِمَالِهِ .

فَمِنْ الْمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كُرْمَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ
أَرْضُ سِجِسْتَانَ ، وَكُوهْسْتَانَ ، فِي الْجَنُوبِ ، وَأَرْضُ
كُوهْسْتَانَ فِي الشِّمَالِ غَرْبًا وَيَتَوَسَّلُ بَيْنَ كُرْمَانَ

وَكَيْمَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَاةِ وَبَحْرِ الْقَلْزَمِ صَحْرَاءُ
تَبُوكَ ، وَفِي شِمَالِ جَبَلِ السَّرَاةِ مَدِينَةُ الْقُلَيْسِ ،
حِنْدُ جَبَلِ الْكُكَّامِ ، ثُمَّ الْأَرْدُنُّ ، ثُمَّ طَبْرِيقَةُ
وَفِي شَرْقِهَا بِلَادُ الْقَوْرِ إِلَى أَفْرَاحَاتِ ، وَفِي
سَمِئِهَا شَرْقًا دَوْمَةُ الْجَنْدَلِ آخِرُ هَذَا الْجُزْءِ وَهِيَ
آخِرُ الْحِجَازِ .

وَعِنْدَ مُنْعَطَفِ جَبَلِ الْكُكَّامِ إِلَى الشِّمَالِ مِنْ
آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مَدِينَةُ دِمَشْقَ ، مُقَابِلَةً صَيْدَا ،
وَبَيْرُوتَ مِنَ الْبُقْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلِ الْكُكَّامِ ،
بَعْدَ غَرْبِ بَيْتِنَا وَبَيْنَنَا ، وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ
فِي الشَّرْقِ مَدِينَةُ بَغْلَبَكَ ، ثُمَّ مَدِينَةُ حِمَصَ فِي
الْجِهَةِ الشِّمَالِيَّةِ آخِرُ الْجُزْءِ عِنْدَ مُنْطَقِ جَبَلِ
الْكُكَّامِ ، وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بَغْلَبَكَ وَحِمَصَ بَلَدُ
نَدَمَرَ ، وَتَجَالَاتُ الْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ أَغْلَاهُ تَجَالَاتُ الْأَهْرَابِ
تَحْتَ بِلَادِ نَجْدَ وَالْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ التَّرْجِ ،
وَالصَّمَانِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ وَهَجَرِ ، عَلَى بَحْرِ فَارِسَ
وَفِي أَسَافِلِ هَذَا الْجُزْءِ تَحْتَ التَّجَالَاتِ بَلَدُ الْحِيرَةِ ،
وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَقَابِضُ الْفَرَاتِ . وَفِيهَا بَعْدَهَا شَرْقًا
مَدِينَةُ الْبَصْرَةِ ، وَفِي هَذَا الْجُزْءِ يَنْتَهِي بَحْرُ فَارِسَ
حِنْدُ حَبَادَانَ وَالْأَبْلَةِ ، مِنْ أَسَافِلِ الْجُزْءِ مِنَ شِمَالِهِ
وَيَتَّصِلُ فِيهِ حِنْدُ حَبَادَانَ نَهْرٌ دَجَلَةٌ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ
بِحَبَاوِلَ كَثِيرَةٍ وَتَخْلُطُ بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنْ
الْفَرَاتِ ، ثُمَّ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ حَبَادَانَ ، وَتَتَّصِلُ
فِي بَحْرِ فَارِسَ .

وَهَلِوِ الْبُقْعَةُ مِنَ الْبَحْرِ مُتَّصِلَةٌ فِي أَغْلَاهُ
مُتَّصِلَةٌ فِي آخِرِهِ ، فِي شَرْقِيَّةِ ، وَبَقِيَّةُ حِنْدُ شَمْنَهَاءَ ،

وَمِنْهُ جَنْدُ اَنْطَلَانِهْ فِي وَسْطِ الْجَزْءِ مِنْ
الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ خَسَّةٌ اَنْهَارٌ عَظِيمَةٌ مِنْ بِلَادِ
الْخَلْرِ وَالْوَحْشِ مِنْ شَرْقِيهِ بَوَانْهَارُ أُخْرَى مِنْ جِبَالِ
الْبُتْمِ مِنْ شَرْقِيهِ اَيْضًا وَجَوْفَى الْجِبَلِ حَتَّى يَنْسَجَ
وَيَعْظُمَ بِمَا لَا كَفَّاءَ لَهُ .

وَمِنْ هَلِوِ الْأَنْهَارِ الْخَمْسَةِ الْمُمِدَّةِ لَهُ نَهْرٌ
وَحْشَابٌ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ التَّبِتِ ، وَبَيْنَ الْجَنُوبِ
وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ قِيمَرُ مُغْرِبًا بِانْحِرَافٍ إِلَى
الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجَزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا
مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجَزْءِ يَغْرُضُهُ فِي طَرِيقِهِ جِبَلٌ
عَظِيمٌ ، يَمُرُّ مِنْ وَسْطِ الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجَزْءِ
وَيَنْقَسِبُ مُقَرَّبًا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ
يَخْرُجَ إِلَى الْجَزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هَذَا
الْجَزْءِ ، فَيَجُوزُ بِلَادَ التَّبِتِ إِلَى الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ
الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ ، وَيَحُولُ بَيْنَ التُّرْكِ وَبَيْنَ
بِلَادِ «الْخَلْرِ» ، وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَسَلَكٌ وَاحِدٌ
وَسْطِ الشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ ، جَعَلَ فِيهِ الْفُضْلُ
ابْنُ يَحْيَى سَدًا وَبَنَى فِيهِ بَابًا كَسَدَ بَأُجُوجَ وَمَأُجُوجَ .
فَإِذَا خَرَجَ نَهْرُ «وَحْشَاب» مِنْ بِلَادِ التَّبِتِ

وَاعْتَرَضَهُ هَذَا الْجِبَلُ فَيَمُرُّ نَحْتَهُ فِي مَدَى بَعِيدٍ
إِلَى أَنْ يَمُرَّ فِي بِلَادِ الْوَحْشِ ، وَيَصْبُ فِي نَهْرِ
جَيْحُونَ جَنْدُ حُلُودٍ بَلَخَ ، ثُمَّ يَمُرُّ هَابِطًا إِلَى التُّرْمُودِ
فِي الشَّمَالِ إِلَى بِلَادِ الْجُوزْجَانِ .

وَقِيَ الشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ الْقَوْرِ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ
نَهْرِ جَيْحُونَ بِلَادُ النَّسَانِ مِنْ خُرَاسَانَ ، وَقِيَ
الْمُلُوكُ الشَّرْقِيَّةُ هُنَالِكَ مِنَ النَّهْرِ بِلَادُ الْخَلْرِ
وَأَكْثَرُهَا جِبَالٌ ، وَبِلَادُ الْوَحْشِ ، وَبِخِلْعَا مِنْ

وَقَارِسَ ، وَبَيْنَ سِجِسْتَانَ وَكُوهْمَسْتَانَ ، وَقِيَ وَسْطِ
هَذَا الْجَزْءِ الْمَقَاوِزُ الْعَظِيمَةُ الْقَلْبَةُ الْمَسَالِكُ
لِصُغُوبِهَا ، وَمِنْ مَدُنِ سِجِسْتَانَ بَهْتِسْتُ ، وَالطَّاقُ .
وَأَمَّا كُوهْمَسْتَانَ فَهِيَ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَمِنْ مَنَاطِيرِ
بِلَادِهَا سَرْخُسُ ، وَكُوهْمَسْتَانَ آخِرُ الْجَزْءِ .

وَقِيَ الْجَزْءِ الثَّانِي مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مَجَالَاتُ
الْجَلَجِجِ ، مِنْ أَمَمِ التُّرْكِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ سِجِسْتَانَ
مِنْ غَرْبِهَا ، وَبِأَرْضِ كَابِلِ الْهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا .
وَقِيَ الشَّمَالِ عَنْ هَلِوِ الْمَجَالَاتِ جِبَالُ الْقَوْرِ ،
وَبِلَادُهَا وَقَاعِدَتُهَا غَزَنَةُ : فِرْضَةُ الْهِنْدِ .

وَقِيَ آخِرُ الْقَوْرِ مِنَ الشَّمَالِ بِلَادُ أَسْتَرَابَادَ ،
ثُمَّ فِي الشَّمَالِ غَرْبًا إِلَى آخِرِ الْجَزْءِ بِلَادُ هَرَاتَ
أَوْسَطُ خُرَاسَانَ ، وَبِهَا أَسْفَرَايْنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنُجُ
وَمَرُؤُ الرُّودَ ، وَالطَّلَاقَانُ وَالْجُوزْجَانُ .

وَتَنْتَهِي خُرَاسَانُ هُنَالِكَ إِلَى نَهْرِ جَيْحُونَ وَعَلَى
هَذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ مِنْ غَرْبِهِ مَدِينَةُ بَلَخَ
وَقِيَ شَرْقِيَّةَ مَدِينَةِ تَرْمَذَ ، وَمَدِينَةُ بَلَخَ كَانَتْ
كُرْبِيَّةَ مَمْلَكَةِ التُّرْكِ .

وَهَذَا النَّهْرُ نَهْرُ جَيْحُونَ خَرَجَهُ مِنْ بِلَادِ
وَجَارَى فِي حُلُودٍ بَلَخَسْتَانَ ، يُمَا يَلِي الْهِنْدَ .

وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هَذَا الْجَزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ
الشَّرْقِ ، فَيَنْعَطِفُ عَنْ قَرَبِ مُغْرِبًا إِلَى وَسْطِ الْجَزْءِ
وَيُسَمَّى هُنَالِكَ نَهْرُ خَرَنْدَابَ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى
الشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ وَيَنْقَسِبُ عَلَى سَمْنِيوِ
إِلَى أَنْ يَصْبُ فِي بُحَيْرَةِ خَوَارِزْمَ فِي الْإِقْلِيمِ
الْحَاسِيِ كَمَا نَذَكُرُهُ .

وجه الشمال جبال اليمم يخرج من طرف خراسان
غربى نهر جيتون ، وتذهب مشرقاً إلى أن تتصل
طرقها بالبحر العظيم الذى خلقه بلاد التبت ،
ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل به
جند باب الفضل بن يحيى .

ويمر نهر جيتون بين هذيه الجبال وأنهار
أخرى ، تصب فيه ، منها : نهر بلاد الونخس
يصب فيه من الشرق تحت الترمذ إلى جهة الشمال ،
ونهر يلخ يخرج من جبال اليمم مبدؤه هذه الجوزجان
وتصب فيه من غربيه .

وعلى هذا النهر من غربيه بلاد أمده من

خراسان وفي شرقى النهر من هنالك أرض الصخر ،
وأمر وشنة من بلاد الترك ، وفي شرقها أرض
فرغانة أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً ، وكل
بلاد الترك ، تحوزها جبال اليمم إلى شمالها .
وفي الجزء التاسع من غربيه أرض التبت
إلى وسط الجزء ، وفي جنوبها بلاد الهند . وفي
شرقها بلاد الصين ، إلى آخر الجزء ، وفي
أشقل هذا الجزء شمالاً عن بلاد التبت بلاد
الخرنجة من بلاد الترك إلى آخر الجزء شرقاً
وشمالاً ، وتتصل بها من غربيها أرض فرغانة
أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً ، ومن شرقها أرض
التفرغر من الترك إلى الجزء شرقاً وشمالاً .
وفي الجزء العاشر من الجنوب منه جيمما
بكنة الصين ، وأسافل ، وفي الشمال بكنة بلاد
التفرغر ، ثم شرقاً منهم بلاد خرنجر ، من الترك
أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً .

(١) طواحين : يكرهون التنقل فيها حتى رحالة .

الْبَحْرُ بِقِيَّةِ هَذَا الْجُزْءِ شَرْقًا ، وَيَخْرُجُ إِلَى الثَّالِثِ
وَأَكْثَرُ الْعِمَارَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي سَمَائِلِ الْخَلِيجِ
مِنْهُ وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ الْقَرِيبَةِ ، مِنْهَا مَا
بَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، أُولَئِكَ
طَرِيفٌ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ ، وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا
عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ ثُمَّ
مَالِقَةُ ، ثُمَّ الْمَنْقَبُ ، ثُمَّ الْمِرْبَةِ .

وَتَحْتَ هَؤُلَاءِ مِنْ لَدُنْ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا ،
وَعَلَى مَقَرَّةٍ مِنْهُ شَرْيْشُ ، ثُمَّ لَيْلَةُ ، وَلَمَّا تَلَمَّا
فِيهِ جَزِيرَةُ قَادِسَ ، وَفِي الشَّرْقِ مِنْ شَرْيْشَ
وَكَلْبَةُ ، لِإِسْبِيلَةَ ، ثُمَّ أَسْتَحْجَ وَفَرْطَةُ وَمَدْبَلَةُ ،
ثُمَّ هَرْنَاطَةُ ، وَجَبَانُ ، وَأَبْدَةُ ، ثُمَّ أَدْبَانُ وَيَسْطَةُ .

وَتَحْتَ هَؤُلَاءِ شَنْتَرِيَّةٌ وَتَلْبُ عَلَى الْبَحْرِ
الْمُحِيطِ غَرْبًا ، وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا بَطْلَيْبُوسُ ،
وَمَارِدَةُ ، وَيَابِرَةُ ثُمَّ غَافِقُ ، وَيَزْجَالَةُ ، ثُمَّ قَلْعَةُ رِيَّاحَ .
وَتَحْتَ هَؤُلَاءِ أَشْبُونَةُ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ .

غَرْبًا وَعَلَى نَهْرِ بَاغَةَ ، وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرَيْنُ ،
وَمَوْزِيَّةٌ عَلَى النَّهْرِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ قَنْطَرَةُ السِّنِّينِ .
وَيَسَامِيْتُ أَشْبُونَةُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ ، جَبَلُ
الْشَارَاتِ ، يَبْدَأُ مِنَ الْمَغْرِبِ هُنَاكَ وَيَتَغَيَّبُ
مُشْرِقًا مَعَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ سَمَائِلِهِ ، فَيَنْتَهِي إِلَى
مَدِينَةِ سَالِمٍ ، فِيمَا بَعْدَ النُّصَبِ مِنْهُ وَتَحْتَ هَذَا
الْجَبَلِ طَلَبِيْرَةُ فِي الشَّرْقِ مِنْ فُورْفَةٍ ، ثُمَّ طَلَيْطَلَةُ
ثُمَّ وَادِي الْحِجَارَةِ ، ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ .

وَعِنْدَ أَوَّلِ هَذَا الْجَبَلِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْبُونَةَ ،
بَلَدٌ قَلَمَرِيَّةٌ وَهَلِيو غَرْبِي الْأَنْدَلُسِ .

وَأَكْثَرُ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ
كَمَا سَنَذْكُرُهُ .

وَيَسَمَى هَذَا الْبَحْرُ الْبَحْرُ الشَّامِيَّ (١) أَيْضًا ، وَكَبِيرُ
جَزَائِرُ كَبِيرَةٌ ، أَكْظَمُهَا فِي جِهَةِ الْمَغْرِبِ يَابِسَةٌ
ثُمَّ مَابِرَقَةُ ، ثُمَّ مَبْرَقَةُ ، ثُمَّ سَرْدَانِيَّةٌ ، صِفْلِيَّةٌ ،
وَهِيَ أَكْظَمُهَا ثُمَّ بَلُونَسُ ، ثُمَّ أَفْرِيطَشُ ثُمَّ قَبْرُشُ
كَمَا نَذْكُرُهَا كُلُّهَا فِي أَجْزَالِهَا الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا .

وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ (٢) عِنْدَ آخِرِ
الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْهُ ، وَفِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
الْخَامِسِ ، خَلِيجُ الْبَنَادِقَةِ يَتَّحِدُ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ
ثُمَّ يَنْعَلِفُ عِنْدَ وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ جَوْفِهِ ، وَيَخْرُ
مُغْرِبًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْخَامِسِ .

وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ شَرْقًا مِنْ
الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، يَخْرُ فِي
الشَّمَالِ مُتَّصِلًا بِمَا فِي غَرْبِ رَمِيَّةِ السَّهْمِ إِلَى آخِرِ
الْإِقْلِيمِ ثُمَّ يَقْضِي إِلَى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
الْسَّادِسِ ، وَيَنْعَلِفُ إِلَى بَحْرِ بَنْطَلُسَ (٣) ، ذَاهِبًا

إِلَى الشَّرْقِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ كُلِّهِ وَيَصِفُ السَّادِسِ
مِنْ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، كَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ فِي أَمَاكِينِهِ .

وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ هَذَا الْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنَ الْبَحْرِ
الْمُحِيطِ فِي خَلِيجِ طَنْجَةَ ، وَيَنْفَسِحُ إِلَى الْإِقْلِيمِ
الثَّالِثِ يَبْقَى فِي الْجَنْبِ عَنِ الْخَلِيجِ قِطْعَةٌ
صَغِيرَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ ، فِيهَا مَدِينَةُ طَنْجَةَ عَلَى
مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ ، وَبَعْدَهَا مَدِينَةُ سَبْتَةَ عَلَى الْبَحْرِ
الرُّومِيِّ ، ثُمَّ قَطَاوُنُ (٤) ثُمَّ بَادِيَسُ ، ثُمَّ يَقَعُ هَذَا

(١) البحر الأبيض المتوسط .

(٢) البحر الأسود .

(٣) في نسخة البهريّة ، تالون بالهـ .

جَزِيرَةُ صَقِيلَةَ مَتَسَعَةُ الْأَقْطَارِ ، يُقَالُ إِنَّ دَوْرَهَا سَبْعِمِائَةَ مِيلٍ ، وَبِهَا مَدُنٌ كَثِيرَةٌ مِنْ مَشَاهِيرِهَا سَرْقُوسَةُ وَبَلَرْزَمُ وَطَرَابِيعَةُ وَمَازَرُ وَمَسِينِي ، وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ تَقَابِلُ أَرْضَ أَفْرِيقِيَّةَ ، وَبَيْنَمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ أَعْلُوْشَ وَمَالِطَةُ .

وَالْجُزْءُ الثَّالِثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَقْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ ، لِأَنَّ ثَلَاثَ قَطْعٍ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ الْغَرْبِيَّةِ ، مِنْهَا أَرْضُ قَلْوَرِيَّةَ وَالْوُسْطَى مِنْ أَرْضِ أَبِكِيرِدَةَ ، وَالشَّرْقِيَّةُ مِنْ بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ .

وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَقْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ ، كَمَا مَرَّ ، وَجَزَائِرُهُ كَثِيرَةٌ وَأَكْثَرُهَا خَيْرٌ مَسْكُونٌ كَمَا فِي الثَّالِثِ ، وَالْمَقْمُورُ مِنْهَا جَزِيرَةُ بُكُونَسَ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ ، وَجَزِيرَةُ أَفْرِيطُشَ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسْطِ الْجُزْءِ إِلَى مَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْهُ .

وَالْجُزْءُ الْخَامِسُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ ، غَمَرُ الْبَحْرِ مِنْهُ مِثْلَةُ كَبِيرَةٍ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَيَنْتَهِي الصَّلْحُ الْغَرْبِيُّ مِنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ ، وَيَنْتَهِي الصَّلْحُ الْجَنُوبِيُّ مِنْهَا إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْجُزْءِ وَيَتَنَحَّى فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ قِطْعَةً نَحْوَ الثَّلَاثِ يَمُرُّ الشَّمَالِيُّ مِنْهَا الْغَرْبُ مُنْعَطِفًا إِلَى الْغَرْبِ مُنْعَطِفًا مَعَ الْبَحْرِ كَمَا قُلْنَا .

وَفِي النُّصْفِ الْجَنُوبِيِّ مِنْهَا أَسْأِيلُ الشَّامِ وَيَمُرُّ فِي وَسْطِهَا جَبَلُ الْكَّامِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الشَّامِ فِي الشَّمَالِ ، فَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ ذَاهِبًا إِلَى الْقَطْرِ الشَّرْقِيِّ الشَّمَالِيِّ ، وَيُسَمَّى بَعْدَ انْعِطَافِهِ جَبَلُ السَّلْمِيَّةِ وَمِنْ هُنَاكَ يَخْرُجُ إِلَى

وَأَمَّا شَرْقَى الْأَنْدَلُسِ فَهَلْ سَاحِلُ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْهَا بَعْدَ الْعَرَبِيَّةِ قَرْطَابَجَةَ ، ثُمَّ لَقَنْةَ ، ثُمَّ دَانِيَةَ ، ثُمَّ بَلَنْسِيَةَ إِلَى طَرُوشَةَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ ، وَتَحْتَهَا شَمَالًا لِيُورَقَةُ وَشَقُورَةُ تَتَاخَمَانِ بَسْطَةَ ، وَقَلْعَةُ رِيَّاحٍ مِنْ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ، ثُمَّ مَرْسِيَّةُ شَرْقًا ، ثُمَّ شَاطِئَةٌ تَحْتَ بَلَنْسِيَةَ شَمَالًا ، ثُمَّ شَعْرُ ، ثُمَّ طَرُوشَةُ ثُمَّ طَرُكُونَةُ آخِرِ الْجُزْءِ . ثُمَّ تَحْتَ هَذِهِ شَمَالًا أَرْضُ مِجَالَةَ ، وَبِهَا مَتَاخَمَانِ لِيُشَقُورَةُ وَطَلَيْطَلَةُ مِنَ الْقَرْبِ ، ثُمَّ أَفْرَاغَةُ شَرْقًا تَحْتَ طَرُوشَةَ ، وَشَمَالًا عَنْهَا ، ثُمَّ فِي الشَّرْقِ عَنْ مَدِينَةِ سَالِيهِ قَلْعَةُ أَيُّوبَ ، ثُمَّ سَرْقُسَةُ ، ثُمَّ لَارِدَةُ آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشَمَالًا .

وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَمَرُ الْمَاءِ جَمِيعُهُ ، لِأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ غَرْبِيَّةِ فِي الشَّمَالِ ، فِيهَا بَقِيَّةُ جَبَلِ الْجُرْزَانَاتِ ، وَمَعْنَاهُ جَبَلُ الثَّنَائِيَا وَالسَّالِكُ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ يَبْدَأُ مِنَ الطَّرَفِ الْمُنْتَهَى مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عِنْدَ آخِرِ ذَلِكَ الْجُزْءِ جَنُوبًا وَشَرْقًا وَيَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ ، فَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ مُنْجَرِفًا عَنْ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الثَّانِي فَيَقَعُ فِيهِ قِطْعَةٌ تُفْغِي ثَنَائِيَا إِلَى الْبَرِّ الْمُتَعَصِّلِ ، وَتُسَمَّى أَرْضُ خَشْكُونِيَّةَ ، وَفِيهِ مَدِينَةُ خَرِيدَةَ ، وَفَرْقُشُونَةُ وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مَدِينَةُ بَرَسْلُونَةُ ، ثُمَّ أَرْبُونَةُ وَفِي هَذَا الْبَحْرِ الَّذِي غَمَرَهُ الْجُزْءُ ، جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ وَالْكَثِيرُ مِنْهَا خَيْرٌ مَسْكُونٌ لِخَيْرَمَا فِيهِ غَرْبِيَّةُ جَزِيرَةُ بَرْدَانِيَّةَ ، وَفِي شَرْقِيَّةِ

شمال أنطاكية المصيبة ، ثم أدنته ، ثم طرُسوس
آخر الشام ، ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين
ثم حين زربية ، وتبالة قنسرين في شرق الجبل
حلب ، وتقابل حين زربية منبج آخر الشام .

وأما الدروب فعن يمينها ما بيننا وبين
البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد ،
للمركمان وسطانها ابن عثمان ، وفي ساحل البحر
منها بلد أنطاكية والملاية .

وأما بلاد الأرمن التي بين جبل الدروب ،
وجبل السلسلة ففيها بلد مرتعش ، وملطية ،
والمرة إلى آخر الجزء الشمالي .

وتخرج من الجزء الخامس في بلاد الأرمن ،
نهر جيحان ، ونهر سيحان في شرقه قير بها
جيحان جنوباً حتى يتجاوز الدروب ، ثم يمر
بطرُسوس ، ثم بالمصيبة ، ثم ينقطع هابطاً
إلى الشمال ، ومغرباً حتى يصب في البحر الرومي
جنوب سلوقية .

ويمر نهر سيحان موازياً لنهر جيحان فيحاذي
المرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب إلى أرض
الشام ثم يمر بين زربية ، ويجوز عن نهر
جيحان ثم ينقطع إلى الشمال مغرباً فيحيطه
ينهر جيحان عند المصيبة ، ومن غربها .

وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منطقت جبل
اللكام إلى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الرافضة
والرقة ، ثم حران ، ثم سروج والزها ثم نصيبه

الإقليم الخامس ، ويجوز من عند منطقي قطعة
من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق

وتقوم من عند منطقي من جهة المغرب جبال
متصلة بعضها ببعض إلى أن ينتهي إلى طرف
خارج من البحر الرومي ، متاخراً إلى آخر الجزء
من الشمال ، وبين هذه الجبال ثغايا ، تسمى
الدروب وهي التي تفضي إلى بلاد الأرمن ، وفي
هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال ، وبين
جبل السلسلة .

فأما الجهة الجنوبية التي قدعنا أن فيها
فيها أسافل الشام ، وأن جبل اللكام مغترض
فيها بين البحر الرومي ، وآخر الجزء من الجنوب
إلى الشمال ، فكل ساحل البحر بلد أنطرسوس
في أول الجزء من الجنوب ، متاخمة لجزء وطرابلس
على ساحله من الإقليم الثالث ، وفي شمال
أنطرسوس جبل ثم الأذقية ثم إسكندرونة ، ثم
سلوقية وبغدها شمالاً بلاد الروم .

وأما جبل اللكام المغترض بين البحر وآخر
الجزء يحاذيه ، فيصاقيه من بلاد الشام من أعلى
الجزء جنوباً من غربيه حصن الحراني وهو للحشيشة
الإسماعيلية ، ويتركون لهذا العهد بالندوة ،
ويسمى مضياب ، وهو قبالة أنطرسوس .

وتبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلدة سلجبة في
الشمال عن جنوبي ، وفي الشمال وفي مضياب
بين الجبل والبحر ، بلد أنطاكية ، وتباليها
في شرق الجبل والمرة ، وفي شرقها المرافعة وفي

هَناكَ يَمُرُّ جَنْوِبًا ، وَيَبْقَى صَفِينٌ (١) فِي غَرْبِيهِ ،
ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقًا وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ ، فَيَمُرُّ بَعْضُهَا
بِالْكُوفَةِ وَيَبْقَى بَقْصَرِ ابْنِ هَبِيرَةَ وَبِالْحَامِيَيْنِ ،
وَيَخْرُجُ جَمِيعًا فِي جَنْوِبِ الْجُزءِ إِلَى الْإِفْلِيمِ الثَّالِثِ
فَيَبْغُضُ هَناكَ فِي شَرْقِ الْجَبَرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ ، وَيَخْرُجُ
الْفُرَاتُ مِنَ الرُّحْبَةِ مُشْرِقًا سَنِيًّا إِلَى هَيْتَ (٢) شَمَالِهَا ،
وَيَمُرُّ إِلَى الزَّوْبِ وَالْأَنْبَارِ مِنْ جَنْوِبِهِمَا ، ثُمَّ يَصُبُّ
فِي دِجْلَةٍ عِنْدَ بَغْدَادَ .

وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةٍ فَلَمَّا دَخَلَ مِنَ الْجُزءِ الْخَامِيْسِ
إِلَى هَذا الْجُزءِ يَمُرُّ مُشْرِقًا عَلَى سَمْتِهِ ، وَمَحَافِيزُ
لِجَبَلِ السُّلَيْمَةِ الْمُتَّصِلِ بِجَبَلِ الرِّقَّةِ عَلَى سَمْتِهِ فَيَمُرُّ
بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ ، عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِالْمُؤَمِّلِ كَذَلِكَ
وَيَكْرِهِيَّتْ وَيَنْتَهِي إِلَى الْحَدِيقَةِ ، فَيَنْعَطِفُ جَنْوِبًا
وَيَبْقَى الْحَدِيقَةُ فِي شَرْقِهِ ، وَالزَّوْبُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ
كَذَلِكَ ، وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنْوِبًا وَفِي غَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ
إِلَى أَنْ يَنْتَهِي إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْلُطُ . بِالْفُرَاتِ ثُمَّ يَمُرُّ
جَنْوِبًا عَلَى غَرْبِ جَزْجَرِيَّاتٍ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزءِ
إِلَى الْإِفْلِيمِ الثَّالِثِ فَيَنْتَشِرُ هَناكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ،
ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هَناكَ فِي بَحْرِ فَارَسَ عِنْدَ
هَبَادَانَ .

وَكَيْفَا بَيْنَ نَهْرِ الدَّجْلَةِ وَالْفُرَاتِ قَبْلَ مَجْمَعِهِمَا
يَبْتَغِدَانِ ، هِيَ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ .

وَيَخْلُطُ . يَنْهَرُ دِجْلَةُ بَعْدَ مُقَارَفَتِهِ بِبَغْدَادَ نَهْرُ
أَخَرُ يَبْقَى مِنَ الْجَهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ ، وَيَنْتَهِي إِلَى

ثُمَّ سَمِيسَاطَ وَأَمْدَ تَحْتَ جَبَلِ السُّلَيْمَةِ وَتَحْتَ
الْجُزءِ مِنْ شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضًا آخِرُ الْجُزءِ مِنْ شَرْقِيهِ ،
وَيَمُرُّ فِي وَسْطِهِ هَذا الْقِطْعَةُ نَهْرُ الْفُرَاتِ يَنْهَرُ
دِجْلَةً يَخْرُجَانِ مِنَ الْإِفْلِيمِ الْخَامِيْسِ ، وَيَمُرُّانِ فِي
بِلَادِ الْأَزْمَنِ جَنْوِبًا إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلِ السُّلَيْمَةِ
فَيَمُرُّ نَهْرُ الْفُرَاتِ مِنْ غَرْبِ سَمِيسَاطَ ، وَسُرُوجَ ،
وَيَنْعَرِفُ إِلَى الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِغَرْبِ الرَّافِضَةِ وَالرَّقَّةِ ،
وَيَخْرُجُ إِلَى الْجُزءِ السَّادِسِ ، وَيَمُرُّ دِجْلَةً فِي شَرْقِ
أَمْدَ وَيَنْعَطِفُ قَرِيبًا إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيبًا إِلَى
الْجُزءِ السَّادِسِ .

وَفِي الْجُزءِ السَّادِسِ مِنْ هَذا الْإِفْلِيمِ مِنْ قَرِيبِهِ
بِلَادُ الْجَزِيرَةِ ، وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بِلَادُ الرِّقَّةِ
مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي الشَّرْقِ إِلَى قَرْبِ آخِرِ الْجُزءِ ،
وَيَخْرُجُ مِنَ آخِرِ الرِّقَّةِ هَناكَ جَبَلُ أَصْبَهَانَ
هَاطِمًا مِنْ جَنْوِبِ الْجُزءِ مُنْهَرِقًا إِلَى الْقَرْبِ فَلَمَّا
انْتَهَى إِلَى وَسْطِهِ الْجُزءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمَالِ يَنْعَبُ
مُغْرِبًا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزءِ السَّادِسِ ، وَيَتَّصِلُ
عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ السُّلَيْمَةِ فِي الْجُزءِ الْخَامِيْسِ فَيَنْقَطِعُ
هَذا الْجُزءُ السَّادِسُ بِفِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ ، وَفِي
الْقَرْبِيِّ مِنْ جَنْوِبِهَا مَخْرَجُ الْفُرَاتِ مِنَ الْخَامِيْسِ ،
وَفِي شَمَالِهَا مَخْرَجُ دِجْلَةٍ مِنْهُ ، أَمَّا الْفُرَاتُ
قَالُوا مَا يَخْرُجُ إِلَى السَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْيَاسِيَا ، وَيَخْرُجُ
مِنْ هَناكَ جَنْوُكٌ إِلَى الشَّمَالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ
الْجَزِيرَةِ وَيَبْغُضُ فِي نَوَاحِيهَا ، وَيَمُرُّ مِنْ قَرْيَاسِيَا
غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْجَنْوِبِ فَيَمُرُّ بِقَرْبِ
الْمَخَابِرِ إِلَى غَرْبِ الرُّحْبَةِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوِلُ مِنْ

(١) اسم مكان بالعراق حدث فيه موقعة • صلح • التاريخ

للجيرة .

(٢) في القاموس هيت بكسر الهمزة المعودة باله بالعراق .

السوايس إلى الإقليم الرابع ، ويتصل بجبل العراق في شرقيته الذي مر ذكره هناك ، وأنه محيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية .

ويحيط ، هذا الجبل المحيط ، بأصهبان من الإقليم الثالث إلى جهة الشمال ، ويخرج إلى هذا الجزء السابع ، فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحت هناك قاشان ثم ، « قم » . ويتصل في قرب النضر من طريقه مغرباً بغض الشيء ، ثم يرجع مستديراً فيلتحق شرقاً ومنحرفاً إلى الشمال حتى يخرج إلى الإقليم الخامس .

ويتصل على منطقيه وأشدأريه على بلد الري في شرقيه ، ويبدأ من منطقيه جبل آخر يمر غرباً إلى آخر هذا الجزء ، ومن جنوب من هناك قزوين ومن جانيبه الشمال وجانيب جبل الري المتصل معه ذاهباً إلى الشرق والشمال ، إلى وسط الجزء ثم إلى الإقليم الخامس ، بلاد طبرستان فيما بين هليو الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان ويتصل من الإقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النضر من غربه إلى شرقيه ويخترق عند جبل الري .

وعند انعطافه إلى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرقاً ويانحرف قليلاً إلى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ، ويتصل بين جبل الري وهذا الجبل من عند متديهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام .

ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء ، فيها بقية المعازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل

بلاد النهران قبالة بغداد شرقاً ، ثم يتصل جنوباً ويتصل بدجلة قبل خروجه إلى الإقليم الثالث ويتصل ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والأعاجم ببلد جلولا وفي شرقها عند الجبل ببلد حلوان وصيمرة .

وأما القطعة الغربية من الجزء فيخترقها جبل يبدأ من جبل الأعاجم مشرقاً إلى آخر الجزء ، ويسمى جبل شهرزور ، ويقسمها بقطعتين في الجنوب من هليو القطعة الصغرى ببلد خونجان من الغرب والشمال عن أصهبان ، وتسمى هليو القطعة ببلد الهلوس وفي وسطها بلد نهاوند ، وفي شمالها بلد شهرزور غرباً ، عند ملتقى الجبلين ، والدينور شرقاً عند آخر الجزء .

وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية ، فاعلقتها الرافعة والذي يقابلها من جبل العراق ، يسمى باريك ، وهو مساكن للأكراد ، والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه . وفي آخر هليو القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز ، والبلقان ، وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر بنطش (١) وهو بحر الخزر .

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس وفيها همدان وقزوين ويتصل في الإقليم الثالث ، وفيها هناك أصهبان ، ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربيها ويمر بالإقليم الثالث ، ثم يتصل بين الجزء

بِقِيَّةِ أَرْضِ قَرْعَانَةَ وَيَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ الْقِطْعَةِ الَّتِي فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ ، نَهْرُ الشَّاشِ يَمُرُّ مُتَرَصِّصًا فِي الْجُزْءِ الثَّانِي إِلَى أَنْ يَنْتَصِبَ فِي نَهْرِ جِيحُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ فِي شِمَالِهِ إِلَى الْإقْلِيمِ الْخَامِسِ ، وَيَخْلُطُ مَعَهُ فِي أَرْضٍ لِإِلَاقِ نَهْرِ يَلَانِي مِنْ الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ نُحُومِ بِلَادِ التَّبَسِّ ، وَيَخْلُطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ قَرْعَانَةَ .

وَعَلَى سَمْتِ نَهْرِ الشَّاشِ جَبَلٌ جَبْرَاعُونَ ، يَبْدَأُ مِنَ الْإقْلِيمِ الْخَامِسِ ، وَيَنْتَعِطُ شَرْقًا وَمُنْخَرِقًا إِلَى الْجَنْوِبِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مُحِيطًا بِأَرْضِ الشَّاشِ ، ثُمَّ يَنْتَعِطُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ فَيُحِيطُ بِالشَّاشِ ، وَقَرْعَانَةَ هُنَاكَ إِلَى جَنْوِبِهِ فَيَدْخُلُ فِي الْإقْلِيمِ الثَّلَاثِ .

وَبَيْنَ نَهْرِ الشَّاشِ وَطَرَفِ هَذَا الْجَبَلِ فِي وَسْطِهِ الْجُزْءُ بِلَادُ فَارَابَ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ بُخَارَى وَخَوَارِزْمَ مَقَاوِزُ مُطْلَعَةٌ وَقِي زَاوِيَةُ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ أَرْضُ خَجَنْدَةَ ، وَفِيهَا بَلَدٌ إِسْبِجَابَ (١) وَطَرَاوُزُ .

وَقِي الْجُزْءُ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإقْلِيمِ فِي غَرْبِيَّةِ بَقْعَةِ أَرْضِ قَرْعَانَةَ ، وَالشَّاشِ ، أَرْضُ الْخَزَلِجِيَّةِ فِي الْجَنْوِبِ ، وَأَرْضُ الْخَلِيجَةِ فِي الشَّمَالِ ، وَقِي شَرْقِ الْجُزْءِ كُلُّهُ أَرْضُ الْكِيْمَاكِجِيَّةِ وَيَتَّصِلُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ كُلُّهُ إِلَى جَبَلِ قُوقِيَا ، آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا ، وَعَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ هُنَاكَ ،

بَلَدٌ اِشْتَرَكِيَاذَ ، وَحَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ مِنْ شَرْقِيَّةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ نِيْسَابُورَ مِنْ خُرَاسَانَ فَمِنْ جَنْوِبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَقَارَةِ بَلَدٌ نِيْسَابُورَ ، ثُمَّ مَرَوْ الشَّاهِجَانَ آخِرَ الْجُزْءِ وَقِي شَمَالِهِ وَشَرْقِيَّ جَرْجَانَ بَلَدٌ مَهَرَجَانَ ، وَخَوَارِزْمَ ، وَطُوسَ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ الْجَبَلِ ، وَقِي الشَّمَالِ عِنَهَا بِلَادُ نَسَا ، وَيُحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجَزَيْنِ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ مَقَاوِزُ مُطْلَعَةٌ .

وَقِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإقْلِيمِ ، وَقِي غَرْبِيَّةِ نَهْرِ جِيحُونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنْوِبِ إِلَى الشَّمَالِ ، فَمِنْ غُلُوبَةِ الْغَرْبِيَّةِ وَمِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ بِوَالظَّاهِرِيَّةِ وَالْخَزَلِجِيَّةِ ، مِنْ بِلَادِ خَوَارِزْمَ ، وَيُحِيطُ بِالزَّوِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنْوِبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلٌ اِشْتَرَكِيَاذَ الْمُتَعَرِّضُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ قَبْلَهُ ، وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيَّةِ ، وَيُحِيطُ بِهَلِيَةِ الزَّوِيَّةِ وَفِيهَا بِقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ وَيَمُرُّ الْجَبَلُ فِي الْإقْلِيمِ الثَّلَاثِ بَيْنَ هَرَاةَ وَالْجَوْزَجَانَ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ التَّبَسِّ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَاكَ .

وَقِي شَرْقِيَّ نَهْرِ جِيحُونَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَقِي الْجَنْوِبِ مِنْهُ بِلَادُ بُخَارَى ، ثُمَّ بِلَادُ الصَّفَدِ ، وَقَاعِدَتُهَا سَمَرْقَنْدُ ، ثُمَّ بِلَادُ أَسْرُوشَنَ وَمِنْهَا خَجَنْدَةُ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا ، وَقِي الشَّمَالِ عَنْ سَمَرْقَنْدَ وَأَسْرُوشَنَ أَرْضُ لِإِلَاقِ (١) ، ثُمَّ فِي الشَّمَالِ عَنْ لِإِلَاقِ أَرْضُ الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا ، وَيَتَّخِذُ قِطْعَةً مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ ، فِي جَنْوِبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ

(١) فِي الْمَشْرِقِ إِذَا لَمْ يَلِاقِ مُصَلِّ بِالشَّاشِ لَا تَصِلُ إِلَيْهَا وَهِيَ بِكُورِ الْمُنْزَةِ وَسُكُونِهَا بِهَلَاةَ ١٠١

(١) فِي التَّيْمُورِيَّةِ وَبَلَدِ السَّجَابِ ١٠٢

وَلِلضَّلَعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ ، وَعَلَى قُرْبٍ ، وَيَتَّصِلُ بِهِ وَيَطْرُقُ الْبَحْرُ عِنْدَ بَنِيكُونَ^(١) فِي جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَتَّصِلَ فِي الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، فِي الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَحِيرُ حَتَّى عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَتَنَابَهَ لَهَا أَبْوَابُ تَفْصِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَّةٍ مِنْ أَمْرِ الْفَرَنْجِ فَيَنْتَهِي مِنَ الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ ، بِرَقْلُونَةَ ، وَأَرْبُونَةَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَرِيدَةَ وَقَرْقَشُونَةَ وَدَاعَمَا فِي الشَّمَالِ وَنَتَاهَا مِنَ الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ طَلُوشَةَ شَمَالًا عَنْ خَرِيدَةَ .

وَأَمَّا الْمُتَكَشِّفُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ ، زَاوِيَتُهُ الْعَادَّةُ وَرَاءَ الْبُرْنَاتِ شَرْقًا وَبِهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ الْبُرْنَاتِ بِلَدُ نِيُونَةَ ، وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ يَنْطُومِنَ الْفَرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ .

وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّاحِيَةِ الْقَرْيَبَةِ مِنْهُ أَرْضُ غَشْكُونِيَّةٍ ، وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ يَنْطُومِنَ وَبَرْغَشْتَ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهَا ، وَفِي شَرْقِ بِلَادِ غَشْكُونِيَّةٍ فِي شَمَالِهَا قِطْعَةٌ أَرْضُ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالضَّرِيرِ مَائِلَةً إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلًا وَصَارَتْ بِلَادُ غَشْكُونِيَّةٍ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةٌ فِي جُودِ مِنَ الْبَحْرِ . وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ شَمَالًا بِلَادُ جَنُودَ ،

وَهُوَ جَبَلُ يَنْجُوجَ وَتَنْجُوجَ وَهَلِيهِ الْأُمَمُ كُلُّهَا مِنْ شُعُوبِ التُّرْكِ . انْتَهَى .

الإقليم الخامس

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَقْمُورٌ بِالنَّاءِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ جَنُوبِهِ وَشَرْقِهِ ، لِأَنَّ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ بِهِلِهِ الْجِهَةُ الْقَرْيَبَةُ ، دَخَلَ فِي الْإِفْلِيمِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ وَالسَّابِعِ مِنَ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْإِفْلِيمِ ، فَأَمَّا الْمُتَكَشِّفُ مِنْ جَنُوبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُنْعَلَةٍ مِنْ هُنَالِكَ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَعَلَيْهَا بَنِيَّتُهَا وَبَرْغَشْتَ . بِهَا الْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَانَهُمَا ضِلْعَانِ مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ الْمُثَلَّثِ فَبِهَا مِنْ بَقَعٍ غَرْبَ الْأَنْدَلُسِ سَعِيرُ عَلَى الْبَحْرِ ، عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ وَالْقَرْبِ وَسَلَمَنْكَةَ شَرْقًا عَنْهَا ، وَفِي جُودِهَا سَمُورَةُ ، وَفِي الشَّرْقِ عَنْ سَلَمَنْكَةَ آيَلَةُ^(١) آخِرِ الْجَنُوبِ ، وَأَرْضُ قَسْتَالِيَّةٍ شَرْقًا عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةُ شَقُونِيَّةٍ ، وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ لِيُونُ وَبَرْغَشْتَ ، ثُمَّ وَدَاعَمَا فِي الشَّمَالِ أَرْضُ جَلِيْقِيَّةٍ إِلَى زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ .

وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي آخِرِ الضَّلَعِ الْقَرْيَبِ بِلَدُ شَنْتِيَاوُ ، وَمَعْنَاهُ يَقُومُ . وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةُ شِلْطِيَّةٍ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ ، وَشَرْقًا عَنْ قَسْتَالِيَّةٍ وَفِي شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشَقَّةُ وَبَنِيكُونَ عَلَى شَنْتِيَا شَرْقًا وَشَمَالًا ، وَفِي غَرْبِ بَنِيكُونَ قَسْطَالَةُ ، ثُمَّ نَاجِرَةُ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشْتَ . وَبَحْرُوسُ وَسَطَ هَذِهِ الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُخَاذٌ لِلْبَحْرِ ،

(١) في آخر من نسخة : يابلونة بالياء .

(١) مدينة في الشمال الغربي للقائمة مبره .

الرابع ، في البحر الرومي في جون بين طرفين
خرتجا من البحر على سمت الشمال إلى هذا الجزء
في شرقي بلاد قلووية ، بلاد أنكيردة في جون
بين خليج البنادقة والبحر الرومي .

ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في
الإقليم الرابع ، وفي البحر الرومي ويحيط به
من شرقي خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهبا
إلى سمت الشمال ، ثم ينطفئ إلى الغرب
مخاضا لآخر الجزء الشمالي ، ويخرج على سمنه
من الإقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويتذهب
منه إلى الشمال ، ثم يغرب منه في الإقليم
السايس إلى أن ينتهي قبالة خليج في شماليه
في بلاد إنكليزية من أسم اللاميين . كما نذكر
وعلى هذا الخليج وبينه هذا الجبل دائما
ذاهبين إلى الشمال بلاد البنادقة ، فإذا ذهبا
إلى المغرب فبينهما بلاد حروكيا ، ثم بلاد
الألمانيين عند طرف الخليج .

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم قطعة من البحر
الرومي خرتجت إلى من الإقليم الرابع مخرسة كلها
يقطع من البحر ويخرج منها إلى الشمال ، وبين
كل خرتجتين منها طرف من البحر في الجون بينهما
وفي آخر الجزء شرقا قطع من البحر ، ويخرج
منها إلى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من
هذا الطرف الجنوبي ، ويتذهب على سمت الشمال
إلى أن يدخل في الإقليم السايس وتنطفئ من
هناك عن قرب مفرقا إلى بحر ينطق في الجزء
السايس ويتفن الرابع قبله والسايس بعده من

وعلى سمنها في الشمال جبل فيست جون ، وفي
قساليه وعلى سمنه أرض برغونة .

وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من

البحر الرومي طرف آخر خارج منه يمتد بينهما
جون داخل من البر في البحر ، في غربيه ييش ،
وفي شرقيه مدينة رومة العظيمة كبرى ملك
الإفرنجية ، ومسكن الباب بطركهم الأعظم ، وفيها
من المباني الضخمة والهيكل الهائلة والكنائس
العديدة ما هو معروف الأخبار ، ومن عجائبها
النهر الجاري في وسطها من المشرق إلى المغرب
مقروش فاهه يبلط النحاس ، وفيها كنيسة
بطرس وبولس من الحواريين وهما مدفونان فيها .

وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد أفرنجية (١)

إلى آخر الجزء ، وعلى هذا الطرف من البحر
الذي في جنوبي رومة بلاد نابول في الجانب
الشرقي منه متصلة ببلد قلووية من بلاد الفرنج ،
وفي شماليها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء
من الجزء الثالث ، مغربا ومخاضا للشمال من
هذا الجزء ، وانتهى إلى نحو الثلث منه ، وعليه
كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من
جنوبي فيما بينه وبين البحر المحيط . ومن شماليه
بلاد إنكليزية في الإقليم السايس .

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في غربيه
بلاد قلووية بين خليج البنادقة والبحر الرومي ،
يحيط بها من شرقي يعمل من برما في الإقليم

بأطوس كما قلناه وأسافلها إلى آخر الجزء شمالاً ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قبايب أرض عمورية كما قلناه ، والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثالث ، في الجنوب منها مبدأ وجلة والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قبايب ، وهي عريضة ، وفي آخرها عند مبدل الفرات بلد خرشنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيبلش الذي يملأ خليج القسطنطينية .

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوب وغرب بلاد أرمينية متصلة إلى أن يتجاوز وسطه الجزء إلى جانب الشرق ، وفيها بلدان أزد في الجنوب والغرب وفي شمالها تغليس وقبيل ، وفي شرق أزد مدينة خلاد ثم بردعة . في جنوبها بانجراش إلى الشرق مدينة أرمينية ومن هنالك مخرج بلاد أرمينية إلى الإقليم الرابع وفيها هنالك بلد المرافقة في شرق جبل الأكراد ، المسمى بأرضي وقد مر ذكره في الجزء السادس منه .

وتتأخر بلاد أرمينية في هذا الجزء ، وفي الإقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان ، وآخرها في هذا الجزء شرقاً بلاد أذربيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ، وتسمى بحر طبرستان ، وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان ، ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال ، جبال بتصيل بعضها يتقي على سمت الغرب إلى الجزء الخامس .

الإقليم السادس كما نذكر ، وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرمي القياصرة وبها من آثار البناء والصفحة ما كثرت عنه الأحاديث ، والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملوكهم ، وفي شرقي هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض بأطوس وأطنها لهذا العهد مجالات للتركمكان ، وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها برصة وكانت من قبلهم للروم وعليهم عليها الأمم إلى أن صارت للتركمكان .

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم ، من غربي وجنوبي أرض بأطوس ، وفي الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد عمورية ، وفي شرقي عمورية نهر قبايب الذي يحد الفرات ويخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء إلى ممره في الإقليم الرابع ، وهنالك في غربي آخر الجزء في مبدل نهر سيحان ، ثم نهر جيحان غربيته الداهيتين على سمتيه ، وقد مر ذكرهما وفي شرقي هنالك مبدأ نهر دجلة الداهب على سمتيه ، وفي موازتيه حتى يخالطه عند بغداد .

وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافارقين . ونهر قبايب الذي ذكرناه يقيس هذا الجزء بقطعتين إحداهما غربية جنوبية ، وفيها أرض

وَالْجُزْءُ السَّادِسُ مِنْ هَذَا الْإَقْلِيمِ غَرْبِيَّةُ كُلِّهِ
مَقْمُورٌ بِبَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنْبُوهِ فِي الْإَقْلِيمِ
الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي دَكَّرْنَا هُنَالِكَ أَنَّ عَلَيْهَا
يَلَادُ طَبْرَسْتَانَ وَجِبَالُ الدَّيْلَمِ إِلَى قَزْوِينَ ، وَفِي
غَرْبِيَّ تِلْكَ الْقِطْعَةِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي
الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإَقْلِيمِ الرَّابِعِ يُوْتَمِتُّهَا مِنْ
شَمَالِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِيهِ أَيْضًا .

وَيَتَكَيَّفُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَةِ
الشَّمَالِيَّةِ الْقَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرٌ أَثَلٌ فِي هَذَا
الْبَحْرِ وَيَقْبُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي نَاحِيَةِ الشَّرْقِ قِطْعَةٌ
مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ ، هِيَ مَجَالَاتُ لِلْغُرِّ مِنْ أَمْرِ
الثَّرَكِ بِحَيْطٍ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ الْجَنْبِ دَاخِلٌ فِي
الْجُزْءِ الثَّانِي ، وَيَتَقَبَّ فِي الْقَرْبِ إِلَى مَا دُونَ
وَسَطِهِ فَيَنْطَلِقُ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَلَاحِظَ بِحَرِّ
طَبْرَسْتَانَ ، فَيَخْتَفِ بِوَدَاهِمَا مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِي
الْإَقْلِيمِ السَّادِسِ ، ثُمَّ يَنْطَلِقُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُقَارِفُهُ
وَيُحْمِي هُنَالِكَ جَبَلُ سِيَاةَ ، وَيَتَقَبَّ مُغْرِبًا إِلَى
الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإَقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَرْجِعُ
جَنْبُورًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإَقْلِيمِ الْخَامِسِ ،
وَهَذَا الطَّرَفُ مِنْهُ وَهُوَ الَّذِي اغْتَرَضَ فِي هَذَا
الْجُزْءِ بَيْنَ أَرْضِ الشَّرِيرِ وَأَرْضِ الْخَزَرِ ، وَاقْتَصَلَتْ
بِلَأَرْضِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ حَافَاتُ
هَذَا الْجَبَلِ الْمُسَمَّى جَبَلُ سِيَاةَ كَمَا سَيَأْتِي .

وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإَقْلِيمِ الْخَامِسِ ،
كُلُّهُ مَجَالَاتُ لِلْغُرِّ مِنْ أَمْرِ الثَّرَكِ ، وَفِي الْجِهَةِ
الْجَنْبُوِيَّةِ الْقَرْبِيَّةِ مِنْهُ بِحِيرَةٌ خَوَارِزْمُ الَّتِي يَصُبُّ

قَعْمَرِيَّةُ مُنْقَطِعَةٌ وَمُحِيطَةٌ بِبَلَدِ مَافَارَقِينَ يُوْتَمِتُّهَا إِلَى
الْإَقْلِيمِ الرَّابِعِ ، عِنْدَ أَيْدٍ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ السُّلَيْسَةِ فِي
أَسْفَلِ الشَّامِ مِنْ هُنَالِكَ يَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْكَلَامِ كَمَا مَرَّ .
وَيَبَيِّنُ هَذِهِ الْجِبَالُ الشَّمَالِيَّةُ فِي هَذَا الْجُزْءِ ثَنَانِيًا
كَأَلَا بُوَابٍ ، تَفْضِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ فَفِي جَنْبُوِيَّهَا
بِلَادُ الْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةٌ فِي الشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ ،
وَعَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ مَدِينَةُ بَابِ الْأَبْوَابِ ،
وَتَتَّصِلُ بِلَادُ الْأَبْوَابِ (١) فِي الْقَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ
جَنْبُوِيَّهَا بِبَلَدِ أَرْمِينِيَّةَ ، وَيَبَيِّنُهَا فِي الشَّرْقِ ،
وَيَبَيِّنُ بِلَادُ أَفْرِيجِيَّانَ الْجَنْبُوِيَّةِ بِلَادُ الزَّوَابِ (٢)
مُتَّصِلَةٌ إِلَى بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَفِي شَمَالِ هَذِهِ الْجِبَالِ
قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا مَطْلُكَةُ الشَّرِيرِ فِي
الزَّوَايَةِ الْقَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا .

وَفِي زَاوِيَةِ الْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضًا مِنْ بَحْرِ
بَنْطَلِسَ الَّذِي يُعْلَمُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَقَدْ
مَرَّ ذِكْرُهُ ، وَيَخْتَفِ بِهَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ بَنْطَلِسَ بِلَادُ
الشَّرِيرِ ، وَعَلَيْهَا مِنْهَا بَلَدُ أَطْرَابَرْزِيَّةَ .

وَتَتَّصِلُ بِلَادُ الشَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ
الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ شَرْقًا إِلَى جَبَلِ
خَانِجِ ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ ، وَعِنْدَ آخِرِهَا
مَدِينَةُ صُولُ وَوَدَّاهُ هَذَا الْجَبَلِ الْخَانِجِ قِطْعَةٌ مِنْ
أَرْضِ الْخَزَرِ ، تَنْتَهِي إِلَى الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَآخِرُ الْجُزْءِ شَمَالًا .

(١) وَجِهَةٌ فِي حَادِثٍ إِحْدَى التَّحْقِيقِ تَلْقِيْقٌ يَظْهَرُ أَنَّهُ مِنْ
عَمَلِ ابْنِ خَلْدُونٍ فَكُلُّهُ ، وَكَهْ تَقْلَهُ الدُّكُورُ عَلَى هَذِهِ الْوَاحِدَةِ وَاقِفٌ فِي
الْقِسْمَةِ الْمَشْهُورَةِ بِتَحْقِيقِهِ ، وَهُوَ عَلَيْهِ تَلْقِيقٌ . انْظُرْ ص ٣٦٦ + ١
مِنْ الْقِسْمَةِ نَفْسِ د . وَاقِفٌ .

(٢) لَا يَسِي لَهَا هُنَا ، وَلَهَا مَعْرِفَةٌ عَنْ كَلِمَةِ الْأَبْوَابِ .

السد هنالك كما نذكره وتبعته منه القطعة التي
أحاط بها جبل فوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية
من هذا الجزء مستطيلة إلى الجنوب ، وهي من
بلاد ياجوج وماجوج .

وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم أرض
بأجوج متصلة فيه كله إلا قطعة من البحر غمرت
طرقا في شرقيّه من جنوبيه إلى شماله إلا القطعة
التي يفصلها إلى جهة الجنوب ، والقرب جبل
فوقيا حين مر فيه وما يسوى ذلك فأرض ياجوج
وماجوج والله سبحانه وتعالى أعلم .

الإقليم السادس

فالجزء الأول منه غمر البحر أكثر من نصفه
واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ، ثم ذهب
مع الناحية الشرقية إلى الجنوب ، وانتهى قريبا
من الناحية الجنوبية فأنكشفت قطعة من هذه الأرض
في هذا الجزء داخلة بين الطريقين ، وفي الزاوية
الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجزء
فيه ، وينفتح طولاً وعرضاً وهي كلها أرض
بريطانية وفي بابها بين الطريقين ، وفي الزاوية
الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس
متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الأول
والثاني من الإقليم الخامس .

والجزء الثاني من هذا الإقليم دخل البحر
المحيط من غربه وشماله ، فبين غربه قطعة
مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض
بريطانية في الجزء الأول ، وانصلت بها القطعة
الأخرى في الشمال من غربه إلى شرقه ، وانقسمت
في النصفين الغربي منه بقص الشاه .

فيها نهر جتيحون دورها ثلاثمائة ميل ، وتصب
فيها أنهار كثيرة من أرض هليو المجالات .

وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة
غرغون دورها أربعمائة ميل وماؤها حلو ، وفي
الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه
جبل الثلج لأنه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء
وفي الجنوب عن بحيرة غرغون جبل من الحجر
الصلد لا ينبت شيئا يسمى غرغون ، به سميت
البحيرة وينحلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة
أنهار لا تنحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين .

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم بلاد أركس
من أهم الترك في غرب بلاد التتر وشرق بلاد
الكميكية ، ويخف به من جهة الشرق آخر الجزء
جبل فوقيا المحيط بياجوج وماجوج يخترق
هنالك من الجنوب إلى الشمال ، حتى يتعطف
أول دخوله من الجزء العاشر ، وقد كان دخل إليه من
آخر الجزء العاشر من الإقليم الرابع قبله ،
واخف هنالك بالبحر المحيط إلى آخر الجزء
في الشمال ، ثم انعطفت مغرباً في الجزء العاشر من
الإقليم الرابع ، إلى ما دون نصفه وأحاط من
أوله إلى هنا ببلاد الكميكية ، ثم خرج إلى
الجزء العاشر من الإقليم الخامس ، فلعب فيه
مغرباً إلى آخره وتبعته في جنوبيه من هذا الجزء
قطعة مستطيلة إلى القرب قبل آخر بلاد الكميكية ،
ثم خرج إلى الجزء التاسع في شرقيّه ، وفي الأعلى
منه وانعطفت قريباً إلى الشمال ، ودعب على سفحه
إلى الجزء التاسع من الإقليم السادس ، وكبد

وتبقي هنالك قطعة من جزيرة أنكلترا وهي جزيرة عظيمة مشتملة على مدن ، وبها ملك ضخم ، وتبقيها في الإقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد أرمينية^(١) ، وبلاد أفلاذس متصلين بها ثم بلاد إفرنسية جنوباً وغرباً من هذا الجزء ، بلاد برغونية شرقاً عنها وكلها لأهم الإفرنجية ، وبلاد الليمانيين في النصف الشرقي من الجزء ، فجنوبه بلاد أنكلابا ثم بلاد برغونية شمالاً ثم أرض لهويكة وشطونية ، وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض أفريرة وكلها لأهم الليسانيين .

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية بلاد مرائية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد أنكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يتوسط بينهما جبل بلواط ، داخل من الجزء الرابع ويترعرعاً بانجراف إلى الشمال ، إلى أن ينفذ في بلاد شطونية آخر النصف الغربي وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جلولية وتحتها في الشمال بلاد الروسية ، وتفصل بينهما جبل بلواط ، من أول الجزء غرباً إلى أن ينفذ في النصف الشرقي ، وفي شرق أرض جلولية بلاد جرمانية ، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية وتليها عند آخر الخليج الخارجي من البحر الرومي ، وعند مدغوى في بحر بنطش ، فيقع قطعة من بحر بنطش

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم في الناحية الغربية وفي الجنوب وبلاد الروسية ، وكلها على ساحل هذا البحر ، وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الإقليم السابع ، وبين غربها في الجزء الرابع من هذا الإقليم .

وفي الجزء السادس من غربها بقية بحر بنطش ويتحرف قليلاً إلى الشمال . ويتبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالاً بلاد قمانية ، وفي جنوبها ومفتحة إلى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللاتينية التي كانت آخر جنوبها في الجزء الخامس .

وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرضي الخزر ، وفي شرقها أرض برطاس وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار .

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية بلاد مرائية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد أنكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يتوسط بينهما جبل بلواط ، داخل من الجزء الرابع ويترعرعاً بانجراف إلى الشمال ، إلى أن ينفذ في بلاد شطونية آخر النصف الغربي وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جلولية وتحتها في الشمال بلاد الروسية ، وتفصل بينهما جبل بلواط ، من أول الجزء غرباً إلى أن ينفذ في النصف الشرقي ، وفي شرق أرض جلولية بلاد جرمانية ، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية وتليها عند آخر الخليج الخارجي من البحر الرومي ، وعند مدغوى في بحر بنطش ، فيقع قطعة من بحر بنطش

(١) من إقليم لودولها ، المعروف .

إلى آخر السابع من هذا الإقليم ، فَيَنْتَعِطُ شَمَالًا .
إلى الجزء السابع من الإقليم السابع ، فَيَسُرُّ فِي
طَرَفِهِ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ ، فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ
السَّادِسِ مِنَ السَّابِعِ ، وَيَذْهَبُ ، مُغْرِبًا غَيْرَ بَيِّدٍ ،
ثُمَّ يَنْتَعِطُ ثَانِيَةً إِلَى الْجَنُوبِ ، وَيَرْجِعُ إِلَى
الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، وَيَخْرُجُ
مِنْهُ جَنُوبًا يَذْهَبُ مُغْرِبًا وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ يَبُطِشَ
فِي ذَلِكَ الْجُزْءِ ، وَيَسُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ الشَّامِ
وَالشَّرْقِ فِي بِلَادِ بَلْعَانَ ، فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ
مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، ثُمَّ يَنْتَعِطُ ثَالِثَةً إِلَى الْجَنُوبِ ،
وَيَنْتَفِذُ فِي جَبَلِ سِيَاةَ ، وَيَسُرُّ فِي بِلَادِ الْحَزَرِ ،
وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ
مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي بَحْرِ طَبْرِسَانَ فِي الْقِطْعَةِ
الَّتِي انْكَشَفَتْ مِنَ الْجُزْءِ عِنْدَ الزَّوَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ
الْجَنُوبِيَّةِ .

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ
الْقَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَفْشَاخَ مِنَ التُّرْكِ وَهُمْ قَفْجَاقُ ،
وَبِلَادُ السَّرَكِسَينِ مِنْهُمْ أَيْضًا .

وَفِي الشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْصَلُ بَيْنَهُمَا
جَبَلٌ قَوِيًّا مُحِيطٌ ، وَكَذَلِكَ مَرَّ ذِكْرُهُ : يَتَدَا مِنْ
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي شَرْقِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ ، وَيَذْهَبُ
مَعَهُ إِلَى آخِرِ الْإِقْلِيمِ . فِي الشَّامِ ، وَيَقَارِفُهُ مُغْرِبًا
وَيَنْجَرِفُ إِلَى الشَّامِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ
مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ، فَيَرْجِعُ إِلَى سَمْتِهِ الْأَوَّلِ
حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
جَنُوبِيٍّ إِلَى شَمَالِهِ وَيَنْجَرِفُ إِلَى الْمَغْرِبِ .

وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بَلْعَانَ
يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلِ سِيَاةَ كَوْنُهَا الْمُتَعَطِفُ
مَعَ بَحْرِ الْحَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ بَعْدَهُ ، وَيَذْهَبُ
بَعْدَ مُقَارَفَتِهِ مُغْرِبًا فَيَجُوزُ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَيَدْخُلُ
وَيَدْخُلُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ
فَيَتَّصِلُ هُنَاكَ بِجَبَلِ الْأَبْوَابِ ، وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَاكَ
نَاحِيَةُ بِلَادِ الْحَزَرِ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ
الْجَنُوبِيَّةِ مَا جَاوَزَهُ جَبَلُ سِيَاةَ ، بَعْدَ مُقَارَفَتِهِ بَحْرَ
طَبْرِسَانَ ، وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْحَزَرِ إِلَى آخِرِ
الْجُزْءِ غَرْبًا وَفِي شَرْقِهَا الْقِطْعَةُ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسَانَ الَّتِي
يَجُوزُهَا هَذَا الْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا وَوَرَاءَ جَبَلِ
سِيَاةَ فِي النَّاحِيَةِ الْقَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسَ
وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ شَحْرَبَ ،
وَيَخْنَاكَ ، وَهُمْ أُمَّةُ التُّرْكِ .

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَالنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ
كُلُّهَا أَرْضُ الْجَوْلَانِ مِنَ التُّرْكِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ
غَرْبًا ، وَالْأَرْضُ الْمُتَنِيَّةُ ، وَشَرْقُ الْأَرْضِ الَّتِي
يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَبَاهَا قَبْلَ بِنَاءِ
السُّدُوفِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُتَنِيَّةِ مَبْدَأُ نَهْرِ الْأَنْدَلِ (١)
مِنْ أَكْظَمِ أَنْهَارِ الْعَالَمِ ، وَمَمَرُهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ
وَمَعْبَهُ فِي بَحْرِ طَبْرِسَانَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي
الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ ، وَهُوَ كَثِيرُ الْانْتِفَاطِ يَخْرُجُ
مِنْ جَبَلٍ مِنَ الْأَرْضِ الْمُتَنِيَّةِ مِنْ ثَلَاثَةِ بَنَاتِيحَ ،
تَجْتَمِعُ فِي نَهْرِ وَاحِدٍ ، وَيَسُرُّ عَلَى سَمْتِ الْقَرْبِ

(١) يُقَالُ إِنَّهُ نَهْرُ الْأَوْدَالِ .

مذكورة هناك والمجاز منها إلى البر في حلبة القلعة
سنة اثني عشر ميلا ، ووراء حلبة الجزيرة في
شمال الجزء الثاني جزيرة وتلايدة مستطيلة من
القرب إلى الشرق .

والجزء الثالث من هذا الإقليم مقنور أكثره
بالبحر إلا قطعة مستطيلة في جنوبه ، وتتمتع في
شرقها ، وفيها هنالك متصل أرض فلووية التي
مر ذكرها في الثالث من الإقليم السادس ، وأنها
في شماله ، وفي القطعة من البحر التي تقعر هذا
الجزء ، ثم في الجانب الغربي منها مستديرة
فسيحة وتصل بالبر من باب في جنوبها بغض
إلى بلاد فلووية ، وفي شمالها جزيرة برعاقية (١)
مستطيلة مع الشمال من المغرب إلى المشرق .

والجزء الرابع من هذا الإقليم شماله كله
مقنور بالبحر المحيط من المغرب إلى المشرق ،
وجنوبه منكشف ، وفي غربه أرض فيمازك من
الترك ، وفي شرقها بلاد طست ، ثم أرض
وسلان (٢) إلى آخر الجزء شرقا وهي دالمة
الثلوج ، وعمرانها قليل وتصل ببلاد الروسية
في الإقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه .

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم في الناحية
الغربية منه بلاد الروسية .

ويتم في الشمال إلى قطعة من البحر
المحيط التي تصل بها جبل قوفا ، كما

وهي وسطه هنا السد الذي بناه الإسكندر ،
ثم يخرج على سبيل إلى الإقليم السابع ، وهي
الجزء التاسع منه فيسبر فيو إلى الجنوب إلى أن
يلقى البحر المحيط في شماله ، ثم يتطلف منه
من هنالك مغربا إلى الإقليم السابع إلى الجزء
الخامس منه فيصل هنالك قطعة من البحر
المحيط في غربيه وفي وسط هذا الجزء التاسع
هو السد الذي بناه الإسكندر ، كما قلناه ،
والصحيح من خبره في القرآن (١) وقد ذكره
الله بن خردادبة في كتابه في الجغرافيا : أن الواثق
رأى في منابو كأن السد انفتح فأنشبه فرعا ، وبقت
سلاما الترحمان فوقت عليه وجاء بخبره ووصفه
في كتابه طوية ليست من مقاصد كتابنا هذا .
وهي الجزء العاشر من هذا الإقليم بلاد مأجوج
متصلة فيو إلى آخره على قطعة من هنالك من
البحر المحيط . أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة
في الشمال وعريضة بغض الشو في الشرق .
الإقليم السابع :

والبحر المحيط قد حصر عامته من جهة
الشمال إلى وسط الجزء الخامس حيث يصل
بحر قوفا المحيط ببلاد مأجوج .

فالجزء الأول والثاني مقنوران بالماه إلا ما
انكشف من جزيرة أنكلييرا التي مظهرها في
الثاني ، وهي الأول منها طرف انعطف بانجراف
إلى الشمال ، وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة
عليه في الجزء الثاني من الإقليم السادس ، وهي

(١) وفي العمود : برعاقية .

(٢) في آخر النسخ : سلافا .

(١) انظر سورة الكهف ، الآيات ٩٢ - ٩٩ .

وَقِ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ بِقِيَّةِ أَرْضِ سَعْرَبَ ، ثُمَّ بِقِيَّةِ
الْأَرْضِ الْمُتَنَتَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي آخِرِ
الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلٌ فَوْقَهَا الْمُحِيطُ مُتَّصِلًا
مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ ، فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ
فِي الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ فِيهِ الْأَرْضُ الْمُتَنَتَةِ

وَفِي شَرْقِهَا الْأَرْضُ الْمَخْفُورَةُ وَهِيَ مِنَ الْعَجَائِبِ
خَرَقَ عَظِيمٌ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ الْمَهْوَى ، فَيَسِيحُ
الْأَقْطَارُ ، مُنْتَفِعٌ الْوُصُولُ إِلَى قَعْرِهِ ، يُسْتَدَلُّ
عَلَى عُمُرَاتِهِ بِالْذُّخَانِ فِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ ، فِي اللَّيْلِ ،
تُضِيءُ ، وَتَخْفَى وَرَبَّمَا رَأَى فِيهَا نَهْرٌ يَشْقَاهَا مِنْ
الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ .

وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الْبِلَادُ
الْخَرَابُ الْمُنَاجِمَةُ لِلْسُدِّ ، وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ
مِنْهُ جَبَلٌ فَوْقَهَا مُتَّصِلٌ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ ،

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَنَابِ
الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادٌ خَفِيفَةٌ وَهُمْ قَفَجَجٌ يَجُوزُهَا جَبَلٌ
فَوْقَهَا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شَمَالِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ،
وَيَلْتَجِئُ فِي وَسْطِهِ إِلَى الْجَنُوبِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ
فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ،
وَيَمُرُّ مُتَّعِضًا فِيهِ ، وَفِي وَسْطِهِ هَذَاكَ سَدٌّ يَأْجُوجُ
وَمَاجُوجُ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا
الْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجُ ، وَرَاءَ جَبَلٍ فَوْقَهَا عَلَى الْبَحْرِ ،
قَلِيلَةُ الْعَرْضِ مُسْتَطَلَّةٌ حَاطَتٌ بِهَيْئِ شَرْقِيَّةٍ وَشَمَالِيَّةٍ .

وَالْجُزْءُ الْعَاشِرُ عَمَرُ الْبَحْرِ جَمِيعُهُ . هَذَا آخِرُ
الْكَلَامِ عَلَى الْجُغُرْفِيَا وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ وَفِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَحْلِفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَا يَأْتِي لِلْعَالِيَيْنِ

ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلٌ
أَرْضُ الْقَمَانِيَّةِ الَّتِي عَلَى قِطْعَةٍ بَحْرٍ يَنْطِشُ مِنْ
الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، وَيَنْتَهِي إِلَى
بَحِيرَةٍ طَرَفُهَا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَهِيَ عَدْبَةٌ تَنْجَلِبُ
إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ فِي الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ ،
وَفِي شَمَالِ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ
النَّصَارِيَّةِ ^(١) مِنَ التُّرْكِ إِلَى آخِرِهِ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ
مُتَّصِلٌ بِبِلَادِ الْقَمَانِيَّةِ ، وَفِي وَسْطِ النَّاحِيَةِ بَحِيرَةٌ
عَتُورٌ عَدْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ فِي
النُّوَامِي الشَّرْقِيَّةِ وَهِيَ جَامِلَةٌ دَائِمًا لِجِدَّةِ الْبَرْدِ
لَا قَلِيلًا فِي زَمَنِ الصَّبْفِ ، وَفِي شَرْقِ بِلَادِ الْقَمَانِيَّةِ
بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ الَّتِي كَانَ مَبْدُوتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ
فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ
مِنْهُ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بِقِيَّةُ
أَرْضِ بُلْغَرُ الَّتِي كَانَ مَبْدُوتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ،
وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ
وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَرُ مُنْعَطَفٌ نَهْرٌ أَثَلُ
الْقِطْعَةِ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ ، وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ
السَّادِسِ مِنْ شَمَالِهِ جَبَلٌ فَوْقَهَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ
إِلَى شَرْقِهِ ،

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ
بَقِيَّةُ أَرْضِ يَخَاكُ مِنْ أَمْرِ التُّرْكِ ، وَكَانَ مَبْدُوتُهَا مِنَ
النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ
قَلِيلَةً ، وَفِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا
الْجُزْءِ ، وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ مِنْ قُوَّةِهِ ،

(١) فِي التَّيْمُورِيَّةِ الْبَتَارِيَّةِ .

المقدمة الثالثة

في المحدث من الأقاليم المنحرف ، وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم

وأهل هذه الأقاليم ، أكمل لوجود الاختلاف لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مما كتبتهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم ، يتخلون البيوت المنجدة بالسجارة المنمقة بالصناعة يتناغون في استجادة الآلات والموازين ، ويتلعبون في ذلك إلى الغاية ، وتوجد لديهم المتاعن الطبيعية من اللعب والقصة والحديد والنحاس والرصاص والفضة ، ويتصرفون في ممالكهم بالتقنين العزيزين ، ويحشون عن الانحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز والبحرين والعراقين والهند والسند والصين وكذلك الأندلس ، ومن قرب منها من الفرنجة والجلالية والرؤم ، واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أقرينهم منهم في هذه الأقاليم المعتدلة ، وكذلك كان العراق والشام أعظم هذه كلها ، لأنها وسط من جميع الجهات .

وأما الأقاليم الباردة من الاختلاف ، مثل الأول والثاني والساحل والساحل ، فأهلها أبعد من الاختلاف في جميع أحوالهم ، فبنائهم بالطين والقصب بأقواتهم من الذرة والغلب ، وملابسهم من أوزان الشجر ، يخصصونها عليهم أو البلود ، وأكثرهم عرايا من اللباس ، وقواكهم يلازمهم

قد بينا أن المغمور من هذا المنكسر من الأرض ، إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال بولما كان الجانبين من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد ، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً . فالأقليم الرابع أعظم العمران ، والذي حافظه من الثالث والخامس أقرب إلى الاختلاف ، والذي يليهما والثاني والساحل بعيدان من الاختلاف ، والأول والساحل أبعد بكثير ، فهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس ، والأقوات والقواك بهل والحيوانات ، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة ، مخصوصة بالاختلاف ، وسكانها من البشر أعظم أجساماً وألواناً وأخلاقاً أدياناً حتى النبوات ، فإنيما توجد في الأكثر فيها ، ولم نغف على غير بقعة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية ، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص يوم أكمل النوع في خلقهم ، وأخلاقهم قال تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس (١) ، وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠ . وعلق المفسرون على في مفسرته بقوله : « ولا ينبغي أن الآية لا تصلح أن تكون دليلاً على هذه الاعتدال عليه لأنها ليست موجهة إلى جميع الأمم التي أرسل فيها الأنبياء » ، يعني أن الآية عامة بالأمم لعمدة السنة .

وَأَمَّا غَرِيبَةُ التَّحَوِينِ ، مَائِلَةٌ إِلَى الْإِنْحِرَافِ ، وَمَمَّا مَلَأَتْهُمْ بِغَيْرِ الْحَسَرَتَيْنِ الشَّرِيفَتَيْنِ (١) ، مِنْ نَحَاسٍ أَوْ حَتِيدٍ أَوْ جُلُودٍ يُغْدَرُونَهَا لِلْمَمَالِكِ ، وَأَخْلَقَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةً مِنْ خُلُقِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ ، حَتَّى لَيَنْقُلَ عَنْ الْكَثِيرِ مِنَ السُّودَانِ أَهْلَ الْإَقْلِيمِ الْأَوَّلِ ، أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْكَهُوفَ وَالْفَيَاضَ وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ ، وَأَنَّهُمْ مَتَوَحِّشُونَ غَيْرَ مُسْتَأْنِسِينَ بِأَكْلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، وَكَذَلِكَ الصَّغَالِبَةُ .

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَيُعْدِمُهُمْ قَرَى الْإِغْدَالِ ، يَقْرُبُ عَرَضُ أَمْرِهِمْ وَأَخْلَاقُهُمْ مِنْ عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ ، وَيَبْعَثُونَ عَنْ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمُقْدَارِ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي الدِّيَانَةِ أَيْضًا ، فَلَا يَغْرِفُونَ نُبُوَّةَ ، وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةٍ إِلَّا مَنْ قَرُبَ مِنْهُمْ مِنْ جَوَائِبِ الْإِغْدَالِ ، وَمَوْى الْأَقْلُ النَّادِرُ ، وَثَلِ الْحَبْتَةِ الْمُجَاوِرِينَ لِلْيَمَنِ الدَّائِنِينَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ فِيمَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَثَلِ أَهْلَ مَالِ وَكُوكُو وَالتَّكُرُّورِ الْمُجَاوِرِينَ لِأَرْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائِنِينَ بِالْإِسْلَامِ ، لِهَذَا الْعَهْدِ ، يُقَالُ لَأَنَّهُمْ دَانُوا بِوَيْ الْمَائَةِ السَّابِعَةِ بِوَيْثَلٍ مِنْ دَانٍ بِالنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أَمْرِ الصَّغَالِبَةِ ، وَالْإِفْرَنْجَةِ وَالتُّرْكِ مِنَ الشَّمَالِ . وَبَيْنَ بِيْوَى هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَقْلَامِ الْمُشْرِقَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا ، فَالَّذِينَ مَجْهُولٌ عَنْهُمْ ، وَالْمَلُومُ مَقْفُودٌ بَيْنَهُمْ ، وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْبَهَائِمِ ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢) .

وَتَنْظِيرُ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَتَيْنِ مِمَّا يَقَابِلُهُمَا مِنْ الشَّمَالِ ، الْإِقْلِيمُ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ شَمَلُ سُكَّانِهِمَا

(١) لى اللب والنفقة .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٨٠ .

لهم من اجل انفسايم الى اذني وآيتي، والزنج
يمن تجاه بحر الهند، وليست اسود لاحام ولا غيره.
وقد نجد من السودان أهل الجنوب من
يتسكن الربع المتخلل أو السابغ المتخرف إلى
البياض، فتبيض ألوان أعقابهم على التدرج
مع الأيام، وبالعكس فيمن يتسكن من أهل
الشمال، أو الرابع، بالجنوب فتسود ألوان
أعقابهم، وفي ذلك دليل على أن اللون تابع
لمزاج الهواء.

قال ابن سينا في أرجوزته في الطب :

والزنج حر غير الأجساد

حتى كسا جلودها سودا

والصقلب اكتسبت البياضا

حتى غدت جلودها بياضا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باختيار ألوانهم
لأن البياض كان لونا لأهل تلك اللغة الواضحة
للأسماء، فلم يكن فيه غرابة تحمل على اختياره
في التسمية لموافقته واختياره، وجدنا سكانه
من الترك والصقالية والطغرغ، والحزر، والألان،
والكثير من الأفرنجية ويأجوج ومأجوج أسماء
متفرقة، وأجبالا متعددة مسمين بأسماء متنوعة.

وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة، أهل
الاخيدال في خلقهم وخلقهم وتبريحهم وكافة
الأحوال الطبيعية للاختيار لديهم من المعاش،
والمساكن، والصنائع، والعلوم، والرغبات،
والملك فكانت فيهم النبوءات، والملك والكون
والشرائع والعلوم، والبلدان والأمصار والمباني،

أيضا البياض من مزاج هوائهم، للبرد المفرط
بالشمال، إذ الشمس لاتزال بافقيهم في دائرة
مراى العين، أو ما قارب منها، ولا ترتفع إلى
المستأفة، ولا ما قارب منها، فيضعت الحر
فيها، ويشد البرد عامة الفصول، فتبيض
ألوان أهلها وتنتهي إلى الزهرة، ويتبع ذلك
ما يقتضيه مزاج البرد المفرط، من زرق العيون،
وبرتي (١) الجلود، وصبوبة (٢) الشعير، وتوسطت
بينهما الأقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث،
فكان لها في الاخيدال الذي هو مزاج المتوسط
سطر، والرابع أبلغها في الاخيدال غاية
لنهاية في المتوسط، كما قدمناه فكان لأهل
من الاخيدال في خلقهم وخلقهم، ما اقتضاه مزاج
أفريتهم وتبعه من جانبيه الثالث والخامس وإن
لم يتلغا غاية المتوسط ليعتل هذا قليلا إلى
الجنوب الحر، وهذا قليلا إلى الشمال البارد،
إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف وكانت الأقاليم
الأربعة متفرقة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم
فالأول والثاني للحر، والسود، والسابع والسادس
للبرد والبياض.

ويسمى سكان الجنوب من الأقليمين الأول
والثاني باسم الحبشة، والزنج والسودان أسماء
متراكفة على الأمم المتغيرة بالسود، وإن كان اسم
الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة، هذه الأسماء

(١) انحطاط اللون الأحمر بغيره في الجله .

(٢) ميلها إلى الاسمرار والشفرة .

وَمَا أَدَاهُمْ إِلَى هَذَا الظَّلْمِ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ
بَيْنَ الْأُمَمِ ، إِنَّمَا يَمَعُ بِالنَّسَبِ فَقَطْ ، وَكَانَ
كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ ، أَوِ الْأُمَةِ ، يَكُونُ
بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ
وَالْقُرْصِ ، لَوْ يَكُونُ بِالْجِهَةِ السُّمَةِ ، كَمَا لِلزُّنُجِ
وَالْحَبَشَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالسُّودَانِ ، وَيَكُونُ بِالْعَرَائِدِ
وَالشُّعَارِ وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ ، وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ
مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَخَوَاصِهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ ، فَتَقْعِيمُ
الْقَوْلِ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبِ أَوْشَمَالِ ،
بَيْنَهُمْ مِنْ وَلَدِ فَلَانِ الْمَعْرُوفِ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ
نَحْلَةٍ أَوْ لَوْنِ أَوْ سِمَةٍ وَجِدَتْ لِنَازِلِكَ الْأَبِ ، إِنَّمَا
هُوَ مِنَ الْأَعَالِيَةِ الَّتِي أَوْقَعَ فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طَبَائِعِ
الْأَنْحَوَانِ وَالْجِهَاتِ ، وَإِنَّ هَذَا كُلَّهُمَا تَقَبُّدٌ فِي
الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ اسْتِثْنَاؤُهَا ، سُنَّةُ اللَّهِ فِي
عِبَادِهِ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعِمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ

وَالْفَرَّاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْقَائِمَةُ ، وَتَأَثِيرُ الْأَحْوَالِ
الْمُتَغَيِّلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي وَقَفْنَا عَلَى
أَنْحَادِهِمْ ، يَمَثُلُ الْعَرَبُ وَالرُّومُ وَفَارِسُ ، وَبَنِي
إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ ، وَأَهْلُ السَّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ .
وَلَمَّا رَأَى النَّسَابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأُمَمِ بِسِمَاتِهَا
وَشُعَارِهَا حَبِيبُوا ذَلِكَ لِأَجْلِ النَّسَابِ ، فَجَعَلُوا
أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ مِنْ وَلَدِ حَامٍ وَارْتَابُوا
فِي أَلْوَانِهِمْ فَتَكَلَّفُوا وَانْقَلَبَتْ الْحِكَايَةُ الْوَاهِيَةَ (١) ،
وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ ، مِنْ وَلَدِ
يَافِثَ ، وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُتَغَيِّلَةِ وَأَهْلَ الْوَسْطَةِ
الْمُتَنَحِّلِينَ لِلْمُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْيَدِ وَالشَّرَائِعِ
وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ ، مِنْ وَلَدِ سَامٍ .

وَهَذَا الزَّعْمُ وَإِنْ صَادَقَ الْحَقُّ فِي انْتِسَابِ
هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسِي مُطَرِّدٍ ، إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ
عَنِ الْوَاقِعِ ، لَا أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانِ
وَالْجَنُوبِ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامٍ الْأَسْوَدِ ،

(١) حكاية أن حماد لون ولا حام كان بسبب دعوة نوح عليه .

المقدمة الرابعة

في أثر الهواء في أخلاق البشر

أضواءه يسيط البحر وأشعبه ، كانت حصنهم من
توابع الحرارة في الفرح والخفة متجودة أكثر من
بلاد الثلول والجبال الباردة ، وقد نجد يسيراً من
ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث
لتوفر الحرارة فيها ، وفي هوائها لأنها عريضة في
الجنوب عن الأرياف والثلول ، واعتبر ذلك أيضاً
بإجلال يضر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو
قريباً منها ، كيف غلب الفرح عليهم والخفة
والقلة عن العواقب حتى أنهم لا يتحركون أقوات
سنتهم ولا شهرهم ، وعامة ما كلهم من أسواقهم .
ولما كانت قاس من بلاد المغرب بالمكسي
ينها في التوغل في الثلول الباردة .

كيف ترى أهلها مطرفين إطراق النون ،
وكيف أفرطوا في نظار العواقب ، حتى إن الرجل
منهم ليذكر قوت سنتين من حبوب الجنة ،
ويذكر الأسواق ليشراه قوته ليؤديه مخافة أن يزرأ شيئاً
من ملخه ، وتنبع ذلك في الأقاليم والبلدان نجد في
الأخلاق أثراً من كيفية الهواء والله الخلاق العظيم .
وقد تعرض المتعدي للبحث عن السبب في
هبة السودان وطبيعتهم وكثرة الطرب فيهم ،
وحاول تقليده فلم يأت بخير أكثر من أنه نقل
عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي ،
أن ذلك لضعف أديمهم ، وما نشأ عنه من
ضعف عضولهم ، ومما كاد لا يحصل له ، ولا
يراهن فيه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

قد رأينا من خلق السودان على الموم ،
الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجعلهم مؤلمين
بالرقص على كل توقيع ، ومضوفين بالحنفي
في كل قطر ، والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر
في موضوع من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور ،
هي انتشار الروح الحيواني وتفشي . وطبيعة
الحزن بالمكسي ، وهو انقباضه وتكاثفه . وتقرر
أن الحرارة مفضية للهواء ، والبخار ، مخطلة
له زائدة في كميته ، ولهذا يجد المتعشي من
الفرح والسرور ما لا يعبر عنه ، وذلك بما يدخل بخار
الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبثها
سورة العنبر في الروح ، من مزاجه فيتفشى الروح ،
وتجبه طبيعة الفرح ، وكذلك نجد المتنعمين
بالحمامات إذا تنفصوا في هوائها بوصلت حركة
الهواء في أرواحهم فتسختن لليلك حدث لهم فرح ،
وربما انتبعت الكثير منهم بالغناء الناش عن السرور .
ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار ،
واشتوى الحر على أنزجيتهم ، وفي أصل تكوينهم ،
كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم
وأقلامهم ، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح
أهل الإقليم الرابع أشد حراً ، فتكون أكثر
تفشيًا ، فتكون أسرع فرحاً وسروراً ، وأكثر
انتبساطاً ، وتجبه الطيش على أثر هيو ، وكذلك
يلتح بهم قليلاً أهل البلاد البحرية ، لما كان
مواضعها متضاعف الحرارة بما يتكس عليه من

المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران ، في الخصب والجوع ، وما ينشأ عن ذلك من الآثار
في ألبان البشر وأخلاقهم

إِغْنَمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَقَالِيمَ الْمُتَعَدِّلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يَوْجَدُ
بِهَا الْخُسْبُ ، وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فِي رَغَدٍ مِنْ
مِنْ الْعَيْشِ ، بَلْ فِيهَا مَا يَوْجَدُ لِأَهْلِ خُسْبِ الْعَيْشِ
مِنْ الْخُبُوبِ ، وَالْأَدَمِ وَالْجَنْطَةِ وَالْقَوَاكِيزِ لِرُكَّاهِ
الْمَتَابِعِ ، وَاعْتِدَالِ الطَّيْنَةِ وَفُوقِ الْعَمْرَانِ .
وَقِيهَا الْأَرْضُ الْحَرَّةُ الَّتِي لَا تَنْتَبِثُ زَرْعًا ،
وَلَا حَشْبًا بِالْجُمَّلَةِ ، فَسُكَّانُهَا فِي شَطَفٍ مِنَ الْعَيْشِ
مِثْلُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَخُبُوبِ الْيَمَنِ ، وَمِثْلُ الْمُكْتَشِمِينَ
مِنْ صَنْهَاجَةِ الْمَاكِتِينَ بِصَحْرَاهِ الْمَغْرِبِ ، وَأَطْرَافِ
الرَّمَالِ فِيمَا بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَالسُّودَانِ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ
يَفْقِدُونَ الْخُبُوبَ وَالْأَدَمَ جُمَّلَةً ، وَإِنَّمَا أَغْلِيثُهُمْ
وَأَقْوَاتُهُمُ الْأَلْبَانُ وَاللُّحُومُ . وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضًا
الْجَائِلِينَ فِي الْقِفَارِ ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُلُونَ
الْخُبُوبَ وَالْأَدَمَ مِنَ التَّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَحْيَائِينَ
وَتَحْتَ رَيْقَةِ (١) مِنْ حَامِيَتِهَا وَعَلَى الْإِقْتِلَالِ لِقَلَّةِ
وُجُودِهِمْ (٢) ، فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِّ الْخَلَّةِ
أَوْفُونَهَا فَضْلًا عَنِ الرُّغْدِ وَالْخُسْبِ . وَتَجِدُهُمْ
يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى الْأَلْبَانِ ،
وَتَعْرِضُهُمْ مِنَ الْخِطِّطَةِ أَحْسَنَ مَعَاضِي ، وَتَجِدُ مَعَ
ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْفَاقِقِينَ لِلْخُبُوبِ وَالْأَدَمِ مِنْ أَهْلِ

الْقِفَارِ أَحْسَنَ خَلَاً فِي جُسُومِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ
التَّلُولِ الْمُتَفَقِّصِينَ فِي الْعَيْشِ ، فَأَلَوَانَهُمْ أَضْنَى
وَأَبْدَانَهُمْ أَتْقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ ، وَأَخْلَاقُهُمْ
أَبْعَدُ مِنَ الْإِنْجِرَافِ ، وَأَذْمَانُهُمْ أَثَقَبُ فِي الْمَعَارِفِ
وَالْإِفْرَاقَاتِ ، هَذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ التَّجَرُّبَةُ فِي كُلِّ
وَحِيلٍ مِنْهُمْ فَكَبِيرُ مَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ فِيمَا
وَصَفَتَاهُ ، وَبَيْنَ الْمُكْتَشِمِينَ وَأَهْلِ التَّلُولِ ، يَتَرَفُّ
ذَلِكَ مَنْ خَبَرَهُ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ : أَنَّ كَثْرَةَ
الْأَغْلِيَّةِ ، وَكَثْرَةَ الْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ وَرُطُوبَاتِهَا
تَوَلَّدَ فِي الْجِسْمِ فَضَلَاتٌ رَدِيئَةٌ يَنْشَأُ عَنْهَا بُعْدُ
أَقْطَارِهَا عَنْ غَيْرِ نِسْبَةٍ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ انْكِسَافُ الْأَلْوَانِ ،
وَقُبْحُ الْأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ كَمَا قُلْنَا .
وَتُغَطِّي الرُّطُوبَاتُ عَلَى الْأَذْهَانِ وَالْأَفْكَارِ بِمَا بَصَعَتْ
إِلَى الْكِنَافِ مِنْ أَبْجُرْزَتِهَا الرَّدِيَّةِ ، فَتَنْجِي الْبِلَادَةَ
وَالْعُقْلَةَ وَالْإِنْجِرَافَ عَنِ الْإِعْتِدَالِ بِالْجُمَّلَةِ .

وَأَعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي حَيَوَانِ الْقَفَرِ ، وَمَوْطِنِ
الْجَنَبِ مِنَ الزَّوَالِ وَالنَّعَامِ ، وَالْمَهَا ، وَالزَّرَافَةِ ،
وَالْحَمْرِ الرَّحْشِيَّةِ ، وَالْبَقَرِ ، مَعَ أَشْأَلِهَا مِنْ حَيَوَانِ
التَّلُولِ وَالْأَرْيَافِ ، وَالْمَرَامِي الْخُسْبَةِ كَيْفَ نَجَدُ
يَوْمَنَا يَبْعِدًا فِي صَفَاهِ أَيْبِيهَا وَحُسْنِ رَوْقِيهَا

(١) في أكثر النسخ : تحت رقيقة . وصنعها المراقبة والمراعاة
حتى لا يفلت منهم شيء .
(٢) قلة ما يجدون .

فَقُلَّ الرُّطُوبَاتُ لِلذِّكِّ فِي أَغْلَبِيَّتِهِمْ وَتَخَفَتْ مَا تُؤَدِّيهِ
إِلَى أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرَّبِّيَّةِ ، فَلِلذِّكِّ تَجَدُّ
جُسُومِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ الْغَلَفُ مِنَ جُسُومِ الْبَادِيَةِ
الْمُخْشَفِينَ فِي الْعَيْشِ ، وَكَذَلِكَ تَجَدُّ الْمُتَوَدِّينَ
بِالْجُوعِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لَافْضَلَاتٍ فِي جُسُومِهِمْ
عَلِيَّةٌ وَلَا لَعِيقَةٌ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَتَرَ هَذَا الْخُضْبِ فِي الْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ
يُظْهَرُ حَتَّى فِي حَالِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ . فَتَجَدُّ
الْمُتَشَفِّينَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَوْ الْحَاضِرَةِ مِنْ
يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْجُوعِ وَالتَّجَاعِ عَنْ الْمَلَأِ أَحْسَنَ
دِينًا وَأَقْبَلَ عَلَى الْعِبَادَةِ مِنْ أَهْلِ الثَّرَفِ وَالْخُضْبِ ،
بَلْ تَجَدُّ أَهْلَ الدِّينِ قَلِيلِينَ فِي الْمَدُنِ وَالْأَمْصَارِ لِمَا
يَعْمَهُ مِنَ الْقَسَاوَةِ وَالْفَقْلَةِ الْمُتَنَصِّلَةِ بِالْإِكْتَارِ مِنْ
الْطَّحْنِ وَالْأَدَمِ وَذِيَابِ الْبُرِّ وَيَخْصُ وَجُودَ التَّيَادِ
وَالزَّهَادِ لِلذِّكِّ بِالْمُتَشَفِّينَ فِي غِنَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ
الْبَوَادِي .

وَكَذَلِكَ تَجَدُّ هَوْلَاءُ الْمُخْشَفِينَ فِي الْعَيْشِ ،
الْمُتَشَفِّينَ فِي طَبِيبَاتِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَمِنْ أَهْلِ
الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ ، إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ السُّنُونُ
وَأَخْلَتْهُمْ التَّجَاعَاتُ يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْهَلَاكُ أَكْثَرَ مِنْ
خَيْرِهِمْ ، مِثْلُ بَرَابِرَةِ الْمُتَوَدِّ وَأَهْلِ مَدِينَةِ قَاسٍ
وَمِثْرُ فِيمَا يَتَلَفَّأُ وَلَا مِثْلُ الْقَرَبِ أَهْلُ الْفَقْرِ
وَالصَّيْحَرَةِ ، وَلَا مِثْلُ أَهْلِ بِلَادِ النَّخْلِ الدِّينِ
غَالِبُ عَيْشِهِمُ الشُّرُّ ، وَلَا مِثْلُ أَهْلِ أَفْرِيقَةِ
لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الشَّيْءُ وَالزَّيْتُ ،
وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الذَّرَّةُ
وَالزَّيْتُ ، فَإِنَّ هَوْلَاءُ وَإِنْ أَخْلَتْهُمْ السُّنُونُ وَالتَّجَاعَاتُ

وَأَشْكَالُهَا وَتَنَاسُبِ أَغْصَانِهَا وَحِلْقَةِ مَكَارِحِهَا .
فَالْقَزَالُ أَعُو الْمَعَزِ ، وَالزَّرَافَةُ أَعُو الْبَحِيرِ وَالْحِمَارُ
وَالْبَيْتَرُ أَعُو الْحِمَارِ وَالْبَقَرُ ، وَالْبَيْتُونُ بَيْنَهُمَا مَا
وَأَيْتُ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَجْلِ أَنَّ الْخُضْبَ فِي التَّلَوِّ
قَلَّ فِي أَبْدَانِ هَذِهِ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرَّبِّيَّةِ وَالْأَغْلَامِ
الْقَابِلَةِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ . وَالْجُوعُ لِحَيَوَانِ
الْفَقْرِ حَسَنٌ فِي حُلُقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ .

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْأَدَمِيِّينَ أَيْضًا : فَإِنَّا تَجَدُّ
أَهْلَ الْأَقَالِيمِ الْمُخْشَفَةَ الْعَيْشِ ، الْكَثِيرَةَ الزَّرْعِ
وَالضَّرْعِ وَالْأَدَمِ ، وَالْقَوَاكِي ، يَتَصِفُ أَطْلُهَا غَالِبًا
بِالْبِلَادَةِ فِي أَهْلَانِهِمْ ، وَالشُّنُونَةِ فِي أَجْسَامِهِمْ ، وَهَذَا
هَذَا الْبَرَزِ الْمُتَشَفِّينَ فِي الْأَدَمِ ، وَالْحِنَظَةِ مَعَ
الْمُتَشَفِّينَ فِي عَيْشِهِمُ الْمُتَفَصِّرِينَ عَلَى الشَّيْءِ
أَوْ الذَّرَّةِ مِثْلُ الْمُصَانِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلُ عِمَارَةِ وَالسُّوسِ
فَتَجَدُّ هَوْلَاءُ أَحْسَنَ حَالًا فِي عُقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ .
وَكَذَا أَهْلُ بِلَادِ الْمَغْرِبِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُتَشَفِّينَ
فِي الْأَدَمِ ، وَالْبَرِّ ، مَعَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الْمُتَفَقِدِ
بِأَرْضِهِمُ السَّمْنُ جُمْلَةً وَغَالِبُ عَيْشِهِمُ الذَّرَّةُ ،
فَتَجَدُّ لِأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ ذِكَاةِ الْقَوْلِ وَخِفَةِ
الْأَجْسَامِ وَقَبُولِ التَّغْلِيمِ مَا لَا يُوْجَدُ لغيرِهِمْ ،
وَكَذَا أَهْلُ الصَّوَاخِي مِنَ الْمَغْرِبِ بِالْجُمْلَةِ مَعَ أَهْلِ
الْحَضَرِ وَالْأَمْصَارِ ، فَإِنَّ الْأَمْصَارَ وَإِنْ كَانُوا
مُكْثَرِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَدَمِ وَمُخْشَفِينَ فِي الْعَيْشِ ،
إِلَّا أَنَّ اسْتِعْمَالَهُمْ إِيَّاهَا بَعْدَ الْإِلَاجِ بِالطَّبِخِ
وَالتَّلَطُّفِ بِمَا يَخْلُطُونَ مَعَهَا قَلِيلٌ لِلذِّكِّ
عِلَظُهَا وَيَرَقُّ قِيَامُهَا . وَعَمَّا مَا كُلُّهُمْ لِحُومِ الضَّنِّ
وَاللَّحَاجِ ، وَلَا يَخِيطُونَ السَّمْنَ مِنْ بَيْنِ الْأَدَمِ لِتَفَاحِيهِ

في الانجراف. فلما ما وجد فيه التقلد والتماسة
فيصير غذاء مألوفاً بالعادة ، فإذا أخذ الإنسان
نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضاً عن الحنطة
حتى صار له دلتاً ، فقد حصل له ذلك غذاء ،
واستغنى به عن الحنطة والجبوب من غير شك .
وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء
عن الطعام ، كما ينقل عن أهل الرياضيات ،
فإننا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد
ينكرها من لا يعرفها

والسبب في ذلك العادة ، فإن النفس إذا
ألقت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة
التلون ، فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج
والرياضة ، فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها .
وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس
على ما يتوهمونه ، إلا إذا حلت النفس عليه
دفعة ، وقطع عنها الغذاء بالكلية فإنه حينئذ يتحير
البدن ، ويتأله المرض الذي يخشى منه الهلاك .
وأما إذا كان ذلك القدر تدريجاً ورياضة بإفلاك
الغذاء شيئاً فشيئاً كما يفعل المتصوفة ، فهو
يمتثل عن الهلاك

وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه
الرياضة . فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعة
خفيف عليه الهلاك ، وإنما يرجع به كما بدأ في
الرياضة بالتدريج ، ولقد شاهدنا من يقصر على
الجوع أربعين يوماً وصلاً وأكثر . وحضر
أشياخنا بمجلس السلطان ، أبي الحسن ، وقد

قلا تناول منهم ما تناول من أولئك ولا يكثر فيهم
الهلاك بالجوع ، بل ولا ينذر .

والسبب في ذلك والله أعلم : أن المتقربين
في الخصب المتعدين للأدم والسمن خصوصاً
تكتسب من ذلك أملاً لهم رطوبة فوق رطوبتها
الأصلية المزاجية حتى تجاوز حدّها ، فإذا خولفت
بها العادة بقلّة الأقوات ، وفقدان الأدم واستعمال
الحشيش غير المألوف من الغذاء أسرع إلى
البدن (١) البس والإنيكاش وهو عضو ضعيف في
الغاية ، فيسرع إليه المرض وبهلك صاحبه
دفعه ، لأنه من العقائل . فالهالكون في المجاعات
إنما قلّتهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق .
وأما المتعودون بقلّة الأدم والسمن فلا تزال
رطوبتهم الأصلية واقفة عند حدّها من غير زيادة
وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعية فلا يقع في
معامهم تبدل الأغذية بيس ولا انجراف فيسلمون
في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب
وكثرة الأدم في التآكل .

وأصل هذا كله أن تعلم أن الأغذية والتلافها
أو تركها إنما هو بالعادة . فمن عود نفسه غذاء
ولاكمه تناولها ، كان له مألوفاً وصار الخروج عنه
والتبدل به ذاك ما لم يخرج عن غريزة الغذاء
بالجملة كالسوم واليتوع (٢) ، وما أفرط

(١) الأسماء .

(٢) قال في القاموس الجوع كسود أو قود له لين دار
سبل مرقه قطع وللشهور منه سجة : القوم والاعية والعرطيا
واللهوادة والمزويوثة القليلات الشر . وكل اليتوعات لما استلست
في غير وجهها اهلكت . ٥١٠

الأغلبية ما ينال غيرهم ، فيشربون البتونات
لاستطلاع بطونهم غير متحجوبة كالحظن قبل
طبخه ، والدرياس والقريون ، ولا ينال أمتاعهم
منها صرر وهي لو تناولها أهل الحضر الرقيقة
أمتاعهم بما نشأت عليه من لطيف الأغلبية
لكان الهلاك أسرع إليهم من طرفة العين ، لما
فيها من السمية .

ومن تأثير الأغلبية في الأبدان ما ذكره أهل
الفلاحة ، وشاهدته أهل التجربة : أن الدجاج إذا
غليت بالحبوب المطبوخة في بحر الأبل ، وأخذ
بيضها ، ثم حصنت عليه ، جاء الدجاج منها
أعظم ما يكون . وقد يستغنون عن تغذيتها
وطبخ الحبوب بطرح ذلك اليعر مع البيض
المحصن فيجئ دجاجها في غاية العظم . وأما
ذلك كثيرة . فإذا رأينا هلب الآثار من الأغلبية
في الأبدان ، فلاشك أن للجوع أيضا آثارا في
الأبدان لأن الضلين على نسبة واحدة في التأثير
وعليه ، فيكون تأثير الجوع في نقاء الأبدان من
الزيادات القاسية والرطوبات المخلطة المخلطة
بالجسم والعقل ، كما كان الغذاء مؤثرا في
وجود ذلك الجسم والله معيط .

وقع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الحضرية ،
ورثته ، حمتا أنفسهما عن الأكل جملة منذ
سنتين ، وشاع أمرهما ووقع اختيارهما ، فصح
شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا .
ورأينا كثيرا من أصحابنا أيضا من يقتصر على
حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار أو
حين الإفطار ، ويكون ذلك غذاء واستدام على ذلك
خمسة عشرة سنة ، وغيرهم كثير ، ولا يستنكر ذلك .

واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار
الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه ، أو على الإقلال
منها ، وأن له أثرا في الأجسام والمقول في
صفاتها وصالحها كما قلناه . واعتبر ذلك بآثار
الأغذية التي نحصل عنها في الجسوم ، فقد رأينا
المتغلبين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة
الجمان ، تنشأ أجاليهم كذلك ، وهذا مشاهد
في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكنا
المتغلبون بالبان الأبل ولحومها أيضا ، مع
ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدر
على حمل الأثقال ، الموقود ذلك للإبل
وتنشأ أمتاعهم أيضا على نسبة أمتاع الإبل في
الصحو والبلط . فلا يطارقها الهم ولا ينالها من مدار

المقدمة السادسة

في أصناف الملوكين للعب من البشر بالنظرة أو الرأفة

ويقتضيه الكلام في الوحي والرواية

إِذْ عَلَّمَ اللَّهُ مَبَاحِدَهُ أَصْلَافِي مِنَ الْبَشَرِ أَشْخَاصًا
فَضَّلَهُمْ بِخَطَائِبِهِ ، وَقَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ ، وَجَعَلَهُمْ
وَسَائِلَ بَيْتِهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ ، يُعْرِفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ
وَيُخَرِّصُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ ، وَيُخَالِفُونَ بِحُجَرَاتِهِمْ
عَنِ النَّارِ (١) ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النِّجَاحِ ، وَكَانَ
فِيهَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى
الْغَيْبِ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْإِجَابِ بِالْكَائِنَاتِ الْمُغَيَّبَةِ
عَنِ الْبَشَرِ الَّتِي لَا تَسِيلُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنْ اللَّهِ
بِوَسَاطَتِهِمْ ، وَلَا يَتَلَوَّنَهَا إِلَّا بِتَلْوِينِ اللَّهِ لِإِيَّاهُمْ .
قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَا وَلَئِي لَا أَعْلَمُ
إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ » .

وَاعْلَمْ أَنَّ خَبَرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ خَاصِيَّتِهِ
وَضَرُورَتِهِ الصَّدَقِ . لِمَا يَتَّبِعُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ
حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ . وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّنَفِ مِنَ الْبَشَرِ
أَنْ تُوجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ الْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ الْحَاضِرِينَ
مَعَهُمْ مَعَ غَطِيظِ ، كَانَهَا غُثًى أَوْ اِغْتَمَاهُ فِي رَأْيِ
الْعَيْنِ ، وَلَكِنَّتْ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا جِي فِي
الْحَقِيقَةِ اسْتِفْرَاقٌ فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ الْوَحَائِي بِإِذْرَا كَبِهِم
الْمُنَاسِبِ لَهُمْ ، الْخَارِجِ عَنْ مَدَارِكِ الْبَشَرِ بِالْكُلِّيَّةِ
ثُمَّ يَنْزِلُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ ، إِمَّا بِسَمَاعِ
قَوِيٍّ مِنَ الْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ ، أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ صُورَةٌ

وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا : أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُمْ قَبْلَ
الْوَحْيِ خَلْقُ الْخَيْرِ وَالزَّكَاةِ ، وَمُجَانَبَةُ الْمَتَعَمَّاتِ
وَالرَّجْسِ أَجْمَعِ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْغِيْبَةِ ، وَكَانَتْ
مَقْطُوعَةً عَلَى التَّنَزُّهِ عَنِ الْمَتَعَمَّاتِ وَالْمُنَافَرَةِ لَهَا ،

(١) يقدرون .

(٢) سورة المزمل ، آية : ٥ .

(٣) سورة الزمر ، آية : ٣٦ .

وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ أَخْضَرَ مَنْ وَجَدَ بِكَدِهِ
مِنْ قُرَيْشٍ وَبِهِمْ أَبُو سَفْيَانَ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْ حَالِهِ .
فَكَانَ فِيهِمَا سَأَلٌ أَنْ قَالَ : يَمَّ بِأَمْرُكُمْ ؟ فَقَالَ
أَبُو سَفْيَانَ : بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَةِ وَالصَّافِ إِلَى
آخِرِ مَا سَأَلَ ، فَأَجَابَهُ فَقَالَ : إِنْ يَكُنْ مَا نَقُولُ حَقًّا
فَهُوَ نَبِيٌّ ، وَسَيَمْلِكُ مَا نَحْتُ قَدَقَى هَاتَيْنِ ،
وَالصَّافِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرْقُلُ هُوَ الْعِصْمَةُ فَانْظُرْ
كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالنَّهْجِ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ
دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِي ، وَلَمْ يَخْتِجْ إِلَى مُعْجَزَةٍ فَدَلَّ
عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ .

وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا : أَنْ يَكُونُوا ذَوَى حِسَبٍ فِي
قَوْمِهِمْ ، وَفِي الصَّحِيحِ « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي
مَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِيهِ » ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى « فِي فِرْوةٍ مِنْ قَوْمِيهِ »
اسْتَدْرَكَهُ الْحَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ . وَفِي مُتَشَفِّهِ
هِرْقُلُ لِأَبِي سَفْيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ :
كَيْفَ هُوَ فَبِكُمْ ؟ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ هُوَ فِينَا
ذُو حَسَبٍ . فَقَالَ هِرْقُلُ : وَالرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَبِ
قَوْمِهَا ، وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عَصَبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ
عَنْ أَذَى الْكُفَّارِ ، حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ ، وَيُثَبِّتَ
مُرَادَ اللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَوَلِيَّتِهِ .

وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا : وَقُوعُ الْخَوَلَقِ لَهُمْ
شَاهِدَةً بِصِدْقِهِمْ . وَهِيَ أَعْمَالٌ يَتَجَرَّعُ الْبَشَرُ عَنْ
مِثْلِهَا ، فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ مُعْجَزَةً ، وَلَيْسَتْ مِنْ
جَنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ ، وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ مَحَلٍّ
فَتَدْرِيهِمْ ، وَلِلنَّاسِ فِي كَيْفِيَّتِهِ وَقُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا
عَلَيْهِمْ نَعْمَ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافٌ .

وَكَلَّتْهَا مُنَافِيَةٌ لِجَلِيلِهِ . وَفِي الصَّحِيحِ : إِنَّهُ هَعَلَ
الْحِجَابَةَ وَهُوَ غَلَامٌ مَعَ عَمِّهِ الْبَّاسِ لِبَنَاءِ الْكَتَبَةِ ،
فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَأَتَتْكَفَتْ فَسَقَطَ مُتَشَفِّيًا عَلَيْهِ
حَتَّى اسْتَقَرَّ بِإِزَارِهِ ، وَدُعِيَ إِلَى مُجْتَمَعٍ وَلِكَيْمَةٍ
فِيهَا عُرُسٌ وَلَكَيْمٌ ، فَأَصَابَهُ غَثِي النَّوْمِ إِلَى
أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ ، وَلَمْ يَخْضُرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ
بَلْ نَزَّهَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ بِجَلِيلِهِ
يَنْتَزِعُهُ عَنِ الْمَطْلُوعَاتِ الْمُشْتَكِرَةِ ، فَقَدْ كَانَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقْرُبُ الْبَيْتَ وَالنَّوْمَ ،
فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : « إِنِّي أَنَا جِي مِنْ لَا تُنَاجُونَ » .

وَانْظُرْ لِمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِحَالِ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَّاهُ .
وَأَرَادَتْ اخْتِبَارَهُ ، فَقَالَتْ : اجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ
قَوْمِكَ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ فَقَالَتْ :
إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ . وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرُبُ
النِّسَاءَ . وَكَذَلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ الثِّيَابِ إِلَيْهِ أَنْ
يَلْبَسَهُ فِيهَا ، فَقَالَتْ : الْبَيَاضُ وَالْخَضِرُ ، فَقَالَتْ
إِنَّهُ الْمَلَكُ ، يَعْنِي أَنَّ الْبَيَاضَ وَالْخَضِرَ مِنْ
أَلْوَانِ الْخَيْرِ وَالْمَلَائِكَةِ ، وَالسَّوَادُ مِنَ الْأَوَانِ
الشَّرِّ وَالشَّيَاطِينِ ، وَأَنْشَأَ ذَلِكَ .

وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا : دُعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ
وَالْعِبَادَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّافِ ، وَقَدْ اسْتَدْلَّتْ
خَدِيجَةُ عَلَى صِدْقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ .
وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ . وَلَمْ يَخْتِجْ فِي أَمْرِهِ إِلَى دَلِيلٍ
خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخَلْفِهِ ، وَفِي الصَّحِيحِ : أَنَّ
هِرْقُلَ جِيَنَ جَاءَهُ كِتَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

عندهم أَنَّ الْخَوَارِقَ لَيْسَتْ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ،
وَأَعْمَالُهُمْ مُعَادَةٌ ، فَلَا فَرْقَ . وَأَمَّا وَقُوعُهَا عَلَى يَدِ
الْكَاذِبِ فَلَيْسَ بِقُوَّةٍ مَحَالٌ .

أَمَّا عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ : فَلِأَنَّ صِفَةَ النَّفْسِ
الْمُعْجَزَةِ التَّصَدِيقُ وَالْهِدَايَةُ ، فَلَوْ وَقَعَتْ بِخِلَافِ
ذَلِكَ انْقَلَبَ الدَّلِيلُ ضَمِيمَةً ، وَالْهِدَايَةُ ضَلَالَةً ،
وَالتَّصَدِيقُ كَلْبًا ، وَاسْتَحَالَاتِ الْحَقَائِقِ بِوَالْقَلْبِ
صِفَاتِ النَّفْسِ بَوْمًا يَلْزَمُ مِنْ قَوْصِ وَقُوعِهَا مَحَالٌ
لَا يَكُونُ مُمَكِّنًا . وَأَمَّا حِنْدَ الْمُتَنَزِّلَةِ فَلَسَلَّةٌ
وَقُوعُ الدَّلِيلِ ضَمِيمَةً وَالْهِدَايَةُ ضَلَالَةً فَمِنْ فَلَا
يَقَعُ مِنَ اللَّهِ .

وَأَمَّا الْحَكَمَاءُ : فَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ
وَلَوْ كَانَ فِي قَبْرِ مَحَلِّ الْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ
فِي الْإِيجَابِ الدَّلَائِي . وَوُقُوعُ الْخَوَارِقِ ، بَعْضُهَا
عَنْ بَعْضٍ مُتَوَقِّفٌ عَلَى الْأَسْبَابِ . وَالشَّرُوطُ
الْحَادِثَةُ مُسْتَنَدَةٌ لِأَحَدٍ إِلَى الْوَاجِبِ الْفَاعِلِ بِالذَّاتِ
لَا بِالِاخْتِيَارِ . وَإِنَّ النَّفْسَ النَّبَوِيَّةَ عِنْدَهُمْ لَهَا
خَوَاصٌّ ذَاتِيَّةٌ ، مِنْهَا صُلُودُ هَذِهِ الْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ ،
وَطَاعَةُ الْعَنَاصِرِ لَهُ فِي التَّكْوِينِ . وَالنَّبِيُّ عِنْدَهُمْ
مَجْبُولٌ عَلَى التَّصْرِيفِ فِي الْأَكْوَانِ ، مَهْمَا تَوَجَّهَ
إِلَيْهَا وَاسْتَجَمَعَ لَهَا بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ .
وَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سِوَاهُ كَانَ لِلْحَدَثِ ،
أَمْ لَمْ يَكُنْ ، وَهُوَ شَاهِدٌ بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دَلَالَتُهُ
عَلَى تَصْرِيفِ النَّبِيِّ فِي الْأَكْوَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ
النَّفْسِ النَّبَوِيَّةِ ، لِأَيَّانِهِ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْقَوْلِ
الصَّرِيحِ بِالتَّصْدِيقِ ، فَلِلَّذَلِكَ لَا تَكُونُ دَلَالَتُهَا
عِنْدَهُمْ قَطْعِيَّةً ، كَمَا هِيَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَلَا

قَالِ الْمُتَكَلِّمُونَ بِنَاءً عَلَى الْقَوْلِ بِالْفِعْلِ الْمُخَارِ
قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا بِفِعْلِ النَّبِيِّ . وَإِنْ
كَانَتْ أَعْمَالُ الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُتَنَزِّلَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ ،
إِلَّا أَنَّ الْمُعْجَزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جَنْسِ أَعْمَالِهِمْ وَلَيْسَ
لِلنَّبِيِّ فِيهَا حِنْدٌ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحْدِي
بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَقُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مُدْعَاهُ
فَلَمَّا وَقَعَتْ نَزَلَتْ مَنْزِلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ مِنَ اللَّهِ
بِأَنَّهُ صَادِقٌ ، وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا حِينَئِذٍ عَلَى الصِّدْقِ
قَطْعِيَّةً . فَالْمُعْجَزَةُ دَالَّةٌ بِجَمْعِ الْخَارِقِ وَالتَّحْدِي
وَلِلَّذَلِكَ كَانَ التَّحْدِي جُزْءًا مِنْهَا ، وَعبارة الْمُتَكَلِّمِينَ
صِفَةً لِنَفْسِهَا وَهُوَ وَاحِدٌ ، لِأَنَّهُ مَعْنَى الدَّلَائِي عِنْدَهُمْ .

وَالتَّحْدِي . هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْكِرَامَةِ
وَالسُّمْرِ . إِذْ لَأَحَاجَةٌ فِيهِمَا إِلَى التَّصْدِيقِ ، فَلَا
وُجُودَ لِلتَّحْدِي إِلَّا إِنْ وَجِدَ اتِّفَاقًا ، وَإِنْ وَقَعَ
التَّحْدِي فِي الْكِرَامَةِ حِنْدٌ مِنْ يَجِيزُهَا ، وَكَانَتْ
لَهَا دَلَالَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى الْوَلَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ النَّبِوةِ
وَمِنْ هُنَا مَتَّعَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ (١) وَغَيْرَهُ وَقُوعَ
الْخَوَارِقِ كِرَامَةً فِرَارًا مِنَ الْإِنْتِبَاسِ بِالنَّبِوةِ عِنْدَ
التَّحْدِي بِالْوَلَايَةِ ، وَكَذَلِكَ أَرَبْنَاكَ الْمُغَايِرَةَ بَيْنَهُمَا
وَأَنَّهُ يَتَحْدِي بِغَيْرِ مَا يَتَحْدِي بِهِ النَّبِيُّ فَلَا لَيْسَ .
عَلَى أَنَّ النُّفْلَ عَنِ الْأُسْتَاذِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيحًا
وَرَبَّمَا حُجِّلَ عَلَى إِنْكَارِهِ لِأَنَّ نَقَعَ خَوَارِقَ الْأَنْبِيَاءِ
لَهُمْ بِنَاءً عَلَى انْخِصَاصِ كُلِّ رَجُلٍ الْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ .
وَأَمَّا الْمُتَنَزِّلَةُ : فَالْمَانِعُ مِنْ وَقُوعِ الْكِرَامَةِ

(١) الأسماعيلي الفقيه الشافعي .

الْقِيَامَةِ ، ، يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُعْجِزَةَ حَتَّى كَانَتْ بِهِلِهِ الثَّابِتَةِ فِي الرُّضُوحِ وَقُوَّةِ الدَّلَالَةِ ، وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسُ الْوَحْيِ كَانَ الصَّدْقُ لَهَا أَكْثَرَ لَوْضُوحِهَا فَكَثُرَ الْمُصَلِّقُ الْمُؤْمِنُ وَهُوَ النَّاتِجُ وَالْأَمَةُ .

ولنذكر الآن تفسير حقيقة الثبوت على

على ماشرحه كثير من المحققين ثم نذكر

حقيقة الكهانة ، ثم الرويا ثم شأن المرافين

وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول :

إِظْمَ : أَرَضَيْنَا اللَّهَ وَلَيْكَ أَنَا نَشَاهِدُ مَاذَا الْعَالَمُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَطْوَقاتِ كُلِّهَا عَلَى حَيْثُ مِنْ التَّرْتِيبِ وَالْإِحْكَامِ ، وَرَبَطَ الْأَشْيَاءَ بِالسَّبَبَاتِ ، وَاتَّصَلَ الْأَكْوَانُ بِالْأَكْوَانِ وَاسْتَحَالَ بَعْضُ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ ، لِاتِّصَافِهَا بِهَيْئَةٍ فِي ذَلِكَ وَلَا نَنْتَبِهُ غَايَاتِهِ .

وَأَبْدَأَ مِنْ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ الْجَسَدِيِّ . وَأَوَّلًا : عَالَمِ الصَّائِرِ الْمُشَاهِدَةِ كَيْفَ تَنْوُجُ صَاحِبَا مِنْ الْأَرْضِ إِلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ إِلَى الْهَوَاءِ ثُمَّ إِلَى النَّارِ مُتَّصِلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَكُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهَا مُتَّصِلٌ إِلَى أَنَّ يَسْتَحِيلُ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاحِبًا وَهَابِطًا ، وَيَسْتَحِيلُ بَعْضُ الْأَوَاقَاتِ . وَالصَّاعِدُ مِنْهَا أَلْفَتْ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ الْأَفلاكِ وَهُوَ أَلْفَتْ مِنْ الْكُلِّ عَلَى طَبَقَاتٍ اتَّصَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى حَيْثُ لَا يُدْرِكُ الْجِسْمُ مِنْهَا إِلَّا الْحَرَكَاتِ فَقَطْ ، وَبِهَا يَهْتَدِي بَعْضُهُمْ إِلَى مَرَقَةٍ مَقَادِيرِهَا وَأَوْصَافِهَا وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَجُودِ الذَّوَاتِ الَّتِي لَهَا هَلْوَ الْأَثَرُ فِيهَا . ثُمَّ انْظُرْ إِلَى عَالَمِ التَّكْوِينِ كَيْفَ ابْتَدَأَ مِنَ الْمَعَادِنِ ثُمَّ الثَّيَابِ ، ثُمَّ الْحَيَوَانِ عَلَى

يَكُونُ التَّحْدِثُ جُزْئًا مِنَ الْمُعْجِزَةِ وَلَمْ يَصِحْ فَارِقًا لَهَا مِنَ السَّحْرِ وَالْكَرَامَةِ . وَقَارِقُهَا عَنْهُمْ عَنْ السَّحْرِ أَنَّ النَّبِيَّ مَجْبُورٌ عَلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ مَضْرُوفٌ عَنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ ، فَلَا يَلُمُ الشَّرَّ بِخَوَارِقِهِ . وَالسَّاحِرُ عَلَى الصَّدْقِ ، فَافْعَالُهُ كُلُّهَا شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ الشَّرِّ . وَقَارِقُهَا عَنْ الْكَرَامَةِ : أَنَّ خَوَارِقَ النَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ كَالْمُسْتَوْدِ إِلَى السَّمَاءِ وَالتَّنْفُوذِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ ، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ وَالطَّيْرَانِ إِلَى الْهَوَاءِ . وَخَوَارِقُ الْوَلِيِّ ثَوْنُ ذَلِكَ كَتَكْثِيرِ الْقَبِيلِ وَالْحَبِيبِ عَنْ بَعْضِ الْمُسْتَقْبَلِ وَأَمْثَالِهِ يَمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَصْرِيفِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَتَأْتِي النَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ ، وَلَقَنُوهُ عَنْ أَخْبَرِهِمْ .

وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاغْنَمَ أَنْ أَعْظَمَ الْمُعْجِزَاتِ وَأَشْرَقَهَا ، وَأَوْضَحَهَا دِلَالَةً : الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، الْمُنَزَّلَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَإِنَّ الْخَوَارِقَ فِي الْغَالِبِ نَفْعٌ مُعَايَرَةٌ لِلْوَحْيِ الَّذِي يَنْتَلَقُ النَّبِيُّ ، وَيَأْتِي بِالْمُعْجِزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ . وَالْقُرْآنُ هُوَ يَنْفَسِ الْوَحْيِ الْمُدْعَى . وَهُوَ الْخَارِقُ الْمُعْجِزُ ، فَشَاهِدُهُ فِي حَيْثِهِ ، وَلَا يَنْفَعُ إِلَى ذَلِيلٍ مُثَابِرٍ لَهُ كَسَائِرِ الْمُعْجِزَاتِ مَعَ الْوَحْيِ . فَهُوَ أَوْضَحُ دِلَالَةٍ لِاتِّحَادِ الدَّلِيلِ وَالْمَثَلُولِ فِيهِ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْإِنْسِيَاءِ إِلَّا وَأُوتِيَ مِنْ آيَاتٍ مَا يَمْثِلُهُ آتَمُ عَلَيْهِ الْبَشَرِ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوْنِيَهُ وَخِيَا أَوْحَى إِلَيَّ ، فَلَمَّا أَرَجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ نَابِيًا يَوْمَ

ليصير بالفعل من جنس الملكة وتقا من الأوقات
في لمة من السمات ، وذلك بعد أن تكمل
ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ،
ويكون لها اتصال بالأقوى الذي بعدها شأن
الموجودات المرتبة كما قدّمناه فلها في الاتصال
جهتا الطو والسفل ، وهي متصلة بالبدن من
أفعل منها وتكتسب به المدرك الحسية التي
تستعمل بها للحصول على التعقل بالفعل ،
ومتصلة من جهة الأغل منها بأقوى الملكة ،
ومتكسبة به المدرك الطيبة والقيية ، لأن عالم
الحوادث موجود في تعاليمهم من غير زمان ،
وهذا على ما قدّمناه من الترتيب المحكم في
الوجود باتصال ذواته وقواه بتفصيلها ببعض .

ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان
وآثارها ظاهرة في البدن فكانت وجميع أجزائه
مجموعة ومترقة آلات للنفس ولقواها .

أما الفاعلية فالبطش باليد والشمى بالرجل ،
والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدايما .
أما الملوكة ، وإن كانت قوى الإذراك مرتبة
ومترقة إلى القوة العليا منها وهي المفكرة التي يصير
عنها بالناطقة ففردت الحس الظاهرة بالآلة من السمع
والبصر وسائرهما يرتقى إلى الباطن بأوله الحس
المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة
ومسموعة وملحوسة وغيرها في حالة واحدة ، ولذلك
فارتقت قوة الحس الظاهر ، لأن المحسوسات لا تزدحم
عليها في الوقت الواحد ، ثم يؤدي الحس المشترك
إلى الخيال ، وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في

هيئة بسيطة من التدوير وآخر أقوى المتعادن متصل بأول
أقوى النبات مثل الحشيش ، وما لا يتدرج له ،
وأخر أقوى النبات مثل النخل والكرم متصل
بأول أقوى الحيوان ، مثل الحظرون والصف وكم
يوجد لهما إلا قوة الشمس فقط .

ومعنى الاتصال في هذه المكونات ، أن آخر
أقوى منها مستعمل بالاستعداد القريب ^(١) لأن يصير
أول أقوى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتمددت
أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان
صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم
القدرة ^(٢) الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته
إلى الروية والفكر بالفعل ، وكان ذلك أول أقوى
الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا .

ثم إننا نجد في التواليف على اختلافها آثارا
متنوعة . ففي عالم الحس آثار من حركات
الأفلاك والناسير . وفي عالم التكوين آثار من
حركة النمو والإنزال تشهد كلها بأن لها مؤثرا
مبينا للأجسام فهو روحاني ، ويتصل بالمكونات
لوجود اتصال هذا العالم في وجودها ، ولذلك هو
النفس الملوكة والمحركة ولا تد فوقها من
وجود آخر يعطيها قوى الإذراك والحركة ،
ويتصل بها أيضا ويكون ذاته إذا كان صريحا وتعملا
وهو مخصص عالم الملكة فوجب من ذلك أن يكون
للنفس استعداد للإصلاح من الشريعة إلى الملكية

(١) في بعض النسخ : القريب . وفي كلها نظر .

(٢) هكذا في جميع النسخ وفي مشفرة الدكتور والي :
القدرة . وينطلق منها إلى مناقشة قيمة نظرية الشهوة والارتقاء
منه لشكره للسليبي وغيره . النظر ج ١ ص ٥٠٩ وموافقا .

وَالْحَيَالِيَّةِ ، وَتَرْجِيبِ التَّمَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ ، عَلَى قَوَائِنٍ مَحْصُورَةٍ وَتَرْجِيبِ شَخْصٍ ، يَسْتَفِيدُونَ بِهِ الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصْلِيقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ ، وَكُلُّهَا خِيَالِيٌّ مُنْهَوٍ نِطَاقُهُ . إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةٍ مَبْدُئِيَّةٍ يَنْتَهِي إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا ، وَإِنْ قَسَدَ قَسَدٌ مَا يَتَلَمَّعُ ، وَهَذَا هُوَ فِي الْأَغْلَبِ نِطَاقُ الْإِذْرَاقِ الْبَشَرِيِّ الْجِسْمَانِيِّ ، وَلِئَلَّا قَتْنَاهُ مَدَارِكُ الْمَلَمَّاتِ ، وَفِيهِ تَوَسُّعٌ أَقْدَامُهُمْ .

وَصِنْتُ مُتَوَجِّهٌ بِبَيْتِكَ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ نَحْوَ التَّمَلُّكِ الرُّوحَانِيِّ ، وَالْإِذْرَاقِ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ إِلَى الْأَلَاتِ الْبَشَرِيَّةِ ، بِمَا جِيلَ فِيهِ مِنَ الْأَسْتِغْدَادِ لِلذِّكْرِ . فَيَتَسَّحُّ نِطَاقُ إِذْرَاقِهِ عَنِ الْأَوَّلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ نِطَاقُ الْإِذْرَاقِ الْأَوَّلِ الْبَشَرِيِّ ، وَيَتَسَّرَحُ فِي فضاءِ الْمَشَاهِدَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ ، وَهِيَ وَجْدَانٌ كُلُّهَا ، لَا يَنَاطِقُ لَهَا مِنْ مَبْدُئِيَّةٍ وَلَا مِنْ مَنَتهَا ، وَهَلْوَ مَدَارِكُ الْمَلَمَّاتِ الْأَوَّلِيَّةِ أَهْلُ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْعَمَارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ ، وَهِيَ الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ فِي الْبَرَزَخِ .

وَصَنَفْتُ مَقْطُوبٌ عَلَى الْأَنْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ جُمْلَةً جِسْمَانِيَّةً وَرُوحَانِيَّةً إِلَى التَّمَلُّكِ مِنَ الْأَفْئِ الْأَعْلَى لِيَصِيرَ فِي لَمَحَةٍ مِنَ اللَّحْمَاتِ مَلَكًا بِالْفِعْلِ ، وَيَحْصُلُ لَهُ شُهُودُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى فِي أَنْفُسِهِمْ وَسَمَاعُ الْكَلَامِ النَّفْسَانِيِّ وَالْعَطَابِ الْإِلَهِيِّ فِي يَلِكِ اللَّحْمَةِ ، وَهَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ . جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْأَنْسِلَاخَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ فِي يَلِكِ اللَّحْمَةِ ، وَهِيَ حَالَةُ الْوَحْيِ فِطْرَةً فَعَرَّمَهُمُ اللَّهُ

النَّفْسِي ، كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطْ .

وَأَلَّةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيْفِهِمَا : الْبُطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدَّمَاعِ مُقَدَّمَةٌ لِلأَوَّلَى وَمُؤَخَّرَةٌ لِلثَّانِيَةِ ، ثُمَّ يَرْتَقِي الْخِيَالُ إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةِ . فَالْوَاهِمَةُ لِإِذْرَاقِ الْمَتَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ ، كَمَدَاوَةِ زَيْدٍ وَصَدَاقَةِ هَمْرٍ وَرَحْمَةِ الْأَبِ وَافْتِرَاسِ الذُّلْبِ . وَالْحَافِظَةُ لِإِبْدَاعِ الْمُنْذَرَاتِ كُلِّهَا مُتَخِيلَةً ، وَهِيَ لَهَا كَالْخِزَانَةِ تَحْضَنُهَا لَوَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا .

وَأَلَّةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيْفِهِمَا : الْبُطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدَّمَاعِ ، أَوَّلُهُ لِلأَوَّلَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلْآخَرَى . ثُمَّ تَرْتَقِي جَمِيعُهُمَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ وَأَلْتُهُ الْبُطْنُ الْأَوْسَطُ مِنَ الدَّمَاعِ ، وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَقَعُ بِهَا حَرَكَةُ الرُّوِّيَّةِ وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ التَّمَلُّكِ ، فَتَحْرُكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا لِمَا رَكِبَ فِيهَا مِنْ التَّنْزُوعِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ قَدْرِكَ الْقُوَّةِ وَالْأَسْتِغْدَادِ الَّذِي لِلْبَشَرِيَّةِ ، وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ فِي تَمَلُّكِهَا مُنْشَبِّهَةً بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ ، وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي إِذْرَاقِهَا بِخَيْرِ الْأَلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ ، فَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ . وَقَدْ تَنْسَلِخُ بِالْكَلْبِيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأَفْئِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ احْتِسَابٍ بَلْ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجِيلَةِ وَالْفِطْرَةِ الْأَوَّلَى فِي ذَلِكَ .

وَالنُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ :

صِنْتُ عَاجِزٌ بِالطَّبِيعِ عَنِ الْوُصُولِ ، فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ الْمَدَارِكِ الْحَيَسِيَّةِ

عَلَيْهَا وَجِلَّةٌ صَوَرُهُمْ فِيهَا ، وَنَزَعَهُمْ عَنْ مَوَاصِعِ الْيَكْنِ وَغَوَّالِغِهِ مَا كَانُوا مَلَّامِينَ لَهَا بِالْبَشَرِيَّةِ بِمَا رَكِبَ فِي غَرَائِزِهِمْ مِنَ الْقَصْدِ (١) وَالْانْتِقَامَةِ الَّتِي يُحَادِّثُونَ بِهَا تِلْكَ الْوُجْهَةَ ، وَرَكَّزَ فِي طَبَائِعِهِمْ . بَنَى فِي الْعِبَادَةِ تَكْشُفَ بَيْنِكَ الْوُجْهَةَ وَتُشْفِيعَ (٢) نَحْوَهَا ، فَهُمْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ بِبَلَدِ النَّوْعِ مِنَ الْانْتِصَاحِ مَتَى شَاعُوا بِتِلْكَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا ، لَا بِاِكْتِسَابٍ وَلَا صِنَاعَةٍ . فَإِذَا تَوَجَّهُوا وَانْتَسَلَخُوا عَنْ بَشَرِيَّتِهِمْ وَتَلَفَّقُوا فِي ذَلِكَ الْمَلَا الْأَعْلَى مَا يَتَلَفَّقُونَهُ ، عَاجَبُوا بِهِ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُتَوَلًّا فِي قُوَاهَا لِحِكْمَةِ التَّبْلِيغِ لِلْعِبَادِ ، فَتَارَةً يَسْمَعُ أَحَدُهُمْ دَوْبًا كَانَهُ رَمَزَ مِنَ الْكَلَامِ يَأْخُذُ بِهِ الْمَعْنَى الَّتِي أَلْفَى إِلَيْهِ فَلَا يَنْقُضِي الدَّوْبَ إِلَّا وَقَدْ وَعَاهُ وَفَهَمَهُ . وَتَارَةً يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلِكُ الَّذِي يُلْقَى إِلَيْهِ وَجَلًّا ، فَيَكْلِمُهُ وَيَعِي مَا يَقُولُهُ . وَالتَّلَفَّقُ مِنَ الْمَلِكِ وَالرُّجُوعُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ وَفَهْمُهُ مَا أَلْفَى عَلَيْهِ كُلُّهُ كَانَهُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ أَقْرَبُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي زَمَانٍ ، بَلْ كُلُّهَا تَقَعُ جَمِيعًا فَيُظَاهَرُ كَأَنَّهَا سَرِيعَةٌ وَلِلْمَلِكِ سُمِّيَتْ وَحْيًا لِأَنَّ الْوَحْيَ لَفَتْهُ الْإِشْرَاقُ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَوَّلَ وَهِيَ حَالَةُ الدَّوْبِ هِيَ وَثَبَةُ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَا حَقَّقُوهُ . وَالثَّانِيَةُ وَهِيَ حَالَةُ تَمَثُّلِ الْمَلِكِ رَجُلًا يَخَاصِبُ

وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي حَالَةِ الْوَحْيِ كُلِّهَا صُعُوبَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ ، وَشِدَّةٌ . قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ ، قَالَ تَعَالَى

(١) يَتَى : أَحَدٌ عَلَيْهِ .

(٢) بِدِ انْقِضَاءِهِ .

(٣) يَسِيرُهُ وَيَكُونُهُ .

(١) الاحتمال والتمسك .

(٢) فِي جَمِيعِ النِّسَبِ : تَسْلُحٌ . وَمَا أَجْتَنَّهُ مِنْ مَشْهُودَةٍ :

د. وافي ، وهو أقرب إلى الصواب وذلك لسهولة أسلوب ابن خلدون في هذه الفقرة .

«إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا»^(١)، وقالت عائشة :
«كَانَ يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً». وَقَالَتْ : «كَانَ يُنْزَلُ
عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّعْبِ الْبَرْدُ فَيَقْصِمُ»^(٢)
هَذِهِ وَإِنْ جَبِينَهُ لَيَنْفَصِدُ عَرَقًا ، وَلِلْمَلِكِ كَانَ يَحْدُثُ
عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالْعَلِيلِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ .
وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَرْنَا مُفَارَقَةً
الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْمَلَكِيَّةِ ، وَتَلْقَى كَلَامَ
النَّفْسِ فَيَحْدُثُ عَنْهُ شِدَّةٌ مِنْ مُفَارَقَةِ اللَّاتِ ذَاتِهَا
وَأَنْسِلَاجِهَا عَنْهَا مِنْ أَفْقِهَا إِلَى ذَلِكَ الْآفَتِ الْآخَرِ ،
وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْفَقْدِ الَّذِي صَبَرَ بِهِ فِي مَقَامِ الْوَحْيِ
فِي قَوْلِهِ «وَقَطَّيْتُ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ» ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي
قَتَالَ : «فَرَأَيْتُ مَا أَنَا بِغَارِيهِ» ، وَكَذَا ثَانِيَةً وَقَالَتْ :
«كَمَا فِي الْحَدِيثِ» . وَقَدْ يَغْنَى الْإِخْتِيَاؤُ بِالْتَّجَرُّعِ
فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى بَعْضِ السُّهُولَةِ بِالْيَقِيَّاسِ إِلَى
مَا قَبْلَهُ ، وَلِلْمَلِكِ كَانَ تَنْزُلُ نُجُومٌ^(٣) الْقُرْآنَ وَسُورَهُ
وَأَيُّ حِينَ كَانَ بِحِكْمَةٍ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَبِينَةِ .
وَانْظُرْ إِلَى مَا نُفَعِلُ فِي نُزُولِ سُورَةِ بَرَاءَةِ فِي غَزْوَةِ
تَبُوكَ ، وَأَنَّهَا نَزَلَتْ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ
يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ بِحِكْمَةٍ يَنْزُلُ عَلَيْهِ
بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمَفْعَلِ فِي وَقْتٍ ،
وَيَنْزُلُ الْبَاقِي فِي حِينَ آخَرَ . وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ
لَمَّا نَزَلَ بِالْمَبِينَةِ آيَةُ الدِّينِ^(٤) ، وَهِيَ مَا فِي الطُّولِ
بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الْآيَةُ تَنْزُلُ بِحِكْمَةٍ يَنْفَعُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ
وَالْمَلَائِكَاتِ هُوَ الْمُدْتَرِ «وَالصَّحِي» وَ«الْفَلَقِ»
وَأَمْثَالِهَا . وَاعْتَبِرْ مِنْ ذَلِكَ عَلَامَةً تُمَيِّزُ بِهَا بَيْنَ الْمَكِيِّ

وَالْمَكْنِيِّ مِنَ السُّورِ وَالْآيَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .
هَذَا مُحْصَلُ أَمْرِ النَّبُوَّةِ .

وَأَمَّا الْكَهَانَةُ : فَهِيَ أَيْضًا مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ
الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا
مَرَّ ، أَنَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَادًا لِلْإِنْسِلَاجِ
مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا ، وَأَنَّهُ
يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ لَمَحَّةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ
بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ
لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اخْتِسَابٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَدَارِكِ
وَلَا مِنَ التَّصَوُّرَاتِ وَلَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ كَلَامًا
أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ . إِنَّمَا هُوَ انْسِلَاجٌ
مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ بِالْفِطْرَةِ لِحَاطَةِ
أَقْرَبَ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ .

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ اسْتِعْدَادًا مُوجُودًا
فِي الطَّبْعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَيُعْطَى التَّقْسِيمُ الْعَقْلِيُّ ، أَنْ هُنَا
صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصًا عَنْ رَتَبَةِ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ
نُقْصَانُ الضَّدْعِ مِنْهُ الْكَامِلُ ، لِأَنَّ عَدَمَ الْاسْتِعَانَةِ
فِي ذَلِكَ الْإِذْرَاقِ ضِدُّ الْاسْتِعَانَةِ فِيهِ وَشَأْنٌ مَا بَيْنَهُمَا ،
فَلِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمُ الْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنْ
الْبَشَرِ مَقْطُوعًا عَلَى أَنْ تَحْرُكَ قُوَّتُهُ الْعَقْلِيَّةُ حَرَكَةً
الْفِكْرِيَّةَ بِالْإِرَادَةِ حَتَّى مَا يَبْتَغِيهِ التَّزَوُّعُ لِلذِّلِكَ وَهِيَ
نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِالْجِلَّةِ فَيَكُونُ لَهَا بِالْجِلَّةِ عِنْدَمَا
يَعْرِفُهَا الْعَجَزُ عَنْ ذَلِكَ تَشَبُّهُ بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ
مَحْسُوسَةٍ أَوْ مُتَخَيَّلَةٍ ، كَالْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ ،
وَعِظَامِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَسَجْعِ الْكَلَامِ ، وَمَا سَنَحَ
مِنْ طَبَرٍ أَوْ حَوَانٍ ، فَيَسْتَلِيمُ ذَلِكَ الْأَحْسَاسَ
أَوْ التَّخَيُّلَ مُسْتَعِينًا بِهِ فِي ذَلِكَ الْإِنْسِلَاجِ إِلَى

(١) سورة الزمل ، آية : • . (٢) يطاره .

(٣) مفرقاته . (٤) الآية ٢٨٢ سورة البقرة .

يُفَصِّلُهُ ، وَيَكُونُ كَالْمَسْبُوعِ لَهُ ، وَلِهَذَا الْقُوَّةُ الَّتِي فِيهِمْ تَبْدَأُ لِيْلِكَ الْإِدْرَاكِ ، هِيَ الْكِهَانَةُ .
وَلَكُونُ هَذِهِ النُّفُوسِ مَقْطُورَةٌ عَلَى النُّفُوسِ وَالْقُصُورِ عَنِ الْكَمَالِ ، كَمَا إِذْ رَأَى فِي الْجُزْئِيَّاتِ أَكْثَرَ مِنْ الْكُلِّيَّاتِ ، وَلِذَلِكَ تَكُونُ الْمُحِيلَةُ فِيهِمْ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ ، لِأَنَّهَا آتَتْ الْجُزْئِيَّاتِ فَتَنْقَلِبُ فِيهَا نَفُودًا تَامًا فِي نَوْمٍ أَوْ يَنْقَلِبُ ، وَتَكُونُ عِنْدَهَا حَاضِرَةً عَبِيدَةً تُحْضِرُهَا الْمُحِيلَةُ وَتَكُونُ لَهَا كَالْمِرَآةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا ، وَلَا يَتَوَقَّى الْكَائِنُ عَلَى الْكَمَالِ فِي إِدْرَاكِ الْمَقْشُورَاتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ ، وَارْتَفَعَ أَحْوَالُ هَذَا الصَّنِيعِ أَنْ يَسْتَحْيِيَ بِالْكَلَامِ الَّذِي فِيهِ السُّجْعُ وَالْمُؤَاوَزَةُ ، لِيَسْتَعْلِ بِه عَنِ الْحَرَّاسِ وَيَتَوَقَّى بَعْضُ الشَّيْءِ عَلَى ذَلِكَ الْاِتِّصَالِ النَّاقِصِ ، فَيَهْجِسُ فِي قَلْبِهِ عَنِ تِلْكَ الْحَرَكَةِ ، وَالَّذِي يُشِيرُهَا مِنْ ذَلِكَ الْأَجْنَبِيِّ مَا يَنْقَلِبُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرِيضًا صَدَقَ وَوَأَقْبَ الْحَقُّ ، وَرُبَّمَا كَذَبَ لِأَنَّهُ يَتَمَمُّ نَقْصُهُ بِأَمْرِ أَجْنَبِيٍّ عَنِ ذَاتِهِ الْمُدْرِكَةِ ، وَمِيَالِيْنِ لَهَا غَيْرِ مَلَائِكَةٍ ، فَيَغْرُسُ لَهُ الصُّدُقَ وَالْكَذِبَ جَمِيعًا ، وَلَا يَكُونُ مُؤْتَوَقَّافِهِ ، وَرُبَّمَا يَفْزَعُ إِلَى الظُّنُونِ وَالتَّخَيُّمَاتِ جَرِصًا عَلَى الظُّفْرِ بِالْإِدْرَاكِ بِزَعْمِهِ ، وَتَوَحُّيَةً عَلَى السَّائِلِينَ .
وَأَصْحَابُ هَذَا السُّجْعِ هُمُ الْمُخْضُوعُونَ بِاسْمِ الْكِهَانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مِثْلِهِ : « هَذَا مِنْ سَجْعِ الْكِهَانِ » ، لِيَجْعَلَ السُّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى الْإِضَافَةِ ، وَقَدْ قَالَ لِابْنِ صَبَادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ بِالْإِخْبَارِ : « كَيْفَ يَأْتِيكَ هَذَا الْأَمْرُ ؟ قَالَ يَأْتِينِي صَادِقًا وَكَاذِبًا » ، فَقَالَ : « خَطِطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ » يَتَنَبَّ

أَنَّ النَّبِيَّةَ خَاصَّتُهَا الصُّدُقُ فَلَا يَغْتَرِبُهَا الْكَذِبُ بِحَالٍ ، لِأَنَّهَا اِتِّصَالٌ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ مُشَبَّعٍ وَلَا اِشْتِمَاعَةٍ بِالْأَجْنَبِيِّ ، وَالْكِهَانَةُ لَمَّا اِحْتِاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى اِشْتِمَاعَةٍ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، كَانَتْ دَاحِلَةً فِي إِدْرَاكِهِ ، وَالتَّبَسُّتُ بِالْإِدْرَاكِ الَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطًا بِهَا وَطَرَفَهُ الْكَذِبُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَامْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نُبُوءَةً ، وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعَ مَرَاتِبِ الْكِهَانَةِ حَالَةُ السُّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى السُّجْعِ أَخْفَ مِنْ سَائِرِ الْمَغَيَّبَاتِ مِنَ الرُّبُوبِيَّاتِ وَالْمُسْتَوَاعَاتِ . وَتَدُلُّ خِطَّةُ الْمَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذَلِكَ الْاِتِّصَالِ وَالْإِدْرَاكِ ، وَالْبَعْدُ فِيهِ عَنِ السُّجْرِ بَعْضُ الشَّيْءِ .

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الْكِهَانَةُ قَدْ انْقَطَعَتْ مُنْذُ زَمَنِ النَّبُوءَةِ بِمَا وَكَّعَ مِنْ شَأْنِ رَحْمَةِ الشَّيَاطِينِ بِالشُّبُهَةِ بَيْنَ بَدَى الْبُهْتَةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ ، مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ (١) . وَالْكِهَانُ إِنَّمَا يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَتَبَلَّتْ الْكِهَانَةُ مِنْ يَوْمَئِذٍ . وَلَا يَقُومُ مِنْ ذَلِكَ كَلِيلٌ لِأَنَّ عُلُومَ الْكِهَانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ تَكُونُ مِنْ نَفُوسِهِمْ أَيْضًا ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ . وَأَيْضًا بِأَلَايَةِ إِسْمَا كَلَّتْ عَلَى مَنْعِ الشَّيَاطِينِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ الْبُهْتَةِ ، وَلَمْ يَمْنُوعُوا مِمَّا يَتَوَقَّى ذَلِكَ وَأَيْضًا فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْاِنْقِطَاعُ بَيْنَ بَدَى النَّبُوءَةِ فَقَطْ ، وَلَمْ يَلْهَا حَادَثٌ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكُ كُلُّهَا تَحْصُدُ ، فِي زَمَنِ النَّبُوءَةِ ، كَمَا تَحْصُدُ الْكُوكِبُ

(١) سورة البقرة ، آية : ٩٠ .

فِي أَنَّهَا نُبُوءَةٌ لَهُمْ ، فَيَقْبَعُونَ فِي الْعَمَادِ كَمَا وَقَعَ
لَأُمِّيَةِ ابْنِ أَبِي الصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَحُ أَنْ يَنْبَغِيَ ،
وَسَكَنًا وَقَعَ لَابْنِ صَبَاد ، وَلِكُسَيْبِ لَمَّةَ وَغَيْرِهِمْ ،
فَلَمَّا غَلَبَ الْإِيمَانُ وَأَنْقَطَعَتْ تِلْكَ الْأَمَانِيُّ آمَنُوا
أَحْسَنَ لِمَإْمَانٍ ، كَمَا وَقَعَ لَطَلِبَةِ الْأَسَدِيِّ وَسَوَادِ
ابْنِ قَارِبٍ ، وَكَانَ لَهُمَا فِي الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ
الْآثَارِ الشَّاهِدَةِ بِحُسْنِ الْإِيمَانِ .

وَأَمَّا الرُّوْيَا : فَحَقِيقَتُهَا مُطَالَعَةُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ
فِي ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ ، لَمَحَّةٌ مِنْ صُورِ الْوَالِقَاتِ ،
فَلِئِنَّهَا عِنْدَ مَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً ، تَكُونُ صُورَ الْوَالِقَاتِ
فِيهَا مَوْجُودَةٌ بِالْفِعْلِ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَوَاتِ
الرُّوحَانِيَّةِ كُلِّهَا ، وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً بِأَنْ تَنْجَرِدَ
عَنِ الْمَوَادِّ الْجِسْمَانِيَّةِ ، وَالْمَلَكُوتِ الْبَنِيَّةِ . وَقَدْ
يَقَعُ لَهَا ذَلِكَ لَمَحَّةٌ بِسَبَبِ النَّوْمِ كَمَا نَذَكُرُ
فَتَقْتَبِسُ بِهَا عِلْمَ مَا تَشْهَدُ إِلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ
الْمُسْتَقْبَلَةِ ، وَتَعُودُ بِهِ إِلَى مَلَكُوتِهَا ، فَإِنْ كَانَ
ذَلِكَ الْاِقْتِبَاسُ ضَعِيفًا وَغَيْرَ جَلٍّ بِالْمُحَاكَاةِ ،
وَالرِّثَالِ فِي الْخِيَالِ لِتَخْلُصِهِ ، فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ
هَلِيِّ الْمُحَاكَاةِ إِلَى التَّعْبِيرِ ، وَقَدْ يَكُونُ الْاِقْتِبَاسُ
قُوِيًّا يَسْتَعْنِي فِيهِ عَنِ الْمَحَاكَاةِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرِ
يَخْلُصُوهُ مِنَ الرِّثَالِ وَالْخِيَالِ .

وَالسَّبَبُ فِي وَقُوعِ هَلِيِّ اللَّمَحَةِ لِلنَّفْسِ :
أَنَّهَا ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ بِالْقُوَّةِ ، مُسْتَكْمِلَةٌ بِالْبَلَدِ
وَمَلَكُوتِيَّةٍ حَتَّى تَصِيرَ ذَاتَهَا تَعْقَلًا مُحَضًّا ، وَيَكْمُلُ
وَجُودُهَا بِالْفِعْلِ ، فَتَكُونُ حِينَئِذٍ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً
مُتَوَكِّةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ الْأَلَاتِ الْبَنِيَّةِ إِلَّا أَنْ نَوْعَهَا
فِي الرُّوحَانِيَّاتِ تَكُونُ نَوْعَ الْمَلَكُوتِيَّةِ أَهْلُ الْأَفْقِ

وَالسُّرُجُ حِينَ وَجُودِ الشَّمْعِ ، لِأَنَّ النُّبُوءَةَ هِيَ
النُّورُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفَى مَعَهُ كُلُّ نُّورٍ وَيَذْهَبُ .
وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا إِنَّمَا تَوْجَدُ بَيْنَ
يَدَيِ النُّبُوءَةِ ، ثُمَّ تَنْقَطِعُ . وَمَكَّنَّا كُلَّ نُبُوءَةٍ وَقَعَتْ
لِأَنَّ وَجُودَ النُّبُوءَةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَضْعٍ فَلِكُلِّ يَقْتَضِيهِ
وَقَى تَمَامُ ذَلِكَ الْوَضْعِ تَمَامُ تِلْكَ النُّبُوءَةِ الَّتِي
دَلَّ عَلَيْهَا ، وَتَقْصُ ذَلِكَ الْوَضْعُ عَنْ التَّمَامِ
يَقْتَضِي وَجُودَ طَبِيعَةٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوعِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ
نَاقِصَةٌ ، وَهُوَ مَعْنَى الْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ . فَقَبِلَ
أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ الْكَامِلُ بِقَعِ الْوَضْعِ النَّاقِصِ
وَيَقْتَضِي وَجُودَ الْكَاهِنِ . إِمَّا وَاحِدًا ، أَوْ مُتَعَدِّدًا ،
فَلَمَّا تَمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ تَمَّ وَجُودُ النَّبِيِّ بِكَمَالِهِ ،
وَانْقَضَتْ الْأَوْضَاعُ الدَّالَّةُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ ،
فَلَا يَوْجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدَ . وَهَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ
بَعْضَ الْوَضْعِ الْفَلَكِيِّ يَقْتَضِي بَعْضَ آخَرِهِ وَهُوَ
غَيْرُ مُسَلَّمٍ . فَلَعَلَّ الْوَضْعَ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ
الْآثَرَ بِهَيْئَتِهِ الْخَالِصَةِ ، وَلَوْ نَقَصَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا
فَلَا يَقْتَضِي شَيْئًا لِأَنَّهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ الْآثَرَ نَاقِصًا
كَمَا قَالُوهُ .

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّانَ إِذَا عَاصَرُوا زَمَنَ النُّبُوءَةِ
فَلِئِنَّهُمْ عَارِفُونَ بِصِدْقِ النَّبِيِّ وَدِلَالَةِ مُعْجِزَتِهِ لِأَنَّ
لَهُمْ بَعْضَ الْوُجُودَانِ مِنْ أَمْرِ النُّبُوءَةِ ، كَمَا لِكُلِّ
إِنْسَانٍ مِنْ أَمْرِ النُّوْمِ (١) ، وَمَعْقُولِيَّةِ تِلْكَ النَّسَبَةِ
مَوْجُودَةٌ لِلْكَاهِنِ بِأَشَدِّ مِمَّا لِلنَّاسِ ، وَلَا يَصْلُهُمْ
عَنِ ذَلِكَ وَيُوقِنُهُمْ فِي التَّكْذِيبِ إِلَّا قُوَّةُ الْمَطَامِيرِ

(١) فِي آخِرِ النَّصْحِ : الْيَوْمَ ، وَمَا أَقْبَاهُ عَنْ مَشْهُورَةِ د. وَاقٍ
ص ٥٢١ ج ١ . وَيُرْوَاهُ السَّيَّاحُ .

وَلَا تَجِبَنَّ لَكَ هَذَا مِنْ دَعَوَاتِنَا أَوْلَا عَلَمَةٍ
أَنْ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ اسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ الشَّامِلِ
لِلْبَشَرِ إِلَى اسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِصِنْفِ
الْأَنْبِيَاءِ الْفَيْضِيِّ لَهُمْ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ
هُوَ اسْتِعْدَادُ الْبَيْدِ وَإِنْ كَانَ عَامًا فِي الْبَشَرِ وَمَعَهُ
عَوَالِقُ وَمَوَائِبُ كَثِيرَةٌ مِنْ حُصُولِهِ بِالْفَيْضِ .

وَمِنْ أَكْثَرِ تِلْكَ الْمَوَائِبِ الْحَوَاسُ الظَّاهِرَةُ ،
فَقَطَرُ اللَّهِ الْبَشَرَ عَلَى ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْحَوَاسِ
بِالنُّوْمِ الَّذِي هُوَ جَبَلٌ لَهُمْ ، فَتَتَعَرَّضُ النَّفْسُ
حِينَ ارْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ
الْحَقِّ ، فَتُفْلِكَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْهُ لَمَسَةً يَكُونُ
فِيهَا الظُّفْرُ بِالْمَطْلُوبِ ، وَكَذَلِكَ جَنَلَهَا الشَّارِعُ فِي
الْمُبَشِّرَاتِ ، فَقَالَ : « لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ »
قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : الرُّؤْيَا
الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ ، أَوْ تُرَى لَهُ .

وَأَمَّا سَبَبُ ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْحَوَاسِ بِالنُّوْمِ ،
فَعَلَّ مَا أَصْفَهُ لَكَ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ إِنَّمَا
إِفْرَاقُهَا وَأَعْمَالُهَا بِالرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ الْجَسَامِيِّ ، وَهُوَ
بُخَارٌ لَطِيفٌ مَرَكَّهٌ بِالْخَوَافِيفِ الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى
مَا فِي كِتَابِ التَّشْرِيحِ لِجَلَانُوسَ وَغَيْرِهِ ، وَتَبَيَّنَتْ
مَعَ النَّوْمِ فِي الشَّرِائِطِ وَالْعُرُوقِ ، قِبَعُطَى الْجِسْمِ
وَالْحَرَكَةُ وَسَائِرُ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ . وَبَرَزَتْ لَطِيفَةُ
إِلَى الدَّمَاعِ ، فَتَبَدَّلَ مِنْ بَرِيدِهِ وَتَبَدَّلَ أَعْمَالُ الْقَوَى
الَّتِي فِي يَدَيْهِ . فَالْنَّفْسُ النَّاطِقَةُ إِنَّمَا قُدِّرَتْ تَعْمَلُ
بِهَذَا الرُّوحِ الْبَخَارِيِّ ، وَهِيَ مُتَمَلِّقَةٌ بِهِ لِمَا
اِقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ التَّكْوِينِ فِي أَنَّ اللَّطِيفَ لَا يُؤْتَرُ فِي

الْأَعْلَى عَلَى اللَّبَنِ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا دَوَائِمَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ
مَذَارِكِ الْبَدَنِ وَلَا غَيْرِهِ ، فَهَذَا اسْتِعْدَادُ حَاصِلِ
لَهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ ، وَمَعَهُ خَاصٌّ كَالَّذِي
لِلْأَوَّلِيَّاتِ . وَمَعَهُ عَامٌ لِلْبَشَرِ عَلَى النَّوْمِ وَهُوَ
أَمْرُ الرُّؤْيَا . وَأَمَّا الَّذِي لِلْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ اسْتِعْدَادُ
بِالْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ الْمُخَصَّصَةِ
الَّتِي هِيَ أَعْلَى الرُّوحَانِيَّاتِ ، وَيَخْرُجُ هَذَا اسْتِعْدَادُ
فِيهِمْ مُتَكَرِّرًا فِي حَالَاتِ الرُّوحِ . وَهُوَ حِينَئِذٍ
يُجْرَى عَلَى الْمَذَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنْ
الْإِفْرَاقِ يَكُونُ فِيهَا بِحَالِ النَّوْمِ فِيهَا بَيِّنًا ،
وَإِنْ كَانَ حَالُ النَّوْمِ أَذَقَهُ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فَلْأَجَلِ
هَذَا الشَّيْءِ حَبَرَ الشَّارِعِ عَنِ الرُّؤْيَا بِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ
سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ ، وَفِي رِوَايَةٍ :
« ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ نَوْحًا رِوَايَةً : سَبْعِينَ . وَكَيْسَ الْعَدَدُ
فِي جَمِيعِهَا مَقْصُودًا بِالذَّاتِ ، وَأَمَّا الْمَرَادُ الْكَثْرَةُ
فِي تَغَاوُثِ هَلِيهِ التَّرَائِبِ ، بِتَكْلِيلِ ذِكْرِ السَّبْعِينَ
فِي بَعْضِ طَرَفِهِ وَهُوَ لِلتَّكْوِينِ حِينَ الْعَرَبِ ، وَمَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فِي رِوَايَةٍ سِتَّةً وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ الرُّوحَ
كَانَ فِي مَبْدِئِهِ بِالرُّؤْيَا سِتَّةً أَشْهُرَ وَهِيَ يَصِفُ سِتَّةً ،
وَمِنَ النَّبُوءَةِ كُلُّهَا بِحِكْمَةِ وَالْمَبْدِئَةِ ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ
سِتَّةً ، فَخِصَّتْ السَّنَةُ مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ
فَكَلَامٌ بَعِيدٌ مِنَ الصَّحِيقِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمِنْ أَهْلِ لَنَا أَنَّ هَلِيهِ الْمُنَّةَ
وَقَعَتْ لِبَغْيِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَحْطَى
نِسْبَةَ زَمَنِ الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ النَّبُوءَةِ وَلَا يَحْطَى حَقِيقَتَهَا
مِنْ حَقِيقَةِ النَّبُوءَةِ .

الظاهرة فيغيركم على انحاء الحواس الخمس الظاهرة . وربما تفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع متاعها القوى الباطنية ، فتترك بإدراكها الروحاني ، لأنها مغطوة عليه . وتفتت من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المذكرة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة . والمحاكاة من هذه هي الحاجة للتغيير ، وتصرّفها بالتزجيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تترك من الذاكرة ما تتركه ، هي أضغاث أحلام وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان » ، وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه ، فالجلى من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التغيير من الملك وأضغاث الأحلام من الشيطان . لأنها كلها باطل ، والشيطان ينبوع الباطل .

هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم . وهي خواص للنفس الإنسانية موجودة في البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم . بل كل واحد من الأناس رأى في نومه ما صدر له في يقظته يراى غير واجبة ، وحصل له على القطع أن النفس مذكورة للغيب في النوم . ولا يد . وإذا جاز ذلك في عالم النوم فلا يمتنع في غيره من الأحوال ، لأن الذات الملوكة واجبة ، وتحواسها عامة في كل حال والله الهادي إلى الحق بمنه وقصده .

الكتيب ، ولما لفت هذا الروح الحيواني من بين المواد البتنية صار محلاً لأنوار الذات البتنية له في جسمانيته وهي النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته . وقد كنا قدّمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر وهو الحواس الخمس . وإدراك بالباطني ، وهو القوى الداعية . وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من قوائمها الروحانية التي هي مستعينة له بالقطرة . ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية ، كانت معرضة للوسوس والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتغشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك عن الصورة الكائنة ، ولما يكون ذلك بانحناس (١) الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ، ورجوعه إلى الجس الباطني ، ويحين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل ، فتطلب الحرارة الغريزية أحقاد البدن وتذهب من ظاهره إلى باطنه فتكون مشبعة مركبها وهو الروح الحيواني إلى الباطني ، ولذلك كان النوم للتغيير في القالب إنما هو بالليل . فإذا انحنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنية وحقت عن النفس شواغل الجس وموانعه ، ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتزجيب والتحليل صور خيالية ، وأكثر ما تكون متخاة لأنها منتزعة من المذكرات المتعاهدة قريباً ، ثم ينزلها الحسن المشترك الذي هو جامع الحواس

(فصل) ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي النَّوْءِ الْإِنْسَانِي
أَشْفَاصًا يُخْبِرُونَ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ وَقُوعِهَا بِطَبِيعَةِ
فِيهِمْ ، يَتَحَيَّرُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ ،
وَلَا يَرْجِعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى صِنَاعَةِ ، وَلَا يَسْتَعِينُونَ
عَلَيْهِ بِأَيِّ مِنَ النُّجُومِ ، وَلَا مِنْ غَيْرِهَا . إِنَّمَا نَجِدُ
مَدَارَ كُهُمْ فِي ذَلِكَ بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فُطِرُوا
عَلَيْهَا ، وَذَلِكَ بِثَلَاثِ الْمَرَاتِينِ ، وَالنَّاطِقِينَ فِي
الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَالْمَرْيَا وَطَبَاسِ الْمَاءِ ، وَالنَّاطِقِينَ
فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَتَجَادِيهَا وَعَظَامَهَا ، وَأَهْلُ
الزُّجُرِ فِي الطَّيْرِ وَالسَّيَاحِ ، وَأَهْلُ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى
وَالْحَبُوبِ ، مِنْ الْحَفَلَةِ وَالنَّوَى ، وَهَلْهَى كُلُّهَا
مَوْجُودَةٌ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ لَا يَتَسَعُّ أَحَدًا جَدُّهَا ،
وَلَا انْكَارُهَا . وَكَذَلِكَ الْمَجَابِينُ يَلْتَقَى عَلَى السَّنَنِ
كَلِمَاتٍ مِنَ الْقَيْبِ فَيُخْبِرُونَ بِهَا ، وَكَذَلِكَ النَّائِمُ
وَالْمَيِّتُ ، لِأَوَّلِ مَوْتِهِ أَوْ نَوْمِهِ يَتَكَلَّمُ بِالْقَيْبِ ،
وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيَاضِيَّاتِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ ، لَهُمْ
مَدَارُكَ فِي الْقَيْبِ عَلَى سَبِيلِ الْكَرَامَةِ مَعْرُوفَةٌ .
وَنَحْنُ الْآنَ نَتَكَلَّمُ عَنْ هَذِهِ الْأَفْرَاطِ كُلِّهَا ،
وَنَبْتَدِئُ مِنْهَا بِالْكَهَانَةِ ، ثُمَّ نَلْقَى عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهَا
وَنَقْدَمُ عَلَى ذَلِكَ مُقَدِّمَةً ، فِي أَنَّ النَّفْسَ
الْإِنْسَانِيَّةَ كَيْفَ تَسْتَعِدُّ لِذَلِكَ الْقَيْبِ فِي جَمِيعِ
الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا . وَذَلِكَ أَنَّهَا ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ
مَوْجُودَةٍ بِالْقُوَّةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الرُّوحَانِيَّاتِ كَمَا
ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلَ ، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ
بِالْيَدَيْنِ وَأَحْوَالِهِ ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوكٌ لِكُلِّ أَحَدٍ .
وَكُلُّ مَا بِالْقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ هَذِهِ النَّفْسُ الَّتِي
يَهَا يَتِمُّ وَجُودُهَا هُوَ حِينَ الْأَفْرَاطِ وَالْتِمَعُلِ ، لَهَا

(فصل) وَوَقُوعُ مَا يَتَعَلَّقُ لِلنَّفْسِ مِنْ ذَلِكَ
غَالِبًا ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا قُدْرَةٍ عَلَيْهِ .
وَإِنَّمَا تَكُونُ النَّفْسُ مُتَشَوِّقَةً لِذَلِكَ الشَّيْءِ ،
فَيَقَعُ لَهَا بِئِنَّكَ اللَّحْمَةُ فِي النَّوْمِ ، لِأَنَّهَا تَقْصِدُ
إِلَى ذَلِكَ فَتَرَاهُ . وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ «الْفَائِدَةِ»
وغيرِهِ مِنْ كِتَابِ أَهْلِ الرِّيَاضِيَّاتِ ذِكْرُ أَسْمَاءِ
تُذَكَّرُ عِنْدَ النَّوْمِ ، فَتَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا فِيمَا
يُتَشَوَّفُ إِلَيْهِ ، وَيُسَمَّوْنَهَا الْحَالُومِيَّةَ ، وَذَكَرَ مِنْهَا
مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ «الْفَائِدَةِ» حَالُومَةً سَمَّاهَا حَالُومَةُ
الطَّبَّاعِ النَّامِ ، وَهُوَ أَنَّ يُقَالُ عِنْدَ النَّوْمِ بَعْدَ
فَرَاغِ السَّرِّ ، وَصِيحَةِ التَّوَجُّهِ هَلِ الْكَلِمَاتِ الْأَعْجَبِيَّةِ
وَهِيَ : تَخَاصُ بِعَدَانِ يَمْسُودُ وَغَدَاسُ نَوْفُنَا غَادَسُ ،
وَيَذَكَّرُ حَاجَتَهُ ، فَإِنَّهُ يَرَى الْكُشْفَ حَمًّا يَسْأَلُ
عَنْهُ فِي النَّوْمِ .

وَحَكِي لَنَا رَجُلًا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةٍ لَيَالٍ
فِي مَا كَلِمَةٍ ، وَذَكَرَهُ فَتَمَثَّلَ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ ،
أَنَا طَبَّاعُ النَّامِ فَسَأَلَهُ وَالْخَبِيرُ حَمًّا كَانَ يَتَشَوَّفُ
إِلَيْهِ . وَقَدْ وَقَعَ لِي أَنَا بِهِدِي الْأَسْمَاءِ مَرَّةً عَجِيبَةً ،
وَأَطْلَعْتُ بِهَا عَلَى أُمُورٍ كُنْتُ أَتَشَوَّفُ عَلَيْهَا مِنْ
أَحْوَالِ . وَكَيْتَ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْقَصْدَ
لِلرُّؤْيَا يُجَدِّدُهَا ، وَإِنَّمَا هَذِهِ الْحَالُومَاتُ تُخْبِرُ
اِسْتِعْدَادًا فِي النَّفْسِ لَوُقُوعِ الرُّؤْيَا ، فَإِذَا قَوِيَ
الاسْتِعْدَادُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى حُصُولِ مَا يُسْتَعَدُّ لَهُ .
وَلِكُلِّشَخْصٍ أَنْ يَفْعَلَ مِنْ الِاسْتِعْدَادِ مَا أَحَبَّ ،
وَلَا يَكُونُ كَلِيلًا عَلَى لِفَاعِ الْمُسْتَعِدِّ لَهُ . فَالْقُدْرَةُ
عَلَى الِاسْتِعْدَادِ غَيْرُ الْقُدْرَةِ عَلَى الشَّيْءِ ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ
وَتَلَبَّثْ فِي مَا نَجِدُ مِنْ أَشْغَالِهِ ، وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

بالفعل ، وفيها صور التوجردات وحقايقها كما مر فتجلى فيها شيء من تلك الصور ، وتفتبس منها علوما ، وربما دعت تلك الصور المذركة إلى الخيال ، فيصرفه في القوالب المتعاقبة ، ثم يراجع الجس بما أدركت ، إما مجردا أو في قوالبه فتخير به . هذا هو شرح استبعاد النفس لهذا الإدراك القوي . ولنرجع إلى ما وقفنا به من بيان أضنافه .

فأما الناظرون في الأجسام الشفافة : من الترابيا ويطاس المياه وقلوب الحيوان وأجسادها وعظامها ، وأهل الطرق بالحصي والنوى ، فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضغف رتبة في أصل خلقهم ، لأن الكهان لا يتحاج في رفع حجاب الجس إلى كثير متاعاة . وهؤلاء يعانونه بالحصار المذرك الحسية كلها في نوع واحد منها ، وأشرها البصر فيعكتف على المرئي البسيط حتى يتنوله مذكره الذي يخبر به عنه . وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرأة ولكن كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرأة إلى أن يغيب عن البصر ، ويبنو فيما بينهم وبين سطح المرأة حجاب كأنه غمام يتنقل فيه صور ، هي مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفى أو إثبات ، فيخبرون بذلك على نحو ما أدرسوه .

وأما المرأة : وما يذرك فيها من الصور فلا يذركونه في تلك الحال . وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك ، وهو نفساني

فوجد أولا بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزيئية ، ثم يتم نشوؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن ، وما يعودها بمرود مذكراتها المحسوسة عليها ، وما تنتزع من تلك الأدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالفعل ، فتتم ذاتها وتبقى النفس كالمهيو والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة .

لذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يتغير على الإدراك الذي له من ذلها لا ينوم ولا يكشف ولا يغيرهما ، وذلك أن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم تتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات . ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بالآثار الجسدية تؤدبه إليها المذاريك البدنية ، وإدراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواسي وبشواغلها ، لأن الحواس أبدا جاذبة بها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولا من الإدراك الجسماني . وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة ، إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق ، مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر ، مثل الكهانة والطرق ، أو بالخاصية مثل أهل الكشف من الصوفية ، فتلقت حينئذ إلى اللواتي التي فرقها من الملا ، لما بين أغفها وأغفهم من الاتصال في الوجود ، كما قررنا قبل . وتلك اللواتي روحانية ، وهي إدراك مخض وعقول

لَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمُتَرَكِّبُ
النَّفْسَانِيُّ لِلْجَنَسِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا
يَتَعَرَّضُ لِلتَّأْطِيرِ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَاجْتِبَادِهَا ،
وَلِلنَّاطِرِينَ فِي الْمَاءِ وَالطَّلَاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ
شَاهَدْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَشْوِلُ الْجَسَّ بِالْبُحُورِ فَقَطَّ . ثُمَّ
بِالْفَرَائِمِ لِلِاسْتِعْدَادِ ، ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا أَذْرَكُ ، وَيَزْعُمُونَ
أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الصُّورَ مُتَشَخَّصَةً فِي الْهَوَاءِ تَحْكِي لَهُمْ
أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِدْرَاكِهِ بِالْيَتَالِ وَالْإِشَارَةِ ،
وَعَقِيَّةِ هَؤُلَاءِ عَنِ الْحَيِّسِ أَخْفَ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، هَؤُلَاءِ الْعَالَمُ
أَبُو الْفَرَائِمِ .

وَأَمَّا الزَّجَرُ : وَهُوَ مَا يَحْدُثُ ، مِنْ بَعْضِ النَّاسِ
مِنْ التَّكَلُّمِ بِالْقَبِيحِ عِنْدَ سُوحِ طَائِفٍ أَوْ حَيَوَانٍ ،
وَالْفِكْرُ فِيهِ بَعْدَ مَرَّيْنِ ، وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ
تَبْتَغِي عَلَى الْجُرْحِ وَالْفِكْرِ فِيمَا زَجَرِيهِ مِنْ مَرَّتَيْنِ
أَوْ مَسْمُوعٍ ، وَتَكُونُ قُوَّةُ الْمُخَيَّلَةِ كَمَا قَسَمْنَاهُ
قُوَّةً ، فَيَبْتَغِيهَا فِي الْبَحْثِ مُسْتَعِينًا بِمَا رَأَاهُ أَوْ سَمِعَهُ
فَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا ، كَمَا تَفْعَلُهُ الْقُوَّةُ الْمُتَخَيَّلَةُ
فِي النَّوْمِ ، وَعِنْدَ رُكُودِ الْحَوَاسِ إِذَا تَنَوَّسَتْ بَيْنَ
الْمَحْسُوسِ الْمَرْتَبِيِّ فِي يَفْقَظِهِ وَتَجَمُّعِهِ مَعَ مَا عَقَلَتْهُ
فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّيَا .

وَأَمَّا التَّجَنُّبَاتُ : فَنُفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ضَعِيفَةٌ
الَّتِي يَلْتَمِسُ بِالْبَدَنِ لِفَسَادِ أَمْرِجَتِهِمْ غَالِبًا وَضَعِيفِ
الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَعْرِفَةٍ
فِي الْحَوَاسِ ، وَلَا مُنْقِصَةٍ فِيهَا بِمَا شَكَّلَهَا فِي
نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ النَّفْسِ وَمَرَضِهِ . وَرُبَّمَا زَاوَمَهَا عَلَى
التَّعَلُّقِ بِهِ رُوحَانِيَّةٌ أُخْرَى شَيْطَانِيَّةٌ ، تَتَشَبَّثُ بِهِ
وَتَضَعُفُ هَلِيهِ عَنْ مُمَاتِجِهَا فَيَكُونُ عَنْهُ التَّخَيُّطُ ،

فَإِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ التَّخَيُّطُ ، إِنَّمَا لِفَسَادِ زَوَاجِهِ مِنْ
قَسَادٍ فِي ذَاتِهَا ، أَوْ لِمُزَاجَعَةٍ مِنَ النُّفُوسِ الشَّيْطَانِيَّةِ
فِي تَعَلُّقِهِ غَابَ عَنْ جِسْمِهِ جُمْلَةً ، فَأَذْرَكَ لَمَحَّةً
مِنْ عَالَمِ نَفْسِهِ وَانْطَلَعَ فِيهَا بَعْضُ الصُّورِ وَصَرَفَهَا
الْخَيَالُ . وَرُبَّمَا تَطَلَّقَ عَنْ لِسَانِهِ فِي بِلَاقِ الْحَالِ مِنْ
غَيْرِ إِزَادَةِ التَّطَلُّقِ .
وَإِذْرَاكُ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَشُوبٌ فِيهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ .
لَأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمُ الْاِتِّصَالُ وَإِنْ فَفَعَلُوا الْجَسَّ
إِلَّا بَعْدَ الاسْتِعَانَةِ بِالصُّورَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ .
وَمِنْ ذَلِكَ يَجِيءُ الْكُذِبُ فِي هَلِيهِ الْمَدَارِكِ .
وَأَمَّا الرَّافُونَ فَهُمْ الْمُتَعَلِّقُونَ بِهِذَا إِدْرَاكِ ،
وَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ الْاِتِّصَالُ ، فَيَسْلُطُونَ الْفِكْرَ عَلَى
الْأَمْرِ الَّذِي يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ ، وَيَتَأَخَّلُونَ فِيهِ بِالظَّنِّ
وَالتَّخْمِينِ ، بِنَاءً عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ مَبَادِيهِ
ذَلِكَ الْاِتِّصَالِ وَالْإِذْرَاكِ وَيَدْعُونَ بِذَلِكَ مَعْرِفَةً الْغَيْبِ
وَلَيْسَ مِنْهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ .

هَذَا تَخْصِيلُ هَلِيهِ الْأُمُورِ (١) . وَقَدْ تَكَلَّمْتُ عَلَيْهَا
«الْمَسْعُودِي» فِي «مَرْجِ الدَّهَبِ» فَمَا صَادَقَ تَخْفِيفًا
وَلَا إِصَابَةً ، وَيُظَاهَرُ مِنْ كَلَامِ الرَّجُلِ أَنَّهُ كَانَ
بَعِيدًا عَنِ الرُّسُوحِ فِي الْمَعَارِفِ فَتَقَلَّ مَا سَمِعَ
مِنْ أَهْلِهِ وَتَوَنَّى غَيْرَ أَهْلِهِ . وَهَلِيهِ الْإِذْرَاكَاتُ الَّتِي
ذَكَرْنَاهَا مَوْجُودَةٌ كُلُّهَا فِي نَوْعِ الْبَشَرِ . فَقَدْ
كَانَ الْقَرَبُ يَقْرَعُونَ إِلَى الْكُهَّانِ فِي تَعَرُّفِ الْحَوَادِثِ
وَيَتَنَاقَرُونَ إِلَيْهِمْ فِي الْخُصُومَاتِ ، لِيُعَرِّفُوهُمْ
بِالْحَقِّ فِيهَا مِنْ إِدْرَاكِ غَيْبِهِمْ . وَفِي كُتُبِ أَهْلِ

(١) يان أمود الكهان والرافين ومدعى النظر في التنبه

من سبق حديثهم .

النطق ، وعَاقِبَتُهُ أَنْ يَسْمَهُ وَيَقْمَهُ . وَكَذَلِكَ
يَصْلُرُ عَنْ الْمُتَوَلِّينَ حَيْثُ مُفَارَقَةُ رُؤُوسِهِمْ وَأَوْسَاطِ
أَبْدَانِهِمْ كَلَامٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَلَقَدْ بَلَّغْنَا عَنْ
بَعْضِ الْجَبَابِرَةِ الظَّالِمِينَ : أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ
أَشْخَاصًا ، لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ حَيْثُ الْقَتْلُ
عَوَاقِبُ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَظْلَمُوهُمْ بِمَا يُسْتَبْشَعُ .
وَذَكَرَ مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ «الغَايَةِ» لَهُ فِي مِثْلِ
ذَلِكَ : أَنَّ آدَمِيًّا إِذَا جُعِلَ فِي دَنٍّ مَثْلُوهُ يَدْفِنُ
السَّمِيمَ ، وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، يُغْلَى
بِالنَّيْنِ وَالْجُوزِ حَتَّى يَنْقَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ
إِلَّا الْعُرْقُ وَتَشْوُونَ رَأْسَهُ ، فَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ
الذَّنِّ فَحِينَ يَجُفَّ عَلَيْهِ الْهَوَاءُ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ
شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ
وَهَذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاجِيرِ أَعْمَالِ السَّحَرَةِ ، لَكِنْ يَفْهَمُ
مِنْهُ عَجَائِبُ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحَاوِلُ حُصُولَ هَذَا الْمُلْكِ الْغَيْبِيِّ
بِالرِّيَاضَةِ . فَيَحَاوِلُونَ بِالْمُجَاهَدَةِ مَوْتَاجِنًا بِإِمَانَةٍ
جَمِيعِ الْقُوَى الْبَنِيَّةِ ، ثُمَّ مَخْرُجًا رَأْسَهُ الْيَسْرَ فَيَلْوِثُ
بِهَا النَّفْسَ ، ثُمَّ تَقْلِبُهَا بِالذِّكْرِ لِيَزْدَادَ قُوَّةً فِي
فِي تَنْشِئَتِهَا ، وَيَحْصُلُ ذَلِكَ بِجَمْعِ الْفِكْرِ وَتَكَرُّرِ
الْجُوعِ . وَمِنْ الْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ
الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ ، ذَهَبَ الْحَيُّ وَحُجَابُهُ ، وَاطْلَعَتِ
النَّفْسُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّيَاضَةِ
السَّحَرِيَّةِ : يَرْتَاضُونَ بِذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الْإِلَاحُ
عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ فِي الْعَالَمِ . وَكَثُرَ
هَؤُلَاءِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُتَعَرِّقَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا

الْأَدَبِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَاشْتَهَرَ مِنْهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ :
يُسُقُ بْنُ أَنَسَارِ بْنِ زِيَارٍ ، وَطَطِيحُ بْنُ مَارِزٍ بْنِ
هَسَانَ ، وَكَانَ يَدُوجُ كَمَا يَدُوجُ الْقُوبُ ، وَلَا
عَظْمَ فِيهِ إِلَّا الْجَنْجَمَةُ . وَمِنْ مَشْهُورِ الْحِكَايَاتِ
حَتْمَا : تَأْوِيلُ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ مَسْرُومًا أَخْبَرَاهُ
بِهِ مِنْ مُلْكِ الْحَقِيقَةِ لِلْبَيْتِ ، وَمُلْكِ مَضَرَ مِنْ
بَقْلِهِمْ ، وَظُهُورِ النَّبُوَّةِ الْمُحَلِّيَّةِ فِي قُرَيْشٍ ،
وَرُؤْيَا التُّوَيْدَانَ النَّبِيِّ أَوْلَاهَا سَلِيحُ ، لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِ
بِهَا كِسْرَى عِنْدَ الْمَسِيحِ ، فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِ النَّبُوَّةِ
وَتَخَرَّابِ مُلْكِ فَارِسَ ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مَشْهُورَةٌ .
وَكَذَلِكَ الرُّعَاثُونَ : كَانَ فِي الْعَرَبِ مِنْهُمْ كَثِيرٌ
وَذَكَرُوهُمْ فِي أَشْعَارِهِمْ قَالَ (الشاعر) :

فَقُلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ ذَاوِنِي
فَلِنَاكَ إِنْ ذَاوَيْتَنِي لَعَلِّيَبُ
وقال الآخر :

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ

وَعَرَّافُ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفِيَايَ
فَقَالَ : شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَا لَنَا
بِمَا حَمَلْتُ مِنْكَ الضَّلُوعَ يَدَانِ
وَعَرَّافُ الْيَمَامَةِ : هُوَ رِيَّاحُ بَنٍ عِجْلَةٍ . وَعَرَّافُ
نَجْدٍ : الْأَبْلَقُ الْأَسَدِيُّ .
وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمَدَارِكِ النَّبِيِّيَّةِ مَا يَصْلُرُ لِبَعْضِ
النَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْبَقْظَةِ ، وَالتَّجَاسُّعِ بِالنُّومِ
مِنْ الْكَلَامِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا
يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ . وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ
إِلَّا فِي مَبَادِي النُّومِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْبَقْظَةِ وَذَهَابِ
الْإِخْتِيَارِ فِي الْكَلَامِ ، فَيَتَكَلَّمُ كُلُّهُ مَجْبُولٌ عَلَى

حُصُوصًا بِلَادِ الْهِنْدِ، وَيُسَمُّونَ هُنَالِكَ الْحُرُوكَةَ (١)، وَلَهُمْ كُتُبٌ فِي كَيْفِيَةِ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ وَالْأَخْبَارُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ .
وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفُ: فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَعَرَبِيَّةٌ (٢) عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْمَتَّوَمَةِ . وَإِنَّمَا يَقْصِدُونَ جَنَعَ الْهَمِّ وَالْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ بِالْكَلِيَّةِ، لِيَحْصَلَ لَهُمْ أَذْوَاقُ أَهْلِ الْإِرْفَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَيَزِيدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى الْجَنَعِ وَالْجُوعِ، الثَّقَلِيَّةِ بِالدُّكْرِ، فَبِهَا تَتِمُّ وَجْهَتُهُمْ فِي هَذِهِ الرِّيَاضَةِ . لِأَنَّهُ إِذَا نَشَأَتِ النَّفْسُ عَلَى الدُّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْإِرْفَانِ بِاللهِ .
وَإِذَا عَرِيتْ عَنِ الدُّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً . وَحُصُولُ مَا يَحْصُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ لِهَوَاهِ الْمُتَصَوِّفِ إِنَّمَا هُوَ بِالْفَرَضِ، وَلَا يَكُونُ مَقْصُودًا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ، لِأَنَّهُ إِذَا قَصِدَ ذَلِكَ كَانَتْ الرِّجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ التَّصَرُّفِ وَالْإِطْلَاقِ عَلَى الْغَيْبِ، وَأَخِيرُ بِهَا صَفَقَةٌ فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ شِرْكٌ . قَالَ بَعْضُهُمْ «مَنْ أَتَى الْإِرْفَانَ لِلْإِرْفَانِ عَفَقَ قَالَ بِالثَّانِي» فَهُمْ يَقْصِدُونَ بِوَجْهَتِهِمُ الْمُتَبَوِّذَ لِلثَّانِي سِوَاهُ . وَإِذَا حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَحْصُلُ قَبْلَ الْفَرَضِ وَغَيْرُ مَقْصُودٍ لَهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقْرَأُ مِنْهُ إِذَا عَرَّضَ لَهُ، وَلَا يَحْصُلُ بِهِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِذَلِكَ لَا لِغَيْرِهِ . وَحُصُولُ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْرُوفٌ وَيُسَمُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَالْحَقِيقَةِ عَلَى الْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكَشْفًا، وَمَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ

كِرَامَةً، وَكَيَسَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بِتَكْبِيرِ فِي حَقِّهِمْ . وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى إِنْكَارِهِ الْأُسْتَاذ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَيْنِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمَالِكِيُّ فِي آخِرِينَ، فَرَأَوْا مِنْ التَّيَاسُ الْمُعْجَزَةِ بِغَيْرِهَا . وَالْمَعُولُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ التَّفَرُّقِ بِالتَّحَلُّيْ فَهُوَ كَافٍ . وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «إِنْ فِيكُمْ مُحَلِّثِينَ وَإِنْ مِنْهُمْ عَمَرٌ»، وَقَدْ وَفَّقَ لِلصَّحَابَةِ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعُ مَعْرُوفَةٌ، تَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِإِسَارَةِ الْجَبَلِ . وَهُوَ سَارِيَّةُ بْنُ زَيْنِمَ كَانَ قَائِدًا عَلَى بَعْضِ جَبُوشِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِزَاقِ أَيَّامَ الْفُتُووحَاتِ، وَتَوَرَّطَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَعْرِكَ وَهُمْ بِالْأَنْوَارِ، وَكَانَ بِقُرْبِهِ جَبَلٌ يَتَحَيَّرُ إِلَيْهِ، فَرَفَعُ لِعَمَرِ ذَلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ، فَذَادَهُ بِإِسَارَةِ هُنَالِكَ الْجَبَلِ وَسَمِعَهُ سَارِيَّةً وَهُوَ بِمَكَانِهِ، وَرَأَى شَخْصَهُ وَالْقِصَّةَ مَعْرُوفَةٌ . وَوَقَعَ مِثْلُهُ أَيْضًا لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ عَائِشَةَ ابْنَتَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي شَأْنٍ مَا نَحَلَهَا (١) مَنْ أَوْشَقَ الشَّرَّ مِنْ حَلِيقَتَيْهِ، ثُمَّ نَبَّهَهَا عَلَى جَدَائِهَا (٢) لَتَحْزُوهُ عَنِ الْوَرْدِ، فَقَالَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ : وَإِنَّمَا هُمَا أَحْوَاكُ وَأَخْثَاكُ، فَقَالَتْ إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَعَنِ الْأُخْرَى، فَقَالَ : إِنْ ذَا بَطْنُ بَنَاتٍ خَارِجَةٍ أَوَّامًا جَارِيَةً فَكَأَنَّتُ جَارِيَةً . وَقَعَ فِي الْمَوْطِئِ فِي بَابِ مَا لَا يَجُوزُ مِنَ النُّحْلِ . وَيَمْتَلُ

(١) أصناما .

(٢) نمله .

(٣) زوجة لي بكر . وقد تنها بأن ما تحمله سيكون جارية .

لي بنتا .

(١) يلعب د . وفي في منشورته إلى أن صواب هذه الكلمة هو «الوجبة» نسبة إلى الرياضة المروقة «الوجبة» . انظر ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) عناية بها .

التكاليف لإصلاح معاديه ، وليس من فقد عليه الصفة بفقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته ، فيكون موجود الحقيقة معلوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش ولا استحالة في ذلك ولا يتوقف اضطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكليف. وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلقى حال هؤلاء بالمجانين الذين تغش نفوسهم الناطقة ، ويتخفون بالجهل . ولك في تمييزهم علامات منها : أن هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما ، لا يحظون عنها أصلاً من ذكر وعبادة ، ولكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف ، والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلاً . ومنها أنهم يحفون على البله من أول نشأتهم ، والمجانين يعرض لهم الجنون بقلة مدة من العمر لعوارض بتيبة طبيعية ، فإذا عرس لهم ذلك وقسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة . ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر لأنهم لا يتوقفون على إذن لعدم التكليف في حقهم ، والمجانين لا تصرف لهم . وهذا فضل انتهى بنا الكلام إلى والله المرشد للصواب .

(فضل) وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للتب من دون خيبة عن الحس . فينهم المنجسون : القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في القللك وانارها في العناصر ، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالناظر ، ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهوا . وهؤلاء المنجسون ليسوا من القبي في شيء ، إنما من

هذه الواقع كثيرة لهم ، ونحن بمقتضى من الصالحين ، وأهل الإقيداء . إلا أن أهل التصوف يقولون : إنه يقل في زمن النبوة ، إذ لا يتنى للمريد حالة بحضرة النبي ، حتى إنهم يقولون : إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حالة ما دام فيها حتى يفارقها ، والله يرزقنا الهداية ويرزقنا إلى الحق .

ومن هؤلاء المرشدين من المتصوفة : قوم بهاليل معشورون أشبه بالمجانين من العقلاء ، وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، وعلم ذلك من أحوالهم من يتهم عنهم من أهل الذوق ، مع أنهم غير مكلفين ويتق لهم من الأخبار عن المنيبات عجائب ، لأنهم لا يتفقدون بشيء فيطوفون كلامهم في ذلك ، ويتلون منه بالمعجائب . وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات ، لما يرون من سقوط التكليف عنهم ، والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط ، فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها .

وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود ، قاله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه ، وهؤلاء لم تعلم نفوسهم الناطقة ، ولا قسدت كمال المجانين . وإنما فيد لهم العقل الذي ينام . به التكليف وهي صفة خاصة للنفس ، وهي علوم ضرورية للإنسان يشدبها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامته منزله . وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامته منزله لم يتق له عثر في قبول

وَيَزَعُمُونَ أَنَّ أَصْلَ ذَلِكَ مِنَ النَّبُوءَاتِ الْقَدِيمَةِ فِي الْعَالَمِ، وَبِمَا نَسَبُوهُمَا إِلَى ذَاتِهَا أَوْ إِلَى إِدْرِيسَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا شَأْنِ الصَّنَاعِ كُلِّهَا. وَبِمَا يَدْعُونَ مَشْرُوعِيَّتَهَا وَيَحْتَجُونَ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَمَنْ وَاَفَّقَ خَطَّهُ قَدْ كَانَ» وَكَيْسَرٌ فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ خَطِّ الرَّمْلِ كَمَا يَزَعُمُهُ بَعْضُ مَنْ لَا تَحْصِيلَ لَدَيْهِ، لِأَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ، فَيَأْتِيهِ الْوَحْيُ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَطِّ، وَلَا اسْتِحْكَالَ فِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَادَةً لِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ، فَمَنْ وَاَفَّقَ خَطَّهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ فَهُوَ ذَلِكَ، أَيْ فَهُوَ صَحِيحٌ مِنْ بَيْنِ الْخَطِّ، بِمَا عَصَدَهُ مِنَ الْوَحْيِ لِلْمَلِكِ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَتْ عَادَتُهُ أَنْ يَأْتِيَهُ الْوَحْيُ عِنْدَ الْخَطِّ. وَأَمَّا إِذَا أُخِذَ ذَلِكَ مِنَ الْخَطِّ مُجَرَّدًا مِنْ غَيْرِ مَوَاقِفٍ وَحْيٍ فَلَا، وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِذَا أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ مُتَبَيِّنٍ يَزَعُمُهُمْ عَمَلُوا إِلَى فِرْعَاسٍ أَوْ رَمْلٍ أَوْ ذِكْيَظٍ فَوَضَعُوا النِّقْطَ سَطْرًا عَلَى عِلْدِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ ثُمَّ كَرَّرُوا ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَتَجَّى بِنْتُهُ عَشْرَ سَطْرًا، ثُمَّ يَطْرَحُونَ النِّقْطَ أَرْوَاجًا وَيَضَعُونَ مَا بَقِيَ مِنْ كُلِّ سَطْرِ زَوْجًا كَانَ أَوْ قَرْدًا فِي مَرْتَبَتِهِ عَلَى التَّرْتِيبِ، فَتَجَّى أَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ، يَضَعُونَهَا فِي سُطُورٍ مُتَنَالِيَةٍ ثُمَّ سَطُورٌ يُوَلَّدُونَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ أُخْرَى مِنْ جَانِبِ الْقَرَضِ بِاعْتِبَارِ كُلِّ مَرْتَبَةٍ وَمَا قَابَلَهَا مِنَ الشَّكْلِ بِإِزَائِيَةٍ، وَمَا يَخْتَجُّ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ قَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَةُ أَشْكَالٍ مَوْضُوعَةٌ فِي سَطْرِ، ثُمَّ يُوَلَّدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلًا بِاعْتِبَارِ مَا يَجْتَجُّ

ظُنُونٌ حَلِيبِيَّةٌ، وَتَخْصِيصَاتٌ مُتَبَيِّنَةٌ عَلَى التَّلَافِيهِ النُّجُومِيَّةِ وَحُصُولُ الْمَزَاجِ مِنْهُ لِلْهَوَاءِ، مَعَ مَزِيدِ حَتْمٍ يَفِئُ بِهِ النَّظَرُ عَلَى تَفْصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْعَالَمِ، كَمَا قَالَ بَطْلَيْمُوسُ. وَتَحْنُ نُبَيْنٌ بَطْلَانٌ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ: وَهُوَ لَوْ نَبَتْ فَعَالِيهِ حَدَسٌ وَتَحْمِينٌ، وَلَيْسَ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَةِ: اسْتَنْبَطُوا اسْتِخْرَاجَ النَّبِيِّ وَتَعَرَّفُوا الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةَ سَمُوحًا: خَطِّ الرَّمْلِ، نِسْبَةً إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا عَمَلَهُمْ. وَمَحْصُولُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّهُمْ صَيَّرُوا مِنَ النِّقْطِ أَشْكَالًا ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبٍ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الزَّوْجِيَّةِ وَالْقَرْدِيَّةِ وَاسْتِوَانِهَا فِيهِمَا، فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا، لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ أَرْوَاجًا تَكَلَّهَا أَوْ أَرَادَا كُلَّهَا فَتَشْكَالَنَ. وَإِنْ كَانَ الْقَرْدُ فِيهِمَا فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطَّ قَارِبَتُهُ أَشْكَالًا. وَإِنْ كَانَ الْقَرْدُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ فِسْتَةُ أَشْكَالٍ. وَإِنْ كَانَ فِي ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ قَارِبَتُهُ أَشْكَالًا جَاءَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا مِيزُومًا كُلُّهَا بِأَسْمَائِهَا وَأَنْوَاعِهَا إِلَى سُعُودٍ وَنُحُوسٍ شَأْنِ الْكَوَاكِبِ، وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتًا طَبِيعِيَّةً يَزَعُمُهُمْ وَكَتَبَهَا الْبُرُوجُ الْاِثْنَا عَشَرَ الَّتِي لِلْفَلَكَ وَالْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةِ. وَجَعَلُوا لِكُلِّ شَكْلٍ مِنْهَا بَيْتًا وَتَحْطُومًا وَدِلَالَةً عَلَى صِنْفٍ مِنْ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ التَّصَاوِيرِ يَخْتَصُّ بِهِ، وَاسْتَنْبَطُوا مِنْ ذَلِكَ قَنَّا حَادَا يَوْفَنُ الشَّجَامَةِ وَتَوْزَعُ قَضَائِهِ، إِلَّا أَنَّ أَحْكَامَ الشَّجَامَةِ مُسْتَعْدِلَةٌ إِلَى أَوْضَاعٍ طَبِيعِيَّةٍ كَمَا يَزَعُمُ بَطْلَيْمُوسُ. وَهَلِيزَ إِثْمًا مُسْتَعْدِلَتَا أَوْضَاعٍ تَحْكِيمِيَّةٍ وَأَفْوَاهُ اتِّفَاقِيَّةٍ، وَلَا دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا.

معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تُفِيده ذلك
فهذه من القول والعمل ، والله يهدي من يشاء .
والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها أهل
هذا الإدراك القبيبي : أنهم عند توجيههم إلى
تعريف الكائنات يتعربهم خروج عن حالتهم
الطبيعية ، كالتأوب والتسطط ومبادئ الغيبة
عن الحس ، ويتخلف ذلك بالقوة والضعف
على اختلاف وجوهرها فيهم ، فمن لم توجد له
هذه العلامة فليس من إدراك الغيب في شيء وإنما
هو ساع في تنقيح (١) كذبه .

ومنه طوائف : يصفون قوانين لاستخراج
الغيب ليست من الطور الأول الذي هو من مدارك
النفس الروحانية ، ولا من الحدس المبني على
تأثيرات النجوم ، كما زعمه بطليموس ، ولا
من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون .
وإنما هي مغالطة يجعلونها كالمصائد لأهل
المقول المنتظمة . وكنت أذكر من ذلك إلا
ما ذكره المصنفون وولع به الخواص .

فمن تلك القوانين : الحساب الذي يسمنه حساب
النيم ، وهو مذكور في آخر كتاب « السباسة »
المشوب لأرسطو ، يعرف به الغائب من المطلوب في
المتحارين من الملوك ، وهو أن تحسب الحروف التي
في اسم أحدهما بحساب الجملة ، المصطلح عليه
في حروف أبجد من الواجد إلى الألف أحاداً
وعشرات ومئات وألوفاً . فإذا حسبت الاسم
وتحصل لك منه عدد ، فاحسب اسم الآخر

في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً ، من
دوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها . ثم
يؤخذون من الأربعة شكلين كذلك تحتها من
الشكلين شكلاً كذلك ، تحتهما . ثم من
هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول
شكلاً يكون آخر الستة عشر ، ثم يحكمون على
الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعادة
والنحوسة بالذات ، والنظر والحول والامتزاج ،
والدلالة على أصناف الموجودات وتأثير ذلك ،
تحكماً قريباً .

وكررت هذه الصناعة في العرمان ، ووضعت
فيها التاليف ، واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين
والمتأخرين ، وهي كما رأيت تحكماً وهوى .
والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكره
أن الغيب لا تدرك بصناعة البتة . ولا سبيل
إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفقورين
على الرجوع من عالم الحس إلى عالم الروح .
ولذلك يسمى المتجمون هذا الصنف كلهم
بالتزهرين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة ،
بزعيمهم في أصل موابليهم على إدراك الغيب .
فالخط وغيره من هذه إن كان الناظر فيه من
أهل هذه الخاصية ، وقصد بهذه الأمور التي
ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها ، إشغال
الحس ليرجع النفس إلى عالم الروحانيات لخط
ما ، فهو من باب الطرق بالصقي والنظر
في قلوب الحيوانات ، والرميا الشفاقة ، كما
ذكرناه . وإن لم يكن كذلك ، وإنما قصد

كذلك ، ثم طرح من كل واحد منهما تسعة ،
تسعة ، وأحفظ بقية هذا وبقيته هنا ، ثم انظر
بين العديتين الباقيتين من حساب الاسمين ، فإن
كان العددين مختلفين في الكمية ، وكانا مآ زوجتين ،
أو فردتين مآ فصاحب الأقل منهما هو الغالب ،
وإن كان أحدهما زوجا والآخر فردا فصاحب
الأكثر هو الغالب ، وإن كانا متماويين في
الكمية وهما مآ زوجان فالمتلوب هو الغالب ،
وإن كانا مآ فردتين فالغالب هو الغالب . ويقال
هناك بيتان في هذا العمل اشتغرا بين الناس
وهما :

أرى الزوج والأفراد يسمو أقلها
وأكثرهما عند التحاليل غالب
ويغلب مغلوب إذا الزوج يستوى
وعند اشتوا الفرد يغلب طالب
ثم وصعوا لمعرفة ما بقى من الحروف بعد طرحها
بتسعة قانونا معروفا عندهم في طرح تسعة :
وذلك أنهم جمعو الحروف الدالة على الواحد في
الترتيب الأربع ، وهي (١) الدالة على الواحد
و (٢) الدالة على العشرة ، وهي واحد في مرتبة
العشرات ، و (٣) الدالة على المائة ، لأنها واحد في
مرتبة المئين و (٤) الدالة على الألف ، لأنها واحد
في مرتبة الآلاف وليس بعد الألف عدد يدل عليه
بالحروف لأن الشين هي آخر حروف أبجد .
ثم رتبوا هذه الأحرف الأربعة على تسعة المراتب ،
فكان فيها كلمة رباعية وهي : أبش ، ثم فعلوا
ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب

الثلاث وأنسطوا مرتبة الآلاف منها ، لأنها كانت
آخر حروف أبجد ، فكان مجموع حروف اثنين في
المراتب الثلاث ثلاثة حروف ، وهي : (ب) الدالة
على اثنين في الآحاد ، و (ك) الدالة على اثنين في
العشرات وهي عشرون ، و (ر) الدالة على اثنين في
المئين وهي مائتان وصبروها كلمة واحدة ثلاثية
على تسعة المراتب وهي : بكر . ثم فعلوا ذلك
بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة
« جلس » ، وكذلك إلى آخر حروف أبجد ،
وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي
(أبش ، بكر ، جلس ، دمت ، هنت ، و صخ ،
زهد ، حط ، طضع) مرتبة على قول الأعداد ،
وكل كلمة منها عددا الذي هي في مرتبته ،
فالواحد لكلمة « أبش » ، والثاني لكلمة
« بكر » ، والثلاثة لكلمة « جلس » ، وكذلك إلى
التاسعة التي هي : طضع ، فتكون لها التسعة .

فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل
حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات ،
وأخذوا عددا مكانه ثم جمعو الأعداد التي
يأخذونها بدلا من حروف الاسم ، فإن كانت
زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها ، وإلا
أخذوه كما هو ، ثم يفعلون كذلك بالاسم
الآخر ، وينظرون بين الخارجين بما قدمناه
والسر في هذا بين ، وذلك أن الباقي من كل عدد من
هذه الأعداد يطرح تسعة ، إنما هو واحد
فكانه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة
فصارت أعداد العقود كلها آحاد ، فلا فرق بين

وَهُلِوْ كُلُّهَا مَدَارُكَ لِلغَيْبِ غَيْرَ مُسْتَعِدَّةٍ إِلَى
بُرْهَانٍ وَلَا تَحْقِيقٍ ، وَالْكِتَابُ الَّذِي وُجِدَ فِيهِ
حِسَابُ النِّمِ غَيْرَ مَعْرُوفٍ إِلَى أَرْسَلُوا عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ
لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَرَاءِ الْبَعِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ وَالْبُرْهَانِ .
يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ نَصْفُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ
الرُّسُوحِ .

وَمِنْ هَلِوِ الْقَوَاتِبِ الصَّنَاعِيَّةِ لِاسْتِخْرَاجِ
الْغَيْبِ فِيمَا يَزْعُمُونَ ، « الزَّائِرَجَةُ » ، « الْمُسَامَةُ » ، « بَرَابِرَجَةُ »
الْعَالِمِ « الْمَعْرُوفَةُ إِلَى أَبِي الْعِيَّاسِ : سَيِّدِي أَحْمَدُ
السَّبَّحِيُّ مِنْ أَعْلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ بِالْمَغْرِبِ ، كَانَ
فِي آخِرِ الْجَانَةِ السَّادِسَةِ بِمَرَاكِشَ ، وَلِهَذَا هَدَى أَبِي
يَتَقَوَّبُ الْمُتَصَوِّفَ مِنْ مُلُوكِ الْمُوحِدِينَ . وَهِيَ
غَرِيبَةُ الْعَمَلِ صِنَاعَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِّ يُولَعُونَ
بِفَادَةِ الْغَيْبِ مِنْهَا بِتَحْلِيلِهَا الْمَعْرُوفِ الْمَلْعُوفِ (١) ،
فَيَحْرُصُونَ بِذَلِكَ عَلَى حُلِّ رَمْزِهِ ، وَكَشْفِ غَايِهِ
وَصُورَتِهَا الَّتِي يَنْقُصُ الْعَمَلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا دَائِرَةُ عَظِيمَةٌ ،
دَاخِلُهَا دَوَائِرُ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاقِ وَالْعُنَاصِرِ ، وَالْمُكُونَاتِ
وَالرُّوحَانِيَّاتِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ
وَالْعُلُومِ .

وَكُلُّ دَائِرَةٍ مَقْسُومَةٌ بِإِقْسَامٍ فَلِكُلِّهَا إِمَّا
الْبُرُوجُ ، وَإِمَّا الْعُنَاصِرِ أَوْ غَيْرُهَا ، وَخَطُوطُهُ
كُلُّ قِسْمٍ مَادَّةٌ إِلَى الْمَرْكَزِ ، وَيُسَمَّوْنَهَا الْأَوْتَارَ ،
وَعَلَى كُلِّ وَتَرٍ حُرُوفٌ مُتَابِعَةٌ مَوْضُوعَةٌ ، فَمِنْهَا
يُؤْثَرُ الرِّثْمَامُ الَّتِي هِيَ أَشْكَالُ الْأَعْيَادِ عِنْدَ
أَهْلِ الدَّوَابِّ وَالْحِسَابِ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا التَّهْدِي .

الْإِثْنَيْنِ وَالْعَشْرِينَ وَالْأَلْفَيْنِ ، وَكُلُّهَا اثْنَانِ
وَكُلُّ ذَلِكَ الثَّلَاثَةُ وَالْثَلَاثُونَ وَالْثَلَاثِينَ وَالْثَلَاثَةُ الْأَلْفُ ،
كُلُّهَا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ قَوْصِيَّتِ الْأَعْيَادِ عَلَى التَّوَكُّلِ
دَالَّةٌ عَلَى أَصْنَافِ الْقُودِ لِغَيْرِ ، وَتَجَلَّتِ الْحُرُوفُ
الدَّالَّةُ عَلَى أَصْنَافِ الْقُودِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْأَحَادِ
وَالْعَشْرَاتِ وَالْمِائِينَ وَالْأَلْفِ (١) ، وَصَارَتْ عِنْدَ
الْكَلِمَةِ الْمَوْضُوعِ عَلَيْهَا ، نَائِبًا عَنْ كُلِّ حَرْفٍ فِيهَا
سِوَاهُ دَلٌّ عَلَى الْأَحَادِ أَوْ الْعَشْرَاتِ أَوْ الْمِائِينَ ،
فَيُؤْخَذُ عِنْدَ كُلِّ كَلِمَةٍ مَوْضَعًا مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي
فِيهَا ، وَتُجْمَعُ كُلُّهَا إِلَى آخِرِهَا كَمَا قُلْنَا ، هَذَا
هُوَ الْعَمَلُ الْمُتَدَاوِلُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْذُ الْأَمْرِ الْقَدِيمِ ،
وَكَانَ يَغْنُصُ مِنْ لَقِينَاهُ مِنْ شَيْوَحْنَا يَرَى أَنَّ
الصَّحِيحَ فِيهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى يَسَعُ مَكَانَ هَلِوِ ،
وَمُتَوَابِلَةٌ كَقَوْلِهَا ، وَيَقْعَلُونَ بِهَا فِي الطَّرَحِ
بِنِسْفَةٍ مِثْلُ مَا يَقْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سِوَاهُ وَهِيَ هَلِوِ :
(أرب ، يسفك ، جزاط ، موص ، هف ،
تحذن ، عش ، خع ، ثضط) يَسَعُ كَلِمَاتٌ عَلَى
تَوَالِي الْعَدَدِ ، وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ عِنْدَهَا اللَّيْ فِي
مَرْتَبَتِهِ فِيهَا الثَّلَاثِي وَالرَّبَاعِي وَالْخَمْسِي وَالسَّادِسِي
عَلَى أَصْلِهِ مُطَرَّدٌ كَمَا تَرَاهُ . لَكِنْ كَانَ شَيْوَحْنَا
يَنْغَلِقُونَهَا عَنْ شَيْخِ الْمَغْرِبِ فِي هَلِوِ الْمَعْرُوفِ مِنَ
السَّيْمِيَّاهِ ، وَأَسْرَارِ الْحُرُوفِ وَالنَّجَامَةِ ، وَهُوَ
أَبُو الْعِيَّاسِ بْنُ الْبَنَاءِ ، وَيَقُولُونَ عَنْهُ : إِنَّ الْعَمَلَ
بِهَلِوِ الْكَلِمَاتِ فِي طَرَحِ حِسَابِ النِّمِ أَصَحُّ مِنْ
الْعَمَلِ بِكَلِمَاتِ « أَيْقَش » ، وَأَنَّهُ يَتَلَمَّزُ كَيْفَ ذَلِكَ .

(١) فِي هَلِوِ الْأَصْلِ : تَوَكُّلٌ وَالْأَوَّلُ فِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّ الْحُرُوفَ
لَيْسَ فِيهَا مَا يَهْدِي مِنَ الْأَلْفِ حَتَّى فِي كَلِمَةٍ .

وَمِنْهَا بِرُشُومِ الثَّيَابِ الْمُتَعَارِفَةِ فِي دَاخِلِ «الزَّائِرِجَةِ» .
وَبَيْنَ الدَّوَائِرِ أَسْمَاءُ الْعُلُومِ وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ ،
وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَائِرِ جُذُودٌ مُتَكَثَرَةُ الْبَيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ
طَوَّلًا وَعَرَفَاضًا ، يَشْتَمِلُ عَلَى غَضَمَةٍ وَخَمْسِينَ بَيْتًا
فِي الْعَرْضِ ، وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَقَلِيلَيْنِ فِي الطَّوْلِ ،
جَوَانِبُ مِنْهُ مَعْمُورَةٌ الْبَيُوتِ تَارَةً بِالْعَدَدِ وَآخَرَى
بِالْحُرُوفِ ، وَجَوَانِبُ خَالِيَةٌ الْبَيُوتِ . وَلَا تَنْلَمُ
نِسْبَةً تِلْكَ الْأَعْدَادُ فِي أَوْضَاعِهَا ، وَلَا الْقِسْمَةُ الَّتِي
حِينَئِذٍ الْبَيُوتِ الْعَامِرَةِ مِنَ الْخَالِيَةِ ، وَخَافَتُ
الزَّائِرِجَةَ أَبْيَتًا مِنْ عَرُوضِ الطَّوِيلِ (١) عَلَى رِوَايِ
الْأَمِّ الْمَنْصُوبَةِ ، تَتَقَسَّمُ صُورَةُ الْعَمَلِ فِي
اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّائِرِجَةِ ، لِأَنَّهَا
مِنْ قِبَلِ الْإِغْلَازِ فِي عِلْمِ الْوُضُوحِ وَالْعَلَاهِ .
وَقَدْ بَقِيَ جَوَانِبُ الزَّائِرِجَةِ بَيِّنٌ مِنَ الشَّعْرِ
مُنْسُوبٌ لِبَعْضِ أَكْبَارِ أَهْلِ الْعَدَنَانِ بِالْمَغْرِبِ ، وَهُوَ
مَالِكُ بْنُ وَهَبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أُسْبُيْلَةَ كَانَ فِي
الْمَوْلَةِ الْمَحْنُونَةِ ، وَنَصَّ الْبَيْتَ :

سُؤَالَ عَظِيمِ الْخَلْقِ حَزَتْ فَصْنٌ إِذْنُ

غَرَائِبَ شَكَّ ضَبْطُهُ الْجِدَّ مَثَلًا

وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْدُودُ عِنْدَهُمْ فِي الْعَمَلِ لِاسْتِخْرَاجِ
الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِي هَذِهِ الزَّائِرِجَةِ وَغَيْرِهَا .

فَلَمَّا أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ الْجَوَابِ صَا يُسْأَلُ عَنْهُ
مِنْ التَّسَائِيلِ كَتَبُوا ذَلِكَ السُّؤَالَ وَقَطَعُوهُ حُرُوفًا ،
ثُمَّ أَخَذُوا الطَّلَاعَ لِلذَّكَاءِ الْوَقْتُ مِنْ بَرُوجِ الْفَلَكَ
وَقَرَّبَهَا ، وَعَمِلُوا إِلَى الزَّائِرِجَةِ ، ثُمَّ إِلَى الْوَتَرِ

الْمُكْتَنَفِ فِيهَا بِالْبُرْجِ الطَّالِعِ مِنْ أَوَّلِهِ مَارًا إِلَى
الْمَرْكَزِ ، ثُمَّ إِلَى مُحِيطِ الدَّائِرَةِ قِبَالَ الطَّالِعِ ،
فَيَأْخُذُونَ جَمِيعَ الْحُرُوفِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ
إِلَى آخِرِهِ وَالْأَعْدَادَ الْمَرْسُومَةَ بَيْنَهُمَا ، وَيُضَيِّرُونَهَا
حُرُوفًا بِحِسَابِ الْجُمْلِ . وَقَدْ يَنْقَلِبُونَ أَحَادَهَا
إِلَى الْعَشَرَاتِ ، وَعَشَرَاتُهَا إِلَى الْمِثْمِثِ وَبِالْعَكْسِ
فِيهَا ، كَمَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ الْعَمَلِ عِنْدَهُمْ ،
وَيَضَعُونَهَا مَعَ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَيُضَيِّفُونَ إِلَى ذَلِكَ
جَمِيعَ مَا عَلَى الْوَتَرِ الْمُكْتَنَفِ بِالْبُرْجِ الثَّالِثِ مِنْ
الطَّالِعِ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى
الْمَرْكَزِ فَقَطْ ، لَا يَتَجَاوِزُونَهُ إِلَى الْمُحِيطِ ،
وَيَقْلِبُونَ بِالْأَعْدَادِ مَا قَلَعُوهُ بِالْأَوَّلِ وَيُضَيِّفُونَهَا إِلَى
الْحُرُوفِ الْآخَرَى ، ثُمَّ يَقْلِبُونَ حُرُوفَ الْبَيْتِ
الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعَمَلِ وَقَانُونُهُ عِنْدَهُمْ وَهُوَ بَيِّنٌ
مَالِكُ بْنُ وَهَبٍ الْمُتَقَدِّمُ وَيَضَعُونَهَا نَاحِيَةً ثُمَّ
يَضْرِبُونَ عَدَدَ دَرَجِ الطَّالِعِ فِي أَسِ الْبُرْجِ . وَأُسُهُ
عِنْدَهُمْ هُوَ بَعْدَ الْبُرْجِ عَنِ آخِرِ الْعَرَاتِبِ ، هَكَذَا
مَا عَلَيْهِ الْأُسُ عِنْدَ أَهْلِ حِيسَاةِ الْحِسَابِ ، فَإِنَّهُ
عِنْدَهُمُ الْبَعْدُ عَنِ أَوَّلِ الْعَرَاتِبِ ، ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ فِي
عَدَدِ آخِرِ يُسْأَلُ الْأُسُ الْأَكْبَرُ ، وَالذَّوْرُ الْأَصْلِيُّ ،
وَيَذْخُلُونَ بِمَا تَجَمَّعَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فِي بَيُوتِ الْجَمْعِ
عَلَى قَوَانِينٍ مَعْرُوفَةٍ ، وَأَعْمَالٍ مَذْكُورَةٍ ، وَأَقْوَامٍ
مَعْلُومَةٍ ، وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حُرُوفًا وَيَقْلِبُونَ
آخَرَى ، وَيَقَابِلُونَ بِمَا مَعَهُمْ فِي حُرُوفِ الْبَيْتِ ،
وَيَنْقَلِبُونَ مِنْهُ مَا يَنْقَلِبُونَ إِلَى حُرُوفِ السُّؤَالِ ،
وَمَا مَعَهَا ثُمَّ يَطْرَحُونَ تِلْكَ الْحُرُوفَ ، بِالْأَعْدَادِ مَتَلُومَةٍ
يُسَمُّونَهَا الْأَقْوَامَ ، وَيَخْرِجُونَ فِي كُلِّ دَوْرٍ الْحَرْفَ

الذى ينتهي حنّة الدور ، ومعاودة ذلك بعد الأوتار المتينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة ، وتؤلف على التوالى فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت ،

الذى يقابل به العمل ورويو ، وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم حسيما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كثيفة العمل بهيؤ الزابرجة .

وقد رأينا كثيرا من الغراض يتهاقنون على استخراج القيب منها بتلك الأعمال . ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع ، وليس ذلك بصحيح . لأنه قد مر لك أن القيب لا يؤلف بأمر صناعي البتة ، وإنما المطابقة التى فيها بين الجواب والسؤال ، من حيث الإفهام والتوافق في الخطاب ، حتى يكون الجواب مستقيما أو موافقا للسؤال .

ووقوع ذلك في هليو الصناعة في تكبير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار ، والمخول في الجدول بالأعداد المجتمعة من ضرب الأعداد الممروضة ، واستخراج الحروف من الجدول بذلك ، وطرح أخرى ومعاودة ذلك في الأوتار المتتودة ، ومطابقة ذلك كله بحروف البيت على التوالى غير مستنكر . وقد يقع الإطلاع من بعض الأذكياء على تناسب بين هليو الأشياء ، فيقع له معرفة المجهول ، فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفيس وطريق لحصوله ، سيما من

أهل الرياضة ، فإنها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر ، وقد مر تبليغ ذلك غير مرة .

ومن أجل هذا المعنى ينسبون هليو الزابرجة في الغالب لأهل الرياضة ، فهي ، منسوبة لسهبى ، ولقد وقعت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله .

ولعمري إنها من الأعمال القريبة والمعاماة العجيبة . والجواب الذى يخرج منها ، فالسر في خروج منظوما يظهر لى ، إنما هو المطابقة بحروف ذلك البيت ، ولهذا يكون النظم على وزني وروي . ويتدل عليه أنا وجدنا أعمالا أخرى لهم في مثل ذلك أشغفوا فيها المطابقة بالبيت ، فلم يخرج الجواب منظوما كما نراه عند الكلام على ذلك في مؤيديه .

وكثير من الناس يفتق مداركهم عن التصديق بهذا العمل وتعوده إلى المطلوب ، فينكر صحتها ويحسب أنها من التخيالات والإيهامات ، وأن صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذى ينظمه ، كما يريد بين أثناء حروف السؤال والأوتار ويعمل تلك الصناعات على غير نسبة ، ولا قانون ، ثم يجىء بالبيت ويؤم أن العمل جاء على طريقة منضبطة ، وهذا الجبان تؤم فاسد حمل على القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعلومات ، والتفاوت بين المذرك والمقول . ولكن من شأن كل مذرك إنكار ما ليس في طوره إدراكه ، ويحسب في رد ذلك مشاهدة العمل بهليو الصناعة ، والحديث

الذى بينَ أَهْدَادِ الْمُسْتَعْلَةِ ، وَالْوَهْمِ - أَوَّلَ مَا يَلْقَى
إِلَيْكَ عَلَيْهِ وَأَشْأَلُهَا - إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ النَّبِيِّ
الَّذِي لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ ، وَظَهَرَ أَنَّ التَّنَاسُبَ بَيْنَ
الْأُمُورِ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ مَجْهُولَهَا مِنْ مَقْلُوبِهَا ، وَهَذَا
إِنَّمَا هُوَ فِي الْوَلَايَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي الْوُجُودِ أَوَّالِهَا .
وَأَمَّا الْكَائِنَاتُ الْمُسْتَعْبَلَةُ إِذَا لَمْ نَعْلَمْ أَسْبَابُ
وُقُوعِهَا ، وَلَا يَثْبُتَ لَهَا هَبْرٌ صَادِقٌ عَنْهَا فَهَوَّ
حَيْبٌ لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ .

وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ فَأَلْغَمَاكَ الْوَلَايَةَ فِي
الرَّايِزَةِ كُلِّهَا ، إِنَّمَا هِيَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ
مِنْ الْقَاطِئِ السُّؤَالِ ، لِأَنَّهَا كَمَا رَأَيْتَ اسْتِجْنَابَهُ
حُرُوفَ عَلَى تَرْتِيبٍ مِنْ يَلِكِ الْحُرُوفِ بِعَيْنِهَا عَلَى
تَرْتِيبٍ آخَرَ . وَسِرُّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَنَاسُبِ بَيْنَهُمَا
يُطْلَعُ عَلَيْهِ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ ، فَمَنْ هَرَفَ ذَلِكَ
التَّنَاسُبَ تَسَيَّرَ عَلَيْهِ اسْتِخْرَاجُ ذَلِكَ الْجَوَابِ بِتِلْكَ
الْقَوَانِينِ ، وَالْجَوَابُ يَدُلُّ فِي مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ
مَوْضِعُ الْقَاطِئِ وَتَرَكَيبِهِ عَلَى وَقُوعِ أَحَدِ طَرَفِي
السُّؤَالِ مِنْ نَفْيِ أَوْ إِبْثَاتٍ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَقَامِ
الْأَوَّلِ بَلْ إِنَّمَا يَرْجِعُ لِمُعَايَنَةِ الْكَلَامِ لِمَا فِي
الْخَارِجِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ هَلِيهِ الْأَعْمَالِ ،
بَلْ الْبَشَرُ مَحْجُوبُونَ عَنْهُ ، وَقَدْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِطَعْمِهِ
وَأَلَّهُ بِعِلْمِهِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١)

الْقَطْعِي فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَرَّدٍ ، وَقَاتُونَ صَحِيح
لَا مِرَّةَ فِيهِ عِنْدَ مَنْ يَبْأُشِرُ ذَلِكَ مِنْ لَهُ ذِكَاةٌ وَحَسَنٌ .
وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعَايَنَةِ (١) فِي الْعَدِيدِ
الَّذِي هُوَ أَوْضَحُ الْوَاضِحَاتِ يَتَسَرُّ عَلَى الصَّهْمِ
إِفْرَاقَهُ ، لِثَبُوتِ النُّسْبَةِ فِيهِ وَخِفَافَتِهَا ، فَمَا
ظَنُّكَ بِجُمْلَةٍ هَذَا مَعَ خِفَاءِ النُّسْبَةِ فِيهِ وَغَرَابَتِهَا .
فَلْتَذَكَّرْ مُسْأَلَةَ مِنَ الْمُعَايَنَةِ يَتَضَحَّى لَكَ بِهَا شَيْءٌ
مِمَّا ذَكَرْنَا بِشَأْلِهِ .

لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عِدَمًا مِنَ الدَّرَاهِمِ ، وَاجْعَلْ
بِلَازِمِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً مِنَ الْفُلُوسِ ، ثُمَّ اجْمَعْ الْفُلُوسَ
الَّتِي أَخَذْتَ وَاشْتَرِ بِهَا طَائِرًا ، ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ
كُلَّهَا طَيُورًا بِسَعْرِ ذَلِكَ الطَّائِرِ ، فَكَمْ الطَّيُورُ
الْمُشْتَرَاةُ بِالدَّرَاهِمِ ؟ فَجَوَابُهُ أَنْ تَقُولَ : هِيَ تِسْعَةٌ .
لَأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ فُلُوسَ الدَّرَاهِمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَأَنَّ
الثَّلَاثَةَ ثَمَنُهَا ، وَأَنَّ عِدَّةَ ثَمَانِ الْوَاحِدِ ثَمَانِيَّةٌ ،
فَإِذَا جُمِعَتِ الثَّمَنُ مِنَ الدَّرَاهِمِ إِلَى الثَّمَنِ الْآخَرِ
فَكَانَ كُلُّ ثَمَنٍ طَائِرٍ ، فَبِهِ ثَمَانِيَّةُ طَيُورٍ ، عِدَّةُ
أَثْمَانِ الْوَاحِدِ وَتَزِيدُ عَلَى الثَّمَانِيَّةِ طَائِرًا آخَرَ وَهُوَ
الْمُشْتَرَى بِالْفُلُوسِ الْمَأْخُودَةِ أَوَّلًا ، وَعَلَى سَعْرِ
اشْتَرَيْتَ بِالدَّرَاهِمِ ، فَتَكُونُ تِسْعَةً . فَكَيْفَ تَرَى
كَيْفَ هَرَفَ لَكَ الْجَوَابُ الْمَضْمُونُ بِسِرِّ التَّنَاسُبِ

(١) الآية وفي ٢٢٢ من سورة البقرة .

(١) التفتيح الذي لا يكاد يهتم به أحد .

الباب الثاني

في العمران البدوي ، والأم الوحشية والبهائم وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه فصول ونعميدات

الفصل الأول

في أن أجيال البدو والحضر طبعية

إِذَا عَلِمَ أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَجْيَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ ، إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ يَحْتَاجُهُمْ مِنَ الْمَعَاشِ ، فَإِنَّ اجْتِمَاعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَاوُنِ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَالْإِبْتِدَاءِ بِمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنْهُ وَيَبْسِطُ قَبْلَ الْحَاجَةِ (١) وَالْكَمَالِ . فَهِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ الْقُلُوحَ (٢) مِنَ الْفَرَّاسَةِ وَالزَّرَاعَةِ ، وَهِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ الْقِيَامَ عَلَى الْحَيَوَانِ مِنَ الْقَنْمِ وَالْبَكْرِ وَالْمَعِزِّ وَالْحَمَلِ وَالذُّودِ لِيَنْتَاجَهَا ، وَاسْتِخْرَاجِ قَضَائِهَا . وَهَوْلَاءُ الْقَائِمُونَ عَلَى الْقُلُوحِ وَالْحَيَوَانِ ، تَدْعُوهُمْ الضَّرُورَةُ وَلَا بُدَّ إِلَى الْبَدْوِ لِأَنَّهُ مُتَّعٍ لِمَا لَا يَنْبَغِي لَهُ الْحَوَاضِرُ ، مِنَ الْمَزَارِعِ وَالْقُدُنِ (٣) وَالْمَسَارِحِ لِلْحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَكَانَ اخْتِصَاصُ هَوْلَاءُ بِالْبَدْوِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا لَهُمْ ، وَكَانَ جَبْتُهُمْ اجْتِمَاعَهُمْ وَتَعَاوُنُهُمْ فِي حَاجَاتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَغَمَرَانَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ ، وَالْكَنْ وَالذَّفْعِ إِنَّمَا هُوَ بِالْقُدْرَةِ الَّتِي يَحْفَظُ الْحَيَاةَ ، وَحَصَلَ بَلُغَةُ الْعَيْشِ مِنْ غَيْرِ مَزِيدَ عَلَيْهِ لِلْعَجْزِ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ .

ثُمَّ إِذَا اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ هَوْلَاءِ الْمُتَحَدِّينَ لِلْمَعَاشِ ، وَحَصَلَ لَهُمْ مَا فَوْقَ الْحَاجَةِ مِنَ الْغِنَى

(١) يعني غير الأسلي والضروري .

(٢) فلاة الأرض

(٣) جمع قنن والمراد به هنا آلة الحرث .

وَالرِّقَةِ ، دَعَاهُمْ ذَلِكَ إِلَى السُّكُونِ وَالذَّفْعِ ، وَتَعَاوُنُوا فِي الزَّائِدِ عَلَى الضَّرُورَةِ وَاسْتَكْتَرُوا مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالتَّنَاقُتِ فِيهَا ، وَتَوَسَّعَ الْبُيُوتُ وَاخْتِطَاطُ الْمُدُنِ وَالْأَنْصَارِ لِلتَّحَضُّرِ .

ثُمَّ تَزِيدُ أَحْوَالُ الرِّقَةِ وَالذَّفْعِ فَتَجِيءُ حَوَائِدُ التَّرَفِ الْبَالِغَةِ مِبَالِغَهَا فِي التَّنَاقُتِ فِي حِلَاجِ الْقُوَّةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَايِخِ ، وَانْتِفَاءِ الْمَلَابِسِ الْفَاحِشَةِ فِي أَنْوَاعِهَا مِنَ الْحَرِيرِ وَالنَّبِيَّاجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَمُعَالَاةِ الْبُيُوتِ وَالصُّرُحِ ، وَاحْكَامِ وَضْعِهَا فِي تَنْجِيدِهَا وَالانْتِهَاءِ فِي الصَّنَائِعِ - فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفَعْلِ - إِلَى غَايَاتِهَا ، فَيَتَجَنَّدُونَ الْقُصُورَ وَالْمَنَازِلَ وَيَجْرُونَ فِيهَا الْمِيَاهَ ، وَيَعَالُونَ فِي صَرْحِهَا وَيَبَالِغُونَ فِي تَنْجِيدِهَا ، وَيَخْتَلِفُونَ (١) فِي اسْتِجَادَةِ مَا يَتَخَلَّفُونَهُ لِمَعَاشِهِمْ مِنْ مَلَبُوسٍ أَوْ فِرَاشٍ أَوْ أُنْيَةٍ أَوْ مَاعُونٍ ، وَهَوْلَاءُ هُمْ الْحَضَرُ وَمَعْنَاهُ : الْحَاضِرُونَ أَهْلُ الْأَنْصَارِ ، وَالْبُلْدَانِ .

وَمِنْ هَوْلَاءِ مَنْ يَنْتَحِلُ فِي مَعَاشِهِ الصَّنَائِعَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ التَّجَارَةَ ، وَتَكُونُ مَكَاسِيَهُمْ أَنْتَى (٢) وَأَرْفَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ وَمَعَاشُهُمْ عَلَى نِسْبَةٍ وَجَدِيمٍ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا .

(١) يتكرونا .

(٢) لوفر واكثر .

الفصل الثاني

في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

وَبَنَاتَهَا وَتَشَجَّرَهَا لَا يَسْتَعْنِي بِهَا الْإِبِلُ فِي قَوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَامِي الشَّجَرِ بِالقَفْرِ وَوُرُودِ مِيَاهِهِ الْمِلْحَةِ وَالتَّقَلُّبِ فَصَلَ الشَّيْءَ فِي تَوَاصِيهِ فِرَارًا مِنْ أَدَى الْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ هَوَائِهِ وَطَلَبًا لِمَا خَصَّ (١) النَّبَاحَ فِي رِمَالِهِ ، إِذْ الْإِبِلُ أَصْعَبُ الْحَيَوَانَ فَصَالًا وَمَخَاضًا وَأَحْوَجُهَا فِي ذَلِكَ إِلَى الدَّفْءِ ، فَاضْطَرُّوا إِلَى إِيْنَادِهِ النَّجْمَةِ (٢) ، وَرَبَّمَا ذَاتَهُمُ الْحَاكِمَةُ عَنِ التَّلَوُّلِ أَيْضًا فَلَوَّغَلُوا فِي الْفِغَارِ نَفْرَةً عَنِ الصَّعَةِ مِنْهُمْ ، فَكَانُوا لِلذِّكِّ أَشَدَّ النَّاسِ قَوْحُشًا . وَتَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ مَنَزِلَةَ الْوَحْشِ غَيْرَ الْمَعْدُورِ عَلَيْهِ وَالْمُقْتَدِرِينَ مِنَ الْحَيَوَانَ الْعُجْمِ . وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْعَرَبُ وَفِي مَعْنَاهُمْ ظُهُونُ الْبَرْبَرِ وَزَنَاقَةُ الْمَغْرِبِ وَالْأَكْرَادِ وَالتُّرْكُمَانِ وَالتُّرُكُ بِالشَّرْقِ . إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ ابْتَعَدَ نَجْعَةً وَأَشَدَّ بَدَاوَةً ، لِأَنَّهُمْ مُخْتَصُونَ بِالْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ فَقَطْ ، وَهَؤُلَاءِ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَنِ الشَّيْءِ وَالْبَقَرِ مَعَهَا ، فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِيلَ الْعَرَبِ طَبِيعِي لَا يَدُ مِنْهُ فِي الْعُمَرَاءِ وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الثالث

في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأصهار ممد لها

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَدُوَّهُمُ الْمُقْتَصِرُونَ عَلَى الصَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمْ ، التَّاجِرُونَ عَمَّا قَوْفَهُ ، وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ التَّرَفِّ وَالْكَمَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ ، هُمُ الْمُتَعَمِّقُونَ لِلْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ بَيْنَ الْقَلْعِ وَالْقِيَامِ عَلَى الْإِنْعَامِ ، وَأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الصَّرُورِيِّ بَيْنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَكِيسِ وَالْمَسَاكِينِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ ، وَمُقْتَصِرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِي أَوْ كَسَالِي ، يَتَخَلَّوْنَ الْبَيُوتَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ أَوْ الشَّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ غَيْرِ مُنْجِلَةً ، إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ الْإِسْطِظَالِ وَالْكَيْنِ ، لِأَمَاوَرَاهِمْ ، وَقَدْ يَأْتُونَ إِلَى الْغَيْرِ (١) ، وَالْكُهُوفِ .

وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ فَيَتَنَوَّلُونَ بِهَا بَيْسِيرًا بِعِلَاجٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلَاجٍ الْبَيْتَةَ إِلَّا مَا سَمَّيْتُهُ النَّسَارَ . فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ فِي الزَّرَاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالْقَلْعِ ، كَانَ الْمَقَامُ بِهِ أَوَّلَى مِنَ الظُّفْرِ ، وَهَؤُلَاءِ سُكَّانُ الْمَدَنِ وَالْقُرَى وَالْجِبَالِ ، وَهُمْ عَامَةُ الْبَرْبَرِ وَالْأَعْلَاجِ .

وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي السَّائِمَةِ بِمِثْلِ الْفَنَمِ وَالْبَقَرِ فَهُمْ ظُلَمَنٌ فِي الْأَغْلَبِ لِازْتِيَادِ الْمَسَارِحِ وَالْيَاسِيَةِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ ، فَالتَّقَلُّبُ فِي الْأَرْضِ أَضْلَحُ بِهِمْ ، وَيُسَمُّونَ شَاوِيَةً . وَمَعْنَاهُ : الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاهِ وَالْبَقَرِ ، وَلَا يَبْجَعُونَ فِي الْقَفْرِ لِبُغْدَانِ الْمَسَارِحِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَهَؤُلَاءِ بِمِثْلِ الْبَرْبَرِ وَالتُّرُكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ التُّرْكُمَانِ وَالصَّقَالِيَّةِ .

وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي الْإِبِلِ ، فَهُمْ أَكْثَرُ ظُلَمَنًا وَابْتَعَدَ فِي الْقَفْرِ مَجَالًا ، لِأَنَّ مَسَارِحَ التَّلَوُّلِ

(١) يرميه كثير فولادة والقيل وجبهما .

(٢) النعام في طلب الكلأ والرمي .

كتاب الشعب

وَأَصْلُ لَهَا، بِمَا أَنَّ وُجُودَ الْمُلْكِ وَالْأَمْنَارِ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَالذِّقِّ ، النُّسْ هِيَ مُتَاخِرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ الضَّرُورَةِ الْمَعَائِيَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

الفصل الرابع

فِي أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ وَنَسَبُهُ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى كَانَتْ مُتَّيِّقَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا وَتَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرِ أَوْ شَرٍّ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِيهِ أَوْ نَصْرَانِيهِ أَوْ مُجَسَّسِيهِ ، وَبَقْدَرٍ مَا سَقَى إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْخُلُقَيْنِ تَبَعُدُ عَنْ الْآخَرِ وَيَصْغُبُ عَلَيْهَا كَيْسَابُهُ . فَصَاحِبُ الْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدِ الْخَيْرِ ، وَصَحَّتْ لَهَا مَلَكَتُهُ بَعْدَ عَنِ الشَّرِّ ، وَصَغَبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ . وَكَذَا صَاحِبُ الشَّرِّ ، إِذَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ أَيْضًا عَوَائِدُهُ .

وَأَهْلُ الْحَضَرِ لِكثَرَةِ مَا يُعَانُونَ مِنْ قُتُونِ الْمَلَاذِ وَعَوَائِدِ التَّرَفِّ وَالْإِحْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا وَالْمَكُوبِ عَلَى شَهْرَانِهِمْ مِنْهَا قَدْ تَلَوْنَتْ أَنْفُسُهُمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَذْمُومَاتِ الْخُلُقِ وَالشَّرِّ . وَبَعُدَتْ عَنْهُمْ طُرُقُ الْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ يَقْدِرُ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ الْجِسْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ ، فَتَجَدَّ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ يَقْذِعُونَ فِي أَقْوَالِ الْفَحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ ، وَبَيْنَ كِبَرَانِهِمْ وَأَهْلِهِ مَحَارِمِهِمْ لَا يَصْلُحُ عَنْهُ وَأَزْعُ الْجِسْمَةِ لِمَا أَخَذَتْهُمْ بِهِ عَوَائِدُ السُّوءِ فِي الظَّاهِرِ بِالْفُجُورِ قَوْلًا وَعَمَلًا .

وَأَهْلُ الْبَدْوِ وَإِنْ كَانُوا مُفْرِلِينَ عَلَى الدُّنْيَا

وَعَوَائِدِهِمْ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الضَّرُورِيَّ أَقْدَمُ مِنَ الْحَاجِّي وَالْكَمَالِي وَسَابِقُ عَلَيْهِ ، وَلَئِنْ الضَّرُورِيَّ أَصْلُ وَالْكَمَالِي فَرَعٌ نَاشِئٌ عَنْهُ ، فَالْبَدْوُ أَصْلُ لِلْمُلْكِ وَالْحَضَرِ وَسَابِقُ عَلَيْهِمَا لِأَنَّ أَوَّلَ مَطَالِبِ الْإِنْسَانِ الضَّرُورِيَّ وَلَا يَنْتَهِي إِلَى الْكَمَالِ وَالتَّرَفِّ ، إِلَّا إِذَا كَانَ الضَّرُورِيَّ حَاصِلًا . فَخُشُونَةُ الْبِدَاوَةِ قَبْلَ وَقْفِ الْحَضَارَةِ . وَلِهَذَا نَجِدُ التَّمَكُّنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيِّ يَجْرَى إِلَيْهَا وَيَنْتَهِي بِسَبْعِهِ إِلَى مُقْتَرَحِيهِ مِنْهَا . وَتَمَّى حَصَلَ عَلَى الرِّمَاشِ الَّذِي يَحْضُلُ لَهُ بُو أَحْوَالِ التَّرَفِّ وَعَوَائِدِهِ حَاجٌّ إِلَى الدِّقَّةِ ، وَأُنْكَنَ نَفْسُهُ إِلَى قِيَادِ الْمَتَبَةِ . وَهَكَذَا شَأْنُ الْقَبَائِلِ الْمُتَبَدِّلَةِ كُلِّهِمْ . وَالْحَضَرِيُّ لَا يَتَشَوَّبُ إِلَى أَحْوَالِ الْبَادِيَةِ ، إِلَّا لِضَرُورَةٍ تَذْخُوهُ إِلَيْهَا أَوْ لِنَفْصِيرِ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ مَتَبَتِيهِ .

وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ الْبَدَوِ أَصْلُ لِلْحَضَرِ وَمُقَدَّمٌ عَلَيْهِ أَنَا إِذَا قَشْنَا أَهْلَ مِصْرَ مِنَ الْأَمْنَارِ وَجَدْنَا أَوْلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ الَّذِينَ يَنَاحِيَةُ ذَلِكَ الْمِصْرِ وَأَنَّهُمْ أُنْسَرُوا فَسَكَنُوا الْمِصْرَ ، وَتَدَلُّوا إِلَى الدِّقَّةِ وَالتَّرَفِّ الَّذِي فِي الْحَضَرِ . وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحْوَالَ الْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ الْبِدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلُ لَهَا فَفَتْهَمْتُ .

ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَدَوِ وَالْحَضَرِ مُتَغَاوُتُ الْأَحْوَالِ مِنْ جَنَسِهِ ، قَرُوبٌ حَتَّى أَكْثَرُ مِنْ حَتَّى ، وَقَبِيلَةٌ أَكْثَرُ مِنْ قَبِيلَةٍ ، وَمِصْرٌ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ ، وَمَدِينَةٌ أَكْثَرُ عُمَرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُجُودَ الْبَدَوِ مُقَدَّمٌ عَلَى وُجُودِ الْمُلْكِ وَالْأَمْنَارِ

يُنتَهَم ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْمَقْدَارِ الصُّورِيُّ لَا فِي التَّرَفِّ
وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الشُّهُورَاتِ وَاللَّدَاتِ وَحَوَائِجِهَا .
فَقَوْلُهُمْ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ عَلَى نِسْبَتِهَا ، وَمَا يَحْصُلُ
فِيهِمْ مِنْ مَنَافِعِ السُّوءِ وَمُتَعَمَّاتِ الْخُلُقِ بِالنِّسْبَةِ
إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ أَقْلُ بِكَثِيرٍ . فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ
الْأُولَى ، وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَلِعُ فِي النَّفْسِ مِنْ سُوءِ
الْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ التَّوَالِدِ الْمُتَعَمِّمَةِ وَقُبْحِهَا فَيَسْتَهْلُ
عِلَاجَهُمْ عَنْ عِلَاجِ الْحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ .

وَقِيلَ : إِنْ ذَلِكَ كَانَ خَاصًا بِمَا قَبِلَ الْفَتْحَ حِينَ
كَانَتْ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى الْهَجْرَةِ لِقِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ .
وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ وَحِينَ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَافْتَزَوْا ،
وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ بِالْعِصْمَةِ مِنَ النَّاسِ ، فَلَانَ الْهَجْرَةُ
سَاقِطَةً حِينَئِذٍ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا هَجْرَةَ
بَعْدَ الْفَتْحِ » . وَقِيلَ : سَقَطَ . إِنشَاءً عَنْهُ يُسْلِمُ
بَعْدَ الْفَتْحِ . وَقِيلَ : سَقَطَ . وَجُوبُهَا عَنْهُ أَسْلَمَ
وَهَاجَرَ قَبْلَ الْفَتْحِ ، وَالْكُلُّ مُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ
الْوَفَاةِ سَاقِطَةٌ ، لِأَنَّ الصَّحَابَةَ افْتَرَقُوا مِنْ يَوْمِئِذٍ
فِي الْأَفَاقِ ، وَانْتَشَرُوا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْلُ السُّكْنَى
بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ هَجْرَةٌ .

فَقَوْلُ الْحَاجَّاجِ لِمَسَلَمَةَ حِينَ سَكَنَ الْبَادِيَةَ :
ارْتَلَدْتَ عَلَى عَقِيْبِكَ !! تَعَرَّبْتَ !! نَعَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِهِ
السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ ، بِالإِشَارَةِ إِلَى الدَّعَاءِ الْمَأْثُورِ
الَّذِي قُلَّمَنَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ « لَا تَرُدُّهُمْ عَلَى أَغْصَابِهِمْ »
وَقَوْلُهُ : تَعَرَّبْتَ ؟ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ صَارَ مِنَ الْأَعْرَابِ
الَّذِينَ لَا يَهْجَرُونَ . وَاجَابَ سَلَمَةُ بِإِنْكَارِهِ مَا زُوِّمَ
مِنْ الْأَمْرَيْنِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أَذِنَ لَهُ فِي الْبَنُو ، وَيَكُونُ ذَلِكَ خَاصًا بِهِ كَشَهَادَةِ
خَزِيْمَةَ ، وَعَنَاقِ إِلَى بَرْدَةَ . وَيَكُونُ الْحَاجَّاجُ إِنَّمَا
نَعَى عَلَيْهِ تَرْكَ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ فَقَطْ ، لِعِلَّةِ

وَقَدْ يَنْصَحُ فِيمَا بَعْدَ أَنْ الْجِزَارَةُ هِيَ نَهَابَةُ
الْعُمَرَاءِ وَخُرُوجِهِ إِلَى الْفَسَادِ ، وَنَهَابَةُ الشُّرِّ وَالْبَغْيِ
عَنِ الْخَيْرِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْبَنُو أَقْرَبُ إِلَى
الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ ، وَاللَّهُ يُجِبُ الْمُتَّقِينَ . وَلَا
يُعْزِضُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَدَّ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ
مِنْ قَوْلِهِ الْحَاجَّاجِ لِمَسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ
خَرَجَ إِلَى سُكْنَى الْبَادِيَةِ ، فَقَالَ لَهُ : ارْتَلَدْتَ عَلَى
عَقِيْبِكَ ؟ تَعَرَّبْتَ ؟ فَقَالَ : لَا ، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِي فِي الْبَنُو ، فَأَعْلَمْتُ أَنَّ الْهَجْرَةَ
افْتَرَضَتْ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، لِيَكُونُوا
مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَلَّ مِنَ الْمَوَاطِنِ
يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَحْرُسُونَهُ ، وَلَمْ
تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى الْأَعْرَابِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لِأَنَّ أَهْلَ
مَكَّةَ يَسْتَهْلِكُونَ مِنْ عَصَبِيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فِي الْمُظَاهَرَةِ وَالْجِرَاسَةِ مَا لَا يَسْ غَيْرُهُمْ مِنْ
بَادِيَةِ الْأَعْرَابِ .

وَقَدْ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَسْتَعْمِلُونَ بِاللَّهِ مِنْ
التَّعَرُّبِ وَهُوَ سُكْنَى الْبَادِيَةِ ، حَيْثُ لَا تَجِبُ الْهَجْرَةُ .
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِهِ سَعْدُ بْنُ

يَسْقُوطُ الْهَجْرَةُ بَعْدَ الْوَفَاءِ ، وَأَجَابَهُ سَلَمَةُ بِأَن
اغْتِنَامَهُ لِإِذْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَى
وَأَفْضَلُ ، فَمَا آثَرُهُ بِهِ وَاحْتِصَامُهُ إِلَّا لِمَعْنَى عِلْمِهِ فِيهِ .
وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَيْسَ ذَكِيلًا عَلَى مَلَكَةِ الْبَدْوِ
الَّذِي خَبَّرَ عَنْهُ بِالْعَرَبِ ، لِأَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْهَجْرَةِ
إِنَّمَا كَانَتْ كَمَا عَلِمَتْ لِمُظَاهَرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِرَاسَتِهِ لِامْلَكَةِ الْبَدْوِ ، فَلَيْسَ فِي
النُّعْيِ عَلَى تَرْكِ هَذَا الْوَجِبِ ذَكِيلٌ عَلَى مَلَكَةِ الْعَرَبِ ،
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ ، وَيَوْمَ التَّوْفِيقِ .

الفصل الخامس

فِي أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الشَّجَاعَةِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ : أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ الْقَوَائِمُوتِيَّةُ
عَلَى مِهَادِ الرَّاسَةِ وَاللَّدَعَةِ ، وَانْقَسَمُوا فِي النِّعَمِ
وَالتَّرَدُّبِ ، وَوَسَّكُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمَدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ وَالْحَاكِمِ الَّذِي يَسُوسُهُمْ ،
وَالْحَامِيَةِ الَّتِي تَوَكَّلَتْ حِرَاسَتَهُمْ ، وَاسْتَنَامُوا إِلَى
الْأَسْوَارِ الَّتِي تَحُوطُهُمْ وَالْحَرَزِ الَّذِي يَحُولُ فَوْقَهُمْ
فَلَا تَهَيِّجُهُمْ هَيْعَةً^(١) ، وَلَا يَنْفِرُ لَهُمْ صَيْدٌ ، فَهُمْ
غَارُونَ آمِنُونَ ، قَدْ أَلْقَوْا السَّلَاحَ وَتَوَكَّلَتْ عَلَى ذَلِكَ
مِنْهُمْ الْأَجْيَالُ ، وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ
الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى آبَائِهِمْ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ
حُلُقًا يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ .

وَأَهْلُ الْبَدْوِ : لِتَفَرُّجِهِمْ عَنِ الْمُجْتَمَعِ وَتَوَحُّشِهِمْ
فِي الصَّوَاغِي وَيُطْلِمِهِمْ عَنِ الْحَامِيَةِ وَانْتِبَاحِهِمْ^(٢) عَنِ

(١) الصوت المنفرد وفاء الاختلاف من شر .

(٢) يعلم منها وتفرج منها .

الفصل السادس

فِي أَنَّ مُمَانَةَ أَهْلِ الْحَضَرِ لِلْأَحْكَامِ مُفْسِدَةٌ
لِلْبَاسِ فِيهِمْ ، ذَاهِبَةٌ بِالْمَنْفَعَةِ مِنْهُمْ
وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ مَالِكٌ أَمْرٍ نَفْسِهِ ،
إِذِ الرُّؤَسَاءُ وَالْأَمْرَاءُ الْمَالِكُونَ لِأَمْرِ النَّاسِ قَلِيلٌ

(١) جمع فناء وهي : ما تفرج له العيون من صوت أو حركة .

فَلَا يَكُونُ مُدَلًّا بِبَأْسِهِ، وَلِهَذَا تَجِدُ الْمُتَوَحِّسِينَ مِنَ
الْعَرَبِ أَهْلَ الْبَيِّنَةِ أَشَدَّ بَأْسًا مِنْ تَأْخُذِهِ الْأَحْكَامَ.
وَتَجِدُ أَيْضًا الَّذِينَ يُعَانُونَ الْأَحْكَامَ وَمَلَكَتْهَا مِنْ
لَدُنْ مَرَاتِبِهِمْ فِي التَّأْدِيبِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الصَّنَائِعِ
وَالْعُلُومِ وَالْمِثَانَاتِ يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ كَثِيرًا
وَلَا يَكَادُونَ يَتَقَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَادِيَةً بِوَجْهِهِ مِنَ
الْوُجُوهِ. وَهَذَا شَأْنُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ الْمُنْتَهِلِينَ لِلْفَرَاقَةِ
وَالْأَخْذِ عَنِ الْمَتَابِيعِ وَالْأَوْتَمَةِ الْمُتَارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ
وَالنَّاسِيبِ فِي تَجَالِسِ الْوُقَارِ وَالْهَيْبَةِ فِيهِمْ هَلِوِ
الْأَحْوَالِ وَدَعَائِبُهَا بِالْخُسْفَةِ وَالْبَأْسِ.

وَلَا تَسْتَنْكِزُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الصَّحَابَةِ مِنْ
أَخْذِهِمْ بِأَحْكَامِ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ وَلَمْ يُنْقِصْ
ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ، بَلْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ بَأْسًا
لِأَنَّ الشَّارِعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ
عَنْهُ دِينَهُمْ كَانَ وَازِعُهُمْ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِمَا
نَلِيَ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَلَمْ يَكُنْ
بِتَّعْلِيمِ صِنَاعِي وَلَا تَأْدِيبِ تَعْلِيمِي، إِنَّمَا هِيَ
أَحْكَامُ الدِّينِ وَآدَابُهُ الْمَلْفَاءُ نَقْلًا بِأَخْلُودِ
أَنْفُسِهِمْ بِهَا بِمَا وَسَّخَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ
وَالنَّصِيبِ فَلَمْ تَزَلْ سُورَةُ بَأْسِهِمْ مُسْتَحْكَمَةً كَمَا
كَانَتْ، وَلَمْ تَخْشَعْهَا أَظْفَارُ التَّأْدِيبِ وَالْمُكْرَمِ.
قَالَ عُمَرُ وَرَوَى اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَمْ يُؤَدِّهِ الشَّرْعُ
لَأَقْبَهُ اللَّهُ، حِرْصًا عَلَى أَنْ يَكُونَ الْوَازِعُ لِكُلِّ أَحَدٍ
مِنْ نَفْسِهِ، وَيَقِينًا بِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ
وَلَمَّا تَنَاقَصَ الدِّينُ فِي النَّاسِ، وَأَخْلُودُوا بِالْأَحْكَامِ
الْوَازِعَةِ ثُمَّ صَارَ الشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً يُؤْخَذُ
بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ، وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى النُّحْصَارَةِ

بِالنَّفْسَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَمِنْ الْقَالِبِ أَنْ يَكُونَ
الْإِنْسَانُ فِي مَلَكَتِهِ غَيْرُهُ وَلَا بُدَّ، فَإِنْ كَانَتْ
الْمَلَكَتُ رَقِيقَةً وَعَادِلَةً لَأَبْعَثَنِي مِنْهَا حُكْمًا، وَلَا
مَنْعَ وَصَدَّ كَانَ النَّاسُ مِنْ تَحْتِ يَدَيْهَا مُتَلِّينَ بِمَا
فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ جُبْنٍ وَانْقِيَانٍ يَطْعَمُ
الْوَازِعَ حَتَّى صَارَ لَهُمُ الْإِذْلَالُ جِيلَةً، لَا يَتَعَرَّفُونَ سِوَاهَا.
وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْمَلَكَتُ وَأَحْكَامُهَا بِالْقَهْرِ
وَالسُّطُورَةِ وَالْإِخَافَةِ فَتَكْسُرُ حِينَئِذٍ مِنْ سُورَةِ بَأْسِهِمْ
وَتُذْهِبُ الْمُنْعَةَ عَنْهُمْ لِمَا يَكُونُ مِنَ التَّكَاسُلِ فِي
النَّفُوسِ الْمُضْطَّهِدَةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ. وَقَدْ نَهَى عُمَرُ
سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ يَثْلَهَا لَمَّا أَخَذَ زُهْرَةَ بِنْتُ
حَوْتَةَ سَلْبَ (١) الْجَالِنُوسِ، وَكَانَتْ فِيهَا خَمْسَةٌ
وَسِتِّينَ الْفَا مِنَ الذَّهَبِ، وَكَانَ اتَّبَعَ الْجَالِنُوسُ
يَوْمَ الْقَادِيسِيَّةِ فَقَتَلَهُ، وَأَخَذَ سَلْبَهُ فَأَنْزَعَهُ مِنْهُ
سَعْدًا وَقَالَ لَهُ: «هَلَّا أَنْتَظَرْتُ أَنْ تَبْعَاهُ إِذْنِي؟»
وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ:
«تَعَمَّدَ إِلَى يَثْلَ زُهْرَةَ، وَقَدْ صَلَّى بِمَا صَلَّى بِهِ، وَبَقِيَ
عَلَيْكَ مَا بَقِيَ مِنْ حَرْبِكَ، وَتَكْبِيرُ فَوْقَهُ» (٢) وَتَفْسِدُ
قَلْبَهُ؟! وَأَفْضَى لَهُ عُمَرُ سَلْبَهُ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ بِالْقَابِضِ قَلْبِيَّةً
لِلْبَأْسِ بِالْكَلْبِيَّةِ. لِأَنَّ وَفُوعَ الْقَابِضِ بِهِ، وَلَمْ يُدَافِعْ
عَنْ نَفْسِهِ بِكَيْسِهِ الْمَثَلَةِ الَّتِي تَكْثُرُ مِنْ سُورَةِ
بَأْسِهِ بِأَلَاثِكِ. وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ تَأْدِيبِيَّةً
وَتَّعْلِيمِيَّةً وَأَعْلَتْ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا أَلْتَرَتْ فِي ذَلِكَ
بَعْضَ الشَّيْءِ لِمَرَاتِبِهِ عَلَى الْمَخَافَةِ وَالْانْقِيَادِ.

(١) سائيله المطلوب من عدوه حين يصرمه.

(٢) فرق السهم موضع الرتر من والرر هنا كتيب الهمة.

وَلَا مَن وَفَّقَهُ اللهُ . وَمِنَ اخْلَاقِ الْبَشَرِ فِيهِمُ الظُّلْمُ
وَالْعُلُوَانُ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ ، فَمَنْ اِشْتَدَّتْ حَيْثُ إِلَى
مَتَاعِ أَحْيَاهِ فَقَدْ اِشْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى اخْلَافِهِ ، لِأَنَّ
يُسْلُهُ وَلَزَعَ كَمَا قَالَ :

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفْسِ فَإِنْ تَجِدَ

فَا عِفَّةً فَلْيَلُحْ لَا يَظْلِمُ

فَلَمَّا الْمُدُنُ وَالْأَمْصَارُ فَعُلُوَانُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
تَنَفَّعَهُ الْحُكَّامُ وَالذُّوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا عَلَى أَيْدِي مَنْ
تَحْتَهِمْ مِنَ الْكَافَّةِ أَنْ يَحْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ،
أَوْ يَتَعَلَّقَ عَلَيْهِمْ مَكْبُوحٌ بِحُكْمِهِ (١) الْقَهْرُ وَالسُّلْطَانُ
عَنِ الظُّلْمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ . وَأَمَّا
الْمُلُوكُ الَّذِينَ مِنْ خَارِجِ الْمَلِكِيَّةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاجُ
الْأَسْوَارِ حِينَ التَّغْلِيَةِ أَوْ الْفِرَّةِ لَيْلًا أَوْ النَّجْرِ عَنْ
الْمَقَاوِمِ نَهَارًا أَوْ يَدْفَعُهُ دِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ
الدُّوْلَةِ حِينَ السَّيْجِ وَالْمَقَاوِمِ .

وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدْوِ فَيَزِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ
مَشَايِخُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ بِمَا وَفَّرَ فِي نَفْسِ الْكَافَّةِ لَهُمْ
مِنَ الْوَقَارِ وَالْتِجَلِّ . وَأَمَّا حِلْيَتُهُمْ فَلَيْسَ يَنُودُ
عَنْهَا مِنْ خَارِجِ حَامِيَةِ الْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفِتْيَانِهِمْ
الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ بِهِمْ ، وَلَا يَصْلُقُ دِفَاعَهُمْ
وَدِيَادَتُهُمْ إِلَّا إِذَا كَانُوا عَصِيَّةً وَأَهْلُ نَسَبٍ وَاجِدٍ ،
لَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ وَيُخْفَى جَانِبُهُمْ إِذْ
لَا تُعْرَفُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ أَهْمٌ . وَمَا
جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِ حَيَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالنُّعْرَةِ (٢)
عَلَى قُوَى أَرْحَامِهِمْ وَوَرِيَاَتِهِمْ مَوْجُودَةً فِي الطَّبَاعِ

وَخَلَقَ الْإِنْفِيَادَ إِلَى الْأَحْكَامِ نَقَّصَتْ بِذَلِكَ سُورَةَ
الْبَاسِ فِيهِمْ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ
وَالْتَّغْلِيَّةَ مُسَيِّدَتَا لِبَاسٍ ، لِأَنَّ الْوَارِثَ فِيهَا ذَاتِي .
وَكِلْهَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةَ وَالْتَّغْلِيَّةَ
يَمَّا نُوْثِرُ فِي أَهْلِ الْحَوَافِزِ ، فِي ضَعْفِ نَفْسِهِمْ
وَحَضَلِ (١) الشُّوْكَةُ مِنْهُمْ بِمَعَانِيَتِهِمْ فِي وَكَلِيدِهِمْ
وَكُهُولِهِمْ .

وَالْبَدْوُ يَمْتَرِلُ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ
السُّلْطَانِ وَالْتَّغْلِيمِ وَالْآدَابِ . وَلَكِنَّا قَالَ مُحَمَّدُ
ابْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ الْمُتَعَلِّمِينَ
وَالْمُتَعَلِّمِينَ : إِنَّهُ لَا يَنْتَبِئُ لِلدُّوْبِ أَنْ يَضْرِبَ
أَحَدًا مِنَ الصَّبِيَّانِ فِي التَّغْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ .
نَقَّصَ عَنْ شَرْحِ الْقَاضِي . وَاسْتَحْجَّ لَهُ
بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَلِيَّتِ يَدِهِ الْوَحْيِ مِنْ شَأْنِ
الْفُطُ ، وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهَوَّ ضَعِيفٌ ،
وَلَا يَصْلُحُ شَأْنُ الْفُطُ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ
لِبُعْدِهِ عَنِ التَّغْلِيمِ الْمُتَعَارِفِ وَاللَّهِ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

الفصل السابع

فِي أَنَّ سَكَنَ الْبَدْوِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْقَبَائِلِ أَهْلُ

العصبية

إِذْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ
الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى هُوَ عَلِيمٌ (٧) النَّجَلِينَ
وَقَالَ : «فَالْهَمَّاهُ فَجُورُهَا وَتَقْوَاهَا» (٢) ، وَالشَّرُّ
أَقْرَبُ الْخِلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أَهْمَلُ فِي مَرَمَى عَوَالِيهِ ، وَلَمْ
يُهَيِّزْهُ الْاِتِّفَادُ بِالذِّنِّ ، وَعَلَى ذَلِكَ الْجَمُّ الْغَفِيرُ ،

(١) الحكمة وزان نصبة ما اسطجحتك الفرس من بلاءه .

(٢) النعرة والتعارة بالنصم فيها والتعير الصراخ والصياح في

حرب أو شرا كما في القاموس .

(١) كبرها .. وهو كناية عن الخضوع والافتقار .

(٢) الآية رقم : ١٠ من سورة : هود .

(٣) الآية رقم : ٢٨ من سورة : القصص .

هَلَكَةً، فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ خُصَاصَةً مِنْ ظَلَمِ قَرِيبِهِ أَوِ الْعَدَاءِ عَلَيْهِ، وَيُودُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ الْمَطْلَبِ وَالْمَهَالِكِ: نَزْعُهُ طَبِيعَةً فِي الْبَشَرِ، مَدَّ كَانُوا. فَإِذَا كَانَ النِّسْبُ الْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيبًا جِدًّا بِحَيْثُ حَصَلَ بِهِ الْأَحَادُ وَالْإِلْحَامُ، كَانَتْ الْوَسْلَةُ ظَاهِرَةً فَاسْتَدْعَتْ ذَلِكَ بِمَجْرِمَاتِهَا وَوُضُوحِهَا، وَإِذَا بَعُدَ النِّسْبُ بَعْضُ الشَّيْءِ قَرِيبًا تَنَوَّسَ بِمَعْصَاهَا، وَبَقِيَ مِنْهَا شَهْرَةٌ فَتَحِيلَ عَلَى النُّصْرَةِ لِقَوَى نَسَبِهِ بِالْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهُ فِرَارًا مِنَ الْقَضَاةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ظَلَمِ مَنْ هُوَ مُنْتَسِبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْوَلَاءُ وَالْجِلْفُ. إِذْ تُعْرَفُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى أَهْلٍ وَلَايِهِ وَجِلْفِهِ، لِإِلَافَةِ الَّتِي تَلْحَقُ النَّفْسَ مِنَ الْغِيْظِ جَارِيَةً أَوْ قَرِيبَهَا أَوْ نَسَبِهَا بِوَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ وَنَسَبِ، وَذَلِكَ لِأَجْلِ لُحْمَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الْوَلَاءِ، وَمِثْلُ لُحْمَةِ النِّسْبِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا. وَمِنْ هَذَا نَفْهَمُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعَلَّمُوا مِنْ أُنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ»، بِمَعْنَى أَنَّ النِّسْبَ إِنَّمَا غَالِبَتُهُ هَذَا الْإِلْحَامُ الَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ الْأَرْحَامِ، حَتَّى تَقَعَ الْمُنَاصَرَةُ وَالنُّصْرَةُ، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَعْنَى عَنْهُ. إِذْ النِّسْبُ أَمْرٌ وَمَعْنَى لَحَقِيقَةٌ لَهُ، وَنَفْعُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْوَسْلَةِ وَالْإِلْحَامِ. فَإِذَا كَانَ ظَاهِرًا وَاضِحًا حَكَلَ النُّفُوسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ النُّعْرَةِ كَمَا قُلْنَا، وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يَسْتَفَادُ مِنَ الْخَبَرِ الْبَعِيدِ ضَعْفَ فِيهِ الرَّهْمِ، وَدَعَبَتْ فَايْدَتُهُ وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ مَجَانًا، وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهْوِ التَّنَوُّسُ عَنْهُ. وَمِنْ هَذَا الْاِغْتِيَارُ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: «النِّسْبُ عَلِمٌ

الْبَشَرِيَّةِ، وَبِهَا يَكُونُ التَّعَاوُدُ وَالتَّنَاصُرُ، وَتَنْظُمُ رَهْبَةِ الْعَدُوِّ لَهُمْ.

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِيمَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ: «لَقَدْ أَكَلَهُ اللَّذْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَايِرُونَ» (١) هُوَ الْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَتَوَهَّمُ الْعَدُوْنَ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وَجُودِ الْعُصْبَةِ لَهُ، وَأَمَّا الْمُتَفَرِّدُونَ فِي أُنْسَابِهِمْ فَقُلْ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نُعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ، فَإِذَا أَظْلَمَ الْجَوُّ بِالشَّرِّ يَوْمَ الْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِتَبْئِي النِّجَاحِ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَاسْتِيْحَاشًا مِنَ التَّخَالُفِ، فَلَا يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى الْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَهِمُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ سِوَاهُمْ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَيَنْبَغِي تَبَيُّنَ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِمَامَةٍ مُلْكٍ أَوْ دَعْوَةٍ، إِذْ بَلُوْغُ الْقَرْصِي مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الْاسْتِيْعَاذِ وَلَا بُدَّ فِي الْقِتَالِ مِنَ الْقَصْبَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آتِفًا، فَاتَّخِذْهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُوْرَدُهُ عَلَيْكَ بِعَدُوِّهِ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ.

الفصل الثامن

فِي أَنَّ الْعُصْبِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْإِلْحَامِ بِالنِّسْبِ أَوْ مِمَّا فِي مَعْنَاهُ.

وَذَلِكَ أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ، إِلَّا فِي الْأَقْلَى، وَمِنْ صِلَتِهَا النُّعْرَةُ عَلَى قَوَى الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنْ يَتَّكِلُوا عَلَيْهِمْ أَوْ تُصِيبَهُمْ

(١) آيَةُ دُفَى : ١٤ مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ .

والمراق ومقادير الأدم والحبوب، كيف كانت
أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط،
ولا عرف فيها شوب (١).

وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي مقادير
الخصب للمعالي والعيش من حمير وكهلان: مثل
لحم وجدام وعسان وطبي وقصاعة وإياد، فاختلطت
أنسابهم، وتداخلت شعوبهم، ففي كل واحد
من بيوتهم من الخلف عند الناس ما تعرف.
وانما جاءهم ذلك من قبل المعجر، ومخالطتهم.
وهم لا يميزون المحافظة على النسب في بيوتهم
وشعوبهم، وانما هذا للعرب فقط. قال عمر
رضي الله تعالى عنه: تعلموا النسب ولا تكونوا
كتبيل السواد، إذا سئل أحدكم عن أصله
قال من قرية كذا، هذا إلى ما لحن هؤلاء العرب
أهل الأرياف من الأديان مع الناس على البلد
الطيب والمزاجي الخصيب، فكثرت الاختلاط
وتداخلت الأنساب.

وقد كان وقع في صدر الإسلام الانتماء إلى
المواطن، فيقال: جند فيمر، جند يمشق، جند
العواصم، وانتقل ذلك إلى الأندلس، ولم يكن
لاطراح العرب أمر النسب، وانما كان لأخصاصهم
بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها، وصارت
لهم علامة زائدة على النسب يميزون بها عند
أمرائهم، ثم وقع الاختلاط في العواصم مع المعجر
وغيرهم، وفقدت الأنساب بالجملة وفقدت ثمرتها
من الخصيب، فاطرحت ثم تلاشت القبائل،

لا ينفع، وجهالة القصر، بمعنى أن النسب إذا
هرج عن الوضوح، وصار من قبيل العلوم
فحقت فائدة الزم فيه عن النفس، وانتفت الترة
التي تحيل عليها العصبية، فلا منفعة فيه حينئذ.
والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل التاسع

في أن الصريح من النسب إما يوجد للمتوحشين
في القفر من العرب ومن في معانهم.

وذلك لما اختصوا به من تكدي التيش، وشظف
الأحوال، وشوه المواطن، فحلتهم عليها الضرورة
التي حثت لهم تلك القسمة. وهي لما كان
معاشرهم من القيام على الإبل وتاجها ورعايتها،
والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها من
شجره، وتاجها في رماله كما تقدم، والفقر مكان
الشظف والسغب، فصار لهم إلفا وعادة وربيت فيه
أجيالهم، حتى تمكنت خلقا وجيلة، فلا ينزع
إليهم أحد من الأمر أن يساهمهم في حالهم ولا
يلتس بهم أحد من الأجيال، بل لو وجد واحد
منهم السبل إلى القرار من حاله، وأمكنه ذلك
لما تركه، فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط
أنسابهم وقصايدها، ولا تزال بينهم محفوظة
صريحة.

واعتبر ذلك في مصر من قرينش، وسينانة،
وتقيف، وبنى أسد، وهكيل، ومن جاورهم
من خزاعة، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير
قاصد زرع ولا صرع، ويعلموا من أرياف الشام

(١) يابس شوب: تكرر صله، ونسب شوب: مختلط.

اخْتَلَطَ عَرَقَجُهُ بِبَجِيلَةٍ وَلَيْسَ جِلَّتُهُمْ ، وَدَعَى
بَنَسِيهِمْ حَتَّى تَرْتَجَّ لِلرِّيَاسَةِ عَلَيْهِمْ ، لَوْلَا عِلْمُ
بَعْضِهِمْ بِوُثَائِيهِ وَكَوْغُلُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَاسْتَدَّ الزَّمَنُ
لَتَنْوِيهِ بِالْجُمْلَةِ وَعَدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ ، وَتَذَقَّبَ
فَافْهَمَهُ ، وَاعْتَبَرَ بِرَأْفَةِ اللَّهِ فِي خُلُقَيْهِ ،

وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَكِنَّا قَبْلَهُ مِنْ
الْعَهْدِ بِوَالِدِ الْمُؤَقِّقِ لِلصَّوَابِ بِحُكْمِهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ .

الفصل الحادى عشر (١)

فى أن الرئاسة لازلة فى نصابها المخصوص من
أهل العصبية

إِعْلَمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ أَوْ يَطْنُ مِنَ الْقَبَائِلِ وَإِنْ
كَانُوا عِصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمُ الْعَامِّ ، فَفِيهِمْ أَيْضًا
عِصَبَاتٌ أُخْرَى لِلنَّسَابِ خَاصَّةً بِبَنَى أَشَدَّ التَّحَامًا
مِنَ النَّسَبِ الْعَامِّ لَهُمْ بِمِثْلِ عَشِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ، أَوْ أَهْلٍ
بَيْتٍ وَاحِدٍ ، أَوْ إِخْوَةٍ بَنَى أَبٍ وَاحِدٍ ، أَوْ مِثْلِ بَنَى
الْعَمِّ الْأَقْرَبِينَ أَوْ الْأَبْنَاءِ ، فَهَؤُلَاءِ أَقْدَرُ بِنَسَبِهِمْ
الْمَخْصُوصِ بِوُثَائِيهِ كَوْنُ مَنْ يَوْمَهُمُ مِنَ الْمَصَابِ فِي
النَّسَبِ الْعَامِّ ، وَالنُّعْرَةُ تَقَعُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمْ
الْمَخْصُوصِ بِوُثَائِيهِ مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ الْعَامِّ ، لِأَنَّهَا فِي
النَّسَبِ الْخَاصِّ أَشَدُّ لِقَرَبِ اللَّحْمَةِ . وَالرَّئِيسَةُ
فِيهِمْ ، إِذَا تَكُونُ فِي نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَكُونُ
فِي الْكُلِّ

وَلَكِنَّا كَانَتِ الرَّئِيسَةُ إِذَا تَكُونُ بِالْقَلْبِ بِوَجْهِ
أَنَّ تَكُونُ عِصْبَةً ذَلِكَ النَّصَابِ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ

وَقَدَّرْتُ ، قَدَّرْتُ (١) الْعِصْبَةُ بِدُورِهَا ، وَيَعْنَى ذَلِكَ
فِي الْبَدَنِ كَمَا كَانَ ، وَاللَّهُ وَالْوَثُوكُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

الفصل العاشر

فى اختلاط الأنساب كيف يقع ؟

إِعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ النَّسَابِ
يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ أُخَرَ بِقَرَابَةِ الْبَنِيِّمْ : جِلْفُ
أَوْ وَلَدٍ أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قُوَّةِ بِنَايَةِ أَصَابَهَا ، فَيَدْعَى
بِنَسَبِ هَؤُلَاءِ وَيُعَدُّ مِنْهُمْ فِي شُرَائِهِ مِنَ النُّعْرَةِ
وَالْقُوَّةِ (٢) وَحَمَلُ اللَّيَالِي وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ ، وَإِذَا
وُجِدَتْ شُرَائِي النَّسَبِ فَكَلَّهَ وَجِدَ لَأَنَّهُ لَا تَعْنَى
لِكُونِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا جَرِيَانُ أَحْكَامِهِمْ
وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ التَّحَمُّ بِهِمْ .

ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النَّسَبَ الْأَوَّلَ بِطَوِيلِ الزَّمَانِ ،
وَيَتَذَقَّبُ أَهْلَ الْعِلْمِ بِهِ فَيَخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ
وَمَا زَالَتْ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شُعْبٍ إِلَى شُعْبٍ ،
وَيَلْتَجِمُ قَوْمٌ بِأُخْرَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ
وَالتَّرَبِّ وَالسَّجَرِ . وَانْظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ
آلِ الْمُتَنَبِّهِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنُ لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .
وَيَنْتَهَى شَأْنُ بَجِيلَةٍ فِي عَرَقَجَةٍ بَنَى هَرَقَمَةَ ، لَمَّا وَلَدَهُ
عَمْرٌ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ الْإِفْعَاءَ مِنْهُ ، وَقَالُوا هُوَ فِينَا
لَرِيقٍ ، أَيْ دَخِيلٍ وَلَمِيقٍ ، وَطَلَبُوا أَنْ يُؤَلَّ عَلَيْهِمْ
جَرِيرًا ، فَسَأَلَهُ عَمْرٌ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ عَرَقَجَةُ :
صَلُّوْا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْأَوْدِ أَصَبْتُ
فَمَا فِي قُوَّةٍ ، وَلَجِثْتُ بِهِمْ . وَانْظُرْ مِنْهُ كَيْفَ

(١) هذا الفصل ساقط من بعض النسخ بحيث في نسخ اخرى
ورأيه لعل ليطابق ما ذكره المؤلف في أول الفصل فقال .

(١) انمت .

(٢) القصاص .

وَنُتَوِيَّ عَهْدُهُ الْأَوَّلَ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ، وَلَيْسَ جِلْدَتُهُمْ
وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ فَكَيْفَ لَهُ الرِّيَاسَةُ قَبْلَ هَذَا الْإِلْتِصَاقِ
أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ سَلَفِهِ، وَالرِّيَاسَةُ عَلَى الْقَوْمِ إِنْ شَاءَ كُنْ
مُتَنَاقِلَةً فِي مَنَئِيهِ وَاحِدٌ، نَعْنِي لَهُ الْقَلْبَ بِالْعَصَبِيَّةِ،
فَالْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لِهَذَا الْمُتَلَصِّقِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا
الِإِلْتِصَاقُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، وَمَنْعَهُ ذَلِكَ الْإِلْتِصَاقُ مِنَ
الرِّيَاسَةِ حِينَئِذٍ، فَكَيْفَ تَنْوَقِّلُ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى
حَالِ الْأَصْفَاقِ؟ وَالرِّيَاسَةُ، لِأَبَدٍ وَأَنْ تَكُونَ مَوْزُونَةً
عَنْ مُسْتَحْظِهَا لِمَا قُلْنَا مِنْ التَّغَلُّبِ بِالْعَصَبِيَّةِ، وَقَدْ
يَتَشَوَّفُ كَثِيرٌ مِنَ الرُّؤَسَاءِ عَلَى الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ
إِلَى أَنْ سَابَ يَلْهَجُونَ بِهَا، إِمَّا لِخُصُوصِيَّةِ قَبِيلَةٍ
كَانَتْ فِي أَهْلِ ذَلِكَ النَّسَبِ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ كَرَمٍ
أَوْ ذِكْرِ كَيْفَ اتَّفَقَ، فَيَنْزِعُونَ إِلَى ذَلِكَ النَّسَبِ،
وَيَتَوَرَّطُونَ بِالْأَدْعَى فِي شُعْبِهِ، وَلَا يَدْلُمُونَ مَا يُؤْفِقُونَ
فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْقُدْحِ فِي رِيَاسَتِهِمْ وَالطُّغَى فِي
شَرَفِهِمْ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّاسِ لِهَذَا الْعَهْدِ.

فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَدْعِيهِ زَنَاتُهُ جُمْلَةً أَنَّهُمْ مِنَ
الْعَرَبِ.

الفصل الثاني عشر

في أن الرياسة على أهل العصبية

لا تكون في غير نسبه

وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيَاسَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْقَلْبِ، وَالْقَلْبُ
إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ كَمَا قَدْ نَاقَلَهُ، فَلَا بُدَّ فِي الرِّيَاسَةِ
عَلَى الْقَوْمِ، أَنْ تَكُونَ مِنْ عَصَبِيَّةٍ غَالِبَةٍ لِعَصَبِيَّاتِهِمْ
وَاحِدَةً وَاحِدَةً، لِأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا أَحَسَّتْ
بِقَلْبِ عَصَبِيَّةِ الرَّئِيسِ لَهُمْ، أَقْبَرُوا بِالْإِدْعَاءِ
وَالِإِتْبَاعِ، وَالسَّاقِطُ فِي نَسَبِهِمْ بِالْجُمْلَةِ لَا تَكُونُ
لَهُ عَصَبِيَّةٌ فِيهِمْ بِالنَّسَبِ، إِنَّمَا هُوَ مُتَلَصِّقٌ لَزِيْقٍ،
وَعَايَةُ التَّعَصُّبِ لَهُ بِالزَّوْلَةِ وَالْجِلْفِ، وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ
لَهُ غَلَبًا عَلَيْهِمُ الْبَتَّةَ.

وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ قَدْ اتَّحَمَ بِهِمْ وَاخْتَلَطَ

وَمِنْ ذَلِكَ ادِّعَاءُ بَنِي هَبْدٍ الْقَوِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ
ابْنِ تَوْجِيْنٍ، أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،

(١) الحريان بكر الماهج سرج يفتحن نفس المولاه.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَدْعُو بَنُو سَعْدَ شَيْوخَ بَنِي
يَزِيدَ بْنِ زُعْبَةَ ، أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ
اللهُ عَنْهُ ، وَيَتَوَّ سَلَامَةَ شَيْوخَ بَنِي يَزِيدَ بْنِ نَوْجَانَ
أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمٍ ، وَالزُّوْلُوتَةَ شَيْوخَ رِيَّاحٍ ، أَنَّهُمْ مِنْ
مِنْ أَغْصَابِ الْبَرْكِيَّةِ ، وَكَلَّا بَنُو مَهْمَنَ أَمْرَأَةَ طَبِيءٍ
بِالْمَشْرِقِ ، يَدْعُونَ فِيهَا بَلَكْنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَغْصَابِهِمْ ،
وَأَمَّا ذَلِكَ كَثِيرٌ وَرِيَاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ مَائِيَّةٌ مِنْ
أَدْعَاءِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ ، بَلْ نَعْنُ أَنْ
يَكُونُوا مِنْ صَرِيحِ ذَلِكَ النَّسَبِ وَأَقْوَى حُصْبَائِهِ ،
فَاعْتَبِرْهُ ، وَاجْتَنِبِ الْمَقَالِدَ فِيهِ . وَلَا تَجْعَلْ مِنْ هَذَا
الْبَابِ إِلَّا حَاقَ مَهْدَى الْمُوحِدِينَ بِنَسَبِ الْعُلَوِيَّةِ ،
فَإِنَّ الْمَهْدَى لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنِبَةِ الرِّيَاسَةِ فِي هَرَمَةِ
قَوْمِهِ ، وَإِنَّمَا رَأْسُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ اسْتِخْلَافِهِ بِالْإِسْلَامِ
وَالدِّينِ وَفُتُوهِ قِبَالِ الْمَصَالِمَةِ فِي دَهْرِهِ ،
وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمَنَازِلَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ .
وَاللهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .

الفصل الثالث عشر

فِي أَنَّ الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ بِالأَصَالَةِ وَالْحَقِيقَةِ
لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَيَكُونُ لِهَرَمٍ بِالْجَازِ وَالشَّهْرِ
وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرَفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالْخِلَافِ .
وَمَعْنَى الْبَيْتِ أَنَّ يَدُ الرَّجُلِ فِي آبَائِهِ أَشْرَافًا
مَذْكُورِينَ يَكُونُ لَهُ بِوِلَايَتِهِمْ إِيَّاهُ وَالْإِنْتِسَابَ
لِيَهُمْ تَجَلَّةٌ فِي أَهْلِ جَلَدِيَّةٍ ، لِمَا وَفَّرَ فِي نَفْسِهِمْ
مِنْ تَجَلَّةٍ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَافِهِمْ ، وَالنَّاسُ فِي
تَسْلُطِهِمْ وَتَسْلُطِهِمْ مَعَايِدَ . قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
النَّاسُ مَعَايِدَ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ
إِذَا قُبِهُوا ، فَمَعْنَى الْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى الْأَنْسَابِ .

زُعْبَةَ فِي هَذَا النَّسَبِ الشَّرِيفِ ، وَظَلَمًا بِاسْمِ الْعَبَّاسِ
ابْنِ عَطِيَّةِ أَبِي عَبْدِ الْقَوِيِّ ، وَلَمْ يَلْعَمْ دُخُولَ أَحَدٍ
مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى الْمَشْرِقِ ، لِأَنَّهُ كَانَ مِنْذُ أَوَّلِ
دَوْلَتِهِمْ عَلَى دَهْوَةِ الْعُلَوِيِّينَ أَعْلَانُهُمْ مِنَ الْأَدَوَسَةِ
وَالْعَبِيدِيَّةِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سَيْطِ الْعَبَّاسِ أَحَدٍ
مِنْ شَيْعَةِ الْعُلَوِيِّينَ ؟

وَكُلُّ ذَلِكَ مَا يَدْعُو أَبْنَاءَ زِيَّانَ ، مُلُوكُ تِلْمِسَانَ
مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَاحِدِ ، أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْقَائِمِ بْنِ
إِدْرِيسَ دَعَاءًا إِلَى مَا اشْتَهَرَتْ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ
الْقَائِمِ ، فَيَقُولُونَ بِلِسَانِهِمُ الزُّنَانِي : أَنْتِ الْقَائِمُ ، أَيْ
بَنُو الْقَائِمِ ، ثُمَّ يَدْعُونَ أَنَّ الْقَائِمَ هَذَا هُوَ الْقَائِمُ
ابْنُ إِدْرِيسَ ، أَوْ الْقَائِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِدْرِيسَ .
وَكُلُّ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا فَغَايَةُ الْقَائِمِ هَذَا أَنَّهُ فَرَّ
مِنْ مَكَانِ سُلْطَانِيَّةِ مُسْتَجِيرًا بِهِمْ ، فَكَيْفَ تَنَمُّ لَهُ
الرِّيَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ
قِبَلِ اسْمِ الْقَائِمِ ، فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْوُجُودِ فِي الْأَدَوَسَةِ ،
فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَائِمَهُمْ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ ، وَهُمْ غَيْرُ
مُحْتَاجِينَ لِلْمَلِكِ ، فَإِنَّ مَنَالَهُمْ لِلْمَلِكِ وَالْعِزَّةُ ،
إِنَّمَا كَانَ بِعَصِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بِأَدْعَاءِ عُلَوِيَّةِ
وَلَا حُصْبَائِهِ وَلَا قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْسَابِ ، وَإِنَّمَا بِخَمَلٍ
عَلَى هَذَا الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَى الْمُلُوكِ بِمَنَازِلِهِمْ وَمَكَامِهِمْ .
وَيَسْتَهْزِئُونَ حَتَّى يَتَمَدَّ مِنْ الرَّدِّ ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ
يُحْصَيْنَ بْنِ زِيَّانَ مُؤْتَلٍّ سُلْطَانِيَّةً ، أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ
لَهُ ذَلِكَ أَنْكَرَهُ ، وَقَالَ يَلْعَنِي الزُّنَانِيَّةُ مَا عَتَاهُ ؟ أَمَا
الدُّنْيَا وَالْمُلْكُ فَيَلْنَاهُمَا بِسُيُوفِنَا ، لِأَهْلِنَا النَّسَبِ ،
وَأَمَا نَقُتُّهُمَا فِي الْآخِرَةِ فَمُرْتَوِدٌ إِلَى اللهِ . وَأَعْرَضَ حِينَ
التَّعَرُّفِ إِلَيْهِ بِالْمَلِكِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ الْأَنْسَابِ وَقَائِلَتَهَا إِنَّمَا هِيَ
الْعَصْبِيَّةُ لِلثَمَرَةِ وَالْفَتَاوَرِ . فَحَيْثُ تَكُونُ الْعَصْبِيَّةُ
مَرْهُومَةً ، وَالْمَنْشِئُ فِيهَا زَيْكِيٌّ مَحْمِيٌّ ، تَكُونُ قَائِلَةً
النَّسَبِ أَوْضَحَ ، وَتَمَرُّهَا أَقْوَى . وَتَعْلِيدُ الْأَشْرَافِ
مِنَ الْآبَاءِ زَائِدٌ فِي قَائِلَتِهَا ، فَيَكُونُ الْحَسَبُ وَالشَّرَفُ
أَصْلِيَيْنِ فِي أَهْلِ الْعَصْبِيَّةِ لَوْجُودِ ثَمَرَةِ النَّسَبِ .
وَتَفَاوُتُ الْبُيُوتِ فِي هَذَا الشَّرَفِ بِتَفَاوُتِ الْعَصْبِيَّةِ ،
لِأَنَّهُ يَمُرُّهَا . وَلَا يَكُونُ لِلْمُتَغَرِّبِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ
بَيْتٌ إِلَّا بِالْمَجَازِ ، وَإِنْ تَوَهُمُوا فَرُخَرَفَ مِنَ الدَّعَاوَى .
وَإِذَا اعْتَبَرْتَ الْحَسَبَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَجَدْتَ
مَعْنَاهُ : أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَتَدُّ سَلَفًا فِي خِلَالِ الْخَيْرِ ،
وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ مَعَ الرُّكُونِ إِلَى الْعَافِيَةِ مَا اسْتَطَاعَ .
وَهَذَا مُقَابِرٌ لِسِرِّ الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ النَّسَبِ
وَتَعْلِيدُ الْآبَاءِ ، لَكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ
بِالْمَجَازِ ، لِإِلَاقَةِ مَا فِيهِ مِنْ تَعْلِيدِ الْآبَاءِ الْمُتَعَفِّينَ
عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَيْرِ وَمَسَالِكِهِ ، وَلَيْسَ
حَسَبًا بِالْحَقِيقَةِ ، وَعَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ
حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِالْوَضْعِ اللَّغَوِيِّ ، فَيَكُونُ مِنَ الْمُشْكَلِ
الَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوَّلِيٌّ . وَقَدْ يَكُونُ لِلْبَيْتِ
شَرَفٌ أَوَّلٌ بِالْعَصْبِيَّةِ وَالْخِلَالِ ، ثُمَّ يَنْتَلِيخُونَهُ
لِلْعَافِيَةِ بِالْحَضَارَةِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَيَتَخَلِّطُونَ بِالْعَمَارِ
وَيَبْقَى فِي نَفْسِهِمْ وَمَوَاسٍ ذَلِكَ الْحَسَبُ ، يَعْلَمُونَ
بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَشْرَافِ الْبُيُوتَاتِ أَهْلِ الْعَصَائِبِ ،
وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِغَلَابِ الْعَصْبِيَّةِ جُمْلَةً .

وَقَدْ كَانُوا لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَكْثَرِ بُيُوتِ الْعَالَمِ بِالْمَنْشِئِ ،
أَوَّلًا لِمَا تَعَدَّدُ فِي سَلَفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ
مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُوسَى صَاحِبِ
مِلَّتِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ ، ثُمَّ بِالْعَصْبِيَّةِ ثَانِيًا وَمَا آتَاهُمْ
اللَّهُ بِهَا مِنَ الْمُلْكِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ ، ثُمَّ انْتَسَلَخُوا مِنْ
ذَلِكَ أَجْمَعُ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ اللَّيْلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ ،
وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاظُ الْأَرْضِ وَانْفَرَدُوا بِالِاسْتِعْيَادِ
لِلْكَفْرِ آتَاكَ مِنَ السَّيْنِ ، وَمَا زَالَ هَذَا الْوَسْوَاسُ
مُصَاحِبًا لَهُمْ ، فَتَجَلَّيْهِمْ يَقُولُونَ : هَذَا هَارُونِي ،
هَذَا مِنْ نَسْلِ يُوْنُسَ ، هَذَا مِنْ عَقِبِ كَالِبِ ، هَذَا
مِنْ سِبْطِ يَهُوْدَا ، مَعَ ذَهَابِ الْعَصْبِيَّةِ وَرُسُوخِ
الدَّلِّ فِيهِمْ مِنْذُ أَحْقَابِ مُتَطَاوِلَةٍ . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمُ الْمُتَعَفِّينَ فِي أَنْسَابِهِمْ غَرِ
الْعَصْبِيَّةِ يَذْهَبُ إِلَى هَذَا الْهَذْيَانِ .

وَقَدْ غَلِطَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُسْدٍ فِي هَذَا لَمَّا ذَكَرَ
الْحَسَبَ فِي كِتَابِ الْخَطَابَةِ مِنْ تَلْجِيسِ كِتَابِ
الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ (١) ، «وَالْحَسَبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ
قَدِيمٍ تَزُولُهُمُ بِالْمَنْشِئَةِ» ، وَلَمْ يَتَرَعْضْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ .

وَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَنْفَعُهُ قَدَمُ نَزْلِهِمُ بِالْمَنْشِئَةِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عِصَابَةٌ ، يَرْهَبُ بِهَا جَانِبَهُ وَتَحْمِلُ
غَيْرَهُمْ عَلَى الْقَبُولِ مِنْهُ ، فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ الْحَسَبَ
عَلَى تَعْلِيدِ الْآبَاءِ قَطُ ، مَعَ أَنَّ الْخَطَابَةَ إِنَّمَا هِيَ
اسْتِمَالَةٌ مِنْ نَوَازِرِ اسْتِمَالَتِهِ ، وَهُمْ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ،
وَأَمَّا مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ الْبَيْتَةَ فَلَا يُلْتَمَسُ إِلَيْهِ وَلَا يَغْدُرُ
عَلَى اسْتِمَالَةٍ أَحَدٍ ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ هُوَ .

وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ النَّاشِئِينَ فِي بُيُوتِ
الْعَرَبِ أَوْ الْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مَوْسُوْنُونَ بِمِلْكِهِ .
وَكَثَرُ مَا رَسَخَ الْوَسْوَاسُ فِي ذَلِكَ لِيَبْنِيَ إِسْرَائِيلَ ، فَإِنَّهُ

(١) لقب يعرف به أرسطو . كما يعرف الفارابي باسم
علم التنقيح .

فَلَيْتَهُمْ إِنَّمَا يَسْمُرُونَ بِالرُّسُوحِ فِي وِلَاءِ الدُّوَلَةِ
وَيَحْتَمِلُهَا، وَتَعْلِدُ الْآبَاءُ فِي وَلَائِهَا، أَلَا تَرَى إِلَى
مَوَالِي الْأَتْرَافِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ. وَلَكِنْ بَنِي بَرَكٍ
مِنْ قَبْلِهِمْ، وَبَنِي نُوبُخْتِ كَيْفَ أَذْرَكُوا الْبَيْتَ
وَالشَّرَفَ وَبَنُوا الْمَجْدَ وَالْأَصَالَةَ بِالرُّسُوحِ فِي
وِلَاءِ الدُّوَلَةِ، فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ بَحْمَنِ بْنِ خَالِدٍ مِنْ
أَعْظَمِ النَّاسِ بَيْتًا وَشَرَفًا بِالْإِنْتِسَابِ إِلَى وِلَاءِ
الرُّشَيْدِ وَقُوَّةٍ، لَا بِالْإِنْتِسَابِ فِي الْفُرْسِ، وَكَذَا
مَوَالِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَحَدَّثَنَا، إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ
وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوحِ فِي وَلَائِهَا وَالْأَصَالَةُ فِي اضْطِنَاعِهَا،
وَيُضْطَلُّ نَسَبُ الْأَقْدَمِ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا، وَيَبْقَى
مُلْقًى لِاجْتِهَادِهِ فِي أَصَالَتِهِ وَجَلْبِهِ، وَإِنَّمَا الْمُتَعَبِّرُ
نَسَبَهُ وَلِأَيِّهِ اضْطِنَاعُهُ. إِذْ فِيهِ يَرَى الْعَصَبِيَّةَ الَّتِي
بِهَا الْبَيْتُ وَالشَّرَفُ فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقًّا مِنْ شَرَفِ
مَوَالِيهِ، وَيَنَازَعُهُ مِنْ بَنَائِهِمْ، فَلَمْ يَنْفَعَهُ نَسَبُ
وِلَائِهِ، وَإِنَّمَا بَنَى مَجْدَهُ نَسَبُ الْوِلَاءِ فِي الدُّوَلَةِ
وَلَحْمَةُ الْاضْطِنَاعِ فِيهَا وَالتَّرْبِيَةِ.

وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ الْأَوَّلَى فِي لَحْمَةِ عَصَبِيَّةِ
وَدَوْلَتِهِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلَاؤُهُ وَاضْطِنَاعُهُ فِي
أُخْرَى، لَمْ تَنْفَعَهُ الْأَوَّلَى لِلْعَابِ عَصَبِيَّتِهَا، وَانْتَفَعَ
بِالثَّانِيَةِ لَوُجُودِهَا. وَهَذَا حَالُ بَنِي بَرَكٍ، إِذْ
الْمَنْقُولُ أَتَاهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْفُرْسِ مِنْ سَلَكَةِ
بُيُوتِ النَّارِ جَنَلَهُمْ، وَلَكِنْ صَارُوا إِلَى وِلَاءِ بَنِي
الْعَبَّاسِ، لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلَى اِشْتِدَادٌ، وَإِنَّمَا كَانَ
شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ وَلَائَتِهِمْ فِي الدُّوَلَةِ، وَاضْطِنَاعُهُمْ
وَمَا يَسُوَّى هَذَا قَوْمَهُمْ تَوَسَّوْهُمْ بِهِنَّ النَّفْسُ الْجَاسِعَةُ
لَا حَقِيقَةً لَهُ، وَالْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَا، وَهَذَا

وَأَهْلُ الْأَصْنَارِ مِنَ الْعَصْرِ بِهَلِيهِ الْمَنَاقِبِ. إِلَّا
أَنَّ ابْنَ رُغْدِ دَنَى فِي جَبَلٍ وَبَلَدٍ، وَلَمْ يَمْلِكُوا
الْعَصَبِيَّةَ، وَلَا أَنْبَسُوا أَحْوَالَهَا، فَبَقِيَ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ
وَالْحَسَبِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْ تَعْلِيدِ الْآبَاءِ عَلَى
الْإِمْلَاقِ، وَلَمْ يَرْجِعْ فِيهِ حَقِيقَةُ الْعَصَبِيَّةِ وَسِرُّهَا
فِي الْخَلِيقَةِ. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

الفصل الرابع عشر

فِي أَنَّ الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ لِلْمَوَالِي وَأَهْلِ الْاضْطِنَاعِ،

إِنَّمَا هُوَ بِمَوَالِيهِمْ لِأَهْلِ السَّاهِمِ

وَذَلِكَ أَنَا قَدَّمْنَا : أَنَّ الشَّرَفَ بِالْأَصَالَةِ
وَالْحَقِيقَةِ، إِنَّمَا هُوَ لِأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ، فَإِذَا اضْطَنَعَ
أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ قَوْمًا مِنْ غَيْرِ نَسَبِهِمْ، أَوْ اسْتَرْقُوا
الْثُبْدَانَ وَالْمَوَالِي وَالتَّحَمُّوا بِهِ كَمَا قُلْنَا، ضَرَبَ
مَعَهُمْ أُولَئِكَ الْمَوَالِي وَالْمُضْطَنَعُونَ بِنَسَبِهِمْ فِي
بَلَدِ الْعَصَبِيَّةِ، وَلَبِسُوا جِلْدَهَا كَانَتْهَا عَصَبِيَّتُهُمْ،
وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِنْتِظَامِ فِي الْعَصَبِيَّةِ مُسَاهَمَةٌ فِي
نَسَبِهَا، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَوَالِي
الْقَوْمِ مِنْهُمْ»، وَسَوَاءٌ كَانَ مَوَالِي رَقًى، أَوْ مَوَالِي
اضْطِنَاعٍ وَحِلْبٍ. وَلَبِسَ نَسَبُ وَلَادَتِهِ يَنْفَعُ لَهُ.
وَعَصَبِيَّةُ ذَلِكَ النَّسَبِ مَقْذُودَةٌ لِلْعَابِ بِسِرِّهَا عِنْدَ
الْيَحَامِيهِ بِهَذَا النَّسَبِ الْآخَرِ. وَقَدْ نَذَرْنَا أَهْلَ عَصَبِيَّتِهَا
فَيُعِيرُ مِنْ هَوْلِهِ وَيَنْتَرِجُ فِيهِمْ، فَإِذَا تَعَلَّدَتْ لَهُ
الْآبَاءُ فِي هَلِيهِ الْعَصَبِيَّةِ، كَانَ لَهُ بَيْنَهُمْ شَرَفٌ وَبَيْتٌ
عَلَى نَسَبِهِ فِي وَلَائِهِمْ وَاضْطِنَاعِهِمْ لِأَيْتِجَاوَزُهُ إِلَى
شَرَفِهِمْ، بَلْ يَكُونُ أَقْدَمُ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ.
وَهَذَا شَأْنُ الْمَوَالِي فِي الدُّوَلِ وَالْخَلْعِ كُلِّهِمْ،

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ^(١)، وَلِلَّهِ وُضُوهُ أَكْثَرُ.

الفصل الخامس عشر

في أن نهاية الحساب في العقب الواحد أربعة آيات

اعْلَمُ أَنَّ الْعَالَمَ الْمُتَصَرِّ بِمَا فِيهِ كَاتِبٌ فَائِدُهُ
لَا مِنْ ذَوَاتِهِ، وَلَا مِنْ أَحْوَالِهِ . قَالُمُكُونَاتُ مِنْ
الْمُتَدِينِ وَالنَّبَاتِ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الْإِنْسَانِ
وغيرِهِ كَاتِبَةٌ فَائِدَةٌ بِالْمَعَانِيَةِ ، وَكُلِّهَا مَا يَغْرَضُ
لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ، وَخُصُوصًا الْإِنْسَانِيَةِ . قَالُمُكُونُ
تَنْشَأُ ثُمَّ تَدْرُسُ وَكَلَّا الصَّنَائِعُ وَأَشْنَالُهَا . وَالْحَسْبُ
مِنَ الْعَوَاضِلِ الَّتِي تَغْرَضُ لِلْأَقْدَمِينَ ، فَهُوَ كَاتِبٌ
فَائِدٌ لِمَحَالَةٍ . وَلَيْسَ يُوْجَدُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ
الْخَلْقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ بِآبَائِهِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَهٍ ،
إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كَرَامَةً بِهِ وَحِبَابَةً عَلَى السَّرِّ فِيهِ . وَأَوَّلُ كُلِّ شَرَفٍ
خَارِجِيَّةٌ كَمَا قِيلَ ، وَهِيَ الْخُرُوجُ عَنِ الرَّيَاسَةِ
وَالشَّرَفِ إِلَى الضَّعْفِ وَالْإِبْتِدَالِ ، وَعَلِمَ الْحَسْبُ ،
وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسْبٍ فَلَعْنُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ ،
شَأْنُ كُلِّ مُحَلَّتٍ .

ثُمَّ إِنَّ نَهَائِمَتِي فِي أَرْبَعَةِ آيَاتِهِ ، وَكَذَلِكَ أَنَّ بَاتِي
الْمُجِدَّ عَالِمٌ بِمَا عَالَمُهُ فِي بَنَائِهِ ، وَمُحَافِظٌ عَلَى
الْخِلَافِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ ، وَابْنُهُ مِنْ
بَغْيِهِ مُبَايَرٌ لِأَبِيهِ ، فَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ وَأَخْلَعَهُ عَنْهُ
عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرَ السَّامِعِ بِالشَّيْءِ
عَنِ الْمَعْنَى لَهُ ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ الثَّلَاثُ كَانَ حَقُّهُ
الْإِتْقَانُ وَالتَّقْلِيدُ خَاصَّةً فَقَصَّرَ عَنِ الثَّانِي تَقْصِيرَ

الْمَلَكُ عَنِ الْمُجْتَهِدِ ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ الرَّابِعُ قَصَرَ عَنِ
طَرِيقَتِهِمْ جُمْلَةً وَأَصَاغَ الْخِلَالَ الْحَافِظَةَ لِنِسَاءِ
مَجْلِسِهِمْ وَاخْتَصَرَهَا ، وَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ الْبَيِّنَانُ لَمْ
يَكُنْ بِمَعْنَاهُ وَلَا تَكَلَّفَ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَجِبَ
لَهُمْ مِنْذُ أَوَّلِ النِّشَاءِ بِمُجَرَّدِ انْتِسَابِهِمْ ، وَلَيْسَ
بِعَصَابَةٍ وَلَا بِخِلَالٍ لِمَا يَرَى مِنَ التَّجَلُّةِ بَيْنَ
النَّاسِ ، وَلَا يَتَلَمَّ كَيْفَ كَانَ حُلُولُهَا وَلَا
سَبَبُهَا وَيَتَوَهَّمَ أَنَّهُ النَّسَبُ فَقَطْ ، فَيَرْبَأُ بِتَفْسِيهِ
عَنِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَيَرَى الْقَضَالَ لَهُ عَلَيْهِمْ وَتَوْقًا بِمَا
رَبَّى فِيهِ مِنْ اسْتِثْبَاعِهِمْ وَجَهْلًا بِمَا أَوْجَبَ ذَلِكَ
الاسْتِثْبَاعَ مِنَ الْخِلَالِ الَّتِي مِنْهَا التَّوَاضُّعُ لَهُمْ ،
وَالْأَخْذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَيَخْتَصِرُهُمْ بِمِلْكٍ فَيَنْقُصُونَ
عَلَيْهِ وَيَخْتَصِرُونَهُ وَيُجْلِدُونَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ
الْمَنْسَبِ مِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقْبِ لِلْإِنْعَادِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ
كَمَا قُلْنَا بَعْدَ التَّوَقُّفِ بِمَا يَرْتَضُونَهُ مِنْ خِلَالِهِ
فَقَنَّمُوا فُرُوعَ هَذَا ، وَتَلَوُوا فُرُوعَ الْأَوَّلِ وَيَنْهَلُهُمْ
بِنَاءُ بَيْتِهِ .

هَذَا فِي الْمُلُوكِ . وَهَكَذَا فِي بَيُوتِ الْقِبَائِلِ
وَالْأُمَرَاءِ وَأَهْلِ الْعَصَبِ أَجْمَعٍ ، ثُمَّ فِي بَيُوتِ
أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذَا انْخَلَطَتْ بَيُوتُ نَشَاتٍ بِبَيُوتِ
أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبُكُمْ وَيَأْتِي
بِحَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِخَزِيرٍ^(١) .

وَإِنْ تَرَأَيْتُ الْأَرْبَعَةَ فِي الْأَحْصَابِ إِشْمًا هُوَ فِي
الْقَالِبِ . وَإِلَّا فَقَدْ يَذْهَبُ الْبَيْتُ مِنْ فُؤَادِ الْأَرْبَعَةِ
وَيَتَلَاقَى وَيَنْهَلُهُمْ ، وَكَذَلِكَ يَتَّصِلُ أَمْرُهُا إِلَى الْخَامِسِ
وَالسَّادِسِ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي انْخِلَاطِ وَكَعَابٍ ، وَاضْئَارٍ

(١) الْإِجَان ١٦ ١٧ مِنْ سُورَةِ طه ١٠ طاهر .

(١) الْآيَةُ دَامَ ١٢ مِنْ سُورَةِ الْمُجَرَّدِ .

هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم ، ومهمم
بيت بني النبيان ، من بني الحارث بن كعب
النسبي . وهذا كله يدل على أن الأربعة الآباء
نهاية في الحسب ، والله أعلم .

الفصل السادس عشر

في أن الأم الرحبية أقدر على التغلب من صواها
إعلم أنه لما كانت البدوة سبباً في الشجاعة ،
كما قلناه في المصلحة الثالثة (١) ، لا جرم كان
هذا الجيل الرحبي أشد شجاعة من الجيل
الآخر . فهم أقدر على التغلب والفتوح ما في
أيدي صواهم من الأمم . بلر الجيل الواحد
تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأصهار .

فكلما تزول الأرياف وتفتقروا (٢) النعيم ، وألغوا
حوالة الغضب في المعاش والنعيم ، نقص من
شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبدانيتهم .
واغتر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الغنم
والبحر الوحشية والحمر ، إذا زال توحشها بمخالطة
الادميين ، وأخصب عيشها كيف يتخلف حالها
في الاتيهاض والثلث حتى في مشيتها وحسن
أدبها ، وكذلك الأدي المتوحش ، إذا أيس وألف .
وسببه : أن تكون السجاية والطائع ، إنما
هو عن المألوفات والعوائد . إذا كان القلب
للأم إنما يكون بالإندام واليسارة . فمن كان
من هذه الأجيال أعرق في البدوة وأكثر توحشاً
كان أقرب إلى التغلب على صواها ، إذا تقاربا في

الأربعة من قبل الأجيال الأربعة : بان ، ومباشر
له ، ومقلد ، وحاميم ، وهو أقل ما يمكن . وقد
اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب باب الملح
والنشاء . قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الكريم
ابن الكريم . ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف
ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » إشارة إلى
أنه بلغ الغاية من التجدي . وفي التوراة ما معناه :
« إن الله ربك طالق (١) غير مطالب بذنوب الآباء
لبنين على التواليف والروايع » . وهذا يدل
على أن الأربعة الأعقاب غاية في الأنساب والحسب .
وفي كتاب الأغاني : في أخبار عوف التوافي (٢)

أن كسرى قال للثعمان : هل في العرب قبيلة
تتشرف على قبيلة ؟ قال : نعم قال بلئ شئ ؟
قال : من كان له ثلاثة آباء متواليه رؤساء ، ثم
انصل ذلك بكمال الربع ، فاليث من قبليته .
وطلب ذلك فلم يجد إلا آل حليمة بن بدر
الفزاري ، وهم بيت قيس ، وآل ذي الجدين
بيت شيبان ، وآل الأشعر بن قيس من
كننة ، وآل حاجب بن ذرارة ، وآل قيس بن
عاصم المنقري من بني تميم . فجمع هؤلاء
الرفق ، ومن تبعهم من عشائريهم ، وأقدم لهم
الحكام والمداول . فقام حليمة بن بدر ، ثم
الأشعث بن قيس لقربانيه من الثعمان ، ثم بسطام
ابن قيس بن شيبان ، ثم حاجب بن ذرارة ، ثم
قيس بن عاصم ، وخطبوا ونشروا فقال كسرى :
كلهم سيد يصلح لموضع . وكانت هذه البيوتات

(١) صواها الفصل الخامس من هذا الباب .

(٢) تظفروا فيه به العوض .

(١) فاهم . (٢) في الأصل : عن بني التوافي وهو غير .

إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّاسِخِ ، وَالْأَخْطَرُ بِمَدَاهِبِ الْمُلْكِ فِي
الْمَيْلِ وَالْعَلَامِ وَالْإِسْتِغْنَاءِ مِنْ ذَلِكَ وَالْمُنَاقِ فِيهِ
بِمَقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الرِّيشِ وَالْتَرْفِ ، وَمَا يَذْهَبُ
إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ فَتَلَحُّبُ حُشُونَةِ الْبُكَوَةِ
وَتَضَعُفُ الْعَصِيَّةِ وَالْبَسَالَةِ ، وَيَتَنَعَّمُونَ فِيمَا آتَاهُمُ
اللَّهُ مِنَ الْبَسَطَةِ ، وَتَنَشَأُ بَنُوهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِي
مِثْلِ ذَلِكَ مِنَ التَّرَفِّعِ عَنْ هَيْئَةِ أَنْفُسِهِمْ بِعَوَالِيهِ
حَاجَاتِهِمْ وَيَسْتَنَكِبُونَ عَنْ سَائِرِ الْأُمُورِ الصَّرُورِيِّ
فِي الْعَصِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ خُلُقًا لَهُمْ وَصِجَةً
فَتَنْقُصُ عَصِيَّتُهُمْ وَبَسَالَتُهُمْ فِي الْأَجْيَالِ بِعَدَمِهِمْ
بِتَعَاقِبِهِمْ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الْعَصِيَّةُ فَيَأْذَنُوا بِالْإِفْرَاضِ .
وَعَلَى قَدَرِ تَرْفَعِهِمْ وَيَغْنَمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى
الْفَنَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمُلْكِ ، فَإِنَّ حَوَارِضَ التَّرَفِّ
وَالْفَرْقِ فِي النِّعَمِ ، كَأَيُّرٍ مِنْ سَوَرَةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا
التَّغْلِبُ ، وَإِذَا انْقَرَضَتِ الْعَصِيَّةُ قَصُرَ الْفَيْلُ حَتَّى
الْمُدَافَعَةِ وَالْجِمَافَةِ فَضْلًا عَنِ الْمَطَالِبَةِ ، وَالتَّهْنُئَةِ
الْأَمْرِ بِوَاهِمٍ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرَفَّ مِنْ حَوَالِقِ
الْمُلْكِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ .

الفصل التاسع عشر

فِي أَنَّ مِنْ حَوَالِقِ الْمُلْكِ حَصُولُ الْمُلَّةِ الْقَبِيلِ
وَالْإِنْقِيَادِ إِلَى سَوَاهِمِ .
وَسَبَبُ ذَلِكَ : أَنَّ الْمُلَّةَ وَالْإِنْقِيَادَ كَأَيُّرٍ
لِسَوَرَةِ الْعَصِيَّةِ وَيُثْلِفُهَا فَإِنَّ انْقِيَادَهُمْ وَمَلَكَتُهُمْ
كَلِيلٌ عَلَى فَقْدَانِهَا ، فَمَا رَكِبُوا لِلْمُلَّةِ حَتَّى عَجَزُوا
عَنِ الْمُدَافَعَةِ ، فَلَوْلَى أَنْ يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ الْمُدَافَعَةِ
وَالْمَطَالِبَةِ .
وَإِخْتِزَارُ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَمَا دَعَاهُمْ مُوسَى

الْأَمْرَ مِنْ يَدَيَا وَصَارَ الْمُلْكُ أَجْمَعَ لَهَا ، وَإِنْ انْتَهَتْ
قُوَّتُهَا وَلَمْ يَغَارُنْ ذَلِكَ هَرَمَ النُّوْلَةِ ، وَإِنَّمَا قَارَنَ
حَاجَتَهَا إِلَى الْإِسْطِظْهَارِ بِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ انْتِظَمَتِهَا
النُّوْلَةُ فِي أَوَّلِيَّاتِهَا تَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى مَا يَحِلُّ مِنْ
مَقَاصِدِهَا ، وَذَلِكَ مُلْكٌ آخَرُ دُونَ الْمُلْكِ الْمُسْتَبِدِّ .
وَهُوَ كَمَا وَقَعَ لِلرُّكُوفِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَلِصَنَاجَةِ
وَزَنَاقَةِ مَعَ كِتَامَةِ ، وَلِكِبْنِي حَمْدَانَ مَعَ مُلُوكِ الشَّيْخَةِ
مِنْ الْمُلُوكِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ . فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْمُلْكَ هُوَ
غَايَةُ الْعَصِيَّةِ ، وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا ، حَصَلَ
لِلْقَبِيلَةِ الْمُلْكُ إِذَا بِالْإِسْتِغْنَاءِ أَوْ بِالْمَظَاهِرَةِ عَلَى
حَسَبِ مَا يَسْتَمُ الْوَقْتُ الْمُقَارِنَ لِلذِّكْرِ ، وَإِنْ عَاقَبَهَا
عَنْ بُلُوغِ الْغَايَةِ حَوَالِقُ كَمَا تَبَيَّنَتْ وَقَفَتْ فِي مَقَامِهَا
إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ .

الفصل الثامن عشر

فِي أَنَّ مِنْ حَوَالِقِ الْمُلْكِ حَصُولُ التَّرَفِّ وَالنِّعَمِ
الْقَبِيلِ فِي النِّعَمِ .
وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا غَلِبَتْ بِعَصِيَّتِهَا
بَعْضُ الْقَلْبِ ، اسْتَوَلَتْ عَلَى النِّعَمِ بِمَقْدَارِهِ ،
وَشَارَكَتْ أَهْلَ النِّعَمِ وَالْخِصْبِ فِي نِغْمَتِهِمْ خِصْبِهِمْ ،
وَضَرَبَتْ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ يَسْتَهْمُ وَصِجَةً بِمَقْدَارِ
غَلِبِهَا وَاسْتَظْهَارِ النُّوْلَةِ بِهَا . فَإِنْ كَانَتْ النُّوْلَةُ
مِنْ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي انْتِزَاعِ أَمْرِهَا ،
وَلَا مُشَارَكَتِهَا فِيهِ أَذْهَرَ ذَلِكَ الْقَبِيلَ لِقَبِيلِهَا
وَالْقُنُوعَ بِمَا يَسُودُونَ مِنْ نِغْمَتِهَا وَيَشْرُكُونَ فِيهِ
مِنْ جِبَابَتِهَا ، وَلَمْ تَسْمِ أَمَالُهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ
مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَلَا أَتْبَابِهِ ، إِنَّمَا هَمُّهُمْ النِّعَمُ
وَالْكَسْبُ وَحِصْبُ الْعَيْشِ وَالسُّكُونُ فِي ظِلِّ النُّوْلَةِ

خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الذُّلِّ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّفُوا بِهِ
وَأَقْسَدُوا مِنْ عَصِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ النِّبِيَّ
جِيلَ آخَرَ عَزِيزٌ ، لَا يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ
وَلَا يُسَامُ بِالْمَلَكَةِ ، فَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَصِيَّةٌ أُخْرَى
اِقْتَدَرُوا بِهَا عَلَى الْمُطَالِبَةِ وَالتَّلَطُّبِ . وَيُظْهَرُ لَكَ مِنْ
ذَلِكَ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِي فِيهَا فَتَاءُ جِيلٍ
وَنَشَأَةُ جِيلٍ آخَرَ ، مُبْحَنَانِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ .

وَفِي هَذَا أَوْضَحَ كَلِيلٌ عَلَى شَأْنِ الْعَصِيَّةِ وَأَنَّهَا
هِيَ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْمُدَافَعَةُ وَالْمُقَاوَمَةُ وَالْحِمَايَةُ
وَالْمُطَالِبَةُ ، وَأَنَّ مَنْ قَدَّمَ عَاجِزَ عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ .
وَيَلْحَقُ بِهَذَا الْفَصْلِ فِيمَا يُوجِبُ الْمَلَكَةَ
لِلْقَبِيلِ شَأْنُ الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ، فَإِنَّ الْقَبِيلَ
الْعَارِمِينَ مَا أَعْطَاوُا الْيَدَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رَضُوا بِالْمَلَكَةِ
فِيهِ لِأَنَّ فِي الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ضَيْمًا وَمَلَكَةً
لَا تَحْمِلُهَا الشُّفُوسُ الْأَبِيَّةُ إِلَّا إِذَا اسْتَهْوَتْهُ عَنْ
الْقَتْلِ وَالتَّلَطُّبِ ، وَأَنَّ عَصِيَّتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ
عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ ، وَمَنْ كَانَتْ عَصِيَّتُهُ لَا
تُدْفَعُ عَنْهُ الضَّيْمُ ، فَكَيْفَ لَهُ بِالْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالِبَةِ
وَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْانْقِيَادُ لِلذَّلِّ ، وَالْمَلَكَةُ عَائِقَةٌ كَمَا
قَدْ مَنَاهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَأْنِ
الْحَرْثِ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ الْمِحْرَاثِ فِي بَقْعِ دُوْرِ
الْأَنْصَارِ : « مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ دَارُ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ الذَّلُّ »
فَهُوَ كَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ التَّزَمُّ مُوجِبٌ لِلذَّلِّ .
هَذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذَلِكَ الْمَغَارِمِ مِنْ خُلُقِ الْمَكْرِ
وَالْخَلِيَعَةِ بِسَبَبِ مَلَكَةِ الْقَهْرِ ، فَإِذَا رَأَيْتَ الْقَبِيلَ
بِالْمَغَارِمِ فِي رِبْقَةٍ مِنَ الذَّلِّ فَلَا تَعْمَلَنَّ لَهَا بِمَلِكِ
آخِرِ النَّحْرِ .

عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُلْكِ الشَّامِ ، وَآخِرَتَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ
قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مُلْكَهَا كَيْفَ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَالُوا :
« إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ نَرَانَا أَنْ نَلْخُطَّهَا حَتَّى يَخْرُجُوا (١)
مِنْهَا ، أَيْ يَخْرِجَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا بِضَرْبٍ مِنْ
قُدْرَتِهِ غَيْرِ عَصِيَّتَيْنَا ، وَتَكُونُ مِنْ مُعْجَزَاتِكَ يَا مُوسَى .
وَلَكِنَّا عَزَمَ عَلَيْهِمْ لَحْجُوا وَارْتَكَبُوا الْبُغْيَانَ ، وَقَالُوا :
« أَفْهَبَ أَنْتَ وَرَبِّكَ فَقَاتِلَا (٢) » ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا
أَيْسَأَمْنِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالِبَةِ ،
كَمَا تَقْتَضِيهِ الْآيَةُ بَوْمَا يُؤْتَرُ فِي تَفْسِيرِهَا وَذَلِكَ بِمَا
حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْانْقِيَادِ ، وَمَا رَكِبُوا مِنَ الذَّلِّ
لِلْقَبِيلِ أَخْفَاءًا حَتَّى ذَهَبَتْ الْعَصِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً
مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ
مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ لَهُمْ ، وَأَنَّ الْعَمَالِقَةَ الَّذِينَ
كَانُوا بِأَرِيحَا فَرِسَتَهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ اللَّهِ قُدْرَهُ لَهُمْ ،
فَلْأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَعَجَزُوا تَعْوِيلًا عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ
مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُطَالِبَةِ ، لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ
خُلُقِ الْمَلَكَةِ ، وَلَعَنُوا فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيِّهِمْ مِنْ
ذَلِكَ ، وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَقَابَلَهُمُ اللَّهُ بِالتَّيَّةِ ، وَهُوَ
أَنَّهُمْ تَاهُوا فِي قَفَرٍ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَبِضْرَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا لِعُمُرَانِ ، وَلَا نَزَلُوا
بِضْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا قَصَهُ الْقُرْآنُ لِيُظَلِّ
الْعَمَالِقَةَ بِالشَّامِ ، وَالْقَبِيلُ بِضْرَ عَلَيْهِمْ لِيَعْزِزَهُمْ
عَنِ مَقَاوِمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوا .

وَيُظْهَرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَقْهُومِهَا أَنَّ حِكْمَةَ
ذَلِكَ النَّبِيِّ مُقْصُودَةٌ ، وَهِيَ فَتَاءُ الْجِيلِ الَّذِينَ

(١) الْآيَةُ دَامَ ٢٢ مِ سُرَةُ الْمَائَةِ .

(٢) الْآيَةُ دَامَ ٢٨ مِ سُرَةُ الْمَائَةِ .

وَتَتَحَقَّقُ بِهِ حَقِيقَتُهُ وَهُوَ الصَّبِيَّةُ وَالْمُشِيرُ .
وَقَرَعَ يَتَسَمَّ وَجُودَهُ وَيَكْبِلُهُ وَمَوَ الْجَلَالُ . وَإِذَا كَانَ
الْمُلْكُ غَايَةً لِلصَّبِيَّةِ فَهُوَ غَايَةً لِفِرْعَوْنِهَا وَمُتَمَمِّاتُهَا
وَهِيَ الْجَلَالُ لِأَنَّ وَجُودَهُ دُونَ مُتَمَمِّاتِهِ كَوُجُودِ
شَخْصٍ مَقْطُوعِ الْأَغْصَانِ ، أَوْ ظُهُورِهِ مَرْتَابًا بَيْنَ
النَّاسِ .

وَإِذَا كَانَ وَجُودُ الصَّبِيَّةِ نَقْطَةً مِنْ غَيْرِ انْتِحَالِ
الْجَلَالِ الْحَبِيدَةِ نَقْصًا فِي أَهْلِ الْيُبُوتِ وَالْأَخْصَابِ
فَمَا ظَنُّكَ بِأَهْلِ الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ لِكُلِّ مَجْدٍ ،
وَنَهَايَةُ لِكُلِّ حَسَبٍ ؟

وَأَيْضًا فَالْسياسةُ وَالْمُلْكُ هِيَ كَهَالَةُ لِلخَلْقِ
وَحِلَافَةُ اللَّهِ فِي الْعِيَادِ لِتَنْفِيدِ أَسْكَامِهِ بِهِمْ .
وَأَحْكَامُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَعِيَادِهِ ، إِنَّمَا هِيَ بِالْخَيْرِ
وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ الشَّرَائِعُ .
وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا هِيَ مِنْ الْجَهْلِ وَالشُّبُهَانِ ،
بِخِلَافِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَقُدْرَةِ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ
وَالشَّرِّ مِمَّا وَمَقْدَرُهُمَا إِذْ ، لَا قَاعِلَ يَوَكِّهُ . فَعِنِ
حَصَلَتْ لَهُ الصَّبِيَّةُ الْكَفِيلَةُ بِالْقُدْرَةِ وَأَوْرِسَتْ
مِنْهُ خِلَالَ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَنْفِيدِ أَسْكَامِ اللَّهِ فِي
خَلْقِهِ ، فَقَدْ نَهَى لِلْخِلَافَةِ فِي الْعِيَادِ وَكَهَالَةِ
الْخَلْقِ ، وَوُجِدَتْ فِيهِ الصَّلَاحَةُ لِلْمُلْكِ ، وَهَذَا
الْبَرَاهَانُ أَوَّلُ مِنْ الْأَوَّلِ ، وَأَصَحُّ مَبْنًى .

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ خِلَالَ الْخَيْرِ مُبَادِلَةٌ بِوُجُودِ
الْمُلْكِ لِمَنْ وَجِدَتْ لَهُ الصَّبِيَّةُ ، فَإِذَا نَظَرْنَا فِي
أَهْلِ الصَّبِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى
كَثِيرٍ مِنَ التَّوَكُّلِ وَالْأَمْرِ ، فَوَجَدْنَاهُمْ يَتَنَاقَشُونَ
فِي الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ بَيْنَ الْكَرَمِ وَالْفَقْرِ عَنِ الزَّلَاتِ

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلْطُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ زَنَاةَ
بِالْمَغْرِبِ كَانُوا شَاوِيَةً يُودُونَ الْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ
عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ ، وَهُوَ غَلْطٌ فَاجِسٌ
كَمَا رَأَيْتَ ، إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمَا اسْتَتَبَ لَهُمْ
مُلْكُ ، وَلَآتَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ . وَانْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرُ
بِرَارَ مَلِكِ الْبَابِ لِعَبِيدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَيْبَعَةَ لَمَّا
أُظِّلَ عَلَيْهِ ، وَسَأَلَ شَهْرُ بِرَارَ أَمَانَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ ،
فَقَالَ : «أَنَا الْيَوْمَ مِنْكُمْ ، يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ ، وَضَعْتُ
مَعَكُمْ فَرَسًا بِكُمْ وَبَارَكَ اللَّهُ لَنَا وَلكُمْ ، وَجِزِيَّتَنَا
لِإِنِّكُمْ وَالنَّصْرُ لَكُمْ ، وَالْقِيَامُ بِمَا نَحْبُونُ وَلَا
تَلْبُونَا بِالْجَزِيَّةِ فَتَوْعَدُونَا لِعَدْوِكُمْ » . فَاعْتَبِرْ هَذَا
فِيمَا قُلْنَا فَإِنَّهُ كَافٍ .

الفصل العشرون

فِي أَنَّ مِنْ عِلَامَاتِ الْمُلْكِ التَّنَافُسَ فِي الْخِلَالِ
الْحَبِيدَةِ وَبِالْعَكْسِ .

لَمَّا كَانَ الْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ ، لِمَا فِيهِ مِنْ
طَبِيعَةِ الْاجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَا ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ
إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ ، بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ
وَكُوْنِهِ النَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ
قِبَلِ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ
هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ ، وَالْمُلْكُ
وَالْسياسةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ .
لِأَنَّهَا لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةٌ لِلْحَيَوَانِ ، فَإِذَا خِلَالَ
الْخَيْرِ فِيهِ هِيَ الَّتِي تَنَاسِبُ الْسياسةَ وَالْمُلْكَ ، إِذْ
الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْسياسةِ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْهِ

قَدْ آتَاهُمْ مِنَ الْمَلِكِ وَجَعَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ
«وَلَإِنَّا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرِيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا
فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَفَتَرْنَا مَا تَنْهَى (١)»
وَأَسْتَفْرَى ذَلِكَ وَتَتَّبِعُهُ فِي الْأَثَمِ السَّابِقَةِ تَجِدُ
كَثِيرًا مِمَّا قُلْنَاهُ وَرَسَمْنَاهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
وَيَخْتَارُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ مِنْ خِلَالِ الْكَمَالِ الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا
الْقَبَائِلُ أُولُو الْمَصِيبَةِ وَتَكُونُ شَاهِدَةً لَهُمْ بِالْمَلِكِ :
إِكْرَامُ الْعُلَمَاءِ ، وَالصَّالِحِينَ وَالْأَشْرَافِ وَأَهْلِ
الْأَخْتَابِ ، وَأَصْنَافِ النُّجَّارِ وَالزُّبَرَاءِ ، وَإِزْوَاجِ
النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ ، وَظَلَمَ أَنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ
الْعَصَبِيَّاتِ وَالْمَشَائِرِ لَيْسَ يُشَاهِضُهُمْ فِي
الشَّرَفِ وَيُجَادِبُهُمْ حَيْثُ الْعَشِيرِ وَالْعَصْبِيَّةِ ،
وَيُشَارِكُهُمْ فِي اتِّسَاعِ الْجَاوِ ، أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ يَحِيلُ
عَلَيْهِ فِي الْأَكْثَرِ الرَّغْبَةُ فِي الْجَاوِ ، أَوِ الْمُخَافَةُ مِنْ
قَوْمِ الْمُكُومِ ، أَوِ الْإِتِمَاسُ بِجِلْفِهَا مِنْهُ .

وَأَمَّا أَشْأَلُ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ حَصْبِيَّةٌ تَتَّقَى
وَلَا جَاهٌ يُرْتَجَى فَيَنْدَفِعُ الشُّكُّ فِي شَأْنِ كَرَامَتِهِمْ ،
وَيَتَحَفَّضُ الْقَصْدُ فِيهِمْ أَنَّهُ لِلْمَجْدِ وَاتِّحَالِ
الْكَمَالِ فِي الْخِلَالِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى السِّيَاسَةِ بِالْكُلِّيَّةِ ،
لِأَنَّ إِكْرَامَ أَقْتَالِهِ وَأَشْأَلِهِ ضَرُورِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ
الْخَاصَّةِ بَيْنَ قَبِيلِهِ وَنَظَرَاتِهِ ، وَإِكْرَامَ الطَّوْلِينِ
مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ كَمَالٌ فِي
السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ ، فَالصَّالِحُونَ لِلدِّينِ وَالْعُلَمَاءُ لِلْجَاهِ (٢)
لِيَتِمَّ فِي إِقَامَةِ مَرَامِ الشَّرِيعَةِ وَالنُّجَّارِ لِلشَّرَفِ .

وَالْإِخْتِمَالُ مِنْ هَبْرِ الْقَادِرِ ، وَالْقَرَى لِلضُّيُوفِ
وَحُلِّ الْكَلِّ (١) وَكَسْبِ الْمُعْدِمِ وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَكَارِهِ ،
وَالْوَلَاءُ بِالْمُهْدَى ، وَيَتَلَذَّذُ الْأَوْفَالُ فِي صَوْنِ الْأَعْرَاضِ
وَتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ ، وَإِجْلَالِ الْعُلَمَاءِ الْحَامِلِينَ لَهَا
وَالْوُقُوفُ حِينَذَا يُحْدِثُونَهُ لَهُمْ مِنْ فِتْلِ أَوْتَرِكَ ،
وَحُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ ، وَاعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ بِهِمْ ،
وَرَفْعَةِ الدَّعَاةِ مِنْهُمْ وَالْحَيَاةِ مِنَ الْأَكَابِرِ وَالْمَشَايِخِ
وَتَوْقِيرِهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ وَالانْتِفَادَ إِلَى الْحَقِّ مَعَ الدَّاعِي
إِلَيْهِ وَالنَّصَابَ الْمُتَضَعِّقِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالْتِيَاذَ
فِي أَسْوَاقِهِمْ ، وَالانْتِفَادَ لِلْحَقِّ وَالتَّوَضُّعَ لِلْمُسْكِينِ
وَأَسْمَاعَ شُكْوَى الْمُسْتَغِيثِينَ ، وَالتَّذَبُّبَ بِالشَّرَائِعِ
وَالْعِبَادَةِ وَالْقِيَامَ عَلَيْهَا وَعَلَى أُنْبِيَائِهَا ، وَالتَّجَافِيَ
عَنِ الْفُتْرِ وَالْمُتَكَبَّرِ وَالْمُنْعِيَةِ وَتَقْصِيرِ الْعَهْدِ ، وَأَشْأَلِ
ظُلْمِ ، عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ خُلُقُ السِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لَدَيْهِمْ
وَأَسْتَحَقُّوا بِهَا أَنْ يَكُونُوا سَاسَةً لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ،
أَوْ عَلَى الْمُؤْمَرِ وَأَنَّهُ خَيْرٌ سَاقَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ مُنَاسِبٌ
لِحَصْبِيَّتِهِمْ وَعَظِيمٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ سُلَى فِيهِمْ وَلَا
وُجِدَ هَبًّا مِنْهُمْ ، وَالْمَلِكُ أَلَمَّ بِالْمَرَاتِبِ وَالْخِزَرَاتِ
لِحَصْبِيَّتِهِمْ ، فَلَعِنَا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَأَذَّنَ لَهُمْ بِالْمَلِكِ
وَسَاقَهُ إِلَيْهِمْ .

وَبِالْمَكْسَرِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَأَذَّنَ اللَّهُ بِإِنْقِرَاضِ
الْمَلِكِ مِنْ أُمَّةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى ارْتِكَابِ الْمُتَعَمَّاتِ
وَالنِّحَالِ الرَّقَائِلِ وَسُلُوكِ طَرَفِهَا فَتَفْقَدُ الْقَضَائِلَ
السِّيَاسِيَّةَ مِنْهُمْ جُمْلَةً ، وَلَا تَزَالُ فِي انْتِقَاصِ
إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْمَلِكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَيَتَّكِلَ بِهِ
يَوْمَهُمْ لِيَكُونَ نَعْمًا عَلَيْهِمْ فِي سَلْبِ مَا كَانَ اللَّهُ

(١) سورة الإسراء الآية : ٦٦ .

(٢) يَسَى لِلاتِّجَارِ إِلَيْهِمْ ...

(١) التَّكَلُّفُ بِمَنْعِ الْكَثَرِ مِنَ الْبَحْرِ وَمِنْ لَا يَلْجَأُ إِلَى الْقِيَامِ بِشُكُونِ نَفْسِهِ

حَتَّى تَعْمَ الْمُنْعَمَةُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَالْعَرَبَاءُ مِنْ
مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَإِنَّهُنَّ النَّاسُ مَنَالُهُمْ مِنْ
الْإِنْصَافِ وَهُوَ مِنَ الْمَذَلِّ . فَيَعْلَمُ بِوُجُودِ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ
حَصْبِيَّتِهِ انْتِمَاؤَهُمْ لِلْسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ ، وَهِيَ الْمُلْكُ
وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ تَأَذَّنَ بِوُجُودِهَا فِيهِمْ لِوُجُودِ عِلَامَتِهَا .
وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ مَا يَلْتَمِسُ مِنَ الْقَبِيلِ - أَهْلِ
الْمُلْكِ - إِذَا تَأَذَّنَ اللَّهُ تَعَالَى بِسَلْبِ مُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ
لَاكْرَامِ هَذَا الصَّنْعِ مِنَ الْخَلْقِ . فَإِذَا رَأَيْتُهُ قَدْ
فَحَبَّ مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَضَائِلَ قَدْ
أَخَذَتْ فِي اللَّحَابِ عَنْهُمْ ، وَارْتَقَبِ زَوَالَ الْمُلْكِ
مِنْهُمْ ، «وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ» (١) ،
وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

وَانْظُرْ مَا يَحْتَكِي فِي ذَلِكَ عَنْ عَمَرٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ لَمَّا بُويعَ وَقَامَ يُعْرِضُ النَّاسَ عَلَى الْعِرَاقِ ،
فَقَالَ : إِنَّ الْحِجَارَ لَيْسَ لَكُمْ بِذَلِكِ إِلَّا عَلَى النُّجْمَةِ ،
وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ ، أَيْنَ الْقُرَاهُ
الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ اللَّهِ؟ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ النَّاسِ
وَعَدَكُمْ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمْوهَا فَقَالَ :
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الْبَيْتِ كُلِّهِ وَكَوْكَرَهُ الْمُشْرِكُونَ» (٢) .
وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضًا بِحَالِ الْعَرَبِ السَّالِفَةِ مِنْ
قَبْلُ ، مِثْلَ النَّبَاتِيَّةِ ، وَحَمِيرَ ، كَيْفَ كَانُوا يَخْطُونَ
مِنْ الْبَيْتِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَرَّةً ، وَآلِي الْعِرَاقِ وَالْهِنْدِ
أُخْرَى ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِيُغَيِّرِ الْعَرَبَ مِنَ الْأُمَمِ .
وَكَذَلِكَ حَالُ الْمُلْكَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ ، لَمَّا تَزَوَّاهُ
إِلَى الْمُلْكِ طَرَفًا مِنَ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَمِمَّا الْآخِثُ
يَنْتَهِي فِي جَوَارِ السُّودَانِ إِلَى الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَالْحَامِي
فِي مَمَالِكِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ . وَهَذَا شَأْنُ
هَلِ الْأُمَمِ الْوَحْشِيَّةِ فَلِلَّذَلِكَ تَكُونُ تَوَلُّهُنَّ أَوْسَعَ
نِطَاقًا ، وَأَبْعَدَ مِنْ مَرَائِجِهَا نِهَازَةً ، وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ» (٣) ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

الفصل الثالث والعشرون

فِي أَنَّ الْمُلْكَ إِذَا ذَهَبَ عَنْ بَعْضِ الشُّعُوبِ مِنْ أُمَّةٍ
فَلَا يَدُ مِنْ حُودِهِ إِلَى شَعْبٍ آخَرَ مِنْهَا مَا دَامَتْ لِمِ
الْمُصِيبَةِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بَعْدَ
سُورَةِ الطَّبِيِّ الْإِذْعَانِ لَهُمْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ بِرَأْسِهِمْ فَيَتَّبِعُونَ
مِنْهُمْ الْمَبَاسِرَ وَالْأَلْمُحَ وَالْحَالِيُونَ سِيرَةَ الْمُلْكِ يُولَايُونَ

الفصل الحادي والعشرون

فِي أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْأُمَّةُ وَحْشِيَّةً كَانَ مَلِكُهَا أَوْسَعَ .
وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَقَلُّوهُ عَلَى التَّخَلُّبِ ، وَالْإِسْتِغَادِ
كَمَا قُلْنَا ، وَاسْتِعْبَادِ الطَّوَائِفِ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى
مُحَارَبَةِ الْأُمَمِ بِرَأْسِهِمْ ، وَلَأَنَّهُمْ يَنْتَزِلُونَ مِنَ الْأَخْلَاقِ
مِنْزِلَةَ الْمَفْتَرِسِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ السُّجْمِ ، وَهُوَ لَا
مِثْلَ الْعَرَبِ ، وَزَنَاقَةٍ ، وَمَنْ فِي مَنَاقِبِهِ مِنَ الْأَكْرَادِ
وَالشُّرَكَامِ ، وَأَهْلِ اللَّيَامِ مِنْ صَهَابَةٍ .

وَأَيْضًا فَهَؤُلَاءِ الْمُتَوَحِّشُونَ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ يَرْتَفُونَ (٢)
مِنْهُ وَلَا يَلْذُّ يَجْنَحُونَ إِلَيْهِ ، فَنِسْبَةُ الْأَقْطَارِ وَالْمَوَاطِنِ
إِلَيْهِمْ عَلَى السُّوَاهِ ، فَلِهَذَا لَا يَغْتَصِرُونَ عَلَى مَلَكَةٍ
قَطْرِهِمْ وَمَا جَاوَزَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَا يَقِفُونَ جَنْدَ
حُدُودِ أَفْقِهِمْ ، بَلْ يَطْفِرُونَ إِلَى الْأَقْلَامِ الْبَعِيدَةِ
وَيَتَخَلَّبُونَ عَلَى الْأُمَمِ النَّاتِيَةِ .

(١) الآية رقم ٥٠٠ من سورة ٥

(٢) الآية رقم ٢٠ من سورة ٥ الزمل .

(١) الآية ١١ من سورة الرعد .

(٢) يَجْنَحُونَ ٥

نائلٌ عَسَائِرَهَا : سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (١) .

وَاعْتَبِرْ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي الْعَرَبِ ، لَمَّا انْقَرَضَ
مُلْكُ حَادٍ ، قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ ثَمُودَ ،
وَمِنْ بَعْلِهِمْ إِخْوَانُهُمُ الصَّمَلِقَةُ ، وَمِنْ بَعْلِهِمْ
إِخْوَانُهُمْ مِنْ حَمِيرٍ أَيْضًا ، وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ
الْتَبَايَعَةُ مِنْ حَمِيرٍ أَيْضًا ، وَمِنْ بَعْدِهِمُ الْأَذَوَاءُ
كَذَلِكَ ، ثُمَّ جَاءَتِ الدَّوْلَةُ لِحُمْصَرٍ ، وَكَذَا الْفُرْسُ
لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الْكِنْيَةِ مَلَكٌ مِنْ بَعْدِهِمُ السَّاسَانِيَّةُ ،
حَتَّى تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعٍ بِالْإِسْلَامِ ، وَكَذَا
الْيُونَانِيُّونَ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ ، وَانْتَقَلَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ
مِنْ الرُّومِ ، وَكَذَا الْبَرْبَرُ بِالْمَغْرِبِ لَمَّا انْقَرَضَ
أَمْرُ مِغْرَاوَةَ وَكَلَامَةُ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِي مِنْهُمْ ، رَجَعَ إِلَى
صَنَهَاجَةَ ، ثُمَّ الْمُتَمَكِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ
مِنْ شُعُوبَ زَنَاقَةَ وَهَكَذَا ، سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ .

وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَهِيَ
مُتَّفَاوَةٌ فِي الْأَجْيَالِ ، وَالْمُلْكُ يُخْلَقُ (٢) التَّرَفُّ
وَيُلْجَبُ ، كَمَا سَنَذْكُرُ بَعْدُ . فَلَمَّا انْقَرَضَتْ
دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا يَتَنَازَلُ الْأَمْرُ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ عَصَبِيَّةٌ
مُشَارِكَةٌ لِعَصَبِيَّتِهِمْ الَّتِي عُرِفَ لَهَا التَّسْلِيمُ الْإِنْعِيَادُ ،
وَأُوَيْسَ مِنْهَا الْقَلْبُ لَجَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ ، وَذَلِكَ
إِنَّمَا يُوْجَدُ فِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ تَقَارُتْ
الْعَصَبِيَّةُ بِحَسَبِ مَا قَرَّبَ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ الَّتِي
هِيَ فِيهِ أَوْ بَعْدُ ، حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي الْعَالَمِ تَبَلُّبٌ
كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ يَدِهِ ، أَوْ ذَهَابِ حُرْمَانٍ ، أَوْ مَا شَاءَ

ذَلِكَ فَجَمِيعِهِمْ ، لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكَثَرَةِ الَّتِي
يَقْبِضُ عَنْهَا نَطَاقُ الْمُرَاحِمَةِ وَالْقِيَرَةِ الَّتِي تَجْدَعُ (١)
أَثَرُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُطْعَمَاتِ لِلرُّقْبَةِ ، فَإِذَا تَعَيَّنَ
أُولَئِكَ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ انْتَفَسُوا فِي النِّعَمِ ،
وَعَرَفُوا فِي بَحْرِ التَّرَفِّ وَالْحُسْبِ ، وَاسْتَعْبَدُوا
لِإِخْوَانِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْجِيلِ ، وَأَنْفَقُوهُمْ فِي وُجُوهِ
الدَّوْلَةِ وَمَذَاهِبِهَا ، وَبَقِيَ الْبَلِيغُ يَحْمِلُ عَنْ الْأَثَرِ ،
وَكَبُحُوا عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي ظِلٍّ مِنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ الَّتِي
شَارَكُوهَا بِنِسْبَتِهِمْ ، وَبِحُجَّةٍ مِنَ الْهَرَمِ لِبَعْدِهِمْ فِي
التَّرَفِّ وَأَسْبَابِهِ ، فَإِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى الْأَوَّلِينَ الْأَيَّامُ ،
وَأَبَادَ هَضْرَاهُمْ الْهَرَمُ فَطَبَحَتْهُمْ الدَّوْلَةُ ، وَكَلَّ
الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَقَرَّبَ بِمَا أَرْهَقَ النَّعِيمُ مِنْ
حَدِّهِمْ ، وَاسْتَفْتَتْ غَرِيزَةُ التَّرَفِّ مِنْ مَا بِهِمْ ،
وَتَلَعَّوْا غَايَتَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ التَّمَدُّنِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَالتَّغْلِبِ
السِّيَاسِيِّ (شِعْر)

كَدُّوهُ الْقَرْ يُتَمِجُّ ثُمَّ يَفْتَنِي
بِمَرْكَزٍ تَسْجِيهِ فِي الْأَيْمَكَامِي
كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصَبِيَّةُ الْآخَرِينَ مَوْفُورَةً ، وَسُورَةٌ
ظَلَبُومٍ مِنَ الْكَايِرِ مَخْطُوطَةٌ ، وَشَارَتْهُمْ فِي الْقَلْبِ
مَعْلُومَةٌ ، فَتَسْمُوَ آثَالُهُمْ إِلَى الْمُلْكِ الَّذِي كَانُوا
مَتَوَجِّعِينَ مِنْهُ بِالْقُوَّةِ الْعَالِيَةِ مِنْ جِنْسِ عَصَبِيَّتِهِمْ ،
وَقَرَفُفُ الْمُنَازَعَةِ لِمَا عُرِفَ مِنْ ظَلَبِهِمْ ، فَيَتَنَازَلُونَ
عَلَى الْأَمْرِ وَيَصِيرُ إِلَيْهِمْ .

وَكَذَا يَتَفَقُّ فِيهِمْ مَعَ مَنْ بَعْدِ أَيْضًا مُتَبَلِّدًا
عَنْهُ مِنْ عَسَائِرِ أُمَمِهِمْ ، فَلَا يَبْزُلُ الْمُلْكُ مَلْجَأً
فِي الْأُمَّةِ إِلَى أَنْ تَنْكَبِرَ سُورَةُ الْعَصَبِيَّةِ مِنْهَا ، أَوْ يَفْتَنِي

(١) الآية رقم ٣٥ من سورة الفرقان .

(٢) ليل جهنم وبنفسه .

(١) تفرغهم وتغصم .

عَلَيْهَا فَيَسْرِي لِإِيْتِهِمْ مِنْ هَذَا التَّشَبُّهِ وَالِاتِّقَادِ حَقًّا
كَثِيرٌ ، كَمَا هُوَ فِي الْأَتَّكُافِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَعَ أَمْرِ
الْجَلَالَةِ ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ
وَسَارَاتِهِمْ وَالْكَثِيرُ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَخْوَالِهِمْ حَتَّى
فِي رُسَمِ الصَّمَاتِيلِ فِي الْجُدْرَانِ وَالْمَصَانِعِ وَالْبُيُوتِ ،
حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذَلِكَ النَّازِرُ بِعَيْنِ الْحِكْمَةِ
أَنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ الْاِسْتِيلَاءِ . وَالْأَمْرُ لِلَّهِ .

وَتَمَلُّ فِي هَذَا مِرَّ قَوْلِهِمْ ، الْعَامَّةُ عَلَى بَيْنِ الْمَلِكِ ،
فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ ، إِذَ الْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ
يَدِهِ ، وَالرَّعِيَّةُ مُقْتَلُونَ بِهِ لِاعْتِقَادِ الْكَمَالِ فِيهِ
اعْتِقَادَ الْأَنْبِيَاءِ بِإِيْتِهِمْ ، وَالْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِهِمْ
وَاللهُ الْعَكِيمُ ، وَيَوْمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَوْفِيقُهُ .

الفصل الرابع والعشرون

فِي أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا غَلِبَتْ ، وَصَارَتْ فِي مَلِكٍ
غَيْرِهَا أَسْرَعَ إِلَيْهَا الْفَنَاءُ .

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ ، مَا يَحْصُلُ فِي
النَّفُوسِ مِنَ التَّكَاسُلِ إِذَا مَلِكٌ أَمْرُهَا عَلَيْهَا وَصَارَتْ
بِالِاسْتِعْيَادِ آلَةً لِيَسُوَاهَا ، وَعَالَةً عَلَيْهِمْ ، فَيَقْصُرُ
الْأَمَلُ وَيَضَعُفُ التَّنَاسُلُ ، وَالِاعْتِمَادُ ، إِنَّمَا هُوَ
عَنْ جِدَةِ الْأَمَلِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ النِّشَاطِ فِي
الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْأَمَلُ بِالتَّكَاسُلِ وَذَهَبَ
مَا يَنْدُو إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَكَانَتْ الْمَصِيبَةُ ذَاهِبَةً
بِالْقَلْبِ الْحَاصِلِ عَلَيْهِمْ ، تَنَاقُصَ عُمْرَانِهِمْ ، وَنَقْصَ
مَكَايِسِهِمْ وَسَاعِيهِمْ ، وَعَجْزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ عَنْ
أَنْفُسِهِمْ بِمَا حَصَدَ الْقَلْبُ مِنْ شَوْكِهِمْ ، فَأَغْبَحُوا
مُتَعَلِّمِينَ لِكُلِّ مُتَعَلِّبٍ ، وَطَفَعَمَةً لِكُلِّ آكِلٍ ، وَسَوَاهٍ
كَانُوا اخْصَلُوا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ أَمْ لَمْ يَخْصَلُوا .

اللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ ، فَحِينَئِذٍ يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ الْجِيلِ
إِلَى الْجِيلِ الَّذِي يَأْتِيهِ بِقِيَامِهِ بِذَلِكَ التَّجْدِيلِ .
كَمَا وَقَعَ لِمُصْرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأَمْرِ ، وَالْأَمْرُ ،
وَأَخْلَوْا الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْعَالَمِ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا
مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَخْقَابًا .

الفصل الثالث والعشرون

فِي أَنَّ الْمَغْلُوبَ مَوْلَعٌ أَبَدًا بِالِاتِّقَادِ بِالْغَالِبِ
فِي شِعَارِهِ ، وَزِيهِ ، وَنَحْلَتِهِ ، وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ وَعَوَالِدِهِ .
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ : أَنَّ النَّفْسَ أَبَدًا تَخْتَفِدُ
الْكَمَالَ فِي مَنْ غَلَبَهَا وَانْقَادَتْ إِلَيْهِ . إِمَّا لِنَظَرِهِ
بِالْكَمَالِ بِمَا وَفَّرَ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ ، أَوْ لِمَا
تَغَالَطَ بِهِ مِنْ أَنَّ انْقِيَادَهَا لَيْسَ بِغَلَبٍ طَبِيعِيٍّ ، إِنَّمَا
هُوَ لِكَمَالِ الْغَالِبِ ، فَإِذَا غَالَطَتْ بِذَلِكَ وَاتَّصَلَ لَهَا حَاصِلُ
اعْتِقَادًا فَانْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ الْغَالِبِ ، وَتَشَبَّهَتْ
بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْاِتِّقَادُ . أَوْ لِمَا تَرَاهُ وَاللهُ أَعْلَمُ ،
مِنْ أَنَّ غَلَبَ الْغَالِبِ لَيْسَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلَا قُوَّةٍ بِأَسَاسٍ ،
وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا انْتَحَلَهُ مِنَ الْعَوَائِدِ وَالْمَذَاهِبِ تَغَالُطًا .
أَيْضًا بِذَلِكَ عَنْ الْقَلْبِ ، وَهَذَا رَاجِعٌ لِلأَوَّلِ ،
وَلِذَلِكَ تَرَى الْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَدًا بِالْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ
وَمَرْكَبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي اتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا ، بَلْ وَفِي
سَائِرِ أَسْوَالِهِ .

وَانْظُرْ ذَلِكَ فِي الْأَنْبِيَاءِ مَعَ آيَاتِهِمْ كَيْفَ
تَجَلَّوْهُمْ مَتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِمًا ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا
لِاعْتِقَادِهِمُ الْكَمَالَ فِيهِمْ . وَانْظُرْ إِلَى كُلِّ قَطْرِ مِنْ
الْأَقْطَارِ ، كَيْفَ يَنْطَبِئُ عَلَى أَهْلِهِ زِيَّ الْحَامِيَةِ وَجَنْدُ
السُّلْطَانِ فِي الْأَكْثَرِ ، لِأَنَّهُمْ الْقَائِلُونَ لَهُمْ ، حَتَّى
إِنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ فَجَاوَرُ أُخْرَى وَلَهَا الْقَلْبُ

الفصل الخامس والعشرون

في أن العرب (١) لا يتغلبون إلا على البساط،
وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل
انتهاج وعيث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير
مُغَالَبَةٍ ولا رُكُوبِ خَطَرٍ، ويَقْرُونَ إلى مُتَجَمِّعِهِمْ
بِالْفَقْرِ، ولا يَلْجَأُونَ إلى المُرَاحَةِ والمُحَارَبَةِ إلا إذا
دَفَعُوا بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ. فكلُّ مُقْبِلٍ أَوْ مُسْتَصْبٍ
عَلَيْهِمْ فُهِمَ نَارُكَوهُ إلى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلَا يَعْزُوزُ
لَهُ. وَالْقِبَائِلُ الْمُتَنِمَّةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ الْجِبَالِ يَمْنَحَانِ
مِنْ عَيْتِهِمْ وَقَسَادِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَتَسَمَّوْنَ إِلَيْهِمْ
الْهَضَبَ، وَلَا يَرْكَبُونَ الصَّعَابَ وَلَا يَحُولُونَ
الْخَطَرَ. وَأَمَّا الْبَسَاطُ، فَمَتَى اقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفِقْدَانِ
الْحَامِيَةِ وَصَغَبِ الدَّوْلَةِ فَهِيَ تَهْبُ وَطَعْمَةُ
لَاكِلِهِمْ يَرُدُّونَ عَلَيْهَا الْقَارَةَ وَالْثَهْبَ وَالرَّحْتَ
لِيَسْهُولَتِهَا عَلَيْهِمْ، إلى أن يَضْبَحَ أَهْلُهَا مُغْلِبِينَ لَهُمْ
ثُمَّ يَتَحَوَّلُونَهُمْ بِاخْتِلَافِ الْأَيْدِي، وَأَنْحِرَافِ
السِّيَاسَةِ، إلى أن يَنْقَرِضَ عَمْرَانَهُمْ. وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى
خَلْقِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَارَبَّ غَيْرُهُ.

الفصل السادس والعشرون

في أن العرب (٢) إذا تغلبوا على أوطان أسرع
إليها الخراب.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ بِاسْتِحْكَامِ
عَوَالِدِ التَّوَحُّشِ، وَأَسْبَابِهِ فِيهِمْ قَصَارُ لَهُمْ خَطْفًا
وَجِيلَةً، وَكَانَ عِنْتَهُمْ مَلَكُودًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ
عَنْ رِبْقَةِ الْحُكْمِ وَعِلْمِ الْاِتِّقْيَادِ، لِلسِّيَاسَةِ. وَهَلِوِ

وَفِيهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِرَأْسِ آخِرٍ. وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ
وَرَكِبَ يَطْبَعُ بِمُقْتَضَى الْاِسْتِخْلَافِ الَّذِي خُلِقَ لَهُ.
وَالرَّكِبُ إِذَا غَلِبَ عَلَى رِيَاسَتِهِ وَكَبِحَ عَنْ غَايَةِ عَزِهِ،
تَكَاسَلَ حَتَّى عَنْ شَيْعِ بَطْنِيهِ، وَرَى كَيْدَهُ. وَهَذَا
مَوْجُودٌ فِي أَخْلَاقِ الْإِنْسَانِي. وَلَقَدْ يُقَالُ مِثْلُهُ
فِي الْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرِسَةِ، وَإِنَّمَا لَأَسْفَادُ إِذَا
كَانَتْ فِي مَلَكَةِ الْأَجْمِينَ. فَلَا يَزَالُ هَذَا الْقَبِيلُ
الْمَمْلُوكُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فِي تَنَاقُصٍ وَاضْمِحَالٍ، إِلَى
أَنْ يَأْخُذَهُمُ الْفَنَاءُ، وَالْبَقَاءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أُمَّةِ الْفَرَسِ كَيْفَ كَانَتْ قَدْ
مَلَأَتْ الْمَالَمَ كَثْرَةً، وَلَمَّا فَنِيَتْ حَاضِيَتُهُمْ فِي أَيَّامِ
الْعَرَبِ بَقِيَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ، وَأَكْثَرُ مِنَ الْكَثِيرِ. يُقَالُ
إِنْ سَعْدًا أَحْصَى مَلَاوِيَةَ الْمَذَانِ فَكَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وَسَبْعَةً
وَقَلَّاتَيْنِ أَلْفًا، مِنْهُمْ سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا رَبُّ بَيْتِ.
وَلَمَّا تَحَصَّلُوا فِي مَلَكَةِ الْعَرَبِ وَقَبِضَ الْقَهْرُ، لَمْ
يَكُنْ بَقَاؤُهُمْ إِلَّا قَلِيلًا، وَدَثُرُوا كَأَن لَمْ يَكُونُوا.
وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ ذَلِكَ يَظْلَمُ نَزَلَ بِهِمْ أَوْ عُلُوَّانِ
شَيْلِهِمْ، فَمَلَكَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْعَدْلِ مَا عِلِمَتْ،
وَلِنَّمَا هِيَ طَبِيعَةُ فِي الْإِنْسَانِ إِذَا غَلِبَ عَلَى أَمْرِهِ
وَصَارَ آتَةً لِيَغْيَرِهِ. وَلِهَذَا إِنَّمَا تَذْعِرُ لِلرَّقِّ فِي
الْقَالِبِ أُمَمُ السُّودَانِ لِنَقْصِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِمْ
وَقُرْبِهِمْ مِنْ عَرْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ كَمَا قُلْنَا،
أَوْ مِنْ يَرْجُو بِاِنْتِظَامِهِ فِي رِبْقَةِ الرَّقِّ حُصُولَ رُتْبَةٍ،
أَوْ إِفَادَةِ مَالٍ أَوْعَزَ كَمَا يَقَعُ لِمَمَالِكِ الثُّرَاةِ بِالشَّرْقِ
وَالْمُلُوجِ (١) مِنَ الْجَلَالَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ. فَلِذَا الْمَادَّةُ جَارِيَةٌ
بِاسْتِخْلَاصِ الدَّوْلَةِ لَهُمْ، فَلَا يَأْتَفُونَ مِنَ الرَّقِّ
لِمَا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْجَوَادِ وَالرُّتْبَةِ بِاضْطِفَافِ الدَّوْلَةِ. وَاللهُ
سَمِيعٌ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِمُ التَّوْفِيقُ.

(٢٤١) كلمة العرب هنا وفي الفصول التالية مراد بها الأعراب
الرحل ساكنو الهابة ولواحيها انعام.

وَزَجَرَ النَّاسِ عَنِ الْمَقَاسِدِ، وَدَفَعَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ. إِنَّمَا هُمْ مَاتَاخُلُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْيًا أَوْ غَرَامَةً. فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَغْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَمْسِيدِ أَمْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ، وَفَهَرِ بَعْضَهُمْ عَنْ أَغْرَاضِ الْمَقَاسِدِ. رَبُّمَا فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِزَةِ وَالْجَائِدَةِ وَالْاِسْتِكْلَالِ مِنْهَا، كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ، وَذَلِكَ لَيْسَ بِمَعْنٍ فِي دَفْعِ الْمَقَاسِدِ وَزَجْرِ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا، بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ زَائِلًا فِيهَا لِاسْتِشْهَالِ الْغُرْمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْقَرْضِ فَتَبْقَى الرِّهَابَا فِي عِلَاقَتِهِمْ كَأَنَّهَا قَوْضَى (١) دُونَ حُكْمٍ، وَالْقَوْضَى مَهْلِكَةٌ لِلْيَسْرِ، مَقْسَدَةٌ لِلْعُمَرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ وُجُودَ الْمَلِكِ خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا، وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَصْلِ.

وَأَيْضًا فَهْمٌ مُتَنَفِّسُونَ فِي الرِّيَاسَةِ؛ وَقُلَّ أَنْ يُسَلَّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْأَمْرَ لِغَيْرِهِ، وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي الْأَقْلَى، وَعَلَى كَرَاهٍ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ. فَيَتَعَلَّدُ الْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَالْأُمَرَاءُ، وَتَخْتَلِفُ الْأَيْدِي عَلَى الرَّبْعِيَّةِ فِي الْجَيَادَةِ وَالْأَحْكَامِ، فَيَقْسُدُ الْعُمَرَانُ وَيَتَقَفِضُ. قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الْوَالِدُ عَلَى عَتِدِ الْمَلِكِ، لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ الْحَجَّاجِ، وَأَرَادَ الشَّأْنَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِمُحْسِنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمَرَانِ فَقَالَ: «تَرَكَتُهُ يَظْلِمُ وَحَلَهُ»

وَأَنْظَرُ إِلَى مَا مَلَكَوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْطَانِ

الطَّبِيعَةُ مُتَنَافِيَةٌ لِلْعُمَرَانِ، وَمُتَنَافِسَةٌ لَهُ. فَعَابَةِ الْأَمْوَالِ الْعَادِيَةِ كُلَّهَا عَنْهُمْ الرِّحْلَةُ وَالْعُغْلَبُ، وَذَلِكَ مُتَنَافِضٌ لِلسُّكُونِ الَّذِي بِهِ الْعُمَرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ. قَالَ حَجَرٌ مَثَلًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَصْبِهِ أَتَانِي (١) الْقِلْدُ، فَيَنْفَلُونَهُ مِنَ الْمَبَانِي وَيُخْرِبُونَهَا عَلَيْهِ وَيُيْلُونَهُ لِذَلِكَ. وَالْخُشْبُ أَيْضًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيُعْمَرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَخَذُوا الْأَوْتَادَ مِنْهُ لِيَبْنُوهُمْ فَيُخْرِبُونَ السَّقْفَ عَلَيْهِ. لِذَلِكَ فَصَارَتْ طَبِيعَةُ وُجُودِهِمْ مُتَنَافِيَةً لِبِنَائِهِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعُمَرَانِ. هَذَا فِي حَالِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ.

وَأَيْضًا فَطَبِيعَتُهُمْ انْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَأَنْ رَزَقَهُمْ فِي ظِلَالِ رِمَاجِهِمْ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ حَدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كَلِمَاتُ الْمَدَنَةِ أَتَيْتُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ، أَوْ مَا عَوْنُ انْتِهَابِهِ. فَإِذَا تَمَّ اقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْعُغْلَبِ وَالْمَلِكِ بَطَلَتْ السِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ النَّاسِ، وَخَرِبَ الْعُمَرَانُ.

وَأَيْضًا فَلَاتُهُمْ يُتْلِفُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَاعِ وَالْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لِأَيُّوَرٍ لَهَا فَيْحَةٌ وَلَا قِسْطًا مِنَ الْأَجْرِ وَالْعَمَلِ. وَالْأَعْمَالُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ، هِيَ أَصْلُ الْمَكَايِبِ وَحَقِيقَتُهَا، وَإِذَا فَسَدَتِ الْأَعْمَالُ وَصَارَتْ مَجَانًا ضَعُفَتِ الْأَمَالُ فِي الْمَكَايِبِ، وَانْقَبَضَتِ الْأَيْدِي عَنْ الْعَمَلِ وَابْتَعَرَتْ (٢) السَّائِرِينَ وَقَسَدَ الْعُمَرَانُ.

وَأَيْضًا فَلَاتُهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِيَانَةٌ بِالْأَحْكَامِ

(١) الْأَتَانِي: الْأَحْجَارُ تَوْضَعُ حَتَّى تَقْدَرُ وَتَعْمَى بِهَا الْعَيْنَانِ.

(٢) فَرَوَشَتْ.

(١) وَعَا يَزِيهِ إِلَى الْإِيمَانِ عَلَى اللَّهِ عَمَهُ لَا يَصْلَحُ النَّاسُ مَوْصِي

لَا سِرَافَةَ لَهُ وَلَا مِرَادَ إِذَا جِئَافَهُمْ صَادُوا.

يَسْمُودِيمَا، وَتَوَلَّيْتُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ تَمَّ
اجْتِمَاعُهُمْ، وَحَصَلَ لَهُمُ التَّطَلُّبُ وَالْمَلِكُ. وَهُمْ مَعَ
ذَلِكَ أَسْرَعَ النَّاسُ قُبُولًا لِلْحَقِّ وَالْهَيْئَةِ لِإِسْلَامَةِ
طِبَاعِهِمْ مِنْ عُرُوجِ الْمَلَكَاتِ وَتَرَاهُنَّ مِنْ ذَمِيمِ
الْأَخْلَاقِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خَلْقِ التَّوْحُشِ الْقَرِيبِ
الْمَعَانَةِ الْمُتَنَهِّهِ لِقَبُولِ الْخَيْرِ بِقَائِدِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ
الْأُولَى، وَيُعْلِمُهُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النَّفْسِ مِنْ قَبِيحِ
الْعَوَائِدِ وَشَوْهِ الْمَلَكَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى
الْفِطْرَةِ، كَمَا وَدَّ فِي الْحَبِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ.

الفصل الثامن والعشرون

فِي أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدَ الْأُمَمِ عَنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ
وَالسَّبَبِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بَدَاوَةٍ مِنْ سَائِرِ
الْأُمَمِ، وَأَبْعَدُ مَجَالًا فِي الْقَفْرِ، وَأَغْنَى عَنْ حَاجَاتِ
التَّلَوُّلِ وَحُبُوبِهَا، لَا حَاجَةَ لَهُمْ إِلَى الشُّطْفِ وَخُشُونَةِ
الْمَيْتِ، فَاشْتَفَوْا عَنْ خَيْرِهِمْ قَصَصَ انْتِقَادَ بَعْضِهِمْ
لِبَعْضٍ، لِإِبْلَافِهِمْ ذَلِكَ وَلِتَوْحُشِهِمْ. وَرَبِّسَهُمْ مُحَاجَ
إِلَيْهِمْ غَالِبًا لِلْحَصْبِيَّةِ الَّتِي بِهَا الْمُدَافَعَةُ، فَكَانَ
مُضْطَرًا إِلَى إِحْسَانِ مَلِكِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاعَمَتِهِمْ لِئَلَّا
يَحْتَلَّ عَلَيْهِ شَأْنٌ حَصْبِيَّةٍ فَيَكُونَ فِيهَا خَلَائِكُهُ
وَعَلَائِكُهُمْ. وَسِيَاسَةُ التَّلِكِ وَالسُّلْطَانِ تَقْتَضِي أَنْ
يَكُونَ السَّائِسُ وَإِذَا بِالْقَهْرِ وَالْأَلَمِ تَسْتَقِمُّ سِيَاسَتُهُ.
وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدْ مَنَّا (١) اخْتِ
مَافِي أُيْدِي النَّاسِ حَاصَةً، وَالنَّجَافِي عَمَّا يَرَوْنَ ذَلِكَ
مِنْ الْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ، وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ،
فَإِذَا مَلَكَوا أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ جَطَّوْا غَايَةَ مُلْكِهِمْ الْإِنْتِفَاعَ
بِإِخْلَافِ مَا فِي أُيْدِيهِمْ، وَتَرْكُوا مَا يَرَوْنَ ذَلِكَ مِنْ

مِنْ لَدُنْ الْخَلِيقَةِ، كَيْفَ تَقْرُصُ عُمَرَانَهُ، وَأَقْفَرُ
سَاحَتَهُ، وَتَمْلِكُ الْأَرْضَ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ. فَالْيَمَنُ
قَرَارُهُمْ خَرَابٌ، إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْأَنْصَارِ. وَهَرِاقُ
الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمَرَانُهُ الَّذِي كَانَ
لِلْفَرَسِ أَجْمَعِ. وَالشَّامُ لِهَذَا التَّهْدِ كَذَلِكَ.
وَالْأَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هَلَالٍ وَبَنُو
سُلَيْمٍ. مَعْدُ أَوَّلِ الْبَايَةِ الْخَافِيسَةِ، وَتَمَرَّسُوا بِهَا
لثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ
بِمَاطِلُهَا خَرَابًا كُلُّهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ
وَالْبَحْرِ الرَّوِّيِّ كُلُّهُ عُمَرَانًا. تَشْهَدُ بِمُلْكِ أَثَلُ
الْمُغْرَانِ فِيهِ مِنَ الْمَكَالِمِ، وَكَمَالِ الْإِنْيَاهِ وَشَوَاهِدِ
الْقُرَى وَالْمَمَرِ. وَاللَّهُ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ
خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

الفصل السابع والعشرون

فِي أَنَّ الْعَرَبَ لَا يَحْصِلُ لَهُمُ الْمَلِكُ إِلَّا بِصِغَةِ
دِينِيَّةٍ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ لَوَايَةِ أَوْ أَمْرٍ عَظِيمٍ مِنَ الدِّينِ عَلَى
الْجَمَلَةِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِيُخْلُقَ التَّوْحُشِ الَّذِي
فِيهِمْ أَصْعَبُ الْأُمَمِ انْتِقَادًا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لِلْظُلْمَةِ
وَالْأَنَفَةِ، وَتُعَدُّ الْهَيْئَةُ وَالْمُنَافَسَةُ فِي الرِّقَاسَةِ، فَقَلَّمَا
تَجْتَمِعَ أَهْوَاؤُهُمْ. فَإِذَا كَانَ الدِّينُ بِالنُّبُوَّةِ أَوْ الْوَلَايَةِ
كَانَ الرَّاوِزُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَغَبَّ خَلْقُ الْكَبِيرِ
وَالْمُنَافَسَةُ بَيْنَهُمْ، فَسَهَلَ انْتِقَادُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ،
وَذَلِكَ بِمَا يَسْتَلْهُمُ مِنَ الدِّينِ الْمُلْجِبِ لِلْظُلْمَةِ
وَالْأَنَفَةِ، الرَّاوِزِ عَنْ التَّحَاسُدِ وَالْمُنَافَسَةِ. فَإِذَا كَانَ
فِيهِمْ النَّبِيُّ أَوْ الْوَلِيُّ الَّذِي يَبْتَغِيهِمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ
اللَّهِ، وَيُلْجِبُ عَنْهُمْ مَلْعُومَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَيَسْتَلْهُمُ

(١) فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ طَرَايِصِ

عَلَيْهِمُ الْعِجْمُ دُونَهُمْ، وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قَفَارِهِمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمُلْكَ وَلَا سِيَاسَتَهُ، بَلْ قَدْ يَجْهَلُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي الْقَبِيرِ . وَمَا كَانَ فِي الْقَبِيرِ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْخَلِيقَةِ مَا كَانَ لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ . وَدَوْلٌ حَادٍ وَتَمُودُ وَالْعَمَالِيقَةُ وَحَمِيرَ وَالتَّبَابِيخَةُ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ ، ثُمَّ دَوْلَةُ مُضَرَ فِي الْإِسْلَامِ ؛ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْقَبَاسِ . لَكِنْ يُعَدُّ عَهْدُهُمْ بِالسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا الدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الْبُكَوْفِ . وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ غَلَبٌ عَلَى الدُّوَلِ الْمُتَضَعِّعَةِ ، كَمَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذَا التَّهْدِي ، فَلَا يَكُونُ مَالُهُ وَغَايَتُهُ إِلَّا تَخْرِيبَ مَا يَسْتَوِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمَرَاءِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ «وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ» (١) .

الفصل التاسع والعشرون

فِي أَنَّ الْبُودَى مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ مَغْلُوبُونَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ .

قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ عُمَرَانَ الْبَادِيَةِ نَاقِضٌ عَنْ عُمَرَانِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ ؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ الصُّرُورِيَّةَ فِي الْعُمَرَاءِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً لِأَهْلِ الْبُيُوتِ ، وَإِنَّمَا تَوْجَدُ لِلْبُيُوتِ فِي عَوَاطِينِ أُمُورِ الْفُلُحِ ، وَوَادِعِهَا مَعْلُومَةٌ وَمُعْطَاهَا الصَّنَائِعُ ، فَلَا تَوْجَدُ لِبُيُوتِهِمُ الْكَلْبِيَّةَ مِنْ تَجَارٍ وَخِيَاطٍ وَحَدَادٍ ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يَقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتَ مَعَاشِهِمْ فِي الْفُلُحِ وَغَيْرِهِ . وَكَذَا الدَّنَانِيرُ وَالْدَّرَاهِمُ مَقْهُودَةٌ لِبُيُوتِهِمْ ، وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مِثْلِ الزَّرَّاعَةِ ، وَأَعْيَادِ الْحَيَوَانِ أَوْ فَضَائِلِهِ أَلْبَانًا وَأَوْثَارًا وَأَشْمَارًا وَإِهَابًا مِمَّا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ

الْأَحْكَامِ يَبْتَغِيهِمْ . وَرُبَّمَا جَمَعُوا التَّمُورِيَّاتِ عَلَى الْمَقَابِدِ فِي الْأُمُورِ حَرْصًا عَلَى تَكْثِيرِ الْجَبَابِيَةِ ، وَتَخْصِيلِ الْفَوَائِدِ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ وَإِلَاحًا ، وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعًا بِحَسَبِ الْأَغْرَاضِ الْبَاطِعَةِ عَلَى الْمَقَابِدِ ، وَاسْتِهَانَةً مَا يُعْطَى مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ غَرَضِهِ ، فَتَنْصَحُ الْمَقَابِدُ بِذَلِكَ وَيَقَعُ تَخْرِيبُ الْعُمَرَاءِ ، فَتَقْبَعِي يَدُكَ الْأُمَّةَ كَأَنَّهَا قَوْصَى ، مُتَمَطِّلَةٌ أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ ، فَلَا يَسْتَقِيمُ لَهَا عُمُرَانٌ ، وَتَخْرُبُ سَرِيمًا شَأْنُ الْقَوْصَى كَمَا قَدْ مَنَاهُ ، فَبَعْدَتْ طِبَاعُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ .

وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ لِأَيْدِيهَا بَعْدَ انْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ ، وَتَبَدُّلِهَا بِصِنْفَةٍ دِينِيَّةٍ تَنَحُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَتَجْعَلُ الْوَارِثَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دِفَاعِ النَّاسِ بِبَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِدَوَلَّتِهِمْ فِي الْعِلَّةِ لَمَّا شَهِدَ لَهُمُ الدِّينُ أَمْرَ السِّيَاسَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا الْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ الْعُمَرَاءِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَتَتَابَعِ فِيهَا الْخُلَفَاءُ ، حَظُمَ حِينَئِذٍ مَلِكُهُمْ وَقَوَى سُلْطَانُهُمْ . وَكَانَ رَشْمُ إِذَا رَأَى الْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ لِصَلَاةٍ يَقُولُ : «أَكَلُ عُمَرُ كَيْدِي ، يُعَلِّمُ الْكِلَابَ الْأَكَادِبَ» .

ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ الدُّوَلَةِ أَجْيَالٌ نَبَذُوا الدِّينَ فَنَسُوا السِّيَاسَةَ ، وَرَجَعُوا إِلَى قَفَرِهِمْ وَجَهَلُوا شَأْنَ عَصَبِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الدُّوَلَةِ بِبَعْضِهِمْ عَنْ الْإِنْفِيَادِ وَإِعْطَاهِ النِّصْفَةِ ، فَتَوَحَّشُوا كَمَا كَانُوا وَكَمْ يَبْقَى لَهُمْ مِنَ اسْمِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ جَنْحِ الْخُلَفَاءِ وَمِنْ جِيلِهِمْ . وَلَكِنْ ذَهَبَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَانْحَسَى رَشْمُهَا ، انْقَطَعَ الْأَمْرُ جُمْلَةً مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَغَلَبَ

(١) الآية رقم : ١٤٧ من سورة الفجره .

الأمصار فيعرضونهم، حنة بالذناير والذراير .
إلا أن حاجتهم إلى الأمصار في الضرورى، وحاجة
أهل الأمصار إليهم في الحاجى والكمالى . فهم
محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم .

فما داموا فى البادية ، ولم يحصل لهم ملك
ولا استيلاء على الأمصار ، فهم محتاجون إلى أهلها
ويتصرفون فى مصالحهم وطاعتهم متى دعواهم إلى
ذلك وطالبوهم به . وإن كان فى المصر ملك ،
كان خضوعهم وطاعتهم لقلب الملك . وإن لم
يكن فى المصر ملك فلا بد فيه من رياسة وتويع
استبداد من ينهى أهلها على الباقين ، ولا انتقص
حمرانته . وذلك الرئيس يخلطهم على طاعته والسعى

فى مصالحه ، إما طوعا بملك المال لهم ، ثم يملك
لهم ما يحتاجون إليه من الضروريات فى مصره ،
فيستقيم عمرانهم ، وإما كرها إن تمت قدرته
على ذلك ، ولو بالتفريق بينهم حتى يحصل له
حائب منهم يعالين به الباقين فيضطر الباقون إلى
طاعته بما يتوقعون للملك من فساد عمرانهم ،
وربما لايسمهم مفارقة تلك النواحي إلى جهات
أخرى ، لأن كل الجهات معمور بالبشر الذين
عليها عليها ومنعوا من غيرها ، فلا يجد هؤلاء
ملجأ إلا طاعة المصر . فهم بالضرورة مغلوبون
لأهل الأمصار . والله قاهر فوق عباده ، وهو الواحد
الأخذ الظاهر .

الباب الثالث

من الكتاب الأول (١)

في الدول العامة والملك والخلافة والراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومسميات

الفصل الأول

في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبة .

وذلك أنا قررنا في الفصل الأول أن المملّكة والمملّكة إنما تكون بالعصبة ، لما فيها من القوة والتأمر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه . ثم إن الملك منصب سريّ مملوك ، يشترط على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية ، والمالذ النفسانية ، فيقع فيه التنافس غالباً ، وقيل أن يسلّمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه ، فتقع المنازعة وتفضى إلى الحرب والقتال والممّالة ، وثى منها لا يقع إلا بالعصبة كما ذكرناه آنفاً .

وهذا الأمر بعيد عن أنهام الجمهور بالجملة ، ومتناسون له لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها ، وعال أمد مرّبهم في المتصارة وتماقيهم فيها جيلاً بعد جيل ، فلا يتعرفون ما فعل الله أول الدولة ، إنما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صيغتهم ، ووقع التسليم لهم ، والاستعانة من العصبة في تمهيد أمرهم ، ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوله ، وما لقي أولهم من المتاعب دونه ، وخصوصاً أهل الأندلس في نسيان هذه العصبة وأكثرها بطول الأمد واستغنائهم في القليب عن

(١) آتينا أن نعلق على الفصل الرئيسي اسم الباب ، معناه من

الفصل العامة .

قوة العصبة ، بما تلاقي وطئهم (١) وخلا من الصائب . والله قادر على ما يشاء ، وهو بكل شيء عليم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الفصل الثاني

في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغنى عن العصبة .

والسبب في ذلك : أن الدول العامة في أولها ، يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من القلب للقرابة وأن الناس لم يبالفوا ملكها ولا اغتافوه ، فإذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوكلوه واجداً بعد آخر في أقصاب كثيرين وقول متعاقبة ، قيست النفوس شأن الأولي ، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صيغة الرئاسة ، ووسخ في التقاليد بين الانقياد لهم والتسليم ، وقاتل الناس متهم على أمرهم فتألم على التقاليد الإيمانية ، فلم يخالجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة . بل كأن طاعتها كجانب من الله لا يمتد ، ولا يعلم خلافه .

ولأمر ما يوضح الكلام في الإمارة آخر الكلام على التقاليد الإيمانية ، كأنه من جملة عهودها . ويكون استيظافهم حينئذ على سلطانهم وتوكلهم المخصوصة إما بالموالي والمُظنّين الذين نشأوا في ظل العصبة وغيرها ، وإما بالصائب

(١) أي تلاقي وطئهم .

الْمَخَارِجِينَ عَنْ تَسْمِيَةِ الدَّاهِلِيِّينَ فِي وَلَايَتِهَا .
وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِبَنِي النَّبَاسِ . فَإِنَّ حَضْبَةَ
الْعَرَبِ كَانَتْ قَسَلَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ الْمُتَعَصِّمِ وَابْنِهِ
الْوَلَدِيِّ ، وَاسْتَظْهَرَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَوَالِ
مِنَ السَّجَمِ وَالْتُرْكِ وَاللَّبْلَبِ وَالسُّلْجُوقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ .
ثُمَّ تَغَلَّبَ الْحُجَمُ الْأُولِيَاءُ عَلَى النَّوَاسِي ، وَتَغَلَّصَ
ظِلُّ الدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْمَلُ أَعْمَالَ بَعْدَادَ حَتَّى
زَحَفَ إِلَيْهَا اللَّبْلَبُ وَمَلَكُوهَا ، وَصَارَ الْخَلَائِقُ فِي
حُكْمِهِمْ . ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ ، وَمَلَكَ السُّلْجُوقِيَّةُ
مِنْ بَنِيهِمْ فَصَارُوا فِي حُكْمِهِمْ . ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ ،
وَزَحَفَ آخِرُ التَّتَارِ فَقَتَلُوا الْخَلِيفَةَ ، وَنَحَوْا وَتَمَّ
الدَّوْلَةُ .

وَكَلَّا صِنْتَاجَةَ بِالْمَغْرِبِ ، فَسَلَتْ حَضْبَتُهُمْ
مُنْذُ الْمِلَّةِ الْخَاسِيَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا ، وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمْ
الدَّوْلَةُ مُتَغَلِّصَةً الظَّلَّ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِحَايَةِ وَالْقَلْعَةِ
وَسَائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيقِيَّةِ . وَرَبَّمَا انْتَزَى (١) بِبَيْتِكَ
الثُّغُورِ مَنْ نَازَعَهُمُ الْمُلُوكَ وَاعْتَصَمَ فِيهَا . وَالسُّلْطَانُ
وَالْمُلُوكُ مَعَ ذَلِكَ مُسَلِّمٌ لَهُمْ ، حَتَّى تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ
الدَّوْلَةِ . وَجَاءَ الْمُوحِدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ النَّصَبِيَّةِ
فِي النِّصَامَةِ فَمَحَوْا آثَارَهُمْ .

وَكَلَّا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ ، لَمَّا قَسَلَتْ
حَضْبَتُهَا مِنَ الْعَرَبِ اسْتَوْلَى مُلُوكُ الطُّوَلِ عَلَى
أَمْرِهَا ، وَاقْتَسَمُوا خِطْلَهَا وَتَنَافَسُوا بِبَنِيهِمْ ، وَتَوَزَّعُوا
مَمَالِكَ الدَّوْلَةِ ، وَانْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ
فِي وَلَايَتِهِ وَتَمَنَعَ بِأَنفِهِ . وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ السَّجَمِ مَعَ
الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، فَتَغَلَّبُوا بِأَلْقَابِ الْمُلُوكِ . وَلَكِسُوا

شَارَكُهُ وَأَمِنُوا مِنْ يَنْقُضَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُبَيِّرُهُ ،
لَأَنَّ الْأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَابٍ وَلَا قِتَالٍ ، كَمَا
سَنَذْكُرُهُ وَاسْتَمَرَّ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ :
يَمَا يُزْهَلُنِي فِي أَرْضِ الْأَنْدَلُسِ
أَسْمَاءُ مُتَعَصِّمٍ فِيهَا وَمُتَعَصِّدٍ
أَلْقَابُ مُلْكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْجِعِهَا
كَأَلْهَرٍ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

فَاسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْمَوَالِ وَالْمُضْطَمِّنِينَ ،
وَالطُّرَاءَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ مِنْ قِبَالِ
الْبُرْبَرِ وَزَنَاقَةِ وَغَيْرِهِمْ . ائْتَمَّتْ بِالْدَّوْلَةِ فِي آخِرِ
أَمْرِهَا ، فِي الْاسْتَظْهَارِ بِهِمْ حِينَ ضَعُفَتْ عَضْبَةُ
الْعَرَبِ . وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ (١) أَعْلَى الدَّوْلَةِ فَكَانَ
لَهُمْ ذَوْلٌ عَظِيمَةٌ اسْتَبَدَّتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِحَنَابِ
مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَحَظٍّ كَبِيرٍ مِنَ الْمُلْكِ عَلَى نِسْبَةِ
الدَّوْلَةِ الَّتِي اقْتَسَمُوهَا ، وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ
ذَلِكَ حَتَّى جَازَ إِلَيْهِمُ الْبَحْرُ الْمُرَابِطُونَ أَهْلَ النَّصَبِيَّةِ
الْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةٍ ، فَاسْتَبَدُّوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ
مَرَكَزِهِمْ ، وَنَحَوْا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَرِدُوا عَلَى
مُكَافَحَتِهِمْ لِفَقْدَانِ النَّصَبِيَّةِ لَنَبِيهِمْ .

فِيهِلِ النَّصَبِيَّةِ يَكُونُ تَهْمِيدُ الدَّوْلَةِ وَحَمَايَتُهَا
مِنْ أَوْلِيَّهَا . وَقَدْ ظَنَّ الطُّرُوسِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ الدَّوْلِ بِإِطْلَاقِ
هَمِّ الْخَنْدِ أَهْلَ الْعَطَاءِ الْمُقَرَّرِ مَعَ الْأَهْلِ (٢) . ذَكَرَ ذَلِكَ
فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ «سِرَاجَ الْمُلُوكِ» . وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَادَلُ
تَأْيِيسَ الدَّوْلِ الْعَامَّةِ فِي أَوْلِيَّهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ
بِالدَّوْلِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ التَّهْمِيدِ وَاسْتِغْرَاقِ الْمُلْكِ فِي

(١) يقصد استبداده على حشام أحد ملوك الأسلس .

(٢) أي : الذين لم يذكروا من حلال كل شهر .

النَّصَابِ وَاسْتَحْكَامِ الصَّبَةِ لِأَهْلِهِ ، فَالْجُلُ إِنَّمَا أَذْرَكَ الدَّوْلَةَ حِينَ هَرَمَ مَا وَهَلَتْ جَنْفُهَا ، وَرَجَّعَهَا إِلَى الْاسْتِظْهَارِ بِالْمَوَالِ وَالصَّنَائِعِ ، ثُمَّ إِلَى الْمُسْتَخْلَعِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ بِالْأَجْرِ عَلَى الْمُتَّفَاقَةِ بِفَائِدَةِ إِنَّمَا أَذْرَكَ دُونَ الطَّرَافِ ، وَذَلِكَ حِينَ اخْتِلَالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَانْقِرَاضِ عَصَبِيَّتِهَا مِنَ الْعَرَبِ ، وَاسْتِغْنَاءِ كُلِّ أَمِيرٍ بِقَطْرِهِ . وَكَانَ فِي إِتَالَةِ الْمُتَعَمِّقِينَ بَنِي هُودَ وَابْنِهِ الْمُظْفَرِ أَهْلُ مِرْقَسَةَ ، وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ النُّصَبَةِ شَيْءٌ لَاسْتِغْلَاةِ الْخَرْبِ عَلَى الْعَرَبِ مُنْذُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ السِّنِينَ وَهَلَاكِهِمْ ، وَلَمْ يَرَّ إِلَّا سُلْطَانَانِ مُسْتَعِيدَانِ بِالْمُلْكِ عَنْ عَشَائِرِهِ ، وَقَدْ اسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ الْاسْتِغْنَاءِ مُنْذُ هَذَا الدَّوْلَةِ وَبَقِيَةِ النُّصَبَةِ فَهُوَ لِلذَّيْلِ لَا يَنْتَارُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِالْأَجْرَاءِ مِنَ الْمُرْتَزِقَةِ . فَاطْلُقِ الطَّرَافُوشَ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَنْقَطِعْ لِكَيْفِيَةِ الْأَمْرِ مُنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَمُتُ إِلَّا لِأَهْلِ النُّصَبَةِ . فَتَفْطُلُنَ أَنْتَ لَهُ وَأَنَّهُمْ يَرِ اللَّهُ فِيهِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُهُ مَن يَشَاءُ (١) .

الفصل الثالث

في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تمتلئ عن النصبية .

وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِنُصَبَةٍ عَلَبٌ كَثِيرٌ عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ ، وَفِي نَفُوسِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْقَابِصَةِ إِذْعَانٌ لَهُمْ وَانْقِيَادٌ ، فَإِذَا نَزَعَ إِلَيْهِمْ هَذَا الْخَارِجُ وَانْتَبَهَ عَنْ مَقَرِّ مَلِكِهِ وَمَنْبَتِ جِزْوِهِ ، انْتَهَمُوا طَرِيقَ وَقَاوِمِهِ بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوهُ عَلَى شَأْنِهِ وَخُتُوا بِتَمَهِيدِ دَوْلَتِهِ يَرْجُونَ اسْتِغْرَاةً فِي نِصَابِهِ ،

(١) من أسره .

(٢) يعني مناصفة ، والولاية هنا الجزاء والامتناع من شذوذه .

(١) الآية رقم ٢٤٧ من سورة البقرة .

النَّصِيَّةِ، وَتَقَرَّدُ الرَّجْعَةَ إِلَى الْحَقِّ. فَلَمَّا حَصَلَ لَهُمْ
الاشْتِيصَارُ فِي أَنْزِهِمْ لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ، لِأَنَّ الرَّجْعَةَ
وَالْحِلَّةَ، وَالْمَطْلُوبَ مُتَابِعًا عِنْدَهُمْ، وَهُمْ مَسْتَمْتِعُونَ
عَلَيْهِ. وَأَهْلُ الدُّوَلَةِ الَّتِي هُمْ عَالِيُوهَا وَإِنْ كَانُوا
أَضْمَافَهُمْ، فَأَغْرَضَهُمْ مُتَبَايِنَةً بِالْبَاطِلِ وَتَخَذَلَهُمْ
لِنَقِيَّةِ التَّوْتِ حَاصِلٍ، فَلَا يُقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا
أَكْثَرَ مِنْهُمْ، بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيَعْلِجُهُمُ الْفَنَاءُ
بِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّرَفِّ وَالذُّكِّ، كَمَا قَدْ نَظَرْنَا.

وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات
فكانت جيوش المسلمين بالقاديسية واليرموك بضعة
وثلاثين ألفاً في كل معسكر، وجموع فارس مائة
وعشرين ألفاً بالقاديسية، وجموع هرقل على ما قاله
الواقدي: أربع مائة ألف، فلم يقف للعرب أحد من
الجانبيين وهزمهم وغلبوهم على ما يأتينا بهم.
واغترب ذلك أيضاً في دولة لخمونة وقولة الموحليين،
فقد كان بالعرب من القبائل كثير ممن
يقاومهم في العمد والنصيبة أو يشف^(١) عليهم،
إلا أن الاجتماع اللبني صاعف قوة عصبيتهم
بالاشتياص والاشتمات كَمَا قَدْ نَظَرْنَا، فَلَمْ يَقِفْ
لَهُمْ شَيْءٌ.

واغترب ذلك إذا حالت صيغة الدين وقسدت،
كيف ينتقص الأمر ويصير القلب على نسب
العصبة وحدها دون زيادة الدين، فيغلب الدولة
من كان تحت يدها من العصابات المكافئة لها
أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاغة الدين
لقوتها، ولو كانوا أكثر عصبة منها وأشد بدواة.

القلب لقرين يقصر ومصر على سائر الأمم، فلم يزل
الملك في أضفابهم إلى أن انقرضت دولة العرب
بأسرها. «والله يحكم لأمصب يحكمه»^(١).

الفصل الرابع

في أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك،
أصلها الدين إما من نبوة أودعوة حتى
وذلك لأن الملك، إنما يحصل بالتغلب،
والتغلب إنما يكون بالعصبة. وانفاد الأهواء على
المطالبة، وجمع القلوب وتليفها، إنما يكون
بمحونة من الله في إقامة دينه. قال تعالى: «لَوْ أَنْفَقْتَ
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِينَ قُلُوبِهِمْ»^(٢)
وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل
والميل إلى الدنيا، حصل التنافس وقسا الخلاف.
وإذا انصرفت إلى الحق ورفقت الدنيا والباطل،
واقبلت على الله اتحدت وجهتها، فذهب التنافس
وقل الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد، واتسع
نطاق الكلمة لذلك، ف عظمت الدولة، كما نبين لك
بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى، وفيه التوفيق
لَا رَبَّ سِوَاهُ.

الفصل الخامس

في أن الدعوة الدينية، تزيد الدولة في أصلها
قوة على قوة العصبة التي كانت لها من عددها
والسبب في ذلك، كما قلناه، أن الصيغة
الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل.

(١) الآية رقم : ٤١ من سورة : الرحه .

(٢) الآية رقم : ٦٤ من سورة الأنفال .

وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ، وَكَانَتْ تَوَرُّثُهُ تُسَمَّى تَوَرُّثَ الْمُرَاطِبِينَ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَحْوَالُ الثُّوَلِيِّ الْقَالِمِينَ بِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْفُقَهَاءِ. فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَحْطِطِينَ لِلْعِبَادَةِ وَمُتْلُوكِ طُرُقِ الدِّينِ، يَذْهَبُونَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ الْجَوْرِ مِنَ الْأُمَرَاءِ كَامِينَ إِلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَرَجَاءِ فِي الثُّوَابِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ، فَيَكْثُرُ اتِّبَاعُهُمْ وَالْمُتَشَبِّهُونَ بِهِمْ مِنَ الْقَوَّاهِ وَالْهَمَّاهِ، وَيَرْضَوْنَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ لِلْمَهَالِكِ، وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِي هَذَا السَّبِيلِ مَأْزُورِينَ (١) أَخِيرَ مُتَجَوِّدِينَ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا أَمْرٌ بِهِ حَيْثُ تَكُونُ الْفِتْنَةُ عَلَيْهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ يَدِيهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِقَلْبِهِ». وَأَحْوَالُ الْمُلُوكِ وَالثُّوَلِيِّ رَاسِخَةٌ قَوِيَّةٌ لَا يَزْخَرُهَا وَيَهْدُمُ بِنَاهَا إِلَّا الْمُطَالِبَةُ الْقَوِيَّةُ الَّتِي مِنْ وَرَائِهَا عَصِيَّةُ الْقَبَائِلِ وَالْمَشَائِرِ، كَمَا قَدْ نَافَا. وَهَكَذَا كَانَ حَالُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ بِالْمَشَائِرِ وَالْمَصَائِبِ، وَهُمْ الْمُوْتَمِنُونَ مِنَ اللَّهِ بِالْكَوْنِ كُلِّهِ لَوْ شَاءَ، لَكُنْتُمْ إِنَّمَا أُجْرَى الْأُمُورُ عَلَى مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ، وَاللَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

فَإِذَا دَخَلَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ هَذَا الْمَذْهَبِ وَكَانَ فِيهِ مُحِصًا، قَصَرَ بِهِ الْإِنْفِرَادُ عَنِ الْعَصِيَّةِ فَطَاحَ فِي هَوَاةِ الْهَلَاكِ، وَأَمَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَلْبِسِينَ بِمَلِكٍ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ فَاجْتَرَأَ أَنْ تَعَوِّدَ الثُّوَلِيَّ، وَتَنْقَطِعَ بِهِ

وَأَخِيرَ هَذَا فِي الْمُوَحِّلِينَ مَعَ زَنَافَةِ، لَمَّا كَانَتْ زَنَافَةُ أَبْدَى مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوَحُّشًا، وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الدَّعْوَةُ الدِّينِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْمَهْدِيِّ فَلْيَسُوا صِبْغَتَهَا، وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصِيَّتِهِمْ بِهَا، فَظَلَبُوا عَلَى زَنَافَةِ أَوَّلًا وَاسْتَبَعُوهُمْ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصِيَّةُ وَالْكَدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ، فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ ذَلِكَ الْعَصِيَّةِ الدِّينِيَّةِ انْتَفَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَافَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَعَلَبُوهُمْ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ.

الفصل السادس

فِي أَنَّ الدَّعْوَةَ الدِّينِيَّةَ مِنْ عِيرِ عَصِيَّةٍ لَا تَتِمُّ وَهَذَا لِمَا قَدْ نَافَا، مِنْ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ نَحْمَلُ عَلَيْهِ الْكَافَّةَ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْعَصِيَّةِ. وَكَى الْحَلِيقَةُ الصَّحِيحُ كَمَا مَرَّ «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» (١)، وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ أَوَّلَى النَّاسِ النَّاسِ بِخَرَقِ الْوَالِدِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِمْ أَنْ لَا تُخَرِّقَ لَهُ الْعَادَةُ فِي الْقَلْبِ بِغَيْرِ عَصِيَّةٍ.

وَقَدْ وَفَّقَ هَذَا لِابْنِ قَيْسٍ شَيْخِ الصُّوفِيَّةِ، صَاحِبِ كِتَابِ «خُلُقِ النَّفْلِينَ» فِي التَّصَوُّفِ: نَارَ بِالْأَنْدَلُسِ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَدَعَا أَصْحَابَهُ بِالْمُرَاطِبِينَ قَبِيلَ دَعْوَةِ الْمَهْدِيِّ، فَاسْتَبَدَّ لَهُ الْأَمْرُ قَلِيلًا لِيُشْغَلَ لَمْتَوْنَةُ، عَا دَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْمُوَحِّلِينَ، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَصَائِبُ وَلَا قَبَائِلُ يَذْفَعُونَهُ عَنْ شَأْنِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ حِينَ اسْتَوَلَى الْمُوَحِّلُونَ عَلَى الْمَغْرِبِ أَنْ أَدْعَى لَهُمْ، وَدَخَلَ فِي دَعْوَتِهِمْ وَتَابَعَهُمْ مِنْ مَقْلَبِهِ بِحَضَرٍ أَرَكَشَ، وَأَمَكْتَهُمْ مِنْ تَغْيِيرِهِ

(١) عليهم العود

(١) أي في عز وجاهة بفضل قومه.

بَنِي هَاشِمٍ قَمَنَ قَوْمُهُمْ ، وَنَزَلَ قَصْرَ طَاهِرٍ ، وَاتَّخَذَ الدِّيَّوَانَ وَطَافَ بِبَغْدَادَ ، وَنَمَحَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَةَ وَنَمَحَ الْخِفَارَةَ لِأَوَّلِكَ الشُّطَّارِ ، وَقَالَ لَهُ خَالِدُ الدُّرَيْمِيُّ : أَنَا لَا أُعِيبُ عَلَى السُّلْطَانِ . فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ : لَكِنِّي أَقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَاثِنًا مِنْ كَانَ . وَذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمِائَتَيْنِ ، وَجَهَّزَهُ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ التَّهْدِي الْقَسَاكِرِ ، فَقَلَبَهُ وَأَسْرَهُ وَانْحَلَّ أَمْرُهُ سَرِيعًا ، وَدَعَبَ وَتَجَا بِتَقْيِيهِ .

ثُمَّ اقْتَدَى بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَوَسِّمِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَلَا يَخْرُفُونَ مَا يَخْجَرُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصِيَّةِ ، وَلَا يَشْعُرُونَ بِعَقَبَةِ أَمْرِهِمْ وَمَالَ أَوْحَالِهِمْ . وَالَّذِي يُخْتِاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ : إِمَّا الْمُدَاوَاةُ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجُنُونِ ، وَإِمَّا التَّنْكِيلَ بِالْقَتْلِ أَوْ الضَّرْبِ ، إِنْ أَحْدَثُوا هَرَجًا ، وَإِمَّا إِذَاعَةَ السُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ ، وَعَدَهُمْ مِنَ جُمْلَةِ الصَّفَاعِينَ (١) . وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْمُتَنَزِّهِ ، إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ ، أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ لَهُ ، وَلَيْسَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ .

وَكَثُرَ الْمُتَنَحِّلِينَ لِجِنْدٍ هَذَا . تَجِدُهُمْ مُتَوَسِّمِينَ أَوْ مَجَانِينَ أَوْ مُلْبِسِينَ بِظُلُوفٍ بِجِنْدٍ هَذِهِ الدَّلْوَةِ رِيَاةً ائْتَلَاتَ بِهَا جَوَانِحُهُمْ ، وَصَحَّوْا عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَشْيَائِهَا الْعَادِيَةِ ، فَيَحْشِرُونَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ بِهِمْ إِلَى مَا يُؤْمَلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَحْشِرُونَ مَا يَبْتَالُهُمْ فِيهِ مِنَ الْهَلَكَةِ ، فَيَسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْقَتْلُ

(١) مَنْ يَصْغُرُونَ عَلَى الْأَقْيَةِ لِلْخُرَيْجَةِ بِهِمْ وَهُوَ أَنْ فَاهِهِمْ .

الْمَهَالِكُ ؛ لِأَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ لَا يَبْعَثُ إِلَّا بِرِضَاهُ وَإِعَانَتِهِ . وَالْإِخْلَاصُ لَهُ ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ ، وَلَا يَرْتَابُ فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ .

وَأَوَّلُ ابْنَيْهِ هَاشِمُ النَّزْهَةَ فِي الْمَلِكَةِ بِبَغْدَادَ حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ ، وَقَتَلَ الْأَمِينَ ، وَأَبْطَأَ الْمَأْمُونُ بِخَرَّاسَانَ عَنْ مَقْدَمِ الْعِرَاقِ ، ثُمَّ عَهْدَ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرُّضِيِّ مِنْ آلِو الْحُسَيْنِ ، فَكَشَفَ بَنُو الْعِيسَى عَنْ وَجْهِ التَّكْبِيرِ عَلَيْهِ وَتَدَاوَعُوا لِلْقِيَامِ وَخَلَعَ طَاعَةَ الْمَأْمُونِ وَالْأَشْيَاطِكَايَةِ مِنْهُ ، وَبَوَّعَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ التَّهْدِي ، فَوَقَعَ الْهَرَجُ بِبَغْدَادَ ، وَانْطَلَقَتْ أَيْدِي الزُّعْرَةِ (١) بِهَا مِنَ الشُّطَّارِ (٢) وَالْخُرَيْجَةِ عَلَى أَهْلِ الْعَاقِبَةِ وَالصُّوْنِ وَقَطَعُوا السَّبِيلَ ، وَامْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ نِهَابِ النَّاسِ ، وَتَبَاوَعُوا عِلَابِيَّةَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَاسْتَعْدَى أَهْلُهَا الْحُكَّامَ فَلَمْ يَصُدُّوهُمْ (٣) ، فَتَوَافَرَ أَهْلُ اللَّيْلِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنَعَ النَّسَاقِ ، وَكَفَّ عَادِيَتِهِمْ . وَقَامَ بِبَغْدَادَ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِخَالِدِ الدُّرَيْمِيِّ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَاجْتَابَهُ خَلْقٌ ، وَقَاتَلَ أَهْلَ الزُّعْرَةِ فَظَلَبَهُمْ ، وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ .

ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرٌ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ ، يُعْرَفُ بِسَهْلِ بْنِ سَلَامَةَ الْاَنْصَارِيِّ ، وَكَتَبَى : أَبَا حَاتِمٍ ، وَعَلَّقَ مُضْحَكًا فِي حَقْدِهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالتَّمَلُّ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاتَّبَعَهُ النَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ مِنْ

(١) الْمُصْغَرُونَ فِي الْأَرْضِ .

(٢) جَعَّ هَاشِمٌ وَهُوَ الْعَيْشُ .

(٣) لَمْ يَصُدُّوهُمْ وَلَمْ يَصُدُّوهُمْ .

بما يُعَدُّونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَتَسْوَةِ عَاقِبَتِهِمْ مَكْرَهُمْ .
وَقَدْ كَانَ لِأَوَّلِ هَلِيهِ الْمَائَةِ خَرَجَ بِالسُّوسِي رَجُلٌ
مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى التَّوَيْلِيُّ عَمَدٌ إِلَى مَسْجِدِ
هَامَّةٍ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَاكَ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ
الْمُنْتَظَرُ تَلْبِيسًا عَلَى الْمَائَةِ هُنَاكَ بِمَانِلَا قُلُوبَهُمْ
مِنَ الْحَدَثَانِ بِإِنْتِظَارِهِ هُنَاكَ ، وَأَنَّ مِنْ ذَلِكَ
الْمَسْجِدِ يَكُونُ أَصْلُ دَعْوِيهِ ، فَتَهَافَّتَتْ عَلَيْهِ
طَوَائِفُ مِنَ عَامَّةِ الْبُرْجَرِ تَهَافَّتَ الْفَرَّاسِيُّ ، ثُمَّ
خَشَى رُؤُوسَهُمْ اتِّسَاعَ نَطَاقِ الْفِتْنَةِ ، فَدَسَّ إِلَيْهِ
كَبِيرُ الْمُصَافِدَةِ يَوْمِيذُ عَمْرِ السَّكْسَبِيُّ مَنْ قَتَلَهُ
فِي فَرَّاشِهِ .

وَكَذَلِكَ خَرَجَ فِي غِمَارِهِ أَيْضًا ، لِأَوَّلِ هَذِهِ الْيَابَةِ ،
وَجُلٌ يُقَرَّبُ بِالسُّبَّاسِ ، وَأَدْعَى مِثْلَ هَلِيهِ الدَّعْوَةَ ،
وَاتَّبَعَ نَعِيقَ الْأَزْدَلُونَ مِنْ سَفَاهِهِ ذَلِكَ الْقَبَائِلُ
وَأَغْمَارِهِمْ ، وَزَحَفَ إِلَى بَابِيسَ مِنْ أَمْصَارِهِمْ ،
وَدَخَلَهَا عُدُوهُ ، ثُمَّ قُتِلَ لِأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ شَهْرِ
دَعْوِيهِ ، وَمَضَى فِي الْهَالِكِينَ الْأَوَّلِينَ . وَأَمَّا
ذَلِكَ كَبِيرُ ، وَالْقَلْبُ . فِيهِ مِنْ الْفَلَةِ عَنِ اعْتِبَارِ
الْعَصْبَةِ فِي مِثْلِهَا . وَأَمَّا إِنْ كَانَ التَّلْبِيسُ فَآخَرَى
أَنْ لَا يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ، وَأَنْ يَبْوءَ بِإِنْيِهِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِوَيْهِ التَّوْفِيقِ
لَأَرْبَ غَيْرِهِ ، وَلَا تَقْبُولُ سِوَاهُ .

الفصل السابع

في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والأوطان
لا تزيد عليها
والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها
القائمين بها الممهلين لها ، لا بد من توزيعهم

وَمَا كَانَتْ الْيَابَةِ مَوْفُورَةً ، وَلَمْ يَنْفُذْ عَمَدُهَا
فِي تَوْزِيعِ الْجِصَصِ عَلَى الثُّغُورِ وَالنُّوَالِصِ ، بَقِيَ
فِي الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَارَاهُ الْقَابَةِ ، حَتَّى
يَنْفَسِحَ نِطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ . وَالْيَابَةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي ذَلِكَ ،
هِيَ قُوَّةُ الْعَصْبَةِ مِنْ سَائِرِ الْقَوَى الطَّبِيعِيَّةِ . وَكُلُّ
قُوَّةٍ يَضُرُّ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ فَشَأْنُهَا ذَلِكَ فِي
فِعْلِهَا . وَالدَّوْلَةُ فِي مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي
الطَّرَفِ وَالنَّطَاقِ ، وَإِذَا انْتَهَتْ إِلَى النِّطَاقِ الَّذِي هُوَ
الْقَابَةِ ، عَجَزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ ، شَأْنُ الْأَشْجَةِ
وَالْأَنْوَارِ إِذَا انْبَغَتْ مِنَ الْمَرَائِجِ وَاللُّوَالِصِ الْمُنْفَسِحَةِ
عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنَ الثَّقَرِ (١) عَلَيْهِ . ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا
الْهَرَمُ وَالضَّعْفُ ، فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي التَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ
الْأَطْرَافِ ، وَلَا يَزَالُ الْمَرْكَزُ مَحْظُوطًا ، إِلَى أَنْ
يَتَذَنَّ اللَّهُ بِإِنْقِرَاصِ الْأَمْرِ جُمْلَةً ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ،
انْقِرَاصُ الْمَرْكَزِ .

وَإِذَا غَلِبَ عَلَى الدَّوْلَةِ مَرْكَزُهَا ، فَلَا يَنْتَفِعُهَا

(١) أي على أثر الفقر عليه بحصاة مثلا .

الفصل الثامن

في أن عظم الدولة واتساع نطاقها، وطول
أمدتها على نسبة القاطنين بها في القلة والكثرة
والسبب في ذلك أن الملك، إنما يكون
بالتصبيبة. وأهل التصبيبة هم الحامية الذين ينزلون
بممالك الدولة وأقطارها، وينقسمون عليها.
فما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها
أكثر، كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً، وكان
ملكها أوسع لملك.

واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية: لما ألفت الله
كلمة العرب على الإسلام، وكان عدد المسلمين في
غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم
مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان، ما بين
فارس وراجل، إلى من أسلم منهم بعد ذلك
إلى الروافد. فلما توجهوا لطلب ما في أيدي الأمم
من الملك، لم يكن ثوبه جسي ولا وزر، فاستبشع
حتى فارس والروم، أهل الدولتين العظيمتين
في العالم لعهديهن، والترك بالشرق، والإفرنجية
والبربر بالمغرب، والقوط. بالأندلس وخطوا من
الحجاز إلى السويس الأقصى، ومن اليمن إلى الترك
يلقضى الشمال، واستولوا على الأقاليم السبعة.
ثم انظر بعد ذلك دولة صنهجة والموحدين مع
البيديين قبلهم لما كان قبيل كثامة القايونيدولة
البيديين أكثر من صنهجة، ومن المصامدة كانت
دولتهم أعظم فملكوا أفريقية والمغرب والشام
ومصر والحجاز. ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة
لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن

بقاه الأطراف والتطابق بل تضمنج لوقتها؛ فإن
المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح، فإذا
غلب على القلب وملك انهمز جميع الأطراف.
وانظر هذا في الدولة الفارسية: كان مركزها
المدائن، فلما غلب المسلمون على المدائن
انقرض أمر فارس أجمع، ولم ينفع يزجرجد ما
بقي بيده من أطراف ممالكه. وبالنكس من
ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها
القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام، تحيزوا
إلى مركزهم بالقسطنطينية، ولم يضرهم انتزاع
الشام من أيديهم، فلم يكن ملكهم متصلاً بها
إلى أن نادى الله بانقرضوا.

وانظر أيضاً شأن العرب أول الإسلام: لما
كانت عصابتهم مؤفودة كيف غلبوا على ما جاورهم
من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت، ثم تجاوزوا
ذلك إلى ما وراءه من الهند والحبشة وأفريقية
والمغرب ثم إلى الأندلس.

فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والشعوب
وتزكروا حامية، وتعد عددهم في تلك التوزيعات
أقصرها عن الفتحوات بعد وانتهى أمر الإسلام،
ولم يتجاوز تلك الحدود، ومنها تراجعت الدولة
حتى نادى الله بانقرضها. وسكان كان حال الدول
من بعد ذلك، كل دولة على نسبة القاطنين بها في
القلة والكثرة، وعند نقاد عديدهم بالتوزيع،
ينقطع لهم الفتح والاستيلاء: سنة الله في خلقه.

صَنَاجَعَهُ دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعْزِ الدَّوْلَةِ أَمْرٌ
أَفْرِيقِيَّةَ لِبَلَكْبَنَ بْنِ زَيْبَرٍ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ
وَتَلَايِمَانَةَ ، إِلَى حِينِ اسْتِيلَاءِ الْمُوحِدِينَ عَلَى الْقُلْعَةِ ،
وَبِجَايَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ . وَدَوْلَةُ
الْمُوحِدِينَ لِهَذَا الْمَهْدِ تَنَاهَزَ مِائَتَيْنِ وَمِئَتَيْنِ سَنَةً .
وَهَكَذَا نَسَبُ الدُّوَلِ فِي أَغْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ
بِهَا ، سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي حَيَاتِهِ .

الفصل التاسع

فِي أَنَّ الْأَوَّلَانَ الْكَثِيرَةَ الْقَبَائِلَ ، قُلُوبُ أَنَّ

مستحكم فيها دولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ لِخِلَافِ الْأَوَاهِ وَالْأَهْوَاءِ ، وَأَنَّ
وَرَاءَهُ كُلُّ رَأْيٍ مِنْهَا هَوًى وَهَـوَ عَصِيَّةٌ تُمَانِعُ دُونَهَا
فَيَكْثُرُ الْإِنْقِصَافُ عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْمُخْرُجُ عَلَيْهَا فِي
كُلِّ وَقْتٍ ، وَإِنَّ كَانَتْ فَاتَتْ عَصِيَّةٌ لِأَنَّ كُلَّ
عَصِيَّةٍ يَمُنُّ نَحْتِ يَدِهَا نَظَرٌ فِي نَفْسِهَا سَنَةً
وَقُوَّةً .

وَانْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ ،
مُنْذُ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَلِهَذَا الْمَهْدِ . فَإِنَّ سَاكِنَ هَلِوِ
الْأَوَّلَانَ مِنَ الْبَرَبَرِ أَهْلُ قَبَائِلٍ وَعَصِيَّاتٍ ، فَلَمْ يَغْنِ
فِيهِمُ الْقَلْبُ الْأَوَّلُ ، الَّذِي كَانَ لِابْنِ أَبِي سَرْحٍ
عَلَيْهِمُ وَعَلَى الْإِفْرِنجَةِ شَيْئًا ، وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ
الثَّوْرَةَ الرَّادَّةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَعَظُمَ الْإِثْخَانُ مَعَ
الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ . وَلَمَّا اسْتَفْرَغَ الدِّينَ حِنْدَهُمْ عَادُوا
إِلَى الثَّوْرَةِ وَالْمُخْرُجِ ، وَالْأَخِيذِ بِدِينِ الْخَوَلِجِ
مَرَاتٍ عَظِيمَةً .

قَالَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ ، لَزِمَتِ الْبَرَابِرَةُ بِالْمَغْرِبِ
اَثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَلَمْ تَسْتَفْرِجْ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ

مُلْكُ الْمُوحِدِينَ لِقُصُورِ حُدُودِهِمْ مِنْ عَدَدِ الْمَصَالِحِ
مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ .

ثُمَّ اعْتَبِرْ بَعْدَ ذَلِكَ حَالِ الدَّوْلَتَيْنِ لِهَذَا الْمَهْدِ ،
لَزِمَتَا بَنِي مُرَيْنَ وَبَنِي عَبْدِ الْوَادِ ، كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ
أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعُ نِطَاقًا ، وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الْقَلْبُ
مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . يُقَالُ إِنَّ عَدَدَ بَنِي مُرَيْنَ لِأَوَّلِ
مُلْكِهِمْ ، كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ . وَإِنَّ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ كَانُوا
أَلْفًا . لِأَنَّ الدَّوْلَةَ بِالرَّدِّ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ كَثُرَتْ مِنْ
أَعْدَادِهِمْ ، وَهَلْ هَلِوِ النِّسْبَةِ فِي أَهْدَادِ الْمُتَغَلِّبِينَ
لِأَوَّلِ الْمُلْكِ يَكُونُ اتِّسَاعُ الدَّوْلَةِ وَقُوَّتُهَا .

وَأَمَّا طَوْلُ أَمِيدِهَا أَيْضًا فَقَدْ تِلْكَ النِّسْبَةُ لِأَنَّ
حُزْمَ الْحَادِثِ مِنْ قُوَّةِ بِرَاجِهِ ، وَبِرَاجِ الدُّوَلِ إِنَّمَا هُوَ
بِالْعَصِيَّةِ ، فَإِذَا كَانَتْ الْعَصِيَّةُ قُوَّةً ، كَانَ الْمَزَاجُ
تَابِعًا لَهَا ، وَكَانَ أَمْرُ الْمُعْمَرِ طَوِيلًا ، وَالْعَصِيَّةُ إِنَّمَا
هِيَ بِكَثْرَةِ الْعَدُوِّ وَقُوَّتِهِ ، كَمَا قُلْنَا .

وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النِّقْصَ ، إِنَّمَا
يَبْنُو فِي الدَّوْلَةِ مِنَ الْأَطْرَافِ ، فَإِذَا كَانَتْ مَالِكُهَا
كَثِيرَةً ، كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا
وَكَثِيرَةً ، وَكُلُّ نَقْصٍ يَقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنِ ، فَتَكْثُرُ
أَزْمَانُ النِّقْصِ لِكَثْرَةِ الْمَمَالِكِ ، وَاخْتِصَاصِ كُلِّ
وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وَزَمَانٍ ، فَيَكُونُ أَمِيدُهَا طَوِيلًا . وَانْظُرْ
فِي ذَلِكَ دَوْلَةَ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيَّةَ كَيْفَ كَانَ أَمِيدُهَا أَطْوَلَ
الدُّوَلِ ، لِابْنِ الْعَبَّاسِ ، أَهْلُ الْمَرْسَرِ ، وَلِابْنِ أُمَيَّةِ
الْمُسْتَبْدُونَ بِالْأَنْدَلُسِ (١) . وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ
إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ . وَدَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ ،
كَانَ أَمِيدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ

(١) صوابه : لا فرق في ذلك بين بني عباس أهل المَرْسَرِ وبين أسرة
المسلمين بالأندلس .

فيهم إلا ليعهد ولاية موتى بن مُصير، فما بعده .
وهذا معنى ما يُنقل عن عمرو: أن أفرقة مفرقة
لِقُلُوبِ أَهْلِهَا، إشارة إلى ما فيها من كثرة
المصائب والقبايل الحاملة لهم على عثم
الإذعان والانقياد، ولم يكن العراق لذلك
العهد بذلك الصفة، ولا الشام، إنما كانت حاميتها
من فارس والروم، والكافة دغماء، أهل مدن
وأصهار فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانتزعوه
من أيديهم لم يبق فيها مانع ولا مشاق . والبربر
قبائلهم بالغرب أكثر من أن تحصى وكلهم
بادية ، وأهل عصاب وعشائر، وكلما
هلكت قبيلة، عادت الأخرى مكانها، وإلى دينها
من الخلاف والردة، فلما أثر العرب في تعهيد
الدولة بوطن أفريقية والغرب . وكذلك كان
الأمر بالشام . ليعهد بني إسرائيل : كان فيه من
قبايل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدبن
وبني لوط، واليونان والعماليق وأخريش والنبط،
من جانيب الجزيرة والموصل مالا يحصى كثرة
وتنوعا في العصبية، فصعب على بني إسرائيل
تعهيد دولتهم، وروسخ أمرهم، واضطرب عليهم
الملك مرة بعد أخرى . وسرى ذلك الخلاف
إليهم، فاختلوا على سلطانهم، وخرجوا عليه .
ولم يكن لهم ملك موطن سائر أيامهم، إلى أن
غلبهم الفرس ثم يونان، ثم الروم آخر أمرهم
حينئذ الجلاء، والله غالب على أمره .
ويمكن هذا أيضا: الأوطان الخالية من
العصبيات يسهل تعهيد الدولة فيها، ويكون

سلطانها وازعا لِقِلَّةِ الهرج (١) والانقياض بولا تخارج
الدولة فيها إلى كثير من العصبية ، كما هو
الشأن في مصر والشام لهذا العهد، إذ هي خلوا
من القبائل والعصبيات، كأن لم يكن الشام
مُعِينًا لَهُمْ كَمَا قُلْنَا . فملك مصر في هاية الدعاء
والروسخ لِقِلَّةِ الخوارج، وأهل العصاب .
إنما هو سلطان ورعية، ودولتها قائمة بملك
الترك وعصبيتهم يلبثون على الأمر وحيدا بعد
وليد، وينقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت
والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء،
بيغداد ، وكذا شأن الأندلس لهذا العهد : فإن
عصبية ابن الأخرم سلطانها لم تكن لأولو دولتهم .
بقوية، ولا كانت كرات إنما يكون أهل بيت
من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من
ذلك القيلة .
وذلك أن أهل الأندلس لما انتفخت الدولة
العربية بينهم، وملكهم البربر من لحنونة والموحدين
سبوا ملكتهم ونقلت وطأتهم عليهم، فأثربت
القلوب بغضاهم، وأمكن الموحدون والسادة في
آخر الدولة كثيرا من المصون للطاغية في
سبيل الاستظهار به على شأنهم ، من تملك
الحضرة مرايش : فاجتمع من كان بقي بها من
أهل العصبية القديمة مباد من بيوت العرب
تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأصهار بغض
الشئ ، ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن
الأخمر وابن مرتيش وأمثالهم، فقام ابن هود
بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق،

(١) اللحنونة القتل . (٢) مرة بعد مرة .

أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ الْمُنَمَّاةَ لِلْقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ الزَّجَاجِ لِلْمُسْكُونِ ، وَالزَّجَاجُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنِ التَّعَاصُرِ ، وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْجِبِهِ أَنَّ التَّعَاصُرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مُكَافَأَةٌ فَلَا يَبْقَى مِنْهَا زَجَاجٌ أَصْلًا ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا هِيَ الْعَالِيَةُ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى تَجْمَعَهَا ، وَتُؤَلِّفَهَا وَتُصَيِّرَهَا عَصَبِيَّةً وَاحِدَةً شَامِلَةً لِجَمِيعِ التَّصَالِبِ وَهِيَ مُوجُودَةٌ فِي ضِمْنِهَا ، وَذَلِكَ الْمَصِيبَةُ الْكُبْرَى ، إِنَّمَا تَكُونُ لِقَوْمٍ أَهْلُ بَيْتٍ وَوَرَثَةٍ فِيهِمْ ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا عَلَيْهِمْ ، فَيَتِمُّ رِيسَا لِمَصِيبَاتِ كُلِّهَا لِبَلْبِ تَمَيُّنِهِ لِجَمِيعِهَا .

وَإِذَا تَمَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ ، فَمِنْ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ حُلُقُ الْكِبَرِ وَالْأَنْفَةِ ، فَيَتَأَلَّفُ حِينَئِذٍ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِيعَابِهِمْ وَالتَّحَكُّمِ فِيهِمْ ، وَبِجِهَةِ حُلُقِ الْخَالِ الَّذِي فِي طَبَاقِ الْبَشَرِ ، مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ مِنْ انْفِرَادِ الْحَاكِمِ لِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ الْحُكَامِ وَلَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَلْنَا (١) فَتَجِدُ حِينَئِذٍ أُنُوفَ الْمَصِيبَاتِ وَتُفَلِّجُ نَكَالَهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكِيهِ فِي التَّحَكُّمِ ، وَتُفَرِّغُ عَصَبِيَّتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ ، وَتُفَرِّدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَبْرَكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، لَا نَاقَةَ وَلَا جَمَلًا فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ التَّحَدُّ بِكُلِّيَّتِهِ ، وَيَتَقَهَّمُ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ . وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلَى مِنْ مُلُوكِ الدُّوَلَةِ ، وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّلَاثِ عَلَى قَدَرِ مُمَانَةِ الْمَصِيبَاتِ وَقُوَّتِهَا . إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدُّوَلِ ، سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ هَمَّكَتْ فِي حَيَاةِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) الآية دهم : ٢٢ من سورة الأنعام .

وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى الْمُوحِدِينَ فَنَبِلُوا إِلَيْهِمُ الْمَهْدَ ، وَأَخْرَجُوهُمْ وَاسْتَقْبَلَ ابْنُ هُودٍ بِالْأَمْرِ فِي الْأَنْدَلُسِ . ثُمَّ سَمَا ابْنُ الْأَخْمَرِ لِلْأَمْرِ وَخَالَفَ ابْنَ هُودٍ فِي دَعْوَتِهِ ، فَدَعَا هُوَ لَابْنِ أَبِي خَضِرٍ صَاحِبِ أَمْرِيَّةٍ مِنَ الْمُوحِدِينَ ، وَقَامَ بِالْأَمْرِ وَتَنَاوَلَهُ بِعِصَابَةِ قَرِيبَةٍ مِنْ قَرَابَتِهِ كَانُوا يُسَمُّونَ الرُّؤَسَاءَ بَوَكْمٍ يَخْتَلِفُ لَكثَرِ مِنْهُمْ لِقِلَّةِ التَّصَالِبِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَإِنَّمَا مُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ ، ثُمَّ اسْتَطَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الطَّاعِيَةِ بِمَنْ يُجْبِرُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ مِنْ أَغْيَاصِ (١) زَنَاقَةٍ ، فَصَارُوا مَعَهُ عَصَبَةً عَلَى الْمَنَازِعَةِ وَالرِّيَاضِ . ثُمَّ سَمَا لِصَاحِبِ مِنْ مُلُوكِ زَنَاقَةِ أَمَلٍ فِي الْأَسْبَلَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، فَصَارَ أَوَّلِيكَ الْأَغْيَاصِ عِصَابَةً ابْنِ الْأَخْمَرِ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَأْتَلَ أَمْرُهُ ، وَرَسَخَ وَرَفَعَتْهُ الشُّغُوفُ ، وَعَجَزَ النَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِهِ وَوَرَوَتْهُ أَغْيَابُهُ لِهَذَا الْمَهْدِ . فَلَا تَنْظُرُ أَنَّهُ يَخْتَرِ عِصَابَةً فَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وَقَدْ كَانَ مُبْلُوكَهُ بِعِصَابَةٍ ، إِلَّا أَنَّهَا قَلِيلَةٌ ، وَعَلَى قَدَرِ الْحَاجَةِ : فَإِنَّ قَطَرَ الْأَنْدَلُسِ لِقِلَّةِ الْعَصَالِبِ وَالْقَبَائِلِ فِيهِ ، يُغْنِي عَنْ كَثَرَةِ الْمَصِيبَةِ فِي التَّطَلُّبِ عَلَيْهِمْ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

الفصل العاشر

في أن من طبيعة الملك الانفراد بالجد

وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ كَمَا قَسَمْنَاهُ ، إِنَّمَا هُوَ بِالْمَصِيبَةِ . وَالْمَصِيبَةُ مُتَأَلِّفَةٌ مِنْ عَصَابَاتٍ كَثِيرَةٍ وَتَكُونُ وَاحِدَةً مِنْهَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى كُلِّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا حَتَّى تُصَيِّرَهَا جَمِيعًا فِي ضِمْنِهَا ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْاجْتِمَاعُ وَالْطَّلَبُ عَلَى النَّاسِ وَالِدُولِ . وَسِرُّهُ

(١) من يتحدون أصولها وذوى اللقاة فيها .

الفصل الحادى عشر

فى أن من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَطَلَّتْ وَتَلَكَّتْ مَا يَلْدَى
أَهْلَ الْمُلْكِ قَبْلَهَا، كَثُرَ رِيَاشُهَا وَبَغْتَتُهَا، فَكَثُرَ
عَوَالِدُهَا وَتَجَاوَزُونَ ضُرُورَاتِ الْعِيشِ وَخُشُونَتَهُ،
إِلَى نَوَالِدِ وَرَقِيهِ وَزِينَتِهِ، وَيَلْبَسُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ
قَبْلَهُمْ فِى عَوَالِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَتَصِيرُ لِيَتْلِكَ
التَّوَالِدِ عَوَالِدُ ضُرُورِيَّةٍ فِى تَحْصِيلِهَا وَيَتَزَوَّدُ
مَعَ ذَلِكَ إِلَى وَقْفَةِ الْأَحْوَالِ فِى الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِيسِ،
وَالْفُرُشِ وَالْآتِيَةِ، وَيَتَفَاخَرُونَ فِى ذَلِكَ، وَيَتَفَاخَرُونَ
فِيهِ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، فِى أَكْلِ الطَّيِّبِ وَلُبْسِ
الْأَتْيَقِ وَرُكُوبِ الْفَارَةِ (١)، وَيَتَفَاخَرُ حَظُّهُمْ فِى ذَلِكَ
حَظُّهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ، وَعَلَى فَنَرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ
حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرَفُّهُمْ فِيهِ، إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ
الْقَابَةِ الَّتِى لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَالِدِ
مَنْ قَبْلَهَا، سُنَّةَ اللَّهِ فِى خَلْقِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الثانى عشر

فى أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إِلَّا
بِالْمَطَالَةِ، وَالْمَطَالَةُ حَاقِبَتُ الْقَلْبِ وَالْمُلْكُ، وَإِذَا
حَصَلَتِ الْعَابَةُ انْقَضَى السُّعْيُ إِلَيْهَا (قَالَ الشَّاعِرُ) (٢)؛
عَجِبْتُ لِمَنِ الدُّعْرُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
قَلْبًا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدُّعْرُ
فَلَمَّا حَصَلَ الْمُلْكُ أَفْصَرُوا عَنْ التَّعَابِىِ الَّتِى

(١) الفار : الجهد السير ؛ يلقى ؛ يلقى .

(٢) حر أبو صخر ومطلع القصيدة : قبل يذات الجهن دار
حرها ... لبيت .

كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فِى طَلَبِهِ، وَآثَرُوا الرَّاحَةَ وَالسُّكُونَ
وَالدَّعَةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنْ
الْمَنَابِيِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَلَابِيسِ، فَيَبْتَنُونَ الْقُصُورَ
وَيَجْرُونَ الْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ الرِّيَاضَ وَيَسْتَعْمِلُونَ بِأَحْوَالِ
النُّسْبِ، وَيُؤَثِّرُونَ الرَّاحَةَ عَلَى التَّعَابِىِ، وَيَتَأَنَّقُونَ
فِى أَحْوَالِ الْمَلَابِيسِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْآتِيَةِ وَالْفُرُشِ
مَا اسْتَطَاعُوا، وَيَتَأَنَّقُونَ ذَلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ يَتَدَخَّلُ
مِنْ أَجْلَالِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَوَالَدُ فِيهِمْ إِلَى أَنْ
يَتَأَنَّ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ وَاللَّهُ تَعَالَى
أَعْلَمُ .

الفصل الثالث عشر

فى أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالجد

وحصول الترف والدعة

أقبلت الدولة على الهرم

وَبَيَّانُهُ مِنْ وَجْهِهِ :

الْأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِىِ الْإِنْفِرَادَ بِالْمَجْدِ كَمَا قُلْنَا،
وَمَا كَانَ الْمَجْدُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْعِبَادَةِ، وَكَانَ
سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَتْ فِيهِمْ فِى التَّطَلُّبِ عَلَى
الْفَنِّ وَالذَّبِّ عَنْ الْحَوَزَةِ أَسْوَأَ فِى طَمُوحِهَا وَقُوَّةِ
شَكَاكِمِهَا، وَتَرَاهُمْ إِلَى الْعُرِّ جَمِيعًا يَسْتَطِيعُونَ
الدَّوْتَ فِى بِنَاءِ مَجْلِعِهِمْ، وَيُؤَثِّرُونَ الْهَلَكَةَ
عَلَى نَفْسِهِ، وَإِذَا انْفَرَدَ الْوَلِيدُ مِنْهُمْ بِالْمَجْدِ
قَرَعَ عَصَبِيَّتَهُمْ وَكَبَّحَ مِنْ أَهْنَتِهِمْ، وَاسْتَفَارَ الْأَمْوَالُ
دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنْ الْقَزْوِ وَقَبِلَ رِيحَهُمْ وَزَوَّدُوا
الْمَدْلَةَ وَالْإِسْتِغْيَادَ، ثُمَّ دَبَّى الْجِبَلُ الثَّانِي مِنْهُمْ
حَتَّى خَلِكَ يَحْيِيُونَهُ مَا يَتْلَهُمْ مِنَ الْمَطَاءِ أَجْرًا مِنْ
السُّلْطَانِ لَهُمْ عَنْ الْجِمَامَةِ وَالْمَعُونَةِ لَا يَجْرَى فِى

فَيَنْقُصُ عَدَدَ الْحَامِيَةِ مَوْلَانَا وَوَلِيَّانَا إِلَى أَنْ يَبُودَ
السَّكْرُ إِلَى أَقْلِ الْأَعْدَادِ، فَتَقْصُفُ الْجَمَاعَةُ لِلْمَلِكِ
وَتَسْفُطُ قُوَّةَ الدَّوْلَةِ وَيَتَجَاوَرُ عَلَيْهَا مَنْ يَجَاوِرُهَا
مِنَ الدُّوَلِ، أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْقَبَائِلِ
وَالصَّائِبِ، وَيَأْذَنُ اللَّهُ فِيهَا بِالْفَنَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ
عَلَى خَلْقَتِهِ .

وَأَيْضًا: فَالتَّرَفُ مُفِيدٌ لِلخَلْقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي
النَّفْسِ مِنَ الزَّوَالِ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ وَعَوَالِدِهَا ،
كَمَا بَيَّنَّا فِي فَصْلِ الْحَضَارَةِ فَتَذْهَبُ مِنْهُمْ خِلَالُ
الْخَيْرِ الَّتِي كَانَتْ عَلَامَةً عَلَى الْمُلْكِ وَكَلِيلًا عَلَيْهِ ،
وَيَتَصِفُونَ بِمَا يَنْاقِضُهَا مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ، فَيَكُونُ
عَلَامَةً عَلَى الْأَذْيَانِ وَالْإفْرَاسِ، بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ
ذَلِكَ فِي خَلْقَتِهِ، وَتَأْخُذُ الدَّوْلَةُ مَبَادِيءَ الطَّلَبِ
وَتَقْصُصُ أحوَالَهَا، وَتَنْزِلُ بِهَا أَمْرَاسَ مُزْمِنَةٍ مِنْ
الْهَرَمِ إِلَى أَنْ يَقْضَى عَلَيْهَا .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي الدَّعَاةَ
كَمَا ذَكَرْنَاهُ . وَإِذَا انْخَلَعُوا الدَّعَاةَ وَالرَّاحَةَ مَأْلَفًا
وَحُلُقًا، صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ طَبِيعَةً وَجِيلَةً شَأْنُ التَّوَالِيدِ
كُلُّهَا وَإِلَاقِهَا، فَتَرْتَبِي أَجْيَالُهُمُ الْحَادِثَةُ فِي غَضَارَةِ
النَّيْسِ وَمِهَادِ التَّرَفِ وَالذَّمِّ . وَتَقْلِبُ خَلْقُ
التَّوَحُّشِ وَيَتَسَوَّنَ عَوَالِدَ الْبِلَادَةِ الَّتِي كَانَ بِهَا
الْمُلْكُ مِنْ شِدَّةِ الْبَاسِ، وَتَعُودُ الْإفْرَاسِ، وَرُكُوبِ
الْيَمِينَةِ، وَهِيَائَةِ الْفَقْرِ فَلَا يَفْرُقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
السُّوقَةِ مِنَ الْحَضَرِ إِلَّا فِي التَّقَافَةِ، وَالشَّارَةِ
فَتَقْصُفُ حِمَائِيَّتَهُمْ، وَيَذْهَبُ بِأَسْهُمِ، وَتَنْخَفِضُ
شَوْكَتُهُمْ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا تَلَبَّسَ
مِنْ ثِيَابِ الْهَرَمِ، ثُمَّ لَا يَزَالُونَ بِعَوَالِدِ الْفَرَفْرِ

عُقُولِهِمْ بِهَوَاهٍ . وَقَدْ أَنْ مَحْتَأَجِرُ أَحَدُ نَفْسِهِ عَلَى
الْمَوْتِ، فَيُغَيِّرُ ذَلِكَ وَهَذَا فِي الدَّوْلَةِ، وَتَضُدًا مِنْ
الشُّرُكَةِ وَتَقَابُلٍ بِهِ عَلَى مَنَاحِي الضَّعْفِ وَالْهَرَمِ
لِفَسَادِ الْعَصِيَّةِ بِإِلْهَابِ الْبَاسِ مِنْ أَهْلِهَا .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي
التَّرَفَ كَمَا قَدْ مَنَاهُ، فَتَكْثُرُ عَوَالِدُهُمْ وَتَزِيدُ
نَفَقَاتُهُمْ عَلَى أَعْطِيَتِهِمْ وَلَا يَبْقَى دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ .
فَالْفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ، وَالتَّرَفُ يَسْتَفْرِقُ عَطَاءَهُ
بِشْرِيهِ، ثُمَّ يَزْدَادُ ذَلِكَ فِي أَجْيَالِهِمُ الْمُتَأَخِّرَةِ إِلَى أَنْ
يَقْصُرَ الْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ التَّرَفِ وَعَوَالِدِهِ، وَتَمَسَّهُمُ
الْحَاجَةُ وَتَطْلُبُهُمْ مَلُوكُهُمْ يَحْضُرُ نَفَقَاتِهِمْ فِي
الْغَزْوِ وَالْحُرُوبِ فَلَا يَجِدُونَ وَلِجَةً لِمَعْنَاهَا فَيُوقِعُونَ
بِهِمُ الْمُتَوَاتِرَاتِ، وَيَتَفَرَّغُونَ مَا فِي أَيْدِي الْكَثِيرِ
مِنْهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ أَهْلَاءَهُمْ
وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ، فَيَقْصُرُونَهُمْ لِيَذِلَّ عَنْ إِقَامَةِ
أحوَالِهِمْ، وَيَقْصُرُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِضَعْفِهِمْ .

وَأَيْضًا: إِذَا كَثُرَ التَّرَفُ فِي الدَّوْلَةِ وَصَارَ
عَطَاؤُهُمْ مُقْصَرًا عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمْ، احْتَاجَ
صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الَّذِي هُوَ السُّلْطَانُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي
أَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلْلَهُمْ، وَيُزِيلَ عِلْلَهُمْ
وَالْجَبَايَةَ بِمِقْدَارِهَا مَعْلُومٌ، وَلَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ .
وَإِنْ زَادَتْ بِمَا يَسْتَحْدِثُ الْمُكُوسُ فَيُصِيرُ بِمِقْدَارِهَا
بَعْدَ الزِّيَادَةِ مَخْلُودًا، فَإِذَا وَزَعَتِ الْجَبَايَةَ عَلَى
الْأَعْطِيَاتِ، وَقَدْ حَثَّتْ فِيهَا الزِّيَادَةَ لِكُلِّ وَاحِدٍ
بِمَا حَدَّثَ مِنْ تَرْفِهِمْ وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ، نَقَصَ عَدَدُ
الْحَامِيَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ الْأَعْطِيَاتِ،
ثُمَّ يَعْظُمُ التَّرَفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ الْأَعْطِيَاتِ لِذَلِكَ،

الفصل الرابع عشر

في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص
 اعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم
 الأطباء، والمتجمون مائة وعشرون سنة، وهي
 العمر في كل جيل بحسب القرائن فيزيه من
 هذا وينقص منه، فتكون أعمار بقى أهل
 القرائن مائة تامة، وبهضم خمسين أو ثمانين
 أو سبعين، على ما تقتضيه أيلة القرائن عند
 الناظرين فيها وأعمار هذه اليلة ما بين الستين إلى
 السبعين كما في الحديث، ولا يزيد على العمر
 الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصور
 النادرة، وعلى الأوضاع القريبة من الفلك، كما
 وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم
 عاد وثمود.

وأما أعمار الدول أيضا: وإن كانت تختلف
 بحسب القرائن إلا أن الدولة في الغالب لاتعمر
 أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص
 واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين، الذي هو
 انتهاء النمو والنشوء إلى غايته، قال تعالى:
 «حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة» (١) ولهذا
 قلنا: إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل،
 ويؤيده ما ذكرناه في حكمة الله، الذي وقع في
 بني إسرائيل، وأن المقصود بالأربعين فيه فناء
 الجيل الأحياء، ونشأة جيل آخر لم يهلكوا
 ذلك ولا عرفوه قديما على اعتبار الأربعين في عمر
 الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد.

والحضارة والسكون والدعة وروقة الحاشية في
 جميع أحوالهم، ويتغمسون فيها، وهم في ذلك
 يبتعدون عن البداوة والفشونة، ويتسلخون عنها
 شيئا فشيئا، وينسون خلق البسالة التي كانت
 بها الجميلة والمفاضة حتى يموتوا عبالا على حامية
 أخرى إن كانت لهم.

واعبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف
 لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحا من غير
 ريب. وربما يحدث في الدولة إذا طرقتها هذا
 الهرم بالتلف والراحة، أن يتخير صاحب الدولة
 أنصارا وشيعة من غير جلدتهم، ممن تعود
 الفشونة فيبتخلهم جندا يكون أصبر على الحرب،
 وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشغل،
 ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم، الذي عساه
 أن يطررها حتى بأذن الله فيها بآمره.

وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق:
 فلما غلب جندها الموالى من الترك، فتخير
 ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم
 فرسانا وجندا، فيكونون أجرا على الحرب وأصبر
 على الشغل من أبنائه المماليك الذين كانوا قبلهم
 ورثوا في ماء النعيم والسلطان وظله، وكذلك في
 دولة الموحدين بإفريقية فلما صاحبها كثيرا
 ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب، ويستكثر منهم
 ويترك أهل الدولة المتعربين للفرق، فتستجد
 الدولة بملكه عمرا آخر سالما من الهرم والله وأرث
 الأرض ومن عليها.

(١) الآية رقم ١٥ من سورة الأنعام.

وَالْمُطَالِبَةِ وَيَلْبَسُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الشَّارَةِ وَالزَّيِّ
وَرُكُوبِ الْخَيْلِ وَحَسَنِ الثَّقَافَةِ يُعَوِّهُنَ بِهَا وَهَمَّ
فِي الْأَكْثَرِ أَجْبَنَ مِنَ النَّسْوَانِ عَلَى ظُهُورِهَا . فَإِذَا
جَاءَ الْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يَقَاوِمُوا مُتَاقِفَتَهُ ، فَيَخْتِاجُ
صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْطِظَارِ بِسِوَاهُمْ
مِنْ أَهْلِ النُّجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ بِالْعَوَالِي ، وَيَصْطَنِعُ مَنْ
يُغْنِي عَنْ الدَّوْلَةِ بَعْضَ الْغِنَاءِ ، حَتَّى يَصَادَّقَ اللَّهُ
بِإِنْقِرَاضِهَا ، فَتَلْهَبَ الدَّوْلَةُ بِمَا حَمَلَتْ .

فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها ، يَكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ
وَتَخْلُفُهَا ، وَلِهَذَا كَانَ انْقِرَاضُ الْحَسَبِ فِي الْجِيلِ
الرَّابِعِ كَمَا مَرَّ فِي أَنَّ الْمَجْدَ وَالْحَسَبَ ، إِنَّمَا هُوَ
أَرْبَعَةُ آبَاءَ . وَقَدْ أَتَيْنَاكَ فِيهِ بِبَرَهَانٍ طَبِيعِيٍّ كَانَتْ
ظَاهِرَ مَبْنًى عَلَى مَا مَثَلَتْهُ قَبْلُ مِنَ الْمُتَمَلِّكَاتِ ،
فَسَأَلْتُهُ فَلَنْ تَعْلَمَ وَجْهَ الْحَقِّ ، إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ
الْإِنْصَافِ .

وَهَلِجُ الْأَجْيَالِ الثَّلَاثَةُ : عُمَرَا مِائَةَ وَعِشْرُونَ
سَنَةً عَلَى تَمَارٍ وَلَا تَعْلَمُ الدَّوْلُ فِي الْغَالِبِ هَلْكَ الْعُمَرِ
بِتَقَرُّبِ قَبْلِهِ أَوْ بَعْدَهُ ، إِلَّا إِنْ عَرَضَ لَهَا عَارِضٌ
آخَرُ ، مِنْ فَقْدَانِ الْمُطَالِبِ فَيَكُونُ الْهَرَمُ حَاصِلًا
مُسْتَوَلِيًا ، وَالطَّالِبُ لَمْ يَخْضَرْهَا وَلَوْ قَدْ جَاءَ
الطَّالِبُ لَمَّا وَجَدَ مُدَامًا . فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ^(١) ، فَهَلَا الْعُمَرُ لِلدَّوْلَةِ بِمِثَابَةِ
عُمَرِ الشَّخْصِ مِنَ التَّزْيِيدِ إِلَى سِنِ الْوُقُوفِ ثُمَّ إِلَى
سِنِ الرَّجُوعِ ، وَلِهَذَا يَجْرِي عَلَى الْبَيْتَةِ النَّاسُ فِي
الْمَشْهُورِ أَنَّ عُمَرَ الدَّوْلَةِ مِائَةُ سَنَةٍ ، وَهَلَا مَعْنَاهُ

وَأِنَّمَا قُلْنَا إِنْ عُمَرُ الدَّوْلَةِ لَا يَمْتَدُّ فِي الْغَالِبِ
ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ : لِأَنَّ الْجِيلَ الْأَوَّلَ لَمْ يَزَلُوا عَلَى
خُلُقِ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَتِهَا وَتَوَحُّشِهَا مِنْ شَطَفِ الْعِشْرِ
وَالْبَسَالَةِ وَالْإِفْتِرَاسِ وَالْإِشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ ، فَلَا
تَزَالُ بِذَلِكَ سُورَةُ الْمَصِيبَةِ مَحْضُوفَةً فِيهِمْ ، فَحَدُّهُمْ
مُرْهَقٌ وَجَانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ ، وَالنَّاسُ لَهُمْ مَطْلُوبُونَ ،
وَالْجِيلُ الثَّانِي تَحُولُ خَالِمُهُ بِالْمُلْكِ وَالْتِفَافِ ، مِنْ
الْبِدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ وَمِنْ الشَّطَفِ إِلَى التَّرَفِ
وَالْحُصْبِ وَمِنْ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ إِلَى انْفِرَادِ
الْوَاحِدِ بِهِ وَكَمَلِ الْبَاقِينَ عَنِ السَّعْيِ فِيهِ ، وَمِنْ هَرَمِ
الْإِسْطِظَارَةِ إِلَى ذُلِّ الْإِسْتِكَانَةِ ، فَتَنَكُّيُ سُوْرَةُ
الْمَصِيبَةِ بَعْضَ الشَّيْءِ وَتَوُثِّنُ مِنْهُمْ الْمَهَانَةَ
وَالْخُضُوعَ ، وَيَبْقَى لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا
أَدْرَكُوا الْجِيلَ الْأَوَّلَ وَتَأَفَّرُوا أَعْوَالَهُمْ وَشَاهَدُوا
اعْتِرَازَهُمْ وَسَمِعَهُمْ إِلَى الْمَجْدِ ، وَمَرَامِيهِمْ فِي
الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَلَا يَسْمَهُمْ تَرْكُ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ ،
وَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ مَازِدٌ وَيَكُونُونَ عَلَى رِجَالِهِمْ مِنْ
مُرَاجَعَةِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَتْ لِلْجِيلِ الْأَوَّلِ
أَوْ عَلَى ظَنٍّ مِنْ وَجُودِهَا فِيهِمْ .

وَأَمَّا الْجِيلُ الثَّالِثُ : فَيَنْسُونُ عَهْدَ الْبِدَاوَةِ
وَالْخُشُونَةِ كَمَا لَمْ تَكُنْ ، وَيَفْقِدُونَ حِلَاوَةَ^(١)
الْبَزِّ وَالْمَصِيبَةَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَكَةِ الْقَهْرِ ، وَيَبْلُغُ
فِيهِمُ التَّرَفُ غَايَتَهُ بِمَا تَفْتَقِرُهُ^(٢) مِنَ النِّجَمِ وَغَضَارَةِ
فَيْصِيرُونَ عِيَالًا عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَمِنْ جُمْلَةِ النِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الْمُخْتَاجِينَ لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ ، وَتَسْقُطُ
الْمَصِيبَةُ بِالْجُمْلَةِ ، وَتَنْسُونُ الْحِمَايَةَ وَالْمُدَافَعَةَ

(١) كَلَامٌ فِي الْأَسْلِ : وَلَهَا مَحَرَّةٌ مِنْ خَلَالِ .

(٢) تَقْلِبُوا فِيهِ مِنْ نَجْمٍ .

بأحوال الرُفَهِ، وَمَا تَقْلُدُونَ بِهِ مِنَ التَّوَالِدِ قَصَارَ طَوْرِ الْجِصَارَةِ فِي الْمُلْكِ يَتَّبِعُ طَوْرَ الْبِدَاوَةِ ضَرُورَةً لِيُضَرَّوْرَةَ تَبْيِيغِ الرِّقَةِ لِلْمُلْكِ .

وَأَهْلُ الدُّوَلِ أَبْنَاءُ يُقْلُدُونَ فِي طَوْرِ الْجِصَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلتَّوَالِدِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ . فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِمُونَ وَمِنْهُمْ فِي الْقَالِبِ يُخْلُونَ . وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِلرَّبِّ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ ، وَهَلَكُوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَاسْتَخَفُّوهُمَا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا ذَلِكَ الْمَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْجِصَارَةِ ، فَقَدْ حَكِيَ أَنَّهُ قَدَّمَ لَهُمُ التَّرَفُّقَ فَكَانُوا يَحْسِبُونَهُ رِقَاعًا ، وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِي هَزَائِنِ كِسْرَى فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجِينِهِمْ يُلْحَا . وَمِثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ ، فَلَمَّا اسْتَعْمَدُوا أَهْلَ الدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوهُمْ فِي مِهْنَتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ مَنَازِلَهُمْ ، وَاحْتَارُوا مِنْهُمْ الْمَهَرَةَ فِي أَثْقَالِ ذَلِكَ وَالْقَوْمَةَ عَلَيْهِمْ ، أَقَادُوهُمْ عِلَاجَ ذَلِكَ وَالْقِيَامَ عَلَى عَمَلِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ اتِّسَاعِ النِّيشِ وَالتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ ، فَيَلْعَنُوا الْقَايَةَ فِي ذَلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَوْرِ الْجِصَارَةِ وَالتَّرَفِّ فِي الْأَحْوَالِ ، وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْأَلْبِيشَةِ وَالْفُرُشِ وَالْأَنْبِيَةِ وَسَائِرِ التَّامُونِ وَالْخُرْنِيِّ وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ الْمُبَاهَاةِ وَالْوَلَايَمِ ، وَلَيْلِكَ الْإِعْرَاسِ (١) ، فَلَمَّا مِنْ ذَلِكَ وَرَاءَ الْقَايَةِ . وَانْظُرْ مَا تَقْلُدُ الْمُشْرُوعِي وَالطَّبْرِي وَغَيْرُهُمَا فِي إِشْرَاسِ التَّامُونِ بِمُورَازٍ يَنْتَبِهُنَّ الْمُسُونُ بَيْنَ سَهْلٍ ، وَمَا بَدَلُ أَبْوَحَا لِحَاكِيَةِ التَّامُونِ حِينَ وَافَاهُ فِي يَطْبِيعِهَا

فَاعْتَبِرْهُ وَأَتَّخِذْ مِنْهُ ءَانُونَ يُصَحِّحُكَ عِلْدُ الْآبَاءِ فِي عُمُودِ النِّسَبِ ، الَّذِي نَرِيدُهُ مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ السُّنَنِ الْمُنَاسِيَةِ ، إِذَا كُنْتَ قَدْ اسْتَرْبَتْ فِي عَدِيدِهِمْ ، وَكَانَتْ السُّنُونُ الْمُنَاسِيَةُ مِنْذُ أَوَّلِهِمْ مُحْصَلَةً لَدَيْكَ ، فَقَدْ لِكُلِّ مِائَةٍ مِنَ السُّنَنِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآبَاءِ ، فَإِنْ نَفَدَتْ عَلَى هَذَا الْقِيَامِ مَعَ تَفَوُّدِ عَدِيدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ ، وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ بِجِلٍ فَقَدْ غَلِطَ . عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةِ وَاحِدٍ فِي عُمُودِ النِّسَبِ وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عَدَدُ السُّنَنِ مِنْ عَدِيدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحْصَلًا لَدَيْكَ فَتَمَاطِلُهُ تَجِدُهُ فِي الْقَالِبِ صَحِيحًا وَهَؤُلَاءِ يَفْهَمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (١) .

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدول من البداوة إلى الحضارة

إِظْهِرْ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوَلِ ، فَإِنَّ الْقَلْبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمُلْكُ ، إِنَّمَا هُوَ بِالنَّصِيبِ وَبِمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ بِنْدَةِ الْبَاسِ وَتَعَوُّدِ الْإِعْرَاسِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا مَعَ الْبِدَاوَةِ ، فَطَوْرُ الدُّوَلَةِ فِي أَوَّلِهَا بِلَاوَةٌ ، ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ نَبَهُ الرِّقَةُ ، وَاتَّسَاعَ الْأَحْوَالِ . وَالْجِصَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَفَنُّنٌ فِي التَّرَفِّ وَاحْتِكَامِ الصَّنَاعِ ، الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وَجْهِهِ وَمَذَامِيهِ مِنَ الْمَطَابِخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْفُرُشِ وَالْأَنْبِيَةِ ، وَسَائِرِ عَوَالِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعٌ فِي اسْتِجَابَتِهِ ، وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ ، فَتَحْصُرُ فِيهِ وَيَقْلُدُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَتَكَثَّرُ بِاخْتِلَافِ مَا تَنْتَبِهُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَالتَّنَمُّ

فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَتَقْبَلُ الْحَطَبَ لِلْيَتَامَى وَأَوْقَدُوا
الْجَرِيدَ يَصُوبُونَ عَلَيْهِ الرُّيْتَ ، وَأَوْقَرُوا إِلَى التَّوَابِيَةِ
بِإِحْضَارِ السُّفَرِ لِإِجَارَةِ الْخَوَاصِّ مِنَ النَّاسِ ، بِدَجَلَةٍ
مِنْ بَغْدَادَ إِلَى قُصُورِ الْمَلِكِ بِمَكِينَةِ الْمَمْلُوكِ ،
لِيَحْضُرَ الْوَلِيمَةَ فَكَانَتْ الْحَرَاقَاتُ (١) الْمُدَّةَ لِذَلِكَ
ثَلَاثِينَ أَلْفًا ، أَجَازُوا النَّاسَ فِيهَا أَخْرِيَاتِ نَهَارِهِمْ ،
وَكَبِيرَ مِنْ هَذَا وَأَشْنَأِهِ .

وَكَذَلِكَ عَرَسَ الْمَمْلُوكُ بْنُ ذِي الثُّونِ يَطْلِيْعَةً ؛
نَقَلَهُ ابْنُ بَشَّامٍ فِي كِتَابِ النُّجُومِ وَأَبْنُ حِبَالَةَ بِمَدِّ
أَنْ كَانُوا كُلُّهُمْ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبِدَاوَةِ عَاجِزِينَ عَنْ
ذَلِكَ جَمْلَةً لِيُقَدِّمَ أَسْبَابِهِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعِهِ
فِي غَضَائِهِمْ وَصَدَاجَتِهِمْ . يُذَكِّرُ أَنَّ الْحَاجَّاجَ أَوَّلَهُ

فِي اخْتِيَانِ بَعْضِ وَلِيِّو فَاشْتَحَضَرَ بَعْضُ الدَّهْلَاقِينَ ،
يَسْأَلُهُ عَنْ وَلَائِمِ الْفَرَسِ ، وَقَالَ : أَخْبَرَنِي بِأَعْظَمِ
صَنِيعٍ شَهِدْتُهُ . فَقَالَ لَهُ : نَعَمْ ، أَيُّهَا الْأَمِيرُ
شَهِدْتُ بَعْضَ مَوَازِيِدَ كِبَرِي ، وَقَدْ صَنَعَ ، لِأَخِي
فَارِسٍ صَنِيعًا أَحْضَرَ فِيهِ صِحَافُ اللَّحَبِ عَلَى
أَخُونَةِ الْفَضَّةِ أَرْبَعًا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَتَحِيطُهُ أَرْبَعُ
وَصَافِي ، وَيَجْلِسُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمِنْهَا
طَبِيعُوا أَتَبِعُوا أَرْبَعَتَهُمُ الْمَائِدَةَ بِصِحَافِهَا وَوُضَعَتْهَا .
فَقَالَ الْحَاجَّاجُ يَا غَلَامَ : انْخِرِ الْجُزْءَ وَالْأُخْرَى النَّاسِ ،
وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقْبَلُ بِهَذِهِ الْأَبْهَةِ وَكَذَلِكَ كَانَتْ .
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَغْنِيَهُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَوَازُهُمْ ،
فَلَمَّا كَانَ أَكْثَرَهَا الْإِزْدِلَ أَخْلَدَ بِمَذَاهِبِ التَّوَابِ
وَبِدَاوَتِهِمْ ، ثُمَّ كَانَتْ الْجَوَازُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ

إِلَى دَارِهِ ، بِهَذِهِ الصُّلُحِ وَرَسَبَ إِلَيْهَا فِي السُّفَرِ ،
وَمَا أَنْفَقَ فِي إِتْلَاقِهَا ، وَمَا نَحَلَهَا الْمَمْلُوكُ ، وَأَتَقَى
فِي عَرَسِهَا ، تَقِفَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْعَجَبِ .

فَمِنْهُ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ بَنَى يَوْمَ الْإِسْلَامِ (١) فِي
الصَّنِيعِ الِذِي خَضَرَهُ حَاشِيَةُ الْمَمْلُوكِ : أَنْفَرَ عَلَى
الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْهُمْ بَنَادِقَ الْمِسْكِ مَلْتُونَةً عَلَى الرَّاقِ
بِالضَّبَاعِ ، وَالْعَقَارِ مُسَوِّفَةً لِمَنْ حَصَلَتْ فِي يَدِهِ
يَقَعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا أَذَاهُ إِلَيْهِ الْإِتْفَاقُ وَالْبَحْثُ .

وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ بِدَرٍّ (٢) الدَّنَائِيرِ ، فِي
كُلِّ بَدْرَةٍ عَشْرَةَ آلَافٍ ، وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ
بَدْرَ الدَّرَاهِمِ . كَذَلِكَ بِمَدِّ أَنْفَقَ عَلَى مَقَامَةِ الْمَمْلُوكِ
بِدَارِهِ أَضَاعَفَ ذَلِكَ .

وَمِنْهُ : أَنَّ الْمَمْلُوكَ أَعْطَاهَا فِي مَهْرِهَا ثَلَاثَةَ زَفَافِهَا
أَلْفَ حَصَاةٍ مِنَ الْيَاقُوتِ ، وَأَوْقَدَ شَمْعَ التَّمْبَرِ فِي
كُلِّ وَاحِدَةٍ يَأْتِي مَنْ ، وَهُوَ رَطْلٌ وَثَلَاثَانِ (٣) وَيَسْتَدِ
لَهَا قُرْشًا كَانَ الْحَصِيرُ بِهَا مَسْجُوجًا بِاللَّغَبِ
مُكَلَّلًا بِالْدُرِّ وَالْيَاقُوتِ ، وَقَالَ الْمَمْلُوكُ حِينَ رَأَاهُ :
قَاتَلَ اللَّهُ أَبَا نَوَاسٍ ، كَأَنَّهُ أَبْصَرَ هَذَا حَيْثُ يَقُولُ
فِي صِفَةِ الْخَمْرِ :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ قَوَائِمِهَا

حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ اللَّذَبِ

وَأَعَدَّ بِدَارِ الطَّبِخِ مِنَ الْعَطَبِ ، لِلْيَتَامَى الْوَلِيمَةَ
نَقَلَ مِائَةَ أَرْبَعِينَ يَغْلَا مُدَّةَ عَامٍ كَابِلٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

(١) سئل الزواج .

(٢) جمع بدرة وهي في الأصل عشرة آلاف درهم . ولكنه
فرقها دنانير .

(٣) قوله وثلاثان ، الذي كتب في اللغة أن المزدلل وقيل وطلان

(١) الحَرَاقَاتُ بالفتح جمع حرقة مبنية نها حرامى نادر يرمى

بها النمر

فوتهم، بسبب كثرة المصائب جهل بكثرة
العد، فإذا ذهب الجيل الأول والثاني، وأخذت
الدولة في الهرم، لم تستقبل أولئك الصنائع
والموالي بأنفسهم، في قبايس الدولة وتمهيد
ملكها لأنهم ليس لهم من الأمر شيء، إنما كانوا
عبالاً على أهلها ومعونة لها، فإذا ذهب الأصل لم
يستقبل الفرع بالرسوخ، فيلعب ويتلاشى، ولا
تبقى الدولة على حالها من القوة.

واختبر هذا فيما وقع في الدولة العربية في
الإسلام، كان عدد العرب كما قلنا لعهد النبوة
والخلافة مائة وخمسين ألفاً وما يقاربها من مضر
وقحطان، ولما بلغ الشرف مبلغه في الدولة،
وتوفر لهم بتوفر النعمة واشتكر الخلفاء من
الموالي والصنائع، بلغ ذلك العدد إلى أضافه.
يقال إن المتحصن نازل عورة لما اقتحمها في
تسمية ألف، ولا يبعد شئ هذا العدد أن يكون
صحيحاً، إذا اعتبرت حاميته في الشؤون الدانية
والقاصية شرقاً وغرباً، إلى الجند الحاملين سريراً للملك
والموالي والمضطهين. وكان السعدي: أحصى
بنو العبّاسي بن عبد المطلب خاصة أيام السائون
لإتفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفاً، بين ذكران
وإناث. فانظر مبلغ هذا العدد لأقل من
ما تبي سنة واعلم أن سبب الرفعة والتعيم الذي
حصل للدولة ورأس فيه أجيالهم، ولأ فعدد العرب
لأول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريباً منه، والله
الخالق العظيم.

والعبيد من بينهم ما علمت من أملاك المال
وتحتوي الثياب، وإعداد الخيل يراكبها. وهكذا،
كان شأن كلمة مع الأغالبة بغريفة، وكذا بني
طنج بصر، وشأن لشونة مع ملوك الطوائف
بالأنفلس والموحين. وكذلك شأن زنانة مع
الموحين وهم جراً، تستقبل الحضارة من الدولة
السابقة إلى الدولة الخليفة، فانتقلت حضارة
الفرس للعرب بني أمية وبني العبّاس، وانتقلت
حضارة بني أمية بالأنفلس، إلى ملوك المغرب
من الموحين بوزنانة لهذا العهد، وانتقلت حضارة
بني العبّاس إلى الأندلس، ثم إلى الترك، ثم إلى السلجوقية
ثم إلى الترك المماليك بصر والتتار بالترقيين.
وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة، إذ
أمر الحضارة من توابيع الشرف، والشرف من توابيع
القوة والثمة، والقوة والثمة من توابيع الملك
ومقدار ما يستوفي عليه أهل الدولة، فكل نسبة
الملك، يكون ذلك كله، فاختبره وتفهمه،
وتأملته نجدته صحيحاً في العمران، والله وأوث
الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل السادس عشر

في أن الشرف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها
والنسب في ذلك: أن القبيل إذا حصل لهم
الملك والشرف، كثر التنازل والولد والثموية،
فكثرت البصاة واشتكروا أيضاً من الموالى
والصنائع وزينت أجيالهم في جو ذلك التعيم،
والرفق فازدادوا به عدداً إلى عديهم، وقوة إلى

الفصل السابع عشر

في أطوار الدولة واختلاف أحوالها، وخلق

أهلها باختلاف الأطوار

إِظْهَرُ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَغَيَّرُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ ، وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُطًّا مِنْ أَحْوَالٍ ذَلِكَ الطَّوْرُ لَا يَكُونُ يَثْلُهُ فِي الطَّوْرِ الْآخَرِ ، لِأَنَّ الْخُلُقَ تَابِعٌ بِالطَّبْعِ لِمَزَاجِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . وَحَالَاتِ الدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لَا تَعْدُو فِي الْعَالَمِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ :

الطَّوْرُ الْأَوَّلُ طَوْرُ الظَّهْرِ بِالْبَغْيَةِ ، وَغَلَبِ الْمَدَافِعِ وَالْمُنَافَعِ ، وَالِاسْتِيْلَاءِ عَلَى الْمُلْكِ ، وَانْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي الدَّوْلَةِ السَّالِفَةِ قَبْلَهَا . فَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ أَسْوَدَ قَوْمٍ فِي احْتِسَابِ الْمَجْدِ وَجَبَابَةِ الْمَالِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنِ الْحَوَازِ وَالْحِمَايَةِ ، لَا يَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ ، لَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَقْضَى الْقَصْبَةِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْقَلْبُ ، وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدَ بِحَالِهَا

الطَّوْرُ الثَّانِي : طَوْرُ الْاسْتِيْلَادِ عَلَى قَوْمِهِ ، وَالِانْفِرَادِ دُونَهُمْ بِالْمُلْكِ وَكِبَرِهِمْ عَنِ التَّطَاوُلِ لِلْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ . وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ مَتْنِبًا بِاصْطِنَاعِ الرُّجَالِ ، وَاتِّخَاذِ التَّوَالِيَةِ وَالصَّنَائِعِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ ، لِيَجْذَعَ أَنْوَافُ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَغَيْرِيهِ الْمَقَامِسِينَ لَهُ فِي نَسَبِهِ ، الضَّارِبِينَ فِي الْمُلْكِ ، بِمِثْلِ سَهْوِهِ ، فَهُوَ يَدْفَعُهُمْ عَنِ الْأَمْرِ ، وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ ، وَيُرَدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنْ يَخْلُصُوا إِلَيْهِ (١) حَتَّى يَغْرُ الْأَمْرُ فِي رِضَائِهِ ، وَيُفَرِّدَ أَهْلَ بَيْتِهِ بِمَا يَنْبَغِي مِنْ مَجْلُوبٍ ، فَيَحَاطَى مِنْ مُدَافِعَتِهِمْ

وَمُعَالِيَتِهِمْ بِمِثْلِ مَاعَاتِهِ الْأَوَّلُونَ فِي غَلَبِ الْأَمْرِ أَوْ أَكْثَرُ ، لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ دَافَعُوا الْأَجَانِبَ فَكَانَ ظُهُورُهُمْ عَلَى مُدَافِعَتِهِمْ أَهْلُ الْقَصْبَةِ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَهَذَا يَدْفَعُ الْاِقْتَارِبَ لِإِظْهَارِهِ عَلَى مُدَافِعَتِهِمْ إِلَّا الْأَوَّلَ مِنْ الْأَيَّامِ ، فَيَرْكَبُ صَحْبًا مِنَ الْأَمْرِ .

الطَّوْرُ الثَّالِثُ : طَوْرُ الْفَرَاغِ وَالِدَّفْعَةِ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ بِمَا تَنْزِعُ طَبَاقَ الْبَشَرِ إِلَيْهِ ، مِنْ تَحْصِيلِ الْمَالِ وَتَخْلِيدِ الْأَنْفَارِ ، وَبُغْدِ الصَّبَةِ ، فَيَسْتَفْرِغُ وَثْمَةً فِي الْجَبَابَةِ وَصَبْطِ الدَّخْلِ وَالخَرْجِ ، وَاحْتِصَاةِ الثَّفَقَاتِ وَالْقَصْدِ فِيهَا ، وَتَشْيِيدِ الْمَبَانِي الْحَالِلَةِ وَالْمَصَانِعِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَنْصَارِ الْمُحِيصَةِ ، وَالْهَيَاكِلِ الثَّرْتِفِيَّةِ ، وَإِجَارَةِ (١) الْوُفُودِ مِنْ أَشْرَافِ الْأُمَمِ وَوُجُوهِ الْقَبَائِلِ ، وَبَيْتِ الْمُتَرُوفِ فِي أَهْلِهِ ، هَذَا مَعَ التَّوَسُّعِ عَلَى صَنَائِعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِالْمَالِ ، وَالْحَيَاةِ وَاغْتِرَاضِ (٢) جُودِهِ ، وَإِذْوَاقِ أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَادِهِمْ فِي أَغْضِيَانِهِمْ لِكُلِّ حِلَالٍ ، حَتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي تَلَايْسِهِمْ وَشُكْنِهِمْ (٣) وَتَنَارَاتِهِمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ، فَيَبْهِي يَوْمَ الدَّوَلِ الْمُسَالِمَةِ ، وَيَرْهَبُ الدَّوَلِ الْمُحَارِبَةِ . وَهَذَا الطَّوْرُ آخِرُ أَطْوَارِ الْاسْتِيْلَادِ مِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ ، لِأَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كُلُّهَا مُسْتَقْبِلُونَ بِأَرْثَانِهِمْ ، بِأَنْوَافِ لِمَزَاجِهِمْ مُوضِعُونَ الطَّرِيقَ لِمَنْ يَتَقَدَّمُ .

الطَّوْرُ الرَّابِعُ : طَوْرُ الْقُنُوعِ وَالْمُسَالَمَةِ . وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا قَائِمًا بِمَا بَنَى أَوَّلُهُ ، يَلْمَأُ لِإِنْتِظَارِهِ الْمُلُوكَ وَأَقْسَالِهِ ، مُقَلِّدًا لِلْمَخَاسِينِ مِنْ

(١) منحوا الجوائز والهدايا .

(٢) يعني مرصهم ونفقدهم أحوالهم وإن كان الفتد هنا لا يليه .

(٣) الفتة : السلاح .

(١) يعني يحول بينهم وبين الوصول إلى الحكم .

سَلَفِهِ، فَيُصْبِحُ أَثَارُهُمْ خَلْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، وَتَقْتَفِي طُرُقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاصِرِ الْاِفْتِدَاءِ، وَيَرَى أَنَّ فِي الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ قَسَادَ أَمْرِهِ، وَأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا مِمَّا بَنَوْا مِنْ مَجْدِهِ .

الطُّورُ الْخَامِسُ: طُورُ الْإِسْرَافِ وَالتَّيْلِيلِ، وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ مُتْلِفًا لِمَا جَمَعَ أَوَّلُهُ فِي سَبِيلِ الشُّهُواتِ وَالْمَلَذِّ، وَالْكَرَمِ عَلَى بَطَانَتِهِ وَفِي مَجَالِيهِ، وَاضْطِرَاعِ أَخْدَانِ السُّوءِ وَخَضَعِهِ (١) لِلذَّمِّ، وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَسْتَقْبِلُونَ بِحَمْلِهَا، وَلَا يَتَفَرَّقُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَلْدُونَ مِنْهَا، مُسْتَفْسِدًا لِكِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ وَصَنَاعِ سَلَفِهِ، حَتَّى يَضْلِقُوا (٢) حَلِيَّهُ، وَيَتَخَذَلُوا عَنْ تَعْرِيفِهِ، مُضَيِّعًا مِنْ جُنْدِهِ مِمَّا أَنْفَقَ مِنْ أَغْطِيَاتِهِمْ فِي شُهُوتِهِ، وَحَبَّبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مُبَاتَرَتِهِ وَتَقَفُّدِهِ .

فَيَكُونُ مَخْرِبًا لِمَا كَانَ سَلَفُهُ يُؤَسِّسُونَ، وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ . وَفِي هَذَا الطُّورِ تَحْصُلُ فِي الدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ الْهَرَمِ وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمُرْمِزُ الَّذِي لَا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ، وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَ بَرَاءَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ، كَمَا نَبِيئُهُ فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْرُدُهَا وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثامن عشر

فِي أَنَّ آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها والسبب في ذلك أَنَّ الآثار إِنَّمَا تَخْلُصُ عَنْ الْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوَّلًا، وَعَلَى قَدَرِهَا يَكُونُ

وَأَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ الْأَفْعَالَ لِلْاِقْتِمَامِ إِنَّمَا كَانَتْ بِالْهِنْدَامِ (٣) وَاجْتِمَاعِ الْفَعْلَةِ وَكَثَرَةِ الْأَبْدِيِّ عَلَيْهَا، فَيَلْزِكُ شِدَّتُ تِلْكَ الْهَيَاكِلِ وَالْمَصَانِعِ . وَلَا تَنْوَعُهُمْ

(١) زيادة زادها الدكتور واق في منشورته لأن السياق يقتضيها .

(٢) أجهز وشن طيه . (٣) النظام وإعمال الفعل وحسن الإدارة .

(١) أصحاب المظاهر الخادمة من ذوي المناصب السنية .

(٢) يطردون قلوبهم على الضعفة .

لِيَذِلَّكَ أَبْوَابُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، لِإِنِّهَا وَإِنْ خُرِبَتْ
وَجِدَدَتْ لَمْ تَزَلْ مُحَافَظَةً عَلَى أَشْكَالِهَا وَمَقَامِ
أَنْبِيَائِهَا ، وَكَيْفَ يَكُونُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ عُرُجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ
عَصْرِ بَهَذَا الْمَقْدَارِ . وَإِنَّمَا مَنَارٌ ظَلَمُوهُمْ فِي هَذَا أَتَمُّ
اسْتَحْظَمُوا آثَارَ الْأَمَمِ ، وَكَمْ بِفَهْمُوا حَسَالَ الدُّوَلِ
فِي الْأَجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ ، وَمَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ وَبِالْهَذَا
مِنَ الْأَنْفَارِ الْعَظِيمَةِ ، فَصَرَّفُوهُ إِلَى قُوَّةِ الْأَسْـَاسِ
وَسَدَّتْهَا بِعَظْمٍ هَيَّالِكِهَا ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ .

وَقَدْ زَعَمَ الْمُسَوِّدِيُّ^١ - وَفَلَّهٗ عَنْ الْفَلَايِفَةِ -
مَزْعَمًا لَأَسْتَنْدَ لَهُ إِلَّا التَّحَكُّمَ، وَهُوَ: أَنَّ الطَّبِيعَةَ
الَّتِي هِيَ جِيلَةٌ لِلْأَجْسَامِ، لَمَّا بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ،
كَانَتْ فِي تَمَامِ الْحَيَاةِ^(١)، وَنِهَايَةِ الْقُوَّةِ وَالْكَمَالِ،
وَكَانَتْ الْأَعْمَارُ أَطْوَلَ، وَالْأَجْسَامُ أَقْوَى، لِيُكْمَلَ
تِلْكَ الطَّبِيعَةُ، فَإِنَّ طُرُوءَ الْمَوْتِ إِنْسَانًا هُوَ بِإِنْجِلَالِ
الْقُوَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ. فَإِذَا كَانَتْ قُوَّةً، كَانَتْ الْأَعْمَارُ
أَزِيدَ، فَكَانَ الْعَالَمُ فِي أَوَّلِيَّةٍ تَنْقَاضٍ تَامِ الْأَعْمَارِ،
كَامِلِ الْأَجْسَامِ. ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَتَنَاقَضُ لِيُنْقَاضَ
الْمَادَّةُ، إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى هَلْوَةِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا.
ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَنَاقَضُ إِلَى وَقْتِ الانْجِلَالِ وَانْقِرَاضِ
الْعَالَمِ.

وَهَذَا رَأْيُ لَاوَجِهَ لَهُ إِلَّا التَّحْكُمَ كَمَا تَرَاهُ .
وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ ، وَلَا سَبَبٌ بُرْهَانِيٌّ ، وَتَحْتَ
تَضَامُدِ مَسَاكِينِ الْأَوَّلَيْنِ وَأَوْبَاهُمَ وَطَرَفَهُمَ فَيَسَا
أَخَذُوهُ مِنَ الْبَنِيَانِ وَالْهَاكِلِ وَالْبَيَارِ وَالْمَسَاكِينِ ،
كَلْبَارِ ثَمُودَ الْمُنْحَرَتَةِ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الصَّخْرِ يَبُوتَا
صِغَارًا ، وَأَوْبَاهُمَا ضِعْمَهُ . وَقَدْ أَشَارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

مَا تَتَوَعَّمُ الْعَامَّةُ أَنَّ ذَلِكَ لِعِظَمِ اجْتِمَاعِ الْأَقْبَابِ
عَنِ اجْتِمَاعِنَا فِي أَطْرَافِهَا وَأَنْطَاقِهَا ، فَلَيْسَ
بَيْنَ الْبَشَرِ فِي ذَلِكَ كَثِيرٌ بَوْنٌ . كَمَا نَجِدُ بَيْنَ
الْمَآكِلِ وَالْأَنْدَاءِ .

وَلَقَدْ وَلَّيْنَا الْقَصَاصَ بِإِلَافِكَ وَتَعَالَوْا فِيهِ
وَسَطَرُوا عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعِصْيَانِ فِي ذَلِكَ أَخْبَارًا
عَرِيقَةً فِي الْكَلْبِ، مِنْ أَعْرَبِيهَا مَا يَحْكُونُ عَنْ هُوجِ
ابْنِ عِنَاقٍ (١) وَجُلِيَ مِنَ الْعِصْيَانِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ
بَنُو إِسْرَئِيلَ فِي النَّصَامِ، زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لِيُطَوِّدَ
يَتَنَاولُ السَّكَّ مِنَ الْبَحْرِ، وَيَقْوِيهِ إِلَى الشَّمْسِ .
وَيَزِيدُونُ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَخْوَالِ الْبَشَرِ، الْجَهْلُ بِأَخْوَالِ
الْكُرَاكِيبِ، لَمَّا اعْتَقَلُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً (٢)،
وَأَنَّهَا شَبِيدَةٌ فِيمَا قُرْبَ مِنْهَا، وَلَا يَلْمُتُونَ أَنَّ الْحَرَّ
هُوَ الصُّوْمُ، وَأَنَّ الصُّوْمَ فِيمَا قُرْبَ مِنَ الْأَرْضِ
أَكْثَرُ، لِيَنْعَكَسَ الْأَشْيَاءُ مِنَ سَطْحِ الْأَرْضِ،
بِمَقَابِلَةِ الْأَصْوَاهِ، فَتَتَصَاعَفُ الْحَرَارَةُ هُنَا لِأَجْلِ
ذَلِكَ، وَإِذَا تَجَاوَزَتْ مَطَارِحَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَمَكِّكَةِ،
فَلَا حَرَّ هُنَالِكَ، بَلْ يَكُونُ فِيهِ الْبَرْدُ، حَيْثُ مَجَارَى
السَّحَابِ وَأَنَّ الشَّمْسَ فِي نَفْسِهَا لِحَارَةٌ وَلَا بَارِدَةٌ،
وَأَنَّا هِيَ جِسْمٌ بَسِيطٌ، مُضِيءٌ، لَا زَوَاجَ لَهُ .

وَكَذَلِكَ نُوحٍ ابْنُ عَيْنَانَ، هُوَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مِنْ
الْعَمَلِيقَةِ، أَوْ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا قَرِيبَةً بَنِي
إِسْرَائِيلَ عِنْدَ فَتْحِهِمُ الشَّامَ، وَأَطْوَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَجَسَمَانَهُمْ لِلنَّكَاحِ الْقَرِيبَةِ مِنْ هَذَا كَلِمَاتِهِ يَشْهَدُ

(١) قوله ابن عثاق الذي في القاموس في باب الجيم هوج بن هوق بالواو والمشهور على السنة الثاس : عقي بالنون . (٢) ما يذهب إليه يناقص ما يجمع العلماء عليه من وجود حرارة هائلة في الشس نفسها أما تقريره من تناقص درجات الحرارة بالارتفاع من سطح الأرض فصحيح.

يُعْطُونَهُمُ الْمَالَ أَخْثَالًا، وَالْكُتَّاءَ تَحُونًا (١) مَلْعُومَةً
وَالْحَنْثَلَانَ نَجَائِبَ (٢) عَابِدَةً. وَفِي تَارِيخِ ابْنِ
الرَّقِيقِ مِنْ ذَلِكَ أَحْبَارٌ كَثِيرَةٌ. وَكَذَلِكَ كَانَ عَطَا
الْبِرَامِكَةِ، وَجَوَائِزُهُمْ وَنَفَقَاتُهُمْ. وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا
مُعْدِمًا، فَإِنَّمَا هُوَ الْوَلَايَةُ وَالنَّعْمَةُ آخِرُ الدَّخْرِ لَا الْمَطْلَقُ
الَّذِي يَسْتَنْفِذُهُ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ. وَأَحْبَارُهُمْ
فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مَسْطُورَةٌ، وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نِسْبَةِ
الدُّوَلِ جَارِيَةٌ.

هَذَا جَوْهَرُ الصُّغْلَى الْكَاتِبِ، قَائِدُ جَيْشِي
الْمُبِيدِيِّينَ لَمَّا ارْتَحَلَ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ، اسْتَعَدَّ مِنْ
الْقَبِيلَةِ بِأَلْفِ جِلْدٍ مِنَ الْمَالِ، وَلَا تَنْتَهِي الْيَوْمَ
قَوْلُهُ إِلَى مِثْلِ هَذَا. وَكَذَلِكَ وَجَدَ بِحُطٍّ أَحْمَدُ بْنُ
مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يُحْمَلُ إِلَى بَيْتِ
الْمَالِ بِبَغْدَادَ، أَيَّامَ السَّامُونِ مِنْ جَمِيعِ الدَّوَاخِي،
نَقَلَتْهُ مِنْ جَرَابِ الدُّوَلَةِ.

(غُلَّتِ السَّوَادُ) مَبْنَعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ
دِرْهَمٍ مَرْتَيْنِ، وَثَمَانِمِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَزَيْنُ الْخَلْرِ
النَّجْرَانِيَّةِ (٣) مِائَتَانِ حُلَّةً، وَمِنْ طِينِ الْخَمْرِ مِائَتَانِ
وَأَرْبَعُونَ رُغْلًا.

(بَهَكْرَ (٤)) أَحَدُ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرْتَيْنِ
وَسِتِّمِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ.
(كوردجلة) عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَّةُ
دَرَاهِمٍ.

(١) التَّحَوْتُ جَمْعُ تَحْتٍ وَهُوَ مَا تَصَانُ فِيهِ الْفِيلُ مِنْ
أُومَةٍ أَوْ صَادِقٍ.

(٢) فِي جَمْعِ النَّخْلِ وَالْمِلْحَاتِ جَنَابٌ ۝ وَمَا أَقْبَنَاهُ عَنْ
مَشُورَةٍ ۝. وَفِي ٢ حُلَّةٍ مِنْ ٦٦٩.

(٣) نَسَبٌ إِلَى: نَجْرَانَ. أَسْمُ بَلَدٍ كَانَتْ تُعْرَفُ بِصُجُوهِ صِنَاعَةِ
النَّسِجِ. (٤) فِي الْقَامُوسِ: كَثُورٌ بِهِ يَنْ صَدَانٍ وَتَرْسِينَ.

وَمَلَمَ إِلَى أَنَّهَا دَبَارُهُمْ، وَنَهَى عَنْ اسْتِعْمَالِ سِيَاهِهِمْ،
وَقَطَعَ مَا صَحِبَ بِهِ، وَأَمَرَهُ (١)، وَقَالَ: «لَا تَنْحَلُوا
مَسَاكِينَ الدِّينِ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ
أَنْ يُعْجِبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ». وَكَذَلِكَ أَرْضُ عَادٍ
وَمِصْرَ، وَالشَّامُ، وَسَائِرُ بَقَاعِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا.
وَالْحَقُّ مَا قَرَّرْنَاهُ.

وَمِنْ أَثَارِ الدُّوَلِ أَيْضًا: خَالِهَا فِي الْأَعْرَاسِ
وَالْوَلَائِمِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي وَلِيمَةِ بُوْرَانَ (٢)، وَصَنِيعِ
الْحَبَّاجِ، وَابْنِ ذِي الدُّوْنِ، وَقَدْ مَرَّ ذَلِكَ كُلُّهُ.
وَمِنْ أَثَارِهَا أَيْضًا: عِبَايَا الدُّوَلِ، وَأَنَّهَا تَكُونُ
عَلَى نِسْبَتِهَا، وَيُظْهَرُ ذَلِكَ فِيهَا وَلَوْ أَشْرَفْتَ عَلَى
الْهَرَمِ، فَإِنَّ الْهَرَمَ الَّذِي لِأَخْلِ الدُّوَلَةِ، تَكُونُ عَلَى
نِسْبَةِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ وَعَظَمَةِ لِنَاسِهِ، وَالْهَرَمُ لَا تَزَالُ
مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى انْقِرَاضِ الدُّوَلَةِ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ
بِجَوَائِزِ ابْنِ ذِي بَرْزَنْ لَوْفِدِ قُرَيْشٍ، كَيْفَ أَطْعَمَهُمْ
مِنْ أَزْطَالِ اللَّحْمِ وَالنَّيْصَةِ وَالْأَعْبِدِ (٣) وَالْوَصَائِفِ
حَضْرًا غُضْرًا، وَمِنْ كَرَشِ الْعَبْرِ وَاجِدَةً، وَأَضْعَفَ
ذَلِكَ بِعَشْرَةٍ أَثْنَالِهِ لِعَبْدِ الْمُطَّلَبِ، وَإِنَّمَا مُلْكُهُ
يُؤَمِّدُ قِرَارَةَ الْيَمَنِ خَاصَّةً تَحْتَ اسْتِبدَادِ قَارِسَ،
وَإِنَّمَا حَصَلَةُ عَلَى ذَلِكَ هِمَّةٌ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ يَقْوِمُو
التَّبَاعِيَةَ مِنَ الْمُلْكِ فِي الْأَرْضِ وَالْقَلْبِ عَلَى الْأُمَمِ
فِي الْبَرَقَاتَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالْمَغْرِبِ.

وَكَانَ الصَّنَاجِيُونُ بِالْفَرِيقَةِ أَيْضًا إِذَا أَجَازُوا
الْوَفْدَ مِنْ أَمْرِهِ زَنَانَةً الْوَالِدِينَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّمَا
(١) صَبَّ وَلَرَاهُ.

(٢) بَنَتْ الْمَسْنَعَةَ زَنَانَةً إِلَى الْمَأْمُونِ.

(٣) الْعَبِيدُ. وَالْوَصَائِفُ جَمْعُ وَصِيفَةٍ وَهِيَ الْغَابِرَةُ لِزُحْلِهَا
مِيزَاتِهَا لِصَاحِبَةِ حِيلَاتِ الْمُلُوكِ وَالْخَلْفَةِ فِي بَيْتِ ذِي الْإِلَهِ وَالْجَارِ.

يَسْمَانِيَّةَ قِطْعَةً، وَمِنْ الْأَخْبَسِيَّةِ مَائَتَانِ، وَمِنْ الشَّيَابِ
خَمْسِمِائَةٍ ثَوْبٍ، وَمِنْ التَّمَادِيلِ ثَلَاثُمِائَةٍ، وَمِنْ
الْجَمَانِ ثَلَاثُمِائَةٍ .

(الرؤى) اثنتا عشر ألف درهم مرتين ،
وَمِنْ التَّسَلِ عِشْرُونَ ألفَ رطلٍ .

(حمدان) أَحَدُ عَشَرَ ألفَ درهمٍ مرتين ،
وَتَلَاثُمِائَةٍ ألفَ ، وَمِنْ رَبِّ الرُّمَانِ ألفَ رطلٍ ،
وَمِنْ التَّسَلِ اثنتا عشر ألفَ رطلٍ .

(مابين البصرة والكوفة) عَشْرَةُ آلافِ ألفِ
درهمٍ مرتين وَسَبْعُمِائَةٍ ألفِ درهمٍ .

(ماسيدان والدينار)^(١) أَرْبَعَةُ آلافِ ألفِ
درهمٍ مرتين .

(شهر زور) سِتَّةُ آلافِ ألفِ درهمٍ مرتين ،
وَسَبْعُمِائَةٍ ألفِ درهمٍ .

(الموصل وماليلها) أَرْبَعَةُ عِشْرُونَ ألفَ
ألفِ درهمٍ مرتين ، وَمِنْ التَّسَلِ الْأَبْيَاحِ عِشْرُونَ
ألفَ ألفِ رطلٍ .

(أذربيجان) أَرْبَعَةُ آلافِ ألفِ درهمٍ مرتين ،
وَمِنْ الشَّيَابِ الْمُتَعَيَّنَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ ثَوْبٍ، وَمِنْ الْفَانِيذِ^(٢)
عِشْرُونَ رطلًا .

(خراسان) ثَمَانِيَّةُ عِشْرُونَ ألفَ ألفِ درهمٍ
مرتين ، وَمِنْ نَقَرِ الْفِضَّةِ ألفًا نَقْرَةً، وَمِنْ الْبَرَادِينِ
أَرْبَعَةُ آلافَ ، وَمِنْ الرِّقَبِيِّ ألفَ رأسٍ، وَمِنْ التَّمَاعِ
عِشْرُونَ ألفَ ثَوْبٍ، وَمِنْ الْإِبْهَلِجِ ثَلَاثُونَ ألفَ رطلٍ .

(جرجان) اثنتا عشر ألفَ ألفِ درهمٍ
مرتين ، وَمِنْ الْإِبْرَيْسِمِ^(٣) ألفَ شَعَّةٍ .

(قوتس) ألفَ ألفِ مرتين وَخَمْسُمِائَةٍ مِنْ
نَقَرِ الْفِضَّةِ .

(طبرستان والريان ونهانود) سِتَّةُ آلافِ ألفِ
درهمٍ مرتين ، وَتَلَاثُمِائَةٍ ألفَ ، وَمِنْ الْفَرَشِ الطَّيْرِ
^(١) صرح من الخولى . ^(٢) الحرير .

(١) خلق الهورين بقوله : والدينار والظاهر أنها الدينور . وفي
الترجمة التركية ما سته ان وريان اه . (٢) خلق الهورين بقوله :
ومن البراة... الخ في الترجمة التركية : ومن السكر عشرة صناديق اه .
(٣) القسط : حود حلى وحري يقدارى ٥ .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

(١) صرح من الخولى . (٢) الحرير .

الْمَمَكِنَاتِ . فَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِ إِذَا سَمِعُوا أَشْثَالَ
هَذِهِ الْأَشْجَارِ عَنِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ بَادِرَ الْإِنْكَارِ ،
وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الصَّوَابِ ، فَإِنَّ أَسْوَالَ الْوُجُودِ
وَالْمَعْرَانِ مُتَقَوِّتَةٌ ، وَمَنْ أَدْرَكَ بَيْنَهَا رُبِّيَّةً سَفَلَى
أَوْ وَسَفَلَى ، فَلَا يَحْصُرُ الْمَذَاكِرَ كُلَّهَا فِيهَا .

وَنَحْنُ إِذَا عَظِمْنَا مَا يُنْقَلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِي
الْعَبَّاسِ ، وَبَنِي أُمَيَّةَ ، وَالْعَبْسِيِّينَ ، وَنَاسِبَنَا
الصَّحِيحَ مِنْ ذَلِكَ ، وَالَّذِي لَأَشْكُ فِيهِ بِالَّذِي نَشَاهِدُهُ
مِنْ هَذِهِ الدُّوَلِ الَّتِي هِيَ أَقْبَلُ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهَا وَجَدْنَا
بَيْنَهَا بَوْنًا ، وَهُوَ لِيَا بَيْنَهَا مِنَ التَّغَاوُثِ فِي أَصْلِ
قُوَّتِهَا وَغُرَابِ مَمَالِكِهَا ، فَلَا أَتَأَثَّرُ كُلُّهَا جَارِيَةً عَلَى
نَسْبَةِ الْأَصْلِ فِي الْقُوَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، وَلَا يَسْمُنَا إِنْكَارُ
ذَلِكَ عَنْهَا ، إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَسْوَالِ فِي غَايَةِ
الشُّهُرَةِ وَالْوُضُوحِ ، بَلْ فِيهَا مَا يُلْحَقُ بِالتَّسْتَفِيزِ
وَالْمُتَوَاتِرِ ، وَفِيهَا التَّمَايُنُ وَالْمُشَاهَدَةُ مِنْ أَتَارِ الْبِنَاءِ
وغيرِهِ ، فَحَقٌّ مِنَ الْأَسْوَالِ الْمُنْقَوْلَةِ مَرَاتِبَ الدُّوَلِ
فِي قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا وَصَخَاتِهَا أَوْ صِغَرِهَا .

وَاضْطَرَّ ذَلِكَ بِمَا نَقَصَهُ حَلْيُكَ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ
الْمُسْتَظَرَّةِ : وَذَلِكَ أَنَّهُ وَرَدَ بِالْمَغْرِبِ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ
أَبِي عِيَّانٍ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرْيَمَ وَجُلٍّ مِنْ مَشِيخَةِ طَنْجَةَ
يُتَرَفُّ بِابْنِ بَطْوَلَةَ (١) كَانَ رَاحِلَ مُنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً
قَبْلَهَا إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادِ الْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ
وَالْهِنْدِ ، وَدَخَلَ مَدِينَةَ جِغَلٍ حَاضِرَةَ مَلِكِ الْهِنْدِ ،
وَهُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ شَاهُ ، وَاتَّصَلَ بِمَلِكِهَا لِلْإِلَافَةِ
الْمَهْدِ وَهُوَ قَبِيرُ وَزُجُوهٍ وَكَانَ لَهُ مِنْهُ مَكَانٌ وَاسْتَعْمَلَهُ
فِي خَطِّهِ الْقَضَاءِ ، بِمَنْحَبِ الْمَالِكِيَّةِ فِي عَمَلِهِ ،

خَمْسِمِائَةٍ وَثَلَاثُونَ رِطْلًا ، وَمِنْ الْمَسْلُوحِ السُّورِ
مِائَةً عَشْرَةَ أَلْفَ رِطْلًا ، وَمِنْ الصُّونَجِ عَشْرَةَ
أَلْفَ رِطْلًا ، وَمِنْ الْبِخَالِ عِشْرَتَانِ وَمِنْ الْمَهْرَةِ ثَلَاثُونَ .
(تفسيره) أَرْبَعُمِائَةٍ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَمِنْ الزُّبَيْرِ
أَلْفَ جِنْدَلٍ .

(دمشق) أَرْبَعُمِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ وَعَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ
(الاردن) سِتَّةَ وَتِسْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .
(فلسطين) ثَلَاثُمِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ وَعَشْرَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ ،
وَمِنْ الزُّبَيْرِ ثَلَاثُمِائَةٍ أَلْفَ رِطْلٍ .
(مصر) أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ وَتِسْعُمِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ
وَعَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .
(برقة) أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ مَرَّتَيْنِ .

(أفريقية) ثَلَاثَةُ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِينَارٍ مَرَّتَيْنِ
وَمِنْ الْبُطْحِ (١) مِائَةً وَعِشْرُونَ .
(اليمن) ثَلَاثُمِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ وَتِسْعُونَ أَلْفَ
دِينَارٍ سِوَى الْفَتَاحِ .

(الحجاز) ثَلَاثُمِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ انْتَهَى .
وَأَمَّا الْأَنْدَلُسُ : فَالَّذِي ذَكَرَهُ الْفَتَّاحُ مِنْ
مُورُخِيهَا ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ النَّاسِرَ ، خَلَفَ فِي
بُيُوتِ أَسْوَالِهِ خَمْسَةَ أَلْفِ أَلْفٍ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، تَكُونُ جُمْلَتُهَا بِالْفَتْطَابِرِ خَمْسِمِائَةَ
أَلْفٍ قِنْطَارٍ . وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ :
أَنَّ الْمَحْمُودَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فِي أَيَّامِهِ ، سِتَّةَ أَلْفِ
قِنْطَارٍ ، وَخَمْسِمِائَةَ قِنْطَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ

فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي نِسْبِ الدُّوَلِ بِخَصِّهَا مِنْ
بَقْضِي ، وَلَا تُنْكِرَنَّ مَا لَيْسَ بِمُتَهَوِّدٍ عِنْدَكَ وَلَا فِي
حَضْرِكَ تَنِي مِنْ أَشْثَالِهِ ، فَتَضَيِّقَ حَوْصَلَتَكَ عِنْدَ مُلْتَقَطِ

(١) ملحق الهوري يقول : كَانَ ابْتِدَاءَ رِحْلَةِ ابْنِ بَطْوَلَةَ سَنَةَ ٧٢٥
وَأَتَتْهَا سَنَةَ ٧٥٥ هـ فِي مَدِينَةِ وَخَصْرَهَا ٧ كَرَارِيسَ هـ .

(١) جمع بَطْط ، وِيْرِي ، الْفَتْطُ ، كَمَا تَقْدَمُ .

أَيْنَ الْقَتْمِ مِنَ الْقَارِ؟ وَكَذَلِكَ لِنَحْمِ الْأَيْلِ وَالْبَقَرِ ،
إِذْ لَمْ يُعَايِنِ فِي تَحْيِيصِهِ مِنَ الْمَجُونَاتِ إِلَّا الْقَارَ ،
فَيَحْبِسُهَا كُلَّهَا أَبْنَاءَ جَنْحِي الْقَارِ ، وَهَذَا كَثِيرًا
مَا يَخْتَرِى النَّاسُ فِي الْأَخْبَارِ كَمَا يَخْتَرِيهِمُ الْوَسْوَاسُ
فِي الزَّيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ الْإِغْرَابِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوَّلَ الْكِتَابِ .
فَلْيَرْجِعِ الْإِنْسَانُ إِلَى أُسُولِهِ . وَلَيْكُنْ مُهَيِّجَنَا
عَلَى نَفْسِهِ ، وَمُمَيِّزًا بَيْنَ طَبِيعَةِ الْمُتَكَبِّرِ وَالْمُتَمَتِّعِ
بِصَرِيحِ عَقْلِهِ ، وَمُسْتَقِيمِ فِطْرَتِهِ ، فَمَا دَخَلَ فِي
نِطَاقِ الْإِمْتِكَانِ قَبْلَهُ ، وَمَا خَرَجَ عَنْهُ رَفَعَهُ ، وَلَيْسَ
مُرَادُنَا الْإِمْتِكَانَ الْعَقْلِيَّ الْمُطْلَقَ ، فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسَعُ
شَيْءًا ، فَلَا يُفْرَضُ حَدًّا بَيْنَ الْوَاقِعَاتِ ، وَإِنَّمَا مُرَادُنَا
الْإِمْتِكَانُ بِحَسَبِ الْمَادَّةِ الَّتِي لِلشَّيْءِ ، فَإِنَّا إِذَا
نَظَرْنَا أَصْلَ الشَّيْءِ وَجَنَسَهُ وَصَنَفَهُ وَمَقْدَارَ عَظَمِهِ
وَقُوَّتِهِ ، أَجَرَيْنَا الْحُكْمَ مِنْ نِسْبَةِ ذَلِكَ عَلَى أَحْوَالِهِ ،
وَحَكَمْنَا بِالِاتِّبَاعِ عَلَى مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ (١) . وَقُلْ
رَبِّ زَيْنِي (٢) جِلْمًا ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَاللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل التاسع عشر

فِي اسْتَظْهَارِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ عَلَى قَوْمِهِ
وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ بِالْمَوْلَى وَالْمُصْطَلَبِينَ
اعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ ، إِنَّمَا يَتِمُّ أَمْرُهُ كَمَا
قُلْنَا بِقَوْمِهِ ، فَهُمْ عَصَابَتُهُ وَظَهْرَاؤُهُ عَلَى شَائِهِ ،
وَبَيْنَهُمْ بَقَارِعُ الْخَوَارِجِ عَلَى دَوْلَتِهِ ، وَبَيْنَهُمْ يُقَلَّدُ
أَعْمَالُ مَمْلُوكِيهِ وَوزَارَةُ دَوْلَتِهِ وَجَابِلَةُ أُمُورِهِ ،
لِأَنَّهُمْ أَغْرَانُهُ عَلَى الْقَلْبِ ، وَشَرَكَاءُهُ فِي الْأَمْرِ ،

ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَى الْمَغْرِبِ وَاتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي جِنَانٍ ،
وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رِخْلَتِهِ ، وَمَا رَأَى مِنَ الْمَجَائِبِ
بِحِمَالِكِ الْأَرْضِ . وَكَثُرَ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ
صَاحِبِ الْهِنْدِ ، وَيَأْتِي مِنْ أَحْوَالِهِ بِمَا يَسْتَعْرِضُهُ
السَّامِعُونَ ، مِثْلُ : أَنَّ مَلِكَ الْهِنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى
السَّيْرِ أَحْصَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ ، وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، تُلَقَّعَ لَهُمْ
مِنْ عَطَائِهِ ، وَأَنَّهُ جُنْدُ رُجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ ، يَدْخُلُ فِي
يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُؤُ فِيهِ النَّاسُ كَافَّةً إِلَى صَحْرَاهُ
الْبَلَدِ ، وَيَطُوفُونَ بِهِ ، وَيَنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَلِكَ الْحَضَرِ
مَنْجَنِقَاتُ (١) عَلَى الظُّهْرِ ، تَرْتِي بِهَا شُكَاكِلُ
الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَابِيرِ عَلَى النَّاسِ ، لِيَأْخُذَ بِإِيَّائِهِ .
وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ فَتَنَاجَى النَّاسِ بِتَكْلِيْبِهِ .
وَلَقِيتُ أَيَّامِيذَ وَزِيرِ السُّلْطَانِ قَارِسَ بْنِ وَدَارٍ
الْبَجِيدِ الْعَصِيَّةِ ، فَقَاوَضْتُهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ ، وَأَرَيْتُهُ .
إِنْكَارَ أَخْبَارِ ذَلِكَ الرَّجُلِ لِمَا اسْتَفَاضَ فِي النَّاسِ
مِنْ تَكْلِيْبِهِ ، فَقَالَ لِي الْوَزِيرُ قَارِسُ : لِيَاكَ أَنْ
تَسْتَنْكِرَ مِثْلَ هَذَا مِنْ أَحْوَالِ الدُّوَلِ ، بِمَا أَنَّكَ
لَمْ تَرَهُ ، فَتَكُونُ كَابْنِ الْوَزِيرِ النَّاشِئِ فِي السَّجَنِ .
وَذَلِكَ أَنَّ وَزِيرًا اسْتَعَفَلَ سُلْطَانَهُ وَمَكَثَ فِي
السَّجَنِ سِتِينَ رُبْعًا فِيهَا ابْنُهُ فِي ذَلِكَ الْمَحْبَسِ . فَلَمَّا
أَذْلَعَهُ وَعَقَلَ ، سَأَلَ عَنِ الْأَخْمَانِ الَّتِي كَانَ يَتَخَلَّى
بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هَذَا لَحْمُ الْقَتْمِ . فَقَالَ . وَمَا
الْقَتْمُ ؟ فَيَقِفْهَا لَهُ أَبُوهُ بِشِبَابِهَا وَتَغَوَّطَهَا ، فَيَقُولُ
يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ الْقَارِ ، فَيَنْكِرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ :

(١) انظر : منشورة د . وافي ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٥٥ فنها
تفصيل هذه النظرية المهمة التي تلام على أسسها علم الاجتماع .
(٢) الآية رقم ١١٤ من سورة طه .

(١) هي في الأصل آلة حربية تستخدم كاللذاع في قتل العدو .
واستعملت هنا في رمي الدراهم والذنانير .

وَاخْتَبَرَ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ، كَيْفَ كَانُوا
إِنَّمَا يَسْتَظْهِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ وَوَلَايَةِ أَعْمَالِهِمْ بِرِجَالِ
الْعَرَبِ، مِثْلَ عَمْرِئِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدِ
اللهِ بْنِ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَالْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ،
وَالْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، وَخَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
الْقَسْرِيِّ، وَابْنِ هُبَيْرَةَ، وَمُوسَى بْنِ نَصِيرٍ، وَبِلَالِ
ابْنِ أَبِي بَرْقَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَنَصْرِ بْنِ
سَيَّارٍ وَأَنْصَالِهِمْ مِنْ رِجَالِ الْعَرَبِ. وَكَذَلِكَ صَدَرَ
مِنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ كَانَ الْاِسْتِظْهَارُ فِيهَا أَيْضًا
بِرِجَالِ الْعَرَبِ. فَلَمَّا صَارَتِ الدَّوْلَةُ لِلْأَفْغَارِ
بِالْمَجْدِ، وَكَبِيعِ الْعَرَبِ عَنِ الشَّطَاوِلِ لِلْوَلَايَاتِ،
صَارَتِ الْوَزَارَةُ لِلنَّجَمِ وَالصَّنَائِعِ مِنَ الْبَرَايِكَةِ،
وَبَنِي سَهْلٍ بْنِ نُوْبَيْخَتٍ، وَبَنِي طَاهِرٍ، ثُمَّ بَنِي
بُوَيْهٍ، وَمَوَالِي التُّرْكِ مِثْلَ بَغَا وَوُصَيْفٍ، وَأَنَاشِشٍ،
وَبَاكِيكَانَ، وَابْنِ طُولُونَ، وَأَبْنَائِهِمْ، وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ
مِنْ مَوَالِي النَّجَمِ، فَتَكُونُ الدَّوْلَةُ لْغَيْرِ مَنْ مَهْلِكًا،
وَالْعَزْلُ لْغَيْرِ مَنْ اجْتَلَبَهُ: سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ وَاللهُ تَعَالَى
أَعْلَمُ.

الفصل العشرون

في أحوال الموالى والمصطنعين في الدول

إِعْلَمُ أَنَّ الْمُصْطَنَعِينَ فِي الدُّوَلِ يَتَقَاوَنُونَ فِي
الْاِتِّحَامِ بِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ بِتَقَاوُتِ قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ
فِي الْاِتِّحَامِ بِصَاحِبِهَا، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُقْصُودَ
فِي الْمُصْنِيعَةِ مِنَ الْمُدَافَعَةِ وَالْمَغَالِبَةِ، إِنَّمَا يَتِمُّ بِالنَّسَبِ
لِاجْتِلِائِ النَّصَاحَةِ فِي ذَوِي الْأَرْحَامِ وَالْقُرْبَى عَوَالِئِهَا
فِي الْأَجَائِبِ وَالْبَحْسَاءِ كَمَا قُلْنَا. وَالْوَلَايَةُ

وَسَاهِمُوهُ فِي سَائِرِ مَهَامِهِ. هَذَا مَا قَامَ الطُّورُ الْأَوَّلُ
لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا (١).

فَإِذَا جَاءَ الطُّورُ الثَّانِي، وَظَهَرَ الْاِسْتِغَادُ عَنْهُمْ
وَالْاِنْفِرَادُ بِالْمَجْدِ، وَدَافَعَهُمْ عَنْهُ بِالرَّاحِ، صَارُوا
فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مِنْ بَعْضِ أَغْدَالِهِ، وَاحْتَاجَ فِي
مُدَافَعَتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ وَصَدِّهِمْ عَنِ الدُّشَارِكَةِ، إِلَى
أَوْلِيَاءِ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ
عَلَيْهِمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ، فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ
مِنْ سَائِرِهِمْ، وَأَخْصَ بِهِ قُرْبًا وَاسْطِنَاحًا، وَأَوَّلَى
إِشَارًا وَجَاهًا، لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مُدَافَعَةِ
قَوْمِهِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ، وَالرُّتْبَةِ الَّتِي
أَلْفَرُهَا فِي مَشَارِكِهِمْ، فَيَسْتَخْلَصُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ،
وَيُخَصِّمُهُمْ بِزَيْدِ التَّكْرَمَةِ وَالْإِشَارِ، وَيَقْسِمُ لَهُمْ
مِثْلَ مَا لِلْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ، وَيَقْلُدُهُمْ جَلِيلِ الْأَعْمَالِ
وَالْوَلَايَاتِ: مِنَ الْوَزَارَةِ، وَالْقِيَادَةِ، وَالْجَبَايَةِ، وَمَا
يَخْتَصُّ بِهِ لِنَفْسِهِ، وَتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ
مِنْ أَلْقَابِ الْمُلْكَةِ، لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ أَوْلِيَاؤُهُ الْأَقْرَبُونَ،
وَنَصَحَاؤُهُ الْمُخْلِصُونَ. وَذَلِكَ حِينَئِذٍ مُؤَدَّنٌ بِاِمْتِصَامِ
الدَّوْلَةِ، وَحَلَامَةٍ عَلَى التَّرَضِ الزَّمَنِ فِيهَا لِفَسَادِ
الْمَصْنِيعَةِ الَّتِي كَانَ بِنَاءَ الْقَلْبِ عَلَيْهَا، وَمَرَضِ
قُلُوبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنَ الْاِسْتِنَاءِ، وَعَدَاوَةِ
السُّلْطَانِ، فَيُضْطَرُّونَ (٢) عَلَيْهِ وَيَتَرَبِّضُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ،
وَيَعُودُ وَيَبَالُ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ، وَلَا يَطْمَحُ فِي بَرْهِنِهَا
مَنْ هَذَا الدَّاءُ لِأَنَّ مَا قَضَى يَتَأَكَّدُ فِي الْأَغْصَابِ إِلَى
أَنْ يُلْجِبَ رُسْمَهَا.

(١) انظر الفصل السابع عشر من هذا الباب، عنوانه: فصل في
طوارق العلة... الخ ص ١٥٧. (٢) يقولون له السنية والحمد.

اللَّحْمَةِ ، وَيُطَنُّ بِهَا فِي الْأَكْثَرِ النَّسَبُ فَيَقْوَى
حَالُ الصَّبِيَّةِ .

وَأَمَّا بَعْدَ الْمُلْكِ فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي
فِي مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ فَتَنْتَبِهُنَّ اللَّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ النَّسَبِ
فَتَقْصُفُ الْعَصَبِيَّةُ بِالنَّسَبِ إِلَى الْوَلَايَةِ الَّتِي كَانَتْ
قَبْلَ الدَّوْلَةِ .

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ ، وَالرَّكَاسَاتِ تَجِدُهُ .
فَكُلُّ مَنْ كَانَ اضْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ الرِّيَاسَةِ
وَالْمُلْكِ لِمُصْطَنِعِهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ اتِّحَامًا بِهِ وَأَقْرَبَ
قَرَابَةً إِلَيْهِ ، وَيَنْزِلُ مِنْهُ مَنْزِلَةُ أَهْلَائِهِ وَأَهْوَانِهِ
وَدَوَى رَجِيئِهِ . وَمَنْ كَانَ اضْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ
الْمُلْكِ وَالرَّكَاسَةِ لِمُصْطَنِعِهِ ، لَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ
وَاللَّحْمَةِ مَا لِلأَوَّلِينَ . وَهَذَا مُشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ ، حَتَّى
إِنْ الدَّوْلَةُ فِي آخِرِ عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ
وَاضْطِنَاعِهِمْ ، وَلَا يَبْنِي لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ الْمُصْطَنِعُونَ
قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِغَرَبِ الْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوْلِيائِهِمْ وَمُشَارِقَةِ
الدَّوْلَةِ عَلَى الْانْفِرَاسِ ، فَيَكُونُونَ مُنْحَطِّينَ فِي
مَهَاوِي الضُّعْفِ .

وَأَمَّا بِخَيْلِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ عَلَى اضْطِنَاعِهِمْ
وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَائِهِمَا الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهِمَا
الأَوَّلِينَ مَا يَتَقَرَّبُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعُرَةِ عَلَى
صَاحِبِ الدَّوْلَةِ ، وَكَذَلِكَ الْخُضُوعُ لَهُ وَنَظَرُهُ بِمَا يَنْتَظَرُهُ
بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأْكُدَ اللَّحْمَةُ مُنْذُ الْعُصُورِ
الْمُنْتَطَاوِلَةِ بِالْمَرْبَى وَالْاتِّصَالِ بِأَبَائِهِ وَسَلَفِ
قَوْمِهِ وَالْإِنْتِظَامِ مَعَ كِبَرِهِ أَهْلُ بَيْتِهِ ، فَيَحْصُلُ
لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِرَازٌ فَيَتَأَفَّرُهُمْ بِسَبِيلِهَا
صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَتَّعِلُّ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ يَوْمَاهُمْ ،

وَالْمُخَالَفَةُ بِالرُّقْ أَوْ بِالْجُلُوبِ تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ ذَلِكَ ،
لَأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا ، فَإِنَّمَا هُوَ وَمَعْبَى ،
وَالْمَعْنَى الَّذِي كَانَ بِهِ الْإِتِّحَامُ إِشْمًا هُوَ الْعِشْرَةُ
وَالْمُذَافَعَةُ وَطَوَّلُ الْمُمَارَسَةِ وَالصَّحْبَةِ بِالْمَرْبَى
وَالرَّضَاعِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ .

وَإِذَا حَصَلَ الْإِتِّحَامُ بِذَلِكَ جَاءَتِ الشُّعْرَةُ
وَالْتِنَاصُرُ . وَهَذَا مُشَاهَدٌ بَيْنَ النَّاسِ . وَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ
فِي الْإِضْطِنَاعِ ، فَإِنَّهُ يُحِثُّ بَيْنَ الْمُصْطَنِعِ وَمَنْ
اضْطَنَعَهُ ، نِسْبَةً خَاصَّةً مِنَ الْوَصْلَةِ تَنْزِلُ هَلِيبُ
الْمَنْزِلَةِ وَتُؤَكِّدُ اللَّحْمَةَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَتَقَرَّرَاتِ
النَّسَبِ مُوجُودَةٌ .

فَإِذَا كَانَتْ هَلِيبُ الْوَلَايَةِ بَيْنَ الْقَبِيلِ وَبَيْنَ
أَوْلِيَائِهِمْ ، قَبْلَ حُصُولِ الْمُلْكِ لَهُمْ ، كَانَتْ
عُرُوفُهَا أَوْشَجَ ، وَهَضَائِدُهَا أَصَحَّ ، وَنَسَبُهَا أَسْرَحَ
لِوَجْهِينِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ الْمُلْكِ أَسْوَةٌ فِي
حَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنِ الْوَلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ
الْأَقْلِ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ دَوَى قَرَابَتِهِمْ
وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ . وَإِذَا اضْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمُلْكِ
كَانَتْ مَرْقَبَةُ الْمُلْكِ مُبَيَّزَةً لِلْسَيِّدِ عَنِ الْعَوَى ،
وَلِأَهْلِ الْقَرَابَةِ عَنْ أَهْلِ الْوَلَايَةِ وَالْإِضْطِنَاعِ لِمَا
فَقَّضِيهِ أَحْوَالِ الرِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ تَمَيَّزِ الرَّتَبِ
وَتَفَاوُثِهَا فَتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ ، وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ الْأَجَانِبِ
وَيَكُونُ الْإِتِّحَامُ بَيْنَهُمْ أَضْعَفَ ، وَالتَّنَاصُرُ لِلذِّلِّ
أَبْعَدَ ، وَذَلِكَ أَنْقَضَ مِنَ الْإِضْطِنَاعِ قَبْلَ الْمُلْكِ .
الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ الْإِضْطِنَاعَ قَبْلَ الْمُلْكِ يَبْنِي عَهْدَهُ
عَنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطَوْلِ الزَّمَانِ ، وَيَخْفَى شَأْنُ ذَلِكَ

يَتَخَيَّدُ أَنْ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ ، وَإِعْطَاةُ الصَّفَقَةِ وَخِطَابُ التَّهْوِيلِ ، وَالْقُعُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ وَأَنَّ الْحَلَّ وَالرِّبْطَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَمُبَاشَرَةُ الْأَحْوَالِ الْمُلْكِيَّةِ وَتَقْدِمُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجَيْشِ وَالْمَالِ وَالتَّهْوِيلِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ ، وَيُسَلِّمُ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ الرِّيَاسَةَ وَالِاسْتِئْذَانَ ، وَيَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ إِلَيْهِ ، وَيُؤَيِّرُ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ . كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُوَيْهِ وَالتُّرْكِ وَكَافُورِ الْأَخْيَصِيِّ وَغَيْرِهِمْ بِالْمَشْرِقِ ، وَلِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِالْأَنْدَلُسِ .

وَقَدْ يَنْقَطِعُ ذَلِكَ الْمَشْهُورُ الْمُغْلَبُ لِشَأْنِهِ فَيَحَاوِلُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ رِبْعَةِ الْحَجَرِ وَالِاسْتِئْذَانَ وَيَرْجِعُ الْمُلْكُ إِلَى نَصَابِهِ ، وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِي الْمُغْلَبِينَ عَلَيْهِ ، إِذَا يَقْتُلُ أَوْ يَرْفَعُ عَنِ الرُّمَّةِ فَقَطْ ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي النَّاسِ الْأَقْلَ ، لِأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخْلَتْ فِي تَغْلِبِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّتْ لَهَا ذَلِكَ وَقَدْ أَنَّ تَخَرُّجَ عَنْهُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ ، وَنَشْأَةِ أَبْنَاءِ الْمُلْكِ مُنْعَمِينَ فِي نَعِيمِهِ ، قَدْ نَسُوا عَهْدَ الرَّجُولَةِ ، وَالْفُتُوَا اخْتَلَفَ الدَّيَّانَاتِ وَالْأَخْطَارِ (١) وَدَبُّوا عَلَيْهَا ، فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِيَّاسَةٍ ، وَلَا يَتَرَفُونَ اسْتِئْذَانَ مِنْ تَغْلِبِ . إِنَّمَا مَهْمُ فِي الْقُعُودِ بِالْأَبْنَاءِ ، وَالتَّغْلِبِ فِي اللَّذَاتِ وَأَنْوَاعِ التَّرَفِ . وَهَذَا الثَّغْلُ يَكُونُ لِلْمَوَالِ وَالْمُهْمَمِينَ عِنْدَ اسْتِئْذَانِ عَشِيرَةِ الْمَلِكِ عَلَى قُوَّهِمْ ، وَانْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ . وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرُورِيٌّ كَمَا قَدْ نَسَاهُ . وَهَذَانِ مَرَصَدَانِ لَا بُدَّ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ

وَيَكُونُ عَهْدُ اسْتِخْلَاصِهِمْ وَاصْطِنَافِهِمْ قَرِيبًا ، فَلَا يَبْلُغُونَ وَتَبَّ الْمَجْدُ ، وَيَبْقَوْنَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجِيِّ .

وَمَهْلِكُنَا شَأْنُ الدَّوْلَةِ فِي أَوَاخِرِهَا . وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ وَالْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْأَوَّلِينَ . وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُحْدَثُونَ فَخَدَمٌ وَأَعْوَانٌ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

الفصل الحادى والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجب السلطان والاستبداد عليه

إِذَا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ فِي نِصَابِ مُعَيَّنٍ ، وَمُنِيتْ وَاجِدٌ مِنَ الْقَوِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ ، وَانْفَرَدُوا بِهِ ، وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَوِيلِ عَنْهُ ، وَقَدَّامُوا بَنُوهُمْ وَاجِدًا يَتَذَرُ وَاجِدٌ ، بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ ، قَرِيبًا حَدَّثَ التَّغْلِبُ عَلَى الْمَنْعِبِ مِنْ وَزَرَالِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ . وَسَبَّهَ فِي الْأَكْثَرِ وَلَايَةً صَبِيٍّ صَغِيرٍ ، أَوْ مُضْعَبٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنِيتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلَايَةِ بِعَهْدِ أَبِيهِ ، أَوْ يَتَرَشَّحُ ذَوِيهِ وَغَوْلُهُ (١) وَيُؤَنَسُ مِنْهُ الْحَجَرُ عَنْ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وَزَرِهِ أَبِيهِ وَحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ ، وَيُورَى (٢) بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤَنَسَ مِنْهُ الْاسْتِئْذَانُ ، وَيَجْعَلَ ذَلِكَ قَرِيبَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْبِبُ الصَّبِيَّ عَنْ النَّاسِ ، وَيَعُوْدُهُ اللَّذَاتِ الَّتِي يَدُّوهُ إِلَيْهَا تَرَفٌ أَهْوَالِهِ وَيُسِمُّهُ فِي مَرَاهِقِهَا حَتَّى أَمْكُنَهُ ، وَيُنِيبِيهِ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَعِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ بِمَا عَوْدُهُ

(١) الخدم من البطانة والهاشمية .

(٢) متى اطمأن الاستبدادية وراح الظاهر بالمحافظة لصهي على

ملكه لم يتركه .

(١) جمع شر ... وهي الرخصة .

تَسْتَحْكِمُ لَهُ فِي ذَلِكَ صِبْغَةَ تَحْيِيلُهُمْ عَلَى التَّسْلِيمِ
لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ، فَبَيْلُكَ لِأَوَّلُو وَهَلَّةَ .

وَقَدْ وَفَّعَ بِمِثْلِ هَذَا لِبَيْتِ الرَّحْمَنِ بْنِ النَّاصِرِ
ابْنِ مَنْصُورٍ بْنِ أَبِي حَسَنِ حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ
هَشَامٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ الْخِلَافَةِ ، وَلَمْ يَقْبَعْ
بِمَا قَبِيعَ بِهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ مِنَ الْإِسْتِغْنَادِ بِالْحَلِّ وَالْقُدْرِ
وَالْمَرَامِ الْمُنْتَابَةِ . فَطَلَبَ مِنْ هَشَامٍ خَلِيفَتِهِ
أَنْ يَغْدَى لَهُ بِالْخِلَافَةِ . فَتَقَبَّلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِمَوَ
رُوءَانٍ ، وَمَانَرٍ قُرْبَى ، وَبَابِعُوا لِابْنِ عَمِّ الْخَلِيفَةِ
هَشَامٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ النَّاصِرِ ، وَخَرَجُوا
عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ خَرَابٌ قَوْلُهُ الْعَامِرِيِّينَ ،
وَعَلَاكَ التَّوْبِيدَ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتَبْدَلَ مِنْهُ مَوَاهِدَ
مِنْ أَقْيَاصِ الدَّوْلَةِ إِلَى آخِرِهَا ، وَاخْتَلَتْ مَرَامُ
مُلْكِهِمْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك وأصنافه

الْمَلِكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ ، لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا
أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمْكِنُ حَيَاتُهُمْ وَوُجُودُهُمْ إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ
وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُونِهِمْ وَضُرُورِيَاتِهِمْ .
وَإِذَا اجْتَمَعُوا دَعَتْ الضَّرُورَةُ إِلَى الْمَعَالِمَةِ وَاقْتِضَاءِ
الْحَاجَاتِ ، وَمَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ
بِاخْتِلَافٍ مِنْ صِلَاةٍ أَوْ لِيَا فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ
مِنَ الظُّلْمِ وَالسُّلْوَانِ بِغَضَبِهِ عَلَى بَغْضَائِهِ وَبِمَانِعِهِ
الْآخَرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْإِنْفَةِ ، وَمُقْتَضَى
الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ ، فَيَقْبَعُ التَّنَازُعُ الْمُغْفِي
إِلَى الْمَعَالِمَةِ ، وَهِيَ تَوْدِي إِلَى الْهَرَجِ (١) وَسُفْكِ

النَّادِرِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ (١) ، وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

التفصيل الثاني والعشرون

في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في
اللقب الخاص بالملك

وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ وَالْمُلْكَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِيهِمْ مَذَّ
أَوَّلِ الدَّوْلَةِ بِعَصَبِيَّةِ قَوْمِهِ وَعَصَبِيَّةِ النَّبِيِّ اسْتَجَبَتْهُمْ
حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةُ الْمُلْكِ وَالْقَبْ
وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً وَبِهَا انْحَصَفَ رَسْمُ الدَّوْلَةِ
الدَّوْلَةِ وَيَقَاوَمًا . وَهَذَا الْمُنْتَظَبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ
عَصَبِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ الْمَلِكِ أَوْ الْمَرْأَلِ وَالْمُتَنَازِعِ ،
فَتَصْبِيغُهُ مُنْتَزِجَةٌ فِي عَصَبِيَّةِ أَهْلِ الْمَلِكِ وَنَابِغَةٌ
لَهَا ، وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِي الْمُلْكِ . وَهُوَ لَا يَحَاوِلُ فِي
اسْتِغْنَادِهِ التَّنَازُعَ لِمُزَاجَةِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحَلِّ
وَالْقُدْرِ وَالْإِبْرَامِ ، وَالْقَفْضِ ، يُؤْمَرُ فِيهَا أَهْلُ الدَّوْلَةِ
أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ سُلْطَانِهِ ، مُنْفَذٌ فِي ذَلِكَ مِنْ
وَرَاهِ الْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ . فَهُوَ يَتَجَاوَى عَنْ رِسَالَةِ
الْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ وَالْقَابِ بِجَهْدِهِ ، وَيُبْجِدُ نَفْسَهُ عَنْ
التَّهْمَةِ بِذَلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ الْإِسْتِغْنَادُ لِأَنَّهُ
مُسْتَعْتَرٍ فِي اسْتِغْنَادِهِ . ذَلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِي صَرَّبَهُ
السُّلْطَانُ وَأَوَّلُوهُ (٢) عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنْ الْقَبِيلِ
مَنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ ، وَتَقْلِيدُ عَنْهُ بِالْإِيَابَةِ . وَكَوْ تَعَرَّضَ
لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ (٣) عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ ،
وَقَبِيلُ الْمَلِكِ وَحَاوَلُوا الْإِسْتِغْنَادَ بِقُوَّةِ لَأَنَّهُ لَمْ

(١) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .

(٢) السابقون له من آباءه .

(٣) قوله لنفسه يفتح اللام والنون وكسر اللام يقال ليس
له شيء . كقولهم لم يره أحد من الناس .

(١) الاضطرابات والفتن .

مَا يُوجَدُ هَذَا فِي الدَّوْلَةِ الْمُنَسَّجَةِ النَّطَاقِ ، أَغْنَى
تُوجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي التَّوَاحِي الْقَابِضَةِ ،
يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي جَعَلَهُمْ يَثَلُ صَنَاجِدَ
مَعَ الْعَمِيلِينَ ، وَزَنَانَةَ مَعَ الْأُمُورِيِّينَ تَارَةً وَالْعَمِيلِينَ
تَارَةً أُخْرَى ، وَيَثَلُ مُلُوكُ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي
الْعَبَّاسِ ، وَيَثَلُ مُلُوكُ الطَّوَانِجِ مِنَ الْفُرْسِ مَعَ
الْأَسْكَندَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ . وَكَبِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ
فَاعْتَبِرُهُ تَجَدُّدَ اللَّهِ الْقَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِهِ .

الفصل الرابع والعشرون

فِي أَنْ إِرْهَافَ الْحَدِّ مَضَرٌّ بِالْمُلِكِ وَمُفْسِدٌ لَهُ
فِي الْأَكْثَرِ

إِعْلَمَنَّ أَنَّ مَضْلَحَةَ الرَّعِيَّةِ فِي السُّلْطَانِ لَيْسَتْ
فِي ذَاتِهِ وَجِسْمِهِ ، مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ ،
أَوْ عَظَمِ جُلْمَانِهِ أَوْ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جُودِهِ خَطِّهِ
أَوْ قُصْبِ ذَنْبِهِ .

وَلِنَا مَضْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ ،
فَإِنَّ الْمُلُوكَ وَالسُّلْطَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَهِيَ
نِسْبَةٌ بَيْنَ مُتَنَسِّبَيْنِ . فَحَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ
لِلرَّعِيَّةِ الْقَائِمِ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ . فَالسُّلْطَانُ مِنْ
لَهُ رَعِيَّةٌ . وَالرَّعِيَّةُ مِنْ لَهَا سُلْطَانٌ . وَالصِّفَةُ الَّتِي
لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ ، هِيَ الَّتِي تَسْمَى
الْمَلَكَةُ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ . فَإِذَا كَانَتْ هَلِيهِ
الْمَلَكَةُ وَتَوَابِعُهَا مِنَ الْجُودَةِ بِمَكَانٍ حَصَلَ الْمَقْصُودُ
مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُودِ . فَلِأَنَّهُ إِنْ كَانَتْ
جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَلِكَ مَضْلَحَةً لَهُمْ . وَإِنْ كَانَتْ
سَيِّئَةً مُنْكَسِفَةً . كَانَ ذَلِكَ صَرَرًا عَلَيْهِمْ وَإِمْلاكَ
لَهُمْ .

الذَّمَاءُ ، وَافْعَابُ النُّفُوسِ الْمُنْفَعِي ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ
النُّوعِ ، وَهُوَ مِمَّا هَصَّ الْبَارِي سُبْحَانَهُ بِالْمَحَافِظَةِ ،
فَاشْتَهَلَ بِقَاوِمِهِمْ قُوَى دُونَ حَاكِمِهِ يَزْعُ بَعْضُهُمْ
حَقِّ بَعْضِي ، وَاحْتَاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوَاظِعِ ،
وَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ
الْمَلِكُ الْقَاهِرُ الْمُتَحَكِّمُ .

وَلَا يَدُ فِي ذَلِكَ مِنَ النَّصَبِ إِلَّا مَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَنَّ
الْمُطَالَبَاتِ كُلَّهَا وَالْمُدَافَعَاتِ لَا تَنِمُّ إِلَّا بِالنَّصَبِ .
وَهَذَا الْمُلْكُ كَمَا تَرَاهُ مُنْصَبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوُهُ
الْمُطَالَبَاتُ ، وَتَحْتَاجُ إِلَى الْمُدَافَعَاتِ ، وَلَا يَنِمُّ
قِيٌّ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالنَّصَبِ كَمَا مَرَّ وَالنَّصَبَاتُ
مُعْتَادَةٌ ، وَكُلُّ عَصَبِيَّةٍ قَلْبًا تَحْكُمُ وَتَطْلُبُ عَلَى
مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَغَيْرِهَا . وَلَيْسَ الْمُلْكُ لِكُلِّ
عَصَبِيَّةٍ ، وَلِنَا الْمُلْكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعِيدُ
الرَّعِيَّةَ ، وَيَجْبِي الْأُمُورَ ، وَيَبْعَثُ الْبُيُوتَ وَيَحْمِي
النُّفُورَ ، وَلَا تَكُونُ قُوَى يَدِهِ قَاهِرَةً ، وَهَذَا مَعْنَى
الْمُلْكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي الْمَشْهُورِ .

فَمَنْ قَصَرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلَ حِمَايَةِ
النُّفُورِ أَوْ جَبَايَةِ الْأُمُورِ ، أَوْ بَعَثِ الْبُيُوتِ ، فَهُوَ
مَلِكٌ نَاقِصٌ ، لَمْ تَنَمْ حَقِيقَتُهُ . كَمَا وَقَعَ لِكَبِيرٍ
مِنْ مُلُوكِ الْبُرْبَرِ فِي قَوْلِهِ الْأَخَالِيَّةِ بِالْقَبِيرَوَانِ ،
وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدَرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .

وَمَنْ قَصَرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ أَيْضًا عَنْ الْأَشْيَعْلَاءِ
عَلَى جَمِيعِ النَّصَبِيَّاتِ وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي ،
وَكَانَ قُوَّتُهُ حَكْمٌ غَيْرُهُ فَهُوَ أَيْضًا مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ
تَنَمْ حَقِيقَتُهُ . وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ أَمْرَاءِ التَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ
الْجِهَاتِ الَّذِينَ نَجَّمَهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ . وَكَثِيرًا

والإفراط في الذكاء . ومأخذه من قصه زياد بن أبي سفيان ، لما عزله عمر عن العراق ، وقال له : لِمَ عزلتني يا أمير المؤمنين ، ألعجز أم لحيانة ؟ فقال عمر : لم أعزلك لواجبة بينهما . ولكني كرهت أن أخيل فقبل عليك على الناس ، فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مُفْرِط الذكاء والكياس ، مثل زياد بن أبي سفيان وعمر بن العاص ، لما ينمى ذلك من التمسك وسوء الملوك وحمل الوجود على ما ليس في طبيعه ، كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير المالكين . وتقرر من هذا أن الكياس والذكاء حيب في صاحب السياسة لأنه إفراط . في الفكر كما أن البلاء إفراط في الجمود . والطرفان مضموران من كل صفة إنسانية . والمحمود هو الوسط . كما في الكرم مع التلبيس والبخل ، وكما في الشجاعة مع الهوج والجنون ، وغير ذلك من الصفات الإنسانية ، ولهذا يوصف الشديد الكياس بصفات الشيطان ، فيقال شيطان ومتشيطان وأنثالي ذلك . والله يخلق ما يشاء وهو العليم القديم .

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والإمامة

لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُلْكِ أَنَّهُ الْاجْتِمَاعُ الْقَرُورِيُّ لِلْبَشَرِ ، وَمُقْتَضَاهُ التَّطَلُّبُ وَالْقَهْرُ الَّذِي مِمَّا أَنْزَلَ الْقَضْبَ وَالْحَيَوَانِيَّةَ ، كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي الْقَالِبِ جَارَةً عَنِ الْحَقِّ ، مُذْهِبَةً بِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ الْخَلْقِ فِي أحوال دنياهم ، لِمَوْلَاهُ إِيَّاهُمْ فِي الْقَالِبِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَوْعِهِمْ مِنْ أَغْرَافِهِ وَمَهْوَاتِهِ .

ويعود حسن الملكة إلى الرقي ، فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا بِالْعُقُوبَاتِ . مُتَغَبِّيًا عَنْ حَوَارِثِ النَّاسِ ، وَتَعْلِيدِ ذُنُوبِهِمْ سَلَمَهُمُ الْخَوْفَ وَالذُّلَّ ، وَلَاذُوا مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فَخَلَفُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بِصَائِرِهِمْ وَأَخْلَافُهُمْ ، وَرَبَّمَا خَلَلُوا فِي مَوَاطِنِ الْخُرُوبِ وَالْمُدَافَعَاتِ ، فَفَسَدَتْ الْحِمَايَةُ بِفَسَادِ النَّيَاتِ ، وَرَبَّمَا أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِمَلِكٍ ، فَتَفْسَدَ الدُّوْلَةُ وَيُخْرَبَ السِّيَاحُ ، وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَهُ فَسَدَتْ الْمَصِيبَةُ لِمَا قَلَنَاهُ وَأَوَّلَاهُ (١) . وَفَسَدَ السِّيَاحُ مِنْ أَصْلِهِ بِالْعِزِّ عَنِ الْحِمَايَةِ .

وَإِذَا كَانَ رَفِيقًا بِهِمْ مُجَاوِزًا عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ اسْتَمْتَأَمُوا إِلَيْهِ وَلَاذُوا بِهِ وَأَشْرَبُوا مُحِبَّتَهُ ، وَاسْتَمْتَأَمُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَهْلَائِهِ ، فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَلِكَةِ فَبِهِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ : فَالْمُدَافَعَةُ بِهَا تَتِمُّ حَقِيقَةُ الْمُلْكِ : وَأَمَّا النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ ، فَمِنْ جُمْلَةِ الرِّفْقِ بِهِمْ ، وَالتَّنْظُرِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَهِيَ أَصْلُ كَبِيرٍ مِنَ النَّحْبِ إِلَى الرَّجِيَّةِ .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلْبًا تَكُونُ مَلَكَةُ الرِّفْقِ فِيمَنْ يَكُونُ يَقِظًا شَدِيدَ الذِّكَاةِ مِنَ النَّاسِ . وَكَثُرَ مَا يُوجَدُ الرِّفْقُ فِي الْفُضْلِ وَالْمُتَفَضِّلِ ، وَأَقْلُ مَا يَكُونُ فِي الْبِطْخِ . لِأَنَّهُ بِكُلِّبِ الرَّجِيَّةِ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنُفُوذِ نَظَرِهِ فِيهَا وَرَأَاهُ مَدَارِكِهِمْ وَأَعْلَامِهِ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ فِي مَبَادِيهَا بِالْمَعِيَّةِ فَيَهْلِكُونَ لِلْمَلِكِ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَسِّرُوا عَلَى سِيرِ أَصْحَابِكُمْ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ اشْتَرَطَ الشَّارِعُ فِي الْحَاكِمِ قِلَّةَ

(١) انظر : الفصل الثالث عشر من هذا الباب .

القُوَّةُ الْمَصِيبَةُ فِي مَرَعَاتِهَا فَجَوْرٌ وَعُلُوٌّ وَمَلُومٌ
عِنْدَهُ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ .

وَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى السِّيَاسَةِ وَأَحْكَامِهَا
قَمَلُومٌ أَيْضًا ، لِأَنَّهُ نَظَرٌ بِغَيْرِ نُورٍ اللَّهِ « وَمَنْ لَمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » (١) لِأَنَّ الشَّارِحَ
أَعْلَمَ بِمَصَالِحِ الْكَافَّةِ فِيمَا هُوَ مُتَّيَّبٌ عَنْهُمْ مِنْ
أُمُورٍ آخِرَتِهِمْ ، وَأَعْمَالِ الْبَشَرِ كُلِّهَا عَالِمَةٌ عَلَيْهِمْ
فِي مَعَادِهِمْ مِنْ مُلْكٍ أَوْ غَيْرِهِ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ « إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ » . وَأَحْكَامُ
السِّيَاسَةِ إِنَّمَا تُطْلَعُ عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا فَقَطْ ،
« يَتَلَمَّحُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » (٢) ، وَمَقْصُودُ
الشَّارِحِ بِالنَّاسِ صَلَاحَ آخِرَتِهِمْ ، فَوَجَبَ بِمُقْتَضَى
الشَّرَائِعِ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي
أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ ، وَكَانَ هَذَا الْحُكْمُ لِأَهْلِ
الشَّرِيعَةِ ، وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ قَامَ فِيهِ مَقَامُهُمْ وَهُمْ
الْخُلفَاءُ .

فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى الْخِلَافَةِ : وَأَنَّ
الْمُلْكَ الطَّبِيعِيَّ هُوَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى الْفَرْضِ
وَالشَّهْوَةِ ، وَالسِّيَاسِيَّ هُوَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى
النَّظَرِ الثَّقَلِيِّ فِي جُلْبِ الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَتَلَفُّ
الْمَضَارِّ ، وَالْخِلَافَةُ هِيَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى
النَّظَرِ الشَّرْعِيِّ فِي مَصَالِحِهِمُ الْآخِرَوِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ
الرَّاجِعَةِ إِلَيْهَا . إِذْ أَحْوَالُ الدُّنْيَا تُرْجَعُ كُلُّهَا جُنْدَ
الشَّارِحِ إِلَى اخْتِبَارِهَا بِمَصَالِحِ الْآخِرَةِ ، فَيُورِ فِي
الْحَقِيقَةِ خِلَافَةً عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِرَاسَةِ

وَيَتَخَلَّفُ ذَلِكَ بِإِخْلَافِ الْمَقَاصِدِ مِنَ الْخَلْفِ
وَالسَّلْبِ مِنْهُمْ ، فَتَمَسَّرُ طَاعَتُهُ لِنُفُذِكَ وَتَجِيءُ
الْمَصِيبَةُ الْمُضْطَرَّةُ إِلَى الْهَرَجِ (١) وَالْقَتْلِ ، فَوَجَبَ
أَنْ يُرْجَعَ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوَانِينِ سِيَاسِيَّةٍ مَقْرُوضَةٍ
يُسَلِّمُهَا الْكَافَّةُ ، وَيَتَقَادُونَ إِلَى أَحْكَامِهَا ، كَمَا كَانَ
ذَلِكَ لِلْفُتُوحِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ .

وَإِذَا خَلَّتِ الدَّوْلَةُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ لَمْ
يُتَّيَّبَ أَمْرُهَا وَلَمْ يَسْمَعْ اسْتِغْلَاظُهَا ، وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي
الْبَيْنِ غُلُوفٌ مِنْ قَبْلِ (٢) . فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْقَوَانِينُ
مَقْرُوضَةً مِنَ الْغُلَاءِ وَآكَابِرِ الدَّوْلَةِ وَيُصْرَافُهَا ،
كَانَتْ سِيَاسَةً عَقْلِيَّةً . وَإِذَا كَانَتْ مَقْرُوضَةً مِنَ اللَّهِ
يُشَارِعُ بِقُرْأَتِهَا وَيُشْرَعُهَا ، كَانَتْ سِيَاسَةً دِينِيَّةً
تَأْتِيهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ . وَظَلِمَ أَنَّ
الْخَلْقَ لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِمْ دُنْيَاهُمْ فَقَطْ ، فَإِنَّهَا
كُلُّهَا عَيْتٌ وَتَاطِلٌ ، إِذْ غَابَتْهَا الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ وَاللَّهُ
يَقُولُ ، « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا » (٣) ، فَالْمَقْصُودُ
بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ دِينُهُمُ الْمُضْطَرِ بِهِمْ إِلَى السَّعَادَةِ فِي
آخِرَتِهِمْ « صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ » (٤) فَجَاءَتْ الشَّرَائِعُ بِحَمْلِهِمْ عَلَى
ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنْ عِبَادَةٍ وَمُعَامَلَةٍ حَتَّى
فِي الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ طَبِيعِيٌّ لِلْإِجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِي ،
فَأَجْرَتْهُ عَلَى مَنَاجِزِ الدِّينِ لِيَكُونَ الْكُلُّ مُنَوَّعًا
بِنَظَرِ الشَّارِحِ .

فَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى الْقَهْرِ وَالتَّغْلِبِ وَالْعَمَالِ

(١) الفتنة والإضطرابات .

(٢) من الآية رقم ٣٨ من سورة الأحزاب .

(٣) الآية : ١١٥ من سورة المؤمن .

(٤) الآية : ٣٢ من سورة الشورى .

(١) الآية : ٥٠ من سورة النور .

(٢) الآية : ٧ من سورة الفرق .

الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ ، فَاقْتَضَتْ ذَلِكَ وَاجْتِبَاهَهُ فِيمَا نُوهِدَهُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدِهِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه

وَأَذْ قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ هَذَا الْمَنْصِبِ وَأَنَّهُ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ سُمِّيَ خِلَافَةً وَإِمَامَةً . وَالْقَائِمُ بِهِ خَلِيفَةُ وَإِمَامُ [وَسَمَاءُ الشَّاعِرُونَ سُلْطَانًا حِينَ فُتِحَ التَّحَدُّدُ فِيهِ ، وَاضْطُرُّوا بِالنَّبَاغِدِ وَفُقْدَانِ شُرُوطِ الْمَنْصِبِ إِلَى عَقْدِ الْبَيْعَةِ لِكُلِّ مُتَغَلِّبٍ] (١) ، فَمَا تَسْمِيَتُهُ إِمَامًا فَتَشْبِيهَا بِإِمَامِ الصَّلَاةِ فِي اتِّبَاعِهِ وَالْإِقْدَاءِ بِهِ ، وَلِهَذَا يُقَالُ الْإِمَامَةُ الْكُبْرَى ، وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ خَلِيفَةً فَلِكُونِهِ يَخْلُفُ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ ، فَيُقَالُ : خَلِيفَةُ بِإِطْلَاقٍ ، وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ .

وَاخْتَلَفَ فِي تَسْمِيَتِهِ خَلِيفَةُ اللَّهِ ، فَلِإِجَازَةِ بَعْضِهِمْ اقْتِبَاسًا مِنَ الْجَلَاغَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي لِلْأَدَمِيِّينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (٢) ، وَقَوْلِهِ «جَعَلْتُكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ» (٣) وَمَنْعَ الْجُمْهُورِ مِنْهُ لِأَنَّهُ مَعْنَى الْآيَةِ لَيْسَ عَلَيْهِ .

وَقَدْ نَهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْهُ لَمَّا دَعِيَ بِهِ ، وَقَالَ : لَسْتُ خَلِيفَةَ اللَّهِ ، وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلِأَنَّ الْأَخْتِلَافَ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ الْعَالَمِيَّةِ ، وَأَمَّا الْخَائِصَرُ فَلَا .

ثُمَّ إِنَّ تَنْصِبَ الْإِمَامِ وَاجِبٌ قَدْ حُرِّثَ وَجُوبُهُ فِي الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ وَقَاتِهِ بَاتُوا إِلَى بَيْتِهِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَتَسْلِيمِ النَّظَرِ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ ، وَكَلَّمَا فِي كُلِّ عَصْرِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَكَمْ تَتَرَكَّى النَّاسُ فَوَضَى فِي عَصْرِ مِنَ الْأَعْصَارِ . وَاسْتَقَرَّ ذَلِكَ إِجْمَاعًا كَالْأَمْرِ عَلَى وَجُوبِ تَنْصِبِ الْإِمَامِ .

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّ مُدْرَكَهُ وَجُوبُهُ التَّكْلِ ، وَأَنَّ الْإِجْمَاعَ الَّذِي وَقَعَ إِنَّمَا هُوَ قَضَاءُ بِحُكْمِ التَّكْلِ فِيهِ . قَالُوا : وَإِنَّمَا وَجِبَ بِالتَّكْلِ لِبُصْرَةِ الْاجْتِمَاعِ لِلْبَشَرِ ، وَاسْتِحَالَةِ حَبَاتِهِمْ وَوُجُودِهِمْ مُتَفَرِّدِينَ ، وَمِنْ شُرُورِ الْاجْتِمَاعِ التَّنَازُعَ لِأَزْدِجَامِ الْأَغْرَاضِ ، فَمَا لَمْ يَكُنْ (١) الْعَامِيَّةُ الْوَارِثَةُ أَقْنَى ذَلِكَ إِلَى الْهَرَجِ الْمُؤَدِّي بِهَلَاكِ الْبَشَرِ وَانْقِطَاعِهِمْ ، مَعَ أَنَّ حِفْظَ النَّوعِ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرْعِ الْفَرُودِيَّةِ .

وَهَذَا الْمَعْنَى تَحْتَمِيهِ هُوَ الَّذِي لَحَظَّهُ الْحُكَمَاءُ فِي وَجُوبِ التُّبُوتِ فِي الْبَشَرِ ، وَقَدْ نَبَّهْنَا عَلَى فَسَادِهِ ، وَأَنَّ إِحْدَى مَقْدَمَاتِهِ أَنَّ الْوَارِثَ إِنَّمَا يَكُونُ بِشَرْعٍ مِنْ اللَّهِ تَسَلَّمَ لَهُ الْكَفَاةُ تَسْلِيمَ إِيْمَانٍ وَاعْتِقَادٍ ، وَهُوَ غَيْرُ مُسَلِّمٍ ، لِأَنَّ الْوَارِثَ قَدْ يَكُونُ سَطْوَةُ الْمُلْكِ وَقَهْرُ أَهْلِ الشُّوْكَهْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ شَرْعٌ ، كَمَا فِي أَهْلِ الْمُجُوسِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ لَيْسَ لَهُ كِتَابٌ أَوْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ . أَوْ نَقُولُ يَكْفِي فِي رَفْعِ التَّنَازُعِ مَعْرِفَةُ كُلِّ وَاحِدٍ بِتَحْرِيمِ الظُّلْمِ عَلَيْهِ بِحُكْمِ التَّكْلِ . فَادْعَاؤُهُمْ أَنَّ التَّنَازُعَ إِنَّمَا يَكُونُ بِوُجُودِ

(١) تاترد نسخة خلية من بين جميع النسخ هذه العبارة . التي اجتنبها بين المطبوعين نقلا عن مطبوعة د . وائل .
(٢) من الآية رقم ٣٠ من سورة البقرة .
(٣) من الآية رقم ١٦٥ من سورة الأنعام .

وَلَيْسَ مُرَادُهُ تَرْكُهُمَا بِالْكُلِّيَّةِ لِإِدْعَائِهِ الصَّرُورَةَ لِنَبَاهِ
وَأَمَّا الْمُرَادُ تَضَرُّفُهُمَا عَلَى مَقْتَضَى الْحَقِّ . وَقَدْ
كَانَ لِتَاوُدَ وَتِلْكَانَ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا
الْمُلْكُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لغيرِهِمَا ، وَهُمَا مِنْ أَنْبِيَاءِ
اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ حَقَّهُ .

ثُمَّ نَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ هَذَا الْفَرَارَ عَنْ الْمُلْكِ
يَعْلَمُ . وَجُوبِ هَذَا النَّصْبُ لَا يَغْنِيكُمْ شَيْئاً ،
لَأَنْكُمْ مُوَأَفِقُونَ عَلَى وَجوبِ إِقَامَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ،
وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالنَّصْبِ وَالشُّوْكَ ، وَالنَّصْبُ
مُقْتَضِيٌّ بِطَبْعِهِ لِلْمُلْكِ (١) ، فَيَحْصُلُ الْمُلْكُ وَإِنْ
لَمْ يُنْصَبْ إِمَامٌ ، وَهُوَ عَيْنُ مَا فَرَرْتُمْ عَنْهُ .

وَلِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ هَذَا النَّصْبَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ
فَهْرٍ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ ، وَرَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ أَكْثَرِ
الْعَدْلِ وَالْحَلِّ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ نَصْبُهُ . وَيَجِبُ عَلَى
الْخَلْقِ جَمِيعاً طَاعَتُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (٢) .

وَأَمَّا شُرُوطُ هَذَا النَّصْبِ فَهِيَ أَرْبَعَةٌ :

الْعِلْمُ ، وَالْمَدَانَةُ ، وَالْكَفَايَةُ ، وَسَلَامَةُ الْخَوَاصِّ
وَالْأَعْيَاضِ بِمَا يُؤَثِّرُ فِي الرَّأْيِ وَالْعَمَلِ ، وَاخْتِلَافُ
شَرْطِ خَاصِّسٍ وَهُوَ النَّسَبُ الْقُرْبِيُّ .

فَأَمَّا اشْتِرَاطُ الْعِلْمِ فَظَاهِرٌ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ
مُتَعَدِّلاً لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا كَانَ عَالِماً بِهَا وَمَا لَمْ
يَعْلَمْهَا لَا يَصِحُّ تَقْدِيمُهُ لَهَا . وَلَا يَخْفَى مِنَ الْعِلْمِ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِداً ، لِأَنَّ التَّقْلِيدَ نَقْصٌ .
وَأَمَّا الْمَدَانَةُ فَلِأَنَّهُ مُنْصَبٌ دِينِي يُنْظَرُ فِي سَائِرِ
الْمَنَاصِبِ الَّتِي هِيَ شَرْطُهَا ، فَكَانَ أَوْلَى بِاشْتِرَاطِهَا فِيهِ

الْشَّرْعُ هُنَاكَ وَنُصِبَ الْإِمَامُ . هُنَا فَيَرَّ صَحِيحٌ ،
بَلْ كَمَا يَكُونُ يُنْصَبُ الْإِمَامُ بِكَوْنِهِ بِوُجُودِ الرُّوَسَاءِ
أَكْثَرِ الشُّوْكَ ، أَوْ بِإِفْتِنَاعِ النَّاسِ عَنِ التَّنَازُعِ
وَالنِّظَالِ ، فَلَا يَنْهَضُ كَلِيلُهُمْ الْقَلْبُ الْمَبْنِيُّ عَلَى
هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ . قَدْ عَلِيَ أَنَّ مَذْرُوعَهُ وَجُوبَهُ إِنَّمَا هُوَ
بِالشَّرْعِ . وَهُوَ الْإِجْمَاعُ الَّذِي قَلْبُهُ .

وَقَدْ شَذَّ بَعْضُ النَّاسِ فَقَالَ بِعَلَمٍ وَجُوبِ هَذَا
النَّصْبِ رَأْسَالاً بِالْعَمَلِ وَلَا بِالشَّرْعِ ، وَبِهِمْ « الْأَصَمُّ » ،
مِنَ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَبَعْضُ الْغَوَاكِجِ ، وَهَبْرُهُمْ . وَالْوَاجِبُ
هِنْدَ هَوْلِهِ إِنَّمَا هُوَ إِقْفَالُ الْحُكْمِ بِالشَّرْعِ . فَإِذَا
قَوَّامَاتِ الْأُمَّةِ عَلَى الْمُلْكِ وَتَنْفِيدِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى
لَمْ يُخْجَعْ إِلَى إِمَامٍ ، وَلَا يَجِبُ نَصْبُهُ ، وَهَوْلَاهُ
مَعْجُورُونَ بِالْإِجْمَاعِ .

وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ إِنَّمَا هُوَ الْفَرَارُ
عَنِ الْمُلْكِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ الْإِسْطِلَالَةِ وَالْتَّخَلُّبِ وَالْإِسْتِمْنَاعِ
بِالدُّنْيَا لَمَّا رَأَوْا الشَّرِيعَةَ مُتَعَدِّلَةً بِذَلِكَ ، وَالنَّهْيَ
عَلَى أَهْلِهِ وَمُرَغَبَةً فِي رَفْضِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَذْمِ الْمُلْكَ لِذَاتِهِ وَلَا
حَظَرَ الْقِيَامَ بِهِ ، وَإِنَّمَا ذَمَّ الْمَغَايِدَ النَّاشِئَةَ عَنْهُ
مِنَ الْفَهْرِ وَالظُّلْمِ وَالْمُنْعَرِ بِالذَّلَاتِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ
فِي هَذِهِ مَغَايِدَ مَحْظُورَةَ وَهِيَ مِنْ تَوَابِعِهِ ، كَمَا أَتَى
عَلَى الْمَدْلِ وَالنَّصْفَةِ وَإِقَامَةِ مَرَامِهِ الدِّينِيِّ وَالنَّبِيِّ (١)
عَنْهُ ، وَاجِبٌ بِإِذْنِهَا التَّوَابُ وَهِيَ كُلُّهَا مِنْ
تَوَابِعِ الْمُلْكِ . فَإِذَا إِنَّمَا وَقَعَ اللَّتْمُ لِلْمُلْكِ عَلَى صِفَةِ
وَحَالِ دُونَ حَالِ أُخْرَى ، وَكَمْ يَتَعَمَّقُ لِذَاتِهِ وَلَا طَلَبَ
تَرْكُهُ ، كَمَا ذَمَّ الشُّهُورَةَ وَالنَّصْبَ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ ،

(١) انظر الفصل السابع عشر من الباب الثاني وعشرون .
(٢) فصل في أن التاية التي تجري إليها الصبية هي الملك .
(٣) من الآية ٥٩ من سورة النساء .

يَدَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَيَنْقَعُ طَلْعُهُ حَتَّى يَنْقُذَ بَنِي
الْخَلِيفَةِ .

وَأَمَّا النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ ، فَلَمْ يَجْمَعْ الصَّحَابَةُ يَوْمَ
السَّيْفَةِ (١) عَلَى ذَلِكَ ، وَاحْتَجَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ
- لَمَّا هَمُّوا بِوَيْثِلِ بَيْتَةِ مَعْدٍ بِنِ عِبَادَةَ ، وَقَالُوا : بَيْنَا
أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ - يَقُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« الْأَلَمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ » ، وَيَذَنُّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : أَوْصَانًا بِأَنْ تُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ ، وَتُتَجَاوَزَ
عَنْ مُسِيئَتِكُمْ ، وَلَوْ كَانَتْ الْإِمَارَةُ فِيكُمْ لَمْ تَكُنْ
الْوَصِيَّةُ بِكُمْ ، فَحَجُّوا الْأَنْصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ
مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ ، وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا هَمُّوا بِهِ مِنْ
بَيْعَةِ مَعْدٍ لِنَذَلِكَ . وَتَبَّتْ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ :
« لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ » . وَأَشْأَلُ
هَلِيهِ الْأَدِلَّةَ كَبِيرَةً .

إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ قُرَيْشٍ ، وَتَلَاثَتْ عَصَبَتُهُمْ
بِمَنَاتِلِهِمْ مِنَ التَّرَفِّ وَالنَّجْمِ ، وَبِمَا أَنْفَقَتْهُمْ
الدَّوْلَةُ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، عَجَزُوا بِذَلِكَ عَنْ
حَمْلِ الْخِلَافَةِ ، وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعَاجِمُ ، وَصَارَ
الْحُلُّ وَالْعَقْدُ لَهُمْ ، فَاشْتَبَهَ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ
الْمُحَقِّقِينَ ، حَتَّى دَفَعُوا إِلَى نَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَيْشِيَّةِ ،
وَعَوَّلُوا عَلَى ضَوَاهِرِ فِي ذَلِكَ بِشَلِّ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ وَلَّى عَلَيْكُمْ عَبْدٌ
حَبَشِيٌّ فَوَزِييْتُهُ » ، وَهَذَا لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ فِي ذَلِكَ ،
فَلِأَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّشْيِيلِ وَالْفَرَضِ لِلْمَنَائِلَةِ فِي
إِحْبَابِ الشُّعْرِ وَالطَّاعَةِ ، وَيَشَلُّ قَوْلُهُ عَمَرٌ : « لَوْ كَانَ
سَالِمٌ مَوَالِي أَبِي حُلَيْفَةَ حَيًّا لَوَلَّيْتُهُ ، وَلَوْ كَانَتْ
فِيهِ الْفَنَّةُ » ، وَهُوَ أَيْضًا لَا يَبْهِي ذَلِكَ لِمَا عَلِمْتَ أَنَّ

وَلَا خِلَافَ فِي انْتِفَآهِ الْعَدَالَةِ فِيهِ بِفَيْسِقِ الْجَوَارِحِ ،
مِنْ لَوْغَابِ الْمَخْطُورَاتِ وَأَشْنَالِهَا . وَفِي انْتِفَآلِهَا
بِالْبَذْرِ الْإِعْقَابِيَّةِ خِلَافٌ .

وَأَمَّا الْكِفَايَةُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ جَرِيئًا عَلَى إِقَامَةِ
الْحُدُودِ وَاتِّحَامِ الْحُرُوبِ بِصِيرٍ بِهَا ، كَفِيلًا
بِحِيلِ النَّاسِ عَلَيْهَا ، عَاقِمًا بِالْعَصِيَّةِ وَأَحْوَالِ
الدَّعَاءِ قَوِيًّا عَلَى مُتَابَعَةِ السِّيَاسَةِ لِصَحِّحِ لَهُ بِذَلِكَ
مَا جُبِلَ لِنَبِيِّهِ مِنْ حَيَاةِ الدِّينِ وَجَهَادِ الْمَوْتِ ، وَإِقَامَةِ
الْأَحْكَامِ ، وَتَشْدِيدِ الْمَصَالِحِ .

وَأَمَّا سَلَامَةُ الْحَوَاسِ وَالْأَعْضَاءِ مِنَ النُّفُوسِ
وَالْعُقُلِ كَالْجُنُونِ وَالْعَمَى وَالصَّمَمِ وَالْخَرَسِ ، وَمَا
يُؤْتِرُ فَقْدَهُ مِنَ الْأَعْضَاءِ فِي الْعَمَلِ ، كَقَفْدِ الْيَدَيْنِ
وَالرُّجُلَيْنِ وَالْأَنْفِ (١) ، فَتَشْتَرُطُ السَّلَامَةُ مِنْهَا
كُلُّهَا لِتَأْتِيَرِ ذَلِكَ فِي تَكَامُلِ عَمَلِهِ وَقِيَامِهِ بِمَا
يَسَاجِلُ إِلَيْهِ . وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يَشِيْبُ فِي الْمَنْظَرِ
فَقَفْدُ كَقَفْدِ إِيحْدَى هَذِهِ الْأَعْضَاءِ فَتَشَرُطُ السَّلَامَةُ
مِنْهُ شَرْطًا كَمَالًا .

وَيُلْحَقُ بِفَقْدِ الْأَعْضَاءِ الْمَنْعُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَهُوَ
ضَرْبَانِ : ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهِ فِي اشْتِرَاطِ السَّلَامَةِ
مِنْهُ شَرْطًا ، وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْمُجْزَعُ مِنَ التَّصَرُّفِ جُمْلَةً
بِالْأَسْرِ وَشَبْهِهِ ، وَضَرْبٌ لَا يُلْحَقُ بِهِ فِي
الْحَجَرِ بِاشْتِيََاءِ بَعْضِ أَهْوَايِهِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَصِيَانِ
وَلَا مُضَاقَةٍ (٢) ، فَيَنْقُضُ النَّظَرَ فِي حَالِهِ هَذَا الْمُسْتَوَى ،
فَلِإِنْ جَرَى عَلَى حُكْمِ الدِّينِ وَالْعَدْلِ وَحَبِيدِ السِّيَاسَةِ
جَازَ قَرَارُهُ ، وَإِلَّا اسْتَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ وَمَنْ يَقْبِضُ

(١) الْخَصَانِ .

(٢) وَلَا خَالَفَةَ .

(١) حَقِيقَةُ بِنِ سَاعِدَةَ إِلَى بَوَاحِ لَهَا اِبْرَاهِيمَ .

وَحِكْمُ تَفْشِيلِ عَلَيَّهَا، وَتَفْشِيرُ لَأَجْلِهِ ١. وَنَحْنُ إِذَا بَحَثْنَا عَنِ الْحِكْمَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ الْقُرْبَى وَمَقْصِدِ الشَّارِعِ مِنْهُ، لَمْ يَتَصَرَّ فِيهِ عَلَى التَّبَرُّكِ بِوَسْطَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا هُوَ فِي الْمَشْهُورِ، وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْوَسْلَةُ مُوجِبَةً لِلتَّبَرُّكِ بِهَا حَاصِلًا، لَكِنَّ التَّبَرُّكَ لَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ كَمَا عَلِمْتُ، فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ التَّصْلَحَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ بِوَحْيِ الْمَقْصُودَةِ مِنْ تَفْشِيرِهَا. وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا أَلَمْ نَجِدْهَا إِلَّا اخْتِبَارَ النَّسَبِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْحِمَاةُ وَالْمُطَالَبَةُ، وَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَالْفَرْقَةُ بِوُجُودِهَا لِصَاحِبِ النَّسَبِ، فَتَصْنُحُ إِلَيْهِ الْمِلَّةُ وَأَهْلُهَا، وَتَنْتَظِمُ حَتْلُ الْأَقْلَةِ فِيهَا.

وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا عَصِيَّةَ مُضَرَ وَأَصْلَهُمْ وَأَهْلُ الْقَلْبِ مِنْهُمْ، وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرَ الْبِرَّةُ بِالْكَثَرَةِ وَالْعَصِيَّةُ وَالشَّرَفُ، فَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَعْرِفُ لَهُمْ بِمِلِكٍ، وَيَسْتَكْبِنُونَ لِعَظِيمِهِمْ، فَلَوْ جِئِلَ الْأَمْرُ فِي سِوَاهُمْ لَتَوَقَّعَ افْتِرَاقُ الْكَلِمَةِ بِمُخَالَفَتِهِمْ وَعَدَمِ انْقِيَادِهِمْ، وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قِبَالِ مُضَرَ أَنْ يَرْدُّهُمْ عَنِ الْخِلَافِ، وَلَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْكُرْهِ، فَتَتَفَرَّقُ الْجَمَاعَةُ وَتُخْتَلِفُ الْكَلِمَةُ، وَالشَّارِعُ مُحْتَزٌّ مِنْ ذَلِكَ، حَرِيصٌ عَلَى اتِّفَاقِهِمْ، وَدَفْعِ التَّنَازُعِ وَالشُّقَاقِ بَيْنَهُمْ لِيَتَحَصَّلَ لِلْحِمَاةِ وَالْعَصِيَّةِ، وَتَحْسُنَ الْحِمَاةُ. بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ، لِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى سَوَاقِ النَّاسِ بِحُصَا الْقَلْبِ إِلَى مَا يَرَادُ مِنْهُمْ، فَلَا يُخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ خِلَافِ عَلَيْهِمْ وَلَا فَرْقَةٍ، لِأَنَّهُمْ كَهَيْلُونَ حَيْثُ دَبَّقَهَا وَمَنَعَ النَّاسَ مِنْهَا، فَاشْتَرَطَ نَسَبَهُمْ

(١) فَمِ أَمْرُهُ : قَدْرُهُ • أَيِ إِذَا نَظَرْنَا وَبَحَثْنَا .

مَقْدَبَ الصَّحَابِيِّ لِيَتَنَبَّهَ بِحِكْمَةٍ، وَأَيْضًا قَوْلُ اللَّهِ وَهُمْ، وَعَصِيَّةُ الْوَلَاءِ حَاصِلَةٌ لِسَالِمٍ فِي قُرَيْشٍ، وَبِهَا الْقَائِلَةُ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ. وَلَكِنْ اسْتَعْظَمَ عَمْرُ أَمْرَ الْخِلَافَةِ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَاتِبًا مَقْصُودَةً فِي ظَنِّهِ حَلَّتْ إِلَى سَالِمٍ، لَتَوْقُرُ شُرُوطُ الْخِلَافَةِ عَنْهُ فِيهِ، حَتَّى مِنْ النَّسَبِ الْمُنْهَدِ لِلْعَصِيَّةِ كَمَا نَذَكُرُ، وَلَكِنْ يَبْقَى إِلَّا صِرَاحَةُ النَّسَبِ قَرَأَهُ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ، إِذِ الْقَائِلَةُ فِي النَّسَبِ إِنَّمَا هِيَ النَّسَبِيَّةُ، وَبِهَا حَاصِلَةُ مِنَ الْوَلَاءِ فَكَانَ ذَلِكَ جَرْمًا مِنْ عَمْرٍ وَصِيٍّ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيدِ أَمْرِهِمْ لِيَنْتَلِجَهُ فِيهِ لَاجِمَةً، وَلَا عَلَيْهِ فِيهِ عَهْدَةٌ.

وَمِنَ الْقَائِلِينَ بِنَهْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَيْشِيِّ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ، لَمَّا أَذْرَكَ مَا عَلَيْهِ عَصِيَّةُ قُرَيْشٍ مِنَ التَّلَاقِي وَالْاضْمِحْلَالِ وَاشْتِدَادِ مَلُوكِ الْعَجَمِ عَلَى الْخُلَفَاءِ، فَاسْتَعْظَمَ شَرْطَ الْقُرَيْشِيِّ، وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِرَأْيِ الْخَوَارِجِ، لَمَّا رَأَى عَلَيْهِ حَالِ الْخُلَفَاءِ لِعَهْدِهِ. وَبَقِيَ الْجُمْهُورُ عَلَى الْقَوْلِ بِاشْتِرَاطِهَا وَصَحِيحَةِ الْإِمَامَةِ لِلْقُرَيْشِيِّ وَلَوْ كَانَ عَاجِزٌ عَنِ الْقِيَامِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ سَقُوطَ شَرْطِ الْكِفَايَةِ (١) الَّتِي يَقْرَأُ بِهَا عَلَى أَمْرِهِ، لِأَنَّهُ إِذَا دَخَلَتْ الشُّوْكَ بِذَهَابِ الْعَصِيَّةِ فَقَدْ دَخَلَتْ الْكِفَايَةُ، وَإِذَا وَقَعَ الْإِخْلَالُ بِشَرْطِ الْكِفَايَةِ تَطَرَّقَ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى الْعِلْمِ وَاللِّبَنِ وَسَقَطَ اخْتِبَارُ شُرُوطِهِ هَذَا الْمُنْهَدِ وَهُوَ خِلَافُ الْجَمَاعَةِ.

وَلِنَتَكَلَّمَ الْآنَ فِي حِكْمَةِ اشْتِرَاطِ النَّسَبِ لِيَتَحَقَّقَ بِهِ الصُّوَابُ فِي هَلِوِ الْمَلَابِيقِ فَتَقُولُ : إِنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا، لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَقَاصِدِ

(١) أَيِ مَعْنَى اشْتِرَاطِ الْقُرَيْشِيَّةِ، وَإِعْلَانِ مَا عَدهَا مِنْ شُرُوطٍ .

وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا،
لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام
بأمر عباده ليحكمهم على مصالحهم ويبرهم عن
مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر
إلا من له قدرة عليه. ألا ترى ما ذكره الإمام ابن
الخطيب (١) في شأن النساء وأنهن في كثير
من الأحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم ينعطن
في الخطاب بالوضع وإنما دخلن عنده بالقياس
وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال
قوامين عليهن، اللهم إلا في العبادات التي كل
أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع
لا بالقياس. ثم إن الوجود شاهد بذلك فإنه لا يقوم
بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهن، وقيل أن
يكون الأم الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي والله
تعالى أعلم.

الفصل السابع والعشرون

في ملهات الشيعة في حكم الإمامة

أعلم أن الشيعة لغة، هم الصحب والأتباع،
ويطلق في عرف الفقهاء والمؤلفين (٢) من
الخطب والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله
عنهم، ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة
ليست من المصالح العامة التي نفوس إلى نظو
الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن
الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لبني إغفالها
ولا تفويضها إلى الأمة. بل يجب عليه تعيين

الفرشي في مله التنصيب وهم أهل النصبة القوية
ليكون أبداً في انضمام اليلة وانفاي الكلمة،
وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة
مصر أجمع، فأدع لهم سائر العرب، وانقادت
الأمة يومهم إلى أحكام اليلة، ووطئت جنودهم
قاصية البلاد، كما وقع في أيام الفتوحات
واستمر بعلما في الدولتين إلى أن اضمحل أمر
الخلافة وتلاشت عصية العرب.

وتعلم ما كان لفرش من الكثرة والتطبل على
بطون مصر من مآس أختار العرب ويسيرهم
وتعطن بذلك في أحوالهم. وقد ذكر ذلك ابن
إسحاق في كتاب السير وغيره. فإذا ثبت أن
اشراط الفرشي إنما هو بدع التنارع بما كان
لهم من النصبة واللقب، وعلمنا أن الشرع لا
يخص الأحكام بجبل ولا عصر ولا أمة، علمنا
أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها بوطر دنا (١)
اليلة المشتبهة على المقصود من الفرشي وهي
وجود النصبة، فاشتراطنا في القائم بأمر
المسلمين أن يكون من قوم أولي غصبة قوية
غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من يومهم
وتخضع الكلمة على حسن الجمالية. ولا يعلم
ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في الفرشي،
إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة،
وعصية العرب كانت واقية بها فظلبوا سائر الأمم.
ولأنما يخص لهذا العهد كل قطر ومن تكون له
فيه النصبة القالبة.

(١) ملق الحويين بقوله: الإمام ابن الخطيب هو الفخر الرازي.

(٢) علماء التوحيد.

(١) عسما وجعلها مطردة.

أخرى . وعلو كلُّها أدلةٌ شاهدةٌ بتعيينٍ عليٍّ للخِلافةِ دونَ غيره . فَمِنْهَا مَا هُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ وَمِنْهَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلِهِمْ .

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى تَعْيِينِ عَلِيٍّ وَتَشْخِصِهِ ، وَكَذَلِكَ تَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْإِمَامِيَّةُ ، وَيَتَّبِعُونَ مِنْ الشَّيْخَيْنِ (١) حَيْثُ لَمْ يَقْدِمُوا عَلِيًّا وَيَبَايَعُوهُ بِمُقْتَضَى هَذِهِ النُّصُوصِ ، وَيَقْصُرُونَ (٢) فِي إِمَانَتَيْهَا . وَلَا يَلْتَقِفُ إِلَى نَقْلِ الْقَدَحِ فِيهِمَا مِنْ غَلَاتِهِمَا ، فَهُوَ مَرْدُودٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ الْأَدِلَّةَ إِنَّمَا اقْتَضَتْ تَعْيِينَ عَلِيٍّ بِالْوُصْفِ لَا بِالشَّخْصِ . وَالنَّاسُ مُقْصَرُونَ حَيْثُ لَمْ يَضْمُوا الْوُصْفَ مُوضِعَهُ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الزُّنُودِيَّةُ ، وَلَا يَتَّبِعُونَ مِنَ الشَّيْخَيْنِ وَلَا يَغْضُونَ فِي إِمَانَتَيْهِمَا مَعَ قَوْلِهِمْ بِأَنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهُمَا لَكِنَّهُمْ يَجُوزُونَ إِمَامَةَ الْمُقْصُولِ مَعَ جُودِ الْأَفْضَلِ .

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ تَقْوِيلُ هَؤُلَاءِ الشَّيْعَةِ فِي سَاقِي الْخِلَافَةِ بَعْدَ عَلِيٍّ : فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَاهَا فِي وَلَدِ قَاطِمَةَ بِالنَّصِّ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى مَا يُذَكَّرُ بَعْدَ ، وَهَؤُلَاءِ يُسَمُّونَ الْإِمَامِيَّةَ ، نِسْبَةً إِلَى مَقَالَتِهِمْ بِاشْتِرَاطِ ، مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ وَتَعْيِينِهِ فِي الْإِيمَانِ ، وَهِيَ أَصْلُ عِنْدَهُمْ .

وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَاهَا فِي وَلَدِ قَاطِمَةَ ، لَكِنْ بِالِاخْتِيَارِ مَعَ الشُّبُوحِ ، وَبِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مِنْهُمْ عَالِمًا زَاهِدًا جَوَادًا شَجَاعًا وَيَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَى إِمَامَتِهِ ،

الْإِمَامُ لَهُمْ ، وَيَكُونُ مَعْصُومًا مِنَ الْكِبَايَرِ وَالصَّغَائِرِ ، وَإِنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الَّذِي عَيَّنَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، بِنُصُوصٍ يَنْقُلُونَهَا وَيُؤَوَّلُونَهَا عَلَى مُقْتَضَى مَذْهَبِهِمْ ، لَا يَعْرِفُهَا جَهَالَةُ السَّنَةِ وَلَا نَقْلَةُ الشَّرِيعَةِ ، بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ ، أَوْ مَطْعُونٌ فِي طَرِيقِهِ أَوْ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلَاتِهِمْ الْقَائِمَةِ . وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ النُّصُوصُ جَنْدَهُمْ إِلَى جَنِيٍّ وَخَفِيٍّ :

فَالْجَنِيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَقُلْ مَوْلَاهُ » قَالُوا : وَلَمْ تَعْرَضْ هَذِهِ الْوَلَايَةَ إِلَّا لِي عَلِيٍّ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُمَرُ : « أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَمِنْهَا قَوْلُهُ : « أَفْعَاكُمُ عَلِيٌّ » . وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا الْقَضَاءُ بِحُكَامِ اللَّهِ ، وَهُوَ الْمَرَادُ بِأَوَّلِ الْأَمْرِ الْوَاجِبِ طَاعَتُهُمْ بِقَوْلِهِ : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوَّلِ الْأَمْرِ مِنْكُمْ (١) » ، وَلِهَذَا كَانَ حُكْمًا فِي قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّيْفَةِ ، دُونَ غَيْرِهِ . وَمِنْهَا قَوْلُهُ : « مَنْ يَبَايِعُنِي عَلَى رُوحِهِ ، وَهُوَ وَصِيٌّ وَوَلِيٌّ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي » فَلَمْ يَبَايَعَهُ إِلَّا عَلِيٌّ .

وَمِنَ الْخَفِيِّ جَنْدُهُمْ : بَيْعُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا لِقِرَاءَةِ سُورَةِ « بَرَاءَةِ » فِي الْمَوْمِرِ حِينَ أُنْزِلَتْ ، فَإِنَّهُ بَيْعٌ بِهَا أَوَّلًا أَنْبَاكَرُ ، ثُمَّ أَوْجَى لِأَنَّهُ لِيُثَبِّتَهُ رَجُلٌ مِنْكَ ، أَوْ مِنْ قَوْمِكَ ، قَبِيتَ عَلِيًّا ، لِيَكُونَ الْقَادِرِيُّ الْمُبْلَغُ . قَالُوا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيمِ عَلِيٍّ . وَأَيْضًا فَلَمْ يُعْرَفْ أَنَّهُ قَدِمَ أَحَدًا عَلَى عَلِيٍّ . وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَدِمَا عَلَيْهِمَا فِي خَزَائِنِ (٢) أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ مَرَّةً ، وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ

(١) الآية رقم : ٥٩ من سورة التوبة .

(٢) مذكرا في جميع النسخ : وصوابه غزوتين لم يقرأ التين من غير .

(١) المقصود هنا أبو بكر وعمر ، وتلقا أسامتا على البشارى مسلم .

(٢) يعينونها ولا يحدفون بها .

وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب السَّلَيب، وهو زيد بن علي بن الحسين السَّعْدِي السَّعْدِي، وقد كَانَ يُنَاطِرُ أَعْمَاءَ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ عَلَى اشْتِرَاطِ الْخُرُوجِ فِي الْإِمَامِ قِيلَ لَزَيْدٍ الْبَاقِرُ أَنْ لَا يَكُونَ أَبُوهُمَا زَيْنَ الْعَابِدِينَ (١) إِمَامًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا تَرَعَّضْ لِلْخُرُوجِ. وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَنْتَقِي عَلَيْهِ مَذَاهِبَ الْمُخَازِلَةِ، وَأَخْلَعَ لِيَامَا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَظَاوٍ، وَلَكِنَّا نَظَرْنَا الْإِمَامِيَّةَ زَيْنًا فِي إِمَامَةِ الشَّيْخَيْنِ، وَرَأَوْهُ يَقُولُ بِلِإِمَامَتِهِمَا وَلَا يَتَّبِعُهُمَا مِنْهُمَا رَفُوضُهُ، وَلَكِنْ يَجْعَلُهُ مِنَ الْأَلِيَّةِ، وَيَلْبِسُ سُمُورًا رَافِضَةً.

وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلِيٍّ وَابْنَيْهِ السَّبْعَيْنِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَى أَسْبَهِمَا، مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ، ثُمَّ إِلَى وَلَدِهِ، وَهُمْ الْكَيْسَانِيَّةُ، نِسْبَةً إِلَى كَيْسَانَ مَوْلَاهُ. وَبَيْنَ هَلِهِ أَعْلَافُ اخْتِلَافَاتٍ كَثِيرَةٌ تَرَكْنَاهَا اخْتِصَارًا. وَمِنْهُمْ سَوَالِفُ يُسَمُّونَ الثَّلَاةَ، تَجَاوَزُوا حَدَّ السُّلُوكِ وَالْإِيمَانِ فِي الْقَوْلِ بِأَلُوهِةِ هَؤُلَاءِ الْأَلِيَّةِ: إِمَّا عَلَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ اتَّصَفُوا بِصِفَاتِ الْأَلُوهِةِ أَوْ أَنَّ الْإِلَهَ حَلَّ فِي ذَاتِهِ الْبَشَرِيَّةِ، وَهُوَ قَوْلُ السُّلُوكِ بِوَاقِفٍ مَذْهَبِ النَّصَارَى فِي عِيْسَى، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَقَدْ حَرَّقَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ، مَنْ قَعَبَ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَسَخَطَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ لَمَّا بَلَغَهُ يَثْلُ ذَلِكَ عَنْهُ فَصَرَّحَ بِلَعْنَتِهِ وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ قَتَلَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِحَنِّ بَلَغَهُ يَثْلُ هَذَا عَنْهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ كَمَالَ الْإِمَامِ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ، فَإِنَّمَا مَاتَ انْتَقَلَتْ رُوحُهُ إِلَى إِمَامٍ آخَرَ لِيَكُونَ بِهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ وَهُوَ قَوْلُ بَاتِنِاسُخِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ الْأَلِيَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا الْحَقُّ أَرِيَّةٌ سَوَاءٌ عَلَى وَالثَّلَاثَةِ مِنْ بَنِيهِ هُمُ الْأَسْبَاطُ لَا يَسِيْرُ بِهِمْ حِفَاهُ قَيْسُطٌ سَيْطٌ لِيَمَانٍ وَبَرٌّ وَسَيْطٌ غَيْبَتُهُ كَسْرِيَّةٌ (٢) وَسَيْطٌ لَا يَلْبِقُو التَّوْتُ حَتَّى يَلْبُدَ الْجَيْشُ بِقُلْعَتِهِ الْوَلَاءِ (٣) تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عَنْدَهُ عَسَلٌ وَنَاءٌ وَقَالَ يَثْلُهُ ثَلَاةُ الْإِمَامِيَّةِ، وَخُصُوصًا الْإِنْتِخَافِيَّةُ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ أَلِيَّتِهِمْ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمُسْكِرِيِّ - وَيَلْقَبُونَهُ الْمُهْدَى - دَخَلَ فِي سِرْدَابٍ بِدَارِهِمْ فِي الْحِلَّةِ (٤) وَتَغَيَّبَ حِينَ اخْتَقَلَ مَعَ أُمِّهِ وَغَابَ هُنَالِكَ، وَهُوَ يَخْرُجُ آخِرَ

(١) رويت القصة في القرآن الكريم في سورة الكهف .
(٢) الأول الحسن . والثاني الحسين ثم كبرياء رضى الله عنهما .
(٣) هو محمد بن الحنفية بن علي رضى الله عنهما .
(٤) اسم بلد قرقه بغداد .

(١) علي زين العابدين بن الحسين السبط وهو أبو زيد وعبد القادر .

أَيْنَ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينٌ حَقٌّ
وَمَا أَنَا فِي النُّشُورِ بِلَدِي أَوْتِيَابِ
كَذَلِكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنْ أَنَانِيسَ
حَيًّا مِنْ بَعْدِ قَرَسٍ فِي الثَّرَابِ
وَقَدْ كَفَّانَا مَوُونَةَ هَوْلَاءِ الثَّلَاةِ أَيْمَةَ الشَّيْعَةِ ، فَإِنَّهُمْ
لَا يَقُولُونَ بِهَا ، وَيُطْلُونَ احْتِجَابَاتِهِمْ عَلَيْهَا .
وَأَمَّا الْكَيْسَانِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدٍ
ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ إِلَى ابْنِهِ أَبِي هَالِشِمٍ وَهَوْلَاءُ هُمُ
الْهَالِشِيَّةُ . ثُمَّ افْتَرَقُوا : فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بِعَلَّةٍ
إِلَى أَخِيهِ عَلِيِّ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ ابْنِ عَلِيٍّ ، وَآخَرُونَ
يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَالِشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ السَّرَّافِ
مُنْصَرِفًا مِنَ الشَّامِ ، أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ إِلَى ابْنَيْ إِسْرَافِيلَ
الْمَعْرُوفِ بِالْإِمَامِ ، وَأَوْصَى إِسْرَافِيلُ إِلَى أَخِيهِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِيِّ الْمَلُوكِ بِالسَّفَاحِ ، وَأَوْصَى
هُوَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَنْفَرٍ الْمَلُوكِ بِالْمَنْصُورِ ،
وَانْتَقَلَتْ فِي وَلَدِهِ بِالنَّصِّ وَالْعَهْدِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ
إِلَى آخِرِهِمْ ، وَهَذَا مَلَكُ الْهَالِشِيَّةِ الْقَائِمِينَ
بِدَوْلَةِ بَنِي الْمُبَاسِ ، وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو مُسْلِمٍ (١)
وَسُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ ، وَأَبُو سَلَمَةَ الْخَلَّالُ وَغَيْرُهُمْ ،
مِنْ نَسَبَةِ الْمُبَاسِيَّةِ ، وَبُرُومًا يَنْصُدُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ حَقَّهُمْ
فِي هَذَا الْأَمْرِ يَجِبُ لِنِسَبِهِمْ مِنَ الْمُبَاسِ ، لِأَنَّهُ كَانَ
حَيًّا وَقَتَ الْوَفَاةِ ، وَهُوَ أَوْلَى بِالْوَرَاثَةِ بِعَصْبِيَّةِ الْمُؤْمَرِ .
وَأَمَّا الزَيْدِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ عَلَى مَلَكِهِمْ فِيهَا ،
وَأَنَّهُ بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، لَا بِالنَّصِّ .

الزَّيْنَانِ قِيمَتُهُ الْأَرْضُ عَدْلًا ، يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى
الْحَدِيثِ الْوَاقِعِ فِي كِتَابِ الْقُرْمَنِيِّ فِي الْمَهْدِيِّ ،
وَهُمْ إِلَى الْآنَ يَنْتَظِرُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ الْمُنْتَظَرِ لِلذِّكْرِ ،
وَيَقِفُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِبَابِ هَذَا
السَّرْدَابِ ، وَقَدْ قَلَمُوا مَرَكِبًا فَيَهْتَفُونَ بِاسْمِهِ ،
وَيَدْعُونَهُ لِلْخُرُوجِ حَتَّى تَفْتَبِكَ النُّجُومُ ، ثُمَّ
يَتَفَضَّلُونَ وَيُزْجُونَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّيْلِ الْآتِيَةِ ، وَهُمْ
حَتَّى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ .

وَبَعْضُ هَوْلَاءِ الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ : إِنَّ الْأَمَامَ
الَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ الدُّنْيَا ، وَيَسْتَفْهِدُونَ
لِلذِّكْرِ بِمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ
الْكُهْفِ ، وَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ (١) ، وَقَبِيلِ بَنِي إِسْرَافِيلَ
حِينَ ضُرِبَ بِعِطَافِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَمْرُوا بِتَلْبَسِهَا .
وَمِنَ ذَلِكَ مِنَ الْمُخَارِقِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى طَرِيقِ
الْمُعْجِزَةِ ، وَلَا يَصِحُّ الْأَسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ،
وَكَانَ مِنْ هَوْلَاءِ السَّيِّدِ الْجَمِيرِيِّ ، وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ذَلِكَ :

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَدَالٌ (٢)

وَعَلَّلَهُ الْمَوَاضِطُ (٣) بِالْخَضَابِ

فَقَدْ دَخَلَتْ بَشَانَتُهُ وَأَوْدَى

فَقَمَّ بِأَصَاحِ نَبِكَ عَلَى الشَّيَابِ

إِلَى يَوْمٍ تَنْوِبُ النَّاسُ فِيهِ

إِلَى دُنْيَاهُمْ قَبْلَ الْحَسَابِ

فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ

إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْإِتْيَابِ

(١) القصة المذكورة في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة .

(٢) جماع طوخر الرأس .

(٣) جمع ما شطه وهي التي ترحل الشعر وتعلمه .

(١) الخراساني من أصحاب الفضل الأكبر في قيام الدولة العباسية .

(٢) ينعون دأبهم .

إِلَى أَنْ انْفَرَسُوا كَمَا نَذَرُوا فِي أَخْبَارِهِمْ. وَبَيَّنَّ
أَمْرَ الزَيْدِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ. وَكَانَ مِنْهُمْ
الدَّاعِي الَّذِي مَلَكَ طَبَرِ شَانٍ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدِ
ابْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ
عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السُّبُطِيِّ، وَأَخُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ.
ثُمَّ قَامَ بِهِلُو الدُّعْوَةِ فِي الدَّبْلَمِ، النَّاصِرُ الْأَطْرُوشُ
مِنْهُمْ، وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدَيْهِ، وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ
ابْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَمَرَ، وَعَمَرُ أَخُو زَيْدِ بْنِ
عَلِيٍّ فَكَانَتْ لِبَنِيهِ بَعْلَبَرِ سَنَاقُوتُهُ، وَتَوَصَّلَ الدَّبْلَمُ
مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى الْمُلْكِ وَالْإِسْتِبدَادِ عَلَى الْخُلَفَاءِ
يَنْفَقَادُ، كَمَا نَذَرُوا فِي أَخْبَارِهِمْ.

وَأَمَّا الْإِمَامِيَّةُ: فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيٍّ الرُّضِيِّ (١)
إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بِالْوَصِيَّةِ، ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ الْحُسَيْنِ،
ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدٍ
الْبَاقِرِ، ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَمِنْ هُنَا
افْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةً سَاقُوا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ يَتَرَفُونَهُ
بَيْنَهُمْ بِالْإِمَامِ، وَهُمْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ؛ وَفِرْقَةً سَاقُوا
إِلَى ابْنِهِ مُوسَى الْكَاطِبِ، وَهُمْ الْإِثْنَا عَشَرِيَّةُ لَوْفُوهُمْ
عِنْدَ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْأَئِمَّةِ، وَقَوْلُهُمْ يَنْتَبِئُونَ إِلَى
آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا مَرَّ.

فَلَمَّا الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ: فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ
بِالنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ، وَقَائِلَةُ النَّصِّ عَلَيْهِ جِنْدَهُمْ
وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ، إِذَا هُوَ بَقَاءُ الْإِمَامَةِ
فِي حَقِّهِ، كَحَقِّهِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِمَا، قَالُوا: ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ
إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْمُكْتُمِ، وَهُوَ أَوَّلُ الْأَئِمَّةِ
الْمُسْتَوْرِينَ، لِأَنَّ الْإِمَامَ جِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ

فَقَالُوا بِإِمَامَةِ عَلِيٍّ، ثُمَّ ابْنِهِ الْحَسَنِ ثُمَّ أَخِيهِ
الْحُسَيْنِ ثُمَّ ابْنِهِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ، وَهُوَ صَاحِبُ هَذَا
الْمَلَكَبِ، وَخَرَجَ بِالْكُوفَةِ دَاعِيًا إِلَى الْإِمَامَةِ فَقُتِلَ،
وَصُلِبَ بِالْكُفَاةِ (١) وَقَالَ الزَيْدِيَّةُ بِإِمَامَةِ ابْنِهِ
يَحْيَى مِنْ بَعْلِهِ، فَصَحَّى إِلَى خُرَاسَانَ وَقَتْلَ بِالْجَوَزْجَانِ
بَعْدَ أَنْ أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ
الْحَسَنِ السُّبُطِيِّ، وَيُقَالُ لَهُ: النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ، فَخَرَجَ
بِالْعِجَازِ، وَتَلَقَّبَ بِالْمُهْدِيِّ، وَجَاعَتْهُ عَسَاكِرُ
الْمَنْصُورِ، فَقُتِلَ وَهَبَهُ إِلَى أَخِيهِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَامَ
بِالْبَصْرَةِ، وَمَعَهُ عِيسَى بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ
الْمَنْصُورُ عَسَاكِرَهُ، فَهَرَمَ وَقَتْلَ إِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى،
وَكَانَ جَعْفَرُ الصَّادِقِ أَخْبَرَهُمْ بِمَلِكِ كُلِّ وَحْيٍ
مَعْلُودَةٍ فِي كَرَامَاتِهِ.

وَدَعَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ، هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ
ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَمَرَ، وَعَمَرُ هُوَ أَخُو زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ، فَخَرَجَ
مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بِالطَّالِقَانِ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ وَبَيَعَ
إِلَى الْمُتَّعِمِ فَحَبَسَهُ وَمَاتَ فِي حَبْسِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزَيْدِيَّةِ: إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ
يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ هُوَ أَخُوهُ عِيسَى الَّذِي خَضَرَ مَعَ
إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قِتَالِهِ مَعَ الْمَنْصُورِ وَنُفِلُوا
الْإِمَامَةَ فِي حَقِّهِ بِوَالِدِهِ انْتَسَبَ دَعِي الزُّنُجِ، كَمَا
نَذَرُوا فِي أَخْبَارِهِمْ.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزَيْدِيَّةِ: إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَخُوهُ إِدْرِيسَ الَّذِي قَرَأَ إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَاتَ
هُنَالِكَ، وَقَامَ بِأَمْرِهِ ابْنُهُ إِدْرِيسُ، وَاحْطَطَ مَدِينَةَ
قَاسَ، وَكَانَ مِنْ بَعْلِهِ عَقِيَّةٌ مَلُوكًا بِالْمَغْرِبِ،

(١) سوابق: من علي بن أبي طالب.

(١) موضع بالكوفة.

ثُمَّ ابْنِهِ عَلِيَّ الْهَادِي، ثُمَّ ابْنَهُ مُحَمَّدَ الْحَسَنِ الْمُسَكَّرِي،
ثُمَّ ابْنَهُ مُحَمَّدَ الْهَيْدِي الْمُنْتَظَرِ الَّذِي قُلْتَنَاهُ قَبْلَ.
وَقَى كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْعَمَلَاتِ لِلشَّيْءِ
اِخْتِلَافٌ كَثِيرٌ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ أَشْهُرٌ مَلَاحِيهِمْ. وَمَنْ
أَرَادَ اسْتِعَابَهَا وَمَطَالَعَتَهَا فَلْيَكُنْ بِكِتَابِ (الْمِلَلِ
وَالنَّحْلِ. لِابْنِ حَزَمٍ، وَالشَّهْرِ شَتَائِي وَغَيْرِهِمَا، فَفِيهَا
بَيَانُ ذَلِكَ. وَاللَّهُ يَعْمَلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة إلى الملك

اعلم أن الملك غاية طبيعية للمصيبة، لئلا
 وتوقع عنها باختيار، إنما هو بضرورة الوجود
 وتزويجه كما قلناه من قبل، وأن الشرائع
 والديانات وكل أمر يحل عليه الجمهور فلا بد
 فيه من المصيبة، إذ المطالبة لآتيها كما قلناه.
 فالمصيبة ضرورة للجلد وبوجودها يتم أمر
 الله فيها، وفي الصحيح «ما بعث الله نبيا إلا في
 منعة من قومه» .

لَهُمْ وَجَدْنَاهُ الشَّارِعَ (١) قَدْ ذَمَّ الْمَصِيَّةَ، وَذَلَّلَ إِلَى
أَطْرَاحِهَا وَتَرَكَهَا قَتَالَ، إِنَّ اللَّهَ أَذْعَبَ عَنْكُمْ حَيْبَةَ (٢)
الْجَاهِلِيَّةِ وَفَرَّخَهَا بِالْأَيَّامِ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ
تُرَابٍ. وَقَالَ تَعَالَى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ (٣) ،
وَوَجَدْنَاهُ أَيْضًا قَدْ ذَمَّ الْمُلْكَ وَأَهْلَهُ، وَنَعَى عَلَى
أَهْلِهِ أَسْوَأَ لَهُمْ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالْخَلْقِ (٤)، وَالْإِسْرَافِ

شَوْكَةً يَسْتَنْتَرُ، وَتَكُونُ دُعَاتُهُ ظَاهِرِينَ لِقَامَةِ
لِلْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ،
وَأُظْهِرَ دَعْوَتُهُ قَالُوا وَيَعْنِي مُحَمَّدٌ الْمَكْنُونُ ابْنُهُ،
جَعَزَ الْمُصَلِّقُ (١)، وَيَعْنِي ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَبِيبِ، وَهُوَ
آخِرُ الْمَسْئُورِينَ، وَيَعْنِي ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ (٢) الْمُهَنْدِيُّ الَّذِي
أُظْهِرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْبِيُّ فِي كِتَابِهِ وَتَتَابِعَ
النَّاسَ عَلَى دَعْوَتِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مَعْتَقِلِهِ بِسِجْلِمَاسَةَ
وَسَلَكَ الْفَيَزَوَانَ وَالْمَغْرِبَ، وَهَلَكَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِ وَهَضَرَ
كَذَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ.

وَيُسَمَّى هَؤُلَاءِ: الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى الْقَوْلِ
بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ، وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا بِالْبَابِطِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى
قَوْلِهِمْ بِالْإِمَامِ الْبَابِطِيِّ أَيْ الْمُسْتَوْرِ، وَيُسَمَّوْنَ
أَيْضًا بِالْمُحَلِّجَةِ لِمَا فِي ضِمْنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ الْإِحْدَادِ،
وَلَهُمْ مَقَالَتٌ قَدِيمَةٌ، وَمَقَالَتٌ جَدِيدَةٌ، دَعَا إِلَيْهَا
الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّبَّاحُ فِي آخِرِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ،
وَمَلَكَ حُصُونًا بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَكَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ
فِيهَا إِلَى اتِّبَاعِهَا الْهَلَاكَ بَيْنَ مُلُوكِ التُّرْكِ بِمِصْرَ،
وَمُلُوكِ الشَّرِيقِ الْعِرَاقِ فَانْقَرَسَتْ. وَمَقَالَةُ هَذَا الصَّبَّاحِ فِي
دَعْوَتِهِ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ اللَّيْلِ وَالنَّجْلِ لِلشَّهْرَسْتَانِي.
وَأَمَّا الْاِثْنَا عَشْرِيَّةُ، فَرُبَّمَا حُصَوًا بِاسْمِ الْإِمَامِيَّةِ
عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ، فَقَالُوا بِإِمَامَةِ مُوسَى الْكَاطِمِ
ابْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ لَوْفَا لَأَخِيهِ الْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلَ
الْإِمَامِ فِي حَيَاتِهِ أَبِيهِمَا جَعْفَرُ، فَفَضَّ عَلَى إِمَامَتِهِ مُوسَى
هَذَا ثُمَّ ابْنَهُ عَلِيَّ الرِّضَا الَّذِي عَهْدَ إِلَيْهِ الْمُتَمَوِّنُونَ،
وَوَاتَقَبْلَهُ، فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُ أَمْرًا. ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ التَّقِيُّ،

(١) يبنى بالشارع هنا : الرسول صلوات الله عليه .

(٢) مية بضم الميم وكسر الهمزة وكسر الواو مشددة وتشديد
الهمزة تحتية الكبر والفتحة والضم والنون كما في القاموس .

(٣) الآية رقم ١٢ من سورة: الحجرات .

(٤) في بعض النسخ بالخلاف ولمه من خطأ النسخ والفلاح
بالتفاف النصيب

(١) هكذا في نسخة خطبة امتدعها الدكتور وافي في مشورته . وله جميع النسخ الأخرى : جعفر الصادق ، وهو خطأ .

(۲) هكذا في جميع النسخ ، و هو خطأ ، وصوابه فييد ان كما
 مقتله د . واق

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۖ (١) فَلَمَّا مَرَّاهُ
حَيْثُ تَكُونُ النَّصِيبَةُ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَخْوَالِهِ، كَمَا
كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فَخْرٌ بِهَا
أَوْحَى عَلَى أَحَدٍ، لِأَنَّ ذَلِكَ مَجَانٌّ مِنْ أَعْمَالِ التَّغْلَاهِ
وَعَبْرٌ نَافِعٌ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْقَرَارِ. فَلَمَّا إِذَا
كَانَتْ النَّصِيبَةُ فِي الْحَقِّ وَاقَامَةِ اللَّهِ إِلَيْهَا فَكُنَّ مَطْلُوبَةً
وَلَوْ بَطَلَ لَبْطَلَتِ الشَّرَائِعُ إِذْ لَا يَتِمُّ قِيَامُهَا إِلَّا
بِالنَّصِيبَةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ.

وَكَذَا الْمُلْكُ لَمَّا دُمَّ الشَّارِعُ لَمْ يَدَمْ مِنْهُ
الْقَلْبُ بِالْحَقِّ، وَقَهَرَ الْكَافَّةُ عَلَى الدِّينِ، وَمَرَّاهُ
الْمَصَالِحِ، وَإِنَّمَا هُمَا لِمَا فِيهِ مِنَ التَّغْلِبِ بِالْبَاطِلِ،
وَتَضَرِيفِ الْآدَمِيِّينَ طَرَفَ الْأَغْرَاسِ وَالشَّهَوَاتِ
كَمَا قُلْنَا. فَلَوْ كَانَ الْمَلِكُ مُخْلِصًا فِي عَظَمِهِ لِلنَّاسِ،
أَنَّهُ لِلَّهِ وَلِيَحْتَلِيهِمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَجِهَادِ عُلُوِّهِ، لَمْ
يَكُنْ ذَلِكَ مَلْعُومًا. وَقَدْ قَالَ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِ «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي مَلِكًا لَا يَنْتَبِئُ لِأَحَدٍ
مِنْ بَعْدِي» (٢)، لِمَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَمْتَدِّلُ
عَنِ الْبَاطِلِ فِي التَّبَوُّعِ وَالْمُلْكِ.

وَلَمَّا لَقِيَ مُعَاوِيَةَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا جُنْدٌ قُلُوبِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أَبْنَاءِ الْمُلْكِ،
وَزَيْدٌ مِنَ الْعَلِيدِ وَالْعِدَّةُ اسْتَشْكَرَ ذَلِكَ، وَقَالَ :
أَكْثَرُوِيَّةُ (٣) يَا مُعَاوِيَةُ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّا
فِي تَغَرُّبٍ جَدِيدٍ أَلْمَسُو، وَبَنَّا إِلَى مَبَاهِجِهِمْ بِزِينَةِ الْحَرْبِ
وَالْجِهَادِ حَاجَةً، فَسَكَتَ وَلَمْ يَخْطُئْ لِمَا اخْتَجَّ

فِي قَبْرِ الْقَصْدِ وَالْفَتْكَبِ مِنْ مِرَاطِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا خَضَى
عَلَى الْأَلْفَةِ فِي الدِّينِ وَخَلَّزَ مِنَ الْخِلَافِ وَالْفَرْقَةِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا كُلُّهَا وَأَخْوَالَهَا مَطْلَبَةٌ لِلْآخِرَةِ،
وَمَنْ قَدَّ الْمَطْلَبَةَ فَقَدَ الْوُصُولَ، وَلَيْسَ مَرَادُهُ فِيمَا
يَنْهَى عَنْهُ أَوْ يُلْغِيهِ مِنْ أَعْمَالِ الْبَشَرِ أَوْ يَنْدُبُ إِلَى
تَرْكِ إِشْمَالِهِ بِالْكُلِّيَّةِ، أَوْ اقْتِلَاعِهِ مِنْ أَصْلِهِ، وَتَغْطِيلُ
الْقُرَى الَّتِي يَنْشَأُ حَلِيهَا بِالْكُلِّيَّةِ، إِنَّمَا قَصْدُهُ
تَضَرِيفُهَا فِي أَغْرَاسِ الْحَقِّ جَهْدَ الْإِسْطَاعَةِ،
حَتَّى نَصِيرَ الْمَقَاصِدَ كُلُّهَا حَقًّا، وَتَتَجِدَ الْوِجْهَةَ، كَمَا
قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى
اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ
هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يَصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٌ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ
إِلَى مَا فَاجَرَ إِلَيْهِ».

فَلَمْ يَدَمْ الْقَضْبُ وَهُوَ يَقْصِدُ نَزْعَهُ مِنَ الْإِنْسَانِ،
فَإِنَّهُ لَوْ زَالَتْ مِنْهُ قُوَّةُ الْقَضْبِ لَفَقِدَ مِنْهُ الْإِنْتِصَارُ
لِلْحَقِّ، وَبَطَلَ الْجِهَادُ وَإِعْلَاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا
يَلْمُ الْقَضْبُ لِلشَّيْطَانِ وَلِلْأَغْرَاسِ الدَّمِيمَةِ فَإِذَا كَانَ
الْقَضْبُ لِلذِّلِّ كَانَ مَلْعُومًا، وَإِذَا كَانَ الْقَضْبُ فِي
اللَّهِ وَرَبِّهِ كَانَ مَمْلُوحًا، وَهُوَ مِنْ شَمَائِلِهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَكَذَا دَمُ الشَّهَوَاتِ أَيْضًا لَيْسَ الْمَرَادُ لِإِنْعَالِهَا
بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ مَنْ بَطَلَتْ شَهَوَاتُهُ، كَانَ نَغْصًا فِي حَقِّهِ،
وَإِنَّمَا الْمَرَادُ تَضَرِيفُهَا فِيمَا أُبْيَحَ لَهُ بِإِشْمَالِهِ عَلَى
الْمَصَالِحِ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا مُتَضَرِّفًا طَوَّعًا
لِلْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ.

وَكَذَا النَّصِيبَةُ حَيْثُ مَتَّهَا الشَّارِعُ، وَقَالَ :

(١) الآية رقم : ٣ من سورة الممتحنة .

(٢) من الآية رقم : ٢٥ من سورة ص .

(٣) يعني أفتخبا بكسرى في معاد الدنيا وعظايمها ؟ .

عَلَيْهِ بِتَقْصِدٍ مِنْ مَقَامِهِ الْحَقِّ وَالْبَرِّ. فَلَوْ كَانَ الْقَصْدُ رَفْعُ الْمُلْكِ مِنْ أَصْلِهِ لَمْ يُقِنِّهِ الْجَوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرِيَّةِ وَانْتِجَالِهَا، بَلْ كَانَ يُحَرِّصُ عَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا بِالْجَلَّةِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ حَرِّ بِالْكِسْرِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسَ فِي مُلْكِهِمْ مِنْ أَرْكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ، وَالْفَعْلَةُ عَنْ اللَّهِ، وَأَجَابَهُ مُتَابِعُهُ بِأَنَّ الْقَصْدَ بِتِلْكَ لَيْسَ كِسْرِيَّةَ فَارِسَ وَبَاطِلُهُمْ، وَإِنَّمَا قَصَدَهُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ فَسَكَتَ.

وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الصَّحَابَةِ، فِي رَفْعِ الْمُلْكِ وَأَحْوَالِهِ، وَنِشَانِ عَوَالِيهِ حَلًّا مِنَ التَّجَاسُّهِ بِالْبَاطِلِ، فَلَمَّا اسْتَحْصَرَ (١) رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى الصَّلَاةِ، إِذْ هِيَ أَمُّ أُمُورِ الدِّينِ، وَلِرَتْقَةِ النَّاسِ لِلْخِلَافَةِ، وَهِيَ حَقْلُ الْكَافَّةِ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَلَمْ يَجِرْ لِلْمُلْكِ ذِكْرٌ لِمَا أَنَّهُ مَطْلَعُ الْبَاطِلِ وَنِجْلَةُ يَوْمِئِذٍ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَأَعْدَاءِ الدِّينِ. فَقَامَ بِتِلْكَ أَبُو بَكْرٍ مَا شَاءَ اللَّهُ، مُتَّبِعًا سُنَنَ صَاحِبِهِ، وَقَاتِلَ أَهْلَ الرُّدَّةِ حَتَّى اجْتَمَعَ الْعَرَبُ عَلَى الْإِسْلَامِ.

ثُمَّ عَهْدَ إِلَى عُمَرَ فَاقْتَمَى آثَرَهُ وَقَاتَلَ الْأُمَمَ فَغَلَبَهُمْ. وَأِذَنْ لِلْعَرَبِ بِانْتِزَاعِ مَا بِيْأَيْدِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالْمُلْكِ، فَغَلَبَهُمْ عَلَيْهِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ. ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ حَفَظَانَ، ثُمَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَالْكُلُّ مُتَبَرِّئُونَ مِنَ الْمُلْكِ مُتَنَكِّبُونَ (٢) عَنْ طَرَفِهِ. وَأكَّدَ ذَلِكَ لَدَيْهِمْ، مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ

خَصَاصَةٍ (١) الْإِسْلَامِ، وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ. فَقَدْ كَانُوا أَيْدِ الْأُمَمِ عَنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَتَرْفِهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمُ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الرُّغْدِ فِي النِّعَمِ، وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ الْعَيْشِ وَشَطَطِهِ الَّذِي أَلْفُوهُ. فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ أَتَّسَبَ (٢) حَيْثًا مِنْ مُضَرٍّ لِمَا كَانُوا بِالْجِجَارِ فِي أَرْضِ غَيْرِ ذَاتِ دَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ، وَكَانُوا مُتَوَحِّينَ مِنَ الْأَرْيَابِ وَخُجُوبِهَا لِيُثْبِتَهَا وَاجْتِصَاصَهَا بِحَنٍّ وَلِبَاسًا مِنْ رِيْبَةٍ وَالْيَمَنِ، فَلَمْ يَكُونُوا يَنْطَلِقُونَ إِلَى حُضْبِهَا. وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَأْكُلُونَ النَّعَارِبَ وَالْخَنَافِيسَ، وَيَتَخَفُونَ بِأَكْلِ الْبُلْبُلِ (٣) وَهُوَ وَبَرُّ الْإِبِلِ يَمْهَوْنَهُ بِالْجِجَارَةِ فِي الدَّمِ، وَيُعْطِشُونَهُ. وَغَرِيبًا مِنْ هَذَا كَانَتْ حَالُ قُرَيْشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ. حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ حَضَبَةُ الْعَرَبِ عَلَى الدِّينِ، يَمَّا أَمَرَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَحَفُوا إِلَى أَمْرِ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِوَعْدِ الصَّدِيقِ، فَأَبْتَزُوا مُلْكَهُمْ وَاسْتَبَاحُوا دُنْيَاهُمْ، فَزَحَرَتْ بِحَارُ الرِّقَةِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ الْقَارِيسُ الْوَاحِدُ يَقْسِمُ لَهُ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ ثَلَاثُونَ لَاقًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْ نَحْوِهَا. فَاسْتَوْلُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ الْحَضَرُ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ عَلَى خُشُونَةِ عَيْشِهِمْ، فَكَانَ عُمَرُ يَرْفَعُ تَوْبَتَهُ بِالْحَدِيدِ، وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ: يَا صَفْرَاءَ (٤) وَيَا بَيْضَاءَ

(١) يَتَنَحَّضُ : جِدَتْهُ وَفَضَلَتْهُ .

(٢) سَبَبٌ : جَاعَ وَاسْتَبَدَلَ فِي الْمَجَاعَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : أَوْ لِعِلَامٍ فِي يَوْمٍ نَدَى مَسِينَةٍ .

(٣) الْبُلْبُلُ بِالْكَسْرِ طَعَامٌ مِنَ الدَّمِ وَالرَّوْبَرِ كَانَ يَضَعُهُ فِي الْمَجَاعَةِ .

(٤) الصَّفْرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ هِيَ : تَلْعَابُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .

(١) يَتَنَحَّضُ : جِدَتْهُ وَفَضَلَتْهُ .

(٢) تَنَكَّبَ عَنْ الطَّرِيقِ : جَادَ عَنْهُ .

غَرَى غَيْرِي. وَكَانَ أَبُو مَوْسَى يَتَجَالَى عَنْ أَكْلِ
الدَّجَاجِ لِأَنَّهُ لَمْ يَهْذَمَا لِلْعَرَبِ لِقَلَّتْهَا يَوْمَئِذٍ.
وَكَانَتْ الْمَنَاقِلُ مَقْعُودَةً عَنْهُمْ بِالْجَنَلَةِ، وَإِنَّمَا
يَأْكُلُونَ الْجَنَظَةَ يَنْحَالُهَا. وَمَكَاسِبُهُمْ مَعَ هَذَا أَمَّ
مَا كَانَتْ يَأْخُذُ مِنْ أَهْلِ الْمَالِ.

قَالَ الْمَسْعُودِيُّ: فِي أَيَّامِ حُثَمَانَ اقْتَنَى الصَّحَابَةُ
الصُّبَاغَ وَالْمَالِ، فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قَتَلَ جَنْدَ خَازِنِهِ
خُمْسُونَ وَمِائَةً أَلْفَ دِينَارٍ وَأَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ. وَبِقِيَّةِ
ضِيَاعِهِ يُوَادِي الْفَرَى وَحَتِينَ وَغَيْرَهُمَا يَأْتِنَا أَلْفُ
دِينَارٍ، وَخُلْفٌ إِبِلًا وَخَيْلًا كَثِيرَةً. وَبَلَغَ الثَّمَنُ الْوَاحِدُ
مِنْ مَقْرُوكِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ وَقَائِهِ خُمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ،
وَخُلْفُ أَلْفِ فَرَسٍ وَأَلْفُ أَمَةٍ. وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْعَةِ
مِنَ الْعِرَاقِ أَلْفَ دِينَارٍ كُلُّ يَوْمٍ، وَمِنْ نَاحِيَةِ السَّرَّافِ
أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. وَكَانَ عَلَى مَرْيَطِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
عُوفٍ أَلْفُ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشْرَةُ أَلْفٍ مِنَ النِّعَمِ،
وَبَلَغَ الرَّبْعُ مِنْ مَقْرُوكِهِ بَعْدَ وَقَائِهِ أَرْبَعَةً وَثَمَانِينَ
أَلْفًا. وَخُلْفُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ الْبَيْضَةِ وَالنَّعْبِ
مَا كَانَ يُكْسَرُ بِالْفُؤُوسِ غَيْرَ مَا خُلْفُ مِنَ الْأُمُورِ
وَالضُّبَاغِ بِجَانَةِ أَلْفِ دِينَارٍ. وَبَنَى الزُّبَيْرُ دَارَهُ
بِالْبَصْرَةِ وَكَذَلِكَ بَنَى بِبَصْرٍ وَالْكُوفَةِ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ،
وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَهُ بِالْكُوفَةِ وَشَيْدُ دَارَهُ
بِالْمَدِينَةِ، وَبَنَاهَا بِالْبَصْرِ وَالْأَجَرُ وَالسَّاجِرُ. وَبَنَى
سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ دَارَهُ بِالْمَقْبِيِّ وَرَفَعَ سَمَكَهَا
وَأَوْسَعَ فُضَاعَهَا، وَجَعَلَ عَلَى أَعْلَاهَا شُرَفَاتٍ. وَبَنَى
الْقَعْدَاؤُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ، وَجَعَلَهَا مُحَصَّنَةً (١) الظَّاهِرِ
وَالْبَاطِنِ. وَخُلْفُ يَمَلُّ بْنُ مُثَنَّى (٢) خُمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ

طُرُقِ الْحَقِّ وَاتِّحْسَابِ النَّارِ الْآخِرَةِ.
فَلَمَّا تَدَرَّجَتْ الْبِدَاوَةُ وَالْقَضَاةُ إِلَى نَهَابَتِهَا
وَجَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى النَّصِيحَةِ
كَمَا قُلْنَا وَحَصَلَ التَّغَلُّبُ وَالْقَهْرُ، كَانَ حُكْمُ ذَلِكَ
الْمُلْكِ عِنْدَهُمْ حُكْمُ ذَلِكَ الرَّقَى وَالْإِسْتِكْثَارُ مِنَ
الْأُمُورِ. فَلَمْ يَصْرِفُوا ذَلِكَ التَّغَلُّبَ فِي بَاطِلٍ، وَلَا
خَرَجُوا بِهِ عَنْ مَقَاصِدِ الدِّيَانَةِ وَمَذَاهِبِ الْحَقِّ.

وَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَ عُلَى وَمُعَاوِيَةَ، وَهِيَ
مُقْتَضَى النَّصِيحَةِ، كَانَ طَرِيقُهُمْ فِيهَا الْحَقُّ وَالْإِجْهَادُ
وَلَمْ يَكُونُوا فِي مُحَارَبَتِهِمْ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ أَوْ لِإِثْنَارِ
بَاطِلٍ أَوْ لِإِسْتِشْهَارِ حَقٍّ كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُ مَتَوَهُمُ،
وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ مُلْجِدٌ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُمْ فِي
الْحَقِّ، وَصَفَهُ كُلُّ وَاحِدٍ نَظَرَ صَاحِبِهِ بِاجْتِهَادِهِ فِي
الْحَقِّ فَاقْتَنَلُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ الْمُنْصَبُ عَلَيْهِ فَلَمْ
يَكُنْ مُعَاوِيَةُ قَائِمًا فِيهَا بِقَصْدِ الْبَاطِلِ، إِنَّمَا قَصَدَ

(١) حصص الدنيا : ملاه بالجمع .

(٢) هكذا في نسخة خطية اعتد عليها الدكتور وافي ، وفي جميع النسخ الاخرى منه وهو في الغالب تحريف .

(١) جمع في : وهو ما يحصل عليه جيش المسلمين من الانتصارات
يبدون قتال .

الحق وأخطأ ، والكُلُّ كانوا في مقاصدهم على حق . ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالتحديد واستثناء الواحد به . ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقوميه ، فهو أثر طبيعي ساقته الطبيعة بطبيعتها واستغمرته بنو أمية ، ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوا (١) عليه ، واستعانوا دونه . ولو خملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقع في الفتراق الكلية التي كان جمها وتلفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة .

وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول إذا رأى القاييم بن محمد بن أبي بكر : « لو كان في من الأمر شيء لوئيت الخلافة » . ولو أراد أن يعهد إليه لفل . ولكنه كان يخشى من بنى أمية أهل الحل والعقد ، لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة . وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى التصبيرة . فالحملك إذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجهه لم يكن في ذلك تكبر عليه . ولقد انفرد سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهما بذلك بنى إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك من الانفراد به ، وكانوا ما علمت من الثبوت والحد .

وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفا من الفتراق الكلية بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم

(١) اصصحت الإبل بحث في السير واجمت واصوب
فهر لك .

الأمر إلى من يوافقهم . فلم قد عهد إلى غيره اعتقوا عليه . مع أن ظنهم كان به صالحا ولا يرتاب احد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره . فلم يكن ليعهد إليه وهو يخفى ما كان عليه من الضيق . خافا لله لمعاوية من ذلك . وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه ، وإن كانوا ملوكا لم يكن ملههم في الملك تلعب أهل البطالة والبغي ، إنما كانوا مخرجين لمقاصد الحق جهدهم ، إلا في ضرورة تحيلهم على بقضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد . يشهد لذلك ما كانوا عليه من الإتيان ، والافتداء وما طم السلف من أحوالهم ومقاصدهم . فقد استخرج نالك في السوط بمنزل عبد الملك . وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من القاييم وعذالهم متروكة . ثم تفرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الذين بالمكان الذي كانوا عليه ، وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى « ربيعة الخلفاء الأربعة والصحة جهده ، ولم يهل .

ثم جاء خلفه واستعملوا طبيعة الملك في أفراسهم الضوية ومقاصدهم ، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرى القصد فيها والتمسك الحق في مذهبها . فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نورا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدخوة المأبئة منهم . وثق رجالها الأمر فكانوا من الملك بمكان ، وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استعاضوا ، حتى جاء بنو الرشيد من بعدهم فكان بينهم الصالح والطالح ، ثم أنقضى الأمر إلى بينهم فاضطروا الملك

والتفت حته ، وانتقموا في الدنيا وباطلها ،
وتبذلوا الدين وراعتهم ظهريا ، فتأذن الله بحربهم
وانزعج الأمر من أيدي العرب جملة ، وأمكن
يوافهم . والله لا يظلم مثقال ذرة .
ومن قائل يبر هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم
في تحرى الحق من الباطل عليم صحة ما قلناه .
وكذا حكى المنصور مظه في أحوال بني أمية عن
أبي جعفر المنصور ، وقد حضر حوتمته وذكروا
بني أمية فقال : أما عند الملك فكان جيلوا
لأبيال بما صنع ، وأما سليمان فكان همه بطقه
وفرجه . وأما عمر فكان أفر بين عتيان ، وكان
رجل القوم جفام . قال : « ولم يزل بنو أمية
ضالعين لما مهد لهم من السلطان يحركونه
ويصورون ما وحب الله لهم منه مع قسمهم على
الأمر ، ورفيعهم فليلها حتى ألقى الأمر إلى
أبنائهم المفرقين ، فكانت جهنم فسد الشهوات
وركوب اللذات من مكامي الله جهلا باستغرابه ،
وأثنا يمتكرو مع أطرافهم صيانة الخلافة واستخفافهم
بحق الرقابة ، وفصحهم عن السياسة فسلبهم الله
العر ، وألبسهم اللذ وتقى عنهم الشمس . ثم
استعصر عبد الله (١) بن مروان ، ففعل عليه حيرة
مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فلما ألبم السفاح ،
قال : أقمتم مليا (٢) ثم أتاني ملكهم أقام على
الأرضي وقد تبسط لي فرقي ذات قيمة ، فقلت
ما مملكه عن القعود على لبائنا ؟ فقال : إني ملك

فقد تبين لك كيف اتفكس الخلافة إلى
الملك ، وأن الأمر كان في أوله خلافة وازرع كل
أحد فيها من فقيه وهو الدين ، وسكنوا يؤثرونه
على أمور دنيائهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحرقهم
ثون الكافة .

فهذا حتمان لما حصر في الدار جاءه الحسن
والحسن وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأبنائهم
يريدون المكافحة عنه قلب . ومنع من نسل السيوبي

(١) قوله عبد الله كان في نسخة القولية وبعض القولية وفي
بعضها عبد الملك والله تصحيحا قال نصر .
(٢) المل ، الساحة الطويلة من القادر .

بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَاذَةَ الرَّقَّةِ وَحِفْظًا لِلْأَقَرَّةِ الَّتِي
بِهَا حِفْظُ الْكَلِمَةِ وَأَوْ أَدَّى إِلَى مَلَاحِكِهِ .

وَمَلَأَ عَلَى أَشَارَ عَلَيْهِ الْمُعِيرَةُ لِأَوَّلِ وَلَابَتِهِ
بِاسْتِيفَاءِ الزُّبَيْرِ وَمُعَاوِيَةَ وَطَلَحَهُ عَلَى أَهْلِهِمْ حَتَّى
يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى بَيْتِهِ ، وَتَنَفَّقَ الْكَلِمَةُ ، وَلَهُ بَعْدَ
ذَلِكَ مَا شَاءَ مِنْ أَمْرِهِ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ سِيَاسَةِ الْمُلُوكِ
فَلَمَّا فَرَّارًا مِنَ الْغَيْثِ الَّذِي بَنَانِيهِ الْإِسْلَامَ . وَعَدَا
عَلَيْهِ الْمُعِيرَةُ مِنَ الْقَدَاةِ فَقَالَ : لَقَدْ أَشْرَفْتُ عَلَيْكَ
بِالْأَمْرِ بِمَا أَشْرَفْتُ ، ثُمَّ هَدْتُ إِلَى نَظَرِي فَكَلِمَتُ
أَنْهُ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ وَأَنَّ الْحَقَّ فِيمَا رَأَيْتُهُ
أَنْتَ . فَقَالَ عَلِيٌّ : لَا وَاللَّهِ بَلْ أَظَلَمْتُ أَنْكَ نَصَحْتَنِي
بِالْأَمْرِ ، وَغَشَّيْتَنِي الْيَوْمَ ، وَلَكِنْ مَنَعَنِي بِمَا
أَشْرَفْتُ بِهِ ذَائِدُ الْحَقِّ .

وَمَعَكَلًا كَانَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي إِصْلَاحِ بَيْنِهِمْ
وَيَفْسَادِ دُنْيَاهُمْ وَنَحْنُ :

نُزَعُ دُنْيَانَا بِتَمْرِيْقِ دِينِنَا

فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُزَعُ

فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ صَارَ الْأَمْرُ إِلَى الْمُلُوكِ وَبَقِيَتْ
مَعَانِي الْخِلَافَةِ مِنْ تَحَرُّيِ اللَّيْنِ وَمَذَاهِبِهِ وَالْجَرِي
عَلَى مِنْهَا جِرِ الْحَقِّ ، وَلَمْ يَظْهَرْ التَّخَيُّرُ إِلَّا فِي الزَّوَارِعِ
الَّتِي كَانَ دِينًا ، ثُمَّ انْقَلَبَ عَصِيَّةً وَسَيْفًا .
وَمَعَكَلًا كَانَ الْأَمْرُ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ وَمُرَّوَانِ وَابْنِهِ
عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَالصُّبْرِ الْأَوَّلِ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ ،
إِلَى الرَّشِيدِ وَبَعْضِ وَلَدِهِ ثُمَّ ذَهَبَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَسْمَاءُ وَصَارَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَحْثًا وَجَرَتْ
طَبِيعَةُ التَّغْلِبِ إِلَى غَايَتِهَا ، وَاسْتَعْمَلَتْ فِي أَغْرَاضِهَا
مِنْ الْقَهْرِ وَالتَّغْلِبِ فِي الشُّهُوَاتِ وَالْمَلَادِ . وَمَعَكَلًا

كَانَ الْأَمْرُ لَوْلِي عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَلَمْ يَنْ جَاءَ بَعْدَ
الرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَاسْمُ الْخِلَافَةِ بَاقِيًا فِيهِمْ
لِبَقَاةِ عَصِيَّةِ الْعَرَبِ ، وَالْخِلَافَةُ وَالْمُلْكُ فِي الطُّوَرَيْنِ
مُلْتَمِسِينَ بَعْضُهُمَا بِبَعْضٍ . ثُمَّ ذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ
وَأَنْزَعَهَا بِنَغَابِ عَصِيَّةِ الْعَرَبِ وَقَتْلِهِمْ وَتَلَابُي
أَحْوَالِهِمْ ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَحْثًا كَمَا كَانَ الشُّأْنُ
فِي مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ يَدِينُونَ ، بِطَاعَةِ الْخَلِيفَةِ
تَبَرُّكًا ، وَالْمُلْكُ بِجَمِيعِ أَلْقَابِهِ وَمَتَابِعِهِ لَهُمْ ، وَلَيْسَ
لِلْخَلِيفَةِ مِنْهُ شَيْءٌ . وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُلُوكُ زَنَانَةِ
بِالْمَغْرِبِ بِمِثْلِ صَنْجَاةٍ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ وَمَرْوَانَةَ
وَبَنِي يَمَرْوَانَ أَيْضًا مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ
وَالْعَبِيدِيِّينَ بِالْقَيْرَوَانِ .

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ وُجِدَتْ بِدُونِ الْمُلُوكِ
أَوَّلًا ثُمَّ التَّبَسُّتَ مَتَابِعُهَا وَانْخَلَطَتْ . ثُمَّ انْفَرَدَ
الْمُلْكُ حَيْثُ انْفَرَقَتْ عَصِيَّتُهُ مِنْ عَصِيَّةِ الْخِلَافَةِ .
وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الرَّاحِدُ الْقَهَّارُ .

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة (١)

اعْلَمْ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ . كَمَا أَنَّ الْمُبَايَعَةَ
يُعَاهَدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ النَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ
وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لِأَيُّنَازَعَهُ فِي قَوَاهِ مِنْ ذَلِكَ ،
وَيُطِيعُهُ فِيمَا يَكْلِفُهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمَنْطِقِ
وَالْمَكْرُوهِ (٢) .

وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَلُوا عَهْدَهُ ،
جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدَيْهِ ، تَأْكِيدًا لِلْعَهْدِ ، فَتَأْتِيهِ ذَلِكَ

(١) البيعة بفتح اللام . ولما بكسر هاء و ز ن فحة يسكون
الياء فهي معية التصاري .

(٢) عليه فيما يجب وفيما يكره .

وَصَوْنِ الْمُنَاصِبِ الْمُلْكِيِّ ، لِأَنَّ الْأَقْلَ ، مِنْ يَقْضِيهِ
التَّوَاضُّعُ مِنَ الْمُلُوكِ ، فَيُلَاحِظُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ هَوَاسِهِ
وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رِجَالِهِ . فَافْتَهَمَ مَعْنَى الْبَيْعَةِ
فِي الرَّفِّ ، فَإِنَّهُ أَكْبَدُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهُ ، لِمَا
يَلْزِمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِيهِ وَكَاتِبِيهِ ، وَلَا تَكُونُ أَفْسَلُهُ
عَيْنًا وَمَعَانًا ، وَاخْتِصَرَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْيَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ .
وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْغَزِيرُ .

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

إِعْلَامُ أَنَّا قَدَّمْنَا الْكَلَامَ فِي الْإِمَامَةِ وَتَشْرِعِيَّتِهَا ،
لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَصَاحِقِ ، وَأَذْهَبْنَا خَبِيرَهَا لِلنَّظَرِ فِي
مَصَالِحِ الْأُمَّةِ أَدِينُهُمْ وَدُنْيَانَهُمْ ، فَهُوَ وَلِيُّهُمْ وَالْأَمِيرُ
عَلَيْهِمْ ، يَنْظُرُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ ، وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ أَذً
يَنْظُرُ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَيُعَيِّنُ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ ،
كَمَا كَانَ هُوَ يَتَوَلَّاهَا ، وَيَقْفُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ،
كَمَا وَفَّقُوا بِهِ فِيمَا قَبِلَ .

وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ
عَلَى جَوَازِهِ وَأَنْصَادِهِ . إِذْ وَفَّعَ بِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ لِعَمْرِ بِمَضْمُونِ مِنَ الصَّخَابَةِ وَأَجَازَهُ ،
وَأَوْجَبُوا عَلَى أَنْ سَهْمَ بِهِ شَاعَةً عَمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَعَنْهُمْ ، وَكَذَلِكَ عَهْدُ عُمَرُ فِي الشُّوْرَى إِلَى السَّنَةِ
بَقِيَّةِ (١) الْمَشْرِقِ ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَذً بَعْدَ أَرْوَاحِ الْمُسْلِمِينَ ،
فَعَسَوْسَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى أَقْضَى ذَلِكَ إِلَى
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، فَاجْتَهَدَ وَتَنَاوَلَ الْمُسْلِمِينَ ،
فَوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى عَلِيٍّ ، فَأَثَرُ

فَقَالَ الْبَائِعُ وَالْمَشْتَرِي ، قَسَمِي بَيْعَةً ، مَصْدَرُ بَايَ ،
وَصَارَتِ الْبَيْعَةُ مُصَافَحَةً بِالْأَيْدِي . هَذَا مَثَلُوهَا فِي
عُرْفِ اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ الشَّرْعِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ فِي الْحَبِيثِ
فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْبَقْعَةِ (١)
وَعِنْدَ الْفَجْرِ (٢) وَحِينَئِذَا وَرَدَ هَذَا الْفَقْدُ . وَمِنْهُ
بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ . وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ . كَانَ الْخُلَفَاءُ
يَسْتَحْلِفُونَ عَلَى الْعَهْدِ وَيَسْتَوْحِشُونَ الْأَيْمَانَ كُلَّهَا
لِلذِّلِّ ، قَسَمِي هَذَا الْاِسْتِغَاثَ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ .

وَكَانَ الْإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ . وَلِهَذَا لَمَّا
أَفْتَى مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ بَيْعِي الْإِكْرَاهِ (٣)
انْكَرَهُمُ الرُّوَاةُ عَلَيْهِ ، وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ
الْبَيْعَةِ ، وَوَقَعَ مَا وَفَّعَ مِنْهُ الْإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ .

وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الشَّهَوْرَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ
الْمُلُوكِ الْكِبَرِيَّةِ ، مِنْ تَقْبِيلِ الْأَرْضِ أَوْ الْيَدِ
أَوْ الرَّجْلِ أَوْ الذِّلِّ ، أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الْبَيْعَةِ ،
الَّتِي هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ مَجَازًا لِمَا كَانَ هَذَا
هَذَا الْخُصُوصُ فِي التَّحِيَّةِ وَالزَّيْمِ الْآدَابِ مِنْ لَوَازِمِ
الطَّاعَةِ وَتَوَلُّعِهَا ، وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً
عَرَفِيَّةً ، وَاسْتَحْتَنَى بِهَا عَنْ مُصَافَحَةِ أَيْدِي النَّاسِ ،
الَّتِي مِنْ الْحَقِيقَةِ فِي الْأَصْلِ ، لِمَا فِي الْمُصَافَحَةِ
لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالْإِنْذَالِ الْمُنَافِيَيْنِ لِلرُّفَاةِ

(١) ما يجهان : الأول في السنة التالية عشرة من البعثة .
والثانية في الثالثة عشرة .

(٢) وهي التي ذكرها القرآن الكريم : انظر سورة الفتح
آية رقم ١٨ .

(٣) روى ابن جسرير أن مالكا حينما قال له يمشي من يامروا
للمصور إن في أمانتنا بيمه ، قال : والله يامس مكرهين ، وليس
هل مستكره يمن ، ولقي بذلك ما ألفت ما وضع ذكره وأمل ففرد
(انظر تعليق د. وفاء رقم ٦٠ ص ٧٢٠) .

(١) أي الذين كانوا يلقون حل قيد الحياة من المشرة المجرمين
بالبيعة .

لِنَظَرِكَ ، وَشُكْرَتُهُمْ عَنْهُ كَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ الرَّبِّ فِيهِ ، فَلْيَمُوتُوا مِنْ يَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِّ هَوَاةٌ ، وَلَيْسَ مُتَاوِيَةً مِنْ تَأْخُذُهُ الْيَزَّةُ فِي قَبُولِ الْحَقِّ ، فَإِنْهُمْ كُلُّهُمْ أَجَلٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَعَدَالَتُهُمْ مَائِقَةٌ مِنْهُ .

وَقَرَارُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُمَرَ مِنْ ذَلِكَ لِنَسَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ مُبَاحًا كَانَ أَوْ مَحْظُورًا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ . وَلَمْ يَبْقَ فِي الْمَخَالَفَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ إِلَّا ابْنُ الرَّبِّيرِ ، وَتَلَوُّوا الْمُخَالَفَ مَعْرُوفٌ .

ثُمَّ أَنَّهُ وَقَعَ بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ مُتَاوِيَةٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ الْحَقَّ وَيَتَعَلَّمُونَ بِهِ . بِمِثْلِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ ، وَالسُّفَّاحِ وَالنَّضُورِ وَالْمُهَذَّبِ وَالرُّشَيْدِ مِنْ بَنِي الْمُبَّاسِ ، وَأَنْشَأْلَهُمْ مِنْ عَرَفَتْ عَدَالَتُهُمْ ، وَحَسُنَ رَأْيُهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرُ لَهُمْ .

وَلَا يُعَابَ عَلَيْهِمْ ، لِإِثَارِ أَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنْ سُنَنِ الْخُلَفَاءِ الْأُرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ ، فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أَوْلَئِكَ الْخُلَفَاءِ . فَلِإِنْهُمْ كَانُوا عَلَى حِينٍ لَمْ تَخُذْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَكَانَ الْوَزِيرُ دُبْنِيًا ، فَبَعْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَازِعٍ مِنْ نَفْسِهِ ، فَعَبَدُوا إِلَى إِيَّائِي مِنْ يَرْتَضِيهِ النَّاسُ فَقَطُّ ، وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَوَكَلُوا كُلٌّ مَنْ يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ إِيَّائِي وَازِعٍ .

وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنْ مُتَاوِيَةٍ ، فَكَانَتْ الْعَصِيَّةُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى غَابَتِهَا مِنَ الْمُلْكِ وَالْوَزِيرُ الْبُيْنِيُّ قَدْ ضَعُفَ ، وَاحْتَجَّ إِلَى الْوَزِيرِ السُّلْطَانِي وَالْمُصْبَانِي . فَلَوْ عَهْدَ إِلَى غَيْرِي مِنْ

حُشَمَانٍ بِالْبَيْتِ عَلَى ذَلِكَ ، لِمُوافَقَتِي إِيَّاهُ عَلَى لُزُومِ الْإِفْتِدَاءِ بِالشُّبْحَيْنِ فِي كُلِّ مَا يَبِينُ دُونَ اجْتِهَادِهِ . فَأَنْقَضَ أَمْرُ حُشَمَانٍ لِنَظَرِكَ ، وَأَوْجِبُوا طَاعَتَهُ ، وَالْمَلَأَ مِنَ الصَّحَابَةِ حَاضِرُونَ لِلْأُولَى وَالثَّانِيَةِ ، وَكَمْ يُنْكِرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ . فَذَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ ، عَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ ، وَالْإِجْمَاعُ حُجَّةٌ كَمَا عُرِفَ .

وَلَا يُتَّهَمُ الْإِمَامُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، وَإِنْ عَهْدَ إِلَى أَبِيهِ أَوْ ابْنِهِ ، لِأَنَّهُ مَتَّوْنٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ ، فَلَا يُولَى أَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ فِيهَا تَبَعَةً بَعْدَ تَمَاتِهِ ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ بِإِثْمِهِ فِي الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ . أَوَّلِمَنْ خَصَّصَ التَّهْمَةَ بِالْوَلَدِ دُونَ الْوَالِدِ ، فَإِنَّهُ بَعْدَ عَنِ الظَّنِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، لَا يَسْمُو إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاجِيَةٌ تَدْعُو إِلَى الْبَيْتِ مِنْ إِثَارِ مَصْلَحَةٍ أَوْ تَوَقُّعِ مَفْسَدَةٍ . فَتَنْتَفِي الظَّنُّ فِي ذَلِكَ رَأْسًا ، كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ مُتَاوِيَةَ لِابْنِهِ يَزِيدَ ، وَإِنْ كَانَ فَعَلَ مُتَاوِيَةُ مَعَ وَفَاقِي النَّاسِ لَهُ حُجَّةٌ فِي الْبَابِ . وَالَّذِي دَعَا مُتَاوِيَةَ لِإِثَارِ ابْنِهِ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ دُونَ مَنْ يُوَاهُ ، إِنَّمَا هُوَ مُرَاعَاةُ الْمَصْلَحَةِ فِي الْجَمَاعَةِ النَّاسِ ، وَاتِّفَاقِ أَهْوَانِهِمْ ، بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ جَبِينًا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ، إِذْ بَنُو أُمَيَّةَ يَوْمَئِذٍ لَا يَرْضَوْنَ يُوَاهُ ، وَهُمْ عِصَابَةُ قُرَيْشٍ ، وَأَهْلُ الْبَيْتِ أَجْمَعُ ، وَأَهْلُ التَّلَبِّ مِنْهُمْ ، فَأَثَرُهُ لِلْمُلْكِ دُونَ غَيْرِهِ ، مِنْ يَظُنُّ أَنَّهُ أَوْلَى بِهَا ، وَعَدَلَ عَنْ الْفَاضِلِ إِلَى الْمُفْضُولِ ، حَرَضًا عَلَى الْإِتِّفَاقِ وَاجْتِمَاعِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي شَأْنُهُ أَمُّ عِنْدَ الشَّارِعِ . وَإِنْ كَانَ لَا يَظُنُّ بِمُتَاوِيَةٍ غَيْرَ هَذَا ، فَعَدَالَتُهُ وَصَحَّتُهُ مَائِقَةٌ مِنْ سِوَى ذَلِكَ ، وَحُضُورُ أَكَابِيرِ الصَّحَابَةِ

تَرْغِيبِهِ الْعَصَبِيَّةَ لَرَدَّتْ ذَلِكَ الْمَهْدَ، وَانْتَفَضَ
أَمْرُهُ سِرْمًا يَوْصَارَتْ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالْإِخْلَافِ.
سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَا بَالُ الْمُسْلِمِينَ
اِخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ؟
فَقَالَ: لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ كَانَا وَالْبَيْنَ عَلَى يَدَيِ
وَأَنَا الْيَوْمَ وَالْأَمْرُ عَلَى يَدَيْكَ. يُشِيرُ إِلَى وَازِعِ اللَّيْلِ.
أَقْلَا تَرَى إِلَى الْمَأْمُونِ، لَمَّا عَهْدَ إِلَى عَلِيٍّ بَنُو مُوسَى
ابْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَنَسَاءُ الرِّضَا، كَيْفَ انْتَحَرَتْ
الْعَبَاسِيَّةُ ذَلِكَ وَتَقَضُوا بَيْعَتَهُ، وَبَايَعُوا بِعَمِهِ
إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْمُهْدِيِّ، وَظَهَرَ مِنَ الْهَرَجِ وَالْخِلَافِ
وَانْفِعَاعِ السُّبُلِ وَتَمَدُّدِ الشُّوَارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ
أَنْ يَبْطُلِيَهُمُ (١) الْأَمْرُ، حَتَّى بَادَرَ الْمَأْمُونُ مِنْ هَرَّاسَانَ
إِلَى بَغْدَادَ، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِعَلِيَّاهِهِ. فَلَا بُدَّ مِنْ اخْتِلَافٍ
فِي ذَلِكَ فِي الْمَهْدِ. فَالْمَصُورُ تَخْتَلِفُ بِإِخْلَافٍ مَا يَحْدُثُ
فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ، وَتَخْتَلِفُ
بِإِخْلَافِ الْمَصَالِحِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ بَخْصُهُ،
لُفْظًا مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ.

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْقَضْدُ بِالْمَهْدِ حِفْظَ التَّرَاثِ
عَلَى الْأَبْنَاءِ. فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ، إِذْ هُوَ
أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ يَخْصُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، يُنَبِّئُ
أَنْ تُحَسِّنَ فِيهِ النَّيَّةُ مَا أَمْكَنَ، خَوْفًا مِنَ التَّبَسُّطِ
بِالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ. وَالْمُلْكُ لِلَّهِ بِقُوَّتِهِ مَنْ يَشَاءُ.
وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَذْهَبُ الضَّرُورَةُ إِلَى بَيَانِ
الْحَقِّ فِيهَا:

الْأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفِسْقِ أَيَّامَ
عِلَالَتِهِ. فَلْيَاكُلْ أَنْ تَطُنَّ بِمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ

وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْمَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا تَلَحُّبِهِ الشَّيْعَةَ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِأَيِّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِحَّ، وَلَا نَفَاقَةٌ أُخِذَ
مِنْ أَيْمَةِ النُّقْلِ. وَاللَّيْ وَوَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ
طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقِرَاطَانِ لِيَكْتَسِبَ الْوَصِيَّةَ، وَأَنْ
عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ فَكَلِيلٌ وَاصِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ.
وَكَلَّا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُلِعَ وَثُرِلَ

(١) المثل : الملاحة .

(٢) رفض فكرة الخروج عليه .

(١) يفضله ويمتلكه .

في العهد، فقال: إِنْ أَخَذْتُ فَقَدْ عَهْدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ، وَإِنْ أَتْرَكَ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْهَدْ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيٍّ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلْخُحُولِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فِي الْعَهْدِ: فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنَّهُ إِنْ تَنَعْنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّعْوَى. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُمْسِ وَلَا عَهْدَ إِلَى أَحَدٍ.

وَشَيْئُهُ الْإِمَامِيَّةُ فِي ذَلِكَ، إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ، كَمَا يَزْعُمُونَ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الصَّلَاحِ الْعَامَّةِ الْمُقَوَّضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ. وَكَوْنُ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ، لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ الصَّلَاةِ، وَلَكَانَ يَسْتَخْلَفُ فِيهَا، كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ، وَلَكَانَ يَشْتَعِرُ كَمَا اشْتَعَرَ أَمْرُ الصَّلَاةِ. وَاجْتِاجُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَامِهَا عَلَى الصَّلَاةِ فِي فَوَاقِهِمْ ارْتِضَاءً وَسُؤْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُجِيبَنَا أَقْلًا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا؟ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ. وَيَدُلُّ ذَلِكَ أَيْضًا، عَلَى أَنَّ أَمْرَ الْإِمَامَةِ وَالْعَهْدَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مُمَهَّمًا كَمَا هُوَ الْيَوْمَ، وَشَأْنُ الصَّبِيَّةِ الْمُرَاعَاةِ فِي الْأَجْمَاعِ وَالْإِفْتِرَاقِ فِي مَجَارِي الْعَادَةِ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ بِذَلِكَ الْأَعْتِبَارِ، لِأَنَّ أَمْرَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ مِنْ تَأَلُّبِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ، وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ دُونَهُ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانُوا يُمَاجِلُونَهَا فِي حُضُورِ الْمَلَائِكَةِ لِبَصُورِهِمْ وَتَرَدُّدِ خَيْرِ السَّمَاءِ بَيْنَهُمْ، وَتَجَدُّدِ خِطَابِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ

تُقَالُ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يُخْتَجِ إِلَى مُرَاعَاةِ الصَّبِيَّةِ لِمَا شَوَّلَ النَّاسَ مِنْ صِبْغَةِ الْإِنْفِيَادِ وَالْإِذْعَانِ، وَمَا يَسْتَفْزُهُمْ مِنْ تَتَابُعِ الْمُعْجَزَاتِ الْخَارِقَةِ، وَالْأَخْوَالِ الْإِلَهِيَّةِ الْوَاقِعَةِ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ، الَّتِي وَجَعُوا مِنْهَا، وَدُعُوا مِنْ تَتَابُعِهَا. فَكَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ وَالْعَهْدِ وَالصَّبِيَّةِ وَسَائِرِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مُتَدَرِّجًا فِي ذَلِكَ الْقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ.

فَلَمَّا انْحَسَرَ ذَلِكَ الْمَدَّةَ بِذَهَابِ ذَلِكَ الْمُعْجَزَاتِ ثُمَّ يَفْنَاهُ الْقُرُونُ الْبَلَدِينَ شَاهِدُهَا، فَامْتَحَلَتْ ذَلِكَ الصَّبْغَةَ قَلِيلًا قَلِيلًا، وَدَهَمَتْ الْخَوَارِقُ، وَصَارَ الْحُكْمُ لِلْعَادَةِ كَمَا كَانَ. فَاعْتَبِرَ أَمْرُ الصَّبِيَّةِ وَمَجَارِي الْعَوَالِدِ فِيهَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَقَاصِدِ، وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ وَالْخِلَافَةُ وَالْعَهْدُ بِهَا مُمَهَّمًا مِنَ الْمُهِمَّاتِ الْأَجَلِيَّةِ كَمَا زَعَمُوا، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ.

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مُهِمَّةٍ، فَلَمْ يَعْهَدْ فِيهَا، ثُمَّ تَدَرَّجَتْ الْأَهْمِيَّةُ زَمَانَ الْخِلَافَةِ بَعْضُ الشَّيْءِ، بِمَا دَعَتْ الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ، فِي الْجِمَاعِ وَالْجِهَادِ وَشَأْنِ الرَّدَّةِ وَالْفَتْوحَاتِ، فَكَانُوا بِالْخِيَارِ فِي الْفِعْلِ وَالتَّرَكِّ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ صَارَتْ الْيَوْمَ مِنْ أَمَمِ الْأُمُورِ لِلْأُمَّةِ عَلَى الْجِمَاعِ، وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ، فَاعْتَبِرَتْ فِيهَا الصَّبِيَّةُ الَّتِي هِيَ سِرُّ الْوَارِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ، وَنَشَأُ الْأَجْمَاعِ وَالتَّوَاتُفِ الْكَبِيرِ بِمَقَاصِدِ الشَّرْعِ وَأَحْكَامِهَا.

وَالْأَمْرُ الثَّالِثُ شَأْنُ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فِي الْإِسْلَامِ

يَكُونُ شَوْرَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُؤْكَلُهُ، وَظَنُوا بِعَلِيٍّ هَوَاقِفَ فِي السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلَيْهِ، لَا فِي الْمَمَالَةِ عَلَيْهِ، فَصَاحَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَحَ بِمَلَأَتِيهِ، إِنَّمَا يُوجِّهَهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطْ. ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ، فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَدْ انْصَدَقَتْ وَكَرِهَتْ مَنْ تَلَعَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعِ مَنْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُوطِنِ الصَّحَابَةَ، وَأَرْجَأَ الْأَمْرَ فِي الْمَطْلَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ، وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ، فَيَتَحَكَّنَ حِينَئِذٍ مِنْ ذَلِكَ. وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنْصَدُقْ، لِإِفْرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِالْأَفَاقِ، وَلَمْ يَخْضَرْ إِلَّا قَلِيلٌ، وَلَا تَكُونُ الْبَيْعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَلَا تُلْزِمُ بِعَقْدٍ مِنْ تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ، أَوْ مِنْ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ، وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ لَوْضَى، فَيَطَالِبُونَ أَوَّلًا بِدَمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامِهِ، وَذَهَبَ إِلَى هَذَا مُعَاوِيَةُ، وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ، وَالزُّبَيْرُ وَأَبْنَةُ عَبْدِ اللَّهِ، وَطَلْحَةُ وَأَبْنَةُ مُحَمَّدٍ، وَسَعْدُ وَسَعِيدُ، وَالْثُّعْمَانُ بْنُ بَكِيرٍ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خُبَيْجٍ، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا. إِلَّا أَنَّ أَهْلَ النَّصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِمْ انْتَفَقُوا عَلَى انْتِقَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ، وَلَزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، وَتَصَوُّبِ رَأْيِهِ فِيمَا دَخَبَ لِنَيْهِ، وَتَعْيِينِ الْحُكْمِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ، وَصُحُوصِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، لِاتِّفَاقِيهِمَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نَقَلَ عَنْ دَفْعِ التَّائِيهِمْ عَنْ كُلِّ مِنَ الْقَرِيقَتَيْنِ، كَالشَّاذِلِيِّ الْمُجْتَهِدِينَ، وَصَارَ

بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّائِيهِمْ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ، وَيَتَشَأْ عَنْ الْاجْتِهَادِ فِي الْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْمُخْتَبَرَةِ. وَالْمُجْتَهِدُونَ إِذَا اخْتَلَفُوا، فَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ الْحَقَّ فِي الْمَسَائِلِ الْاجْتِهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ، وَمَنْ لَمْ يَصَادِفْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ، فَإِنْ جِهَتَهُ لَاتَّعَيَّنَ بِاجْتِمَاعِ، فَيَبْتَغِي الْكُلَّ عَلَى اخْتِمَالِ الْإِسَابَةِ، وَلَا يَتَعَيَّنُ الْمُخْطِئُ مِنْهُمْ، وَالتَّائِيُّ مَذْبُوحٌ عَنِ الْكُلِّ إِجْمَاعًا، وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ عَلَى حَقٍّ، وَإِنْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ، فَآخَرَى يَنْفِي الْحُكْمَ وَالتَّائِيهِمْ. وَعَايَةُ الْخِلَافِ الَّذِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّائِيهِمْ، أَنَّهُ خِلَافُ اجْتِهَادِيٍّ فِي مَسَائِلِ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ، وَهَذَا حُكْمُهُ.

وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ إِنَّمَا هُوَ وَاقِعَةٌ عَلَى مَعَ مُعَاوِيَةَ، وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ، وَوَاقِعَةٌ الْحُسَيْنِ مَعَ بَزِيدٍ، وَوَاقِعَةٌ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُلَامًا وَوَاقِعَةٌ عَلِيٍّ، فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ مُفْتَرِقِينَ فِي الْأَنْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بَيْعَةَ عَلِيٍّ. وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّفَ، حَتَّى يَجْتَمَعَ النَّاسُ، وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامٍ. كَسَعْدِ وَسَعِيدِ وَابْنِ عُمَرَ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَالْمُجْتَبِرَةَ بِنْتَ شَعْبَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ، وَقُدَامَةَ ابْنِ مَطْلُونٍ، وَأَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، وَكَتَبَ بِنْتُ حُجْرَةَ وَكَتَبَ بِنْتُ مَالِكٍ، وَالْثُّعْمَانُ بْنُ بَكِيرٍ، وَحَصَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَسَلَمَةُ بْنُ مُخَلَّدٍ، وَقُصَالَةُ بْنُ حُبَيْدٍ، وَأَشْقَالِيَهُمْ مِنَ أَكْبَارِ الصَّحَابَةِ. وَالَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَنْصَارِ، عَمَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضًا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ، وَتَرَكَوا الْأَمْرَ قَوْضَى، حَتَّى

ذَلِكَ إِجْتِمَاعَيْنِ أَهْلٍ ، الْمَضْرِبُ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلَيْ أَهْلِ الْمَضْرِبِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .

وَلَقَدْ شِئِلَ عَلَى رَضَى اللَّهِ عَنْهُ عَنْ قَتْلِ الْجَنَلِ وَحَقِيقَتَيْنِ فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا يَمُوتُنَّ أَحَدُهُنَّ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَفْسِي إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، يُشِيرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ ، فَقُلَّةُ الطَّبَرِيِّ وَغَيْرُهُ . فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَائِهِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا قَلْعٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَوَيْهِمْ مَنْ عَلِمَتْ ، وَأَقْوَاهُمْ وَأَقْدَاهُمْ لِأَنَّهُمْ جَاءُوا عَنِ الْمُسْتَعْدَاتِ ، وَهَذَا لَتَهُمْ تَفَرُّوْهُ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السَّنَةِ ، إِلَّا قَوْلًا لِلْمُتَحَوِّلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا ، لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَلَا خَرَجَ عَلَيْهِ .

وَلَمَّا نَظَرْتُ بَعْضَ الْإِنْصَافِ ، حَذَرْتُ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ الْإِخْلَافِ فِي عُثْمَانَ ، وَالاخْتِلَافِ الصَّكَابَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَطَلِمْتُ أَنَّهُمَا كَانَتْ وَتَنَّهُ ابْتَدَأَ اللَّهُ بِهَا الْأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ ، وَمَلَكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَبَيَارَهُمْ ، وَنَزَلُوا الْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ ، وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا عَلَيْهِ الْأَمْصَارَ جُفَاءً لَمْ يَسْتَكْبِرُوا مِنْ حُجْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا ارْتَأَوْا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصِيَّةِ وَالْفَخَاخِ وَالْبُعْدِ عَنْ سَكِينَةِ الْإِيمَانِ ، وَلَمَّا بِهِمْ حَيْثُ اسْتَيْغَالُوا الْقَوْلَةَ ، قَدْ أَضْبَحُوا فِي مَلَكَتِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَكَثَانَةٍ وَتَقِيفٍ وَهَذِلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَتَشْرِبِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْإِيمَانِ ، فَاسْتَكْبَرُوا مِنْ ذَلِكَ ، وَهَضَبُوا بِهِ ، لِيَمَارِ يَوْمَ لَا تُفْصِيهِمْ مِنَ الْقَتْلِ بِأَنْصَابِهِمْ وَكَفَرَتِهِمْ ، وَمُضَادَّةِ قَارِسَ وَالرُّومِ ، مِثْلَ قِبَائِلِ

بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقِبَائِلِ كِنْدَةَ وَالْأَزْدَ مِنَ الْيَمَنِ ، وَتَمِيمَ وَقَيْسَ مِنْ مِصْرَ ، فَصَارُوا إِلَى الْقَتْلِ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْفَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّمْرِيسِ فِي طَاعَتِهِمْ ، وَالتَّكَلُّفِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ ، وَالِاسْتِغْنَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَالطُّغْنِ فِيهِمْ بِالْعَدُوِّ عَنِ السُّوْيَةِ ، وَالْعُدُولِ إِلَى الْقَسَمِ عَنِ السُّوْيَةِ ، وَفُتِّتِ الْمَقَالَةُ بِذَلِكَ ، وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمَتْ فَاعْظَمُوهُ ، وَأَنْبَلُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَتْ إِلَى الْأَمْصَارِ مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ ، بِمَثِ ابْنِ عُمَرَ وَمُسَدَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ، وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَأَمْنَالَهُمْ ، فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى الْأَمْصَارِ شَيْئًا بَوْلًا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَغْنًا ، وَأَدَّوْا ذَلِكَ كَمَا طَعَمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ الطُّغْنُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ، وَمَارَزَاتِ الشُّعَائِعَاتِ انْشَمُو ، وَرَأَى الْوَلِيدُ بْنُ عَدِيٍّ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ بِشَرِبِ الْخَمْرِ ، وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ، وَحَدَّهُ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ . ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ يُسَالُونَ عَزَلَ الْعَمَالِ وَنُكَلُّوا إِلَى عَائِشَةَ وَعَلَى وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ لَهُمْ عُثْمَانَ بِخَضِرِ الْعَمَالِ ، فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَلِكَ أَلْسِنَتُهُمْ بَلْ وَقَدْ سَعِدَ ابْنُ الْعَاصِي وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ ، فَلَمَّا رَجَعَ اعْتَرَضُوهُ بِالطَّرِيقِ ، وَرَدُّوهُ مَرْوَلًا ، ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلَافَ بَيْنَ عُثْمَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ ، وَنَقَصُوا عَلَيْهِ اسْتِغْنَاءَهُ مِنَ الْعَزْلِ ، قَائِبِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى جُرْحَةٍ (١) ، ثُمَّ نَقَلُوا التَّكْبِيرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِ ، وَهُوَ مَسْمُوكٌ بِالْإِجْهَادِ ، وَهُمْ أَيْضًا كَذَلِكَ ، ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الرُّوَغَاءِ ، وَجَاهَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلَبَ النِّصْفَةِ مِنْ عُثْمَانَ وَهُمْ يُضْمِرُونَ

(١) مَا يَرْجَحُ بِهِ وَبِهَذَا طَعَمُ .

فَانْقَضُوا أُمُورَ عَوَالِدِهِمْ ، وَدَعَيْتَ حَصْبِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ
وَمَنَازِعَهَا وَنَسِيتَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الصَّبِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ
فِي الْحِمَايَةِ وَالنَّفَاعِ ، يُنْقَضُ بِهَا فِي إِقْلَامَةِ الدِّينِ
وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ ، وَالدِّينَ فِيهَا مُحَكَّمٌ ، وَالْعَادَةُ
مَعْرُوءَةٌ ، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أَمْرُ النَّبِيَّةِ وَالْخَوَارِقِ
الْمَهْوُولَةِ ، تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلْعَوَالِدِ فَمَا دَنَتْ
الصَّبِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلَيْسَ كَانَتْ ، وَأَصْبَحَتْ مُضَرٌّ
أَطْرَحَ لَيْسَى أُمِّيَّةً مِنْ سِرَافِهِمْ بِمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلٌ .
فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ غَلَطُ الْحُسَيْنِ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي أَمْرِ
دُنْيَوِيٍّ لَا يَضُرُّهُ الْقَطْعُ . فَبِهِ ، وَأَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ
فَلَمْ يَنْقُضْ . فَبِهِ لِأَنَّهُ مَوْطُوعٌ . بَطْنُهُ ، وَكَانَ ظَنُّ الْقُدْرَةِ
عَلَى ذَلِكَ ، وَلَقَدْ عَلَّمَهُ ابْنُ الْمُبَاسِّ وَابْنُ الزُّبَيْرِ
وَابْنُ عَمْرٍ وَابْنُ الْحَنَفِيَّةِ أَسْوَهُ وَغَيْرُهُ فِي سَبِيهِ
إِلَى الْكُوفَةِ ، وَعَلِمُوا غَلَطَهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ
يَسْبِيْلُهُ ، لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ .

وَأَمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا
بِالْحِجَازِ ، وَمَعَ يَزِيدَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، وَمِنَ التَّابِعِينَ
لَهُمْ ، فَرَأَوْا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَالِيسَا
لَا يَجُوزُ ، لِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ (١) وَالنَّمَاءِ ،
فَلَقَعَرُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَتَابِعُوا الْحُسَيْنَ ، وَلَا
أَنْكَرُوا عَلَيْهِ ، وَلَا أَتَمُّوهُ ، لِأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ ، وَهُوَ
أَسْوَهُ الْمُجْتَهِدِينَ .

وَلَا يَذْهَبُ بِكَ الْقَطْعُ أَنَّ تَقُولَ بِتَأْيِيدِ هَوْلِهِ
بِمُخَالَفَةِ الْحُسَيْنِ وَتُؤْيُودِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، فَإِنَّهُمْ
أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ
عَلَيْهِ ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَشْتَشِدُّ بِهِمْ وَهُوَ يَكْرَهُلَهُ

هِيَئَاتَ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِ بَوَاقِيَهُمْ مِنَ الْبُصْرَةِ وَالْكُوفَةِ
وَمُضَرَ ، وَقَامَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى وَعَاطِشَةِ وَالزُّبَيْرِ
وَعَلَقَةِ وَغَيْرِهِمْ ، يُحَاوِلُونَ تَسْكِينِ الْأُمُورِ ، وَدُجُوعَ
خُشْمَانٍ إِلَى رَأْيِهِمْ . وَخَزَلَهُمْ عَائِلُ مُضَرَ ، فَاغْتَصَرَفُوا قَلِيلًا
ثُمَّ رَجَعُوا ، وَقَدْ لَبَسُوا بِكِتَابٍ مُدْلِسٍ يَزْعُمُونَ
أَنَّهُمْ لِقَوْهُ فِي يَدِ حَامِلِهِ إِلَى عَائِلِ مُضَرَ بِأَن يَقْتُلَهُمْ ،
وَحَلَفَ خُشْمَانُ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَالُوا مَكْنًا مِنْ مَرَوَانَ
فَلَمَّا كَاتَبَكَ . فَحَلَفَ مَرَوَانُ ، فَقَالَ : لَيْسَ فِي
الْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا ، فَحَاصَرُوهُ بِدَارِهِ ، ثُمَّ بَيَّتُوهُ عَلَى
حِينَ خَفَلَهُ مِنَ النَّاسِ وَقَتْلُوهُ وَانْفَتَحَ بَابُ الْقِتْنَةِ .
فَلِكُلِّ مِنْ هَوْلِهِ عِلْمٌ فِيمَا وَقَعَ ، وَكُلُّهُمْ كَانُوا
مُتَمَتِّعِينَ بِسُلْطَانِ الدِّينِ ، وَلَا يُضَيِّعُونَ شَيْئًا مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ ،
ثُمَّ نَظَرُوا بَعْدَ هَذَا الْوَاقِعِ وَاجْتَهَلُوا ، وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ
عَلَى أَعْوَالِهِمْ ، وَعَالِمٌ بِهِمْ . وَنَحْنُ لَانْظُرُ بِهِمْ إِلَّا
خَيْرًا ، لِمَا سَهَدَتْ بِهِ أَعْوَالُهُمْ ، وَمَقَالَاتُ الصَّادِقِ .
وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَلَمَّا لَمَّا ظَهَرَ فَسَى يَزِيدَ عِنْدَ
الْكَافَةِ مِنْ أَهْلِ عَصَرِهِ ، بَعَثَتْ شَيْعَةً أَهْلَ الْبَيْتِ
بِالْكُوفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ يَتَّبِعَهُمْ فِيهِ وَهُمُوَا بِأَمْرِهِ ، فَرَأَى
الْحُسَيْنُ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ مَتَعَيْنٌ مِنْ أَجْلِ
يُسَافِهِ ، لَا يَسِمَا مِنْ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ ، وَظَنُّهَا مِنْ
نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ وَشَوْكِيَّةِ ، فَأَمَّا الْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ كَمَا
ظَنُّ وَزِيَادَةُ . وَأَمَّا الشَّوْكَةُ فَقَلِيلٌ . بِرَحْمَةِ اللَّهِ فِيهَا ،
لِأَنَّ حَصْبِيَّةَ مُضَرَ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ ، وَحَصْبِيَّةَ عَبْدِ
مَنَافٍ لَمَّا كَانَتْ فِي بَنِي أُمِّيَّةٍ ، تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ
قُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ ، وَلَا يَنْكِرُونَهُ . وَإِنَّمَا نَسَى ذَلِكَ
أَوَّلَ الْإِسْلَامِ ، لِمَا شَغَلَ النَّاسَ مِنَ الدُّهُولِ بِالْخَوَارِقِ
وَأَمْرِ الزُّحْيِ ، وَتَرَدُّدِ الْمَلَائِكَةِ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ .

الإمام العادل؛ ومن أغفل من الحسين في زمانه في إمانته وعذالته في قتال أهل الآراء؟
وأما ابن الزبير فإنه رأى في قيامه مآزاة الحسين، وظن كما ظن، وظل في أمر الشوكة أعظم. لأن بني أسد لا يقاتلون بني أمية في جاهلية ولا إسلام. والقول بتعين الخطأ في جهة معاوية مع علي لأسبيل إليه، لأن الاجتماع هنالك قضي لنا به، ولم نجده هاهنا. وأما يزيد فعين خطئه فسقه. وعهد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة، وتأملهك بعدالته احتجاج مالك بغيره. وعلموا ابن عباس وابن عمر إلى بيتهم عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز، مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزبير لم تنعقد لأنه لم يحضرها أهل التقدير والعدل كبيعة مروان. وابن الزبير على خلاف ذلك، والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر وإن لم يتعين في جهة منهما. والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قرأناه يجيء على قواعد الفقه وقوانينه، مع أنه شهيد مثاب باعتباره تصدده وتخريه الحق.

هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين، فهو خيار الأمة. وإذا جلتناهم غرضه للقدح فمن الذي يختص بالمدح؟ والتبى صلى الله عليه وسلم يقول «خير الناس قرني. ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثا، ثم يفسحوا الكذب» فجعل الخير وهي العدالة مستحقة بالقرن الأول، والذي يليه. فليأكل أن تعود نفسك أوليائك التفرغ لأحد منهم،

على فضله وحقه، ويقول: سلوا جابر بن عبد الله. وأبا سعيد الخدري وأتس بن مالك وسهل بن سعيد وزيد بن أرقم وأمثالهم، ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصرته، ولا تعرض لنيلك ليليه أنه عن اجتهاد منهم، كما كان فعله عن اجتهاد منه. وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وإن كان هو عن اجتهاد، ويكون ذلك كما يحل الشافعي والمالكي المصنف على شرب النبيذ^(١).
وأعظم أن الأمر ليس كذلك، وقالة لم يكن عن اجتهاد هؤلاء، وإن كان خلافه عن اجتهادهم، وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه. ولا تقولن إن يزيد وإن كان فاسقا ولم يجز مولاة الخروج عليه فأعاله عندهم صحيحة. وأعظم أنه إنما يتفقد من أعمال الفاسق ما كان مشروعا، وقيل البقاء عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل، وهو مفقود في مثلنا، فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا يزيد بل هي من فعله الموكلة لفسقه، والحسين فيها شهيد مثاب، وهو على حق واجتهاد، وأصحابه الذين كانوا مع يزيد على حق أيضا واجتهاد.

وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه «بالقواسم والقواصم» ما متناذ: إن الحسين قيل يشوع جلد، وهو غلط، حكته عليه الغلة عن اشتراجه

(١) أي كما يقيم القاضي الشافعي أو المالكي الحد على حنفى حرب النبيذ، مع أن الحنفى يرى جواز شربه، لأن القاضى لا يرى ذلك ليمثل براهه واجتهاده.

الدولة وظائف، فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يُعينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم، فيقيم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه . وأما المنصب الخلافي، وإن كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذي ذكرناه ، فنصره الدين يخصص بخطط ومراتب لا تُعرف إلا للخلفاء الإسلاميين فلذلك لأن الخطط الدينية المختصة بالخلافة، ونرجع إلى الخطط الملوكية السلطانية .

فأعلم أن الخطط الدينية الشرعية ، مع الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والنجية كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة . فكأنها الإمام الكبير ، والأصل الجامع . وهو كلها متفرعة عنها ، ودخلت فيها لمؤمن نظير الخلافة ، وتصرفها في سائر أحوال الولاية الدينية والنيوية ، وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم . (فأما إمامة الصلاة) فهي أرفع من هذه الخطط كلها ، وأرفع من الملك بخصوصه المندرج بها تحت الخلافة . ولقد يشهد بذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه بامتياز خلافة في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم 1 ارتضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعتدنا ، أفلا نرضاه لنبينا ؟ فلو لا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس . وإذا ثبت ذلك ، فأعلم أن المساجد في المدينة صنفان : مساجد عظيمة ، كثيرة القائمية 2 المسندة للصلوات الشهادة ، وأخرى دونها مختصة بقوم أو محلة ، ولقيست للصلوات المأفوفة .

(١) من يشترها من الصلوات .

ولا يُشترط قلبك بالرب في شيء مما وقع منهم والقيس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت ، فهم أول الناس بملك ، وما اختلفوا إلا عن بيعة . وماقاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد ، أو إظهار حق ، واعتقد مع ذلك ، أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ، ليقبض كل واحد بمن يحضره منهم إمامة وهداية وكيالة . فافهم ذلك ، وتبين حكمة الله في خلقه وأحواله ، وأعلم أنه على كل شيء قدير ، وإليه المرجع والمصير . والله تعالى أعلم .

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلفية

لما تبين أن حقيقة الخلافة بيعة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا ، فصاحب الشرع متصرف في الأمرين : أما في الدين فيمقتضى التكالييف الشرعية ، الذي هو ماورد بتبليغها ، وحمل الناس عليها ، وأما سياسة الدنيا فيمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري . وقد قلنا أن هذا العمران ضروري للبشر ، وأن رعاية مصالحهم كذلك ، لقلا يفقد إن أهملت ، ونعلم أن الملك وسطوته كان في حصول هذه المصالح . نعم إنما تكون أحمل ، إذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه أعظم بهيئة المصالح ، فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلامياً ، ويكون من توابعها . وقد يتفرد إذا كان في غير الولاية . وله على كل حال مراتب عادية وظائف تابعة ، تتعين خططا ، وتوزع على رجال

الأخيان، وفي الصلوات العامة، كالعبدین والجمعة إشارة وتنبؤ بها . فقل ذلك كثير من خلفاء بني عباس، والعبدين صدر دولتهم .

(وَأَمَّا الْفُتَيَا) فَلِلْخَلِيفَةِ تَصَفُّحُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّوْبِيسُ، وَرَدُّ الْفُتَيَا إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُ لَهَا وَإِعَاتِنَهُ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْعُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَزَجْرُهُ لِأَنَّهَا مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَثْنَانِهِمْ، فَتَجِبَ عَلَيْهِ مُرَاعَاتُهَا لِئَلَّا يَتَرَعَّضَ لِلذِّكْرِ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلَّ النَّاسَ، وَلِلْمُسْتَدْرِسِ الْإِنْتِصَابَ لِتَطْلِيمِ الْعِلْمِ وَيَتَوَّجَّهَ الْجُلُوسُ لِلذِّكْرِ فِي الْمَسْجِدِ، فَإِنَّ كَانَتْ مِنَ الْمَسْجِدِ الْعِظَامُ الَّتِي لِلْمُسْلِمِينَ الْوِلَايَةُ عَلَيْهَا وَالتَّنْظَرُ فِي أَثْنَانِهَا كَمَا مَرَّ فَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِيفَائِهِ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَسْجِدِ الْعَامَّةِ، فَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى إِذْنٍ . عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُلَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَقِينَ وَالْمُسْتَدْرِسِينَ زَائِرٌ مِنْ نَفْسِهِ، يَمْتَنِعُ عَنِ التَّصَدُّقِ لِمَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُدِلُّ بِهِ الْمُسْتَهْدِي وَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَعْرِضُ . وَفِي الْآخِرِ : «أَجْرَاكُمْ عَلَى الْفُتَيَا، أَجْرَاكُمْ عَلَى جَرَائِمِ جَهَنَّمَ» . فَلِلْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ لِلذِّكْرِ مِنَ النَّظَرِ مَا تَوَجَّهَ الْمصلحةُ مِنْ إِجَارَةِ أَوْرَدَ .

(وَأَمَّا الْقَضَاءُ) فَهُوَ مِنَ الْوُظَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِأَنَّهُ مُنْصِبُ الْقَضَلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْخُصُومَاتِ حَسَبًا لِلدَّعَايِ وَقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ . إِلَّا أَنَّهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَّفَقَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . فَكَانَ لِلذِّكْرِ مِنْ وَظَائِفِ الْخِلَافَةِ، وَمُنْذَرِجَا فِي عُمُومِهَا .

فَلَمَّا الْمَسْجِدُ الْعَظِيمُ ، فَامْرُؤًا رَاجِعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، أَوْ مَنْ يُقَوِّضُ إِلَيْهِ ، مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِنْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ ، فَيُنْصَبُ لَهَا الْإِمَامُ فِي الصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَالْحُسُوفَيْنِ وَالْإِسْتِغْفَارِ . وَتَعَيَّنَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْإِسْتِحْسَانِ ، وَلِقَلَّا يَفْتَاتُ الرَّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّظَرِ ، فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ . وَقَدْ يَقُولُ بِالْوُجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ ، فَيَكُونُ نَصَبُ الْإِمَامِ لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا . وَأَمَّا الْمَسْجِدُ الْمُخْتَصُّ بِقَوْمٍ أَوْ مُحَلَّةٍ فَامْرُؤًا رَاجِعٌ إِلَى الْجَبَرَانِ ، وَلَا تَخْتِجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ . وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْوِلَايَةِ ، وَشُرُوطُهَا وَالْمَوَالِي فِيهَا مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ لِلْمَاوَرِي وَغَيْرِهِ ، فَلَا نَطُولُ بِذِكْرِهَا .

وَلَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ لَا يَمْلِكُونَهَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ ، وَانْظُرْ مِنْ طَلَبِ مِنَ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَسْجِدِ حِينَ الْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ ، وَتَرَصُّعِهِمْ لِلذِّكْرِ فِي أَوْقَاتِهَا ، يَشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِمَبَاشَرَتِهِمْ لَهَا ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَخْلِفِينَ فِيهَا . وَكَذَا رِجَالُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ مِنْ بَنِيهِمْ اسْتَحْتَفَرُوا بِهَا وَاسْتَحْطَفَانَا لِرَبَّتِهَا . يُحْكِي عَنْ عِيَدِ الْمَلِكِ أَنَّهُ قَالَ لِجَاجِيهِ ، قَدْ جِطَّتْ لَكَ حِجَابَةُ بَنِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ : صَاحِبِ الْعِلَامِ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ بِالتَّاجِيرِ ، وَالْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ ، وَالْبُرُودِ فَإِنَّ فِي تَأْتِيهِهِ فُسَادَ الْقَاضِيَةِ . فَلَمَّا جَاعَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَعَوَارِضُهُ مِنَ الْغِلْظَةِ ، وَالتَّرَفُّعِ عَنْ مُسَاوَاةِ النَّاسِ فِي حَبِينِهِمْ وَتُنْيَاهُمْ اسْتَعْنَاهُ فِي الصَّلَاةِ فَكَانُوا . يَسْتَعْرِضُونَ بِهَا فِي

أَنْفَى لِلشُّكِّ، وَأَجَلٌ لِلْعَمَى . الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْزُؤًا فِي حَدٍّ أَوْ مَجْرِبًا
عَلَيْهِ شَهَادَةُ زَوْرٍ، أَوْ عَيْنَانِ فِي نَسَبِ أَوْلَادِهِ، فَإِنَّ
اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنِ الْإِيمَانِ^(١)، وَدَرَأَ بِالْبَيِّنَاتِ .
وَلِإِيَّاكَ وَالْقَلَقَ وَالضَّجْرَ وَالشَّاقَفَ بِالْخُصُومِ، فَإِنَّ
اسْتِقْرَارَ الْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ، يُعْظَمُ اللَّهُ بِهِ
الْأَجْرَ، وَيُخَيَّنُ بِهِ الذِّكْرَ وَالسَّلَامَ . انتهى كتابُ
عَمَرِ .

وَلَمَّا كَانُوا يُقْلِدُونَ الْقَضَاءَ لِيَغْيِرَهُمْ وَإِنْ كَانَ
وَمَا يَتَقَلَّبُ بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ، كَثُرَتْ
الْفَعَالِيَةُ مِنَ الْجِهَادِ وَالْفَتْوحَاتِ وَسَدَّ الثُّغُورِ وَحِمَايَةِ
الْبَيْتَةِ^(٢) . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِمَا يَقُومُ بِهِ شِرْهُمُ
لِعِظَمِ الْعِنَايَةِ فَاسْتَحْضَرُوا الْقَضَاءَ فِي الْوَقَائِعِ بَيْنَ
النَّاسِ وَاسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ بِهِ تَخْفِيفًا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ . وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُقْلِدُونَ أَهْلَ
حَصْبِيَّتِهِمْ بِالنَّسَبِ أَوِ الْوِلَاةِ، وَلَا يُقْلِدُونَهُ لِمَنْ بَعْدَ
عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ .

وَأَمَّا أَحْكَامُ هَذَا الْمَنْصِبِ وَشُرُوطُهُ، فَمَعْرُوفَةٌ
فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَخُصُوصًا كُتُبُ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ .
إِلَّا أَنَّ الْقَاضِيَ إِنَّمَا كَانَ لَهُ فِي عَصْرِ الظُّلَمَاءِ الْفَضْلُ
بَيْنَ الْخُصُومِ فَقَطْ . ثُمَّ دُفِعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورٌ
أُخْرَى عَلَى التَّدرِجِ، بِحَسَبِ اسْتِغْثَالِ الظُّلَمَاءِ
وَالْمُلُوكِ بِالسِّيَاسَةِ الْكُبْرَى . وَاسْتَقَرَّ مَنْصِبُ الْقَضَاءِ
آخِرَ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ الْفَضْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ

وَكَانَ الظُّلَمَاءُ فِي صِدْرِ الْإِسْلَامِ يُبَايِسُونَهُ
بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَجْلِسُونَ الْقَضَاءَ إِلَى مَنْ يُوَاهِمُهُمْ .
وَأَوَّلُ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى غَيْبِهِ وَفَرَّغَهُ فِيهِ عَمْرُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَعَ بِالْمِيعَةِ، وَوَلَّى
شُرَيْحًا بِالْبَصْرَةِ، وَوَلَّى أَبَا ثَوْبٍ الْأَشْعَرِيَّ بِالْكُوفَةِ
وَكُتِبَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ الْمَشْهُورِ الَّذِي تَلَوَّ
عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَضَاءِ، وَهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ :
« أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ،
فَأَقْبَهُمْ إِذَا أَكْبَلُ إِلَيْكَ (وَأَنْفِذْ إِنْ تَبَيَّنَ لَكَ)^(١) »
فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكْلِمٌ بِحَقٍّ لَأَنْفَازَ لَهُ . وَأَمَّا^(٢) بَيْنَ
النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمِجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى
لَا يَطِيعَ شَرِيفٌ فِي حَيْثُكَ، وَلَا يَأْسُ ضَعِيفٌ مِنْ
عَدْلِكَ . الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى، وَالْبَيِّنُ عَلَى مَنْ
أَنْكَرَ . وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا
أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا . وَلَا يَمْنَعُكَ قَضَاءُ
قَضِيَّتِهِ أَمْسَ فَرَأَجَعْتَ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ، وَهَلَبَيْتَ فِيهِ
لِرُشْدِكَ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةٌ
الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ . الْفَهْمُ الْفَهْمُ
فِيمَا يَنْتَلِجُ فِي صَدْرِكَ بِمَا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا
سُنَّةٍ ثُمَّ اغْرِفِ الْأَشْثَالَ وَالْأَشْيَاءَ وَقِسْ الْأُمُورَ
بِنَظَائِرِهَا . وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا غَالِبًا أَوْ بَيِّنَةً
أَمَّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَإِنْ أَخْضَرَ بَيِّنَتَهُ، أَخْلَتْ لَهُ
بِحَقِّهِ، وَإِلَّا اسْتَخْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ

(١) ما بين القوسين زيادة من رواية ابن القيم في « إعلام
المرءية » من منشورة د. حل عبد الواحد والي . انظر حاشي من ٧٣٨
قوله تعلق له امره حول كتاب عمر وحل هو صحيح أم موضوع .
(٢) هو بينهم في وجهك ؟ يعني لا تهب لأحد الخصمين
وتهب في وجه الآخر فليس هذا من العدل .

(١) في رواية ابن القيم : « فإن الله تعالى يقول من الجهاد
السرير وسر طبعه الجهاد إلا بالبينات والأيمان . »
(٢) حياة أرض البلاد وما تكتفل عليه .

أَكْتَمَ يَخْرُجُ أَيَّامَ الْمَمُونِ بِالْعَائِفَةِ^(١) إِلَى أَرْضِ
الرُّومِ ، وَكَذَا مُنِيرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ
النَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ . فَكَانَتْ تَوَلِيَّةُ
هَلِيِّ الْوُطَائِفِ ، إِنَّمَا تَكُونُ لِلخُلَفَاءِ ، أَوْ مِنْ يَحْمِلُونَ
ذَلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مُقَوَّضٍ أَوْ سُلْطَانٍ مَخْطَبٍ .

وَكَانَ أَيْضًا النَّظَرُ فِي الْجَرَائِمِ ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ
فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمَغِيبِيِّينَ
بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ ، رَاجِعًا إِلَى صَاحِبِ الشَّرْطَةِ . وَهِيَ
وِظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنَ الْوُطَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ فِي
بِلَدِكَ الدَّوْلَةِ ، تَوْسَعُ النَّظَرُ فِيهَا عَنْ أَحْكَامِ الْقَضَاءِ
قَلِيلًا فَيَحْمِلُ لِلتَّهْمَةِ فِي الْمُحْكَمِ مَجَالًا ، وَيَفْرِضُ
الْمَقْبُورَاتِ الرَّاجِعَةَ قَبْلَ ثُبُوتِ الْجَرَائِمِ ، وَيَقِيمُ
الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا وَيَحْكُمُ فِي الْقُرُودِ الْقِصَاصِ
وَيَقِيمُ التَّحْرِيرَ^(٢) وَالشَّائِبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهَ
عَنِ الْجَرِيْمَةِ .

ثُمَّ تَنْوِيهِ شَأْنِ هَاتَيْنِ الْوِظِيفَتَيْنِ فِي الدَّوْلَةِ
الَّتِي تَنْوِيهِ فِيهَا أَمْرُ الْخِلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ الْمَظَالِمِ رَاجِعًا
إِلَى السُّلْطَانِ ، كَانَ لَهُ تَفْوِيضُ مِنَ الْخَلِيفَةِ
أَوْ لَمْ يَكُنْ . وَانْقَسَمَتْ وَظِيفَةُ الشَّرْطَةِ فَيُسَمَّى
بَيْنَهَا وَظِيفَةُ التَّهْمَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا
وَمُبَاشَرَةُ الْقَطْعِ وَالْقِصَاصِ حَيْثُ يَنْقَبِ ، وَنَحِيبُ
لِلْمَلِكِ فِي هَلِيِّ الدَّوْلَةِ حَاجِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجِبِ
السِّيَاسَةِ دُونَ مُرَاجَعَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَيُسَمَّى
تَارَةً بِاسْمِ الرِّوَالِ ، وَتَارَةً بِاسْمِ الشَّرْطَةِ ، وَيَقْبَى
قِسْمُ التَّحَاذِيرِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الثَّابِتَةِ
شَرْعًا ، فَجُمِعَ ذَلِكَ لِلْقَاضِي مَعَ مَا تَقَدَّمَ وَصَارَ

اسْتِيفَاءَ بَعْضِ الْمُقَوَّضِ الْعَامَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّظَرِ
فِي أَمْوَالِهِ الْمَحْجُورِ طَبِيعًا مِنَ الْمَجَانِينَ وَالْيَتَامَى
وَالْمَغْلُوبِينَ وَأَهْلِ السُّفُوِّ وَفِي وَصَايَا الْمُسْلِمِينَ
وَأَوْقَافِهِمْ وَتَزْوِيجِ الْأَيَّامِ عِنْدَ فَقْدِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى
رَأْيٍ مِنْ رَأْيِهِ ، وَالنَّظَرُ فِي مَصَالِحِ الطَّرِيقَاتِ وَالْأَبْنِيَةِ ،
وَتَصْفَحِ الشُّهُودِ وَالْأَمْنَاءِ وَالتَّوَابِ وَاسْتِيفَاءِ الْعِلْمِ
وَالْخَبَرَةِ فِيهِمْ بِالصَّلَاةِ وَالْجَرْحِ^(١) ، لِيَحْصَلَ لَهُ
الْوُثُوقُ بِهِمْ . وَصَارَتْ هَلِيُّ كُلِّهَا مِنْ تَطَلُّقَاتِ
وِظِيفَتِهِ ، وَتَوَابِعِ وَلَا يَتَوَعَّلُ .

وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلُ يَحْمِلُونَ لِلْقَاضِي
النَّظَرَ فِي الْمَظَالِمِ ، وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُتَزَجَّةٌ مِنْ
سُطُورِ السُّلْطَانَةِ وَتَصَفَةِ الْقَضَاءِ ، وَتَحَاجُّ إِلَى عُلُوِّ
يَدٍ وَعَظِيمِ رَهْبَةٍ تَقَعُ الظَّالِمُ مِنَ الْخَصْمِينَ ،
وَتَنْزِجُ الْمُتَعَدِّي . وَكَانَتْ بَعْضُ مَا حَجَرَ الْقَضَاءُ
أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمضَائِهِ . وَيَكُونُ نَظَرُهُ فِي الْبَيِّنَاتِ
وَالْتَحْزِيرِ ، وَاعْتِمَادِ الْأَمَارَاتِ وَالْقَرَائِنِ ، وَتَلْخِيرِ الْحُكْمِ
إِلَى اسْتِجْلَاءِ الْحَقِّ ، وَحَمَلِ الْخَصْمِينَ عَلَى الصُّلْحِ ،
وَاسْتِحْلَافِ الشُّهُودِ . وَذَلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي .
وَكَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ يَبَاشِرُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ
إِلَى أَيَّامِ الْمُتَهْتَدِي مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ . وَرُبَّمَا كَانُوا
يَحْمِلُونَهَا لِقَضَائِهِمْ ، كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
مَعَ قَاضِيهِ أَبِي أَرْحَيْسَ الْخَوْلَانِيِّ ، وَكَمَافَلَهُ
الْمَمُونُ لِيَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ ، وَالْمُتَّصِمُ لِأَحْمَدَ بْنِ
أَبِي ذُوَادٍ . وَرُبَّمَا كَانُوا يَحْمِلُونَ لِلْقَاضِي قِيَادَةَ
الْجِهَادِ فِي عَسَاكِرِ الطَّوَائِفِ^(٢) . وَكَانَ يَحْيَى بْنُ

(١) مَا يَلْزَمُ فِي عِدَاةِ الشَّاهِدِ وَيَسْقُطُ شَهَادَتُهُ .

(٢) يَرْجِعُ د . وَاقِلٌ أَنَّهَا مَعْرِفَةٌ مِنَ الصَّوَالِفِ جَمْعُ مَآلِفَةٍ وَهِيَ

الْقُوَّةُ فِي الصَّيْفِ .

(١) انظر التعليق السابق .

(٢) خُزَيْدَةُ يَتَرَكُ الْقَاضِي تَقْدِيرَهَا حَسَبَ حَجْمِ الْجَرِيْمَةِ وَظُرُوفِهَا .

بِاتِّسَابِهِمْ ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَضَارَةِ ، فَلَجَّهَتْهُمُ
 مِنَ الْإِحْقَارِ مَا لَحِقَ الْحَضَرِ الْمُتَنَبِّسِينَ فِي
 التَّرَفِّ وَالذَّعَّةِ الْبَعْدَةِ عَنْ حَقِّبَةِ الْمُلْكِ الَّذِينَ هُمْ
 حَيَالٌ عَلَى الْحَايَةِ ، وَصَارَ احْتِرَافُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ
 أَجْلِ قِيَامِهَا بِالْمِلَّةِ ، وَأَخْلَعَهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ لِمَا
 أَنَّهُمُ الْحَائِلُونَ لِلْأَحْكَامِ الْمُتَعَدِّينَ بِهَا . وَلَمْ يَكُنْ
 إِشَارَتُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَامًا لِلْوَاتِيهِمْ ، وَإِنَّمَا
 هُوَ لِمَا يُتَلَمَّحُ مِنَ التَّجَمُّلِ بِمَكَانِهِمْ فِي مَجَالِسِ
 الْمُلْكِ لِتَعْظِيمِ الرَّتَبِ الشَّرِيعَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
 فِيهَا مِنْ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ شَيْءٌ ، وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورٌ
 رَسْمِيٌّ ، لَا حَقِيقَةَ وَرَاءَهُ . إِذْ حَقِيقَةُ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ
 إِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ . فَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلَا
 حِلَّ لَهُ وَلَا عَقْدَ لَدَيْهِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَخَذَ الْأَحْكَامِ
 الشَّرِيعَةِ عَنْهُمْ ، وَتَلَقَّى الْفَتَاوَى مِنْهُمْ ، فَتَنَّمَ
 وَاللهُ الْمُؤَلَّفُ ، وَرُبَّمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ
 فِيهَا وَرَاءَهُ ذَلِكَ ، وَأَنَّ قِتْلَ الْمُتْلُوكِ فِيهَا قَتْلُهُ
 مِنْ إخراجِ الْفُقَهَاءِ وَالْقَضَاةِ مِنَ الشُّرُورِ مَرْجُوحٌ ،
 وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَلَامَ وَرَدَّهُ الْأَنْبِيَاءُ .
 فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَمَا ظَنُّهُ . وَحُكْمُ الْمُلْكِ
 وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ
 الْعُمَرَاءِ وَالْأَكَاكِنَ بَعِيدًا عَنِ السِّيَاسَةِ . فَطَبِيعَةُ الْعُمَرَاءِ
 فِي هَؤُلَاءِ لَا تَقْتَضِي لَهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ
 الشُّرُورَ وَالْحُلَّ وَالْعَقْدَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ
 حَقِيقَةِ يَفْقَدُ بِهَا عَلَى حُلٍّ أَوْ عَقْدٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِه .
 وَأَمَّا مَنْ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ
 شَيْئًا وَلَا مِنْ حِمَايَتِهَا إِنَّمَا هُوَ حَيَالٌ عَلَى حَبِيرِهِ ،
 فَلَيْسَ مُدْخِلٌ لَهُ فِي الشُّرُورِ أَوْ أَيْ مَتَى يَدْعُو إِلَيْهِ

ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِ وَطِيفَةِ وَلَايَتِهِ ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ
 لِهَذَا التَّهَدُّ عَلَى ذَلِكَ ، وَخَرَجَتْ عَلَيْهِ الْوَطِيفَةُ عَنْ
 أَهْلِ حَقِيقَةِ الدَّوْلَةِ ، لِأَنَّ الْأَمْرَ لَهَا كَانَ خِلَافَةً
 دِينِيَّةً ، وَهِيَ الْخُطَّةُ مِنْ مَرَامِيزِ الدِّينِ فَكَانُوا الْأَيُّوْلُونَ
 فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ
 بِالْجَلْبِ أَوْ بِالرَّقْ أَوْ بِالْأَصْلَاحِ ، مِنْ يُوَثَّقُ
 بِكَيْفَايَتِهِ أَوْ غِنَايِهِ ، فِيمَا يَسُدُّعُ إِلَيْهِ . وَلَمَّا
 انْقَرَضَ شَأْنُ الْخِلَافَةِ وَطُورُهَا وَصَارَ الْأَمْرُ
 كُلُّهُ سُلْطَانًا أَوْ سُلْطَانًا ، صَارَتْ هِيَ الْخُطَّةُ الدِّينِيَّةُ
 بَعِيدَةً عَنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أَمَانِ
 الْمُلْكِ وَلَا مَرَامِيهِ . ثُمَّ خَرَجَ الْأَمْرُ جُمْلَةً مِنَ
 الْعَرَبِ ، وَصَارَ الْمُلْكَ لِيَسْوَائِهِمْ مِنْ أَمْرِ التُّرْكِ
 وَالْبَرْبَرِ ، فَازْدَادَتْ عَلَيْهِ الْخُطَّةُ الْخِلَافِيَّةُ بَعْدَ
 عَنْهُمْ ، بِمَنْحَاهَا وَحَقِيقَتِهَا . وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا
 يَرَوْنَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ دِينُهُمْ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ مِنْهُمْ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ يَحْتَطُّهُمْ بَيْنَ الْأَمْرِ
 وَطَرِيقَتِهِمْ ، وَغَيْرَهُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ ، إِنَّمَا يُؤَلُّونَهَا
 جَانِبًا مِنَ التَّعْظِيمِ ، لِمَا ذَاتُوا بِالْمِلَّةِ فَقَطَّ . فَصَارُوا
 يُقَلِّلُونَهَا مِنْ غَيْرِ حَصَابَتِهِمْ وَمِنْ كَانَ تَأَهَّلَ لَهَا
 فِي شُكْلِ الْخُلَفَاءِ السَّالِفَةِ .

وَكَانَ أَوْلَئِكَ الْمُتَأَهِّلُونَ بِمَا أَخْلَعَهُمْ تَرَفُّ الدُّوَلِ
 مِنْذُ يَبْتَنِي مِنَ السَّنِينَ قَدْ تَسَاوَوْا عَهْدَ الْبِدَاوَةِ
 وَخَشُونَتَهَا وَالتَّبَسُّوَا بِالْحَضَارَةِ فِي حَوَالِدِ تَرْفِيهِمْ
 وَدَعْوَتِهِمْ ، وَقِيلَ الْمُنَاسَخَةُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَصَارَتْ
 عَلَيْهِ الْخُطَّةُ فِي الدُّوَلِ الْمُلْكِيَّةِ مِنْ بَنِي الْخُلَفَاءِ
 مُنْخَصَّةً هَذَا الْمُنْخَصُّ مِنَ الْمُتَضَعِّعِينَ فِي أَهْلِ
 الْأَمْصَارِ ، وَنَزَلَ أَهْلُهَا عَنْ مَرَامِيهِ الْبِرِّ ، لِفَقْدِ الْأَهْلِيَّةِ

فَقَهَاهُ صَرِيحًا «إِلَّا اللَّيْنُ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»
وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» (١).

(العدالة) :

وهي وظيفة جَنِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ، وَمِنْ مَوَادِّ
تَصْرِيفِهِ . وَحَقِيقَةُ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ الْقِيَامُ مِنْ إِذْنِ
القَاضِي بِالشَّهَادَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ
تَحْلُلًا عِنْدَ الْإِشْهَادِ وَأَدَاءً عِنْدَ التَّنَازُعِ وَكِتَابًا فِي
السَّجَلَاتِ تَحْفَظُ بِهِ مَعْرِفَةُ النَّاسِ وَأَمْلَاكُهُمْ وَتَوْبُونَهُمْ
وَسَائِرَ مَعَامَلَاتِهِمْ . وَشُرْطُ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ الْأَتِّصَافُ
بِالْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الْجَرَحِ ثُمَّ الْقِيَامُ
بِكُتْبِ السَّجَلَاتِ، وَالْعُقُودُ مِنْ جِهَةِ إِحْكَامِ شُرُوطِهَا
الشَّرْعِيَّةِ وَعَقُودِهَا فَيُخَاجُ جَنْبِلٌ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ
بِذَلِكَ، مِنَ الْقِيَمَةِ، وَالْأَجَلِ عَلَيْهِ الشُّرُوطُ، وَمَا
يُخَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمِرَانِ (٢) عَلَى ذَلِكَ، وَالْمُمَارَسَةُ
لَهُ اخْتِصَاصٌ ذَلِكَ بِبَعْضِ الْمُتَلَوِّ، وَصَارَ الصَّنُفُ
الْقَائِمُونَ بِهِ كَانَتْهُمْ مُخْتَصِّصُونَ بِالْعَدَالَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ .
وَأِنَّمَا الْعَدَالَةُ مِنْ شُرُوطِ اخْتِصَاصِهِمْ بِالْوُظَيْفَةِ .

وَيَجِبُ عَلَى الْقَاضِي تَصَفُّحُ أَحْوَالِهِمْ، وَالْكَشْفُ
عَنْ سِيرَتِهِمْ، رِعَايَةً لِشُرْطِ الْعَدَالَةِ فِيهِمْ، وَأَنْ
لَا يُهَيَّلَ ذَلِكَ لِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ مِنْ حِفْظِ حَقُوقِ
النَّاسِ . فَالْمُهَنْدَةُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهُوَ ضَامِعٌ
حَرَسُهُ (٣).

إِذَا تَعَيَّنَ هَؤُلَاءُ لَهُلِهِ الْوُظَيْفَةُ حَسَبِ الْقَائِدَةِ
فِي تَعْيِينِهِ مِنْ تَخْفِضِ عَدَالَتِهِ عَلَى الْقَضَاءِ وَسَبَبِ

اِحْتِبَارِهِ فِيهَا . اللَّهُمَّ إِلَّا شُورَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنْ
الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، فَمَوْجُودَةٌ فِي الْاِسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً ،
وَأَمَّا شُورَاهُ فِي السِّيَاسَةِ ، فَهُوَ يَجِدُ حَتَّى لِفُقْدَانِهِ
الْحَصِيَّةَ وَالْقِيَامَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَأَحْكَامِهَا .
وَأِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ ،
الشَّاهِدَةِ لَهُمْ بِجَمِيلِ الْاِحْتِقَادِ فِي اللَّيْنِ وَتَعْظِيمِ
مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِأَيِّ جِهَةٍ اِنْتَسَبَ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَلِمَةُ وَرَثَةُ
الْأَنْبِيَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَقَهَاءَ فِي الْأَغْلَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ
وَمَا احْتَفَ بِهِ إِنَّمَا حَلَمُوا الشَّرِيعَةَ أَقْوَالًا فِي
كَيْفِيَّةِ الْأَعْمَالِ فِي الْعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ الْقَضَاءِ فِي
الْمُعَامَلَاتِ يَنْصَوْنَهَا عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا .
عَلَيْهِ غَايَةُ أَكْبَرِهِمْ، وَلَا يَتَصَوَّنُونَ إِلَّا بِالْأَكْمَلِ مِنْهَا وَفِي
بَعْضِ الْأَحْوَالِ . وَالسَّلَفُ رَضَوْنَ اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَأَهْلُ
الْبَيْتِ وَالْوَرَعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَلَمُوا الشَّرِيعَةَ اِتِّصَافًا
بِهَا وَتَحَقُّقًا بِمَلَاهِجِهَا . فَمَنْ حَلَمَهَا اِتِّصَافًا وَتَحَقُّقًا
فَوْنٌ تَفْضِلُ فَهُوَ مِنَ الْوَارِثِينَ يَثْلُو أَهْلُ رِسَالَةِ
الْقُسْطِيِّ . وَمَنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ فَهُوَ الْعَالِمُ ،
وَهُوَ الْوَارِثُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِثَلْ ثَقَلَاءِ التَّابِعِينَ
وَالسَّلَفِ وَالْأَيُّمَةِ الْأَرَبَةِ وَمَنْ اِتَّقَى طَرِيقَهُمْ وَجَاءَ
عَلَى آثَرِهِمْ .

وَإِذَا انْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَيُّمَةِ بِإِحْدِ الْأُمُورِ
فَالْعَالِدُ أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ مِنَ الْفَقِيرِ الَّذِي لَيْسَ بِعَالِدٍ
لِأَنَّ الْعَالِدَ وَرِثٌ بِصِفَتِهِ وَالْفَقِيرُ الَّذِي لَيْسَ
بِعَالِدٍ لَمْ يَرِثْ شَيْئًا ، إِنَّمَا هُوَ صَالِحٌ أَقْوَالٍ
يَنْصَحُا طَبِئًا فِي كَيْفِيَّاتِ الْعَمَلِ . وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ

(١) مِنَ الْآيَةِ : ٢٤ مِنْ سُورَةِ ص .

(٢) الْمِرَانُ بِكَسْرِ الْمِيمِ التَّعَرُّفُ وَالِاحْتِدَادُ عَلَى الشَّيْءِ .

(٣) سَلَمَتُ تَبَتُّهُ .

المعاش وغيرها في المكابيل والموازين، وله أيضا حمل الماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بيّنة، ولا إنفاذ حكم. وكانت أحكام ينزّه القاضي عنها لعمومها وسهولة أفراسها، فتدفع إلى صاحب عليه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون حادمة لمنصب القضاء، وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية، مثل البيديين بمصر، والمغرب والأمويين بالأندلس، دجلة في هوم، ولأية القاضي، يؤلف فيها باختياره. ثم لما انفردت وظيفة السلطان من الخلافة، وصار نظره عاما في أمور السياسة، اندرجت في وظائف الملك وأفردت بالولاية.

(وأما السكّة) فهي النظر في النقود المتماثل بها بين الناس، وحفظها مما يتأكلها من الفسّ أو النقص إن كان يتماثل بها عددا، أو ما يتعلق بملك، ويوصل إليه من جميع الاختيارات، ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاشياعة والمطوس^(١) يرمز تلك العلامة فيها من خاتم خلد اتخذ لذلك، ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار، بقدر أن يقدر ويضرب على المطرقة، حتى ترسم فيه تلك النقوش، وتكون علامة على جودته بحسب القاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر، ومتأهب الدولة الحاكمة.

فلأن السبك والتخليص في النقود لا يفتقر جند غاية، وإنما ترجع غايته إلى الاجتهاد. فلذا

تسمع الأنصار واشتباه الأحوال، واضطرار القضاء إلى الفصل بين المتنازعين بالبيّنات الموثوقة، فيقولون غالبا في الوثوق بها على هذا السنف. ولهم في سائر الأمصار كالكين ومصايب يختصون بالجلوس عليها، فيتعاملهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتغييره بالكتاب. وصار مدلول عليه اللفظة مشتركا بين هذه الوظيفة، التي تبين مدلولها، وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح. وقد يتواردان ويفترقان. والله تعالى أعلم.

الجسبة والسكّة

(أما الجسبة) فهي وظيفة دينية، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين، يمين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الأعراف على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزّذ ويؤدّب على قدرها ويحول الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المصايف في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على كل المباني المتداعية بالسقوط. بهنهما وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والشرب على أيدي المسلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ^(١) في ضربهم للصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو اشتداد، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى جلبه من ذلك وترفع إليه، وليس له إفضاء الحكم في النواهي مطلقا، بل فيما يتعلق بالفش والتدليس في

(١) من التزييف والفس.

(١) المبالغة فيه بما يفقد القوة غايته.

يُسَمُّونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يَزَلِ الْأُمَرَاءُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ . فَلَمَّا بُويعَ لِعُمَرَ بِعَهْدِهِ إِلَيْهِ ، كَانُوا يَذْعُونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَكَانَهُمْ اسْتَشْفَلُوا هَذَا الْقَلْبَ بِكَثْرَتِهِ وَلَوَلِّ إِصَافِيهِ ، وَأَنَّهُ يَتَزَايَدُ فِيمَا يَبْدُو كَالْيَا ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْهَجْنَةِ (١) ، وَيَتَلَعَّبُ مِنْهُ التَّمْيِيزُ بِتَمَلُّكِ الْإِصَافَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَلَا يُعْرِفُ فَكَانُوا يَقُولُونَ عَنْ هَذَا الْقَلْبِ إِلَى مَا يَوَاوُءُ ، بِمَا يُنَاصِبُهُ وَيُدْعَى بِهِ مِنْهُ ، وَكَانُوا يَسْمُونَ قَوَادَ بِاسْمِ الْأَمِيرِ ، وَهُوَ قَبِيلٌ مِنَ الْإِمَارَةِ ، وَقَدْ كَانَ الْجَاهِلِيَّةُ يَذْعُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِيرَ مَكَّةَ ، وَأَمِيرَ الْحِجَازِ ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ أَيْضًا يَذْعُونَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِإِمَارَتِهِ عَلَى جَيْشِ الْقَادِسِيَّةِ ، وَهُمْ مَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ . وَاتَّفَقَ أَنَّ دَعَا بَعْضِ الصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَحْسَنَهُ النَّاسُ ، وَاسْتَحْصَوْهُ وَدَعَوْهُ بِهِ . يُقَالُ إِنْ أَوَّلَ مَنْ دَعَاهُ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ ، وَقِيلَ عُمَرُ بْنُ الْكَاصِ ، وَالْمُيَمَّرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ، وَقِيلَ : بَرِيدُ جَاءَهُ بِالْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ الْبَحْثِ ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ، وَهُوَ يَسْأَلُ عَنِ عُمَرَ ، وَيَقُولُ أَيْنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ وَسَمِعَهَا أَنْصَابُهُ فَاسْتَحْصَنُوهُ ، وَقَالُوا : أَتَبَيْتُ وَاللَّهِ اسْمُهُ ، إِنَّهُ وَاللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا . فَدَعَوْهُ بِذَلِكَ ، وَدَعَبَ لِقَبَالَتِهِ فِي النَّاسِ ، وَتَوَارَقَتْ الْخُلُقَاءُ مِنْ بَعْدِهِ ، بِسَبِّ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ يَوْمَئِذٍ سَائِرِ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ .

(١) المجنة في الكلام ما يهيج .

وَقَدْ أَهْلُ أَقْبَى ، أَوْ قَطَرٍ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّخْلِيفِ ، وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَوْهَا إِمَامًا وَجَارًا يَخْتَارُونَ بِهِ نَفْسَهُمْ وَيَتَّبِعُونَهَا بِمِثَالَتَيْهِ . فَإِنْ نَقَصَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ زَيْعًا .

وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هَذِهِ الْوَلَفِيَّةِ ، وَهِيَ جَنِبَةٌ بِهَذَا الْاِخْتِيَارِ ، فَتَنْفَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ ، وَقَدْ كَانَتْ تَنْفَرِجُ فِي عُمُومٍ وَلَايَةِ الْقَاصِ ، ثُمَّ أَفْرَدَتْ لِهَذَا الْمَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي الْجَنَسَةِ .

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْوَلَفِيَّةِ الْخِلَافِيَّةِ ، وَتَبَيَّنَتْ مِنْهَا وَطَائِفُ دَهَبَتْ بِدَعَابِ مَا يُنْظَرُ فِيهِ ، وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً .

فَوَلَفِيَّةُ الْإِمَارَةِ وَالْوَزَارَةِ وَالْحَرْبِ وَالْخَرَاجِ ، صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً تَنَكَّلُ عَلَىهَا فِي أَمَاكِينِهَا بَعْدَ وَطَنِيَّةِ الْجِهَادِ .

وَوَلَفِيَّةُ الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِطُلُوعِهِ ، إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يُعَارِضُونَهُ ، وَيُدْرِجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي السُّلْطَانِيَّاتِ .

وَكَلَّا نِقَابَةَ الْأَتَسَابِ ، الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ أَوِ الْحَقِّ فِي بَيْتِ الْمَالِ ، قَدْ بَطَلَتْ لِدُنُورِ الْخِلَافَةِ وَرُوسِيهَا ، وَبِالْجَمْلَةِ قَدْ انْتَهَزَتْ رُسُومَ الْخِلَافَةِ وَوَطَائِفُهَا فِي رُسُومِ الْمُلُوكِ وَالسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ ، لِهَذَا الْمَهْدِ . وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ .

الفصل الثاني والثلاثون

فِي الْقَلْبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّهُ مِنْ سِهَاتِ الْخِلَافَةِ ، وَهُوَ مُحَدَّثٌ نَحْذَ عَهْدِ الْخُلَفَاءِ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَسَائِرُ الْمُسْلِمِينَ

أَلِيَسَ السُّوءُ ، وَصَرَفًا لَهَا هِيَ الْإِيذَالُ ، قَلَقْنَا بِهَا
بِالسَّفَاحِ ، وَالْمَنْصُورِ ، وَالْمَهْدِيِّ ، وَالْهَادِي ،
وَالرَّشِيدِ ، إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ .
وَاقْتَفَى أَتْرُفَهُ فِي ذَلِكَ التَّيْبِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ
وَمِصْرَ .

وَتَجَافَى بَنُو أُمَيَّةَ عَنْ ذَلِكَ ؛ أَمَّا بِالشَّرْقِ فَعَرَبِيَا
عَلَى التَّنَاضُفِ وَالسَّادَجَةِ لِأَنَّ الْعُرُوبِيَّةَ وَمَنَازِعَهَا لَمْ
تُفَارِقْهُمْ حَيْثُ دَبَّ ، وَلَمْ يَتَحَرَّكَ عَنْهُمْ شِعَارُ الْإِدَاوَةِ ؛
إِلَى شِعَارِ الْخِصَارَةِ (١) ؛ وَأَمَّا بِالْأَنْدَلُسِ ، فَتَقْلِيدًا
لِسُلْطَانِهِمْ مَعَ مَاعِزِلُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ ذَلِكَ
بِالْقُصُورِ عَنْ الْخِلَافَةِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ بِهَا بَنُو الْعَبَّاسِ ،
ثُمَّ بِالْعِزِّ عَنْ مَلِكِ الْحِجَازِ ، أَصْلِ الْعَرَبِ وَالْإِلَفِ
وَالْبَلَدِ عَنْ دَارِ الْخِلَافَةِ الَّتِي هِيَ مَوْكُزُ النُّصَبَةِ .
وَأَنْتَهُمْ إِنَّمَا مَتَّعُوا بِإِسَارَةِ الْقَاصِيَةِ أَنْفُسَهُمْ
مِنْ مَهَالِكِ بَنِي الْعَبَّاسِ . حَتَّى إِذَا جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
الْآخِرُ مِنْهُمْ ، وَهُوَ النَّاصِرُ بْنُ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، الْأَوْسَطِ لِأَوَّلِ الْبَائِتِ
الرَّابِعَةِ ، وَاسْتَشْهَرَ مَا نَالَ الْخِلَافَةَ بِالشَّرْقِ مِنْ
الْحَجَرِ ، وَاسْتَيْدَادِ الْعَوَالِي ، وَحَيْثُ فِي الْخُلَفَاءِ
بِالْقَوْلِ وَالْإِسْتِيْدَالِ ، وَالْقَتْلِ وَالسُّلَى (٢) . ذَهَبَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذَا إِلَى يَثَلِ مَذَاهِبِ الْخُلَفَاءِ بِالشَّرْقِ
وَأَفْرِيقِيَّةٍ ، وَتَسَمَّى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَقَّبَ
بِالنَّاصِرِ لِيُبَيِّنَ اللَّهَ ، وَأَهْلَتْ مِنْ بَعْدِهِ عَادَةٌ
وَمَلَّحَ لَقْنُ عَنْهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَأَبَائِهِ وَسَلَفِ
قَوْمِهِ (٣) .

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْعَةَ خَصُّوا عَلِيًّا بِاسْمِ الْإِمَامِ نَحْوًا لَهُ
بِالْإِمَامَةِ ، الَّتِي هِيَ أُنْتُ الْخِلَافَةِ ، وَتَقْرِيضًا
بِحَدِيثِهِمْ ، فِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِإِمَامَةِ الصَّلَاةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ
لِمَا هُوَ مَذْهَبُهُمْ وَيَذْهَبُهُمْ فَخَصُّوه بِهَذَا الْقَبِ ،
وَلَيْمَنْ يَسُوقُونَ إِلَيْهِ مَنْصَبَ الْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ ،
فَكَانُوا كُلُّهُمْ يُسَمُّونَ بِالْإِمَامِ ، مَا دَامُوا يَدْعُونَ
لَهُمْ فِي الْخَفَاءِ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ
يُسَوِّقُونَ الْقَبَّ لِيَمَّا يَحْدُثُ إِلَى أَبِيهِ الْمُؤْمِنِينَ ،
كَمَا فَعَلَهُ شَيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ . فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ
أَنْتَهُمْ بِالْإِمَامِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ الَّذِي جَهَّزُوا بِالْخَفَاءِ
لَهُ ، وَعَقَدُوا الرِّيَاسَاتِ لِلْحَرْبِ عَلَى أَمْرِهِ . فَلَمَّا
هَلَكَ ، دُعِيَ أَصُوهُ السَّفَاحِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَذَا
الرَّافِضَةُ بِأَفْرِيقِيَّةٍ . فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَيْتَهُمْ
مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بِالْإِمَامِ ، حَتَّى انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى
مُؤَيَّدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ ، وَكَانُوا أَيْضًا يَدْعُونَهُ بِالْإِمَامِ ،
وَالْبَيْتُ أَبِي الْقَاسِمِ مِنْ بَعْدِهِ . فَلَمَّا اسْتَوْفَقَ لَهُمْ
الْأَمْرُ ، دَعَا مِنْ بَعْدِهِمَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . وَكَذَا
الْأَذَارِسَةُ بِالشَّرْقِ ، كَانُوا يُلَقَّبُونَ إِدْرِيسَ بِالْإِمَامِ ،
وَابْنَهُ إِدْرِيسَ الْأَضْرَجَ كَذَلِكَ . وَهَكَذَا سَمَانُهُمْ .

وَقَوَارِثُ الْخُلَفَاءِ هَذَا الْقَبِّ ، بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَجَعَلُوهُ سِمَةً لِمَنْ يَمْلِكُ الْحِجَازَ وَالشَّامَ وَالْإِرَاقَ
وَالْعَوَالِي الَّتِي هِيَ دِيَارُ الْعَرَبِ وَمَوَازِيِ الدَّوْلَةِ
وَأَهْلُ الْيَلَةِ وَالْفَتْحِ . وَلَوْ كَادَ كَثَلُكَ فِي عُنُقَانِ
الدَّوْلَةِ وَبَنِيهَا لَقَبَ آخَرُ لِلْخُلَفَاءِ يَتِمِّزُ بِهِ
بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، لِمَا فِي أَبِيهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
الْإِسْتِزَاكِ بَيْنَهُمْ ، فَاسْتَحْدَثَ لِلذَّكَ بَنُو الْعَبَّاسِ
حِجَابًا لِأَسْمَائِهِمُ الْأَعْلَامِ عَنْ لَهْزَانِهَا فِي

(١) مَا بَيْنَ الرَّحْمَنِ مَقُولٍ مِنْ مَشْهُورِهِ د. وَالْأَوْسَطُ لِلتَّسْلُفِ
عَلِيَّةٌ دَقِيقَةٌ ، وَهَذَا يَسْتَقِيمُ مَا فِي النُّسخَةِ الْآخَرَى مِنْ مَعْرِفِ
(٢) قَوْلِهِ الْمَجْزُ .

فقط ، فيقولون صلاح الدين ، أسد الدين ،
لور الدين

وأما ملوك الطوائف بالأندلس ، فاقسموا
ألقاب الخلافة وتوزعوا ، لقوة استبدادهم عليها
بما كانوا من قبيلها ، وحسبها فتلقبوا بالناصر ،
والمصور ، والمُعجد ، والمظفر ، وأمثالها ،
كما قال ابن أبي شرف يثنى عليهم :

يما يزعمني في أرض أندلس
أسماء تحميد فيها ومحميد

الألقاب مملكة في غير موضعها

كأهل يحكي انتفاها صورة الأسد

وأما صنهاجة ، فاقصروا عن الألقاب التي كان
الخطاء المبيدين يلقبون بها لغنويهم ، مثل نصير
الدولة ، وشيخ الدولة . واتصل لهم ذلك لما أكالوا
من دغوة المبيدين بدغوة التبايين ، ثم بعثت
الشقة بينهم وبين الخلافة ونموا عهدا فسوا
عليه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان . وكذا
شان ملوك مراوة بالمغرب لم ينتحلوا قبضا مع
عليه الألقاب ، إلا اسم السلطان جزئيا على ملاب
البداوة والقضاة .

ولما مضى رسم الخلافة ، وكسطل شفعها ،
وقام بالمغرب من قبائل البربر ، يوسف بن
تايفين ، ملك لغنوة فملك المولتين ، وكان
من أهل الخير والافتكاه ، فرعت به جمته إلى النحرول
في طاعة الطيفه تكميلا ليراسم بينه ، فخطب
المستظهر التباي ، وأوفد عليه ببيعه عبد الله بن
المري وبنه القاصي أبا بكر بن شفيحة لإسبيلية .

واستمر الحال على ذلك ، إلى أن انقرضت
حسبة الرب أجمع ، ودعب رسم الخلافة ،
وقلب التواي من التجم على بن التباي ،
والصنائع على المبيدين بالقاهرة ، وصنهاجة على
أمراء أفريقية ، وزكاة على المغرب ، وملوك
البرابرة بالأندلس على أمر بن أمية واقتسوة ،
وانتزع أنز الإسلام ، فاختلقت ملاب الملوك
بالمغرب والشرق في الاحصاين بالألقاب ،
بعد أن قسموا جميعا باسم السلطان .

فلما ملوك الشرق من التجم ، فكان الظفة
يخصونهم بالألقاب تفريفية حتى يستعمر بها
انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم ، مثل شرك
الدولة ، وحض الدولة ، وزكن الدولة ، وشيخ الدولة
ونصير الدولة ، ونظام الملك ، وبهاء الدولة ،
وقهيرة الملك ، وأمثال ذلك . وكان المبيدون
أيضا يخصصون بها أمراء صنهاجة ، فلما استبدوا على
الخلافة قنعوا بهلب الألقاب ، وتجاؤوا عن الألقاب
الخلافة أدبا منها وعولوا عن سياتها المخصص بها ،
شان المخطيين المستعبدين كما قلناه .

ونزع المظهرون أملاهم الشرق حين قوى
استبدادهم على الملك ، وعلا كبرهم في الدولة
والسلطان ، وتلاشت حسبة الخلافة ، وانسلخت
بالجيلة ، إلى التحال الألقاب الخاصة بالملك ،
مثل الناصر ، والمصور زيادة على ألقاب
يخصصون بها قبل هذا الانتحال ، مفعرة بالخروج
عن رتبة الولاء والاضطباع بما أضاعوا إلى الدين

به عنق سوانهم ، لما دعا إليه فيسخرهم الهندي
من ذلك ، وأنه صاحب الأمر ، وأوليائه من بعده
كذلك دون كل أحد لانتفاء غضبيه قريش
ونلاشيها ، فكان ذلك دأبهم

ولما انتفض الأمر بالمغرب ، وانتفضه زناتة ،
ذهب أولهم مذهب البدو والسلاج ، وأتباع
لمتونة في انتحال القب بامير المؤمنين أدبا
مع رتبة الخلافة ، التي كانوا على طاعتها يني
عبد المؤمن أولا وكيتي أبي حفص من بعدهم ،
ثم فرغ المتشكرون منهم إلى القب بامير المؤمنين
وانتخطوه لهذا العهد ، استبلاغا في متفرع الملك ،
وتقسيمها لمذاهب ويساوي ، والله غالب على أمره .

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية

واسم الكوهن عند اليهود

اعلم أن اليلة لا بد لها من قائم عند فيبي
النبي ، يحيلهم على أحكامها وشرايعها ، ويكون
كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكليف .
والنوع الإنساني أيضا ، بما تقدم من ضرورة
السياسة فيهم للاجتماع البشري ، لا بد لهم من
شخص يحيلهم على مصالحهم ، ويؤمهم (١) عن
مقاصبهم بالقهر ، وهو المسمى بالملك . والملة
الإسلامية ، لما كان الجهاد فيها مشروعا لمؤمن
الآخر ، وحمل الكافة على بين الإسلام طوعا
أو كرها ، أصبحت (٢) فيها الخلافة والملك ، لينرجو
الشوكة من القائلين بها اليهنا هنا .

بطلان قوليه لها كما على المغرب وتقليده ذلك ،
فانقلبوا إليه بعد الخلافة له على المغرب ،
واستشار ربه في لبوسه ورتبه ، وعاطفه
مع نا أمير المؤمنين تشريفا واختصاصا ، فانتظما
لقبا ، ويقال إنه كان دعى له بامير المؤمنين
من قبل (١) أتباعه مع رتبة الخلافة ، لما كان عليه
هو وقومه المرابطون من انتحال الدين ، وأتباع
السنة . جاء المهدي على أثرهم ، داعيا إلى الحق
أخذا بمذاهب الأشعرية ، قايما على أهل المغرب
عدولهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل
لظواهر الشريعة ، وما يقول إليه ذلك من التحجيم ،
كما هو معروف في مذهب الأشعرية ، وتسمى أتباعه
الموحدين ، فخرضا بذلك التكبير (٢) . وكان
يزي رأى أهل البيت في الإمام المصوم ، وأنه
لا بد منه في كل زمان ، يحفظ بوجوبه نظام هذا
التام ، فسمى بالإمام لما قلناه أولا من مذهب
الشيعي في ألقاب خلفائهم ، وأزوف بالمصوم
إشارة إلى مله في عصمة الإمام ، وقنوة عند
التابع عن أمير المؤمنين ، أخذا بمذاهب المتفلسفين
من الشيعة ، ولما فيها من مشاركة الأفعال والولادة
من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالشرق .

ثم انتحل عبد المؤمن وتلى عهد القب بامير
المؤمنين ، ونجى عليه من بعلية خلفه بن عبد
المؤمن ، وآل أبي حفص مع بعدهم . استغفروا

(١) ذهب والي إلى أن هنا جملة ساقطة بين كلمتي « قبل » و «

» أدبا » وهي : لم يعمل ذلك ، انظر تعليق ٧١٩ في مقدمة

٥ - والي

(٢) يسمى العمل المغني الي التشجيع والتوسيع .

(١) منهم فردم .

(٢) في جميع النسخ - اضفها بالمدال الجملة وهو تعريف

أَرْبَعِيَّةَ سَنَةٍ . وَلَمْ تَكُنْ بِهِمْ صَوْلَةُ الْمَلِكِ . وَصَحِرَ
بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مُطَالَبَةِ الْأُمَمِ ، فَطَلَبُوا عَلَى لِسَانِ
شَمُوئِيلَ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي تَمْثِيلِكِ رَجُلٍ
عَلَيْهِمْ قَوْلُ طَالُوتَ ، وَغَلَبَ الْأُمَمُ ، وَقَتَلَ جَالُوتَ
مَلِكَ الْفِلِسْطِينِ ، ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ دَاوُدُ ، ثُمَّ سَلِمَانَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ، وَاسْتَفْحَلَ مُلْكُهُ وَاقْتَدَى إِلَى
الْحِجَازِ ، ثُمَّ أَطْرَافَ الْيَمَنِ ، ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِ الرُّومِ .
ثُمَّ افْتَرَقَ الْأَسْبَاطُ مِنْ بَعْدِ سَلِمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِ بِمَقْتَضَى النَّصِيحَةِ إِلَى الدُّوَلِ ، كَمَا قَدْ مَنَّا إِلَى
دَوْلَتَيْنِ ، كَانَتَا إِخْصَاءً بِالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْجِلِ لِلْأَسْبَاطِ .
الْعَشْرَةُ ، وَالْأُخْرَى بِالْقُدْسِ وَالشَّامِ لِبَنِي يَهُوذَا وَبَنِيامينَ .
ثُمَّ غَلَبَهُمْ بِخُتْنَصَرِ عَمَلِكَ بَابِلَ ، عَلَى مَا كَانَ
بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمُلْكِ ، أَوَّلَا الْأَسْبَاطِ . الْعَشْرَةُ ، ثُمَّ
ثَانِيًا بَنِي يَهُوذَا وَبَنِي الْمَقْدِسِ بَعْدَ انْتِصَالِ
مَلِكِهِمْ نَحْوَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَخَرَّبَ مَسْجِدَهُمْ ،
وَأَحْرَقَ تَوَارِثَهُمْ ، وَأَمَاتَ بَيْنَهُمْ ، وَنَقَلَهُمْ إِلَى
أَصْبَهَانَ وَبِلَادِ الْوَرَقِ ، إِلَى أَنْ رَدَّعَهُمْ بِخُصْ مُلُوكِ
الْكَيْتَانِيَّةِ مِنَ الْقُرَيْنِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ بَعْدِ
سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ خُرُوجِهِمْ ، فَبَنَوْا الْمَسْجِدَ وَأَقَامُوا
أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى الرَّسْمِ الْأَوَّلِ لِلْكَهَنَةِ فَقَطْ .
وَالْمُلْكُ لِلْقُرَيْنِ . ثُمَّ غَلَبَ الْإِسْكَنْدَرُ ، وَبَنُو
يُونَانَ عَلَى الْقُرَيْنِ ، وَصَلَا الْيَهُودُ فِي مَلِكِهِمْ ، ثُمَّ
فُجِّلَ أَمْرُ الْيُونَانِيِّينَ ، فَأَخْزَى الْيَهُودَ عَلَيْهِمْ بِالنَّصِيحَةِ
الطَّبِيعِيَّةِ ، وَدَفَعَهُمْ عَنْ الْأَسْبَاطِ عَلَيْهِمْ بِوَقَامِ
بِعْلَكِهِمْ الْكَهَنَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ مِنْ بَنِي حُشَمَانِي
وَقَاتَلُوا يُونَانَ حَتَّى انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ ، وَغَلَبَهُمُ الرُّومُ
فَصَارُوا تَحْتَ أَمْرِهِمْ . ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ

وَأَمَّا مَسْئِلَةُ الْيَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتَهُمْ
عَامَّةً ، وَلَا الْجِهَادَ حِينَئِذٍ مَشْرُوعًا ، إِلَّا فِي الْمَنَافَةِ
فَقَطْ ، فَصَارَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا . لَا يَتَّبِعُ
شَيْءٌ مِنْ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ ، وَإِنَّمَا وَقَعَ الْمُلْكُ لِمَنْ
وَقَعَ مِنْهُمْ بِالرَّحْمَةِ ، وَلَا أَمْرٌ غَيْرَ دِينِي ، وَهُوَ مَا اقْتَضَتْهُ
لَهُمُ النَّصِيحَةُ لِمَا فِيهَا مِنَ الطَّلَبِ لِلْمُلْكِ بِالطَّبِيعِ ،
لِمَا قَدْ مَنَّا ، لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ بِالِتَّقَلُّبِ عَلَى
الْأُمَمِ ، كَمَا فِي الْيَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُمْ
مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فِي خَاصَتِهِمْ .

وَاللَّذِي بَعَثَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى
وَيُوسُفَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا نَحْوَ أَرْبَعِيَّةِ سَنَةٍ
لَا يَخْتُونُ غَيْبَهُ مِنْ أَمْرِ الْمُلْكِ ، إِنَّمَا هُمْ قَائِمَةٌ
بَيْنَهُمْ فَقَطْ ، وَكَانَ الْقَائِمُ بِهِ بَيْنَهُمْ يُسَمَّى الْكُورِينَ
كَأَنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، يُعَيِّنُ لَهُمْ
أَمْرَ الْعِلَاقِ وَالْقُرْبَانِ ، وَيَشْفَعُونَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ
قُرْبَى هَارُونَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ مُوسَى لَمْ
يُخَيَّبْ . ثُمَّ اخْتَارُوا لِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِي هِيَ لِلنَّبِيِّ
بِالطَّبِيعِ سَبْعِينَ شَيْخًا ، كَانُوا يَنْتَلُونَ أَحْكَامَهُمْ
الْعَامَّةَ ، وَالْكُورِينَ أَعْظَمُ مِنْهُمْ رُتْبَةً فِي الدِّينِ ،
وَأَبْعَدُ عَنْ شُعْبِ الْأَحْكَامِ . وَاتَّصَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ
إِلَى أَنْ اسْتَعْمَكَتْ طَبِيعَةُ النَّصِيحَةِ ، وَتَمَحَّضَتْ
الشُّرَكَةُ لِلْمُلْكِ ، فَطَلَبُوا الْكُتَاتِيَّينَ عَلَى الْأَرْضِ
الَّتِي أَوْزَعَهُمُ اللَّهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ - وَمَا جَاوَزَهَا - كَمَا
بَيَّنَّ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ،
فَصَارَتْهُمْ أُمَمُ الْفِلِسْطِينِ ، وَالْكُتَاتِيَّينَ ، وَالْأَزْمِ
وَأَرْدَنَ ، وَعَمَانَ ، وَمَتَارِبَ ، وَرَقَاسَتَهُمْ فِي ذَلِكَ
وَأَجَمَةً إِلَى شُبُوحِهِمْ ، وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ نَحْوًا مِنْ

فَكُتِبَ عَنْهُ إِنجِيلُهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ ،
وَنَقَلَ يُوْحَنَّا بْنُ زَبْدَى مِنْهُمْ إِلَى اللُّسَانِ الْإِلَهِيِّ ،
وَكُتِبَ لَوْحًا مِنْهُمْ إِنجِيلُهُ بِاللَّاتِينِيَّةِ ، إِلَى بَعْضِ
أَكْبَارِ الرُّومِ ، وَكُتِبَ يُوْحَنَّا بْنُ زَبْدَى مِنْهُمْ
إِنجِيلُهُ بِرُومَةَ ، وَكُتِبَ بَطْرُسُ إِنجِيلُهُ بِاللَّاتِينِيَّةِ
وَنَسَبَهُ إِلَى مُرْقَاسَ (١) تَلْمِيذِهِ ، وَاخْتَلَفَتْ هَلِكُ
النَّسَخِ الْأَرْبَعُ مِنَ الْإِنجِيلِ ، مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كُلُّهَا
وَحْيًا صِرْفًا ، بَلْ مَشُوبَةٌ بِكَلَامِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَبِكَلَامِ الْحَوَارِيِّينَ ، وَكُلُّهَا مُوَاطَءٌ وَكَصَصٌ ،
وَالْأَحْكَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جَدًّا .

وَاجْتَمَعَ الْحَوَارِيُّونَ ، أُرْسِلَ لِلذِّكْرِ الْمَعْدِي ،
بِرُومَةَ وَوَضَعُوا قَوَانِينَ الْبِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَصَيَّرُوهَا
بَيِّنَةً أَقْلِيَّةً تَحْتَ بَطْرُسَ ، وَكَتَبُوا فِيهَا عَدَدُ
الْكِتَابِ الَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا .

فَمِنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ الْقَدِيمَةِ ، الثَّوَرَةُ : وَهِيَ
حَقِيقَةُ أَشْفَارِ ، وَكِتَابُ يَوْشَعَ ، وَكِتَابُ الْقَضَاةِ ،
وَكِتَابُ رَاخُوثَ ، وَكِتَابُ يَهُوذَا ، وَأَسْفَارُ الْمُلُوكِ
أَرْبَعَةٌ ، وَيُسُفَرُ بَنِيَامِينَ ، وَكِتَابُ الْمَقَابِيِينِ ،
لَا بَنِي كَرِيُونَ ثَلَاثَةٌ ، وَكِتَابُ عَزْرَا الْإِمَامِ ، وَكِتَابُ
أَوْشِيرَ وَهَضَةُ هَامَانَ ، وَكِتَابُ أَيُّوبَ الصَّالِحِ ،
وَمَزَامِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكِتَابُ ابْنِهِ سُلَيْمَانَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسَةٌ ، وَتَبَيُّوَاتُ الْأَنْبِيَاءِ الْكِبَارِ
وَالصَّغَارِ مِئَةً عَشَرَ ، وَكِتَابُ يَسُوعَ بْنِ شَارِخَ ،
وَزَيْرِ سُلَيْمَانَ (٢) .

وَمِنْ شَرِيعَةِ عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُتَقَلِّدَةُ
مِنَ الْحَوَارِيِّينَ ، نَسَخُ الْإِنْجِيلِ الْأَرْبَعِ ، وَكِتَابُ

وَفِيهَا تَبَوُّهُ يَرُودُسَ ، أَصْهَارُ بَنِي خَشْمَنَائَ ، وَبَقِيَّتُ
دَوْلَتِهِمْ فَحَاصِرُوهُمْ مِلَّةٌ ، ثُمَّ انْتَحَبُوهَا عَتُوهُ ،
وَأَفْتَحُوهَا فِي الْقَتْلِ وَالْهَذْمِ وَالتَّخْرِيقِ ، وَخَرَّبُوا
بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، وَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا إِلَى رُومَةَ وَمَا وَرَافَهَا
وَهُوَ الْخَرَابُ الثَّانِي لِلْمَسْجِدِ ، وَيُسَمِّيهِ الْيَهُودُ
بِالْجَلُوتَةِ الْكُبْرَى . فَلَمْ يَمُتْ لَهُمْ بَعْدَهَا مَلِكٌ لِفَقْدَانِ
النَّصِيبَةِ مِنْهُمْ ، وَبَقُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَلَكَةِ الرُّومِ
مِنْ بَنِيهِمْ ، يُقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمْ ، الرَّئِيسُ
عَلَيْهِمْ ، الْمُسَمَّى بِالْكُوهِنِ .

ثُمَّ جَاءَ الْمَسِيحُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ،
بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ وَالنَّسَخِ لِيَقْبِضَ أَحْكَامُ
الثَّوَرَةِ ، وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ الْحَوَارِيقُ الصَّحِيَّةُ ،
مِنْ إِبْرَاهِمَ الْأَخْمَرِ وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى ،
وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَأَتَوْا بِهِ ،
وَأَكْثَرَهُمُ الْحَوَارِيُّونَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَكَانُوا أُنْتِ
عَشَرَ ، وَبَعَثَ مِنْهُمْ رَسُولًا إِلَى الْأَقَاقِ ، دَاعِيًا إِلَى
مِلَّتِهِ ، وَذَلِكَ أَيَّامَ أَوْغُسْطُسَ ، أَوَّلِ مُلُوكِ الْقِيَامِ
وَفِي مُدَّةِ يَرُودُسَ مَلِكِ الْيَهُودِ ، الَّذِي انْتَرَعَ الْمُلْكُ
مِنْ بَنِي خَشْمَنَائَ أَصْهَارِهِ ، فَحَسَدَهُ الْيَهُودُ وَكَلَّبُوهُ
وَكَاتَبَ يَرُودُسَ مَلِكَهُمْ مَلِكَ الْقِيَامَةِ أَوْغُسْطُسَ
يُخْرِجُهُ بِهِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ فِي قَتْلِهِ ، وَوَقَعَ مَا تَلَاَهُ
الْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِهِ .

وَأَفْتَرَقَ الْحَوَارِيُّونَ شَيْئًا ، وَدَخَلَ أَكْثَرُهُمْ بِلَادَ
الرُّومِ دَاعِينَ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَكَانَ بَطْرُسُ
كَبِيرَهُمْ ، فَتَزَلَّ بِرُومَةَ دَارَ مَلِكِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ
كَتَبُوا الْإِنْجِيلَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِ ، فِي نَسَخِ أَرْبَعٍ عَلَى اخْتِلَافٍ وَتِلَاثَةٍ ،

(١) مرقس الرسول .

(٢) انظر تعريفي هذا الموضوع في تعليق ٧٤٤ من مشفورة د .

واحدًا ، مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطرك
إلى القُصُور^(١)

ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعِد دينهم
وصَلايِهِ ، واجتمعوا بِنِيقِيَّةَ ، أبام قُسطنطين
ليُخَوِّرَ الحقَّ في الدين ، واتفق ثلاثمائة وثمانية
عشر من أساقفتِهِمْ على رأى واحد في الدين ،
فكتبوه وسموه الإمام ، وصبروه أصلاً يرجعون
إليه ، وكان فيما كتبوه : أنَّ البطرك القائم
بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتِهَادِ الأُقسَـةِ^(٢) ،
كما قرره حنايا تلميذ مُرقَاسَ ، وأُتِطِلُوا ذلك
الرأى ، وإنما يُقدِّمُ عن بلاء واختيار من أئمة
المؤمنين وروسائِهِمْ ، فبقي الأمر كذلك . ثم
اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعِدِ الدين ، وكانت
لهم مجتمعات في تقريره ، ولم يختلفوا في هذه
القاعدة ، فبقي الأمر فيها على ذلك ، واتصل
فيهم نيابة الأساقفة عن البطرك

وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب الأعظم تعظيماً
له . فصار الأُقسَـة يدعون الأسقف فيما غاب عن البطرك
بالأب أيضاً ، تعظيماً له فاشتبه الاسم في أحصاي
مُتَطاوله ، يقال آخرها بطركية هرقل باسكندرية ،
فلأدوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم ،
فدعوه البابا ، ومعناه أبو الآباء . وظهر هذا الإسم
أول ظهوره بمصر ، على ما زعم جرجمس بن
العميد في تاريخه . ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي
الأعظم عندهم ، وهو كرسي بطرُس الرسول ،

التي لقبوه سبع رسائل ، وثابتها الإبريكسيس
في نصيب الرسل ، وكتاب بولس أربع عشرة
رسالة وكتاب أقليمنطس بوفيه الأحكام وكتاب
أبو غاليميس بوفيه رؤيا يوحنا بن زبدي^(١) .
واختلف شأن القبايرة في الأخذ بهذه الشريعة
نارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى ، والتسلط
عليهم بالقتل والنجى ، إلى أن جاء قُسطنطين ،
وأخذ بها واشتمروا عليها . وكان صاحب هذا
الدين والميم لمراميسه يسمونه « البطرك » ،
وهو رئيس البلد عندهم وخليفة المسيح بينهم ،
يبحث ثوابه وعلقاه إلى ما بعد عنه من أمة
النصرانية ، وسموه الأسقف أى نائب البطرك ،
ويسمون الإمام الذى يقيم الصلوات ويُنْفِثُهُمْ
في الدين بالقيسيس ، وسموه المُنفِطع الذى حبس
نفسه في الطَّوَرَة لزيادة الرأب ، وأكثر
خطواتهم في الصوامع . وكان بطرُس الرسول ،
وأُس الحواريين ، وكبير التلاميذ برومة ، يقيم
بها بين النصرانية ، إلى أن قتله ييرون خايس
القبايرة ، فيمن قتل من البطرك والأساقفة ،
ثم قام بخلافته في كرسي رومة آريوس . وكان
مُرقَاس^(٢) الإنجلي بالأسكندرية ومصر والمغرب
داعياً سبع سنين ، فقام بعده حنايا ، وتسمى
بالبطرك ، وهو أول البطرك فيها ، وجعل مئة
اثنى عشر قسا ، على أنه إذا مات البطرك يكوّن
واحد من الاثنى عشر مكانه ، ويختار من المؤمنين

(١) انظر تحرير هذا الموضوع في تعليق ٧٤٧ من مشرودة د .
واقي .

(٢) جميع غير مفيس المعروف لكلمة فسيس .

(١) انظر تحرير هذا الموضوع في تعليق ٧٤٥ من مشرودة
الدكتور واقي .
(٢) مرقس الرسول .

على الانقياد لملك واحد، يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِمْ
وَأَجْمَاعِهِمْ تَحَرُّجًا بَيْنَ انْفِرَاقِ الْكَلِمَةِ، وَتَحَرُّجٍ
بِهِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي لَا فَوْقَهَا مِنْهُمْ لِكُتُوبِهِ عَلَيْهِ
عَلَى جَمِيعِهِمْ، وَيُسَمُّوهُ الْإِبْرَدُورُ (١)، وَحَرْفُهُ
الْوَسَطُ بَيْنَ الذَّلَالِ وَالظَّالِمِ الْمُعْجَمَتَيْنِ، وَتَبَايُرُهُ
بَضْعُ النَّجَاحِ عَلَى رَأْسِهِ، لِتَبَرُّكِهِ، فَيَسْمَى الْمُتَوَجَّعُ،
وَكَلَّمُهُ مَعْنَى لَفْظَةِ الْإِبْرَدُورِ، وَهَذَا مَلْغَضٌ مَا
أُورَدَنَاهُ مِنْ شَرْحِ هَلَيْنِ الْإِسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا الْبَابَا
وَالْكُوهِنَ. وَاللَّهُ يُعِزُّ مَنْ يُشَاءُ، وَيُهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان وألقابها

إِعْلَمَنَّ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي تَقْدِيرِهِ ضَعِيفٌ، يُسَلُّ
أَمْرًا قَلِيلًا، فَلَا يَدَّ لَهُ مِنَ الْأَسْبَاطِ بِأَنْبَاءِ جَنُودِهِ،
وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةِ مَعَالِيهِ وَسَائِرِ
يَهْنِهِ (٢)، فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْبِهِ، وَمَنْ اسْتَرْعَاهُ
اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِيَادِهِ. وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى حِسَابَةِ
الْكَافَّةِ مِنْ عُلُومِهِ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ، وَإِلَى كَفِّ
عُنْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ، بِإِضَاءَةِ
الْأَحْكَامِ الرَّائِغَةِ فِيهِمْ، وَكَفِّ الْمُدُونِ عَلَيْهِمْ
فِي أُمُورِهِمْ، بِإِضْلَاحِ سَائِلَتِهِمْ، وَإِلَى خَطْبِهِمْ
عَلَى مَصَالِحِهِمْ، وَمَا نَعْمَهُمْ بِهِ الْبَلَوَى فِي مَعَالِيهِمْ
وَمَعَالِكِهِمْ، مِنْ تَقَدُّدِ الْمَعَالِيَشِ وَالْمَكَابِيلِ وَالْمَوَالِيَشِ
حَذَرًا مِنَ التَّطْلُيفِ، وَإِلَى النُّظَرِ فِي السُّكْرِ بِحِفْظِهِ
النُّفُودِ الَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنْ الْفُتَى، وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ
بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الْأَنْقِيَادِ لَهُ، وَالرُّفْعِ

حَتَّى قَدَمَتَاهُ فَلَمْ يَزَلْ سِمَةً عَلَيْهِ حَتَّى الْآنَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ النَّصَارَى فِي دِينِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ،
وَفِيهَا يَتَقَبَّلُونَهُ فِي الْمَسِيحِ وَصَارُوا عَوَائِفَ
وَفِرْقًا، وَاسْتَظْهَرُوا بِمُلُوكِ النَّصْرَانِيَّةِ، كُلٌّ عَلَى
صَاحِبِهِ، فَاخْتَلَفَ الْحَالُ فِي الصُّوَرِ فِي ظُهُورِ فِرْقَةٍ
مُدُونِ فِرْقَةٍ، إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ لَهُمْ ثَلَاثُ عَوَائِفَ
هِيَ فِرْقَتُهُمْ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى غَيْرِهَا، وَهُمْ الْمَلِكِيَّةُ،
وَالْيَقُوتِيَّةُ، وَالنُّسُورِيَّةُ.

لَوْ لَمْ نَرِ أَنَّ نُسَخَمَ أَرْزَاقَ الْكِتَابِ بِلُكُومِهَا
كُفْرَهُمْ، فَهِيَ عَلَى الْجُمْلَةِ مَعْرُوفَةٌ، وَكُلُّهَا كُفْرٌ
كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْقَرَّانُ الْكَرِيمُ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ جَدَالٌ وَلَا اسْتِدْلَالٌ، إِنَّمَا هُوَ
الْإِسْلَامُ أَوْ الْجَزِيَّةُ أَوْ الْقَتْلُ (١).

ثُمَّ اخْتَصَّتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِبَطْرِكَ. فَبَطْرُكُ
رُومَةِ الْيَوْمِ، الْمُسَمَّى بِالْبَابَا عَلَى رَأْيِ الْمَلِكِيَّةِ،
وَرُومَةُ الْإِفْرَنْجِيَّةِ، وَمَلِكُهُمْ قَائِمٌ بِذَلِكَ التَّالِيَةِ.
وَبَطْرُكُ الْمَمَالِيكِينَ يَضَرُّ عَلَى رَأْيِ الْيَقُوتِيَّةِ، وَهُوَ
سَائِرٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيَّتِهِمْ، وَالْحَبَشَةِ يَلِينُونَ يَلِينِيَهُمْ،
وَلِيَبَطْرُكِهِ يَضَرُّ فِيهِمْ أَسَافِقَةٌ، يَتَوَبَّعُونَ عَنْهُ فِي إِقَامَةِ
دِينِهِمْ هُنَالِكَ. وَاهْتَضَى اسْمُ الْبَابَا بِبَطْرِكَ رُومَةٍ،
إِذَا هَذَا الْمُهَذَّبُ. وَلَا تَسْمَى الْيَقُوتِيَّةُ بِبَطْرِكَ هَذَا الْإِسْمِ
وَضَبَطَ هَلِيهِ الْفُظَّةُ (٢) بِسَائِمَتَيْنِ مُوَحَّدَتَيْنِ، مِنْ
أَسْفَلِ، وَالتَّطْلُقِ بِهَا مُفْخَمَةٌ، وَالتَّالِيَةُ مُشَدَّدَةٌ.
وَمِنْ مَذَاهِبِ الْبَابَا عِنْدَ الْإِفْرَنْجِيَّةِ أَنَّهُ يُضَحُّهُمْ،

(١) ما بين الموحدين ساعد في بعض النسخ. قول أسعد عمدا
ومحمدا كما يرى د. والى ص ٧٦٩ - ٢ من منشورته أم هي نقرة
مزيدة حل النسخ الخطية الأصلية وليست لابن خلدون كما يرى الأساط
سالم المصري في: دراسات من مقدمة ابن خلدون ص ٩٣٤-٩٣٨.
(٢) لفظة البابا.

(١) الأصل اللاتيني: إمبراطوريات العالم منتهى حكم الحاكم.
(٢) الهمزة الملقاة وجعلها ممن بكسر الميم.

الإسلامية مُتَدَرِجَةً تَحْتَ الْخِلَافَةِ ، لِاسْتِمَالِ مَنْصِبِ
الْخِلَافَةِ عَلَى الدِّينِ وَالْدُّنْيَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ . فَالْأَحْكَامُ
الشَّرْعِيَّةُ مُتَطَلِّقَةٌ بِجَمِيعِهَا ، وَمَوْجُودَةٌ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ
مِنْهَا فِي سَائِرِ وَجُوْهِهَا ، لِعُمُومِ تَعْلُوقِ الْحُكْمِ
الشَّرْعِيِّ ، بِجَمِيعِ أَفْعَالِ الْبَرَادِ . وَالْفَقِيْهُ يَنْظُرُ
فِي مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا
اسْتِحْدَادًا عَلَى الْخِلَافَةِ ، وَهُوَ مَعْنَى السُّلْطَانِ ،
أَوْ تَعْيِيْنًا مِنْهَا ، وَهُوَ مَعْنَى الْوِزَارَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا
يَأْتِي ، وَفِي نَظَرِهِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَمْوَالِ وَسَائِرِ
السِّيَاسَاتِ ، مُطْلَقًا أَوْ مُقَيَّدًا ، وَفِي مَوْجِبَاتِ التَّوَلَّى ،
إِنْ عَرَضَتْ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ ،
وَكَلَّا فِي سَائِرِ الْوُظَائِفِ الَّتِي نَحْنُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ
مِنْ وَزَارَةٍ أَوْ جَبَايَةٍ أَوْ وَلايَةٍ ، لَا بُدَّ لِلْفَقِيْهِ مِنْ
النَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ لِمَا قَدَّمْنَاهُ ، مِنْ انْتِخَابِ
حُكْمِ الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْبِلَدِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى
رُتَبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ .

إِلَّا أَنْ كَلَّمْنَا فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ
وَرُتَبَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمَقْعَدِ طَبَقَةِ الْعِمْرَانِ وَوُجُودِ
الْبَشَرِ ، لَا يَكُنْ بِخَصْمٍ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ ،
فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ ، فَلَا نَحْتَاجُ
إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ ، مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ
فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ ، بِمِثْلِ كِتَابِ الْقَاضِي
أَبِي الْحَسَنِ الْمَازُونِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَفْلَامِ الْفُقَهَاءِ .
فَلِنْ أَرَدْتَ اسْتِيفَاءَهَا فَتَلَبَّكَ بِمَطَالَعَتِهَا هُنَاكَ .
وَأِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي الْوُظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ ، وَأَقْرَضْنَا
لِنَتَمَيَّزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُظَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ .
لَا لِيَحْتَقِنَ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ ، فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ

بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ ، وَانْفِرَادِهِ بِالْمَجْدِ دُونَهُمْ ،
فَيَحْتَمِلُ مِنْ ذَلِكَ قُوَّةَ الْقَابَةِ مِنْ مَنَاقِبِ الْقُلُوبِ .

قَالَ بَعْضُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْحُكَمَاءِ : « لَمَعَنَاتُهُ
نَقَلَ الْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا أَهْوَنَ عَلَى مِنْ مَنَاقِبِ
قُلُوبِ الرِّجَالِ » .

ثُمَّ إِنَّ الاسْتِيعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأُولَى الْقُرْبَى ،
مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ ، أَوْ الشَّرِيعَةِ ، أَوْ الْاضْطِغَاعِ الْقَدِيمِ
لِلدُّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ ، لِمَا يَبْقَى فِي ذَلِكَ مِنْ
مُجَانَسَةِ خُلُقِهِمْ لِخُلُقِهِ ، فَتَتِمُّ الْمُشَاكَلَةُ فِي
الاسْتِيعَانَةِ ، قَالَ تَعَالَى وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ،
هَارُونَ أَحْمَدُ ، اشْتَدَّ بِهِ أَزْرَى ، وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي (١)

وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ذَلِكَ بِسَيِّقِهِ أَوْ قَلَمِهِ
أَوْ زَاهِيهِ أَوْ مَعَارِفِهِ أَوْ بِحُجَّابِهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزْدَجِمُوا
عَلَيْهِ فَيَسْخَطُوهُ عَنِ النَّظَرِ فِي مُوَسَّاتِهِمْ ، أَوْ يَدْفَعُ
النَّظَرَ فِي الْمَلِكِ كُلِّهِ [إِلَيْهِ] (٢) ، وَيَعُولُ عَلَى
كِبَايَتِهِ فِي ذَلِكَ ، وَاضْطِلَاعِهِ . فَلِلْمَلِكِ قَدْ تَوَجَّدَ
فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَقَدْ تَفَتَّرَقَ فِي أَشْخَاصٍ . وَقَدْ
يَتَفَرَّغُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ . كَالْقَلَمِ
يَتَفَرَّغُ ، إِلَى قَلَمِ الرِّسَالِ وَالْمُخَاطَبَاتِ ، وَقَلَمِ
الصُّكُوكِ وَالْإِفْطَاعَاتِ ، وَإِلَى قَلَمِ الْمُحَاسِبَاتِ ،
وَهُوَ صَاحِبُ الْجَبَايَةِ وَالْعَطَاءِ وَيَبْوَانِ الْجَيْشِ .
وَكَالسَيْفِ ، يَتَفَرَّغُ إِلَى : صَاحِبِ الْحَرْبِ وَصَاحِبِ
الشَّرْطَةِ ، وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ ، وَوَلَايَةِ الثُّغُورِ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْوُظَائِفَ السُّلْطَانِيَّةَ فِي هَذِهِ الْبِلَدِ

(١) الآيات رقم : ٢٩ - ٣٢ من سورة طه .
(٢) في حاشية هذه المائدة ص ٧٧٢ ج ٢ من مطبوعة دار واني
إضافة كلمة : إليه . كي يستقيم السياق .

أحوال مُلكيه . وأما ما كَانَ حَاصًّا بِبَعْضِ النَّاسِ ،
أَوْ بِبَعْضِ الْجِهَاتِ ، فَيَكُونُ دُونَ الرُّتْبَةِ الْأُخْرَى
كَفَيَادَةِ نَفَرٍ ، أَوْ وَلَايَةِ جَبَايَةِ حَاصَّةٍ ، أَوْ النَّظَرِ
فِي أَمْرِ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ الطَّعَامِ ، أَوْ النَّظَرِ السَّكِّيِّ ،
فَإِنَّ هَؤُلَاءِ كُلَّهَا نَظَرٌ فِي أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ ، فَيَكُونُ
صَاحِبُهَا تَبَعًا لِأَهْلِ النَّظَرِ الْعَامِّ ، وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ
مَرْوُوسَةً لِأُولَئِكَ .

وَمَارَالَ الْأَمْرُ فِي الدَّوَلِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ هَكَذَا ،
حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ ، وَصَارَ الْأَمْرُ خِلَافَةً ، فَلَذَبَتِ
تِلْكَ الْخُطَطُ كُلَّهَا بِتَحَابٍ رَسَمِ الْمُلْكِ (١) أَمَامَهُ
طَبِيعِي ، مِنْ الْمُعَاوَنَةِ بِالرَّأْيِ ، وَالْمُعَاوَضَةِ فِيهِ .
فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ . فَكَانَ صَلَّى
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشَارُو أَصْحَابَهُ ، وَيُعَاوِضُهُمْ فِي
مُهْمَاتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَيَخُصُّ مَعَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ
بِمُخْصِصَاتٍ أُخْرَى ، حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الْيَمِينِ
عَرَفُوا الدَّوْلَ وَأَحْوَالَهَا فِي كِبَرِيٍّ وَقِصَرٍ وَنَجَاحِيٍّ ،
يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزِيرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ
بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، لِتَحَابٍ رُتْبَةِ الْمُلْكِ يَسْلُجُ
الْإِسْلَامَ . وَكَلَّا عُمَرُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٌّ
وَعُثْمَانُ مَعَ عُمَرَ .

وَأَمَّا حَالُ الْجَبَايَةِ وَالْإِنْفَاقِ ، وَالْحُسْبَانِ فَلَمْ
يَكُنْ عَنْدهُمْ رُتْبَةٌ ، لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أَمِّيِّينَ ،
لَا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ، فَكَانُوا يَسْتَعِينُونَ
فِي الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ ، أَوْ أَفْرَادًا مِنْ مَوَالِي
الْعَجَمِ ، مِنْ بَيْدِهِ ، وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ . وَأَمَّا
أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيلُونَهُ ، لِأَنَّ الْأُمِّيَّةَ كَانَتْ

كِتَابِيَّةً . وَإِنَّمَا تَعَكَّلُ فِي ذَلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ
الْعُمَرَاءِ فِي الوجودِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَاللهُ الْمَوْفَّقُ .

(الوزارة) وَهِيَ أُمُّ الْخُطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ ،
وَالرُّتْبَةِ الْمُلْكِيَّةِ ، لِأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ
الْإِعَانَةِ . فَإِنَّ الْوِزَارَةَ مَأْخُودَةٌ : إِمَّا مِنَ الْمُوَازَرَةِ ، وَهِيَ
الْمُعَاوَنَةُ ، أَوْ مِنَ الْوِزْرِ ، وَهُوَ الثَّقُلُ ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ ،
مَعَ مُفَاعِلِهِ ، أَوَزَارَهُ وَانْقَالَه ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى
الْمُعَاوَنَةِ الْمَطْلُوقَةِ .

وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ
السُّلْطَانِ وَتَصَرُّفَاتِهِ لَا تَعْمَلُو أَرْبَعَةً . لِأَنَّهَا :

إِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورٍ جَبَايَةِ الْكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا
مِنْ النَّظَرِ فِي الْجَنْدِ وَالسَّلَاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ
الْجَبَايَةِ وَالْمُطَالَبَةِ . وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الْوَزِيرُ
الْمُتَشَارَفُ فِي الدَّوَلِ الْقَدِيمَةِ ، بِالشَّرَفِ ، وَلِهَذَا
الْعَهْدُ بِالْمَغْرِبِ .

وَأَمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورٍ مُخَاطَبَاتِيَةٍ لِمَنْ يَدُّ عَنْهُ
فِي أُمُورٍ جَبَايَةِ الْمَالِ وَالْإِنْفَاقِ ، وَضَبْطِ ذَلِكَ مِنْ
جَمِيعٍ وَجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَقْصِطَةٍ . وَصَاحِبُ هَذَا
هُوَ صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَزِيرِ ،
لِهَذَا الْعَهْدُ بِالْمَشْرِقِ .

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مُدَافَعَةِ النَّاسِ ذَوِي الْحَاجَاتِ
عَنْهُ أَنْ يَزِدَّحُمُوا عَلَيْهِ ، فَيَسْتَلِوْهُ عَنْ قَهْمِهِ . وَهَذَا
رَاجِعٌ لِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِي يَحْتَجُّهُ .

فَلَا تَعْمَلُو أَحْوَالَهُ هَؤُلَاءِ أَرْبَعَةً بَوَاجِهِ . وَكُلُّ خِطَّةٍ
أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتْبَةِ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ فَلِإِيجَائِهَا يَرْجِعُ .
إِلَّا أَنْ الْأَرْفَعُ مِنْهَا مَا كَانَتْ الْإِعَانَةُ فِيهِ عَامَّةً فِيمَا
تَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ ، مِنْ ذَلِكَ الصَّنْعِ ، إِذْ هُوَ يَقْتَضِي
مُبَاشَرَةَ السُّلْطَانِ خَائِمًا ، وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ

(١) فِي جَمِيعِ النُّسخِ « أَلِي » وَهِيَ تَعْرِيفٌ لَا يَسْتَعْمَلُ سِوَهُ الْعَرَبِ »

وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْوَزِيرِ . وَبَنَى أَمْرَ الْحُسَيْنِ
فِي الْمَوَالِي وَالْمَمِينِينَ . وَاتَّخَذَ لِسَجَلَاتِ كَاتِبٍ
مَخْصُوصٍ حَوْطَةً عَلَى أَسْرَارِ السُّلْطَانِ أَنْ تَشْتَهَرَ
فَتَقْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوَمِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَكْتَابُهُ الْوَزِيرُ ،
لَأَنَّهُ إِذَا أَحْبَبَ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْخَطَأُ وَالْكَثَابُ ،
لَا مِنْ حَيْثُ اللِّسَانِ الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ ، إِذِ اللِّسَانُ
لِلْمَلِكِ الْعَهْدُ عَلَى خَلَاةٍ لَمْ يَقْسُدْ . فَكَانَتْ الْوِزَارَةُ
لِلْمَلِكِ أَرْزَقَ رُتَبِهِمْ بِزَمَانِهِ فِي سَائِرِ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ .
فَكَانَ النَّظَرُ لِلْوَزِيرِ عَلَامًا فِي أَحْوَالِ التَّنْظِيرِ
وَالْمَعَاوَضَاتِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَايَاتِ ، وَالْمُطَالَبَاتِ ،
وَمَا يَقْبَلُهَا مِنْ النَّظَرِ فِي دِيْوَانِ الْجُنْدِ ، وَفَرَضِ
الْعَطَاءِ بِالْأَهْلِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

فَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَاسْتَفْضَلَ
الْمَلِكُ وَطَّعَتْ مَرَاتِبُهُ ، وَارْتَفَعَتْ ، وَعَظُمَ شَأْنُ
الْوَزِيرِ وَصَارَتْ إِلَيْهِ النَّيَابَةُ فِي إِنْفَاذِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ،
تَعَيَّنَتْ مَرَاتِبُهُ فِي النُّوَلَةِ وَعَنْتَ لَهَا الرُّجُوءُ
وَحَضَعَتْ لَهَا الرِّقَابُ ، وَجِيلَ لَهَا النَّظَرُ
فِي دِيْوَانِ الْحُسَيْنِ ، لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ عَطْفُهُ مِنْ
قَسَمِ الْأَعْطِيَاتِ فِي الْجُنْدِ ، فَاحْتَاجَ إِلَى النَّظَرِ فِي
جَمْعِهِ وَتَفْرِيقِهِ ، وَأُخِيفَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ ، ثُمَّ
جِيلَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْقَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لِصَوْنِ أَسْرَارِ
السُّلْطَانِ ، وَلِحِفْظِ الْبَلَاغَةِ لِمَا كَانَ اللِّسَانُ قَدْ
قَسَدَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ ، وَجِيلَ الْحَاتَمُ لِسَجَلَاتِ
السُّلْطَانِ لِيَحْفَظَهَا مِنَ الْبَلَاغِ وَالشَّيْءِ ، وَدُعِيَ إِلَيْهِ .
فَصَارَ اسْمُ الْوَزِيرِ جَامِعًا لِحَقْلِ السُّبُوفِ وَالْقَلَمِ ،
وَسَائِرِ مَعَالِي الْوِزَارَةِ وَالْمَعَاوَنَةِ ، حَتَّى لَقَدْ دُعِيَ جَعْفَرُ
ابْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ ، إِشَارَةً إِلَى

صِفَتِهِمُ الَّتِي اشْتَرَاؤُوا بِهَا . وَكَذَا حَالُ الْمُخَاطَبَاتِ
وَتَقْفِيدِ الْأُمُورِ لَمْ تَكُنْ عَنْهُمْ رُبَّةً خَاصَّةً لِلأُمَيَّةِ
الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ ، وَالْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ فِي كَيْمَانِ الْقَوْلِ
وَتَأْيِيدِهِ ، وَلَمْ تَخُوجْ (١) السِّيَاسَةَ إِلَى اخْتِيَارِهِ لِأَنَّ
الْجَلَالَهَ إِنَّمَا هِيَ بَيْنَ لَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ الْمُلْكِيَّةِ
فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا فَلَمْ تَكُنِ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً ، فَيُسَفَّجَادُ
لِلْخَلِيفَةِ أَحْسَنُهَا لِأَنَّ الْكُلَّ كَانُوا يَجْرُونَ عَنْ
مَقَاصِدِهِمْ ، بِإِلْغَالِ الْبَيَارَاتِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخَطَأُ .
فَكَانَ الْخَلِيفَةُ يَسْتَنْيِبُ فِي كِتَابَتِهِ ، مَتَى عَنْ لَهُ
مَنْ يُحْسِنُهُ .

وَأَمَّا مُدَالَعَةُ قَوَى الْحَاجَاتِ عَنْ أُولَئِهِمْ ،
فَكَانَ مَحْظُورًا بِالشَّرِيعَةِ ، فَلَمْ يَقْلُوه .
فَلَمَّا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمُلِكِ ، وَجَاءَتْ
وُسُومُ السُّلْطَانِ وَالْقَابِ ، كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ بَدَأَ بِهِ
فِي النُّوَلَةِ شَأْنُ الْبَابِ ، وَسَلَّمَ ثَوْنُ الْجُمْهُورِ ، بِمَا
كَانُوا يَخْشَوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ اخْتِيَالِ الْخَوَالِجِ
وَتَغْيِيرِهِمْ ، كَمَا وَقَعَ بِعَمْرِ وَعَلَى وَمَعَاوِيَةَ وَعَمْرُو بْنِ
الْعَاصِ وَغَيْرِهِمْ . مَعَ مَا فِي فَتْنِهِ مِنْ إِزْدِحَامِ النَّاسِ
عَلَيْهِمْ وَتُظْلِيمِ يَوْمٍ عَنْ الْمَهْمَاتِ ، فَاتَّخَلَوْا مِنْ
يَعْمُومَ لَهُمْ بِالْمَلِكِ وَسُوءَهُ الْحَاجِبِ .

وَقَدْ جَاءَ : أَنَّ عَهْدَ الْمَلِكِ لَمَّا وَلَّى حَاجِبَهُ ،
قَالَ لَهُ قَدْ وَلَّيْتُكَ حِجَابَةً بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ :
الْمُؤَدَّنَ لِلصَّلَاةِ ، فَإِنَّهُ دَاعَى اللَّهِ ، وَصَاحِبَ الْبَرِيدِ ،
قَاتِلَ مَا جَاءَ بِهِ ، وَصَاحِبَ الْعُلَامِ إِيْلًا يَقْسُدُ .
ثُمَّ اسْتَفْضَلَ الْمَلِكُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَظَهَرَ الْمُشَاوِرُ
وَالْمَمِينُ فِي أُمُورِ الْقَبَائِلِ وَالنَّصَائِبِ وَاسْتِثْلَافِهِمْ ،

عَالِيَةً عَلَى أَهْلِ الرُّتَبِ وَأَمْرُهُ نَائِلُهُ فِي الْكُلِّ ؛
إِذَا نِيَابَةُ أَوْ اسْتِئْذَانُ ، وَاسْتَمَرَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا .

ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ التُّرْكِ آخِرًا بِمِصْرَ ، قَرَأُوا أَنَّ
الْوِزَارَةَ قَدْ ابْتَلَيْتْ بِقَرْعِ أَوْلِيكَ عَنْهَا ، وَدَفَعَهَا
لِمَنْ يَقُومُ بِهَا لِلْخَلِيفَةِ الْمَحْجُورِ ، وَنَظَرَهُ مَعَ
ذَلِكَ مُتَعَبِّ بِنَظَرِ الْأَمِيرِ فَصَارَتْ مَرْهُوسَةً نَاقِصَةً ،
فَاسْتَنْكَفَ أَهْلُ هَذِهِ الرُّتَبَةِ الْكَالِيَةِ فِي الدَّوْلَةِ عَنْ
اسْمِ الْوِزَارَةِ ، وَصَارَ صَاحِبُ الْأَحْكَامِ وَالنَّظَرِ فِي
الْجُنْدِ ، يُسَمَّى عَنْدهُمْ بِالنَّائِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَيُسَمَّى
اسْمُ الْحَاجِبِ فِي مَثَلُولِهِ وَاخْتَصَّ اسْمُ الْوَزِيرِ عَنْدهُمْ
بِالنَّظَرِ فِي الْجَبَايَةِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَقْبَلُوا اسْمَ
الْوَزِيرِ فِي مَثَلُولِهِ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ ، ثُمَّ قَسَمُوا حُكْمَهُ
أَصْنَافًا ، وَأَقْرَبُوا لِكُلِّ صِنْفٍ وَزِيرًا ، فَجَعَلُوا
لِحُسَيْنِ الْمَالِكِ وَزِيرًا ، وَلِكَلْبِ رَسِيلِ وَزِيرًا ، وَلِلنَّظَرِ
فِي حَوَائِجِ الْمُتَطَلِّعِينَ وَزِيرًا ، وَلِلنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ
أَهْلِ الثَّغُورِ وَزِيرًا ، وَجَعَلَ لَهُمْ بَيْتَ يَجْلِسُونَ فِيهِ
عَلَى فُرْشٍ مُنْضَبَةٍ لَهُمْ ، وَيَتَقَدَّوْنَ أَمْرَ السُّلْطَانِ
هُنَاكَ كُلِّ فِيمَا جِيلَ لَهُ ، وَأَفْرَدَ لِشَرْدُو بَيْتَهُمْ وَبَيْنَ
الْخَلِيفَةِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ارْتَفَعَ عَنْهُمْ بِمَبَاشَرَةِ السُّلْطَانِ
فِي كُلِّ وَقْتٍ ، فَارْتَفَعَ مَجْلِسُهُ عَنْ مَجَالِسِهِمْ ،
وَخَصَّوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ . وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ هَذَا إِلَى
آخِرِ دَوْلَتِهِمْ ، فَارْتَفَعَتْ هُجْلَةُ الْحَاجِبِ وَمَرْكَبَتُهُ
عَلَى سَائِرِ الرُّتَبِ حَتَّى صَارَ مَلُوكُ الطَّوَائِفِ يَتَنَحَّلُونَ
لِقَبْلِهَا فَأَكْثَرَهُمْ يَوْمئِذٍ يُسَمَّى الْحَاجِبَ كَمَا نَذَرْنَا .

ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ الشَّيْبَةِ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْقَيْرَوَانِ
وَكَانَ لِلْفَاتِحِينَ بِهَا رُسُوحٌ فِي الْيَدَاوَةِ فَاضْلَوْا

عُهُومَ . نَظَرَهُ وَكَيْامِهِ بِالدَّوْلَةِ . وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ مِنْ
الرُّتَبِ السُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا ، إِلَّا الْحِجَابَةُ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ
عَلَى الْبَابِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لَاسْتِنْكَافِهِ عَنْ يَدْلِ ذَلِكَ .

ثُمَّ جَاءَ فِي الدَّوْلَةِ الشَّامِيَّةِ شَأْنُ الْاسْتِئْذَانِ
عَلَى السُّلْطَانِ ، وَتَكَوَّرَ فِيهَا اسْتِئْذَانُ الْوِزَارَةِ مَرَّةً ،
وَالسُّلْطَانِ أُخْرَى ، وَصَارَ الْوَزِيرُ إِذَا اسْتَعْدَّ مُحْتَاجًا
إِلَى اسْتِئْذَانِ الْخَلِيفَةِ لِإِيَّاهُ لِذَلِكَ لِيَتَصَحَّ الْأَحْكَامُ
الشَّرْعِيَّةُ ، وَيَجِيءَ عَلَى حَالِهَا ، كَمَا تَقَدَّمَ .

فَانْقَسَمَتِ الْوِزَارَةُ حِينَئِذٍ إِلَى وَزَارَةٍ تَنْفِيدٍ ،
وَهِيَ حَالٌ مَا يَكُونُ السُّلْطَانُ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَإِلَى
وِزَارَةٍ تَقْوِيضٍ ، وَهِيَ حَالٌ مَا يَكُونُ الْوَزِيرُ مُسْتَعِدًّا
عَلَيْهِ . ثُمَّ اسْتَمَرَ الْاسْتِئْذَانُ وَصَارَ الْأَمْرُ لِمُلُوكِ
الْمَجْمُوعِ ، وَتَعَطَّلَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ . وَلَمْ يَكُنْ لِأَوْلِيكَ
الْمُتَطَلِّعِينَ أَنْ يَنْتَحِلُوا الْقَابِ الْخِلَافَةِ ، وَاسْتَنْكَفُوا
مِنْ مُشَارَكَةِ الْوُزَرَاءِ فِي الْقَبْلِ لِأَنَّهُمْ خَوَّلَ لَهُمْ
فَتَسَمَوْا بِالْإِمَارَةِ وَالسُّلْطَانِ . وَكَانَ الْمُسْتَعِدُّ عَلَى
الدَّوْلَةِ ، يُسَمَّى أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ ، أَوْ بِالسُّلْطَانِ إِلَى
مَا يَحُلُّ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْقَابِ كَمَا تَرَاهُ فِي الْقَابِجِمْ ،
وَتَرَكُوا اسْمَ الْوِزَارَةِ إِلَى مَنْ يَقُولُهَا لِلْخَلِيفَةِ فِي
حَاصِيهِ . وَلَمْ يَزَلِ هَذَا الشَّأْنُ عَنْدهُمْ إِلَى آخِرِ
دَوْلَتِهِمْ . وَقَسَدَ اللَّسَانُ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَصَارَتْ
صِنَاعَةٌ يَنْتَحِلُهَا بَعْضُ النَّاسِ ، فَأَتَاهُمُتْ وَتَرَفَّعَ
الْوُزَرَاءُ عَنْهَا لِلذِّكْرِ ، وَلَآئِهِمْ عَجْمٌ ، وَلَيْسَتْ يَذْكُرُ
الْبَلَاغَةُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ لِسَانِهِمْ ، فَتَحْيَرُ لَهَا
مِنْ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ ، وَاخْتَصَّتْ بِهِ ، وَصَارَتْ
حَادِمَةً لِلْوَزِيرِ . وَاخْتَصَّ اسْمُ الْأَمِيرِ بِصَاحِبِ
الْحُرُوبِ وَالْجُنْدِ ، وَمَا يَرْجَحُ إِلَيْهَا ، وَبَدَأَ مَعَ ذَلِكَ

الحجابه لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ،
وَيَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُزَرَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ .
فَكَانَتْ فِي دَوْلَتِهِمْ رَقِيعَةً غَائِبَةً كَمَا تَرَاهُ فِي أَحْبَارِهِمْ ،
كَابَنَ حَلِيدٍ وَغَيْرِهِ مِنْ حُجَابِيهِمْ . ثُمَّ لَمَّا جَاءَ
الاسْتِئْذَانُ عَلَى الدَّوْلَةِ اخْتَصَّ الْمُسْتَبْدِ بِاسْمِ الْحُجَابَةِ
لِشَرَفِهَا ، فَكَانَ الْمَنْصُورِيُّ أَبُو عَامِرٍ وَأَبْنَاؤُهُ كَذَلِكَ .
وَلَمَّا بَدَأُوا فِي مَظَاهِرِ الْمُلْكِ وَأَطْوَارِهِ ، جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ
مِنْ مُلُوكِ الْعُلَوَّانِيَّةِ ، فَلَمْ يَتْرَكُوا لِقَبَائِهِمْ ، وَكَانُوا
يَعْلُونَهُ شَرَفًا لَهُمْ . وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مُلْكًا بَعْدَ انْتِحَالِ
أَلْقَابِ الْمُلْكِ وَأَسَاتِيهِ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا الْحُجَابِ
وَذِي الْوِزَارَتَيْنِ ، يَتَعَوَّنُ بِهِ السَّيْفُ وَالْقَلَمُ .

وَيَكُونُ بِالْحُجَابَةِ عَلَى حُجَابَةِ السُّلْطَانَ عَنِ
الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَيَلِي الْوِزَارَتَيْنِ عَنْ جَمِيعِهِ
يَحْطِي السَّيْفُ وَالْقَلَمُ . ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دَوْلَةِ
الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ذِكْرٌ لِهَذَا الْأَسْمِ لِلْبِدَاوَةِ الَّتِي
كَانَتْ فِيهِمْ ، وَرُبَّمَا يُوْجَدُ فِي دَوْلَةِ الْعَبِيدِيَّةِ
يَحْضُرُ جَنْدٌ اسْتِغْثَامُهَا وَحَضَارَتُهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ .
وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ لَمْ تَسْتَعْمِلْ

فِيهَا الْحِصَارَةَ الدَّاعِيَةَ إِلَى انْتِحَالِ الْأَقْبَابِ ، وَتَمَيَّزَ
الْخَطِيطُ ، وَتَقَبَّلَهَا بِالْأَسْمَاءِ ، إِلَّا آخَرًا . فَلَمْ يَكُنْ
عِنْدَهُمْ مِنَ الرَّتَبِ إِلَّا الْوِزِيرُ . فَكَانُوا أَوَّلًا يَحْضُونُ
بِهَذَا الْأَسْمِ الْكَاتِبُ الْمُتَصَرِّفُ الْمُشَارِكُ لِلْسُّلْطَانِ ،
فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَابَنُ عَطِيَّةٍ وَغَيْرُ السَّلَامِ الْكُوَيُّ ،
وَكَانَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي الْحِسَابِ ، وَالْأَشْغَالِ
الْمَالِيَّةِ . ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْمُ الْوِزِيرِ ، لِأَهْلِ
نَسَبِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمُوحِدِينَ ، كَابَنُ جَامِعٍ وَغَيْرِهِ .
وَلَمْ يَكُنْ اسْمُ الْحُجَابِ مَعْرُوفًا فِي دَوْلَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ .

أَمَّا هَلِوُ الْخَطِيطُ أَوَّلًا وَتَنْفِيحُ اسْمِهَا كَمَا تَرَاهُ
فِي أَحْبَارِهِمْ دَوْلَتِهِمْ .

وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَفْضَلَتْ
الْأَمْرَ أَوَّلًا لِلْبِدَاوَةِ ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى انْتِحَالِ
الْأَسْمَاءِ وَالْأَقْبَابِ ، وَكَانَ اسْمُ الْوِزِيرِ فِي مَلَكُوْلِهِ ،
ثُمَّ اتَّبَعُوا دَوْلَةَ الْأُمُويِّينَ وَقَلَّبُوا فِي مَلَاهِبِ
السُّلْطَانِ وَاخْتَارُوا اسْمَ الْوِزِيرِ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ
فِي سَجَلِيَّهِ وَيَقِفُ بِالْفُؤُودِ وَالنَّاطِلِينَ عَلَى السُّلْطَانِ
عِنْدَ الْفُؤُودِ فِي تَحْيِيهِمْ وَخَطَابِهِمْ وَالْأَدَابِ الَّتِي تَلْزَمُ
فِي الْكُوَيِّ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَرَفَعُوا خُطَّةَ الْحُجَابَةِ عَنْهُ
مَا شَاءُوا ، وَلَمْ يَزَلِ الشَّانُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْمَهْدِ .

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَيَسُونُ هَذَا الَّذِي
يَقِفُ بِالنَّاسِ عَلَى حُلُودِ الْأَدَابِ فِي الْقَاءِ وَالتَّحِيَّةِ
فِي مَجَالِسِ السُّلْطَانِ وَالتَّقْدِمِ بِالْفُؤُودِ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
الذُّبْدَانِ ، وَيُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ اسْتِجَابَ كَاتِبِ السَّرِّ
وَأَصْحَابِ الْبَرِيدِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي خَاجَاتِ السُّلْطَانِ
بِالْقَاصِيَةِ وَبِالْحَاضِرَةِ ، وَحَالَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا
الْمَهْدِ . وَاللَّهُ مُوَلِّي الْأُمُورِ لِمَنْ يَشَاءُ .

(الْحُجَابَةُ) قَدْ قَعَمْنَا أَنَّ هَذَا اللَّقَبَ كَانَ
مَخْصُوصًا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمُويَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ يَمْنُ يَحْجُبُ
السُّلْطَانَ عَنِ الْعَامَّةِ ، وَيُعَلِّقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَفْتَحُهُ
لَهُمْ عَلَى قَلْبِهِ فِي مَوَاقِيِهِ . وَكَانَتْ هَلِوُ مَنْزِلَةً يَوْمًا
عَنِ الْخَطِيطِ مَرْهُوسَةً لَهَا ، إِذِ الْوِزِيرُ مُتَصَرِّفٌ فِيهَا
يَمَّا يَرَاهُ . وَهَكَذَا كَانَتْ سَاهِرُ أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ
وَلِئَلَى هَذَا الْمَهْدِ ، فَهِيَ بِحَضَرِ مَرْهُوسَةٌ لِصَاحِبِ
الْخُطَّةِ الْمَلِكِ الْمُسْنَى بِالنَّائِبِ .

وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمُويَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ

الثاني عشر منهم ، ثم استعبد بعد ذلك حبيبه
السلطان أبوالمعالي على نفسه ، وأذهب آثار
الحجر والاستيلاء بإذعان خطة الحجاب التي
كانت سُلما إليه ، وبأشهر أموره كلها بنفسه من
غير استعانة بأحد . والأمر على ذلك لهذا العهد .

وأما دولة زناتة بالغرب ، أعظمها دولة بني
مرين ، فلا أثر لآثار الحجاب عندهم . وأما
رياسة الحرب والسياسة فهي للوزير ، ووثيقه
القلم في الصبيان والرسائل راجعة إلى من يحبسها
من أهلها ، وإن اختصت ببعض البيوت المصطنعين
في دولتهم ، وقد تجمع عندهم ، وقد تفرق .

وأما باب السلطان وصحبه عن العامة ، فهي رتبة
عندهم ، فيسمى صاحبها عندهم بالوزار ، ومعناه ،
المقدم على الجارية المتصرفين بباب السلطان
في تنفيذ أوامره ، وتصريف عقوباته ، وإنزال
سخطه ، وحفظ المعتقلين في سجونه ، والرفق
عليهم في ذلك . فالأب لبه وأخذ الناس بالوقوف
عند الحدود في دار العامة راجع إليه ، فكانها وزارة
صغرى .

وأما دولة بني عبد الواد ، فلا أثر عندهم
لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الخطط ، ليدأوا
دولتهم وقصورها ، وإنما يخصون باسم الحجاب
في بعض الأحوال منذ الحاضر بالسلطان في داره ،
كما كان في دولة بني أبي حصص ، وقد يجمعون
له الحبان والسجل كما كان فيها . حلتهم على
ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعها وقائمين
بندوتها منذ أول أمرهم .

وأما بنو أبي حصص بقريقية ، فكانت الرياسة
في دولتهم أولا ، والتقدم لوزير الرأي والمشورة ،
وكان يخص باسم شيخ الموحدين ، وكان له
النظر في الولايات والوزر وقود المساكين والحروب ،
واختص الحبان والديوان برتبة أخرى ، ويسمى
مؤكبا بصاحب الأشغال ، ينظر فيها النظر
المطلق في الدخل والخرج ، ويحاسب ويستخلص
الأموال ، ويمايق على التفریط . وكان من شرطه
أن يكون من الموحدين .

واختص عندهم القلم أيضا بمن يجيد
الترييل ، ويؤمن على الأسرار ، لأن الكتابة لم
تكن من متعلقات القوم ، ولا الترييل بلسانهم ،
فلم يفرط فيه النسب .

واحتاج السلطان لتساع ملكيه وكثرة المرتزقين
يداره إلى قهرمان خاص يدأوه ، في أحواله يجريها
على قدرها ، وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة
في المطابخ والأطباق وغيرها ، وحضر الخيرة ،
وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية ،
فخصوه باسم الحجاب ، وربما أضافوا إليه كتابة
الكتابة على السجلات ، إذا اتفق أنه يحسن
صناعة الكتابة ، وربما جعلوه لغيره .

واستمر الأمر على ذلك ، وحجب السلطان
نفسه عن الناس فصار هذا الحجاب واسطة بين
الناس ، وبين أهل الرتب كلهم ، ثم جمع له
آخر الدولة السيف والحرب ، ثم الرأي والمشورة ،
فصارت الخطة أرفع الرتب وأوجها للخطط .
ثم جاء الاستيلاء والحجر مدة من بعد السلطان

يُولَّيْهَا السُّلْطَانُ بَعْضَ الْأَحْكَامِ لِأَهْلِ الشُّوْكَ مِنْ رِجَالِ التُّرْكِ أَوْ أَبْنَائِهِمْ عَلَى حَسَبِ الدَّاجِبَةِ لِذَلِكَ . وَاللهُ مُدَبِّرُ الْأُمُورِ ، وَمُسْرِفُهَا بِحِكْمَتِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ .

(دِيوان الأعمال والجيانات)

إِعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْوَلِيْفَةَ مِنَ الْوَلَايَةِ الصُّرُورِيَّةِ لِلْمُلْكِ ، وَهِيَ الْقِيَامُ عَلَى أَعْمَالِ الْجِيَانَاتِ وَحِفْظِ حُقُوقِ الدَّوْلَةِ فِي النَّحْلِ وَالخَرْجِ وَإِحْصَاءِ الْمَسَاكِرِ بِأَسْمَانِهِمْ وَتَقْدِيرُ أَرْزَاقِهِمْ وَصَرْفُ أَغْطِيَانِهِمْ فِي لِيَانَتِهَا (١) وَالرُّجُوعُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْقَوَانِينِ الَّتِي يُولَّيْهَا (٢) قَوْمُهُ بِلِكَ الْأَعْمَالِ ، وَقَهَارَةُ (٣) الدَّوْلَةِ ، وَهِيَ كُلُّهَا مَسْطُورَةٌ ، فِي كِتَابٍ شَاهِدٍ بِتَقَايِيلِ ذَلِكَ فِي النَّحْلِ وَالخَرْجِ ، مَبْنِيٌّ عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ الْحِسَابِ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا الْمَهَرَّةُ مِنْ أَهْلِ بِلِكَ الْأَعْمَالِ ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ الْكِتَابُ بِالْأَلْيَانِ ، وَكَذَلِكَ مَكَانُ جُلُوسِ الْعُمَالِ الْمُبَاشِرِينَ لَهَا

وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ أَنَّ كِبْرَى نَظَرُ يَوْمًا إِلَى كِتَابِ دِيوَانِيهِ ، وَهَمَّ يَحْسِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَاتِبَهُمْ يُحَادِثُونَ ، فَقَالَ : دِيوَانُهُ أَيْ مَجَالَتُهُ بِلُغَةِ الْفَرَسِ ، فَسَمِيَ مَوْضِعُهُمْ بِبِلِكَ ، وَحَلَفَتْ أَلْهَاءُ لِكثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ تَخْفِيفًا فَقِيلَ دِيوَانٌ ، ثُمَّ نُقِلَ هَذَا الْإِسْمُ إِلَى كِتَابِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْقَوَانِينِ وَالْحَسَبَانَتِ .

(١) في مواضعه .

(٢) يسكن .

(٣) جمع قهرمان ... وهو كدام الخاس . وفيه السكاه أن مولاه القهاره كانوا يطاعة الخباراء في قهره تلك القوانين .

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْتَكِسِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، فَالْمَخْصُوصُ عَنْهُمْ بِالْحَسْبَانِ وَتَنْفِيزِ خَالِ السُّلْطَانِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ النَّبَاتِيَّةِ يَسْمُونَهُ بِالْوَلِيْكِلِ . وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ التَّوْبِيلُ . وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى السَّجَلَاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ حِطَّةُ الْعَلَامَةِ كَمَا يَغَيِّرُهُمْ مِنَ الدَّوَلِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ ، فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمِهِ مِنْ أَهْلِ الشُّوْكَ ، وَهَمَّ التُّرْكِ يُنْفِذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَهَمَّ مُتَعَلِّدُونَ وَهَذِهِ الْوَلِيْفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيْفَةِ النَّبَاتِيَّةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي السَّامَةِ عَلَى الْإِمْلَاقِ . وَلِلنَّائِبِ التَّوْلِيَّةِ وَالْعَزَلُ فِي بَعْضِ الْوَلَايَةِ عَلَى الْأَحْيَانِ ، وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيَبْنِيهَا وَتُنْفِذُ أَوَامِرُهُ كَمَا تُنْفِذُ الْمَرَامِسُ السُّلْطَانِيَّةُ ، وَكَانَ لَهُ النَّبَاتِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ . وَلِلْحَاجِبِ الْحُكْمُ فَقَطً . فِي مَبَلَّغَاتِ الْعَامَةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ التَّرَافُعِ إِلَيْهِمْ ، وَإِجْبَارٍ مِنْ أَبِي الْإِنْفِيَادِ لِلْحُكْمِ ، وَلَوْزُهُمْ تَحْتَ طَوْرِ النَّبَاتِيَّةِ . وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جَبَابَةِ الْأُمُورِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جُزِيَّةٍ ، ثُمَّ فِي تَصْرِيفِهَا فِي الْإِنْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ الْمَجَرَّيَاتِ الْمُقَدَّرَةِ ، وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ التَّوْلِيَّةُ وَالْعَزَلُ فِي سَائِرِ الْعُمَالِ الْمُبَاشِرِينَ لِهَذِهِ الْجَبَابَةِ وَالتَّنْفِيزِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ ، وَكِبَائِرِ أَصْنَافِهِمْ .

وَمِنْ عَوَالِيهِمْ أَنَّ يَكُونَ هَذَا الْوَزِيرُ مِنْ صِنْفِ الْقَلْبِ الْقَائِمِينَ عَلَى دِيوَانِ الْحَسْبَانِ وَالْجَبَابَةِ لَا خِيَامِيهِمْ بِلِكَ فِي يَصْرَمُنْدُ حُصُورٍ قَلِيَّةٍ . وَكَذَلِكَ

لهم ديواناً . وسَمَّلَ عُمَرُ عَنْ اسمِ الدِّيوانِ قَمِيرَ لَهُ ، وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمْرٌ عَجِيزٌ بَنَى أَبِي طَالِبٍ ، وَمُتَحَرِّمَةُ ابْنُ تَوَكُّلٍ وَجَبَّيرُ بْنُ طَغِيٍّ ، وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ ، فَكَتَبُوا دِيوانَ الْمَسَاكِينِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، عَلَى تَرْتِيبِ الْأَنْسَابِ مُبْتَدِئاً مِنْ قُرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَا بَعْدَهَا الْأَقْرَبُ ، فَأَلْقَرَبُ . هَكَذَا كَانَ ابْتِدَاءُ دِيوانِ الْجَيْشِ . وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ عَشْرِينَ .

وَأَمَّا دِيوانُ الْخَرَاجِ وَالْجَبَايَا فَبَعَثَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ : دِيوانُ الْعِرَاقِ بِالْقَارِصِيَّةِ ، وَدِيوانُ الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ ، وَكُتَّابُ الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ أَهْلِ التَّهْدِيدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ .

وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاشْتَمَحَ الْأَمْرَ مُلْكًا ، وَانْتَقَلَ الْقَوْمُ مِنْ قَضَايَةِ الْبِلَادَةِ إِلَى رَوْنَقِ الْحَضَارَةِ ، وَبَنَى سُلْجَةَ الْأُمِيَّةِ إِلَى جِلْفُو الْكِبْلَيْيَةِ ، وَظَهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَةٌ فِي الْكُتَّابِ وَالْجُسَيَانِ ، فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ سَعْدٍ وَإِلَى الْأُرْدُنِّ لِيَهْدِيَهُ ، أَنْ يَنْقُلَ دِيوانَ الشَّامِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةِ مِنْ يَوْمِ ابْتِدَائِهِ ، وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرْحُونٌ كَاتِبٌ عَبْدُ الْمَلِكِ ، فَقَالَ لِكُتَّابِ الرُّومِ اطَّلِبُوا الْبَيْتَ فِي خَيْرِ هَلِيهِ الصَّنَاعَةِ ، فَقَدْ قَطَعَهَا اللَّهُ عَنْكُمْ .

وَأَمَّا دِيوانُ الْعِرَاقِ فَأَمَرَ الْحَسَّاجُ كَاتِبُهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْقَارِصِيَّةِ ، وَلَقِّنَ ذَلِكَ عَنْ زَادَانَ فَرُوحَ كَاتِبِ الْحَسَّاجِ قَبْلَهُ ، وَلَمَّا قَاتِلَ زَادَانَ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

وَقِيلَ إِنَّهُ اسْمُ الْفَارِسِيِّينَ بِالْقَارِصِيَّةِ ، سَمِيَ الْكُتَّابُ بِذَلِكَ لِشَرَعَةِ نَفُوذِهِمْ فِي فَهْمِ الْأُمُورِ ، وَتَوْفُوقِهِمْ عَلَى الْجَلِّيِّ مِنْهَا وَالْقَصِيِّ ، وَجَمْعِهِمْ لِمَا شَدَّ وَتَفَرَّقَ ، ثُمَّ نَقِلَ إِلَى مَكَانٍ جُلُوسِهِمْ لِيُنْزِلَ الْأَعْمَالُ . وَعَلَى هَذَا قَيِّمْنَاوَلْ اسْمُ الدِّيوانِ كُتَّابُ الرِّسَالِ ، وَمَكَانَ جُلُوسِهِمْ بِبَابِ السُّلْطَانِ عَلَى مَا بَيَّنَّا بَعْدُ .

وَقَدْ تَفَرَّدَ هَلِيهِ الْوُظَيْفَةُ بِنَظَائِرٍ وَاحِدٍ ، يَنْظُرُ فِي سَائِرِ هَلِيهِ الْأَعْمَالِ ، وَقَدْ يُفَرَّدُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا بِنَظَائِرٍ ، كَمَا يُفَرَّدُ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ النَّظَرُ فِي الْمَسَاكِينِ وَالْقِطَاعَاتِيهِمْ وَحُسْبَانِ أَغْلِيَانِيهِمْ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ مُصْطَلَحِ الدُّوَلَةِ وَمَا قَرَّرَهُ أَوْلَاؤُهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ هَلِيهِ الْوُظَيْفَةُ ، إِنَّمَا تَخْدُمُ فِي الدُّوَلِ عِنْدَ تَكُونِ الْقَلْبِ وَالِاسْتِيْلَاءِ ، وَالنَّظَرُ فِي أَهْطَابِ الْمُلْكِ وَقُتُونِ التَّهْيِيدِ .

وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الدِّيوانَ فِي الدُّوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يُقَالُ لِسَبِّ مَالٍ أَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ، فَأَشْكَلَتْهُ وَتَعَبُوا فِي قَسْمِهِ ، فَسَمَوْا إِلَى إِحْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَضَبِطِ الْعَطَاةِ وَالْحُقُوفِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِالْأَمْرِ وَكَانَ رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ يَتَوَنُّونَ ، فَقِيلَ مِنْهُ عُمَرُ .

وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ الْهُزْمَانُ (١) لَمَّا رَأَى يَبْعَثُ الْبُعُوثَ بِغَيْرِ دِيوانٍ ، فَقِيلَ لَهُ ، وَمَنْ يَنْظُمُ بِغَيْبِهِ مَنْ يَغِيبُ مِنْهُمْ ؟ فَإِنْ مَنْ تَخَلَّفَ أَهْلُ بِمَكَانِهِ . وَإِنَّمَا يَضْبُطُ ذَلِكَ الْكِتَابُ . فَلَا بُدَّ

(١) يلقب به الحكيم من ملوك الحمير .

وَالْمَالُ فِيهَا ، ثُمَّ تَنْفِيْلَهَا عَلَى قَدَرِهَا ، وَفِي مَوَاقِفِهَا ، وَكَانَ يُعْرِفُ بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ وَكَانَ رِيْعًا يَلِكِيهَا فِي الْجِهَاتِ غَيْرِ الْمُوحِدِينَ مِنْ يُحْسِنُهَا .

وَلَمَّا اسْتَبَدَّ بَنُو أَبِي خَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَّةَ ، وَكَانَ شَأْنُ الْجَالِيَةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْيُونَنَاتِ ، وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ فِي الْأَنْدَلُسِ ، مِثْلَ بَنِي سَعِيدٍ ، أَصْحَابِ الْقُلْعَةِ ، جَوَارِ غُرْنَاتَةِ الْمُعْرُوفِينَ بَنِي أَبِي الْحَسَنِ ، فَاسْتَكْفَرُوا بِهِمْ فِي ذَلِكَ ، وَجَعَلُوا لَهُمُ النَّظَرَ فِي الْأَسْوَاقِ كَمَا كَانَ لَهُمُ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَذَلُّوا (١) فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْوَحِيدِينَ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهَا أَهْلُ الْحُسَيْنِ وَالْكَتَّابِ ، وَخَرَجَتْ عَنْ الْمُوحِدِينَ ثُمَّ لَمَّا اسْتَغْلَطَ أَمْرُ الْحَاجِبِ ، وَتَفَدَّ أَمْرُهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ الدَّوْلَةِ ، نَعَطَلَ هَذَا الرُّسْمَ وَصَارَ صَاحِبُهُ مَرْوُوسًا لِلْحَاجِبِ ، وَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الْجَبَاةِ ، وَذَهَبَتْ يَلَكُ الرِّيَاسَةِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ فِي الدَّوْلَةِ

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي مُرَيْنَ ، لِهَذَا التَّهْدِي فَحُسْبَانُ الْعَطَاةِ وَالْخَرَاجِ جَمْعُ لُؤَاعِدٍ ، وَصَاحِبُ هَذِهِ الرُّتَبَةِ هُوَ الَّذِي يُصَحِّحُ الْحُسْبَانَاتِ كُلَّهَا ، وَيَرْجِعُ إِلَى دِيَوَانِهِ وَيَنْظُرُهُ مُقَبَّبٌ بِخَطْرِ السُّلْطَانِ ، أَوْ الْوَزِيرِ ، وَخَطُّهُ مُعْتَبَرٌ فِي صَحْفِ الْحُسَيْنِ فِي الْخَارِجِ وَالْعَطَاةِ . هَذِهِ أَصُولُ الرُّتَبِ وَالْخَطِّ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَهِيَ الرُّتَبُ الْعَالِيَّةُ ، الَّتِي هِيَ عَامَّةُ النَّظَرِ وَمُبَايَرَةُ لِلْسُّلْطَانِ . وَأَمَّا هَذِهِ الرُّتَبَةُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ ، فَمُتَّحَمَةٌ . وَصَاحِبُ دِيَوَانِ الْعَطَاةِ يُعْرِفُ بِنَاطِرِ الْجَيْشِ .

(١) تَدَلُّوْهَا فِيهَا بِهِمْ .

لِئِنْ الْأَمْرُ اسْتَخْلَفَ الْحَاجِبَ صَالِحًا هَذَا مَكَانَهُ ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَنْقُلَ الدِّيَوَانَ مِنَ الْأَرِيسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ ، وَزَعَمَ لِذَلِكَ كِتَابَ الدُّرْسِ . وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ لِهَذَا دَرُ صَالِحٍ مَا أَكْثَمَ مَنَّتَهُ عَلَى الْكِتَابِ .

ثُمَّ جُعِلَتْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكٍ ، وَبَنِي سَهْلٍ . بَنِي نُوَيْخَةَ وَهَمِيرِهِمْ مِنْ وَزَرِهِ الدَّوْلَةِ .

وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ الْوُظَيْفَةُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِمَا يَخْتَصُّ بِالْجَبَشِ ، أَوْ يَتَنَبَّهُ الْمَالُ فِي الدُّخْلِ وَالْخَرْجِ ، وَتَمْيِيزِ التَّوَكُّلِ بِالصَّلْحِ وَالْعَنُوءِ ، وَفِي تَقْلِيدِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ لِمَنْ يَكُونُ ، وَشُرُوطِ النَّاطِرِ فِيهَا وَالْكَتَّابِ ، وَتَوَكُّلِ الْحُسْبَانَاتِ ، فَأَمْرٌ رَاجِعٌ إِلَى كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَهِيَ مَسْطُورَةٌ هُنَالِكَ ، وَلَيْسَتْ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا ، وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِيهَا مِنْ حَيْثُ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الَّذِي تَحْتَ وَصَدِّ الْكَلَامِ فِيهِ . وَهَذِهِ الْوُظَيْفَةُ جَزْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمُلْكِ ، بَلْ هِيَ ثَالِفَةٌ أَرْكَانِيَّةٌ لِأَنَّ الْمُلْكَ لَا يَبْدُ لَهُ مِنَ الْجَنْدِ وَالْمَالِ وَالْمَخَاطَبَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ ، فَاحْتَاجَ صَاحِبُ الْمُلْكِ إِلَى الْأَعْوَانِ فِي أَمْرِ السَّيْفِ وَأَمْرِ الْقَلَمِ وَأَمْرِ الْمَالِ ، فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُهَا لِلذِّكِّ بِجُزْءِهِ مِنْ رِيَاسَةِ الْمُلْكِ . وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْعَوَائِدِ بَعْدَهُمْ .

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ فَكَانَ صَاحِبُهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُوحِدِينَ ، يَسْتَقْبِلُ بِالنَّظَرِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَصَبْطِهَا ، وَتَحْقِيقِ نَظَرِ الْوَلَاةِ

ديوان الرسائل والكتابة

هَلِو الوَطِيقَةُ غَيْرُ ضرُورِيَّةٍ فِي الْمُلْكِ لِاسْتِقْنَاهُ
كَثِيرٌ مِنَ الدُّوَلِ عَنْهَا رَأْسًا كَمَا فِي الدُّوَلِ الرِّيفَةِ
فِي الْبُيُوتِ الَّتِي لَمْ يَأْخُذْ بِهَا تَهْلِيْبُ الْبُيُوتِ وَلَا
اسْتِحْكَامُ الصَّنَائِعِ .

وَأَيْنَمَا أَكَّدَ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا فِي الدُّوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ،
شَأْنُ اللَّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَالْبَلَاغَةِ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ
الْمَقَاصِدِ ، فَصَارَ الْكِتَابُ يُؤَدِّي كُنْهَ الْحَاجَةِ بِأَبْلَغِ
مِنَ الْعِبَارَةِ اللَّسَانِيَّةِ فِي الْأَكْثَرِ وَكَانَ الْكَاتِبُ
لِلْأَمِيرِ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِ ، وَمِنْ عَظَمَاءِ قَبِيلِهِ ،
كَمَا كَانَ لِلْخُلَفَاءِ وَأَمْرَاءِ الصَّحَابَةِ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ
يُعْظَمُ أَمَانَتُهُمْ وَخُلُوصُ أَسْرَارِهِمْ .

فَلَمَّا قَدَّمَ اللَّسَانُ وَصَارَ صِنَاعَةً اخْتَصَّ بِمَنْ
يُحْسِنُهُ . وَكَانَتْ عِنْدَ بَنِي التَّهَامِ رَفِيعَةً وَكَانَ
الْكَاتِبُ يُصَدِّرُ السُّجُلَاتِ مُطْلَقَةً ، وَيُكْتَبُ فِي
آخِرِهَا اسْمُهُ وَيُخْتَمُ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ السُّلْطَانِ وَهُوَ
طَائِعٌ مَنَقُوشٌ فِيهِ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْ شَارَتُهُ يَنْفُسُ
فِي طِينِ أَحْمَرَ مُدَابٍ بِالْمَاءِ وَيُسَمَّى طِينُ الْخَمْرِ ،
وَيُطْبَعُ بِهِ عَلَى طَرَفِ السُّجْلِ عِنْدَ طِينِهِ وَالْعَصَائِدِ .

ثُمَّ صَارَتْ السُّجُلَاتُ مِنْ بَيْتِهِمْ تَصَدَّرُ بِاسْمِ
السُّلْطَانِ ، وَيَضَعُ الْكَاتِبُ فِيهَا خَلْفَتَهُ أَوَّلًا
أَوْ آخِرًا ، عَلَى حَسَبِ الْإِهْتِيَادِ فِي مَحَلِّهَا وَفِي لَوْنِهَا .
ثُمَّ قَدْ تَنَزَّلَ هَلِو الْخِطَّةِ بِإَرْتِفَاعِ الْكُتَاتِ عِنْدَ
السُّلْطَانِ لِيُغَيِّرَ صَاحِبُهَا ، مِنْ أَهْلِ التَّرَاتِيْبِ فِي الدُّوَلَةِ ،
أَوْ اسْتِيفَادَ وَزِيرٌ عَلَيْهِ ، فَتَصِيرُ عَلَامَةُ هَذَا الْكِتَابِ
مُلَاقَةً الْحُكْمِ بِعَلَامَةِ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ ، يَمْتَدِّلُ بِهَا
فَيُكْتَبُ صُورَةُ عَلَامَتِهِ الْمَهْمُودَةِ ، وَالْحُكْمُ بِإِلَامَةِ

وَصَاحِبِ النَّوَالِ مَخْصُوصٌ بِاسْمِ الْوَزِيرِ ، وَهُوَ
النَّاطِقُ فِي دِيَوَانِ الْجَبَابِيَةِ الْعَامَّةِ لِلدُّوَلَةِ ، وَهُوَ أَعْلَى
وَرُتَبِ النَّاطِقِينَ فِي الْأُمُورِ ، لِأَنَّ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ
عِنْدَهُمْ يَتَنَوَّعُ إِلَى رُتَبٍ كَثِيرَةٍ ، لِإِنْفِصَاحِ قَوْلَتِهِمْ ،
وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِمْ ، وَاتِّسَاعِ الْأُمُورِ وَالْجَبَابِيَةِ
عَنْ أَنْ يَسْتَقْبَلَ بِضَبْطِهَا الْوَلِيدُ مِنَ الرِّجَالِ ، وَلَوْ بَلَغَ
فِي الْكِفَايَةِ مَبَالِغَهُ . فَتَعَيَّنَ لِلنَّظَرِ الْعَامِّ مِنْهَا هَذَا
الْمَخْصُوصُ بِاسْمِ الْوَزِيرِ .

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَافِعٌ لِمَوْنِ مَنْ مَوْلَى السُّلْطَانِ
وَأَهْلَ عَصَبَتِهِ وَأَرْتَابِ السُّيُوفِ فِي الدُّوَلَةِ يَرْجِعُ
نَظْرُ الْوَزِيرِ إِلَى نَظَرِهِ وَيَجْهَدُ جُهْدَهُ فِي مَنَابِجِهِ ،
وَيَسْنِي عِنْدَهُمْ أَشْأَادَ الدُّوَلَةِ ، وَهُوَ أَخَذَ الْأَمْرَ
الْكَاتِبِيَّ فِي الدُّوَلَةِ مِنَ الْجُنْدِ ، وَأَرْتَابِ السُّيُوفِ .
وَيَتَّبِعُ هَلِو الْخِطَّةِ خُطَطَ عِنْدَهُمْ أُخْرَى كُلُّهَا
رَاجِعَةً إِلَى الْأُمُورِ وَالْمُسْتَبَانَ ، مَقْصُودَةُ النَّظَرِ إِلَى أُمُورِ
خَاصَةٍ مِثْلَ نَظَرِ الْخَاصِّ وَهُوَ الْمَبَاشِيرُ لِلأُمُورِ السُّلْطَانِ
الْخَاصَّةِ بِهِ مِنْ إِقْطَاعَاتِهِ أَوْ سَهْمَانِهِ (١) مِنْ أُمُورِ
الْخَرَاجِ وَبِلَادِ الْجَبَابِيَةِ ، مِمَّا لَيْسَ مِنْ أُمُورِ الْمُتَسَلِّمِينَ
الْعَامَّةِ ، وَهُوَ نَحْتَ يَدِ الْأَمِيرِ أَشْأَادَ الدَّارِ .

وَلَنْ كَانَ الْوَزِيرُ مِنَ الْجُنْدِ فَلَا يَكُونُ لِأَشْأَادِ
الدَّارِ نَظْرٌ عَلَيْهِ . وَنَظَرُ الْخَاصِّ نَحْتَ يَدِ الْخَازِنِ
لِلأُمُورِ السُّلْطَانِ مِنْ مَنَابِجِهِ الْمُسَوَّى خَازِنُ الدَّارِ
لِإِخْصَاصِ وَطِيفَتِهَا بِمَالِ السُّلْطَانِ الْخَاصِّ .
هَذَا بَيَانُ هَلِو الْخِطَّةِ ، بِدَوَلَةِ التُّرْكَ بِالشَّرْقِ ،
بَعْدَ مَا قَدْ لَمَّسْنَا مِنْ أَمْرِهَا بِالشَّرْقِ . وَاللَّهُ مُصَرِّفُ
الْأُمُورِ لَارِبِّ غَيْرِهِ .

معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أشغال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في التزويج وتطويق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها.

وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستقلة إلى أبواب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لأجل سداجة العصبية فيختص السلطان أهل عصبية بخطط دولته، وسائر رتبته، فيقلد المال والسيف والكتابة منهم. فلما رتبته السيف فتستغنى عن معاناة العلم. وأما المال والكتابة فيضطر إلى ذلك البلاغة في هله والحسبان في الأخرى، فيختارون لها من هله الطبقة ماعدت إليه الضرورة، ويقلدونه. إلا أنه تكون^(١) يد آخر من أهل العصبية عالية على يده ويكون نظره متصرفا بين نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق. فإن الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء، إلا أنه تحت يده أمير من أهل عصبية السلطان، يعرف بالدوينار. وتحويل السلطان وثوقه به واستنائه^(٢) في غالب أحواله إليه، وتحويله على الآخر في أحواله البلاغة، وتطويق المقاصد وحسبان الأسرار وغير ذلك من توابعها.

وأما الشروط المتبعة في صاحب هله الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من

ذلك الرئيس، كما وقع آخر الدولة العصبية، لما ارتفع شأن الحجابة، وصار أمرا إلى التفويض ثم الاستيناف صار حكم العلامة التي للكتاب ملغى وصورتها ثابتة، إتباعا لما سلف من أمرا. فصار الحاجب يرسم للكتاب انشاء كتابه ذلك بخط، يصنعه ويختار له من صيغ الإنفاذ ما شاء، فيأتمر الكتاب له، ويضع العلامة المتخادة، وقد يخص السلطان بنفسه ذلك إذا كان مستيدا بأمره قائما على نفسه، فيرسم الأمر للكتاب ليصح علامته.

ومن خطط الكتابية التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وتفضله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلفاة من السلطان بأوجز لفظ. وأبلغ. فلما أن تندر كذلك، ولما أن يخلو الكاتب على يدها في سجل يكون بيد صاحب القصة. ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيع.

وقد كان جعفر بن يحيى يوقع على القصص بين يدي الرشيد، ويؤري بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس اللفاظ في تخصيصها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وقوتها، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار، وهكذا كان شأن الدول.

واعلم أن صاحب هله الخلعة لا بد من أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروعة والجسمه منهم وريادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه

(١) في الأصل (لا تكون) بزيادة لا. وفيه مناقضة للمعنى.
وقد حله د. وان في مشروته وهو الصواب.
(٢) المستأنه إليه.

في موضع الإحكام، مؤثراً للمصنف والمؤلف، والإنصاف، كقولاً للإسراير، وفيما عند الشذائيد، عالمياً بما يأتي من التوازي، ينصع الأمور مواضعها، والطول في أمانيها. قد نظر في كل فن من فنون العلم فلحكمة، وإن لم يحكمه أهد منه بجسدال ما يكتفى به، يعرف بغريزة عقله وحسن آفقه وقفل تجرئيه ما يرد عليه قبل ورويه وعاقبة ما يصدر عنه قبل صلوه، فيبدل لكل أمر عنته وعقده ويهيئ لكل وجه هيئته، وعادته.

«فتتافسوا بامتص الكتاب في شؤره الآداب، وتفقوا في الدين وأبدأوا بعلم كتاب الله عز وجل، والقرآن، ثم العربي فلانها ثقات^(١) أليستكم، ثم أجدوا الخط، فأنه حلي كتيكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وبسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه همكم، ولا تضيوا النظر في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج».

«وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وفسفاس الأمور ومخافها فلانها مثلة للرقاب مفيدة للكتاب. وتزوها صناعكم عن الدناءة وارباوا بأنفسكم عن السعاية والشميمة، وما فيه أهل الجهالات».

«ولأيام والكبر والسخط والظنة، فلانها حذوطة محلبة من غير إحنة، وتعالوا في الله عز

(١) وسيلة تفرعها. والتفاف في الأصل الآلة التي تسرى بها الرماح.

أصناف الناس فهي كثيرة وأحسن من استوعبها عهد الخبير الكاتب في رسالته إلى الكتاب وهي : «أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم. فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً. وإن كانوا في الحقيقة سوا». وصرفهم في صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، إلى أسباب مقاصدهم، وأبواب أرزاقهم. فجعلكم مفسر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمهمات والعلوم والرزانة. بكم ينظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها. وتصحاحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعلم بلدانهم. ولا يستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم. فموقعكم من الملوك موقع أسماهم التي بها يستمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وأليستهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون. فامتكم الله بما خصكم من فضل صناعكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم. وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خللاو الخير المعهودة وبحاصل الفضل المذكورة المعهودة منكم».

«أيها الكتاب: إذا كنتم على ما يات في هذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج في نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يتقرب به في مهمات أمور، أن يكون حليماً في موضع العلم، فقيماً في موضع الحكم، يقدماً في موضع الإقدام، صحيحاً

فَإِنَّ الْمَلَقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ إِلَيْهِ أَرْقَهُهُمْ بِعِيَالِهِ .
ثُمَّ لَيْكُنْ بِالْمَدْلَى حَاكِمًا وَلِلْأَشْرَافِ مَكْرُمًا ، وَلِلْفَتَاهِ
مُوقَرًّا ، وَلِلْبِلَادِ عَامِرًا ، وَلِلرَّعِيَةِ مُتَالِفًا ، وَعَنْ أَذَاهُمْ
مُتَخَلِّفًا ، وَلَيْكُنْ فِي عَجَلِيهِ مَتَوَاضِعًا حَكِيمًا ، وَفِي
سَجَلَاتِهِ خَرَجًا وَاسْتِقْضَاءَ حُقُوقِهِ رَقِيقًا .

« وَإِذَا صَحِبَ أَحَدُكُمْ رَجُلًا فَلْيَخْتِمْ خَلَاتِفَهُ ،
فَإِذَا عَرَفَ حَسَنَهَا وَفَحِبَهَا ، أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَلِّفُهُ مِنْ
الْحُسْنِ ، وَاحْتَالَ عَلَى صَرَفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْفَجْرِ
بِالطَّبِ حِلَّةً وَأَجَلًا وَبَسِيلَةً .

« وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ ، إِذَا كَانَ بَعِيرًا
بِإِسْنَانِهَا تَمَسَّ مَرْقَةَ أَخْلَاقِهَا ، فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحًا (١)
لَمْ يَهْجُهَا ، إِذَا رَكِبَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ شَبُوبًا (٢) انْقَاضًا
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا ، وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شَرُودًا تَوَقَّاهَا مِنْ
بَيْنِ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ حَرُونًا (٣) قَمَعَ بِرُفْقِي
هَوَاهَا فِي طَرَفِهَا (٤) ، فَإِنْ اسْتَمَرَّتْ عَظْفَهَا يَسِيرًا
فَيَسْلُسْ (٥) لَهُ قَبَادُخًا . وَفِي هَذَا الْوَصْفِ مِنَ السِّيَاسَةِ
دَلَالِيلٌ لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ وَجَرَّبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ .

« وَالْكَاتِبُ بِفَضْلِ أَجْبِهِ وَشَرِيفِ صَنْعِهِ وَلَطِيفِ
حِيلَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ يُحَاوِرُهُ مِنَ النَّاسِ وَمُنَاطَرُهُ
وَيَقْنَعُهُ عَنْهُ أَوْخَافَ سَطَوْتِهِ أَوَّلَى بِالرُّفْقَى لِصَاحِبِهِ
وَمُدَارَاتِيهِ وَتَقْوِيمِ أَوْيِهِ مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي
لَا تُجِيرُ (٦) جَوَابًا وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا وَلَا تَقْنَعُ خَطَابًا
إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصِيرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا الرَّائِبُ عَلَيْهَا .

وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ الْبَقِيَّةُ
لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنَّبْلِ مِنْ سَلَفِكُمْ .

« وَإِنْ كَبَا الرِّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَامْطَقُوا عَلَيْهِ
وَأَسْوَهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ خَالَهُ ، وَيَتَوَبَّ إِلَيْهِ أُمُّهُ .
وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الْكِبَرَ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِهِ
إِنْشَوَانِيهِ ، فَزَوِّرُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوِرُوهُ وَاسْتَظْهَرُوا
بِفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ .

« وَلَيْكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ اصْطَلَحَهُ وَاسْتَظْهَرَ
بِدَلِيلِهِمْ حَاجِيَهُ إِلَيْهِ أَسَاطَةً مِنْهُ عَلَى وَلَدِيهِ وَأَعْيِهِ .
فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشَّغْلِ مُحَمَدَةٌ فَلَا يَصْرِفُهَا إِلَّا إِلَى
صَاحِبِهِ وَإِنْ عَرَضَتْ مَلَمَةٌ فَلْيَحْبِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ .
وَلْيَحْذَرْ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْكَلَلَ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْحَالِ .
فَإِنَّ الْعَيْبَ إِلَىكُمْ مَعْتَرِ الْكُتَابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى
الْقُرْءِ ، وَهُوَ لَكُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ لَهُمْ .

« فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ
يَبْدُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ فَوَاجِبٍ
عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَهُ لَهُ مِنْ وَقَالِهِ وَشُكْرِهِ وَاحْمَالِهِ وَخَيْرِهِ
وَنَعِيمَتِهِ وَيَحْتَمِلَ مِنْهُ وَتَدْبِيرِ أَمْرِهِ مَا هُوَ جَزَاءُ
لِحَقِّهِ ، وَيُصَلِّقُ ذَلِكَ بِفَعَالِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ،
وَالْإِضْطِرَّارِ إِلَى مَالَتِهِ . فَاسْتَشْعَرُوا ذَلِكَ : وَفَقَّكُمْ
اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرِّخَاءِ وَالشَّدَقِ وَالْجِرْمَانِ
وَالْمُيَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ وَالسَّرَّاءِ وَالْقُرْءِ ، فَنِعَمَتِ
السَّيِّئَةِ هَلِيَّةٌ مِنْ وَبَسٍ يَهَا مِنْ أَهْلِ حَسْبِ الصَّنَاعَةِ
الشَّرِيفَةِ .

« وَإِذَا وَفَّى الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْصِيَاءَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقٍ
لِللَّهِ وَبِعِيَالِهِ أَمْرًا فَلْيَرْاقِبِ اللَّهَ هَرَجًا وَجَلَّ وَلْيُوَثِّرْ طَاعَتَهُ ،
وَلَيْكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَقِيقًا ، وَلِلْمُتَطَلِّمِ مُنْصِفًا ،

(١) كثيرة الرض.

(٢) كثيرة دفع اللبن.

(٣) التي إذا لسد جرحها وقتت ولم تعجب.

(٤) في ضربه لها.

(٥) يلن.

(٦) لا تزد جربا.

« فَإِنَّهُ إِنْ عَلَنَ مِنْكُمْ عَالَنٌ أَوْ قَالَنَ قَائِلٌ إِنْ أَلَمْنِي
بَرَزَ مِنْ جَبِيلٍ صَنِيعِهِ وَقُوَّةِ حَرَكِيهِ إِنَّمَا هُوَ مُفَضَّلُ
حِيلَتِهِ، وَحَسَنُ تَلْبِيصِهِ، فَقَدْ تَرَضَّ بِظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ
إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَجِيرَ مِنْهَا
إِلَى غَيْرِ كَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ فَهَرَّ خَافٍ. »

« وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ وَأَحْمَلُ
لِعِبَاءِ التَّلْبِيزِ مِنْ مُرَافِقِيهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ
فِي خِدْمَتِهِ. فَإِنَّ أَهْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ
مَنْ رَوَى بِالْعَجَبِ وَرَأَى ظَهْرَهُ وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ
أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحَدُهُمْ فِي حَرِيْقَتِهِ. وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ
الْقَرِيبَتَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ
غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَوَكُّبٍ لِنَفْسِهِ. وَلَا يَكَاظِرْ عَلَى
أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَمُصَاحِبِهِ وَعَشِيرَتِهِ. وَحَسَنُ اللَّهِ وَاجِبُ
عَلَى الْجَمِيعِ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُّعِ لِعَظَمَتِهِ، وَالتَّلَذُّلِ
لِعِزَّتِهِ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ. »

« وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ: مَنْ
تَلَزَّمَهُ النَّصِيحَةُ يَلْزَمُهُ الْعَمَلُ وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ،
وَحُرَّةٌ (١) كَلَامِي بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،
فَلْيَلِمْكَ جَلَّتْهُ آخِرُهُ، وَتَمَتَّتْهُ بِهِ. قَوْلَانَا اللَّهُ
وَلِيَاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطُّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَكَّلُ بِهِ مَنْ
سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِزْشَادِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِإِيْدِهِ.
وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. »

(الشرطة) : وَيُسَمَّى صَاحِبَهَا لِهَذَا التَّهْدِيدِ
بِالْقَرِيبَةِ الْحَاكِمِ، وَكَذَا ذَوْلَةُ أَهْلِ الْأَتْلَسِ صَاحِبُ
الْمَلِيَّةِ، وَكَذَا ذَوْلَةُ التُّرْكِ الْوَالِي. وَهِيَ وَظِيفَةُ مَرُوءَسَةٍ

« أَلَا فَاَرَقُّوْا رَحِمَكُمُ اللّٰهُ فِي النَّظَرِ وَاصْلَمُوا
مَا امْكَنَكُم فِيهِ مِنَ الرُّوْبَةِ وَالْفِكْرِ، تَأَمَّنُوا بِإِذْنِ اللّٰهِ،
مِمَّنْ صَجَبْتُمُوهُ النَّبُوَّةَ وَالْاِسْتِقْسَالَ وَالْجَنُوَّةَ،
وَيَجِيرُ مِنْكُمْ اِلَى الْمَوَافَقَةِ، وَتَجِيرُوْا مِنْهُ اِلَى
الْمَوَافَاةِ وَالشَّفَقَةِ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ. »

« وَلَا يَجَاوِزَنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي هَيْئَةٍ مُجِيبَةٍ وَمَلْبَسَةٍ
وَمَرْكَبَةٍ وَمَقَامَةٍ وَمَشْرِيبَةٍ وَيَتَأَيَّدُ وَخَلْدِيٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِنْ فَنُونِ أَمْرِهِ قَلْبَ حَقٍّ، فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمُ اللَّهُ
بِهِ مِنْ شَرَفِ صَنِيعِكُمْ خِدْمَةً لِاتِّحَمَلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ
عَلَى التَّقْصِيرِ وَحَفَظَةً لِاتِّحَمَلَ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التَّقْصِيعِ
وَالْتَبْلِيزِ. وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَاكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ
مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ. وَاحْتَرُوا مَخَالِفَ
السَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ الشَّرَفِ فَإِنَّهَا يُضْعِفَانِ الْقَفَرَ
وَيُذِلَّانِ الرِّقَابَ وَيَنْقُصَانِ أَهْلَهُمَا وَيَسِمَا الْكُتَابِ
وَأَرْبَابِ الْأَدَابِ. »

« وَلَا أُمُورَ أَشْبَاهَ وَبَعْضُهَا ذَكِيلٌ عَلَى بَعْضٍ فَاسْتَدِلُّوا
عَلَى مُؤَنَّتِي (١) أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ نَجْرَتُكُمْ
ثُمَّ اسْأَلُوا مِنْ مَسَائِلِكِ التَّلْبِيزِ أَوْ ضَحَّيْهَا مَحَبَّةً
وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً، وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً. وَاعْلَمُوا أَنَّ
لِلتَّلْبِيزِ أَفْقَةً مُتَلَفَةً، وَهُوَ الْوَضْعُ الشَّائِلُ لِصَاحِبِهِ
مَنْ إِنْغَافَ عَلَيْهِ وَرَوَيْتِهِ. فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي
مُجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافَى مِنْ مَنْطِقِيهِ، وَلْيُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ
وَجَوَابِهِ، وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَّتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَضْلَحَةٌ
لِفَعْلِهِ وَمَتَلَفَةٌ لِلشَّائِلِ عَنْ إِكْتَارِهِ. وَلْيَضَرَّحْ إِلَى
اللَّهِ فِي صَلَوةٍ تَوْفِيقِيَةٍ وَإِمْدَادِيَةٍ بِتَسْلِيْمِهِ مَخَافَةً وَتَوَوُّعًا
فِي الْقَلْبِ، الْمُصِيرَ بِإِيْدِيهِ وَحَقْلِهِ وَأَقْبِيهِ. »

لِلْأَكْبَرِ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ، حَتَّى سَكَتَتْ قَرْيَتُهَا
لِلوِزَارَةِ وَالْحِجَابَةِ .

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِالْمَغْرِبِ ، فَكَانَتْ
لَهَا حَقٌّ مِنَ التَّنْوِيهِ ، وَإِنْ لَمْ يَحْطُوا بِهَا ، وَكَانَ
لَا يَكْلِفُهَا إِلَّا رِجَالُ الدَّوْلَةِ الْمُوحِدِينَ وَكِبَرَاؤُهُمْ وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ السَّحْكُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ .
ثُمَّ فَسَدَ الْيَوْمُ مَنَاصِبُهَا ، وَخَرَجَتْ عَنْ رِجَالِ
الدَّوْلَةِ ، وَصَارَتْ وَلَايَتُهَا لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ
الْمُطْطَنِينَ .

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مَرْيَمَ ، لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ ،
فَوَلَايَتُهَا فِي بَيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ اضْطِنَاجِهِمْ :
وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكَ بِالْمَشْرِقِ فِي رِجَالِ التُّرْكِ
أَوْ أَغْصَابِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ التُّرْكِ
يَتَخَيَّرُونَهُمْ لَهَا فِي النَّظَرِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّلَاحِ
وَالْعَصَاحَةِ فِي الْأَحْكَامِ ، لِيَقْطَعَ مَوَادَّ الْفَسَادِ وَخَسَمَ
أَبْوَابَ الدُّعَارَةِ وَتَخْرِيبَ مَوَاطِنِ الْفُسُوقِ وَتَقْرِيقِ
مَجَالِيهِمْ مَعَ إِقَامَةِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَالنِّسَابِيَّةِ سَمًا
وَتَقْتِيسِهِ بِرِكَائِ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ . وَاللَّهُ
مُعَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ . وَاللَّهُ تَعَالَى
أَعْلَمُ .

(قيادة الأساطيل) : وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ
وَحُطَّتْهَا فِي مَلِكِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ، وَمَرْوُوسَةُ
لِصَاحِبِ السُّيُفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَاجِ ،
وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا فِي عُرْفِهِمْ : « الْمَلِكُ » بِتَقْجِيمِ
الْلامِ ، مُتَقُولًا بِنِ لَوِّ الْأَفْرِيقِيَّةِ ، فَإِنَّهُ اسْمُهَا فِي
اصْطِلَاحِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا اخْتَصَتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ
بِهَذِهِ الْأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّهَا جَمِيعًا عَلَى صِفَةِ

لِصَاحِبِ السُّيُفِ فِي الدَّوْلَةِ ، وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا
فِي بَعْضِ الْأَحْوَاجِ .

وَكَانَ أَسْلُفُ وَضْعِهَا فِي الدَّوْلَةِ الْمَبَايِدِ لِمَنْ
يُقِيمُ أَحْكَامَ الْجَزَائِمِ فِي خَالِ اسْتِيفَائِهَا أَوَّلًا ، ثُمَّ
الْحُدُودَ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا ، فَإِنَّ التَّهْمَ الَّتِي تَعْرِضُ
فِي الْجَزَائِمِ لَأَنْظَرُ لِلْمَشْرِعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا
وَالنِّسَابَةِ النَّظَرُ فِي اسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِالْإِقْرَارِ يُكْرِهُهُ
عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا اخْتَفَتْ بِهِ الْقَرَائِنُ لِمَا تَوَجَّهَتْ
الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ . فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهَذَا
الاسْتِيفَاءِ وَبِاسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّاهُ عَنْهُ
الْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ الشَّرْطَةِ . وَرُبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ
النَّظَرَ فِي الْحُدُودِ وَاللَّمَّاهِ بِالْإِطْلَاقِ وَأَفْرَدُوا مِنْ
نَظَرِ الْقَاضِي ، وَتَزَوَّاهُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوا كِبَارَ
الْقَوَادِ وَعُظَمَاءَ الْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ .

وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ التَّنْفِيذِ فِي طَبَقَاتِ النَّاسِ إِنَّمَا
كَانَ حُكْمُهُمْ عَلَى الْعُظَمَاءِ وَأَهْلِ الرَّيْبِ ، وَالضَّرْبُ
عَلَى أَيْدِي الرِّعَاجِ وَالْفَجَرَةِ .

ثُمَّ حُطَّتْ نَبَاتَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ
وَتَوَسَّعَتْ إِلَى شَرْطَةِ كَبِيرَى وَشَرْطَةِ صُغْرَى . وَجَبَلُ
حُكْمِ الْكَبِيرَى عَلَى الْخَاصَّةِ وَاللَّمَّاهِ وَجَبَلُ لَوِّ الدُّعْمِ
عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِيهِمْ
فِي الظَّلَامَاتِ ، وَتَقَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمِنْ إِيَّاهُمْ مِنْ
أَهْلِ الْجَاوِ ، وَجَبَلُ صَاحِبِ الصُّغْرَى مَخْصُوصًا
بِالْعَامَةِ . وَصِيبُ إِصْحَابِ الْكَبِيرَى كَرِيبُ بِيَابِ
قَلْبِ السُّلْطَانِ ، وَرِجَالُ يَتَبَوَّوْنَ الْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ
فَلَا يَبْزَحُونَ عَنْهَا إِلَّا فِي تَصْرِيفِهِ ، وَكَانَتْ وَلَايَتُهَا

البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى غلواته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة إلى الشام وعلى غلواته الشمالية بلاد الأندلس والإفرنجية والصقالية والروم إلى بلاد الشام أيضا فسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة إلى أهل غلواته .

والمساكنون يسمى^(١) هذا البحر ، وسواطيه من غلواته يعانون من أهوالها لا تعافيه أمة من أمم البحار . فقد كانت الروم والإفرنجية والقوط بالغلوة الشمالية من هذا البحر الرومي ، وكانت أكثر حروبهم ومناجرتهم في السفن ، فكانوا مهرة في ركوبه ، والحرب في أساطيله . ولما أسف من أسف منهم إلى ملوك الغلوة الجنوبية مثل الروم إلى أفريقية والقوط إلى المغرب اجتازوا في الأساطيل وملكوها ، وتغلّبوا على البربر بها واقتزوا من أيديهم ثمرها ، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة ونسيلة وجسولاه ومزناني وشرناني وطنجة . وكان صاحب قرطاجنة يني قبيلهم يحارب صاربة رومة ، ويبعث الأساطيل بحربه متشحونة بالمسارير والمدد . فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر المساكين جهابيه معروفة في القديم والحديث .

ولما ملك المسلمون مصر ، كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن صف في البحر ، فكتب إليه إن البحر خلق عظيم ، يركبه خلق ضعيف ، دود على هود . فلو عجز جنتيل بمنع المسلمين من ركوبه ، ولم يركبه أحد من العرب ، إلا من اقتات على صخر في ركوبه ، ونال من عقابه كما فعل بقرنجة بن هرثة الأزدي سيد بجيلة ، لسا أغراه عمان قبلته غزوه في البحر ، فافكر عليه وعقفه أنه ركب البحر للغزو . ولم يزل الشأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه ، والجهاد على أغوايه . والسبب في ذلك أن العرب ليكوتهم لم يكونوا مهرة في ثقافته وركوبه ، والروم والإفرنجية لما رستهم أهواله ، ومزمارهم في القلب على أغوايه ، مروا عليه ، وأحكموا الدواب بثقافته .

فلما استقر الملك للعرب ، وتسلخ سلطانهم ، وصارت أمم المعجم حولا لهم ، وتحت أيديهم ، وتقرّب كل ذي صنعة إليهم بمتلغ صناعته ، واستخذنوا من التواتية في حاجاتهم البحرية ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، واستخذنوا بصراها بها ، ففشروا إلى الجهاد فيه ، وأنشؤا السفن فيه والسواقي^(١) ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها المسارير والمقاتلة لين وراء البحر من أمم الكفر ، وانخفضوا بذلك من ممالكهم وتغورهم ما كان أقرب لهذه البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس .

وأعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل أفريقية ، باتخاذ دار صناعة يعونس لإنشاء الآلات البحرية حرضا على مزارع الجهاد ، ومنها كان فتح صقلية أيام زياد الله الأول ابن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن القنات شيخ

والمساكنون يسمى^(١) هذا البحر ، وسواطيه من غلواته يعانون من أهوالها لا تعافيه أمة من أمم البحار . فقد كانت الروم والإفرنجية والقوط بالغلوة الشمالية من هذا البحر الرومي ، وكانت أكثر حروبهم ومناجرتهم في السفن ، فكانوا مهرة في ركوبه ، والحرب في أساطيله . ولما أسف من أسف منهم إلى ملوك الغلوة الجنوبية مثل الروم إلى أفريقية والقوط إلى المغرب اجتازوا في الأساطيل وملكوها ، وتغلّبوا على البربر بها واقتزوا من أيديهم ثمرها ، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة ونسيلة وجسولاه ومزناني وشرناني وطنجة . وكان صاحب قرطاجنة يني قبيلهم يحارب صاربة رومة ، ويبعث الأساطيل بحربه متشحونة بالمسارير والمدد . فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر المساكين جهابيه معروفة في القديم والحديث .

ولما ملك المسلمون مصر ، كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن صف في البحر ، فكتب إليه إن البحر خلق عظيم ، يركبه خلق ضعيف ، دود على هود . فلو عجز جنتيل بمنع المسلمين من ركوبه ، ولم يركبه أحد من

الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْفَتْحِ وَمَلَكَوْا سَائِرَ الْجَزَائِرِ
الْمُنْقَلِبَةِ عَنِ السَّوَاوِلِ فِيهِ مِثْلُ مَيُورَقَ وَمَيُورَقَ
وَيَايسَةَ وَمَيُورَانِيَّةَ وَمِصْلِيَّةَ وَمَقُورَةَ وَمَالِيَّةَ وَأَفْرِيطَشَ
وَقَبْرُسَ، وَسَائِرَ مَمَالِكِ الرُّومِ وَالْأَفْرَنْجِ . وَكَانَ
أَبُو الْقَاسِمِ الشَّيْبِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يُغْزَوْنَ أَسَاطِيلَهُمْ
مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنُودَ فَتَنْقَلِبُ بِالظُّفْرِ وَالغَنِيمةِ .
وَالْفَتْحُ مُجَاهِدُ الْعَامِرِيِّ صَاحِبُ دَانِيَّةَ مِنْ مُلُوكِ
الطُّوَانِيفِ جَزِيرَةَ سِيْرَانِيَّةَ فِي أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ
وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَارْتَجَعَهَا النَّصَارَى لِقُوَّتِهَا . وَالْمُسْلِمُونَ
خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ نَظَّيُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هَذَا
الْبَحْرِ ، وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَائِيَةً ، وَذَا هَبَّةَ ،
وَالْمَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةَ تَجِيرُ الْبَحْرَ فِي الْأَسَاطِيلِ مِنْ
مِصْلِيَّةَ إِلَى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمَسَابِلِ لَهَا مِنَ الْمُدَّةِ
الشَّمَالِيَّةِ ، فَتَوْفَعُ بِمُلُوكِ الْأَفْرَنْجِ ، وَتُخْشَنُ فِي
مَمَالِكِهِمْ ، كَمَا رَفَعَ فِي أَيَّامِ بَنِي الْمُسَيْنِ ، مُلُوكِ
مِصْلِيَّةَ الْقَائِمِينَ فِيهَا بِدَعْوَةِ الْقَبِيلِيِّينَ . وَانْحَاذَتْ
أُسْمُ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَنَابِ الشَّمَالِيِّ
الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مِنْ سَوَاوِلِ الْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِبَةِ
وَجَزَائِرِ الرُّومَانِيَّةِ لَا يَمْلِكُونَهَا ، وَأَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ
قَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاكُهُ ^(١) الْأَسَدُ عَلَى فَرَسِيهِ ،
وَقَدْ مَلَأَتْ الْأَكْثَرُ مِنْ بَسِيطِ . هَذَا الْبَحْرُ حُدُودُ
وَعُدَا وَاخْتَلَفَتْ فِي طَرَفِهِ يَسْمَا وَحَرْبًا ، فَلَمْ
تُظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ الْوَأَحْ .

حَتَّى إِذَا أَذْرَكَ ، الدَّوْلَةُ الْقَبِيلِيَّةَ وَالْأُمَوِيَّةَ
الْقُسْلَ وَالْوَمْنَ ، وَطَرَفَهَا الْإِخْلَالَ ، مَدَّ النَّصَارَى
أَيْدِيَهُمْ إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيَّةِ مِثْلَ مِصْلِيَّةَ

(١) اجترأ عليها .

الْقُسْبَا ، وَفَتْحَ قُورَصَةَ أَيْضًا فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ
مُتَوَلِيَةً بَنِي حَبِيجٍ أَغْرَى مِصْلِيَّةَ أَيَّامَ مُتَوَلِيَةِ بْنِ
أَبِي شُفْيَانَ فَلَمْ يَفْتَحِ اللَّهَ عَلَى يَدَيْهِ وَقَبِيحَتْ عَلَى
يَدِ ابْنِ الْأَعْلَبِ وَقَاتِلِهِ أَسَدِ بْنِ الْفَرَاتِ . وَكَانَتْ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ أَسَاطِيلُ الْإِفْرِيْقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ فِي دَوْلَةِ
الْقَبِيلِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ تَتَقَالَبُ إِلَى بِلَادِهِمَا فِي سَبِيلِ
الْقِسْمَةِ فَتَجُوسُ خِلَالَ السَّوَاوِلِ بِالْإِفْسَادِ وَالْخَرْيَبِ .
وَانْتَهَى أَسْطُورُ الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
النَّاصِرِ إِلَى يَدَيْهِ مَرْكَبٌ أَوْ تَحْوَهَا ، وَأَسْطُورُ
أَفْرِيقِيَّةَ كَذَلِكَ مِثْلُهُ أَوْ قُرْبِيًّا مِنْهُ ، وَكَانَ قَائِدُ
الْأَسَاطِيلِ بِالْأَنْدَلُسِ ، ابْنُ دِمَاجَسَ ، وَتَرَفَّاهَا
لِلْحَطِّ . وَالْإِفْلَاحُ بِجَائِيَةِ وَالْمَرِيَّةِ ، وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهَا
مُجْمِعةً مِنْ سَائِرِ الْمَمَالِكِ مِنْ كُلِّ بِلَدٍ تَتَخَذُ فِيهِ
السُّفُنُ أَسْطُورَ يَرْجِعُ نَظَرُهُ إِلَى قَائِدِ مِنَ التَّوَالِيَةِ
يُدَبِّرُ أَمْرَ حَرْبِهِ وَسِلَاحِهِ وَمَقَاتِلِيهِ وَوَكَيْسَ يُدَبِّرُ
أَمْرَ جَزَائِرِهِ بِالرَّيْحِ أَوْ بِالْمَجَادِيْفِ وَأَمْرَ إِزْمَانِهِ
فِي مَرَفِقِهِ . فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ الْأَسَاطِيلُ لِيُغْزَوْا مُحْتَفِلِ
أَوْ غَرَضَ سُلْطَانِيٍّ مِنْهُمْ ، عَشِكْرَتْ بِمَرَفَتِهَا الْمَعْلُومِ
وَشَحَنَهَا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادَ عَسَاكِرِهِ وَمَوَالِيِهِ ،
وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَلَجِدِ مِنْ أَهْلِ طِبَقَاتِ أَهْلِ
مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يَسْرِعُهُمْ لِرُجُوعِهِمْ
وَيَنْتَظِرُ لِإِيَابِهِمْ بِالْفَتْحِ وَالْقِسْمَةِ .

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِيَهْدَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةَ قَدْ
خَلَّيُوا عَلَى هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ، وَعَظُمَتْ
صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْأَنْهَارِ النَّصْرَانِيَّةِ
قَبْلَ بِأَسَاطِيلِهِمْ بَقِيَّةً مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَانْتَفَعُوا ظَهْرَهُ
لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ ، فَكَانَتْ لَهُمُ الْقِمَامَاتُ

وَأَسْكَنَاهُ ، ثُمَّ هَلَكَ وَوَلَّى ابْنَهُ ، فَاسْتَخَفَّهُ بَعْضُ
النَّزْعَاتِ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَمَّا بَعُوثُ يُوْنُسَ ، وَنَزَلَ عَلَى
السَّيْرِ بِهَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ، وَأَجَارَ مَرَاكِبَ فَلَقَاهُ
الْخَلِيفَةُ يُوْسُفُ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِالسَّيْرِ وَالْكَرَامَةِ ،
وَأَجَزَ الصَّلَاةَ وَقَلَّدَهُ أَمْرَ أَسَاطِيلِهِ فَجَلَّ فِي جِهَادِ
أَمْرِ النُّصْرَانِيَّةِ ، وَكَانَتْ لَهُ آثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ
مَذْكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ .

وَانْتَهَتْ أَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي الْكَثْرَةِ
وَالِاسْتِجَادَةِ إِلَى مَا لَمْ يَتَلَفَعْ مِنْ قَبْلُ وَلَا يَنْتَدُ ، فِيمَا
عَهْدَنَاهُ .

وَلَمَّا قَامَ صَلَاحُ الدِّينِ يُوْسُفُ بْنُ أَيُّوبَ عَلَيْكَ
مِصْرَ وَالشَّامَ لِعَهْدِهِ بِاسْتِزْجَاعِ ثُغُورِ الشَّامِ مِنْ
يَدِ أَمْرِ النُّصْرَانِيَّةِ وَتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ رَجَسِ
الْكُفْرِ وَبِنَائِهِ تَنَاقُضَاتِ أَسَاطِيلِهِمُ الْكَافِرِيَّةِ بِالْمَدِيدِ
لِيُنَالِكَ الثُّغُورَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ قَرِيبَةٍ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ،
الَّذِي كَانُوا قَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ ، فَأَمَدُوهُمْ بِالْمَدِيدِ
وَالْأَقْوَاتِ ، وَلَمْ تَقْوَ لَهُمْ أَسَاطِيلُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ،
لِاسْتِحْرَالِ الطَّلَبِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ
الْبَحْرِيَّةِ ، وَتَعَدُّدِ أَسَاطِيلِهِمْ بِهِ ، وَضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ
مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ عَنْ مُمَاخِزِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَثَرْنَا
إِلَيْهِ قَبْلُ . فَلَوْفَدَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى أَبِي يَنْغُوبَ
الْمَنْصُورِ سُلْطَانَ الْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ الْمُوحِدِينَ رَسُولُهُ
عَبْدَ الْكَرِيمِ بْنِ مُنْقِذٍ مِنْ بَيْتِ بَنِي مُنْقِذٍ مُلُوكِ
شِيرَازَ ، وَكَانَ مُلْكُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَأَتَتْ عَلَيْهِمْ فِي
دَوْلَتِهِ ، فَبَعَثَ عَبْدَ الْكَرِيمِ بَيْنَهُمْ هَذَا إِلَى مَلِكِ
الْمَغْرِبِ حَالِيًا مَدَّةَ الْأَسَاطِيلِ ، لِيَتَحَوَّلَ فِي الْبَحْرِ
بَيْنَ أَسَاطِيلِ الْكُفْرَةِ وَبَيْنَ مَرَامِهِمْ مِنْ إِمْدَادِ

وَأَقْرِيطَشَ وَمَالِطَةَ فَمَلَكُوها ثُمَّ الْحُومَا عَلَى سَوَاحِلِ
الشَّامِ فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ وَمَلَكُوا طَرَابُلُسَ وَصَقْلَانَ
وَصُورَ وَعَكَا ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى جَمِيعِ الثُّغُورِ بِسَوَاحِلِ
الشَّامِ ، وَعَلَبُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَنَوَّوْا عَلَيْهِ
كُتَيْبَةَ لِيُظْهِرَ دِينَهُمْ وَعِبَادَتَهُمْ ، وَعَلَبُوا بَنِي خَزْرُونَ
عَلَى طَرَابُلُسَ ، ثُمَّ عَلَى قَابِسَ وَصَفَافِسَ وَوَضَعُوا عَلَيْهِمْ
الْجُزْيَةَ ، ثُمَّ مَلَكُوا الْمُهَدِيَّةَ مَقَرَّ مُلُوكِ الْعَبِيدِيِّينَ ، مِنْ
يَدِ أَغْصَابِ بَلَكِينَ بْنِ زَيْزُرَى . وَكَانَتْ لَهُمْ فِي الْمَادَّةِ
الْخَامِسَةِ الْكَرَّةُ بِهَذَا الْبَحْرِ . وَضَعَفَ دَسَانُ الْأَسَاطِيلِ
فِي دَوْلَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ ، إِلَى أَنْ انْقَطَعَ ، وَلَمْ يَخْتَوِ
بِخِيَةٍ مِنْ أَمْرِهِ لِهَذَا بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمْ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ
الْعَبِيدِيَّةِ عِنَايَةٌ تَجَاوَزَتْ الْحَدَّ ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ
فِي أَخْبَارِهِمْ . فَظَلَّ رَسْمُ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ هُنَاكَ ،
وَبَقِيَتْ بِأَقْرِيطَشَ وَالْمَغْرِبِ ، فَصَارَتْ مُخْتَصَةً بِهَا .
وَكَانَ الْجَانِبُ الْقُرْبِيُّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ لِهَذَا التَّهْدِ
مَوْفُورَ الْأَسَاطِيلِ ، فَابْتِ قُوَّةِ لَمْ يَتَحَقِّقْ عَدُوٌّ ، وَلَا
كَانَتْ لَهُمْ بِهِ كَرَّةٌ ، فَكَانَ قَائِدُ الْأَسْطُولِ بِهِ لِعَهْدِ
لِثُنُونَةَ بَنِي مَيْمُونٍ ، رُوسَاةَ جَزِيرَةِ قَابِسَ ، وَمِنْ
أَيْدِيهِمْ أَخْلَعَا عَبْدَ الْمُؤْمِنِ بِسُلَيْمِيَّهِمْ وَطَاعَتِهِمْ ،
وَانْتَهَى عَدَدُ أَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْيَابَةِ مِنْ يَلَادِ الْمُنَوْتِينَ
جَمِيعًا .

وَلَمَّا اسْتَفْحَلَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ فِي الْيَابَةِ
السَّادِسَةِ ، وَمَلَكُوا الْمُنَوْتِينَ ، أَقَامُوا خُطَّةَ هَذَا الْأَسْطُولِ ،
عَلَى أَنْهُمْ مَاهِرُونَ وَأَعْظَمُ مَا عَهِدَ ، وَكَانَ قَائِدُ أَسْطُولِهِمْ
أَحْمَدُ الصُّغْلِيُّ أَصْلُهُ مِنْ حَيْدِ حِيسَارِ الْمُؤْمِنِينَ
بِجَزِيرَةِ جُزَيْرٍ مِنْ سُرُوكِيَشَ ، أَسْرَهُ النُّصَارَى مِنْ
سَوَاحِلِهَا وَوَرَى عَنْهُمْ بِوَاسْتِخْلَعِهِ صَاحِبُ مِيقَلِيَّةَ ،

الْيَدَوِيَّةَ بِالْمَغْرِبِ وَانْقَطَاعَ التَّوَالِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ،
وَرَجَعَ النَّصَارَى فِيهِ إِلَى دِينِهِمْ الْمَعْرُوفِ مِنَ الشَّرِيَّةِ
فِيهِ وَالْإِرَانِ عَلَيْهِ ، وَالْبَصَرِ بِأَحْوَالِهِ ، وَغَلَبَ الْأَمْرُ
فِي لُجْجِهِ عَلَى أَعْوَادِهِ ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ كَالْأَجَانِبِ ،
إِلَّا قَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ لَهُمْ الْإِرَانِ عَلَيْهِ
لَوْ وَجَدُوا كَثْرَةً مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ ، أَوْ قُوَّةَ مِنَ
الدَّوْلَةِ تَمْتَحِشُ لَهُمْ أَعْوَانًا ، وَتَوْضِيعَ لَهُمْ فِي هَذَا
الْقَرْصِ مَسْلُكًا ، وَيَقْبِطُ الرَّبِيَّةَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الدَّوْلَةِ
الْقَرِيبَةِ مَحْضُوقَةً ، وَالرَّسْمَ فِي مَعَانَةِ الْأَسَاطِيلِ بِالْإِنْشَاءِ
وَالرُّكُوبِ مَعَهُدًا ، لِمَا عَسَاهُ أَنْ تَذْعُرَ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ
الْأَعْرَاضِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ ، وَالْمُسْلِمُونَ
يَسْتَهَيُونَ الرَّبِيعَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ . فَمِنْ التَّشْتَبِهِ
بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ عَنْ كُتُبِ الْجَدْنَانِ أَنَّهُ لَا يَدُ
لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكُرَّةِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ ، وَافْتِتَاحِ
مَا وَرَثَ الْبَحْرَ مِنْ بِلَادِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ
فِي الْأَسَاطِيلِ . وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ حَسْبُ وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ .

الفصل الخامس والثلاثون

فِي التَّفَاوُتِ بَيْنَ مَرَاتِبِ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ فِي الدُّوَلِ
إِعْلَمَنَّ أَنَّ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ كِلَاهُمَا آتَةٌ لِصَاحِبِ
الدَّوْلَةِ يَسْتَحِينَ بِهَا عَلَى أَمْرِهِ . إِلَّا أَنَّ الْحَاجَةَ فِي أَوَّلِ
الدَّوْلَةِ إِلَى السَّيْفِ - مَا قَامَ أَهْلُهَا فِي تَهْيِيدِ أَمْرِهِمْ -
أَشَدُّ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْقَلَمِ ، لِأَنَّ الْقَلَمَ فِي يَدِكَ
الْحَالِ خَادِمٌ ، فَقَطْ . ثُمَّ قَدْ لِلْحُكْمِ السُّلْطَانِيَّ ،
وَالسَّيْفِ قَرِيبُكَ فِي الْمُتَوَنَةِ . وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ
الدَّوْلَةِ ، حَيْثُ تَضَعُ عَصِيَّتَهُمَا كَمَا ذَكَرْتَاهُ ،
وَيَقِلُّ أَهْلُهَا وَمَا يَنْتَهِمُ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي قَدَّمَاهُ

النَّصْرَانِيَّةِ بِثَغُورِ الشَّامِ ، وَأَصْحَبَةِ كِتَابَةِ إِلَيْهِ فِي
ذَلِكَ مِنْ إِنْشَاءِ الْقَاضِلِ الْبَيْسَانِيِّ يَقُولُ فِي افْتِتَاحِهِ .
« فَتَحَ اللَّهُ لِسَانَنَا أَبْوَابَ الْمَنَاجِحِ وَالْمَبَانِي »
حَسْبَمَا تَقُلُّهُ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِي فِي كِتَابِ الْفَتْحِ
الْقَضِيِّ

فَنَقِمَ عَلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ تَجَافِيَهُمْ عَنْ خِطَابِهِ
بِأَسْبَابِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَسْرَمَهَا فِي نَفْسِهِ ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى
مَنَاجِحِ الْبِرِّ وَالْكَرَامَةِ وَوَدَّعَهُمْ إِلَى مُرْسِلِهِمْ ، وَلَمْ يَجِبْهُ
إِلَّا حَاجَتُهُ مِنْ ذَلِكَ . وَفِي هَذَا ذَكِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِ
مَلِكِ الْمَغْرِبِ بِالْأَسَاطِيلِ ، وَمَا حَصَلَ لِلنَّصْرَانِيَّةِ
فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْإِسْطِطَالَةِ .
وَعَدَمِ عِنَايَةِ الدَّوْلَةِ بِمَضَرِّ الشَّامِ لِلذَّكَاءِ الْعَهْدِ وَمَا
بَعْدَهُ لِشَأْنِ الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ وَالِاسْتِغْدَادِ مِنْهَا
لِلدَّوْلَةِ .

وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو يَغْفُوبَ الْمَنْصُورُ ، وَاعْتَلَّتْ دَوْلَةُ
الْمُوحِدِينَ ، وَاسْتَوْلَتْ أُمَمُ الْجَلَالِيَّةِ عَلَى الْأَكْثَرِ
مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَالْجَاوِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى سِيفِ (١)
الْبَحْرِ ، وَمَلَكَوا الْجَزَائِرَ الَّتِي بِالْجَانِبِ الْقَرِيبِ مِنَ
الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، قَوِيَتْ رِيحُهُمْ فِي بَيْسِطِ هَذَا الْبَحْرِ ،
وَأَشْدَّتْ سَوْكُهُمْ ، وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُمْ ،
وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى الْمُسَاوَاةِ مَعَهُمْ ،
كَمَا وَفَّقَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ مَلِكِ زَنَاقَةَ
بِالْمَغْرِبِ ، فَإِنَّ أَسَاطِيلَهُ كَانَتْ عِنْدَ مَوَارِيهِ الْجِهَادِ
يَمْلَأُ عُدَّةَ النَّصْرَانِيَّةِ وَعَلِيْدِيَهُمْ .

ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذَلِكَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَسَاطِيلِ
لِضَعْفِ الدَّوْلَةِ وَتَسْيِئَةِ عَوَالِدِ الْبَحْرِ بِكَثْرَةِ التَّوَالِدِ

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إِعلم أَنَّ لِسُلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالًا تَقْتَضِيهَا
الْأُبُهَّةُ وَالْبَلَدُخُ ، فَيَحْصُنُ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ بِانْتِحَالِهَا عَنِ
الرَّعِيَّةِ وَالْبَطَانَةِ ، وَشَارِئِ الرُّوسَاةِ فِي قَوْلَيْهِ فَلَنَذْكُرَ
مَا هُوَ مُشْتَهَرٌ مِنْهَا بِمَبْلَغِ الْمَعْرِفَةِ وَفَوْقَ كُلِّ
ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ (١) .

الآلة . فَمِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ اتِّخَاذُ الْآلَةِ ، مِنْ
نَشْرِ الْأَوْبَةِ وَالرَّايَاتِ ، وَقَرَعِ الطُّبُولِ وَالتَّنْفِخِ
فِي الْأَبْوَابِ وَالْقُرُونِ ، وَكَذَلِكَ أَرَسَطُوا فِي الْكِتَابِ
الْمَنْصُوبِ إِلَيْهِ فِي السِّيَاسَةِ : أَنَّ السَّرَّ فِي ذَلِكَ
ارْتِهَابُ الْعُلُوِّ فِي الْحَرْبِ ، فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْهَاتِلَةَ
لَهَا تَأْثِيرٌ فِي النُّفُوسِ بِالرُّوحَةِ . وَلَعَمْرِي إِنَّهُ أَمْرٌ
وُجِدْنَاهُ ، فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ ، بِجَهْدِ كُلِّ أَحَدٍ مِنْ
نَفْسِهِ ، وَهَذَا السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرَسَطُو - إِنْ كَانَ
ذَكَرَهُ - فَهُوَ صَحِيحٌ يَبْغِيهِ الْاِغْتِيَارَاتُ .

وَأَمَّا الْحَقُّ فِي ذَلِكَ فَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ مِنْدَةً
سَمَاعِ النِّعَمِ وَالْأَصْوَاتِ ، يُنْذِرُكُمَا الْفَرَحَ وَالطَّرَبَ
بِلَا شَكٍّ ، فَيُصِيبُ مِرَاجَ الرُّوحِ نَشْوَةً يَسْتَعْمِلُ
بِهَا الصَّعْبَ وَيَسْتَعْيِثُ فِي ذَلِكَ الْوَجْهَ الَّذِي هُوَ فِيهِ
وَهَذَا مَوْجُودٌ حَتَّى فِي الْحَيَوَانَاتِ النُّجْمِ بِانْفِعَالِ
الْإِبِلِ بِالْحَطَاءِ ، وَالْخَيْلِ بِالصَّغِيرِ وَالصَّرِيحِ كَمَا
عَلِمْتُ ، وَزَيْدُ ذَلِكَ تَأْثِيرًا إِذَا كَانَتْ الْأَصْوَاتُ
مُتَنَاسِبَةً كَمَا فِي الْفَيْءِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَخْضَعُ
لِسَامِعِهِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى .

فَتَحْتَاجُ الدَّلِيلَ إِلَى الْاِسْتِظْهَارِ بِأَرْيَابِ السُّيُوفِ
وَتَقْرَأُ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ الدَّلِيلَةِ وَالْمُدَافَعَةِ
عَنْهَا ، كَمَا كَانَ الشَّأْنُ أَوَّلَ الْأَمْرِ فِي تَمْهِيدِهَا ،
فَيَكُونُ لِلْسُّيُوفِ مَزِيَّةٌ عَلَى الْقَلَمِ فِي الْحَالَتَيْنِ ،
وَيَكُونُ أَرْيَابُ السُّيُوفِ حِينَئِذٍ أَوْسَعَ جَاهًا ، وَأَكْثَرَ
نِعْمَةً وَأَسْنَى إِقْطَاعًا .

وَأَمَّا فِي وَسْطِ الدَّلِيلَةِ ، فَيَسْتَعْيِثُ صَاحِبُهَا بَعْضُ
الشُّيُوءِ عَنِ السُّيُوفِ ، لِأَنَّهُ قَدْ تَمَهَّدَ أَمْرُهُ ، وَلَمْ
يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا فِي تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنْ
الْجَبَايَةِ وَالْقَبْضِ ، وَمُبَاهَاةِ الدُّوَلِ ، وَتَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ ،
وَالْقَلَمُ هُوَ الْمَعِينُ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَتَعْظُمُ الْحَاجَةُ إِلَى
تَصْرِيْفِهِ ، وَيَكُونُ السُّيُوفُ مَهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ
أَعْضَادِهَا ، إِلَّا إِذَا دَعَتْ نَائِبَةً ، أَوْ دَعِيَتْ إِلَى سَدِّ
فُرْجَةٍ ، وَمَا يَسُوْى ذَلِكَ ، فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . فَيَكُونُ
أَرْيَابُ الْأَقْلَامِ فِي حُلِيِّ الْحَاجَةِ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَعْلَى
رُكْبَةً ، وَأَعْظَمُ نِعْمَةً وَكَرَمَةً ، وَأَقْرَبُ مِنَ السُّلْطَانِ
مَجْلِسًا وَأَكْثَرُ إِلَيْهِ تَرَدُّدًا ، وَفِي خَلَوَاتِهِ نَجِيًّا
لِأَنَّهُ (١) حِينَئِذٍ آتَاهُ الَّذِي بِهَا يَسْتَظْهَرُ عَلَى تَحْصِيلِ
ثَمَرَاتِ مُلْكِهِ بِالنَّظَرِ إِلَى أَعْطَافِهِ ، وَتَنْفِيْغِ اطِّرَافِهِ ،
وَالْمُبَاهَاةِ بِأَحْوَالِهِ ، وَيَكُونُ الْوُزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأَهْلُ
السُّيُوفِ مُسْتَعْيِثِي عَنْهُمْ مُبْعِدِينَ عَنْ بَاطِنِ السُّلْطَانِ ،
حَاطِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ يَوَادِرِهِ .

وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ لِلْمَنْصُورِ
حِينَ أَمَرَهُ بِالْقُدُومِ : « أَمَا بَعْدَ قِيَامِهِ مِمَّا حَقِيقَتُهُ مِنْ
وَسَائِلِ الْفُرْسِ ، أَحْوَجُ مَا يَكُونُ الْوُزَرَاءُ إِذَا سَكَنَتْ
الدُّعَاءُ بِسَنَةِ اللَّهِ فِي عِيَادِهِ وَبِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْفِرَاقَاتِ لِيَتَّهَدَ النَّاسُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ يَتَّقَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ .

وَأَمَّا قُرْعُ الطُّيُولِ وَالْفَنَاحِ فِي الْأَبْوَانِ ، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ اللَّيْلَةِ مُتَحَابِّينَ عَنْهُ تَنْزُهَا عَنْ غِلَظَةِ الْمُلْكِ ، وَرَفَضًا لِأَحْوَالِهِ وَاحْتِقَارًا لِأَهْلِيهِ النَّاسِ لَيْسَتْ مِنَ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ ، حَتَّى إِذَا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ مَلَكًا ، وَتَجَحَّجُوا بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَنَيْمَتِهَا وَلَا يَسْهُمُ الْمَوَالِي مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ أَهْلُ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ ، وَأَرْوَاهُمْ مَا كَانَ أَوْلِيكَ يَنْتَحِلُونَهُ مِنَ مَنَاجِبِ الْبَذَخِ وَالنَّرَبِ ، فَكَانَ بِمَا اسْتَحْسَنُوهُ اتِّخَاذَ آلَةٍ ، فَأَخْلَعُوا وَأَذِنُوا لِمَعَالِيهِمْ فِي اتِّخَاذِهَا تَنْوِيهًِا بِالْمُلْكِ وَأَهْلِهِ .

فَكثيرًا ، مَا كَانَ الْعَامِلُ صَاحِبُ الشَّعْرِ ، أَوْ قَائِدُ الْجَيْشِ يَتَّهَدُ لَهُ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ أَوِ الْعَبْدِيِّينَ لِوِجَاهِهِ ، وَيَخْرُجُ إِلَى يَدَيْهِ أَوْ حَصْلِهِ مِنْ قَابِ الْخَلِيفَةِ أَوْ قَادِرِهِ فِي مَوْكِبٍ مِنْ أَصْحَابِ الرِّايَاتِ وَالْآلَتِ ، فَلَا يُعَيِّرُ بَيْنَ مَوْكِبِ الْعَامِلِ وَالْخَلِيفَةِ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْأَلْوِيَةِ وَقِلَّتِهَا ، أَوْ بِمَا اخْتَصَّ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْأَلْوَانِ لِإِرَائِيَةِ ، كَالسَّوَادِ فِي رَايَاتِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، فَلَمَّا رَايَاتِهِمْ كَانَتْ سُودًا ، حَزَنًا عَلَى شَهْدَائِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، وَتَعَبًا عَلَى بَنِي أُمَيَّةٍ فِي قَتْلِهِمْ ، وَلِذَلِكَ سُمُّوا الْمُسَوَّدَةِ .

وَلَمَّا افترق أمر الهاشميين ، وَخَرَجَ الطَّالِبِيُّونَ عَلَى الْعَبَّاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَحَصُرَ ، دَخَبُوا إِلَى مُحَالَفَتِهِمْ فِي ذَلِكَ ، فَاتَّخَلَعُوا الرِّايَاتِ بَيْضًا ، وَسَمُّوا الْمُبَيَّضَةَ لِذَلِكَ سَمَاءً أَيَّامَ الْعَبْدِيِّينَ ، وَبَيْنَ خَرَجَ مِنَ الطَّالِبِيِّينَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ

لِأَجْلِ ذَلِكَ ، تَنَحَّضُ الْجَمْعُ فِي مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمْ الْأَلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ (١) لِأَمَلًا وَلَا يُوَفَّا ، فَيُحْيِي الْمَغْنُونُ بِالْسلْطَانِ فِي مَوْكِدِ بِالْأَيِّهِمْ ، وَيَغْنُونُ فَيَحْرُكُونَ نَفُوسَ الشُّجْعَانِ بِصُرِيهِمْ إِلَى الْأَسْمَانَةِ .

وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي حُرُوبِ الْعَرَبِ ، مَنْ يَتَخَنَّى أَمَامَ الْمُوَكِّبِ بِالشَّعْرِ وَيُطْرِبُ ، فَتَجِيشُ هِمَمِ الْأَيْتَالِ بِمَا فِيهَا ، وَيُسَارِعُونَ إِلَى مَجَالِ الْعَرَبِ ، وَيَنْهَبُونَ كُلُّ قِرْنٍ إِلَى قِرْنِهِ .

وَكَلِمَتُكَ زَنَانَةٌ مِنْ أَسْمِ الْعَرَبِ يَتَقَدَّمُ الشَّاعِرُ هُنْدَهُمْ أَمَامَ الصُّفُوفِ ، وَيَتَخَنَّى فَيَحْرُكُ بِغَنَائِهِ الْجِبَالَ الرَّوَائِي ، وَيَبْسُ عَلَى الْأَسْمَانَةِ مِنْ لَيْظُنَّ بِهَا ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ الْفَنَاءَ « نَاصُوكَايَتِ » ، وَأَصْلُهُ كُلُّهُ فَرَحٌ يَخْدُثُ فِي النَّفْسِ ، فَتَنْهَبُ عَنْهُ الشُّجَاعَةُ ، كَمَا تَنْهَبُ عَنْ نَفْسَةِ الْخَمْرِ بِمَا حَدَّثَ عَنْهَا بَنُ الْقَرَحِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا تَكْثِيرُ الرِّايَاتِ وَتَلْوِينُهَا وَإِطْلَاقُهَا ، فَالْقَصْدُ بِهِ التَّهْوِيلُ لَا أَكْثَرُ ، وَبِمَا تَخْدُثُ فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّهْوِيلِ زِيَادَةً فِي الْأَقْدَامِ ، وَأَحْوَالِ النُّفُوسِ وَتَلْوِينَاتِهَا غَرِيبَةً ، وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

ثُمَّ إِنَّ الْمُلُوكَ وَالِدُولَ ، يَخْتَلِفُونَ فِي اتِّخَاذِ هَذِهِ الشَّارَاتِ ، فَمِنْهُمْ كَثِيرٌ ، وَمِنْهُمْ مَقْلُولٌ بِحَسَبِ اتِّسَاعِ الدُّوَلَةِ وَمِطْعَمِهَا . فَأَمَّا الرِّايَاتُ فَإِنَّهَا شِمَارُ الْحُرُوبِ مِنْ عَهْدِ الْخَلِيفَةِ وَلَمْ تَزَلْ الْأُمَمُ تَتَّخِذُهَا

(١) خلق الموريني بقوله : قوله موسيقية وقى نسخة الموريقارية على صحة لأن الموسيقى بكسر الميم بين التحيين اسم للتم والألحان وترويحها ويقال فيها موسيقية ويقال لمارسها الآلة موسيقار . انظر أول سبعة الفصح شهاب .

مِنَ الْكُتَّانِ بَيْعَهُمَا وَطَبْلَ صَغِيرِ أَيَّامِ الْعَرَبِ ،
لَا يَتَجَاوَزُونَ ذَلِكَ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالشَّرْقِ ،
فَيَتَخَلَّفُونَ رَايَةً وَاجِدَةً عَظِيمَةً ، وَفِي رَأْسِهَا خُصْلَةٌ
كَبِيرَةٌ مِنَ الشَّعْرِ ، يَسْمُونَهَا الشَّالِشَ وَالْجِزْرَ ،
وَهِيَ شِعَارُ السُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ، ثُمَّ تَتَعَدَّدُ الرَّايَاتُ ،
وَيَسْمُونَهَا السَّنَاجِقَ ، وَاجِدَهَا سَنَجَقٌ ، وَهِيَ الرَّايَةُ
بِلِسَانِهِمْ . وَأَمَّا الطُّبُولُ قَبِيلُ الْغُوثِ فِي الْأَسْتِكْثَارِ
مِنْهَا ، وَيَسْمُونَهَا الْكُوسَاتِ ، وَيُجَبِّحُونَ لِكُلِّ أَمِيرٍ
أَوْ قَائِدٍ عَسْكَرٌ ، أَنْ يَتَخَذَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ إِلَّا
الْجِزْرَ ، فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالسُّلْطَانِ . وَأَمَّا الْجَلَّافَةُ
لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَسْمِ الْإِفْرَنْجَةِ بِالْأَنْدَلُسِ ، فَمَا كَثُرَ
شَأْنُهُمْ اتِّخَاذُ الْأَلْوَانِ الْقَلِيلَةِ ذَاهِبَةٍ فِي الْجَوْ صَعْدًا ،
وَمَعَهَا قَرَعُ الْأَوْتَارِ مِنَ الطَّنَابِيرِ ، وَتَفْعُ الْبَيْطَاتِ ،
يَذْهَبُونَ فِيهَا مَنَعِبَ الْغَنَاءِ ، وَطَرِيقَ فِرَاطِ
حُرُوبِهِمْ هَكَذَا يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ ، وَعَمَّنْ وَرَاعَهُمْ مِنْ
مُلُوكِ الْعَجَمِ « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافَ اللَّسَانِ وَالْوَلَايَكُم ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّلْعَالَمِينَ (١) » .

(السرير) . وَأَمَّا السَّرِيرُ ، وَالْبَيْتَرُ وَالنَّخْتُ
وَالْكَرْبِيُّ ، فَهِيَ أَغْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَالِكٌ مَنْصُوبَةٌ ،
لِيَجْلُوسَ السُّلْطَانُ عَلَيْهَا مُرْتَفِعًا عَنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ أَنْ
يَسَاوِيَهُمْ فِي الصَّمِيدِ ، وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ مِنْ سُنُونِ
الْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَفِي ذَوْلِ النُّجُومِ ، وَقَدْ
كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى أَسِرَّةِ الْأَذْبِ ، وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ
ابْنِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ ، كَرْبِيُّ

كَالْدَاهِي ، بِطَبْرِسْتَانَ ، وَدَاهِي صَغَنَةٌ ، أَوْ مَنْ
دَعَا إِلَى بَذْعِ الرَّافِضَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْقَرْلَمِطَةِ .

وَلَمَّا نَزَعَ الْعَامُونَ عَنْ نُبَيْسِ السَّوَادِ وَشِعَارِهِ
فِي ذَوْلَيْهِ ، عَدَلَ إِلَى لَوْنِ الْخَضِرَةِ ، فَجَعَلَ رَايَتَهُ
خَضِرَةً .

وَأَمَّا الْأَسْتِكْثَارُ مِنْهَا فَلَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ ،
وَقَدْ كَانَتْ آلَةُ الْقَبِيلِيِّينَ لَمَّا خَرَجَ الْفَرِيزُ إِلَى
فَتْحِ الشَّامِ ، خُمْسِيَّةً مِنَ الْبُنُودِ ، وَخُمْسِيَّةً
مِنَ الْأَبْوَابِ .

وَأَمَّا مُلُوكُ الْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةٍ وَغَيْرِهَا
فَلَمْ يَخْتَصُّوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ بَلْ وَشَوْهَا بِاللَّحَبِ ،
وَاتَّخَذُوهَا مِنَ الْحَرِيرِ الْخَالِصِ مُلَوَّنَةً ، وَاسْتَمَرُّوا
عَلَى الْإِذْنِ فِيهَا لِعَمَالِهِمْ ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْ دَوْلَةُ
الْمُوحِّدِينَ ، وَمَنْ يَتَقَدَّمُ مِنْ زَنَاقَةٍ ، قَصَرُوا الْأَلَةَ
مِنَ الطُّبُولِ وَالْبُنُودِ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَحَظَرُوهَا عَلَى
مَنْ سِوَاهُ مِنْ عَمَالِهِ ، وَجَعَلُوا لَهَا مَوْكِبًا خَاصًّا يَتَّبِعُ
أَثَرَ السُّلْطَانِ فِي مَسِيرِهِ ، يُسَمَّى السَّاقَةَ ، وَهُمْ فِيهِ
بَيْنَ مُكْبَرٍ وَمُقْبَلٍ بِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِ النُّوْلِ فِي ذَلِكَ ،
فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنَ الْعَدَدِ تَبَرُّكًا
بِالسَّبْعَةِ ، كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِّدِينَ ، وَبَنَى
الْأَخْمَرُ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَشْرَةَ
وَالْعِشْرِينَ ، كَمَا هُوَ حِنْدُ زَنَاقَةٍ ، وَقَدْ بَلَغَتْ فِي
أَيَّامِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ - فِيمَا أَذْرَكَاهُ - مِائَةً
مِنَ الطُّبُولِ ، وَمِائَةً مِنَ الْبُنُودِ مُلَوَّنَةً بِالْحَرِيرِ
مَنْسُوجَةً بِاللَّحَبِ ، مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ ، وَتَأْخُذُونَ
لِلْوَلَاةِ وَالْعَمَالِ وَالْقَوَادِ فِي اتِّخَاذِ رَايَةٍ وَاجِدَةٍ صَغِيرَةٍ

ومسير من حاج مَقْنُصٍ بِاللَّعِبِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ التُّوَلُّ إِلَّا بَعْدَ الاسْتِفْصَالِ وَالتَّرَفِّ ، شَأْنُ الْأَبْهَةِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَا ، وَأَمَّا فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الْبِدَاوَةِ ، فَلَا يَتَشَوَّفُونَ إِلَيْهِ .

وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهُ فِي الْإِسْلَامِ مُعَلُوبَةً ، وَاسْتَأْذَنَ النَّاسَ فِيهِ ، وَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي قَدْ بَدَأْتُ ، فَأَذِنُوا لَهُ ، فَاتَّخَذَهُ وَاتَّبَعَهُ الْمُلُوكُ الْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ ، وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ الْأَبْهَةِ . وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِحَضْرٍ ، يَجْلِسُ فِي قَصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ الْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ الْمُقَوِّصُ إِلَى قَصْرِهِ ، وَمَعَهُ سِرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ مَحْمُولًا عَلَى الْأَيْدِي لِجُلُوسِهِ ، شَأْنُ الْمُلُوكِ ، فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامَهُ وَلَا يُعِيرُونَ عَلَيْهِ وَقَاءَ لَهُ بِمَا عَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ اللَّذَّةِ ، وَأَطْرَاحًا لِلْأَبْهَةِ الْمُلُوكِ ، ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَلْبِسُ الْعَبَّاسُ وَالْبُسَيْدِيُّونَ وَسَائِرَ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ ، شَرْقًا وَغَرْبًا ، مِنَ الْأَمِيرَةِ وَالْمَنَابِرِ وَالشُّخُوفِ ، مَا عَقَا عَنْ الْأَكْاسِيرَةِ وَالْقِيَاصِرَةِ ، وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَقْبِلَ ذَلِكَ لِسَدَاجَةِ الدِّينِ ، وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ ، وَكَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِاللَّعِبِ وَالْفِضَّةِ وَزَنًا ، وَكَانَتْ كَنَائِرُ الْفَرَسِ وَذَوَاهِمُهُمْ بَيْنَ أَثْلِيهِمْ ، وَيَرُدُّونَهَا فِي مُعَامَلَتِهِمْ إِلَى الْوَزْنِ ، وَيَتَصَارَفُونَ بِهَا بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ تَفَاضَلَ الْفِئْسُ فِي الدَّنَائِيرِ وَاللِّدْرَاهِمِ ، لِخَفَلَةِ الدَّوْلَةِ ، عَنْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْحَجَّاجُ عَلَى مَا نَقَلَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَأَبُو الزُّنَادِ بِضَرْبِ الدَّرَاهِمِ ، وَكُنْجَرِ الْمُقَوِّصِ مِنَ الْخَالِصِ ، وَذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ . وَقَالَ الْمَدَائِنِيُّ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ . ثُمَّ أَمَرَ بِضَرْفِهَا فِي سَائِرِ التَّوْحَاجِ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ ، وَكَتَبَ عَلَيْهَا اللَّهُ أَحَدُ اللَّهِ أَحَدًا .

(السكة) . وَهِيَ الْخَتَمُ عَلَى الدَّنَائِيرِ وَاللِّدْرَاهِمِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ بِطَبَاحٍ حَلِيدٍ يُنْقَشُ فِيهِ صُورٌ ، أَوْ كَلِمَاتٌ مَقْلُوبَةٌ ، وَيُضْرَبُ بِهَا عَلَى الْبِنَارِ أَوْ الدَّرْهِمِ ، فَتَخْرُجُ رُسُومُ تِلْكَ التَّقَوِّصِ عَلَيْهَا ظَاهِرَةً ، مُسْتَقِيمَةً بَعْدَ أَنْ يُخْتَبَرُ عِبَارَةُ التَّقَدُّ مِنْ ذَلِكَ الْجَنْسِ ، فِي خُلُوصِهِ بِالسَّكِّ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَبَعْدَ تَقْدِيرِ أَشْخَاصِ الدَّرَاهِمِ وَاللَّنَائِيرِ بِوِزْنٍ مُبِينٍ صَحِيحٍ ، يُصْطَلَحُ عَلَيْهِ فَيَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا عَدَدًا ، وَإِنْ لَمْ تَقْدَرْ أَشْخَاصُهَا يَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا وَزَنًا .

لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها : مع أن الشرع ينهى عن الصور . فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الله كلها : وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين : والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهيلاً وتحميلاً وصلاة على النبي وآله : وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة ، وهكذا أيام العباسيين والعباسيين والأمويين .

وأما سنهجة فلم يتخلوا سكة إلا آخر الأمر اتخذها منصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حنبل في تاريخه . ولما جاءت دولة الموحدين كان مما صنع لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل : وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ، وبملا من أحد الجانبين تهيلاً وتحميلاً : ومن الجانب الآخر كتب في السطور بأسمه واسم الخلفاء من بعده . ففعل ذلك الموحدون : وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد . ولقد كان المهدي فيما ينقل يُنعتُ قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع . نعت به ذلك المتكلمون بالجدنان^(١) من قبله ، المجربون في ملاحيهم عن دولته .

وأما أهل المشرق لهذا العهد فيسكتهم غير مقدرة وإنما يتعاملون بالدينات والدرهم وزناً بالصنجات^(٢) المقدرة بعلّة منها : ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعل

ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فوجد السكة . ثم بالغ خاله القسري في تجويعها . ثم يوسف بن عمر بعده .

وقيل : أول من ضرب الدينات والدرهم مضطرب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز : وكتب عليها في أحد الوجهين « بركة الله » وفي الآخر « اسم الله » ، ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة . وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر . وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دنانير : والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم : فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل . وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً : ومنها اثنا عشر : ومنها عشرة . فلما احتيج إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطاً : فكان المثقال درهماً وثلاثة أسباع درهم .

وقيل : كان منها البخل بثمانية دنانير : والطبري أربعة دنانير : والمغربي ثمانية دنانير ، والبيحي ستة دنانير : فأمر عمر أن ينظر الأغلب في التعامل فكان البخل والطبري وهما اثنا عشر دانقاً . وكان الدرهم ستة دنانير : وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً : وإذا أنقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهماً . فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة التقنين التجاريين في معاملة المسلمين من الفسح عين مقدارها على هذا الذي استقر لمهد عمر رضى الله عنه : واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صوراً ،

(١) المتحشرون مما يتشرف إليه الناس من أمور النبي .

(٢) مفرده صنجة وهي سرة : وفي القاموس : ووصفة الميزان ، مرة .

ذكرناه : ذكر ذلك الخطام في كتاب : معالم السنن : والمأوذي في : الأحكام السلطانية : وأنكره المحققون من المتأخرين : لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والأنتكة والحدود وغيرها كما ذكرناه . والحق أنهما كانا معلومين اليقيد في ذلك العصر لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق . وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج ، وإنما كان متعارفاً بينهما بالحكم الشرعي على المقدار في مقدارهما وزنتيهما . حتى استفحل الإسلام وعظمت الدولة ، ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير . وقارن ذلك أيام عبد الملك فشخص مقدارهما وعيّنهما في الخارج كما هو في اللّحن ونقش عليهما السّكة باسمه وتاريخه لإثّر الشهادتين الإيمانيّتين ، وطرح النقود الجاهلية رأساً حتى خلصت ونقش عليها بيكّة وتلائق وجودها . فهذا هو الحق الذي لا مَحِيدَ عنه .

ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السّكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم ، واختلقت في كلّ الأقطار والآفاق ، ورجع الناس إلى تصوّر مقاديرها الشرعية ذمناً كما كان في الصدر الأول : وصار أهل كل أفق يهتجون الحقوق الشرعية من سيكتهم بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاييرها الشرعية .

وأما وزن الدينار بالثنتين وسبعين سبة من

أهل العرب . ذلك تقدير العزيز العليم ^(١) . ولنحتم الكلام في السّكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الفريسيين وبينان حقيقة بمقدارهما : وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السّكة في المقدار والموازين بالآفاق والأنصار وسائر الأعمال والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيراً من الأحكام بهما في الزكاة والأنتكة والحدود وغيرها . فلا بدّ لهما عنده من حقيقة ومقدار معين في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي منهما .

فاعلم أنّ الإجماع متقدّم منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب : والأوقية منه أربعين درهماً : وهو على هذا سبعة أعتبار الدينار . ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشمير . فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة وخمسة حبة . وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع . فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري : وهو أربعة دوايق : والبغلي وهو ثمانية دوايق : فحطوا الشرعي بينهما وهو ستة دوايق . فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغليّة ومائة طبرية خمسة دوايم وسطاً .

وقد اختلفت الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك وإجماع ^(٢) الناس بعد عليه كما

(١) آخر آية ٣٨ من سورة يس : « والشمس تجري مسرّعاً على ذلك تقدير العزيز العليم » .

(٢) في جميع النسخ « أو إجماع » وهو تحريف كالا يضي على التبع لسباق الموضع .

الأصح ، ومنه تَعَيَّنَ إذا لبس . ويطلق على النهاية والتمام ، ومنه هضمت الأمر إذا بلغت آخره ، وهضمت القرآن كذلك ، ومنه خاتم التبيين وخاتم الأمر . ويطلق على السداد الذي يسد به الأول والننان ، ويقال فيه ختام ، ومنه قوله تعالى « خَتَامُهُ سِتْرٌ » (١) . وقد غلط من فسّر هذا بالنهاية والتمام . قال لأن آخر ما يجذوئته في شراهم ريح المسك ، وليس المعنى عليه ، وإنما هو من الختام الذي هو السداد لأن الغمر يجعل لها في اللين سداً الطين أو القار يحفظها ويعطيها حرّتها وذوقها قبولاً في وصف شعر الجنة بأن سداً من المسك : وهو أغيب حرّاً وذوقاً من القار والطين اليهوديين في الدنيا .

فإذا صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أنثراها الناشئة عنها . وذلك أنه الخاتم إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس في مدّاق (٢) من الطين أو مداد : ووضع على صُفْح القرطاب بقي أكثر الكلمات في ذلك الصُفْح . وكذلك إذا طُبِع به على جسم لين كالشمع ، فإنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسماً فيه . وإذا كانت كلمات وأرستمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى إذا كان النقش على الاستقامة من اليمين ، وقد يقرأ من الجهة اليمنى إذا كان النقش من الجهة اليسرى لأن الختم يقلب جهة الخط في الصُفْح عما كان في النقش من يمين أو يسار فيحتمل أن يكون

الشمير الوسط فهو الذي نقله المحققون وعليه الإجماع إلا ابن حزم (١) خالف ذلك وزعم أن وُزَنه أربعة وعشرون حبة ، نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق ، ورده المحققون وعده وهماً وغلطاً ، وهو الصحيح . والله يَحْكُمُ الحق بكلماته .

وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس ، لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأمطار ، والشرعية متحدة ذهنًا لا يختلف فيها . والله « خلق كل شيء فقدره تقديراً » (٢) .

(الخاتم) وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية . والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده . وقد ثبت في الصحيحين : أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى قيصر : فقبل له : إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مكتوباً ، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه ، « محمد رسول الله » .

قال البخاري : « جعل ثلاث كلمات في ثلاثة أسطر وغنم به وقال : « لا ينقش أحد مثله » ، قال : « ولختم به أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم مقيط من يد عثمان في بشر أريس : وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد : واغتم عثمان وتغير منه وصنع آخر على مثله » .

ولي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه : وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التي تجعل في

(١) من أشهر علماء المسلمين . وله بقرطبة سنة ٢٨٢ أو ٢٨٤ هـ وتوفي سنة ٤٥٧ هـ .

(٢) جزء من آية ٢ من سورة الفرقان .

(١) أول آية ٢٦ من سورة المطففين .

(٢) فمزيج من الطين واللحم . هذا ، وفي جميع النسخ .

في مداف وهو تحريف .

اشرطت في هذه الصحيفة التي هضمت أسفلها ما شئت فهو لك . ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصيغة بخطه أو غيره . ويحمل أن يختم به في جسم لين فتنتقش فيه حروفه : ويحمل على موضع الحزم من الكتاب إذا حُزِمَ وعلى المودعات وهو من السداد كما مر وهو في الوجهين آثار الخاتم ؛ فيطلق عليه خاتم .

وأول من أطلق الختم على الكتاب أي العلامة معاوية ؛ لأنه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف ففتح الكتاب وصير مائة مائتين ورفع زياد حسابه فانكرها معاوية وطلب بها عُمَرُ وحججه حتى قضاهما عنه أخوه عبد الله . واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبري . وقال آخرون وحزم الكتب ولم تكن تحزم أي جعل لها السداد . وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم . وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال ^(١) .

والحزم للكتب يكون إما بئس الورق كما في عُرف كتاب المغرب وإما بئس رأس الصحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب كما في عُرف أهل المشرق . وقد يجعل على مكان اللس أو الاصاق علامة يؤمن منها من فتحه والإطلاع على ما فيه . فأهل المغرب يجعلون على مكان اللس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك ؛ فيرمس النقش في الشمع . وكان في المشرق

الختم بهذا الخاتم بقمسه في المبدأ أو الطين ، ووضعه على الصفح فتنتقش الكلمات فيه ويكون هناك من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونقوده كأن الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات وهو من دونها ملغى ليس بتمام . وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح ، أو باسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب كأننا من كان أو شيء من نوعه يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونقوده ؛ ويسمى ذلك الخط المتعارف علامة ويسمى هنا تشبيهها له بآثار الخاتم الأصنى ^(٢) في النقش ؛ ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصم ؛ أي علامته وخطه الذي ينفذ بها أحكامه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أي علامته . قال الرشيد ليحيى بن خالد لا أراد أن يستوزر جعفرًا ويستبدل به من الفضل أخيه فقال لأبيهما يحيى : « يا أبت ^(٣) إلى أردت أن أحول الخاتم من يحيى إلى شيلى » : فكفى له بالخاتم عن الوزارة لا كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة ويشهد لصحة هذا الإطلاق ما نقله الطبري : أن معاوية أرسل إلى الحسن عند مرادته في الصلح صحيفة بيضاء ختم على أسفلها ، وكتب إليه أن

(١) نسبة إلى آسف ه كاهن ، وهو كتاب سليمان صلوات الله وسلامه عليه دعا بالاسم الأصغر فرأى سليمان العرق مستقرا عنه (لقمانوس) .

(٢) مكنا كان الرشيد يطلب يحيى بن خالد البرمكي ، والسبب كما قال ابن خلوف من قبل هو مكنا يحيى من كالة هرون ولي عهد وخليفة ، حتى شب في حجره ، ودرج من عنه ، وطلب على أمره وكان يصوره يا أبت ه .

(٣) انظر الحديث من في الفصل الرابع والثلاثين من هذا الباب

فمن دوله أو التتويه عن مخصه السلطان بلبوسه
إذا قصّد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفه من
وظائف دوله .

وكان ملوك الحزم من قبل الإسلام يحملون
ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم ، أو أشكال
وصور معينة لذلك . ثم اعتاض ملوك الإسلام عن
ذلك بكتيب أسماهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى
القائل أو السجلات . وكان ذلك في الدولتين من
أبهة الأمور وأفخم الأحوال . وكانت الدول المدة
لنسخ أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك
وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز
ينظر في أمور الصباغ والآلة والمحاكة فيها وإخراجها
أرزاقهم وتسهيل آلتهم ومشارفة أعمالهم . وكانوا
يقلّدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليم .
وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالأندلس
والطوائف من بعدهم ، وفي دولة المماليك بمصر ،
ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالشرق ..
ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه
لضيقت نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول
تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول
بالجملة .

ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني
أمية أول المائة السادسة لم يأخذوا بذلك أول
دولتهم لما كانوا عليه من منازع النبات والسلاجة
التي تقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي
وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب .
فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم ، واستدركتها

في الدول القديمة بمختم على مكان الصق بمختم
منقوش أيضاً قد خمس في ملأ من الطين معد
لذلك صبغه أحمر فيرسم فلك الشمس عليه .
وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين
الحزم وكان يحمل من سيرات فيظهر أنه
مخصوص بها .

فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة أو النقش
للساد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل .
وكان ذلك للوزير في الدولة العباسية . ثم انحلت
العرف وصار لن إليه الترسل وديوان الكتاب في الدولة
ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك
وشاراته الخاتم للصبيح ، فيستحيثون صوغه من
الذهب ويرصونه بالقصور من الياقوت والقيروزج
والزمرّد ويلبسه السلطان شارة في عرفهم كما
كانت البردة والقصب في الدولة العباسية والمظلة
في الدولة المملوكية . والله مصرف الأمور بحكمه .

(الطراز) من أبهة الملك والسلطان ومذهب
الدول أن ترسم أسماهم أو علامات تختص بهم في
طراز أثوابهم المدة للباسهم من الحرير أو الليناج
أو الإبريسم تعتبر كتابة خطها في نسخ الثوب
ألحاما وأسداة (١) بخطط الذهب أو ما يخالف

لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب
على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في
صناعة نسجهم . فتصير الثياب الملوكية معلمة
بذلك الطراز قصد التتويه بلباسها من السلطان

(١) القصة بالفتح والفتح الثوب ما ينسج حرشاه جسه ابن
خلدون على الخاتم ، والصق ما يد طولا في النسيج ، وجهه أسداه
كاف للصبيح .

أحقابهم آخر الدولة طرْقاً لم يكن بتلك التباينة . وأما لهذا العهد فأذكرنا بالمغرب في الدولة المرينية لغناتها وشموعها رسماً جليلاً لقنونه من دولة ابن الأحمر مُعاصِرهم بالأندلس وأتبسح مُو في ذلك ملوك الطوائف فأتى منه بلمحة شاهدة بالأثر .

وأما دولة الترك بحصر والشام لهذا العهد ففيها من الطراز تحرير آخر على مقدار ملكهم وحرمان بلادهم . إلا أن ذلك لا يصنع في ثورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند ضنائه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمنونه المُرَكَّش (قطعة أصمية) . ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويؤدّه الصنّاع لهم فيها يعلمونه للدولة من طرّف الصناعة اللاتقة بها . والله مُقدّر الليل والشّهار : والله غير الوارِثين .

(الفساطيط والسياج) اعلم أن من شارأت الملك وترفه أتخاذ الأنعبة والفساطيط والقنّازات (١) من ثياب الكتان والصوف والقطن بجذّل الكتان والقطن فيبأى بها في الأسفار وتتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على زينة الدولة في الثروة واليسار . وإنما يكون الأمر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عاداتهم باتخاذها قبل الملك . وكان العرب لعهد الخلفاء الأوّلين من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم غيماً من الوبر واللهوف . ولم تزل العرب لذلك العهد بأديّن إلا الأقل منهم . فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم يظنونهم (٢)

وسائر جليلهم وأحياتهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد . وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الجبل بعيدة ما بين السّنازل متفرقة الأحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب . ولذلك كان عبد الملك يحتاج إلى ساقّة (١) تحشدُ الناس على أثره أن يقيسوا إذا ظنّ . ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به رُوْحُجْن زَنْبَاع . وقصتها في إخرّاق فساطيط روح وغنيمة لأول ولايته حين وجتم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك فصة مشهورة . ومن هذه الولاية تُعرف رتبة الحجاج بين العرب ؛ فإنه لا يقول إرادتهم على الظنّ إلا من يأتين بوايز السفهاء من أحيائهم : بما له من الصبّة الحائلة دون ذلك ولذلك انحصه عبد الملك بجله الرتبة ثقة بفنائه فيها بعصبته وصرامته .

فما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبَدَج ونزول المدن والأمصار وانتقلوا من سكنى الغيام إلى سكنى القصور ، ومن ظُهر الخلف إلى ظُهر الحافر (٢) اتخلوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال مقدار الأمشال من القنّازة (٣) والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويمير الأمير القائد للساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم ساجاً من الكتان يسمى في المغرب بلسان

(١) ساق سواق هو ساق وسواق ويصح على ساقه وبها المشي
أصمعه هنا ابن خلدون . والساق أيضاً مؤنثة الجيش كأنها تسوقه سواق .

(٢) أي من ظهور الإبل إلى ظهور الخيل .

(٣) « القنّازة الراسمة » (القنوس) .

(١) في القنوس : « القنّازة » حلة بمسودين »

(٢) لهه يعني جسمه غير وارد القضية وهي المخرج فه امرأة لهلا .

من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي
والقيصة معروفة ، وقيل أول من اتخذها مروان بن
الحكم حين طعنه الياس . ثم اتخذها الخلفاء مع
بعضها وصارت سنة في تمييز السُلطان عن الناس
في الصلاة . وهي إنما تحدث عند حصول الترف
في الدول والاسترخاء شأن أحوال الأبهة كلها ،
وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها ،
وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق ،
وكلها بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد
ملوك الطوائف . وأما المغرب فكان بنو الأغلب
يتخذونها بالقيرون ثم الخلفاء المبيطين ، ثم
ولأتهم على المغرب من سنهاجة ، بنو باديس بقاس
وبنو حماد بالقلمة . ثم ملك الموحسون سائر المغرب
والأندلس ، ومحو ذلك الرسم على طريقة البداوة
التي كانت شعارهم ، ولما استغفلت الدولة وأخذت
بخطئها من الترف ، وجاء أبو يعقوب المنصور
ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة ، وبقيت من
بعد سنة لملوك المغرب والأندلس . وهكذا كان
الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده .

وأما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشأن
أولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم . فكانوا
يدهون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله
عليه وسلم والرضا عن أصحابه . وأول من اتخذ
المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامع مصر . وأول
من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا ليل يرضى
الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها ،

البربر الذي هو لسان أهل أفراس ، بالكاف التي بين
الكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر
لا يكون لغيره .

وأما في المشرق فيتخذ كل أمير وإن كان دون
السلطان . ثم جنحت الدعوة بالنساء والولدان إلى
المقام بقصورهم ومنزلهم ، فحف ذلك ظهرهم
وتفارت الساح بين منازل العسكر ، واجتمع
الجيش والسُلطان في مشكر واحد يحضره البصر
في بسيطة زهوا أنيقا لاختلاف ألوانه . واستمر
الحال على ذلك في مذاهب الدول في بنائها وترفها .
وكذا كانت دولة الموحدين وزناته التي أظفنا .
كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكانهم قبل الملك
من النيام والقياطن ^(١) . حتى إذا أخذت الدولة
في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا إلى سكنى
الأخبية والفساطيط . ويلتو من ذلك فوق ما
أرادوه وهو من الترف بمكان . إلا أن العساكر به
تصير عرضة للبيات ^(٢) لاجتماعهم في مكان واحد
تشملهم فيه الصيحة ولخفتهم من الأهل والولد
الذين تكون الاستماتة دونهم ، فيحتاج في ذلك
إلى تحفظ . آخر والله القوي العزيز .

(المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة) وهما
من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الإسلامي ،
ولم يعرف في غير دول الإسلام .

فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان
فيتخذ سياجا على المحراب فيحوزها وما يليه . فقول

(١) في القاموس جمع قيطون وهو الخبز .

(٢) بيت الندى : أوتى به ليل والام بالبيت .

الأمر ، ولا يَحْمِلُونَ بِمَا رَوَاهُ ذَلِكَ مِنْ تَعْيِينِهِ
والتصريح باسمه .

يحكى أن يُقْعَرَايْنِ بْنِ زِيَّان ، مَاهِدَ دَوْلَةَ بَنِي
عَبْدِ الْوَادِ مَا عَلَيْهِ الْأَمِيرُ أَبُو ذَكْرِيَا يَحْيَى بْنُ أَبِي
حَفْصٍ عَلَى يَلْبَسَانَ ، ثُمَّ يَدَالُهُ فِي إِعَادَةِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ
عَلَى شُرُوطٍ شَرَطَهَا ، كَانَ فِيهَا ذِكْرُ اسْمِهِ عَلَى مَنَابِرِ
حَمَلِهِ ، فَقَالَ يَغْمَرُاسِنْ : يَلِكْ أَهْوَاهُمْ يَذْكُرُونَ عَلَيْهَا
مَنْ شَالُوا . وَكَذَلِكَ يَحْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ مَاهِدَ
دَوْلَةِ بَنِي مَرْيَمَ ، حَضَرَهُ رَسُولُ الْمُسْتَنْصِرِ الْخَلِيفَةِ
بَتُونَسَ مِنْ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَثَالِثُ مَلُوكِهِمْ ، وَتَخَلَّفَ
بَعْضُ أَيْامِهِ عَنْ شُهُودِ الْجُمُعَةِ ، فَقِيلَ لَهُ لَمْ يَحْضُرْ
هَذَا الرَّسُولُ كَرَاهِيَةً لِمَلُوحِ الْخُطْبَةِ مِنْ ذِكْرِ سُلْطَانِهِ .
فَأَذِنَ فِي الدَّعَاءِ لَهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِأَخْلَعِهِ
بِدَحْوَتِهِ .

وهكذا شَأْنُ الدُّوَلِ فِي بَدَائِثِهَا وَمُكْتَنَاهَا فِي الْفَضَائِصِ
وَالْبِدَاوَةِ . فَإِذَا انْتَبِهَتْ حَيَوانُ مَسْتَهْمِمْ ، وَنَظَرُوا
فِي أَعْطَافِ مَلِكِهِمْ ، وَاسْتَمْتَمُوا شَيْئَاتِ (١) الْحَضَارَةِ
وَمَعَانِي الْبَدَخِ وَالْأُبْهَةِ ؟ انْتَحَلُوا جَمِيعَ هَلَاكِ السَّمَاتِ
وَتَفَنَّنُوا فِيهَا ، وَتَجَارَوْا إِلَى غَايَتِهَا ، وَأَنِفُوا مِنْ
لِلْمُشَارَكَةِ فِيهَا ، وَجَزَعُوا مِنْ ائْتِقَادِهَا وَخَطَرِ دَوْلَتِهَا
مِنْ آثَارِهَا . وَالْمَالِمُ يَسْتَأْنِ . وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
رَقِيبٌ .

فَقَالَ : « اللَّهُمَّ انصُرْ عَلِيًّا عَلَى الْحَقِّ » . وَاتَّصَلَ
الْعَمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ .

وبعد أخذ عمرو بن الناصر المنبرَ بَلَّغَ حُمَرَ بْنَ
الْخَطَّابِ ذَلِكَ ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ :
« أَمَا بَعْدُ فَقَدْ بَلَّغْنِي أَنَّكَ انْتَخَلْتَ مَتَبَرًا تَرَقَّى بِهِ
عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ مَا يَكْنِيكَ أَنْ تَكُونَ قَالِمًا
وَالْمُسْلِمُونَ تَحْتَ حَقْبِكَ ؟ ! فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا
مَا كَسَرْتَهُ » . فَلَمَّا حَلَّتْ الْأَبَةُ ، وَحَدَّثَ فِي الْخَفَاءِ
الْمَانِعُ مِنَ الْخُطْبَةِ وَالصَّلَاةِ اسْتَنَابُوا فِيهِمَا . فَكَانَ
الْخَطِيبُ يُشِيدُ بِذِكْرِ الْخَلِيفَةِ عَلَى الْمَنَابِرِ تَنْوِيهَاً
بِاسْمِهِ وَدَعَاءً لَهُ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مَصْلَحَةً الْعَالَمِ فِيهِ ،
وَلَأَنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ مَطْنَةٌ لِلْإِجَابَةِ ، وَلَمْ تُبَيَّنْ مِنْ
السَّلَفِ فِي قَوْلِهِمْ : مَنْ كَانَتْ لَهُ دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ
فَلْيَضَعَهَا فِي السُّلْطَانِ . وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُفَرِّدُ بِذَلِكَ .
فَلَمَّا جَاءَ الْحَجَرُ وَالْاِسْتِيزَادُ صَارَ الْمُتَقَلِّبُونَ عَلَى
الدُّوَلِ كَثِيرًا مَا يَشَارِكُونَ الْخَلِيفَةَ فِي ذَلِكَ ، وَيُسَادُّ
بِاسْمِهِمْ عَقِبَ اسْمِهِ وَذَهَبَ ذَلِكَ بِمَنْحَابِ تِلْكَ الدُّوَلِ
وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى اخْتِصَاصِ السُّلْطَانِ بِالْأَدْعَاءِ لَهُ عَلَى
الْمَنَابِرِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ ، وَحَظَرَ أَنْ يَشَارَكَ فِيهِ أَحَدٌ
وَيَسْمُو إِلَيْهِ .

وكثيراً ما يَغْفُلُ الْمَاهِدُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ هَذَا
الرُّسْمَ عِنْدَمَا تَكُونُ الدُّوَلَةُ فِي أَشْلُوبِ الْفَضَائِصِ
وَمَنَاجِي الْبِدَاوَةِ فِي التَّغَافُلِ وَالْخَشُونَةِ ، وَيَقْنَعُونَ
بِالدَّعَاءِ عَلَى الْإِبْهَامِ وَالْإِجْمَالِ لَمْ يَكُنْ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ
وَيَسْمُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ إِذَا كَانَتْ عَلَى هَذَا الْمَنْحَى
حَبَائِصِيَّةً ، يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الدَّعَاءَ عَلَى الْإِجْمَالِ
إِنَّمَا يَحْتَاوِلُ الْمَهَاسِي تَقْلِيدًا فِي ذَلِكَ لِمَا سَلَفَ مِنْ

(١) القية العلة والرأه .

وللتامين لطاعتها . فهذه أربعة أصناف من الحروب
الصنفان الأولان منها حروب بني وقتنة ، والصنفان
الأخيران حروب جهاد وعندك .

وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول
وجودهم على نوعين : نوع بالزحف صفوحاً ،
ونوع بالكر والفر . أما الذي بالزحف فهو قتال
العجم كلهم على تعاقب أجيالهم . وأما الذي بالكر
والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب .

وقتل الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر .
وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف
وتسوى كما تسوى القساح أو صفوف الصلاة
ويعشون بصفوفهم إلى العدو قداماً . فلذلك تكون
أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرعب
للعدو ، لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع
في إزائه . وفي التنزيل ، « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » (١)
أي يشد بعضهم بعضاً بالثبات . وفي الحديث
الكريم ، « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ
بَعْضًا » . ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات
وتحريم التولي في الزحف (٢) ، فإن المقصود من
الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه : فمن ولّى
العدو ظهره فقد أغل بالمصاف : وباءة بلزيم الهزيمة
إن وقعت : وصار كأنه جرّها على المسلمين :

(١) آية ٤ من سورة الصف .

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ
الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْزَحُوا وَلَا تُلَاقُوا بِهِمْ بِأَرْسَالِكُمْ » . ومن يؤمّم يؤمّم دبره
إلا منحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد يلهى بغيره . والله وماواه
جهنم وليس المحيد . (آل عمران ١٥٠ - ١٦٠ من سورة الأنفال) .

٣٧ - فصل في الحروب ومذاهب الأمم

في ترتيبها (١)

أعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة
في الخليقة منذ يراها الله . وأصلها لإرادة انتقام
بعض البشر من بعض : ويتعصب لكل منها أهل
عصبته ، فإذا تدارموا (٢) لذلك وتواكفت
الطائفتان ، إحداهما تطلب الانتقام ، والأخرى
تدافع . كانت الحرب . وهو أمر طبيعي في البشر
لا تخلو عنه أمة ولا جيل .

وسبب هذا الانتقام في الأكر : إما غيرة
ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ،
وإما غضب للملك وسمى في تمهيد .

فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة
والمشائير المتناظرة .

والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم
الوحشية الساكنين بالقرى كالعرب (٣) والترك
والتركماني والأكراد وأشباههم ، لأنهم جعلوا
أرزاقهم في رماحهم : ومناشئهم فيما بأيدي غيرهم :
ومن دافعهم عن متاعه آذنه بالحرب : ولا يغني
لهم فيها وراء ذلك من رتبة ولا ملك : وإلما مهمهم
ونصب أهليهم غلب الناس على ماني أيديهم .

والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد .

والرابع هو حروب الدول مع الخارجيين عليها

(١) ما يقرر ابن خلدون هنا لا يطعن إلا على النصوص التي
حاصر بها وفهد أحوالها ، وخاصة للعرب والبربر . أما غيرها فلم
يستقرأ ، ومن ثم لا تخرج أحكامها عليها . ونقص الاستقراء أكبر
ما أخذ على ابن خلدون في بعض أصول المقدمة .

(٢) تحاضروا على قتال .

(٣) يعني الأعراب .

منفرداً بصقوفه متميزاً بقالده ورايته وشعاره ،
ويسمونه القدمة ، ثم عسكرياً آخر من ناحية
اليمن عن موقف الملك وحل سمته يسمونه
اليمين . ثم عسكرياً آخر من ناحية الشمال
كذلك يسمونه الميسرة ، ثم عسكرياً آخر من
وراء الصكر يسمونه الساقة^(١) ، ويقف الملك
وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع ، ويسمون
حوقه القلب . فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم ،
إما في مدى واحد للبصر أو حل مسافة بعيدة ،
أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكريين منها
أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة ،
فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة .

وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار
الدولتين بالشرق ، وكيف كانت العساكر لعهد
عبد الملك تتخلف عن رحيله ليعد المدي في التعبئة ،
فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج
بن يوسف كما أشرنا إليه^(٢) هو معروف في
أخباره . وكان في الدولة الأموية بالأندلس أيضا
كثير منه . وهو مجهول فيما لدينا ، لأننا إنما
أذكرنا دولا قليلة العساكر لانتتهى في مجال
الحرب إلى التناكر ، بل أكثر الجيوش من
من الطائفتين معا يجمعهم لدينا جلة أو مدينة
ويعرف كل واحد منهم قرينه^(٣) ويناديه في حومة
الحرب باسمه ولقبه ، فاستغنى عن تلك التحفة .

وأتكن منهم عدوهم ، فتمم الذنب لعموم القسدة
وتعلينا إلى الدين بخرق سياجه ، فعد من الكبار .
ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد فند
الضارح .

وأما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة
والألم من الهزيمة ما في قتال الزحف . إلا أنهم قد
يتخللون وراهم في القتال مصافا ثابتا يلجأون
إليه في الكر والفر ، ويقوم لهم مقام قتال كما
لذكره بعد .

ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسمة
الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساما
يسمونها كرايس ، ويسون في كل كردوس^(١)
صفوفة . وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم
الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استغنى
ذلك أن يجعل بعضهم بعضا إذا اختلطوا في مجال
الحرب وأقتروا مع عدوهم الطعن والضرب ،
فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل التكره^(٢)
وجعل بعضهم ببعض . فلذلك كانوا يقسمون
العساكر جموعا ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض
ويرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات
الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد
في القلب . ويسمون هذا الترتيب التبعة ، وهو
وصدر الإسلام . فيجعلون بين يدي الملك عسكريا

(١) الكردوسة بالضم فطمة عطية عن الجبل ، وكردوس الجبل
جعلها كتيبة كتيبة (الفارس) .

(٢) التكره المنكر والأمر القبيح وله امتصلا ابن خلدون
هنا بين الجبل بالتي وهو امتصلا لكثرة في غير صفاتها الملهية .

(١) ساقه الجيش مؤخرته . وكانها تسوقه سوقا .

(٢) في الفصل السابق عند حديثه عن « القساطر والساج » .

(٣) قرينه ونظيره .

وجعل ذلك القَرْصُ أيام القادسية ، وكانه
وَسَمَ جالساً على سرير نصبه لجلوسه . حتى
احتلقت صفوفُ فارس وشاططه العرب في سيره
ذلك ، فتحول عنه إلى القرات وقُتِل .

وأما أهل الكَرِّ والقر من العرب وأكثر الأمم
البغوية الرَّحالة فيهِمْ فَمُنْ لِلَّهِ إِبْلَهُم وَالظَّهْرَ الَّذِي
يَحْمِلُ ثَمَانِيَهُمْ فَيَكُونُ فِيقَهُ لِهِمْ ، وَيَسْتَوْنَهَا الْمَجْبُودَةَ (١) .
وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في
حرَّوِيَّهَا ، وتراه أوثقُ في الجُودَةِ ، وأمن من الفِرَّةِ
والهزيمة . وهو أمرٌ مشاهد .

وقد أخفَّضَهُ البُولُ لِهَهِدَانَا بِالْجَمَلَةِ ، وَأَشْتَاضُوا
عنه بِالظَّهْرِ الْحَامِلِ لِلْأَثْقَالِ وَالْقَسَاطِيطِ ، يَجْعَلُونَهَا
مَاقَةً مِنْ عَقْصِهِمْ ، وَلَا تَغْنِي هُنَا الْقِيْلَةَ وَالْأَجَلَ .
فصارت العساكر بذلك حُرُصَةً لِلْهَزَامِ ، وَمُسْتَفْهِرَةً
لِلْفِرَارِ فِي الْمَوَاقِفِ .

وكان الحرب أولُ الإسلام كله زحفاً . وكان
إنما يعرفون الكَرَّ والقر . لكن حملهم على ذلك
أولُ الإسلام أمران : أحدهما أن عدوهم كانوا
يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل
قِتَالِهِمْ ،

الثاني أنهم كانوا مُسْتَعِمَّتِينَ فِي جِهَادِهِمْ لَا
رَهْبُوا فِيهِ مِنَ الصَّيْرِ ، وَلَمْ يَسْخَ فِيهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ .
وَالزَّحْفُ إِلَى الْأَسْتِمَاتَةِ أَقْرَبُ .

وأول من أبطل الصفَّ في الحروب وصار
إلى التحصنة كراديس : مروانُ بْنُ الْحَكَمِ في قتال
الضَّحَّاكِ الْخَلَّاجِيِّ وَالْحُبَيْرِيِّ بَعْدَهُ .

(١) لأنها مجنونة إلى الجيش ومشردة به .

(فصل) ومن مذاهب الكَرِّ والقر في الحروب
ضربُ المَصَافِّ وراءَ عسكرهم من الجمادات
والحيوانات المُجَمِّمِ ، فيتخلونها ملجأً لِلْخِيَالَةِ فِي
كَرْهِهِمْ وَفِرْهِمْ ، يطلبون به ثبات المُتَالِفَةِ لِيَكُونَ
أَدْوَمَ لِلْحَرْبِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْغَلَبِ . وقد يفطه أهل
الزَّحْفِ أَيْضاً لِيَزِيدَهُمْ ثَبَاتًا وَشِدَّةً .

فقد كان القُرسُ ، وهم أهل الزحف ، يتخلون
القبيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجها من الخشب
أَمْثَالُ الصُّرُوحِ ، مشحونةٌ بِالْمُقَاتِلَةِ وَالسَّلَاحِ
وَالرَّايَاتِ ، ويصفونها وراءهم في حوة الحرب
كَأَنَّهَا حِصُونٌ ، فتقوى بذلك نفوسهم . ويزداد
وثوقهم .

وانظر ما وقع من ذلك في القَادِسِيَّةِ ، وَأَنْ فَارِسَ فِي
اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت
رَجَالَاتُ مِنَ الْعَرَبِ فَنَخَالَطُوهُمْ وَبَعَجُوهَا (١)
بِالسُّيُوفِ عَلَى خَرَاطِيجِهَا ، فَتَفَرَّتْ وَتَكَلَّهَتْ عَلَى
أَعْقَابِهَا إِلَى تَرَاطُيْهَا بِالْمَدَائِنِ ، فَجَاءَ مَسْكُورُ فَارِسَ
لِلَّذَلِكَ وَانْهَزَمُوا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ .

وأما الرُّومُ وملوك القوطِ . بِالْأَنْدَلُسِ وَأَكْثَرِ
العجم فكانوا يتخلون لذلك الأُدْرَةَ مِنْهُ بِهَوْنٍ لِلْمَلِكِ
سِرِّيهِ فِي حَوْتِ الْعَرَبِ ، وَيَحْتَفُّ بِهِ مِنْ عَدَمِهِ
وَحَاشِيَتِهِ وَجَنُودِهِ مِنْ هُوَ زَعِيمٌ بِالْأَسْتِمَاتَةِ دُونَهُ ،
وترفع الرَّايَاتِ فِي أَرْكَانِ السَّرِيرِ ، وَيَحْدَقُ بِهِ
سِيَاجٌ آخَرُ مِنَ الرَّمَاةِ وَالرَّجَالَةِ (١) ، فيعظم
هيكل السَّرِيرِ وَيَصِيرُ فِيقَهُ لِلْمُقَاتِلَةِ وَمَلْجَأً لِلْكَرِّ
وَالْقَرِ .

(١) بهج كنه فقه ، (القلوس) . (٢) اللدلة .

ولا أجعلوا^(١) على طريقة أهل الكر والقر ،
فاتهم السلطان والساكر بلجفاهم ؛ فاحتاج الملوك
بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الأمة المتعددة
الأيدي في الزحف وهم الإفرنج ، ويرتبون مصافهم
المحقق بهم منها . هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل
الكفر . وإنما استخفوا ذلك للضرورة التي أريناها
من تخوف الإجحال على مصاف السلطان . والإفرنج
لا يعرفون غير الثبات في ذلك ، لأن عاداتهم في القتال
الزحف ، فكانوا أقوم بذلك من غيرهم . مع أن
الملوك في المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع
أهل العرب والبربر وقتالهم على الطاعة ، وأما في
الجهاد فلا يستعينون بهم حلاً ، بل هم على
السلمين . هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد ، وقد
أبيننا سببه . والله بكل شيء عليم .

(فصل) ويلفت أن أمم الترك لهذا العهد
قتالهم مناضلة بالسهم ، وأن تعبته الحرب عندهم
بالمصاف ، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف ،
يضيرون صفاً وراء صف ، ويترجلون عن خيولهم ،
ويفرغون سهامهم بين أيديهم ، ثم يتناضلون
جلوساً ، وكل صف ردة للذي أمامه أن يكسبهم
العدو . إلى أن يتهيبوا النصر لإحدى الطائفتين
على الأخرى . وهي تعبته محكمة غريبة .

(فصل) وكان من مذاهب الأول في حروبهم
حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون حلاً
من مفرق البسات^(٢) والهجوم على المعسكر بالليل

قال الطبري لما ذكر قتال الجيوش : « فلهذا
الخوارج عليهم شيبان بن حيد الزيزي الشكري
ويقلب أبا الذئب وقتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس
وأبطل الصف من يومئذ ، انتهى . - فتنوعى قتال
الزحف بإبطال الصف ، ثم تنوعى الصف وراء
المقاتلة بما داخل الدول من الدرف . وذلك أنها
حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا
يسكنون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم
في الأحياء فلما حصلوا على ترف الملك والقوايسكى
التصور والحواسر وتركوا شأن البادية والققرتسوا
لذلك عهد الإبل والظلمين وصحب عليهم اتخاذها ،
فقللوا النساء في الأسفار ، وحملهم الملك والترف
على اتخاذ القساطيط والأخبية ، فاقترصوا على
الظهر الحامل للانتقال والأبتية^(١) . وكان ذلك
صفتهم في الحرب . ولا يخفى كل الفناء لأنه
لا يذهب إلى الاستعانة كما يدعوا إليها أهل المال .
فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيئات
وتخترم صفوفهم .

(فصل) ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء
الساكر وتأكد في قتال الكر والقر ، صار ملوك
المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج في جندهم ،
واختصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر
والقر . والسلطان يتأكد في حقه ضرب للمصاف
ليكون ردة للمقاتلة أمامه ، فلا بد وأن يكون أهل
ذلك الصف من قوم متعددين للأيات في الزحف ،

(١) خلق المحدثين على الكلمة بقوله « مراده بالأبتية الخيام »
كما يدل له في قوله في فصل الحنفى الآتى قريباً ، إذا نزلوا وضربوا
أبتهم .

(١) أجل القوم أسرموا في الحرب .

(٢) الإيقاع بالمعنى ليل .

فلا تيمّلوها ولا تجمّلوها إلا بأبدى شُجعاتكم .
واستعينوا بالصدق والصبر ، فإنه يقدر الصبر
ينزل النصر .

وقال الأشتري يومئذ يمحرض الأزد : « عَصُوا
على التواجيل من الأضراس . واستقبلوا القوم
بهايمكم . وشُدُّوا شدة قوم موتورين يشارون بلبالهم
وأخوانهم حنقا على علومهم ، وقد وطنوا على الموت
أنفسهم لئلا يسبقوا بوتر ، ولا يلحقهم في الدنيا
عار » .

وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي
شاعر لتونة وأهل الأندلس في كلمة يمدح بها
تأشيف بن علي بن يوسف ، ويصف ثباته في حرب
شهادها ، ويذكره بأمور الحربى وصلياً وتحليلات
تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول
فيها :

يا أيّها الملا الذى يفتنّع
من ينكم المليك الهام الأروع
ومن الذى غفر العدو به دجى
فانقص كل وهو لا يتزعزع
مضى القوارس والطمان يصدها
عنه ويؤذرها الوفا فترج
والليل من وضع الترائك^(١) إنه
صبح على هام الجيوش يلتمع
أنى فزعم يا بنى صنهاجة
ولايكم في الرّوع كان المزع

لا في ظلمته ووخشته من مضاعفة الخوف فيلوذ
الجيش بالقرار وتجذ النفوس في الظلمة سترًا من
حاره ، فإذا تساووا في ذلك أرجف^(٢) العسكر
ووقعت الهزيمة . فكانوا لذلك يحفرون الخنادق
على مسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم ، ويديرون
الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم ، حرصاً أن
يخالطهم العدو بالبيات فيتحاذلوا .

وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار
باحشاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كل منزل
من منازلهم ، بما كانوا عليه من وقور العمران
وضخامة الملك . فلما غرب العمران وتبعه ضعف
الدولة وقلة الجنود وعدم القلعة نسي هذا الشأن
جُملةً كأنه لم يكن . والله خير القادرين .

وانظر وصية على رضى الله عنه وتحريقه
لاصحابه يوم صفين تجد كثيراً من علم الحرب ولم
يكن أحد أبصر بها منه^(٣) .

قال في كلام له : « قسّوا صفوفكم كالبنين
المروضين . وقدمو الدارع^(٤) وأخروا الحامير^(٥)
وعصّوا على الأضراس ، فإنه أنبى للسيوف عن
الهام^(٦) . والتروا على أطراف الرماح ، فإنه
أصون للأيشة . وعصّوا الأبصار ، فإنه أربط .
للجائش وأسكن القلوب . وأخفّوا الأصوات ،
فإنه أطرد للعدّل وأولى بالوقار . وأقيموا أياتكم

(١) من معنى الإرجاف . الاضطراب والزلزلة .

(٢) انظر الكامل للبردج ، ص ١٥ - ١٤ ط ١ : التقدم .

(٣) لايس البرج .

(٤) من لا درج له .

(٥) الحاملة من الشخص وأمه وجهه هام .

(٦) من معنى التريكة كناية بصفة الخدية تليس في الحرب .

والوَادِ لَا تُغَيِّرُهُ وَانزَلَ عَنْهُ
بَيْنَ الْمَلِكِ وَبَيْنَ جِيْشِكَ يَقْطَعُ
وَأَجْعَلْ مُنَاجِرَةَ الْجِيْشِ عَشِيَّةً
وَوَرَاكَ الصَّنْفُ (١) الَّذِي هُوَ أَمْنٌ
وَلِذَا تَفَايَقَتِ الْجِيْشُ بِمَعْرَكِ
عَنْكَ فَاطْرَافُ الرِّمَاحِ تَوْسَعُ
وَأَصْدِغُهُ أَوَّلَ وَقْلَةٍ لَا تُكَثِّرُ
شَيْئًا فَيُظْهِرُ التَّكْوِلَ بِمَنْعِ
وَلِجْعَلُ مِنَ الطَّلَاعِ (٢) أَهْلَ شَهَامَةٍ
لِلصَّدِيقِ فِيهِمْ شِمَّةٌ لَا تَخْدَعُ
لَا تَسْمَعُ الْكُذَّابَ جَاعِلُكَ مُرْجِيًّا
لَا رَأْيَ لِلْكَذَّابِ فِيمَا يَصْنَعُ
قوله : « وَأَصْدِغُهُ أَوَّلَ وَقْلَةٍ لَا تُكَثِّرُ » ...
البيت مخالف لما عليه الناس في أمر الحرب . فقد
قال عُمَرُ لَأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ مَا وَلَّاهُ حَرْبَ
فَارِسَ وَالْعِرَاقَ فَقَالَ لَهُ : « اسْمَعْ وَأَجْعَلْ مِنْ
أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْرِكْهُمْ
فِي الْأَمْرِ ، وَلَا تُجَيِّبَنَّ مَسْرَعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ ،
فَإِنَّهَا حَرْبٌ ! وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا الرَّجُلُ
الْمَكِيثُ (٣) الَّذِي يَعْرِفُ الْقُرْصَةَ وَالْكَفَّ » . وقال
له في أخرى : إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُوْمَرَ سَلِطًا إِلَّا
سُرْعَتُهُ فِي الْحَرْبِ ، وَفِي التَّسَرُّعِ فِي الْحَرْبِ إِلَّا هَنْ

إِنْسَانٌ هَيَّجَ لَمْ يَمْسِهِ مِنْكُمْ
حَظَنُ وَقَلْبِ أَسْلَمَتُهُ الْأَضْلَعُ
وَصَلَدْتُمْ مِنْ تَائِثَيْنِ وَأَنَّهُ
لَعَنَاهُ لَوْ شَاءَ فِيمَكِ مَوْضِعُ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا أَسْوَدُ خَفِيَّةٍ (١)
كُلُّ لَكُلٍّ كَرِيهَةٌ مُسْتَطْلَعُ
يَا تَائِثَيْنِ أَيُّكُمْ لَجِيْشُكَ عِلَّوْهُ
بِالْأَيْلِ وَالْعِلْوِ (٢) الَّذِي لَا يُدْفَعُ
(ومنها في سياسة الحرب)
أَهْلِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ
كَانَتْ مَلُوكُ الْقُرْسِ قَبْلَكَ تَوَلَّعُ
لَا إِنِّي أَذَرَى بِهَا لَكُنْهَا
ذَكَرَى تَحْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَالْبَسَ مِنَ الْحَقِّ (٣) الْمُضَافَةُ الَّتِي
وَمَنْ بِهَا صِنْعُ الصَّنَالِ (٤) تُتَبَّعُ
وَالْهِنْدُونِي (٥) الرَّقِيقُ فَإِنَّهُ
أَمْضَى عَلَى حَدِّ الدَّلَاصِ (٦) وَأَقْطَعُ
وَارْكَبُ مِنَ الْخَيْلِ السَّوَابِقِ عِلَّةُ
سِيَانٍ تَتَّبِعُ ظَافِرًا أَوْ
تَحْتَدِقُ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةً
حِصْنًا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مَنَفَعُ

(١) في جميع النسخ : « الصنف » ، وهو تعريف ،
وصواب الصنف . والصنف منقطع الجبل أو قاضيه وكل شيء
مرتفع من حائط ونحوه . والمعنى : لتتأخر الأعداء ووراءك ما يحجب
ظهورك من جبل ونحوه . أو لعل الكلمة محرفة عن « الصنف » أي
لتتأخر الأعداء ووراءك صف من الجيش يسمى ظهره .
(٢) اللطيفة القوم يمتدحون أمام الجيش يمتدحون طلع العدو
أي غير . والجعب مطلق .
(٣) المكث : الرزين الذي لا يهيج .

(١) الخفية كناية عن الخفية الملقطة بالأشجار .
(٢) في نسخة : « والقدر » .
(٣) الخلفة : الدرع ... وجسمه حلق . (القاموس) .
(٤) يقال وجب صنع الدين بالكسر وصنع الدين وصناعتها
أي حادق في الصنعة (القاموس) .
(٥) السيف المختون بكسر الهمزة وضمة فسوق إلى الحدة
كما في (القاموس) .
(٦) يقال درج السيف من الدلاس ككتاب منسوخ لينة . والمعنى أن السيف
المختون أي أقوى السيوف على قطع الفروع وأضمارها على حدة .

مراكزهم فتقع الهزيمة . وأكثر مانع الهزائم من هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يُغْتَمَلُ لكل واحد من الفريقين فيها حرصاً على القلب ، فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « الحرب خدعة » ومن أمثال العرب : « حرب حيلة أنفع من قبيلة » . فقد تبين أن وقوع القلب في الحروب غالباً من أسباب خفية غير ظاهرة ، ووقوع الأشياء من الأسباب الخفية هو معنى البحث كما تقرر في موضعه . فاعتبره . وتفهم من وقوع القلب من الأمور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةً شَهِيراً » ، وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات . فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولوا على قلوبهم فينهزموا معجزةً لرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فكان الرعب في قلوبهم سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها ؛ إلا أنه خفى عن العيون .

وقد ذكر الطبري في أن من أسباب القلب في الحروب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر ، مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له القلب ، وأعاد في ذلك وأبدى ؛ وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قلنا ؛ وليس بصحيح .

بيان ضياع . والله لولا ذلك لأمرته . لكن الحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكث (١) . هذا كلام عمر ؛ وهو شاهد بأن التثاقل في الحرب أولى من الخوف (١) ، حتى يتبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله الصيرفي ؛ إلا أن يريد أن الصلح بعد البيان ، فله وجه . والله تعالى أعلم .

(فصل) ولا وثوق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد ؛ وإنما الظفر فيها والقلب من قبيل البحث والاتفاق .

وبيان ذلك أن أسباب القلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ، ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ؛

ومن أمور خفية وهي : إما من هذع البشر وسيلهم في الإيجاب والشانيع التي يقع بها التخلييل ، وفي التقدم إلى الأماكن المرتفعة ، ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك ، وفي الكمون في الغياض ومطعم الأرض والتواوي بالكدي (٢) عن العدو حتى يتداولهم السكر دفعة وقد تورطوا فيختلفون (٣) إلى النجاة ، وأمثال ذلك . وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية لاقدرة البشر على اكتسابها تلقى في القلوب ، فيستولى الرعب عليهم لأجلها فتخل

(١) خب إلى المعر خوفنا أسرع (المصباح) .

(٢) الكمية : الأرض الصلبة ؛ والجسع كناية عن ملء مائة ومئة (المصباح) .

(٣) في جميع التسخ ؛ فيطسبون .

من الملوك والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم ، وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها . وقد تصادف موضعها وتكون طقاً على صاحبها .

والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالأخبار ، والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ، ويدخلها التحسب والتشيع ، ويدخلها الأوقام ، ويدخلها الجهل عطيفة الحكايات للأحوال ، لخدائها بالتلبس والتصنع أو لجهل الناقل ، ويدخلها التقرب لأصحاب التجل والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك ، والنفوس مولمة بحب الثناء ، والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة ، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها ^(١) . وأين مطابقة الحق مع هذه كلها ؟ فتختل الشهرة عن أسباب خفية من هذه ، وتكون غير مطابقة ، وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه باليخت كما تقرر . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٤٨ - فصل في الحماية وسبب قتلها وكثرها :

اعلم أن الجبابة أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة ، ^(٢) وتكثر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة .

والسبب في ذلك : أن الدولة إن كانت على

وإنما الصحيح المتعبر في الطلب حال العصبية أن يكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم ، وفي الجانب الآخر عصابات متعددة ، لأن العصابات إذا كانت متعددة يقع بينها من التخالف ما يقع في الإحسان المتفرقين الفاعلين للعصبية ، إذا تفكر كل عصابة منهم منزلة الواحد ، هوكون الجانب الذي حصله متعددة لايقاوم الجانب الذي عصبته واحدة لأجل ذلك فتهمسه واعلم أنه أصبح في الاعتبار عما ذهب إليه المأطوشي ولم يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصبية في حلقه وبلده ، وأنهم إنما يردون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوطن والجماعة الناشئة عنهم ^(١) لا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسباً .

وقد بينا ذلك أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته إنما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها ، فكيف يجعل ذلك كفيلاً بالغلب ؟ ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئاً منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الأمور السايوة من الرعب والخذلان الإلهي . فافهم وتفهم أحوال الكون . والله مقدر الليل والنهار .

(فصل) ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت . فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس

(١) أشار ابن خلدون إل هذا كله في طه العبارات نفسها في تفهيمه لكتاب الأول .

(٢) جمع وزينة وهو ما يتوزع على الأشخاص .

(١) في جميع النسخ : يرون ذلك الدفاع والحماية ... الخ . وهو تحريف . يحيل بك على ما ذكره في الفصل التاسع من هذا الباب .

حينئذ على الرعايا والأكرمة (١) والفلاحين وسائر أهل المظالم ، ويزيدون في كل وظيفة ووزعة مقداراً عظيماً لتكثر لهم الجباية ، ويقعون المكوس على المبيعات وفي الأبواب كما نذكر بعد ، ثم تتدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج هوائيد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه ، حتى تشغل المظالم على الرعايا وتنهضهم وتصير عادة مفروضة ، لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلاً ولم يشعر أحدٌ بمن زادها على التعميين ولا من هو واضعها ، إنما تثبت على الرعايا (٢) كأنها عادة مفروضة ثم تزيد إلى الخروج عن حد الاحتدال فتذهب خبطة الرعايا (٣) في الاعترار للهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع ، إذا قابل بين نفعه ومقارمه وبين ثمرته وفائدته ، فتتقضى كثير من الأيدي عن الاعترار جملة ، فتتقضى جملة الجباية حينئذ ينتقص تلك الوظائف منها . وربما يزيّدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبراً لا نقص ، حتى تنتهي كل وظيفة ووزعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة ، لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعترار وكثرة المظالم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به ، فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوظائف والوظائف في زيادة لما يعتقده من جبر الجملة بها ، إلى أن ينتقص العمران بذهاب الامال من الاعترار ، ويعود وبال ذلك على الدولة ، لأن فائدة الاعترار عائدة إليها .

سنن اللبن فليست تفتيح إلا المظالم الدرعية من الصدقات والخراج والجزية ، وهي قليلة الزائع ، لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت ، وكلما زكاة الحبوب والماشية ، وكلما الجزية والخراج وجميع المظالم الشرعية ، وهي حدود لا تتعدى .

وإن كانت على سنن التخلّب والحسبة فلا بد من البدوة في أولها كما تقدم ، والبدوة تقتضى المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجاني عن أموال الناس ، والفتلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر ، فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزعة التي تجمع الأموال من مجموعها . وإذا قلت الزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل وورعوا فيه ، فيكثر الاعتماد . ويتأيد محصول الاختباط (١) بقلة التفرغ ، وإذا كثرت الاعتماد كثرت أعداد تلك الوظائف والوظائف ، فكثر الجباية التي هي جملة لها . فإذا استمرت الدولة واتصلت ، وتعاقب ملوكها واحداً بعد واحد واتصفوا بالكيس ، وذهب شر البدوة والسذاجة وخلتها من الإفضاء والتجاني ، وجاء الملك الضموض والحسرة الداهية إلى الكيس ، وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحلّي (٢) وتكثر هوائيدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعم والترف ، فيكثر الزائف والوظائف والزائع

(١) الأكار : الحرات والبمع أكره . والمنى من يشتد

بالزراعة .

(٢) انقردت : واليهودية هذه الزيادة التي لا يستقيم عليها المنى .

(١) القطة سنن حال الاختباط للشيخ بالحال الحسة
من المصباح والقاموس .

(٢) خلق : أظهر الخلق أو ادعى أكثر ما منه كسب .

قدراً معلوماً على الأثمان في الأسواق ، وهل أحياناً السلع في أموال المدينة . وهو مع هذا مضطراً لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية . وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة ، فتكسده الأموات لفساد الآمال ، ويؤمن ذلك باختلال الممران ، ويعود على الدولة ، ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل .

وقد كان وقع منه بأمصاء المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبّيدية كثير ، وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم ، وأسقطت صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملةً وأحاضها بأثار الخير . وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى محارسته: يوسف بن تاشفين أمير المرابطين . وكذلك وقع بأمصاء الجريد بإفريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها . والله تعالى أعلم .

٤٠ - فصل في أن التجارة من السلطان

مضرة بالرعايا مفسدة للجباية

اعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قلعتها من الترف وكثرة العوائد والتنفقات وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها ، واحتاجت إلى مزيد لئال والجباية ، فتارة توضع للمكوس على بيعات الرعايا وأسواقهم كما قلنا ذلك في الفصل قبله ، وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس إن كان قد سحقت من قبل ، وتارة بمقاسمة العمال والجباة واشتراك^(١) عظامهم ، لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية لا يظهره الحشبان

وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتار تقليل مقدار الوظائف على المحتورين ما أمكن ، فبذلك تنسب الشغور إليه ليفتتها بإعزاز المنفعة فيه . والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها ، و « بيده ملكوت كل شيء » (١) .

٣٩ - فصل في ضرب المكوس

أواخر الدولة

أعلم أن الدولة تكون في أولها بتوبة كما قلنا ، فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائلدها ، فيكون خرجها وإنفاقها قليلاً ، فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها ، بل يفضل منها كثير من حاجاتهم ،

ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائلدها ، وتجرى على نهج الدول السابقة قبلها ، فيكثر للملك خراج أهل الدولة ، ويكثر خراج السلطان خصوصاً بالغة بنفقته في خاصته ، وكثرة عطائه ، ولا تغني بذلك الجباية . فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة ، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائم أولاً كما قلناه ، ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ، ويدرك الدولة الهرم ، وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية ، فتقل الجباية وتكثر العوائد ، ويكثر بكثيرها أوزان الجند وعطاؤهم . فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ، ويفرض لها

(١) مكة راحته ... اصمه جيهه (القاموس) .

(١) آخر آية من سورة يس .

وفلانة باستحداث التجارة والقلاحة السلطان على تسمية الجباية ^(١) ، لئلا يرون التجار والقلاحين يحصلون على القوائد والفلات مع يسارة أموالهم ، وأن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال . فباعطون في احتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحوائج الأسواق ، ويحسبون ذلك من إخراج الجباية وفكثير القوائد . غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة .

فلو أن مضايقة القلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وعدم تيسير أسباب ذلك ، فإن الرعايا متكافئون ، في اليسار متقاربون ، ومزاجمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب ، وإذا رافقهم السلطان في ذلك ، وماله أعظم كبراً منهم ، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد .

واذا قايَس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل . ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بخط. عظيم من الجباية فيما يعاتبه من شره أو بيع ، فانه من البعيد أن يوجد فيه من

ولا نفاق البياعات ، يدفعهم إليه تكاليف الدولة ، فيكفون أهل تلك الأسمات من فاجر أو فلاح بقره تلك البضائع ، ولا يروون في أمانيها إلا التيمم وأزيد فيستوصون في ذلك ناض ^(١) أموالهم وفيبقى تلك البضائع بليغهم غرضاً جامدة ويكفون عطلاً من التجارة التي فيها كسبهم ومعاشهم . وربما قلعهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بلغيث ثمن . وربما يتكرر ذلك على التجار والقلاح منهم ما يلجأ رأس ماله ، فيقع عن سرقه ، ويتعدد ذلك ويعكرر ، ويدخل به على الرعايا من التنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقضي آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الجباية ، فإن معظم الجباية إنما هي من القلاحين والتجار ، لاسيما بعد وضع المكوس ونحو الجباية بها ، فإذا انقبض القلاحون عن القلاحة وقعد التجار عن التجارة ، ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش ^(٢) .

فلو أن مضايقة القلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وعدم تيسير أسباب ذلك ، فإن الرعايا متكافئون ، في اليسار متقاربون ، ومزاجمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب ، وإذا رافقهم السلطان في ذلك ، وماله أعظم كبراً منهم ، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد .

ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غصاً أو بليسر ثمن ، (إذ) ^(٢) لا يجد من ينافسه في شرائه فيبخر ثمنه على يائمه .

ثم إذا حصل فوائد قلاحة ومطأ كل من ذرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الفلات ، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوائج الأسواق

ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غصاً أو بليسر ثمن ، (إذ) ^(٢) لا يجد من ينافسه في شرائه فيبخر ثمنه على يائمه .

ثم إذا حصل فوائد قلاحة ومطأ كل من ذرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الفلات ، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوائج الأسواق

(١) التاض : الثرم والبنتر (القاموس) .
(٢) يعني أن حاشية السلطان بعد أن تحصل على السلع لا تهرها في الأسواق لتسرى عليها قوانين العرض والطلب ، بل تستعصى التجار وتلزمهم بشرائها بأثمان باهظة ، فتتصور ملك أماله ، وتبقى هذه البضائع جملة بأيديهم ، إذ لا يبدون من يشترى منهم بأثمان هزيلة ، فتصل تجارهم التي فيها كسبهم ومعاشهم .

(١) أي يلم الجباية أو كما تقول نحن : حل أتا مرالب فيه مبالغة تجس من السبلكين .
(٢) في جميع النسخ : لم لا يجد ، وهو غرضه كما لا يتنى .

مَنْ يَدَاخِلُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ - أَهْلَى التِّجَارَةِ
وَالْفَلَاحِينَ - لَمْ يَكُنْ صِنَاعَتُهُ الَّتِي لَهَا عَلَيْهَا ،
فِي حِصْلِ السُّلْطَانِ حَقٌّ ذَلِكَ وَيُقَرَّبُ مَعَهُ بِسَبَبِ
لِنَفْسِهِ لِيَحْصِلَ عَلَى غَرَضِهِ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ سَرِيعاً ،
مِثْلًا مَعَ مَا يَحْصِلُ لَهُ مِنَ التِّجَارَةِ بِلاَ مُقَرَّمٍ وَلَا مُكَسَّ ،
فَانْهَى أَبْطَرُ بِنَمُوِّ الْأَمْوَالِ ، وَأَسْرَعَ فِي تَحْمِيرِهِ ،
وَلَا يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ مِنَ النُّقْرِ بِنَقْصِ
جَبَايَتِهِ . فَيَتَبَيَّنُ لِلسُّلْطَانِ أَنَّ يَحْمِلَ مِنْ هَوْلِهِ ،
وَيُخْرِضَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ الْمَضْرَةَ بِجَبَايَتِهِ وَسُلْطَانِهِ .
وَاللَّهُ يَهْتِمُّ بِرَشْدِ أَنْفُسِنَا ، وَيَنْفَعُنَا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ .
وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

٤١ - فصل في أن ثروة السلطان وسأشيته

إنما تكون في وسط الدولة

والعيب في ذلك أن الجباية في أوّل الدولة
تتوزع على أهل القبيل والعصبية بمقدار خَنَائِهِمْ
وعصبيتهم ، ولأن الحاجة إليهم في عهد الدولة
كما قلنا من قبل . فترى في ذلك متجانف لهم
عما يَسْتَمُونُ إليه من الجباية ، محتاض عن ذلك بما
يُروم من الاستبداد عليهم ، فله عليهم حُرَّةٌ وَلَهُ إِلَيْهِمْ
حاجة . فلا يُطْغَرُ^(١) في سَهْنَانِهِ مِنَ الجباية إلا الْأَقْلَ
من حاجته . فتجد حاشيتة لذلك وأذنياله من الوزراء
والكتاب والموالي مُتَلَقِّينَ في الغالب ، وجاههم
متقلص لأنه من جَاهِ مَخْدُومِهِمْ ، ونطاقه قد ضاق
بِمَنْ يَزَامِعُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ .

فإذا استغفلت طبيعة الملك ، وحصل لصاحب
الدولة الاستبداد على قومه ، فهُنَّ أَيْدِيهِمْ مِنْ

(١) طار للال وطير . نس (القلوس) .

الملك . ولو كان حُرَّةً في تلك الصفقات لكان
تَكْسِبُهَا كُلُّهَا حَاصِلًا مِنْ جِهَةِ الْجَبَايَةِ . ثُمَّ فِيهِ
الْفَرَضُ لِأَهْلِ عُرَاتِهِ ، وَاجْتِلَالُ الدَّوْلَةِ بِقَسَادِهِمْ
وَلَقَعِهِ ، فَإِنَّ الرِّعَايَا إِذَا قَلَمُوا عَنْ تَحْمِيرِ أَمْوَالِهِمْ
بِالْفِلَاحَةِ وَالتِّجَارَةِ نَقَصَتْ وَتَلَاخَتْ النِّفَقَاتُ ،
وَكَانَ فِيهَا إِتْلَافُ أَمْوَالِهِمْ ، فَافْهَمْ ذَلِكَ .

وكان القوس لِيَحْمِلُ كَوْنُ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ أَهْلِ
بَيْتِ الْمُلْكَةِ ، ثُمَّ يَخْتَارُونَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُضَلِ وَالْعَيْنِ
وَالْأَدَبِ وَالسَّخَاةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ ، ثُمَّ يَشْعُرُونَ
عَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ الْعَدْلَ ، وَأَنْ لَا يَخْطِ صَنْعَةً يَضُرُّ
بِجِيرَانِهِ ، وَلَا يَتَلَجَّرُ فَيَحِبُّ غِلَاةَ الْأَسْجَارِ فِي الْبُضَائِعِ
وَأَنْ لَا يَسْتَحْدِمَ الْعَبِيدَ فَانْهَى لَا يَخِيرُونَ بِخَيْرٍ وَلَا
مَصْلَحَةٍ .

وأعلم أن السلطان لا يَنْتَحِي مَالَهُ وَلَا يَدِيرُ مَوْجُودَتَهُ
إِلَّا الْجَبَايَةَ ، وَإِدَارَتَهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَدْلِ فِي أَهْلِ
الْأَمْوَالِ ، وَالتَّظَرُّ لِهِمْ بِذَلِكَ ، فَبِذَلِكَ تَنْبَسِطُ
آمَالُهُمْ ، وَتَنْشَرُ صُدُورُهُمْ لِلْأَخْذِ فِي تَحْمِيرِ الْأَمْوَالِ
وَتَحْمِيَّتِهَا ، فَتَعْلَمُ مِنْهَا جَبَايَةُ السُّلْطَانِ . وَأَمَّا غَيْرُ
ذَلِكَ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ فَلَاحٍ فَانَّمَا هُوَ مَضْرُوعٌ حَاجِلٌ لِلرَّعَايَا
وَفَسَادٌ لِلْجَبَايَةِ وَنَقْصٌ لِلْعِمَارَةِ . وَقَدْ يَنْتَهِي الْحَالُ
بِهَوْلِهِ لِلْمُسْلَخِينَ لِلتِّجَارَةِ وَالْفِلَاحَةِ مِنَ الْأَمْوَالِ
وَالْمُتَلَقِّينَ فِي الْبِلَادِ أَنَّهُمْ يَتَحَرَّضُونَ لِنُفْرَاةِ الْغَلَّاتِ
وَالسَّلْعِ مِنْ أَرْبَابِهَا الْوَارِدِينَ عَلَى يَدَيْهِمْ ، وَيَفْرَضُونَ
لِلذَلِكَ مِنَ الثَّمَنِ مَا يَشَاؤُونَ ، وَيَبْعِيهِمْ فِي وَفْتِهَا
لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرِّعَايَا بِمَا يَفْرَضُونَ مِنَ الثَّمَنِ
وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأَوَّلَى وَأَقْرَبُ إِلَى فُسَادِ الرِّجَّةِ
وَاجْتِلَالِ أَمْوَالِهِمْ . وَبِمَا يَحْمِلُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ

دولة سلقه وبجاءهم ، فبعضلهم (١) وينتزعها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً وواحدًا بعد واحد ، على نسبة رتبهم وتكثر الدولة لهم ، ويعود وبالأدلة على الدولة بفناء حاشيتها ورجالها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها ، ويتقوض بذلك كثير من مبادئ المجد بعد أن يدعه أهله ويرفعوه .

وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة ، وبني برمك ، وبني سهل ، وبني طاهر وأمثالهم في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني حيدة وبني حنيرة وبني برد وأمثالهم ، وكذا في الدولة التي أدركتها لعهدنا : سنة الله التي قد خلت في عياديه .

(فصل) ولا يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه الماطب صار الكثير منهم ينزعون إلى القرار عن الرتب والتخلص من رتبة السلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر ، ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم في إنفاقه وحصول ثمرته . وهومن الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لأحوالهم وديارهم . واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير متعيق . فإن صاحب هذا الغرض إذا كان هو الملك نفسه ، فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولا أهل العصبية المزاجيون له ، بل في ظهور ذلك منه هضم للملك وإتلاف لنفسه بمجارى العادة بذلك ، لأن رتبة الملك يعسر الخلاص منها ، سيما عند استفحال الدولة وضييق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والجلال والتحقق بالشعر . وأما إذا

الجبائيات إلا ما يطير لهم بين الناس في شهراتهم ، ونقل حظرهم إذ ذاك قلة غنائم في الدولة ، بما انتكح من أعتهم ، وصار الموالى والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وعمهيد الأمر ، فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجبائية أو معظمها ، ويحتوى على الأموال ويحجبها (١) للنفقات في مهمات الأحوال ، فتكثر ثروته وتمتلى خزائنه ويتسع نطاق جاهه ، ويحتز على سائر قومه ، فيعظم حال حاشيته وقوته ، من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ، ويقننون الأموال ويتأثرونها . ثم إذا أخذت الدولة في الهرم بثلاثي العصبية وفناء القبيل الماهدين للدولة احتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الأعوان والأنصار . ولكثرة الخوارج والمنازعين والثوار ، وتوهم الانتقاص ، فصار حراجه لظهوره وأعوانه ، وهم أرباب السيوف وأهل العصبية ، وأنفق خزائنه وحاصلته في مهمات الدولة ، وقلت مع ذلك الجبائية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق ، فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى المال ، فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجباب والكتّاب بتقلص الجاء عنهم ، وضييق نطاقه على صاحب الدولة . ثم يشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آبائهم من الأموال في غير سبيلها من إعانته صاحب الدولة ، ويقبلون على غير ما كان عليهم آبائهم وسلفهم من المناصحة ، ويرى صاحب الدولة أنه أحق بثلث الأموال التي اكتسبت في

كان صاحب هذا الفرص من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته ، فقل أن يخطئ بيته وبين ذلك .
أما أولاً : فلما يراه الملك أن قوتهم وحاشيتهم - بل وسائر رعاياهم - مما يليك لهم مطلقون على فأت صدورهم ، فلا يسمحون بحل ريقته من الخدمة ضناً بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد ، وفيرة من خدمته لیسواهم . ولقد كان بنو أمية بالأندلس بمنحون أهل دولتهم من السفر قريضة الحج لا يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العباس ، فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل قوتلهم ، وما أبيع الحج لأهل الدول من الأندلس إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوعها إلى الطوائف .
وأما ثانياً فلاهم وإن سمحوا بحل ريقته هو فلا يسمحون بالتجافي عن ذلك المال ، لا يرون أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم ، إذ لم يكتسب إلا بها وفي ظل جأها ، فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة ينتفعون به .

ثم إذا توهمنا أنه خلص بذلك المال إلى قطر آخر وهو في النادر الأقل ، فتمتد إليه عين الملك بذلك الظفر وينتزعونه بالإزهاب والتخويف تعريضاً أو بالتعهر ظاهراً ، لا يرون أنه مال الجباية والدولة ، وأنه مستحق للاتفاق في المصالح . وإذا كانت أعيانهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش ، فأخرى بها أن تمتد إلى أموال الجباية والدول التي تجد السبيل إليه بالشرع والمعادى . ولما حاول السلطان أبو يحيى ذكرياً بن

أحمد الحياي تابع أو عاشر ملوك الحفصيين بإفريقية الخروج عن عهدة الملك والأحق بمصر فراراً من طلب صاحب الثور العربية لما استجمع لغزو تونس ، فاستعمل الحياي لرحلة إلى ثرا طربلس يورى بتمهيد ، وركب لسفين من هنالك ، وخلص إلى الإسكندرية بعد أن حمل ما وجده بيت المال من الصامت (١) والخيرة ، وبيع كل ما كان بحزائنتهم من المتاع والمقار والجواهر ، حتى الكتب ، واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون ، سنة سبع عشرة من المائة الثامنة ، فأكرم نزله ورفع مجلسه ، ولم يزل يستخلص ذخيرته شيئاً شيئاً بالتعريض إلى أن حصل عليها ، ولم يبق معاش أبى الحياي إلا في جرابته التي فرضت له إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين حسبما نذكر في أخباره .

فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعترى أهل الدول لا يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب ، وإنما يخلصون إن اتفق لهم الخلاص بأنفسهم ، وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووه . والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية أو بالجاه في انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة . والدول أنساب ، لكن :

النفس رغبة إذا رغيها

وإذا ترد إلى قليل تنقع

(١) الصامت من المال : الذهب والفضة (المصباح) .

ذعبت أموالهم في اكتسابها وحصيلها انتقبضت
أيديهم عن السعي في ذلك . وكل قدر الاحتذاء
ونسبته يكون انتقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب
فإذا كان الاحتذاء كثيراً عاماً في جميع أبواب
المعاش كان التقوُّد عن الكسب كذلك للمعاش
بالآمال جملةً بدخوله من جميع أبوابها . وإن كان
الاحتذاء يسيراً كان الانتقباض عن الكسب على
نسبته . والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو
بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب فاهبين
وجائين . فإذا قعد الناس عن المعاش وانتقبضت
أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران ،
وانتقضت الأحوال وابتنحرت^(١) الناس في الأفاق مع
غير تلك الإيالة في طلب الرزق فبا خرج عن
نطاقها . فنفخ ساكن القطر ، وغلت دياره ،
وخربت أمصاره ، واعتزل باختلال حال الدولة
والسلطان ، لا أنها صرورة للعمران تفسد بفساد
مادتها ضرورة .

وانظر في ذلك ماحكاه السعوى في أخبار
الفرس عن المؤيدان صاحب الدين عندهم أيام
بهرام بن بهرام ، وما عرّض به للسلك في إنكار
ماكان عليه من الظلم والتضلة عن حالته على
الدولة ، بضرب المثال في ذلك على لسان اليوم
حين سمع الملك صوتها وسأله عن فهم كلامها
فقال له : إن يوماً ذكراً يرؤم نكاح يوم أنثى ،

(١) ابحروا ، هزمتوا مفرداً .

والله سبحانه هو الرزاق ، وهو الموفق بمنه
وقضه ، والله أعلم .

٤٢ - فصل في أن نقص العطاء من السلطان

نقص في الجباية

والمنبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق
الأعظم للعالم ، ومنه مادة العمران ، فإذا احتجج
السلطان الأموال أو الجبايات ، أو فقدت فلم
يصرفها في مصارفها ، قل حيشة ما يلبس الحاشية
والحامية ، وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم
وذويهم ، وقلت نفقاتهم ، جملة ، وهم معظم
السواد ، ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق من سواهم
فيقع الكساد حيشة في الأسواق ، وتضعف الأرباح
في المتاجر فيقل الخراج لذلك ، لأن الخراج الجباية
إنما تكون من الاختار والمعاملات ونفاق الأوق
وطلب الناس للقوائد والأرباح . وويال ذلك
حائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حيشة
بقلة الخراج . فإن الدولة كما قلناه هي السوق
الأعظم ، أم الأسواق كلها ، وأصلها ومادتها في
الدخل والخرج ، فإن كسدت وقلت مصارفها
فأجدر بما يحدوها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك
وأشد منه . وأيضاً فالأما إنما هو متردد بين الرعية
والسلطان ، منهم إليه ، ومنه إليهم ، فإذا حيسه
السلطان حشده فقدته الرعية . سنة الله في عباده .

٤٣ - فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم أن العنوان على الناس في أموالهم ذاهب
بأمالهم في تحصيلها واكتسابها لا يروونه حيشة من
أن غايتها ومصيرها انتهائها من أيديهم . وإذا

في العمارة ، وقوى من ضعف منهم ، قعرت الأرض ، وأخسبت البلاد وكثرت الأموال عند جبة الخراج ، وقويت الجنود ، وقطعت مراد الأعداء ، وشحت الثغور ، وأقبل الملك على مباشرة أمورهم بنفسه ، فحسنت أيامه ، وانتظم ملكه . فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للمعان ، وأن عائلة الخراب في المعان على الدولة بالفساد والانتفاض .

ولا تنظر في ذلك إلى أن الاحتفاء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها ، ولم يقع فيها خراب ، واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسب بين الاعتداء وأحوال أهل المضر . فلما كان المضر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسمة بما لا ينحصر ، كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً ، لأن النقص إنما يقع بالتدرج . فإذا غني بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المضر لم يظهر أثره إلا بعد حين . وقد تلعب تلك الدولة المتنبئة من أصلها قبل خراب المضر ، ونجى الدولة الأخرى ، فترفع بجديتها ، وتجبر النقص الذي كان غنياً فيه ، فلا يكاد يشعر به ، إلا أن ذلك في الأقل النادر .

والمراد من هنا أن حصول النقص في المعان عن الظلم والمعان أمر واقع لا يد منه ما قدمناه ووبأله عائداً على الدول .

ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكيه من غير عتص ولا سبب كما هو المشهور ، بل الظلم أصم من ذلك . وكل من أخذ

وأبها شمركت عليه عشرين قمية في الخراب في أيام بهرام قبل شرطها ، وقال لها : إن دامت أيام الملك أقطعك ألف قرية ، وهذا أسهل مرام . فقبله الملك من خفته وخلاً بالمندان وسأله عن مراده ، فقال : أبها الملك إن الملك لا يتيم عزه إلا بالشرعة ، والقيام لله بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشرعة إلا بالملك ، ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالملك ، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل . والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة ، فصبه الرب وجعل له قيساً ، وهو الملك . وأنت أبها الملك صمدت إلى الضياع فانتزعها من أربابها وعملها ، وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال ، وأفطمتها الحاشية والخدم وأهل البطالة ، فتركوا العمارة ، والنظر في العواقب وما يصلح الضياع ، وسومحو في الخراج قربهم من الملك . ووقع الجيف على من بقي من أرباب الخراج وعمل الضياع ، فانجلوا عن ضياعهم ، وغلبوا بكارهم ، وآووا إلى ما تملأ من الضياع فسكنوها ، فقلت العمارة وغربت الضياع وقتل الأولاد وهلك الجنود والرحمة وطعم في ملك فارس من جلورهم من الملوك لطيمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها .

فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه ، وانتزع الضياع من أيدي الخاصة وردت على أربابها ، وغلبوا على رؤسهم الساقطة وأخذوا

وَلَا تَقُولُوا إِنَّ الْعُقُوبَةَ قَدْ وَضَعَتْ بِإِزَاهِ الْجَرَائِدِ (١)
 فِي الشَّرْعِ ، وَهِيَ مِنْ ظِلْمِ الْقَائِدِ ، لِأَنَّ الْمُحَارِبَ
 زَمَنَ جَرَايَعِهِ قَائِدٌ . فَإِنَّ فِي الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ
 طَرِيقَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُولَ : الْعُقُوبَةُ عَلَى مَا يَقْتَرِفُهُ
 مِنَ الْجَنَائِيَّاتِ فِي نَفْسِ أَوْ مَالٍ عَلَى مَا لَعَبَ إِلَيْهِ
 الْكَثِيرُ ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالطَّالِبَةِ
 بِجَنَائِيَّتِهِ ، وَأَمَّا نَفْسُ الْجَرَائِدِ فَهِيَ خِلْوٌ مِنَ الْعُقُوبَةِ .
 الطَّرِيقُ الثَّانِي أَنْ تَقُولَ : الْمُحَارِبُ لَا يَوْصَفُ
 بِالْقُدْرَةِ ، لِأَنَّا إِنَّمَا نَعْنِي بِقُدْرَةِ الظَّالِمِ الْيَدِ الْمُسَوِّطَةِ
 الَّتِي لَا تَعَارِضُهَا قُدْرَةٌ ، فَهِيَ الْمُؤَدَّةُ بِالْخَرَابِ ،
 وَأَمَّا قُدْرَةُ الْمُحَارِبِ فَإِنَّمَا هِيَ إِخَافَةٌ يَجْعَلُهَا ذَرِيعَةً
 لِأَخْذِ الْأَمْوَالِ ، وَاللَّدَائِفَةُ عَنْهَا بِيَدِ الْكُلِّ مُوجُودَةٌ
 شَرْعًا وَسِيَاسَةً ، فَلَيْسَتْ مِنَ الْقُدْرِ الْمُرَوِّدِ بِالْخَرَابِ .
 وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ .

(فصل) وَمَنْ أَثَنَ الظُّلُمَاتِ وَأَعْظَمَهَا فِي إِفْسَادِ
 الْعِمَارَةِ تَكْلِيفُ الْأَعْمَالِ وَتَسْخِيرُ الرِّعَايَا بِغَيْرِ حَقٍّ .
 وَذَلِكَ أَنَّ الْأَعْمَالَ مِنْ قِبَلِ الْمُتَمَوِّلَاتِ كَمَا سَنَبِّينَ
 فِي بَابِ الرِّزْقِ (٢) ، لِأَنَّ الرِّزْقَ وَالْكَسْبَ إِنَّمَا هُوَ
 قِيَمُ أَعْمَالِ أَهْلِ الشُّعْرَانِ . فَإِذَا مَسَاعِيَهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ
 كُلُّهَا مُتَمَوِّلَاتٌ وَمَكَايِيبُ لَهُمْ ، بَلْ لَامَكَايِبُ لَهُمْ
 سِوَاهَا ، فَإِنَّ الرِّعْيَةَ الْمُتَعَيِّلِينَ فِي الْمَارَةِ إِنَّمَا مَعَاشُهُمْ
 وَمَكَايِبُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ذَلِكَ . فَإِذَا كَلَّفُوا الْعَمَلَ
 فِي غَيْرِ شَأْنِهِمْ وَاتَّخَلَّوْا سُخْرِيًّا فِي مَعَاشِهِمْ بَطَلَ
 كَسْبُهُمْ وَاعْتَصَبُوا قِيَمَةَ عَمَلِهِمْ ذَلِكَ ، وَهُوَ مُتَمَوِّلُهُمْ
 فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الضَّرَرُ ، وَذَهَبَ لَهُمْ حَقٌّ . كَبِيرٌ مِنْ

(١) الحراية هي ضلع الطريق . ومعناها القتل أو الصلب
 أو كلاهما معاً ولكل حقبة حالاً إلى غير تفصيلها عنه الفقهاء .

(٢) يقصد باليابس المجلس في الماش ووجهه ... الخ .

مَلَكٌ أَحَدٌ أَوْ هَضْبَةٌ فِي عَمَلِهِ أَوْ طَلَبُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ
 أَوْ فَرَضٍ عَلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَفْرَضْهُ الشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ .
 فَجَاءَ الْأَمْوَالُ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلَمَةً ، وَالْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا
 ظَلَمَةً ، وَالْمُنْتَبِهُونَ لَهَا ظَلَمَةً ، وَالْمَانِعُونَ لِحَقُوقِ
 النَّاسِ ظَلَمَةً ، وَغُصَّابُ الْأَمْلَاقِ عَلَى الْمَوْتِ ظَلَمَةً ،
 وَوَبَالَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمُخْرَابِ الْعِمَارَةِ
 الَّتِي هِيَ مَادَتُهَا لِإِذْعَابِهَا الْأَمَالَ مِنْ أَهْلِهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ عَلَيْهِ مِنَ الْحِكْمَةِ الْقَصُورَةَ لِلْقَارِيعِ
 فِي تَحْرِيمِ الظُّلْمِ ، وَهُوَ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ فُسَادِ
 الْعِمَارَةِ وَغَرَابِئِهِ ، وَذَلِكَ مُؤَدِّنٌ بِانْقِطَاعِ النُّوعِ
 الْبَشَرِيِّ ، وَهِيَ الْحِكْمَةُ الْعَامَّةُ الْمُرَاعَاةُ لِلشَّرْعِ فِي
 جَمِيعِ مَقَاصِلِهِ الضَّرُورِيَّةِ الْخَمْسَةِ ، مِنْ حِفْظِ
 الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ . فَلَمَّا كَانَ
 الظُّلْمُ كَمَا رَأَيْتَ مُؤَدِّنًا بِانْقِطَاعِ النُّوعِ لَا أَدَى
 إِلَيْهِ مِنْ تَحْرِيبِ الْعِمَارَةِ ، كَانَتْ حِكْمَةُ الْحُظْرِ
 فِيهِ مُوجُودَةً ، فَكَانَ تَحْرِيمُهُ مَهْمًا . وَأَدْلَتُهُ مِنْ
 الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ كَثِيرَةٌ ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَأْخُذَهَا
 قَانُونُ الضَّبْطِ وَالْحَضَرِ .

وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ قَادِرًا عَلَيْهِ لَوْضَعُ بِلَازَاتِهِ
 مِنَ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةِ مَا وَضَعَ بِإِزَاهِ غَيْرِهِ مِنْ
 الْمَقْصِدَاتِ لِلنُّوعِ ، الَّتِي يَقْدَرُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى
 اقْتِرَافِهَا مِنَ الزُّنَا وَالْقَتْلِ وَالسُّكْرِ ، إِلَّا أَنَّ الظُّلْمَ
 لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ لَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقَعُ
 مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ . فَيُؤَلِّغُ فِي قَدَمِهِ وَتَكْرِيرِ
 الرَّجِيمِ فِيهِ ، عَسَى أَنْ يَكُونَ الْوَلَاغُ فِيهِ لِلْقَائِدِ
 عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ . وَمَا رَأَيْتُ بِظُلَامِ التَّجْيِيدِ (١) .

(١) لمرآة ٤٦ من سورة نعلت .

معاشهم ، بل هو معاشهم بالجملة . وإن تكرر ذلك أفسد آمالهم في العمار ، وقنعوا من السعي فيها جملة ، فأتى ذلك إلى انتفاض العمران وتخريبه ، والله سبحانه وتعالى أعلم بيه التوفيق .

(فصل) وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس ، بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه النصب والإكراه في الشراء والبيع ، وربما تفرض عليهم تلك الأثمان على (التراضي)^(١) والتأجيل ، فيتملكون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحطهم المطامع من جبر ذلك بحالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان ، وتعود خسارة ما بين الصفتين على رؤوس أموالهم . وقد يعم ذلك أصناف التجار القيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع ، وسائر السوق وأهل الدكاكين في المأكول والفاكهة ، وأهل الصنائع فيها يتخذ من الآلات والموازين ، فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات ، وتتوالى على الساعات ، وتجحف برؤوس الأموال ، ولا يجدون عنها وليعة^(٢) إلا القعود عن الأسواق لخباب وعوس الأموال في جبرها بالآرياح^(٣) ، ومناقش

(١) في جميع النسخ : التراضي ، ولا ينضم به المتن .

(٢) يعني لا يجدون مخرأ ولا منتصداً وهو أصناف الكلفة في

غير منها الأصل .

(٣) حكماً في جميع النسخ ، ولا بد أن يكون هنا سقط وغريف ، والوضع الصحيح للمادة هو ما يلي : « للخاب وعوس الأموال والمعز من جبرها بالآرياح » أي إن جزءاً من رؤوس أموالهم قد ذهب في ثمن تلك البضائع التي فرضت عليهم بأكثر من ثمنها الطبيعي ، ولم تمكنهم حالة السوق من تحقيق ربح مجر معصروهم . انظر ج ٢ ص ٨٥٥ منشورة . وان .

الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك ، فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا ، لأن حلتهم من البيع والشراء . وإذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم ، وتنقص جيابة السلطان أو تفسد ، لأن معظمها من أوايط الدولة ، وما يحتها إنما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه^(١) . ويؤول ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة . ويترك هذا الخل على التدريج ولا يُشمر به .

هنا ما كان يشال هذه الذرائع والأسباب إلى أخذ الأموال ، وأما أعطها مجاناً والعدوان على الناس في أموالهم وخزائهم ودعائهم وأسراهم وأراضهم فهو يقضى إلى الخل والفساد دفعة ، وتنتقض الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتقاص .

ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايمة^(٢) في البيع والشراء ، وحظر أكل أموال الناس بالباطل ، سدأبواب المفاسد المفضية إلى انتقاص العمران بالهرج . أو بطلان المعاش .

واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يفرض لهم من الترف في الأحوال ، فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يبقى به الدخول على القوانين المعتادة ، فيستحلثون

(١) انظر الفصول ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ من هذا الباب .

ورخصة فصل ٤١ .

(٢) المكايمة في البيع في حرف الفقهاء هي المبالغة التي تدخل في المساومة ومحاولة كل من البائع والمشتري أن يصل إلى الثمن الذي يحق فائده . وفي الحديث : إنما كنتك لأخذ جلك ، أي طلبتك بالكفاية .

مداراتها ومساكنها بما يجب لها ، وربما جهل تلك المخلوق منهم ^(١) بعض من يباشروهم فوقع فيما لا يرضيهم ، فسخطوه وصاروا إلى حالة الانتقام منه . فانفرد بعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم ، وحجبتوا غير أولئك الخاصة من قرائهم في كل وقت ، حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يسيئهم ، وعلى الناس من التعرض لعقابهم .

فصار لهم حجاب آخر أنص من الحجاب الأول ، يُغني إليهم منه غواصهم من الأولياء ، ويحجب قوته من سواهم من العامة ، والحجاب الثاني ييخص إلى مجالس الأولياء ، ويحجب هونه من سواهم من العامة ^(٢) .

والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا ، كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخطاه بنو أمية ، وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جرياً على ملهب الاشتقاق الصحيح .

ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الملك على

أنساباً ووجوهاً يوسعون بها الحجابة ليقى لهم المخل بالخرج ، ثم لا يزال الترف يزيد ، والخرج يسببه يكثر ، والحاجة إلى أموال الناس تشده ، ونطاق الدولة بذلك يزيد ، إلى أن تنمى فانرتبا ويلعب رسمها ويغلبها عليها ، والله أعلم .

٤٤ - فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يحظم عند الهرم

اعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه ، لأنه لا بد لها من العصبية التي بها يتم أمرها ويحصل استقلالها ، والبداءة هي شعار العصبية . والدولة إن كان قيامها بالدين فإنه بعيد عن منازع الملك ، وإن كان قيامها بعز القلب فقط . فالبداءة التي بها يحصل القلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه ، فإذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداءة والقرب من الناس وسهولة الإذن .

فإذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد بالمجد ، واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحليم مع أوليائه في خواص شئونهم ، لما يكثر حينئذ من بحاشيته فيطلب الانفراد عن العامة ما استطاع ، ويتخذ الإذن باباً على من لا يأمته من أوليائه وأهل دولته ، ويتخذ حاجباً عن الناس يقيمه ببابه لهنة الوظيفة .

ثم إذا استفحل الملك وجاعت مذاهبه ومنازعه اشتحالت خلق صاحب الدولة إلى خلق الملك ، وهي خلق غريبة مضمومة ، يحتاج مباشرها إلى

(١) أي من الملوك .

(٢) هكذا وردت العبارة في جميع النسخ . ولا بد أن يكون قد حدث فيها حذف وتكرار ، والوضع الصحيح العبارة هو ما يلي : فصار لهم حجاب آخر أنص من الحجاب الأول يغني إليهم منه غواصهم من الأولياء ، ويحجب قوته من سواهم من العامة ، والحاجة إلى أموال الناس تشده ، ونطاق الدولة بذلك يزيد ، إلى أن تنمى فانرتبا ويلعب رسمها ويغلبها عليها ، والله أعلم .

الاستبداد من أعقاب ملوكهم ، لما رُكِبَ في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصاً مع الترشيع لذلك وحصول دواحيه ومبادئه .

٤٥ فصل في تقاسم الدولة الواحدة بدولتين

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة التقاسمها . وذلك أن الملك عندما يستفحل ويباغ من أحوال الترف والتعظيم إلى غايته ، ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به ، يأنف حينئذ عن المشاركة ، ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بهلاك من اشتراك به من قوى قرابته المرشحين لمنصبه . فرمى ارباب المساهمون له في ذلك بأنفسهم ونزحوا إلى القاصية ، (واجتمع) ^(١) إليهم من يلحق بهم (في) مثل حالهم من الاختيار والاستتابة . ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضايق ووجع عن القاصية . فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها . ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة ، حتى يقاسم الدولة أو يكاد .

وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً ^(٢) مجتمعاً ، ونطاقها ممتداً في الاتساع ، وعصبية بني همد مناف واحدة غالبية على سائر مضر ، فلم ينض عرق من الخلاف سائر أيامها إلا ما كان من بدعة الخوارج المستعتمين في شأن بدعتهم ، لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ، ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية .

ثم لما خرج الأمر من بني أمية ، واستفحل بنو العباس بالأمر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية

ما يجب فيها ، فلما ذلك إلى الحجاب الثاني ، وصار اسم الحجاب أنصَح به ، وصار بياب الخلفاء قراناً للامامية : دار الخاصة ، ودار العامة ، كما هو مسطور في أخبارهم ^(٣) .

ثم حدث في الدول حجاب ثالث أنصَح من الأولين ، وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة . وذلك أن أهل الدولة وخواض الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب ، وحاولوا الاستبداد عليهم ، فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة (أبيه) ^(٤) وخواض أوليائه ، يوهمه أن في مباشرتهم إيأه خرق حجاب الهيبة ، وفساد قانون الأدب ، ليقطع بذلك لقاء الغير ، ويعوده ملازمة أخلاقه هو ، حتى لا يتبدل به سواه ، إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه ، فيكون هذا الحجاب من دواحيه . وهذا الحجاب لا يقع في الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر ^(٥) ، ويكون دليلاً على هَرَم الدولة ونفاد قوتها . وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم ، لأن القائمين بالدولة يحاولون ذلك بطياعهم عند هَرَم الدولة وذهاب

(١) ذكر فيما سبق أن الحجاب الأول فقط هو الذي كان متبناً في دولة بني أمية وبني العباس . (انظر فقرة والحياة) وأن هذا الحجب كان خصوصاً في الدولة الأموية والعابية من يجب السلطان من العامة ويطلق يابه دولته أو يقتضيه لم حل قدره في موافقته ... وهكذا كانت سائر أيام بني العباس ... أما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحياة لمن يجب السلطان من الخاصة والعامة

والقرر في كتب التاريخ أن الحجاب الثاني والحجاب الثالث لكليهما ذكره قد اتبنا في أواخر الدولة العباسية .

(٢) في جميع النسخ و بطانة أبيه ولا يستقيم به الشيء .

(٣) يقتضيه الفصل الواحد والعشرين من هذا الباب : فصل فيما يرضى في الدول من سحر السلطان والاستبداد عليه .

(١) اقتدرت بما في التسمية و بهونها لا يستقيم للمنى .

(٢) لم يكن كان أمرها متساكاً قوياً .

الغرب لنفسه ، ما بيع جبل أوراس إلى لشمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة حبال المسيلة ، ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطوى واستحدث ملكاً آخر قسماً لملك آل باديس ، وبقي آل باديس بالقنيروان وما إليها ، ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً .

وكذلك دولة الموحدون لا تقلص ظلها لار بإفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنو اسحيا . ثم لا استفحل أمرهم واستولوا على الغاية ، خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكريا يحيى ابن السلطان أبي إسحق لإبراهيم رابع خفائهم ، واستحدث ملكاً ، ببجاية وقسنطينة وما إليها ، أورثه بنيه ، وقسموا به الدولة قسمين ، ثم استولوا على كرسى الحضرة بتونس ، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم .

وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاثة ، وفي غير أحياص الملوك من قومه ، كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس . وملوك العم بالشرق ، وفي ملك صنهاجة بإفريقية : فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون إفريقية ثائر مستقل بأمره كما تقدم ذكره . وكذا حال الجريد والزاب من إفريقية قبيل هذا العهد كما نذكره .

وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها هوارض الهرم بالترف والدعة ، وتقلص ظل الظب فيقسم أحيائها أو من يظلب من رجال دولتها

من القلب والثرف ، وآذنت بالتفليس من القاصية نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس - قاصية دولة الإسلام - فاستحدث بها ملكاً ، واقتطعها عن دولتهم ، وصير الدولة دولتين . ثم نزع لإفريقي إلى المغرب ، وخرج به وقام بأمره . وأثر لبته من بعده البرابرة من أودية ومقيلة وزناتة ، واستولى ناحية للمغربين . ثم ازدادت الدولة تفليساً فاضطرب الأغالب في الامتناع عليهم . ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة ، واستولوا على إفريقية والمغرب ، ثم مصر والشام والحجاز ، وغلبوا على الأندلس ، وقسموا الدولة دولتين أخريين ، وصارت الدولة العربية ثلاث دول : دول بني العباس بمركر العرب ، وأصلهم ومادتهم الإسلام ، ودولة بني أمية المجددين بالأندلس ملكهم القديم وخلائفهم بالشرق ، ودولة البشيين بإفريقية ومصر والشام والحجاز . ولم تزل هذه (الدول) إلى أن كان انقراضها متقارباً أو جميعاً .

وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى : وكان بالقاصية بنو سامان فيها ورثة النهر وخراسان ، والملوية في الديلم وطبرستان ، وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى بغداد والخلفاء . ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك . ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم .

وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وإفريقية ، لا بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور ، خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك

في سلطانه . والنظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها ، لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي .

وربما تكون العصبية قد فُصبت فتكون الأئمة تعرض عن موقعها من النفوس . فإذا أزيلت تلك الأئمة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بلحاظ أوامهم الأئمة ، فتتلوع الدولة بملك الأئمة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر .

وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض دُبالها إعاضة الخمود كما يقع في الدبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إعاضة توهم أنها اشتعال ، وهي انطفاء . فاعتبر ذلك ، ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في أطراد وجوده على ما قدر فيه . وعلِّك أجل كتابه (١) .

٤٧ - فصل في كيفية طروق الخلل للدولة
أهلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما :
فالأول : الشوكة . والعصبية وهو المعبر عنه بالجند ؛
والثاني : المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال . والخلل إذا طرّق الدولة طرقت في هذين الأساسين . فلذلك أول طروق الخلل في الشوكة والعصبية ، ثم نرجع إلى طروقه في المال والعجانية .

١ - وأعلم أن تجهية الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية ، وأنه لا بد من عصبية كبرى جامعة للصنائع مستتبعة لها ، وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة . فاذا

(١) آخر آية ٢٨ من سورة الرعد .

الأمر ، وتعتمد فيها الدول ، والله وليُّ الأوتى ومن عليها .

٤٦ - فصل في أن الهرم إذا نزل بالدولة

لا يرتفع

قد قلّمنا ذكر المواضع المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد ، وبينّا أنها تحدث للدولة بالطبع ، وأنها كلها أمور طبيعية لها . وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني .

والهرم من الأمراض الزمنية التي لا يمكن جوقها ولا ارتفاعها ، لا أنه طبيعي ، والأمور الطبيعية لا تقبل . وقد يئنه كثير من أهل الدول من له بقطعة في السياسة ، فيرى مانزلاً بدولتهم من حواضر الهرم ، ويظن أنه يمكن الارتفاع ، فيأخذ نفسه بتلاق الدولة ، وإصلاح مزاجها من ذلك الهرم وبحسبه أنه لحقتها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم ، وليس كذلك ، فإنها أمور طبيعية للدولة ، والعوائد هي المانعة له من تلافيها والعوائد منزلة طبيعية أخرى ، فإن من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يليسون الحرير والديباچ ، ويقطعون باللحج في السلاح والمراكب ، ويحبسون عن الناس في المجالس والمصلوات ، فلا يمكنه مخالفة صلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزى والاختلاط بالناس ، إذ العوائد حينئذ تنمعه وتقبح عليه مرتكبه .

ولو فعله لرمى بالجنون والوشواس في الخروج عن العوائد دلعة ، وخنق عليه عالبة ذلك وعاقبه

نُفَرَّتْهَا وَسَوَّرَتْهَا (١) وَصَبَرُوا أَجْرَهُ عَلَى الْحَيَاةِ .
وَيَقُولُونَ لذلك ، فقتل الحامية التي تنزل بالأطراف
والثغور . فيقتبسون الرعايا على نفقش (٢) الدعوة
في الأطراف ، ويبادر الخوارج على الدولة من
الأحياس وغيرهم إلى تلك الأطراف ، لا يرجون
حينئذ من حصول غرضهم بمباينة أهل القاصية لهم ،
وأمنهم من وصول الحامية إليهم . ولا يزال ذلك
يتدرج ونطاق الدولة يتضيق حتى يصير الخوارج
في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة . وربما انقسمت
الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثة على قدر قوتها
في الأصل كما قلناه (٣) ، ويقوم بأمرها غير
أهل عصبيتها ، ولكن إذعانا لأهل عصبيتها ولذليهم
المعهود .

واعتبر هذا في دول العرب في الإسلام ، انتهت
أولاً إلى الاندلس والهند والصين . وكان أمر بني
أمية نافذاً في جميع العرب بعصبة بني عبدمناف ،
حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل
عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم
يُرد أمره . ثم تلاشت عصبة بني أمية بما أصابهم
من الترف فانتفروا . وجاء بنو العباس ففُضُوا
أهنة بني هاشم ، وقتلوا الطالبيين وشردوهم ،
فانحلَّت عصبة عبد مناف وتلاشت ، وتجاثر
العرب عليهم ، فاستبد عليهم أهل القاصية مثل

جاءت الدولة طيبةً للملك من الترف وجدع أنوف
أهل العصبة ، كان أول ما يجدع أنوف عشيرته
وقوى قرياه المقاسمين له في اسم الملك . فيستبد
في جدع أنوفهم بما بلغ من سوامهم . ويأخذ الترف
أيضاً أكثر من سوامهم لمكائهم من الملك والجز
والقلب ، فيحيط بهم هاتين وهما : الترف والقهر .
ثم يصير القهر آخراً إلى القتل لا يحصل من رغب
قلوبهم عند رؤوهم الملك لصاحب الأمر ، فيقلب
غيرته منهم إلى الخوف على ملكه ، فيأخذهم
بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا
الكثير منه ، فيهلكون ويقلون وتفسد عصبة
صاحب الدولة منهم ، وهي العصبة الكبرى التي
كانت تجمع بها المصائب وتستبعضها ، فتقتل
عزوتها ، وتضعف شيكيتها ، ويستبدل عنها
بالطاعة (١) من موالى النعمة وصنائع الإحسان ،
ويخذ منهم عصبة . إلا أنها ليست مثل تلك
الشدة الشكيمة ، لفقدان الرحم (٢) لا يجتأ الله
في ذلك . فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار
الطبيعية ، ويحس بذلك أهل المصائب الأخرى ،
فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسراً طبيعياً ،
فيهلكهم صاحب الدولة ، ويتجهم بالقتل واحداً
بعد واحد . ويقال الآخر من أهل الدولة في ذلك
الأول ، مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف
الذي قدمنا . فيستولى عليهم الهلاك بالترف والقتل ،
حتى يخرجوا عن صفة تلك العصبة ، وينسوا

(١) في جميع النسخ « البطالة » باللام ، وهو تعريف واضح .

(٢) انظر لتفصيل ذلك الفصل الثامن من الباب الثاني في أن

العصبة إنما تكون من الاتصال بالنسب وما في سنده

(١) ورويت هذه الجملة مرة في جميع النسخ : قى بفها
« ويغش بزتها وغورتها »

(٢) في جميع النسخ : « على بفش الدعوة » ولعله من
عنا التساع .

(٣) انظر الفصل الخامس والأربعين من هذا الباب .

تتلاقى في ذاتها ، شأن الحرارة الفريزية في الجسد
العاود للغذاء ، إلى أن تنتهي إلى وقتها المقدور .
و « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » (١) ، ولكل دولة أمد .
« واللهُ يقدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » (٢) ، وهو الواحد
القهار .

...

٢ - وأما الخلل الذي يعطرق من جهة المال ،
فأعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية كما مر ،
فيكون خلق الرفق بالرحابا والقصد في النفقات ،
والتخفف عن الأموال ، فتتخلى عن الإيمان في
الخيابة ، والتحلل عن الكيس في جمع الأموال
وحسبان العمال ، ولا داعية حينئذ إلى الإسراف
في النفقة ، فلا تحتاج الدولة إلى كثرة المال . ثم
يحصل الاستيلاء ويعظم ، ويستفحل الملك ،
فيذهب إلى الترف ، ويكثر الإنفاق بسببه ، فتعظم
نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم ، بل
يتعدى ذلك إلى أهل البصر ، ويذهب ذلك إلى
الرياسة في أعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة . ثم
يعظم الترف فيكثر الإسراف في النفقات ، وينتشر
ذلك في الرعية ، لأن الناس على دين ملوكها
وعوائلها . ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس
على أمان البياعات في الأسواق لإقرار الجباية لا
يركز من ترف المدينة الشايع عليهم بالرفق ، ولا
يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده .
ثم تزيد حوادث الترف فلا تفي بها المكوس ، وتكون

بني الألب بإفريقية وأهل الأندلس وغيرهم
وانقسمت الدولة ، ثم هرج بنو إدريس بالمغرب ،
وقام البربر بأهمهم إذعانا للصبيبة التي لهم ،
وأما أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة .

إذا هرج الدعاة آخرًا فيتلعبون على الأطراف
والقاصية ، وتحصل لهم هناك دعوة ولك تنقسم
به الدولة . وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة نقصًا ،
إلى أن ينتهي إلى المركز ، وتضعف البطانة بعد
ذلك بما أخذ منها الترف ، فتهلك وتضمحل
وتضعف الدولة المنقسمة كلها .

وربما طاك أمدًا بعد ذلك فتستغنى عن الصبيبة
بما حصل لها من الصبيبة في نفوس أهل إياتها ،
وهي صبيبة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة
التي لا يعقل أحد من الأجيال ميدأها ولا أوليتها
فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة ، فيستغنى
بذلك عن قوة المصائب ، ويكفي صاحبها ، يحصل
لها في تهديد أمرها ، الأجرة على الحامية من جندي
ومرتزق ، ويعضد ذلك ما وقع في النفوس عامة
من التسليم ، فلا يكاد أحد أن يتصور عصيانًا
أو هروجا إلا وال جهور منكرون عليه مخالفون
له ، فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده .
وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج
والتأزعة لاستحكام صيغة التسليم والانقياد لهم .
فلا تكاد النفوس تحدث سرًا بمخالفة ، ولا يختلج
في ضميرها إنحراف عن الطاعة . فيكون أسلم من
الهرج والانقياس الذي يحدث من المصائب
والعشائر . ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي

(١) آخر الآية ٢٧ من سورة فرقان .

(٢) من الآية ٢٠ من سورة المزمل .

الدولة قد استغفلت في الاستيلاء والقهر لمن تحت
يدها من الرعايا ، فستمد أيديهم إلى جمع المال
من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقد
في بعض الأحوال ، بشبهة أو بغير شبهة . ويكون
الجند في ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما فيها
من القشل والهزم في المصيبة فتتوقع ذلك منهم ،
وتدأى بمكينة الصلابة وكثرة الإنفاق فيهم ،
ولا تجد من ذلك وليعة . ويكون حياة الأموال
في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا بكثرة الجباية
وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من جاههم .
فيؤججه إليهم باحسان الأموال من الجباية ،
ونفسو السامية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة
والجدد ، فتعظم التكببات والمصادرات واحداً واحداً
إلى أن تلعب ثروتهم وتتلقي أحوالهم ، ويفقد
ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم . وإذا اصطلمت
يضمتم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا
سواهم . ويكون الزمن في هذا الطور قد لحق
الشوكة وضعت من الاستيلاء والقهر ، فتصرف
سياسة صاحب الدولة حينئذ إلى مداواة الأمور ببذل
المال ، ويراه أرفع من السيف قلعة غناة ، فتعظم
حاجته إلى الأموال ، زائدة على النفقات وأرزاق
الجند ، ولا يخفى فيما يريد (١) . وعظم الهزم
بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحي ، والدولة
تتحل عراها في كل طور من هذه ، إلى أن تفضى

• • •

٤٨ - فصل في إنساح نطاق الدولة

أولاً إلى نهايته ثم تضيقه طورا بعد طور

إلى فناء الدولة واضمحلالها (١)

قد كان نقدم لنا في فصل الخلافة والملك ،
وهو الثالث من هذه المقدمة ، أن كل دولة لها حصّة
من الممالك والريالات لا تزيد عليها (٢) . واعتبر
ذلك بتوزيع عصابة الدولة على حكمة أقطارها
وجهاتها . فيحس نفع عديم فالطرف الذي انتهى
عنده هو الثغر ، ويحيط بالدولة من سائر جهاتها
كالنطاق . وقد تكون النهاية هي نطاق الدولة
الأولى . وقد يكون أوسع منه إذا كان عدد العصابة
أوفر من الدولة قبلها . وهذا كله عندما تكون الدولة
في شعار البداوة وعشونة البأس . فإذا استغفلت

(١) هذا الفصل هو أحد الفصول التي تزيد بها طبعة باريس من
الطبعات المتداولة في عالم العرب . وقد وضع في طبعة باريس في هذا
هذا الموضع ، أي بعد الفصل السابع والأربعين من هذا الباب وهو
كله مبيت بالنسخة التي مررت في منشورة د . وأن بالتجويد .
هذا ويستفح من الآن فصاعداً حلين القوسين الكبيرين ()
للإشارة إلى الفصول والفقرات التي تزيد بها طبعة باريس وهذه النسخة
الحالية من غيرها من الطبعات والمطبوعات .

(٢) انظر الفصل السابع القرص من هذا الباب . وحقائقه
فصل في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والريالات لا تزيد عليها .

(١) أي لا يخفى ما يراه في تحقيق ما يريد .

وربما اعتزَّ أهل الثُّغُور والأطراف بما يحسون من ضعفِ الدولة وراهم ، فيصيرُون إلى الإستقلالِ والاستيِّدادِ بما في أيديهم من العِمالات ، ويحجزُ صاحبُ الدولة عن حملهم على الجأدة ، فيضيِّق نطاقُ الدولة عما كانت انتهتُ إليه في أولها ، وترجعُ العنايةُ في تدبيرها بنطاقِ دونه ، إلى أن يحدثَ في النطاقِ الثاني ما حدَّث في الأول بعينه من العجزِ والكسلِ في العصاة وقلةِ الأموال والجباية . فيلجِب القائمُ بالدولة إلى تغييرِ القوانين التي كانت عليها سياسةُ الدول من قِبَل الجند والمال والولايات ليجرى حالها على استقامة بتكافؤ الدخل والخروج والحامية والعِمالات وتوزيع الجباية على الأرزاق ، ومقايسة (١) ذلك بأول الدولة في سائر الأحوال . والمفاسدُ مع ذلك متوقعةٌ من كل جهة . فيحدث في هذا الطور من بعد ما حدَّث في الأول من قبل . ويعتبرُ صاحبُ الدولة ما اعتبره الأول ، ويقايس بالوزان (٢) الأول أحوالها الثانية ، يروم دفعَ مفاسدِ الخلل الذي يتجدد في كل طور ، ويأخذ من كل طرف ، حتى يضيِّق نطاقها الآخر إلى نطاقِ دونه كذلك ، ويقعُ فيه ما وقع في الأول . فكل واحد من هؤلاء المثيرين للقوانين قبلهم كلهم منبشون دولةً أخرى ، ومجددون مُلكاً ، حتى تنقرض الدولة ، وتتطاوَل الأمم حولها إلى التغلب عليها وإنشاء دولةً أخرى لهم ، فيقع من ذلك ما قلَّره الله وقوه .

العزُّ والغلب ولوغرت التعمُّ والأرزاق يندورُ الجبايات ، ووزعُ بحرُ الترف والحضارة ، ونشأت الأجيالُ على اعتياد ذلك ، لظقت أخلاقُ الحامية وودت حواشيهم ، وعاد من ذلك إلى نفوسهم هيئاتُ الجبن والكسل بما يعانونه من حَث (١) الحضارة المودى إلى الاتيلاخ لامن شعار اليأس والرجولية مغلوقة الهداية وعشوتتها وبأخطم العز بالتطاول إلى الرياسة والتنازع عليها . فيفيض إلى قتل بعضهم بعضهم ، ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يودى إلى قتل أكابرهم وإهلاك رؤسائهم . فتفقدُ الأمراء والكبراء ، ويكثرُ التابع والمحموس ، فيقلُّ (٢) ذلك من حدِّ الدولة ، ويكسر من شوكتها ، ويقع الخللُ الأول في الدولة ، وهو الذي من جهة الجند والحامية كما تقدم . ويساق ذلك السرَّ في التفقات بما يعثرهم من أبهة العز ، وتجاوز الحدود بالذخ ، بالمناخاة في العاجم والملابس ، وتشبيد القصور واستحادة السلاح وأرتباط الخيول ، فيقتصر دخل الدولة حينئذ عن (٣) خرجها ، ويغرق الخللُ الثاني في الدولة وهو الذي من جهة المال والجباية . ويحصل العجز والانتقاص بوجود الخللين . وربما تنافس رؤسواهم ، فتنازعوا وحجزوا عن مغالبة المجاورين والمتنازعين ومدافعتهم .

(١) حثت عشتا من باب تيب إذا كان فيه لين وتكرس .

وفي طيبة باريس « حث » بالخاء المهملة ، وهو تحريف .

(٢) في طيبة باريس « يقل » بالقاف ، وهو تحريف . وفي الجمهورية : « يقل ذلك من حدود الدولة » وهو معنى محتمل .

(٣) في طيبة باريس : « ويقصر دخل الدولة من خرجها » .

وفي الجمهورية : « ويقصر دخل الدولة من خرجها » وكتلتها للقتل على تحريف .

(١) « قايست جاريته في القياس » وقايست بين الأمرين

قوت ، بين المقارنة بينهما .

(٢) في القاموس : وأزله مزازقة ووزانا عادله وقايته وحلفاه .

العرب إلى أصبهان وفارس والبحرين . وأقامت الدولة كذلك بعض الشيء إلى انقراض أمر الخلفاء على يد هؤلاء بن طولي ابن دوشى خان ملك التتر والمغل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ماكان في أيديهم مع ممالك الإسلام .

وهكذا يتضابق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها الأول . ولا يزال طوراً بعد طور إلى أن تنقرض الدولة . واعتبر ذلك في كل دولة عظمت أو صغرت . فهكذا سنة الله في الدول ، إلى أن يأتي مقلد الله من الفناء على خلقه . و «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» (١) .

٤٩ - فصل في حدوث الدولة وتجددها

كيف يقع

اعلم أن نشأة الدولة ويدايتها إذا أخلت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون على نوعين :

إما بأن يستبد ولاية الأعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلص ظلها عنهم ، فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه ، يزده عنه أبنائه أو مواليه ، ويستجمل لهم الملك بالترجيح ، وربما يزدهمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ، ويتنازعون في الاستئثار به ، ويطلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه ، وينتزع ما في يده ، كما وقع في دولة بني العباس حين أخلت دولتهم في الهرم ، وتقلص ظلها عن القاصية ، واستبد بنو سامان

واعتبر ذلك في الدولة الإسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتطُّب على الأمم ، ثم تزايد الحامية وتكاثر عديم بما نخولوه من الثم والأرزاق إلى أن انقرض أمر بني أمية وغلب بنو العباس . ثم تزايد الترف ، ونشأت الحضارة ، وطرق الخل ، فضاقت النطاق من الأندلس والمغرب بحدوث الدولة الأموية المروانية والملوية ، واقتطعوا ذنبك الثخين عن نطاقها ، إلى أن وقع الخلاف بين بني الرشيد ، وظهر دعاة الطوية في كل جانب ، وتمهدت لهم دول ، ثم قتل المتوكل ، واستبد الأمراء على الظفاه وحجروهم ، واستقل الولاة بالولايات في الأطراف ، وانقطع الخراج منها ، وتزايد الترف . وجاء المتعبد فغير قوانين الدولة إلى قانون آخر من السياسة أقطع (١) فيه ولاية الأطراف ما غلبوا عليه ، مثل بني سامان وزاء النهر ، وبني طاهر المراق وغراسان ، وبني الصفار السند وفارس ، وبني طولون مصر ، وبني الأغلب إفريقية إلى أن استقر أمر العرب وغلب العجم ، واستبد بنو بويه والقيلم بدولة الإسلام وحجروا الخلافة ، وبقي بنو سامان في استيادهم وراء النهر ، وتناولوا الفاطميون من المغرب إلى مصر والشام فملكوه .

ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الإسلام ، وأبقوا الخلفاء في حجرهم ، إلى أن ثلاثت دولهم . واستبد الخلفاء منذ عهد الناصر في نطاق أضيق من هالة القمر وهو عراق

(١) قرة من الآية (٨٨) من سورة القصص .

(١) أول من ١١٧ من الجزء الثاني من طبة باريس .

للدولة في الأكثر كما قدمناه ، لأن قصاراهم القنوع بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم ، والنوع الثاني نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة ، لأن قوتهم وافية بها ، فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفاه ^(١) ذلك وواف به . فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكرر وتتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة . والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع كما قدمناه بأمور نفسانية وهيمية ، وإن كان العدد والسلاح وصدق القول كفيلاً به لكنه قاصر مع تلك الأمور الوهمية كما مر ^(٢) ، ولذلك كان الخداع من أنفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به ، وفي الحديث : « الحرب خدعة » .

والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع . فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستقرة ، ويكثر ^(٣) من ممتاعه وأهل شوكته ، وإن كان الأقربون من بطانته على بصيرة في طاعته وموازرته ، إلا أن الآخرين أكثر ، وقد داخلهم الفضل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة ، فيحصل بعض الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستقرة يقاوم صاحب الدولة المستقرة . فيرجع

بما وراء الدهر ، ويدعو حتمًا بل المصير والشام ، وينو طولون مصر ، وكما وقع بالدولة الأموية بالأندلس ، والمتفرق ملكها في الطوائف الذين كانوا ولاتها في الأحوال ، وانقسمت دولاً وملوكاً أو دولها من يعلمهم من قربتهم أو مواليهم . وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب ، لأنهم مستقرون في رياساتهم ، ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب ، وإنما الدولة أدركها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية ، وعجزت عن الوصول إليها .

والنوع الثاني بأن يخرج عن الدولة خارج من يجاورها من الأمم والقبائل إما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه ، أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبيراً في قومه قد استفحل أمره فيسبواهم إلى الملك ، وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة ، وما نزل بها من الهرم . فيتحين له ولقومه الاستيلاء عليها ويجارسونها بالمطالبة إلى أن يظفروا بها ويتزنون أمرها ^(١) كما يتبين . الله سبحانه وتعالى أعلم .

٥٠ - فصل في أن الدولة المستقرة

إنما تستولى على الدولة المستقرة بالمطالبة لا بالمناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان : نوع من ولاية الأطراف إذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها ، وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة

(١) في بعض النسخ « ويرفون أمرها » ، من رفا الترواح أصله كما في القاموس ولعل الكلمة محرفة عن « يرفون » .

(١) بنى : الكفه .

(٢) أنظر الفصل السابع والثلاثين من هذا الباب ، وهما : فصل في الحروب ومطالب الأمم في قوتها .

(٣) في جميع النسخ « ويكثر » ، بالثاء . وهو غير عريف . والمقصود أن ذلك يكسر منهم ويضعف عزائمهم .

من هذه المطالبة ويطلبهم في الاستيلاء عليها ،
فتتمكن المهادنة بين أهل الدولتين سرّاً وجهراً ،
ولا يصل إلى أهل الدولة المستقرة خبرٌ من أهل
الدولة المستقرة يصيبون منه فِرّةً باطناً وظاهراً ،
لاتقطاع المهادنة بين الدولتين ، فيقيمون على
المطالبة وهم في إحتجام ، ويتكئون (١) عن المناجزة
حتى يأخذ الله بزوال الدولة المستقرة ، وقدّاهم بها
ووفور الخلل في جميع جهاتها ، ويضع لأهل
الدولة المستقرة مع الأيام ما كان يخفى منها ، من
قهرها وتلاشيها ، وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من
أعمالها ونقصوه من أطرافها ، فتنبهت منهم
يداً واحدة للمناجزة ، ويلهب ما كان يكت في
جرائعهم من التوهمات ، وتنتهي المطولة إلى حلها ،
ويقع الاستيلاء آخراً بالمعالجة .

واعتبر ذلك في دولة بني العبّاس حين ظهورها ،
حين قام الشيعة بخراسان بعد انقضاء الدهوة
واستباحهم على المطالبة صغر سنين أو تزيد . وحينئذ
تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الأموية .

وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دهرم
في الديلم : كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا
على تلك الناحية . ثم لما انقضى أمر العلوية وسما
التبلم إلى ملك فارس والعراقيين ، فمكثوا سنين
كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا أصهبان ثم استولوا
على الخليفة ببغداد .

وكذا البُيْهَديون أقام دأيتهم بالمغرب أبو حنّـد
الله الشّيعي بيني كتامة من قبائل البربر عشر سنين

(١) يمتنون من القتال ، ويقعون منه .

إلى الصبر والمطالبة ، حتى يفضح قهرُ الدولة
المستقرة ، فيضمحل عقائد التسليم لها من قومه ،
وتنبعث منهم الهم لصديق المطالبة معه ، فيقع
الظفر والاستيلاء .

وأيضاً فالدولة المستقرة كثيرة الرزق باستحكام
لهم من الملك ، وتوسع من النعم والذلت ،
واختصوا به دون غيرهم من أموال الجبالة ، فيكثر
عندهم ارتباط الخوّل واستعباد الأسلية ، وتعلم
فيهم الأبهة الملكية ، ويفيض الطالك بينهم من
ملوكهم اختياراً واضطراً ، فهريون بذلك كله
علوهم . وأهل الدولة المستقرة يعزل عن ذلك ،
لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة (١)
(التي يفتقد معها الاستعداد من ذلك) (٢) فيسبق
إلى قلوبهم أوهامُ الرّعب بما يبلغهم من أحوال
الدولة المستقرة (وكثرة استمدادها) (٣) ،
ويجمعون عن قتالهم من أجل ملك يصير أمرهم
إلى المطالبة حتى تأخذ المستقرة مأخذاً من الهرم ،
ويستحكم الخلل فيها في التصبّية والجبالية ،
فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستقرة فرصته
في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة . سنة الله
في حياته .

وأيضاً فأهل الدولة المستقرة كلهم مهابتون
للدولة المستقرة بقسائهم وهوانهم وفي سائر
متابعيهم ، ثم هم مفاهيمون لهم ومتأهلون بما وقع

(١) الخصاصة بالفتح الفقر والخلّة .

(٢) ما بين القومين ساطع من جميع الخلق ومعه في
الجمهورية .

استولوا عليه . ثم هرج الموحدون بدعوتهم على
الثروة فمكثوا نحواً من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى
استولوا على كرميهم بمراكش .

وكان بنو مريم من زفانة هرجوا على الموحدين
فمكثوا يطاولونهم نحواً من ثلاثين سنة ، واستولوا
على فاس واقتطعوا وأعمالها من ملكهم . ثم أقاموا
في محاربتهم ثلاثين أخرى ، حتى استولوا على
كرميهم بمراكش . حسبنا لذكر ذلك كله في
تواريخ هذه الدول .

فهكذا حال الدول المستقلة مع المستقرة في
الطالبة والمطالمة . سنة الله في حياته ، ولن نجد
لسنة الله تبديلاً .

ولا يخفى ذلك عما وقع في الفتوحات الإسلامية
وكيف كان استيلاهم على فارس والروم ثلاث
أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأعلم
أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله
عليه وسلم ، سرها استيأة المسلمين في جهاد علومهم
استبصاراً ^(١) بالإيمان ، وما أوقع الله في قلوب
علومهم من الرعب والتخاذل . فكان ذلك كله هارفاً
للعادة المقررة في مطولة الدول المستقلة للمستقرة .
وإذا كان ذلك هارفاً فهو من معجزات نبينا ،
صلوات الله عليه ، المتعارف ظهورها في اللغة
الإسلامية . وللمعجزات لا يقاس عليها الأمور
العادية ، ولا يخفى بها . والله سبحانه وتعالى
علم ، وبه التوفيق .

وزيد ، يطاول بنو الألفب بإفريقية حتى ظفروهم
واستولوا على المغرب كله . وسَمَوْا إلى ملك مصر ،
فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها بجهاز
إليها الأساكر والأساطيل في كل وقت ويحيى الملة
لداقتهم بها وبحراً من بغداد والشام ، وملكوا
الإسكندرية والقيوم والصعيد ، وفخضت دعوتهم
من هناك إلى الحجاز وأبيهم بالبحرين . ثم فازل
قائمتهم جوهر الكاتب بمساركة مدينة مصر واستولى
عليها ، واقتلع دولة بنو طنج ^(٢) من أصولها ،
ولمعهظ القاهرة ، فجاء الخليفة بعد - المعز النيق
الله - فنزلها لتسعين سنة أو نحوها منذ استيلائهم
على الإسكندرية ^(٣) .

وكانت السلجوقية ملوك الترك لا استولوا على
بنو سامان ، وأجلاؤا من وراء النهر مكثوا نحواً من
من ثلاثين سنة ، يطاولون بنو سبكتكين بخراسان
حتى استولوا على دولته . ثم زحفوا إلى بغداد
فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من
الدهر .

وكان التتر من بعدهم هرجوا من المفازة عام
مسيح عشرة وسبائة فلم يتم لهم الاستيلاء إلا بعد
أربعين سنة .

وكان أهل المغرب هرج به الرباطون من
لتمتونة على ملوكهم من مغراوة ، فطاولوهم سنين ثم

(١) هي دولة الأعشى التي كان أول ملوكها محمد بن طنج
الأعشى . وقد ظلت هذه الدولة تحكم مصر نحو من ثلاثين سنة
(من ٨٢٢٢ إلى ٨٣٥٨) .

(٢) كان طاج سنة ٨٣٥٨ م ولم يتم فقاطعين الاستيلاء على
مصر إلا سنة ٨٣٥٨ م أنظر : الكتبي ، وأما الحسن . والمقرئ .
وابن الأثير .

(١) في جميع النسخ : استبصاراً ، وهو غريب .

أما المجاعات^١ : فلقبض الناس أيديهم عن القنح في الأكثر ، بحسب ما يقع في آخر الدولة من العثوث في الأموال والجيالات ، أو القبح الواقعة في انتفاض الرعايا وكثرة الخولج لهزم الدولة ، فيقل احتكار الزرع غالباً ، وليس صلاح الزرع وغرقه بمستمع الوجود ، ولا على وقيرة واحدة ، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة^٢ ، والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر ، والزرع والهول والضرع حل نسبته ، إلا أن الناس والقوى في أوقايهم بالاحتكار . فإذا فقد الاحتكار عظم وقوع الناس للمجاعات^٣ ، فغلا الزرع ، وحجز عنه أولوالخصاصة فهلكوا . وكان^(١) بعض السنوات ، والاحتكار مفقود^٤ فغسل الناس الجوع .

وأما كثرة الموتان : فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه ، أو كثرة القتل لاحتلال الدولة فيكر الهرج والقتل ، أو وقوع الوباء . وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمراك لكثرة ما يخالفه من القنح والرطوبات القاسية . وإذا فسد الهواء وهو ذلك الروح الحيواني وملايسه فلعاً فيسرى الفساد إلى مزاجه . فإن كان الفساد قوياً ولحق المرض في الرقة . وهذه هي الطوامين وأمراسها مخصوصة بالرقة . وإن كان الفساد دونه القوي والكثير فيكثر القنح ويتضاعف ، فتكثر الحميات في الأمزجة ومعرض الأبدان وغهلك . وسبب كثرة القنح والرطوبات القاسية في هذا

٥١ - فصل في وفور العمراك آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان^(١) والمجاعات .

أعلم أنه قد تقرر لك فيما سلف^(٢) أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكيتها والاعتدال في إياتها ، إما من الدين إن كانت الدعوة دينية ، أو من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البدوة البيعية للدولة . وإذا كانت الملكة رفيعة محسنة اتيسلت آمال الرعايا ، وانتشطوا للعمراك وأسبابه فتوفر ، ويكثر التناسل . وإذا كان ذلك كله بالتدرج فلما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الأكل . وفي انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي . فيكون حينئذ العمراك في غاية الوفور والناه . ولا تقولن إنه قد مر لك^(٣) أن أواخر الدولة يكون فيها الإجحاف بالرعايا وسوء الملكة ، فذلك صحيح ، ولا يعارض ما قلناه ، لأن الإجحاف وإن حدث حينئذ وقلت الجيالات فلما يظهر أثره في قنقاص العمراك بعد حين ، مع أجل التدرج في الأمور الطبيعية . ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدولة ، والسبب فيه :

(١) الموتان بنتحسين الموت ، وهو ذلك صغر ماتت الأرض موتاً أي حلت من العمارة والسكان .

(٢) في الفصل الرابع والشرين من هذا الباب ، وعرضناه فصل في أن إرمات الله صغر بالملك ومفسد له في الأكثر وفي الفصل الثالث والأربعين من هذا الباب ، وعرضناه . فصل في أن القنح مذكور في كتاب السرائر .

(٣) في الفصل السابع والأربعين من هذا الباب ، وعرضناه . فصل في كيفية طرق الخلل بالعمارة ، وقد مر في ذلك هذه الحقيقة نفسها في الفصل الثالث والأربعين من هذا الباب .

(١) كان ، هذا تامة على حسب ، ر ، بعض ، قائل كان ؛ وجلة ، والاحتكار مفقود ، جملة حالية ، والقرار فيها لعل لا سلطت .

وعقله حتى يستفوا من الحكم رأياً : ويسمى المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك « بالمهنة الفاضلة » ، والقوانين المرافعة في ذلك « بالسياسة المدنية » (١) وليس مرادهم السياسة التي يحتمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة ، فان هذه غير تلك . وهذه المهنة الفاضلة عندنا نادرة أو بعيدة الوقوع ، وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير .

ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون حل وجهين :

أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص . وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة . وقد أخذنا الله تعالى منها في الملة ولهدى الخلافة ، لأن الأحكام الشرعية ثمانية منها في المصالح العامة والخاصة والآداب ، وأحكام الملك مندرجة فيها .

الوجه : الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستيلاء ، وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً . وهذه السياسة التي يحصل عليها أهل الاجتماع التي لساير الملوذ في العالم من مسلم وكافر (٢) : إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم ، فقوانينها إذا مجمعة

كله كقوة العمران ووقوده آخرة الدولة ، لما كان في أولها من حسن الملكة ووقفها وقلة المقوم ، وهو ظاهر . ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن فطرت الخلافة والمفكرين العمران ضروري ، ليكون خروج الهواء يلعب بما يحصل في الهواء من الفساد والتفكر بمخالطة الحيوانات ، ويأتي بالهواء الصحيح ولهذا أيضاً فان الموكان يكون في المدن الموفرة العمران أكثر من غيرها بكثير ، كمصر بالشرق وقاصم بالمغرب . والله يقدر ما يشاء .

٥٢ - فصل في أن العمران البشري

لا بد له من سياسة ينظم بها أمره

اعلم أنه تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري (١) ، وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه ، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من ولاة حاكم يرجعون إليه . وحكمه فيهم : تارة يكون مستقلاً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه وإعالمهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبدؤه ، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بمعرفته بمصالحهم . فالأول يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ، وإمراته نجاة الصاد في الآخرة ، والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط .

وماتسمه من السياسة المنة فليس من هذا الباب ، وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه

(١) الظر في المقدمة الأولى من الكتاب الأول وحواشيها ، والمقدمة الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري .

(١) يغير بذلك حل الأصح إلى آراء الفطرون في كتابه « البهوية » وإلى آراء الفارابي في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » فصول من آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي بقلم د . واني .
(٢) استدل بكلمة د . ركاز ، كلمة « وغيره » ، في طبعها دا الكتاب البناني هامة لقصارى لبنان .

ففرغ لذلك فهكك وحكك وبصره ولا يشظك عنه شاغل ، وإته داس أمرك وملاك شأنك ، وأول ما يوقفك الله عليه . ولكن أول ما تترجم به نفسك وتنسب إليه فعلك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك ، وتوقعها على سنتها ، من أسياخ الضوء لها والفتاح ذكر الله عز وجل فيها وورث في قرارك ، وعمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصرف فيه رأيك ونيتك ، وأحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك ، وآداب عليها ، فإنها كما قال الله عز وجل : « تَنفِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » (١) .

ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمناجاة على خلافه ، واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده . وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتوقاه ، ويلزم ما أنزل الله عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه ، وأتيتام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قم فيه بالحق لله عز وجل . ولا تحيلن عن العدل ليا أحببت أو كرهت قريب من الناس أو لبعيد .

هو آثر الفقه وأهله ، والدين وحسنه ، وكتاب الله عز وجل والعاملين به ، فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه في الدين ، والطلب له ، والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل . فإنه الدليل على الخير ، كله ، والقابل إليه والأمر به ، والتأني عن المعاصي والميقات

من أحكام شرعية ، وآداب خلقية ، وقوانين في الإجماع الطبيعية ، وأشياء من مراعاة الشوكية والعصبية ضرورية ، والاعتناء فيها بالشرع أولا ، ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم ، ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه للمأمون الرقة ومصر وما بينهما . فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية ، والسياسة الشرعية والمלוكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة . ونص الكتاب :

« يسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وحشوته ، ومراقبته عز وجل ، ومزايته (١) شخطه . واحفظ رعيته في الليل والنهار . والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومشكوك عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصيك من الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه . فإن الله سبحانه قد أحسن إليك وأوجب الزادة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وأزلك العدل فيهم ، والقيام بحقه وحلوه عليهم ، واللب منهم ، والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم ، والأمن لسرهم ، وإدخال الراحم عليهم . ومزاجك بما فرض عليك ، وموقفك عليه ، وسائلك عنه ، ومعيك عليه بما قدمت وأخرت .

(١)قرة من آية ٥٤ من سورة التوبة

(١) من الإجماع

كلها . ومع عوفيتي الله عز وجل يزكّاد المرء معرفة وإجلالاً له وتركاً للدرجات المأني في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوفيق لأمره والهيبة لسلطانك ، والأنسنة بك والثقة بكذلك .

وعليك بالاعتصام في الأمور كلها فليس شيء أبين نفعاً ، ولا أخصّ أمناً . ولا أجمع فضلاً منه ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائل إلى السعادة ، وقوام الدين والسنة الهادية بالاعتصام قائمه في دنياه كلها .

ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنة المعروفة ومعاليم الرشد والإحسان ، والاستعانة من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاة ، ومرافقة أولياء الله في حلق كرامته . وأعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويحصى من اللّٰتوب ، وأنت لك لى فحوط . نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه ، فإليه وأفتد به تنمّ أمورك وتزد مقبولتك وقصلح عامتك وخاصتك . وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقيم لك رعيته ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستديم به النعمة عليك .

«وأخلص فيك في جميع هذا ، ونفرد بتقويم نفيلك نفرد من يعلم أنه مشلول عما صنع ، وسجوى بما أحسن ، ومؤلف بما أساء . فإن الله عز وجل جعل الدين حرزاً وعزاً ، ورفع من اتبعه وعزّه .»

«وأسلك بمن توسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى . وأقيم حنود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تنهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفريطك في ذلك ملبس قد عليك حسن ظنك . واعتزم على أمرك في ذلك بالسنة المعروفة ، وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك .»

«وإذا عاهدت عهداً فأوف به ، وإذا وعدت الخير فأتجزه . وأقبل الحسنة وأدفع بها . واخض عن حبيب كل نى حبيب من رعيته . وأشد

ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنة المعروفة ومعاليم الرشد والإحسان ، والاستعانة من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاة ، ومرافقة أولياء الله في حلق كرامته . وأعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويحصى من اللّٰتوب ، وأنت لك لى فحوط . نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه ، فإليه وأفتد به تنمّ أمورك وتزد مقبولتك وقصلح عامتك وخاصتك . وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقيم لك رعيته ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستديم به النعمة عليك .

«ولا تهين أحداً من الناس فيما توليه من حيلك قبل أن تكثف أمره ، فإن إيقاع التهم بالبراءة والظنون السيئة بهم آثم . فاجسل من شاكك حسن الظن بأصحابك ، وأطرد عنه سوء الظن بهم ، وارفضه يئسك ذلك على استطاعتهم ورياستهم . ولا تتخللن حو الله

الرحمة ، وعبارة ببلادهم والتفتق لأموهم ، والحفظ للمعاش ، والإعانة للمعروف .

« وأعلم أن الأموال إذا اكتنزت وأخبرت في الخزائن لا تنمو ، وإذا كانت في صلاح الرحمة وإعطاء حقوقهم وكف الأفة عنهم نمت وركبت ، وصلحت بها العامة ، وترتبت بها الولاية ، وطاب بها الزمان ، واعتقد فيها العز والمنفعة . فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عبادة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف من ذلك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرأت النعمة لك ، واستوجبك المزيد من الله تعالى ، وكنت بذلك على جباية أموال رعيك وخراجك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عليك وإحسانك أشكر لطاعتك . وطب نفساً بكل ما أردت ، وأجهد نفسك فيما حدث لك في هذا الباب ، وليعظم حقدك فيه . ولما بقي من المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حق . وأعرف للشاركين حقهم وأنبيهم عليه . وإياك أن تنسبك الدنيا وغرورها حول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك ، فإن التهاون يورث التفريط ، والتفريط يورث البوار . وليكن حملك لله عز وجل وفيه ، وأرج الثواب منه ، فإن الله سبحانه قد أسبح عليك فضله . واعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يزدك الله خيراً وإحساناً فإن الله عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين .

« ولا تحزن قلباً ، ولا تخالف حسناً ،

يسألك عن قول الكلب والثور ، وايقض أهل النعمة ، فإن أول فساد أمورك في عاجلها وأجلها ، تقريب الكدوب والجسارة على الكذب ، لأن الكلب رأس المائم ، والثور والنعمة خاتمها ، لأن النعمة لا يسلم صاحبها ، وقالها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر . وأحب أهل الصلاح والصدق ، وأجر الأشراف بالحق ، وأجر الضعفاء وجيل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره ، وألتص فيه ثوابه والدار الآخرة . واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنها وأيك ، وأظهر براحتك من ذلك لرعيك . وأنجم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى . وأملك نفسك عند الغضب ، وآثر الحلم والوقار ، وإياك والحدة والطيش والثور فيما أنت بسبيله .

« وإياك أن تقول أنا مسلط ، أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله عز وجل . وأخلص لله وحده النية فيه واليقين به . وأعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزع عن من يشاء . ولن تجد تغير النعمة وحلول النقص إلى أحد أسرع منه إلى جهالة النعمة من أصحاب السلطان ، والميسوط لهم في الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله .

ودع عنك شره نفسك ولصكن ذماتك وكنوزك التي تذهب وتكثر البر والتقوى ، واستصلاح

طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم في قبيلك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد ، فأعده لنفسك خلقاً وأرض به عملاً وملجأ . وتفقد الجنة في ذوايبنهم ومكائيلهم وأجر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معايشهم ، يُثيب الله عز وجل بذلك فاقتهم ، فيقوى لك أمرهم ، وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً . وحسب رضى السلطان من السعادة أن يكون على جنبه وريحته ذا رحمة في عدله وعطيته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته . فزابل مكروه أحد البابين باستشعار فضل الباب الآخر ، ولزوم العمل به ، تلقى إن شاء الله تعالى به نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً .

وأعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس فوقه شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذي تعدل عليه أحوال الناس في الأرض . وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية وتؤمن السبل ، وينتصف المظلوم ، وتأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدّى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقم الدين ، ويجرى السنن والشرائع في مجاريها . واشتد في أمر الله عز وجل . وتورع عن التطف^(١) . وأمضي لإقامة الحدود . وألقل المجلة ، وأبعد عن الضجر والقلق ، وأقنع بالقسم ، وأنتع بتجربتك ، وأنتبه في صحتك ، واسدّد في منطقتك ، وأنصف الخصم ، وقض

(١) في القاموس : تلف كتحرج وحى نطقاً ونطقاً وتلفظ بيب ، واتهم بريئة ، وقصد : أي ابتعد عن كل مواطن هروب والشبهات .

ولا ترحمن عاجراً ، ولا تصلح كخوراً ولا تكافئن عدواً ، ولا تصدغن غلاماً ، ولا تثنن غلاماً ، ولا تواليين فاسقاً ، ولا تبيعن غواياً ، ولا تحملن مرأياً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تردن سائلاً فقيراً ، ولا تحسنن باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكاً ، ولا تظفن وعداً ، ولا تزهوّن فخراً ، ولا تظهرن غضباً ، ولا تباينن رجاء ، ولا تمشين رحماً ، ولا تزكّين سفيهاً ، ولا تفرطن في طلب الآخرة ، ولا ترفعن للثام عيناً ، ولا تغصن عن ظالم ربه^١ منه أو محابة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا .

وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة . ولا تدخلن في مشورتك أهل الرقة والبخل ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضرورهم أكثر من نفهم .

وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيته من الشح . وأعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطيّة ، وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلاً^١ . فإن رعيته تعبد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم . ووال من صالحك من أوليائك بالإفضال عليهم وحسن العطيّة لهم واجتنب الشح ، وأعلم أنه أول ما حصى الإنسان به ربه ، وأن العاصي بمنزلة الخزي ، وهو قول الله عز وجل : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون^(١) » . فسهل

(١) آية ١٩ من سورة النمل .

لك فيما تقلدت وأُستد إليك ، فلا يهلك
عنه شغل ولا يصرفك عنه صارت . فإليك مني
آثرته وقمت فيه بالواجب استدحيته به زيادة
التعنة من ربك ، وحسن الأخذولة في عملك ،
واستجرت به المحبة من رحمتك ، وأعنت على
الصلاح ، فترت الخيرات ببيلك ، وفشت
العمارة بناجيتك ، وظهر الجنب في كورك (١)
(٢) ، وكثر هراجك وتوفرت أموالك ، وقويت
بذلك على اوتياض جنك ، وإرضاء العامة بالانفا
الطاه ليهن من نفسك ، وكنت محمودة السياسة
مرضى العذل في ذلك عند عتوك ، وكنت في
أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعُدَّة . فبالسي
فيها ولا تقدم عليها شيئا نحمد عاقبة أمرك إن
شاء الله تعالى .

واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك
خبر عمالك ويكتب إليك بيبوم وأصاليهم .
حتى كلك مع كل عامل في عمله معلما لأموره
كلها . وإذا أردت أن تعلمهم بلأمر فانظر في حواقب
ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية
ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأنشئه ،
ولا فتوق عنه ، وراجع أهل البصر والعلم به ،
ثم خذ فيه عُدته ، فإنه ربما نظر للرجل في أمره
وقد أناة على ما يهوى ، فأفواه ذلك وأصحبته ،
فإن لم ينظر في حواقبه أهلكه ، ونقض عليه أمره .
فاستعمل الحزم في كل ما أردت وبأثره بعد حوث

عند الشبهة ، وأبلغ في الحجة ، ولا يهلك في
أحد من رحمتك محابة ولا مجاملة ولا لومة لائم ،
وتنتج ، وراقب ، وانظر ، وتفكر ، وتقدر ،
واخير ، وتواضع لربك ، وارفق بجميع الرعية ،
وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك
دم ، فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم ،
(فإياك) (١) انتهازا لها بغير حقها .

« وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه
الرعية ، وجعله الله للإسلام حزا ورفعة ، ولأهله
توسعة ومنعة ، ولعدوه كبتا وغيظا ، ولأهل الكفر
من معاديبهم ذلا وصغارا ، فوزعه بين أصحابه
بالحق والعدل والتسوية والعصوم ، ولا تدفن
شيئا منه عن شريف لشرفه . ولا عن غنى لغناه ،
عن كاتيب لك ، ولا عن أحد من خاصتك ولا
حاشيتك ، ولا تاطعن منه فوق الاحتمال له .
ولا تكلف أمرا فيه شطط . واحمل الناس كلهم
على أمر الحق ، فإن ذلك أجمع لألقتيم والزم
لرضاء العامة » .

« واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا
وراعيا . وإنما سعى أهل عملك رعيته لأنك
راعيهم وقيهم ، فخذ منهم ما أعطوك من عهدهم (٢)
ونقله في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم .
واستعمل عليهم أولى الرأي والتدبير والتجربة
والخبرة بالعلم والعدل والسياسة والصفاء . ووسع
عليهم في الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة

(١) الكلمة بين القوسين سابقة عن جميع النسخ . وقد أجتناها
لفهم العبارة .

(٢) على المال ، ما يفضل من النفقة .

(١) في النسخة : الكورة ، المكية ، والصنع وجسه كورد .

به بركةً وزيادةً . وأجبر للأغنياء^(١) من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأحكامه في الجرائد على غيرهم . وانصب لمؤلفي المسلمين ثوراً تلويهم وقواماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأحضانهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال .

« وأعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيتهم لم يرضهم ذلك ولم تطيب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولائهم ، طمناً في نيل الزيادة وفصل الرفق بهم . وربما تبرم المتصفح لأموار الناس لكثرة ما يرد عليه ، ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به من مؤونة ومشقة ، وليس من يرغب في العذل ويعرف محاسن أموره في القابل وفصل ثواب الآجل كالذي يستقبل ما يقر به من الله تعالى وتلتئم به رحمته . »

« وأخبر الإذن للناس عليك وأجرهم وجهك ، وسكن لهم حوائسك^(٢) وانخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرتك ، ولين لهم في المسألة والنطق ، وأعطف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسخاء وطيب نفس والتاب للصنيعة والأجر من غير تكدير ولا احتينان ، فإن العطية على ذلك تجارة مريحة إن شاء الله تعالى . »

« واعتبر بما قرى من أموار الدنيا ومن مَنى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة . »

الله عز وجل بالقوة . وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك . »

« وأفزع من عمل يومك ولا تؤخره لندك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لعد أموراً وحوايد تنهيك عن عمل يومك الذي أخرت . واعلم أن اليوم إذا مضي ذهب بما فيه . فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشكلك ذلك حتى تعرض منه . وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرخت بدنك ونفسك ، وجمعت أمر سلطانك . »

« وأنظر أحرار الناس وذوي الفضل منهم ممن يلبت صفاء طويبتهم ، وشهدت موثقتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك ، فاستخلصهم دخلت عليهم الحاجة واحتمل موثقتهم . وأصلح حالها ، حتى لا يجدوا لخطتهم منافراً^(٣) . وأفرّد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك ، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فسل عنه أحق^(٤) مسألة وكل بأمثاله أهل الصلاح في رحمتك ، وثرهم برفع حوائجهم وسبلالهم^(٥) إليك لتتظر فيما يصلح الله به أمرهم . وتعاهد ذوي البأساء ويتعاضدوا وأراذلهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعز الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشتهم ، ويرزقك

(١) من معالي المنفعة المانعة (من القلوس) . وهذا المعنى هو المقصود في هذه العبارة . أي حتى لا يجدوا من يعاملهم عليهم بسبب فقرهم .

(٢) يعني : أهم يأمره ويأمره في حاجته .

(٣) يعني هنا : الحاجة والفتور والخصاصة .

(١) في القلوس : الأصراء ، جمع عرير وهو الذاهب البصر وفي بعض النسخ : الأبراء .

(٢) في بعض النسخ : « وسكن حراسك » أي اجعلهم حاكبين حتى يدخل عليك من يبره لقلبك .

سيرتك وأفضل رغبتك ما كان الله عز وجل رعا ،
ولبنة نظاما ، ولأهله رعا ونمكنا ، وللملة والامة
عدلا وصلاحا . وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن
حورك وتوفيقك ورشدك وكلامك والسلام .

وحدث الأخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر
وشاع أمره أعجب به الناس واتصل بالمؤمن فلما
قرئ عليه قال :

ما أبهى أبو العلي - يعني طاهرا - شيئا من أمور
الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وصلاح
الملوك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقوم
الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به .

ثم أمر المؤمن فكتب به إلى جميع الشمال في
النواحي ليقبلوا به ، ويحفظوا بما فيه ، هذا أحسن
ما وقفت عليه في هذه السياسة والله أعلم .

٥٣ - في أمر القاضي وما يلحقه إليه الناس
في شأنه وكشف الظلم عن ذلك

أعلم أن للجمهور بين الكافة من أهل الإسلام
على عمر الأصحاب ، أنه لا بد في آخر الزمان من
ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ، ويظهر
العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولون على الممالك
الإسلامية ، ويسمى بالهدي ، ويكون خروج
النجال وما بعده من أشرار الساحة - الباقية في
الصحيح - على أنه ، وأن حتى ينزل من بعده
فيعدل السجال ، أو ينزل معه فيساعده
على قتله ، ويأتي بالهدي في صلاته ويحجبون
في هذا الشأن بأحاديث خرجها الأئمة وتكلم فيها

« ولم اعصم في أحوالك كلها بالله سبحانه
وتعالى ، والوقوف عند محبتة والعمل بشريعته
وسنته ، وبإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق
ذلك وخالفه ودعا إلى سخطه الله عز وجل . »

« واعرف ما يجمع عمالك من الأموال ، وما
ينفقون منها . ولا تجمع حراما ، ولا تنفق إسرافا ،
« وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم
وليكن هوالك اتباع السنن وإقامتها ، وإبشار مكارم
الأخلاق ومعالها . وليكن أكرم محيلاك ومخالصتك
عليك من إذا رأى حياء لم تمنعه هيبتك من إنهاه
فذلك إليك في سفر ، وإعلايك بما فيه من النقص ،
فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك . »

« وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابتك
لوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل فيه
بكتبه ومأمره وما جده من خواتج عمال وأموار
الدولة وحيثك . ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك
سمك وبصرك وفهمك وحقك ، وكرر النظر فيه
والدبر له ، فما كان موافقا للحق والحزم فأمضه ،
واسخر الله عز وجل فيه ، وما كان مخالفا لذلك
فاصره إلى المسألة عنه ، والتفت منه . »

ولا تمنن على رعيك ولا غيرهم بمعرف
لوقتة إليهم . ولا تقبل من أحد إلا الأوفاء والاستقامة
والعون في أمور المسلمين ، ولا تضمن المعروف إلا
على ذلك .

« وتفهم كتابك إليك وأمين النظر فيه والعمل
به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخبره ، فإن
الله عز وجل مع الصالح وأهله . ولكن أعظم

فقد نجد مجالا للكلام في أسانيدنا بما نقل عن
عن أئمة الحديث في ذلك .

ولقد توغل أبو بكر بن أبي شيعة ، على ما
نقل السهيلي عنه ، في جمعه للأحاديث الواردة
في المهدى فقال : ومن أقرها إسنادا ما ذكره
أبو بكر الإسكافي في فوائد الأخبار ، مسندا إلى
مالك بن أنس عن محمد بن المنكر عن جابر ،
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
كُتِبَ بالمهدى فقد كثر ومن كُتِبَ باللسان فقد
كثر » (١) . وقال في طلوع الشمس من مغربها
مثل ذلك فيها أحسب . وحسبك هذا غلوا . والله
أعلم بصحة طريقة إلى مالك بن أنس . على أن أبا
بكر الإسكافي حنطهم منهم وضاع (٢) .

وأما الترمذي فخرج هو وأبو داود بسنديهما
إلى ابن عباس عن طريق حاصم بن أبي النجود أحد
القراء السبعة إلى زید بن حُبَيْش عن عبد الله بن
مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْ لَمْ يَبْقَ
مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمَ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ
اللَّهُ فِيهِ رَجُلًا مَنَى أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي ،
وَأَسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي » .. هذا لفظ أبي دؤاد وسكت
عليه . وقال في رسالته المشهورة : « إن ما سكت عليه
في كتابه فهو صالح » . ولفظه الترمذي : « لا
تُحِبُّ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي
يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي » ، وفي لفظ آخر : « حَتَّى يَكُنْ
رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي » وكلاهما حديث حسن صحيح

المذكورون لذلك ، وربما عارضوها ببعض الأخبار .
وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا القاطن طريقة
أخرى ، ونوع من الاستدلال ، وربما يحتملون في
ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائفهم .

ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في
هذا الشأن وما لمنكرين فيها من الطاعن ومالهم في
إنكارهم من المستند ، ثم نتيحه بذكر كلام المتصوفة
ورأيهم ، ليبين لك الصحيح من ذلك إن شاء الله
تعالى . فنقول :

إن جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهدى
منهم الترمذي وأبو داود واليزار وابن ماجة والحاكم
والطبراني وأبو يعلى الموصلي ، وأسندوها إلى
جماعة من الصحابة مثل علي وابن عباس وابن
عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي
سعيد الخدري وأم حبيبة وأم سلمة وتوبان وقرّة
ابن إياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحارث بن
بزّء ، بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره
إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدّم
على التعليل . فاذا وجدنا طعنًا في بعض رجال
الأسانيد بخلّة أو بسوء حفظه أو سوء رأى تطرق
ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها . ولا نقولن :
مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصحيحين (١)
فإن الإجماع قد اتصل في الأئمة على تلقّيهاما بالقبول
والعمل بما فيهما ، وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن
دفع . وليس غير الصحيحين بمثابة في ذلك ،

(١) في بعض النسخ : « ومن كتب بالجهال قد كتب » .

(٢) لم يذكر من وضع الأسانيد واضعها .

(١) يعني : البخاري ومسلم .

مانيها (١) . وقال الذهبي : ثبت في القراعة ، وهو في الحديث دون الثبوت ، صلو ق فهم . وهو حسن الحديث . وإن احتج أحد بأن الشيخين أخرجا له ، فنقول أخرجا له مقرونا بغيره لا أصلا . والله أعلم .

وخرج أبو دواد في الباب عن علي رضي الله عنه من رواية فطر بن خليفة عن القاسم بن أبي برة عن أبي الطفيل عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي علوما عدلا كما ميثت جورا » . وفطر بن خليفة وإن وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم ، إلا أن السبكي قال : حسن الحديث وفيه تشيع قليل . وقال ابن معين مرة : ثقة شيعي . وقال أحمد بن عبد الله ابن يونس : كذا غر على فطر وهو مطروح لا يكتب عنه . وقال مرة : كثر أمر به وأدعه مثل الكلب وقال الدار قطني : لا يحتج به . وقال أبو بكر بن عياش : ما تركت الرواية عنه إلا لسوء مذهبه . وقال الجرجاني : زائف غير ثقة . انتهى .

وخرج أبو داود أيضا بسنده إلى علي رضي الله عنه عن هرون بن المنيرة عن عمر بن أبي قيس ، عن شبيب بن أبي خالد ، عن أبي إسحق السبيعي قال : قال علي ونظر إلى ابنه الحسن : « إن ابني هذا سيد » كما سناه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه

ورواه أيضا من طريق موقفا على أبي هريرة ، وقال الحاكم : رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم . قال : وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما أصلتها من الاحتجاج بأنخبار عاصم ، إذ هو إمام من أئمة المسلمين . انتهى .

إلا أن عاصما قال فيه أحمد بن حنبل : كان رجلا صالحا قارئا للقرآن خيرا ثقة ، والأعمش أحفظ منه . وكان شعبة يختار الأعمش عليه في تثبيت الحديث . وقال العجلي : كان يختلف عليه في زر وأبي وائل ، يشير بذلك إلى ضعف روايته منهما . وقال محمد بن سعد : كان ثقة إلا أنه كثير الخطأ في حديثه . وقال يعقوب بن سفيان : في حديثه اضطراب . وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : قلت لأبي إن أبا زرعة يقول : عاصم ثقة ، فقال : ليس محله هذا . وقد تكلم فيه ابن علية فقال : كل من أسسه عاصم سيؤلف الحفظ . وقال أبو حاتم . محله عندي محل الصدق صالح الحديث ، ولم يكن بذلك الحافظ . واختلف فيه قول النسائي . وقال ابن حركات : في حديثه نكرة . وقال أبو جعفر العقيلي : لم يكن فيه إلا سوء الحفظ . وقال الدار قطني : في حفظه شيء . وقال يحيى القطان : ما وجدت رجلا اسمه عاصم إلا وجلته ردى الحفظ . وقال أيضا سمعت شعبة يقول : حدثنا عاصم بن أبي النجود وفي الناس

(١) لعل كلمة « الناس » محرفة من كلمة « النفس » ، أي دوى النفس من قاصبه وثقة كلمة ما لها .

ولم يقلكم عليه بمصحيح ولا غيره ، وقد عَصَتْهُ
أبو جعفر الخليل وقال : لا يَتَّخِذُ عَلَى بَن نَغِيل
عليه ، ولا يعرف إلا به .

وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة من رواية
صالح بن الخليل عن صاحب عن أم سلمة قال :
« يكون اختلاف عند موت خليفة ، فيخرج رجل
من أهل المدينة هارباً إلى مكة ، فيأتيه ناس من
أهل مكة فيخرجونه وهو كاره ، فيباعدونه بين
الركن والمقام ، فيبعث إليه بحث من الشام ،
فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة ، فإذا رأى
الناس ذلك أتاه أبدال^(١) أهل الشام ، وعصائب
أهل العراق فيباعدونه . ثم ينشأ رجل من قريش
أخواله كلب فيبعث إليهم بحثاً فيظهرون عليهم
وذلك يبعث كلب والخبيثة لمن لم يشهد غنيمته
كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة
نبيهم صلى الله عليه وسلم ويؤتي الإسلام بجرانه^(٢)
على الأرض فيلبث سبع سنين . وقال بعضهم :
سبع سنين . ثم رواه أبو داود من رواية أبي هليل
عن عبد الله بن الحارث عن أم سلمة فتبين
بذلك المبهم في الإسناد الأول . ورجال رجال
الصحيحين لا ملعن فيهم ولا مفرز .

وقد يقال : إنه من رواية قتادة عن أبي
الخليل وقاتدة مذكس . وقد عَصَتْهُ والمذكس

(١) في القاموس : الأبدال قوم هم يتم الله من رجل
الأرض ، وهم مبرون : أربعون بالشام ، وثلاثون بغيرها .
لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من الناس .

(٢) الجران مقدم حتى البحر من ملجأ إلى منخره . فإذا برك
البحر ودعته على الأرض قبل أنقى جرائه . وقصير هنا كتابة
د الانطراد وانكم .

في الخلق ولا يفسهه في الخلق عملاً الأرض عدلاً .
وقال هرون : حدثنا عمر بن أبي قيس عن مُطَرَف
ابن طريف عن أبي الصبح عن حلال بن عمر :
سمعت علياً يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث على
ملكته رجل يقال له منصور يوطئ أو يمكّن لال
محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وجب على كل مؤمن نصره ، أو قال
إجابته » .

سكت أبو داود عليه . وقال في موضع آخر
هرون : هو من ولد الشجرة وقال السلياني : فيه
نظر . وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس : لا بأس
به ، في حديثه خطأ . وقال الذهبي : صدق^(١) له
أوهام . وأما أبو إسحق السبيعي وإن خرج عنه
في الصحيحين فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره ،
ورويته عن علي منقطعة وكذلك رواية أبي داود
عن هرون بن المغيرة . وأما السند الثاني فأبو الحسن
فيه وحلال بن عمر مجهولان ، ولم يعرف أبو الحسن
إلا من رواية مُطَرَف بن طريف عنه . انتهى .

وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة وكذا ابن
ماجة والحاكم في المستدرک من طريق علي بن
نغيل ، عن حميد بن المسيب عن أم سلمة قالت :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« المهدي من ولد فاطمة » . ولفظ الحاكم : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال :
« نعم هو حق وهو من بني فاطمة » .

(١) في القاموس الصفح المصطف والكل من كل شيء .

عنه فقال من أصحاب الحسن ، وما سمعت عنه إلا خيراً . وسمعت مرة أخرى ذكره فقال : ضعيف أفنى في أيام إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يفتوى شديدة فيها سفك الدماء .

وخرج الثرملی وابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق زيد المعنى عن أبي صديق الناحي عن أبي سعيد الخدري قال : نخشينا أن يكون بعض شيء حدث ، فسلنا نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن في أمي المهدي يخرج ، يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا » زيد الشاذلي قال قلنا : وما ذاك ؟ قال : « سنين » قال : « فيجيء إليه الرجل فيقول يا مهدي أعطني » قال : « فيخولوه في ثوبه ما استطاع أن يخله » . لفظ الثرملی قال : هذا حديث حسن . وقد روى من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولفظ ابن ماجه والحاكم : « يكون في أمي المهدي إن قصر فسبح وإلا فتسع ، فتنتم أمي فيه نعمة لم ينعموا بمثلها قط . تؤبى الأرض أكلها ولا يخر منه شيء . والمال يومئذ كدوس ^(١) فيقوم الرجل فيقول : يا مهدي أعطني ! فيقول خذ » انتهى .

وزيد المعنى وإن قال فيه الدارقطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين : إنه صالح ، وزاد أحمد : إنه فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى ، إلا أنه قال فيه أبو حاتم : ضعيف ، يكتب حديثه ولا يحتج به . وقال يحيى بن معين في رواية أخرى :

لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع . مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي . نعم ذكره أبو داود في أبيوابه .

وخرج أبو داود أيضا وثابته الحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي بصرة عن أبي سعيد الخدري قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المهدي مني أجلى ^(١) الجبهة أفنى ^(٢) الأنف علأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا ملك سبع سنين » . هذا لفظ أبي داود وسكت عليه . ولفظ الحاكم : « المهدي من أهل البيت ، أشم الأنف أفنى أجلى علأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما ، يعيش هكذا ، وسط . يساره وإصبعين من يمينه السبابة والإبهام وعقد ثلاثة » قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرطه مسلم . ولم يخرجاه .

وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به ، وإنما أخرج له البخاري استشادا لا أصلا . وكان يحيى القطان لا يحدث عنه . وقال يحيى بن معين : ليس بالقوي ، وقال مرة : ليس بشيء . وقال أحمد بن حنبل : أرجو أن يكون صالح الحديث . وقال يزيد بن زريع : كان حروريا ^(٣) وكان يرى السيف على أهل القبيلة . وقال النسائي : ضعيف . وقال أبو عبيد الآجري : سألت أبا داود

(١) في القاموس هو أجل الجبهة واسمها .

(٢) في القاموس : « ثنا الألف ارتفاع أطراف الأصابع وسطه وسبغ طوله » .

(٣) الحرورية فرقة من الخوارج ، نسبون إلى « حرورية » فرقة بقراب الكوفة كان بها أول اجتراح لهم .

(١) ياء كبير ، يكسب بضم فاءه فرق بين .

في آخر أمي المهدي يبقيه الله الفيت ، وتخرج الأرض نباتها . ويغطي المال صناعاً ، وتكثر الماشية ، وتعلم الأمة ، يعيش سباً أو ثمانياً يعني حياً . وقال فيه : حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه . مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من الستة . ولكن ذكره ابن حبان في الثقات . ولم يرد أن أحداً تكلم فيه .

ثم رواه الحاكم أيضاً من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وأبي هرون العبدى عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثُمْلُ الأرض جزراً وظلماً فيخرج رجلٌ من جنّ من فيطك سباً أو تسماً فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » .

وقال الحاكم فيه : هذا حديث صحيح على شرطه . مسلم . وإنما جمعه على شرطه . مسلم لأنه أخرجه عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق . وأما شيخة الآخر وهو أبو هرون العبدى فلم يُخرج له . وهو ضعيف جداً متهم بالكذب ، ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه .

وأما الراوى له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى ويلقب أسد السنة ؟ وإن قال البخارى : مشهور الحديث ، واستشهد به في صحيحه ، واحتج به أبو داود والنسائي ، إلا أنه قال مرة أخرى : ثقة لو لم يُصنّف كان حيراً له . وقال فيه محمد بن حزم : مُنْكَرُ الحديث .

لا شيء . وقال مرة : يُكْتَب حديثه ، وهو ضعيف . وقال الجرجاني : مناسك . وقال أبو زوزة : ليس بقوى واهى الحديث ضعيف . وقال أبو حاتم ليس بذلك ، وقد حدث عنه شعبة . وقال الترمذي : ضعيف . وقال ابن عدى : عامة ما يرويه ومن يروى عنهم ضعفاء ، على أن شعبة قد روى عنه ، ولعل شعبة لم يرو عن أضعف منه .

وقد يقال إن حديث الترمذي وقع تفسيراً لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَيَكُونُ في آخر أمي خليفة يحشو المال حشواً لا يعلّفه عدلاً » . ومن حديث أبي سعيد قال : « من حلقائكم خليفة يحشو المال حشواً » . ومن طريق أخرى عنهما قال : « يَكُونُ في آخري الزمان خليفة يقيم المال ولا يعلّفه » انتهى . - وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها .

ورواه الحاكم أيضاً من طريق حوف الأعرابي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَقْرُمُ السَّاعَةَ حَتَّى ثُمْلَ الأرض جزراً وظلماً وعدواناً ، ثم يخرج من أهل بيتي رجلٌ يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً » .

وقال فيه الحاكم : هذا صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

ورواه الحاكم أيضاً من طريق سليمان بن عبيد عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَخْرُجُ

وسلم ، خرفت حينئذ وتغير لونه . قال فقلت ما نزل
نرى في وجهك شيئاً نكروه . فقال : « إنا أهل
البيت أخصار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل
بيتي سبَلَقُون بعمري بلاء وتشريداً وتطريداً ، حتى
يأتني قوم من قِبل المشرق معهم رايات سود ،
فيسألون الخير فلا يعطونه ، فيقاتلون ويقتلون ،
فيقتلون ما سألوا فلا يقبلونه ، حتى يدفقوها إلى
رجلي من أهل بيتي فيسلوها قسطاً كما ملئوها
جوراً . فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً
على الثلج » . انتهى .

وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث
الرايات . ويزيد أبي زياد رواه ، قال فيه شعبة :
كان رقاعاً ، يعنى يرفع الأحاديث التي لا تعرف
مرفوعة . وقال محمد بن الفضيل : وكان من كبار
أئمة الشيعة . وقال أحمد بن حنبل : لم يكن
بالحافظ ، وقال مرة : حديثه ليس بذلك . وقال
يحيى بن معين : ضعیف . وقال العجلي : جائز
الحديث ، وكان بإخبره يلقن . وقال أبو زرعة :
لئن يكتب حديثه ولا يحجج به . وقال أبو حاتم :
ليس بالقوى . وقال الجرجاني : سمعته يضمنون
حديثه . وقال أبو دلود : لا أعلم أحداً ترك حديثه ،
وغيره أحب إلى منه . وقال ابن عدى : هو من
شيوخ أهل الكوفة ، ومع ضعفه يكتب حديثه .
وروى له مسلم لكن مقروناً بغيره . وبالجملة
فالأكثر على ضعفه . وقد صرح الأئمة بتضعيفه
هذا الحديث ، الذي رواه عن إبراهيم عن علقمة
عن عبد الله وهو حديث الرايات . وقال وكيع بن

ورواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية
أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق
الناجي عن الحسن بن يزيد السعدي أحد بني هذيلة
عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله
صل الله عليه وسلم يقول : « يخرج رجل من
أمتي يقول بحسنى ، ينزل الله عز وجل له القطر
من السماء ، وتخرج الأرض بركتها ، وتملأ
الأرض منه قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ،
يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل على بيت
المقدس » .

وقال الطبراني فيه : ورواه جماعة عن أبي
الصديق ، ولم يدخل أحد منهم بينه وبين أبي
سعيد أحداً إلا أبا الواصل ، فإنه رواه عن الحسن
ابن يزيد عن أبي سعيد . انتهى .

وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم
ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن
أبي سعيد ، ورواية أبي الصديق عنه . وقال الذهبي
في الميزان : جهول . لكن ذكره ابن حبان في الثقات
وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم
يخرج له أحد من الستة . وذكره ابن حبان في
الثقات في الطبقة الثانية ، وقال فيه : يروى عن
أنس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر .

وخرج ابن ماجة في كتاب السنن عن عبد الله
ابن مسعود ، من طريق يزيد بن أبي زياد ، عن
إبراهيم عن علقمة ، عن عبد الله قال : بينا نحن
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبل فتية
من بني هاشم ، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه

وفيه عبد الله بن لُهَيْمَةَ وهو ضعيف معروف الحال . وفيه عمر بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه . قال أحمد بن حنبل : روى عن جابر من اكبر ويغني أنه كان يكذب . وقال النسائي . ليس بثقة ، وقال : كان ابن لُهَيْمَةَ شيخاً أحمق ضعيف العقل ، وكان يقول : هل في السحاب ، وكان يجلس معنا فيبصِرُ سحابة فيقول هذا هل قد مرَّ في السحاب .

وخرج الطبراني عن علي رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المغين فلا تسبوا أهل الشام . ولكن سبوا أشراهم فإن فيهم الأبدال . يؤثرك أن يرسل على أهل الشام صيب من السماء فيفرق جماعتهم ، حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم . فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات ، المكثريقول : هم خمسة عشر ألفاً ، والمقتل يقول : هم اثنا عشر ألفاً ، وأمازوتهم أيت أيت (١) ، يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك ، فيقتلهم الله جميعاً ، ويرد الله إلى المسلمين أقتهم ونعمتهم وقاصيتهم ودانيتهم » اهـ .

وفيه عبد الله بن لُهَيْمَةَ وهو ضعيف معروف الحال .

الجراح فيه : ليس بشيء . وكذلك قال أحمد ابن حنبل . وقال أبو قدامة : سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات ، لَوْحَفَ هَذِي خَمْسِينَ عِمْنًا قَسَمَةً مَاصِلَتُهُ ، أَهْلًا مَلْعَبُ إِبْرَاهِيمَ ، أَهْلًا مَلْعَبُ حَلَقَمَةَ ؟ أَهْلًا مَلْعَبُ عَبْدِ اللَّهِ ؟ . وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي : ليس بصحيح .

وخرج ابن ماجة عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين التميمي ، عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية عن أبيه عن جده قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المهدي من أهل البيت يصلح الله به في ليلة » .

ويا سين التميمي وإن قال فيه ابن معين : ليس به بأس ، فقد قال البخاري : فيه نظر . وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جداً . وأورد له ابن حنبل في « الكامل » والذهبي في « الميزان » هذا الحديث على وجه الاستنكار له ، وقال : هو معروف به .

وخرج الطبراني في معجمه الأوسط ، عن علي رضي الله عنه ، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أينما المهدي أم من خيرنا يارسول الله ؟ فقال : « بل منا ، بنا يخيم الله كما بنا فتح ، وبنا يستنقلون من الشرك ، وبنا يولف الله بين قلوبهم بعد هدوة بيته ، كما بنا ألفت بين قلوبهم بعد هدوة الشرك » . قال علي : أمؤمنون أم كافرون ؟ قال : « مَقْتُون وكافرون » . انتهى .

(١) كلمة « أيت أيت » كانت كلمة السر بين أفراد جيش المسلمين في غزوة بدر يعرف بها بعضهم بعضاً ، وتتكون كلمة السر بين أهل هذه الرايات - هذا وفي كثير من الأحاديث الخاصة بالمهدي يشبه أنصاره بأهل بدر ، سيأتي في الحديث التالي أن منهم على حدة أهل بدر .

لهما البخارى ، وفيه عمرو بن محمد التَنَزُّي
ولم يُخَرِّجْ له البخارى احتجاجاً بل استشهائاً ،
مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع في عمل التَنَزُّي ،
وهو وإن وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائي
وغيرهم ؛ فقد قال على بن المنبهي عن سفيان : إن
بشر بن مروان قطع عرقوبة (١) قلت في أي شيء
قال : في التشيع .

وخرَّجَ ابن ماجة عن أنس بن مالك رضى الله
عنه في رواية سعد بن عبد الحميد ابن جعفر ، عن
علي بن زياد الباهي ، عن عكرمة بن عمار عن
إسحاق بن عبد الله ، عن أنس قال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نحن ولدت
عبد المطلب سادات أهل الجنة » ، أنا وحزرة وعلي
وجعفر والحسن والحسين والمهدي » . انتهى .

وعكرمة بن عمار وإن أخرجه له مسلم فإنما
أخرج متابعه . وقد ضحفه بعض ووثقه آخرون .
وقال أبو حاتم الرازي : هو مدلس فلا يقبل ، إلا
أن يصرَّح بالسمع . وعلي بن زياد ، قال النعمي
في الميزان : لا تدرى من هو ، ثم قال : الصواب فيه
عبد الله بن زياد . وسعد بن عبد الحميد وإن وثقه
يعقوب بن أبي شيبة ، وقال فيه يحيى بن معين
ليس به بأس ، فقد تكلم فيه الثوري ، قالوا لأنه
رآه يفتي في مسائل ويخطئ فيها . وقال ابن حبان
كان ممن فحش عطاؤه فلا يحتج به . وقال أحلبين
حنبل : سعد بن عبد الحميد يدعى أنه مسح عَرْض
كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو هنا

(١) هذا التعبير كناية عن تضاعف في الأمر .

ورواه الحاكم في المستدرک ، وقال : صحيح
الإسناد ، ولم يخرِّجْ . وفي روايته : ثم يظهر
الهاشمي فيردُّ الله الناس إلى آفتهم . الخ ،
وليس في طريقه ابن لهيعة ، وهو إسناد صحيح
كما ذكر .

وخرَّجَ الحاكم في المستدرک عن علي رضى الله
عنه ، من رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية
قال : « كنّا عند علي رضى الله عنه ، فسأله رجل
عن المهدي ، فقال علي : هيهات . ثم عقد بيده
سبماً ، فقال ذلك يخرِّجُ في آخر الزمان ، إذا
قال الرجلُ الله الله قُتل . ويجمعُ الله قوماً قزعا
كقزع السحاب (١) . يولفُ الله بين قلوبهم
فلا يسترحبون إلى أحد ، ولا يفرحون بأحد دخل
فيهم ، عندهم على عِدَّة أهل بدر ، لم يسبقهم
الأولون ، ولا يذركهم الآخرون ، وعلى عِدَّة أصحاب
طالوت الذين جاوزوا معه النهر (٢) . قال أبو
الطفيل ، قال ابن الحنفية أتريدُه ؟ قلت نعم !
قال فإنه يخرِّج من بين هذين الأخشييين (٣) .
قلت لا جرم والله ، ولا أدعها حتى أموت ، ومات
بها يعني مكّة . هـ . هـ الحاكم : هذا حديث صحيح
على شرط الشيخين . انتهى .

وإنما هو على شرط مُسلم فقط ، فإن فيه
عماراً التَنَزُّي ويونس بن أبي إسحاق ، ولم يُخَرِّجْ

(١) التزع حركة : قطع من السحاب الواحدة يله . الخ
يجمع الناس إليه أرواحاً ويلتزم بعضهم بعضاً .

(٢) الذين ورد ذكرهم في قوله سبحانه : « قل فصل طالوت
بالجنود قال إن الله مبتليكم نهر ... الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

(٣) الأخشيان : جهلاء مكّة ، أبو قيس والأحرار .

كلهم ابن خليفة ، ثم لا يصير إلى واحد منهم ،
ثم تطلع الرّيات السود من قِبل المشرق فيقتلونهم
قتلاً لم يقتله قومٌ . ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قال
« فإذا رأيتموه فيليعوه ولو حبواً على الثلج فإنه
خليفة الله المهدي » ٥١٤ .

ورجاله رجال الصّحيين ، إلا أن فيه أبها قلابه
الجرّبي ، وذكر الله وغيّره أنه مُدلس ، وفيه
سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس ، وكل واحد
منهما عنّ ولم يصرح بالسّماع فلا يقبل ، وفيه
عبد الرزاق بن همام وكان مشهوراً بالتشيع وعصى
في آخر وقته فخطأ ، قال ابن عدى حدث
بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد ،
ونسبوه إلى التشيع . انتهى .

وخرّج ابن ماجة عن عبد الله بن الحارث بن
جرّء الزبيدي من طريق بن لَهَيْمَة عن أبي زرعة
عمر بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحارث
ابن جرّء قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهديّ يعني
سلطانة » .

قال الطبراني تفرد به بن لَهَيْمَة ، وقد تقدم
لنا في حديث على الذي أخرجه الطبراني في معجمه
الأوسط أن ابن لَهَيْمَة ضعيف وأن شيخه عمر بن
جابر أضعف منه .

وخرّج البزار في مستدركه والطبراني في معجمه
الأوسط واللفظ للطبراني ، عن أبي هريرة عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يكون في أمي
المهديّ إن قصر فسبح إن لا شماتة وإلا فتسح » ،

يبغداد لم ينجح ، فكيف سمعها ؟ وجهه الله
عن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه .

وخرّج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد
عن ابن عباس موقوفاً عليه ، قال مجاهد قال
ابن عباس : لو لم أسمع أنك مثل أهل البيب
ماحدثتك بهذا الحديث ، قال ، فقال مجاهد :
فإنه في ستر لا أذكره لمن يكره ! قال ،
فقال ابن عباس « منا أهل البيت أربعة . منا
السفاح ، ومنا المنذر ، ومنا المنصور ، ومنا المهدي » .
قال : فقال مجاهد : بين لي هؤلاء الأربعة . فقال
ابن عباس : « أما السفاح فربما قتل أنصاره وحشا
عن عدوه ، وأما المنذر ، أراه قال ، فإنه يعطى المال
الكثير ولا يتعاطى في نفسه ، ويمسك القليل من
حقه ، وأما المنصور فإنه يتعلّى النصر على عدوه
الشرّ ما كان يعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويترهب منه عدوه على مسيرة شهرين ، والمنصور
يرهب منه عدوه على مسيرة شهر ، وأما المهديّ فإنه
الذي ملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، وتلأم
البهائم بالسّماع ، وتلثي الأرض أفلاذ كبدها » .
قال . قلت وما أفلاذ كبدها ؟ قال : « مثال
الأسطوانة من اللهب والنفضة » ٥١٥ .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم
يُخرّجه ، وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن
مهاجر عن أبيه ، وإسماعيل ضعيف ، وإبراهيم أبوه
ولم يخرّج له مسلم ، فالأكثر على تضعيفه ٥١٦ .
وخرّج ابن ماجة عن ثوبان قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : يقتتل عند كنزكم ثلاثة

أبو داود : ضعيف ، وقال مرة : صالح . وعلق له البخاري في صحيحه حديثاً واحداً .

وهرج أبو بكر البزار في مسنده والطبراني في معجمه الكبير والأوسط عن قرة بن إياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَمَلَأَنَّ الْأَرْضَ جَوْرًا وَظُلْمًا ، فَإِذَا مَلَأَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا بَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي بَلْعُجَا حَدَلًا وَقَسَطًا كَمَا مَلَأْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا » فلا تمنع السقاء من قطرها شيئاً ولا تذخر الأرض شيئاً من نباتها . يلبث فيكم سبعاً أو ثمانية أو تسعاً ، يعني سنين ٥١ .

وفيه داود بن المصبر بن قحطم (١) . هـ . أبيه وهما ضعيفان جداً .

وهرج الطبراني في معجمه الأوسط عن أبي هريرة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والأنصار ، وعل بن أبي طالب عن يساره ، والعباس عن يمينه ، إذ تلاه (٢) العباس ورجل من الأنصار ، فأغلظ الأنصاري للعباس . فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس ويده على كاهل : « سيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض جوراً وظلماً ، وسيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً . فإذا رأيتم ذلك فاعلموا بالفتى الثمين ، فإنه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي » ٥١ .

(١) ورد هذا الاسم عرفاً في جميع النسخ وله صحبه ٥ . وفيه من تليد التليد لابن حجر ٢ ص ١٩٩ .
(٢) تلاه ، فقام .

فنعلم فيها أمتي نعمة لم ينعموا بحملها ترسل السماء عليهم مدراراً ، ولا تضر الأرض شيئاً من النبات ، والمال كدوس يقوم الرجل يقول يامهدي أعطني ، فيقول خذ .

قال الطبراني والبزار : تفرد به محمد بن مروان العجلي . زاد البزار ولا تعلم أنه تابعه عليه أحد ، وهو وإن وثقه أبو داود وابن حبان أيضاً بما ذكره في الثقات وقال فيه يحيى بن معين : صالح ، وقال مرة : ليس به بأس ، فقد اختلفوا فيه : قال أبو زرعة : ليس عندي بذلك ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : رأيته محمد بن مروان العجلي حدث بأحاديث وأنا شاهد لم نكتبها ، تركتها على عمد ، وكتب بعض أصحابنا عنه كأنه ضعفه .

وهرج أبو يعلى الوصيل في مسنده عن أبي هريرة ، قال : « حدثني خليلي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وقال : لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق . قال : قلت وكم يملك ؟ قال خمساً واثنين . قال قلت ، وما خمساً واثنين ؟ قال لا أدري » ٥١ .

وهذا السند ، وإن كان فيه بشير بن نهيك ، وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به ، فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم يلتفتوا إلى قول أبي حاتم لا يحتج به . إلا أن فيه رجاء بن أبي رجاء اليشكري ، وهو مختلف فيه . قال أبو زرعة : ثقة ، وقال يحيى بن معين : ضعيف ، وقال

وهو معروف ، مع الحق عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع . وبالجمله فالحديث ضعيف مضطرب . وقد قيل في « أن لا مهدي إلا عيسى » أي لا يتكلم في المهدي إلا عيسى ، يحاولون بهذا التلويح رد الاحتجاج به ، أو الجمع بينه وبين الأحاديث ، وهو مدفوع بحديث جريح ومثله من الخوارق .

وأما التصرف فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا ، وإنما كان كلامهم في المجامعة بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجه والأحوال وكان كلام الإمامية والرأفة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بإمامته وأدعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبرؤ من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبتهم (١) ثم حلت فيهم بعد ذلك القول بالإمام المصوم ، وكثرت التاليف في مذاهبتهم . وجاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوية الإمام بنوع من الحلول ، وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ ، وآخرون منتظرون مجيء من يقطع عنه منهم ، وآخرون منتظرون حرد الأمر في أهل البيت مستبدلين على ذلك بماقلعناه من الأحاديث في المهدي وغيرها .

ثم حدث أيضًا عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيها وراء الحسن . وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة ، فشاركوا فيها الإمامية والرأفة لقولهم بألوية (١) بحال ذلك حل ما ذكره في الفصل السابع والعشرين من هذا الباب .

وليه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن كريمة وهما ضعيفان ١٥ .

ومرج الطبراني في معجمه الأوسط عن طلحة ابن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون فتنة لا يسكن منها جانب إلا تفاجر جانب » حتى ينادى مناد من السماء أن أميركم فلان ١٥ .

وليه الثقي بن الصباح وهو ضعيف جدا ، وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وإنما ذكروه في أبوابه وترجمته استثناسا .

• • •

فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان . وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه . وربما تحسب المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندی عن أبان بن صالح بن أبي عياش عن الحسن البصري عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا مهدي إلا عيسى ابن مريم » .

وقال يحيى بن معين في محد بن خالد الجندی : إنه لفة . وقال البيهقي : تفرد به محمد بن خالد . وقال الحاكم فيه : إنه رجل مجهول والمخلف عليه في إسناده : فمرة يروى كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن إدريس الشافعي ، ومرة يروى عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن بن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل . قال البيهقي فرجع إلى رواية محمد بن خالد وهو مجهول ، عن أبان بن عياش

واطيل تلميذه في شرحه لكتاب « هلع النعيلين » .
وأكثر كلماتهم في شأنه أنْفَازَ وأمثال ، وربما
يصرحون في الأقل أو يصرح مفسرُو كلامهم .

وحاصلُ مذهبهم فيه : على ما ذكر ابن أبي
واطيل ، أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد
الضلال والعمى ، وأنها تعقبها الخلافة ، ثم يعقب
الخلافة الملك ، ثم يعود تجبراً وتكبراً وباطلاً .

قالوا : ولما كان في العهد من سنة الله رجوعُ
الأمر إلى ما كانت وجب أن يحيا أمرُ النبوة والحق
بالولاية ، ثم بخلافتها ، ثم يعقبها الدجل مكانَ
الملك والتسلط ، ثم يعود الكفر بحاله . يشيرون
بهذا لما وقع من شأن النبوة ، والخلافة بعدها والملك
بعد الخلافة : هذه ثلاث مراتب . وكذلك الولاية
التي هي لهذا الفاطمي ، والدجل بعدها كناية عن
خروج الدجال على أثره ، والكفر من بعد ذلك .
فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الأولى .

قالوا ولما كان أمر الخلافة لقرشي حكماً شرعياً
بالإجماع الذي لا يؤمنه إنكار من لم يزول عنه
وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أحسن من قرشي
بالتبني صلى الله عليه وسلم ، إما ظاهراً كبنی عبد
المطلب ، وإما باطناً بمن كان من حقيقة آل ،
والآل من إذا حضر لم يغيب من هو آله . وابن العربي
الحافى ساه في كتابه « حَقَقَاءُ مُرَبِّ » من تأليفه ،
« خاتمة الأولياء » ، وكفى عنه بلبينة القصة إشارة
إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين . قال
صلى الله عليه وسلم : « مثلي فيمن قبلي من الأنبياء
كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكملته ، حتى إذا لم يبق

الأئمة وحلَّوْا الإله فيهم . وظهر منهم أيضاً القول
بالقطب والأبدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة
في الإمام والنقباء . وأشربوا أقوال الشيعة ، وتوغلوا
في الديانة بمذاهبهم ، حتى لقد جعلوا مستند
طريقهم في لبس الخرق أن علياً رضى رضى الله عنه
ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالترام
الطريقة . واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم .
ولا يعلم هذا من علي من وجه صحيح . ولم تكن
هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه ، بل
الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدى ، وفي تخصيص
هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية ، يفهم
منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم في التشيع ،
وانخراطهم في سلكه .

وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلات
كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين
من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر . وكان
بعضهم عليه على بعض ويلقنه بعضهم من بعض ،
وكانه مبني على أصول واحدة من الفريقين . وربما
يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القيرانات ،
وهو من نوع الكلام في الملحم ، ويأتى الكلام عليها
في الباب الذي يلي هذا .

وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين
في شأن الفاطمي ، ابن العربي الحافى ^(١) في كتاب
« حَقَقَاءُ مُرَبِّ » ، وابن قسي في كتاب « هلع
النعيلين » ، وعبد الحق بن سبعين ، وابن أبي

(١) يعني يحيى الكندي بن عربي من أشهر الصوفية . وقد وصفه
« بالحافى » تمييزاً له عن القاضي أبي بكر بن العربي من أهل الأندلس
والذي ساق ذكره في الفصل الأربعين من هذه المقدمة .

منه إلا موضع لينة فأننا تلك اللينة^(١) فيفسرون
 خاتم النبيين باللبنة التي أكملت النبيان ، ومعناه
 النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة . ويقولون
 الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة ، ويجطون صاحب
 الكمال فيها خاتم الأولياء أي حائز الرتبة التي هي
 خاتمة الولاية ، كما كان خاتم الأنبياء حائزاً للمرتبة
 التي هي خاتمة النبوة ، فكأن الشارح من تلك
 المرتبة الخاتمة يلين البيت في الحديث المذكور .
 وهما على نسبة واحدة فيها . فهي لينة واحدة في
 التمثيل . ففي النبوة لينة ذهب ، وفي الولاية لينة
 فضة ، للتفاوت بين الرتبتين ، كما بين الذهب
 والفضة . فيجعلون لينة الذهب كتابةً من النبي
 صلى الله عليه وسلم ، ولينة الفضة كتابةً من هذا
 الولي القاطن المنتظر . وذلك خاتم الأنبياء ،
 وهذا خاتم الأولياء .

وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي اطيلى عنه :
 « وهذا الإمام المنتظر وهو من أهل البيت من ولد
 فاطمة ، وظهوره يكون من بعد مئتي (خفج)
 من الهجرة » وروى حروفاً ثلاثة يريد عندهم
 بحساب الجمل ، وهو الخاء المعجمة بواحدة من
 فوق ستائة ، والفاء أخت القاف بيّانين ، والجيم
 المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة ، وذلك ستائة
 وثلاث وثمانون سنة ، وهي في آخر القرن السابع

(١) ورد هذا الحديث في البحار (كتاب الخلق) باب خاتم النبيين (بالنبي الآن) : « مثل وحل الأنبياء من قبل كل رجل من بني آدم وأجله إلا موضع لبنة من زاوية جبل الناس يطوفون به ويحيطون له ، ويقولون خلا وضعت هذه البنة . فأننا البنة ، وأنا خاتم النبيين » .

(١) يقصد هنا الكلمة القيلوب أي يوسف بن يوسف بن إسحاق
 ابن السراج للمؤلف حول سنة ٢٥٧ هـ .

فيؤيده قوله^(١) « إِنَّكَ لَلرَّقِئِيهَا » ، يريد الأمة ،
أى إنك لخليفة في أولها ، وذريعتك في آخرها .
وربما استدلل بهذا الحديث القائلون بالرجعة . فالأول
هو للشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها
وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إِذَا هَلَكَ كَسْرَى
فَلَا كَسْرَى بَعْدَهُ ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَنْفَقَنَّ كَنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ »
وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كَسْرَى في سبيل
الله . والذى هَلَكَ قَيْصَرٌ وينفق كنوزهُ في سبيل الله
هو هذا المنتظر حين يفتتح القسطنطينية ، فتم
الأمير أميرها ، ونعم الجيش ذلك الجيش ، كما
قال صلى الله عليه وسلم : « وَهَلْ حَكَمَهُ بَغْضٌ » ،
والبعض من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر ، وجاء
ذكر أريعون ، وفي بعض الروايات سبعين ، فلما
الأريعون فإنها ملته وملة الخلفاء الأربعة الباقين
من أهله القاطنين بأمره من بعده على جميعهم
السلام ، قال : « وَذَكَرَ أَصْحَابُ التَّحْجُومِ
وَالْقِرَائِنَاتِ أَنَّ مَلَّةَ بَقَاةِ أَمْرِهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ مِنْ بَعْدِهِ
مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ عَامًا فَيَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا
جَارِيًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَالْعِلَلِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ ، ثُمَّ
تُخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ فَتَكُونُ مُلْكًا » . انتهى كلام ابن
أبي واطيل .

وقال في موضع آخر : « نَزُولُ عِيسَى يَكُونُ
فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْغُصْرِ مِنَ الْيَوْمِ الْحَمَلِيِّ حِينَ تَغْضَى
ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِهِ » . قال : « وَذَكَرَ الْكُنْدِيُّ بِمَقْرُوبِ
ابْنِ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ « الْبَحْرِ » الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ

فَيَتَقَوَّى الْمُسْلِمُونَ وَيَعْلَمُوا الْإِسْلَامَ » ويظهر دين
الحنيفية^(١) فإن من صلاة الظهر إلى صلاة العصر
وقت صلاة ، قال عليه الصلاة والسلام : « مَا بَيْنَ
هَاتَيْنِ وَقْتِ » . وقال الكندي أيضًا : الحروفُ
العربية غير المعجمة يعنى المفتتح بها سور القرآن
جملة عددها سبع مائة وثلاثة وأربعون ، وصحة
دجالية ، ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر ،
فيصلح الدنيا وتمشى الشاة مع الثوب . ثم يبنى
ملك المعجم بعد إسلامهم مع عيسى مائة وستين
عامًا ، عدد حروف المعجم وهي (ق ي ن) ، دولة
العدل منها أربعون عامًا . قال ابن أبي واطيل :
« وَمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ لَا مَهْدَى إِلَّا عِيسَى ، فَمَعْنَاهُ
لَا مَهْدَى تَسَاوَى هِدَايَتُهُ وَلَا يَتَّهَ : وَقِيلَ : لَا يَتَكَلَّمُ
فِي الْمَهْدِ إِلَّا عِيسَى . وَهَذَا مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَبْرِتِجَ
وغيره . وقد جاء في الصحيح أنه قال : « لَا يَزَالُ
هَذَا الْأَمْرُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِمُ
اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً » يعنى قرشيًا . وقد أعطى الوجود
أن منهم من كان في أول الإسلام ، ومنهم من
سيكون في آخره . وقال : « الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ
أَوْ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتَّةً وَثَلَاثُونَ » . وانقضواها
في خلافة الحسن وأول أمر معاوية ، فيكون أول
أمر معاوية خلافة أخذًا بأوائل الأسماء فهو سادس
الخلفاء ، وأما سابغ الخلفاء فعمربن عبد العزيز ،
والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية علي ،

(١) يذهب د . وان إلى أن هذا جملة سالفة تقديرها : ويصل
بالتناس صلاة بين الظهر والعصر ، فإن من صلاة الظهر .. الخ .
انظر ج ٢ ، ص ٩٢١ .

(١) أى قوله عليه الصلاة والسلام لنزل من ابن طالب .

إلى كلام من أمثال هذا يَحْيُون فيه الوقت والرجل والمكان بِأَدَقَّةٍ واهية وتحكُّمات مختلفة ، فينقضي الزمان ولا أثر لشيء من ذلك ، فيرجعون إلى تجسيد رأي آخر متشكِّل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تحيُّلة وأحكام نُجُومية . في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر .

وأما المتصوفة الذين عاصرناهم فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدِّدٍ لأحكام الملة ومراسم الحق ويتحيَّنون ظهوره لما قرب من عصرنا . بعضهم يقول من وَلَدِ قَاطِمَةَ ، وبعضهم يطلق القول فيه . صمغناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البَازِيزُ كبيرُ الأُويلَاءِ بالغرب ، كان في أول هذه المائة الثامنة ، وآخرين عنه حافده (١) صاحبنا أبو يحيى زكريا عن أبيه أبي محمد عبد الله عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور .

• • •

هنا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة ، وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا .

والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك : أنه لا تم دعوة من الدين والمُلْك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه . وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك (٢) . وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ، ووجد أم

(١) مني حيد .

(٢) يحيل بذلك على ما ذكره في التعاليم الأول والسامن من هذا الباب .

البررات أنه إذا وصل القرآن إلى الثور على رأس ضح بحرّين : الضاد المعجمة والحاء المهملة (١) ، يريد ثمانية وتسعين وستة من الهجرة ، ينزل المسيح في الأرض ما شاء الله تعالى . قال : « وقد ورد في الحديث أن عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرق دمشق ، ينزل بين مهرودتين ، يعني حلتين مزعومتين صفراوين بمصرتين واضعا كُتُبَهُ على أجنحة الملكين ، له لِمَةٌ (٢) ، كأنها هرج من تيمام ، إذا طأطأ وأمه قَطَرَ (٣) ، وإذا رفعه تحدر منه جَمَانٌ كاللؤلؤ ، كبير هيلان الوجه . وفي حديث آخر : مرَّبوع الخاق وإلى البياض والحمرة . وفي آخر : إنه يتزوج في الغرب والغرب دلو البادية ، يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته . وذكر وفاته بعد أربعين عاما . وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن إلى جانب عمر بن الخطاب . وجاء أن أبيا بكر وعمر يُحشران بين نبيين . قال ابن أبي اطيلى : « والثبينة تقول إنه هو المسيح قسيح المسايح من آل محمد . قلت وعليه حمل بعض المتصوفة حديث « لا مهدى إلا عيسى » أي لا يكون مهدى إلا للمهدى الذي نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ » .

(١) على المودع حل ذلك بقوله : « الضاد من الفارسية يتسعين والصاد بستين » . والصاد لا دامي لاكرها هنا ، وكان الأوضح أن يقول الضاد من الفارسية يتسعين والصاد من الفارسية والصاد من الفارسية ، فيكون المجموع ثمانية وتسعين .

(٢) في القاموس : آلة بالكرس والشر المجاور شدة الأذن جسمه لم ولأم .

(٣) في القاموس : الدبى يفتح الدال ويكرس لكن والسرور والمسام . والآخر المقصود هنا .

عندهم الأوهام في ظهوره هناك بخروجه من رِبْقَة الدولة ومناك الأحكام والقهر ، ولا محصور لديهم في ذلك إلا هلا . وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تمجيد النفس تمائمها وسواساً وحماً . وقتل كثير منهم .

أخبرنا شيخنا محمد بن إبراهيم الأبرلي قال : خرج برباط مائة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف ، يعرف بالثَوْبِزْرِي نسبة إلى ثَوْبَرٍ مصفراً ، وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتباعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة وعظم أمره وهافه رؤساء المصاملة على أمرهم ، قدس عليه السكسوى من قتله بَيَّاتاً^(١) وانحل أمره . وكذلك ظَهَرَ غَمَارَةٌ في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس ، وادعى أنه الفاطمي ، واتباعه النعماء من غَمَارَةٌ ، ودخل مدينة فاس عتوةً وحرق أسواقها وأرسل إلى بلد الزُومَة ، فقتل بها غيلةً ولم يتم أمره . وكثير من هذا النمط .

وأخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا ، وهو أنه صحب في حَجَّه في رباط . العباد ، وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تَلَمَّسَان المطل عليها - رجلاً من أهل البيت من سكان كَرْبَلَاء . كان متبوعاً معظماً كثير التلميد والخادم . قال : وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان . قال وشأكلت الصُّحبة بيننا في ذلك الطريق فانكشف لي أمرهم ، وأنهم إنما جاءوا من

(١) البيت : الإعادة .

آهرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطَّالِبِيِّين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر ، منتشرون في تلك البلاد وخاليون عليها . وهم عصاب يدوية متفرقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون آلافاً من الكثرة .

فإن صحَّ ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم ، ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحل الناس عليها .

وأما على غير هذا الوجه ، مثل أن يدعوا فاطميّ منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الأفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرد نسبة في أهل البيت ، فلا يتم ذلك ولا يمكن ، لما أسلفناه من البراهين الصحيحة . وأما ما تدعيه العامة والأغمار من النعماء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يقبده ، فيستحيئون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليداً لما اشتهر من ظهور فاطميّ ، ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه . وأكثر ما يتحيئون في ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران ، مثل الزَّوَابِ بِإِفْرِيقِيَّة والسُّوس من المغرب . ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطاً بمسألة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من المؤمنين من كدالة واحتقارهم أنه منهم أو قاتمون بدعوته ، زعماً لا مستند لهم ، إلا غرابة تلك الأمم ويعلم عن يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أو قلة أو ضعف أو قوة ، ولبعد القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها ، فتقوى

غير ذلك ، لأنها العصبية التي كانوا عليها قبل المَقَرَّة ، ومنها توتيتهم . فتجد تابع (١) ذلك المتصل للدعوة القائم بزعمه بالسنة غير متعقبن في فروع الاقتداء والاتباع ، إنما دينهم الإعراض عن النهب والبنى وإفساد السابلة ، ثم الإقبال على طلب الدنيا والمال في أقصى جهلهم . وشأن بين طلب هذا الأمر في صلاح الخلق وبين طلب الدنيا (٢) ، فاتفقهما محتج ، ولا تستحكم لهم صيغة في الدين ولا يكمل لهم نزوع عن الباطل على الجملة ، ولا يكثر . ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه . فإذا هلك انحَلَّ أمرهم وتلاشت عصبيتهم . وقد وقع ذلك بلقرية لرجل من كتف من سليم يسمى قايم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة ، ثم من بعده لرجل آخر من بادية رباح من بغنر منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد ديناً من الأول وأقوم طريقة في نفسه ، ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حسبما يلى ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح (٣) . وبعد ذلك ظهر ناس بهل الدعوة يشتبهون بمثل ذلك ، ويكسبون فيها وينتجلون اسم السنة وليسوا عليها إلا الأقل ، فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم . انتهى .

موطنهم بكرية طلب هذا الأمر والتخل دعوة الفاطمي بالغرب . فلما عين دولة بني مرين ، ويوسف بن يعقوب يومئذ متاولاً للامسان قال لأصحابه : ارجعوا فقد أزرى بنا القط ، وليس هذا الوقت وقتنا . ويدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر في أن الأمر لا يتم إلا بالعصبية المكافئة لأهل الوقت ، فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وأن عصبية بن مرين لذلك العهد لا يتأولها أحد من أهل المغرب استكان ورجع إلى الحق وأقصر عن مطامحه . وبقي عليه أن يستيقن أن عصبية القواطم وقريش أجمع قد ذهبت ، لا سيما في المغرب . إلا أن التصبب لشأنه لم يتركه لهذا القول . والله يعلم وأنتم لاتعلمون .

وقد كانت بالمغرب لهذه الصور القربية نزعة من الدعوة إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتجلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره ، وإنما ينزع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويتحى بذلك ويكثر تابعه . وأكثر ما يعتون بإصلاح السابلة لِمَا أن أكثر قساد الأعراب فيها ، لما قلتمناه من طبيعة معاشهم (١) ، فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا . إلا أن الصيغة الدينية فيهم لا تستحكم ، لِمَا أنَّ توبة العرب وجوههم إلى الدين إنما يقصرون بها الإقصار عن الفارة والنهب ، لا يعقلون في توتيتهم وإقبالهم إلى متلى الديانة

(١) كلمة « تابع » ساقطة من جميع النسخ ، وقد مررت عليها في « السيرة » وهو مفرد في اللفظ وجمع في المعنى .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة في النسخة المسماة « بالبحر » .
وقد وردت في غيرها معرفة وتأقصة .

(٣) في القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب « البربر » .

(١) انظر على الاخص الفصل السادس والعشرين من هذا الباب .

٥٤ - فصل في حدثان الدول والأمم وفيه الكلام على الكلام والكشف عن معنى الجبر

من كاهن أو منجم أو ولى في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها ، وما يحدث لهم من الحرب والسلام ، ومدة بقاء الدولة ، وعدد الملوك فيها ، والتعرض لأسماهم ، ويسمى مثل ذلك : الجدنان .

وكان في العرب الكهان والعراولون يرجعون إليهم في ذلك ، وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة ، كما وقع لشرق وسطيح^(١) في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن أخبرهم بملك الحشة بلادهم ثم رجوعها إليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك . وكذا تأويل سطيح لرؤيا المؤيدان حين بعث إليه كسرى بها مع عبد المسيح^(٢) ، وأخبرهم بظهور دولة العرب . وكذا كان في جبل البربر كهان من أشهرهم موسى ابن صالح من بني يفرن ، ويقال : من شعرة ، وله كلمات جذائنية على طريقة الشعر بركانتهم وفيها جذنان كثير ، ومعظمه فيها يكون لزنانة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجبل . وهم يزعمون أنه ولى ، وثارة أنه كاهن ، وقد يزعم

اعلم أن من خواص النفوس البشرية الشوق إلى عواقب أمورهم ، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر ، سببا لحوادث العلة كعرفة ما بقى من الدنيا ، ومعرفة مدد الدول أو تغاوتها . والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر محيولون عليها . ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوقون إلى الوقوف على ذلك في المنام . والأخبار من الكهان لن قصتهم على ذلك من الملوك والسوقة معروفة . ولقد نجد في المدن صنفا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلهم يحرصوا الناس عليه ، فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لن يسألهم عنه . فتغزو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبياتها وكثير من ضمء العقول ، يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك ، ما بين خطأ في الرمل ويسمونه المنجم ، وطرق بالحصى والحجوب ويسمونه الحاسب ، ونظير في الرأيا والعياء ويسمونه ضارب المثل . وهو من المنكرات القاسية في الأمصار ، لا تقر في الشريعة من دم ذلك ، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية .

وأكثر ما يعنى بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك في آماد قوتهم . ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه . وكل أمة من الأمم يوجد لهم كلام

(١) أولها شق بن أتمار الثاني ، والآخر مسطيح بن مازن النساني . وقد خلقت بهما أساطير كثيرة . فمن ذلك ما يروى من أن سطحيا أخبر ببعث النبي صلى الله عليه وسلم وأنه عاش للثمان مئة ومات في أيام كسرى انوشروان بعد مولده صلى الله عليه وسلم ، وأنه سمى بذلك أنه لم يكن بين مناصله قسب تعتمد عليه ، فكان أبدا منسطا متسلطا على الأرض لا يقدر على قيام ولا قعود ، وأنه كان بطوى كما بطوى الحسير ، وكان يتكلم بالامامية . ومن ذلك ما يروى من شق من أنه كان نصف إنسان ، فكانت له يد واحدة ورجل واحدة ، ولذلك سمى « شقسا » . وهو ابن خالة سطيح . ويروى أن ولادتهما كانت في يوم واحد ، وأنه في ذلك اليوم توفيت طريقة ابنة الخير الحسيرة الكاهنة .

(٢) هو عبد المسيح بن عمر بن بيلة النساني ابن المختلج .

فلنذكر الآن ما وقع لأهل الأثر في ذلك ثم نرجع
لكلام النجيين .

• • •

أما أهل الأثر في مدة الملل وبقاء الدنيا على
ما وقع في كتاب السهيلي فإنه نقل عن الطبري
ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ اليلة خمسمائة
سنة ، ونقيض ذلك يظهر كنبه : ومستند الطبري
في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة
من جمیع الآخرة ، ولم يذكر ذلك دليلاً . وسره
والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السموات والأرض
وهي سبعة ، ثم اليوم بألف سنة لقوله : « وَإِنَّ
يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعْلُونَ » (١) قال :
وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : « أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ
صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ » . وقال :
« بُيُوتُ أَنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ » ، وأشار بالسبابة
والوسطى ، وقدر ما بين صلاة العصر وغروب
الشَّمْسِ حين صيرورة ظل كل شيء مثليه ، يكون
على التقريب نصف سبع ، وكذلك وصل الوسطى
على السبابة ، فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة
كلها ، هو خمسمائة سنة . ويؤيده قوله صلى الله
عليه وسلم : « لَنْ يَحْجِزَ اللَّهُ أَنْ يَوْحَرَ هَلِهِ الْأَمَّةُ
نِصْفَ يَوْمٍ » ، فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل
اليلة خمسة آلاف وخمسمائة سنة . وعن وهب
ابن منبه أنها خمسة آلاف وسبعمائة سنة ، أعني الماضي .
وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة .

(١) آخر الآية ٢٧ من سورة الحج .

بعض مزاعمهم أنه كان نبياً ، لأن تاريخه عندهم
قبل الهجرة يشكّر . والله أعلم .

وقد يستند الجبل في ذلك إلى هير الأنبياء إن
كانَ لهمدم ، كما وقع لبني إسرائيل ، فإن أنبياءهم
المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عندما
يعتونه في السؤال عنه .

وأما في الدولة الإسلامية فوقع منه كثير فيما
يرجع إلى بقاء الدنيا ومدتها على العموم ، وفيما يرجع
إلى الدولة وأعمالها على الخصوص . وكان المحدث
في ذلك في صدر الإسلام آثار منقولة عن الصحابة ،
وخصوصاً مُسَلِّمة بنى إسرائيل ، مثل كعب الأحرار ،
وهوب بن منبه وأمثالهما . وربما اقتبسوا بعض
ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة .

ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من
ذلك ومستندهم فيه - والله أعلم - الكشف بما
كانوا عليه من الولاية . وإذا كان مثله لا ينكر مع
غيرهم من الأولياء في ذوهم وأحقابهم ، وقد قال
صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ يَكُنَّ مُحَدَّثِينَ » ، فهم
أولى الناس بجله الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة
وأما بعد صدر الملة ، وحين خلق الناس على العلوم
والاصطلاحات ، وترجمت كتب الحكماء إلى
اللسان العربي ، فأكثر معتدّهم في ذلك كلام
النجيين في الملك والدول وسائر الأمور العامة مع
القرائن وفي المواليد والمسائل وسائر الأمور الخاصة
من الطوالع لها ، وهي شكل الفلك عند خلونها .

وسلم يسأله : هل مع هذا غيره ؟ فقال (المص) ، ثم استزاد (الر) ، ثم استزاد (المر) . فكانت إحدى وسبعين ومائتين فاستطال المدة . وقال قد لُجِسَ علينا أمرك يا محمد ! حتى لا ندري أفليلا أعطيت أم كثيراً ، ثم ذهبوا عنه . وقال لهم أبو ياسر : ما يلزكم لعله أعطى عددها كلها تسعمائة وأربع سنين . قال ابن إسحق : فنزل قوله تعالى « مِنْ آيَاتِ مُحْكَمَاتِ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ » (١)

ولا يقوم من القصّة دليل على تقدير المدة بهذا العدد ، لأن دلالة هذه الحروف على الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية . وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجُمَّل . نعم إنه قديم مشهور ، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة . وليس أبو ياسر وأخوه حىً ممن يؤخذ رأيهم في ذلك دليلاً ، ولا من علماء اليهود ، لأنهم كانوا يادية بالحجاز ، خُفلاً من الصنائع والعلوم ، حتى من علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم ، وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة . فلا ينهض للسّهيل دليل على ما ادعاه من ذلك .

ووقع في الملة في حديثان ذوّكتها على الخصوص مُسَنَّدٌ من الآثار إجمالى في حديث خرجّه أبو داود عن حُلَيْفَةَ بِنِ الْيَسَّانِ من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهلي عن سعيد بن أبي مريم عن عبد الله بن قُرُوح عن أُمَامَةَ بِنِ زَيْدِ اللَّيْثِيِّ عن أَبِي قَبِيصَةَ بِنِ

قال السّهيلي : وليس في الحليتين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بمخلافه . فلما قوله : « لن يعجز الله أن يوعّز هذه الأمة نصف يوم » ، فلا يقتضى نفى الزيادة على النصف . وأما قوله : « بُيِّنْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ » ، فإنما فيه الإشارة إلى القُرب ، وأنه ليس بينه وبين السّاعة نبي غيره ، ولا شرع غير شرعه .

ثم رجع السّهيلي إلى تعيين أمد الحيلة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق ، وهو أنه جمع الحُرُوفِ المقطعة في أوائل السُّورِ بعد حذف المكر ، قال : وهي أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك (ألم يسطع نصر حتى كره) فلأخذ عددها بحساب الجُمَّل (١) فكان سبعمائة وثلاثة (٢) ، أضافه إلى المنقضى من الألف الآخر قبل بحثه ، فهذه هي مدة الملة . قال : ولا يبعد أن يكون ذلك من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها . قلت وكونه لا يبعد لا يقتضى ظهوره ولا التحويل عليه .

والذى حمل السّهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في السّير لابن إسحق في حديث ابنى أعظم من أجبار اليهود ، وهما أبو ياسر وأخوه حىً ، حين سمعا من الأحرف المقطعة « ألم » ، وتأنّوا لها على بيان المدة بهذا الحساب ، فبلغت إحدى وسبعين فاستقلاً المدة . وجاء حىً إلى النبي صلى الله عليه

(١) انظر الحديث منه على طريقى الشارقة والخزربة في مشنودة . ٥ . وفى هامش ص ٥٤٠ ج ١ .

(٢) خلق الهورينى على ذلك بما يلى : « هذا المد غير مطابق ، كما أن المترجم التتركي لم يطابق في قوله ٩٢٠ ، وإنما الطابق للحروف المذكورة ٩٢٢ ، وهو الموافق لما سلكه عن يثوب الكنتلى » .

(١) آية ٧ من سورة آل عمران ، وقد اجترأ ابن اسحق بجره منها ، مع أن المعنى الذى يريد تقريره لا يستفاد إلا إذا ذكرت الآية كلها .

بها أبو داود في هذا الطريق ^(١) شاذة منكزة ، مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله . فقال ابن أبي مرزوم في ابن فروخ : أحاديثه متأكبر ، وقال البخاري : يعرف منه وينكر ، وقال ابن عدي : أحاديثه غير محفوظة . وأسامة بن زيد ^(٢) وإن خرج له في الصحيحين ، ووثقه ابن معين ، فإنما خرج له البخاري استشهاده ، وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد ابن حنبل ، وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به . وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول . فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شلوذها كما مر .

وقد يستدلون في حديثان الدول على الخصوم إلى كتاب البقر ، ويؤمنون أنه فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والتجزم ، لا يزيدون على ذلك ، ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده .

وأعلم أن كتاب الجفر كان أصله : أن هارون ابن سعيد العجلي - وهو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق ، وفيه علم ما سيق لأهل البيت على العموم ؛ ليعرف الأشخاص منهم على الخصوص . وقع ذلك لجعفر ونظارته من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لثلاثهم من الأولياء . وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير ، فرواه عنه هرون العجلي وكتبه ،

ذؤيب عن أبيه ، قال : قال حليفة بن بيان : والله ما أدرى أنسى أصحابي أم تناسوه ، والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فئة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلثائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته . وسكت عليه أبو داود ، وقد تقدم أنه قال في رسالته : ما سكت عليه في كتابه فهو صالح . وهذا الحديث إذا كان صحيحاً فهو مجمل ، ويفتقر في بيان إجماله وتعيين مبهماته إلى آثار أخرى يجرود أسانيدها . وقد وقع إسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه . فوقع في الصحيحين من حديث حليفة أيضاً قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيباً ، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث عنه ، حفظه من حفظه ونسبه من نسبه ، قد علمه أصحابه هؤلاء ^١ . ولفظ البخاري ما ترك شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره . وفي كتاب الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر بنهار ، ثم قام خطيباً ، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ونسبه من نسبه ^١ .

وهذه الأحاديث كلها محفوظة على ما ثبت في الصحيحين من أحاديث الفتن والأشراط ، لاخير ، لأنه المهود من الشارح صلوات الله وسلامه عليه ، في أمثال هذه العمومات . وهذه الزيادة التي تفرد

(١) وهي قوله : « ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فئة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلثائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته » .
(٢) يقصد أسامة بن زيد اللبني ، الذي ورد اسمه في سند هذا الحديث .

ويبلغ هذا الخبر حادثة إسماعيل المنصور ، فلما حاصره صاحب الحمار^(١) أبو يزيد بالمهلية كان يُسأَل عن منتهى موقفه ، حتى جاءه الخبر ببلوغه إلى المكان الذي عينه جده عبيد الله فليقن بالظفر ، وبرز من البلد ، فهزمه وأتيه إلى ناحية الزاب فظفر به وقتله . ومثل هذه الأخبار عندهم كثيرة .

• • •

وأما النجمون فيستندون في حديثان الدول إلى الأحكام النجومية . أما في الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرائنات ، وخصوصاً بين العلويين . وذلك أن العلويين : زحل والمشتري يقتربان في كل عشرين سنة مرة ، ثم يعود القرائن إلى برج آخر في تلك المثلثة من الثلاث الأبن ، ثم بعده إلى آخر كذلك ، إلى أن يتكرر في المثلثة الواحدة اثنتي عشرة مرة تستوى برؤجه الثلاثة في ستين سنة ، ثم يعود فيستوى بها في ستين سنة ، ثم يعود ثالثة ثم رابعة بالمستوى في المثلثة باثنتي عشرة مرة ، وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة ، ويكون انتقاله في كل برج على الثلاث الأبن ، وينتقل من المثلثة إلى المثلثة التي تليها أعنى البرج الذي يلي البرج الأخير من القرائن الذي قبله في المثلثة .

وهذا القرائن الذي هو قرائن العلويين . ينقسم إلى كبير وصغير ووسط : فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك ، إلى أن يعود

وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب عليه ، لأن الجفر في اللغة هو الصغير^(٢) ، وصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم . وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المأثور مرويّة عن جعفر الصادق . وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عُرف عينه ، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل . ولو صحّ السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه ، فهم أهل الكرامات ، وقد صحّ عنه أنه كان يحضر بعض قرايته بوقائع هكؤن لهم ، فتصح كمايقول . وقد خلر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه ، فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف . وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علماً وديناً وآثاراً من النبوة ، وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لقروعه الطيبة . وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام ، غير منسوب إلى أحد . وفي أخبار دولة العبّاسيين كثير منه . وانظر ما حكاه «ابن الرقيق» في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب ، وما حدثا به ، وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعيتهم باليمن ، فأمره بالخروج إلى المغرب ، وبث الدعوة فيه على علم لقّنه أن دعوته تتم هناك ، وأن عبيد الله لما بنى المهديّة بعد استحصال دولتهم بإفريقية قال : «بنيتهما ليمتصم بها القواطم ساعة من نهار» وأراهم موقف صاحب الحمار (بمساحتها ،

(١) ما بين القوسين تنفرد به النسخة المسماة «بالتحوية» ، وبدونه لا تكون العبارة مفهومة .

(٢) خلق .هـ. والى بان في العبارة تصانصديده «لأن الجفر اللغة هو ولد النصارى أو المرو الصغير» ثم أطلق على جلده ، ثم أطلق على كل جلد صغير .

قال جراس بن أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك :

« ورجوع المريخ إلى المغرب له أثر عظيم في الملة الإسلامية لأنه كان دليلها ، فالولد النبوي كان عند قرآن المذوبين ببرج المغرب ؛ فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل السلم والدين ونقصت أحوالهم ، وربما أتهم بعض بيوت العبادة . وقد يقال إنه كان عند قتل علي رضي الله عنه ، ومروان من بني أمية ، والتوكل من بني العباس . فإذا رُوِيت هذه الأحكام مع أحكام القِرانات كانت في غاية الإحكام » .

« وذكر شاذان البلخي : أن الملة تنتهي إلى ثلاثمائة وعشرين . وقد ظهر كذب هذا القول . وقال أبو مَعشَر : يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ، ولم يصح ذلك » .

وقال جراس : « رأيتُ في كتب القدماء أن المتنجمين أخبروا كسرى عن مُلك العرب وظهور النبوة فيهم ، وأن دليلهم الزُّهرة وكانت في شرفها ، فيبقى الملك فيهم أربعين سنة . وقال أبو معشر في كتاب القِرانات : القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزُّهرة . ووقع القرآن مع ذلك ببرج المغرب وهو دليلُ العرب : ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبيٌّ ويكون قوة ملكه وملكته على ما بقي من درجات شرف الزُّهرة ، وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت ، ومدة ذلك ستائة وعشر سنين .

إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة ، والوسط هو اقتران المَظْوِيَّين في كل مئة اثنتي عشرة مرة ، وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مئة أخرى ، والصغير هو اقتران المَظْوِيَّين في درجة برج ، وبعد عشرين سنة يقترنان في برج آخر على ثلثيه الأيمن في مثل درجه أو دقائقه .

مثال ذلك وقع القرآن أول دقيقة من الحمل ، وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس ، وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الأسد ، وهذه كلها نارية ، وهذا كله قرآن صغير . ثم إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القرآن وعود القرآن ، وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها ، وهذا قرآن وسط . ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية ، ثم يرجع إلى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو الكبير . والقرآن الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الملك والدولة ، وانتقال الملك من قوم إلى قوم ، والوسط على ظهور المتغلبين والطالبيين للملك ، والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وغرابة المدن أو حمرانها . ويقع أثناء هذه القِرانات قرآن التَّحْسِين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرةً ويسمى الرابع . وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وبأل زحل وهبوط المريخ ، فتعظم دلالة هذا القرآن في الفتن والحروب ، وسفك الدماء ، وظهور الخوارج وحركة الصاكر ، وعصيان الجند ، والوباء والقسط ويوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرانها على قدر تيسر الدليل فيه .

وينتقل القِرآن من الهوائية إلى القرب ، وهو مالى وهو دليل العرب . فهذه الأدلة تفضى للملة مدة قَوْر الزُّهْرَة وهى ألف وستون سنة . وسأَل كسرى أبرويز ألبوس الحكيم عن ذلك ، فقال مثل قول بزرجمهر . وقال توفيل الرومى المنجم فى أيام بنى أمية إن ملة الإسلام تبقى مدة القِرآن الكبير تسعمائة وستين سنة ، فإذا عاد القرآن إلى برج الغرب كما كان فى ابتداء الملة ، وتغير وضع الكواكب عن حيثها فى قرآن الملة ، فحينئذ إما أن يفتر العمل به أو يتحدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن .

قال جراس : « واففقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار . حتى تهلك سائر المكونات ، وذلك عندما يقطع قلب الأسد أربعمائة وعشرين درجة . التى هى حد المِريخ وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة . »

وذكر جراس : « أن ملك زَامَلْستان بحث إلى المأمون بحكيه فويان ، أتخفه به فى هدية ، وأنه تصرف للمأمون فى الاختبارات بحروب أخيه ويعد اللواء لظاهر ، وأن المأمون أعظم حكمته ، فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله فى ولد أخيه ، وأن العجم يتخطبون على الخلافة من الديلم فى دولة سنة خمسين ، ويكون ما يريد الله ، ثم يسوء حالهم ، ثم تظهر الترك من من شبال المشرق فيملكونه إلى الشام والقرات وسيحون وسيملكون بلاد الروم ، ويكون ما يريد الله . فقال له المأمون : من أين لك هذا ؟ فقال من

وكان ظهور أبى مسلم^(١) عند انتقال الزُّهْرَة ، ووقع القسمة أول الحمل ، وصاحب الجد المشتري . » وقال يعقوب بن اسحق الكندى : إن مدة الملة تنتهى إلى سِتائة وثلاث وتسعين سنة . قال : لأنَّ الزُّهْرَة كانت عند قرآن الملة ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت . فالباقى إحدى عشرة درجة وثمالي عشرة دقيقة ودقائقها ستون ، فيكون مِائة وثلاثاً وتسعين سنة . قال : وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء ، ويعضده الحروف الواقعة فى أوّل السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجُمْل . قلت وهذا هو الذى ذكره السهيلي . والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه .

قال جراس : « سأَل هرمز لإفريد الحكيم عن مدة أردشير وولده وملوك الساسانية فقال : دليل ملكه المُشْتَرى ، وكان فى شرفه فيعطى أطول السنين وأجودها ، أربعمائة وسبعاً وعشرين سنة ، ثم نزيد الزُّهْرَة ، وتكون فى شرفها وهى دليل العرب ، فيملكون لأن طالع القِرآن الميزان ، وصاحبه الزُّهْرَة ، وكانت عند القرآن فى شرفها ، فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة . وسأَل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب ، فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته ، ويملك المشرق والمغرب ، والمُشْتَرى يخلص إلى الزُّهْرَة ،

(١) يقصد أبى مسلم الخراسانى داعية بنى العباس وموطئ دولتهم .

إلى جعفر الصادق وذكر فيه - فيما يقال - حدثان دولة بني العباس ، وأنها نهايته ، وأشار إلى أنقراضها والحادثة على بغداد أنها مع أنقضاء المائة السابعة ، وأن بانقراضها يكون انقراض الملة . ولم نقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ، ولطه غرق في كتبهم التي طرحها هلاكاً تلك التثر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء . وقد وقع بالمغرب جزء منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير ، والظاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن ، لذكر الأولين من الملوك الموحدين فيه على التفصيل ، ومطابقة من تقدم من ذلك من حديثاته وكذب ما بعده .

وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحديثان . وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بزييل من أصحاب صنائع الدولة ، قال : بعث إلى الربيع والحسن في غزاهما مع الرشيد أيام أبيه ، فجشتهما جوف الليل ، فإذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحديثان ، وإذا مدّة المهدي في عشرين سنين . فقلت : هذا الكتاب لا يخفى على المهدي ، وقد مضى من دولته ما مضى ، فإذا وقف عليه كنتم قد نعيمتم إليه نفسه قالوا : فما الحيلة ؟ فاستدعيت عتبة الوراق مولى آل بزييل ، وقلت له انسخ هذه الورقة ، واكتب مكان عشر أربعين ففعل . فوالله لولا أني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي .

كتب الحكماء ومن أحكام صفة بن داود الهندي الذي وضع الشطرنج . قلت والترك الذين أشار إلى ظهورهم بعد النيل هم السلاجقة ، وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع .

وقال جراس : « وانتقال القيران إلى الثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليؤخر ويعدّها إلى برج القرب حيث كان قيران الملة ثلاث وخمسين . قال والذي في الحوت هو أول الانتقال والذي في القرب يستخرج منه دلائل الملة . قال : وتحویل السنة الأولى من القيران الأول في الثلاث المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة (١) » . ولم يستوف الكلام على ذلك .

وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص ، فمن القيران الأوسط وهيئة تلك عند وقوعه ، لأن له دلالة عندهم على حدوث الدولة ، وجهاتها من العمران ، والقائمين بها من الأمم ، وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم وتجليهم وأديانهم وعوائلهم وحروبهم ، كما ذكر أبو منشر في كتابه في القيرانات وقد توجد هذه الدلالة من القيران الأسفل إذا كان الأوسط ذالاً عليه ، فمن هذا يوجد الكلام في الدول .

وقد كان يعقوب بن إسحق الكندي منجم الرشيد والمؤمن وضع في القيرانات الكائنة في الملة كتاباً سماه الشيعة بالجفر ، باسم كتابهم للنسب

وذكر ميته قتيلاً بقاس . وكان كذلك فيما زعموه .
وأوله :

في صبح ذا الأزرق لشرفه خياراً
فانهموا يا قوم هذى الإشاراً
نجم زحل يلى أخير العلاما
وبدل الشكلا وهى مسلاما
شاشية زرقا بدل العماما
وشاش أزرق بدل الغراما
يقول في آخره :

قد تم ذا التنجيس لإتسان يهودى
يعلم ببلدة فاس في يوم عيد
حتى يجبه الناس من البوادى
وقته يا قوم على الفرادى
وأبياته نحو الخصائفة ، وهى فى القرائنات
التي دلت على دولة الموحدين .

ومن ملاحم المغرب أيضاً قصيدة من عروض
المتقارب على روى الباه فى جئنان دولة بنى أبى
حضر بتونس من الموحدين ، منسوبة لابن الأبار
وقال فى قاضى قسنطينة الخطيب الكبير أبو على
ابن بكريس ، وكان بصيراً بما يقوله ، وله قدم فى
التنجيم ، فقال لى : إن هذا ابن الأبار ليس هو
الحافظ . الأندلسى الكاتب مقتول المستنصر ، وإنما
هو رجل خياط من أهل تونس تواطت شهرته مع
شهرة الحافظ . وكان والدى رحمة الله تعالى ينشد
هذه الأبيات من هذه اللحمة ويقى بعضها فى
حفظى مطلعها :

عليرى من زمن قلب يعز يسارقة الأشنب

ثم كتب الناس من بعد ذلك فى جئنان الدول
منظوماً ومنثوراً ورجزاً ما شاء الله أن يكتبوه ،
ويلى الناس متفرقة كثير منها ، وتسمى الملاحم .
وبعضها فى جئنان الملّة على العموم ، وبعضها فى
دولة على الخصوص . وكلها منسوبة إلى مشاهير
أهل الخليفة . وليس منها أصل يعتمد على روايته
من واضعه المنسوب إليه .

فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مِرانة من
بحر الطويل على روى الراى وهى متدولة بين
الناس . وتحسب العامة أنها من الجئنان العام
فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل .
والذى سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بلولة
لمتونة ، لأن الرجل كان قبيل دولتهم ، وذكر
فيها استيلائهم على سبّة من يد موالى بنى حمود
وملكهم لمتونة الأندلس .

ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضاً قصيدة تسمى
التبعية أولها :

طربت وما ذاك متى طرب
وقد طرب الطائر المفتصب
وما ذاك متى للهو أراه

ولكن تذكر بتغرض السبب
قريباً من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال .
ذكر فيها كثيراً من دولة الموحدين وأشار فيها إلى
القاضى وغيره . والظاهر أنها مصنوعة .

ومن الملاحم بالمغرب أيضاً ملحبة من الشعر
الرجلى منسوبة لبعض اليهود ، ذكر فيها أحكام
القرائنات لعصره : الطويين والنحنين وغيرهما ،

ومنها :

وَيَبْتَغِي مَنْ جَبَّهَ قَائِلًا وَيَبْقَى هُنَاكَ عَلَى مَرْقَبٍ
فَتَلْقَى إِلَى الشَّيْخِ أَخْبَارَهُ فَيَقْبِلُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرَبِ
وَيُظْهِرُ مِنْ عَذْلِهِ بَيْرَةً وَتِلْكَ سِيَاسَةٌ مُسْتَجَلِبِ
ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم :

فلَمَّا رَأَيْتَ الرَّسُومَ انْجَحَتْ

وَلَمْ يَرَّحْ حَقٌّ لَقَى مَنَصِبِ

فَعَلَّ فِي التَّرَحُّلِ عَنْ تُونُسِ

وَوَدَّعَ مَصَالِمَهَا وَانْهَبَ

فَسَوْفَ تَكُونُ بِهِيَافِتْنَسَةِ

تُصَيِّفُ الْبَرَى إِلَى الْمُنْصِبِ

وَوَقَفْتُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مِلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي

أَبِي حَضْرَ هَوْلَاهُ بِتُونُسِ ، فِيهَا بَعْدَ السُّلْطَانِ

أَبِي يَحْيَى الشَّهِيرِ عَاشَرَ مُلُوكِهِمْ ذَكَرْتُ مُحَمَّدَ أَخِيهِ

مَنْ بَعْدَهُ يَقُولُ فِيهَا :

وَبَعْدَ أَبِي عُبَيْدِ الْإِلَهِ شَقِيقُهُ

وَيَعْرِفُ بِالْوُثَابِ فِي تُسْحَةِ الْأَصْلِ

إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ ، وَكَانَ

يُمْنَى بِذَلِكَ بِفَسَهُ إِلَى أَنَّ هَلَكَ .

وَمِنَ الْمَلَامِ فِي الْمَغْرِبِ أَيْضًا الْمَلَكِيَّةُ الْمُنْسُوبَةُ

إِلَى الْهَوْشِيِّ (١) عَلَى لُفَّةِ الْعَامَةِ فِي عُرُوضِ الْبِلَادِ الَّتِي

أَوَّلَهَا :

دَعَى بِبُحْمَى الْهَيَّانِ فَتَرَتْ الْأَمْطَارُ وَلَمْ تَفْتَرِ

وَاسْتَقَتَّ كُلُّهَا الْوُدْيَانِ وَأَلَى تَمَسُّلٍ وَتَنْفُسَلِرِ

الْبَسْلَادِ كُلُّهَا تَرَوِي قَاوُلُ مَا مِيلَ مَا تَدْرِي

مَا بَيْنَ الصَّيْفِ وَالشَّتْوَى وَالْعَامِ وَالرَّبِيعِ لِحَصْرِ

قَالَ حِينَ صَحَّتِ الدَّهْوَى دَعَى نَبْكَى مِنْ حَلْرِ

أَنَادَى مِنْ ذِي الْأَرْمَانِ ذَا الْقَرْنِ اشْتَدَّ وَغَمَرِي

وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَمَحْضُوقَةٌ بَيْنَ عَامَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى

وَالْغَالِبِ عَلَيْهَا الْوَضْعُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَصْغُ مِنْهَا قَوْلٌ إِلَّا

عَلَى تَأْوِيلِ تَحْرِفِهِ الْعَامَةِ أَوِ الْحَارِفِ فِيهِ مَنْ يَنْتَحِلُهَا

مِنَ الْخَاصَّةِ .

وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ عَلَى مِلْحَمَةٍ مُنْسُوبَةٍ لِابْنِ

الْعَرَبِيِّ الْحَاطِيٍّ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ شَبَّهَ أَلْفَاظَ لَا يَعْلَمُ

تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ تَتَخَلَّلُهُ أَوْفَاقٌ عَدِيدَةٌ ، وَرُمُوزٌ مَلْفُوزَةٌ ،

وَأَشْكَالٌ حَيَوَانَاتٌ ثَامَةٌ ، وَرُؤُوسٌ مَقْطَعَةٌ ، وَتَأْمِيلٌ

مِنْ حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ . وَفِي آخِرِهَا قَصِيدَةٌ عَلَى رُويِ

الْلَامِ ، وَالْغَالِبُ أَنَّهَا كُلُّهَا غَيْرُ صَحِيحَةٍ . لِأَنَّهَا لَمْ

تَنْشَأَ عَنْ أَصْلِ عِلْمِيٍّ مِنْ نَجَامَةٍ وَلَا غَيْرِهَا .

وَسَمِعْتُ أَيْضًا أَنَّ هُنَاكَ مَلَامِحَ أُخْرَى . مُنْسُوبَةٌ

لِابْنِ سَبِيحَا وَأَبْنِ عَضْبٍ ، وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ

عَلَى الْحَصَّةِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوْخَذُ مِنَ الْقِرَائِنَاتِ .

وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ أَيْضًا عَلَى مِلْحَمَةٍ مِنْ جِذَائِنِ

دَوْلَةِ التُّرْكِ مُنْسُوبَةٍ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ يُسَمَّى

الْبَاكْرِيَقِيَّ وَكُلُّهَا أَلْفَاظٌ بِالْحُرُوفِ ، أَوَّلُهَا :

إِنْ شِئْتَ تَكْشِفُ سِرَّ الْجَبْرِ بِأَسَالِ

مَنْ حَلِمَ جَبْرٌ وَيَحْيَى وَالِدَ الْحَسَنِ

فَاتَّقِهِمْ وَكُنْ وَاعِيًا حَرْقًا وَجَمَلَكُ

وَالْوَعْفُ فَالْفَهْمُ فَكُفْ الْحَاقِقُ الْفَعْلُ

أَمَّا الَّذِي قَبْلَ عَصْرِي لَسْتُ أَذْكُرُهُ

لَكِنِّي أَذْكُرُ الْآخَرَ مِنَ الزَّمَنِ

(١) هكذا ورد في « التنبؤية » - وفي غيرها : « الهوشى »

يعهر بيبرس ببقى بعد هممتها

بحاء ميم يطيش نام فى الكتن
شين له أثر من تحت سرتيه
له القضاء قضى أى ذلك المتن
فمصر والشام مع أرض العراق له
وأذربيجان فى ملك إلى اليمن
ومنها :

وآل بوزان لما نال طاهرهم

الفتاك الباتك المنى بالسمن
لخلع سمن ضعيف السن سين أى
لا لو فاق ونون ذى قرن
قوم شجاع له عقل ومشورة
يبنى بحسك وأين بعد ذو سن
ومنها :

من بعد باه من الأقوام قتلته

بلى المشورة ميم الملك ذو اللسن
ومنها :

هذا هو الأعرج الكلبى فاعن به

فى عصره فتن ناهيك من فتن
يأتى من الشرق فى جيش يقدمهم
عار عن القاف قاف جد بالفتن
بقتل دال ومثل الشسام أجمعها

أبدت بشجو على الأهلين والوطن
إذا أتى زلزلت يابوح مصر من

الزلزال ما زال حاء خير مقتطن

طاء وظاء وعين كلهم حسسوا

هلكا وينفق أسوالا بلا نمن

يسير التساق قافاً عند جمعهم

هون به إن ذاك الحصن فى سكن
وينصبون أخاه هو صالحهم
لا سلم الألف سين لذاك بنى
تمت ولايتهم بالحا لا أحد
من الستين يدانى الملك فى الزمن
ويقال إنه أشار إلى الملك الظاهر وقدم أبيه
عليه مصر :

يأتى إليه أبوه بعد هجرته

وطول غيبته والشظف والزرن
وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ، ومثل
صنعها كان فى القديم كثيراً أو معروف الانشاك .
حكى المورخون لأخبار بغداد : أنه كان أيام
المقتدر ورائى ذكى يعرف بالثنيلى ، يبل الأوراق
ويكتب فيها بخط حقيق يرمز فيه بحروف من أمه
أهل الدولة ، ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من
أحوال الرفعة والجاه كلتها ملاحم ، ويحصل على
ما يريد منهم من الدنيا ، وأنه وضع فى بعض
دفاتره ميماً مكررة ثلاث مرات ، وجاء به إلى
مفلح مولى المقتدر (وكان عظيماً فى الدولة) ،
فقال له : هذا كناية عنك ، وهو مفلح مولى مقتدر
(ميم فى كل واحدة) ، وذكر عندها ما يعلم فيه
رضاه عما يناله من الدولة ونصب له علامات لذلك
من أحواله المتعارفة موه بها عليه ، فبذل له ما أغناه
به . ثم وضعه للوزير (الحسن) بن القاسم به
وهب (على مفلح هذا) ، وكان مزولاً فجاءه
بأوراق مثلها ، وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف

وهو أمر مختص ، إذ الرمز إنما يهدي إلى كشفه
قانون يعرف قبله ، ويوضع له ، وأما مثل هذه
الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا
النظم لا يتجاوزها . فرأيت من كلام هذا الرجل
الفاضل شفاة لما كان في النفس من أمر هذه الملحمة
« وَمَا كُنَّا لِنَتَقَدَّرَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » (١) .
والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

وبعلامات ذكرها وأنه يلى الوزارة للثامن عشر من
الخلفاء وتستقيم الأمور على يديه ، ويقهر الأعداء ،
وتعمر الدنيا في أيامه . وأوقف مفلحاً هذا على
الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى ، وملاحم من هذا
هذا النوع ، مما وقع وما لم يقع ، ونسب جميعه إلى
دانيال . فأعجب به مفلح . ووقف عليه المقتدر ،
واهتمى من تلك الأمور والعلامات إلى ابن وهب ،
وكان ذلك سبباً لوزارته بمثل هذه الحيلة العريقة في
الكلب والجهل بمثل هذه الألفاظ . والظاهر أن هذه
الملحمة التي ينسبونها إلى الباجريقى من هذا النوع .
وقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية
من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا
الرجل الذى تنسب إليه من الصوفية وهو الباجريقى
وكان عارفاً بطرائقهم ، فقال : كان من القلندر
المبتدعة في حلق اللحية ، وكان يتحدث عما يكون
بطريق الكشف ويومى إلى رجال معينين عنده ،
ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه
منهم . وربما يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان
يتعاهدها فتتوالت عنه ، وولع الناس بها وجعلوها
ملحمة مرموزة ، وزاد فيها الخراصون (١) من ذلك
الجنس في كل عصر ، وشغل العامة بفك رموزها ،

(١) جزء من آية ٢٣ من سورة الأعراف .

(٢) عبارة : « والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق » غير
موجودة في « التكملة » . ويعد أن وجدت في هذه النسخة طامة
على غمام الباب ، كتب تحت هذه العلامة لفراس (دخل
النسخة نفسه من خط النسخ) العبارة الآتية :

« لم وقعت بعد ذلك وأنا بمشقق عند حوالى مع الركاب بها سنة
النتين وثمانمائة وأنا على قضاء المالكية بمصر ، فوفقت على تاريخ ابن
كثير في سنة أربع وعشرين وسبعمائة في ترجمة التعريف بهذا الرجل ،
فقال : شمس الدين محمد الباجريقى الذى نسبته اليه الفرقة
الفاضلة الباجريقية ، والمشهور متقدم انكار الصانع . وكان والده
جمال الدين عبد الرحيم ابن عمر الوصلى رجلاً صالحاً عن طمس
الشافعية ، ودرس في مدارس دمشق ، ونشأ ابنه هذا بين الفقهاء ،
فاشتهل قليلاً ، ثم أقبل على السواد ، ولازمه جماعة يستقون فيه
من هو على طريقته . ثم حكم القاضي المالك باراقة دمه ، وحرب إلى
المشرق . ثم أقام البيعة بالمعاودة بينه وبين من شهد عليه . وحكم
الضلعى بقتل دمه . وأقام باقايون مدة سنتين . وتولى ليلة الاربعاء
السادس عشر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين (بنى وسبعمائة) »

ومن هذا يظهر ان النسخ قد نقل هذه العبارة عن تعليق إضافة
ابن خلدون نفسه الى ما كانت عليه القلمة قبل سنة ٨٠٢ . ووجهه
على ما مضى . (انظر صفحات ٣٠٥ - ٣٠٩ ، وخاصة أول ٣٠٩)
من التمهيد للقلمة بمتشورة . « وفى » .

(١) « غرض غرضاً كلياً ليس غرضاً وغرضاً » .

الباب الرابع

في البلدان والأمصار وسائر العمران

وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق^(١)

١ - فصل في أن الدول أقدم من المدن والأمصار
وأنها إنما توجد ثانية عن الملك

وبيانه ، أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من
منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما
قدمناه ، وذلك متأخر عن البداوة ومنازعتها ، وأيضاً
فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبنائهم
كبير ، وهي موضوعة للعموم لا للخصوص ،
فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون ، وليست
من الأمور الضرورية للناس التي تتم بها البلوى حتى
يكون نزوعهم إليها اضطراراً ، بل لابد من إكراههم
على ذلك ، وسوقهم إليه مضطهدين بعضا الملك
أو مرغبين في الثواب والأجر الذي لا يني بكثرة
إلا الملك والدولة . فلابد في تمصير الأمصار واختطاط
المدن من الدولة والملك .

ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب
نظر من شيدها ، وبما اقتضته الأحوال السائدة

(١) خلق د. وافي حل هذا الباب بقوله في ص ٩٦٥ من
مفتوحته : « عرض ابن خلدون في هذا الباب لما ساءه الملاحة
دور كاي » الموردولوجيا الاجتماعية . وقد ظن دور كاي وأصاها
مدرسته أنهم أول من نقل إلى الخواص الاجتماعية هذه الظواهر ،
وأول من أدخلها في مسائل علم الاجتماع . ولم يدروا أنه قد سبقهم
إلى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون .

والأرضية فيها ، فعمر الدولة حيثئذ عمر لها ؛
فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند
انتهاء الدولة وتراجع عمراتها وخريرتها ، وإن كان أمد
الدولة طويلاً ومدتها متفسحة فلا تزال المصانع فيها
تُشاد ، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعبد ، ونطاق
الأسواق يتباعد وينفصح ، إلى أن تتسع الخلطة ،
وتبعد المسافة ، وينفصح دَرع المساحة ، كما وقع
ببغداد وأمثالها . ذكر الخطيب في تاريخه : أن
الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة
وستين ألف حمام ، وكانت مشتتة على مدن
وأصهار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ، ولم
تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط
العمران . وكذا حال القيروان وقرطبة والمهديّة في
الأمّة الإسلامية ، وحال مصر القاهرة بعدها فيما
يبلغنا لهذا العهد .

وأما بعد انقراض الدولة المشيئة للمدينة :
فإما أن يكون نضواحي تلك المدينة وما قاربها من
الجيال والبساتن مائة تغليدها العمران دائماً ،
فيكون ذلك حافظاً لوجودها ، ويستمر عمرها بعد
الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب ، وبغراق
الحجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال ،

لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرّفق والكسب ، تدعو إلى الدّعة والسكون الذي في طبيعة البشر ، فينزّلون المدن والأمصار ويتأهلون وأما إذا لم يكن تلك المدينة المؤسّسة مادةً تفيدها العمران بقرادف الساكن من بلدوها ، فيكون القراض الدولة هرقاً لسياسها ، فيزول حفظها ، ويعتاقص عمرانها شيئاً فشيئاً إلى أن يَبْلُغَ^(١) ساكنها وتخرّب ، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق ، والقيروان والمهديّة وقلمة بنى حمّاد بالمغرب ، وأمثالها فتفهمه .

وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطبيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية ، يتخذها قراراً وكرسماً يستغنى بها عن اضطاط مدينة ينزلها ، فتحفظ. تلك الدولة سياسها وتزايّد مبانيها ومصانعها بتزايّد أحوال الدولة الثانية وترفعها ، وتستجد بعمرانها عمراً آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٢ - فصل في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وذلك أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين : أحدهما ما يدعو إليه الملك من الدّعة والراحة وحطّ الأنقال واستكمال ما كان ناقصاً من أمور العمران في البدو ، والثاني دفع ما يُتَوَقَّعُ على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين ، لأنّ المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأً لمن يروم منازعتهم

(١) ينفذ : ينفرد .

والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذي سماوا إليه من أيديهم ، فيحتصم بذلك الميصر ويظالمهم ، ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة ، والميصر يقوم مقام السواكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكابة الحرب من ورثه الجدران من غير حاجة إلى كثير عُد ولا عظيم شوكة ، لأنّ الشوكة والعصاية إنما احتيج إليهما في الحرب للثبات ، لما يقع من بعد كربة القوم بعضهم على بعض عند الجولة ، وثبات هؤلاء بالجدران ، فلا يضطرون إلى كبير عصاية ولا عدد . فيكون حال هذا الحصن ومن يحتصم به من المنازعين ممّا يفتّ في عضد الأمة التي تروم الاستيلاء ، ويخفّض شوكة استيلائها . فإذا كانت بين أحيائهم^(١) أمصار انتظموها في استيلائهم للآن من مثل هذا الانخرام . وإن لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولاً وحطّ أثقالهم ، وليكون ثانياً شجاً في خلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم . فتعين أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار والاستيلاء عليها . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق لأربّ سواه .

٣ - فصل في أن المدن العظيمة والمياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير

قد قلنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وأنها تكون على نسبتها . وذلك أنّ تشييد المدن

(١) هكذا وردت هذه الكلمة في النسخة « الشيورية » ووردت في جميع النسخ المتداولة محرقة إلى « أجنابهم » .

(٢) يحيل بك على ما ذكره في الفصل الثامن عشر من الباب الثالث .

ذلك العظم أو أعظم ، كليون كسرى ، ومباي
 الميبييين من الشيعة بإفريقية ، والصنهاجيين .
 وأثرهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد ،
 وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان ، وبناء
 الموحدلين في رباط الفتح ، ورباط السلطان أبي
 سعيد لمهد أربعين سنة في المنصورة بأزاء قلمسان ،
 وكذلك الحنايا التي جلب إليها أهل قرطاجنة الماء
 في القناة الراكبة عليها مائلة أيضا لهذا العهد ،
 وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا
 أخبار أهلها قريبا وبعيدا وثيقنا أنهم لم يكونوا
 بإفراط في مقادير أجسامهم ، وإنما هذا رأى ولع به
 القصاص عن قوم عاد وحمود والمالقة ، ونجد
 بيوت حمود في الحجر منحوتة إلى هذا العهد . وقد
 ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب
 الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في
 جوها ومساحتها وسمكها على المتعاهد . وإنما لبالفون
 فيما يعتقدون من ذلك ، حتى إنهم ليزعمون أن عروج
 ابن عتاق من جبل المالقة كان يتناول السمك من
 البحر طريقا فيشويه في الشمس ، يزعمون بذلك
 أن الشمس حارة فيا قرب منها ، ولا يعلمون أن الحر
 فيا لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح
 الأرض والهواء ، وأما الشمس في نفسها فغير حارة
 ولا بلردة ، وإنما هي كوكب مضى لايزال له .
 وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني . حيث
 ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها •
 والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد .

إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم ، فإذا
 كانت الدولة عظيمة متمعة الممالك حثيث الفعلة
 من أقطارها ، وجمعت أيديهم على عملها . وربما
 استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام^(١) الذي
 يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء ،
 لمجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك ، كالمحال^(٢)
 وغيره . وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى
 آثار الأقدمين ومصانيعهم العظيمة ، مثل إيوان
 كسرى ، وأهرام مصر ، وحنايا المعلقة وشرشال
 بالمغرب ، أنها كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين
 فيتخيل لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه
 بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر
 التي صدرت تلك المباني عنها ، ويغفل عن شأن
 الهندام والمحال ، وما اقتضته في ذلك الصناعة
 الهندسية .

وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن
 البناء واستعمال الحيل في نقل الأجرام عند أهل
 النوبة للمعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما
 قلناه عيانا . وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها
 العامة عادية نسبة إلى قوم عادلتوهم أن مباني عاد
 ومصانيعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قوتهم
 وليس كذلك ، فقد نجد آثارا كثيرة من آثار
 اللبث تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي في مثل

(١) يطلق الهندام حل حسن التنظيم والإصلاح والإدارة ،
 ويقصد به ابن خلدون هنا ما يشمل ذلك المبدأ والآلات والأجهزة
 التي يستعان بها في الصناعات .

(٢) في القاموس « الحالة والحال ، الخفة التي يستتر عليها
 الطيانون (البناون) في أثناء بنائهم وتقسيم البيوت » . وهي
 التي نسبها في مصر « الحالة » .

٤ - فصل في أن المياكل العظيمة جداً

لا تستقل بيتاتها الدولة الواحدة

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التكاون ومضاغة القدر البشرية ، وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه فيحتاج إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى أن تم ، فيبتدئ الأول منهم بالبناء ويحبه الثاني والثالث ، وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر القصة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون مثلاً للبيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة .

وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب وأن الذي بناه سبأ بن يشجب ، وساق إليه سبعين وادياً ، وعاقه الموت عن إتمامه فأتته ملوك حمير من بعده ، ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقتنا الراكية على الحنايا العادية . وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها ، ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لهندنا نجد الملك الواحد يشرع في اختطاطها وتأسيسها ، فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها .

ويشهد لذلك أيضاً أننا نجد آثاراً كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها ، مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير ، لأن الهدم وجوع إلى الأصل الذي هو العلم ، والبناء على خلاف الأصل ، فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم ، علمنا أن القدرة التي أسسته مضطرة القوة ، وأنها ليست

أثر دولة واحدة . وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما اعتزم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في محبته يستشيريه في ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه مثلاً ، يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل . فاتهمه في النصيحة ، وقال : أخلته الثغرة للعجم ، والله لأصرعه ، وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه ، واتخذ له القزوس وحماه بالنار ، وصب عليه الخل حتى إذا أدركه المعجز بعد ذلك كله وخاف القضية ، بعث إلى يحيى يستشيريه ثانياً في التجاني عن الهدم . فقال : يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك ، لثلا يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم . فعرفها الرشيد وأقصر (١) عن هدمه .

وكذلك اتفق للمؤمنين في هدم الأهرام التي يصر وجمع القصة لهدمها فلم يحل (٢) بطائل ، وشرعوا في نقيه ، فانتهروا إلى جو بين الحادث الظاهر وما بعده من الحيطان ، وهناك كان منتهى هدمهم ، وهو إلى اليوم فيما يقال منقذاً ظاهراً . ويزعم الزاعمون أنه وجد ركازاً (٣) بين تلك الحيطان . والله أعلم .

وكذلك حنايا الملقاة إلى هذا العهد : يحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنانهم

(١) في القاموس : أقصر عن الشيء عجز والمراد هنا كفت منه .

(٢) يعني لم يفر بما يريه .

(٣) الركاز : المال المدفون ، ويقال هو المدن (المصباح)

والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب . وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقية ، فلا يكاد ساكنها أو طارقيها يخلص من حُمى العفن بوجه . ولقد يقال إن ذلك حادث فيها ، ولم تكن كذلك من قبل . ونقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس مخدوم بالرصاص ، فلما قضى غشاؤه صعد منه دخان إلى الجو وانقطع ، وكان ذلك مبدأ أمراض الحميات فيه . وأراد بذلك أن الإناء كان مشتملا على بعض أعمال الطلسمات لوبائته ، وأنه ذهب سره بطلابه ، فرجع إليها العفن والوباء . وهذه الحكاية بين مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة . والبكري لم يكن من نباهة العلم واستيارة البصيرة بحيث يدلع مثل هذا أو يتبين خرقه فنقله كما سمعه .

والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يبيتها لتعفن الأجسام وأمراض الحميات رُكودها ، فإذا تخللتها الرياح ونفشت وذبحت بها ميمناً وشيئاً خف شأن العفن والمرض البادى منها للحيوانات . والبلد إذا كان كثير الساكين وكثرت حركات أهل فيتموج الهواء ضرورة وتحدثت الرياح المتخللة للهواء الرّاكدة ، ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتموج . وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه ، وبقي ساكناً راکداً وعظم عفنه وكثر ضرره . وبلاد قابس هذه كانت عندما كانت إفريقية مستجدة العمران كثيرة الساكن تموج

ويستعيد الصناعات حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عَصَب الريق^(١) ، وتجتمع له المحالل المشهورة ، شهدت منها في أيام صباى كثيراً . والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ^(٢) .

• فصل فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراجعة

اعلم أن المدن قرار يتخله الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواحيه ، فتؤثر اللعة والسكون ، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار . ولما كان ذلك للقرار والموى ، وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها ، وجلب المنافع ، وتسهيل المرافق لها .

فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جسيماً سياج الأتوار ، وأن يكون وضع ذلك في مُتَمَنِّع من الأمكنة ، إما على هضبة متوعدة من الجبل ، وإما باستداره بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة ، فيصعب شتالها على العدو ، ويتضاعف امتناعها وحصنها .

وبما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السأوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض ، فإن الهواء إذا كان راکداً خبيثاً ، أو مجاوراً للمياه القايصة أو متعفن أو مروج خبيث أسرع إليه العفن من مجاورتها ، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا معالة ، وهذا مشاهد .

(١) هركانية من لغة النيب .

(٢) آية ٩٦ من سورة الصافات .

بأهلها مَرَجًا ، نَكَانَ ذَلِكَ مَعْنَى حُلِّ تَمُوجِ الْهَوَاءِ واضطرابه وتخفيف الأذى منه ، فلم يكن فيها كثيرٌ حَقَنٍ ولا مَرَضٍ . وعندما هبَّت سَاكِنَتُهَا رَكَدَ هَوَاقِمُهَا الْمُتَحَفِّزُ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا ، فَكُتِرَ الْعَضَنُ وَالْمَرَضُ ، فَهَذَا وَجْهٌ لَا غَيْرَ . وَقَدْ رَأَيْنَا حَكَمَ ذَلِكَ فِي بِلَادٍ وَضِعَتْ وَلَمْ يَرَاخَ فِيهَا طَيْبُ الْهَوَاءِ وَكَانَتْ أَوَّلًا قَلِيلَةَ السَّاكِنِ فَكَانَتْ أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً ، فَلَمَّا كَثُرَ سَاكِنُهَا انْتَقَلَ سَالِحُهَا مِنْ ذَلِكَ . وَهَذَا يَمْثُلُ دَارَ الْمَلِكِ يَفَاسَ لِهَذَا الْعَهْدِ الْمُسَمَّى بِالْبِلَدِ الْجَلِيدِ ، وَكَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ فِي الْعَالَمِ . فَتَفَهَّمْهُ نَجِدَ مَا قُلْتَهُ لَكَ

وَأَمَّا جَلِبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ فِيرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ . مِنْهَا . . الْمَاءُ بَأَنَّ يَكُونُ الْبِلَدُ عَلَى نَهْرِ أَوْ بِلَازِئِهَا حَيَوْنَ عَذْبَةٍ ثَرَّةٌ (١) فَإِنْ وَجَدَ الْمَاءُ قَرِيبًا مِنَ الْبِلَدِ يَسْهَلُ عَلَى السَّاكِنِ حَاجَةُ الْمَاءِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ ، فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وَجُودِهِ مَرْفَقَةٌ عَظِيمَةٌ عَامَةٌ . وَمِمَّا يِرَاعَى مِنَ الْمَرَافِقِ فِي الْمَدْنِ طَيْبُ الْمِرَاعَى لِسَائِمَتِهِمْ ؛ إِذْ صَاحِبُ كُلِّ قَوَارٍ لَا يَدُلُّهُ مِنْ دَوَابِجِ الْحَيَوَانِ لِلنَّجَاحِ وَالضَّرْعِ وَالرَّكُوبِ ، وَلَا يَدُلُّهَا مِنَ الْمَرَضِ ؛ فَإِذَا كَانَ قَرِيبًا طَيِّبًا كَانَ ذَلِكَ أَرْوَقَ بِحَالِهِمْ . لَمَّا يَعَاوَنُ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي بَعْدِهِ .

وَمِمَّا يِرَاعَى أَيْضًا الْمَزَارِعُ ؛ فَإِنَّ الزُّرُوعَ هِيَ الْأَقْوَاتُ ، فَإِذَا كَانَتْ مَزَارِعُ الْبِلَدِ بِالقَرَبِ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ أَسْهَلَ فِي اتِّخَاذِهِ وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ . وَمِنْ ذَلِكَ الشَّجَرُ لِلْحَطَبِ وَالْبِنَاءِ ؛ فَإِنَّ الْحَطَبَ مِمَّا تَعْمُ الْبُلْدُ فِي اتِّخَاذِهِ لِقَوْدِ النَّيِّرَانِ لِلْإِضْطِلَالِ

(١) الثرة من الحيوان الغزيرة (القاموس) .

وَالطَّبِخُ ، وَالْخَشَبُ أَيْضًا ضَرُورِيٌّ لِسَقْمِهِمْ وَكَثِيرٍ لَمَّا يَسْتَعْمَلُ فِيهِ الْخَشَبُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ . وَقَدْ يِرَاعَى أَيْضًا قَرْبُهَا مِنَ الْبَحْرِ لِتَسْهِيلِ الْحَاجَاتِ الْقَاصِيَةِ مِنَ الْبِلَادِ النَّائِيَةِ ؛ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِعَثَابَةِ الْأَوَّلِ . هَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ الْحَاجَاتِ ، وَمَتَدَحُوهُ إِلَيْهِ ضَرُورَةُ السَّاكِنِ . وَقَدْ يَكُونُ الْوَاضِعُ خَافِلًا عَنْ حَسَنِ الْإِخْتِيَارِ الطَّبِيعِيِّ أَوْ إِنَّمَا يِرَاعَى مَا هُوَ أَهَمُّ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ ، وَلَا يَذْكُرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ ؛ كَمَا فَعَلَهُ الْعَرَبُ لِأَوَّلِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَدْنِ الَّتِي اخْتَفَطُوهَا بِالْعِرَاقِ وَافْرِيقِيَّةِ ، فَلَهُمْ لَمْ يِرَاعُوا فِيهَا إِلَّا الْأُمَمَ عَنْهُمْ مِنْ مِرَاعَى الْإِبِلِ وَمَا يَصْلُحُ لَهَا مِنَ الشَّجَرِ وَالْمَاءِ الْيَلْبَحِ ، وَلَمْ يِرَاعُوا الْمَاءَ وَلَا الْمَزَارِعَ وَلَا الْحَطَبَ وَلَا مِرَاعَى السَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ الظِّلْفِ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ ، كَالْقَيْرَوَانِ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ وَأَشْأَالِهَا ، وَلِهَذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْخَرَابِ لَمَّا لَمْ تِرَاعَ فِيهَا الْأُمُورَ الطَّبِيعِيَّةَ .

(فِصْل) وَمِمَّا يِرَاعَى فِي الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي

عَلَى الْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ ، أَوْ تَكُونَ بَيْنَ أَمَةٍ

مِنْ الْأُمَمِ مَوْفُورَةً الْعُدَدِ تَكُونَ صَرِيحًا (١) لِلْمَدِينَةِ

مَنْ طَرَفُهَا طَارِقٌ مِنَ الْعَدُوِّ .

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةً

الْبَحْرِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِسَاحَتِهَا عِمْرَانٌ لِلْقِبَائِلِ أَهْلُ

الْمَصِيبَاتِ ، وَلَا مَوْضِعُهَا مَتَوَعَّرٌ مِنَ الْجِبَلِ كَانَتْ

فِي غَرَةِ اللَّيَّاتِ ، وَسَهْلَ طَرُوقُهَا فِي الْأَسَاطِيلِ

الْبَحْرِيَّةِ عَلَى عُلُوِّهَا وَتَحْفِيفِهَا ، لَمَّا يَأْمَنُ مِنْ

وَجُودِ الصَّرِيخِ لَهَا ، وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُتَعَرِّضِينَ لِلذَّعَةِ

قَدْ صَارُوا حَيَالًا وَخَرَجُوا عَنْ حَكَمِ الْمُقَاتَلَةِ ، وَهَذِهِ

(١) الصريح والصراخ ؛ اللَّيَّاتُ وَالْمُسْتَعْيِثُ (الْقَامُوسُ) .

وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن تزك معهم مع جرمهم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالبحر منه .

وبيت المقدس بناء داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببنائه مسجده ونصب هياكله ، ودفن كثير من الأنبياء من ولد إسحق عليه السلام حواله .

واللجنة مهاجر لبينا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله تعالى بالهجرة إليها وإقامة دين الإسلام بها ، فبنى مسجده الحرام بها ، وكان ملحقه الشريف في ثريتها .

فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ، ومهوى أئمتهم ، وعظمة دينهم . وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف . فلتشر إلى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها في العالم .

فأما مكة فأوليتها - فيما يقال - أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ، ثم هدمها الطوفان بعد ذلك . وليس منه خبر صحيح يعول عليه ، وإنما اقتبسوه من مجمل الآية في قوله : **وَأَذِیْرُقْ إِبْرَاهِیْمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِیْلَ^(١)** . ثم بحث الله إبراهيم ، وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرها من هاجر ماهر معروف . وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة ، فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما ، وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم

(١) آية ١٢٧ من سورة البقرة .

كالإسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبوثة ، وسلا . ومن كانت القبائل والصنائب متوطنين بقرها بحيث يبلغهم الصريخ والتفجير ، وكانت مشورة المسالك على من يرومها باختطاطها في مضاب الجبال وعلى أنسيتها ، كان لها بذلك منعة من العدو ويشسوا من طروقها ، لما يكابدونه من وعرها ، وما يتوقعونه من إجابة صريخها ، كما في سبئية وبجاية وبلد القل على صغرها . فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية ، مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وإفريقية ، وإنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها . ولذلك - والله أعلم - كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة . والله تعالى أعلم .

٦ - فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضل من الأرض بقاءً اختصاصاً بتشريعه ، وجعلها مواطن لعبادته ، يضاعف فيها الثواب ، وينمي بها الأجور ، وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبياؤه لطفاً بعباده وتسهيلاً لطرق السعادة لهم .

وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل مقام الأرض حسبما ثبت في الصحيحين وهي : مكة والمدينة وبيت المقدس .

أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحق إليه ، فبناه هو وابنه إسماعيل كما نصه القرآن ، قام بما أمره الله فيه ،

من قِيلَ خُذُوهُمْ ، حَتَّى أَخْرِجْتَهُمْ خُرَاطَةً وَأَقَامُوا
بِهَا بَعْلَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ كَثُرَ وَلَدُ إِسْمَاعِيلَ
وَانْتَشَرُوا وَتَشَعَّبُوا إِلَى كِنَانَةَ ، ثُمَّ كِنَانَةَ إِلَى
قَرِيشٍ وَغَيْرِهِمْ ، وَسَاعَتْ وَلَايَةُ خُرَاطَةَ فَغَلَبَتْهُمْ
قَرِيشٌ عَلَى أَمْرِهِ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْبَيْتِ وَمَلَكُوا
عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ قَصَى بْنُ كَلَابٍ فَبْنَى الْبَيْتَ وَسَقَفَهُ
بَخَشَبِ الدَّوْمِ وَجَرِيدِ النَّخْلِ . وَقَالَ الْأَعَشَى :
حَلَفْتُ بِتَوْبَى رَاهِبِ الثَّوَرِ وَالَّتِي
بَنَاهَا قَصَى الْمَضَافُ بْنُ جُرْهُمٍ

ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ ، وَيُقَالُ حَرِيقٌ ،
وَتَهْمٌ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا النِّفْقَةَ لِذَلِكَ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ وَانْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جُدَّةَ فَاشْتَرَوْا
حَشْبَهَا لِلْسُّفَى . وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوْقَ الْقَامَةِ
فَجَعَلُوهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا ، وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا
بِالْأَرْضِ فَجَعَلُوهُ فَوْقَ الْقَامَةِ ثَلَاثَ تَلْطَخَةِ السِّيُولِ ،
وَقَصُرَتْ بِهِمُ النِّفْقَةُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَقَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِهِ
وَتَرَكُوا مِنْهُ سِتَّةَ أَذْرَعٍ وَشِبْرًا أَدَارُوهَا بِجِدَارٍ فَصِيرَ
يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ الْجَبْرُ (١) . وَبَقِيَ الْبَيْتُ
الْبَيْتَ عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحَصَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ
بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ ، وَوَضَعَتْ لَهُ جِيُوشُ
يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ مَعَ الْحَصِينِ بْنِ نُمَيْرٍ السُّكُونِيَّ
وَرَمَى الْبَيْتَ سِتَّةَ أَرْبَعٍ وَسِتِينَ فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ ،
يُقَالُ مِنَ النِّفْقَةِ . الَّذِي رَمَاهُ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ .
فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ ، بَعْدَ أَنْ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ
الصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ

وَمُرُورِ الرِّفْقَةِ مِنْ جُرْهُمٍ بَيْنَهُمَا ، حَتَّى احْتَمَلُوهَا
وَسَكَنُوا إِلَيْهَا ، وَنَزَلُوا مَعَهَا حَوْلَى زَمْرَمَ كَمَا
كَأَنَّ حَرَفَ فِي مَوْضِعِهِ (٢) . فَاتَّخَذَ إِسْمَاعِيلُ
مَوْضِعَ الْكَعْبَةِ بَيْتًا يَأْوِي إِلَيْهِ ، وَأَدَارَ عَلَيْهِ سِيَاحًا
مِنَ الدَّوْمِ (٣) وَجِطْلَهُ زُرِّيًّا لِنَفْسِهِ . وَجَاءَ إِبْرَاهِيمَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَرَارًا لَزِيَارَتِهِ مِنَ الشَّامِ ، أَمَرَ
فِي آخِرِهَا بِنَاءَ الْكَعْبَةِ مَكَانَ ذَلِكَ الزُّرْبِ ، فَبَنَاهَا
وَاسْتَعَانَ فِيهِ بِابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى
حُجَّهِ (٤) ، وَبَنَى إِسْمَاعِيلُ سَاكِنًا بِهِ . وَلَا قَبِيضَتْ
أَمَّهُ هَاجِرَ (دَفَنَهَا) ، وَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا بِخَلْعَتِهِ إِلَى أَنْ
قَبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَدَفَنَ مَعَ أُمِّهِ هَاجِرَ . (٥)
وَقَامَ
يَنُوءُهُ بَعْدَهُ بِأَمْرِ الْبَيْتِ مَعَ أَخْوَالِهِمْ مِنْ جُرْهُمٍ ،
ثُمَّ الْعَمَالِيقُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ ،
وَالنَّاسُ يُهَيِّجُونَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أَفْقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ
الْخَلِيقَةِ لِأَمْنِ بَنَى إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ
دُنَا أَوْ نَحْوِ . فَقَدْ نَقَلَ أَنَّ التَّبَابِعَةَ كَانَتْ تَحْجُجُ الْبَيْتَ
وَتَعْتَظُمُهُ وَأَنْ تُبْعَا كَسَاهَا الْمَلَأَةُ الْوَسَائِلَ ، وَأَمْرُ بِنَظْمِهَا
وَجَعْلُهَا مِفْتَاحًا . وَنَقَلَ أَيْضًا أَنَّ الْفَرَسَ كَانَتْ تَحْجُجُهُ
وَتُقَرَّبُ إِلَيْهِ ، وَأَنْ غَزَا لَيْلَى الذَّهَبِ اللَّذِينَ وَجَدَهُمَا
عَبْدُ الْمَطْلَبِ حِينَ اسْتَحْفَرُ زَمْرَمَ كَانَا مِنْ قَرَابِيِّنِهِمْ .
وَلَمْ يَزَلْ لِحُرْمِ الْوَلَايَةِ عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ

(١) أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي الْآيَةِ ٣٧ مِنْ
سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ يَقُولُ : « وَبَنَاهُ إِلَى اسْكَنْتَ مِنْ ذُرِّيِّ بَرَادٍ
غَيْرِ ذِي زُرْعَةٍ حَتَّى يَبْنِيَكَ الْمَحْرَمَ ، وَبَنَاهُ لِيَقْبِيَا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ
أَفْعَلَهُ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقَهُمْ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ لِنَفْسِهِمْ يَشْكُرُونَ »
(٢) الدَّوْمُ بِالْفَتْحِ : شَجَرُ الْمَقْلِ وَالْبَقِ . وَهِيَ حَرَفُ هَذِهِ
الْكَلِمَةِ فِي النَّصِّ الْمَتَادِلَةِ إِلَى « الرَّدَمِ » .
(٣) أَنْظَرَ الْآيَتَيْنِ ٣٦ وَ ٣٧ مِنْ سُورَةِ الْحُجَّ .
(٤) مَا يَبْنِي الْحَاصِرَتَيْنِ الْفَرَسَتَيْنِ فِي النَّسْخَةِ الْمَسَاءِلَةِ وَالتَّيْمُورِيَّةِ

(١) أَنْظَرَ : نَصَحَ الْبَارِي عَلَى صَحِيحِ الْبِشَارِيِّ فِي بَابِ
فَضْلِ مَكَّةَ وَبِنَائِهَا ، وَأَنْظَرَ كَذَلِكَ فَرَحَ النَّوْزِيِّ عَلَى صَحِيحِ سَلَمٍ .

وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقى ، وترك سائرهما لم يغير منه شيئا . فكل البناء الذى فيه اليوم بناء ابن الزبير ، وبناء الحجاج فى الحائط . صلة ظاهرة للبيان ، لحمه ظاهرة بين البنائين ، ، والبناء متميز عن البناء بمقدار أصبح شبه الصدع ، وقد نُجم .

ويعرض هنا إشكال قوى لمنافاته لا يقوله الفقهاء فى أمر الطواف : «ويحظر الطائف أن يميل على الشاذوان الدائر على أساس الجبل من أسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجبل إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه ، وهو مكان الشاذوان» . وكذا قالوا فى تقبيل الحجر الأسود «الابد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائما ثلثا يقع بعض طوافه داخل البيت» . وإنما كانت الجبلان كلها من بناء ابن الزبير ، وهو إنما بنى على أساس إبراهيم فكيف يقع هذا الذى قاله ؟

ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين : إما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعاد ، وقد نقل ذلك جماعة ، إلا أن العيان فى شواهد البناء بالتحام مابين البنائين وتمييز أحد الشقين من أعلامه عن الآخر فى الصناعة يرد ذلك ، وإما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس إبراهيم من جميع جهاته ، وإنما فعل ذلك فى الحجر فقطه ليدخله فى الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم ، وهذا بعيد . ولا مخلص من هذين . والله تعالى أعلم .

الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها : لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم ، ولجعلت له بابين شرقيا وغربيا ، فهدمه وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام وجميع الوجوه والأكابر حتى عابنوه . وأشار عليه ابن عباس بالتحرى فى حفظ القبلة على الناس فأدار على الأساس الخشب ونصب من فوقها الأستار حفظا للقبلة . وبعث إلى صنعاء فى القصة^(١) والكليس^(٢) ، فحملها ، وسأل عن مقطع الحجارة الأول فجمع منها ما احتاج إليه . ثم شرع فى البناء على أساس إبراهيم عليه السلام ، ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعا ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روى فى حديثه ، وجعل فرشها وأزرها^(٣) بالرخام ، وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب . ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات إلى أن تصدعت حيطانها . ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناء وزاده فى البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هى اليوم . ويقال إنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال : أنى كنت حملت أبا حبيب فى أمر البيت وبنائه ما تحمل . فهدم الحجاج منها ستة أدرع وشبرا مكان الحجر ، وبناء على أساس قريش

(١) القصة هى البصم الذى بنى به .

(٢) من مواد البناء نزل به الميطان . (المصباح) .

الكعبة المشرفة

بعضهم بعضاً إليها أى يدفع . وقال مجاهد
بهاء بَكَّةَ أبدلوا بها ، كما قالوا لا زِب ولازم
لقرب المخرجين . وقال النخعي بالبهاء البيت
وبالهيم البلك . وقال الزهري بالبهاء للمسجد
كله وبالم للكرم .

وقد كانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه ،
والملوك تبعث إليه بالأموال والذخائر مثل كسرى
وغير . وقصة الأسياف وغزالي الذهب اللذين
وجدهما عبد المطلب حين احتقر زمزم معروفة .
وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح
مكة في الجب الذى كان فيها سبعين ألف أوقية
من الذهب ، مما كان الملوك يهدون للبيت ، فيها
ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزناً .
وقال له على بن أبى طالب رضى الله عنه : « يارسول
الله ! لو استعنت بهذا المال على حربك » ، فلم يفعل .
ثم ذكر لأبى بكر فلم يحركه . هكذا قال الأزرق .
وفى البخارى بسنده إلى أبى وائل قال : جلست
إلى شيبه بن عثان ، وقال جلس إلى عمر بن
الخطاب فقال : هممت أن لا أدع فيها صفراء
ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين . قلت ما أنت
بفعل قال ولم ؟ قلت فلم يفعله صاحبك . فقال
هما اللذان يقتلنى بهما . وخرجه أبو داود وابن
ماجه . وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأنفوس
وهو الحسن بن الحسين بن على بن على زين
المالدين سنة تسع وتسعين ومائة ، حين غلب
على مكة ، عمد إلى الكعبة فأخذ ما فى خزانها ،
وقال ماتصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينفع

ثم إن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء
للطائفين ، ولم يكن عليه جدر أيام النبی صل
الله عليه وسلم وأبى بكر من بعده . ثم كثر الناس
فاشتري عمر رضى الله عنه دوراً حولها وزادها
فى المسجد وأدار عليها جداراً دون القمامة .
وفعل مثل ذلك عثمان ، ثم ابن الزبير ، ثم
الوليد بن عبد الملك وبناه يعقوب الرشيد ، ثم زاد
فيه المنصور وابنه المهدي من بعده . ووقفت الزيادة
واستقرت حتى ذلك العهدنا .

وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر
من أن يحاط به . وكفى من ذلك أن جملة مهبطة
للوحى والملائكة ومكاناً للعبادة وفرض شعائر الحج
ومناسكه ، وأوجب تحريره من سائر نواحيه من
حقوق التعظيم والحق ما لم يوجب لغيره : فمنع
كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم ،
وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً
يسره ، وحى المائد به والرائع فى مبارجه
من مواقع الآفات ، فلا يرام فيه خائف ولا يصاد
له وحش ولا يحتطب له شجر . وحده الحرم الذى يختص
بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى
التنعيم ، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثانية
من جبل المنقطع ، ومن طريق الطائف سبعة أميال
إلى بطن نخرة ، ومن طريق جدة سبعة أميال إلى
إلى منقطع العشائر .

هذا شأن مكة وعبرها وتسمى أم القرى ،
وتسمى الكعبة لمولها من اسم الكعب . ويقال
لها أيضاً بَكَّة . قال الأصمعى لأن الناس يَبْكُ

في بلاد الأرض المقدسة ما بين قسسى بنى بنيامين
وبنى إفرائيم وبقيت هنالك أربع عشرة سنة ١
سبعاً مئة الحرب ٢ وسبعاً بعد الفتح أيام القسمة
للبلاء . ولما تولى يؤشع عليه السلام نقلوها إلى بلد
شيلو قريباً من كُكْكَالْ وأَكَارُوا عليها الشيطان ٣
وأقامت هنالك ثلثاً سنة حتى ملكها بنو فلسطين
في أيديهم كما مر ٤ وتغلبوا عليهم ٥ ثم ردوا
عليهم القبة ونقلوها بعد وفاة عالي الكهنة إلى
نوف ٦ ثم نقلت أيام طالوت إلى كنعون في بلاد
بنى بنيامين . ولما ملك داود عليه السلام نقل
التابوت والقبة إلى بيت المقدس ٧ وجعل لها هيأة
خاصة ووضعها على الصخرة وبقيت تلك قبتهما ٨
وأراه داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة
مكاتباً ٩ فلم يتم له ذلك ١٠ وعهد به إلى ابنه سليمان
فبناه لأربع سنين من ملكه ولخمسائة سنة من
وفاة موسى عليه السلام ١١ واتخذ عنه من الصخر ١٢
وجعل به صرح ١٣ الزجاج ١٤ وغشى أبوابه
وحيطانه بالذهب ١٥ وصاغ هياكله ونماثيله وأوعيته
ومناوره ومفاتيحه من الذهب ١٦ وجعل ظهره مقبواً
ليودع فيه تابوت العهد ١٧ وهر التابوت الذى فيه
الألواح ١٨ وجاء به من صهيون ١٩ بلد أبيه داود

به ٢٠ نحن أحق به لمستعين به على حربنا . وأخرجه
ونصرف فيه . وبطلت الدخيرة من الكعبة من
يومئذ .

وأما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى فكان
أول أمره أيام الصليبية موضع الزهرة ١ وكانوا
يقربون إليه الزيت فما يقربونه يصبونه على
الصخرة التى هناك . ثم دثر ذلك الهيكل ٢ واتخذها
بنو إسرائيل حين ملكوها قبة لصلاتهم . وذلك
أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني إسرائيل
من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم
إسرائيل وأباه اسحق من قبله وأقاموا بأرض التيه
أمره الله باتخاذ قبة من خشب السند عُيِّن بالوحي
مقارها وصفتها وهياكلها ونماثيلها ٣ وأن يكون
فيها التابوت ومائدة يصحافها ومنارة يقناديلها ٤
وأن يصنع مذبحاً للقربان ٥ وصف ذلك كله
في التوراة أكمل وصف ٦ . فصنع القبة ووضع
فيها تابوت العهد ٧ وهو التابوت الذى فيه الألواح
المصنوعة عوضاً عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر
لما تكسرت ٨ ووضع المذبح عندها ٩ وعهد الله إلى
موسى بأن يكون هرون صاحب القربان ١٠ .
وصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون
إليها ويتقربون في المذبح أمامها ١١ ويتعرضون للوحي
عندها . ولما ملكوا (أرض الشام أنزلوها بكلكتال) ١٢

(١) الكوكب المرفوف .

(٢) يشير بذلك إلى ما ورد في الإصحاح ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧
من سفر الخروج .

(٣) الإصحاح ٢٨ من سفر الخروج .

(٤) الكلكتال والكلكتال : الصخر (القلوس) . وهي

على ما يظهر اسم بلد أو مكان .

(١) انظر الفصل الثالث والثلاثين وعنوانه : فصل في

شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكهنة عند اليهود

(٢) ما بين الحاضرتين تنفرد به النسخة التي أسماها . راق
بالتيمورية .

(٣) الصرح المشار إليه في قصة ملكة سبأ . انظر الآية

٤٤ من سورة النمل .

(٤) حكاه في جميع النسخ المتأخرة . وفي « التيمورية »

« سيون أو « صهيون » .

النجاسة المتوهمة ، ليكون ذلك أبلغ في الطهارة والتقدّيس في البيت المقدس (١)

ثم تدلّونهم ملوك يونان والقرس والروم ، واستفحل الملك لبني إسرائيل في هذه المدة ، ثم لبني حشمتاي من كهنتهم ، ثم لصهرهم هيرودس ولبنيه من بعده . وبني هيرودس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام ، وتأنق فيه حتى أكمله في ست سنين . فلما جاء طيطس من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم غرّب بيت المقدس ومسجدها ، وأمر أن يزرع مكانه . ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتحظيمه . ثم اختلف حال ملوك الروم في الأخذ بدين النصارى تارة وتركه أخرى إلى أن جاء قسطنطين ، وتنصرت أمه هيلانة ، وارتحلت إلى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم ، فأخبرها القساوسة بأنه رى بخشبتة على الأرض وألقى عليها القمامات والقاذورات ، فاستخرجت الخشبة ، وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة ، كأنها على قبره بزعمهم ، وخربت ما وجدت من عمارة البيت ، وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح ، ثم بنوا بإزاء القمامة بيتاً لخم وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام .

وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام وحضر صر لفتح بيت المقدس ، وسأل عن الصخرة فأرى

(نقله إليها أيام عمارة المسجد ، فحج به) تحمله الأسباط . والكهنوتية حتى وضعه في القيو ، ووضعت القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أعد له من المسجد ، وأقام كذلك ماشاء الله . ثم خربه يحنّصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه ، وحرّق التوراة والمصا ، وسبك (١) الهياكل ونثر الأحجار .

ثم لما أحادهم ملوك القرس بناه عزير نبي بني إسرائيل لصله ، بإعانة يهنّ ملك القرس الذي كانت الولادة (٢) لبني إسرائيل عليه من سبي يحنّصر ، وسدّ لهم في بنيانه حدوداً دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام ، فلم يتجاوزوها (وأما الأواوين (٣) التي تحت المسجد ، يركب بعضها بعضاً ، عمود الأعلى منها على قوس الأسفل في طيقتين ، فيتوهم كثير من الناس أنها اصطبلات لسليان عليه السلام ، وليس كذلك ، وإنما بناها تنزيهاً لبيت المقدس عما يتوهمه من النجاسات ، لأن النجاسة في شريعتهم ، وإن كانت في باطن الأرض وكان ما بينها وبين ظاهر الأرض محشوا بالتراب بحيث يصل ما بينها وبين الظاهر خط . مستقيم ، ينحس ذلك الظاهر بالتوهم ، والمتوهم عندهم كالحق ، فبنوا هذه الأواوين على هذه الصورة . فعمود الأواوين السفلية تنتهي إلى أقواسها وينقطع خطه فلا يتصل ، فلا ينتهي النجاسة بالأعلى على خط . مستقيم . وتنزه البيت عن هذه

(١) هكذا ردت هذه الكلمة في النسخة « التيوربة » .

وقد وردت في جميع النسخ المتفاوتة عمدة إلى « وصرح » .

(٢) هكذا في جميع النسخ ، ولعلها « الولاية » .

(٣) جمع ليوان كليون وهو الصفة الظلية .

(١) ما بين القوسين سقط من جميع النسخ المتفاوتة ، ومنبت فقط . في « التيوربة » .

بَيْتُ وَضَع ، فَقَالَ : مَكَّةُ ، قِيلَ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ
بَيْتُ الْمُقَدَّسِ ، قِيلَ فَكَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : أَرْبَعُونَ
سَنَةً ، فَإِنَّ الْمَلَّةَ بَيْنَ بَنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بَنَاءِ بَيْتِ
الْمُقَدَّسِ بِمَقْدَارِ مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسُلَيْمَانَ ، لِأَنَّ سُلَيْمَانَ
بَنَاهُ ، وَهُوَ يَنْصِفُ عَلَى الْآلَفِ بِكَثِيرٍ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَضْعِ فِي الْحَدِيثِ لَيْسَ الْبَنَاءُ ،
وَأَمَّا الْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتِ حُيَّيْنِ لِلْعِبَادَةِ ، وَلَا يَبْعُدُ أَنَّ
يَكُونُ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ حُيَّيْنِ لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بَنَاءِ سُلَيْمَانَ
بِمَثَلِ هَذِهِ الْمَلَّةِ . وَقَدْ نَقَلَ أَنَّ الصَّابِقَةَ بَنَتْهُ عَلَى
الصَّخْرَةِ هَيْكَلُ الزُّهْرَةِ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ
مَكَانًا لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ الْأَصْنَامَ
وَالْتَّائِلَ حَوْلَى الْكَعْبَةِ وَفِي جَوْفِهَا ، وَالصَّابِقَةُ اللَّيْلِي
بَنَتْهُ هَيْكَلُ الزُّهْرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ ، فَلَا تَبْعُدُ مِلَّةُ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ
مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ
هَنَّاكَ بَنَاءٌ كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى
بَيْتَ الْمُقَدَّسِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَتَفْهَمُهُ فَفِيهِ
حُلُّ هَذَا الْإِشْكَالِ .

وَأَمَّا الْمَدِينَةُ ، وَهِيَ الْمَسَاءُ بَيْتَرِبُ ، فَفِيهِ مِنْ
بَنَاءِ يَتَرِبُ ، بَيْنَ مَهْلَايِلَ مِنَ الْعَمَاقَةِ وَمَلَكْهَا
بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْلَسْهَمَ فَمَا مَلَكُوهُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ ،
ثُمَّ جَاوَرَهُمْ بَنُو قَيْلَةَ (١) مِنْ عَسَانَ وَغَلِبُوهُمْ عَلَيْهِا
وَعَلَى حَصُونِهَا .

ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا
لَا سَبَقَ مِنْ عَنَاءَةِ اللَّهِ بِهَا ، فَهَاجَرَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ

مَكَانَهَا وَقَدْ عَلَّاهَا الزُّبُلُ وَالتُّرَابُ ، فَكُشِفَ عَنْهَا
وَبُنِيَ عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ الْبَدَاوَةِ ، وَعَظُمَ مِنْ
شَأْنِهِ مَا أَدْنَى اللَّهِ مِنْ تَعْظِيمِهِ ، وَمَا سَبَقَ مِنْ أَمْرِ
الْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبًا نَبَتْ .

ثُمَّ احْتَفَلَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ
مَسْجِدِهِ عَلَى سِتْنِ مَسَاجِدِ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ
الْإِحْتِفَالِ ... كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَفِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ
وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَسْمِيهِ بَلَّاطَ الْوَلِيدِ ، وَأَزْرَمَ مَلِكُ
الرُّومِ أَنَّ يَبْعَثَ الْقُعْلَةَ وَالْمَالَ لِبَنَاءِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ ،
وَأَنَّ يَنْمِقُوها بِالْقَسِيْفِ سَاءَ فُاطَاحَ لِلذَّكَاءِ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا
عَلَى مَا اقْتَرَحَهُ .

ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ أَحْوَامِ الْخَمْسَاءَةِ مِنْ
الْهَجْرَةِ فِي آخِرِهَا وَكَانَتْ فِي مَلَكَةِ السَّبْيِيْنِ
خُلَفَاءَ الْقَاهِرَةِ مِنَ الشَّيْخَةِ وَاخْتَلَفَ أَمْرُهُمْ زَحْفَ الْقَرْنَةِ
إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، فَمَلَكُوهُ وَمَلَكُوا مَعَهُ عَامَةُ ثُغُورِ
الشَّامِ ، وَبَنَوْا عَلَى الصَّخْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْهُ كَنِيسَةً
كَانُوا يَعْظُمُونَهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِبَنَائِهَا . حَتَّى إِذَا اسْتَقْلَ
صَلَاحُ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ الْكَرْدِيِّ يَمْلِكُ مِصْرَ وَالشَّامَ
وَمَعَا أَمْرَ السَّبْيِيْنِ وَيُدْعُهُمْ زَحْفَ إِلَى الشَّامِ وَجَاهِدَ
مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ الْقَرْنَةِ حَتَّى غَلِبَهُمْ عَلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ
وَعَلَى مَا كَانُوا مَلَكُوهُ مِنْ ثُغُورِ الشَّامِ ، وَذَلِكَ لِنَحْوِ
ثَمَانِينَ وَخَمْسَاءَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَهَدَمَ تِلْكَ الْكَنِيسَةَ
وَأَظْهَرَ الصَّخْرَةَ وَبَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى التَّحْوِ الَّذِي هُوَ
عَلَيْهِ الْيَوْمَ لِهَذَا الْعَهْدِ .

وَلَا يَعْزُضُ لِكَ الْإِشْكَالِ الْمَعْرُوفِ فِي الْحَدِيثِ
الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَلَ عَنْ أَوَّلِ

(١) قَيْلَةُ أَمَّ الْأَوْدُسَ وَالْزُرُجَ ، وَهِيَ الْقَيْلَتَانِ الْفَتَاتَانِ
تَأْتِي مِنْهُمَا « الْأَوْدُسُ » (الْقَاوُوسُ) .

وتبعه أصحابه ونزل بها وبني مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد أعد له ذلك وشرفه في سابق أزله . وآواه أبناؤه قِيْلَة ونصروه ، فلذلك سماوا الأنصار . وتمت كلمة الإسلام من المدينة حتى علت على الكلمات . وغلب على قومه وفتح مكة وملكها . وظن الأنصار أنه يتحول عنهم إلى بلده فأمهم ذلك ، فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحول . حتى إذا قبض صلى الله عليه وسلم كان مَلَحَدَه الشريف بها . وجاء في فضلها من الأحاديث الصحيحة ما لا يخفى به .

ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكة ، وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المدينة خير من مكة » ، نقل ذلك عبد الوهاب في الموعة ، إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك . وخالف أبو حنيفة والشافعي . وأصبحت على كل حال ثمانية المساجد الحرام ، وجنح إليها الامم بأفئدتهم من كل أوب . فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد العظيمة لما سبق من عناية الله لها ، تفهم سر الله في الكون وتدرجه على ترتيب محكم في أمور الدين والدنيا .

وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه في الأرض إلا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرّ تدب من جزائر الهند ، لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه . وقد كانت للأمم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة يزعمهم ، منها

بيوت النار للفرس ، وهياكل يونان ، وبيوت العرب بالحجاز التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها في غزواته . وقد ذكر السعدي منها بيوت السنا من ذكرها في شيء إذ هي غير مشروعة ولا هي على طريق ديني ، ولا يلتفت إليها ولا إلى الخير عنها . ويكنى في ذلك ما وقع في التواريخ ، فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها . والله يهدي من يشاء سيحانه .

٧ - فصل في أن المدن والأصهار بالبرقية والمغرب قليلة

والسبب في ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام ، وكان عمرانها كله بدوياً ، ولم تسترفيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها . والدول التي ملكتهم من الإفرنجية والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها . فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا إليها أقرب ، فلم تكثر مبانيهم . وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر ، لأنهم أعرق في البدو ، والصنائع من توابع الحضارة ، وإنما تتم المباني بها ، فلا بد من الجئق في تملعها ، فلما لم يكن البربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المباني فضلاً عن المدن . وأيضاً فهم أهل عصبية وأنساب ، لا يخلو عن ذلك جمع منهم ، والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو . وإنما يدعو إلى المدن الدعة والسكون ويعير ساكنها عيالا على حاميتهما . فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها ، ولا يدعوا إلى ذلك إلا الترف والغنى ، وقليل ما هو في الناس .

الكوفة بالحجارة ، وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا من قبل ، فقال : اقطلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة . وعهد إلى الوفد ، وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنيانا فوق القلعة ، قالوا وما المقدّر ؟ قال مالا يقربكم من السرك ولا يخرجكم عن القصد .

فلما بعد العهد بالدين والتخرج في مثال هذه المقاصد ، وغلبت طبيعة الملك والترف ، واستخدم العرب أمة القرس وأخلوا عنهم الصنائع والمباني ، ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف ، فحينئذ شيدوا المباني والمصانع ، وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة ، ولم يفسح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والأبصار إلا قليلا . وليس كذلك غيرهم من الأمم . فالقرس طالعت منهم آلافا من السنين وكذلك القبط . والنبط . والروم ، وكذلك العرب الأولى من عاد وثمود والعيلقة والتبابعة طالعت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم ، فكانت مبانيتهم وهياكلهم أكثر عددا وأبقى على الأيام أثرا واستبصر في هذا تجده كما قلت لك . والله وأرث الأرض ومن عليها .

٩ - فصل في أن المباني التي كانت تخطها العرب بسرع إليها الخراب إلا في الأقل

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها . وله والله أعلم وجه آخر وهو أمد به ، وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن

فلذلك كان عمران إفريقية والمغرب كله أو أكثره بدوياً أهل خيام وغواصين وقياطين (١) وكثن في الجبال ، وكان عمران بلاد العمم كله أو أكثره قري وأبصاراً ووسايق (٢) من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العمم وأمثالها ، لأن العمم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتنازعون في صراحتها (٣) والتحامها إلا في الأقل . وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب لأن لُحمة (٤) النسب أقرب وأشد ، فتكون حصيبته كذلك ، وتترفع بصاحبها إلى سكنى البدو والتجاف عن المصر الذي يذهب بالبساطة ويصيره حبالاً على غيره . فافهمه وقس عليه . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٨ - فصل في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة

إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول

والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه إذ الترب أيضاً أحرق في البدو وأبعد عن الصنائع . وأيضاً فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام ، ولما تملكوها لم يفسح الأمد حتى تستوفي رسوم الحضارة ، مع أنهم استقنوا بما وجدوا من مبانى غيرهم . وأيضاً فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالة في البنيان والإسراف فيه غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء

(١) جمع ليطون وهو الخنع ، كما في القاموس .

(٢) الرستاق والرمدان والرزدان بالفصحى : السواد والقرى

مرب وستا (القاموس) .

(٣) صرح فيه ككرم خلص وهو صريح (القاموس) .

(٤) لُحمة بالفصحى : القرابة .

وغيرهما مما يعال على الحيطان عند الشاطئ كالزُّلج^(١) والرخام والرَّيِّج^(٢) والزجاج والقُسَيْفِساء^(٣) والصدف، فيكون بناؤها يومئذ يدوي وآلاتها فاسدة . فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ ، وكثر الصناعات إلى أن تبلغ غايته من ذلك كما سبق بشأنها . فإذا تراجع صرلتها وحف ساكنها قلت الصناعات لأجل ذلك ، ففقدت الإجابة في البناء والإحكام والمعالجة عليه بالتنميق . ثم نقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما ، فتفقد ويصير بناؤهم وتشبيدهم من الآلات التي في مبانهم ، فينقلونها من مصنع إلى مصنع لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل بقلة العمران وقصوره عما كان أولا . ثم لا تزال تنتقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يفقد الكثير منها جملة ، فيعودون إلى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة ، والقصور عن التجميل بالكلية ، فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمداشير^(٤) ، ويظهر عليها سبيل البداوة ، ثم يمر في التناقص إلى غايته من الخراب إن قدر لها به . سنة الله في خلقه .

كما قلناه في (١) المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي ، فإنه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصنوع ووداعته مع حيث العمران الطبيعي . والعرب بمنزل من هذا ، وإغاييراهون مراعى لإبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو حث ، ولا قُلْ أو كثر ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والثابت والأهوية لانتقالهم في الأرض ، ونقلهم الجبوب من البلد البعيد ، وأما الرياح فالحقر مختلف للمهاب كلها ، والظن كضيل لهم بطبيعتها ، لأن الرياح إنما تخشع مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات :

وانظر لما اختططوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعى لإبلهم ، وما يقرب من القفر ومسالك الظن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا أنه يحتاج إليه في حفظ العمران . فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس . فلا أول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سباجا لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن : « والله يحكم لأمعقب لحكمه » (٢) .

١٠ - فصل في مبادئ الخراب في الأمصار اعلم أن الأمصار إذا اختطت أولا تكون قليلة المساكن ، وقليلة آلات البناء من الحجر والجير

(١) يشير بذلك إلى ما ذكره في الفصل الخامس من هذا الباب بشأن ما يجب مراعاته في اختطاط المدن وما ينبغي العرب مراعاته وينفعلون غير .

(٢) من الآية ٤١ من سورة الرعد .

(١) زلج بضتين الصخور اللس (القاموس) .

(٢) الربيع والرويح القوم الصغير الخفيف (القاموس) .

(٣) هي ما تسمى الموزايكو .

(٤) هكذا في إحدى النسخ ومنها المداين في لغة المغرب

وفي نسخ أخرى « والمد » وهي كذلك المدن والحضر . وفي

أخرى « والمدائر » وكلاهما تحريف من « والمدائر » على ما يظهر .

فإذا كثرت الأعمال كثرت فيها بهيلهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ، ودعيتهم أحوال الرفة والغنى إلى الترف وحاجاته من التأتق في المساكن والملابس واستجادة الآتية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب . وهذه كلها أعمال تُستدعي بقيمتها ويُختار المهرة في صناعتها والاهتمام عليها . فتتفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وهرجه ، ويحصل اليسار لمتحتل ذلك من قبيل أعمالهم ومق زاه العمران زادت الأعمال ثانية ، ثم زاد الترفُ ثانياً للكسب وزادت حوائده وحاجاته ، واستنبطت الصنائع لتحصيلها ، فزادت قوتها ، وقضعت الكسب في المدينة لذلك ثانية ، ودَفَقَت سوق الأعمال بها أكثر من الأول . وكذا في الزيادة الثانية والثالثة ، لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالتعرف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش . فالمصر إذا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وبعوادث من الترف لا توجد في الآخر . فما كان عمرانها من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهلها في الترف أبلى من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف : القاضي مع القاضي ، والتاجر مع التاجر ، والصانع مع الصانع ، والسوقي مع السوقي ، والأمير مع الأمير ، والشرطي مع الشرطي .

واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال قبّاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بجاية ولبستان وسبجة تجذب بينهما هوناً كثيراً على الجملة ، ثم على الخصوصيات . فحال القاضي بغاس أوسع

١١ - فصل في أن تفاضل الأمصار ولدت في كثرة الرفة لأهلها وتفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه ، وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك ، والحاجة التي يحصل بتعاون طائفة منهم تُسَدُّ (١) ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً . فالقوت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه . وإذا انتدب لتحصيله ستة أو عشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وإثارة الأرض وحماد السنبل وسائر مؤن الفلّح ، وتوزّعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا ، وحصل يعملهم ذلك مقدار من القوت ، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرّات . فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضرورتهم .

فأهل مدينة أو مصر إذا وزّعت أعمالهم كلها على مقدار ضرورتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالأقل من تلك الأعمال ، وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعراضه وقيمتها ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى . وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق (٢) أن المكاسب إنما هي قيم الأعمال

(١) في جميع النسخ المتداولة « تشد » وهو غريب . والمعنى هنا أن ما ينتج من تعاون جماعة منهم يكفي لعدد حاجة أعضائهم .

(٢) يشير بذلك إلى ما سيذكره في أول الفصل الخامس .

ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر^(١) من الترف والغنى في عوائلهم ما يقضى منه العجب ، حتى إن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى الثقل^(٢) إلى مصر لذلك ، لا يبلغهم من أن شأن الرقة بمصر أعظم من غيرها . ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم ، وأنهم أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار . وليس كذلك وإنما هو لا تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك ، ف عظمت لذلك أحوالهم .

وأما حال الدخل والخرج فمتكافئ في جميع الأمصار ، ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس . ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصير .

كل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران ، وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البلل والإيثار على مبتغيه ، ومثله بشأن الحيوانات المعجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف أحوالها في هجرانها أو غشيانها . فإن بيوت أهل الثنم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وأفئيتها بنثر الحبوب وسواقط . الفئات ، فيزدحم عليها غواشي النمل

من حال القاضي بيلمسان ، وهكذا كل صنف مع صنف أهله . وكذا أيضاً حال تلمسان مع وهران أو الجزائر ، وحال وهران والجزائر مع ما دونهما ، إلى أن تنتهي إلى المذايير الذين اعتالهم في ضروريات معاشهم فقط . ، ويقصرون عنها . وما ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها ، فكأنها كلها أسواق للأعمال . والخرج في كل سوق على نسبته فالقاضي بفاس دخله كضاء خرجه ، وكذا القاضي بيلمسان . وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم . وهما بفاس أكثر لينفاق سوق الأعمال بما يدهو إليه الترف ، فالأحوال أضخم . ثم كذا حال وهران وقسنطينة والجزائر ويسكرة حتى تنتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لاتوفى أعمالها بضرورتها ، ولا تعد في الأمصار إذ هي من قبيل القرى والمدائن فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال ، متقاربين في الفقر والخصاصة لا أن أعمالهم لا تفي بضرورتهم ، ولا بفضل ما يتأثلونه كسباً فلا تنمو مكاسبهم ، وهم لذلك مساكين مخاويج إلا في الأقل النادر .

واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال . فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بيلمسان أو وهران . ولقد شاهدت بفاس السائل يسألون أيام الأضاحي ثمان ضحاياهم ، ورايتهم يسألون كثيراً من أحوال الترف واقتراح المآكل ، مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون ، كالغريال والآتية . ولوسال سائل مثل هذا بيلمسان أو وهران لا مستنكر وعُنف وزجر .

(١) كتب هذا ابن خلدون قبل مجيئه إلى مصر ، ولم يغيره في تعديله القيمة بعد قدومه إليها . انظر منشورة د . وافي ص ٣٠٦ .
(٢) القلة بالضم الانتقال (القلوس) . وقد حرفت هذه الجملة في جميع النسخ المتداولة .

الكمالي من الأدم والقواكه وما يتبعها . وإذا قل ساكن مصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس .

والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت ، فتتوفر الدواهي على اتخاذها ، إذ كل أحد لا يحمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم اتخاذها أهل مصر أجمع أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيها قرب منه ، لا بد من ذلك . وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فصلة كبيرة تسد خلّة كثيرين من أهل ذلك المصر ، فتفضل الأقوات عن أهل مصر من غير شك ، فترخص أسعارها في الغالب ، إلا ما يصيبها بعض السنين من الآفات السماوية . ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من تلك الآفات لبدلت دون غن ولا عرض لكثرتها بكثرة العمران . وأما سائر المرافق من الأدم والقواكه وما إليها ، فإنها لاتم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل مصر أجمعين ، ولا الكثير منهم . ثم إن مصر إذا كان مستبحراً موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواهي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها ، كل بحسب حاله ، فيقتصر الموجود منها عن الحاجات قصوراً بالغا ، ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها ، فتزدحم أهل الأغراض ، ويبدل أهل الرقة والترف أثمانها بإسراف في الغلاء ، لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم ، فيقع فيها الغلاء كما نراه .

وأما الصنائع والأعمال أيضاً في الأمصار الموقورة العمران فسيب الغلاء فيها أمور ثلاثة : الأول كثرة الحاجة لمكان الترف في مصر بكثرة عمرانه ؛

والخشايش^(١) ويخلق فوقها عصائب^(٢) الطيور حتى نروح بطاناً^(٣) ونغلى شيباً وريراً . وبيوت أهل الخصاصة والفقراء الكاسدة أرزاقهم لايسرى بساحتها ديب ، ولا يحلق بجوها طائر ، ولا تلوى إلى زوايا بيوتهم فأرة ولا هرة . كما قال الشاعر :
تَسْقَطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَلْتَقَطُ الرُّحْبُ

محب وتفتش منازل الكرماء
فتأمل سر الله تعالى في ذلك ، واعتبر غاشية الأناس بغاشية العجم من الحيوانات ، وفئات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبدلها لاستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم . وإعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرتها . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وهو غني عن العالمين .

١٢ - فصل في أسعار المدن

إعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس ، فمنها الضروري وهي الأقوات من الحنطة وما في معناها كالباقل والبصل والثوم وأشباهه ، ومنها الحاجي والكمالي مثل الأدم والقواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني . فإذا استبحر^(٤) مصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه ، وغلت أسعار

(١) الخشايش بالكسر مالا دماغ له من دواب الأرض ومن الطير ، وهي الحشرة والحامة (المصباح) .

(٢) العصائب الجساعة من الناس والخيول والطيور ، والجمع صائب .

(٣) كناية من الشبع .

(٤) اتسع وانهد .

البحر وبلاد المتورة الخبيثة الزراعة النكدة (١)
النبات ، وملكو عليهم الأرض الزاكية والبلد
الطيب فاحلجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح
نبتاتها وفلحها ، وكان ذلك العلاج بأعمال ذات
قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة ، وصارت في
فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم ،
واختص قُطْرُ الأُنْدُلُس بالفلاحة منذ اضطهرم النصارى
إلى هذا المصور بالإسلام مع سواها لأجل ذلك (٢)

ويحسب الناس إذا مسعوا بغلاء الأسعار في قطرهم
أنها لقلة الأقوات والحبوب في أرضهم ، وليس
كذلك ، فهم أكثر أهل المصور فلحاً فبا علمناه
وأقومهم عليه ، وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة
عن فدان أو مزرعة أو فلاح إلا قليل من أهل
الصناعات والمهن أو الطرأه على الوطن من الغزاة
المجاهدين ، ولهذا يختصم السلطان في عطائهم
بالقولة (٣) ، وهى أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع ، وإنما
السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه .
ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاه
متابيتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة
في الفلاح مع كثرته عموماً ، فصار ذلك سبباً لرخس
الأقوات ببلدهم . والله مُقَدِّرُ اللَّيْلِ والنهار ، وهو
الوَاحِدُ الْقَهَّارُ لا ربَّ سِوَاهُ .

والثالث اعتراف أهل الأعمال بخدمةهم وإعفاءهم
أنفجهم لمؤولة الخاشن في المدينة بكثرة أقواتها ،
والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتنان
غيرهم وإلى استعمال الصناع في بيعهم ، فيبذلون
في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم
مواصلة ومناقسة في الاستشار بها ، فيجتز العمال
والصناع وأهل الحرف وتغل أعمالهم ، وتكثر
نفقات أهل المصر في ذلك .

وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فيها أقواتهم
قليلة لقلة العمل فيها ، وما يتوقعونه لصغر مصرهم
من عدم القوت ، فيتمسكون بما يحصل منه في
أيديهم ويحتكرونه ، فيعز وجوده لديهم ، ويغلوا
ثمنه على مُسْتَأْيِهِ (١) . وأما مرافقهم فلا تدعو إليها
أيضاً حاجة لقلة الساكن وضعف الأحوال ، فلا
تَنَفُّقُ لديهم سوقه ، فيختصم بالرخس في سعره .

وقد يدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة ما
يُفَرِّضُ عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق
وأبواب البصر ، وللجباة في منافع يفرضونها على
البياعات لأنفسهم ، ولذلك كانت الأسعار في
الأمصار أغلى من الأسعار في البادية ، إذ المكوس
والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة ، وكثرتها
في الأمصار لا سبب في آخر الدولة . وقد تدخل أيضاً
في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلاح ، ويحافظ
على ذلك في أسعارها ، كما وقع بالأندلس لهذا
العهد . وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى إلى سيف

(١) عام المشتري السلة من البائع : طلب شرائها منه .

(١) نكد نكداً من باب تصبهر نكد : تسمر ، ونكد البش
نكداً اشتد (الصباح) .

(٢) للمص أن هذا الفلاح قد أخذ يظهر منه اضطه المسلمون
إلى الجلاء من المواطن الحسية .

(٣) حال حاله هولاءهم ولهم ، والبول كل ما هالك
والمستعان به ، وقوت البقال (القواموس) .

أهله في عوائلهم وترفعهم . وهكذا شأن بداية عمران الأمصار . والله بكل شيء محيط .

١٤ - فصل في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقر مثل الأمصار

اعلم أن ما توفر عمرائه من الأقطار وتعددت الأمم في جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما يأتى ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من القضاة البالغة على مقدار العمران وكثرته ، فيعود على الناس كسباً يتأثّلون به حسباً نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب ، فيتزيد الرفق لذلك وتوسع الأحوال ويحجم الثرف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الأسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها ، وتشتتن في اتخاذ الماقل والحصون واختطاط المدن وتشديد الأمصار .

اغتنبر ذلك بأقطار المشرق ، مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومى ، لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيها ، وعظمت دولتهم ، وتعددت مدنهم وحواضرهم ، وعظمت متاجروهم وأحوالهم فالذى نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفقهم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف . وكلنا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم . وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم

١٣ - فصل في قصور أهل البادية عن سكى المصر الكبير العمران

والسبب في ذلك أن المصر الكبير العمران يكثر ثروته كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف ، وتعتاد تلك الحاجات لما يدور إليها فتتقلب ضرورات ، وتعتبر فيه الأعمال كلها مع ذلك عزيزة ، والمرافق غالية بازدهام الأغراض عليها من أجل الترف ، وبالغفارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال ، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانها ويعظم خرجه ، فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للتنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر موئهم .

والبدوى لم يكن دخله كثيراً إذا كان ساكناً بمكان كاسد الأسواق في الأعمال التي هي سبب الكسب ، فلم يتأثّل كسباً ولا مالا ، فيتعذر عليه من أجل ذلك سكى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزّة حاجاته ، وهو في بدوه يسد خلته بأقل الأعمال لأنه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر موئهم ، فلا يضطر إلى المال . وكل من يتشوف إلى المصر وسكانه من أهل البادية فسيرياً ما يظهر عجزه ويفتضع في استيطانه ، إلا من يقدم منهم تأثّل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ، ويجرى إلى الغاية الطبيعية لأهل العمران من الدعة والترف فحينئذ ينتقل إلى المصر وينتظم حاله مع أحوال

واعتبر حال هذا الرقة من العمران في قُطْر إفريقيا وبرقة لما خَفَّ ساكنها وتناقص عمرانها كيف ثلاثت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة . وضعت جباياتها ، فقلت أموال دولها ، بعد أن كانت دُول الشيعة وصنّهاجة بها على ما يملك من الرقة وكثرة الجبايات واتساع الأحوال في نفقاتهم وأعطياتهم ، حتى لقد كانت الأموال ترفع من القبروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماته ، وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره إلى فتح مصر ألف حمل من المال يستعملها لأرزاق الجنود وأعطياتهم ونفقات الفزاة .

وقطر المغرب وإن كان في القديم دون إفريقيا فلم يكن بالقليل في ذلك ، وكانت أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة . وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ونقص عن معهوده نقصاً ظاهراً محسوساً ، وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال إفريقيا ، بعد أن كان عمرانُه متصلاً من البحر الرومي إلى بلاد السودان في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة . وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى ، إلا ما هو منها يسف البحّر أو ما يقاربه من الطول . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

١٥ - فصل في ثلث العقار والضياع

في الأمصار وحال فرائدها ومستغلاتها

اعلم أن تَنَزُّلَ العقار والضياع الكثيرة لأهل الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ، ولا في عصر

والهند والصين ، فإنه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرقة غرائب تسمير الركبان بحديثها ، وربما تُتلقى بالإتكار في غَالِبِ الأمر ، ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم ، أو لأن المادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم ، أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك . فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الأقطار إنما هو من بلاد السودان وهي إلى المغرب أقرب . وجميع ما في أرضهم من البضاعة إنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة . فلو كان المال حثيثاً موفوراً لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها الأموال ، ولا استغنوا عن أموال الناس بالجملة .

ولقد ذهب النجمون ، لا رأوا مثل ذلك ، واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها ، فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصاً في مواليد أهل المغرب . وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجوية والأحوال الأرضية كما قلناه وهم إنما أعطوا في ذلك السبب النجوى ، وبقي عليهم أن يعطوا السبب الأرضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصها بأرض المشرق وأقطاره . وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه . فلذلك اختص المشرق بالرقة من بين الآفاق ، لا أن ذلك لمجرد الأثر النجوى . فقد فهمت مما أشرنا لك أولاً أنه لا يستقل بذلك ، وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه .

على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم ، وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي ، فيكون ذلك القار قواماً^(١) لهاله . هذا قصد المترفين في التفتائه ، وأما التمول منه وإجراء أحوال المترفين فلا . وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحواله الأسواق وحصول الكثرة الباقية منه ، والعالى في جنسه وقيمته في المصر . إلا أن ذلك إذا حصل ربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضاراً ومعاطب . والله غاليب على أمره وهو رب العرش العظيم .

١٦ - فصل في حاجات التمولين من أهل

الأمصار إلى الجاه والمداينة

وذلك أن الحضرى إذا عظم تموله ، وكثر للعقار والضياع تأذله ، وأصبح أغنى أهل المصر ، ورمقه الميون بذلك ، وانفسحت أحواله في الترف والعوائد زاحم عليها الأمراء وغصوا به . ولما في طباع البشر من العدوان ، تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده وينافسونه فيه ، ويتحيلون على ذلك بكل ممكن ، حتى يُحصلوه في ربة^(٢) حكم سلطانى ، وسبب من المؤاخذه ظاهر ينتزع به ماله . وأكثر الأحكام السلطانية جائرة في الغالب ، إذ العدل المحص إنما

واحد ، إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي تخرج قيمها عن الحد ، ولو بلغت أحوالهم في الرقة ما عسى أن تبلغ . وإنما يكون ملكهم وتأثلهم لها تدريجاً إما بالورثة من آباءه وذوى رحمه ، حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر لذلك ، أو أن يكون بحواله^(٣) الأسواق ، فإن العقار في آخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحايية وخرق السياج وتدهى البصر إلى الخراب تقبل الغبطة به قلة المنفعة فيها بتلاتى الأحوال فترخص قيمها ، وتُتملك بالأتان اليسيرة وتدخل بالميراث إلى ملك آخر ، وقد استجد البصر شبابه باستفحال الدولة الثانية ، وانتظمت له أحوال رائعة حسنة تحصل منها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ . فتعظم قيمها ، ويكون لها خطر لم يكن في الأول . وهذا معنى الحواله فيها ، ويصبح مالكنها من أغنى أهل المصر وليس ذلك يسميه واكتسابه ، إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك .

وأما فوائد العقار والضياع فهي غير كافية لالكفا في حاجات معاشه ، إذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه ، وإنما هي في الغالب لسد الخلّة وضرورة المعاش . والذي سمعناه من متبيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع إنما هو الخشية على من يترك خلقه من اللزوة الضعفاء ليكون مرياهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائلته ما داموا عاجزين عن الاكتساب ، فإذا اقتدروا

(١) المراد هنا أن تصول الأسواق إلى الارتفاع .

(١) قوام الأمر نظامه ومبادئه ، وقوام الأمر ملاك الذي يقوم به ، وقد يفصح (القلوس والمصباح) .

(٢) وأصل الربة (بكر الراد وضحا) الثروة من الحبل يشد به بهم . والمضى حتى يوتوه في مأخذ يتلق عليه فيه حكم سلطانى ويظهر في الظاهر مصادرة أمواله .

وتتمتع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال . فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وتزجها في أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل العِصر ، وهم الأكثر . فتعظم لذلك ثروتهم ، ويكثر غناهم ، وتزيد عوائد الترف ومذاهبه ، وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فتنه . وهذه هي الحضارة .

ولهذا تجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها ، بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها . وما ذلك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم ، كالأمة يخضر ما قرب منه فما قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجوف على البعد . وقد قلنا أن السلطان والنوالة سوق للعالم (١) . فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه ، وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة .

ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصير واحداً بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً .

واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام نحواً من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم ، وحتقوا في أحوال المعاش وعوائده والتفنن في صناعته من الطعام والملابس وسائر أحوال المنزل ، حتى إنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم . ورسخت الحضارة أيضاً وعوائدها في الشام منهم ومن دولة الروم بعلوم سبائة سنة ، فكانوا في غاية الحضارة .

(١) تقدم ذلك في الفصل الثاني والأربعين من الباب الثالث .

هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة الليث . قال صلى الله عليه وسلم : « الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ تَعُودُ مَلَكًا عَصُوفًا » . فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تلود عنه ، وجاه ينسحب عليه من ذى قرابة للملك أو هالصة أو عصبية يتحامها السلطان ، ليستظل بظلها ، ويرتفع في أمنها من طوارق التعلى . وإن لم يكن له ذلك أصبح نهباً بوجوه التحيلات وأسباب الحكام . « وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ » (١) .

١٧ - فصل في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفق وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر . وتقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها ، فتكون بمنزلة الصنائع . ويحتاج كل صنف منها إلى القوامة عليه والمهرة فيه . وبقدر ما يتزايد من أصنافها تتزايد أهل صناعاتها ، ويطول ذلك الجيل بها . ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات خلقت أولئك الصناع في صناعتهم ، ومهروا في معرفتها . والأعصار بطولها وانتفاس أمدها وتكرير أمثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً . وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاشتجار العمران وكثرة الرفق في أهلها . وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة . لأن النوالة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها ،

(١) من الآية ٤١ من سورة الرعد .

تجاوزهم^(١) دولةً ، وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر . ولما جاء الله بالإسلام ، وملك العرب إفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلاً أول الإسلام ، وكانوا لذلك العهد في طور البلادة ، ومن استقر منهم بإفريقية والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه ، إذ كانوا برابرة منغمسين في البداوة . ثم انتفض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد ميسرة المظفر أيام هشام بن عبد الملك ، ولم يرجعوا أمر العرب بعد ، واستقلوا بأمر أنفسهم ، وإن بايعوا لإفريس فلا تعد دولته فيهم عربةً ، لأن البرابر هم الذين تولوها ، ولم يكن من العرب فيها كثير عدد ، وبقيت إفريقية للأغلبية ومن إليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء عما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه ، وكثرة عمران القيروان . وورث ذلك عنهم كثامة ثم صنهاجة من بعدهم ، وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمائة سنة ، وانصرفت دولتهم واستحالَت صيغة الحضارة عما كانت غير مستحكمة . وتغلب بنو العرب الهلاليين عليها وخربوها ، وبقي أثرُ نضج من حضارة العمران فيها . وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلمة أو القيروان أو المهديّة سلف فتجد له من الحضارة في شؤون منزله وعوائله أحوالاً آثاراً ملتبسةً بغيرها يميزها الحضري

وكذلك أيضاً القبط . دام ملكهم في الخليقة ثلاثة آلاف من السنين ، فرسخت عوائد الحضارة في بلادهم مصر . وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل . فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة . وكذلك أيضاً رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد التمايلة والتبابعة آلافاً من السنين ، وأعقبهم ملك مصر^(١) وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة التبط . والقرس بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلافاً من السنين . فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر . وكذا أيضاً رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط . ثم ما أعقبها من ملك بوي أمية آلافاً من السنين ، وكلتا الدولتين عظيمة ، فانتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت .

وأما إفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملكٌ ضخم . إنما قطع الروم الإفرنجية إلى إفريقية البحر وملكوا الساحل ، وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة ، فكانوا على قلعة وأوقاز^(٢) . وأهل المغرب لم

(١) مكنا في جميع النسخ . ولا بد أن تكون كلمة مصر . محرفة عن كلمة أخرى ، لأنه لم يكن لمصر في التاريخ القديم ملكٌ في اليمن .

(٢) من معاني الوتر المكان المرتفع . ويغلب على الظن أن هنا تحريفاً وأن صوابه « فكانوا على القلعة والقيروان » وكلاهما مدينة إفريقية على الساحل . وتسمى الأولى كذلك قلعة أبي طويل . ويؤيد هذا ما سذكره بعد بضمّة أسطر إذ يقول : « وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلمة أو القيروان أو المهديّة سلفه » .

(١) يستند ابن خلدون فعل جاز ومزيداته في شؤون القزو بمعنى وصل إلى البلد وغزاه . واستخدام الفعل في هذا المعنى استعمال عربي صحيح .

عليهم ، ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم .
وإذا أفاضَ السلطان عطائه وأمواله في أهلها اتبنت
فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه ، فهي ذابحة عنهم
في الجباية والخراج حائدة عليهم في العطاء . فعل
نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا ، وعلى نسبة
يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة . وأصله
كله العمران وكثرته . فاعتبره وتأمله في الدول نجده
« والله يحكم لا معقب لحكمه » .

١٨ - فصل في أن الحضارة غاية العمران

ونهاية عمره وأنها مؤذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف أن الملكَ والدولةَ غايةً
للمصيبة^(١) ، وأن الحصارَ غايةً للبداءة^(٢) ،
وأن العمرانَ كله من بداءة وحضارة وملك وسوق
له عمرٌ محسوس ، كما أن للشخص الواحد من
أشخاص المكونات عمراً محسوساً^(٣) . وتبين
في المقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في
تزايد قواه وغواها ، وإنه إذا بلغ سن الأربعين
وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ، ثم
تأخذ بعد ذلك في الانحطاط . . فلتعلم أن الحضارة
في العمران أيضاً كذلك . لأنه غاية لا مزيد ورامها .
وذلك أن الترفَ والنعمة إذا حصل لأهل العمران
دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخطي بعوائلها .
والحضارة كما علمت هي التفتن في الترف واستجادة
أحواله ، والكلفُ بالصنائع التي تؤنق من أصفائه
وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس

البصير بها ، وكذا في أكثر أمصار إفريقية ،
وليس ذلك في المغرب وأمصاره : لرسوخ الدولة
بإفريقية أكثر أمداً منذ عهد الأغالية والشيعة
وصنهاجة ، وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة
الموحدين من الأندلس حظٌ كبير من الحضارة ،
واستحكمت به عوائلها بما كان لولتهم من
الاستيلاء على بلاد الأندلس ، وانتقل الكثير من
أهلها إليهم طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساع
الناطق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من
الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الأندلس
ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى
إلى إفريقية فأبقوا فيها بأمصارها من الحضارة
آثاراً ، ومعظمها يتونس امتزجت بحضارة مصر ،
وما ينقله المسافرون من عوائلها ، فكان بذلك
للمغرب وأفريقية حظٌ صالح من الحضارة عفى
عليه الخلاء ، ورجع على أعقابِهِ ، وعاد البربر
بالمغرب إلى أديانهم من البداءة والخشونة . وعلى
كل حال فآثار الحضارة بإفريقية أكثر منها
بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة
أكثر من المغرب ولقرب عوائلهم من أهل مصر
بكثرة المترددين بينهم .

فتفطن لهذا السر فإنه حتى عن الناس ، واعلم
أنها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف
وكثرة الأمة أو الجبل ، وعظم المدينة أو البصر ،
وكثرة النعمة والبسار . وذلك أن الدولة والملك
صورة الخليفة والعمران ، وكلها مادة لها من الرعايا
والأمصار وسائر الأحوال ، وأموال الجباية حائدة

(١) عرض لذلك في الفصل السابع عشر من الباب الثاني .

(٢) عرض لذلك في الفصل الأول والثالث من الباب الثاني .

(٣) عرض لذلك في الفصل الرابع عشر من الباب الثالث .

ويفسد حال المدينة . وداعية ذلك كله إفراط الحاضرة والترف ، وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الأموال والعمران .

وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها ، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها . فذلك يكثر منهم القسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه ، وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والفورس عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أهرباه^(١) على الكذب والمقامرة والغش والخرابة^(٢) والسرقة والتجور في الأيمان والربا في البياعات . ثم تجدهم أبصر بطرق القسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه وأطراح الحشمة في الخوض فيه ، حتى يبر الأتقارب وذوى المحارم الذين تقتضى البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك . وتجدهم أيضاً أبصر بالكر والخديعة ، يدفعون بذلك ماعساه ينالهم من القهر ، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح ، حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله . ويعوج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق اللئيمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولداهم من أهل من التئاديب وغلب عليه خلق الجوارى ، وإن كانوا أهل أنساب ويبيوتات . وذلك أن الناس بشر متماثلون ، وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق

أو المبالى أو الفرش أو الآتية ولسائر أحوال الخزل . وللتأني في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأني فيها . وإذا بلغ التأني في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات ، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها . أما دينها فلاستحكام صيغة العوائد التي يمسر نزعا ، وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها .

وبيانه أن المصبر بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله . والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران ، فمضى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل . وقد كنا قدمنا^(١) أن المصبر الكثير العمران يختص بالفلاء في أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيد الكوس غلاء لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة في استفحالها وهو زمن وضع المكوس في الدولة لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم ، والمكوس تعود على البياعات بالفلاء ، لأن السوق والتجار كلهم يحتسبون على سلمهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤونة أنفسهم . فيكون المكوس لذلك داخلا في قيم المبيعات وأثمانها ، فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد إلى الإسراف ، ولا يجنون وليجة عن ذلك ، لا ملكهم من أثر العوائد وطاعتها ، وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتناهبون في الإثلاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ، ويقل المستامون للمبايع ، فتكسد الأسواق

(١) جمع جريه على غير قياس .

(٢) غلب غلباً : خدع (القاموس) .

(١) تقدم ذلك في الفصل الثاني عشر من هذا الباب .

يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه . ولقد قيل مثل ذلك في الذَّقْلَى ^(١) وهو من هذا الباب ، إذ الذَّقْلَى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بِتَوْرَها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف .

ومن مفسد الحضارة الانهالك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف ، فيقع التفتن في شهوات البطن من المأكول والملاذ ويتبع ذلك التفتن في شهوات القرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط . فيفضي ذلك إلى فساد النوع : إما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا فيجهل كل واحد ابنه إذ هو لغير رَشَدِه ^(٢) لأن المياة مختلطة في الأرحام ، فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون ، ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع ، أو يكون قَسَادُ النوع (كما في اللواط . المؤدى إلى عدم النسل رأساً وهو أشد في قَسَادِ النوع) إذ هو يؤدي إلى أن لا يوجَد النوع ، والزنا يؤدي إلى عدم ^(٣) ما يوجد منه . ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله في اللواط ^(٤) أظهر من مذهب غيره ودلّ على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح .

فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى

واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل . فمن استحسنت فيه صيغة الرذائل بآى وجه كان ، وفسد خلق الخير فيه ، لم ينفعه زكّاء نسبه ولا طيب منبته . ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوى الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار ^(١) منتحلين للحرف الدنية في معاشهم بما فسد من أخلاقهم ، وما تلونوا به من صيغة الشر والفسفة .

وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها ، وهو معنى قوله تعالى : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا » ^(٢) . ووجه حينئذ أن مكاسيهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة الموائد ومطالبة النفس بها ، فلا تستقيم أحوالهم . وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت . وهذا معنى ما يقول بعض أهل الخواص : « إِنَّ الْمَدِينَةَ إِذْ كَثُرَ فِيهَا غَرْسُ النَّارَنْجِ تَأَذَّنَتْ بِالْخَرَابِ » ، حتى إن كثيراً من العامة يتحاجى غرس النارنج بالدور ، وليس المراد ذلك ، ولا أنه خاصية في النارنج ، وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياة هو من توابع الحضارة ثم إن النارنج واللبن والسرّ وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة ، إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط . ولا تغرس إلا بعد التفتن في مذاهب الترف ، وهذا هو الطور الذي

(١) في التاموس : القفل بالكسر وكذا كرى نبت مر فتال زهره كالورد الأحمر .

(٢) يعنى أنه غير صحيح التسبب وأنه ولد زناً .

(٣) يرى د . ولى في منشورته أن هنا سقطاً تقديره :

والزنا يؤدي إلى عدم معرفة أنساب ما يوجد منه .

(٤) من حيث احتباره زناً وتوقيع حد الزنا عليه .

(١) المراد هنا : القهواء والطبقات الدنيا من الناس .

(٢) آية ١٦ من سورة الإسراء .

ينتفض عمرانه وربما ينتهى في انتفاضه إلى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف . والسبب فيه أمور :

الأول أن الدولة لا بد في أولها من البداوة المقتضية للتجافي عن أموال الناس والبعد عن التحلق . ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمغارم التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف . فإذا صار البصر الذي كان كرسياً للملك في مملكة هذه الدولة المتجددة ، ونقصت أحوال الترف فيها ، نقص الترف فيمن تحت ألبسها من أهل المصر ، لأن الرعايا تبع للدولة ، فيرجعون إلى خلق الدولة ، إما طوعاً أو طبعاً ، فهو لذلك عيال مقبوعهم ، أو كرهاً لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الأحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد ، فتقصر لذلك حضارة المصر ، ويلهب منه كثير من عوائد الترف ، وهو معنى ما نقول في خراب مصر .

الأمر الثاني أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالنلب ، والغلب إنما يكون بعد العداوة والحروب ، والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر إحداها عن الأخرى في العوائد والأحوال ، وغلب أحد المتنافيين يلهب بالناق الآخر ، فتكون أحوال الدولة السابقة منكورة عند أهل الدولة الجديدة ومستبشة وقبيحة ، وخصوصاً أحوال الترف ، فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها ، حتى تنشأ لهم بالتدرج عوائد أخرى من الترف ، فتكون عنها حضارة مستأنفة . وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها . وهو معنى اختلال العمران في مصر .

الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات .

بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد . لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منفعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعى في ذلك . والحضري لا يقدر على مباشرته حاجاته ، إما عجزاً لما حصل له من الدعة ، أو ترفعاً لما حصل له من العري في النعم والترف ، وكلا الأمرين ذميم . (وكذلك لا يقدر على دفع المضار بما فقد من خلق البأس بالتدرف والعري في قهر التأدب والتعليم ، فهو لذلك عيال على الحماية التي تدافع عنه . ثم هو فاسد أيضاً في دينه غالباً عما أفسدت منه العوائد وطاعتها وما تلوث به النفس في ملكاتها كما قررناه ، إلا في الأكل النادر .

وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة . وهذا الاعتبار كان الذين يربون في جند السلطان على البدولة والخشونة أنفع من الذين يربون على الحضارة وخلقتها . وهذا موجود في كل دولة .

فقد نبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة . والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن^(١) لا يشغله شأن عن شأن .

١٩ - فصل في أن الأمصار التي تكون كرامى للملك تخرب غراب الدولة وانتقاضها

قد استقرينا في العمران أن الدولة إذا اختلت وانتقضت فإن المصر الذي يكون كرسياً لسلطانها

(١) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن .

الأمر الثالث أن كل أمة لا بد لهم من وطن هو منشور ومنه أولية ملكهم . وإذا ملكوا ملكا آخر صار تبعا للأول ، وأما صار تابعة لأعصار الأول ، واتسع نطاق الملك عليهم ، ولا بد من توسع الكرمي تحوم الممالك التي للدولة ، لأنه شبه المركز للثقافي ، فبعد مكانه من مكان الكرمي الأول ، وتبوى أفضلة الناس إليه من أجل الدولة والسيطان ، فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرمي الأول ، والحضارة إنما هي توفر العمران كما قدمناه فتنفتح حضارته وتعدنه ، وهو معنى اختلاله .

وهذا كما وقع للتجوقية في حلولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان ، وللعرب قبلهم في المدول من المدائن إلى الكوفة والبصرة ، ولبنى العباس في المدول من دمشق إلى بغداد ، ولبنى ترين بالمغرب في المدول عن مراكش إلى فاس . وبالجمله فاتخاذ الدولة الكرمي في مصر يخل بعمران الكرمي الأول .

وقد وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراسي للملك وشاهدناه وعلمناه ، والله يقدّر الليل والنهار (٢) .

والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ . بنوعه لوجودها . وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر . فالدولة دون العمران لا تتصور : والعمران دون الدولة والملك متعذر ، لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع ففتعين السياسة لذلك ، إما

(١) في التاموس : حار الرجل ذهب وجهه ... والاسم للبيعة . فله يقصد الذين يتكلمون في الطرقت بلا عمل ، أو لعل الكلمة محرقة .

(٢) من الآية ٢٠ من سورة الزمل .

الأمر الرابع أن الدولة المتجددة إذا غلبت على الدولة السابقة لا بد فيها من تتبع أهل الدولة السابقة وأشياجها بتحويلهم إلى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة . وأكثر أهل مصر الكرمي أشتياغ الدولة ، إما من الحماية الذين نزلوا به أول الدولة أو من أعيان مصر ، لأن لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم ، بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شبيعة لها ، وإن لم يكونوا بالشوكة والعصية فهم بالليل والمحبة والعفيدة . وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة

الترف وأحواله فإنما يوجد في المدن المستبصرة في العمارة والآخفة في عوائد الترف والحضارة بمثل الزَّجَاج^(١) والصائغ والدَّهَان^(٢) والطباخ والصَّفَار^(٣) والفرابي والدَّبَاج^(٤) وأمثال هذه ، وهي متفاوتة ، ويقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع ، فتوجد بذلك المصردون غيره . ومن هذا الباب الحماصات لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبصرة العمران لما يذوُّ إليه الترف والبنى من التعمير . ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة . وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيخطها ويجري أحوالها ، إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس ، فسرعان ما تهجر وتخرَّب ، وتفر عنها القوَّة لقلَّة قائدهم ومعاشهم منها . والله يقيض ويبسط .

٢١ - فصل في وجود العصبية في الأمصار

وتغلب بعضهم على بعض

من البين أن الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر ، وإن لم يكونوا أهل نسب واحد ، إلا أنه كما قدمناه^(٥) أضعف مما يكون بالنسب ، وأنه تحصل به العصبية بعضا مما تحصل بالنسب ، وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر ، يجذب

(١) الزَّجَاج : صانع الزجاج والمشتل به .

(٢) الدهان : المشتل بالدهن وباتته أو من يعن البيوت .

(٣) الصفار صانع الصفر ، وهو نوع من النحاس ،

والمشتل به .

(٤) الدَّبَاج : النقاش من البع وهو النقش ، هكذا

وردت في نسخة التيسورية . ولها عروة من الدَّبَاج وهو

الذي يدبج الجلود . وقد وردت في جميع النسخ المتأولة : الدَّبَاج .

(٥) يحيل بذلك على ما ذكره في الفصل الثامن من الباب الثاني

و فصل في أن العصبية إما تكون بالنسب وما يمتنع .

الشعرية أو الملكية ، وهو معنى الدولة . وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر ، كما أن عظمه مؤثر في عظمه . والخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو القرس أو العرب على العموم ، أو بنى أمية أو بنى العباس كذلك . وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبيد الملك بن مروان أو الرشيد ، فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده ويقالته وقريبة الشبه بعضها من بعض ، فلا تؤثر كثير اختلال . لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة ، وهي مستبصرة على أشخاص الدولة . فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران ذهب أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما فرزناه أولا . والله سبحانه وتعالى أعلم .

٢٠ - فصل في اختصاص بعض الأمصار

ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصهر يستدعي بعضها بعضا لما في طبيعة العمران من التعاون . وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المصهر ، فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ، ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه ، لعموم البلوى به في المصهر والحاجة إليه . وما لا يستدعي في المصهر يكون غفلا إذ لا فائدة لمنهله في الاحتراف به . وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش ، فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها . وما يستدعي لعوائد

المواكب للسير في أقطار البلد والتخيم والحسبة^(١) والخطاب بالتهويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل ، إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرايات حتى صارت عصبية . وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجرى على مذهب السذاجة فراراً من التعريض بنفسه للسخرية والبهت .

وقد وقع هذا بالقرينة لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونقطة وقفصة وبسكرة والزاب ، وما إلى ذلك . سموا إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين ، فاستغلوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والنجابة ، وأعطوا طاعة معروفة وصفقة مبرمة ، وأقطعوا جانباً من الملائنة والملاطفة والانقياد ، وهم عمول عنه ، وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد ، وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم ، ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوق . حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس ، وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدولة . وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية ، واستقل بأمصار الجريد أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملوكهم هبة المؤمن

بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لحماً لحماً^(١) وقراية قراية ، وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله ، فيفترقون شيعاً وعصائب . فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة من القاصية ، احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم ، والنظر في حماية بلدهم ، ورجعوا إلى الشورى وتميز الطيبة عن السفلة^(٢) . والنفوس يطهاها متطولة إلى العلب والرياسة ، فتقطع المشيخة ، لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة ، إلى الاستيلاء ، وينازع كل صاحبه ، ويستوصلون بالأتباع من المولى والشيع والأحلاف ، ويهللون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب ، فيعصرصب كل لصاحبه ويتحين القلب لبعضهم ، فيعطف على أكفائه ليقتص من أعينهم ويتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخفد منهم الشوكات النافذة ، ويقلع الأظفار الغادشة ، ويستبد بمصره أجمع . ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه ، فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجدة والهرم .

ورما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحف والحروب والأقطار والممالك ، فينتحلون بها من الجلوس على السورير^(٣) واتخاذ الآلة^(٤) وإعداد

(١) جمع لحة بضم الميم وهي اقترابة .

(٢) أسفل الناس وغوغازم .

(٣) انظر تفسيره في الفصل السادس والثلاثين من

الباب الثالث . (٤) انظر تفسيرها في الفصل السادس

والثلاثين من الباب الثالث .

(١) انظر تفسيرها في الفصل الحادي والثلاثين من

الباب الثالث .

(٢) يعني : غير خالصة ، صادرة عن قلبه مرضي .

بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها ، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب ، وهجر الأمم لغاتهم وألستهم في جميع الأمصار والممالك ، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم ، وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة (١) .

ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أواخره ، وإن كان بقي في الدلالات على أصله ، وسمى لساناً حضرياً في جميع أمصار الإسلام .

وأيضاً فكثر أهل الأقمار في اللغة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين ، لها ، الهالكين في ترفها ، بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وجوارهم . واللغات متوارثة ، فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء ، وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجم شيئاً فشيئاً .

وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار بحلاف لغة البدو من العرب فلها كانت أعرق والعروبية ولما تملك العجم من الدليل والسلجوقية بعدهم بالشرق ، وزناتة والبربر بالمغرب ، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية ، فسد اللسان العربي لذلك ، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية

ابن علي ، ونقلهم كلهم من أمارتهم إلى المغرب ، ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكره في أخباره . وكذا وقع بسببه لأخر دولة بني عبد المؤمن .

وهذا التغلب يكون غالباً في أهل السروات (١) والبيوتات المرشحين للمشيخة والرياسة في مصر وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الفوغاه والدمهاه . وإذا حصلت له العصبية والانتحام بالأوغاد لأسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعليّة إذا كانوا فاقدين للصباية والله سبحانه وتعالى غالب على أمره .

٢٢ - فصل في لغات أهل الأمصار

اعلم أن لغات أهل الأمصار إما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها . ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالشرق والمغرب لهذا العهد عربية ، وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير إعرابه . والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من التغلب على الأمم ، والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها مواد له ، والصورة مقلعة على المادة ، والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب ، لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي ، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها . واعتبر ذلك في نهج عمر رضي الله عنه عن بطانة الأعاجم وقال إنها خيب أي مكر وخليعة . فلما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائلين

(١) بني أهل المرونة والرياسة في شرق ومنه قول الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهلهم سادوا

(١) يقب د. واق على هذا في منشورته مبيناً الأسباب والمواضع التي تؤدي إلى انتصار لغة من اللغات على غيرها في أي صراع معها فليراجع في موضعه من ج ٣ ع ٢ من : ١٠٢٢ وما بعدها .

الشعر والكلام إلا قليلا يقع تعليمه صناعياً بالقوانين
 المتداولة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله
 تعالى لذلك . وربما بقيت اللغة العربية المخرية بمصر
 والأندلس والمغرب لبقاء الدين طلباً لها ، فانهضت
 بعض الشيء . وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم
 يبقَ لها أثر ولا عينٌ . حتى إن كتب العلوم صارت
 تكتب باللسان العجمي وكذا تفريسه في المجالس .
 والله أعلم بالصواب .

بالكتاب والسنة اللطيف بما حفظ الله ، وصار
 ذلك مرجعاً لبقاء اللغة العربية المخرية من الشعر
 والكلام إلا قليلا بالأصوار . فلما ملك التتار والمغول
 بالشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك
 المرجع ، وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ، ولم يبق
 لها رسمٌ في الممالك الإسلامية بالعراق وخرسان وبلاد
 فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد
 الشمال وبلاد الروم ، وذهبت أساليب اللغة من

في المعاش ووجوه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله

من الأحوال وفيه مسائل

١ - فصل في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية

منى اقتدر على نفسه ، وتجاوز طور الضعف ، سعى في اقتنائه المكاسب ، لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعراض عنها ، قال الله تعالى : «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ» (١) وقد يحصل له ذلك بغير سعى كالمنطر للزراعة وأمثاله ، إلا أنها إنما تكون معينة ولا يد من سعيه معها كما يأتي .

فتكون له تلك المكاسب معاشاً إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشاً ومتمولاً إن زادت على ذلك . ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفصته على العبد وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سعى ذلك رزقاً . قال صلى الله عليه وسلم : : «إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ» . وإن لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقاً ، والمتملك منه حينئذ يسمى العبد وقدرته يسمى كسباً ، وهذا مثل التراث (٢) فإنه يسمى بالنسبة إلى

اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويعونه في حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره : « وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ » (١) . والله سبحانه خلق جميع مافي العالم للإنسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال : «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَبِيماً مَثُ» (٢) و « سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ » (٣) « وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ » (٤) « وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ » (٥) ، وكثير من شواهد . ويد الإنسان مبسطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف ، وأيدى البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك ، وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعرض . فالإنسان

(١) جملة من آية ٣٨ من سورة عبه (أو القتال) .

(٢) أول آية ١٣ من سورة الجاثية .

(٣) نص الآية : « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (آية ١٣ من سورة الجاثية) .

(٤) جملة من آية ٣٢ من سورة إبراهيم ، ونصها : « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار » . (٥) هذه ليست آية ، ومن الآيات التي وردت في تفسير الأنعام للإنسان : الآيات من ٥ - ٨ من سورة النمل ، والآيات من ٧١ - ٧٣ من سورة يس ، والآية ٧٩ من سورة غافر .

(١) من الآية ١٧ من سورة التكبوت .

(٢) التراث : الميراث .

سواهما في بعض الأحيان فلإنما هو لتقصّد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من جواله الأسواق التي هما عنها بمنزلة^(١) ، فهما أصل المكاسب والقبضة والخير . وإذا تقرر هذا كله فاعلم أن ما يفيد الإنسان ويقننيه من التمولات إن كان من الصنائع فالمفاد المقننى منه قيمة عمله وهو التقصد بالقبضة ، إذ ليس هناك إلا العمل وليس بمقصود بنفسه للقبضة . وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها مثل التجارة والحياكة معهما الخشب والفزل ، إلا أن العمل فيهما أكثر دقيقتها أكثر . وإن كان من غير الصنائع فلا بد في قيمة ذلك المفاد والقبضة من دخول قيمة العمل الذي حصلت به ، إذ لولا العمل لم تحصل قبضتها . وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت . وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات بين الناس ، فإن إعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظ . في أسعار الجيوب كما قدمناه ؛ لكنه خفى في الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤنثه يسيرة ، فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح . فقد نبين أن المفادات والمكسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية^(٢) ، وتبين مسمى الرزق وأنه المنتفع به . فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مساهما .

(١) انظر تغيب د. وافي حل قول ابن خلدون بعدم تقدير قيمة الذهب والفضة . ج ٣ ، ص ١٠٣٠ .
(٢) يجمع ابن خلدون في هذه الفقرات إلى رأى القائلين بأن قيم الأشياء تختلف حسب اختلافها في مبلغ ما يبل فيها من عمل وما يجتلبه إنتاج مثلها من مجهود . انظر مناقشة هذا الرأى في منشورة د. وافي ج ٣ ص ١٠٣١ .

الهالك^(١) كسباً ولا يسمى رزقاً ، إذ لم يحصل به منتفع ، وبالنسبة إلى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقاً . هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة .

وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقاً أن يكون بحيث يصح تملكه ، وما لا يملك عندهم لا يسمى رزقاً . وأخرجوا الفُصُوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقاً . والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختص بموحته وهدايته من يشاء . ولهم في ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها .

ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعى في الاقتناء والتقصّد إلى التحصيل . فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وإبتغائه من وجوه . قال تعالى : « فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ »^(٢) . والسعي إليه إنما يكون بإقدار الله تعالى وإلهامه ، فالكل من عند الله ، فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول ، لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهر ، وإن كان مفتى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه ، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع .

ثم إن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول ، وهما الذخيرة والقبضة^(٣) لأهل العالم في الغالب ، وإن إقتنى

(١) الهالك : المفقود .
(٢) من الآية ١٧ من سورة النكبات .
(٣) ما يجمع ويقتنى .

تحصيل الرزق وكسبه : إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالانتدال عليه على قانون متعارف ويسمى مغرماً وجباً ، وإما أن يكون من الحيوان الوحش بأقتنائه وأخذه برمي من البر أو البحر ويسمى اصطيفاً ، وإما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفه بين الناس في منافعهم كالبلبن من الأنعام والحبر من دوده والسل من نخله ، أو يكون من النبات في الزرع والشجر بإقتياده عليه وإعداده لاستخراج ثمرته ، ويسمى هذا كله فلحاً ، وإما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية : إما في مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وحيطة وحياكة وفروسة وأمثال ذلك ، أو في مواد غير معينة وهي الامتهانات جميع الامتهانات والتصرفات ، وإما أن يكون الكسب من البضائع وإعدادها للأغراض : إما بالتقلب بها في البلاد ، أو احتكارها وارتقاب حوالة الأسواق فيها ، ويسمى هذا تجارة .

فهذه وجوه المعاش وأصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالحريري وغيره ، فانهم قالوا : المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة . فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا إلى ذكرها ، وقد تقدم شيء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها في الفصل الثاني^(١) . وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش . أما الفلاحة فهي مقدمة عليها كلها بالذات إذ هي بسيطة وطبيعية فطرية

(١) صوابه الفصل الثالث

واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانقصاص العمران تأذن الله برفع الكسب . ألا تروى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية . وكذلك الأمصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشد رفاهية كما قدمناه قبل^(١) . ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد إذا تناقص عمرانها إنها قد ذهب رزقها . حتى إن الأنهار والعيون ينقطع جريانها في القفر ، لما أن قوّة العيون إنما يكون بالإنبساط^(٢) والامتراء الذي هو بالعمل الإنساني ، كالحال في ضروب الأنعام . فما لم يكن إنبساط ولا امتراء نصبت وغارت^(٣) بالجملة ، كما يجفّ الضرع إذا ترك امتراؤه . وانظره في البلاد التي تعهد فيها العيون أيام عمرانها ثم يأتى عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كئنها لم تكن . والله يفتقر الليل والنهار .

٢ - فصل في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

اعلم أن المعاش هو عبارة عن إيتفاء الرزق والسعي في تحصيله ، وهو مقفّل^(٤) من العيش ، كئنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جعلت موضعاً له على طريق المبالغة . ثم إن

(١) تكلم على ذلك في الفصل الحادي عشر من الباب الرابع (فصل في أن تفاضل الأمصار والمدين في كثرة الرقة لأهلها وتفاوت الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة) .

(٢) الانبساط والامتراء : الاستخراج .

(٣) غار الماء غوراً ذهب في الأرض فهو غائر وغود . ومنه قوله تعالى : « قل أراهم أن أصبح مائزكم غوراً فن يأتيكم بماء معين » (آية ٣٠ من سورة تبارك) .

(٤) يقصد على وزن فاعل كما يدل عليه ما على .

التنعم والثرف ، فيتخذ من يتولى ذلك له ويَقْطَعُ عليه أجراً من ماله . وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان ، إذ الثقة بكل أحد عجز ، ولأنها تزيد في الوظائف والخراج وتدل على العجز اللذين ينبغي في مذاهب الرجولية التنزه عنهما . إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى ألوفها ، فهو ابن عوائده لا ابن نسبه . ومع ذلك فالخديم الذى يستكفى به ويوثق بغيره كالملقود ؛ إذ الخديم القائم بذلك لا يخلو أربع حالات : إما مضطلع بأمره وموثوق فإيا يحصل بيده ، وإما بالعكس في إحداها فقط ، مثل أن يكون مضطلاً غير موثوق أو موثوقاً غير مضطلع . فإما الأول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحداً استعماله بوجه ، إذ هو باضطلاع وثقته غنى عن أهل الرتب الدنية ومحقر لئال الأجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك ، فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة إلى الجاه . وأما الصنف الثانى وهو من ليس مضطلع ولا موثوق . فلا يسعى له اقل استعماله لأنه يجحف مخدومه في الأمرين معاً ، فيصعب عليه لعدم الاضطلاع تارة ، ويذهب ماله بالخيانة أخرى ، فهو على كل حال كل على موله . فهذان الصنفان لا يطمع أحد في استعمالهما . ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين : موثوق غير مضطلع ، ومضطلع غير موثوق . وللناس في الترجيح بينهما ملهين ، ولكل من الترجيحين وجه . إلا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من نصيبه ،

لا نحتاج إلى نظر ولا علم ، ولهذا تُنسب في الخليفة إلى آدم أبى البشر ، وأنه معلمها والقائم عليها ، إشارة إلى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة . وأما الصنائع فهي ثانيتهما ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار ، ولهذا لا توجد غالباً إلا في أهل الحضرة الذى هو متأخر عن البدو وثأن عنه ، ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الأب الثانى للخليفة ، فإنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحى من الله تعالى . وأما التجارة وإن كانت طبيعية في الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة . ولذلك أباح الشرع فيه المكائسة^(١) ، لما أنه من باب المقامرة ، إلا أنه ليس أخذاً لمال الغير مجاناً ، فلها اختص بالمشروعية .

٣ - فصل في أن الخدمة ليست من المعاش العليمى

أعلم أن السلطان لا بد له من اتخاذ الخدمة في سائر أبواب الامارة والملك الذى هو بسبيله ، من الحندى والشرطى والكتاب . ويستكفى في كل باب عن يعلم غنامه فيه ويتكفل بلزاقهم من بيت ماله . وهذا كله مندرج في الامارة وما لها . إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الامارة ، والملك الأعظم هو ينبوع جداولهم . وأما مادون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر الترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزاً عنها لما ربه عليه من خناق

(١) المكائسة : البيع : الغالبية فيه .

بالأوراق المتحزمة الحواشي إما مخطوط عجمية أو ما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل اللغات يعطاه الأمارات عليها فاماكنها ، يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحضر والطلب ويعمهمون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من مثال الحكام والمقويات . وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يمد بها على تصديق ما بقى من دعواه ، وهو معزل عن السحر وطرقه ، فيولع كثير من ضغاه العقول بجمع الأيدي على الاحتقار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقابة وعيون أهل الدول . فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل بالظلم الذي يختم به على ذلك المال ، يخادعون به أنفسهم من إختلاف مطامعهم .

والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة ، فيطلبونه بالوجه المنحرفة ، وعلى غير المهرى الطبيعي من هذا وأمثاله ، عجزاً عن السعي الكاسب وركوناً إلى تناول الرزق من غير نصب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ، ولا يعلمون أنهم يوفعون أنفسهم ، بابتغاء ذلك من غير وجهه ، في نصب ومتاعب وجه شديد أشد من الأول ، ويعرصون أنفسهم مع ذلك لنكال العقوبات .

وربما يحمل على ذلك في الأكثر زيادة الشرف وعوائله وخروجها عن حد النهاية حتى تقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ، ولا تنفي مطالبها ، فإذا

ويحاول على التحرر من هيباته جهد الاستطاعة وأما المضيح ولو كان مأموناً فضرره بالتصنيع أكثر من نفعه . فاعلم ذلك واتخذ قانوناً في الاستكفاء بالخدمة . والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء .

فصل في أن ابتغاء الأموال من اللغات والكنوز ليس بمعاش طبيعي

اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويبتغون الكسب من ذلك ، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه ، واستحضر ما يحله من البخور والدعاه والقربان . فأهل الأمصار بإفريقية يرون أن الإفرنجة الذين كانوا قبل الإسلام بها دفنوا أموالهم كذلك ، وأودعوها في الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبيل إلى استخراجها . وأهل الأمصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أمم القبط والروم والفرس ، ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حليث خرافة من انتباه بعض الطالبين لذلك إلى حصر موضوع المال ممن لم يعرف طلسمه ولاخبره ، فيجلبونه خالياً أو معموراً بالدينان ، أو يشاهد الأموال والجاهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم ، أو يمد به الأرض حتى يظنه خفياً ، أو مثل ذلك من الهذر

ونجد كثيراً من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون إلى أهل الدنيا

بالتخوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها ، وهي
هذه :

يا طالباً للسر في التخوير
إسمع كلام الصديق من خبير
دع عنك ما قد صنفوا في كتبهم
من قول بهتان ولفظ. ضرور
واسمع لصديق مقالتي ونصيحتي
إن كنت ممن لا يرى بالزور
إذا أردت تَقَوَّرَ البشر التي
حارت لها الأوهام في التدبير
صور كصورتك التي أوقفتها
والرأس رأس الشبل في التقوير
ويداه ما سكتان للحبل الذي
في الدلو ينشل من قرار البير
وبصدره هاء كما عاينتها
عدد الطلاق احذر من التكثير
ويطأ على الطائآت غير ملاس
مشى اليبيب الكيس التحير
ويكون حول الكل خط. دائر
تربيته أولى من التكوين
واذبح عليه الطير والطحه به
واقصده عقب اللبح بالتبخير
بالسندروس وباللبان وميمة
والقسط، واليسه بثوب حرير

من أحمر أو أصفر لا أزرق
لا أخضر فيه ولا ككدير

هجر عن الكسب بالمجرى الطبيعي لم يجد وليجة
في نفسه إلا التحنى لوجود المال العظيم دفعة من غير
كلفة ، لينى له ذلك بالموثد التي حصل في أسرها ،
فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده . ولهذا
فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون
من أهل الدولة ، ومن سكان الأمصار الكثيرة
الترف المتسعة الأحوال ، مثل مصر وما في معناها .
فنجده الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله
ومسألة الركبان عن شواذه كما يحرصون على
الكيمياء . هكذا يلغى عن أهل مصر في مفاوضة
من يلغونه من طلبة المغاربة ، لعلهم يعثرون منه
على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن
تَقْوِيرِ المياه لا يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة
كلها في مجارى النيل ، وأنه أعظم ما يستر دفيناً
أو مخزوناً في تلك الآفاق . وعموه عليهم أصحاب
تلك الدفاتر المفتعلة في الاعتذار عن الوصول إليها
بحرية النيل تستراً بذلك من الكذب حتى يحصل
على معاشه ، فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب
الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه
كَلَفًا (١) بشأن السحر متوارثاً في ذلك القطر عن
أوليه ، فعلومهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم
في البرارى وغيرها ، وقصة سحر فرعون شاملة
بانتصاصهم بذلك . وقد تناقل أهل المغرب قصيدة
ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل

(١) هكذا في جميع النسخ . ولا بد أن يكون هنا تحريف
وسقط . وتنظيم العبارة بوضعها في مثل هذه الصيغة : « لتحصيل
مبتغاه من هذه ، فيزداد كلفاً بشأن السحر ، والكلف بالسحر أمر
متوارث في ذلك القطر من أوليه » (لى من الأولين منه) .

لكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق لا على وجه
القصد إليها ، وليس ذلك بأمر نم به البلوى ،
حتى يدخر الناس أموالهم تحت الأرض ويختمون
عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث . والركاز
الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين
الجاهلية إنما يوجد بالعثور والاتفاق ، لا بالقصد
والطلب . وأيضاً فمن اختزن ماله وختم عليه بالأعمال
السحرية فقد بالغ في إخفائه فكيف ينصب عليه
الأدلة والأمارات لمن يبتغيه ، ويكتب ذلك في
الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الأعصار
والآفاق : هذا ينقض قصد الإخفاء . وأيضاً
فالأعمال المقلّدة لا يد وأن تكون لفرض مقصود
في الانتفاع ، ومن اختزن المال فإنه يخزنه لولده
أو قريبه أو من يؤثره . وأما أن يقصد إخفائه
بالكلية عن كل أحد ، وإنما هو للبلاء والهلاك ،
أو لمن لا يعرفه بالكلية عن سبب من الأمم ، فهذا
ليس من مقاصد المقلّدة بوجه .

وأما قولهم أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها
من الكثرة والوقور ، فاعلم أن الأموال من الذهب
والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب
مثل الحديد والنحاس والرماس وسائر العقارات
والمعادن ، والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية
ويزيد فيها أو ينقصها . وما يوجد منها يلجئ
الناس فهو متناقل متوارث . وربما انتقل من قطر
إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه
والمعران الذي يستدعي له . فإن نقص المال في
المغرب وإفريقية فلم ينقص به بلاد الصقالية والإفريق

ويشده هيطان صوف أبيض
أو أحمر من خالص التحمير
والطالع الأسد الذي قد بينوا
ويكون بدء الشهر غير منير
والبلر متصل بسعد عطارد
في يوم سبت ساعة التدبير

يعنى أن تكون الطآآت بين قدميه كأنه يمشي
عليها . وعندي أن هذه القصيدة من تمجيدات
المخرفين ، فلها في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات
عجيبة ، وتنتهي المخرفة (١) والكذب بهم إلى أن
يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذا
ويحتفرون الحفر ويضعون المطابق فيها والشواهد
التي يكتبونها في صحائف كلهم . ثم يقصدون
ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف ، ويبعثون
على اكتراء ذلك المنزل وسكنائه ويوهمون أن به
دفيئاً من المال لا يعبر عن كثرته . ويطلبون بالمال
لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم ، ويعلمونه
بظهور الشواهد التي قد أعلموها هنالك بأنفسهم
ومن فعلهم ، فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع
ولبس عليه من حيث لا يشعر ، وبينهم في ذلك
إصطلاح في كلامهم يكتبون به عليهم ليختفي عند
محاورتهم فبما يتلونه من حفر وبخور وخبث حيوان
وأمثال ذلك .

وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا أصل له
في علم ولا خبر . وأعلم أن الكنوز وإن كانت توجد
(١) التخریق : كثرة الكذب ، والتخرق : خلق الكذب .
(الفراس) .

وإن نقص في مصر والثام فلم ينقص في الهند والصين . وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يورفها أو ينقصها . مع أن المعادن يدرکہا البلاد كما يدرکہ سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره ، وكلنا الذهب والفضة (١) والنحاس والحديد والرماس والقصدير ينالها من البلاد والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت .

وأما ملوك في مصر من أمر الطالب والكنوز فمسيه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين ، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر والآلات على مله من تقدم من أهل الدول . فلما انقضت دولة القبط (٢) وملك الفرس بلادهم نقرؤا على ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالأهرام من قبور الملوك وغيرها . وكلنا فعل اليونانيون من يعلم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد . ويعثر على الدفين فيها في كثير من الأوقات : إما ما يدفنونه من أموالهم ، أو ما يكرمونه بموتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك . فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها . فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن الطالب لوجود ذلك فيها

٥ - فصل في أن الجاه مفيد للمال

وذلك أنا نجد صاحب المال والمظفر في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروة من فاقد الجاه . والسبب في ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يتقرب بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه . فالتناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمال ، فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه . وجميع ما شأنه أن تهلل فيه الأعراض من العمل ، يستعمل فيها الناس من غير عوض ، فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوفر عليه . والأعمال لأصحاب الجاه كثيرة فتفيد الفنى لأقرب وقت ، ويزداد

وإن نقص في مصر والثام فلم ينقص في الهند والصين . وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يورفها أو ينقصها . مع أن المعادن يدرکہا البلاد كما يدرکہ سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره ، وكلنا الذهب والفضة (١) والنحاس والحديد والرماس والقصدير ينالها من البلاد والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت .

وأما ملوك في مصر من أمر الطالب والكنوز فمسيه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين ، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر والآلات على مله من تقدم من أهل الدول . فلما انقضت دولة القبط (٢) وملك الفرس بلادهم نقرؤا على ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالأهرام من قبور الملوك وغيرها . وكلنا فعل اليونانيون من يعلم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد . ويعثر على الدفين فيها في كثير من الأوقات : إما ما يدفنونه من أموالهم ، أو ما يكرمونه بموتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك . فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها . فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن الطالب لوجود ذلك فيها

(١) حطب د. راق على هذا بقوله : وهذا غير صحيح فيما يتعلق بالذهب والفضة ؛ لأن من أمر عواصى هذين المدينين إنما غير قابلين للاحتياج مع المراه أو الماء أو أي جسم آخر . فما لا يصفان ولا تتغير هواسهما الكيميائية يتقدم الزمن ولا يفتيان ولا يبدان بالاستعمال (٢) يقصد بالقبور القرامطة ، أي لعوام المصريين .

العمل جملة لكان فاقده الكسب بالكلية . وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نحو كسبه أو نقصانه . وقد بينا آنفاً أن الجاه يفيد المال (١) لا يحصل لصاحبه من تقرب إليه بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجلب المنافع ، وكان ما يتقربون من عمل أو مال عرضاً عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض في صالح أو طالع . وتصير تلك الأعمال في كسبه ، وقيمتها أموال وثروة له فيستفيد الفنى واليسار لأقرب وقت .

ثم إن الجاه متوزع في الناس ومتعرب فيهم طبقة بعد طبقة ، ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية ، وفي السفلى إلى من لا يملك ضراً ولا نفعاً بين أبناء جنسه ، وبين ذلك طبقات متعددة : حكمة الله في خلقه ، بما ينتظم معاشهم وتيسر به مصالحهم ويتم بقاؤهم . لأن النوع الإنساني لا يتم وجوده ويقاؤه إلا بتعاون أبنائه على مصالحهم ، لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده إلا بالتعاون ، وإنه إن نذر فقد ذلك في صورة مفروضة فلا يصح بقاؤه (٢) .

ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجعلهم في الأكثر بمصالح النوع ، ولما جعل لهم من الاختيار ، وأن أعمالهم إنما تصدر بال فكر والرؤية بالطبع ، وقد يمتنع عن الطوفة فيتحقق

مع الأيام يساراً وثروة . ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المماش كما قدمناه .

وقد أخذ الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه ، وهؤلاء هم أكثر التجار ، ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير . وما يشهد لذلك أننا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا ، وحسن الظن بهم ، واعتقد الجمهور في إزفادهم (٣) ، فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتبال في مصالحهم ، أسرع إليهم الثروة وأصبحوا ميسرين من غير مال مقنن ، إلا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التي وفعت الملوثة بها من الناس لهم .

وأما من ذلك أهدأ في الأمصار والمدن وفي البدو ، يسعى لهم الناس في الفلاح والتجور (٤) وكل قاعد يمتنع لا يبرح من مكانه ، فينمو ماله ويحطم كسبه ، ويتأكل الغنى من غير سعى . ويعجب من لا يفتن لهذا السر في حال نزوته وأسباب غناه ويساره . والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب .

٦ - فصل في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والخلق وأن هذا الخلق من أسباب السعادة.

قد سلف لنا فيما أن الكسب الذي يستفيد إنما هو قيم أعمالهم (٥) . ولو قدر أحد عطل عن (٦)

(١) في القاموس: الرقة : السوء والصلة ، وسعد رفته يرفده أصاه ، والإزفاد الإحالة والإحالة . (٢) التبر : التجارة .

(٣) عرض للك في الفصل الأول من هذا الباب : فصل في حقيقة الرزق والكسب ، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية .

(٤) السط : الساطع الذي لا عمل له وهي صفة لأحد .

(١) في الفصل السابق لهذا الفصل .

(٢) يعني : إن حدث في حالة شاذة أن رجع شخص فبع صلاته مع غيره . والله لا يفرح بغيره .

كان الكسب الناشئ عنه كذلك ، وإن كان ضيقاً قليلاً فمثله .

وفاقد الجاه وإن كان له مالٌ فلا يكون يسارُهُ إلا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعيه ذاهباً وآيباً في تنميته كما كثر التجار وأهل الفلاحة في الغالب وأهل الصنائع كذلك إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم ، فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر ولا تسرع إليهم ثروة ، وإنما يرمقون العيش ترميقاً^(١) ويدافعون ضرورة الفقر مدافعةً . وإذا تقرر ذلك وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله ، علمت أن بذله وإفادته من أعظم النعم وأجلها ، وأن بآذله من أجل المنعمين . وإنما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعزة ، فيحتاج طالبه ومبتغيه إلى خضوع وتعلق كما يسأل أهل العز والملوك ، وإلا فيتعذر حصوله . فلذلك قلنا إن الخضوع والتعلق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب ، وإن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا التعلق . ولهذا نجد الكثير من يتخلق بالترفع والشتم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون في التكسب على أعمالهم ، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة .

واعلم أن هذا الكثير والترفع من الأخلاق الملوثة وإنما يحصل لمن توهم الكمال ، وأن الناس يحتاجون إلى بضائعه من علم أو صناعة ، كالعالم المتبحر في علمه ، أو الكاتب المجيد في كتابته ،

حنله عليها فلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم ، لتتم الحكمة الإلهية في بقاء هذا النوع . وهذا معنى قوله تعالى : وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْتُمِعُونَ^(١) .

فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط . بالقهر والغلبة ، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة ، وعلى أغراضه فيما سوى ذلك ولكن الأول مقصود في العناية الربانية بالذات ، والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشورور الداخلة في القضاء الإلهي ، لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجل المواد^(٢) ، فلا يفوت الخير بذلك ، بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير ، وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة ، فنفهم .

ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق ، وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بلوى الجاه من أهل الطبقة التي فوق ، ويزداد كسبه تصرفاً فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه .

والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش ، ويتشعب ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه . فإن كان الجاه متسعاً

(١) آخر آية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٢) هكذا في جميع النسخ ، وهي غير واضحة الدلالة .

(١) يتق لا يحدود إلا ما يسلك الرق .

الجاه - وهو مفقود له كما تبين لك - مقتته الناس بهذا الترفع ، ولم يحصل له حظ من إحسانهم ، وقد جاءه ذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه ، لأجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاملهم وغشيان منازلهم ، ففسد معاشه ، وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل ، وأما الثروة فلا تحصل له أصلاً .

ومن هنا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ ، وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ ، وهذا معناه . ومن خلق لشيء يسره له . والله المقدر لارب سواه .

ولقد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أجل هذا الخلق ، ويرتفع فيها من السفلة وينزل كثير من الطيبة بسبب ذلك . وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرده منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ، ويشس من سواهم من ذلك ، وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكأنهم عرل^(١) . فإذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من انتمى إلى خدمته وتقرّب إليه بنصيحة ، واصطنعه السلطان لغناؤه في كثير من مهماته . فتجد كثيرا من السوقة يسعى في التقريب من السلطان بهجده ونصحه ، ويتزلف إليه بوجوه خدمته ، ويستعين على ذلك بعظم من الخضوع والتعلق له ولحاشيته وأهل

(١) عرل = أمراء وخدام .

أو الشايع البليغ في شعره ، وكل معصير في صناعته يعوم أن الناس محتاجون لما بيده ، فيحدث له ترفع عليهم بذلك .

وكذا يتوهم أهل الإنساب ، ممن كان في آباءه ملك أو عالم مشهور أو كامل في طوّر ، يعتبرون بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم في المدينة ، ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم وورائتهم عنهم ، فهم متمسكون في الحاضر بالأمر المعنوم .

وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالأمور قد يتوهم بعضهم كمالاً في نفسه بذلك واحتياجاً إليه .

وتجد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أهل منهم ، ويستصبرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس . فيستنكف أحدكم عن الخضوع ولو كان للملك ويعدّه مذلةً وهواناً وسفهاً ، ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار مايتوهم في نفسه ، ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك ، وربما يدخل على نفسه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه ، ويستمر في عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إجابة الناس له من ذلك . ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التأله ، وقل أن يسلم أحد منهم لأحد في الكمال والترفيع عليه ، إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة ، وهذا كله في ضمن الجاه . فإذا فقد صاحب هذا الخلق

الحاجة إليها أشد . وأهل هذه الصنائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق ، وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص من أقبل على دينه ، وإن احتجج إلى القنيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم ، فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر . وإنما يهتم بإقامة مراسيمهم صاحب الدولة عماله من النظر في المصالح ، فيقسم لهم حظا من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذي قرره ، لا يساوهم بأهل الشوك ولا بأهل الصنائع ، من حيث الدين والمراسم الشرعية ، ولكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران ، فلا يصح في قسمهم إلا القليل .

وهم أيضا لشرف بضائعهم أعز على الخلق وعند نفوسهم ، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى يبالوا منه حظا يستبدون به الرزق ، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك ، لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والبدن ، بل ولا يسعهم إبتدال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف صنائعهم ، فهم معزول عن ذلك . فلذلك لا تعظم تروثهم في الغالب . ولقد باحت بعض الفضلاء فأنكر ذلك على موقع بيدي أوراق مخرقة من حسابات الدواوين بذكر المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج ، وكان فيها طالع في أوراق القضاة والأئمة والمؤذنين فوقفته عليه ، وعلم منه صحة ماقلته ورجع إليه ، وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه . والله الخالق القادر لا رب سواه .

نسيه ، حتى يرمخ قلعه معهم ، وينظمه السلطان في جملة ، فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة ، وينتظم في عدد أهل الدولة .

وناشئة الدولة حيثل من أبناء قومها الذين ذلوا أصحابها ومهدوا أكنافها معززون بما كان لأبائهم في ذلك من الآثار ، تشمخ به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره . ويجرون في مضمار الدأبة بسببه . فيحتكم السلطان لذلك ويباعد عنهم ويميل إلى هؤلاء المصلتين الذين لا يعتنون بقديم ولا يلهيهم إلى ذالة ولا ترفع ، إنما ذلهم الخضوع له والتملق والاعتماد في غرضه متى ذهب إليه ، فيتسع جاههم ، وتعلو منازلهم ، وتنصرف إليهم الوجوه والخواطر ، بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده ، ويبقى ناشئه الدولة هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم ، لا يزيدهم ذلك إلا بعدا من السلطان ومقتا وإثارا لهؤلاء المصلتين عليهم ، إلى أن تنقرض الدولة . وهذا أمر طبيعي في الدولة . ومنه جاء شأن المصلتين في الغالب . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق لأرب سواه .

٧ فصل في أن القانعين بأمر الدين من القضاء والقنيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم لروثهم في الغالب

والسبب لذلك أن الكسب كما قلناه قيمة الأعمال وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها ، فإنما كانت الأعمال ضرورية في العمران عامة البلوى به ، كانت قيمتها أعظم وكانت

٨ - فصل في أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البلو

وذلك لأنه أسهل في الطبيعة وبسيط في منجاة ، ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضرة في الغالب ، ولا من المترفين ، ويختص منتحله بالملذة . قال صلى الله عليه وسلم ، وقد رأى السيكة (١) ببعض دور الأنصار : « ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله اللؤلؤ » ، وحمله البخارى على الاستكثار منه وترجم عليه : « باب ما يحذر من عواقب الاستكثار بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به » . والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغمم المفقى إلى التحكم واليد الغالبة ، فيكون الغارم ذليلاً بائساً بما تتناولهُ أيدي القهر والاستطالة . قال صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً » ، إشارة إلى الملك العضوض القاهر للناس الذى معه التسلط . والجور ، ونسيان حقوق الله تعالى في المتسلطات ، واعتبار الحقوق كلها مغرماً للملوك والدول . والله قادر على ما يشاء . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٩ - فصل في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها

إعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخس وبيعها بالفلاء أياً ما كانت السلعة من دقيق أوزرع أو حيوان أو قماش . وذلك القدر النامى يسمى ربحاً .

فالمحاول للذلك الربح إما أن يخرز السلعة ويتحين بها جولة الأسواق من الرخص إلى الفلاء

(١) السكة : حبة الفدان وهو المهرات (القاموس) .

فيعظم ربحه ، وإما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذى اشتراها فيه ، فيعظم ربحه . ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة : أنا أعلم لك في كلمتين : « اشتر الرخص وبع البلى » ، وقد جعلت التجارة ، إشارة منه بذلك إلى المعنى الذى قرناه . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه .

١٠ - فصل في أى أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيسر له احتجاب حرفه

قد قلنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأعلى من ثمن الشراء ، إما بانتظار جولة الأسواق أو نقلها إلى بلد هي فيه أنفق وأعلى ، أو بيعها بالفلاء على الآجال . وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال يسير . إلا أن المال إذا كان كثيراً هضم الربح ، لأن القليل في الكثير كثير . ثم لا بد في محاولة هذه التنمية الذى هو الربح من حصول هذا المال بأيدي الباعة بشراء البضائع وبيعها وتقاضى أثمانها . وأهل النعمة قليل ، فلا بد من الفس والتغلب للمجحف بالبضائع ومن المطلق الأثمان المجحف بالربح ، كتحصيل المحاولة في تلك الملة وبها عاؤه ، ومن الجور والإنكار المسجون (١) لرأس المال إن لم يتفقد بالكتاب والشهادة . وغتاك الحكام في ذلك قليل ، لأن الحكم إما هو على الظاهر . فيعاقب التاجر من ذلك

(١) من معنى السمت : استعصالي الشيء : أى المبت لراس المال والمستهك لأصله .

ها الملوك والأشراف . وأما إن استُرِدِّلَ خُلُقُهُ بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم ، من السُّمَّاحَةِ والغش والخَلَّاتِ (١) وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأيمان رداً وقبولا ، فأَجْبِرُ بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف . ولذلك تجد أهل الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرقة لأجل ما يُكَسِّبُ من هذا الخلق . وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم خللاه ، إلا أنه في النادر بين الوجود . والله يهدي من يشاءُ بفضله وكرمه ، وهو ربُّ الأولين والآخرين .

١٢ - فصل في نقل التجار والسلع

التاجرُ البصيرُ بالتجارة لا ينقل من السلع إلا ما تم الحاجةُ إليه من الغنَى والفقر والسُلطان والسوق ، إذ في ذلك نَفَاقُ سلته . وأما إذا انتخص نقله بما يحتاجُ إليه البعض فقط ، فقد يتملئ نَفَاقُ سلته حينئذ بإعزاز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض ، فتكسد سوقه وتفسد أرباحه . وكذلك إذا نقل السلعة المحتاج إليها فلنما ينقل الوسط من صنفها ، فإن العلى من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الأقل ، وإنما يكون الناس أسوة في الحاجة إلى الوسط . من كل صنف . فليتحر ذلك جهده ففيه نَفَاقُ سلته أو كساده . وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحاً وأكثر بحالة الأسواق . لأن السلعة المنقولة حينئذ

أحوالاً صعبة ، ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة ، أولاً يحصل أويثلاثي رأس ماله . فإن كان جريئاً على الخصومة ، يصيراً بالحُصْبَان ، شليد السُّمَّاحَةِ (١) ، مقداماً على الحكام ، كان ذلك أقرب له إلى النَصَفَةِ بجرائته منهم ومحاكته ، وإلا فلا بدُّ له من جاه يَدْرِعُ (٢) به ، يقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من معامليه ، فيحصل له بذلك النَصَفَةُ في ماله طوعاً في الأول وكرهاً في الثاني . وأما من كان فاقداً للجراحة والإقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة ، لأنه يعرض ماله للضياع والتهاب ويصير مأكلة للباعة ، ولا يكاد ينتصف منهم . لأن الغالب في الناس ، وخصوصاً الرعاع والباعة ، شرمون إلى ما في أيدي الناس سواهم ، متوثبون عليه ، ولولا وازع الأحكام لأصبحت أموال الناس نهياً : « ولولا دَفْعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » (٣) .

١١ - فصل في أن خلق التجار نازلة عن عناق

الأشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء ، ولا بد فيه من السُّكَّانَةِ ضرورة . فإن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها ، وهي - أهمى خلق المكايمة - بعيدة عن المروعة التي تتخلق

(١) الماسكة : الباع وماسكاً تلاجاً وهو ماسك (القلموس)

(٢) والى : يخطه دوماً .

(٣) سورة آية ٢٥١ من سورة البقرة .

(١) الخلافة : الخلع .

والله أعلم أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبدلون فيها من المال اضطراباً ، فنتبثق النفوس متعلقة به ، وفي تعلق النفوس بما لها سر كبير في وباله على من يأخذها مجاناً . ولله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل . وهذا وإن لم يكن مجاناً فالنفوس متعلقة به ، لإعطائه ضرورة من غير سعة في العسر فهو كالمكره . وما عدا الأقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطراب للناس إليها ، وإنما يبتشعهم عليها التفتن في الشهوات ، فلا يبدلون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص ، ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه . فلهاذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأخذ من أموالهم فيفسد ربحه . والله تعالى أعلم .

وسمعت فيها يناسب هذا حكاية ظريفة عن بعض مشيخة المغرب . أخبرني شيخنا أبو عبد الله الأبلئ . قال : حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان أبي سعيد ، وهو الفقيه أبو الحسن المليئ وقد عُرِضَ عليه أن يختار بعض الألقاب المخزنية^(١) لجرايته قال : فأطرق ملياً ثم قال لهم : من مكين الخمر . فاستضحك الحاضرون من أصحابه ، وعجبوا ، وسألوه عن حكمة ذلك فقال : إذا كانت الجبايات كلها حراماً فأغتر منها مالا تتابعه نفس مغتية ، والخمر قل أن يبدل فيها أحد ماله إلا وهو طرب مسرور بوجدانه غير آسف عليه ، ولا متعلقة

تكون قليلة مُعَوَّزة ليعد مكانها أو شقة الفرر^(٢) في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها ، وإذا قلت وعزت غلت أثمانها . وأما إذا كان البلد قريب المسافة والطريق سائلاً^(٣) بالأمن ، فإنه حينئذ يكثر ناقلوها ، فتكثر وترخص أثمانها .

ولهذا نجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرزقه الناس وأكثرهم أموالاً ، بُعِدَ طريقهم ومثقتهم ، واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والمطش ، لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة يتهدى إليها أدلاء الركبان ، فلا يرتكب خطر هذا الطريق ويُعَدَّه إلا الأقل من الناس ، فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتتخص بالغلاء ، وكذلك سلعنا لديهم ، فتعظم بضائع التجار من ثنائقهم ، ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك . وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق لبعث الشقة أيضاً . وأما المترددون في أفق واحد مابين أمصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقليها . والله هو الرزاق ذو القوة المتين .^(٤)

١٣ - فصل في الاحتكار

وما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الأمصار أن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشؤوم وأنه يعود على فائدته^(١) بالتلف والحسران . وسببه

(١) الفرر : تعريض النفس الهلاك .

(٢) السائل من الطرق المسلك ، وأسهل كثرت سائلتها .

(٣) من الآية ٥٨ من سورة الذاريات .

(٤) يعني يتلف المنفعة ويعود بالحسران على صاحبه .

(١) حكلا في جميع النسخ ، ويظهر أن ملا كان تميزاً اصطلاحياً متعارفاً عليه في مصر . وللمنى يختار بعض أبواب الفصل لأخذه منها مرتبه .

به نفسه . ومنه ملاحظة غريبة . والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور ^(١) .

١٤ - فصل في أن رخص الأصهار مضر

بأخترين بالرخص

والخير وسائر ما يتعلق بالزراعة من العثر إلى صيرورته مأكولا . وكذا يفسد حال الجند إذا كانت أرواقيهم من السلطان على أهل الفلح زرعاً ، فإنها تغلب جبايعها من ذلك ويحجزون عن إقامة الجندية التي هم يسميها ومطالبون بها ومتقطعون لها ، فتفسد أحوالهم .

وكذا إذا استديم الرخص في السكر أو العسل فسد بجمع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه . وكذا الملابس إذا استديم فيها الرخص .

فإذا الرخص المفرط . يجهض بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخص ، وكذا الغلاء المفرط أيضاً ، وإنما معاش الناس وكسبهم في المتوسط من ذلك وسرعة جولة الأسواق . وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المقررة بين أهل العمران . وإنما يَحْتَمِلُ الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه ، واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغنى والفقير . والمالة من الخلق هم الأكثر في العمران . فيم الرفق بذلك ويرجع جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص . والله الرزاق ذو القوة المتين . والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم .

١٥ - فصل في أن خلق التجارة نازلة

عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

قد قدمنا في الفصل قبله ^(١) أن التاجر

مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب القوائد

(١) ينضم الفصل الحادي عشر . ولعل الفصل الحادي عشر كان سابقاً لهذا الفصل باعتباره في الترتيب الأول لفصله ، ثم غير ابن خلطون ترتيبه لتصوره . بدون أن يغير منه العبارة .

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة ، والمجارة هي شركة البضائع والسلع واستخراجها يتحين بها جولة الأسواق بالزيادة في أثمانها ويحصى ربحاً ، ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائماً ، فإذا استديم الرخص في سلعة أو عرض ^(٢) من مأكول أو مطبوس أو معمول على الجحلة . ولم يحصل للتاجر جولة الأسواق فسد الربح والهاء بطول تلك المدة ، وكسدت سوق ذلك الصنف ، فقعده التجار عن السعي فيها ، وفسدت رغوس أموالهم .

واعتبر ذلك أولاً بالزرع فإنه إذا استديم ورخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه وتذاريه أو فقده ، فيفقدون الثمأ في أموالهم أو يجدونه على قلة ، ويحذرون بالإنفاق على رغوس أموالهم وفسد أحوالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة ، ويضيع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن

(١) حطب . واني حل هذا بقوله : « لم يتكلم ابن خلطون على الاحتكار من ناحيته الاقتصادية والاجتماعية » ، وبجاء القول فيها ذو صفة كجدة ، ويتشعب موضوع بحثه في هذا الباب ، وإنما تكلم عليه من ناحية تعلق نفوس المشتريين بما يبدلون من أثمان باعطة في المواد المتحركة ، وأثر هذا التعلق فيما يكسبه المتحرر . وهذه ناحية غريبة كل الغريبة عن الموضوع وعن اهتمامات البحث ، وتقوم على الاختلافات المصنعة بالتفاهل ولسان القنوس بأموالها ... وما إلى ذلك .

(٢) العرض . بالسكون الضاح ، والجمع عروض مثل فلس وفلوس ، ومنه عروض التجارة .

عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر ، فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن تلك الحاجة ، إلا مايسرى من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب ، فإلهم يضطرون إلى مشاركة أحوال أولئك الوكلاء ووفقهم أو خلافهم فما يتأتون أو يذرون من ذلك ، إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره . «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ»^(١) .

١٦ - فصل في أن الصنائع لا بد لها من المعلم^(٢)

اعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عمل فكري ، وبكونه عملياً هو جسامي محسوس والأحوال الجسامية المحسوسة تنقلها^(٣) بالمباشرة أوعب لها وأكمل . لأن المباشرة في الأحوال الجسامية المحسوسة أتم فائدة ، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى ، حتى ترسخ صورته ، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة . ونقل الماينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم ، فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر . وعلى قدر جودة التعلم وملكة المعلم يكون خلق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته .

ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات ، والمركب هو الذي يكون للكماليات . والمتقدم منها في التعلم هو البسيط لبساطته أولاً ولأنه مختص بالضروري

والأرباح ولا بد في ذلك من المكايسة والمماحكة والتخلُّق وممارسة الخصومات واللباج ، وهي حواضر هذه الحرفة . وهذه الأوصاف نقص من الزكاه والمروءة وتجرح فيها ، لأن الأفعال لا بد من عود آثارها على النفس ، فأفعال الخير تعود بآثار الخير والزكاه ، وأفعال الشر والسفينة تعود بضد ذلك ، فتتمكن وترسخ إن سبقت وتكررت ، وتنقص خلال الخير إن تأخرت عنها ، بما ينطبع من آثارها للمروءة في النفس ، شأن الملكات الناشئة عن الأفعال .

وتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم . فمن كان منهم سافل الطور محالفاً لأشرار الباعة أهل الغش والخلاية والفجور في الأثمان إقراراً وإنكاراً ، كانت رذاعة تلك الخلق عنده أشد ، وظلمت عليه السفينة ، وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة . وإلا فلا بد له من تأثير المكايسة والمماحكة في مروءته . وفقدان ذلك منهم في الجملة ، ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل قبله أنهم يدعون بالجاه ويعرض لهم من مباشرة ذلك ، فهم ماهر وأقل من النادر . وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ووفة عن أحد من أهل بيته ، فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره ، فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشمه ، ويسهل له الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من يره وإتحافه فيعلمونه

(١) آية ٩٦ من سورة الصافات .

(٢) في بعض النسخ : لا بد لها من العلم ، وهو تحريف .

(٣) الأصح حذف الفاء ، وكثيراً ما يزيد ابن خلدون في

مثل هذا التركيب .

من الجنبَة وغيرها . فإذا جمعت المدينة وتزايد فيها الأعمال ووقت بالضرورة وزادت عليه ، صُرفَ الزائد حيثل إلى الكمالات من المعاش . ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات ، والقوت له من حيث الحيوانية والغلاتية ، فهو مقدم لضروريه على العلوم والصنائع . وهي متأخرة عن الضروري .

وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنيق فيها حيثل ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواحي الترف والثروة . وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط ، خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار . وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وإنما يوجد منها مقدار الضرورة ، إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها .

وإذا زخر بحرُ العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التأنيق في الصنائع واستجادتها ، فكملت بجميع متماماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار وخباز وحرار^(١) وصانع وأشال ذلك . وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد منها كثير من الكمالات ، والتأنيق فيها في الغاية ، وتكون من وجوه المعاش في المضر لمتنتحها ، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال ، لما يدهو

الذي تتوفر الدواحي على نقله ، فيكون سابقا في التعلم ويكون تعليمه لذلك ناقصا . ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومزجياتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئا فشيئا على التدريج حتى تكمل . لا يحصل ذلك دفعة وإنما يحصل في أزمان وأجيال إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لا سيما في الأمور الصناعية ، فلا بد له إذن من زمان . ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ، ولا يوجد منها إلا البسيط . فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع ، خرجت من القوة إلى الفعل .

وتنقسم الصنائع أيضا : إلى ما يختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضروري ، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع ، والسياسة^(١) ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحداة وأشالها ، ومن الثاني الوراقة ، وهي معانة الكتب بالانتيساخ والتجليد ، والغناء والشعر وتعليم العلم وأشال ذلك ، ومن الثالث الجندية وأشالها . والله أعلم .

١ - فصل في أن الصنائع إنما تكمل بكمال

العمران الحضري وكثره

والسبب في ذلك أن الناس مالم يستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش ، وهو تحصيل الأقوات

(١) حقل هنا كلستان ، وقصر البادية به وضعها : هـ . وإلى ما يختص بالسياسة ، لأنه هنا يصعد صنف ثالث كما يردحه الجملة التالية .

(١) انحرار : صانع الأضية ، وانحرار حرفة . حرز الخف يفرزه لهم الزلي وكمرها (القاموس) .

١٨ - فصل في أن وصوخ الصنائع في الأمصار
إنما هو بروسوخ الحضارة وطول أمدها

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها
عوائد للعران وألوان^(١) . والعوائد إنما ورسخ
بكثرة التكرار وطول الأمد فتمستحكم صيغة ذلك
وترسخ في الأجيال ، وإذا استحكمت الصيغة
عصر نزعها . ولهذا نجد في الأمصار التي كانت
استبحرت في الحضارة لما تراجعت عمرانها وتناقص
بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها
من الأمصار المستحقة العمران ، ولو بلغت مبالغا
في الوفور والكثرة . وما ذلك إلا لأن أحوال تلك
القلعة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب
وتداول الأحوال وتكررها ، وهذه لم يفلح الغاية
بعد .

وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد : فإننا
نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة
راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها ،
كالبناني والطبخ وأصناف الفناء واللهر من الآلات
والأوتار والرقص وتنفيذ القرش في القصور ،
وحسن الترتيب والأوضاع في البناء ، وصوغ
الآتية من المادن والخزف وجمع المراعين ، وإقامة
الولائم والأعراس ، وسائر الصنائع التي يدعو
إليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر
بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على
حصة موفورة من ذلك ، وحظ متميز بين جميع

(١) هكذا في النسخة « التبيورية » . وقد وردت هذه الكلمة
عرة إلى « الأذن » في أكثر من ضربة .

إليه الترف في المدينة مثل الدهان^(١) والصغار^(٢)
والحنامي^(٣) والطباخ والسفاح^(٤) والهراش^(٥)
ومعلم الفناء والرقص وقرلح الطبول على التوقيع ،
ومثل الوراقين اللذين يعانون صناعة انتماخ الكتب
وتجليدها وتصحيحها ، فإن هذه الصناعة إنما يدعو
إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية
وأمثال ذلك . وقد تخرج عن الحد إذا كان
العران خارجاً عن الحد ، كما بلغنا عن أهل
مصر أن فيهم من يعلم الطيور الحجم والحمر الإنسية
ويتخيل أشياء من العجائب يلزمها قلب الأعيان ،
وتعلم الحذاء^(٦) والرقص والمشي على الخيوط في
الهواء ، ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة ،
وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب
لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة .
أدام الله عمرانها بالمسلمين .

(١) الدهان : الذي يبيع اللبن ويشتل بصنائه . ولعله يقصد
الذي يدهن حواصل البهائم .

(٢) الصغار الذي يشتل بصناعة الصفر وهو صنف من النعاس

(٣) الحنامي : الذي يصنع الحمامات ويأزول صنائعها .

(٤) هكذا في جميع النسخ المتأولة . وفي النسخة « التبيورية »
« السفاح » . وكلتا الكلمتين لا معنى لها هنا . ويظهر أن للكلمة عربة
من « الصباغ » وهو الذي يصنع التليج ، أو من « السقاء » وهو
الذي ينقل الماء إلى المنازل .

(٥) الهراش : البق الخفيف ، والهراش متلفه ، وهراش
الهراش المهرشة من باب قتل دفتها . والمهراس : الماؤون وحجر
مستطيل ينقر ويدق فيه ويحرق فيه ، وقد استبرأ الخشب التي يثق
فيها الحب ، فتقلى لها مهراس على التشبيه بالمهراس من الحجر أو
الحصير الذي يرس فيه الحبوب وغيرها (من القندوس والمصباح) .

(٦) أصل الحذاء : الفناء للإبل في سوتها ، يقال حذوت الإبل
أحلوها حذوا وحذاء بالقمح حذبتا على السير بالحذاء مثل غراب
وهو الفناء . وحذوته على كذا يقصد عليه (المصباح والمصالح) .

الأمصار ، وإن كان عمراتها قد تناقصت ، والكثير منه لا يساوى عمران غيرها من بلاد السُّودَة . وما ذلك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوما . وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جرا . فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر ، الا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضاً ، لطول آماد الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق ، وبقيت صبتها ثابتة في ذلك العمران ، لا تفارقه إلى أن ينتقص بالكلية ، حال الصيغ إذا رسخ في الثوب .

وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم ، وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال ، وإن كان ذلك دون الأندلس إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما ، وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنة . وربما سكن أهلها هناك عسوراً ، فينقلون من عرائد ترفهم ومحكم صنائعها ما يقع لبيهم موقع الاستحسان . فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد الائمة السابعة . وروى فيها من ذلك أحوال ١ وإن كان عمراتها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد إلا أن الصيغة إذا استحكمت فقليلة ما تحول إلا يزوال محلها .

وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلمة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك ، وإن كانت هذه كلها اليوم خراباً أو في حكم الخراب . ولا يتفطن لها إلا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثاراً تدله على ما كان بها ، كآثر الخط الممحو في الكتاب . والله الخلاق العليم .

١٩ - فصل في أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طلبها

والسبب في ذلك ظاهر ، وهو أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقدح مَخْجَناً لأنه كسبه ومنه معاشه إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه ، فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع . وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها التَّفَاقُ كانت حينئذ الصناعة بمخاطبة السلعة التي تنفَقُ سوقها وتجلب للبيع ، فتجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم . وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفَقُ سوقها ، ولا يوجه قصد إلى تعلمها ، فاختصت بالترك وفقدت للأعمال . ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه : « قيمة كل أمرى ما يحسن » ، بمعنى أن صناعته هي قيمته أي قيمة عمله الذي هو معاشه وأيضاً فهنا سر آخر وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة ، فهي التي تنفَقُ سوقها وتوجه الطلبات إليها ، وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أجل المصر فليس على نسبتها ، لأن الدولة هي السوق الأعظم . وفيها تَفَاقُ كل شيء ، والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة ، فما نفق

الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر .
وانظر بلاد الصجم من الصين والهند وأرض الترك
وأُمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع
واستجلبها الأُمم من عندهم .

وصجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك
لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين .
ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قلناه .
فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة ،
إلا ما كان من صناعة الصوف من نسجه ، والجلد
في حرزه ^(١) . وفيه . فإتيهم لما استحضروا بلغوا
فيها البالغ لعموم اليولى بها ، وكون هذين أغلب
السلع في قطرهم لا هم عليه من البداوة .

وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ
ملك الأُمم الأقدمين من الفرس والبط والقبط
وبني اسرائيل ويونان والروم أحقاباً متطاولة .
فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جملة الصنائع
كما قلناه ، فلم يمح رسمها .

وأما اليمن والبحران وعُمان والجزيرة ،
وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من
السنين في أُمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره
ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف ، مثل
عاد وثمود والمالقة وحمير من بعدهم والتبليغة
والأنواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت
صبغتها وثقوفت الصنائع ورسخت ، فلم تبيل
ببيل الدولة كما قلناه ، فبقيت مستجدة حتى

كان أكثرها ضرورة . والسوق وإن طلبوا الصناعة
فليس طلبهم بعام ، ولا سوقهم بناقصة والله سبحانه
وتعالى قادر على ما يشاء .
٢٥ - فصل في أن الأمصار إذا قلوت الخراب
انقصت منها الصنائع

وذلك لما بينا أن الصنائع إنما تستجد إذا
احتيج إليها وكثر طلبها ، وإذا ضعف أحوال
المصر وأخذ في الهرم بانتفاض عمرانه وقلة ساكنه
تناقص فيه الترف ، ورجعوا إلى الانقصار على
الضروري من أحوالهم ، فقلت الصنائع التي كانت
من توابيع الترف ، لأن صاحبها حينئذ لا يصح
له بها معاشه ، فيفر إلى غيرها أو يموت ، ولا
يكون خلف منه ، فيذهب رسم تلك الصنائع جملة ،
كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ
وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف . ولاتزال
الصناعات في التناقص مازال المصرف التناقص
إلى أن تضمحل . والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى .
٢٦ - فصل في أن العرب ^(١) أبعد الناس عن الصنائع
والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد

عن العمران الحضري ، وما يدعو إليه من الصنائع
وغيرها . والصجم من أهل المشرق وأُمم النصرانية
عُدوة البحر الرومي أقدم الناس عليها لأنهم أعرق
في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه ،
حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في
القفر والإعراف في البدو مفقودة لديهم بالجملة
ومفقودة مراعيها والرمال المهيجة لنتائجها . ولهذا
نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل

(١) الفرقاء ، صانع الألفية م

(١) بني الأعراف كما سبق ذكره غير مرة .

الملكة الحاصلة في النفس . والله سبحانه وتعالى أعلم
وبه التوفيق لا رب سواه .

٢٣ - فصل في الإشارة إلى أمهات الصنائع

إعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة
لكثرة الأعمال المتداولة في العمران ، فهي بحيث
تشذ عن الحصر ولا يأخذها المد . إلا أن منها ما هو
ضروري في العمران أو شريف بالموضوع فنخصها
 بالذكر ونترك ما سواها . فأما الضروري فالفلاحة
والبناء والخيطة والتجارة والحياسة . وأما الشريفة
بالموضوع فالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب .
فأما التوليد فلإنها ضرورية في العمران وعامة البلوى
إذ بها تحصل حياة المولود وتم غالبا ، وموضوعها
مع ذلك المولودون وأمهااتهم . وأما الطب فهو حفظ
الصحة للإنسان ودفع المرض عنه ، ويتفرع عن
علم الطبيعة ، وموضوعه مع ذلك بدن الإنسان .
وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة
على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ،
وميلغة ضيائر النفس إلى البعيد الغائب ، ومخلدة
نتائج الأفكار والعلوم في الصحف ، ورافعة رتب
الوجود للمعاني . وأما الغناء فهو نسب الأصوات
ومظهر جمالها للأسماع . وكل هذه الصنائع الثلاث (١)
داع إلى مخالطة الملوك الأعظم في خلواتهم ومجالس
أنفسهم ، فلها بذلك شرف ليس لغيرها . وما سوى
ذلك من الصنائع فتابعة ومتممة في الغالب . وقد
يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعي . والله
أعلم بالصواب .

الآن ، واختصت بذلك الوطن كصناعة الوثني (١)
والنصب (٢) وما يستجد من حوك الثياب والحريز
فيها . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير
الوارثين .

٢٤ - فصل فيمن حصلت له ملكة في صناعة

فقل أن يجيد بعدها ملكة في أخرى

ومثل ذلك الخياط . إذا أجاد ملكة الخياطة
وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها
ملكة التجارة أو البناء ، إلا أن تكون الأولى لم
تستحكم بعد ولم ترسخ صبتها . والسبب في ذلك
أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة .
ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات
وأحسن استعدادا لحصولها . فإذا تلونت النفس
بالمملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها
الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة ، فكان
قبولها للملكة الأخرى أضعف . وهذا بين يشهد له
الوجود . فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم
يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معاً على رتبة
واحدة من الإجابة . حتى أهل العلم الذين ملكتهم
فكرية فهم بهذه المثابة . ومن حصل منهم على ملكة
علم من العلوم وأجادها في الغاية فقل أن يجيد ملكة
علم آخر على فسحة ، بل يكون مقصراً فيه إن
طلبه ، إلا في الأقل النادر من الأحوال . ومبنى
سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلونه بلون

(١) يقصد الصنائع الثلاث الأخيرة وهي : الطب ويصل فيه
التوليد ، والكتابة وتبنيها الوراقة ، والغناء .

(١) الوثني : نقش التوراة (التماثيل) .
(٢) نصب : يرد من يرد المثل على نوح خاص (من الصالح)

والسادس^(١) . وأما أهل البلد فيعملون عن إتخاذ ذلك لقصور أفكارهم عن إحراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف الملعنة من غير علاج .

ثم المحتلون المتخلون للمأوى قد يتكاثرون في البسيط الواحد ، بحيث يتناكرون ولا يعترفون ، فيخشون طروق بعضهم بعضاً ، فيحتاجون إلى حفظ . مجتمعهم بإدارة ماء أو أسوار تحوطهم ، ويصير جميعاً مدينة واحدة ومصرّاً واحداً ، ويحوطهم الحكام من داخل يدفع بعضهم عن بعض ، وقد يحتاجون إلى الإنصاف ويتخلون الماقل والحصون لهم ولن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في مناهم من الأمراء وكبار القبائل في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويتناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقير .

وكذا حال أهل المدينة الواحدة ، فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عد الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولّيه وحشمه وعياله وتابعه ، ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكس^(٢) ويعلو عليها بالأصيعة والجص ، ويبالغ في ذلك بالتجديد والتنميق لإظهاراً للبسطه بالعناية في شأن المأوى . وبهـ مع ذلك الأسراب والمطامير للاحتزان لأقواته ،

(١) يقصد أهل الأقاليم من الثاني إلى السادس ، وهي التي تقدم ذكرها في المقدمة الثانية من الباب الأول .

(٢) الكس بالكسر : الصلوج وهو التوردة وأصلها • وقد كلست الحائط طليها بالكس . ويستخدم كذلك ملاطاً .

٢٤ - فصل في صناعة الفلاحة

هذه الصناعة تمحرتا إتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وإزدياعها ، وعلاج نباتها ، وتعهده بالنسج والتنمية إلى بلوغ غايته ، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه ، وإحكام الأصصال لذلك . وفحصيل أسبابه ودواعيه . وهي أقدم الصنائع لما أنها مُصْطَلَة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالباً ، إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت . ولهذا إختصت هذه الصناعة بالبدو . وإذ قدمنا أنه أقدم من الحضرة سابق عليه^(١) ، فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضرة ولا يعرفونها ، لأن أحوالهم كلها ثانية على البداوة ، فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها . والله سبحانه وتعالى مقبى العباد فيما أراد .

٢٥ - فصل في صناعة البناء

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها ، وهي معرفة العمل في إتخاذ البيوت والمنازل للكن^(٢) والمأوى للأبدان في المدن . وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد ، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من صائر جهاتها . والبشر مختلف في هذه الجيلة الفكرية ، فمنهم المتحدلون فيها يتخفون ذلك باعتدال كأهل الثاني والثالث والرابع والخامس

(١) تقدم فك في الفصل الثالث من الباب الثاني .

(٢) إحدى النسخ : ولكن .

من الخشب مقلدان طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير ، وأوسطه أربع أذرع ، في دراعين ، فينصبان على أساس ، وقد يبعد ما بينهما عما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ، ويوصل بينهما بأفروع من الخشب يربط عليها بالحيال والجبلر ، بلوحيين آخرين صغيرين ، ثم يوضع فيه التراب مخلطاً بالكلس ، ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه ونخلط أجزاءه ، ثم يزداد التراب ثانياً وثالثاً إلى أن تمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحيين ، وقد تدخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً ثم يعاد نصب اللوحيين على الصورة ، ويركز كذلك إلى أن يتم وينظم الألواح كلها سطراً من فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله ملتصحاً كأنه قطعة واحدة. ويسمى الطابية وصانعه الطواب . ومن صنائع البناء أيضاً أن تجل الجيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعاً أو أسبوعين على قدر ما يحتدل مزاجه عن إفراط النارية للإلحام فإذا تم له ما يراه من ذلك علاه من فوق الحائط ، وذلك إلى أن يلتحم .

ومن صنائع البناء عمل السقف بأن عمد الخشب المحكمة النجارة أو الساذجة على حائط البيت ، ومن فوقها الألواح كذلك موصلة بالداستار (١) ، ويصب عليها التراب والكلس ، ويبسط بالمراكز

والاصطبلات لربط. مُقَرَّبَاتِهِ (١) إذا كان من أهل الجود وكثرة التابع والخاصة كالأمراء ومن في معانهم . ومنهم من يبني الدويرة والبيوت (٢) لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك ، لقصور حاله عنه واقتصره على الكن الطيبى البتو . ويبين ذلك مراتب غير محصورة .

وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ، ويبالغون في إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الاحكام تبلغ الصناعة مبالغها . وهذه الصناعة هي التي حصل الدواهي لذلك .

وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه ، إذ الأقاليم المنحرفة لا يناء فيها وإنما يسكنون البيوت حطائر من القصب والعين (ديلون إلى الكهوف والغيران) (٣) .

وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون ؛ فمهم البصير الماهر ، ومهم القاصر . ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة . فمنها البناء بالحجار المتحلاة بقم بها الجدران ملصقاً بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يحدق معها ويلتحم كلها جسم واحد . ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحات

(١) القرية : الفرس التي تذل وتقر وتكرم ولا ترك وهو مقرب ، أو يفعل ذلك بالإثبات فلا يفرها فعل ليم ، ومن الإبل التي حزمت الكروب . (القاموس) .
(٢) وردت هذه الكلمة محرفة في النسخ المتأولة بمعنى البيوت والبيوت .
(٣) هكذا في النسخة النيبوية . وقد حرفت هذه الجملة في النسخ المتأولة إلى هذه الصيغة : وإنما يوجد في الأقاليم المعتدلة له .

(١) هكذا في بعض النسخ ، وفي نسخ أخرى بالعصر . وكلتا الكلمتين محرفة على ما يظهر . ولعل صوابها بالداستار وهو واحد « الفسر » وهي المسابر ، قال تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » (آية ١٢ من سورة القمر) . أو لعل « الداستر » جمع لكلمة « الفسر » فتكون جسماً لجمع .

بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في المحيطان
فيمنع جاره من ذلك ، إلا ما كان له فيه حق ،
ويختلفون أيضًا في إستحقاق الطرق والمنافذ للميا*
الجارية والفضلات المرسية في القنوات . وربما
يدعى بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو قنانه
لتضايق الجوار ، أو يدعى بعضهم على جاره اختلال
حائطه خشية سقوطه ، ويحتاج إلى الحكم عليه
بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه ، أو
يحتاج إلى قسمة دار أو عُرْصَة ^(١) بين شريكين ،
بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا إهمال لمنفعتيها
وأمثال ذلك ، ويخفى جميع ذلك إلا على أهل
البصر العارفين بالبناء وأحواله ، المستدلين عليها
بالمعاقد والقمط . ومراكز الخشب وميل المحيطان
واعتمادها وتقسيم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها
وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث
لا تضر بما مرّت عليه من البيوت والمحيطان وغير
ذلك ، فلهنّ بهذا كله البصر والخبرة التي ليست
لغيرهم . وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور
في الأجيال باعتبار الدول وقوتها . فلإنا قدّمنا أن
الصنائع وكما لها إذا هو بكامل الحضارة ، وكثرتها
بكثرة الطلب لها ^(٢) . فلذلك عندما تكون الدولة
بلدية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى غير
قطرها ، كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع
على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام ،

حتى تتداخل أجزاؤها وتلتصم ويعلى عليها الكلس
كما يعلى على الحائط .

ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التثمين والتزيين
كما يُصنع من فوق المحيطان الأشكال المجسمة من
الجصّ يخمر بالماء ثم يرجع جسدًا وفيه بقية البلل ،
فيشكل على التناسب تحريمًا بمثاقب الحديد إلى أن
يبقى له رونق ورؤاء . وربما حوّل على المحيطان أيضًا
بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو السَّجج
يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة ، وتوضع في
الكُلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به
الحائط . لئليان كأنه قطع الرياض السَّمنمة ^(٣) ،
إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسيح
الماء بعد أن تعد في البيوت قصاع الرخام القوِّراء
المحكمة الخراط . بالقوِّهات في وسطها لتنبع الماء
الجاري إلى الصهريج ، يجلب إليه من خارج
القنوات المفضية إلى البيوت . وأمثال ذلك من
أنواع البناء .

وتختلف الصناعات في جميع ذلك باختلاف
الحلق والبصر ، ويعظم عمران المدينة ويتسع
فيكثرون . وربما يرجع الحكام إلى نظر هؤلاء فيأمر
أبصر به من أحوال البناء . وذلك أن الناس في المدن
لكثرة الإزدحام والعمران يتشاحون ^(١) حتى
في الفضاء والهواء للأعلى والأسفل ، ومن الإبتذاع

(١) السجج : خرز معروف ، الواحدة : صبيحة ، مثل نصب
وقصبة (المصباح) . وفي الصفة « التبيوية » : « الربيع »
وهو الدم الصغير الخفيف (القاموس) .

(٢) من تمنه إذا زخره وزينه .

(٣) تشاح القوم ، بالتضييق ، إذا شح بعضهم على بعض
من الشح وهو البخل (المصباح) .

(١) الرصة : ساحة الدار وهي القنطرة الواقعة التي ليس فيها
بنا ، أو كل بقعة ليس فيها بناء ، والجميع عراس لامرعات .
(٢) انظر الفصلين ١٨ و ١٩ من هذا الباب .

فبعث إلى ملك الروم بالقبطانية في القلعة المهرية
في البناء فبعث إليه منهم من حصل له غرضه من
تلك المبادي .

وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من
الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه
بأخذ الإرتفاع ، وأمثال ذلك ، فيحتاج إلى البصر
بشيء من مسائله . وكذلك في جر الأثقال بالهندام
فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة
لعجز قدر القلعة عن رفعها إلى مكانها من الحائط ،
فيُتَحِيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق
من أثقاب مقدر على نسب هندسية تُصَيِّرُ الثقل
هند معانة الرفع خفيفاً فيتم المراد من ذلك بغير
كلفه ، وهذا إنما يتم بأسلوب هندسية معروفة متداولة
بين البشر . ومثلها كان بناء الهياكل المائلة لهذا
العهد التي يحسب الناس أنها من بناء الجاهلية وأن
أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسائي وليس
كذلك ، وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما
ذكرناه فتفهم ذلك ، والله يخلق ما يشاء سبحانه .

٢٦ - فصل في صناعة التجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ، ومادتها
الخشب . وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للأدنى
في كل صُكُونٍ من المكونات منافع تكمل بها ضروراته
أو حاجاته . وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع
ما لا ينحصر بما هو معروف لكل أحد . ومن منافعها
إنخاذها خشباً إذا بيعت . وأول منافعه أن يكون
وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للأحكام والنود

وغيرها من ضرورياتهم ، ودعائم لا يخفى ميله
من أنقائهم . ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو
والحضر . فأمّا أهل البدو فيتخذون منها العمد
والأوتاد لحياتهم ، والخلوج (١) لظلماتهم ،
والرماح والقيى والسهام لسلحهم ، وأما أهل
الحضر فالمسقف لبيوتهم والأغلاق (٢) لأبوابهم
والكراسي لجلوسهم . وكل واحد من هذه فالخشبة
مادة لها ، ولا نصير إلى الصورة الخاصة بها إلا
بالصناعة .

والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد
من صورها هي التجارة على اختلاف رتبها . فيحتاج
صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً إما بخشب أصغر
منه أو ألواح . ثم يركب تلك القصاصات بحسب
الصور المطلوبة . وهو في كل ذلك يحاول بصنعة
إعداد تلك القصاصات بالإنظام إلى أن يصير أعضاء
لذلك الشكل المخصوص . والقائم على هذه الصناعة
هو النجار . وهو ضروري في العمران . ثم إذا عظمت
الحضار ، وجاء الثرف ، وتأنق الناس فيما
يتخذونه من كل صنف من سقف أبواب أو كراسي
أو ماعون ، حدث التأنق في صناعة ذلك واستجداته
يفرأب من الصناعة كمالية ليست من الضروري
في شيء ، مثل التخطيط ، في الأبواب والكراسي ،
ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الطرط
يُحَكِّمُ بِرَبِّهَا وتشكيلها ، ثم تولف على نسب مقطرة
(١) الخنج يكر الحاء مركب لفساد كاهنة ، وجسه مدوج
وأحاج . (القانوس) .
(٢) أثلق واللاق : هو ما يعلق به الباب وجسه أغلق .
(القانوس) .

وغيرهم . وفيما يقال : إن معلم هذه الصناعة في الخليفة هو نوح عليه السلام ، وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان . وهذا الخبر وإن كان ممكناً ، أعنى كونه نجاراً ، إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعده الآماد . وإنما معناه والله أعلم الإشارة إلى قدم التجارة ، لأنه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام ، فجعل كآته أول من تعلمها . فتفهم أسرار الصنائع في الخليفة . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٢٧ - فصل في صناعة الحياكة والخياطة

هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفق فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإحكاماً^(١) في العرض ، (وإحكاماً)^(٢) لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة : فمنها الأكسية من الصوف للاشتبال^(٣) ، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس . والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد ، تفصل أولاً باليقراض^(٤) قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاتاً وتبينتها أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة .

(١) أي القوي : نسج مناه وهو منه مع ، وأهله نسجته وهي الخيوط المرفقة لمرسه .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من جميع النسخ المتأولة ، وهي مثبته في النسخة « التيمورية » وبدونها لا يستقيم المعنى .
(٣) اشتبل بالفتح أي أداره حل جسده كله حتى لا تخرج منه يد .
(٤) القراض : الققص .

وتلحم بالداستر^(١) فتبلى لرأى العين ملتصحة ، وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب .
يُصَنِّعُ هذا في كل شيء يتخذ من الخشب يُصَنِّعُ هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجىء آتقاً ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذ من الخشب من أي نوع كان .

وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدمر ، وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحة في الماء بقروانه وكذلك^(٢) ، ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للمسك تحريك الرياح ، وربما أعينت بحركة المجاذيف^(٣) كما في الأساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها ، لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الاحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير ، إما عموماً أو خصوصاً . وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس .

ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة ، فكان أو قليدس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجاراً وبها كان يعرف ، وكذلك أبولونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلائوش

(١) لعله يعني جماً غير قياس لكلمة « داستر » وهو المنار .
(٢) الكلكل : المصدر .
(٣) المجاذف : ما يتخذ في السفينة ، بالذال والهمال ، وجمعه مجاذيف (الصالح) .

هو أدريس . والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العلم .

٢٨ - فصل في صناعة التوليد

وهي صناعة يعرف بها العمل في إستخراج المولود الآدى من بطن أمه من الرفق في إخراجها من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ، ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر . وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر ، لما أثنى الظاهرات بعضهن على هورات بعض . وتسمى القاتحة على ذلك منهن القابلة . إستعير فيها معنى الإعطاء والقبول ، كَأَن النِّسَاء (١) تحطها الجنين وكانتا تقبله .

وذلك أن الجنين إذا إستكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ إلى غايته والمدة التي قدر الله لكته ، وهي تسعة أشهر في الغالب ، فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك ، ويضيق عليه المنفذ فيعسر ، وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط ، وربما تَقَطَّع بعض ما كان في الأغشية من الإلتصاق والالتحام بالرحم . وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلق ، فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يحاذي الرحم من الأسفل ، تساق بذلك فعل الدافعة في إخراج الجنين ، وتسهل ما يصعب منه بما يمكنها ، وعلى ما تهتدى إلى معرفة عسر . ثم إذا خرج الجنين بقيت بيته وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه ، وتلك الوصلة عضو فضلى لتغذية المولود خاصة ، فتقطعها القابلة من

وهذه الثانية مختصة بال عمران الحضري ، لا أن أهل البدو يستغنون عنها ، وإنما يشتغلون الأثواب اشغالاً ، وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحاقها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها . وتفهم هذا في سر تحرير المخيط في الحج لا أن مشروعية الحج مشتملة على نيل العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى كما خلقنا أول مرة ، حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه ، لا طيباً ولا نساء ولا مغيطاً ولا خفياً ، ولا يعرض لصيد ولا لشيء من عوائده التي تلونت بها نفسه وخلقته ، مع أنه يفقد ما لموت ضرورة ، وإنما يجيء كَأَنه واد إلى المحشر ضارحاً بقلبه مخلصاً لربه ، وكان جزاؤه إن تم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . سبحانه ما أرفقك بعباده وأرحمك بهم في طلب هدايتهم إليك . وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضرورى للبشر في العمران المعتدل . وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج إليه إلى دفء . ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان أنهم حراة في الغالب . ولقدمد هذه الصنائع ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام ، وهو أقدم الأنبياء . وربما ينسبونها إلى هريس (١) . وقد يقال : إن هرمس

(١) هرمس Hermes (هكذا اسمه عند اليونان) ويسميه الرومان مركور ، ويسميه العرب طارد) من آلهة اليونان والرومان . يعتقدون أنه ابن كبير آلهتهم زوس (جوبيتر) . وهو رسول زوس ووجهه الأبيض إلى الألفه والعلق . وهو كذلك آله الحطابة والبيان والتجارة ... ووظائف أخرى . ولعل ابن خلدون يقصد شخصاً آخر انظر منشورة دى راسى ص ١٠٧٤ .

(١) النساء : المرأة في حالة النفاس بعد الولادة .

بالقوى^(١) للدفع^(٢) من ماء وتجويفها عن الإتصاق . ثم تداوى النفساء بعد ذلك من الوهن الذى أصابها بالطلق ، وما لحق رحمها من ألم الإنفصال ، إذ المولود إن يكن عضواً طبيعياً فحالة التكوين فى الرحم صيرته بالاتحام كالعضو المتصل ، فلذلك كان فى إنفصاله ألم يقرب من ألم القطع . وتداوى مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط فى الخروج . وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها . وكذلك ما يعرض للمولودة الرضاع من أدواء فى بطنه إلى حين الفصال^(٣) نجدهم أبصر بها من الطبيب الماهر . وما ذلك إلا لأن بدن الإنسان فى تلك الحالة إنما هو بدن إنسانى بالقوة فقط ، فإذا جاوز الفصال صار بدنأ إنسانياً بالفعل ، فكانت حاجته حينئذ إلى الطبيب أشد . فهذه الصناعة - كما نراه - ضرورية فى العمران للنوع الإنسانى لايم كونه أشخاصاً فى الغالب دونها .

وقد يعرض لبعض أشخاص التوع الاستغناء عن هذه الصناعة : إما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقاً للعادة كما فى حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، أو بإلهام وهداية يلهم لها المولود ويغفر عليها ، فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة . فإما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيراً . ومنه ما روى

(١) القوى كصوب : كل ما يلق (القلوس) .
(٢) السدة بالضم باب الدار والفتحة والجمع سدا مثل فرقة وغرفت (من الصلاح والقلوس) وللقصد فتحات أسماك ، أى لمنع فتحات أسماك وتجاولها من الإفساد .
(٣) فصلت المرأة رضيعها : فلتة والام الفصال بالكر (الصلاح) .

حيث لا تتعدى مكان الفضلة ولا تضرب بماء ولا برحم أمه ، ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي أو بما تراه من وجوه الإندمال . ثم إن الجنين عند خروجه فى ذلك المنفذ الضيق ، وهو رطب العظام سهل الإنعطاف والإنثناء ، فرمما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ووطوبى المواد ، ففتنواوله القابلة بالغمز والإصلاح ، حتى يرجع كل عضو إلى شكله الطبيعى ووضعه المقدر له ، ويرتد خلقه سويًا . ثم بعد ذلك ترجع النفساء وتحاذبها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين ، لأنها ربما تتأخر عن خروجه قليلاً ، ويخشى عند ذلك أن ترجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية وهى فضلات فتفن ويسرى عضنها إلى الرحم فيقع الهلاك ، فتحاذر القابلة هذا وتحاول فى إعانة الدفع إلى أن تخرج تلك الأغشية إن كانت قد تأخرت ، ثم ترجع إلى المولود فتُمرَّخ^(١) أعضائه بالأدهان والثرؤورات^(٢) القابضة لتشدّه ، وتجنّف وطوبىات الرحم ، وتُحَنِّكَ^(٣) لرفع لهاثة وتسبطة^(٤) لاستفراغ نطوف^(٥) دماغه وتفرغه

- (١) مرخ الجسم : دمه بالمروخ ، وهو ما يمرخ به البدن من دهن وغيره (القاموس) .
(٢) جمع ذرور وهو ما يلق فى البين ونحوها من مساحيق (القاموس) ، والذرور كذلك نوع خاص من الطيب ، قال الزعفرانى هو فتات نضب الطيب ، وهو نصب يؤخذ به من الهند (للمصباح) .
(٣) حنكه تحنيكاً : ذلك حنكه (القاموس) .
(٤) سطة الماء وأسمه إاده : أدخله فى أنفه ، والمحموط كل دواء يمسح به له حرارة أو يلق من الأنف ليبرد ريقه وحره ، ويسمى كذلك النشوق (القاموس) .
(٥) جمع نطف وهو الهيب والشر واتساد (القاموس) .

مناسبة لزلجه بحرارة مناسبة فيتم كونه إلهاماً ،
ثم يُقَيِّضُ له حيوان يُخْلَقُ فيه إلهام لتربيته والحنو
عليه ، إلى أن يتم وجوده وفصاله وأطنب في بيان
ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حى بن يقظان (١)
وهذا الاستدلال غير صحيح ، وإن كنا نوافق
على إنقطاع الأنواع ، ولكن من غير ما استدل
به ، فإن دليله مبنى على إسناد الأفعال إلى العلة
الموجبة (٢) ، ودليل القول بالقاعل المختار (٣)
يرد عليه . ولا واسطة ، على القول بالقاعل المختار ،
بين الأفعال والقدرة القديمة . ولا حاجة إلى هذا
التكلف . ثم لو سلمناه جدلاً فغاية ما يذهب عليه
إطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته
في الحيوان الأعجم . وما الضرورة الداعية لذلك ؟
وإذا كان الإلهام يُخْلَقُ في الحيوان الأعجم فما المانع
من خلقه للمولود نفسه كما قرره أولاً ؟ وخلق
الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه
فيه لمصالح غيره . فكلا المذهبين (٤) شاهدان على
أنفسهما بالبطلان في مناحيهما لما قررت لك .
والله تعالى أعلم .

(١) لابن سينا رسالة أسماها قصة حى بن يقظان : طبع
بمطبعة ليدن ، وهي غير الكتاب المشهور « حى بن يقظان »

لابن طفيل .

(٢) أى إن الأفعال لا توجد إلا بتوجب وجودها .

(٣) وهو الله تعالى الذى لا يحتاج إلى علة تتوسط بين إرادته
وبين خلقه للأشياء .

(٤) يقصد مذهب الفارابى في عدم انقراض الأنواع ومذهب
ابن سينا في إمكان انقراضها ووجودها ثانياً على الأوضاع الثرية
التي انقضت .

أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد مسروراً (١)
مختوناً واضحاً يديه على الأرض شاهداً ببصره
إلى السماء . وكذلك شأن عيسى في المهد وغير ذلك .
وأما شأن الإلهام فلا ينكر : وإذا كانت الحيوانات
العجم تختص بغرائب من الإلهامات كالنحل وغيرها (٢)
فما ظنك بالإنسان المفضل عليها وخصوصاً بمن
اختص بكرامة الله (٣) ، ثم الإلهام العام للمولودين
في الإقبال على التدى أوضح شاهد على وجود الإلهام
العام لهم ، فشان العناية الإلهية أعظم من أن
يحاط به . ومن هنا يفهم بطلان رأى الفارابى
وحكام الأندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض
الأنواع ، وإستحالة إنقطاع المكونات ، وخصوصاً
في النوع الإنسانى . وقالوا لو انقطعت أشخاصه
لاستحال وجودها بعد ذلك ، لتوقفه على هذه
الصناعة التى لا يتم كون الإنسان إلا بها ، إذ لو
لو قدرنا مولوداً دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين
القيصال لم يتم بقاؤه أصلاً . ووجود الصنائع دون
الفكر يمنع لأنها عمرته وتابعة له . وتكلف ابن سينا
في الرد على هذا الرأى لمخالفته إياه ، وذهابه إلى
إمكان إنقطاع الأنواع ، وخراب عالم التكوين ،
ثم عوده ثانياً لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبة
تندلر في الأحقاب يزعمه ، فتقتضى تخمير طينة

(١) من العيسى : قطع سره وقد سر العيسى بالبناء مجهول
لأن قطع سره فهو مسرور أى مقطوع السر (الصالح) .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن
اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يحشون ... الآيات »
(آية ١٨ وتوابها من سورة النحل) .

(٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « ولقد كرمتنا بني آدم »
(آية ٧٠ من سورة الإسراء) .

طعاماً ، ثم أجبتها مضغاً ، فترى مزاجها غير مزاج الطعام ، ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموساً وهو صفو ذلك المطبوخ ، وترسله إلى الكبد ، وترسل مارسب منه في المعى ثَفْلاً (١) ينفذ إلى المخرجين . ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دماً عبيطاً وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء ، وترسب منه أجزاء يابسة هي السواد ، ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ. منه فهو البليغ . ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار الغريزي هناك ، فيكون من الدم الخالص بخار رطب يمد الروح الحيوانى ، وتأخذ النامية مأخذها في الدم فيكون لحمًا ، ثم غليظة عظامًا ، ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط. والدمع. هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لحمًا (٢) .

(١) التفل مثل قفل : خثالة الشيء ، وهو الخجين الذى يبنى أسفل الصائغ (المصباح) .

(٢) طاق د. واق طل هذا بقوله في منشورته : « تحت الخقائق السابق ذكرها ما وصل إلي العلم بتناصر الجهاز الهضمي وإفرازاته ووظائفه في العالم العربي في عصر ابن خلدون . وفى عن البيان أن البحوث العلمية التي جرت بعد ذلك عدلت كثيراً من هذه المعلومات وكشفت عن خطأ كثير منها ، وأضافت إليها حقائق جديدة . ويضيق المكان عن بيان هذه الأمور . هل أنها أصبحت الآن من الأمور المعروفة حتى لمبتدئين من المتعلمين . ومن الأمور التي يبدو فيها خطأ المعلومات التي كانت سائدة في هذا الصدد ما ذكره ابن خلدون من ضيق الطعام وأن حرارة البرم هي التي تؤثر فيه ، والحقيقة أنه قلبي يؤثر فيه حرارة اللامين التي تنتج به ، وما ذكره من ضيق الطعام في المدة وأن حرارة المدة هي التي تؤثر في نفسه ، والحقيقة أن الذي يؤثر فيه يحصل في الإبرازات التي تفرزها المعدة . ومثل هذا يقال في جميع ما سيذكره من حقائق تتعلق بتطور الصحة أو بالظن أو بطلان وظائف الأعضاء .

٢٩ - الفصل في صناعة الطب وأنها محتاج إليها في الحواضر والأصهار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأصهار لما حُرف من فائدتها ، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم . وأعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية ، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب وهو قوله : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وأصل كل داء البرءة » (١) . فأما قوله : « المعدة بيت الداء » فهو ظاهر . وأما قوله : « الحمية رأس الدواء » فالحمية الجوع وهو الإحتماء من الطعام ، والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذى هو أصل الأدوية . وأما قوله : « أصل كل داء البرءة » فعنى البرءة إدخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الأول .

وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل ، وينفذ فيه القوى الهاضمة والغازية إلى أن يصير دماً ملائماً لأجزاء البدن من اللحم والعظم ، ثم تأخذ النامية فينقلب لحمًا وعظامًا . ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورًا بعد طور حتى يصير جزءًا بالفعل من البدن . وتفسيره أن الغذاء إذا حصل في الفم ولاكته الأشفاق أثرت فيه حرارة الفم طبخًا يسيرًا وقلبت مزاجه بعض الشيء كما تراه في اللقمة إذا تناولتها

(١) البرءة : بكون الراد وضعا تنفض . هذا ، والمحدث المذكور حديث موضح وقد أخذوا الرازيون من كلام الحارث ابن كلفة طبيب الري كما حققه علماء الحديث .

يم برؤه . وذلك في حال الصعقة علاج في التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع في الحثيث . وقد يكون ذلك الحن في عضو مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك العضو ، ويحدث جراحات^(١) في البدن إما في الأعضاء الرئيسية أو في غيرها . وقد عرض العضو ويحدث عنه مرض القوي الموجودة له . هذه كلها جماع^(٢) الأمراض ، وأصلها في الغالب من الأغذية ، وهذا كله مرفوع إلى الطبيب .

ووقوع هذه الأمراض من أهل الحضرة والأمصار أكثر ، لخصب عيشهم ، وكثرة مآكلهم ، وقلة إقتصارهم على نوع واحد من الأغذية ، وعدم توقيتهم لتناولها . وكثيرا ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابساً في سبيل العلاج بالطبخ ، ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع ، فرعا عددا في اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعاً من النبات والحيوان ، فيصير للغذاء مزاج غريب . وربما يكون غريباً عن ملائمة البدن وأجزائه ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبحر الغضة من كثرة القضلات ، والأهوية منشطة للأرواح ومعمية بنشاطها الأثر الحار الغريزي في الهضم . ثم الرياضة معفودة لأهل الأمصار إذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ، ولا تؤثر فيهم أثراً . فكان وقوع الأمراض

ثم إن أصل الأمراض ومظهرها هي الحميات وسببها أن الحار الغريزي قد يصعب عن تمام التضيغ . في طبخه في كل طور من هذه ، فيبقى ذلك الغذاء دون مضج . وسببه غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي ، أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفى طيبخ الأول ، فيسقط به الحار الغريزي ويترك الأول بحاله ، أو يتوزع عليهما فيقتصر عن تمام الطبخ والتضيغ ، وترسله المعدة كذلك إلى الكبد ، فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على إنصافه ، وربما بقي في الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة ، وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو . فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللعاب إن إقتدر على ذلك . وربما يعجز عن الكثير منه ، فيبقى في العروق والكبد والمعدة ، وتتراكم مع الأيام . وكل دى رطوبة من المتزجات إذا لم يأنطه الطبخ والتضيغ يعفن ، فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسى بالخلط . وكل متعفن ففيه حرارة عربية وتلك هي المساءة في بدن الإنسان بالحمى . وإختبر ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفي الزيل إذا تعفن أيضاً كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ منخلها . فهذا معنى الحميات في الأبدان ، وهي وأسى الأمراض وأصلها كما وقع في الحثيث^(١) . وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ، ثم بتناوله الأغذية الملائمة حتى

(١) هكذا في جميع النسخ . ولعلها : غراجات ، جمع غراج ككتاب .

(٢) جماع الشيء بالكسر جمعه . يقال جماع الحياة اعية ، والسر جماع الإنم (المصاح) .

(١) انظر التلخيص طبع في صدر هذا الفصل .

٣٠ - فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على مالى النفس ، فهو لائق رتبة من الدلالة اللغوية . وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التى يميز بها عن الحيوان . وأيضاً فهى تُطْلَع على مافى الضائر وتُشَاهِدُ بها الأغراض إلى البلد البعيد ، ففقدت الحاجات ، وقد دُفِعت مؤونة المباشرة لها ، وُطِّلِعَ بها على العلوم والمعارف وصُحِفَ الأولين ، وما كتبوه من علومهم وأخبارهم . فهى شريفة بهذه الوجوه والمنافع .

وخرجوها في الإنسان من القوة إلى الفعل إما يكون بالتعليم . وعلى قدر الاجتياح والعمران والتناغى في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط . في المدينة ، إذ هو من جملة الصنائع ، وقد قلنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران . ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون . ومن قرأ منهم أو كتب فيكون الخط قاصراً وقراءته غير نافذة . ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانياً عن الحد أبغ وأحسن وأسهل طريقاً ، لاستحكام الصنعة فيها ، كما يحكى لنا من مصر لهذا العهد ، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط ، يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف ، ويوزعون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه ، فتتخذ لديه رتبة العلم والحس في التعليم ، وتلقى ملكته على أتم الوجوه . وإما أئى هذا من كمال

كثيراً في المدن والأمصار ، وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة .

وأما أهل البدو فمأكولهم قليل في الغالب ، والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب ، حتى صار لهم ذلك عادة ، وربما يظن أنها جيلة لا تستمرارها . ثم الأدم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة ، وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إليه ترف الحضارة الذين هم بمنزل عنه ، فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ، ويَقْرُبُ (١) مزاجها من ملامة البدن . وأما أهويتهم فقليلة العين لقلة الرطوبات والغذونات إن كانوا أهلين (٢) أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظواهن . ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم . فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد إدخال الطعام على الطعام ، فتكون أمزجتهم أصح وأبعد من الأمراض ، فتقل حاجتهم إلى الطب . ولهذا لا يوجد الطبيب في الهادية بوجه . وما ذاك إلا للاستغناء عنه ، إذ لو احتجج إليه لوجد ، لأنه يكون له بذلك في البدو معاش يدعو إلى سكناه . سنة الله التى قد خلت في عبادته ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

(١) كان الأول أن يقول : فيقرّب مزاجها من ملامة البدن . وذلك أن بساطتها وبمعادها مما يخالطها كل ذلك يجعل مزاجها قريباً من ملامة البدن .

(٢) أهل المكان أهول من باب منه خبره من باطل فهو أهل ، وقربة أهلة عامرة . وقد أطلق ابن خلدون الوصف على الأفراد أنفسهم ، فيقصد بالأهلين المقيمين . والغائمين المسافر من ظن ظناً من باب نفع .

وأقرب من ذهب إلى أنهم تعلموها من إباد أهل العراق لقول شاعرهم :

قوم لهم ساحة العراق إذا
سأروا جميعاً والخط والقلم

وهو قول بعيد لأن إباداً وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البدوالة ؛ والخط من الصنائع الحضرية . وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب ، لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها . فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التباينة وحمير هو الأتيقن من الأقوال .

(ورأيت في كتاب التكملة لابن الأبار عند التعريف بابن فروخ القيرواني القاسم الأندلسي ، من أصحاب مالك رضى الله عنه واسمه عبد الله بن فروخ عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبيه ، قال : قلت لعبد الله بن عباس يا معشر قريش خبروني عن هذا الكتاب ^(١) العربي ، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، تجمعون منه ما اجتمع وتفترقون منه ما افترق مثل الألف واللام والنون ؟ قال نعم . قلت ومن اتخذتموه ؟ قال عن حرب بن أمية . قلت ومن أخذته حرب ؟ قال من عبد الله بن جدعان . قلت ومن أخذته عبد الله بن جدعان ؟ قال من أهل الأنبار . قلت ومن أخذته الأنبار ؟ قال من طاريء طراً عليهم من أهل اليمن . قلت ومن أخذته ذلك الطاريء ؟

(١) مصدر كتب يكتب كتاباً وكتابه ، يسي خبروني من هذه الكتابة العربية ، أي الرسم العربي .

الصنائع وولودها بكثرة العمران وانفساح الأعمال .
(وليس الشأن في تعلم الخط . بأندلس والمغرب كذلك في تعلم كل حرف بانفراده على قوانين يلقبها المعلم للمتلم ، وإنما يتعلم بمحاكاة الخط . في كتابة الكلمات جملة ^(٢) ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له إلى أن تحصل له الإجابة ، وتتمكن في بنائه ^(٣) الملكة فيسمى مجيداً) .

وقد كان الخط العربي بالفا مبالغه من الإحكام والاتقان والجودة في دولة التباينة لما بلغت من الحضارة والثرف ، وهو المسمى بالخط الجميى . وانتقل منها إلى الحيرة لا كان بها من دولة آل المنذر نسيب التباينة في العصبية والمجددين للملك العرب بأرض العراق . ولم يكن الخط عندهم من الإجابة كما كان عند التباينة لقصور ما بين الدولتين ، وكانت الحضارة وقولبعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك . ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر . ويقال إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية ، وأخذها من أسلم بن سدرة ، وهو قول ممكن ،

(١) حطب . وادى بقوله : من هذا يتبين أن الطريقة الحديثة التي تتبع الآن في تعلم المجاهد ، والتي يسبها علماء التربية ، طريقة الجشتالت أو طريقة الكلمات والجمل ، وهي التي تقضى بأن يبدأ في المجاهد برسم الكلمات والجمل كانت نتيجة منه بعد في المغرب والأندلس ، وهي أمثل طريقة من الترجمة القروية لمساريتها لواقع من جهة ولطبيعة النقل الإنساني من جهة أخرى . فالواقع أن الكلمة هي التي لها مدلول في ذهن الطفل ؛ أما الحرف فلا مدلول له . والنقل الإنساني ينتقل بطبيعته من إدراك الكل إلى إدراك أجزائه (جشتالت) لا العكس - ومن هنا يتبين خطأ ابن خلدون في تفضيله لطريقة المصريين في حده وهي الطريقة التي تبدأ بالحروف في تعلم المجاهد .

(٢) حكماً في الأصل ؛ يظهر أنها محرقة عن بناته ؛ والنون ؛ لأن ملكة الخط ترسخ في أصابع اليد .

لهذا العهد ، أو نقول إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة . ، لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول . وأما مضر فكانوا أعرق في البلبو وأبعد عن الحضرة من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر . فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ، ولا إلى التوسط . لمكان العرب من البدولة والتوحش ويُعلم عن الصنائع ^(١) .

(١) حطب د. وأن حل هذا في مشواره بقوله ، بعض ما ذكره ابن خلدون من أصل الخط العربي صحيح ، وكثير منه غير صحيح . وتحرير القول في هذا الموضوع أوجه ليا على : اجتاز الرسم العربي خمس مراحل :

١ - تأتد رسم وصلت إلينا اللغة العربية مغلولة به كان مشطاً من خط المسند (الرسم الجنى القديم) . كما تال على آثار اللغة العربية البائدة ، وخاصة ثلاثة أنواع من النقوش وهي النقوش النيبالية والنقوش النورية والنقوش الصغوية ، وعط المسند ، أو خط الحيرة كما يسميه ابن خلدون ، مطلق من الرسم النبطي ، ويشبه من عدة وجوه . ولكنه يمتاز عنه بحال التليق والأشكال الخاصة للخطبة التي تأنف منها كثير من حروفه . ويرسم مفرق الحروف ٢ - ثم أخذ الرسم التليق ، وهو نوع من أنواع الرسم الآراي يمتاز بأن سطر حروفه متصل بما قبلها ، في تفرين العربية على هذا الرسم القديم ، وينتقص من مناطق تقوطة وموانع استخدامه شيئاً فشيئاً حتى نفس عليه . - وأتد أثر عربي وصل إلينا بعد هذا التطور ، هو نقش البشارة .

٣ - ثم ظهر في كتاب اللغة العربية نوع ثالث من الرسم مشق من الرسم النبطي السابق ، وعلى الرسم العربي في أقدم أمواره . وهذا النوع من الرسم دون نقشاً زينة وحوران . وكلامها لا يحد من يعرف الرسم العربي الحالي كبر منه في قراءته ، وخاصة نقش حوران فانه قريب جداً من الرسم الحالي .

٤ - ثم تأثر الرسم العربي بالرسم السرياني ودخلت فيه اصطلاحات كثيرة منذ القرن السابع الميلادي ، فحول إلى رسم سريع تكون به المكتاتبات العادية لا النقوش الأثرية ونحداً كما كان شأن الرسم السابق ، ودخل في نظام الإجماع لتيسير بين الحروف المتشابهة الصورة المظلمة (نقش) ب ت ث ج ح خ د ذ ز س ش ص ض ط ظ ع ف ق ك ل م ن هـ () - ولكنه ظل طوال هذه الرحلة مقصوراً على الرمز إلى الأصوات الساكنة وعجزاً عن ملاحظة تمييز بين الحرف للشدة والنفخ .

قال من الخلدان بن قاسم كاتب الوحي لهود النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي يقول :

أنى كل عام سُنَّةٌ تحدثونها

ورأى على غير الطريق يعير

وللموت غير من حياة تسيبنا

بها جرهم فيمن يسب وحيمر ^(١)

انتهى ما نقله ابن الأثير في كتاب « التكملة »

وزاد في آخره حدثني بذلك أبو بكير بن أبي حميرة

في كتابه عن أبي بحر بن العاصي عن أبي الوليد

الوقشي عن أبي عمر الطنكي عن أبي عبد الله بن

مفرح ، ومن خطه نقلته عن أبي سعيد بن

يونس عن محمد بن موسى بن النعمان عن

يحيى بن محمد بن خشيش بن عمر بن أيوب

المغافري التوسي عن هلول بن عبيدة التجيبي عن

عبد الله بن فروخ . انتهى (٢) .

وكان لحميم كتابته تسمى المسند حروفها

منفصلة ، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم .

ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية . إلا أنهم

لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت

بالبلو ، فلا تكون محكمة المذهب ولا مائلة إلى

الإتقان والتنميق ، لبون ما بين البلد والصناعة ،

واستغناء البلد عنها في الأكثر . فكانت كتابة

العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريباً من كتابتهم

(١) لا يثنى ما في هذه الصورة من اختلاف . فساد قوم هود كان لسانهم يختلف كل الاختلاف من اللسان العربي القرشي ، وأسلوب اليبتيين الكريكين المصطريين يدل هو نفسه على أنها من صنع المحدثين في العصر الإسلامي .

(٢) ما بين القومين تزيده به طبعة باريس على الطبعة المتأولة وهو كلام مثبت في السنة ٤ و التهجيرية .

فبا كتبوه ، فأتبع ذلك وأُقيمت رميا ونبيه العلماء بالرسم على مواضعه .

ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط . وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه . ويقولون في مثل زيادة الألف في « لاأذبحته » ^(١) إنه تنبيه على أن الذبح لم يشع ، وفي زيادة الياء في « بأييد » ^(٢) إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية ، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض . وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط . وحسبوا أن الخط كمال فنزهوم عن نقصه ، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته ، وطلبوا تعليل ما خالف الإجارة من رسمه . وذلك ليس بصحيح . واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم ، إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر ، والكمال في الصنائع الإضافي وليس بكمال مطلق ، إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال ، وإنما يعود على أسباب المعاش ، وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالاته على ما في النفوس . وقد كان صلى الله عليه وسلم آميا وكان ذلك كمالا في حقه ، وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي

وانظر ماوقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة في الإجارة ، فخالف الكثير من رسومهم ما ألفته رسوم صناعة الخط عند أهلها . ثم لفتني التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهير الخلق من بعده المتعلقون لوحه من كتاب الله وكلامه كما يقتضي لهذا العهد خط . ولئى أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابا ، وأين نسبة ذلك من الصحابة

— . ثم أدخل في الرسم العربي نظام الرمز إلى أصوات الله الطولية ، واستخدم في ذلك ثلاثة أحرف وضعت في الأصل لرمز إلى ثلاثة أصوات وسط بين أصوات الله والأصوات الساكنة ، وهى الحززة والهاء والواو . فأصبحت هذه الحروف مزدوجة الاستخدام ، فترمز أحيانا إلى ما وضعت في الأصل لرمز إليه (أكتب ، يكتب ، وح) ، وترمز أحيانا إلى أصوات الله الطولية (كاتب ، دليل ، ملوك) . وأصل فيه كذلك نظام الحركات ، وهى علامات تشير إلى تحريك الحرف بصوت أو ضمير وإلى غلظه من الحركة وإلى تشديده (الفتحة ، الكسرة ، الضمة ، السكون ، الشدة) .

وأقدم أثر إسلامي وصل إلينا مضمنا بعض مظاهر من الإصلاحات التي أدخلت على الرسم العربي في المرحلتين الأخيرتين (٤) ، (٥) . هـ حـ كشف في مصر وعظمت في دار الآثار العربية في القاهرة وتدل مبادئه على أنه كان نصبا على تيرجل يعنى عبد الرحمن ابن خير أو جبر أو جابر أو جبر المجبرى أو المجازى ويرجع تاريخه إلى سنة ٣١ هـ . هم الله الرحمن الرحيم هذا القبر ليه الرحمن بن خير المجبرى اللهم أغفر له وأدخله في رسمه منك (الخ) .

خير أنه يظهر أن إصلاحات هذه المرحلة السابقة لما تم تكن قد كملت في العهد الذي رسم فيه المصنف المتألف ، أو لم يكن استنادها قد اكتمل حيث كل الانقراض ، أو لم يكن الصحابة بن وسوا المصنف على علم تام بها (وإلى هذا الاستدلال يميل ابن خلدون في الفترة التالية لفترة التي لعل لها) (٤) أو أنهم قد تخرجوا من إدراكها في رسم القرآن ، فهامت المصاحف التالية بحرفة من الإجماع والشكل ، وجدت فيه كلمات كثيرة بحرفة من حروف الله الطولية ، ووسعت فيها حروف كثيرة في صورة مضطربة غير صحيحة .

(انظر تفصيل هذا الموضع ويرى تفصيله في صفحات ٢٤٦ - ٢٦٦ من طبعة الخامسة من كتاب « لغة الله والتذكور والى » .

(١) في قوله تعالى : « وتلق البير لقال مال لا أرى الهدى لم كان من العالين . لأخذه هاديا فديها أو لأذبحه أو لأبني بطلان ميين . - (آتى ٢٠ و ٢١ من سورة النبل) .

(٢) في قوله تعالى : « واليهاء بيتنا بايد ولك لموسم » (آية ٤٧ من سورة الباريات) .

عليهم ، وانتقل ذلك إلى مصر ، وخالفت طريقة العراق بمصر التي ، ولقبتها البحر هناك ، فظهرت مخالفة لخط أهل مصر أو مصرية .

وكان الخط البغدادي معروف الرسم . وتبعه الأقربى المعروف رسمه القديم لهذا العهد . ويغرب من أوضاع الخط المشرقي . وتحمز ملك الأندلس بالأمويين فتميزوا بأحواهم من الحضارة والصنائع والخطوط ، فتميز صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد .

وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر ، وعظم الملك ، ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها ونجليدها ، وملك بها القصور والخزائن الملوكة عما لا يحصى له وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناعوا فيه .

ثم لما انحلت نظام الدولة الإسلامية وتناقص تنافس ذلك أجمع وقُرس معالم بغداد بدروس الخلافة ، فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم إلى مصر والقاهرة ، فلم تزل أسواقها بها نافقة لهذا العهد ، وله بها معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم ، ولا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسا ، وحدث فيها درجة وكتابا ، وأدخلها قوانين علمية ، فتجىء أحسن ما يكون .

وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند ثلاثي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر ، وتغلط عليهم أعم النصرانية فانتشروا في علوة

هي أسباب المائس والعمران كلها ، وليست الأمية كمالات حقا نحن إذا هو منقطع إلى ربه ، ونحن تعاونون على الحياة الدنيا ، شأن الصنائع كلها ، حتى العلوم الاصطلاحية ، فإن الكمال في حقه هو نزهه عنها جملة بخلافنا .

ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة ، واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط . وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه ، فترقت الإجابة فيه ، واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان ، إلا أنها كانت دون الغاية . والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد .

ثم انتشر العرب في الأقطار والممالك ، وانتشروا إفريقيا والأندلس واستخط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الإسلام ومركز الدولة العربية (وخالفت أوضاع الخط ببغداد أوضاعه في الكوفة ، في الميل إلى إجابة الرسوم وجمال الرونق وحسن الرواء ، واستحكمت هذه المخالفة في الأعصار إلى أن رفع رايته ببغداد على بن مقلة الوزير ، ثم تلاه في ذلك على بن هلال الكاتب الشهير بابن البواب ، ووقف سند تعليمهما في المائة الثالثة وما بعدها ، ويعلمت رسوم الخط البغدادي وأوضاعه عن الكوفة حتى انتهت إلى المباشرة . ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة في إحكام رسومه وأوضاعه ، حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت والولي على العجمي ، ووقف سند تعليم الخط

الملك وداره كأنه لم يعرف ، فصارت الخطوط ، بإفريقية والمغربين ماثلة إلى الرداء بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة لحصل لتصفحها منها إلا العناء والشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة ، حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر ، ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول . والله أعلم .

(وللأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادى الشهير بابن البواب قصيدة من بحر البسيط. ^(١) على روى الراى يذكر فيها صناعة الخط. وموادها من أحسن ما كتب في ذلك ، رأيت إثباتها في هذا الكتاب من هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة ، وأولها :

يَا مَنْ يَرِيدُ إِجَادَةَ التَّحْرِيرِ
وَيُرِوْمُ حَسَنَ الْخَطِّ . وَالتَّصْوِيرِ
إِنْ كَانَ عَزَمَكَ فِي الْكِتَابَةِ صَادِقًا
فَارْغَبْ إِلَى مَوْلَاكَ فِي التَّيَسِيرِ
أَعِدْ مِنَ الْأَقْلَامِ كُلَّ مُنْقَفٍ ^(٢)
صَلْبٍ يَصُوغُ صِنَاعَةَ التَّحْجِيرِ
وَإِذَا عَمِدْتَ لِتَبْرِئِهِ فَتَوَخَّهْ
عِنْدَ الْقِيَاسِ بِأَوْسَطِ التَّقْدِيرِ

انظر إلى طريقه فاجعل برته
من جانب التدقيق والتخصيص

المغرب وإفريقية ، من لدن الدولة الممتونية إلى هذا العهد ، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع ، وتطلقوا بأذيال الدولة ، فغلب خطهم على الخط. الإفريقي وحفا عليه ، ونسى خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائلهما ، وصارت خطوط. أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها ، فتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس . وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم ، إنما كانوا يفلدون على دار الملك بتونس ، فصار خط. أهل إفريقية من أحسن خطوط. أهل الأندلس. حتى إذا تقلص ظل الدولة الموحلية بمضى الشيء ، وتراجع أمر الحضارة والتعرف بتراجع العمران ، نقص حينئذ حال الخط. وفسدت رسومه وجعل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقض العمران . وبقيت فيه آثار الخط. الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك ، لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها ^(١) وحصل في دولة بنى مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط. الأندلسي ، تقرب جوارهم وسقوط. من خرج منهم إلى فاس قريباً ، واستعملهم لإيادهم سائر الدولة ^(٢) . ونسى عهد الخط. فيما بعد عن سلة

(١) تقدم ذلك في الفصل الثامن عشر من هذا الباب وعنوانه : (فصل في أن رسوم الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها) .

(٢) حكلا في جميع النسخ ، والعبارة وكيفية . ويظهر أن معناها أنه قد انتقل إلى المغرب في عهد دولة بنى مرين لون من الخط الأندلسي لمجاورة المغرب الأدنى للأندلس ولجيرة كثير من الأندلسيين إلى فاس ، ولاستخدام بنى مرين لخلافة المهابرين في بعض الوظائف طوال مدة دولتهم .

(١) أجزله بحر البسيط هي مستغلان بمثلان أربع مرات ، والتصية الآتية ليست من هذا البحر ، بل هي من بحر الكامل وأجزاء متغلان ست مرات .

(٢) ثقفت الشيء تنقيها سواء وأقام الموج به (من قاموس الصحاح) .

حتى إذا ما هُتِرَتْ قاعده إلى
الورق النقي الناعم المخبور
فأكبسه بعد القطع بالمصير^(١) كي
ينأى عن التثقيب والتغيير
ثم اجعل التمثيل^(٢) دأبك صابراً
ما أدرك المأمون مثل صبور
ابداً به في اللوح منتصباً له
عزماً تجرده عن التثمين
لاتخجلن من الردى تخطه
في أول التثمين والتسطير
فالأمر يصعب ثم يرجع هيناً
ولرب سهل جاء بعد صير
حتى إذا أدركت ما أمله
أصبحت رب مسرة وحيور
فاشكر لإلهك وأتبع رضوانه
إن الإله يجيب كل شكور
وارغب لكفلك أن تخط بنائها
غيراً تخلفه بدار غرور
فجميع فعل المرء يلقاه غداً
عند التقاء كتابه المنشور

لواعلم أن الخط. بيان عن القول والكلام
كما أن القول والكلام بيان عما في النفس والضمير
من المعاني. فلا بد لكل منهما أن يكون واضحاً
الدلالة. قال الله تعالى: «وخلق الإنسان علماً»

(١) المصدر الذي يعمل فيه الشيء ليصير (القاموس).

(٢) يقصد بالتثمين تجربة القلم بكتابة أي شيء به يرى صلاحته.

واجعل لجلفته^(١) قواماً^(٢) عادلاً
بخلو عن التّطويل والتّقصير
والشقّ وسطه ليقي بربه
من جانبيه مشاكلاً التّغيير
حتى إذا أتقنت ذلك كله
إنّان طاب^(٣) بالمراد خبير
فاصرف لرأى القط. عزمك كله
فالقَط. فيه جملة التدبير
لاتطمعن في أن أبوح بسرّه
إلى أذن بسرّه المستور
لكن جملة ما أقول بأنّه
ما بين تحريف إلى التدوير
والق^(٤) دوائك بالدخان^(٥) مُدَبَّرًا
بالخل أو بالخصير^(٦) المصور
وأضف إليه مَقَرَّة^(٨) اتد صَوْلَت^(٩)
مع أصفر الزّونينغ والكافور

(١) الجلفة بكسر الجيم وتفتحها من القلم ما بين مراه إلى
صلته، ومنه قول عبد الحميد الكاتب لسل بن قتيبة وقد رآه يكتب
ودنيا: «وإن كنت تحب أن يبرد خطك فأقل جلفتك وأسبها وحرف
قطك وأينها (القاموس)».

(٢) قامة الإنسان والشيء وقوله بالفتح، والقوام كذلك
العدل والاحتفال؛ يقال هو حسن القوام؛ أي القامة أو الاحتفال.
(من المصباح والقاموس).

(٣) الطيب بالفتح؛ الماهر الخلاق بعمله كالطبيب (القاموس).

(٤) خط القلم قفاً، من باب قفل؛ فتح رأسه عرضاً في يده.

(٥) لاق الدواة يلقها ليفة وليفاً وألها: جعل لها ليفة،
والليفة الصوفة أو الخثرة توضع في الدواة ويصب عليها اللها
ويضغط عليها بالقلم فيقبل بالمادة فيكتب به (القاموس).

(٦) المادة السوداء التي تكون من الدخان، وكان يصنع منها اللها.
(٧) المصرم بكسر الميم والراء؛ أول السب مادام أخضر.

(٨) القاموس.

(٩) المرة يسكون التين وتفتحها؛ طين أحمر (القاموس).

(٩) التصويل إخراج الشيء بالهاء (أي إيقاظه في للاء)؛
وحقة صورة (القاموس).

والطيور أو الأزهار ووضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها المتخاطبون لتأنيده ما في ضمايرهم بالكتابة (١) وربما وضع الكتاب للعشور على ذلك . وإن لم يضعوه أولا قوانين بمقاييس (٢) استخرجوها لذلك بحدارهم ويسمونها فك الممعى . وللتناس في ذلك دواوين مشهورة . - والله العليم الحكيم [.

٣١ - فصل في صناعة الوراقة

كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط . وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة . وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاهر بالعراق والأندلس . إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونطاق أسواق ذلك لهما ، فكثرت التأليف العلمية والدواوين ، وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت ، وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساح والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتابية والدواوين ، واختصت بالأمصار العظيمة العمران .

وكانت السجلات أولا لاتنساح العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد ، لكثرة

اليان (١) . وهو يشتمل على بيان الأدلة كلها فالخط . المجرود كماله أن تكون دلالاته واضحة بليانة حروفه المتواضعة ، وإجادة وضعها ورسمها كل واحد على حدة متميزة عن الآخر ، إلا ما اصطلاح عليه الكتاب في إيصال حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض ، سوى حروف اصطلاحوا على قطعها مثل الألف المتقلعة في الكلمة وكذا الراء والزاي والدال والذال وغيرها ، بخلاف ما إذا كانت متأخرة وهكذا إلى آخرها .

[ثم إن المتأخرين في الكتاب اصطلاحوا على وصل كلمات بعضها ببعض وحذف حروف معروفة عندهم ، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم فتستعجم على غيرهم . وهؤلاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة ، كأنهم انفرادوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم ، لكثرة موارد الكتابة عليهم ، وشهرة كتابتهم ، وإحاطة كثير من دولهم بمصطلحهم . فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم . فينبغي أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان ما استطاعوا ، وإلا كان بمثابة الخط . الأعجمي ، لأنها بمنزلة واحدة في عدم التواضع عليه . وليس يحذر في هذا القدر إلا كتاب الأعمال السلطانية في الأموال والجيوش ، لأنهم مطلوبون بكتابتها ذلك عن الناس ، فإنه من الأسرار السلطانية التي يجب إخفاؤها . فبالغون في رسم اصطلاح خاص بهم يصير بمثابة الممعى . وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروق بكلمات من أسماء الطيب والفواكه

(١) لعله ينبغي ما نسبته الآن « الشفرة » .

(٢) مكنا في الأصل ، وفي الجملة تحريف ، واستطاعت أن يقال : « وتنسب هذا الكتاب لقوانين بمقاييس ، ويسمونها فك المسمى » .

الرَّقَّةَ وَقَلَّةَ التَّأْلِيفِ صُلُو الْمَلَّةِ كَمَا نَذَكْرُهُ ، وَقَلَّةِ الرِّسَالَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالصُّكُوكِ مَعَ ذَلِكَ ، فَاقْتَصَرُوا عَلَى الْكِتَابِ فِي الرَّقِّ تَشْرِيفًا لِلْمَكْتُوبِيَّاتِ وَمِيلًا بِهَا إِلَى الصَّحَةِ وَالْإِثْقَانِ . ثُمَّ طَمَأ بِحِرَالِ التَّأْلِيفِ وَالتَّدْوِينِ وَكَثُرَ تَرْسِيلُ السُّلْطَانِ وَصُكُّوكِهِ وَضَاقَ الرَّقُّ عَنْ ذَلِكَ . فَاتَّأَثَّرَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى بِصِنَاعَةِ الْكَأَخْدِ وَصَنَعَهُ وَكُتِبَ فِيهِ رِسَالَتُ السُّلْطَانِ وَصُكُّوكِهِ ، وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ صَحْفًا لِمَكْتُوبَاتِهِمُ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ ، وَبَلَغَتْ الْإِجَادَةُ فِي صِنَاعَتِهِ مَا شَهِتَ .

وَكَانَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ مَعْبُودَةً الطَّرِيقَ وَاضِحَةً الْمَسَالِكَ . وَلِهَذَا نَجَدُ الدَّوَاوِينَ الْمُنْتَسَخَةَ لِلذَّكَاءِ الْمَهْدِ فِي أَقْطَارِهِمْ عَلَى غَايَةِ الْإِثْقَانِ وَالْإِحْكَامِ وَالصَّحَةِ . وَمِنْهَا لِهَذَا الْمَهْدِ بِأَيْدِي النَّاسِ فِي الْعَالَمِ أَسْوَاقٌ عَتِيقَةٌ تَشْهَدُ بِبُلُوغِ الْغَايَةِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَهْلُ الْآفَاقِ يَتَنَاقَلُونَهَا إِلَى الْآنَ وَيَشْدُونَ عَلَيْهَا يَدَ الْفَضْلَانَةِ (١) . وَلَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ لِهَذَا الْمَهْدِ جَمْلَةً بِالْمَغْرِبِ وَأَهْلُهُ لَانْقِطَاعِ صِنَاعَةِ الْخَطِّ وَالضَّبْطِ وَالرَّوَايَةِ مِنْهُ بِانْتِقَاصِ عِمَارَتِهِ وَبِدَاوَةِ أَهْلِهِ ، وَصَارَتْ الْأُمَمَاتُ وَالْأَوَاوِينَ تَنْسَخُ بِالْخَطِّ وَالْيَدِيَّةِ ، يَنْسَخُهَا طَلِبَةُ الْبَرَبْرِ صَحَائِفَ مُسْتَعْجِلَةً بِرَدَائَةِ الْخَطِّ . وَكَثُرَ الْقِسَادُ وَالتَّضْخِيمُ ، فَتَسْتَغْلِقُ عَلَى مَتَصَفِّحِهَا وَلَا يَحْصُلُ مِنْهَا فَائِدَةٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ . وَأَيْضًا فَقَدْ دَخَلَ الْخَلَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي الْفَتَا فَإِنَّ غَالِبَ الْأَقْوَالِ الْمَعْزُوءَةِ غَيْرُ مَرْوِيَةٍ عَنْ أُمَّةٍ لِلْمَنْعَبِ ، وَإِنَّمَا تَتَلَقَّى مِنْ تِلْكَ الدَّوَاوِينَ عَلَى مَا مَهِ عَلَيْهِ . وَتَبِيعَ ذَلِكَ أَيْضًا مَا يَتَصَدَّى إِلَيْهِ بِحُضْرِ أَمْتِهِمْ مِنَ التَّأْلِيفِ ، لِقَلَّةِ بَصَرِهِمْ بِصِنَاعَتِهِ ، وَعَدَمِ

الرَّقَّةَ وَقَلَّةَ التَّأْلِيفِ صُلُو الْمَلَّةِ كَمَا نَذَكْرُهُ ، وَقَلَّةِ الرِّسَالَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالصُّكُوكِ مَعَ ذَلِكَ ، فَاقْتَصَرُوا عَلَى الْكِتَابِ فِي الرَّقِّ تَشْرِيفًا لِلْمَكْتُوبِيَّاتِ وَمِيلًا بِهَا إِلَى الصَّحَةِ وَالْإِثْقَانِ . ثُمَّ طَمَأ بِحِرَالِ التَّأْلِيفِ وَالتَّدْوِينِ وَكَثُرَ تَرْسِيلُ السُّلْطَانِ وَصُكُّوكِهِ وَضَاقَ الرَّقُّ عَنْ ذَلِكَ . فَاتَّأَثَّرَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى بِصِنَاعَةِ الْكَأَخْدِ وَصَنَعَهُ وَكُتِبَ فِيهِ رِسَالَتُ السُّلْطَانِ وَصُكُّوكِهِ ، وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ صَحْفًا لِمَكْتُوبَاتِهِمُ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ ، وَبَلَغَتْ الْإِجَادَةُ فِي صِنَاعَتِهِ مَا شَهِتَ .

ثُمَّ وَقَفَتْ عَنَابَةُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَهُمْ أَهْلُ الدُّوَلِ عَلَى ضَبْطِ الدَّوَاوِينَ الْعِلْمِيَّةِ وَتَصْحِيحِهَا بِالرَّوَايَةِ الْمُسْنَدَةِ إِلَى مَوَاقِفِهَا وَوَضَائِعِهَا ، لِأَنَّهُ الشَّيْءُ الْأَمُّ مِنَ التَّصْحِيحِ وَالضَّبْطِ . فَبِذَلِكَ تَسْنَدُ الْأَقْوَالُ إِلَى قَائِلَتِهَا وَالتَّشْيِءُ إِلَى الْحَاكِمِ بِهَا الْمُجْتَهِدِ فِي طَرِيقِ اسْتِبْطَالِهَا . وَمَا لَمْ يَكُنْ تَصْحِيحُ التَّنَوُّنِ بِإِسْنَادِهَا إِلَى مَدُونِهَا فَلَا يَصِحُّ إِسْنَادُ قَوْلِ لَهُمْ وَلَا فُتْيَا . وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَمَلَتِهِ فِي الصُّوَرِ وَالْأَجْيَالِ وَالْآفَاقِ ، حَتَّى لَقَدْ قَصُرَتْ فَائِدَةُ الصَّنَاعَةِ الْحَدِيثِيَّةِ فِي الرَّوَايَةِ عَلَى هَذِهِ فَقَطْ . إِذْ ثَمَرَتِهَا الْكَبِيرَى ، مِنْ مَعْرِفَةِ صَحِيحِ الْأَحَادِيثِ وَحُسْنِهَا وَمُسْنَدِهَا وَمَرْسَلِهَا وَمَقْطُوعِهَا وَمَوْقُوفِهَا مِنْ مَوْضُوعِهَا ، قَدْ ذَهَبَتْ (١) وَتَغَمُّضَتْ زُبْدَةُ تِلْكَ الْأُمَمَاتِ

(١) الْحَدِيثُ الْمُرْسُوحُ هُوَ الْمَكْلُوبُ الْمُفْتَرَى عَلَى الرُّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَيَعْرِفُ الْمَوْضِعَ بِإِقْرَارِ الْوَاضِعِ وَلَوْ ضَمَنًا ، وَيَقْرَأَنَّ بِإِدْرَاكِهِ عِلْمُهُ الْحَدِيثِ : مِنْهَا مَا يُؤْخَذُ مِنْ حَالِ الرَّوَايَةِ ، وَمِنْهَا مَا يُؤْخَذُ مِنَ التَّرْوِيَةِ كَأَنَّهُ يَكُونُ مُنْقَاطًا لِنَصِّ الْقُرْآنِ أَوْ السُّنَنِ لِلْمُتَوَاتَرَةِ أَوْ الْإِجْمَاعِ الْقَطْعِيِّ أَوْ صَرِيحِ النُّقْلِ . وَيَقْتَضِي مَا عَدَاهُ أَهْلًا كَثِيرَةً أَشَارَ ابْنُ خَلْدُونٍ إِلَى بَعْضِهَا فِي الْقَدَمِ الْخَاصِّ بِطَرِيقِ الْحَدِيثِ .

(١) يَتَصَدَّى كَتَبُ الْحَدِيثِ الْمُسْنَدِ كَالْبَخَارِيِّ وَصَلَّى ، وَهِيَ الْإِنْجِيلُ حَلِيًّا فِي فَضْلِ الْحَدِيثِ .

(٢) ضَمَنَ يَالْتِي يَضَمُّنُ مِنْ بَابِ تَبِيعَ ضَمَنًا وَضَمَنَةً بِالْفَتْحِ يَتَلَّ ، فَهَرَضَيْنِ ، وَبَابُ غَرَبَ لَفْ (الصَّحَابِ) .

حصرها أهل علم الموسيقى ، وتكلموا عليها كما هو
مذكور في موضعه . وقد يسلك ذلك التلحين
في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من
الجمادات إما بالقرع أو بالنفخ في الآلات تتخذ
لذلك فترى لها للة عند المهاد . فمنها لهذا العهد
أصناف . منها ما يسمونه الشبابة ، وهي قصبة
جوفاء بأبخاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها
فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سداة من
تلك الأبخاش ، ويقطع الصوت بوضع الأصابع
من اليدين جميعاً على تلك الأبخاش وضماً متعارفاً ،
حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه ، وتتصل
كذلك متناسبة فيلذ السمع بإدراكها للتناسب
الذي ذكرناه . ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي
يسمى الزلاي وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين
من الخشب ، جوفاء من غير تدوير لأجل اختلافها
من قطعتين منفردتين كذلك بأبخاش معدودة ،
ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ
بواسطة إليها ، وتصوت بنغمة حادة يجرى فيها
من تقطيع الأصوات من تلك الأبخاش بالأصابع
مثل ما يجرى في الشبابة .

ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق .
وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع يتسع
إلى أن يكون انفرجاً مخرجه في مقدار دون الكف
في شكل برّي القلم ، وينفخ فيه بقصبة صغيرة
تودى الريح من القم إليه ، فيخرج الصوت ثخيناً
دوياً ، وفيه أبخاش أيضاً معدودة ، وتقطع نغمة
منها كذلك بالأصابع على التناسب ، فيكون

الصنائع الوافية بمقاصده . ولم يبق من هذا الرسم
بالأندلس إلا أثاره ^(١) خفية بالأنحاء وهي على
الاضمحلال . فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من
المغرب . والله غالب على أمره .

وبلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة
بالمشرق ، وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل
على مبتغيه ، لتفان أسواق العلوم والصنائع كما
نذكره بعد . إلا أن الخط الذي بقي من الإجابة
في الانتساخ هنالك إنما هو للعجم وفي خطوطهم .
وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب وأشد .
والله سبحانه وتعالى أعلم بيه التوفيق .

٣٢ — فصل في صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع
الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل
صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ، ثم تولف
تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة ،
فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب ، وما يحدث عنه
من الكيفية في تلك الأصوات . وذلك أنه تبين
في علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب فيكون :
صوت ، نصف صوت ، وربع آخر ، وخمس آخر ،
وجزء من أحد عشر من آخر . واختلاف هذه
النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة
إلى التركيب . وليس كل تركيب منها ملذوفاً
عند السماع ، بل للملذوذ تركيب خاصة هي التي

(١) الأثر البقية من العلم توتر (القلموس) منه قوله تعالى :
(لا يحرف بكتاب من قبله) أو أثره من علم إن كنتم صادقين .
(آية من سورة الأحقاف) .

ملئوكًا . ومنها آلات الأوتار وهي جوفاء كلها ، إما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب ، أو على شكل مربع كالقانون توضع الأوتار على مسانطها مشدودة في رأسها إلى دُمرٍ جائلة لِيَتَأَنَّى شد الأوتار وريحوها عند الحاجة إليه بإدراجها . ثم تفرغ الأوتار إما بعود أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطل بالشمع والكنثر ، ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو نقله من وتر إلى وتر . واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع باصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر ، فتحث الأصوات متناسبة ملئوفة . وقد يكون التَّرعُ في الطُّسُوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها ببعض على توقيع مناسب يحدث عنه التلذذ بالمسموع .

ولنبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء . وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم ، . والمحسوس إنما تدرك منه كَيْفِيَّةٌ ، فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملئوفة ، وإذا كانت متنافية له منافرة كانت مؤلمة .

فللما لِمُ من الطعوم ما ناسبت كَيْفِيَّتَهُ حاسة اللوق في مزاجها ، وكذا الملائم من الممُوسات ، وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه المدرك ، وإليه توجبه الحاسة . ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملائمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي . وأما المراثيات والمسموعات فللما لِمُ فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها ، فهو

أنسب عند النفس وأشد ملائمة لها : فإذا كان المرئي متناسبًا في أشكاله وتخطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع ، وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك ، كان ذلك حينئذ مناسبًا للنفس المدركة ، فتلذذ بمدرك ملائمتها . ولهذا تجد العاشقين المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب . وفي هذا سر تفهمه إن كنت من أهله ، وهو اتحاد المبدأ وأن كل ما سواك إذا نظرته وتأملته رأيت بينك وبينه اتحادًا في البداية ، يشهد لك به اتحاد كما في الكون . ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقول الحكماء فتود أن تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى الحقيقة التي هي اتحاد المبدأ والكون . ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال تناسب موضوعها هو شكله الإنساني فكان إدراكه للجمال والحسن في تخطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته ، فيلهج كل إنسان بالحسن من المرئي أو المسموع بمقتضى القطرة .

والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة . وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضعف ، وغير ذلك ، والتناسب فيها هو الذي يوجب لها

ولنبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء . وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم ، . والمحسوس إنما تدرك منه كَيْفِيَّةٌ ، فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملئوفة ، وإذا كانت متنافية له منافرة كانت مؤلمة .

فللما لِمُ من الطعوم ما ناسبت كَيْفِيَّتَهُ حاسة اللوق في مزاجها ، وكذا الملائم من الممُوسات ، وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه المدرك ، وإليه توجبه الحاسة . ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملائمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي . وأما المراثيات والمسموعات فللما لِمُ فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها ، فهو

وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه^(١) . وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فإنه لا ينبغي أن يُخْتَلَفَ في حظره ، إذ صناعة الغناء مباحنة للقرآن بكل وجه . لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف من حيث اتباع الحركات في موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك . والتلحين أيضًا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين ، واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا ، وتقديم الرواية متعين من تفسير الرواية المنقولة في القرآن .^(٢) فلا يمكن اجتباع التلحين والأداء المعتبر في القرآن بوجه . وإنما مرادهم التلحين البسيط . الذي يهتدى إليه صاحب المضار بطبعه كما قدمناه . فيردد أصواته

(١) يمتنع الذين يميزون الغناء على حديث أبي هريرة رواه البخاري بنحو وسنن : (أحدهما) حدثنا يحيى بن بكير ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم يأذن الله لشيء ما أذن لشيء صلى الله عليه وسلم يثنى بالقرآن ؛ (والآخر) حدثنا علي بن عبد الله . . . عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أذن الله لشيء ما أذن لشيء صلى الله عليه وسلم أن يثنى بالقرآن » .

والذين لا يميزون الثني ، فيقولون : إن كلمة « الثني » في هذا الحديث منه ، والتلحين بالتلحين أو الاستغناء به من غيره . والبخاري نفسه قد أتبع التصنيف السابقين بما يفيد هذا التأويل ، فقد بعد أن أورد النص الأول : « وقال صاحب له يره يهر به » ؛ وقال بعد أن أورد النص الثاني : « قال سفيان تفسيره يستني به » . وعنون الباب بما يفيد أنه يؤيد تفسير الثني بالاستغناء بالقرآن من غيره ، فقال : « باب من لم يثن بالقرآن » . وقوله تمل : أو لم يتكلم أنا أنزلنا عليك الكتاب » (آية ٥١ من سورة التكوين . انظر الجزء الثالث من صحيح البخاري صفحة ١٤٣) (المطبعة الجببية سنة ١٣٤٣) .

(٢) البشارة ركيزة ، والمقصود أنه حينما يتفنى التلحين الغنائي فغير الرواية المنقولة بشأن تلاوة القرآن وأداء حرره فإنه يتعين تقديم الرواية على مقتضيات التلحين .

الحصر . فأولاً أن لا يخرج من الصوت إلى صده^(١) دفعة بل بتدريج ، ثم يرجع كذلك ، وهكذا إلى المثل^(٢) ، بل لا بد من توسط المتأثير بين الصوتين . وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج ، فإنه من بابه . وثانياً تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب ، فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه ، على حسب ما يكون التنقل مناسباً على ما حصره أهل الصناعة . فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة مملوذة ، ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعاً عليه لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة ، كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك . وتسمى العامة هذه القابلية بالمضار .

وكثير من القراء هذه القابلية يقرأون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزمار فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نعماتهم . ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب . وليس كل الناس يستوى في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل به إذا علم . وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم ، وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين ،

(١) جميع السخ ، إل مداه ، وهو تحريف .

(٢) أو هكذا ، نزع صوت إلى مداه دفعة بل لا بد من توسط الله ير بين صوتين متباينين .

وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أقط من أقطهم ومملكة من ممالكهم .

وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والسكون ، ويفصلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالإفادة لا ينقطع على الآخر ، ويسمونه البيت ، يتلثم الطبع بالجزئة أولاً ، ثم يتناسب الأجزاء في القاطع والمباذية ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها . فلهجوا به ، فانتاز من بين كلامهم بهج من الشرف ليس لغيره لأجل ! اختصاصه بهذا التناسب . وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكمات قرائحهم في إصابة المعاني وإجادة الأساليب واستمروا على ذلك . وهذا التناسب الذي من أجل الأجزاء والمتحرك والسكون من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى . إلا أنهم لم يشعروا بما سواه ، لأنهم حيث لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة ، وكانت البداءة أغلب نحلهم . ثم تفتى الحداثة منهم في حداثة إبلهم ، والفتيان في قضاء خلواتهم فرجوا الأصوات وترنموا وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناءً ، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغييراً بالعين المعجمة والباء الموحدة . وعللها أبو إسحق الزجاج بأنها تذكر بالغابر وهو الباقي ، أي بأحوال الآخرة . وربما نسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العدة وغيره ، وكان

ترديداً على نمس يدركها العالم بالفناء وغيره . ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك . هذا هو محل الخلاف . والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب إليه الإمام رحمه الله تعالى ، لأن القرآن محل خشوع بذكر الموت وما بعده ، وليس مقام التلذذ بإدراك الحسن من الأصوات . وهكذا كانت قراءة الصحابة رضي الله عنهم كما في أخبارهم . وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « لقد أوتي زمزماً من زمير آل داود » (١) فليس المراد به التردد والتلحين ، إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والإبانة في مخارج الحروف والنطق بها .

وإذ قد ذكرنا معنى الفناء فاعلم أنه يحدث في العمران إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ثم إلى الكمالي وتفننوا فتححدث هذه الصناعة . لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره ، فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً في مذاهب الملذذات .

وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زائر في أمصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخلون ذلك ويولعون به ، حتى لقد كان الملوك الفرس اهتماماً بأهل هذه الصناعة ، ولهم مكان في دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدتهم ومجامعهم ويختون فيها

(١) يشير بذلك إلى حديث البخاري في باب حسن الصوت بالقراءة وهو : « حدثنا محمد بن خلف أبو بكر . . . من أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : يا أبا موسى لقد أوتيت زمزماً من زمير داود . » انظر الجزء الثالث من صحيح البخاري ص ١٤٥ (الطبعة الثانية سنة ١٣٤٣) .

يُسمونه السَّادَ . وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف^(١) الذي يرقص عليه ويمشي بالدفء والمزامير فيطرب ويستخف الحلو . وكانوا يسمون هذا الهَزَجَ . وهذا البسيط . كله من التلاحين هو من أولئها . ولا يبعد أن تنطق له الطباع من غير تعلم شأن البساطة . كلها من الصنائع . ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم .

فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضايرة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ وماليس بنافع في دين ولا معاش ، فهجروا ذلك شيئاً ما ، ولم يكن الملبوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو دينهم ومذهبهم . فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفق بما حصل لهم من خنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلوا الفراغ . واقتربوا من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالاً للعرب ، وغنوا جميعاً بالعيان والضبابير والنعازف والمزامير ، وسمع العرب نلحينهم للأصوات فلعنوا عليها أشعراهم وظهر بالمدينة شبيب . انشأ في وطويس وسائب خاتر مولى عبيد الله بن جعفر ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر . ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره . وما زالت صناعة الغناء تتخرج إلى أن كملت أيام

وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف

(١) ثقفت الرجل و الحرب من باب تعب أدركه ، وثقته ظفرت به ، وثقته حاول كل مها أن يدرك الآخر ويظهر به .

(١) هو حر من بحر الشعر والجواره فاعلان سفع ان فاعلان مرين .

الدين واعتبار آدابها وشرائعها ، وهذه كلها قوانين تتنظم علومها فيحصل منها زيادة عقل .
والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك ، لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع وبيانه أن في الكتابة انتقالا من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال ، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس ، وذلك دائما . فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي ينسب العلوم المجهولة ، فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ، ويحصل به قوة فطنة وكَيْس في الأمور لما تعود من ذلك الانتقال . ولذلك قال كسرى في كتابه لما رآهم يتلك القطنة والكيس ، فقال «ديوانة» أي شياطين وجنون . قالوا ذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة . ويلحق بذلك الحساب ، فإن في صناعة الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق ، يحتاج فيه إلى استدلال كثير ، فيبقى متعوفا للاستدلال والنظر . وهو معنى العقل . والله أعلم .

إلا وظيفة الفراغ والفرح ، وهي أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه . والله أعلم .

٣٣ - فصل في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا وعصوفا الكتابة والحساب

قد ذكرنا في الكتاب (١) . أن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة ، وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات من المحسوسات أولا ، ثم ما يكسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل وعقلا محضاً ، فتكون ذاتاً روحانية وتستكمل حيث يشق وجودها . فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يغيدها عقلا فريداً . والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة . فلهذا كانت الحُكْمَةُ في التجربة تفيد عقلا ، والملاكات الصناعية تفيد عقلا ، والحضارة الكاملة تفيد عقلا ، لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ، ومعاشرة أبناء الجنس ، وتحصيل الآداب في مخالطتهم ، ثم القيام بأمور

(١) أشار إلى ذلك في الفصل السادس عشر من هذا الباب
وسمى ذلك في عدة فصول من الباب السادس .

الباب السادس

في العلوم وأصنافها

والتعلم وطرقه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق

والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحس وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب ، وهو معنى الأفتدة في قوله تعالى : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة^(١) » . والأفئدة جمع فؤاد ، وهو هنا الفكر . وهو على مراتب :

(الأولى) تعقل الأمور المرتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً أو وضعياً ليقصد إيقاعها بقدرته . وهكذا الفكر أكثره تصورات^(٢) . وهو المثل التمييزي الذي يحصل منفعه ومعاشه ويدفع مضاره .

(الثانية) الفكر الذي يفيد الآراء والآداب في معاملة أبنائه جنسه وسياستهم . وأكثرها

فالمقدمة في الفكر الإنساني الذي تميز به البشر عن الحيوانات ، واهتدى به لتحصيل معاشه ، والتعاون عليه بآبائه جنسه ، والنظر في معبوده ، وما جاءت به الرسل من عنده ، فصار جميع الحيوانات في طاعته ، وملكة قدرته ، وفضله به على كثير خلقه .

١ - فصل في الفكر الإنساني

اعلم أن الله سبحانه وتعالى ميز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه . وذلك أن الإدراك وهو شعور المدرك في ذاته بما هو خارج عن ذاته هو خاص بالحيوانات فقط . من بين سائر الكائنات والموجودات .

فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها ، بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة : السمع والبصر والشم والذوق واللمس . ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسه ، وذلك بقوة جعلت له في بقول دماغه ينتزع بها صور المحسوسات . ويجوز بدهنه فيها فيجرد منها صوراً أخرى .

(١) جملة من آية ٢٣ من سورة تبارك : « قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم سميعاً وبصيراً والأفئدة قلوباً ما تشكرون » .
(٢) ص ٥ . وان بقوله في منشوره : في الأصل « أكثر تصورات » وصوابه « أكثره تصورات » . والتصورات في اصطلاح علماء المنطق هي إدراك مألوف المفردات ومنها الأشياء ، ويقابلها التصديقات وهي إدراك النسبة أي الحكم أو إسناد الموصوف إلى الموضوع . فإدراك مألوف كل من « الإنسان » و « الحيوان » في قول « الإنسان حيوان » أي انعرف عن تعريف كل منهما وما هيته يسمى تصوراً ، وإدراك حكم أو النسبة أو إسناد الموصوف إلى الموضوع ، أي إدراك الحكم على الإنسان بأنه من جنس الخيول ، يسمى تصديقاً . قال الأخفري في « السلم » :
إدراك مفرد تصور علم وإدراك نسبة تصديق وهم

مبادئه ، إذ لا يوجد إلا ثانياً عنها ، ولا يمكن إيقاع المقدم متأخراً ، ولا المتأخر متقدماً . وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ آخر من تلك المبادئ لا يوجد إلا متأخراً عنها . وقد يرتقى ذلك أو ينتهي فإذا إنتهى إلى آخر المبادئ في مرتبتين أو ثلاث أو أزيد وشرع في العمل الذي يوجد به ذلك الشيء بدأ بالمبدأ الأخير الذي إنتهى إليه الفكر ، فكان أول عمله ، ثم تابع مايلحه إلى آخر المسببات التي كانت أول فكرته .

مثلاً لو فكر في إيجاد سقف يمكنه انتقل يدهنه إلى الحائط الذي يدهمه ، ثم إلى الأناس الذي يقف عليه الحائط . فهو آخر الفكر . ثم يبدأ في العمل بالأساس ثم بالحائط . ثم بالسقف وهو آخر العمل . وهذا معنى قولهم : أول العمل آخر الفكرة ، وأول الفكرة آخر العمل . فلا يتم فعل الإنسان في الخارج إلا بالفكر في هذه المراتب لترقى بعضها على بعض ، ثم يشرع في فعلها . وأول هذا الفكر هو المسبب الأخير وهو آخرها في العمل ، وأولها في العمل هو المسبب الأول وهو آخرها في الفكر . ولأجل العثور على هذا الترتيب يحصل الإنتظام في الأفعال البشرية . وأما الأفعال الحيوانية لغير البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذي يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل . إذ الحيوانات إنما تدرك بالحواس ، ومدركاتها متفرقة خلية من الربط . لأنه لا يكون إلا بالفكر . ولما كانت الحواس المعبرة في عالم الكائنات هي المنتظمة ، وغير المنتظمة إنما هي تبع لها ، اندرجت

تصديقات تحصل بالتجربة شيئاً فشيئاً إلى أن تم الفائدة منها . وهذا هو المسمى بالعقل التجريبي (الثالثة) الفكر الذي يفيد العلم أو الظن مطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل . فهذا هو العقل النظري . وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة ، فتفيد معلوماً آخر من جنسها في التصور أو التصديق ، ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوماً آخر كذلك . وغاية إفادته تصور الوجود على ماهو عليه بأجnasه وفصوله^(١) وأسبابه وعمله ، فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلاً محضاً ونفساً مدركة ، وهو معنى الحقيقة الإنسانية .

٢ - فصل في أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر
إعلم أن عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة كالعناصر وآثارها والمكونات الثلاثة عنها التي هي المعدن والنبات والحيوان ، وهذه كلها متعلقات القدرة الإلهية ، وعلى أفعال صادرة عن الحيوانات واقعة بمقصودها متعلقة بالقدرة التي جعل الله لها عليها .

فمنها منتظم مرتب وهي الأفعال البشرية ، ومنها غير منظم ولامرتّب وهي أفعال الحيوانات غير البشر . وذلك الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع أو بالوضع . فإذا قصد إيجاد شيء من الأشياء فلاجلّ الترتيب بين الحوادث لايد من التفطن بسببه أو علمه أو شرطه . وهي على الجملة

(١) الفصل في اصطلاح المتلقة هو ما يميز نوعاً من أنواع الجنس ويفصله عن غيره ، كالناطق الذي يميز نوعاً من الأنواع التي يشتملها جنس الحيوان وهو الإنسان .

إلى المعاونة في جميع حاجاته أبدا بطبعه ، وذلك المعاونة لا بد فيها من المفاوضة أولا ، ثم المشاركة وما بعدها . وربما تفضى المعاونة عند اتحاد الأغراض إلى المنازعة والمشاركة ، فتنشأ المنازعة والمؤاقعة والصدقة والعداوة ويؤول إلى الحرب والسلام بين الأمم والقبائل . وليس ذلك على أى وجه اتفق كما بين الهمل من الحيوانات ، بل للبشر - بما جعل الله فيهم من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر كما تقدم - جعله منتظما فيهم^(١) ، ويسرهم لإيقاعه على وجه سياسية وقوانين حكمية ، ينكبون فيها عن المفسد إلى المصالح ، وعن القبيح إلى الحسن ، بعد أن يميزوا القبائح والمفسدة بما ينشأ عن الفعل من ذلك عن تجربة صحيحة وعوائد معروفة بينهم . فينارقون الهمل من الحيوان . وتظهر عليهم نتيجة التفكير في انتظام الأفعال . وبعدها عن المفسد .

هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد . ولا يتعمق فيها الناظر ، بل كلها تدرك بالتجربة ، وبها تستفاد . لأنها مهان جزئية تتعلق بالمحسوسات ، وصدقها وكذبها يظهر قريبا في الواقع . فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك . ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له فيها . مقتنصا له بالتجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه ، حتى يتعين له ما يجب وينبغي فعلا وتركيا . وتحصل في ملابسته الملكة في معاملة أبناء جنسه .

حينئذ أفعال الحيوانات فيها : فكانت مسخرة للبشر ، وامتلأت أفعال البشر على عالم الحوادث بما فيه . فكان كله في طاعته وتسخيره ، وهذا معنى الاستخلاف المشار إليه في قوله تعالى : « إني جاعل في الأرض خليفة » . فهذا الفكر هو الخاصة البشرية التي تميز بها البشر عن غيره من الحيوان . وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون إنسانيته . فمن الناس من تتوالى له السببية في مرتبتين أو ثلاث ، ومنهم من لا يتجاوزها ومنهم من ينتهي إلى خمس أو ست فتكون إنسانيته أعلى .

واعتبر ذلك بلاعب الشطرنج . فإن في اللاعبين من يتصور الثلاث حركات والخمس الذي ترتيبها وضعى ، ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه ، وإن كان هذا المثال عبر مضائق ، لأن لعب الشطرنج بالملكة ، ومعرفة الأسباب والمسببات بالطبع ، لكنه مثال يحتذى به الناصر في تعقل ما يورد عليه من القواعد . والله خلق الإنسان . وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا .

فصل في العقل التجريبي وكيفية حلوثه

إنك تسمع في كتب الحكماء قولهم : « إن الإنسان هو مدني بالطبع » . يذكرونه في إثبات النبوات وغيرها . والنسبة فيه إلى المدينة . وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشري . ومعنى هذا القول أنه لا تمكن حياة المفرد من البشر . ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه ، وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته ، فهو محتاج

(١) المني : بل جعل الله هذه الأعمال منتظمة في أفراد النوع الإنساني بما خصهم به من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر .

فصل في علوم البشر وعلوم الملائكة

إننا نشهد في أنفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم : أولها عالم الحس ، ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك .

نعتبر الفكر الذي اختص به البشر فتعلم عنه وجود النفس الإنسانية علما ضروريا بما بين جنبينا من مداركها العلمية التي هي فوق مدارك الحس ، فنراه عالما آخر فوق عالم الحس . ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التي تلقى في أنفسنا كالإرادات والوجهات نحو الحركات الفعلية ، فنعلم أن هناك فاعلا يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا ، وهو عالم الأرواح والملائكة ، وفيه قوات ملركة .

لوجود آثارها فينا ، مع ما بيننا وبينها من المغايرة . وربما يستدل على هذا العالم الأعلى الروحاني وذواته بالرؤيا وما نجد في النوم ويلقى إلينا فيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة ، وتطابق الواقع في الصحة منها ؛ فنعلم أنها حق ، ومن عالم الحق وأما أضغاث الأحلام فصور خيالية يخزنها الإدراك في الباطن ، ويجول فيها بعد الغيبة عن الحس .

ولا نجد على هذا العالم الروحاني برهانا أوضح من هذا ؛ فتعلمه كذلك على الجملة ولا ندرك له تفصيلا وما يزعمه الحكماء الإلاهيون في تفصيل ذواته وترتيبها المسماة عندهم بالعقول^(١) فليس شيء من ذلك بيقيني ، لاختلال شرط البرهان النظري فيه ، كما هو مقرر في كلامهم في المنطق ؛ لأن من شرطه

ومن تتبع ذلك سائر عمره حصل له العثور على كل قضية ولا بد ، بما سمعه التجربة من الزمن .

وقد يسهل الله على كثير من البشر تحصيل ذلك في أقرب من زمن التجربة إذا قلد فيها الآباء والشيخوخة والأكابر ولقن عنهم ووعى تعليمهم ، فيستغنى عن طول المعاناة في تتبع الوقائع واقتناص هذا المعنى من بينها .

ومن فقد العلم في ذلك والتقليد فيه أو أعرض عن حسن استماعه واتباعه طال عناؤه في التأديب بذلك ، فيجرب في غير مألوف ، ويدركها على غير نسبة . فتوجد آدابه ومعاملاته سيئة الأوضاع ، بادية الخلل ، ويفسد حاله في معاشه بين أبنائه جنسه . وهذا معنى القول المشهور : « من لم يودبه والداه أدبه الزمان » أي من لم يلقن الآداب من معاملة البشر من والديه ، وفي معناها الشيخوخة والأكابر ، ويتعلم ذلك منهم ، رجع إلى تعلمه بالطبع من الوقائع على توالي الأيام ، فيكون الزمان معلمه ومودبه ، لضرورة ذلك بضرورة المعاونة التي في طبعه . وهذا هو العقل التجريبي ؛ وهو يحصل بعد العقل التمييزي الذي تقع به الأفعال كما بيناه . وبعد هذين مرتبة العقل النظري الذي تكفل بتفسيره أهل العلوم ، فلا يحتاج إلى تفسيره في هذا الكتاب . والله جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون^(١) .

(١) أنظر في تفصيل انقول في هذا الموضوع كتاب : « فصول من آراء أصل المدينة الفاضلة لقتادري » تأليف د . وافي العليلة الثانية ص ٣٩ وما بعدها .

(١) نص الآية : « قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم سمعا . . . »
وق آية أخرى : « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (آية ٧٨ من سورة « المؤمنون ») .

بفكره بالشروط. الصناعة . وكشف الحجاب الذى أشرنا إليه إنما هو بالرياضة بالأذكار التى أفضلها صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وبالتنزه عن المتناولات المهمة ، ورأسها الصوم ، وبالوجهة إلى الله بجميع قواه . والله « علم الإنسان ما لم يعلم » (١) .

فصل فى علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إننا نجد هذا الصنف من البشر تعثرهم حالة الإلهية خارجة عن منازع البشر وأحوالهم ، فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية فى القوى الإدراكية والتزوعية من الشهوة والغضب وسائر الأحوال البدنية . فتجدهم متزهين عن الأحوال البشرية إلا فى الضرورات منها ، مقبلين على الأحوال الربانية من العبادة والذكر لله بما تقتضى معرفتهم به ، مخبرين عنه بما يوحى إليهم فى تلك الحالة من هداية الألة على طريقة واحدة وسنن مبهود عنهم لا يتبدل فيهم كأنه جبلت فطرم الله عليها .

وقد تقدم لنا الكلام فى الوحي أول الكتاب فى فصل المدركين للغيب (٢) ، وبيننا هنالك أن الوجود كله فى عوالمه البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعى من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالا لا ينخرم ، وأن الذوات التى فى آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تتقلب إلى الذات التى تجاورها من الأسفل والأعلى استعداداً طبيعياً كما فى العناصر

أن تكون قضاياء أولية ذاتية ، وهذه الذوات الروحانية مجهولة للذاتيات ، فلا سبيل لنبرهان فيها ، ولا يبقئ لنا مترك فى تفاصيل هذه العوالم إلا ما نقتبسه من الشرعيات التى يوضحها الإيمان ويحكمها . وأعتقد هذه العوالم فى متركنا عالم البشر ، لأنه وحداني مشهود فى مداركنا الجسمانية والروحانية ، ويشترك فى عالم الحس مع الحيوانات . وفى عالم العقل والأرواح مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس فواته ، وهى ذوات مجردة عن الجسمانية والمادة ، وعقل صرف يتحد فيه العقل والعاطل والمقول ، وكأنه ذات حقيقته الإدراك والعقل . فعلومهم حاصله دائماً مطابقة بالطبع لمعلوماتهم لا يقع فيها خلل أبته . وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم فى ذواتهم بعد ألا تكون حاصله . فهو كله مكتسب . والذات التى تحصل فيها صور المعلومات وهى النفس مادة هيولانية تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شيئاً شيئاً حتى تستكمل ويصح وجودها بالموت فى مادتها وصورتها . فالمطلوبات فيها مترددة بين النفى والإثبات دائماً بغضب أحدهما بالوسطاء الرباب . بين الطرفين . فإذا حصل وصار معلوماً افتقر إلى بيان المطابقة ، وربما أوضحها البرهان الصناعى . لكن من وراء الحجاب . وليس كالمعينة التى فى علوم الملائكة . وقد ينكشف ذلك الحجاب بمصير إلى المطابقة بالعيان الإدراكي فقد تبين أن البشر جاهل بالطبع ، للتردد الذى فى علمه ، وعالم بالكسب والصناعة ، لتحصيله المطلوب

(١) آية من سورة « اقرأ » .

(٢) تقدم لك فى المقدمة السادسة من الباب الأول .

تعالى : « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنا لإلهكم
إلاه واحد فاستقيموا إليه واستغفروا » (١) .
فافهم ذلك وراجع ما قلناه لك في أول الكتاب
في أصناف المتركين للغيب ، يتضح لك شرحه
وبيانه ، فقد بسطنا هناك بسطا شافيا .
والله الموفق .

فصل في أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب

قد بينا أول هذه القصول (٢) أن الإنسان من
جنس الحيوانات وأن الله تعالى ميزه عنها بالفكر
الذي جعل له ، يوقع به أفعاله على إنتظام ، وهو
العقل التمييزي ، أو يقتصر به العلم بالآراء
والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه وهو العقل
التجريبي ، أو يحصل به في تصور الموجودات
غائبا وشاهدا على ما هي عليه وهو العقل النظري ،
وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية
فيه . ويبداً من التمييز . فهو قبل التمييز حلو مع
العلم بالجملة ، معدود من الحيوانات ، لاحق
بمبدئه في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة ،
وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك
الحس والأفئدة التي هي الفكر . قال تعالى في الافتتاح
علينا : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » (٣)
فهو في الحالة الأولى قبل التمييز هيولى فقط ، لجهله
بجميع المعارف ، ثم تستكمل صورته بالعلم الذي

الحيوانية البسيطة ، وكما هو في النحل والكرم
من آخر أفق النبات مع الحزون والصدف من
أفق الحيوان ، وكما في القردة التي إستجمع فيها
الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية
وهذا الاستعداد الذي في جانبي كل أفق من العوالم
هو معنى الاتصال فيها .

وفوق العالم البشري عالم ووحاني شهدت لنا به
الآثار التي فينا منه ، بما يعطينا من قوى الإدراك
والإرادة . فذوات ذلك إدراك صرف وتمثل محض ،
وهو عالم الملائكة .

فوجب من ذلك كله أن يكون للنفس الإنسانية
إستعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير
بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات وفي
لمحة من اللحظات ، ثم ترجع بشريتها وقد
تلقت في عالم الملكية ما كلفت بتبليغه إلى أبناء
جنسها من البشر . وهذا هو معنى الوحي وخطاب
الملائكة . والأنبياء كلهم مفلطرون عليه كأنه
جبله لهم . ويعالجون في ذلك الانسلاخ من الشدة
والفطيط . ما هو معروف عنهم .

وعلمهم في تلك الحالة علم شهادة وعيان لا يلحظه
الخطأ والزلل ، ولا يقع فيه الغلط والوهم ، بل
المطابقة فيه ذاتية ، لزوال حجاب الغيب وحصول
الشهادة الواضحة عند مفارقة هذه الحالة إلى
البشرية . لا يفارق علمهم الوضوح استصحابا له
من تلك الحالة الأولى ، ولما هم عليه من الذكاء
المنفصلي بهم إليها ، يتردد ذلك فيهم دائما إلى أن
تكمل هداية الأمة التي يعثوا لها ، كما في قوله

(١) آية ٦ من سورة صلت « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى
إلى أنا لإلهكم إلاه واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروا » وبإل
فتركين » .

(٢) في الفصل الأول من هذا الباب .

(٣) من الآية ٢٢ من سورة تبارك .

مالهم من هذه الإدراكات ، فيرجع إلى من سبقه يعلم أو زاد عليه بمعرفة أو أدراك أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه ، فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه . ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر ، ويشعر على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً ، وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك ، فيفزعون إلى أهل معرفته ويجيء التعليم من هذا : فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعي في البشر .

٨ - في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع

وذلك أن الخلق في العلم والتفكير فيه والإستبلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئ وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله . وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الخلق في ذلك المتناول حاصلًا . وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي ، لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعياها مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه ، وبين العاقل الذي لم يحصل علماً وبين العالم التحرير . والملكة إنما هي للعالم أو الشاؤى في الفنون دون من سواهما فدل على هذه الملكة غير الفهم والوعي . والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب . والجسمانيات كلها محسوسة ، فتفتقر إلى التعليم . ولهذا كان المنه

بكتسبه بآلته . فتكامل فاته الإنسانية في وجودها .

وانظر إلى قوله تعالى مبدأ الوحي على لبيبه : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » خلق الإنسان من علق « اقرأ وربك الأكرم » الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » ، أى أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلًا له بعد أن كان علقه ومضة فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل اللقي واللم الكسبي ، وأشارت إليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه بأول مراتب وجوده وهي الإنسانية وحالتها القطرية والكسبية في أول التنزيل ومبدأ الوحي . وكان الله عليا حكيا .

٧ - فصل في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشرى

وذلك أن الإنسان قد شاركه جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك ، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابتناء جنسه والاجتماع المهيء لذلك التعاون ، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى . والعمل به واتباع صلاح أغراضه فهو مفكر في ذلك كله دائماً لا يفتر عن الفكر فيه طرفه عين ، بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر . وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدسناه من الصنائع (١) . ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطبايع فيكون الفكر رغباً في تحصيل

(١) صوابه « طبيعياً » .

(٢) التي تكلم عليها في الباب الخامس (الفصل السادس من كتابه إلى آخر الباب) .

فأدرك تلميذ^(١) الإمام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحقق في العقليات والنقليات ، ورجع إلى تونس يعلم كثير وتعليم حسن . وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي كان ارتحل إليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها ، وكان تعليمه مفيداً . فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سند تعليمهما في تلاميذها جيلاً بعد جيل ، حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه ، وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه ، فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها . وتلميذه ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان لهذا العهد . إلا أنهم من القلة بحيث يُعشى انقطاع سندهم ، ثم ارتحل من زَوَاوَة^(٢) في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشدالي وأدراك تلميذ ألق عمرو ابن الحاجب ، وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القَرَاقِي^(٣) في مجالس واحدة ، وحقق في العقليات والنقليات ورجع إلى المغرب يعلم كثير وتعليم مفيد ، ونزل ببجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها . وربما انتقل إلى تلمسان عمران

في التعلم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجيل . ويدل أيضاً على أن تعليم العلم صناعة اختلافت الاصطلاحات فيه . فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به ، شأن الصنائع كلها . فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا لكان واحداً عند جميعهم . ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين ، وكذا أصول الفقه ، وكذا العربية ، وكذا كل علم يتوجه إلى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه فمتخالفة . فدل على أنها صناعات في التعليم ، والعالم واحد في نفسه . وإذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر . وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس ، واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ويحور زاهرة ، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة . فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً كان في دولة الموحدين بمراكش مستفاداً منها ، ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداءة الدولة الموحّدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها ، فلم تتصل أحوال الحضارة فيها إلا في الأقل . ويعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل إلى المشرق من إفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسطه المائة السابعة

(١) يطلق التلمذ على الملقب والجمع ، والمراد هنا الجمع .

(٢) قبيلة من قبائل المغرب .

(٣) نسبة إلى قرطبة وهي بن من مغائر نزل بعضها بمصر .
بجوار السلطان فسميت الخلة التي اعطيت لم يزلوا فيها ، والقرافة باسم بطيم . وفي هذه الخلة مائة جا غير الشافعي وهي لعمري .
ومن ثم يطلق الآن في طاعة القاهرة اسم القرافة على كل جماعة .

المشائي (١) من تلميذه وأوطنها ويث طريقته فيها ؛ وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل . وبقيت قاص وسائر أقطار المغرب حطراً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم فسر عليهم حصول الملكة والحلق في العلوم . وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاور والمناظرة في المسائل العلمية ؛ فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها . فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً ولا يقاوضون . وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من التصرف في العلم والتعليم ؛ ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاض أو ناظر أو علم ، وما أتاهم القصور إلا من قبيل التعليم وانقطاع سنده ، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به ، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية ، وليس كذلك . ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة ، وهي يتونس خمس سنين ، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هو أقل ما يأتي فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها ، فطال أمدّها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرّها من قلة الجودة في التعليم خاصة ، لا مما سوى ذلك .

(١) هكذا وجد الشيخ المتأرلة . وفي النسخة « اليهودية » المطال ، وقال المصنف .

وأما أهل الأندلس فلذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مشين من السنين . ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب اقتصرُوا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فانحفظ بحفظه . وأما الفقه بينهم فرسم محلو وأثر بعد عين . وأما العقليات فلا أثر ولا عين . وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب المدو على عامتها إلا قليلاً يسير البحر ، وشغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها . « والله غالبٌ على أمره » (١) .

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة وبجوره زاهرة لاتصال العمران الوفور واتصال السند فيه . وإن كانت الأعمار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة ، إلا أن الله تعالى قد أدال منها بأعمار أعظم من تلك وانتقل العلم منها إلى عراق المعجم بخراسان وماوراء النهر (٢) من المشرق ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب . فلم تنزل موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائماً . فأهل المشرق على الجملة أوسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع ، حتى إنه ليلظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد سباهة وأعظم كيناً بغيرتهم الأولى ،

(١) حلة من آية ٢١ من سورة يوسف وهي سورة ١٢ .

(٢) حصه به ما ورد به من مخرجين غيراً .

بكثرة الملكات الحاصلة للنفس ، إذ قدما أن النفس إنما تنشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات ، فيزدادون بذلك كَيْسًا لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية ، فيظنه العاى تفاوتًا في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك . ألا ترى إلى أهل الحضرمع أهل البدو كيف تجد الحضرمي منحلًا بالذكاء ممتلئًا من الكيس ، حتى إن البدوى ليظنه أنه قد فاقه في حقيقة إنسانيته وعقله وليس كذلك . وماذا إلا لإجاءته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرمية مالا يعرفه البدوى . فلما امتلأ الحضرمي من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ، ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكامل في عقله ، وأن نفوس أهل البدو وقاصرة بفطرتها وجبليتها عن فطرتها ، وليس كذلك . فإننا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من القهم والكمال في عقله وفطرنه . إنما الذى ظهر على أهل الحضرم من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم ، فإن لها آثارًا ترجع إلى النفس كما قدمناه . وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدمًا ، وكان أهل المغرب أقرب إلى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا ، ظن المخفلون في بادىء الرأى أنه لكامل في حقيقة الإنسانية اختصا به عن أهل المغرب ، وليس ذلك بصحيح فتفهمه . والله « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » (١) ، وهو إله السماوات والأرض .

وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتهم من نفوس أهل المغرب ، ويحتفلون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويشيعون لذلك ، ويولعون به ، لا يرون من كيسهم في العلوم والصنائع ، وليس كذلك . وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذى هو تفاوت الحقيقة الواحدة . اللهم إلا الأقاليم المنحرفة مثل الأول والسابع فإن الأمزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر . وإنما الذى فضل به أهل المشرق أهل « آرخن » ، بهو ما يحصل في النفوس آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنائع ، ونزيده الآن تحقيقًا . وذلك أن الحضرم لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا ، وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملتهم ، وجميع تصرفاتهم ، فلهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك ، حتى كأنها حدود لا تتعدى . وهى مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم . ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلا جديداً تستمد به لقبول صناعة أخرى ، ويتهيأ بها العقل لسرعة الإدراك للمعارف . ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا ندرلك مثل أنهم يعلمون الحُرَّ الإنسانية والحيوانات العجم من الماشى والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب ندورها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها . وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الإنسان ذكاءً في عقله وإضاءةً في فكره

(١) جملة من أول آية من سورة فاطر : « الحمد لله فطر السماوات والأرض » جامع الملائكة رسلا أولى أجنحة منى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شيء خبير .

١٩ - فصل أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر

العمران وتظم الحضارة

والسبب في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع ، وقد كنا قلنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار ، وعلى نسبة عمراتها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش ^(١) . فمضى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع . ومن تشوف يفطرته إلى العلم مع نشأ في القرى والأمصار غير المتعددة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البلد كما قدمناه . ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستيجرة شأن الصنائع كلها .

واعتبر ما قرونه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة ، لما كثر عمراتها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة ، كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم ، وإستنباط المسائل والفنون ، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين . ولما تناقص عمراتها وابتنحرت سكانها إنطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام . ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمراتها مستيجرة وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين ،

(١) انظر الفصل السابع عشر من الباب الخامس .

فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ، ومن جعلتها تعليم العلم . وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع له من العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا . وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته ، فاستكثرنا من بناء المدارس والزوايا والربط ^(١) ، ووقفوا عليها الأوقاف المخلقة يجعلون فيها شريكاً لأولادهم ينظر عليها أو يصيب منها ، مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير والتباس الأجور في المقاصد والأفعال . فكثر الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والقوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرائتهم منها . وإرتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ، ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها . والله يخلق ما يشاء .

٢٠ - فصل في أصناف العلوم الواقعة

في العمران لهذا العهد

اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلها وتعلما هي على صنفين : صنف طبيعي للإنسان يهتدى إليه بشكره ؛ وصنف نقل يأتى به عن وضعه . والأول هي العلوم الحكيمية الفلسفية ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدى بمباركة البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وإنحاء إبراهيمها ووجوه تعليمها ، حتى يقف نظره ويحس على الصواب من

(١) « الرباط الذي بيني لقرناء ، ويجمع في القياس على ربط بستين ورباطات » (المصباح) .

وجه قانوني يقيد العلم بكيفية هذا الاستنباط ، وهذا هو أصول الفقه . ويعد هذا تحصيل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين ، وهذا هو الفقه . ثم إن التكليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتد به وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمر للحشر والنعم والعلاب والقنر ، والحيجج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام . ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتعلمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها ، وهي أصناف ، فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم الأدب حسبما نتكلم عليها كلها .

وهذه العلوم النقلية كلها بالمللة الإسلامية وأهلها وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك . فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث أنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها . وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنها ناسخة لها ، وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيها محظورة . فقلبي الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن . قال صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلانا وإلهمك واحد » ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال : « ألم آتكم بها بيضاء نقية ؟ والله لو كان موسى حياً لمؤبته إلا أتباعي » (١) .

(١) انظر في بيان السبب في دخول أسفار اليهود والنصارى من تحريف . كتاب الأنساب للفتية في الأديان السابقة للإسلام للكتور طه عبد الواحد وإن .

الخطأ فيها ، من حيث هو إنسان ذو فكر . والثاني هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ، ولا مجال فيها للقل إلا في إلحاق القروع من مسائلها بالأصول ، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه ، فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قباسي ، إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل ، وهو نقل ، فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه .

وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله ، وما يتعلق بذلك من العلوم التي تيسرها للأفادة . ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملّة وبه نزل القرآن . وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة . لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه ، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق (١) فلا بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أولاً ، وهذا هو علم التفسير . ثم بإستناد نقله وروايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله ، واختلاف روايات القراء في قراءته ، وهذا هو علم القراءات . ثم بإستناد السنة إلى صاحبها ، والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدائهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك ، وهذه هي علوم الحديث . ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من

(١) يقصد به القياس .

أخرُ لحقت بالسبع ، إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل . وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها . وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لأنها عندهم كيفيات للأداء وهو غير منضبط ، وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن ، وأباه الأكثر ، وقالوا بتواترها . وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها كالد والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته بالسبع ، وهو الصحيح .

ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها ، إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم ، وصارت صناعة مخصصة وعلماً مفرداً وتناقله الناس بالشرق والأندلس في جيل بعد جيل . إلى أن ملك بشرق الأندلس «مجاهد» من موالى العماريين وكان معتنياً بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر ، واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراءة بحضرته ، فكان سهمه في ذلك وافراً . واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنَفَقَتْ بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها ، وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً والقراءات خصوصاً . فظهر لعنه أبو عمرو الداني وبلغ الشهادة فيها ، ووقفت عليه معرفتها ، وانتهت إلى روايته أسانيداً ، وتعددت تأليفه فيها ، وعزل الناس عليها ، وعدلوا عن غيرها . واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له . ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والجيال أبو القاسم ابن

ثم إن هذه العلوم الشرعية الثقلية قد نَفَقَتْ أسواقها في هذه الملة بما لا يزيد عليه ، وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا توفىها ، وهذبت الاصطلاحات وربت القنون ، فجاءت من وراء الغاية في الحس والتتميق . وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم . واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسماً نذكره الآن عند تعليل هذه القنون . وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله . وما أدرى ما فعل الله بالشرق ، والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية ، لكثرة صمرانه والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم بالجارية من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم . والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد ، وبهede التوفيق والإعانة .

١١ - علوم القرآن من التفسير والقراءات

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف . وهو متواتر بين الأمة . إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتنوّل ذلك واشتهر إلى أن أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأدائها واختصت بالانتساب إلى من انتشر بروايتها من الحزم الغفير . فصارت هذه القراءات للسمع أصولاً للقراءة . وربما زيد بعد ذلك فرائد

الناس وعولوا عليه ، ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روى الراه ، وولع الناس بحفظها . ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات من موالى مجاهد في كتبه ، وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني والمشتهر بمجمل علومه ورواية كتبه . ثم نقل بعده خلاف آخر فذطم الغرار من المتأخرين بالمغرب أوجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافاً كثيراً وعزاه لناقليه ، واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم .

(وأما التفسير) فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه .

وكان ينزل جملاً جملاً ، وآيات آيات ، لبيان التوحيد والقروض الميتية بحسب الواقع ، ومنها ما هو في العقائد الإيمانية . ومنها ما هو في أحكام الجوارح ، ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخاً له .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين المجلد ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه ، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه ، كما علم من قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح »^(١) ، أنها نعى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمثال ذلك . ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وتداول ذلك التابعون من بعدهم . ونقل ذلك عنهم . ولم يزل

فيرة من أهل شاطبية ، فعمد إلى تهذيب مادونه أبو عمرو وتلخيصه ، فنظم ذلك كله في قصيدة لنز^(٢) فيها أسماء القراء بحروف (أ ب ج د) ترتيباً أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ . لأجل نظمها ، فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً ، وعنى الناس بحفظها وتلقيها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس .

وربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم أيضاً ، وهى أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية ، لأن فيه حروفاً كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط . كزيادة الياء في بليد وزيادة الألف في لأذبحنه ولا أوضعا^(٣) ، والواو في جزاؤ الظالمين ، وحذف الألفات في مواضع دون أخرى ، وما رسم فيه من التلغات ممدوداً والأصل فيه مربوط . على شكل الهاء ، وغير ذلك . وقد مر تعليل هذا الرسم المصحفى عند الكلام في الخط . فلما جاءت هذه المخالفة لأوضاع الخط^(٤) وقانونه احتيج إلى حصرها

فكتب الناس فيها أيضاً عند كتبهم في العلوم ، وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو الداني المذكور ، فكتب فيها كتباً من أشهرها كتاب المقنع وأخذ به

(١) اشتهر هذا المتن المنظم باسم الشاطبية نسبة إلى مؤلفها أبي القاسم الشاطبي (من أهل شاطبية) . وهو من أشهر متون القراءات . (٢) في قوله تعالى « ولا أوضعا خلاكم » ، وهى فقرة من آية ٤٧ من سورة براءة أو التوبة . ويلاحظ أن كلمة « ولا أوضعا » مرسومة بدون ألف زائدة في المصحف المتمد في مصر ، وهو مرسوم وفق المصحف البشائي .

(٣) تقدم ذلك في الفصل الثلاثين من الباب الخامس .

(١) الآية الأولى من سورة الفتح .

ومن تبع فيهم من النصارى . وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم . ولا يعرفون من ذلك إلا ما عرفه العامة من أهل الكتاب ، ومظهم من حميم الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحاطون لها ، مثل أخبار بده الخليفة وما يرجع إلى الحديث والملاحم وأمثال ذلك .

وهؤلاء مثل كتب الأخبار ووقب بن منية وعبد الله بن سلام وأمثالهم . فامتلات التفسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأعراس أخباراً موقوفة عليهم ، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل . وتساهل القسرون في مثل ذلك ، وملثوا كتب التفسير بهذه المنقولات . وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ، ولا تحقيق عندهم معرفة ما ينقلونه من ذلك . إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لا كانوا عليه من المقامات في الدين والملة ، فتلقيت بالقبول من يومئذ .

فلما رجع الناس إلى التحقيق والتحصيل ، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فخلص تلك التفسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى . وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق .

والصنف الآخر من التفسير هو ما يرجع إلى

ذلك متناقلاً بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوماً ، ودونت الكتب ، فكتب الكثير من ذلك ، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين ، وانتهى ذلك إلى الطبري والواقدي والشمالي وأمثال ذلك من المفسرين ، فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار .

ثم صارت علوم اللسان صناعة من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب ، فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب ، فتنوع ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان ، فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن لأنه بلسان العرب وعلى مناهج بلاغتهم . وصار التفسير على صنفين :

تفسير نقل مستند إلى الآثار المنقولة عن السلف ، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي . وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين .

وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا : إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الفث والسين والمقبول والمردود .

والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البدوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدأ الخلقية وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود

١٢ - علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومنقوعة :

لأن منها ما ينتظر في ناسخه ومنسوخه ، وذلك
بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لفظاً
من الله بعباده وتحفيظاً عنهم ، باعتبار مصالحهم
التي تكفل لهم بها . قال تعالى : « مَا نُنْسخُ مِنْ آيةٍ
أَوْ نُنْصِفُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ يُمْسِكُهَا (١) » . (ومعرفة
الناسخ والمنسوخ وإن كان علماً للقرآن والحديث ،
إلا أن الذي في القرآن منه اندرج في تفاسيره .
وبقي ما كان خاصاً بالحديث راجعاً إلى علومه) .
فإذا تعارض الخبران بالثني والإثبات وتعلم الجمع
بينهما ببعض التؤوليل وعلم تقدم أحدهما تعين
أن المتأخر ناسخ .

ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث
وأصعبها . قال الزهري : أغشى الفقهاء وأعجزهم
أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه
وسلم من منسوخه . وكان للشافعي رضي الله عنه
فيه قدم راسخة .

ومن علوم الأحاديث النظر في الأسانيد ومعرفة
ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند
الكامل الشروط . لأن العمل إنما وجب بما يخلو
على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن
وهو بمعرفة رواية الحديث بالعدالة والقبض . وإنما
يثبت ذلك بالتقيل عن أعلام الدين بتعديلهم

اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية
الغنى بحسب المقاصد والأطاليب . وهذا الصنف
من التفسير قل أن يتفرد عن الأول ، إذ الأول هو
المقصود بالذات ، وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان
وعلموه صناعة . نعم قد يكون في بعض التفاسير
غالباً .

ومن أحسن ما اشتمل على هذا الفن من التفاسير
كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق .
إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي
بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض
له في آي القرآن من طرق البلاغة . قصار بذلك
للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير
للجمهور من مكانه ، مع إقرارهم بروسوخ قدمه
فما يتعلق باللسان والبلاغة . وإذا كان الناظر فيه
واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية محسناً للحجاج
عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله . فلتتختم مطالعته
لغرابة فنونه في اللسان .

ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض
العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريث
من عراق العجم ، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا
وتتبع ألفاظه وتعرض للمذاهب في الاعتزال بأدلة
تزييفها ، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على
ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة . فأحسن
في ذلك ما شاء مع إمتاعه في مائز فنون البلاغة .
و « فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ (١) » .

(١) آية ١٠٦ من سورة البقرة .

(١) آخر آية ٧٦ من سورة يوسف .

ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه (١) . وكانت أحوال نَقْل الحديث في عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة (كل) عند أهل بلده . فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ، ومنهم بالشام ومصر ، والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم . وكانت طريقة أهل الحجاز في أعصارهم في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة ، لاستيادتهم في شروط النقل من العدالة ، وتجانيهم عن قبول المجهول الحال في ذلك .

وسيد الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه ، ثم أصحابه مثل الإمام (أبي عبد الله) محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه وابن وهب وابن بكير والقاسمي ومحمد بن الحسين ومن بعدهم الإمام أحمد بن حنبل (في آخرين من أمثالهم) .

وكان علم الشريعة في مبدل هذا الأمر نقلاً صرفاً (لا نظراً ولا رأياً ولا تعمقاً في القياس) ، شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى أكملوها . وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ (على طريقة الحجازيين) أودعه أصول الأحكام من الصحيح للتحقق عليه ، ورتبه على أبواب الفقه .

ثم عني الحفاظ . بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدها المختلفة (الحجازية والعراقية وغيرهما) . وربما يقع إسناده الحديث من طرق متعددة عن رواة

وبرأيتهم مع الجرح والغلاة ، ويكون ذلك دليلاً على القبول أو التردد (١) .

وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتغيزهم فيه واحداً واحداً .

وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها ، وبأن يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه ، ويسمونها من العلل الموهنة لها ، وتنتهي بالتفاوت إلى طريقتين فيحكم بقبول الأعلى ورد الأسفل ، ويُخْتَلَفُ في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن .

ولهم في ذلك ألفاظ . اصطلاحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح ، والحسن ، والضعيف والمراسل ، والمنقطع ، والمضلل ، والشاذ ، والغريب ، وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم . ويؤيدوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة الشأن أو الوفاق ، ثم النظر في كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة ، وتفاوت رتبها ، وما للعلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد .

ثم اتبعوا ذلك بكلام في الألفاظ . تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مشترك منها أو مختلف ، وما يناسب ذلك . هذا معظم

(١) العدالة هي صفة العدل وهو المسلم البالغ العاقل المنزه عن الأوتكاب كبيرة وعن الإصرار على صغيرة وعما ينزل بالرواية والمصطلح قبان : ضبط صغر وهو أن ثبت في ذهن الراوي ما حمله بحيث يستغنى عن شاهد في ضبط كتابة بأن يعرفه الراوي سبق سماعه ويصره عنه حتى يؤيده . ويقابل العدالة الجرح ويقابل الضبط الغلاة .

(١) انظر في بيان أقسام الحديث من حيث إسناده والإحتجاج به ثم من حيث أنواعه في القبول والصف وما يتصل بها . التعليق المستفيض بمشورة د . واتى حاشي ١١٣٤ وما بعدها وانظر كذلك مزيداً من التفاصيل في مؤلفات مصطلح الحديث .

مختلفين ، (وقد يتجدد في بعض الأحاديث) .
وقد يقع الحديث أَيْضاً في أبواب متعددة باختلاف
المعاني التي اشتمل عليها .

وجاء محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين
في عصره ، (فوسع نطاق الرواية) ، وخرج
أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح ،
وجمع طرق الحجازيين والعراقيين والشاميين .

واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه ،
وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك
الباب الذي تضمنه الحديث ، فتكررت لذلك
أحاديثه (في الأبواب باختلاف معانيها كما أشرنا
إليه . فاشتمل كتابه على سبعة آلاف حديث
ومائتين تكررت منها ثلاثة آلاف (١) ، وفرق
الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب .

ثم جاء مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله
فألف مسنده الصحيح ، حذا فيه حلو البخاري
في نقل للمجموع على صحته ، وحذف المتكرر منها ،
وجمع الطرق والأسانيد ، وبوبه على أبواب الفقه
وتراجمه . ومع ذلك فلم يستوعب الصحيح كله ،
وقد استدرك الناس عليها في ذلك (بما أغفلا
على شروطهما) (٢) .

ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى
الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن

(١) هكذا في النسخة « التيمورية » . وفي النسخ المتناولة :
« فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث
ومائتين منها ثلاثة آلاف مكررة » . وعلق على ذلك المروزي بقوله «
« قوله تسعة » ، الذي في النواويس من مسلم أنها سبعة يتقدم السنن ،
نحروه » .

(٢) أي بالأحاديث التي اغفلها مع أنها صحيحة على شروطها .

(١) اتفردت بعض النسخ بزيادة الفقرة التالية بعد عبارة
وهي أمهات كتب الحديث وقبل عبارة وقد انقطع لها العهد ،
وليس الفقرة المزیة هـ : وعلق بهذه الخسة مسائل أخرى كتبت أبي
حارود الطيالسي واليزار وجهي بن حيد والدارسي وأبو يعل الفوصل
والإمام أحمد ، قاصدين فيها المستدرك عن الصحابة من غير أن يكون
محججاً بها ، هكذا قال ابن الصلاح . وفي الرواية عن الإمام أحمد أنه
كان يقول لأبيه عبد الله في كتابه السنن - وهو يشتمل على أحد وثلاثين
ألف حديث - ومن جملة من أسماه بهم أنهم قالوا قرأ علينا السنن
وقال : هذا الكتاب انتقى من سبائة ألف وخمسين حديثاً ،
فاختلف فيه المسلمون من الأحاديث للتبوية ولم يبقوه فيه فليس
بجيدة . فهذا يدل على أن جميع ما في مسنده يصح الاحتجاج به ،
صكس ما قال ابن الصلاح . نقلته من مثاقيب الإمام أحمد لابن الجوزي -
وقد انقطع لها العهد ... الخ » .

القشة في الباب الذي ترجم فيه بقوله : « باب تخريب البيت ذي السويقتين من الجشة » ، ثم قال في الباب : قال الله تعالى : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا » (١) ، ولم يزد على ذلك شيئا . ونحني على الناس وجه المناسبة بين هذه الترجمة وما في الباب .

فمنهم من قال كان المصنف رحمه الله يكتب التراجم في المسودة ثم يكتب الأحاديث في كل ترجمة بحسب ما يسير له ، وتوفي قبل أن يستوفي حشو التراجم ، فروى الكتاب كذلك . وسمعت من أصحاب القاضي بن بكار قاضي خزانة - واستشهد في واقعة طريف سنة إحدى وأربعين وسبعائة - وكان قائما على صحيح البخاري ، أنه أراد بالترجمة تفسير الآية بأن ذلك مشروع لا مقرر ، لأن الإشكال إنما جاء من تفسير « جعلنا » بـ « قلننا » . وإذا كان بمعنى « شرعنا » لم يكن لبس في تخريب ذي السويقتين إياها . سمعت ذلك من شيخنا أبي البركات البليغي عنه . وكان من أجله تلاميذه . ومن سرحه ولم يستوف هذا كله فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب وابن التين ونحوهم .

ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا وحهم الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الأمة ، يحثون أن أحدا من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار .

وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقنين ، إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على قلعهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا لينقلوا شيئا من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر ، هذا بعيد عنهم . وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في أسانيدنا إلى مؤلفيها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والأحكام لتتصل الأسانيد محكمة (من مبدئها) إلى منتهاها . ولم يزدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمسة إلا في الأول .

فأما صحيح البخاري وهو أعلما رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلغوا منه ما أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعدة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق ، ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم ، وكذلك يحتاج إلى إمعان النظر في التفقه في التراجم لأنه يتخرج الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ، ثم يتخرج أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب ، وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرر الحديث في أبواب متفرقة بحسب معانيه واختلافها ، (ومن النظر) في تراجمه لبيان المناسبة بين الترجمة والأحاديث التي في ضمنها ، فقد وقع له في كثير من تراجمه حفظا للنسبة بينها وبين الأحاديث التي في ضمنها ، وطال كلام الناس في بيانها ، كما وقع في كتاب

(١) آية ١٢٥ من سورة البقرة . ويعقب ذ . واق عليه في مشورته بأنه وجه ما أشار إليه ابن علون في كتاب الحج لا في باب الفتن كما ذكر .

ولقد وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل البخارى حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسالوه عن أحاديث قبلوا أسانيدھا فقال لا أعرف ھذه ، ولكن حدثني فلان ، ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح ، ورد كل متن إلى سندھ ، فأقروا له بالإمامة .

واعلم أيضاً أن الأئمة المجتہدين تفاوتوا في الإكتراث من ھذه البضاعة والإقلال . فأتى حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال (إنه إنما) بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوھا (إلى خمسين) ، ومالك رحمه الله إنما صرح عنده ما في كتاب الموطأ وغابته ثلثائة حديث أو نحوھا (١) . وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده ثلاثون ألفاً حديث (٢) . ولكل ما أدّاه إليه اجتھاده في ذلك ، وقد يقول بعض المتعصبين (٣) المتصنفين إن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث ، ولهذا قلت روايته . ولا سبيل إلى ھذا المتفقد في كبار الأئمة ، لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة ، ومن كان قليل البضاعة من الحديث فیتعین عليه طلبه وروايته والجهد والتشمير في ذلك ليأخذ الدبر عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام من صاحبها المبلغ لها (عن الله) ،

(١) على الموضع على ك ما يال : الذي في فرج الزرقاني
على الموطأ حكاية أقوال خصة في عدة أحاديث : أوها خصاله :
وثبتت بأسرة : وثالثاً ألف وثيف : ورأيا ألف وسبائة
ھذه النسخة .

(٢) حكاه في أصح النسخ : وفي الطبقات المتداولة خسون ألفاً .

(٣) وفي الطبقات المتداولة : المخلصين .

وأما صحيح مسلم فكثرت عنابة علماء المغرب به ، وأكبروا عليه ، وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخارى . (قال ابن الصلاح إنما يفضل على كتاب البخارى بما وقع فيه من تجريده عما مزج به البخارى كتابه) من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه . وأكثر ما وقع له ذلك في التراجم . وأمل الإمام المارزى من فقهاء المالكية عليه شرحاً وسماء « المعلم بفوائد مسلم » اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه .

ثم أكمله القاضي عياض من بعده وجمعه وسماء لإكمال العلم . وتلاه ما محيى الدين التتوي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما ، فجاءت شرحاً وافياً . وأما كتب السنن الأخرى (الثلاثة) (١) وفيها معظم ما أخذ (٢) الفقهاء فأكثر شرحها في كتب الفقه إلا ما يختص بعلم الحديث ، فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج إليه من علوم الحديث وموضوعاتها والأسانيد التي اشتملت على الأحاديث المعمول بها من السنة .

واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح ، وحسن ، وضيف ومثول وغيرھا ميزھا أئمة الحديث وجماعتهم وعرفوها ولم يبق طريق في تصحيح ما لم يصح من قبل .

ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدھا بحيث لو روى حديث بغير سندھ وطريقه يفتنون إلى أنه قد قلب عن وضعه .

(١) يقصد سنن البستي والترمذي والنسائي .

(٢) في الأدلة والأصول التي أخذ منها الفقهاء أحكام الشريعة .

ومن أجل هذا قيل في الصحيحين بالإجماع على قبولهما من جهة الإجماع على صحة ما فيهما على الشروط المتفق عليها . فلا تأخذك ريبة في ذلك فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم ، والتباس المخارج الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الأمور .

(ثم من علوم الحديث تصريفُ هذا القانون في الكلام على الأحاديث واحداً واحداً في أبوابها وتراجعها في تفاسير هذه الأسانيد ، كما فعله الحافظ . أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد بن حزم والقاضي عياض ومحيي الدين النووي وابن العطار بعدهما وكثير من أئمة المغاربة والمشاركة . وإن كان في كلامهم على تلك الأحاديث غير ذلك من فقه متونها ولغتها وإعرابها ، إلا أن كلامهم في أسانيدنا بصناعة الحديث أوعب وأكثر .

هذه أصناف علوم الحديث المتداولة بين أئمة الأعصار لهذا العهد ، والله الهادي إلى الحق والمعين عليه) .

١٣ - علم الفقه وما يبقيه من الفرائض

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والتنب والكره والإباحة ، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة ، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه . وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيها بينهم ، ولابد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالبها

وإنما أقبل منهم من أقبل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها والغلل التي تعرض في طرفها ، سيما والجرح مقدم عند الأكثر ، قيوديه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ، ويكثر ذلك ، فتقل روايته لضعف الطرق . هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن للدينة دار الهجرة وماوى الصحابة ، ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر .

والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل ، وضعف الحديث إذا عارضه العقل القطعي ، فاستصعب ، وقلت من أجلها روايته ، فقل حديثه ، لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً ، فحاشاه من ذلك .

ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم ، والتعويل عليه واعتباره دأ وقبولا . وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط . وكثر حديثهم . والكل عن اجتهاد . وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط . وكثرت روايتهم .

وروى الطحاوى فأكثر وكتب مسنده ، وهو جليل القدر ، إلا أنه لا يعدل الصحيحين ، لأن الشروط التي اعتمدها البخارى ومسلم في كتابيهما مجمع عليها بين الأمة كما قالوه ، وشروط الطحاوى غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره . فلها قدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شروطه عن شروطهم .

إلى طريقتين : طريقة أهل الرأي والقياس ، وهم أهل العراق ، وطريقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز . وكان الحديث قليلا في أهل العراق لما قدمناه (١) ، فاستكثروا من القياس ومهروا فيه ، فلذلك قيل : أهل الرأي . ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة . وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده .

ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطالوا العمل به وهم الظاهرية ، وجعلوا المداولة كلها منحصرة في النصوص والإجماع ، وردوا القياس الجلي والعللة المنصوبة إلى النص ، لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها . وكان إمام هذا المذهب داود بن علي وأبيه (٢) وأصحابهما ، وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشهورة بين الأمة .

وشذ (شعبة) (٣) أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح ، وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية .

من النصوص وهي بلغة العرب ، وفي اقتضاعات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف . وأيضا فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتعارض في الأكثر أحكامها ، فحتاج إلى الترجيح ، وهو مختلف أيضا . والأدلة من غير النصوص (١) مختلف فيها وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص ، وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما . وهذه كلها مثارات للخلاف ضرورية الوقوع . ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم .

ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل قنبا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه (٢) وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم من عليتهم ، وكانوا يسمون لذلك القراءة أي الذين يقرأون الكتاب ، لأن العرب كانوا أمة أمية ، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لقرابته يومئذ . وبقي الأمر كذلك صدر الملة .

ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب ، وتمكن الاستنباط ، وكسل الفقه وأصبح صناعة وعلماء ، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء . وانقسم الفقه فيهم

(١) الأدلة من غير النصوص يراد بها الأدلة التي ترجع إلى الإجماع أو القياس مثلا .

(٢) مقتد المؤلف فضلا عما صار عاما للدراسة الحكم والمتشابه من القرآن ومناقشة ما قيل في هذا الصدد من آراء ، ومزاوته ، فصل في كشف الظلم من المتشابه من الكتاب والسنة ... إلخ ، وهذا هو أحد النصوص التي تزيد بها طبعة باريس على الطباعات المتأخرة .

(١) في الفصل السابق ملأ مباشرة .

(٢) هو داود بن علي الأسدي - ويرى بالظاهر - كان غاية في الزهد ، توفي سنة ٢٧٠ هـ ، وكان ابنه جمعة قنبا أدبيا جلس في حلقة أبيه بعد وفاته ، وكان على مذهب أبيه بالظاهر ، وتوفي سنة ٢٩٧ هـ .

(٣) يطلق ابن خلدون كلمة « أهل البيت » على « شيعة أهل البيت » ، وكلمة « فقه أهل البيت » على « فقه شيعة أهل البيت » أو الشيعة . وسفح كلمة « شيعة » بين قوسين في كل موضع جرى فيه ابن خلدون على هذا الاختصار ، منها ليس .

فتنم الناس ذلك عليه ، وأوسعوا مذهبه استهجاناً وإنكاراً ، وتلقوا كتبه بالاغفال والترك ، حتى إنها ليحظر بيعها بالأسواق ، وربما تُمزَّق في بعض الأحيان . ولم يبق إلا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز .

فأما أهل العراق فلمذهبهم الذي استقرت عنده مذهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ومقامه في الفقه لا يلحق ، شهد له بذلك أهل جلسته وخصوصاً مالك والشافعي .

وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي (١) إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى ، واختص بزيادة مُدْرِك آخر للأحكام غير المدارك المتبعة عند غيره ، وهو عمل أهل المدينة ، لأنه رأى أنهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم ، وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه . وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية .

وظن كثير أن ذلك من مسائل الإجماع فتأنكره ، لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم ، بل هو شامل للأمة . وإعلم أن الإجماع إنما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد ، ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى ، وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى

(١) ينتهي نسب مالك رضي الله عنه إلى قبيلة بختة وهي ذو أصح ، وفي القاموس : « الأصبحي السوط نسبة إلى فز أصح لك من طوك الذين من أجداد الإمام مالك بن أنس » .

وشك بمثل ذلك الخوارج ، ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوا جانب الإنكار والقدح . فلا تعرف شيئاً من مذاهبهم ولا ترى كتبهم ، ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم . فكُتِبَ الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولهم قائمة في المغرب والشرق واليمن ، والخوارج كذلك . ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة .

ثم درسَ مذهب أهل الظاهر اليوم بدرؤوس أئمة وإنكار الجمهور على منتحله ، ولم يبق إلا في الكتب المجلدة . وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب ، يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم ، فلا يحلو (٢) بطائل ، ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه ، وربما عاد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين . وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علو رتبته في حفظ الحديث ، وصار إلى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه بجتهاد زعمه في أقوالهم ، وخالف إمامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين (٣)

(١) يمتلئ لم يفيدوا شيئاً .

(٢) يعلق د. وافي بقوله في منشورته : قد أفرط ابن حزم على الأخص في التمرغ في آي حنيفة رضي الله عنه واتهم بغيره في الأغلب بالنسب ، وهو المذهب الذي اشتبه مذهب « أهل الرأي » أو « أهل النظر » . وفي هذا يقول ابن حزم : من علمي من أناس جهلوا ثم غنوا أنهم « أهل النظر » ركبوا « الرأي » عناداً فسروا في غلام قاه فيه من عرب وطريق الرشيد تبع مهيع مثل ما أبصرت في الأفق القصر وهو الإجماع ولكن انتهى ليس إلا في كتاب أو أثر إن كنت كاذبة الذي حدثني عليك ثم أبي حنيفة أو زهر لواءين صلى التباس غرأ والراعيين من الخنثى ملاحز « زفر » هو أحد أصحاب أبي حنيفة ، وقد خصه ابن حزم بالهجة لأنه كان أكثرهم أخذاً بالفتاوى والرأي .

العلوم ، ولا حاق من الوصول إلى رتبة الاجتهاد ، ولا حتى مع إسناده ذلك إلى غير أهله ومن لا يرقى برأيه ولا يدينه ، فصرحوا بالعجز والإعواز وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء ^(١) ، كل بمن اختص به من المقلدين ، وحظروا أن يتداول ^(٢) تقليدهم لما فيه من التلاعب . ولم يبق إلا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم ، بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية . لا محصول اليوم للفقه غير هذا . ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده . وقد صار أهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة

فأما أحمد بن حنبل فمقلدوه قليل وأكثروهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث (وميلوا بالاستنباط إليه مع القياس ما أمكن ، وكان لهم ببغداد صولة وكثرة ، حتى كانوا يتواقعون مع الشيعة في نواحيها . وعظمت الفتنة في بغداد

(١) هذا هو ما انتهى إليه رأي المتأخرين في تصور الركود العنكري وتصور المقلوب من الاجتهاد . وإلى هذا يشير الفتى في اجهورية بقوله :

وراح نقيد حرم منبه كذا حكى القوم بلفظ يفهم وتفسير في « منه » يعود على الأئمة الأربعة المذكورين قبل ذلك واطر عدد شبان ١٣٧٩ من « مجلة الأزهر » مقالا للكتورى واى تحت عنوان : « الحرية الدينية في الإسلام ، وعلاقة ذلك بالاجتهاد والتقليد » . وقد فند فيه رأى القائل بوجوب التقيد وقساد ما استند إليه وكيف أن كثيراً من الفقهاء قد هبوا إلى تحريم التقليد على كل قادر على الاجتهاد .

(٢) أى أن يقلد الشخص إماماً في مسألة وإماماً آخر في مسألة أخرى . أو أن يقلد في مسألة واحدة كالصلاة مثلاً مابين مذهبين أو أكثر . إلخ .

الشارح صلوات الله وسلامه عليه ، وضرورة اقتدائهم تعين ذلك .

نعم : المسألة ذكرت في باب الإجماع لأنه ألقى الأبواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة ، واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستنديين إلى مشاهدة من قبلهم . ولو ذكرت المسألة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره ، أو مع الأدلة المختلف فيها مثل « مذهب الصحابي » ، وشرع من قبلنا « والاستصحاب ^(١) » ، لكان ألقى .

ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس المظلي الشافعي رحمهما الله تعالى . رحل إلى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق ، واختص بمذهب ، وخالف مالكا رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه .

وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله . وكان من عليّة المحدثين ، وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث ، فاختصوا بمذهب آخر .

ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم ، وسد الناس باب لخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في

(١) يعنى الاختلاف حول مذهب الصحابي أو أصل من أصول الدين ، وكذا الخلاف حول اعتبار شرع من قبلنا شرعاً لنا ثم الخلاف حول الاستصحاب ، الذى عرفه ابن القيم بأنه استقامة إثبات ما كان ثابتاً ، أو نقي ما كان متغياً حتى يقوم دليل على تغييره .

وغيرهم ، وكان بها من المالكية جماعة منهم (عبد الله بن عبد الحكم وأشباه وابن القاسم وابن الموات وغيرهم ، ثم العرث بن مسكين وبنوه . ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة ^(١) وتداول بها فقه (شيعة) أهل البيت وكاد من سواهم أن يتلاشوا ويذهبوا (ثم ارتحل إليها القاضي عبد الوهاب المالكي من بغداد في أواخر المائة الرابعة على ما علم من الحاجة والتقلب في المعاش . وتأخذ خلفاء العبيديين بإكرامه وإظهار فضله نعيًا على بني العباس في أطراح مثل هذا الإمام : فنفتت سوق المالكية بمصر قليلا) إلى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ورجع إليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشام ، فعاد إلى أحسن ما كان ، ونفق سوقه ، واشتهر منهم محيي الدين النووي من الحلبة التي ربيت في ظل للدولة الأيوبية بالشام ، وعز الدين بن عبد السلام أيضا ، ثم ابن الرقعة بمصر ، وتوفي الدين بن دقيق العيد ، ثم توفي الدين السبكي بعدهما ، إلى أن انتهى ذلك إلى شيخ الإسلام بمصر لهذا العهد ، وهو سراج الدين البلقيني ^(٢) فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر ، كبير العلماء ، بل أكبر العلماة من أهل العصر .

من أجل ذلك لم انقطع هذا عند استيلاء التتار عليها ولم يراجع ، وصارت كثرتهم بالشام ^(١) . وأما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين ، وما وراء النهر وبلاد الحجاز كلها . ولا كان ملجئه أخفى بالعراق ودار السلام ، وكان يُلحِقُهُ ^(٢) صحابة الخلفاء من بني العباس ، فكثرت نأليهم ومناظرتهم مع الشافعية ، وحسنت مباحثهم في الخلافات ، وجاءوا منها بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس ، وبالعرب منها شيء قليل نقله إليه القاضي ابن العربي ^(٣) وأبو الوليد الباجي في رحلتها .

وأما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها ، وقد كان انتشر ملجئه بالعراق وخراسان وماوراء النهر ، وقاسموا الحنيفة في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار ، وعظمت مجالس المناظرات بينهم ، وشحنت كتب الخلافات بأنواع استدلالاتهم . ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره . وكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة منهم ، (وكان من تلميذيه بها البيهقي والحزيني

(١) معظم مخالفة في الوقت الحاضر في منقحة نجد ، انظر « المجمع العربي » للذكور واق صفحات ٧١-٧٤ .

(٢) من أشهر تلاميذه أربعة هم : أبو يوسف ١١٣-١٨٢ هـ ، قاضي المهدي إلهادي والمرشي صاحب « الحراج » ، والقاضي محمد ابن الحسن الثيباني ١٣٢ هـ - ١٨٩ هـ ، وصاحب السبائك الكبير والقصير وغيرها . م والثالث : زفر بن الخليل ١١٠-١٥٨ هـ ، والرابع الحسن بن زياد التتوي ٢٠٤ هـ وله مؤلفات كثيرة .

(٣) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي صاحب « كتاب أحكام القرآن » ، تولى القضاء بإشبيلية ، وتوفي بمدينة فاس سنة ٥٤٢ هـ ، وهو غير ابن العربي الحائمي المروفي .

(١) كلمة الرافضة تنطلق عن جميع الشيعة الإسلامية ، وسواها رافضة لأنهم لما نظروا زيه بن علي بن الحسين ورأوه يقول بإمامة أبي بكر وعمر ولا يترأئيا شيئا ، وضوا ولم يسلطوه من أمته .

(٢) نسبة إلى سقط رأسه « بلقيني » ، وهي بلد بمصر (تابعة لمحافظة الغربية) توفي سنة ٨٠٥ هـ أي قبل وفاة ابن خلدون بثلاث سنين . وكان من زملاء ابن خلدون في القضاء في مصر ، فكان القاضي قصاة الشافعية وكان ابن خلدون قاضي قصاة المالكية .

وأهل المغرب جميعاً مقلدون لآل الله رحمه الله ، وقد كان تلاميذه افتتقروا بمصر والعراق ، فكان بالعراق منهم القاضي إسماعيل وطبقته مثل ابن خُوَيْرِ مَنَدَاد^(١) وابن اللبان^(٢) والقاضي أبو بكر الأبهري^(٣) ، والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم . وكان بمصر ابن القاسم وأشهب^(٤) وابن عبد الحكم^(٥) والحُرث ابن مسكين وطبقتهم . ورحل من الأندلس عبد الملك ابن حَبِيب^(٦) فَتَحَّدَ عن ابن القاسم وطبقته ، وبت مذهب مالك في الأندلس ودون فيه كتاب^(٧) « الوَاضِحة » . ثم دون التَّحْقِي من تلامذته كتاب التَّحْقِي . ورحل من إفريقية أسد بن القرات^(٨) ، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً ثم انتقل إلى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه ، وجاء إلى القيروان

وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس ، وإن كان يوجد في غيرهم ، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل : لا أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقنصروا على الأخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده ، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقتلوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته . وأيضاً فالبداوة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة^(٩) ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم ، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب .

ولما صار مذهب كل إمام علماً مخصصاً عند أهل مذهبه ، ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس ، احتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب إمامهم . وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة واتباع مذهب إمامهم فيهما ما استطاعوا . وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد.

(١) انظر في التعليق على هذا كتابه « مالك حياته وعصره » للشيخ أبو زهرة ص ٢٤٠ وما بعدها . وانظر حاشي ص ١١٥ من ملحوظة د. والي المقلعة ابن خلدون .

- (١) خُوَيْرِ مَنَدَاد هو لقب والده الإمام أبي بكر محمد بن أحمد ابن عبد الله المالكي الأصولي ، من أهل البصرة ، توفي عام ٤٠٠ هـ .
(٢) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن الحسن المصري ، توفي في أوائل القرن الخامس الهجري .
(٣) نسبة إلى أبي هريرة رضي الله عنه ، فواسي أصفهان ، وهو أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسن ، توفي سنة ٤٨١ هـ .
(٤) من كبار فقهاء المالكية . توفي سنة ٢٠٤ هـ .
(٥) من موالى حبان بن صفان ، توفي سنة ٢١٦ هـ .
(٦) عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، وهو أندلسي تعلم بالأندلس ورحل منها سنة ٢٠٨ هـ ، وأخذ عن كثير من أصحاب مالك ، منهم عبد الله بن عبد الحكم (تعليق ١٣٨٦ م) عاد إلى الأندلس . وهو مؤلف كتاب « الوَاضِحة » الذي ينسب من أهم أصول الفقه المالكي .
(٧) هو محمد بن أحمد بن عبد العزيز التيجي ، صاحب « المستخرجة » من « واضحة » ابن حبيب المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .
(٨) أسد بن القرات بن صفان ، أصله من غرمان ، ولد بجنين من ديار بكر سنة ١٤٥ هـ ، توفي سنة ٢١٣ هـ .

واللخمي وابن محرر التونسي وابن بشير وأمثالهم .
 وكتب أهل الأندلس على العتبية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد ^(١) وأمثاله . وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب « النواذر » ، فاشتمل على جميع أقوال المذهب ، وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب . ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة . وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفقيين إلى إنقراض دولة قرطبة والقيروان . ثم تمسك بهما ^(٢) أهل المغرب بعد ذلك ، إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب ، لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعدد أقوالهم في كل مسألة ، فجاء كالبرنامج للمذهب . وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحرث بن مسكين ، وابن البشر وابن اللهيث وابن رشيق وابن شاش . وكانت بالإسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله . ولم أدر ممن أخذها أبو عمرو بن الحاجب ، لكنه جاء بعد إنقراض دولة العبّاسيين وذهاب فقه (شيعة) أهل البيت وظهور فقهائ السنة الشافعية والمالكية . ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة الصاعدة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب ، وخصوصاً أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزراوي هو الذي جلبه إلى المغرب .

(١) هو أبو الوليد محمد بن أسد بن رشد من أشهر فقهاء المالكية . وهو صاحب كتاب « المقدمات الممهدة » وكتب أخرى كثيرة في الفقه . وله سنة ٥٠٠ هـ . وتوفي في الحامد من غنى القعدة سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وهو جد ابن رشد الفيلسوف .
 (٢) يقصد كتاب « النواذر » لابن أبي زيد . وكتاب ابن يونس على المدونة .

بكتابه « رمى الأسدية » نسبة إلى أسد بن القرات ، فقرأ بها سحنون ^(١) على أسد ، ثم ارتحل إلى الشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه ، وعارضه بمسائل الأسدية فرجع عن كثير منها ^(٢) وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه . وكتب ^(٣) لأسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنذر من ذلك . فترك الناس كتابه ^(٤) واتبعوا « مدونة » سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب ، فكانت تسمى « المدونة » و « المختلطة » ^(٥) . وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية . ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة أو المختلطة في كتابه المستنير بالمختصر ، ولخصه أيضاً أبو سعيد البرادعي . من فقهاء القيروان في كتابه المسمى « بالتهذيب » ، واعتمدته الشيعة من أهل إفريقية وأخطوا به ، وفركوا ما سواه . وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها .

ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع . فكتب أهل إفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس

(١) سحنون هو عبد السلام بن سعيد سحنون التونسي الملقب سنة ٢٤٠ هـ .

(٢) أي إن سحنون قد تناقش مع ابن القاسم في مسائل الأسدية (وهي الآراء التي أخذها أسد بن القرات من ابن القاسم) فرجع ابن القاسم عن كثير منها .

(٣) يعني ابن القاسم .

(٤) أي كتاب أسد بن القرات وهو « الأسدية » .

(٥) يعد كتاب « المدونة » أهم أصل من أصول مذهب مالك ؛ بل هو الأصل الذي قام عليه الفقه المالكي المعروف اليوم . وقد كان كتاب « الأسدية » أهم مرجع أحمد عليه سحنون في تأليفه المدونة .

واثنين ، وتتعدد لذلك بعدد أكثر . ويقدر ما تتعدد
تحتاج إلى الحُصيان . وكذلك إذا كانت قريضة
ذات وجهين مثل أن يقر بعض الورثة بإورث
وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ ،
وينظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة على نسب
سهام الورثة من أصل القريضة . وكل ذلك يحتاج
إلى الحُصيان . وكان غالباً فيه وجعله فناً مفرداً .

ولناس فيه تأليف كثيرة أشهرها عند المالكية
من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت ومختصر
القاضي أبي القاسم الحوئي ثم الجدي ، ومن متأخري
إفريقية ابن النمر الطرابلسي وأمثالهم . وأما
الشافعية والحنفية والحنابلة فلم فيه تأليف كثيرة
وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع
في الفقه والحساب ، وخصوصاً أبي المعالي رضي الله
تعالى عنه وأمثاله من أهل القلاب .

وهو فن شريف لجمعه بين المقول والمنقول ،
والوصول به إلى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة
يقينية عندما تجهل الحظوظ ، وتشكل على القاسمين
وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية ، ومن المصنفين
من يحتاج فيها إلى الفل في الحساب وفرض
المسائل التي تحتاج إلى استخراج الجهولات من
قنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور
وأمثال ذلك ، فيملأون بها تأليفهم . وهو وإن
لم يكن متداولاً بين الناس ، ولا يفيد فيما يتداولونه
من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه ، فهو يفيد المران
وتحصيل للكمة في المتداول على أكمل الوجوه .

فإنه كان قرأ على أصحابه بمصر وتوسع مختصره
ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلميله ،
ومتهم انتقل إلى سائر الأمصار للقرينة . وطالبة
الفقه بالغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه
لا يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه .
وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام
وابن رشد وابن هارون ، وكلهم من مشيخة أهل
تونس . وسأيت حليتهم في الإجابة في ذلك ابن
عبد السلام . وهم مع ذلك يتعاملون كتاب
التهديب (١) في دروسهم . والله يهدي من يشاء
إلى صراط مستقيم (٢) .

١٤ - علم القرائن

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام
القريضة في كم (٣) تصح باعتبار فروضها الأصول
أو مناسختها . وذلك إذا هلك أحد الورثة وإنكسرت
سهامه على فروض ورثته فإنه حينئذ يحتاج إلى
حساب يصحح القريضة الأولى حتى يصل أهل
الفروض جميعاً في القريضتين إلى فروضهم من
غير تجزئة .

وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحد

(١) لأبي سعيد الرادسي السابق الإشارة إليه .

(٢) آخر آية ٤٦ من سورة النور - هذا ويلاحظ أن
ابن خلدون لعظم إلمامه بملك ورموع نفسه فيه (فقد كان
من كبار فقهاء وتولى منصب التدريس في فقه المالكية في مصر)
كما عرفت ما منصب قاضي قضاء المالكية أبي شيخ شيوخ هذا للذهب ()
قد أسأل الكلام على ملخص ملك ومؤلفاته ؛ بيناً أوجز كل الإيجاز
في الكلام على المذاهب الأخرى وقاريضها وما كتب فيها من مؤلفات .
(٣) هكذا في النسخة « الثمورية » . وفي الطبقات المتناولة
« وتصحيح فروض القريضة ما تصح » .

(٤) بين على النص على العلة في تحريم أمر ما مطلق كان في
نص هذا التحريم إلى آخره تنويع فيه هذه العلة .

فعل عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تُنتقلى منه بما يوحى إليه من القرآن وبيئته بقوله وقطعه بخطاب شفاى لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس . ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاى وانحفظ القرآن بالروايات .

وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذى يغلب على الظن صدقه . وتعينت دلالة الشرع فى الكتاب والسنة بهذا الاعتبار .

ثم ينزل الإجماع منزلتهما لإجماع الصحابة على التكرير على مخالفتهم ولا يكون ذلك إلا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة ، فصار الإجماع دليلاً ثابتاً فى الشرعيات .

ثم نظرنا فى طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة ، فإذا هم يقيسون الأشياء بالأشياء منها ، وينظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم ، وتسلم بعضهم لبعض فى ذلك . فإن كثيراً من الوقائع بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج فى النصوص الثابتة ، فقامسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط . فى ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبهين أو المثليين ، حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد ، وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة .

وقد يخضع الأكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبى هريرة رضى الله عنه : « إن الفرائض ثلث العلم وإنما أول ما ينسى » وفى رواية : « نصف » أخرجه أبو نعيم الحافظ ، واحتج به أهل الفرائض . بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة . والذى يظهر أن هذا المجلد بعيد وأن المراد بالفرائض إنما هى الفرائض التكليفية فى العبادات والمعادات والمواثيق وغيرها . وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية . وأما فروض الوراثة . فهى أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها .

ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة إنما هو اصطلاح ناشئ . للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ، ولم يكن صدر الإسلام يطلق على هذا إلا على عمومته مشتقاً من القرض الذى هو لغة التقدير أو القطع . وما كان المراد به فى إطلاقه إلا جميع القروض كما قلناه . وهى حقيقة الشرعية . فلا ينبغى أن يحمل إلا على ما كان يحمل فى عصرهم ، فهو أليق بمرادهم منه . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

١٥ - أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل

واختلافات

اعلم أن أصول الفقه أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة ، وهو النظر فى الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف وأصول الأدلة الشرعية هى الكتاب الذى هو القرآن ثم السنة المبيحة له .

الوضعية مفردة ومرجبة . والقوانين الساتية في ذلك هي علوم النحو والتصرف والبيان . وحين كان الكلام ملكة لأهل لم تكن هذه علومًا ولا قوانين ، ولم يكن الفقيه حينئذ يحتاج إليها ، لأنها جيلته وملكته .

فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها للجهايزة المتجهرون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة ، وصارت علومًا يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى .

ثم إن هناك استفادات أخرى هامة من تراكيب الكلام وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المالك من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه . ولا يكتفى فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق بل لابد من معرفة أمور أخرى تتولفت عليها تلك الدلالات الخاصة ، وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصل أهل الشروع وجهايزة العلم من ذلك . وجملوه قوانين لهذه الاستفادة ، مثل أن اللغة لا تنبث قياسًا ، والمشتوك لا يبراد به معناه معًا ، والواو لا تقتضى الترتيب ، والعام إذا أخرجه أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها ، والأمر للوجوب أو النديب وللوقور أو التراخي ، والنهي يقتضى الفساد أو الصحة ، والمطلق هل يحمل على المقيد ، والنص على العلة كاف في التمديد أم لا (١) ؟ وأشكال هذه . فكانت كلها من قواعد هذا الفن . ولكننا من مباحث الدلالة كانت لفوية .

وانفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس ، إلا أنه شلوذ .

والحق بعضهم هذه الأربعة أدلة أخرى لاجابة بنا إلى ذكرها لنصف مداركها وشلوذ القول فيها . فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة . فأما الكتاب فدليلة المعجزة القاطمة في متنه ، والتواتر في نقله ، فلم يبق فيه مجال للاحتال . وأما السنة وما نقل إلينا منها فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضدا بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه ، من إنفاذ الكتب والرسول إلى النواحي بالأحكام والشرائع أمرًا ونهيًا . وأما الإجماع فلا تفاقم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة . وأما القياس فإجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قلناه . هذه أصول الأدلة .

ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتشتيز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذى هو مناط وجوب العمل . وهذه أيضًا من قواعد الفن . ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناصخ والمنسوخ ، وهى من فصوله أيضًا وأبوابه .

ثم بعد ذلك يتعمن النظر في دلالة الألفاظ . وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات

(١) يعنى هل النص على العلة في محرم أمر ما كاف في منعها التحريم إلى آخر تنويفه هذه العلة ؟

ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها . وكتب المتكلمون أيضًا كذلك . إلا أن كتابة الفقهاء فيها أسس بالفقهاء وألقي بالفروع لكثرة الأمثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية . والمتكلمون يجرّدون صور تلك المسائل عن الفقه ، ويميلون الاستدلال العقلي ما أمكن لأنه غالب فتونهم ومقتضى طريقتهم . فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن . وجاء أبو ريد الدبوسي من أئمتهم فكتب في القياس بأوسع من جميعهم ، وتم الأبحاث والشروط التي يحتاج إليها فيه ، وكمّلت صناعة أصول الفقه بكماله ، ونهّبت مسائله وتمهّدت قواعده . وعنى الناس بطريقة المتكلمين فيه .

وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب « البرهان لإمام الحرمين » ، والمستصفي للغزالي وهما من الأشعرية ، وكتاب « العهد » لعبد الجبار ، وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة . وكانت الأربعة قواعد الفن وأركانها .

ثم لخص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين ، وهما الإمام فخر الدين بن الخطيب في كتاب « المحصول » وسيف الدين الآمدي في كتاب الأحكام . واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج . فابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج ، والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفرغ المسائل

ثم إن النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن لأن فيه تحقيق الأصل والفرع فيما يقاس ويمائيل من الأحكام ، وتنقيح^(١) الوصف الذي يغلب على الظن أن الحكم علّق به في الأصل من بين أوصاف ذلك المحل ، ووجود ذلك الوصف في الفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم في الفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه في مسائل أخرى من توابع ذلك . كلها قواعد لهذا الفن .

واعلم أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة ، وكان السلف في غنيّة عنه ، بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية . وأما القوانين التي يحتاج إليها في استفادة الأحكام خصوصاً فمنهم أخذ بعضها . وأما الأسانيد فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم . فلما انقرض السلف وذهب الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قرّناه من قبل ، واحتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة ، فكتبوها فنّا قائماً برأسة سموه أصول الفقه .

وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله عنه ، أملى فيه رسالته^(٢) المشهورة تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس .

(١) ومعنى تنقيح في هذه الجملة الاستخراج والخصم .

(٢) منهاج الرسالة .

(وأما الخلافات) فاعلم أن هذا القه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافا لا يد من وقوعه لما قدمناه . واتسع ذلك في الملة اتساعا عظيما وكان للمقلدين أن يقللوا من شأنها منهم .

ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار ، وكانوا بمكان من حسن الظن بهم ، اقتصر الناس على تقليدهم ، ومنعوا من تقليد سواهم ، فلذهب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده ، باتصال الزمان والافتقار من يقوم على موى هذه المذاهب الأربعة . فإلحقت هذه المذاهب الأربعة على أصول الملة ، وأجرى الخلاف بين التمسكين بها والأطلين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية .

وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه ، تجرى على أصول صحيحة وطرائق قوية يحتج بها كل على مذهب الذي قلده وتمسك به وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الحققة . فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك ، وأبو حنيفة يوافق أحدهما ، وتارة بين مالك وأبي حنيفة ، والشافعي يوافق أحدهما ، وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة ، ومالك يوافق أحدهما . وكان في هذه المناظرات بيان ماخذ (١) هؤلاء الأئمة ، ومشارت اختلافهم

(١) في الأدلة والاسول التي أخذ منها هؤلاء الأئمة أحكام

فأما كتاب المحصول فللمختصر لمحمد الإمام (مثل) سراج الدين الأرموي في كتاب التحصيل وتاج الدين الأرموي في كتاب الحاصل ، واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التنقيحات ، وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج . وعن البيهقيون بنين الكتابين وشرهما كثير من الناس .

وأما كتاب الأحكام للأندى وهو أكثر تحقيقا في المسائل فللمختصر أبو عمر بن العاجب في كتابه المعروف بالمختصر الكبير ، ثم اختصره في كتاب آخر تدولته طلبة العلم ، وعن أهل المشرق والمغرب به بمطالعة وشرحه . وحصلت زبدة طريقة التكميلين في هذا الفن في هذه المختصرات .

وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيرا ، وكان من أحسن كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبي زيد الدبوسي ، وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الإسلام البزدوى من أئمتهم ، وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الأحكام وكتاب البزدوى في الطريقتين ، وسمى كتابه بالبدائع ، فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها . وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثا ، وأول كثر من علماء المعجم بشرحه . والحال على ذلك لهذا العهد .

هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعدد التأليف المشهورة لهذا العهد فيه . والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه وكرمه ، إنه على كل شيء قدير .

ومواقع اجتهادهم . وكان هذا الصلوة من العلم يسمى بالخلافيات ولابد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد . إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط ، وصاحب الخلافات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلتها .

وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مأخذ الأئمة وأدلتهم ، ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه . وتآليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تآليف المالكية : لأن القياس هند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت ، فهم لذلك أهل النظر والبحث . وأما المالكية فالأثر أكثر معتمد لهم وليسوا بأهل نظر . وأيضا فأكثرهم أهل المغرب وهم بادية غفل من الصناعات إلا في الأقل .

وللغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المآخذ ، ولأبي زيد الدبوسي كتاب التعنيقة . ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة . وقد جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع ما ينبغي عليها من الفقه الخلافي مدرجا في كل مسألة ما ينبغي عليها من الخلافات .

(وأما الجدل) وهو معرفة آداب المناظرة التي تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم ، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا ، وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج . ومنه ما يكون صوابا

ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول . وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا وكيف يكون مخصوصا منقطعا ، ومحل اعتراضه أو معارضته ، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو دهمه : كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره . وهي طريقتان :

طريقة البيزودي وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال .

وطريقة العميدى وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان ، وأكثره استدلال . وهي من المناحي الحسنة . والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة . وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس : نغاليق والسوفسطائي . إلا أن صور الأدلة والأنبيسة فيه محفوظة مراعاة لتحري فيها عرق الاستدلال كما ينبغي .

وهذا العميدى هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة إليه . وضع الكتاب المسمى بالإرشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره ، جاؤا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التآليف . وهي لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الأمصار الإسلامية ، وهي مع ذلك كمالية وليست ضرورية . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

١٦ - علم الكلام

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة . وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد . فلنقدم هنا لطيفة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمآخذ ، ثم نرجع إلى تحقيق علمه وفبا ينظر ويشير إلى حدوثه في الملة وما دعا إلى وضعه فنقول :

إن الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من النوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها . بها تقع في مستقر العادة ، وعنهما يتم كونها . وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضا ، فلا بد له من أسباب آخر ، ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدتها وخالقها سبحانه لا إله إلا هو . وتلك الأسباب في ارتقائها تنفسح وتتضاعف طولا وعرضا ، ويحار العقل في إدراكها . فإذا لا يحصرها إلا العلم المحيط ، سيما الأفعال البشرية والحيوانية ، فإن من جملة أسبابها في الشاهد القصور والإرادات ، إذ لا يتم كون الفعل إلا بإرادته والقصد إليه . والقصور والإرادات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضاً ، وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل .

وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى . وكل ما يقع في النفس من التصورات

مجهول سببه إذ لا يطلع أحد على مبادئ الأمور النفسانية ، ولا على ترتيبها . إنما هي أشياء يلقيها الله في الفكر يتبع بعضها بعضاً . والإنسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها . وإنما يحيط علماً في الغالب بالأسباب التي هي طبيعة ظاهرة . ويقع في مداركها على نظام وترتيب ، لأن الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها .

وأما التصورات فنطاقها أوسع من النفس لأنها للعقل الذي هو فوق طور النفس . فلا تترك الكثير منها فضلاً عن الإحاطة . وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها ، فإنه وادهم فيه الفكر ولا يحلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقة : « قُلْ اللَّهُ : ثُمَّ دَرَزَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ^(١) » . وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه فزلت قدمه وأصبح من الضالين الهالكين . نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين .

ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك واختيارك ، بل هو لون يحصل للنفس وصيغة تستحكم من الخوض في الأسباب على نسبة لا نعلمها ، إذ لو علمناها لتحزنا منها بقطع النظر عنها جملة . وأيضاً فوجه تأثير هذه الأسباب في الكثير من مسبباتها مجهول ؛ لأنها إنما يوقف عليها بالعادة لاقران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر ، وحقيقة التأثير وكيفية مجهولة : « وَمَا أَوْتِيتُمْ

(١) الفقرة الأخيرة من آية ٩١ من سورة الأنعام وما تقدمه
الله عن قدره الآية » .

أهل عصرهم والكافة لا أقروا به . لكنهم يتبعون الكافة في إيجاب هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم . ولو مثل الحيوان الأصم ونطق لوجدناه منكراً للمقولات ومساوقة لديه بالكلية .

فإذا علمت هذا فلعل هنالك ضرباً من الإدراك غير مدركتنا ، لأن إدراكاتها مخلوقة محدثة . وخلق الله أكبر من خلق الناس . والمصر مجهول ، والوجود أوسع نطاقاً من ذلك . « والله مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ مُّحِيطٌ » (١) . فأتيت إدراكك ومدركتك في المصر ، واتبعت ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك لأنه من طوّر فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك يقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها . غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع في محال . ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال . وهذا لا يدل (٢) على أن الميزان في أحكامه غير صادق . لكن للعقل حدا يقف عنده (٣) ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه . وتفتلن في هذا لغلط . (٤) من يقلم العقل على السمع في أمثالك

مَنْ أَلِمَ إِلَّا قَلِيلاً (١) . . فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها وإلغائها بسلة والتوجه إلى سبب الأسباب كلها وفاعلها وموجدتها لترسخ صفة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو أحرف بمصالح ديننا ، وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس . قال صلى الله عليه وسلم : « من مات يشهد لا إله إلا الله دخل الجنة » . فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة للكفر . وإن سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحتجاً بعد واحد فأتانا الضامن له أن لا يعود إلا بالخيبة . فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (٢) .

ولا تنفن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكانتات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفّه رأيه ، واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعلمها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه ألا ترى الأعم كيف ينحصر الوجود عنده في المسموعات الأربع والمقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات . وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنه صنف المرئيات ، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من

(١) الفقرة الأخيرة من آية ٥٥ من سورة الإسراء : « وما أولئك من الروح قل الروح من أمر ربي وما أنتم من عالم إلا قليلا » .

(٢) آيات سورة : الإخلاص .

(١) آية ٣٠ من سورة البروج .

(٢) فجميع النسخ « جنك » وهو تحريف (د. واثق) .

(٣) الجلة تحقيق د. واثق . وقد وردت محرفة في جميع النسخ .

(٤) التلخيص السابق .

حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ، ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف . ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قريبة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأول ، وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها ، فمن رأى يتيمًا أو مسكينًا يبادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه ، لا يكاد يصبر عن ذلك ، ولو دفع عنه ، ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده . وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به . والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة هو أثبت مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف . وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارًا غير منحصرة ، فتروسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ، ويגיע العلم الثاني النافع في الآخرة . فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع ، وهذا علم أكثر النظائر ، والمطلوب إنما هو العلم الحالي (١) الناشئ عن العادة .

واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به إنما هو في هذا . فماتلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف . وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقق بها . ثم إن الإقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة . قال صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات : « جُلِّتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » . فإن الصلاة صارت له صفة

هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه ، فقد نين لك الحق من ذلك .

وإذا تبين ذلك فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة ، فيضل العقل في بيده الأوهام ويحار وينقطع . فإذا التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيرها ، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها ، إذ لا فاعل غيره ، وكلها ترتني إليه وترجع إلى قلوبه ، وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه . وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين : « أَلَمْجَزُ عَنِ الْإِثْرِكِ إِذْرَاكُهُ » .

ثم إن الاعتبار في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط . الذي هو تصديق حكيم ، فإن ذلك من حديث النفس ، وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس ، كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضًا حصول ملكة الطاعة والالتقياد ، وتفرغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ريانيا . والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف . وشرحه أن كثيرا من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قريبة إلى الله تعالى مندوب إليها ، ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة ، وهو لو رأى يتيمًا أو مسكينًا من أبناء المستضعفين لفرَّ عنه واستنكف أن يباشره ، فضلا عن التمسح عليه للرحمة ، وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة . فهذا إنما

(١) أي العلم المصوب بحال ، أي صفة وعادة قائمة بالشخص

لا ! قال وكذلك الإيمان حين تخالط. بشاشته القلوب . ومعناه أن ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات إذا استقرت ، فلئها تحصل بمثابة الجيلة والظفرة . وهذه هي المرتبة العالية من الإيمان . وهي في المرتبة الثانية من العصمة ، لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوباً سابقاً ، وهذه حاصلة للمؤمنين حصولاً تابعاً لأعمالهم وتصديقهم . وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الإيمان ، كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف . وفي تراجم البخارى رضى الله عنه في باب الإيمان كثير منه ، مثل أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وأن الصلاة والصيام من الإيمان ، وأن تطوع رمضان من الإيمان ، والحياء من الإيمان . والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذى أشرنا إليه وإلى ملكته ، وهو فعل . وأما التصديق الذى هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه . فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت ، كما قال أئمة المتكلمين . ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التى هى الإيمان الكامل ظهر له التفاوت ، وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الأولى التى هى التصديق ، إذ التصديق موجود في جميع رتبته ، لأنه أقل ما يطلق عليه اسم الإيمان وهو المختص من عهد الكفر ، والفصل بين الكافر والمسلم ، فلا يجزئ أقل منه . وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت ، وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه ، فالهم .

وحالا يجد فيها منتهى لفته وقوة عينه . وأين هذا من صلاة الناس ؟ ومن لهم بها ؟ ! فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون (١) اللهم وفقنا ، واهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

فقد تبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب في التكليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطرارى للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية وهو الذى تحصل به السعادة ، وأن ذلك سواء في التكليف القلبية والبدنية . ويفهم منه أن الإيمان الذى هو أصل التكليف وينبوعها ، وهو هذه الرغبة ، ذو مراتب : أولها التصديق القلبي الموافق للسان ، وأعلاه حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل مسئولية على القلب ، فيستتبع الجوارح ، وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني ، وهذا أرفع مراتب الإيمان وهو الإيمان الكامل الذى لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة ، إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفه حين قال صلى الله عليه وسلم : « لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » وفي حديث هرقل لما سأل أبا مفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله ، فقال في أصحابه هل يرتد أحد منهم سقطاً لدينه (بعد أن يدخل فيه) (٢) ؟ قال

(١) آه ، من سورة الماعون .

(٢) ما بين التوسين مثبت قط في مشروحة هـ . وان قلا من تتبع الخلية التي يسها ، اليهودية .

الصرف كان حيناً (١) ، فهو للبقاء السرمدى بعد الموت ، ثم اعتقاد بعلة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة ، وعدم معرفتنا بذلك ونمام لظفه هنا في الإنشاء بذلك وبيان الطريقين وأن الجنة للنعم وجهنم للعذاب . هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدائها للقلوب ، وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة . وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأمة .

إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي المشابهة فذعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام .

ولنبين لك تفصيل هذا المجلد ، وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر للدلالة من غير تأويل في آي كثيرة ، هي سلوب (٢) كلها وصريحة في بابها ، فوجب الإيمان بها ، ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها . ثم وردت في القرآن آي أخرى لليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات .

فأما السلف فقبلوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها ، وعلموا استحالة التشبيه ولقضوا بأن الآيات من كلام الله فأمثروا بها ولم يتعرضوا لمفاتها ببحث ولا تأويل . وهذا معنى قول الكثير منهم :

(١) هكذا في منشورة د. وفي نقلنا من النسخة المخطئة التي يسميها التبريدية . وقد وردت معرفة في جميع النسخ المطبوعة الأخرى (٢) أي سالية من الله التشبيه بالخلق .

واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المرتبة الأولى الذي هو تصديق ، وعين أموراً مخصوصة كلفنا التصديق بها بقاوينا واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بالستتنا ، وهي العقائد التي تقررت في الدين . قال صلى الله عليه وسلم ، وحين سئل عن الإيمان فقال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » ، وتؤمن بالقدر خيريه وشربه . وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام .

ونشر إليها مجمل لتبين لك حقيقة هذا وكيفية حدوثه . فنقول : اعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي رد الأفعال كلها إليه وأفرده به كما دمناه ، وعرفنا أن في هذا الإيمان نجاتنا عند الموت إذا حضرنا ، لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود ، إذ ذلك متعذر على إدراكنا ومن فوق طورنا . فكلفنا أولاً اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين ، وإلا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التفسير ، ثم تنزيهه عن صفات النقص وإلا لشابه المخلوقين ، ثم توحيد بالإيجاد وإلا لم يتم الخلق للتمتع (١) ، ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تم الأفعال شاهد قضيته لكمال الإيجاد والخلق ، ومريد وإلا لم يتخصص شيء من المخلوقات ، ومقدر لكل كائن وإلا فالإرادة حادثة ، وأنه يعيدنا بعد الموت تكميلاً لعنايته بالإيجاد الأول ، ولو كان للفناء

(١) التمتع الذي يمدده تد الآلة كما قال سبحانه : « لو كان فيما أمة إلا الله لفسدتا » .

ذلك بما اندفع به الأول . ولم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي ، لتلا يكر النفي لمعانيها على نفيها ، مع أنها صحيحة ثابتة في القرآن . وإلى هذا ننظر ما تراه في « عقيدة الرسالة » لابن أبي زيد وكتاب المختصر له ^(١) ، وفي كتاب الحافظ بن عبد البر وغيرهم ، فإنهم يحومون على هذا المعنى . ولا تغضض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم ^(٢) .

ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في الآحاء ، وألف للتكلمون في التنزية حدث بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزية في آى السلوب ، فقضوا بنفى صفات المعاني من العلم والقدرة والإدارة والحياة زائدة على أحكامها ، لا يلزم على ذلك من تعدد القديم بزمعهم ، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها ، وقضوا بنفى السمع والبصر لكونها من عوارض الأجسام ، وهو مردود لعدم اشتراطه البنية في مدلول هذا اللفظ ، وإنما هو إدراك المسموع أو البصر ، وقضوا بنفى الكلام لشبهه ماق السمع والبصر ، ولم يحملوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس ، فقضوا بأن القرآن مخلوق ، وذلك بدعة صرح السلف بخلافها . ^(٣) . وعظم ضرر

« اقربوها كما جاءت » ، أى آمنوا بآياتها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها ، لجواز أن تكون ابتلاء ، فيجب الوقف والإذعان له . وشد لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ، ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت بذلك . فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آى التنزية المطلق ، التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة ، لأن معقولة الجسم تقتضى النقص والافتقار وتغليب آيات السلوب . في التنزية المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلق بظواهر هذه الآيات التي لنا عنها غنية ، وجمع بين الدليلين بتأويلهم . ثم يفرون من شناعة ذلك يقولهم جسم لا كالأجسام ، وليس ذلك بدافع منهم لأنه قول متناقض ، وجمع بين نفي وإثبات إن كان لمعقولة ^(١) واحدة من الجسم ، وإن خالفوا بينهما ونفوا المعقولة المتعارفة فقد وافقونا في التنزية ، ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم أسما مع أميائه ، ويتوقف مثله على الإذن ^(٢) . وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك ، وآل قولهم إلى التجسيم ، فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم صوت لا كأصوات ، جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول ، يعنون من الأجسام ، واندفع

(١) يرد بالمعقولة المدلول . أى إن أطلقوا لفظ الجسم في قولهم جسم لا كالأجسام . حل مدلول واحد ...
(٢) بين أن هذه تسمية لا تجوز إلا بإذن من الشارع . لأن اسم الله توفيقية .

(١) أى بهذا المعنى ينبغي أن تفسر عبارات التي يجدها في كتاب « عقيدة الرسالة » لابن أبي زيد ... إلخ .

(٢) مبدع موضوع التشابه حراسة وإافية في الفصل الثاني لهذا مباشرة .

(٣) انظر تفصيل هذا الموضوع في تعليق ١٤٤٥ من مشروعة .

وسموا مجموعهم علم الكلام ، وإما لما فيه من المناظرة على البدع ، وهى كلام صرف وليست براجعة إلى عمل ، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسى .

وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعرى ، واقتضى طريقتهم من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره ، وأخذ عنهم القاضى أبو بكر الباقلانى فتصلر للإمامة في طريقتهم ، ولهذا وضع المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار ، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء ، وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين ، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم ، وجعل هذه القواعد تمهيدا للقائده الإمامية في وجوب اعتقادها لتتوقف تلك الأدلة عليها ، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول . وجملت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية : إلا أن صور (الأدلة فيها) جاءت ، بعض الأحيان على غير الوجه القناعى ^(١) لسناجة القوم ولأن صناعة المنطق التى تيسر بها ^(٢) الأدلة وتعتبر بها الأقيسة لم تكن حينئذ ظاهرة فى الملة ، ولو ظهر منها بعض الشيء لم يأخذ به المتكلمون للمابستها للعلوم الفلسفية المبينة لقائده الشرع بالجملة ، فكانت مهجورة عندهم لذلك . ثم جاء بعد القاضى أبو بكر الباقلانى إمام الحرمين أبو المعالى ، فأمل فى

هذه البدعة ، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم ، فحمل الناس عليها ، وخالفهم أئمة السلف ، فاستحل لخلافهم إيسار ^(١) كثير منهم ودماؤهم ^(٢) .

وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه القائده دفعاً فى صدور هذه البدع ، وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعرى إمام المتكلمين ، فقوسط بين الطرق ، ونفى التشبيه ، وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ماقصره عليه السلف وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه . فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريقى النقل والعقل ورد على المبتدعة فى ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح ، وكمل القائده فى البعث وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب ، وألحق بذلك الكلام فى الإمامة لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية من قولهم إنها من عقائده الإمامان ، وأنه يجب على النبى تعيينها والخروج عن المهدة فى ذلك لمن هى له ، وكذلك على الأئمة . وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية ولا تلحق بالقائده ، فلذلك ألحقوها بمسائل هذا هذا الفن .

(١) فى المصباح : أسرت الرجل لغة فى أسرته ، فكلمة الإيسار فى عبارة ابن خلدون جارية على هذه اللغة ، ومعناها الأسر والاحتقال .

(٢) كان من نزلة يوم هذه الملة لسمع قولهم بخلاف القرآن الإمام أسد بن حنبل . فقد وثقه وكبيل بالحنيد فى عهد المأمون ثم اتته به البراء على عهد المتصم حيث ضرب بالسياط المرة بعد الأخرى ولم يكن يترك حتى يلقى عليه ثم يئس بالسيف فلا يمس ويحسن ثمانية وعشرين شهراً ... إلخ . (انظر لتفصيل هذا الموضوع فى تعليق ١٦٢٨ من مشفرة د. وائى) .

(١) نسبة إلى القامحة من الإصلاح .

(٢) المصود بين القرنين حيث فى مشفرة د. وائى نقلاً نسخة خطية .

الطريقة كتاب « الشامل » وأوسع القول فيه ،
ثم لخصه في كتاب « الإرشاد » واتخذ الناس
امداً لعقائدهم .

واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر
أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود البارئ
وصفاته ، وهو نوع استدلالهم غالباً ، والجسم
الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات وهو
بعض من هذه الكائنات ، إلا أن نظره فيها مخالف
لنظر المتكلم ، وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك
ويسكن ، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على
الفاعل . وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما
هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ، ونظر
المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الموجد .
وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما
هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع ،
من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية
فترفع البدع وتزول الشكوك والشبهة عن تلك
العقائد .

وإذا تأملت حال الفن في حدوثه وكيف
تدرج كلام الناس فيه صديقاً بعد صديق ، وكلهم
يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة
علمت حينئذ ما قرونه لك في موضوع الفن وأنه
لا يعدوه .

ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين
والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث
لا يتميز أحد الفئتين من الآخر ولا يحصل عليه
طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوالع ،
ومن جاء بعده من علماء المعجم في جميع تأليفهم .
إلا أن هذه الطريقة قد يعني بها بعض طلبة العلم
للاطلاع على المذاهب والاغراق في معرفة الحجاج

ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة
وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية
بأنه قانون ومقياس للأدلة فقط يسير به الأدلة منها
كما يسير ماسواها . ثم نظروا في تلك القواعد
والمقدمات في فن الكلام للأقدمين فخالقوا الكثير
منها بالبراهين التي أدتهم إلى ذلك ، وربما أن كثيراً
منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات
والإلهيات ، فلما سبروها بمقايير المنطق ردهم إلى
ذلك فيها . ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان
دليلة كما صار إليه القاضي ^(١) . فصارت هذه
هذه الطريقة من مصطلحهم مبنية للطريقة الأولى ،
وتسمى طريقة المتأخرين . وربما أدخلوا فيها الرد
على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية
وجعلوه من خصوم العقائد لتناسب الكثير من
مذاهب البتدعة ومذاهبهم . وأول من كتب في
طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله ،
وتبعه الإمام ابن الخطيب ^(٢) وجماعة قفوا
أثرهم واعتمدوا تقليدهم . ثم توغل المتأخرون
من بعدهم في مخالطة كتب الفلاسفة والتبس
عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما
واحداً من اشتباه المسائل فيهما .

(١) يقصد القاضي أبا بكر الباتلاني الذي ذكر صاحبنا فيما
سبق وقال إنه يرى « أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول » .

(٢) هو الإمام فخر الدين الرازي .

وأُنزل عليه الكتاب الكريم باللسان العربى المبين ،
يخاطبنا فيه بالتكاليف القصية هنا إلى ذلك .
وكان فى خلال هذا الخطاب ومن ضروراته ذكر صفاته
سبحانه وأسمائه ليعرفنا بذاته ، وذكر الروح المتعلقة
بنا ، وذكر الوحي والملائكة الوسائط . بينه وبين
رسله إلينا . وذكر لنا يوم البعث وإنذاراته ، ولم
يعين لنا الوقت فى شيء منها . وثبت فى القرآن
الكريم حروف من الهجاء مقطعة فى أوائل بعض
سورة لا سبيل لنا إلى فهم المراد بها . وسمى هذه
الأنواع كلها من الكتاب متشابهة وضم على اتباعها
فقال تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه
آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، وأغر متشابهات »
فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه
ابتغاء لفطنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله
والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند
ربنا ، وما يذكر إلا أولو الآلآب^(١) . وحمل العلماء
من سلف الصحابة والتابعين هذه الآية على أن
على أن المحكمات هى المبيّنات الثابتة الاحكام .

ولذا قال الفقهاء فى اصطلاحهم : المحكم
المتضح للمعنى . وأما التشابهات فلمهم فيها عبارات .
ف قيل : هى التى تفتقر إلى نظر وتفسير يصح
معناها لتعارضها مع آية أخرى أو مع العقل فتخفى
دلائلها وتشبه . وعلى هذا قال ابن عباس :
« المتشابه يؤمن به ولا يعمل به » . وقال مجاهد
وعكرمة : « كل ما سوى آيات الأحكام والقصاص
متشابه » . وعليه القاضى أبو بكر وإمام الحرمين .

(١) آية ٧ من سورة آل عمران .

لوفور ذلك فيها . وأما محاذاة طريقة السلف بحقائق
علم الكلام فانما هو للطريقة القديمة للمتكلمين
وأصلها كتاب « الارشاد » ، وما حذا حذوه .

ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة فى عقائده
فعليه بكتب النزائى والامام ابن الخطيب ، فانها
وإن وقع فيها مخالفة للإصلاح القديم فليس فيها
من الاختلاط . فى المسائل والالتباس فى الموضوع
ما فى طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم .

وعلى الجملة فينبغى أن يعلم الذى هو علم
الكلام غير ضرورى لهذا العهد على طالب العلم ،
إذ الملحة والمبتدعة قد انقضوا والأئمة من أهل
السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا ، والأدلة
العقلىة إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا ،
وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه البارى ، هن
كثير إبهاماته وإطلاقه . ولقد سئل الجنيّد رحمه الله
عن قوم مرّ بهم من المتكلمين يفيضون فيه ، فقال :
ما هؤلاء ؟ ف قيل : قوم ينزهون الله بالأدلة عن
صفات الحدود وسيات النقص ، فقال : « نئى
العيب حيث يستحيل العيب عيب » . لكن فائدته
فى آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة ، إذ لا
يحسن بحامل السنة الجهل بالحجاج النظرية على
عقائدها . والله ولى المؤمنين .

١٧- فصل فى كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة
وما حدث لأجل ذلك من طوائف السنية
والمبتدعة^(١) فى الاعتقاد

إعلم أن الله سبحانه بعث إلينا نبينا محمدا
صلى الله عليه وسلم يدعونا إلى النجاة والفوز بالنعيم ،

(١) هذا الفصل ثبت فى مشفرة در ولى نقل عن نسخة
خطية ومن طبعة باريس .

مدلول الكلام حينئذ . وإن جاعنا من عند الله فوجعنا علمه إليه ، ولا نشغل أنفسنا بمدلول نلتزمه ، فلا نسبيل لنا إلى ذلك ^(١) . وقد قالت عائشة رضي الله عنها : « إفا وأيم الذين يجادلون في القرآن ، فهم الذين عني الله ، فاحذروهم » . هذا مذهب السلف في الآيات المتشابهة . وجاء في السنة ألقاظ مثل ذلك محلها عندهم محمل الآيات ، لأن المتبع واحد .

وإذا تقرر أن استأنف المتشابهات على ما قلناه فلنرجع إلى اختلاف الناس فيها . فأما ما يرجع منها على ما ذكره إلى الساعة وأشراتها وأوقات الإنذارات ، وعدد الزبانية وأمثال ذلك ، فليس هذا ، والله أعلم ، من المتشابهة ، لأنه لم يرد فيه لفظ مجمل ولا خبره ، وإنما هي أزمنة لحادثات استأثر الله بعلمها بنصه في كتابه وعلى لسان نبيه ، وقال إفا علمها عند الله . والمجرب ممن عدها من المتشابهة . وأما الحروف المقطعة أوائل السور فحقيقتها حروف الهجاء ، وليس يبيح أن تكون مرادة . وقد قال الزمخشري : « فيها إشارة إلى بعد الغاية في الإيجاز ، لأن القرآن المنزل مؤلف منها . والبشر فيها سواء ، والتفاوت موجود في دلالتها بعد التأليف » . وإن عدل عن هذا الوجه الذي يتضمن الدلالة على الحقيقة ، فإنما يكون يتقل صحيح كقولهم في طه إنه نداه من

وقال الثوري والشعبي وجماعة من علماء السلف : المتشابه ما لم يكن سبيل إلى علمه كشروط . ^(١) الساعة وأوقات الإنذارات وحروف الهجاء في أوائل السور . وقوله في الآية : « من أم الكتاب » أي معظمه وغالبه ، والمتشابه أقله . وقد يرد إلى المحكم . ثم ذم المتبعين للمتشابه بالتأويل أو يحملها على معان لا تفهم منها في لسان العرب الذي خوطبنا به ، وسامهم أهل زيغ أي ميل عن الحق من الكفار والزنادقة وجهلة أهل البدع ، وأن فعلهم ذلك قصد الفتنة التي هي الشرك أو اللبس على المؤمنين ، أو قصداً لتأويلها بما يشتهونه ، فيقتدون بهم في بدعتهم . ثم أخبر سبحانه بأنه استأثر بتأويلها ولا يعلم إلا هو فقال : « وما يعلم تأويله إلا الله » ثم أنفى على العلماء بالإيمان بها فقط . فقال : « والراسخون في العلم يقولون آمنا به » . ولهذا جعل السلف « والراسخون » مستأنفاً ، ورجعوه على العطف ^(٢) لأن الإيمان بالغيب أبلغ في الثناء ، ومع عطفه إنما يكون إيماناً بالشاهد ^(٣) لأنهم يعلمون التأويل حينئذ فلا يكون غيباً . ويضد ذلك قوله : « كل من عند ربنا » . ويدل على أن التأويل فيها غير معلوم للبشر أن الألقاظ اللغوية إنما يفهم منها المعاني التي وضعها العرب لها ، فإذا استحال إسناد الخبر إلى مخبر عنه جهلنا

(١) الصحيح « أشرط الساعة » أي علاماتها جميع شرط يفتحين أي العلامة .

(٢) أي جعل السلف كلمة « والراسخون » في الآية مستأنفاً على أنها مبتدأ خبره جملة « يقولون آمنا به » ، ورجعوا ذلك على صحتها على لفظ الجلالة .

(٣) الشاهد ما يتقبل النبي .

(١) فلا صفة الاستواء التي أخصت إلى الله تعالى قوله : « الرحمن على العرش استوى » (آية من سورة ٥٠) يتحيل إسنادها بحسب مدلولها القوي إلى الخبر عنه وهو الله تعالى ، وحيثه يحيل مدلول الكلام ، ولكن لا كان هذا الخبر قد جاء من عند الله فإننا نفرض علمه ولا نشغل أنفسنا بتأويل آخر نلتزمه .

ظاهر وهادئ وأمثال ذلك .^(١) والنقل الصحيح متعذر ، فيجئ في التشابه فيها من هذا الوجه . وأما الوجه واللائكة والروح والجن فاشتباها من خفاء دلالتها الحقيقية لأنها غير متعاقفة ، فجاء التشابه فيها من أجل ذلك . وقد ألحق بعض الناس بها كل ما في معناها من أحوال القيامة والجنة والنار والدجال والفتن والشروط . وما هو بخلاف العوائد المألوفة ، وهو غير بعيد ، إلا أن الجمهور لا يوافقونهم عليه ، وسبب المتكلمون ، فقد عبتوا محامها على ما تراه في كتبهم . ولم يبق من التشابه إلا الصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه مما يوم ظاهراً نقصاً أو تعجيزاً وقد اختلفت الناس في هذه الظواهر من بعد السلف الذين قرروا مذهبهم وتنازعوا وتفرقت البدع إلى العقائد . فلنشر إلى بيان مذهبهم وإثبات الصحيح منها على القامد فنقول ، وما توفيقى إلا بالله :

اعلم أن الله سبحانه وصف نفسه في كتابه بأنه عالم قادر مريد حي سميع بصير متكلم جليل كريم جواد منم عزيز عظيم ، وكذا أثبت لنفسه اليدين والعينين والوجه والقدم واللسان إلى غير ذلك من الصفات . فمنها ما يقتضى صحة الألوهية مثل العلم والقدرة والإرادة ثم الحياة التي هي شرط جميعها . ومنها ما هي صفة كمال كالسمع والبصر والكلام . ومنها ما يوم النقص كالاستواء والنزول والمحيى ، وكالوجه واليدين والعينين التي هي صفات المحدثات . ثم أخبر الشارع أننا نرى ربنا يوم القيامة كالقمر ليلة البدر ، لانضمام في رؤيته ،

كما ثبت في الصحيح . فلما السلف من الصحابة والتابعين فأتيتوا له صفات الألوهية والكمال وقضوا إليه ما يوم النقص^(١) ساكتين عن مدلوله . ثم اختلف الناس من بعدهم . وجاءا للعتزلة فأتيتوا هذه الصفات أحكاماً ذهنية مجردة ولم يشتوا صفة تقوم بذاته ، وسما ذلك توحيداً . وجعلوا الإنسان خالقاً لأفعاله ولا تتعلق بها قدرة الله تعالى ، سبب الشرور والمعاصي منها ، إذ يمنع على الحكيم فعلها . وجعلوا مراعاة الأصلح للعباد واجبة عليه ، وسما ذلك عدلاً ، بعد أن كانوا أولاً يقولون بنى القدر ، وإن الأمر كله مستأنف بعلم حادث وقدره وإرادة كذلك كما ورد في الصحيح وأن عبد الله بن عمر تبرأ من معبد الجهنى^(٢) وأصحابه القائلين بذلك ، وانتسبوا نبي القدر إلى واصل بن عطاء الغزالي^(٣) منهم تلميذ الحسن البصري لعهد عبد الملك بن مروان ثم آخروا إلى معمر السلمى ورجعوا عن القول به . وكان منهم أبو الهذيل العلاف وهو شيخ المعتزلة ، أخذ الطريقة من عثمان بن خالد الطويل عن واصل ، وكان من نقاة القدر ، واتبع رأى الفلاسفة في نفي الصفات الوجودية لظهور مذهبهم يومئذ . ثم جاء

(١) للتفويض في ملقب السلف أن يقال إن مدلول هذه الأشياء مفروض منه إل الله . ولما التأويل في ملقب الأشعة فيقتل في تفسير اليقين بالقدرة والوجه بالذات ههنا . وهكذا ، كما يذكر ذلك ابن علون فيما بعد .

(٢) هو عبد الله بن عبد الله الجهنى . وهو أول من قال بنى القدر وإنشأت الاعتبار المطلق .

(٣) حكاه في الأصل . ويرجح الدكتور على عبد الواحد أنه أن الكلمة محرقة من المحدث .

إبراهيم النظام وقال بالقلع واتبعوه ، وطالع كتب
الفلاسفة وشدد في نفي الصفات ، وقرر قواعد
الاعتزال ثم جاء المحافظ والكبي الجبائي وكانت
طريقتهم تسمى علم الكلام : إما لما فيها من
الحجاج والجدال ، وهو الذي يسمى كلاما ،
وإما أن أصل طريقتهم نفي صفة الكلام . فلهذا
كان الشافعي يقول : « حقه أن يضربوا بالجريد
ويطاف بهم » وقرر هؤلاء طريقتهم وأثبتوا منها
وردوا . إلى أن ظهر الشيخ أبو الحسن الأشعري
ونظر بعض مشيختهم في مسائل الصلاح والأصلح ،
فرفض طريقتهم ، وكان على رأي عبد الله بن
مسعود بين كلاب وأبي العباس القلتاسي والحاتر
بين أسد المحاسبي من أتباع السلف وعلى طريقة
السنة ، ففند مقالاتهم بالحجج الكلامية وأثبت
الصفات القائمة بذات الله تعالى من العلم والقدرة
والإرادة التي يتم بها دليل التانع وتصح المعجزات
للأنبياء . وكان من مذهبهم إثبات الكلام والسمع
والبصر ، لأنها وإن أوهى ظاهرها النقص بالصوت
والحرف الجسمانيين فقد وجد للكلام عند العرب
مدلول آخر غير الحروف والصوت وهو ما يدور
في الخلد . والكلام حقيقة فيه دون الأول . فأثبتوه
الله تعالى ، وانتفى إيهام النقص ، وأثبتوا هذه
الصفة قديمة هامة تتعلق كشأن الصفات الأخرى ،
وصار القرآن اسما مشتركا بين القديم بذات الله
تعالى ، وهو الكلام النفسى ، والمحدث الذى هو
الحروف المؤلفة المقررة بالأصوات . فإذا قيل
قديم فالمراد الأول ، وإذا قيل مقروء مسموح فلدلالة

(١) إشارة إلى قوله تعالى في قصة موسى والخضر : « فوجدا
فيها جداراً يريد أن ينقض فأفاه » (آية ٧٧ من سورة الكهف) .

من غير كشف عن معناه . والقطع بنفى المكان حاصل من دليل العقل الناقى للافتقار ، ومن أدلة السلوب المؤذنة بالتزنية ، مثل « ليس كمثلته شئ »^(١) وأشباهه ، ومن قوله : « وهو الله فى السموات وفى الأرض » ، إذ الموجود لا يكون فى مكانين ، فليست « فى » هنا للمكان قطعاً والمراد غيره . ثم طردوا ذلك المحمل^(٢) الذى ابتدعوه فى ظواهر الوجه والعينين واليدين والتزول والكلام بالحرف والصوت ، يجعلون لها مدلولات أعم من الجسمانية وينزهون عن مدلول الجسماني منها . وهنا شئ لا يعرف فى اللغة . وقد درج على ذلك الأول والآخرون منهم . وناقروهم أهل السنة من المتكلمين الأشعرية والحنفية ورفضوا عقائدكم فى ذلك . ووقع بين متكلمي الحنفية ببخارى وبين الإمام محمد بن إسماعيل البخارى ما هو معروف . وأما المجسمة ففعلوا مثل ذلك فى إثبات الجسمية وأنها لا كالأجسام ، ولفظ الجسم له يثبت فى منقول الشرعيات . وإنما جرأهم عليه إثبات هذه الظواهر « لها » ، فلم يقتصروا عليه ، بل توغلو وأثبتوا الجسمية ، يزعمون فيها مثل ذلك ، وينزهونه بقول متناقض سفساف ، وهو قولهم « جسم لا كالأجسام » . والجسم فى لغة العرب هو العميق المحدود ، و« أما »^(٣) غير هذا التفسير ، من أنه القائم بالذات أو المركب من الجواهر وغير ذلك فاصطلاحات للمتكلمين يريدون

يصفون « : تعالى الله عما يقول الظالمون »^(٤) ، « لم يلد ولم يولد » . ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه فى قولهم بإثبات الاستواء والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعة الاستقرار والتمكن وهو جسماني . وأما تعطيل الذى يشعرون بإلزامه ، وهو تعطيل اللفظ ، فلا محذور فيه ، وإنما المحذور فى تعطيل الإلاه . وكذلك يشعرون بإلزام التكليف بما لا يطاق ، وهو تمويه : لأن التشابه لم يقع فى التكليف . ثم يدعون أن هذا مذهب السلف ، وحاشا لله من ذلك ، وإنما مذهب السلف ما قرئناه أولاً من نفويض المراد بها إلى الله والسكوت عن فهمها .

وقد يحتجون لإثبات الاستواء لله بقول مالك « الاستواء معلوم والكيف مجهول » ، ولم يرد مالك أن الاستواء معلوم الثبوت لله ، وحاشاه من ذلك ، لأنه يعلم مدلول الاستواء ، وإنما أراد أن الاستواء معلوم من اللغة وهو الجسماني ، وكيفيته ، أى حقيقته ، لأن حقائق الصفات كلها كيفيات ، هى مجهولة الثبوت لله . وكذلك يحتجون على إثبات المكان بحديث السوداء ، وأنها لما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم : أين الله ؟ قالت : فى السماء ؟ فقال : أعثقتها فلئها مؤمنة . والنبي صلى الله عليه وسلم لم يثبت لها الإيمان بإثباتها المكان لله ، بل لأنها آمنت بما جاء به من ظواهر أن الله فى السماء ، فدخلت فى جملة الراسخين الذين يؤمنون بالتشابه

(١) أى جعلوا هذا المصل من التعبير طراداً فى جميع الآيات
فى تلك ظواهرها على الوجه والحق ... إلخ .
(٢) « أما » زاعما الدكتور وفى لفظهم المص .

(٣) ليس هذا نصاً قرآنياً ، والله فى القرآن هو توبه تمال :
« سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً » (آية ٣٤ من سورة الإسراء)

الإنسانية فيه ، فله أطوار يخالف كل واحد منها الآخر بأحوال تختص به ، حتى كأن الحقائق فيها مختلفة . فالطور الأول عاله الجسماني بحسه الظاهر وفكره المعاني وسائر تصرفاته التي أعطاها لإيائه وجوده الحاضر .

الطور الثاني : عالم النوم وهو تصور الخيال بانفاذ تصوراته جائلة في باطنه ، فيدرك منها بحواسه الظاهرة مجردة عن الأزمنة والأمكنة وسائر الأحوال الجسمانية ، ويشاهدها في مكان ليس هو فيه . ويحدث للصالح منها البُشرى بما يترقب من مسراته الدنيوية والأخروية ، كما وعد به الصادق صلوات الله عليه . وهذا الطوران عامان في جميع أشخاص البشر ، وهما مختلفان في المدارك كما ترى .

الطور الثالث : طور النبوة وهو خاص بأشراف صنف البشر بما خصهم الله به من معرفته وتوحيده وتنزل ملائكته عليهم بوحيه وتكليفهم باصلاح البشر في أحوال كلها مغايرة لأحوال البشرية الظاهرة .

الطور الرابع : طور الموت الذي تفارق أشخاص البشر فيه حياتهم الظاهرة إلى وجود قبل القيامة ، يسمى البرزخ ، ينعمون فيه ويعذبون على حسب أعمالهم ، ثم يقضون إلى يوم القيامة الكبرى ، وهي دار الجزاء الأكبر نعيما وعذاباً في الجنة أو في النار . - والطوران الأولان شاهدهما وجداني . والطور الثالث النبوي شاهده المعجزة والأحوال المختصة بالأنبياء . والطور الرابع شاهده ماتنزل حل الأنبياء من وحى الله تعالى في المعاد وأحوال

بها غير المدلول اللغوي . فلهذا كان المجسمه أوغل في البدعة ، بل والكفر ، حيث أثبتوا لله وصفا موهبا يومه التقص لم يرد في كلامه ولا كلام نبيه . فقد تبين لك الفرق بين مذاهب السلف والمتكلمين السنية والمحدثين والمنتدعة من المعتزلة والمجسمه بما أطلعناك عليه .

وفي المحدثين غلاة يسمون المشبهة لتصريحهم بالتشبيه ، حتى إنه يحكى عن بعضهم أنه قال : أعفوني من اللحية والتمرج وسلوا عما بدا لكم من سواها ، وإن لم يتأول ذلك لهم بلتهم يريدون حصر ما ورد من هذه الظواهر الموهمة وحملها على ذلك المحمل الذي لأتتهم ، وإلا فهو كفر صريح والبياد بالله . وكتب أهل السنة مشحونة بالحجاج على هذه البدع وسط . الرد عليهم بالأدلة الصحيحة وإنما أومأنا إلى ذلك إيماء يميز به فصولات المقالات وجملها . والحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله (١) .

وأما الظواهر الخفية الأدلة والدلالة كالوحي والملائكة والروح والجن والبرزخ وأحوال القيامة والدحال والفتن والشروط وسائر ما هو متعذر على الفهم أو مخالف للعادات : فإن حملناه على ما يذهب إليه الأشعرية في تفاصيله ، وهم أهل السنة ، فلا تشابه ، وإن قلنا فيه بالتشابه فلتوضيح القول فيه بكشف الحجاب عنه فنقول :

اعلم أن العالم البشري أشرف العوالم من الموجودات وأرفعها . وهو ، وإن اتحدت حقيقة

هو الفضل المشترك بين الحس الظاهر والحس الباطن، فتصور محسوسه بالظاهر في الحواس كلها، ويشكل عليهم هذا بأن المرأى^(١) الصادقة التي هي من الله تعالى أو من الملك أثبت وأرسخ في الإدراك من المرأى الخيالية الشيطانية، مع أن الخيال نيهها على مقرر وه واحد، الفريق الثاني المتكلمون، أجملوا فيها القول، وقالوا: هو إدراك يخلقه الله في الخاسة فيقع كما يقع في البقطة. وهذا أليق وإن كنا لانتصور كيفيته. وهذا الإدراك النومي أوضح شاهد على ما يقع بعده من المدارك الحسية في الأطوار (التالية).

وأما الطور الثالث وهو طور الأنبياء فالمدارك الحسية فيها مجهولة الكيفية عند وجدانيته عندهم بل أوضح من اليقين^(٢). فيرى النبي الله والملائكة ويسمع كلام الله منه أو من الملائكة، ويرى الجنة والنار والعرش والكرسي، ويخترق السماوات السبع في إسرائه، ويركب البراق فيها، ويلقى التبيين هنالك، ويصلي بهم، ويترك أنواع المدارك الحسية كما يدرك في طوره الجسماني والنومي، بعلم ضروري يخلقه الله له، لا بالإدراك العادي للبشر في الجوارح ولا يلتفت في ذلك إلى ما يقوله ابن سينا من تنزيله أمر النبوة على أمر النوم في دفع الخيال صورة إلى الحس المشترك. فإن الكلام عليهم هنا أشد من الكلام في النوم. لأن هذا التنزيل طبيعة واحدة كما قرناه. فيكون على هذا حقيقة الوحي والرويا

البرزخ والقيامة، مع أن العقل يقتضي به كما بينها الله عليه في كثير من آيات البعث. ومن أوضح الدلالة على صحتها أن أشخاص الإنسان لو لم يكن لهم وجود أتم بعد الموت غير هذه المشاهد، يتلقى فيه أحوالا تليق به، لكان إيجاده الأول حيثاً، إذ الموت إذا كان علما كان مآل الشخص. إلى العدم، فلا يكون لوجوده الأول حكمة، والبعث على الحكيم محال^(٣). وإذا تقررت هذه الأحوال الأربعة فلنأخذ في بيان مدارك الإنسان فيها كيف تختلف اختلافا بينا يكشف لك غور التشابه:

فأما مداركه في الطور الأول فواضحه جليلة، قال الله تعالى: «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا» وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة^(٤) فيهذه المدارك يستولى على ملكات المعارف ويستكمل حقيقة إنسانيته ويوفى حق العبادة المقضية به إلى النجاة.

وأما مداركه في الطور الثاني وهو طور النوم فهي المدارك التي في الحس الظاهر بعينها، لكن ليست في الجوارح كما هي في البقطة. لكن أرائي يثيقن كل شيء أدركه في نومه، لا يشك فيه ولا يرتاب مع خلو الجوارح عن الاستعمال العادي لها. والناس في حقيقة هذه الحال فريقان. الحكماء ويزعمون أن الصور الخيالية يدفعها الخيال بحركة الفكر إلى الحس المشترك، الذي

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى: «المسلم أنا خلقناكم عينا وأنكم إلينا لا ترجعون» (آية ١١٥ من سورة المؤمن).

(٢) آية ٧٨ من سورة الفتح.

(٣) بين الرواية الصادقة التي وردت في الآثار، الرواية الصادقة من الله والحلم من الشيطان.

(٤) حكلا في الأصل، وفيه عبارة غير واضحة للمعنى.

نعم الجنة هل مراتبها . وعذاب النار هل مراتبه ، ويرون الملائكة ويرون ربهم كما ورد في الصحيح : «إنكم ترون ربكم يوم القيامة كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» . وهذه المدارك لم تكن لهم في الحياة الدنيا ، وهي حسية مثلها ، وتقع في الجوارح بالعالم الضروري الذي يخلفه الله كما قلناه .

وسر هذا أن تعلم أن النفس الانسانية هي تنشأ بالبدن وعذاركه . فاذا فارقت البدن بنوم أو موت أو صار للنبي في حالة الوحي من المدارك البشرية إلى المدرك للملكية ، فقد استصعبت ما كان معها من المدارك البشرية مجردة عن الجوارح ، فتدرك بها في ذلك الطور أى إدراك شاعت منها أرفع من إدراكها وهي في الجسد ، قاله الفزالي رحمه الله . وزاد على ذلك أن للنفس الإنسانية صورة تبقى لها بعد المفارقة ، فيها المينان والأذنان وسائر الجوارح المدركة ، أمثالا لما كان في البدن وصورا .

وأنا أقول إنما يشير بذلك إلى الملكات الحاصلة من تصريف هذه الجوارح في بدنها زيادة على الإدراك . فاذا تغطنت لهذا كله علمت أن هذه المدارك موجودة في الاطوار الأربعة ، لكن ليس على ما كانت في الحياة الدنيا ، وإنما هي تختلف بالقوة والضعف بحسب ما يعرض لها من الاحوال . ويشير المتكلمون إلى ذلك إشارة مجملة بأن الله يخلق فيها علما ضروريا ، بذلك تدرك أى مدرك كان . ويعنون به هذا القدر الذي أوضحناه .

من النبي واحدة في يقينها وحقيقتها ، وليست كذلك هل ما علمت من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي ستة أشهر ، وأنها كانت بدء الوحي ومقدمته . ويشعر ذلك بأنها رؤيا في الحقيقة وكذلك حال الوحي في نفسه . فقد كان يصعب عليه ، ويقاسى منه شدة ، كما هي في الصحيح ، حتى كان القرآن ينزل عليه آيات مقطعات . وبعد ذلك نزل عليه «براءة» في غزوة تبوك جملة واحدة ، وهو يسير على ناقته فلو كان ذلك من تنزل الفكر إلى الخيال فقط . ومن الخيال إلى الحس المشترك لم يكن بين هذه الحالات فرق . وأما الطور الرابع وهو طور الأموات في برزخهم ، الذي أوله القبر ، وهم مجردون عن البدن ، أو في برزخهم عندما يرجعون إلى الأجسام ، فعلمنا أنهم الحسية موجودة . فيرى الميت في قبره الملكين يسألونه ، ويرى مقعده من الجنة أو النار بحسب رأسه ، ويرى شهود الجنائز ويسمع كلامهم ونطق لحالهم في الانصراف عنه ويسمع ما يذكرونه به من التوحيد أو من تلقين الشهادتين وغير ذلك . وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقض على قلبه (١) بدر وفيه قتل المشركين من قریش وناذاهم بأسمائهم . فقال عمر : يا رسول الله ! أتكلم هؤلاء الجيف ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم لما أقول . ثم في البقرة يوم القيامة يعانئون بأسماعهم وأبصارهم ، كما كانوا يعانئون في الحياة ، من

(١) القلب ، البز أو القدية منها (القلوب) .

فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا بمواجد مبركة لهم . وذلك أن الانسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان : إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم ؛ وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن

والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك . فالمعنى^(١) العاقل والمتصرف في البدن ينشأ من إدراكات وإرادات وأحوال ، وهي التي يميز بها الانسان كما (قلناه) . وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة ، والفرح والحزن عن إدراك المولم أو التلذذ به ، والنشاط عن الحمام ، والكسل عن الاعياء . وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لابد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال (هي) نتيجة لتلك المجاهدة . وتلك الحالة :

إما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصبح مقاماً للمريد ؛ وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط . أو كسل أو غير ذلك . والمقامات لا يزال المريد يترقى فيها من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة . قال صلى الله عليه وسلم : « من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة » . فالمريد لابد له من الترقى في هذه الأطوار وأصلها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها الإيمان ويهاجها ، وتنشأ عنها الأحوال والصفات نعالج وثمرات ، ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى ، إلى مقام

وهذه نيلة أوماناً بها إلى ما يوضح القول في التشابه . ولو أوسعنا الكلام فيه لتصمرت المداير عنه . فلتنفزع إلى الله سبحانه في لهداية والقهم عن أنبيائه وكتابه بما يحصل به الحق في توحيدنا والظفر بنجاتنا . والله يهدي من يشاء .

١٨ - علم التصوف

هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الأمة . وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهدية ، وأصلها المكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ولاعرض عن زخرف الدنيا وزينتها ، وزهد فيما يقبل عليه لجهوم من لذة ومال وجاه ، ولانفرد عن لخلق في لخلوة للعبادة . وكان ذلك عاماً في الصحابة وسلف .

فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني ما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ختص المتقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة .

وقال القشيري رحمه الله : « ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ، والظاهر أنه لقب ، ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فيبعد من جهة القياس القوي » ، قال : « وكذلك من الصوف لانهم لم يختصو بلبسه » .

قلت : والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف يوم في الغالب مختصون بلبسه ، لما كانوا عليه من مخالطة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف .

(١) حكاه في طبعة باريس . وفي الطبعة المتأخرة « فالروح العاقل » و « وطبعة باريس لوفج » .

النفس عليها ، والكلام في الاذواق والمواجد العارضة في طريقها ، وكيفية الترق فيها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك .

فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم ، فمنهم من كتب في (أحكام) الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله (المحاسب) في كتاب «الراية» له ، ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجههم في الأحوال كما فعله (١) القشيري في كتاب «الرسالة» والسهروردي في كتاب «عوارف المعارف» وأمثالهم . وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب «الاحياء» ، فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ، ثم بين آداب القوم وسنتهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم . وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط ، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال ، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك .

ثم إن هذه المجاهدة والخلو والذكر يشيها غالباً كشف حجاب الحس ، والاطلاع على عوالم من أمر الله ، ليس لصاحب الحس إدراك شيء

التوحيد والعرفان . وإذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فيعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله . وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية . فلهذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله ، وينظر في خفاياها لأن حصول النتائج من الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك . والمريد يجد ذلك بنوقه ويحاسب نفسه على أسبابه . ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس ، لأن الغفلة عن هذا كانت شاملة . وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الأجزاء والامثال . وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أولاً . فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتزكك والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل من المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاماً ويترق منها إلى غيرها . ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم ، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة ، فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحنا عن التعبير عنه بلفظه يتيسر فهمه منه . فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس يوجد بخيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه . وصار علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبادات والمعادات والمعاملات ؛ وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة

(١) المصنوع بين القوسين مثبت في منشورة . وفي نقله من طبة باريس . وبهذه لا يستقيم المنى .

واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر ، حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بنام نشوها وتغذيتها . فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ ، وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرس إلى القرس^(١) وهكذا قال الفزالي رحمه الله في كتاب الاحياء بعد ذكر صورة الرياضة .

ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة ، لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلة وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين . وليس مرادنا إلا الكشف الناشئ عن الاستقامة ، ومثاله أن المرأة الصغيلة^(٢) إذا كانت محبة أو مقرة وحوذى بها جهة المرئى فإنه يتشكل فيه موجعا على غير صورته ، وإذا كانت مسطحة تشكل فيها المرئى صحيحا . فالاستقامة للنفس كالانسياط للمرأة فيما ينطبع فيها من الأحوال . ولا عنى المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلما في حقائق الموجودات العلوية والسفلية ، وحقائق الملك والروح والعرش والكرسى وأمثال ذلك . وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم آذواقهم ومواجهتهم في ذلك . فأهل القنيتا بين منكر عليهم ومسلم لهم . وليس البرهان والدليل

منها . والروح من تلك العوالم . وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت الروح ، وغلب سلطانه وتجدد نشؤه ، وأعان على ذلك الذكر ، فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً ، ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك ، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي ، وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الألف إلى الأعلى ، أفق الملائكة . وهذا الكشف كثيراً ما يمرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم ، وكذلك يدركون كثيراً من الوقوعات قبل وقوعها ، ويتصرفون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية ، وتصير طوع وإرادتهم . فالظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا هذا التصرف ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه ، بل يعدلون ما وقع لهم من ذلك محنة ويتعذرون منه إذا وقع لهم . وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ . لكنهم لم يقع لهم بها عناية . وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم كثير منها ، وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة التفسير على ذكرهم ، ومن تبع طريقهم من معلم

ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب و (الكلام) في المدارك التي وراءه .

(١) في بعض النسخ : والعرش والعرش المطر الضمير وهو دون الرذاذ . والقرش انفضه الرأس .
(٢) الصغيلة : هي الصغرة .

بالحصول في الجهة على ما نقرر من مدلولها .
والبارئ سبحانه منزّه عن ذلك . ذكره ابن
التمسّاني في شرح اللّمع لإمام الحرمين . وقال :
ولا يقال في البارئ مابين للعالم ولا متصل به ولا
داخل فيه ولا خارج عنه . وهو معنى ما يقوله
الفلاسفة : إنه لا داخل العالم ولا خارجه ، بناء
على وجود الجواهر غير المتحيزة . وأنكرها المتكلمون
لما يلزم من مساواتها للبارئ في أخص الصفات .
وهو مبسوط . في علم الكلام . وأما المعنى الآخر
للمباينة فهو المغايرة والمخالفة . فيقال البارئ
مابين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده وصفاته .
ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط . وهذه
المباينة هي ملحق أهل الحق كلهم من جمهور
السلف وعلماء الشرائع والتكلمين والتصوفة
الأقدمين كأهل الرسالة^(١) ومن هنا منحاهم .

وذهب جماعة من التصوفة والمتأخرين الذين
صبروا المداك الوجدانية علمية نظرية إلى أن
البارئ تعالى متحد بمخلوقاته في هويته ووجوده
وصفاته . وربما زعموا أنه مذهب الفلاسفة قبل
أرسطو مثل أفلاطون وسقراط . وهو الذي يعنيه
المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام عن التصوفة
ويحاولون الرد عليه . لأنه ذاتان تنتفي إحداهما
أو تندرج اندراج الجزء . فإن تلك مغايرة صريحة
ولا يقولون بذلك . وهذا الاتحاد هو الحلول الذي
تدعيه النصارى في المسيح عليه السلام . وهو
أغرب لأنه حلول قديم في محدث أو اتحاد به . وهو

ينافع في هذا الطريق رداً وقبولا ، إذ هي من قبيل
الوجدانيات

(تفصيل ونحقيق) . يقع كثيرا في كلام
أهل العقائد من علماء الحديث والفقهاء أن الله تعالى
مباين لمخلوقاته ، ويقع للتكلمين أنه لا مابين
ولا متصل ، ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم
ولا خارجه ، ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه
متحد بالمخلوقات ، إما بمعنى الحلول فيها ،
أو بمعنى أنه هو عينها وليس هناك غيره جملة ولا
تفصيلا . فلنبين تفصيل هذه المذاهب ونشرح
حقيقة كل واحد منها حتى تتضح معانيها فنقول :
إن المباينة يقال لمعنيين : أحدهما المباينة في
الحيز والجهة ، ويقابله الإ اتصال . وتشعر هذه
المقابلة - على هذا التقيد^(١) - بالمكان ، إما
صريحا وهو تجسيم ، أو لزوما وهو تشبيه من
قبيل القول بالجهة . وقد نقل مثله عن بعض
علماء السلف من التصريح بهذه المباينة ، فيحتمل
غير هذا المعنى . ومن أجل ذلك أنكر المتكلمون
هذه المباينة . وقالوا لا يقال في البارئ إنه مابين
مخلوقاته ولا متصل بها لأن ذلك إنما يكون
للمتحييزات . وما يقال من أن المحل لا يخلو عن
الاتصاف بالمعنى وضده ، فهو مشروط بصحة
الاتصاف أولا . وأما مع امتناعه فلا ، بل يجوز
الخلو عن المعنى وضده ، كما يقال في الجماد
لا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ولا كاتب
ولا أمي . وصحة الاتصاف بهذه المباينة مشروطة

(١) يقصد الرسالة التفسيرية .

(١) أي هذا التقيد ، وهو أنها مباينة في الحيز والجهة .

وبالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل القرغاني شارح قصيدة ابن القارض في النبيلة التي كتبها في صدر ذلك الشرح ، فإنه ذكر في صدور الوجود عن القائل وترتيبه : وأن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التي هي مظهر الأهمية وهما معاً صادوان عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير . ويسمون هذا الصدور بالتجلى . وأول مراتب التجليات عندهم تجلى الذات على نفسه ، وهو يتضمن الكمال بإضافة الإيجاد والظهور ، قوله في الحديث الذي يتناقلونه (١) : « كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَاجْبِئْتُ أَنْ أَعْرِفَ فَخَلَقْتَ الْخَلْقَ لِيَعْرِفُونِي » . وهذا الكمال في الإيجاد المنزّل في الوجود وتفصيل الحقائق ، وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية ، وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمال من أهل الملة المحمدية . وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية . ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهباتية وهي مرتبة المثال ، ثم منها العرش ثم الكرسي ثم الأقلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب ، هذا في عالم الرق . فإذا تجلّت فهي في عالم الفتق . ويسمى هذا للذهب مذهب أهل التجلى والمظاهر والحضرات . انتهى ، وهو كلام لا يقتلر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغرضه وانغلاقه . وبعد ما بين كلام صاحب المشاهد

أيضاً حين ما نقوله الإمامية من الشيعة في الأئمة وتقرير هذا الاتحاد في كلامهم على طريقين :

(الأولى) أن ذات القديم كاملة في المحدثات محسوسها ومعقولها متحدة بها في التصورين . وهي كلها مظاهر لها ، وهو القائم عليها ، أي المقوم لوجودها ، بمعنى لولاه كانت عدماً . وهو رأى أهل الحلول .

(الثانية) طريق أهل الوحدة المطلقة وكأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد ، فنفخوا بين القديم وبين المخلوقات في الذات والوجود والصفات ، وغالطوا في غيرية المظاهر المدركة بالحواس والعقل ، بأن ذلك من المدارك البشرية ، وهي أوهام . ولا يريدون الوهم الذي هو قسم العلم والظن والشك . وإنما يريدون أنها كلها عدم في الحقيقة ، وجود في المدرك البشري فقط . ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم لا في الظاهر ولا في الباطن كما نقرره بعد بحسب الامكان . والتحويل في تعقل ذلك على النظر والامتدال كما في المدارك البشرية غير مفيد . لأن ذلك إنما ينقل من المدارك المَلَكِيّة ؛ وإنما هي حاصلة للأنبياء بالقطرة ، ومن بعدهم للأولياء بهدایتهم . وقصد من يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال (١) . وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبه في كشف الوجود وترتيب حقائقه (على طريقة أهل الظاهر) فأتى بالأغمض فالأغمض

(١) هو حديث نفسي ، يحكيه الرسول عن الله تعالى وليس من القرآن الكريم .

(١) من قوله تفصيل وتحقيق إل هنا مثبت في منشورة د. وإلى نقل عن طبعة باريس ، وما بعده مرتبط به .

والوجدان وصاحب الدليل . وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب (فإنه لا يعرف في شيء من مناحيه وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة ، وهو رأى أغرب من الأول في تعلقه وتفاريعه ، ويزعمون فيه أن الوجود (كله) له قوى في تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها . والناصر، إنما كانت بما فيها من القوى ، وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب ، كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر هيولاها وزيادة القوة المعدنية ، ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها ، وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية ، ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة ، وكذا اللوات الروحانية . والقوة الجامعة لكل من غير تفصيل هي القوة الإلهية التي أنبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية بوجعها وأحاطت بها من كل وجه لامن جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة . فالكل واحد وهو نفس الذات الإلهية ، وهي في الحقيقة واحدة بسيطة ، والاعتبار هو الفصل لها كالإنسانية مع الحيوانية . ألا ترى أنها مندرجة فيها وكأنه بكونها . فتارة يملؤها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه ، وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه ، وإنما أوجبها

عندهم الوهم والخيال والذي يظهر من كلام ابن دهاق (١) في تقرير هذا المنصب أن حقيقة مايقولونه في الوحدة شبيه بما تقول الحكمة في الألوان من أن وجودها مشروط . بالضوء ، فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه . وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسى ، بل والموجودات المعقولة والمتوهمة أيضا مشروطة بوجود المدرك العقلى . فإذا الوجود الفصل كله مشروط . بوجود المدرك البشرى . فلو فرضنا عدم المدرك البشرى جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود ، بل هو بسيط . واحد . فالحر والبرد ، والصلابة واللين ، بل والأرض والماء والنار والسماء والكواكب ، إنما وجدت لوجود الحواس للمدركة لها ، لا جعل في المدرك من التفصيل الذى ليس في الوجود وإنما هو في المتأرك فقط . فإذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل ، إنما هو إدراك واحد وهو أنا لا غيره . ويحبرون ذلك بحال النائم فإنه إذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة إلا مايفصله له الخيال . قالوا فكذا يقظان إنما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مُتَرَك (٢) البشرى . ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل . وهذا هو معنى قولهم الوهم ، لا الوهم الذى هو من جملة المدركات البشرية . هذا ملخص رأيهم على مايفهم من كلام ابن دهاق . وهو في غاية السقوط ، لأننا نقطع بوجود

(١) في الطبقات المتأولة وابن دهاق والنبيت عن التبيورة .

(٢) صدر مبنى من أدرك .

إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف منها ، فقال : « جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد ، أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد » . وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي ، وإنما هو من أنواع الخطابة ، وهو بعينه ما نقوله الرافضة (١) في توارث الأئمة عندهم . فانظر كيف سرت طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة (٢) ودانوا به . ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في التقباء ، حتى إنهم لما أسئلوا لباس خرقه التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم ونحلتهم وقفوه على (٣) على رضى الله عنه ، وهو من هذا المعنى أيضاً . وإلا فعل رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة في ثوب ولا حال . بل كان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين (والورع) بشئ ، يؤثر عنه في الخصوص ، بل كان الصحابة كلهم أشوة في الدين (والورع) والزهد والمجاهدة . تشهد بذلك (سيرهم وأخبارهم) . نعم إن الشيعة يخيلون بما ينقلون من ذلك اختصاص على بالفضائل دون من سواه من الصحابة ، ذهاباً مع عقائد الشيع المرفوعة لهم ، والذي يظهر أن المصوفة بالعراق ، لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة وظهر كلامهم في الإمامة وما يرجع إليها مما هو معروف ،

(١) المحصور بين التوسين مشت في منشورة د. وافي نقلا من طبة باريس .

(٢) في جميع الجهات المتناولة « وضوء إلى » .

البلد الذى نحن مسافرون إليه يقينا مع غيبته عن أعيننا ، وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الأشياء الغالبة هنا ، والإنسان قاطع بذلك ، ولا يكابر أحد نفسه في اليقين . مع أن المحققين من المصوفة المتأخرين يقولون إن المريد عند الكشف ربما يعرض له ثوب هذه الوحدة ، ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع . ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الوجودات ويعبرون ذلك بمقام الفرق ، وهو مقام العارف المحقق ، ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهى عقبة صعبة لأنه يخشى على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته . فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة .

(فصل) ثم إن هؤلاء المتأخرين من المصوفة المتكلمين في الكشف وفيها وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه ، وملأوا الصحف منه ، مثل الهروى في كتاب المقامات له وغيره ، وتبهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن الغفيل وابن الفارض والنجم الإسرائيلى في قصائدهم . وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول والإلمية الأئمة ملهياً لم يعرف لأولهم . فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر ، واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم . وظهر في كلام المصوفة القول بالقطب ، ومعناه رأس العارفين ، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان . وقد أشار

فيقول رحمة الله عليه على سبيل المصلحة :
« استشكل الناس لفظ الجحود على كل من وحد
الواحد (١) وللفظ الإلحاد على من نعته ووصفه (٢)
واستبشعوا هذه الآبيات وحملوا على قائلها
واستخفوه .

ونحن نقول على رأى هذه الطائفة إن معنى
التوحيد عندهم انتفاء عين الحوادث بثبوت عين
القدم ؛ وإن الوجود كله حقيقة واحدة وأنيّة (٣)
واحدة . وقد قال أبو سعيد الجزار من كبار القوم :
الحق عين مظهر وعين مابطن . ويرون أن وقوع
التعدد في تلك الحقيقة وجود الأثنيتية ، وهم
باعتبار حضرات الحس بمنزلة صور الضلال والصدأ
والمرأى ، وأن كل ماسوى عين القدم إذا استتبع
فهر علم . وهذا معنى : « كان الله ولا شيء معه »
وهو الآن على ما عليه كان « عندهم . ومعنى قول
لبيد الذى صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم
في قوله : « ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلٌ » .
قالوا فمن وحد ونعت فقد قال بموجدٍ مجدث
هو نفسه ؟ وموجدٍ مجدث هو فعله ؟ وموجدٍ
قديم هو معبود .

وقد تقدم أن معنى التوحيد انتفاء عين الحوادث .
وعين الحوادث الآن ثابتة بل متعددة . والتوحيد
مجحود ، والدعوى كاذبة ؛ كمن يقول لغيره
وهما معا في بيت واحد : ليس في البيت غيرك ،

فاقبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن ،
وجعلوا الإمامة لمياسة الخلق في الانقياد إلى الشرع ،
وأفردوه بذلك ، أن لا يقع اختلاف كما تقرّر
في الشرع . ثم جعلوا القلب لتعليم المعرفة بالله لأنه
رأس العارفين ، وأفردوه بذلك تشبيها بالإمام
في الظاهر ، وأن يكون على وزنه في الباطن ،
وسموه قطبا ، لمدار المعرفة عليه . وجعلوا الأبدال
كالنقباء مبالغة في التشبيه . فتأمل ذلك (١))
من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر القاطمي وماشحنوا
كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام
بني أو إثبات ، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة
والرافضة ومذاهبهم في كتبهم . والله يهدي إلى
الحق .

[(تذييل) وقد رأيت أن أجلب هنا فصلا
من كلام شيخنا العارف كبير الأولياء بالأندلس
أبي مهدي عيسى بن الزيات ، كان يقع له أكثر
الأوقات على أبيات المهروري التي وقعت له في كتاب
المقامات توم القول بالوحدة المطلقة ، أو يكاد
يصرح بها ، وهي قوله :

ماوحد الواحد من واحد

إذا كلُّ من وحد جاهدٌ

توحيد من ينطق عن نَعته

تشبيه أبطالها الواحد

توحيد إياه توحيد

ونعت من ينعت لاجدٌ

(١) المصنوع بين الفوسين مثبت في منشورة د. وافي نقلا
من طبعة باريس ، قد سقط من جميع الطبعات المتعارفة .

(١) أي في قول المهروري : إذ كل من وحده جاحد .
(٢) أي في قول المهروري : ونعت من ينعت لاجد .
(٣) لعله نسبة إلى « أنا » (ضمير المفرد المتكلم المنفصل) .
وقد ذكر استخدام هذا التعبير في أسنة الفلاسفة من قبل ابن خلدون .

عرفت المملأ لا مُشاحة في الألفاظ . والذي يليه
هذا كله تحقق أمر فوق هذا الطور لا نطق ليه
ولا غير عنه . وهذا للقدار من الإشارة كاف .
والتعمق في مثل هذا حجاب . وهو الذي أوقع
في المقالات المعروفة « . انتهى كلام الشيخ أبي
مهدى بن الزيات ونقلته من كتاب الوزير ابن
الخطيب الذي ألقه في المحبة ومباه « التعريف
بالحب الشريف » ، وقد سمعته من شيخنا أبي
مهدى مرارا ، إلا أني رأيت وسوم الكتاب أوعى
له لظول عهدي به والله الموفق (١) .

(فصل) ثم إن كثيرا من الفقهاء وأهل القنيتا
انتلبوا الرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات
وأمثالها ، وشعلوا بالنكير سائر ما وقع لهم في
الطريقة .

والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل . فإن
كلامهم في أربعة مواضع :

أحدا الكلام على المجاهدات وما يحصل من
الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال
تحصل تلك الأذواق التي تصير مقاما ويترق منه
إلى غيره كما قلناه .

وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المذركة
من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والرفرف
والكرسى والملائكة والروح والنبوة والروح وحقائق
كل موجود غائب أو شاهد ، وتركيب الأكوان
في صلوها من موجدتها وتكونها كما مر ،

فيقول الآخر بلسان حاله : لا يصح هذا إلا لو
عدمت أنت .

وقد قال بعض المحققين في قولهم : خلق الله
الزمان ، هذه ألفاظ تتناقض أصولها ، لأن خلق
الزمان متقدم على الزمان ، وهو فعل لا يد من
وقوعه في الزمان . وإنما حمل ذلك ضيق العبارة
عن الحقائق وعجز اللغات عن تأديه الحق فيها
وجها . فإذا تحقق أن الموجد هو الموجد وعدم ماسواه
جملة صبح التوحيد حقيقة . وهذا معنى قولهم :
« لا يعرف الله إلا الله » .

ولا حرج على من وحد الحق مع بقائه الرسوم
والآثار ، وإنما هو من باب « حسنات الأبرار
سيئات المقربين » . لأن ذلك لازم التقييد
والعبودية والشفعية (١) . ومن ترقى إلى مقام
الجمع كان في حقه نقصا مع علمه بمرتبته ، وأنه
تلبس تستلزمه العبودية ويرفعه الشهود ويظهر
من دنس حدوثه عين الجمع .

وأعرق الأصناف في هذا الزعم القائلون بالوحدة
المطلقة ومدار المعرفة بكل اعتبار على الانتهاء إلى
الواحد .

وإنما صدر هذا القول من الناظم على سبيل
التحريض والتنبية والتفطين لتمام أعلى ترتفع
فيه الشفعية ويحصل التوحيد المطلق حين لا خطابا
وعبارة . فمن سلم استراج ، ومن نازعته حقيقته
أنس بقوله : « كنتُ سمعه وبصره » . وإذا

(١) المصدر بين القوسين من قوله « تفصيل » ، إذ هنا جيت
في منشورة من وثائق فلا هو نسخة خطية .

(١) نية إلى الترفع ومن لنفسه والزوج من الأعضاء ،
ويقابله البوتر وهو الواحد وما لم ينتفع من العدد .

وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك ، وهو معلوم مشهور .

وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابه لما أنه وجداني وفاقداً الوجدان عندهم يعزل عن أنوافهم فيه . واللغات لاتعطي دلالة على مرادهم منه ، لأنها لم توضع إلا للمتعارفات وأكثره من المحسوسات . فينبغي أن لا نعرض لكلامهم في ذلك ، ونتركه فيما تركناه من التشابه . ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة .

وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع ، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحسن والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه ، وصاحب الغيبة غير مخاطب^(١) ، والمجور معلور . فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا (وأمثاله) . وإن العبارة عن المواجد صعبة لتفقدها الوضع لها كما وقع لأبي يزيد (البسطامي) وأمثاله . ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك ، إذ لم يتبين لنا ما حملنا على تأويل كلامه . وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضاً . ولهذا أفنى الفقهاء وأكابر الصوفية يقتل العلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله . والله أعلم . وسلف المتصوفة من أهل

وثالثها التصرفات في العوالم والأمكنات بأنواع الكرامات . ورباعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها ، فمفكر ومحسن ومتأول .

فأما الكلام في المعاجدات والمقامات وما يحصل من الأنوار والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لادلف في لأحد ، وأنوافهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة .

وأما الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالغيبات وتصرفهم في الكائنات^(١) . فأمر صحيح غير منكر ، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق . وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة ، فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتخلي ، وهو دعوى وقوع للمعجزة على وفق ما جاء به . قالوا ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقصور ، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية ، فإن صفة نفسها التصديق ، فلن وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال^(٢) . هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات ، وإنكارها نوع مكابرة . وقد

(١) تكلم ابن خلدون في هذه الفقرة على الأمر الثالث من الأمور التي ذكرها سابقاً ، وسيتكلم من الأمر الثاني في الفقرة التالية ، ويعرض بعده للأمر الرابع .

(٢) عرض ابن خلدون لهذه الحقائق نفسها في مثل هذه عبارات الركيزة في المقدمة السادسة من الباب الأول .

(١) ينفي غير مؤاخذ بما صدر عنه وغير مكلف ، وهو تعبير قبيح مشهور يقال مثلاً : للصبى وللجنون غير غاملين .

الرسالة (١) أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ، ولا هذا النوع من الإدراك ، إنما همهم الاتباع والافتداء ما استطاعوا . ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به ، بل يغفرون منه ويرون أنه من العوائق والمعن ، وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث ، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان ، وعلم الله أوسع ، وخلقته أكبر ، وشريعته بالهداية أملك ، فلم ينطقوا بشيء مما يدركون ، بل حظروا الخوض في ذلك ، ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده ، بل يلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والافتداء ، ويأمرون أصحابهم بالالتزام (٢) . وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد . والله أعم بحقيقة الحال .

١٩ - علم تعبير الرؤيا

هذا العلم من العلوم الشرعية ، وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صنائع ، وكتب الناس فيها . وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجوداً في السلف كما هو في الخلف . وربما كان في الملوك والأمم من قبل ، إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين . من أهل الإسلام . وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق ولا بد من تعبيرها . فلقد كان يوسف الصديق

(١) في الآيات ٤٣ - ٤٩ من سورة يوسف .

(٢) مثل وجهه من النبي . وفيه القتل وقتل . انصرف عنه .

(من القاموس) .

(١) يعني : التشريعية .

(٢) تكلم من هذه الصفات مع سائر المتصوفة في أدات

هذا الفصل .

صور في الخيال حالة النوم . لكن إن كانت تلك الصور منتزعة من الروح العقل المدرك فهو رؤيا؛ وإن كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها إياها منذ اللحظة فهي أضغاث أحلام .

وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقل إذا أدرك مدركه وألقاه إلى الخيال فصوره فلما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء ، كما يدرك معنى السلطان الأعظم فيصوره الخيال بصورة البحر ، أو يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية . فاذا استيقظ . وهو لم يعلم من أمره إلا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة ، وأن المدرك ورائها ، وهو يتندى بقرائن أخرى تعين له المدرك ، فيقول مثلا هو السلطان ، لأن البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه به السلطان . وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدو لمظم ضررها . وكذا الأوتى تشبه بالنساء لأنهن أوعية ، وأمثال ذلك . ومن المثل ما يكون صريحا لا يفتقر إلى تعبير لجلالتها ووضوحها أو تقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه . ولهذا وقع في الصحيح : « الرؤيات ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان » . فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل ، والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير ، والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث .

واعلم أيضا أن الخيال إذا ألقى إليه الروح

للروح العقل من الإنسان والروح العقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته ، إذ حقيقته وذاته عين الإدراك . وإنما يمنع من تعقله للمدرك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه . فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع إلى حقيقته ، وهو عين الإدراك ، فيحقل كل مدرك . فإذا تجرد عن بعضها خضت شواغله فلا بد له من إدراك لمحة من علله بقدر ما تجرد له ، وهو في هذه الحالة قد خضت شواغل الحس الظاهر كلها ، وهي الشاغل الأعظم ، فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللاتقة من علله . وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع إلى بدنه ، إذ هو مادام في بدنه جسائى لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسائية ، والمدارك الجسائية للعلم إنما هي الدماغية والتصرف منها هو الخيال ، فإنه ينتزع من الصور المحسوسة صورا خيالية ، ثم يدفعها إلى الحافظة تحفظها له إلى وقت الحاجة إليها عند النظر والاستدلال . وكذلك تجرد النفس منها صورا أخرى نفسانية عقلية ، فيترقى التجريد من المحسوس إلى المحقول ، والخيال واسطة بينهما . ولذلك إذا أدركت النفس من علمها ما تدركه ألقته إلى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ، ويدفعه إلى الحس المشترك فيرله التام كأنه محسوس ، فينتزع المدرك من الروح العقل إلى الحس . والخيال أيضا واسطة . هذه حقيقة الرؤيا .

ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصالحة وأضغاث الأحلام الكافية . فلما كلها

لهذا العهد كتب ابن أنى طالب القيروانى من علماء القيروان مثل «المتع» وغيره ، وكتاب «الإشارة» للسالى . وهو علم مضمون بنور النبوة للمناسبة بينهما ، كما وقع فى الصحيح . والله علام الغيوب .

٢٠ - العلوم العقلية وأصنافها

وأما العلوم العقلية التى هى طبيعية للانسان من حيث إنه ذو فكر فهى غير مختصة بملة . بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون فى مداركها ومباحثها . وهى موجودة فى النوع الإنسانى منذ كان عمران الخليفة . وتسمى هذه العلوم علوم الفلاسفة والحكمة . وهى مشتملة على أربعة علوم . الأول علم المنطق ، وهو علم يعصم اللسان عن الخطأ فى اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة ، وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتصق الناظر فى الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق فى الكائنات بمنتهى فكره . ثم النظر بعد ذلك عندهم إما فى الحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعلن والنهات والحيوان ، والأجسام العقلية والحركات الطبيعية ، والنفس التى تنبثق عنها الحركات وغير ذلك ، ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعى وهو الثالث منها . وإما أن يكون النظر فى الأمور التى وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الإلهى وهو الثالث منها . والعلم الرابع وهو الناظر فى المقادير . ويشتمل

مدركه فإنما بصوره فى القوالب المعتادة للحس ، ما لم يكن الحس أدركه قط . فلا يصور فيه . فلا يمكن من ولد أعمى أن يصور له السلطان بالبحر ، ولا العدو بالحية ، ولا النساء بالأوتى ، لأنه لم يدرك شيئاً من هذه . وإنما يصور له الخيال أمثال هذه فى شبهها ومناسبتها من جنس مداركه التى هى المسموعات والمشمومات . ولتتخلف المعبر من مثل هذا ، فربما اختلط به التعبير ، وفسد قانونه .

ثم إن علم التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبر عبارة مايقص عليه . وتأويله كما يقولون : البحر يدل على السلطان ، وفى موضع آخر يقولون : البحر يدل على النيط ، وفى موضع آخر يقولون : البحر يدل على الهم والأمر القادح ومثل مايقولون : الحية تدل على العدو ، وفى موضع آخر يقولون هى كاتم سر ، وفى موضع آخر يقولون تدل على الحياة . وأمثال ذلك . فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر فى كل موضع بما تقتضيه القرائن التى تعين من هذه القوانين ما هو أكثب بالرؤيا وتلك القرائن منها فى اليقظة ومنها فى النوم ومنها ما ينقدح فى نفس المعبر بالخاصية التى خلقت فيه : «وكل ميسر لما خلق له» . ولم يزل هذا العلم متناقلاً بين السلف . وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه فى ذلك القوانين ، وتناقلها الناس لهذا العهد . وألف الكرماتى فيه من بعده . ثم ألف للتكلمون المتأخرون وأكثروا . والتداول بين أهل المغرب

كتاب الحساب

هي أربعة علوم وتسمى التعاليم : أولها علم الهندسة وهو الناظر في المقادير على الإطلاق : إما المنفصلة من حيث كونها معدودة ، أو المتصلة . وهي : إما ذو بعد واحد وهو الخط ، أو ذو بعدين وهو السطح ، أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التام . ينظر في هذه المقادير وما يعرض لها إما من حيث ذاتها أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض . وثانيهما علم الأرقام (١) وهو معرفة ما يعرض لكم المنفصل الذي هو العدد ، ويؤخذ له من الخواص والخواص اللاحقة . وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد ، وثمرته معرفة تلاحين الغناء رابعها علم الهيئة وهو تعيين الأشكال للأشياء ، وحصر أوضاعها وتعدادها لكل كوكب من السيارة ، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السايوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ، ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها . فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة : المنطق وهو المقدم منها ، ويعدو التعاليم (فالأرقام تأتي أولاً ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى) ، ثم الطبيعيات ، ثم الإلهيات .

والكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك ، ومن فروع النظر في النجوم علم الأحكام النجومية . ونحن نتكلم عليها واحداً بعد واحد إلى آخرها .

واعلم أن أكثر من عني بها . في الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الأمان العظيمتان في الدولة قبل الإسلام وهما فارس والروم . فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفوراً فيهم . . . والدولة والسلطان قبل الإسلام وعصره لهم . فكان لهذه العلوم محور زائفة في آفاقهم وأمصارهم .

وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن حاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتابعها من الطلاسم ، وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان ، فانتشع بها القبط ، وطوى بحرهما فيهم . كما وقع في المتلو من هير هاروت وماروت (١) ، وشأن السحرة (٢) ، وما نقله أهل العلم من شأن البرقي بصعيد مصر . ثم تتابعت الملل بحظر ذلك وتحريمه فلدست علومه وبطلت كيأن لم تكن ، إلا بقايا يتناقلها منتظر هذه الصنائع ، والله أعلم بصحتها ، مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختباؤها .

ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه : فمن فروع الطبيعيات الطب ، ومن فروع علم العدد علم الحساب والقراض والمعاملات ، ومن فروع الهيئة الأزياج وهي قوانين لحسابات حركات

(١) يشير إلى قوله تعالى : « واتبعوا ما تنزل الشياطين من ملك سليمان » الآية ١٠٢ من سورة البقرة . وهذه الآية خاصة بالسحرة الكلدانيين .

(٢) يشير بذلك إلى ما نكاه القرآن الكرم من قصة موسى مع السحرة ، وقد تكررت هذه القصة في أكثر من سورة لحسابات مختلفة .

(١) أريثميتيك أو الأرقام (وهو علم العدد أو الحساب) ومرتبه هذه الكلمة

مقدمة ابن خلدون

بطريقة حسنة في التعليم ، كانوا يقرأون في رواق يظلمهم من الشمس والبرد على ما زعموا . واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط . الدن ، ثم إلى تلميذه أفلاطون ، ثم إلى تلميذه أرسطو ، ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفرودي (١) وتامسطيوس (٢) وغيرهم . وكان أرسطو معلماً للإسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم ، وانتزع الملك من أيديهم . وكان أرسخهم في هذه العلوم قدما وأبعدهم فيها صيتاً ، وكان يسمى المعلم الأول فطار له في العالم ذكر .

ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقيصرية وأخذوا بدين النصرانية ، هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها ، وبقيت في صحنها ودواوينها مختلة باقية في هزائهم . ثم ملكوا الشام ، وكتب هذه العلوم باقية فيهم . ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له ،

وابتزوا الروم ملكهم فجا ابتزوه للأسم وابتدأ أمرهم بالسفاجة والفضلة من الصنائع . حتى تحبب (٣) السلطان والدولة ، وأخذوا من الحضارة بالخطأ الذي لم يكن لتغيرهم من الأمم ، وتفطنوا في الصنائع والعلوم ، تشوقوا إلى الإطلاع على هذه العلوم الحكيم بما سمعوا من الأساقفة والأبسة

(١) هو الإسكندر الأفروديسي أو الأفرودي كما اختبرت نسبتة منه العرب ، وهو من شراح أرسطو وليس من تلاميذه المباشرين ، كما قد توهمه عبارة ابن خلدون .
(٢) من أشهر شراح أرسطو .
(٣) تحبب أو تمكن في المقام والمهلك .

وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم الخلية عندهم عظيماً ونطاقها متسعاً لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك . ولقد يقال إن هذه العلوم إنما وصلت إلى يونان منهم حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم مالا يأخذه العصر . ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتلقيتها للمسلمين . فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء ، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه ، وإن يكن ضللاً فقد كفانا الله ، فطرحوها في الماء أو في النار ، وذهبت علوم الفرس فيها من أن اتصل إلينا (١) . وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً ، وكانت لهذه العلوم بينهم مجال رحب ، وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم ، وانحصر فيها المشاؤون منهم أصحاب الرواق (٢)

(١) ذكر د. وافي أن هذه القصة لم تثبت عنه ثقات المؤرخين ، كما لم تثبت قصة أخرى تشبهها بشأن حرق مكتبة الإسكندرية .
(٢) مقب د. وافي مل ذلك بقوله : المشهور من إطلاق كلمة المشائين على مدرسة أرسطو وتلاميذه . وقد سوا بذلك لأنهم كانوا يتأرسون الفلسفة ويجادلون في إيجاداؤون مدرسة الهيموم . وهم مشاة ، ولأن أرسطو كان يلقى عليهم دروسه وهو يمشي ويرجع . ولما كتبت الروايتين تنطلق على أتباع القمب الرواق وهو معلم زينون السيجوي . وقد سوا بذلك لأنهم كانوا يتأرسون الفلسفة في رواق كبير مقام في ميدان من أكبر ميادين أثينا . فخص إذاً بصد مدرستين مختلفتين ومعلمين فلسفتين مختلفتين . ولكن يظهر أن ابن خلدون ومن سار على نهجه من مؤرخي العرب كان غم في ذلك بعض المبررات . بقية كان أساطين زينون (الرواقون) يتأرسون الفلسفة وهم مشاة كأصحاب أرسطو . انظر تفصيل ذلك في تعليق ١٩٣٧ من تعليقات الدكتور على ميد الرواق وافي .

داخلة ، واستهوت الكثير من الناس عما جنحوا إليها وقلدوا أفعالهم والنزب في ذلك لمن ارتكبه .
« ولو شاء الله ما فعلوه ^(١) » .

ثم إن المغرب والأندلس لا رككت ريح العمران بهما وتناقضت العلوم بتناقضه اضمحل ذلك منها إلا قليلا من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقية من علماء السنة . وبيافنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة ، وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيها وراء النهر ، وأنهم على تيج من علوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم . ولقد وقفت عصر على تأليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني ، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان ، تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل له على أن له اطلاعاً على العلوم الحكيمة وقدماً عالية في سائر الفنون العقلية . والله يؤيد بنصره من يشاء .

كذلك بلغنا لهذا المهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجية من أرض رومة وما إليها من العلوم الشالية نافقة الأسواق ، وأن رسومها هناك متجدة ومجالس تعليمها متعددة ، ودواوينها جامعة متوفرة ، وطلبتها متكررة والله أعلم بما هنالك ، وهو يخلق ما يشاء ويختار .

المعالمين بعض ذكر منها ، وما تسمو إليه أفكار الانسان فيها . فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب أوقليدس ^(١) وبعض كتب الطبيعيات ، فقرأها المسلمون واطَّلَعُوا على ما فيها ، وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها . وجاء المؤمنون بذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصاً ، وأوفد الرسل على ملوك الروم ، في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالحط العربي ، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وحفظ عليها النظار من أهل الإسلام ، وحذقوا في فنونها ، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها ، وحذقوا كثيراً من آراء المعلم الأول ، واختصوه بالرد والقبول ، لوقوف الشهرة عنده ، ودونوا في ذلك الدواوين ، وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم . وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي ، وأبو علي بن سينا بالشرق ، والقاضي أبو الوليد ابن رشد ، والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس ، إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم . واختص هؤلاء بالشهرة والذكر . واقتصر كثيرون على انتحال التعاليم وما ينضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات . ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على مسئلة بن أحمد الجريطي من أهل الأندلس وتلميذه . ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها

(١) أوقليدس Euclid من أشهر علماء الحضرة اليونان . وكان مشاعراً بجملة الإسكندرية القديمة في عهد بطليموس الأول (٢٨٣ - ٢٠٦ ق.م) (والمؤلف الذي يشير إليه ابن خلدون هو كتاب الأصول أو المختصر الأول (ادم د. والي) .

(١) جملة من آية ١٢٧ من سورة الانعام .

ثم للمربعات ثم الخمسمات الخ؛ وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغا ما بلغ . وتحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقرت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد ، فإن لكا منها خواص مختصة به ، فضمتها هذا الفن وليست في غيره .

وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها ، ويدخل في براهين الحساب . وللحكام المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف . وأكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفرّدونه بالتآليف ، فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين . وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور إذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب ، فهجروه لذلك ، بعد أن استخلصوا زيلته في البراهين الحسابية ، كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(ومن فروع علم العدد صناعة الحساب) وهي صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع ، وبالتضخيف (بأن) تضاعف عدداً بأحاد عدد آخر وهذا هو الضرب . والتفريق أيضاً يكون في الأعداد إما بالأفراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح ، أو تفصيل عدد بأجزائه متساوية تكون عندها محصلة (له) وهو القسمة ، وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من

٢١ - العلوم العديدة

وأولها الأرغماطيق وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التآليف إما على التوالي أو بالتضخيف . مثل أن الأعداد إذا تواليت متفاضلة ^(١) بعدد واحد فإن جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عديدين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة إن كانت عدة تلك الأعداد فرداً مثل الأفراد على تواليها والأزواج على تواليها . ومثل أن الأعداد إذا تواليت على نسبة واحدة (بأن) يكون أولها نصف ثانيها ، وثانيها نصف ثالثها الخ ، أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ ، فإن ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عديدين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر . ومثل مربع الواسطة إن كانت العدة فرداً ، مثل أعداد الزوج في الزوج ، وذلك مثل المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر . ومثل ما يحدث من الخواص العديدة في وضع المثلثات العديدة والمربعات والخمسمات والمسدسات إذا وضعت متتالية في سطورها بأن يجمع من الواحد إلى العدد الأخير ، فتكون مثلثة ، وتتوالى المثلثات هكنا في سطر تحت الأضلاع ، ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله ، فتكون مربعة ، وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون مخمسة وهلم جرا ، وتتوالى الأشكال على توالي الأضلاع ، ويحدث جدول ذو طول وعرض : ففى عرضه الأعداد على تواليها ثم المثلثات على تواليها

(١) وهو ما نسميه الآن بالمتواليات العددية .

في أعمال المسائل ، فتأمل . والله يهدي بثورته من يشاء ، وهو القوى المتين .

(ومن فروع الجبر والمقابلة) . وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المقروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك . فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضييف بالضرب . أولها العدد لأن به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول إليه . وثانيها الشيء لأن كل مجهول فهو من جهة إتمامه شيء ، وهو أيضا جنس لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية . وثالثها المال وهو أمر مبهم . وما بعد ذلك فعلى نسبة الأس في المصروبين . ثم يقع العمل المقروض في المسألة فتخرج إلى معادلة بين مختلفين أو أكثر من هذه الأجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحا ويحطون المراتب إلى أقل الأوسم إن أمكن ، حتى يصير إلى الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم ، وهي العدد والشيء والمال . فإن كانت المعادلة بين واحد وواحد تعيين فمالك والجذر يزول لإتمامه بمعادلة العدد وتعيين . والمال وإن حاد الجذور يتعين بعينها . وإن كانت المعادلة بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين وهي مبهم فبمعينها ذلك الضرب الفصل . ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين . وأكثر ما انتهت المعادلة بينهم إلى مسائل ، لأن المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة أو مركبة تجيء مئة وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي ويعد أبو كامل شجاع بن

عدد أو الكسر . ومعنى الكسر نسبة عدد إلى عدد ، وتلك النسبة تسمى كسرا . وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع ، فإن تلك الجذور أيضا يدخلها الضم والتفريق . وهذه الصناعة حادثة احتيج إليها للحساب في المعاملات ، وألف الناس فيها كثيرا ، وتداولوها في الأسفار بالتعليم للولدان . ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لأنها معارف متصلة وبراهين منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء ذرب على الصواب . وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره إنه يغلب عليه الصدق ، لما في الحساب من صحة الباني ومناقشة النفس ، فيصير ذلك خلقا ويتعود الصدق ويلزمه مذهباً . (١) ومن أحسن التكاليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب « الحصار الصغير » ، ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط . لقوانين أعماله مفيد ، ثم شرحه بكتاب سماه « رفع الحجاب » وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة الباني ، وهو كتاب جليل القدر أدركتنا المشيخة تعظمه ، وهو كتاب جليل بذلك ، وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم ، لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها ، وإذا قصد شرحها فإنما هو إعطاء العمل في تلك الأحوال ، وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يرجد

(١) يقب د. وأن يقره : نظرية في الله والله الخلقية للعلوم
Le Moral des Sciences التي ينسبها من نظريات المحدثين
من علماء الهندساجيا قد قال بها ابن خلدون قبل أن يظهر هؤلاء
الهندساجيون بأكثر من أربعة قرون .

فيحتاج في ذلك كله إلى عمل يعين به سهام الفريضة من كم تصح ، وسهام الورثة من كل بطن مصححا حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة ، فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله ، وترتب على ترتيب أبواب القرائن الفقهية مسائلها ، فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه ، وهو أحكام الوراثة من الفروض والعول والإقراز والإنكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها ، وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهمان باعتبار الحكم الفقهي . وهي من أجل العلوم . وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفصلها مثل : « القرائن ثلث العلم » ، و « أنها أول ما يرفع من العلوم » وغير ذلك . وعندى أن ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في القرائن العينية كما تقدم لا فرائض الوراثات ؛ فلها أقل من أن تكون في كنيثها ثلث العلم ، وأما القرائن العينية فكثيرة .

وقد ألف الناس في هذا الفن قدما وحديثا وأوصوا . ومن أحسن التأليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنور والجدى والصدري وغيرهم . لكن الفضل للحوفي ؛ فكتابه مقدم على جميعها . وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله السليمان الشطلي كبير مشيخة فاسي فأوضح وأوعب ؛ ولإمام الحرمين فيها تأليف على مذهب الشافعي

أسلم ، وجاء الناس على أثره فيه . وكتابه في مسائله الست من أحسن الكتب الموضوعة فيه . وشرحه كثير من أهل الأندلس قائلين : ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي . وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق أنبى للمعاملات إلى أكثر من هذه الستة الأجناس وبلغها إلى فوق العشرين واستخرج لها كلها أعمالا وأتبعه ببراہين هندسية . والله « يزيد في الخلق ما يشاء » (١) ، سبحانه وتعالى .

(ومن فروعه أيضا المعاملات) . - وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات ، يصرف في ذلك صناعة الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجنور وغيرها . والفرض من تكثير المسائل المعروضة فيها حصول المران والدرية بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب . ولأهل الصناعة الحسابية من أهل الأندلس تأليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهراوي وابن السمع وأبي مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة المجرى وأمثالهم .

(ومن فروعه أيضا القرائن) . - وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام للوئ القروض في الوراثات إذا تعددت وهلك بعض الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته ، أو زادت القروض عند اجتاعها وتزاحمها على المال كله ، أو كان في الفريضة إقرار وإنكار من بعض الورثة .

(١) من الآية الأولى من سورة فاطر .

تشهد باتساع بابه في العلوم ، ورسوم قلمه .
وكذا للهندسة والحساب . ومقامات الناس في
العلوم مختلفة ، والله يهدي من يشاء عنه وكرمه ،
لأرب سواه .

٢٢ - العلوم الهندسية

هذا العلم هو النظر في المقادير ، إما المتصلة
كالخط ، والسطح والجسم ، وإما المنفصلة كالأعداد
فما يعرض لها من العوارض الذاتية : مثل أن كل
مثلث فزواياه مثل قائعتين ، ومثل أن كل خطين
متوازيين لا يقيعان في وجه ولو خرجا إلى غير
نهاية ، ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان
المتقابلتان منهما متساويتان ، ومثل أن الأربعة
مقادير التناسية ضرب الأول منها في الثالث
كضرب الثاني في الرابع ^(١) وأمثال ذلك .

والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة
كتاب أوقليدس ^(٢) ويسمى كتاب الأصول
وكتاب الأركان ، وهو أبسط . ما وضع فيها
للمتعلمين ، وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين
في الملة أيام أبي جعفر المنصور . ونسخه مختلفة
بإختلاف المترجمين ، فمنها لعنين بن إسحاق
ولثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج . ويشتمل
على خمس عشرة مقالة : أربع في السطوح ؛

وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون
من لم يكن مهندساً فلا يدخل منزلاً . وكان شيوخنا
رحمهم الله يقولون : ممارسة علم الهندسة للفكر
بخشية الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقدار
وينقيه من الأوسار والأدران ، وإنما ذلك لما
أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه .

(ومن فروع هذا الفن الهندسة الخصوصية
بالأشكال الكرية والمخروطات ؛

أما الأشكال الكرية ففيها كتابان من كتاب

(١) « طريق مصحح ابن باهاء المهددة » (الفاروس) .

(١) صوب د . والى ذلك بقوله : وصوابه : ضرب الأول
منها في الرابع كضرب الثاني في الثالث ومثاله : ٥ : ١٥ = ١٠ : ٢٠
كضرب الأول في الرابع أي ٥ × ٢٠ = ١٠٠ يساوي ضرب الثاني
في الثالث أي ١٠ × ١٠ = ١٠٠ .

هذا ويظهر أن موضوع الأعداد المتناسية كان متعمق من مسائل
الهندسة وهو يه الأثر من مسائل الحساب .

(٢) « كتاب الأصول » أو « المصنوع الأول » (والى)

(ومن فروع الهندسة المساحة) . - وهو فن يحتاج إليه في مسح الأرض ، ومعناه استخراج مقدار الأرض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرها أو نسبة أرض من أرض إذا قوبست بمثل ذلك . ويحتاج إلى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والقدن ويساتين الفراسة وفي قسمة الحوائط والأراضي بين الشركاء والورثة وأمثال ذلك . وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة . والله الموفق للصواب بمنه وكرمه .

(الناظر من فروع الهندسة) . - وهو علم يتبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري معرفة كيفية وقوعها بناء على إدراك البصر يكون بخروطه شعاع رأسه يقطعه الباصر وقاعدته الرئي ، ثم يقع الغلط كثيرا في رؤية القريب كجبر والبعد صغيرا وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة ، ورؤية النقطة النازلة من المطر خطا مستقيما ، والشعلة دائرة وأمثال ذلك فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية ، ويتبين به أيضا اختلاف المنظر في القمر باختلاف العروض الذي ينتج عليه معرفة رؤية الألهة وحصول الكسوفات وكثير من أمثال هذا . وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين . وأشهر من ألف فيه من الإسلاميين ابن الهيثم . وغيره فيه أيضا تأليف . وهو مع هذه الرياضة وتعاريفها .

اليونانيين ثاودوسوس (١) وميلاوش (٢) في سطوحها وقطوعها . وكتاب ثاودوسوس مقدم في التعلم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه . ولابد منها لمن يريد الخوض في علم الهيئة لأن براهينها متوقفة عليهما .

فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات كما نذكره ، فقد يتوقف على معرفة أحكام الأشكال الكرية سطوحها وقطوعها . وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا ، وهو علم ينظر فيما يقع في الأجسام المخروطة من الأشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من المواضع ببراهين هندسية متوقفة على التعلم الأول . وفائدتها تظهر في الصنائع العملية التي موادها الأجسام مثل التجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهياكل النادرة ، وكيف يتحيل على جر الأثقال ونقل الهياكل بالهندام والمحال وأمثال ذلك . وقد أفرد بعض المؤلفين في هذا الفن كتابا في الحيل العملية يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستعرفة كل عجيب . وربما استغنى على الفهم لصعوبة براهينه الهندسية . وهو موجود بأيدي الناس ينسبونه إلى بني شاعر . والله تعالى أعلم .

(١) هو ثاودوسوس Thales من أشهر علماء الهندسة اليونان ومن رجال القرن الأول الميلادي .

(٢) هكذا في جميع النسخ وصوابه ميلاوش Mélaüs ويسمى ميلاوش الإسكندري Mélaüs d'Alexandrie وهو من أشهر علماء الهندسة اليونان ومن رجال القرن الأول الميلادي . (د . وان)

٢٣ - علم الهيئة

وأن مطابقة حركة الآلة في الرصد بحركة الافلاك والكواكب إنما هو بالتقريب ولا يعطى التحقيق فإذا طاك الزمان ظهر تفاوت ذلك بالتقريب .

وهذه الهيئة صناعة شريفة . وليست على ما يفهم في المشهور أنها تعطى صورة السماوات وترتيب الافلاك والكواكب بالحقيقة ، بل إنما تعطى أن هذه الصور والهيئات للافلاك لزمّت عن هذه الحركة وأنت تعلم أنه لا يبعد أن يكون الشيء الواحد لازماً لمختلفين . وإن قلنا إن الحركة لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ، ولا يعطى الحقيقة بوجه . على أن علم جليل ، وهو أحد أركان التعاليم ومن أحسن التأليف فيه كتاب للجسطى منسوب لبطليموس ، وليس من ملوك اليونان (١) الذين أسألوهم ببطليموس على ما حققه شراح الكتاب . وقد اختصره الائمة من حكماء الإسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء ولخصه ابن راشد أيضاً من حكماء الاندلس ، وابن السمع ، وابن الصلت في كتاب الاقتصار . ولابن القزغاني هيئة ملخصة قربها وحلف براهينها الهندسية . والله « علم الإنسان ما لم يعلم » (٢) ، صيحانه لا إله إلا هو رب العالمين .

(ومن فروعه علم الازياج) . - وهى صناعة حسابية على قوانين عديدة فيها يخص كل كوكب من طريق حركته ، وما أدى إليه برهان الهيئة

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمحمولة ، ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع الافلاك لزمّت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية ، كما يبرهن على أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الإقبال والإدبار ، وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الأعظم ، وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة ، وكما يبرهن على تعدد الافلاك للكوكب الواحد بتمدد الميول له ، وأمثال ذلك وإدراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها إنما هو بالرصد ، فلما إنما علمنا حركة الاقبال والإدبار به ، وكلنا تركيب الافلاك في طبقاتها وكلنا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك . وكان اليونانيون يحنون بالرصد كثيراً ويتخلون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين ، وكانت تسمى عندهم ذات الحلق ، وصناعة عملها والبراهين عليه في مطابقة حركتها بحركة الفلك منقول بإيدى الناس . وأما في الإسلام فلم تقع به عناية إلا في القليل ، وكان في أيام المأمون شيء منه ، وصنع الآلة المعروفة للرصد للمساء ذات الحلق ، وشرع في ذلك فلم يتم . ولما مات ذهب رسمه وأفضل واحتشد من بعده على الارصاد القديمة ، وليست غنية باختلاف الحركات باتصال الاحقاب

(١) يقصد الذين حكموا مصر بهد الاسكندر وهم المروغون بالبطالة .
(٢) الآية « من سرور العلق »

نبتيه بعد وتوضح فيه أدلتهم (١) إن شاء الله تعالى . والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه .

٢٤ - علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من القاسد في الحدود المعرفة للماهيات ، والحجج القليلة للتصديقات . وذلك أن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس . وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره . وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات ، وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الأشخاص المحسوسة ، وهي الكلي . ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض ، فيحصل له صورة تنطبق أيضا عليهما باعتبار ما اتفقا فيه . ولا يتركز يرتقى في التجريد إلى الكل الذي لا يجد كليا آخر معه يوافقه ، فيكون لأجل ذلك بسيطا . وهذا مثل ما يجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطبقة عليها ، ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة عليهما ، ثم بينهما وبين النبات إلى أن ينتهي إلى الجنس العالى ، وهو الجوهر ، فلا يجد كليا يوافقه في شيء فيقف العقل هناك عن التجريد . ثم إن الإنسان لما خلق الله له الفكر الذى به يدرك العلوم والصنائع ، وكان العلم إما تصورا للماهيات ويعنى به إدراك صافج من

في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك ، يعرف به الكواكب في أفلاكها لأى وقت فرض من قبل حساب حركاتها ، على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة .

ولهذه الصناعة قوانين كالقدمات والأصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض والميل وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض ، يضعونها في جداول مرتبة تسهلا على المتعلمين ، وتسمى الأزياج . ويسمى استخراج موضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلا وتقويما . وللناس فيه تأليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البثانى وابن الكماد ، وقد حول المتأخرون لهذا المهمل بالمغرب على زيغ منسوب لابن إسحاق من منجمى تونس في أول المائة السابعة . ويزعمون أن ابن إسحاق حول فيه على الرصد ، وأن يهوديا كان بصقلية ماهرا في الهيئة والتعالم ، وكان قد عنى بالرصد ، وكان يبحث إليه بما يقع من أحوال الكواكب وحركاتها . فكان أهل المغرب لذلك هنوا به لوثاقه مبناه على ما يزعمون . ولخصه ابن البناء في آخر سماه المنهاج . فولع به الناس لما سهل من الأعمال فيه . وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتنبئ عليها الأحكام النجومية وهو معرفة الآثار التى تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان من الملك والدول والمواليد البشرية كما

(١) سيكلم على ذلك في الفصل التاسع والعشرين من هذا الباب وهو الفصل الخامس بطول السمر والطلبات .

الذى يفيد ، وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ، ومن أى جنس يكون من العلم أو من الظن ، وقد ينظر فى القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة . ويقال للنظر الأول إنه من حيث المادة ونعنى به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن ، ويقال للنظر الثانى إنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق . فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية :

الأول فى الأجناس العالية التى ينتهى إليها تجريد المحسوسات وهى التى ليس فوقها جنس ويسمى كتاب : المقولات .

والثانى فى القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب : العبارة .

والثالث فى القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى : كتاب القياس ، وهذا آخر النظر من حيث الصورة .

ثم الرابع : كتاب البرهان وهو النظر فى القياس المنتج لليقين ، وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية ، ويختص بشروط . أخرى لإفادة اليقين مذكورة فيه ، مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك . وفى هذا الكتاب الكلام فى المعارف والحدود ، إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والحدود لا تحتمل غيرها ، فذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب .

والخامس : كتاب الجدل وهو القياس المقيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات . ويختص أيضاً من جهة إفادته

غير حكم مع ، وإما تصديقا أى حكما بثبوت أمر لأمر ، فصار معنى الفكر فى تحصيل المطلوبات ؛ إما بأن تجمع تلك الكليات بعضها إلى بعض على جهة التأليف ، فتحصل صورة فى اللحن كلية منطبقة على أفراد فى الخارج ، فتكون تلك الصورة اللحنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص ، وإما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا وغايته فى الحقيقة راجعة إلى التصور ، لأن فائدة ذلك إذا حصل إنما هى معرفة حقائق الأشياء التى هى مقتضى العلم وهذا المعنى من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد . فاقضى ذلك تمييز الطريق الذى يسمى به الفكر فى تحصيل المطالب العلمية ليعتبر فيها الصحيح من الفاسد . فكان ذلك قانون المنطق .

وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جُملاً جُملاً ومفترقا ، ولم تهذب طرقة ولم تجمع مسائله حتى ظهر فى يونان أرسطو ، فهذب مباحثه ، ورثب مسائله وقصوله ، وجعله أول العلوم الحكيمية وفاتحها . ولذلك يسمى بالمعلم الأول وكتابه للمخصوص بالمنطق يسمى النص^(١) ، وهو يشتمل على ثمانية كتب : أربعة منها فى صورة القياس ، وأربعة فى مادته . وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء : فمتى ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ، ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن ، وهو على مراتب فينظر فى القياس من حيث المطلوب

(١) يصوب د . وافى ذلك بقوله : اسم كتابه « الأورجانون » Organon ومعنى هذه الكلمة باليونانية « الألة » Outil أى إنه آلة تصمم الفكر من الخطأ . فترجمته « بالنس » غير صحيحة .

ثم جاء الشارحون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرسوم ، نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات ، لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات ، وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس ، لأنه مع توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه .

ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادته ، وحذفوا النظر فيه بحسب المادة ، وهي الكتب الخمسة : البرهان والجلد والخطابة والشعر والفسفة . وربما يلم بعضهم باليسير منها إلماً ، وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن (١) .

ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاماً مستبحراً ونظروا فيه من حيث إنه فن برأسه لا من حيث إنه آلة للعلوم ، فطال الكلام فيه واتسع . وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ، ومن بعده أفضل الدين الخونجى ، وعلى كتبه معتمد المشاركة لهذا العهد ، وله في هذه الصناعة كتاب «كشف الأسرار» وهو طويل ، واختصر فيها مختصر «الموجز» وهو حسن في التعليم ، ثم مختصر «الجمال» (٢) في قدر أربعة أوراق أخذ بمجامع الفن وأصوله ، فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به ، وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم

لهذا الغرض بشروط أخرى مع حيث إفادته لهذا الغرض وهي مذكورة هناك . وفي هذا الكتاب يذكر المواضيع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه حكوم القضايا .

والسادس: كتاب السفسطة ، وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويقالط به المناظر صاحبه وهو فاسد . وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطى فيحذر منه .

والسابع : كتاب الخطابة وهو القياس المقيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات .

والثامن : كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على شيء أو النفرة عنه ، وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية .

هذه هي كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين . ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت ، رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور (١) فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن فصارت تسماً ، وترجمت كلها في اللغة الإسلامية . وكتبها وتداولها فلاسفة الإسلام بالشرح كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس . ولابن سينا كتاب «الشفاء» استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها (٢) .

(١) ينى أغفلوها مع أنها المهم المعتمد في الفن .

(٢) حكناً في جميع النسخ ، ورجع د . وأن أن الكلمة هرة عن كلمة «الجميل» .

(١) وهي الجنس والفصل والفرع والمخاصة والفرع .

(٢) انظر تفصيل هذه الموضوعات في تطبيق الدكتور هل عبد الواحد رفاق ص ١٢٢٩ من منشورته .

«وَقَوْفَ كُلِّ نَبِيٍّ ظُلُمٌ عَلَيْمُ» (١) ، ، والله يَهْدِي
من يشاء إلى صراط مستقيم» (٢) .

٢٦ - علم الطب

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي
صناعة تنتظر في بدن الإنسان من حيث يمرض
ويصح ، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء
المرض بالأدوية والأغذية ، بعد أن يتبين المرض
الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن ، وأسباب
تلك الأمراض التي تنشأ عنها ، وما لكل مرض
من الأدوية ، مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية
وقواها ، وعلى المرض بالعلامات المؤدنة بنفسه
وقبوله الدواء أولاً في السجبة والفضلات والنبض ،
محاذين لذلك قوة الطبيعة ، فإنها المدبرة في حالي
الصحة والمرض ، وإنما الطبيب يحاذيها ويميناها
بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل
والسن . ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب .
وربما أفردوا بعض الأعضاء بالكلام وجعلوه
علماً خاصاً كالعين وعلها وأكحالها . وكذلك
ألقوا بالسن من منافع الأعضاء (٣) ومنعها
المنفعة التي لأجلها خلق كل عضو من أعضاء البدن
الحيواني ، وإن لم يكن ذلك من موضوع علم
الطب ، إلا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه .

كان لم تكن ، وهي مشتقة من ثمرة المنطق وقائده
كما قلناه والله الهادي للصواب .

٢٥ - الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه
من الحركة والسكون ، فينتظر في الأجسام السايوية
والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات
ومعدن ، وما يتكون في الأرض من العيون والزئزال
وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق
والصواعق وغير ذلك ، وفي مبدأ الحركة للأجسام
وهو النفس على تنوعها في الإنسان والحيوان
والنبات . وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدي
الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلاسفة أيام
المأمون ، وألف الناس على حلوه .

وأوهب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب
الشفاء . جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما
قدمناه ، ثم لخصه في «كتاب النجاة» ، وفي كتاب
الإشارات ، وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من
مسائلها ويقول برأيه فيها .

وأما ابن رشد فلخص كتب أرسطو وشرحها
متبعاً له غير مخالف . وألف الناس في ذلك كثيراً ،
لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة
في الصناعة .

ولأهل المشرق حناية يكتب الإشارات لابن
سينا ، وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن ،
وكذا الأمدى ، وشرحه أيضاً نصير الدين الطوسي
المعروف بخواجه من أهل المشرق ، وبحث مع
الإمام في كثير من مسائله فأوفى على أنظاره ويحونه

(١) آخر آية ٧٦ من سورة يوسف .

(٢) آخر آية ٢١٣ من سورة البقرة .

(٣) هو علم الفيزيولوجيا أو وظائف الأعضاء Phymologie

وهو الأساس الذي عليه فن الطب ويظهر أن في هذه الجلة تحريفاً
وصواباً : وكذلك الحقوا بالالف في منافع الأعضاء (د) (و) (ي)

ولا غيره من العاديات ، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع ، فقال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » (١) . فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع ، فليس هناك ما يدلك عليه ، اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيماني ، فيكون له أثر عظيم في النفع . وليس ذلك في الطب المزاجي ، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية ، كما وقع في مداواة الميطون بالمثل . والله الهادي إلى الصواب لأرب سواه .

٢٧ - الفلاحة

هذه الصناعة من فروع الطببيعات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوهه بالسقي والعلاج وتعمده بمثل ذلك . وكان للمتقدمين بها عناية كبيرة ، وكان النظر فيها عندهم هاماً في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة هوائه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهيكل المستعمل ذلك كله في باب السحر . فعمظت عنايتهم به لأجل ذلك . وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط . مشتملة من ذلك على علم كبير . ولما نظر أهل الملّة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب ، وكان باب السحر مسلوداً ، والنظر فيه محظوراً ، فاقصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك ، وحذفوا الكلام

وإمام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الأقدمين جالينوس . يقال إنه كان معاصراً لميكي عليه السلام ، ويقال إنه مات بصقلية في سبيل تغلب ومطامعة اختراب (١) ، وتأليفه فيها هي الأمهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده . وكان في الإسلام في هذه الصناعة أئمة جاؤوا من وراءه الغاية ، مثل الرازي والمجوسي وابن سينا ، ومن أهل الأندلس أيضاً كثير وأشهرهم ابن زهر . وهي لهذا العهد في المدن الإسلامية كلّها نقصت لوقوف العمران وتناقصه ، وهي من الصنائع التي لاتستدعيها إلا الحضارة والترف كما نبينه بعد .

(فصل) وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه . وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج . وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحرث ابن كلدة وغيره . والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل ، وليس من الوحي في شيء ، وإنما هو أمر كان عادياً للعرب ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبة ، لامن جهة أن ذلك النحو من العمل . فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب

(١) انظر تحقيق د. وافي حل ما ذكره ابن خلدون بشأن جالينوس وتحسينه لما قاله عنه في مشروحه ١٢٤٢ .

(١) انظر تحقيق د. وافي حل ما ذكره ابن خلدون بشأن جالينوس وتحسينه لما قاله عنه في مشروحه ١٢٤٢ .

في القرن الآخر منه جملة . واختصر ابن النعمان كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج ، وبقي القرن الآخر منه مقفلاً ، نقل منه مسلمة في كتبه السحرية أمهات من مسائله كما نذكره عند الكلام عن السحر إن شاء الله تعالى .

وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعملون فيها الكلام في الفرائض والملاحة وحفظ الثبات من حوائجه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله ، وهي موجودة .

٢٨ - علم الإلهيات

وهو علم ينظر في الوجود المطلق . فلولاً في الأمور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان وغير ذلك ، ثم ينظر في مبادئ الموجودات وأنها روحانيات ، ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ، ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها إلى المبدأ . وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه ، وأن ذلك عين السعادة في زعمهم . وسيأتي الرد عليهم وهو تال للطبيعيات في ترتيبهم . ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعة وكتب المعلم الأول موجودة بين أيدي الناس ^(١) ولخصه ابن سينا في كتاب : الشفاء ، والنجاة وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الأندلس .

ولما وضع المتأخرون في علوم القوم ودوتوا فيها ورد عليهم النزالي ما رد منها ، ثم خطط المتأخرون

(١) لأرسطو في ذلك كتاب مشهور هو « الميتافيزيقا » (أي علومه الكلية) .

من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلاسفة ، لعروضها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الآلهيات ومسائل بمسائلها ، فصارت كلها فن واحد . ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والآلهيات وخطوهم فناً واحداً . قلدوا الكلام في الأمور العامة ، ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها إلى آخر العلم كما فعله الإمام ابن الخطيب في المباحث الشرقية ، وجميع من بعده من علماء الكلام .

وصار علم الكلام مختلطاً بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كأن الغرض من موضوعها ومسائلها واحد ، والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب ؛ لأن مسائل علم الكلام إنما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه ، بمعنى أنها لا تثبت إلا به ^(١) ، فإن العقل مزول عن الشرع وأنظاره ، وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها ، فالتعليل بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلاسفة ، بل إنما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الإيمان . وملاهب السلف فيها ، وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية ، وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة العقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها ؛ وكثير ما بين المقامين . وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن

(١) تفسير لأشهر التي يورد فيها على العقل .

مختلفة . وأبعدها مع جنس القنود والمعلوم مدارك
للتصوفة ، لأنهم يدعون فيها الوجدان ويفررون
عن الدليل ، والوجدان بعيد عن المدارك العلمية
وأبحاثها وتوابعها كما بيناه وفيناه . والله يهدي
من يشاء إلى صراط مستقيم . والله أعلم بالصواب .
٢٩ - علوم السحر والطلسمات

هي علوم بكيفية استمدادات تقتلر النفوس
البشرية بما على التأثيرات في عالم العناصر ، إما
بغير معين أو بعين من الأمور الساهرة : الأول ،
هو السحر ، والثاني هو الطلسمات .

ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما
فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى
غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقود
بين الناس ، إلا ما وجد في كتب الأمم القديمة
فيما قبل نبوة موسى عليه السلام ، مثل التبط،
الكلدانيين ، فإن جميع من تقدمه من الأنبياء
لم يشرعوا الشرائع ولا جأوا بالأحكام ، إنما
كانت كتبهم مواظ. وتوحيداً لله وتذكيراً بالجنة
والنار .

وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين
والكلدانين ، وفي أهل مصر من القبط، وغيرهم
وكان لهم فيها التأليف والآثار ، ولم يترجم لنا
من كتبهم فيها إلا القليل مثل الفلاحة النبطية
من أوضاع أهل بابل . فأخذ الناس منها هذا العلم
وتقننوا فيه ، ووضعت بعد ذلك الأوضاع مثل
مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندي
في صورة الدرج والكواكب وغيرهم .

مدارك الأنظار العقلية ، فهي فرتها ومحطة بها
لاستمدادها من الأنوار الآلهية ، فلا تدخل تحت
قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها .
فإذا هدانا الشارع إلى مذك فينبغي أن نقلعه
على مداركتنا ونثق به دونها ، ولا ننظر في تصحيحه
مدارك العقل ولو عارضه ، بل نعتد ما أمرنا
به اعتقاداً وعلماً ، ونسكت عما لم نفهم من ذلك
ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه . والمتكلمون
إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات
العقائد السلفية بالبدع النظرية ، فاحتاجوا إلى
الرد عليهم من جنس معارضتهم ، واستدعى ذلك
الحجج النظرية ، ومحاذاة العقائد السلفية بها .

وأما النظر في مسائل الطبيعيات والآلهيات
بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع علم
الكلام ، ولا من جنس أنظار المتكلمين . فاعلم
ذلك لتمييز به بين الفنين فإنهما مختلطان عند
التأخرين في الوضع والتأليف . والحق مغايرة كل
منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل .

وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند
الاستدلال ، وصار احتجاج أهل الكلام كأنه
إنشاء لطلب الاعداد بالدليل ، وليس كذلك بل
إنما هو رد على الملحدين ، والمطلوب مفروض
الصدق معلوم . كلما جاء المتأخرون من غلاة
للتصوفة المتكلمين بالمواد أيضاً فخلطوا مسائل
الفتنين بفنهم وجعلوا الكلام واحداً فيها كلها
مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة
وغير ذلك . والمدارك في هذه القنود الثلاثة متغايرة

ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصنف كتب القوم واستخرج الصناعة ، وغاص على زيتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التآليف ، وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السجياء لأنها من ثوابها ، لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لابلصناعة العملية ، فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه .

ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه «غاية الحكيم» . ولم يكتب أحدي هذا العلم بعده . ولنقدم هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر وذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنسوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الصنف الآخر ، وصارت تلك الخواص فطرة وجيلة لصنفها . فنفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصة تستمد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر ، وما يتبع ذلك من التأثير في الأكوان . (ونفس السحرة لها خاصية التأثير في الأكوان) واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية . فلما تأثير الأنبياء فبمدد إلهي وخاصية ربانية . ونفس الكهنة لها خاصية الاطلاع على الغيبات بقوى شيطانية . وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر .

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاثة يأتي شرحها . فقولها المؤثر بالهمة فقط . من خير آلة ولا معين ، وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر . والثاني معين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطليسات ، وهو أضعف رتبة من الأول . والثالث تأثير في القوى المتخيلة ؛ يعتمد هذا التأثير إلى القوى للتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعاً من الخيالات والمحاكاة وصوراً مما يقصده من ذلك ، ثم ينزلها إلى الحص من الراتين بقوة نفسه المؤثرة فيه ، فينظر الراقون كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك ، كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والأشجار والقصور وليس هناك شيء من ذلك . ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعذة أو الشعبة .

هذا تفصيل مراتبه . ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها ؛ وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة . ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل ، فهي لذلك وجهة إلى غير الله وسجود له . والوجهة إلى غير الله كفر . فلهذا كان السحر كفراً . والكفر من مواده وأسبابه كما رأيت . ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد في الأكوان : والكل حاصل منه .

قالت عائشة رضى الله عنها : فكان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا انحلت (١)

وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير ، ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار . وكان للسحر في بابل ومصر أزمان يثقه موسى عليه السلام أسواق نافقة . ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يلحون ويتناغون فيه ، وبقي من آثار ذلك في البراري بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك . ووأينا بالميان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور ، وأمثال تلك المعاني من أساء وصفات في التأليف والتفريق ، ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور حيناً أو معنى ، ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السود ، ويعقد على ذلك المعنى في سبب (٢) أهله لذلك تفاؤلاً بالعقد والزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفسه في فعله ذلك ، استشعاراً للزعة بالزعم (٣) وتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفث متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث ، فتنزول عنها أرواح خبيثة ، ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر . وشاهدنا أيضاً من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى

ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لها حقيقة في الخارج ، والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها ، اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو إنما هو تخيل : فالقاتلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين ، والقاتلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة والأخيرة . فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر ، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم .

واعلم أن وجود السحر لامرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه ، وقد نطق به القرآن . قال الله تعالى : «ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله (١) » . وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ، وجعل سحره في مُسقط، ومُشاهقه (٢) وجُفَّ (٣) طلعة (٤) ودفن في بئر ذروان (٥) . فأنزل الله عز وجل عليه في الموعذتين . «ومن شر النفاثات في العقد» .

(١) آية ١٠٢ من سورة البقرة .

(٢) والمُشاهقه كلمة مأخوذة من الشرح من المُسقط (التاموس)

(٣) الجفَّ بالهم وعاء التلغ في التخل أي شغلوه (من التاموس) .

(٤) التلغ بالفتح مايلع من التلعة ثم يصير ثمراً إن كانت أنثى ، وإن كانت التلعة ذكراً لم يصير ثمراً .

(٥) «وبئر ذروان مدينة ، أو هو ذو أروان يسكون وراء وتيل يسمونهك أمح» (التاموس) .

(١) انظر تفصيل هذه الفقه في ص ١٢٥١ فذكرنا كل حد الواسع وأن (الجزء الثالث ، طبعة لجنة البيان العربي) .

(٢) السبب الخيل . ولما كان الخيل يتوصل به إلى الاستسلام

فقد استعملت كلمة السبب لكل شيء يتوصل به إلى أمر من الأمور .

(٣) مرجع د. وأن كان يكون في هذه الجملة مسقط أو تحريف .

إصبع صورة أسد شائلا ذئبه حاشا على حصة قد قسمها بنصفين ، وبين يديه صورة حية مناسبة من رجله إلى قبالة وجهه فاغرة فاعا إلى فيه ، وعلى ظهره صورة عقرب تدب ، ويتحين يرسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد ، بشرطه صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس ؛ فإذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المتقال فما دونه من الذهب ، وغمس بعدد في الزعفران محولا بماء الورد ، ورفع في خرقه حرير صفراء ؛ فلهم يزعمون أن لمسكه من الغز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له مالا يعبر عنه ، وكذلك للسلاطين فيه من القوة والغز على من تحت أيديهم . ذكر ذلك أيضا أمل هذا الشأن في العناية وغيرها ، وشهدت له التجربة . وكذلك وفق المدس المختص بالشمس : ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ، ويصلح فيه ما يكون في مواليد الملوك من الأدلة الشريفة ، ويرفع في خرقه حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب ؛ فزعموا أن له أثرا في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم . وأمثال ذلك كثير .

وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطي هو مؤونة هذه الصناعة وفيه استيفائها وكمال مسائلها . وذكر لنا أن الإمام الفخر بن الخطيب وضع كتابا في ذلك وسماه بالمر المكتم ، وأنه بالشرق يتداوله أهله ؛ ونحن لم نقف عليه ، والإمام لم يكن من

كساء أو جلد ويتكلم عليه في صره فإذا هو مقطوع معقرق . ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبحر فإذا أعمأوها ساقطة من بطونها إلى الأرض . وصمنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فينتحت قلبه ويقع ميتا وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ؛ ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حيوها شيء . وكذلك صمنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة . وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد للتحابة ، وهي . ولرفضه ؛ أحد العددين مائتان وعشرون ، والآخر مائتان وأربعة وثمانون . ومعنى التحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وربع وثلث وسدس وخمس وأمثاله إذا جمع كان مساويا للعدد الآخر صاحبه ؛ فتسمى لأجل ذلك التحابة . ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثرا في الألفة بين المتحابين واجتماعهما ؛ إذا وضع لهما تمثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظر مودة وقبول ، ويجعل طالع الثاني سابع الأول ، فيوضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر . ويقصد بالأكثر الذي يراد اتلافه أعني المحبوب . ما أدرى الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء . فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد يتفك أحدهما عن الآخر . قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن ؛ وشهدت له التجربة . وكنا طابع الأسد ، ويسمى أيضا طابع الحما ، وهو أن يرسم في قالب هند

الجنسية ، بل آثار عارضة من كفيات الأرواح نارة كالمسخرة الحادثة عن الفرح والسرور ، ومن جهة التصورات النفسانية أخرى كالمشي بقع من قبل النوم ، فإن الماشي على حرف حائط أو على جبل منتصب إذا قوى عنده نوم السقوط سقط بلا شك . ولهذا تجد كثيرا من الناس يعودون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الهم ، فتجدهم يمشون على حرف الحائط . والجبل المنتصب ولا يخافون السقوط . فثبت أن ذلك من آثار النفس الإنسانية وتصورها للسقوط من أجل الهم . وإذا كان ذلك أثرا للنفس في بنائها من غير الأسباب الجنسية الطبيعية فجائز أن يكون لها مثل هذا الأثر في غير بنائها ، إذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة ، لأنها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه ، فثبت أنها مؤثرة في سائر الأجسام .

وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين ، وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر ، كما يقوله المنجمون . ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ، ومعناه عندهم ربط الطلسمات العلوية السابوية بالطلسمات السفلية ، والطلسمات العلوية هي روحانيات الكواكب ، ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة . والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك

أئمة الشأن فبا نظن ، ولعل الأمر بخلاف ذلك . وبالغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين ، وهم الذين ذكرت أولا أنهم يسيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق ، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج . ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام ، يهرب بذلك أهلها ليطهوه من فضلها وهم متمسكون بذلك في الثابة خوفا على أنفسهم من الحكام . لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك .

وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة خاصة يدعوات كفرية وإشراك الروحانيات الجن والكواكب ، سلطت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدراسونها ، وأن هذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال لهم ، وأن التأثير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحر . من المتاع والحيوان والرقيق ، ويمضون عن ذلك بقولهم إنما نفعنا فيما نتمشى فيه الدرام ، أي ما يملك ويباع ويشترى من سائر الممتلكات ، وهذا ما زعموه . وسألت بعضهم فاجتنبى به . وأما أفعالهم فظاهرة موجودة ، وقفنا على الكثير منها وعابنتها من غير ريبة في ذلك . هذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما في العالم .

فأما القلاسة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنها جميعا أثر للنفس الإنسانية ، واستدلوا على وجود الأثر للنفس الإنسانية بأن لهما آثارا في بنائها على غير المجرى الطبيعي وأسبابه

الجملة المختصة بذلك النوع من التأثير . والفرق
عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة إلهية
تبعث في النفس ذلك التأثير ؛ فهو مؤيد بروح
الله على فعله ذلك . والساحر إنما يفعل ذلك من
عند نفسه ويقوته النفسانية بإمداد الشياطين
في بعض الأحوال . فبينهما الفرق في العقولية
والحقيقة والذات في نفس الأمر . وإنما نستدل
لحقن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي : وجود
المعجزة لصاحب الخير ، وفي مقاصد الخير ،
وللنفوس المتحضرة للخير ، والتحدى بها على
دهوى النبوة ؛ والسحر إنما يوجد لصاحب الشر ،
وفي أفعال الشر في الغالب ، من التفريق بين
الزوجين وضرر الأعداء وأمثال ذلك ، وللنفوس
المتحضرة للشر . هذا هو الفرق بينهما عند
الحكماء الإلهيين .

وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات
تأثير أيضا في أحوال العالم ، وليس معدودا من
جنس السحر ، وإنما هو بالإمداد الإلهي ؛ لأن
طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها . ولهم
في المدد الإلهي حظ . على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم
بكلمة الله . وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر
فلا يأتيها لأنه متقيد بما يأتيه ويذره للأمر الإلهي .
فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتيونه بوجه ، ومن
أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب
حاله .

ولا كانت المعجزة بإمداد روح الله والتقوى
الإلهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر . وانظر

شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف
تلقت ما كانوا يفتكون ، وذهب سحرهم واضمحل
كأن لم يكن . وكذلك لما أنزل على النبي صلى الله
عليه وسلم في المعوذتين « ومن شر الفئانات في القدء »
قالت عائشة رضي الله عنها : « فكان لا يقرؤها
على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت » .
فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره وقد نقل
المؤرخون أن زركش كاريان وهي راية كسرى كان
فيها الوقي الثمين العلدي منسوجا بالذهب في أوضاع
فلكية رصدت لذلك الوقت ، ووجدت الرابية يوم
قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انزمام
أهل فارس وشتاتهم . وهو فيما تزعم أهل الطلسمات
والأوراق مخصوص بالغلب في الحروب ، وأن الربة
التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلا . إلا أن
هذه عارضها المدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وتمسكهم بكلمة الله ،
فانحل معها كل عقد سحري ولم يثبت ، « وبطل
ما كانوا يعمالون » (١) .

وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات ،
وجعلته كله بابا واحدا محظورا . لأن الأفعال إنما
أباح لنا الشارع منها ما يهمننا في ديننا الذي فيه
صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح
دنيانا . وما لا يهمننا في شيء منهما : فإن كان
فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره
بالوقوع ويلحق به الطلسمات . لأن أثرهما واحد
وكانت الجماعة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير

(١) آخر آية ١١٨ من سورة الأعراف .

يستحسن بعينه مدركا من اللوات أو الأحوال ، ويفرط . في استحسانه ، وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عن التصرف به ، فيؤثر فساد . وهو جملة فطرية أعنى هذه الإصابة بالعين . والفرق بينها وبين التأثيرات [التفسيرية] أن صدور فطري جلي لا يتخلف ولا يرجع إلى اختيار صاحبه ولا يكتبه . وسائر التأثيرات [] وإن كل منها مالا يكتبه فصدورها راجع إلى اختيار قائلها ، والفطري منها قوة صدورها لا نفس صدورها . ولهذا قالوا القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل ، والقاتل بالعين لا يقتل ، وما ذلك إلا لأنه ليس مما يريد ويقتله أو يتركه وإنما هو مجبور في صدوره عنه . والله أعلم بما في الغيوب ، ومطلع على ما في السرائر (١) .

٣١ - علم الكيمياء

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون (٢) الذهب والنهب والفضة بالصناعة ، ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك ، فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لطهم يثرون على المادة المستعملة لذلك ، حتى من الفضلات الحيوانية كالظلم والريش والبيض والعلرات فضلا عن المعادن ، ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل مثل حل الأجسام إلى

تفسد العقيدة الأتمانية برد الأمور إلى غير الله ، فيكون حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبه في الضرر ، وإن لم يكن مها علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من تركه قربا إلى الله ، فإن « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (١) . فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا لما فيها من الضرر ، ونصته بالحظر والتحريم . وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذي ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التحلى وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه . قالوا : والسحر مصروف عن مثل هذا التحلى فلا يقع منه وقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية ، لأن صفة نفسها التصديق وفلوقعت مع الكذب لاستحالة الصادق كاذبا وهو محال ، فإذا لائق المعجزة مع الكاذب باطلاق . وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشرق نهاية الطرفين . فالسحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير ، وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر ، وكأتهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما . والله يهدي من يشاء ، وهو القوى العزيز لأرب سواه .

• • •

ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الإصابة بالعين وهو تأثير من نفس الميمان (٢) ، عندما (١) حيث شريف .
(٢) رجل ميمان وعيون شديدة الإصابة بالعين بجمه من (التاموس) .

(١) وقد خصص ابن خلدون الفصل الثلاثين من هذا الباب الكلام على أسرار الحروف وعمل الخيرية في حوال خمسين صفحة . ولا كانت هذه الأمور لا أهمية لها مطلقا في عصر الخاضع فضلا عما فيها من صوبية وتمقية . لذا أتركها حلقه . ونحيل من يريد إلى أول الجزء الرابع من طبعة لجنة البيان بتحقيق د . وافي (٢) من وجود الذهب والفضة بالصناعة .

أجزائها الطبيعية بالتصديق^(١) التقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وإمهاده^(٢) الصلب بالقهر^(٣) أو الصلابة^(٤) وأمثال ذلك . وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الإكسير ، وأنه يلقى منه على الجسم المعدن المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل ، مثل الرصاص والقصدير والنحاس يعد أن يحترق بالنار ، فيعود ذهباً إبريزاً . ويكتون عن ذلك الإكسير إذا ألغزوا اصطلاحاتهم بالروح ، وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجد . فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء .

وما زال الناس يؤمنون فيها قديماً وحديثاً . وربما يعزى الكلام فيها إلى من ليس من أهلها . وإمام اللوئين فيها جابر بن حيان حتى أنهم يخصونها به فيسمونها « علم جابر » ؛ وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالألفاظ . وزعموا أنه لا يفتح مقفلها إلا من أحاط علماً بجميع ما فيها والطرائف من حكماء المشرق المشتهرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء . وكتب فيها مسلمة المجريطي من حكماء الأندلس

(١) التصديق اللفظية .

(٢) أمه المحيطة أضعافاً ومقطاً الماء والاسم المسمى .

(٣) القهر بالكسر المحرر بلا الكف ويدق به الجوز ونحوه ، هنا ، وقد وردت هذه الكلمة محرفة في جميع النسخ إلى « القهر » بالفتح .

(٤) في القاموس والصلابة وتهمز « الصلابة » (مدق الحليب ثم ما يلقى به) . وقد وردت هذه الكلمة محرفة في جميع النسخ إلى « الصلابة » بالياء الموحدة .

كتاب الذي سماه « رتبة الحكيم » وجعله قريناً لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه « غاية الحكيم » ؛ وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ، ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع . وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأليفهم هي ألفاظ يتعلم فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك . ونحن نذكر سبب عدولهم إلى هذه الرموز والألفاظ . ولابن المغيرة من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجيء في الشعر ملفوفة كلها لغز الأحاجي والمعايات ؛ فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض مداركه العالية لتقف عن خطأ ما يلذهبون إليه حتى ينتحله وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم . ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربي ، والبدواة إليه أقرب ، فهو بعيد عن العلوم والصناعات بالجملة ، فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها ؛ وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم يظهر بعد ولم تترجم . اللهم إلا أن يكون خالداً بن يزيد آخر من أهل المذاهب الصناعية تشبه باسمه فمممكن .

وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرود لأبي السمع في هذه الصناعة ، وكلامها من تلاميذ مسلمة ، فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شئها إذا أعطيت حقه من التأمل . قال ابن بشرود بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض :

« وينبغي لك أن تعلم هل يمكن أن يستعان عليه بغيره أو يكفي به وحده ، وهل هو واحد في الابتداء أو شاركة غيره فصار في التعبير واحداً قسماً حجباً وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله وكمية أوزانه وأزمانه وكيفية تركيب الروح فيه وإدخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها . فإن لم تقدر فلائى حلة وما السبب الموجب لذلك ؟ فإن هذا هو المطلوب فافهم » .

« واعلم أن الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت أنها الميرة للجسد والحاملة له والنافعة عنه والقاعدة فيه . وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره ، لأنه لا حياة فيه ولا نور . وإنما ذكرت الإنسان الذى تركيبه على الغذاء والعشاء ، وقوامه وغامه بالنفس الحية التوارية التى بها يفعل العظام والأشياء المتقابلة التى لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التى فيها . وإنما انفعّل الإنسان لاختلاف تركيب طبائعه ولو اتفقت طبائعه لحملت مع الأعراض والتضاد ، ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ، ولكان خالداً باقياً . فسيحان مدبر الأشياء تعالى » .

« واعلم أن الطبائع التى يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة فى الابتداء فيضية محتاجة إلى الانتهاء ، وليس لها إذا صارت فى هذا الحد أن تستحيل إلى ما منه تركبت كما قلناه آنفاً فى الإنسان ، لأن طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضاً بوصارت شيئاً واحداً شبيهاً بالنفس فى قوتها وفعلها وبالجسد

والتقدمات التى لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون واقتصر جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المادان وتخلق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن فمنعنا اشتهاؤها من ذكرها . ولكن أبين لك من هذه الصناعة ما يحتاج إليه ، فنبدأ بمعرفته . فقد قالوا ينبغى لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولاً ثلاث خصال : أولها هل تكون ؟ والثانية من أى شئ تكون ؟ والثالثة من أى كيف تكون ؟ فإذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم . فأمّا البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناه كما بعثنا به إليك من الإكسير . وأما من أى شئ تكون فإنما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذى يمكنه العمل ، وإن كان العمل موجوداً من كل شئ بالقوة لأنها من الطبائع الأربع منها تركبت ابتداء وإليها ترجع انتشاء . ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك أن منها ما يمكن تفصيلها ومنها ما لا يمكن تفصيلها . فالتى يمكن تفصيلها تعالج وتدبر ، وهى التى تخرج من القوة إلى الفعل . والتى لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لأنها فيها بالقوة فقط . وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها فى بعض ، وفضل قوة الكبير منها على الصغير . فينبغى لك - وفقك الله أن تعرف أوفق الأحجار المنفصلة التى يمكن فيها العمل وجنسه وقته وعمله وما يدبر من الحل والتفقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب ، فإن من لم يعرف هذه الأصول التى هى عماد هذه الصناعة لم ينتج ولم يقظر بخير أبداً » .

إن الأجساد قد كانت أرواحاً في بطنها فلما أصابها حر الكيان قلبها أجساداً لزجة غليظة ، فلم تقدر النار على أكلها لإفراط غلظتها وتزججها ، فإذا أفرطت النار عليها صيرتها أرواحاً كما كانت أول خلقها ، وإن تلك الأرواح اللطيفة إذا أصابتها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها . فينبغي لك أن تعلم ماصير الاجساد في هذه الحالة وصير الأرواح في هذا الحال ، فهو أجل ماتعرفه . أقول إنما أبقت تلك الأرواح لاشتغالها ولطافتها ، وإنما اشتعلت لكثرة وطوبتها ، ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لأنها هوائية تشاكل النار ، ولا تزال تغدو بها إلى أن تنفخ ، وكذلك الأجساد إذا أحست بوصول النار إليها قلعة تلزجها وغلظها . وإنما صارت تلك الاجساد لا تشتعل لأنها مركبة من أرض وماء صابر على النار ، فلطيفه متحد بكثيفه لطول الطبخ اللين المازج للأشياء . وذلك أن كل متلاش إنما يتلاشى بالنار لحارقة لطيفه من كثيفه ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة ، فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة ، فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما أشبههما ، وإنما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلها . فإذا علمت ذلك علماً شافياً فقد أخذت حظك منها .

« وينبغي لك أن تعلم أن الاخلاط التي هي طبائع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض مفصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزء منه ، ولا في الكل ،

في تركيبه ومجسته بعد أن كانت طبائع مفردة بأيمانها . فها صعباً من أفاضيل الطبائع أن القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتماها ، فلهذا قلته قوياً وضعيفاً . وإنما وقع التفسير والفناء في التركيب الأول للاختلاف ، وعدم ذلك في الثاني للاتفاق . »

« وقد قال بعض الأولين : التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء ، والتركيب موت وفناء ، وهذا الكلام دقيق المعنى لأن الحكيم أراد بقوله « حياة وبقاء » خروجه من العدم إلى الوجود ، لأنه ما دام على تركيبه الأول فهو فان لا محالة ، فإذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء ، والتركيب الثاني لا يكون إلا بعد التفصيل والتقطيع . فإذا التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة . فإذا بقى الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لأنه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها ، وذلك أنه لا وزن له فيه . وسترى ذلك إن شاء الله تعالى . »

« وقد ينبغي لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أمون من اختلاط الغليظ بالغليظ . وإنما أريد بذلك التشاكل في الأرواح والاجساد لأن الأشياء تتصل بأشكالها . وذكرت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر في الطبائع اللطائف الروحانية منها في الغليظة الجسمية . وقد يتصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من الأرواح ، كما ترى الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الأرواح . فاقول

الحر أكثر فعلا في ذلك من البارد ، لأن البرد ليس له نقل الاشياء ولا تحركها ، والحار هو علة الحركة ومتى ضعفت علة الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبداً ، كما أنه إذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برد أحرقته وأهلكته . من أجل هذه العلة احتيج إلى البارد في هذه الأعمال ، ليقوى به كل ضد على ضده ، ويدفع عنه حر النار . ولم يحلر الفلاسفة أكثر شيء إلا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبايع والأنفاس وإخراج دنسها ورطوبتها ونفى آفاتها وأوساخها عنها ، على ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم . فلما علموا إنما هو مع النار أولا وإليها يصير آخرها . فلذلك قالوا إياكم والنيران المحرقات . وإنما أرادوا بذلك نفى الآفات التي معها فتجمع على الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه . وكذلك كل شيء وإنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط بين شيئين ، فلم يجد ما يقويه ويعينه إلا قهرته الآفة وأهلكته . واعلم أن الحكماء كلها ذكرت ترداه الأرواح على الأجساد مرارا ليكون أئزم إليها وأقوى على قتال النار إذا هي باشرتها عند الآفة ، أعنى بذلك النار الضمنية ، فاعلمه .

« ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة . فقد اختلفوا فيه إذ قسمتهم من زعم أنه في الحيوان ، ومنهم من زعم أنه في النبات ، ومنهم من زعم أنه في المعادن ، ومنهم من زعم أنه في الجميع . وهذه الدعوى ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها

كما قال الفيلسوف : إنك إذا أحكمت تدبير الطبايع وتأليفها ولم تدخل عليها غريباً ، فقد أحكمت ما أردت إحكامه وقوامه ، إذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها ، فمن أدخل عليها غريباً فقد زاع عنها ووقع في الخطأ . واعلم أن هذه الطبيعة إذا حل بها حسد من قرائنها على ما ينبغي في الحل حتى يشاكلها في الرقة والطاقة انبسطت فيه وجرت معه حيثما جرى ، لأن الأجساد مادامت غليظة جافية لا تنبسط . ولا تتزواج ، وحل الأجساد لا يكون بغير الأرواح . فافهم هناك الله هنا القول . »

« واعلم هناك الله أن هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينتقض . وهو الذي يقلب الطبايع ويمسكها ، ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجيبة . وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لأنه مخالف للحياة ، وإنما حل بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ . وتنقلب الطبايع عن حالاتها إلى مالها أن تنقلب من اللطافة والغلظ . فإذا بلغت الأجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ . وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله فلا خير فيه . »

« واعلم أن البارد من الطبايع هو يبس الأشياء ويمتد رطوبتها ، والحار منها يظهر رطوبتها ويمتد يبسها . وإنما أفردت الحر والبرد لأحما فاعلان ، والرطوبة واليبس منفعلان ، وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الأجسام وتتكون ، وإن كان

وغلظه جسد النبات ، فلم يقلد على الحركة لغلظه
وغلظه روحه . والروح للتحركة ألفت من الروح
الكامنة كثيراً ، وذلك أن المتحركة لها قبول
الغذاء والتنقل والتنفس ، وليس للكامنة غير قبول
الغذاء وحده . ولا تجرى إذا قيسمت بالروح الحية
إلا كالأرض عند الماء . كذلك النبات عند الحيوان
فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر .
فينبئى للعقل إذا عرف ذلك أن يحجب ما كان
سهلاً ويترك ما يخشى فيه عسراً .

واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم
أقساماً من الأمهات التى هى الطبايع والحديثة
التى هو المواليد . وهذا معروف متميز النظم .
فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقساماً
وأقساماً ميتة ، فجعلوا كل متحرك فاعلاً حياً
وكل ساكن مغلولاً ميتاً . وقسموا ذلك في جميع
الاشياء وفي الأجساد الذائبة وفي العقاقير المعدنية .
قسموا كل شيء يلوب في النار ويطير ويشغل حياً
وما كان على خلاف ذلك سموه ميتاً . فلما الحيوان
والنبات قسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعمائة
حياً ، وما لم ينفصل سموه ميتاً . ثم إنهم طلبوا
جميع الأقسام الحية ، فلم يجدوا لوفى هذه الصناعة
مما ينفصل فصولاً أربعة ظاهرة للعيان ، ولم يجدوا
غير الحجر الذى في الحيوان ، فيحشوا من جنسه
حتى عرفوه وأخلوه ودبروه ، فتكيف لهم منه الذى
أرادوا . وقد يتكيف مثل هذا في المادان والنبات
بعد جمع العقاقير وخططها ، ثم تفصل بعد ذلك .
فلما النبات فمنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول

عليها ، لأن الكلام يطول جداً ، وقد قلت فيما تقدم
إن العمل يكون في كل شيء بالقوة ، لأن الطبايع
موجودة في كل شيء فهو كذلك . فتريد أن تعلم
من أى شيء يكون العمل بالقوة والفعل . فنقص
إلى ما قاله الحراى : « إن الصبغ كله أحد
صبغين : إما صبغ جسد كالزعفران في الثوب
الأبيض حتى يحول فيه ، وهو مضمحل
منتقص التركيب ، والصبغ الثانى تغليب
الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره
ولونه ، كتغليب الشجر بل التراب إلى نفسه ،
وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه ، حتى يصير
التراب نباتاً والنبات حيواناً ، ولا يكون إلا بالروح
الحى والكيان الفاعل الذى له توليد الأجرام وقلب
الأحيان . فإذا كان هذا هكذا فنقول إن العمل
لا بد أن يكون إما في الحيوان وإما في النبات .
وبرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما
ونماهما . فلما النبات فليس فيه ما في الحيوان من
اللطافة والقوة ، ولذلك قل خوض الحكماء
فيه . وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات
الثلاث ونهايتها . وذلك أن المعدن يستحيل نباتاً
والنبات يستحيل حيواناً ، والحيوان لا يستحيل
إلى شيء هو أظف منه ، إلا أن ينعكس راجعاً إلى
الغذاء ، وأنه أيضاً لا يوجد في العالم شيء تتعلق
به الروح الحية غيره ، والروح أظف ما في العالم
ولم تتعلق الروح بالحيوان إلا بمشاكلته إياها .
فلما الروح التى في النبات فلها يسيرة فيها غلظه
وكثافته ، وهى مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها

فظهرها أيضاً مع السواد والفضاء وكرر عليها
الفضل والتصعيد حتى تلتطف الطباع وترق وتصفو.
فإذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابداً بالتركيب
الذي عليه مدار العمل ، وذلك أن التركيب
لا يكون إلا بالتزويج والتعفين . فلما التزويج
فهو اختلاط اللطيف بالغليظ . وأما التعفين فهو
التشبية والسحق حتى يختلط بعضه ببعض ويصير
شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة
الامتزاج بالماء . فعند ذلك يقوى الغليظ على
إمساك اللطيف ، وتقوى الروح على مقابلة النار
وتصير عليها ، وتقوى النفس على الفروع
في الأجساد والديبب فيها . وإنما وجد ذلك بعد
التركيب لأن الجسد المحلول لا ازدواج بالروح
مازجه بجميع أجزائه ، وهنك بعضها في بعض
لتشاكلها فصار شيئاً واحداً . ووجب من ذلك أن
يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والنبوة.
ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج .

« وكذلك النفس إذا امتزجت بهما ودخلت
فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع
أجزاء الآخرين ، أعني الروح والجسد ، وصارت
هي وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء
الكل الذي سلمت طبائعه واتفقت أجزاؤه .
فلذا لم يزل هذا المركب الجسد المحلول ، وألح عليه
النار ، وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ،
ذاب في الجسد المحلول . ومن شأن الرطوبة
الاشتغال وتعلق النار بها . فلذا أرادت النار التماق
بها منعها من الاتحاد بالنفس مازجة الماء لها ، فإن

مثل الأثنان . وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح
وأنفاس إذا مزجت ودبرت كان منها ما له تأثير .
وقد دبرنا كل ذلك ، فكان الحيوان منها أصى
وأرفع وتدبيره أسهل وأيسر . فينبغي لك أن تعلم
ما هو الحجر الموجود في الحيوان ، وطريق وجوده .
إننا بينا أن الحيوان أرفع المواليد ، وكذا ما تركب
منه فهو أظرف منه كالنبات من الأرض . وإنما كان
النبات أظرف من الأرض لأنه إنما يكون من جوهره
الصالح وجسده اللطيف ، فوجب له بذلك اللطافة
والرقة . وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات
في التراب . وبالجملته فإنه ليس في الحيوان شيء
ينفصل لطباع أربما غيره . فافهم هذا القول فإنه
لا يكاد يخفى إلا على جاهل بين الجهالة ومن
لاعقل له . فيقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأصلته
وأنا أبين لك وجوه تدبيره حتى يكمل الذي شرطناه
على أنفسنا من الإنصاف إن شاء الله سبحانه .

« التدبير على بركة الله » خذ الحجر الكريم
فلودعه القرعة والإنبيق وفصل طبائعه الأربع التي
هي النار والهواء والأرض والماء ، وهي الجسد
والروح والنفس والصبر . فإذا عزلت الماء عن
النار فارفع كل واحد في إنائه على حدة وخذ
الهابط أسفل الإناء ، وهو التفل فاغسله بالنار
الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه
وجشاؤه ، ويبضه تبييضاً محكماً ، وطير عنه
فضول الرطوبات المستحثة فيه ، فإنه يصير عند
ذلك ماء أبيض لاظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد .
ثم أحمده إلى تلك الطبائع الأول الصاعدة منه

فهو . فنهضت شاكرًا الله عليه إلى منزل ، وأقامت على ذلك شكلاً هنمسيا يبرهن به على صحة مقاله مسلمة . وأنا واضع لك في هذا الكتاب :

١ مثال ذلك أن المركب إذا تم وكمل كان نسبة ماقيه من طبيعة الهواء إلى ماقي البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ماقي المركب من طبيعة النار إلى ماقي البيضة من طبيعة النار . وكذلك الطيعتان الأخريان الأرض والماء . فاقول إن كل شيئين متناسبين على هذه الصفة فهما متشابهان . ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة زوج ، فإذا أردنا ذلك فإننا نأخذ أقل طبائع المركب وهي طبيعة البيوسة ، ونضيف إليها مثلها من طبيعة الرطوبة ، ونديرهما حتى تُنشَف طبيعة الرطوبة ، وتقبل قوتها ، وكأن في هذا الكلام رمزاً ولكنه لا يخفى عليك . ثم تحمل عليهما جميعاً مثيلهما من الروح وهو الماء ، فيكون الجميع سعة أمثال . ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلاً من طبيعة الهواء التي هي النفس ، وذلك ثلاثة أجزاء . فيكون الجميع تسعة أمثال البيوسة بالقوة . وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذي طبيعته محيطة بسطح المركب طبيعتين فتجعل أول الضلعين المحيطة بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعا [ا ح د] وسطح (أبجد) وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعا هـ زوج . فاقول إن سطح أبجد يشبه سطح هـ زوج طبيعة الهواء التي تسمى نفساً ، وكذلك (بـ جـ) من سطح المركب . والحكم لم تسم شيئاً باسم شيء إلا لشبهه به .

النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصاً . وكذلك الماء من شأنه التفرور من النار ، فإذا أُلحِت عليه النار وأرادت تغييره جسمه الجسد اليابس الممازج له في جوفه فتمعه من الطيران . فكان الجسد علة لإسلاك الماء ، والماء علة لبقاء الدهن ، والدهن علة لثبات الصبغ ، والصبغ علة لظهور الدهن وإظهار الدخنية في الأشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها . فهذا هو الجسد المستقيم . وهكذا يكون العمل . وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سمتها الحكماء بيضة ، وإنما يعنون ، لا بيضة الدجاج .

واعلم أن الحكماء لم تسمها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها . ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوماً وليس عنده خبري ، فقلت له : أيها الحكيم الفاضل أخبرني لأي شيء سمت الحكماء مركب الحيوان بيضة ؟ أختياراً منهم لذلك أم لمعنى دعاهم إليه ؟ فقال بل لمعنى غامض . فقلت أيها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة ؟ فقال لشبهها وقربتها من المركب ففكر فيه ، فإنه سيظهر لك معناه . فبقيت بين يديه مفكراً لا أقدر على الوصول إلى معناه . فلما رأى ما في من الفكر وأن نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة ، وقال لي : يا أبا بكر ذلك للنسبة التي بينهما في كمية الألوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها . فلما قال ذلك انجلت عن الظلمة ، وأضاء لي نور قلبي ، وقوى عقل على

الكرامة إن كانت النفوس هيرة أو نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة . فلما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلأن الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه^(١) يقلب الأعيان المادية بقوته السحرية . ولا بد له من ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كتحريك بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات وبالجمل من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون في الجبال والعصى ، وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب والترك في قاصية الشمال أنهم يسحرون الجو للأمطار وغير ذلك . ولما كانت هذه تخليقاً للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر . والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء ، مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم ، إنما نحو هذا المنحى . ولهذا كان كلامهم فيه ألقافاً خفياً عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه ، لا أن ذلك يرجع إلى الضنانة بها كما هو رأى من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك . وانظر كيف سعى مسلمة كتابه فيها « رتبة الحكيم » وسعى كتابه في السحر والطلاسات « غاية الحكيم » إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه ، لأن الغاية أعلى من الرتبة ، فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وشاركها في الموضوعات . ومن كلامه في الفنين يتبين ما قلناه . ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية^(٢) . والله العليم الخبير .

(١) يحيل بذلك على ما ذكره في الفصل التاسع والعشرين من هذا الباب : « علوم السحر والطلاسات » .
(٢) مبين ذلك ويزيد هذا الموضوع كله تفصيلاً في الفصل الرابع والثلاثين ومنهاته : « فصل في إنكار شجرة الكيمياء ... الخ » .

والكلمات التي سألت عن شرحها : الأرض المقدسة وهي المنقعدة من الطبائع العلوية والسفلية ، والنحاس هو الذي أخرج مواده وقطع حتى صار هباءً ثم حمر بالزجاج حتى صار نحاسياً ، والمغنيسيا حجرهم الذي تجدد فيه الأرواح وتخرجه الطبيعة العلوية التي تستجيب فيها الأرواح لتقابل عليها النار والفررة لون أحمر قان يحدثه الكيان ، والرصاص حجر ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشكلة ومتجانسة : فالواحدة روحانية نيرة صافية وهي الفاعلة ، والثانية نفسانية وهي متحركة حساسة ، غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى ، والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة متمكنة إلى مركز الأرض لتثقلها ، وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعاً والمحيط بهما . وأما سائر الباقية فمبتدعة ومخترة لإبسا على الجاهل . ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها .

« فهذا جمع ما سألتني عنه وقد بعثت إليك به مفسراً ونرجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام » . انتهى كلام ابن بشرود وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجرى شيخ الأندلس في علوم الكيمياء والسيما والسحر في القرن الثالث وما بعده .

وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألقاف التي لا تكاد تبين ولا تعرف . وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية . والذي يجب أن يعتقده في أمر الكيمياء وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية . وتصرفها في عالم الطبيعة إما من نوع

جميع المعاني والأشخاص ، ولا يكون منها تجريد بعد هذا ، وهى الأجناس العالية .

وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات هى من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها تسمى المقولات الثوائى . فإذا نظر الفكر فى هذه المقولات المجردة وطلب تصور الوجود كما هو فلا بد للذهن من إضافة بعضها إلى بعض ونفى بعضها عن بعض بالبرهان العقلىيقى ليحصل تصوره الوجود تصوراً صحيحاً مطابقاً إذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر . وصنف التصديق الذى هو تلك الإضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور فى النهاية ، والتصور متقدم عليه فى البداية والتعليم ، لأن التصور التام عندهم هو غاية الطلب الإدراكى ، وإنما التصديق وسيلة له ، وما تسمعه فى كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام . وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو . ثم يزعمون أن السعادة فى إدراك الموجودات كلها ما فى الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين (١) .

وحاصل مداركهم فى الوجود على الجملة وما آلت إليه وهو الذى فرعوا عليه قضايا أنظارهم أنهم عثروا أولاً على الجسم السفلى بحكم الشهود والحس ، ثم ترقى إدراكهم قليلاً فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس بالحيوانات ، ثم

٣٢ - فصل فى إبطال الفلسفة وفساد متعلها
هذ الفصل وما بعده مهم لأن هذه العلوم عارضة فى العمران كثيرة فى المدن وضررها فى الدين كثير . فوجب أن يُصدع ويكشف عن المعتقد الحق فيها . وذلك أن قوماً من عقلاء النوع الإنسانى زعموا أن الوجود كله الحسى منه وما وراء الحسى تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية ، وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع ، فإنها بعض مدارك العقل . وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف ، وهو باللسان اليونانى محب الحكمة (١) فبحثوا عن ذلك وشعروا له وحوموا على إصابة الغرض منه . ووضعوا قانوناً يهتدى به العقل فى نظره إلى التمييز بين الحق والباطل ، وسموه بالمنطق ومحصل ذلك أن النظر الذى يفيد تمييز الحق من الباطل إنما هو للذهن فى المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية ، فيجرد منها أولاً صوراً منطبقة على جميع الأشخاص كما ينطبق الطابق على جميع النقوش التى ترسمها فى طين أو شمع . وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المقولات الأوائل . ثم تجرد من تلك المعاني الكلية إذا كانت مشتركة مع معان أخرى وقد تميزت عنها فى الذهن ، فتجرد منها معان أخرى وهى التى اشتركت بها ، ثم تجرد ثانياً إن شاركها غيرها ، وثالثاً إلى أن ينتهى التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على

(١) هذه هى السعادة العقلية أو الفضيلة العقلية ، وهى أرق درجات السعادة والفضيلة عند أفلاطون ، وتاقبه فى ذلك فلاسفة الإسلام . ويقابلها الفضلة السبلية وهى المنطق والفضائل والصل بها . (د . وان) .

(١) الكلمة مأخوذة من كلمتين يونانيتين : « غيلرس » بمعنى هب أو صدق و « سورونيا » بمعنى الكلمة . (د . وان) .

الإسلام من أهل بتلك المذهب واتبع فيها رأيه
حلوا التعل بالمثل إلا في القليل . وذلك أن كُتب
أولئك المتقدمين لا ترجمها الخلفاء مع بنى الباس
من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي تصفحها كثير
من أهل الملة ، وأخذ من ملابهم من أضله الله من
منتحل العلوم ، وجادلوا عنها ، واختلفوا في مسائل
من تفاريمها . وكان من أشهرهم أبو نصر القاراني
في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة ، وأبو علي بن
سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بنى بويه
بأصبهان وغيرها .

واعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطل
بجميع وجوهه .

فما استأندهم الموجودات كلها إلى العقل الأول
واكتفاؤهم به في التفرق إلى الواجب فهو قصور عما
وراء ذلك من رتب خلق الله . فالوجود أوسع نطاقا
من ذلك « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وكانهم في
اقتصارهم على إثبات العقل فقط، والنفلة عما
وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات الأجسام
خاصة المعرضين عن النقل والعقل ، المتقدين أنه
ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء . وأما البراهين
التي يزعمونها على مديا تهم في الموجودات ويعرضونها
على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة وغير وافية
بالفرض . أما ما كان منها في الموجودات للجسمانية
ويسمونه العلم الطبيعي فوجه قصوره أن المطابقة
بين تلك النتائج اللغنية التي تستخرج بالحدود
والأقيسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير
مقتضى ، لأن تلك أحكام ذهنية كلية عامة ،

أحسوا من قوى النعم بسلطان العقل . ووقف
إدراكهم فقفوا على الجسم العالي السباوي بنحو
من القضاء على أمر الذات الإنسانية ، ووجب
عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان .
ثم أنهم في ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر ، تسمع
مفصلة ذواتها جميل وواحد أول مفرد وهو العاشر^(١) .
ويزعمون أن السعادة في إحراك الوجود على هذا النحو
من القضاء مع تهذيب النفس ، وتخليقها بالفضائل ،
وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه
بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله
ونظره ، وميله إلى المحمود منها ، واجتنابه للمذموم
بفطرته ، وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها
البهجة واللذة ، وأن الجهل بذلك هو الشقاء
السرمدى . وهذا عندهم هو معنى التعم والعباد
في الآخرة ... إلى خيط . لهم في تفاصيل ذلك معروف
من كلماتهم .

وإمام هذه المذاهب الذي حصل مسألتها ودون
علمها ومطر حجاجها فيما بلغنا في هذه الأحزاب هو
أرسطو المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم
من تلاميذ أفلاطون ، وهو معلم الاسكندر ،
ويسمونه : المعلم الأول على الإطلاق ، يعنون معلم
صناعة المنطق ، إذ لم تكن قبله مهذبة ، وهو أول
من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها .
ولقد أحسن في ذلك القانون ما شاء لو تكفل له
بفصدهم في الإلهيات . ثم كان من بعده في

(١) حكلا وردت هذه العبارة في جميع النسخ . وهي غامضة
اللدلول . (د . وافي) .

لكل أحد ، وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها
فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه .

وقد صرح بذلك محقوقهم حيث ذهبوا إلى
أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه ، لأن مقدمات
البرهان من شرطها أن تكون ذاتية . وقال كبيرهم
أفلاطون إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى يقين ،
إنما يقال فيها بالأحق والأولى يعنى الظن . وإذا
كنا إنما نحصل بعد اللعب والنصب على الظن
فقط ، فيكتفينا الظن الذى كان أولا . فأتى فائدة
لهذه العلوم والاشتغال بها ؟ ونحن إنما عنايتنا
بتحصيل اليقين فيها وراء الحسن من الموجودات .
وهذه هى غاية الأفكار الإنسانية عندهم .

وأما قولهم إن السعادة في إدراك الموجودات
على ماهى عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود.
وتفسيره أن الإنسان مركب من جزأين : أحدهما
جسمانى والآخر روحانى ممتزج به ، ولكل واحد
من الجزأين مدارك مختصة به ، والمدرك فيهما
واحد ، وهو الجزء الروحانى يدرك تارة مدارك
روحانية وتارة مدارك جسمانية ، إلا أن المدارك
الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة ، والمدارك
الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس .
وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه ، واعتبره بحال
الصبي في أول مداركه الجسمانية التى هى بواسطة
كيف يبتهج بما يبره من الضوء وما يسمعه من
الأصوات ، فلا شك أن الابتهاج بالإدراك الذى
لنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ .
فالنفس الروحانية إذا شعرت بإدراكها الذى لها

والموجودات الخارجية مخصصة موادها . ولعل في
المراد ما يمنع من مطابقة الذنى الكلى للخارجى
الشخصى ، اللهم إلا ما يشهد له الحسن من ذلك ،
لقد يله شهوده لا تلك البراهين ، فأين اليقين الذى
يجدونه فيها ، وربما يكون تصرف اللحن أيضا
من المقولات الأول المطابقة للشخصيات بالصور
الخيالية لا في المقولات الثوابى التى تجريدتها في
الرتبة الثانية ، فيكون الحكم حينئذ يقينيا بمثابة
للحسوسات . إذ المقولات الأول أقرب إلى مطابقة
الخارج لكمال الانطباع فيها ، فتسلم لهم حينئذ
دعواؤهم في ذلك ، إلا أنه ينبغي لنا الإعراض عن
النظر فيها ، إذ هو من ترك المسلم لا لا يعنيه (١) ،
فإن مسائل الطبيعيات لا تهمننا في ديننا ولا معاشنا
فوجب علينا تركها .

وأما ما كان منها من الموجودات التى وراء الحسن
وهى الروحانيات ويسمونه العلم الإلهى وعلم ما بعد
الطبيعة ، فإن ذواتها مجهولة رأسا ، ولا يمكن
التوصل إليها ولا البرهان عليها ، لأن تجريد
المقولات من المواد الخارجية الشخصية إنما هو ممكن
فيها هو مدرك لنا ، ونحن لا ندرك الذوات الروحانية
حتى نتجرد منها ماهيات أخرى ، بحجاب الحسن
بيننا وبينها ، فلا يتأتى لنا برهان عليها ، ولا
مُدْرَك لنا في إثبات وجودها على الجملة إلا ما نجده
بين جنيننا من أمر النفس الإنسانية وأحوال
مداركها ، وخصوصا في الرؤيا التى هى وجدانية

(١) يشير بذلك إلى الأثر المشهور : « من حزن إلهام المرء
تركه ما لا يهنيه » .

الحس من رغب الروحانيات ، ويحمله الاتصال بالمقل الفعال على الإدراك العلوي ، وقد رأيت فساد . وإنما يخفى أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والإدراك إدراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة ، وهو لا يحصل إلا بكشف حجاب الحس .

وأما قولهم إن البهجة الناشئة عن هذا الإدراك هي عين السعادة الموعود بها فيأطل أيضًا إنا إنما تبين لنا بما قرروه أن وراء الحس مدركا آخر للنفس من غير واسطة ، وأنها تبتهج بإدراكها ذلك ابتهاجا شديداً ، وذلك لا يحين لنا أنه حين السعادة الأخروية ، ولابد ، بل هي من جملة الملاذ التي لتلك السعادة .

وأما قولهم إن السعادة في إدراك هذه الموجودات على ما هي عليه ، فقول باطل مبني على ما كنا قلناه في أصل التوحيد من الأوهام والأغلاط في أن الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه ، وبيننا فساد ذلك ، (١) ، وأن الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى إدراكه بجملة روحانيات أو جسيانيات .

والذي يحصل من جميع ما قررناه من ملابهم أن الجزء الروحاني إذا فارق القوى الجسيانية أدرك إدراكا ذاتيا له مختصا بصنف من المدارك ، وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا ، وليس بعام الإدراك في الموجودات كلها إذ لم تنحصر ، وأنه يبتهج بذلك النحو من الإدراك ابتهاجا شديداً كما يبتهج الصبي بمدركه الحسية في أول نشوئه . ومن

(١) انظر ما سبق من رده على الفلاسفة .

من ذاتها وبغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها ، وهذا الإدراك لا يحصل بنظر ولا علم ، وإنما يحصل بكشف حجاب الحس وتبيين المدارك الجسيانية بالجملة . والمتصوفة كثيراً ما يُعْتَوَّنُ بحصول هذا الإدراك للنفس بحصول هذه البهجة ، فيحاولون بالرياضة إimate القوى الجسيانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسيانية ، فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها . وهذا الذي زعموه بتقدير صحته سلم لهم ، وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم .

فلما قولهم إن البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه فيأطل كما رأيت ، إذ البراهين والأدلة من جملة للمدارك الجسيانية لأنها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر ، ونحن نقول إن أول شيء نفى به في تحصيل هذا الإدراك إimate هذه القوى الدماغية كلها ، لأنها منازعة له قاذرة فيه . وتجد الماهر منهم عاكفاً على كتاب الشفاء والإشارات والنجاة وتلاخيص ابن رشد للنص من تأليف أرسطو وغيره ، يبعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ، ويلتمس هنا القسط من السعادة فيها ، ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها . ومستمندم في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو والقارابي وابن سينا أن من حصل له إدراك العقل الفعال واتصل به في حياته فقد حصل حظه من هذه السعادة . والمقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف عنها

لنا بعد ذلك إدراك جميع الموجودات أو بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع إن لم نعمل لها ١٩ : « هيئات هيئات لما توعدون (١) » .

وأما قولهم إن الإنسان مستقل بتخليب نفسه وإصلاحها بلبسة المخدود من الخلق ومجانبة للملوم ، فمُتر مبنًى على أن ابتهاج النفس بإدراكها الشيء لها من ذاتها هو حين السعادة الموعود بها ، لأن الرخائل حائلة للنفس عن تمام إدراكها ذلك بما يحصل لها من الملكات الجسائية وألوانها . وقد بينا أن أثر السعادة والشقاوة من وراء الإدراكات الجسائية والروحانية . فهذا التخليب الذي توصلوا إلى معرفته إنما دفعه في البهجة الناشئة من الإدراك الروحاني فقط ، الذي هو على مقاييس وقوانين . وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق فمُتر لا يحيط به مدارك المدركين . وقد تنبه لذلك وعيهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب المبدأ والمعاد ما معناه : إن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس ، لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة ، فلنا في البراهين عليه سعة ، وأما المعاد الجسائي وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان ، لأنه ليس على نسبة واحدة ، وقد بسطته لنا الشريعة الحقة للمحمدية فلينظر فيها ولنرجع في أحواله إليها .

فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حرموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها .

وليس له فيما علمنا إلا عملاً واحدة وهي ضبط اللهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين . وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية ، وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكيمة من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها ، فيستول الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين يشروطها على ملكة الإتقان والصواب في الحجج والاستدلالات ، لأنها وإن كانت غير واف بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار . هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم . ومضاربها ما علمت . فليكن الناظر فيها متحرراً بجهده من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقهاء . ولا يُكَيِّن أحد عليها وهو غيوط من علوم الملّة ، فقل أن يسلم لذلك من معاطبها . والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه « وما كنا لننتهي لولا أن هدانا الله (١) » .

٢٣ - فصل في إبطال صناعة النجوم

وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات المنصرفة مفردة ومجمعة فتكون لذلك أوضاع الأفلاك

ثم قال: ولنا فيا بعدهما من الكواكب طريقتان :
الأولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة ،
إلا أنه غير مقنع للنفس ، والثانية الحس
وال تجربة بقياس كل واحد منها إلى النير الأعظم
الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة ، فننظر
هل يزيد ذلك الكوكب عند القرب في قوته ومزاجه
فتعرف موافقته له في الطبيعة ، أو ينقص عنها
فتعرف مضادته . ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها
مركبة ، وذلك عند تناظرها بأشكال الثلاث
والتربيع وغيرهما ، ومعرفة ذلك من قبل طبائع
البروج بالقياس أيضاً إلى النير الأعظم . وإذا عرفنا
قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء ، وذلك
ظاهر . والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما
تحته من المولدات ، وتخلق به النطف والبذر
فتصير حالا للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة
به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولا يتبع النفس
والبدن من الأحوال ، لأن كفايات البذرة والنطفة
كفايات لا يتولد عنهما وينشأ منهما . - قال وهو
مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء . وليس
هو أيضاً من القضاء الإلهي يعني القدر ، إنما هو
من جملة الأسباب الطبيعية للكائنات ، والقضاء
الإلهي سابق على كل شيء . هذا محصل كلام
بطليموس وأصحابه ، وهو منصوص في كتابه
الأربع^(١) وغيره . ومنه يتبين ضعف مدرك هذه
الصناعة .

والكواكب دالة على ما سيحدث من كل نوع من
أنواع الكائنات الكلية والشخصية .

فالتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب
وتأثيراتها بالتجربة ، وهو أمر تقتصر الأعمار كلها
لو اجتمعت عن تحصيله ، إذ التجربة إنما تحصل
في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم
والظن ، وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن
فيحتاج تكرره إلى آحاد وأحباب متطاولة يتقاصر
عنها ما هو طويل من أعمار العالم . وربما ذهب
ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها
كانت بالوحي ، وهو رأى قائل ، وقد كفونا
مؤونة إبطاله . ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن
الصنائع ، وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب ،
إلا أن يكون عن الله ، فكيف يدعون استنباطه
بالصناعة ، ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق .

وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون
أن دالة الكواكب على ذلك دالة طبيعية من قبل
مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية .
قال لأن فعل النيرين^(١) وأثرهما في العنصرينات
ظاهر لا يسع أحداً جرده ، مثل فعل الشمس
في تبديل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع
 وغير ذلك ، وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج
المواد المتحفة وفواكه القش^(٢) وسائر أفعاله .

(١) الشمس والقمر .

(٢) هكذا وردت هذه الكلمة في النسخة « اليوموية » ووردت
في غيرها بالنون « القش » وهي قنات وهي الحفرة توضع فيها النخلة .
•••••

(١) هكذا وردت هذه الكلمة في جميع النسخ ، وهي غاشية
للداول ، ولها عرق من « الجسني » أو « الجفرائية » .
•••••

وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل من العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه . والقوى النجمية

على ما قرروه إنما هي فاعلة فقط . والجزء المنصرى هو القابل . ثم إن القوى النجمية ليست هي الفاعل بجملتها ، بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادى مثل قوة التوليد للأب والنوع التى في النطفة ، وقوى الخاصة التى تميز بها صنفٌ صنفٌ من النوع وغير ذلك .

فالقوى النجمية إذا حصل كما لها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن . ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حلس وتخمين ، وحينئذ يحصل

عنده الظن بوقوع الكائن ، والحلس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من حلل الكائن ولا من أصول الصناعة ، فإذا فقد هذا الحلس والتخمين وجعت أدراجها من الظن إلى الشك . هذا إذا حصل العلم بالقوى النجمية على مصادره ولم تعترضه آفة ، وهذا معوز لما فيه من معرفة حُسينات الكواكب في سيرها لتتعرف به أوضاعها ولا أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه .

ومدرك بطليموس في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف ، لأن قوة الشمس غالبية لجميع القوى من الكواكب ، ومستولية عليها ، فقل أن يُخَصَّرَ بالزيادة فيها أو نقصان منها عند المقارنة كما قاله ، وعدمه

فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل

(١) يبنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام حينما كسفت الشمس في يوم وفاة إته إبراهيم ، وأن الناس أنها كسفت للفقير (دوافع) .

(٢) حديث قسبي أن يرويه الرسول عن الله تعالى بدون أن يكون من القرآن . (دوافع)

(٣) « التوراة سقوط نجم من المنازل في المغرب مع القمر وظلوع وقية من الشرق يقابله من صاحبه في كل ثلاثة عشر يوما . وكانت العرب تعقب الأمطار والرياح والحرب والبرد إلى السافل منها وقيل إلى الطالع منها . . . » (المصالح) .

فالقوى النجمية إذا حصل كما لها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن . ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حلس وتخمين ، وحينئذ يحصل

عنده الظن بوقوع الكائن ، والحلس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من حلل الكائن ولا من أصول الصناعة ، فإذا فقد هذا الحلس والتخمين وجعت أدراجها من الظن إلى الشك . هذا إذا حصل العلم بالقوى النجمية على مصادره ولم تعترضه آفة ، وهذا معوز لما فيه من معرفة حُسينات الكواكب في سيرها لتتعرف به أوضاعها ولا أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه .

الأقل وأقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كثير^(١) بيته فمسترا عن الناس وتحت رتبة الجمهور ، مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها^(٢) على الفهم ، فكيف يحصل منها على طائل . ونحن نجد الفقه الذي هم لفقه ديناً ودنيا وسهلت مأخذ من الكتاب والسنة وعكفت الجمهور على قراخه وتعليمه ، ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدايسة وكثرة المجالس وتعددتها ، إنما يحلّق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال . فكيف يُعَلِّم مهجور للشريعة ، مفروب دونه سد الحظر والتحرّيم ، مكتوم عن الجمهور ، صعب للمأخذ ، محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه إلى مزيد حُدُس وتخمين يكتنفان به من النافر ؟ ! فأين التحصيل والحدق فيه مع هذه كلها ؟ ! ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك ، لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته . فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا إليه . والله أعلم بالغيب ، فلا يظهر على غيبه أحداً^(٣) .

ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين

مع مالها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث في عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحيان اتفاقاً لا يرجع إلى تعليق ولا تحقيق ، فيلهج بذلك من لامتعة له ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك ، فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها . ثم ما ينشأ عنها كثيراً في الدول من توقع القواطع^(١) ، وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء المتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة ، وقد شاهدنا من ذلك كثيراً . فينبغي أن تُحظَر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ، ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعياً للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم : فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما ، وإنما ينمق التكليف بأسباب حصولهما ، فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار .

هذا هو الواجب على من عرف مفساد هذا العلم ومضاره . وليعلم من ذلك أنها كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحداً من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها ، بل إن نظر فيها ناظر وظن الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر . فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فقيده الاجتاع من أهل العمران لقراءتها والتخيل^(٢) لتعليمها ، وصار المولع بها من الناس وهم

(١) هكذا في جميع النسخ . والكتابة غير واضحة للدلول . (د. و.) .

(٢) يعني جلوس الطلاب إلى استماعهم في شكل حلقة

(١) من سائر الكثر بفتح الكاف وكسر هاء جانب البيت .

(٢) احتاص عليه الأمر أشد وانتاث فلم يته الصواب . (القاموس) .

(٣) عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً : إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . (آي ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن) .

الأولياء والأعداء ، وقال في ذلك أبو القاسم
الروحي من شعراء أهل تونس :

أستغفر الله كل حين

قد ذهب العيش والهنا

أصبح في تونس وأمسى

والصبح لله والمساء

الخوف والجوع والمنايا

يحلثها الهرج والوباء

والناس في مرية وحرب

وما عسى ينفع المراء

فأحمدى يرى علياً

حل به الهلك والتواء^(١)

وأخر قال سوف يأتى

به إليكم صبا وخلاء

والله من فوق ذا وهذا

يقضى لعبه ما يشاء

ياراصد الخنسن الجوارى^(٢)

ما فعلت هذه الساء

مطلعتونا وقد زعمتم

أنكم اليوم أملاء^(٣)

مر خميس على خميس

وجاء ميت وأريماء

ونصت شهر وعشر ثان
وثالث ضمه القضاء

ولا نرى غير زور قول

أذاك جهل أم لؤدرا ؟

إننا إلى الله قد علمنا

أن ليس يستدفع القضاء

رضيت بالله في إلها

حبكم البدر أو ذكاء

ما هذه الأنجم السوارى

إلا حبايد (١) أو إماء

يقضى عليها وليس تقضى

وما لها في السورى اقتضاء

ضلت عقول ترى قدبا

ما شأنه الجرم^(٢) والقضاء

وحكمت في الوجود طبعاً

يحلثه الماء والهواء

لَمْ تَرَ خُلُوقاً إِذَا عُرِّ

نغزوهمو تربة وماء ؟

الله ربى ولست أدرى

ما الجوهر القرد والخلاء

ولا الهيولى التى تنادى

مأى عن صورة عراء

ولا وجود ولا انعدام

ولا ثبوت ولا انتفاء

(١) يرجح المذكور على عبد الواحد وأن لها معرفة عن حبايد جمع حبة

(٢) أى إن ما يحدث في جرم وما يكون مصيره إلى القضاء
كالجرام الساقطة لا يمكن أن يكون قدماً .

(١) « التوى وزان الحصى وقد يد : الملاك » (المصباح) .

(٢) انتهى هذا من قوله تعالى : « ولا أقسم بالخنس ، الجوار

الكنس » (آئى ١٥ ، ١٦ من سورة التكاوير) . أنظر تفصيل

هذا الموضوع وتفسير الكلمات في تعليق ١٦٣١ من الجزء الرابع من

تحقيق الدكتور على عبد الواحد وأن طبعة لجنة البيان العربى .

(٣) مطلقه بدينه مطلقاً إذا سوره يوحى الوفاء مرة بعد أخرى

والأملاء هم الذين وللاء الأغنياء المتمولون أو الحنن القضاء ،

الواحد مله » (القاموس) .

٣٤ - فصل في إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من القاسد عن انتفاعها

اعلم أن كثيراً من العاجزين عن معاشهم
لحلهم المطاع على انتحال هذه الصنائع بويرون
أنها أحد مذاهب الماش ووجوهه وأن اقتناء المال
منها أيسر وأسهل على مبتغيه ، فيرتكبون فيها
من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف
الحكام وخسارة الأموال في النفقات زيادة على
التيل من خرضه والطب آخراً إذا ظهر على هيبة ،
وهم يحسنون صنعا^(١) وإنما أطعمهم في ذلك رؤية
أن المادّن تستحيل وينقلب بعضها إلى بعض للمادة
المشتركة ، فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة
ذهباً والنحاس فضة ، ويحسبون أنها من إمكانات
عالم الطبيعة . ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة
لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة
الموضوعة عندهم للفلاج المسماة عندهم بالحجر
المكرم هل هي الطلرة أو الدم أو الشعر أو الببيض
أو كلاً أو كل ما سوى ذلك .

وجملة التدبير عندهم بعد تعيين المادة أن
تمهي بالفهر على حجر صلد أملس وتسقى أثناء
إمهاتها بالماء ، بعد أن يضاف إليها من العقاقير
والأدوية ما يناسب القصد منها ، ويؤثر في انقلابها
إلى المدن المطلوب ، ثم تجفف بالشمس من بعد
السقي أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تكلس لاستخراج
ماها أو ثوابها . فإذا رضى بذلك كله من علاجها وتم

ولست أدري ما الكسب إلا
ما جلب البيع والشراء
وإنما ملجئ ديني
ما كان والناس أولياء
إذ لا فصول ولا أصول
ولا جدال ولا ارتياح
ما تبّع الصدر واقتفينا
يا حبلاً كان الاقتفلة^(١)
كانوا كما يعلمون منهم
ولم يكن ذلك الهذاء^(٢)
يا أشعري^(٣) الزمان إلى
أشعري الصيف والشتاء
لم أجز بالشر غير شر
والخير عن مثله جزاء
وإنني إن أكن مطيعاً
فلست أصعب ولي رجاء
وإنني تحت حكم بار
أطاعه العرش والشراء
ليس انتصار لكم ولكن
أنأحه الحكم والقضاء
لو حدث الأشعري عَسَنَ
له إلى رأيه انتماء
نقال أَخْبَرَهُمْ يَأْنِي
مِمَّا يَقُولونه براة

(١) ولعله يقصد بالصدر صدر الإسلام .

(٢) الهذاء : الخبايا .

(٣) يشير إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، وهو من كبار أئمة

علماء الكلام .

(١) اقتبس من قوله تعالى : « قل هل نبتكم بالأسعيرين أمعلاء
فليس مثل سقيم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا
(آل عمران ١٥٤ ، ١٥٥ من سورة الكهف) .

بعض التآليف فيها فتصفحه طويلا ثم رده إلى وقال
 في : « وأنا الضامن له أن لا يعود إلى بيته إلا
 بالخفية » . ثم منهم من يقتصر في ذلك على
 الدلسة ^(١) فقط ، إما الظاهرة كتمويه الفضة
 بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة
 جزء أو جزئين أو ثلاثة ، أو الخفية كالقائه الشبه
 بين المصانيد بالصناعة مثل تبييض النحاس
 وتليينه بالزوق ^(٢) المصعد فيجىء جسبا معدنيا
 شبيها بالفضة ويخفى إلا على النقاد المهرة فيقر
 أصحاب هذا الدلس مع دلتهم هذه سكة يسريونها ^(٣)
 في الناس ويعبونها بطابع السلطان عموما على الجمهور
 بالخلاص ^(٤) . وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم
 عاقبة تلبيسهم بسرقة أموال الناس . فإن صاحب
 هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاسا في الفضة وفضة في
 الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق وأثر من
 السارق .

ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة
 البربر المتبليين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار
 يأوون إلى مساجد البادية وعمهون على الأغنياء
 منهم بأن يلبسهم صناعة الذهب والفضة ،
 والنفوس مولعة بهجها والاستهلاك في طلبها ،
 فيحصلون من ذلك على معاش ، ثم يبقى ذلك
 عندهم تحت الخوف والرقبة إلى أن يظهر العجز

فتليبهز على ما اقتضته أصول صنعه ، حصل من
 ذلك كله ثراب أو مائع يسمنه الإكسير ،
 ويرغمون أنه إذا أُلقي على الفضة المحماة بالنار
 حادت ذهباً أو النحاس المحمى بالنار عاد فضة
 على حسب ما قصد به في عمله .

ويظم المحققون منهم أن ذلك الإكسير
 مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك
 العلاج الخاص والتلبيير مزاج ذو قوى طبيعية
 تصرف ما حصلت فيه إليها وتقلبه إلى صورتها
 ومزاجها وتثبت فيه ما حصل فيها من الكيفيات
 والقوى ، كالخميصة للخبز تقلب العجين إلى
 ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفثاش
 والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل
 صريحا إلى الغذاء ، وكلنا إكسير الذهب والفضة
 فيما يحصل فيه من المعادن يصرفه إليهما ويقلبه
 إلى صورتها .

هذا محصل زعمهم على الجملة فتحدهم
 حاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه
 ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لأئمة الصناعة
 من قبلهم يتداولونها بينهم ، ويتناظرون في فهم
 لغزها وكشف أسرارها ، إذ هي في الأكثر تشبه
 للمعى كتآليف جابر بن حيان في رسائله السبعين ،
 ومسلطة المجريطي في كتابه رتبة الحكيم ، والطرفاني
 والمخيرفي في قصائده العريقة في إجابة النظم وأمثالها
 ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها .

فاوضت يوما شيخنا أبا البركات البلفيقي
 كبير مشيخة الأندلس في مثل ذلك ووقفته على

(١) الدلسة بالهم والناس النسيمة . وليس تدليسا كم ميب
 السلة وندع مشترجا.

(٢) ه لزوق كسر د لزنون .

(٣) يض يشرونها بينهم

(٤) أي يتخلص الذهب والفضة من الشوائب .

بالمعينة أنكروه ، وقالوا إنما سمعنا ولم نر ،
هكذا شأنهم في كل عصر وجيل .

واعلم أن انتحال هذه الصنعة قديم في العالم ،
وقد تكلم الناس فيها من المثقفين والمتفكرين ،
فلنتقل مذاهبهم في ذلك ، ثم نتلوه بما يظهر فيه
من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه . فنقول :
إن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء
على حال المعادن السبعة المنطوقة وهي الذهب
والفضة والرماس والقصدير والنحاس والحديد
والخارصين ، هل هي مختلفات بالقصول (١)

وكلها أنواع قائمة بأنفسها ، أو إنما مختلفة
بخواص من الكيفيات ، وهي كلها أصناف لنوع
واحد . فالذي ذهب إليه أبو نصر القارابي وتابعه
عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد ، وأن اختلافها
إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين
والصلابة والألوان من الصفرة والبياض والسواد ،
وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد . والذي
ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق
أنها مختلفة بالقصول وأنها أنواع متباينة كل
واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته ، له
فصل وجنس شأن سائر الأنواع . وبنى أبو نصر
القارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب
بعضها إلى بعض لإمكان تبدل الأعراض (٢)

(١) الفصل هو مادون الجنس منه المنطقة وهو ما يميز الأنواع
بعضها عن بعض . فالحيوان جنس ، والمنطق فصل يميز الإنسان عما
عده من أنواع الحيوان . (د وان)
(٢) جمع عرس ، وهو عند المنطقة العفة المأخوذة من
إلى لاتين جنسا ولا نوعا ، كالبياض والسواد والفساد والفساد .
هذا وقد عرفت هذه الكلمة في جميع النسخ إلى الأفراس ، بالعين
المبسطة . (د وان)

ونقع الفضيحة فيفرون إلى موضع آخر ، ويستجدون
حالا أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بأطباعهم
فيها لئيبهم . ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم .
وهذا الصنف لا كلام معهم لأنهم بلغوا الغاية في
الجهل والرداة والاحتراف بالسرقة ، ولا حاسم
لعلتهم إلا اشتداد الحكام عليهم ، وتناولهم من
حيث كانوا ، وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم
لأن فيه إفسادا للسكة التي تعم بها البلوى وهي
متحول الناس كافة . والسلطان مكلف بإصلاحها
والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها .

وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال
الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن إفساد
سكة المسلمين ونقودهم ، وإنما يطلب إحالة القضية
للذهب ، والرماس والنحاس والقصدير إلى الفضة
بذلك النحو من العلاج ، وبالإكسير الحاصل عنده
فلنا مع هؤلاء متكلم ويبحث في مداركهم لذلك ،
مع أننا لا نعلم أن أحدا من أهل العلم تم له هذا
الغرض أو حصل منه على بقية ، إنما تذهب أعمارهم
في التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس
واعتيام (١) الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ،
ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم
له الغرض منها أو وقف على الوصول يقنعون
بإستماعها والمفاوضة فيها ، ولا يستريبون في
تصديقها شأن الكلفين الغربيين بوساوس الأخبار
لما يكلفون به ، فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك

(١) يرجع المذكور على عبد الواحد وإلى أن الكلمة محروقة من
اتصاف .

للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ، ثم تحولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي بعناه .

وهذا الذى ذكره فى الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا فى الرد على أهل هذه الصناعة مأخذاً آخر يتبين منه استحالة وجودها ويطالن مزعمهم أجمعين لا الطغرائي ولا ابن سينا . وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعاً ويحافظون فى تدبيرها وعلاجها لتدبير الطبيعة فى الجسم الملقى حتى إحالته ذهباً أو فضة ، ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفصلة لهم فى زمان أقصر ، لأنه تبين فى موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله ، وتبين أن الذهب إنما يتم كونه فى معطيه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى ، فإذا تضاعفت القوى والكيفيات فى العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه ، أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة فتفعل فى الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة فى إحالته ، وذلك هو الإكسير على ما تقدم . واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة ، إذ لو كانت متكافئة فى النسبة لما تم امتزاجها ، فلا بد من الجزء الغالب على الكل . ولا بد فى كل ممتزج من المولدات من حرارة هريزية هى الفاعلة لكونه ، والحافظة لصورته .

حينئذ وعلاجها بالصنعة ، فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ . وبني أبو علي ابن سينا على مذبحه فى اختلافها بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناءً على أن الفصل لاسبيل بالصناعة إليه ، وإنما يخلفه هائى الأثنياء ومقدرها وهو الله عز وجل . والفصول مجهولة الحقائق رأساً بالتصور ، فكيف يحاول انقلابها بالصنعة . وظلغ الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة فى هذا القول ، ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس فى تخليق الفصل وإبداعه ، وإنما هو فى إعداد المادة لقبوله خاصة . والفصل يلقى من بعد الإعداد من لدن خالقه ، كما يفيض النور على الأجسام بالفصل والإمهاء . ولا حاجة بنا فى ذلك إلى تصويره ومعرفته . قال وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بسهولة مثل العقرب من التراب والنتن (١) ، ومثل الحيات المتكونة من الشعر ، ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحه من تكوين النحل إذ فقدت من عجائب (٢) البقر ، وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصويره سكرأً بحشو القرون بالسل بين يدي ذلك الفلح للقرون ، فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك فى الذهب والفضة ، فتتخذ مادة تضيفها

(١) حلق الدكتور وافي على ذلك بما يلى :

هكذا كان يظن قديماً . والحقيقة أن الحشرة لا تتلقى فى مثل هذه الحالة من التراب وما شاكله ، وإنما تنفق من بويضات كانت قد وضعتها الأم فى هذه المواد . غير أنه لما كانت بويضات الحشرات غير مرئية أو لاتكاد ترى ، لذلك يتجمل للإنسان فى بادئ الرأى أن الحشرة تخلق من هذه المواد مباشرة .

(٢) = (الجهل وله البقرة وجميع عجائبه) (القاوس) .

ذلك . وإنما حال من يدعى حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعى بالصنعة تخليق إنسان من المني . ونحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله ، حتى لا يشك منه شيء عن علمه ، سلمنا له تخليق هذا الإنسان ، وأنى له ذلك .

ولنتقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول : حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه بها التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به إلى أن يتم تكوين الجسم المملئ أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلا طبيعياً فتصيره وتقلبه إلى صورتها . والفعل الصناعي مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها أو فعل المادة ذات القوى فيها تصورا مفصلا واحدة بعد أخرى ، وتلك الأحوال لانتهاية لها . والعلم البشري عاجز عن الإحاطة بما دونها ، وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات . هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ماعلمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة ، إنما هو من تعلل الإحاطة وقصور البشر عنها . وما ذكره ابن سينا بمنزل عن ذلك .

وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته ، وذلك أن حكمة الله في الحجرين وتدورهما أنها بما قيم لكاسب الناس ومتولاهم ، فلو حصل عليهما

ثم كل متكون في زمان غلابد من اختلاف أطواره . وانتقاله في زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهى إلى غايته . وانظر شأن الإنسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم إلى نهايته^(١) ونسب الأجزاء في كل طور تختلف في مآدبرها وكيفياتها ، وإلا لكان الطور بعينه الأول هو الآخر . وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر . فانظر إلى الذهب ما يكون له في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وعنانين وما ينتقل فيه من الأحوال ، فيحتاج صاحب الكيمياء إلى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ، ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم . - ومن شرط الصناعة أبدا تصور ما يقصد إليه بالصنعة . فمن الأمثال السائرة أول العمل آخر الفكرة ، وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور ، واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ، ومقدار الزمان في كل طور وما يتوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه ، حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن ، أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتعمل في هذه المادة بالناسبة لقواها ومقاديرها . وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيطة ، والعلوم البشرية قاصرة عن

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا مضغة ، فخلقنا مضغة طائفا ، ففكروا النظام لها » ثم أثنائه خلقاً آخر ، فيبارك الله أنه أحسن المتألفين (آي ١٢ و ١٤ من سورة المؤمنون) .

بالصنعة لبطالة حكمة الله في ذلك ، وكثر وجودها حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء .

وله وجه آخر مع الاستحالة أيضاً وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأمور والأبعد . فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في عملها وأقل زمناً لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في سكون القفص والذهب وتخليقهما . وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من المفردات لأشاله في الطبيعة كالقرب والنحل والحية وتخليقها فغير صحيح في هذه أدى إليه العثر كما زعم ، وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها ، وما زال منتحلوها يخطئون فيها ضبط عشوائاً إلى علم جرا ، ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة . ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتناول في الأصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا .

وأما قولهم إن الإكسير بمثابة الخميرة وإنه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه إلى ذلك ، فاعلم أن الخميرة إنما تقلب العجين وتعدده للضم وهو فساد ، والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع ، والمطلوب بالإكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى ، فهو تكوين وصلاح . والتكوين أصعب من الفساد ، فلا يقاس الإكسير بالخميرة ،

وتحقيق الأمر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما تزعم الحكمة المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم فليست من باب الصنائع الطبيعية ، ولا تتم بلغير صناعي ، وليس كلامهم فيها من منحنى الطبيعيات إنما هو من منحنى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق ، وما كان من ذلك للحلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك . وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكم من هذا المنحنى وهكذا كلام جابر في رسائله . ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه . وبالجمل فاعلموا عندهم من كليات الموارد الخارجية عن حكم الصنائع فكما لا يتلبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشباً أو حيواناً فيأعدا مجرى تخليقه ، كذلك لا يتلبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عاقته إلا بإزفاد مما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع . فكذلك من طلب الكيمياء طلباً صناعياً ضيع ماله وعمله . ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير القيم ، لأن نيله إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع فهو كالشيء على الماء وامتناع الهواء والتنفوذ في كثائف الأجساد ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة ، أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء : قال تعالى : **وإِذْ نَخَلُّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي** (١) . وعلى ذلك فمسبيل تيسيرها مختلف

٣٥ - فصل في المقاصد التي ينبغي اعتقادها بالتأليف والإفاء ما سواها^(١)

إعلم أن العلوم البشرية خزائنها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدنا ذلك الفكر للمحصل لها ذلك بتصور الحقائق أولاً ، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً ، إما بغير وسط أو بوسط ، حتى يستنتج الفكر بذلك مطالبه التي يعنى بإثباتها أو نفيها . فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير فلا بد من بيانها لآخر ، إما على وجه التعليم ، أو على وجه المناقضة لصقل الأفكار في تصحيحها .

وذلك البيان إما يكون بالعبارة ، وهي الكلام المركب من الألفاظ التطبيقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف ، وهي كيفيات الأصوات المقظمة بحضرة اللهات والالسان ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم بعض في مخاطبتهم ، وهذه رتبة أولى في البيان عما في الضمائر ، وإن كان معظمها وأشرفها العلوم ، فهي شاملة لكل ما ينلج في الضمير من خير أو إنشأ على العموم وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدي بها مالى الضمير لمن توارى أو غاب شخصه وبعد أو لمن يأتى بعد ولم يعاصره ولا لقيه . وهذا البيان منحصر في الكتابة . وهي رقوم باليد تدل أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ حروفاً

بحسب حال من يؤتاها . فربما أوتيتها الصالح ويؤتيتها غيره فتكون عنده معارة . وربما أوتيتها الصالح ولا يملك إيتاءها فلا تم في يد غيره .

ومن هذا الباب يكون عملها سحرى . فقد تبين أنها إنما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة إما معجزة أو كرامة أو سحراً . ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها ألغازاً لا يظفر بحقيقته إلا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة . وأمور غرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد إلى تحصيلها والله بما يعملون محيط .

وأكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه^(١) العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش ، وابتغائه من غير وجوه الطبيعية كالزراعة والتجارة والصناعة ، فيستصعب العاجز ابتغائه من هذه ، ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها . وأكثر من يعنى بذلك الفقراء من أهل العمران حتى في الحكماء المتكلمين في إنكارها واستحالتها . فإن ابن سينا القائل باستحالتها كان من عليّة الوزراء فكان من أهل النخى والثروة ، والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه . وهذه مهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها . والله « الرزاق ذو القوة المتين » لا رب سواه .

(١) أثبت هذا الفصل الدكتور حل محه الواحد واق في مشروته قللا من النسخة الخلية التي يسبها التهجوية وهو ساطع من جميع النسخ المتأخرة .

(١) في أول هذا الفصل وفي الفصل الحادي والثلاثين .

غير قوانين الآخرين . ورعا يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة . ومنها الخط السرياني وهو كتابة النبط . والكلدانيين . وربما يزعم بعض أهل الجهل أنه الخط الطبيعي تقدمه فإتهم كانوا أقدم الأمم . وهذا وهم ومذهب عابى . لأن الأفعال الاختيارية كلها ليس شيء منها بالطبع ، وإنما هو يستمر بالقدم والمران حتى يصير ملكة راسخة فيقطنها للمشاهد طبيعية ، كما هو رأى كثير من البلدان في اللغة العربية ، فيقولون : العرب كانت تعرب بالطبع وتنطق بالطبع ، وهذا وهم ، ومنها الخط العبراني ، الذى هو كتابة بنى

هابير بن شامخ من بنى إسرائيل وغيرهم ومنها الخط اللطيني خط اللاتينيين^(١) من الروم . ولهم أيضاً لسان مختص بهم - ولكل أمة من الأمم اصطلاح في الكتاب يحزى إليها ويختص بها ، مثل الترك والفرنجة والهنود وغيرهم^(٢) . وإنما وقعت العناية بالأقلام الثلاثة الأولى : أما السرياني فلقدمه كما ذكرنا ، وأما العربى والعبرى فلتنزل القرآن والتوراة بهما بلسانها ، وكان هذان الخطان بياناً لملوهم ، فوقعت العناية بمنظورهما أولاً ، وانيسطت قوانين الاطراد (ق) العبارة في تلك اللغة على أسلوبها لفهم الشرائع التكليفية من ذلك الكلام الرباني ، وأما اللطيني فكان الروم وهم أهل

بحروف وكلمات بكلمات . فصار البيان فيها على ما في الضمير بواسطة الكلام المنطقي . فلهذا كانت في الرتبة الثانية .

وأحد قسمي هذا البيان يدل على ما في الضمائر من العلوم والمعارف فهو أشرفها . وأهل الفنون معتنون بإبداع ما يحصل في ضمائرهم من ذلك في بطون الأوراق بهذه الكتابة ، لتحمل الفائدة في حصوله للغائب والمتأخر . وهؤلاء هم المؤلفون . والتواليف بين العوالم البشرية والأمم الإنسانية كثيرة ومتنقلة في الأجيال والأعصار . وتختلف باختلاف الشرائع والملل والأخبار عن الأمم والدول . وأما العلوم الفلسفية فلا اختلاف فيها لأنها إنما تأتي على نهج واحد فيها تقتضيه الطبيعة الفكرية في تصور الموجودات على ما هي عليه جسامتها وروحانياتها وفلكها وعصرها ومجدها ومادها . فإن هذه العلوم لا تختلف ، وإنما يقع الاختلاف في العلوم الشرعية لاختلاف الملل ، أو التاريخية لاختلاف خارج الخبر .

ثم الكتابة مختلفة باصطلاحات البشر في رسمها وأشكالها . ويسمى ذلك قلماً وخطاً ، فمنها الخط الحميري ، ويسمى المسند . وهو كتابة حمير وأهل اليمن القدمين . وهو يخالف كتابة العرب المتأخرين من مصر ، كما يخالف لغتهم ، وإن كان الكل عربياً ، إلا أن ملكة هؤلاء في اللسان والعبارة غير ملكة أولئك . ولكل منهما قوانين كلية مستقرة في عبارتهم

(١) في الأصل « ومادها » وهو تحريف .

(١) يقصه اللاتيني واللاتينيين .

(٢) انظر تفصيل الكلام في الخط العربى واجهوله الأولى إلى آخر منها والمراسل التي اجتازها في كتاب « علم اللغة » ص ٢٤٤ - ٢٥٤ رقه ألفه « ص ٢٤٦ - ٢٦٦ طبعه في المطبعة الكائن في جده الواحد واني .

(وثانيتها) أن يعثر التأخر على غلط ، أو خطأ في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله ويعد في الإفادة صيته ويستوثق من ذلك بالبرهان الواضح الذي لا محل للشك فيه ، ويحرص على إيصال ذلك لمن بعده ، إذ قد تعدر محوه ونزعه بانتشار التأليف في الآفاق والأعصار وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه ، فيودع ذلك الكتاب ليقف الناظر على بيان ذلك .

(ورابعها) أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه ، فيقصد المطلع على ذلك أن يتمم ما نقص من تلك من تلك المسائل ، ليكمل الفن بكامل مسائله وفصوله ، ولا يبقى للنقص فيه مجال .

(وخامسها) أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة ، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهبطها ويجعل كل مسألة في بابها .

كما وقع في « المدونة » من رواية مسنون عن ابن القاسم وفي العنبة من رواية العتي عن أصحاب مالك . فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها . فهذه ابن أبي زيد « المدونة » وبقيت « العنبة » غير مهذبة ، فوجد في كل باب مسائل من غيره . واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده .

(وسادسها) أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى ، فيجئها بعض الفضلاء

ذلك اللسان لا أغلوا بدين النصرانية وهو كله من التوراة ، كما سبق في أول الكتاب ، ترجموا التوراة وكتب الأنبياء الإسرائيليين إلى لغتهم ، ليقتنصوا منها الأحكام على أسهل الطرق وصارت عنايتهم بلغتهم وكتابتهم أكثر من سواها (١) . - وأما المخطوط الأخرى فلم تقع بها عناية ، وإنما هي لكل أمة بحسب اصطلاحها .

ثم إن الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلقاء ماسواها ، فعدوها سبعة :

(أولها) استنباط العلم بموضوعه وتقويم أبوابه وفصوله وتبويب مسائله أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق يحرص على إيصالها لغيره لتعم المنفعة به ، فيودع ذلك بالكتاب في الصحف لعل المتأخر يظهر على تلك الفائدة . كما وقع في الأصول في الفقه . تكلم الشافعي أولا في الأدلة الشرعية اللفظية ولخصها ، ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها ، وانتفع بذلك من بعدهم إلى الأبد .

(وثانيها) أن يقف على كلام الأولين وتواليغهم ، فيجعلها مستغلة على الأذهان ، ويقنع الله له في فهمها . فيحرص على إيالة ذلك لغيره ممن عساه يستغلق عليه ، لتصل الفائدة لمستحقها . وهذه طريقة البيان لكتب العقول والمنقول وهو فصل شريف .

(١) انظر تحريره هذه الحقائق وتصحيحها في كتاب « الأسفار المقتضية في الأديان السابقة للإسلام » وخاصة صفحات ١٩ - ٢١ و ٩٤ - ٩٨ و ٩٩ - ٩٦ . للدكتور طه عبد الواحد والي .

لاقائبة فيه . فهذا شأن الجهل والقيحة . ولما قال أرسطو لا عدد هذه المقاصد وانتهى إلى آخرها فقال : وما سوى ذلك ففضل أو شره ، يعنى بذلك الجهل والقيحة . تعوذ بالله من العمل فيها لا يثبتى للعاقل سلوكه . والله يهتدى للى هى أقوم ،

٣٦ - فصل فى أن كثرة التأليف فى العلوم

عائقة عن التحصيل

اعلم أنه مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غايته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات فى التعليم ، وتعدد طرقها ، ثم مغالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك ، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل . فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ، ولا يفى عمره بما كتب فى صناعة واحدة إذا تجرد لها ، فيقع القصور . ولا بد ، دون رتبة التحصيل . وبمثل ذلك من شأن الفقه فى المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمفدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه . ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبهنادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم ، والإحاطة بذلك كله ، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا ، وهى كلها متكررة والمعنى واحد ، والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها ، والعمر ينقضى فى واحد منها .

إلى موضوع ذلك القبح وجمع مسائله ، فيفعل ذلك ، ويظهر به فن ينظمه فى جملة العلوم التى ينتحلها البشر بأفكارهم . كما وقع فى علم البيان^(١) فإن عبد القاهر الجرجاني^(٢) وأبا يوسف المكاكى^(٣) وجدا مسائله متفرقة فى كتب النحو . وقد جمع منها الجاحظ فى كتاب « البيان والتبيين » مسائل كثيرة تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم . فكبت فى ذلك توألفهم المشهورة ، وصارت أصولاً لقن البيان ، ولقنها المتأخرون فأربوا فيها على كل متقدم .

(وسأبها) أن يكون الشيء من التوألف التى هى أمهات للفنون معلوماً مسهباً ، فيعهد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز المتكرر إن وقع ، مع الحذر من حذف الضرورى لتلا يحل بمقصد المؤلف الأول .

فهذه جماع المقاصد التى ينحى عنها بالتأليف ومراعاتها ، وما سوى ذلك ففضل غير محتاج إليه وخطأ من الجادة التى يثعن سلوكها فى نظر العقلاء مثل انتحال ما تقدم لغيره من التوألف بأن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيس من تبديل الألفاظ وتقديم المتأخر وعكسه ، أو بحذف ما يحتاج إليه فى الفن ، أو يأتى بما لا يحتاج إليه ، أو يبدل الصواب بالخطأ ، أو يأتى بما

(١) يقصد بعلم البيان علوم البلاغة على السوم التى تنقسم الآن ثلاثة أقسام : البيان والمقن والديع . وكان لقن « البيان » يطلق قديماً على ما يشمل هذه البحوث الثلاثة جميعاً .

(٢) فى كتابه « دلائل الإجماع » و « أسرار البلاغة » .

(٣) فى قسم من كتابه « المفتح » .

٣٧ - فصل في أن كثرة الاختصارات المولفة

في العلوم مغللة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأشياء في العلوم يولمون بها ويدعون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن . وصار ذلك مخلا بالبالغة وغيراً على الفهم . وربما عدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم . وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل . وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء التباينات من العلم عليه ، وهو لم يستعد لقبولها بعد ، وهو من سوء التعليم كما سيأتي . ثم فيه مع ذلك شغل كبير على التعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها . لأن ألفاظ المختصرات تجعلها لأجل ذلك صعبة عويصة ، فينقطع في فهمها حظه صالح من الوقت . ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم عل سداه ولم تحبب آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدتين لحصول الملكة التامة . وإذا اقتصر عن التكرار (١) قصرت

ولو اقتصر المعلوم بالتعليم على المسائل الملهية فقط . لكان الأمر دون ذلك بكثير ، وكان التعليم سهلاً ، ومأخذه قريباً . ولكنه ذاه لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه . فصارت كالتجربة التي لا يمكن نقلها ولا تحوّلها . ويحتل أيضاً علم العربية من كتاب صيبوية ، وجميع ما كتب عليه ، وطرق البصريين والكوفيين والبلخانيين والأندلسيين من بعدهم ، وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك ، وكيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطعم أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر؛ مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لصيبوية وابن جني وأهل طبعتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريحه وحسن تصرفه فيه ، ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المناهج والطرق والتأليف ؛ ولكن فضل الله يؤتية من يشاء ؛ وهذا نادر من نواذر الوجود . وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة ؛ فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ؛ ؛ ولكن الله يهدي من يشاء (١) .

(١) البهارة ربكية والأروع أن يقول : « وإذا تل تكرار قصرت الملكة . . . الخ » (د . داني) .

(١) جزء من آية ٥٦ من سورة القصص .

الملكة قلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة .
فقصدها إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فتركبهم
صعباً يقطعهم عن تحصيل اللغات النافعة وتمكنها .
ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له (١) .
والله سبحانه وتعالى أعلم .

٢٨ - فصل في وجه الصواب في تعلم العلوم وطريق إفادته

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إما يكون مفيداً
إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً قليلاً قليلاً .
يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي
أصول ذلك الباب . ويقرب له في شرحها على
سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده
لقبول ما يرد عليه ، حتى ينتهي إلى آخر الفن ،
وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم ، إلا أنها
جزئية وضعيفة ، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن
وتحصيل مسائله . ثم يرجع به إلى الفن ثانية
فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ،
ويستوفى الشرح والبيان ، ويخرج عن الإجمال ،
ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي
إلى آخر الفن فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد
شدا (٢) فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا معللاً
إلا وضحه وفتح له عقله ، فيخلص من الفن وقد

استولى على ملكته . لهذا وجه التعليم المقيد . وهو
كما رأيت إما يحصل في ثلاث تكرارات . وقد
يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق
له ويتيسر عليه . وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين
لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته
ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المثقلة
من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ،
ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه ،
ويكلفونه وهي ذلك وتحصيله ، ويخطئون عليه
عما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها ، وقبل
أن يستعد لفهمها . فإن قبول العلم والاستعدادات
لهم تنشأ تدريجاً ، ويكون المتعلم أول الأمر
عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل
التقريب والإجمال وبالأمثلة الحسية . ثم لايزال
الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بخلاف مسائل
ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب
إلى الاستيعاب الذي فوقه ، حتى تتم الملكة في
الاستعداد ثم في التحصيل ، ويحيطه هو بمسائل
الفن . وإذا أقيمت عليه الغايات في البدايات وهو
حينئذ عاجز عن الفهم والوعي ويميد عن الاستعداد
له كلُّ ذهنه عنها ، وحسب ذلك من صعوبة العلم
في نفسه فتكامل عنه وانحرف عن قبوله وتماذى
في هجرته . وإنا أتى ذلك من سوء التعليم .

ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم
كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته ،
وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو متتبعاً ،
ولا يخطئ مسائل الكتاب بغيرها حتى يعميه من

(١) متيسر من قوله تعالى : « ومن يضل الله فإله من هاد »
ومن يهد الله فإله من مضل » (آتى ٣٦ و ٣٧ من سورة الزمر
وهي سورة ٢٩) .

(٢) شدا يخلو شدا من باب تكل جمع قطة من الإبل
ومثاقها ، ومنه قيل لمن أخذ طرفاً من العلم والأدب واستل به على
البعض الآخر شدا ، وهو شاد (المصباح) . - هـ - وفي بعض
النسخ : وقد شدا ، وهو تحريف .

في تعلمك فإن تلقيها بالقبول وأمسكتها بيه
الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة . وأقدم
لك مقدمة تعينك في فهمها . وذلك أن الفكر
الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر
مبتدعاته ، وهو وجدان حركة للنفس في البطن
الأوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للأفعال الإنسانية
على نظام وترتيب ، وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم
يكن حاصلًا بأن يتوجه إلى المطلوب . وقد يصور
طرفه ويروم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط
الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر إن كان
واحدًا ، وينتقل إلى تحصيل آخر إن كان متعددًا ،
ويصير إلى الظفر بمطلوبه . هذا شأن هذه الطبيعة
الفكرية التي تميز بها البشر بين سائر الحيوانات ،

ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة
الفكرية النظرية ، تصفه لتعلم سداده من جهته ،
لأنها وإن كان الصواب لها ذاتيًا إلا أنه قد يعرض
لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين (١) على
غير صورتها من اشتباه الهيات في نظم القضايا
وترتيبها للتناج . فتعين المنطق للتخلص من ورطة
هذا القساد إذا عرض . فالمنطق إذا أمر صناعي
مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها ،
ولكونه أمرًا صناعيًا استغنى عنه في الأكثر . ولذلك
تجد كثيرًا من فحول النظار في الخليفة يحصلون
على المطالب في العلوم دون صناعة المنطق ، ولا سيا

أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولى منه على
ملكة بها ينفذ في غيره . لأن المتعلم إذا حصل ملكة
مالي علم من العلوم استعد بها لقبول ما يقى ،
وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى
ما فوق ، حتى يستولى على غايات العلم . وإذا خلطه
عليه الأمر عجز عن الفهم ، وأدركه الكلال
وانطمس فكره ، ويشس من التحصيل . وهجر
العلم والتعلم . والله يهدي من يشاء

وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم
في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطع ما بينها ،
لأنه ذرية إلى التسيان وانقطاع مسائل الفن
بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها .
وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند
الفكرة مجانية للتسيان كانت الملكة أيسر حصولا
وأحكم ارتباطا وأقرب صبة . لأن الملكات إذا
تحصل بتتابع الفعل وتكراره ، وإذا تنوعت الفعل
تنوعت الملكة الناشئة عنه . والله علمكم ما لم
تكونوا تعلمون .

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعلم
أن لا يخلط على المتعلم علمان معا ، فإنه حينئذ قل
أن يظفر بواحد منهما ، لا فيه من تقسيم البالك
وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر ،
فيستلحقان معا ويستصعبان ، ويعود منهما بالخيبة .
وإذا تفرغ الفكر للتعلم ما هو بسبيله مقتصرًا عليه ،
فرمًا كان ذلك أجدر بتحصيله . والله سبحانه
وتعالى الموفق للصواب .

(فصل) واعلم أيها المتعلم أني أبخضك بفائدة

(١) انظر شرح هذا الموضوع في تعليقي ١٦٨٣ و ١٦٨٤
من تحقيق الدكتور حل به الرواد (في الجزء الرابع) ، الطبعة
الثانية ، لينة البيان .

فيه وفرغ ذهنك له للنقص على مرامك منه ، واضعاً لها (١) حيث وضعها أكابر النظار قبلك ، مستعرضاً للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون . فإذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر المطلوب وحصل الإلهام الوسط . الذى جعله الله من مقتضيات ذاتيات هذا الفكر وفطره عليه كما قلنا . وحينئذ فارجع به إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه فيها ، ووفه حقه من القانون الصناعى ، ثم اكسه صور الألفاظ . وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان .

وأما إن وقفت عند المناقشة والشبهة في الأدلة الصناعية ونمحيص صوابها من خطئها - وهذه أمور صناعية وضعية نستوى جهاتها المتعددة ونتشابه لأجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق ، إنما تستبين إذا كانت بالطبع - فيستمر ما حصل من الشك والارتباك ، وتسدل الحجب على المطلوب ، وتقع بالناظر عن تحصيله . وهذا شأن الأكثرين من النظار والتأخرين ، سيما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت عن ذهنه ، ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي ، تعصب له فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع ، فيقع في الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها ، ولا يكاد يخلص منها .

مع صدق النية والتعرض لرحمة الله ، فإن ذلك أعظم معنى ، ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها ، فيقضى بالطبع إلى حصول الوسط . والعلم المطلوب كما فطرها الله عليه .

ثم من دون هذا الأمر الصناعى الذى هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهى معرفة الألفاظ ودلائلها على المعانى اللغوية ترددها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب . فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر فى المطلوب .

فلولا دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهى أخفها ، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعانى المطلوبة ، ثم القوانين فى ترتيب المعانى للاستدلال فى قوالبها المعروفة فى صناعة المنطق ، ثم تلك المعانى مجردة فى الفكر أشراكا يقتضئ بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه . وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ، ولا يقطع هذه الحجب فى التعلم بسهولة ؛ بل ربما وقف الذهن فى حجب الألفاظ بالمناقشات ، أو عثر فى أشراك الأدلة بشعب الجدل والشبهات ، وقعد عن تحصيل المطلوب . ولم يكد يتخلص من تلك العثرة إلا قليل ممن هدا الله .

فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك فى فهمك أو تشبيب بالشبهات فى ذهنك فاطرح ذلك وانتبد حجب الألفاظ وعوائق الشبهات ، واترك الأمر الصناعى جملة ، وأخلص إلى فضاء الفكر الطبيعى الذى فطرت عليه ، وسرح نظرك

(١) لعل القارىء يرجع إلى « تفهيم » المطبوعة من المقام على حد قوله تعالى : « حتى تورث بالمجيب » أى الشمس المطبوعة من المقام ، وإن كان لم يسبق لها ذكر . (د . ران)

فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار
الإشتغال بها لغواً مع ما فيه من صعوبة الحصول
على ملكها بطولها وكثرة فروعها . وربما يكون
ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات
لطول وسائلها ، مع أن شأنها أهم والعمر يقصر
عن تحصيل الجميع على هذه الصورة ، فيكون
الإشتغال بهذه العلوم الآلية تضييماً للعمر وشغلاً بما
لا ينفع . وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحر
وصناعة المنطق وأصول الفقه ، لأنهم أوسعوا
دائرة الكلام فيها وأكثروا مع التفاريع
والاستدلالات بما أخرجها من كونها آلة وصيرها
من المقاصد . وربما يتبع فيها أنظار لاحاجة بها في
العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو . وهي أيضاً
مضرة بالتعليمين على الإطلاق ، لأن التعليمين
اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم
بوسائلها ، فإذا قطعوا العمر عن تحصيل الوسائل
فمضى يظفرون بالمقاصد ؟ . . فلهاذا يجب على
المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا
في شأنها ، وينبهوا التلميذ على الفرض منها ،
ويبقوا به عنده . فمن نزعت به همت بعد ذلك
إلى شيء من التوغل فليترك له ما شاء من المراق
صعباً أو سهلاً . وكلٌ ميسر لما خلق له .

٤٠ - فصل في تعليم الولدان

واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية

اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار
الدين ، أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه في جميع
أمصارهم ، لا يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ

والزريعة إلى ذلك الحق بالطبع إنما هو الفكر
الطبيعي كما قلناه ، إذا جرد عن جميع الأدغام
وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى . وأما
المنطق فإنما هو واصل لفعل هذا الفكر ، فيساقفه
لذلك في الأكثر . فاعتبر ذلك واستمطر رحمة
الله تعالى متى أحوزك فهم المسائل تشرق عليك
أنواره بالإلهام إلى الصواب . والله الهادي إلى
رحمته . وما العلم إلا من عند الله (١) .

٣٩ - فصل في أن العلوم الآلية لا توسع فيها

الأنظار ولا تفرع المسائل

اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العرمان على
صنفين : علوم مقصودة بالذات ، كالشرعيات
من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام ،
وكانطبيعيات والإلهيات من الفلسفة ، وعلوم
هي آلية ووسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب
وغيرهما للشرعيات ، وكانطنق للفلسفة ، وربما
كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة
المتأخرين . فلما العلوم التي هي مقاصد ، فلا
حرج في توسعة الكلام فيها ، وتفريع المسائل
واستكشاف الأدلة والأنظار ، فإن ذلك يزيد
طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة .
وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق
وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي
آلة لذلك الغير فقط ، ولا يوسع فيها الكلام
ولا تفرع المسائل ، لأن ذلك مخرج لها عن
المقصود ، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير ،
(١) آية ٢٦ من سورة تبارك .

ومضى الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم . فلا يقتصرون لذلك عليه فقط . بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه عنايتهم فيه بالخط . أكثر من جميعها ، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بها ، وبرز في الخط . والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم . لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ، ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول ، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى ، واستعداد إذا وجد المعلم وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ، ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها . إلا أن عنايتهم بالقرآن ، واستظهار لولدان إياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقرآته ، أكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط نبيح لذلك . وبالجمله فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس ، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس ، واستقروا بتونس ، وعندهم أخذ ولدانهم بعد ذلك .

وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على مايلفنا ، ولا أدري بم عنايتهم منها . والذي

الإيمان وعقائده مع آيات القرآن وبعض متون الأحاديث . وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات . وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ماينبنى عليه .

واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ماينشأ عن ذلك التعليم من الملكات .

فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاختصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء المدايسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب ، إلى أن يحلق فيه أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة .

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة . وكذا في الكبير إذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره . فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم . وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ^(١) وهذا هو الذي يراعونه في التعليم . إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه

(١) أي يملونهم الكتابة من حيث هي على الإطلاع لا رسم المصحف فقط واختلاف حملة القرآن فيه كما يفعل أهل المغرب . (د . دك) .

من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي ، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدرسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط ، وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعلم الصبا .

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم ، وأعاد في ذلك وأبدأ ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال : « لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة . ثم يُنتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين . ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتميز عليه بهذه المقدمة » . ثم قال : « ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه » ثم قال : « ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه » . - ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط .

هنا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله . وهو لعمري مذهب حسن . إلا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهي أمك بالآحوال . ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إظهاراً (١)

ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط ، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلون له على انفراد ، كما تتعلم سائر الصنائع ، ويتداولونها في مكاتب الصبيان . وإذا كتبوا لهم الألواح فيخط قاصر عن الإجابة . ومن أراد تعلم الخط ، فعلى قدر ما يستبح له بعد ذلك من المهمة في طلبه ، وببنته من أهل صنعته .

فأما أهل إفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصاد على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة ، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة ، لا أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله (١) ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها ، وليس لهم ملكة في غير أساليبه ، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي ، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام . وربما كان أهل أفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه ، فيقتلدون على تنوع من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل ، إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة ، لا أن أكثر محظوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله .

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفتن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومداومة العربية

(١) يرى الدكتور وإن أن هذا التركيب ركيز وأن استقائه أن يقول : « ووجه ما اعتمد به العوائد من تقدم دراسة القرآن أن في ذلك إظهار التبرك والتواضع لا اعتناء به » . الخ .

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع وما يرى إليه كلام ابن خلدون في تعليق ١٦٨٨ من تحقيق الدكتور حل عبد الواحد والي (الطبعة الثانية لجنة البيان العربي) .

وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها السيف . واعتبره في كل من يملك أمره عليه ، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به ، وتجد ذلك فيهم استقرا . وانظروا في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء ، حتى إنهم يوصفون في كل أفق وحصر بالهرج ومناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد ، وسببه ما قلناه . فينبغي للمعلم في مثله والوالد في ولده أن لا يستبد عليهم في التأديب . وقد قال محمد ابن أبي زيد في كتابه الذي ألّفه في حكم المعلمين والمتعلمين لا ينبغي لمؤدّب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئا ، ومن كلام عمر رضي الله عنه : « من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله » ، حرصا على صون النفوس عن مذلة التأديب ، وعلمنا بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أمك له ، فإنه أعلم بمصلحته .

ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لعلم ولده محمد الأمين فقال : « يا أحمدر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه ، فصبر يدك عليه مسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكُنْ له بحيث وضعتك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبديته ، وامنه من الضحك إلا في أوقاته ، وحله بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت متقم فائدة تفيدك إيادها ، من غير أن تحزنه

للتبرك والثواب ، وحشية ما يعرض للولد في جنون الصبا مع الآفات والقواطع عن العلم ، فيفترقه القرآن ، لأنه ما دام في الحجر^(١) متفاد للحكم ، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ريقه القهر فرما صفت به رياح الشيبية فالقته بساحل البطالة . فيقتنمون في زمان الحجر وريقة الحكم تحصيل القرآن لتلا يذهب خلوا منه . ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا الملعب الذي ذكره القاضي أولى مما أخذ به أهل الغرب والشرق . ولكن الله يحكم ما يشاء ، لا مضب لحكمه ، سبحانه .

٤١ - (فصل) في أن الشدة على المتعلمين

مفردة بهم

وذلك أن إرغاف الحد في التعليم مضر بالتعليم سببا في أصغر الولد لأنه مع سوء الملكة . ومن كان مرباه بالسيف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاها إلى الكسل ، وحمل على الكلب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وحلها ، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهي الحمية والمداينة عن نفسه ومنزله ، وصار حياء على غيره في ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجليل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فارتكس وحاد في أسفل السافلين .

(١) بنى مقام صغيرا تحت رعاية أمه .

٤٣ - فصل في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري
والغوص عن المعاني وانتزاعها من المحسوسات
وتجريدتها في الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها
بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل
ولا أمة ولا صنف من الناس ، ويطلبون من بعد
ذلك الكلي على الخارجيات . وأيضاً يقيسون الأمور
على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي .
فلا تزال أحكامهم وأنظارتهم كلها في الذهن ولا
تصير إلى المطابقة إلا بعد القراغ من البحث والنظر
ولا تصير بالجملة إلى مطابقة ، وإنما يفرغ ما في
الخارج عما في الذهن من ذلك ، كالأحكام
الشرعية فإنها فروع عما في المحفوظ . من أدلة
الكتاب والسنة . نطلب مطابقة ما في الخارج لها
عكس الأنظار في العلوم العقلية نطلب في صحتها
مطابقتها لما في الخارج . فهم متعودون في سائر
أنظارتهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون
سواها . والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما
في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها
خفية ، ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها
بشبه أو مثال ويناقى الكلي الذي يحاول تطبيقه
عليها . ولا يقاس شيء من أحوال العمران على
الآخر ، إذ كما اشتبهت في أمر واحد ، فغلطهما
اختلفا في أمور . فتكون العلماء لأجل ما تعودوه
من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض
إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارتهم

تحميت ذهنه . ولا تمن في مسامحته فيستحل
القراغ ويألفه وقومه ما استطاعت بالقرب
واللائنة ، فإن أباهما عليك بالشدّة والغلظة ،
انتهى .

٤٤ - فصل في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم
وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل
تارة علماً وتعلماً وإلقاء ، وتارة محاكاة وتلقيناً
بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين
أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة
الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها .
والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم معظمة على
المتعلم . حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من
العلم . ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف
الطرق فيها من المعلمين . فلقاء أهل العلوم وتعدد
الشايع يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من
اختلاف طرقهم فيها ، فيجرد العلم عنها ، ويعلم
أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل ، وتنهض قواه
إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات ، ويصحح
معارفه ويميزها عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة
والتلقين وكثرتهما من للمشيخة عند تعددهم
وتنوعهم . وهذا إن يسر الله عليه طرق العلم والهداية
فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب القوائد
والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال ، والله
يهدي من يشاء إلى صراطه مستقيماً .

مؤذنة بتعديق انصباقه . والله سبحانه وتعالى أعلم ،
وبه التوفيق .

٤٤ - فصل في أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية
أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم
العقلية إلا في القليل النادر ، وإن كان منهم العربي
في نسبه فهو عجمي في لغته ومرياه ومشيجته ،
مع أن الملة عربية ، وصاحب شريعته عربي ،
والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم
ولا صناعة لمقتضى أحوال السلاجة والبدوة ،
وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان
الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من
الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه
والقوم يومئذ حرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف
والتدوين ، ولا دفعوا إليه ، ولا دعاهم إليه حاجة .
وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ،
وكانوا يسمونه المختصين بحمل ذلك ونقله
« القراء » أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا
أُمة ، لأن الأُمة يومئذ صفة عامة في الصحابة
بما كانوا عرباً ، فقبل لحملة القرآن يومئذ قرأه
إشارة إلى هذا ، فهم قراء لكتاب الله والسنة
المأثورة عن رسول الله ، لأنهم لم يعرفوا الأحكام
الشرعية إلا منه ومن الحديث ، الذي هو في غالب
موارده تفسير له وشرح ، قال صلى الله عليه
وسلم : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم
بهما : كتاب الله وسنتي » . فلما بعد النقل من

نوع امتداد لإلهم ، فيقعون في الغلط . كثيرا
ولا يؤمن عليهم .

ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل
العمران لأنهم ينزعون بشقوب أذهانهم إلى مثل
شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس
والمحاكاة ، فيقعون في الغلط .

والعالم السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور
ذكرة عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل
مادة على حكمها ، وفي كل صنف من الأحوال
والأشخاص على ما يختص به ، ولا يعدى الحكم
بقياس ولا تعميم ، ولا يفارق في أكثر نظره للمواد
المحيوسة ولا يجاوزها في ذهنه ، كالمسبح لا
يفارق الهر عند الموج .
قال الشاعر :

فلا توهان إذا ما صيحت

فإن السلامة في الساحل

فيكون مأوناً من النظر في سياسته مستقيم
النظر في معالجة أبناء جنسه ، فيحسن معاشه
وتدفع آفاته ومضاره باستقامة نظره : « وفوق
كل ذي علم علم عليم » .

ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأونة
الغلط . لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدا عن
الجسوس ، فلها تنظر في المعقولات الثواني ،
ولول المواد فيها ما يجتمع تلك الأحكام ويتألفها
عند مراعاة التطبيق اليقيني . وأما النظر في
المعقولات الأولى وهي التي تجريدها قريب فليس
كذلك ، لأنها جهالة وصورة للمصنوعات حافظلة

حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمريي . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجمًا كما يعرف ، وكذا حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يبق يحفظ العلم وتلويده إلا الأعاجم . وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « لو نعلق العلم بأكتاف السماء لناله قوم من أهل فارس » .

وأما العرب الذين أدركوأ هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشتغلهم الرياضة في الدولة العباسية وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم ، والنظر فيه ، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها ، مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء أبدًا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها ، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين . وما زالوا يرون لهم حق القيام به ، فإنه دينهم وعلومهم ، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار . حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم ، صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك ، عابث عليه من البعد عن نسبتها ، وامتنعت حملتها بما يرون أنهم بعلمة عنهم مشتغلون بما لا يغني ولا يجدي عنهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في فصل (١١) المراتب الدينية .

فهذا الذي قرورناه هو السبب في أن حملة الشرعة أو عامتهم من العجم .

لأن دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه . ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعليل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه . ثم كثر استخراج أحكام الواقعة من الكتاب والسنة . وفسد مع ذلك اللسان . فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية . وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى وهي وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس واللب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد . فصارت هذه العلوم كلها علومًا ذات ملكات محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت في جملة الصنائع . وقد كنا قلنا أن الصنائع من منتحل الحضار وأن العرب أبعد الناس عنها (١) . فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب وعن سوقها . والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معانهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ ولة القروس - فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والقارصى من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم ، وإنما رويوا في اللسان العربي فاكسبوه بالمريي ومخالطة العرب وصيروهم قوانين وفنًا لن بعدهم . وكذا حملة الحديث الذين

(١) يحيل مل لفصل الحادى والثلاثين وما بعده من الباب الثالث (انظر صفحات ٧٢٤ - ٨٢٢)

(١) في الفصل الحادى والعشرين من الباب الخامس وعنوانه فصل في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع .

٤٥ - فصل في أن العجمة إذا سبقت
إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل
العلوم عن أهل اللسان العربي (١)

والسرّ في ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هي
في المعاني الذهنية والخيالية : من بين العلوم الشرعية
التي هي أكثر مباحثها في الألفاظ وموادها من
الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤيدة
لها وهي كلها في الخيال ، وبين العلوم العقلية
وهي في الذهن . واللغات إنما هي ترجمان عما
في الضمائر من تلك المعاني يؤديها بعض إلى بعض
بالمشاهدة في المناظرة والتعليم وممارسة البحث
في العلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك .
والألفاظ واللغات وسائل وحجب بين الضمائر ،
وروابط . وختم على المعاني . ولا بد من اقتناص تلك
المعاني من ألفاظها من معرفة دلالاتها اللغوية عليها
وجودة الملكة للناظر فيها . وإلا فيختص (٢) عليه
إقتناصها ، زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية
من الاعتياص . وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات
راسخة بحيث تتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك
الألفاظ . عند استعمالها شأن البيهقي والجبلي زال
ذلك الحجاب بالجملة بين المعاني والقهم ،
أو خف ولم يبق إلا معاناة ما في المعاني من المباحث
فقط . هذا كله إذا كان التعليم تلقيناً وبالخطاب
والعبارة . وأما إن احتاج المتعلم إلى الدراسة والتقييد
بالكتاب ومشاهدة الرسوم الخطية من الدواوين

وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في اللغة إلا بعد
أن غمّز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة
فاختصت بالعجم وتركها العرب ، وانصرفوا عن
انتحالها ، فلم يحملها إلا العربون من العجم شأن
الصنائع كما قلناه أولاً .

فلم يزل ذلك في الأمصار مادامت الحضارة
في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء
النهر . فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها
الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع
ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداءة ،
واختص العلم بالأمصار الموقورة الحضارة . ولا أوفر
اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان
الإسلام وينبوع العلم والصنائع . وبقي بعض
الحضارة فيها وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة
التي فيها ، فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع
لا ننكر . وقد دنا على ذلك كلام بعض علمائهم
في تأليف وصلت إلينا من هذه البلاد ، وهو سعد
الدين التفتازاني . وأما غيره من العجم فلم نر لهم
من يعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي
كلاماً يحول على نهايته في الإصابة . فاعتبر ذلك
وتأمل ترعيباً في أحوال الخليفة . والله يخلق
ما يشاء ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له الملك
وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، وحسبنا
الله ومع الوكيل ، والحمد لله .

(١) أثبت طاقم القبول المذكور على مذهب الواحد وأن نقلنا من
النسخة الخطية إلى نسخة المطبوعة ، وهو ساقط من جميع النسخ
المختارة .

كلها بلغة العرب ودواوينها المسطرة بخطهم . واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من اللسان ، والدروسها وذهاب العناية بها .

وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان (١) . وكذا الخط . صناعة ملكتها في اليد (٢) . فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة صار مقصراً في اللغة العربية ؛ لما قلناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة جعل فقل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى (٣) وهو ظاهر . وإذا كان مقصراً في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاص عليه فهم المعاني منها ، كما مر ؛ إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية ، كأصغر أبناء العم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم ؛ فتكون اللغة العربية كلها السابقة لهم ، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية . وكذا أيضاً شأن من سبق له تعلم الخط ، الأعجمي قبل العربي . ولهذا نجد الكثير من علماء الأعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يحدون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراتها ظاهراً ، يخفون بذلك عن أنفسهم مثونة بعض الحجب ، يقرب

عسائل العلوم ، كان هنالك حجاب آخر بين الخط ورسومه في الكتاب وبين الألفاظ المقولة في الخيال ؛ لأن رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على الألفاظ المقولة ، وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة . وإن عرفت ملكة قاصرة كانت معرفتها أيضاً قاصرة ؛ ويزداد على الناظر والمتعلم بذلك حجاب آخر بينه وبين مطلوبه من تحصيل ملكات العلوم أحوص من الحجاب الأول . وإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني ، وصار إنما يعانى فهم مباحثها فقط . هذا شأن المعاني مع الألفاظ والخط بالنسبة إلى كل لغة . والمتعلمون لذلك في الصغر أشد استحكاماً للمكاتب .

ثم إن اللغة الإسلامية ، لما اتسع ملكها ، واندرجت الأمم في طيها ، ودست علوم الأولين بنيتها وكتابتها ، وكانت أمية النزعة والشعار ، فأخذها الملك والعزة وسخرية الأمم لها بالحضارة والتهذيب (١) ، وصيروا علومهم الشرعية صناعة بعد أن كانت نقلاً . فحدثت فيهم الملكات ، وكثرت الدواوين والتواليف ، وتشوقوا إلى علوم الأمم فنقلوها بالترجمة إلى علومهم ، وأفرغوها في قالب أنظارهم وجردوها من تلك اللغات الأعجمية إلى لسانهم ، وأربوا فيها على مداركهم ، وبقيت تلك الدفاتر التي بلغتهم الأعجمية نسباً منسياً وظلاً مهجوراً وهباء منشوراً ، وأصبحت العلوم

(١) أي فأخذها بالخشاعة والتهليل ملكها ومزتها وتسخيرها للعلم ، أي استبدلوا علم الأمم وتسخيرها لهذه الأمم . (د . و .)

(١) لم يتقدم هنا وإنما سيأتى الكلام عليه في الفصل ٤٧ من هذا الباب وعنوانه « فصل في أن اللغة ملكة صناعية » . ولعل هذا الفصل كان متقدماً على الفصل الذي نحن بصدده ثم أعرض عنه ابن خلدون بعد ذلك بدون أن يتبر هذا العبارة . ولذلك أشبهه ونظائر كثيرة في المقدمة ، (د . و .)

(٢) تقدم هنا في الفصل الثلاثين من الباب الخامس وعنوانه « فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية » .

(٣) انظر الفصل الثاني والثلاثين من الباب الخامس وعنوانه « فصل في أن من حصلت له ملكة في صناعة نقل أن يجهد بها ملكة أخرى » .

والقرنج ومائر من ليس من أهل اللسان العربي ،
وفي ذلك آيات للموسمين ^(١) .

٤٦ - فصل في علوم اللسان العربي

أركانها أربعة : وهى اللغة والنحو والبيان
والأدب . ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة ،
إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ،
وهى بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين
عرب ، وشرح مشكلاتها من لغتهم . فلا بد من
معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم
الشريعة . وتتفاوت فى التأكيد بتفاوت مراتبها
فى التوفيق بمقصود الكلام حسبما يتبين فى الكلام
عليها فنأخذ . والذي يتحصل أن الأمم المقدم منها
هو النحو ، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة
فيعرف القائل من للقول والمبتدأ من الخبر ،
ولولاه لجعل أصل الإفادة . وكان من حق علم اللغة
التقدم ، لولا أن أكثر الأوضاع باقية فى موضوعاتها
لم تتغير بخلاف الإحزاب الدال على الإستاد والمسنند
والمسنند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر ،
فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة ، إذ فى جهله
الإخلال بالتفاهم جملة ، وليست كذلك اللغة ،
والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق :

(علم النحو) اعلم أن اللغة فى المعارف هى
عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل
لسانى [ناشئة عن قصد لإفادة الكلام] . فلا بد
أن تصير ملكة متقنة فى العضو الفاعل لها ، وهو

عليهم تناول المعاني . وصاحب الملكة فى العبارة
والخط مستغن عن ذلك لتمام ملكته وأنه صار له
فهم الأقوال مع الخط والمعاني من الأقوال كالجملة
الراسخة ، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني .
وبما يكون الدأب على التعليم والمران على اللغة
وممارسة الخط يفرضان بصاحبهما إلى تمكن الملكة
كما نجد فى الكثير من علماء الأعلم ، إلا أنه
فى النادر . وإذا قرن بنظيره من علماء العرب وأهل
طبقتهم منهم كان باع العرب أطول وملكته أقوى ،
لما عند المستعجم من الفنون بالعجمة السابقة التى
تؤثر القصور بالضرورة .

ولا يعترض على ذلك مما تقدم بأن علماء
الإسلام أكثرهم العجم . لأن المراد بالعجم هنالك
عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التى قرروا أنها
سبب لانتحال الصنائع والملاكات ومن جعلتها
العلوم ^(١) . وأما عجمة اللغة فليست من ذلك ،
وهى المرادة هنا .

ولا يعترض على ذلك أيضًا بما كان لليونانيين
من رسوخ القدم ، فإنهم إنما تعلموها من لغتهم
السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم .

والأعجمى المتعلم للعلم فى اللغة الإسلامية يأخذ
العلم بتغير لسانه الذى سبق إليه ومن غير خطه
الذى يعرف ملكته . فلها يكون له ذلك حجاباً
كما قلناه . وهذا عام فى جميع أصناف أهل
اللسان الأعجمى من القرمى والروم والترك والبربر

(١) احتباس من قوله تعالى : « إن فى ذلك آيات للموسمين »
(آية ٧٥ من سورة الحجر) ، وللمنى لتفكيك المفردات التى
يعرفون حقيقة التى به . (د . د) .

(١) انظر الفصل السابع عشر من الباب الخامس : « فصل فى
أن الصنائع إنما تكمل بكمال السران الحضرى وكثرته » .

السانية. ففسدت عما أتى إليها مما يتأخرها لجنوحها إليه باعتياد السمع. وغشي أهل الحلويم (١) بينهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد فينخلق القرآن والحديث على الفهم، فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشياء [منها] بالأشياء، مثل أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً، وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو. وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بين كتاتنة، ويقال بإشارة على رضى الله عنه، لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها، ففرغ إلى ضبطها بالقوانين الحاكمة (٢) المستقرة.

ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد أخرج ما كان الناس إليها لتحاب تلك الملكة من العرب. فهذب الصناعة وكمل أبوابها. وأخلصها عنه سببويه فأكمل تفاريعها، واستكثر من أدبتها وشواهدا، ووضع فيها كتابه (٣) المشهور الذي صار إماماً (١) الأئمة والمقلد، ومنه قوله تعالى: «والم تأمرهم لحملهم هذا لم جم قوم طاغون ٩» (آية ٣٢ من الأول أسح). (٢) الجاصرة بالصاد لى لى تسمر وتحد. (٣) يسمى مؤلف سبويه «الكتاب» وذلك بعرضنا كلمة «كتاب» بين طائفتين للإشارة إلى أننا قصد علم على مؤلف هاس (د. وان).

اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إثباتاً عن المقاصد للدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أخصى المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى اللوات من غير تكلف ألفاظ. أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا يلد له من ألفاظ، تخصه بالدلالة (١) ولذلك نجد كلام العجم في مخاطبتهم أطول مما نقره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً» (٢). فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيئات أى الأوضاع اعتبار في الدلالة على المقصود، غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها، إنما هي ملكة في ألسنتهم يتأخذها الآخر عن الأول (٣) كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا.

فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز طلب الملك الذى كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما أتى إليها السمع من المخالقات التي للمتعبين [من العجم]. والسمع أبو الملكات

(١) انظر توضيح ذلك وتحريره وتصحيحه كتاب: علم اللغة ص ١٩٧ - ٢٠٧، كتاب لغة اللغة ٢٠٤ - ٢١٩ لذكور على حيد الواحد وان (الطبعة السادسة).

(٢) يرى الدكتور وان أن هذا لا يصح أن يكون دليلاً على ماقرره بعدد اللغة العربية، لأن الحديث غامض يكلم الرسول عليه السلام وما أوتي من اللغة في القرون وقطرة على الإيجاز والتميز من المعاني الكثيرة بالقبيل من الإلفاظ.

(٣) يرى أهل الأحكام والمقول.

العران . ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر (١) منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة . ومفصلة ، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها ، ومياه ، بالمغنى ، في الإعراب ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها ، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرهما ، فوقفتنا منه على علم جم ، يشهد بعلو قدرة في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها . وكأنه ينحو في طريقته منحة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى واتباعوا مصطلح تعليمه . فأتى من ذلك بشيء عجيب ذاك على قوة ملكته وإطلاعه . والله « يزيد في الخلق ما يشاء » (٢)

(علم اللغة) . هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية . وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنطقت القوانين لحفظها كما قلناه ، ثم استمر ذلك الفساد علبسة العجم ومخالطتهم ، حتى تأذى الفساد إلى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتجج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، فشرع كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين .

لكل ما كتب فيها من بعده . ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتاباً مختصرة للمتعلمين يحلون فيها حلوا الإمام في كتابه .

ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصريين القديمين للعرب ، وكثرت الأدلة والحجج بينهم ، وتباينت الطرق في التعليم ، وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد ، وطال ذلك على المتعلمين . وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيماهم لجميع ما نقل ، كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله ، أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له . وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأروجزتين الكبرى والصغرى (١) ، وابن معلى في الأروزة الألفية (٢) وبالجمله فالتأليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها ، وطرق التحليم فيها مختلفة : فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين ، والكوفيون والبصريون واليبسانيون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك .

وقد كادت هذه الصناعة أن تزول بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع يتناقص

(١) تسمى أروجزته الكبرى « الكافية الشافية » ، ولما أروجزته صغرى تسمى « الألفية » المشهورة ، وهي ملخص « الكافية » . (د . وافي) .

(٢) كان الأفضل أن يقدم ابن معلى ، لأن ألفيته سابقة حل ألفية ابن مالك . وإلا فلا يشير ابن مالك نفسه في فاتحة ألفيته إلى قول: « وتقتضى رسماً بغير سطح ثلاثية » (ألفية) ابن معلى وهو يستحق حائز لقبه لا مستوجب ثنائى الجبلا (د . وافي)

(١) يسمى كتابه : مغنى اللبيب عن كتب الأمازيغ ، وله مرجع ابن هشام فيه لموضوعات بحث كبير منها صلة إل « بحوث لغة القديس » . (د . وافي) . (٢) من الآية الأولى من سورة فاطر .

ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية ، فيخرج مجموع تركيبها من حروف الثلاثية ، فيخرج مجموع تركيبها من حروف المعجم . وكذلك في الرباعي والخماسي . فانهضرت له التراكييب لهذا الوجه ، ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف . واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ، ثم ما بعده من حروف الحنك ، ثم الأخراس ، ثم الشفة ، وجعل حروف العلة آخرها وهي الحروف الهوائية . وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصى منها ، فلذلك سمي كتابه بالعين ، لأن المتقدمين كانوا يلهجون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ ، ثم بين المهمل منها من المستعمل . وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقله استعمال العرب له ثقله ، ولحق به الثنائي لقله دورانه ، وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر للدوران . وضمن الخليل ذلك كله كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه .

وجاء أبو بكر الزبيدي - وكتب لهشام المؤيد بالأنطلس في المائة الرابعة - فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب ، وحذف منه المهمل كله وكثيرا من شواهد المستعمل ، ولخصه بالحفظ أحسن تلخيص .

وألف الجوهري من المشاركة كتاب «الصباح» على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداية منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحروف

وكان سابق الحلية في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ألف فيها كتاب «العين» فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي . وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة . وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين ، وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد ، لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين ، فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية . ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك . ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا ، فتكون كلها أعدادا على توالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين . فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب (وهو أن يجمع الأول مع الأخير ويضرب المجموع في نصف العدد) ، ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي ، لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب ، فيكون الخارج جملة الثنائيات . وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين ، (على توالي العدد) لأن كل ثنائية تزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية ، فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالي العدد ، ويضرب فيه جملة الثنائيات

ثم لا كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها ، فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال ، واحتاج إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ ، كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ، ومن الإنسان بالأزهر ، ومن الغنم بالأملح ، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحنًا وخروجًا عن لسان العرب واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي ، وأفرده في كتاب له سماه « فقه اللغة » وهو من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه . فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب . وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فني نظمه ونثره حذوا من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتركيبها . وهو أشد من اللحن في الإعراب وأفحش .

وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة وتكفل بحصرها وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب للأكثر . وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالتداول من اللغة الكثير الاستعمال سهيلا لحفظها على الطالب فكثيرة مثل « الألفاظ » لابن السكيت « والقصيح » لثعلب وغيرهما . وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرم في الأمم على الطالب للحفظ والله الخلاق العليم لا رب سواه .

الأخير من الكلمة لأضطراب الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم [فيجعل ذلك بابا ، ثم يأتي بالحروف أول الكلمة على ترتيب حروف المعجم أيضا ويترجم عليها بالفصول إلى آخرها] ، وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل

ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب « المحكم » على ذلك المنحى من الاستيعاب ، وعلى نحو ترتيب كتاب « العين » . وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريدها فجاء من أحسن الدواوين . ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس ، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبقاء التراجم عليها ، فكانا توأمي رحم وسليلى أبوة [ولكراع من أئمة اللغة كتاب « المنجد » ، ولابن دريد كتاب « النجدة » ، ولابن الأنباري كتاب « الزاهر »] .

هذه أصول كتب اللغة فيها علمناه . وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو كلها . إلا أن وجه الحصر فيها خفي ، ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكم كما رأيت .

ومن الكتب الموضوعية أيضا في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز (وسماه أساس البلاغة) بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ ، وما تجوزت به من المدولات ، وهو كتاب شريف الإفادة .

تسند ويستند إليها ويفضى بعضها إلى بعض ، والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف ، وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ، ويدل عليها بتغير الحركات وهو الإعراب وأبنية الكلمات ، وهذه كلها هي صناعة النحو .

ويبقى من الأمور المكتشفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل . وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة ، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه ، وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب ، فإن كلامهم بعد كمال الإعراب والإبانة . ألا ترى أن قولهم زيد جاعني مغاير لقولهم جاعني زيد من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم . فمن قال جاعني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجئء قول الشخص المسند إليه ، ومن قال زيد جاعني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجئء المسند . وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة . وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم زيد قائم وإن زيدا قائم وإن زيدا لقائم متغايرة كلها في الدلالة ، وإن استوت من طريق الإعراب ، فإن الأول العارى عن التأكيد إنما يفيد الخالي اللحن ، والثاني المؤكد بأن يفيد التردد ، والثالث يفيد النكر ، فهي مختلفة . وكذلك تقول جاعني الرجل ، ثم تقول مكانه بعينه جاعني رجل إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وأنه رجل

[افصل واعلم أن النقل الذي ثبت به اللغة إنما هو النقل عن العرب أنهم استعملوا هذه الألفاظ . لهذه المعاني . لا تقل إنهم وضعوها لأنه متعذر وبعيد ، ولم يعرف لأحد منهم ^(١) وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم تعرف استعماله على ما عرف استعماله [بجامع يشهد باعتباره في الأول شأن القياسات الفقهية ، فثبتت الخمر للنبذ باستعماله في ماء العنب باعتبار الإسكار الجامع . لأن شهادة الاعتبار في باب القياس إنما مدرکہا الشرع الدال على صحة القياس من أصله . وليس لنا مثله في اللغة إلا بالمقل ، وهو محكم ^(٢) . وعلى هذا جمهور الأئمة . وإن مال إلى القياس فيها القاضى وابن سريج وغيرهم ، لكن القول بنفيه أرجح . - ولا تنوهم أن إثبات اللغة في باب الحدود اللفظية ، لأن الحد راجع إلى المعاني ببيان أن مدلول اللفظ . المجهول الخفى هو مدلول الواضح المشهور . واللغة إثبات أن اللفظ . كذا لمعنى كذا . والفرق في غاية الظهور] .

(علم البيان) ، هذا العلم حادث في اللغة بعد علم العربية واللغة . وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ . وما تفهيد ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني . وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها لإفادة السامع مع كلامه هي : إما تصور مفردات

(١) ومن هذا يتبين أن ابن خلدون لا يرى ما يراه بعضهم من أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى الوضع . (د . واق) .

(٢) حكلا في الأصل . والمعنى المقصود : ليس لنا مثله إلا بالمقل لأنه لا حال له في هذه الأمور . (د . واق) .

ويسمى علم البيان . وألحقوا بهما صنفاً آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التجميل إما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه ، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما ، وأمثال ذلك ، ويسمى عندهم علم البديع .

وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين إسم « البيان » وهو اسم الصنف الثاني ، لأن الأقدمين أول ما تكلموا فيه . ثم تلاشت مسائل الفن واحدة بعد أخرى ، وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ ، وقدامة وأمثالهم إطلاعات غير وافية فيها . ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن « محض السكاكي » زيدته ، وهذب مسأله ، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب ، وألف كتابه المسمى « بالفتاح » في النحو والتصريف والبيان ، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه . وأخذ المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه أهماته هي للتداوله لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب « التبيان » ، وابن مالك في كتاب « المصباح » ، وجلال الدين القزويني في كتاب « الإيضاح » و « التلخيص » ، وهو أصغر حجماً من الإيضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره . وبالعجلة فالمشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة . وسببه والله أعلم أنه كمال في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في العمران . والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرناه . أو نقول لعناية العجم

لا يعادله أحد من الرجال . ثم الجملة الإسنادية تكون خيرية وهي التي لها خارج تطابقه أولاً . وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية محل من الإعراب فتزول بذلك منزلة التابع المفرد نعتاً وتوكيداً وبدلاً بلا عطف ، أو يتعين العطف إذا لم يكن للثانية محل من الإعراب ثم يقتضى المحل الإقناب والإيجاز فيورد الكلام عليهما .

ثم قد يدل باللفظ ، ولا يراد منطوقه ويراد لازمه إن كان مفرداً كما تقول زيد أسد ، فلا تريد حقيقة الأسد لمنطوقه وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسمدها إلى زيد ، وتسمى هذه استعارة . وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه ، كما تقول زيد كبير الرماد وتريد به ما زل من ذلك عنه من الجود وقرئ الضيف ، لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما ، فهي دالة عليهما .

وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ ، من المفرد والمركب ، وإنما هي هيآت وأحوال لواقعات جمعت للدلالة عليها أحوال وهيآت في الألفاظ . كل بحسب ما يقتضيه مقامه . فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيئات وجعل على ثلاثة أصناف : الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيآت والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ، ويسمى علم البلاغة . والصنف الثاني يبحث فيه عن اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه ،

وهم معظم أهل المشرق ، كتفسير الزمخشري وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله . وإنما اختص بأهل المغرب من أصفاه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرعوا له ألقاباً وعددوا أبواباً وتوعوا أنواعاً . وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب . وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ . ، وأن علم البديع سهل المأخذ . وصعبت عليهم مأخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنها . ومن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيقي ، وكتاب « العملة » له مشهور وجري كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاه .

واعلم أن ثمره هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن ، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ، وهي أعلى مراتب الكلام ، مع الكمال فيما يختص بالألفاظ . في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها ، وهذا هو الإعجاز الذي تقتصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخاطبة اللسان العربي وحصول ملكته ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه . فلذلك كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك ، لأنهم فرمان الكلام وجهاً بلفظه ، واللون عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصح . وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المقسرون . وأكثر تفاسير المتقلمين غفل عنه حتى ظهر جبار الله الزمخشري ووضع كتابه

علم (الأدب) هذا العلم لاموضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومنابعهم . فيجمعون لذلك من كلام العرب ما يحسن تحصل به الملكة : من شعر عالي الطبقة ، وسجع متساو في الإجابة ، ومسائل من اللغة والنحو ميثوقة أثبات ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر في الغالب معهم قوانين العربية ، مع ذكر بنى من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة . والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومعاني بلاغتهم إذا تصفحه ، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا

بعد فهمه ، فيحتاج إلى تقديم جميع مايتوقف عليه فهمه .

ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ، وهى القرآن والحديث ، إذ لامتدخل لغير ذلك من العلوم فى كلام العرب ، إلا مذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية فى أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية . فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها . وسعنا من شيوعنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البهتادى . ومما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها . وكتب المحللين فى ذلك كثيرة .

وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه . وكان الكتاب والفضلاء من الخواص فى الدولة الهباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه . فلم يكن انتحاله قاصدا فى العدالة والمروعة . وقد ألف القاضي أبو القرج الأصبهاني ، وهو ما هو ، كتابه فى « الأغاني » جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل ميناء على الغناء فى المائة

صوت التى اختارها المغنون للرشد ، فاستوحب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه . ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشنات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ والفناء وسائر الأحوال ، ولا يعادل به كتاب فى ذلك فيما تعلمه ، وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندنا ، وأنى له بها ؟

ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادى للصواب .

٤٧ - فصل فى أن اللغة ملكة صناعية

إعلم أن اللغات كلها شبيهة بالصناعة إذ هى ملكات فى اللسان للعبارة عن المعانى ، وجودها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها . وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب . فإذا حصلت الملكة التامة فى تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعانى المقصودة ، ومراعاة التأليف الذى يطبق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة . والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ، لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ، ثم تكرر فتكون حالا ، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزداد التكرار فتكون ملكة أى صفة راسخة

فللتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم فى مخاطبتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمالا للمفردات

بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية
والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٤٨ - فصل في أن لغة العرب لهذا العهد

لغة مستقلة مغايرة للغة مصر وحمير (١)

وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء
بالدلالة على سنن اللسان المضرى ، ولم يفقد منها
إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول ، فاعتاضوا
منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل
على خصوصيات المقاصد . إلا أن البيان والبلاغة
في اللسان المضرى أكثر وأحرث . لأن الألفاظ
بأعياها دالة على المعاني بأعياها ، ويبقى ما تقتضيه
الأحوال ويسمى بساط الحال محتاجاً إلى ما يدل
عليه . وكل معنى لابد وأن تكتفه أحوال تخصه ،
فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود
لأنها صفاته . وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر
ما يدل عليها بالفاظ . تخصها بالوضع . وأما
في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات
في تراكيب الألفاظ . وتأليفها من تقديم أو تأخير
أو حذف أو حركة إحراب ، وقد يدل عليها
بالحروف غير المستقلة . ولذلك تفاوتت طبقات
الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة
على تلك الكيفيات كما قدمناه . فكان الكلام
العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع
الألسن . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم
« أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً »

(١) يرى د . واق أنه كان الأول أن يثبت هذا الفصل . فصل
في فرد على زعم أن لغة العرب . . . إلخ ؛ لأن موضوع هذا الفصل
ليس بيان لغة العرب وتأليفها ، بل عودها إليها .

في معانيها ، فيلقنها أولاً ، ثم يسمح التراكيب
بعدها فيلقنها كذلك ، ثم لايزال معاهم لذلك
يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم ، واستعماله
يتكرر ، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ،
ويكون كأحدهم . هكذا تصيرت الألسن واللغات
من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال وهذا
هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع
أى بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ، ولم يأخذوها
عن غيرهم .

ثم فسدت هذه الملكة لضرر بمخالطتهم الأعاجم .
وسبب فسادها أن الناشئة من الجيل ، صار
يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير
الكيفيات التي كانت للعرب ، فيعبر بها عن
مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ،
ويسمع كيفيات العرب أيضاً فاختلط ، عليه
الأمر وأخذ من هذه وهله ، فاستحدثت ملكة
وكانت ناقصة عن الأولى . وهذا معنى فساد
اللسان العربي .

ولهذا كانت لغة قريش أنصح اللغات العربية
وأصرحها لبعدهم عن بلاد النجم من جميع جهاتهم
ثم من اكتشفهم من ثقيف وهدل وخرافة وبنى
كنانة وغطفان وبنى أسد وبنى نعيم . وأما من بعد
عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة
وعرب اليمن المجاورين لأطم الفرس والروم والحشة
فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم .
وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج

وبلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب ، وصارت ملكته على غير الصور التي كانت أولاً فانقلب لفة أخرى . وكان القرآن متنزلاً به والحديث النبوي متقولاً بلسانه وهما أصلاً اللين والملة ؛ فخشى تناسيهما وانفلاق الأقهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزل به ، فاحتجج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه ، وصار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل ، مباح أهله يعلم النحو ، وصناعة العربية ، فأصبح فناً محضوفاً وعلماً مكتوباً وسليماً إلى فهم كتاب الله ومسنه رسولهِ وأميناً . ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد^(١) واستقرينا أحكامه نخاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأشور أخرى موجودة فيه ، فتكون لها قوانين تخصها ، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لفة مضر . فليست اللغات وملكانها مجاناً . ولقد كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بهذه المثابة ؛ وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى ونصايف كلماته تشهد بذلك الأتقال الموجودة لدينا ؛ خلافاً لمن يحمله القصور على أنها لفة واحدة ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس المضرية وقوانينها ،

واعتبر ذلك بما يحكى عن حمير بن عمار وقد قال له بعض النحاة إلى أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم زيد قائم وإن زيدا قائم وإن زيدا قائم والمعنى واحد ؛ فقال له إن معانيها مختلفة : فالأول لإفادة الغالى للذهن من قيام زيد ؛ والثاني لمن سمعه فتردد فيه ؛ والثالث لمن عرف بالإصرار على إنكاره ؛ فاختلقت الدلالة باختلاف الأحوال .

وما زالت هذه البلاغة والبيان يدين العرب ومليهم لهذا العهد . ولا تلتفتن في ذلك إلى خرق^(٢) النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد فحيت ، وأن اللسان العربى فسد ، اعتباراً بما وقع أواخر الكلام من فساد الإعراب الذى يتداولسون قوانينه . وهى مقالة دسها التشيع في طباعهم ، وألقاها القصور في أفئدتهم ، وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى ، والتعبير عن المقاصد والتفاوت فيه يتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد ، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطبتهم ، وفهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم ، والشاعر المقلق على أساليب لغتهم ، واللوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك . ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلام فقط ، الذى لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيماً معروفاً وهو الإعراب ، وهو بعض من أحكام اللسان . وإنما وقعت العناية

(١) والغرض بالفتح الخلل (القاموس) . فالغرض التخليط والإضطراب .

(١) أى بالجهات العربية المستعمدة في التخاطب في هذا العهد . ومن هنا يظهر أن ابن خلدون يرى أنه من الممكن استعمال هذه الجهات العامة في الكتابة والاصطفاة من حركات الإعراب ، التى تمتاز بها العربية الفصحى ؛ بما تقتضيه أساليب هذه الجهات من فرائض تدل على وظيفة الكلمة في الجملة - وهذا ملحظ غير منهج (انظر في الرد عليه صفحات ١٥٠ - ١٥٢ من الطبعة السابعة من كتابه فقه اللغة) . (لاكتور على عبد الواحد وان) .

وعندهم أنه إنما يتميز العربي الصريح من النحيل في الرومية والحضرى بالنطق بهذه القاف . ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها . فإن هذا الجيل الباقيين معظمهم ورؤسائهم شرقاً وغرباً في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من مليم بن منصور ، ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور . وهم لهذا العهد أكثر الأمم في الممور وأغلبهم ، وهم من أعقاب مضر ، وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف أسوة . وهذه اللغة لم يتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة . ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولين ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها . وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم الكتاب « اهدنا الصراط المستقيم » بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته . ولم أدر من أين جاء هذا : فإن أهل الأمصار أيضاً لم يستحدثوها ، وإنما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الأمصار من لدن الفتح . وأهل الجيل أيضاً لم يستحدثوها ، إلا أنهم أبعد من مخالطة الأعاجم من أهل الأمصار . فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم . هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقاً وغرباً في النطق بها ، وأنها الخاصية التي يتميز بها العرب من الهجين الحضري . فتفهم ذلك ، والله الهادي للبين

كما يزعم بعضهم في اشتقاق القَيْل ^(١) في اللسان الحميري أنه من القول وكثير من أشباه هذا ، وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها ^(٢) كما هي لغة العرب لهدنا مع لغة مضر . إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط . والاستقراء ، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه .

ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف . فلهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى ، وما ينطقون بها أيضاً من مخرج الكاف ، وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي ، بل يجيشون بها متوسطة بين الكاف والقاف . وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق ، حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال ومختصاً بهم لا يشاركهم فيها غيرهم . حتى إن من يريد التعرب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكهم في النطق بها .

(١) القيل الملك من ملوك حبر ، أو دون الملك الأعلى (من القاموس) .

(٢) انظر تحرير القول في الفرق بين اللغة العربية المضرية واللغة البينية القديمة قبل قلب اللغة المضرية عليها وبعد قلبها عليها ومما رتب فيه الباحثون في هذا الموضوع من خطأ ومنهم المذكور له حسين في كتابه « الشعر الباعل » ، انظر هذا كله وما إليه في صفحات ٧٥-٨٢ من الطبعة السادسة من كتاب « لغة العرب » ، المذكور وفي .

٤٩ - فصل في أن لغة أهل الحضر والأمصار

لغة قائمة بنفسها مخالفة لغة مضر

اعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجبل ، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجبل العربي الذي نلهدنا ، وهي عن لغة مضر أبعد . فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر ، يشهد له ما فيها من التأثير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحناً . وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم . ف لغة أهل المشرق مبينة بعض الشيء لغة أهل المغرب ، وكذا أهل الأندلس معها وكل منهم متوصل بلفظه إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه . وهذا معنى اللسان واللغة . وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد . وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجبل ، فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة ، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد ، لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه ، وهذه ملكة مستزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم ، فعل مقدار ما يسمونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى . واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق أما إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور صمراتها بهم ، ولم يكذب يخلو عنهم مصر ولا جبل ، فقلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم ، وصارت لغة أخرى مستزجة

والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه ، فهي من اللسان الأول أبعد . وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم ، وتداولت بينهم لغاتهم في الأكره (١) والفلاحين والسبي (٢) الذين اتخلوهم بخلاوات وأعتاراً ومراضع ، ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى . وكذا أهل الأندلس مع صم الجلالة والإفرنجية . وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقايم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر ويخالف أيضاً بعضها بعضاً كما نذكره . وكذا لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم . والله يخلق ما يشاء ويقدر .

٥٠ - فصل في تعليم اللسان المضرى

اعلم أن ملكة اللسان المضرى لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ، ولغة أهل الجبل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن ، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه . إلا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات . ووجه التعليم لمن يبتشى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث ، وكلام السلف ، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأعارهم ، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن

(١) وأكرت الأرض من باب فرط حرثها ، وإسم القمل أكر بالتشبيه لبقائه ، والجمع أكره كأنه جمع أكر وزان كفرة جمع كاف (المصباح) .

(٢) أي اللدوا من باب دوى ، وقوم بني وصف بالصدور (المصباح)

ويخرجها من الجانب الآخر عقداً كلياً ، ثم يردّها إلى حيث ابتدأت ، ويخرجها قدام متفلّحها الأول بطرح ما بين التقيين الأولين ، ثم يتأدى على ذلك إلى آخر العمل ، ويعطى صورة الحكب والتنبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها وهو إذا طوّل أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه منه شيئاً . وكذا لو مثل عالم بالتجارة عن تفصيل الخشب فيقول : هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقدانه بينكما ، وأطرافه المضرسة المحددة تفتح ما مرث عليه ذاهبة وجائية إلى أن ينتهى إلى آخر الخشبة ، وهو لو طوّل بهذا العمل أو شئ من لم يحكمه . وهكذا العلم بقوانين الإحزاب مع هذه الملكة في نفسها . فإن العلم بقوانين الإحزاب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل . ولذلك نجد كثيراً من جهالة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا مثل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن المصواب وأحسر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي . وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويجيد اثنين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية .

فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة

العبارة عن المقاصد منهم . ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عبارتهم ، وتأليف كلماتهم ، وما وهّاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم ، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ، ويزداد بكثرة رسوخها وقوة . ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التركيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال . والذوق يشهد بذلك . وهو ينشأ من هذه الملكة والطبع السليم فيها كما نذكر . وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المصنوع نظماً ونثراً . ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مفض ، وهو الناقد البصير بالبالغة فيها . وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها . والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه .

٥١ - فصل في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة . فهو علم بكيفية لا نفس كيفية ، فليست نفس الملكة ، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ، ولا يحكمها عملاً . مثل أن يقول بصير بالخياطة غير مُحَكِّمٍ للمكتها في التعبير عن بعض أنواعها : الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت (١) الإبرة ، ثم يغرّزها في لبث الثوب مجتمعين ،

(١) انحرت بفتح الخاء وضمة القاف والآن وغيرها (القاموس) .

أعربوا شاهداً أو رجحوا ملعباً من جهة الاقتضاء اللغوي لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه . فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل ، ويعتد عن مناحي اللسان وملكته ، وما ذلك إلا لدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه ، وغفلتهم عن المران في ذلك للتعلم ، فهو أحسن ما تفيد به الملكة في اللسان ، وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم ، لكنهم أجروها على غير مقاصد بها ، وأصاروها علماً بحثاً ، وبعُدوا عن ثمرتها .

وتعلم ما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ ، من كلام العرب ، حتى يرتسم في خياله المتوالي الذي تسجوا عليه تراكيبهم فينجم هو عليه ، ويستنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم ، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم . والله مقدر الأمور كلها ، والله أعلم بالغيب .

٥٢ - فصل في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنه لا يحصل غالباً للمستعربين من العجم

اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنونه البيان ، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان . وقد مر تفسير البلاغة ، وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك . فالتكلم بلسان العرب والبلوغ فيه يتحرى الهيئة المقتضية لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده .

العربية ، وأنها مستغنية عنها بالجملة . وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيراً بحال هذه الملكة ، وهو قليل واتفاق . وأكثر ما يقع للمخالفين « لكتاب » سيبويه ، فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط ، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم ، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة . فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفظة في أمكانه ومفاصل حاجاته ، وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها ، فكان أبلغ في الإفادة . ومن هؤلاء المخالفين « لكتاب » سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة . وأما المخالطون لكتب التأخرين العارية عن ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأسر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها . فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد عنه .

وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلومها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم ، لقيامهم فيها على شواهد العرب وأشعارهم ، والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم ، فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم ، فتقطع النفس لها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها . وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا إن

العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أَرْضَ عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وربما يحجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانبة ، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المقادة بالاستقراء ، وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم .

ومثاله لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وربي في جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها ، وليس من العلم القانوني في شيء ، وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه . وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يُحصَل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين أجيالهم . والقوانين بمنزلة هذا . واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم اللوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان ، وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم ؛ لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه ؛ وأيضاً فهو وجداني اللسان ، كما أن الطعوم محسوسة له ، فقيل له ذوق .

وإذا تبين لك ذلك علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله ، كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب ، فإنه لا يحصل لهم

إذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه ، وسهل عليه أمر التركيب ، حتى لا يكاد ينحرف فيه غير منحنى البلاغة التي للعرب . وإن سمع تركبياً غير جار على ذلك المنحنى مجّه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ، بل ويغير ، فكر ، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة . فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كآلتها طبيعة وجيلةً لذلك المحل . ولذلك يظن كثير من المفضلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغةً أمر كذلك ، وإنما هي ملكة إنسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في باديه الرأي أنها جيلةً وطبع .

وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه ، وليست تحصل بمعرفه القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان ؛ فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها ، وقد مر ذلك^(١) . وإذا تقرر ذلك فملكه البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتركيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم . ولو رام صاحب هذه الملكة حَيْدًا عن هذه السبيل المعينة والتركيبة المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه ، لأنه لا يمتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده . وإذا عرض عليه الكلام حائلاً عن أسلوب

(١) في الفصل السابق لهذا مباحثه .

واليوم الواحد من العم إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار ، فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار ، ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي . ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمداينة والحفظ . يستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له ، لا قدمناه^(١) من أن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة . وإن فرضنا صحيحاً في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالمداينة فربما يحصل له ذلك . لكنه من التذور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر . وربما يدعى كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا النوع له بها ، وهو غلط . أو مخالطة . وإنما حصلت له الملكة إن حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء . « والله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .^(٢)

٥٣ - فصل في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ، ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

والسبب في ذلك ما يسبق إلى المتعلم من حصول ملكة متافية للملكة المطلوبة ، بما سبق إليه من اللسان الحضري الذي أفادته العجمة ، حتى نزل

هذا النوع لتصور حفظهم في هذه الملكة التي قررنا أمرها . لأن قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى إلى اللسان وهي لغاتهم أن يحتوا بما يتداوله أهل مصر بينهم في المحاورة من مفرد ومركب لا يضطرون إليه من ذلك . وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الأمصار ، وبعدها عنها كما تقدم^(١) وإنما لهم في ذلك ملكة أخرى ، وليست هي ملكة اللسان المطلوبة . ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء وإنما حصل أحكامها كما عرفت . وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتقاد والتكرار لكلام العرب . فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والقاسمي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أجمعاً مع حصول هذه الملكة لهم ، فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط . أما العربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم . فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا ورائها . وكانهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشئوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها . فهم وإن كانوا عجماً في النسب فليسوا بأعجم في اللغة والكلام ، لأنهم أدركوا اللغة في عتقوتها واللغة في شبابه ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الأمصار^(٢) . ثم عكفوا على الممارسة والمداينة لكلام العرب حتى استولوا على غايته .

(١) يشير بذلك إلى ما ذكره في الفصل الثاني والشرين من الباب الخامس ، وهو أنه « فصل في أن من حصل له ملكة في صناعة قتل أن يجيد بلسان ملكة أخرى » .
(٢) آخر آية ٤٦ من سورة النور وهي سورة ٢٤ .

(١) في الفصل التاسع والأربعين من هذا الباب وهو أنه « فصل في أن لغة أهل الحضرة والأمصار لغة قائمة بلسانها . . . إلخ » .
(٢) أي لا من اليهود ولا من أهل الأمصار .

عليها ، ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن .
مائلة إلى القصور .

وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلأتهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراً . وكان فيهم ابن حيان المؤرخ ، إمام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها ، وابن عبد ربه والقسطي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف ، لا زخرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين ، حتى كان الانقراض والجلال أيام تغلب النصرانية ، وشغلوا عن تعلم ذلك ، وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الضعيف . وكان من آخرهم صالح بن شريف ، ومالك بن المرحل من تلاميذ الطبقة الإشبيلية بـسببته وكتاب دولة ابن الأحمر في أولها . وألقت الأندلس أفلاد كبدتها من أهل تلك الملكة بالجلال إلى العدو من إشبيلية إلى سبته ، ومن شرق الأندلس إلى إفريقية . ولم يلبثوا إلى أن انقضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة ، لسر قبول الطوة لها وصعوبتها عليهم ، بعوج ألسنتهم ورسوخهم في السجة البربرية ، وهي منافية لما قلناه . ثم عادت الملكة من بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت ، ونجم بها ابن بشر بن جابر وابن الجياب وطبقتهم ثم إبراهيم الساحل الطريحي وطبقته ، وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيداً يسعياً أعدائه . وكان له في اللسان ملكة

بها اللسان من ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضري لهذا العهد . ولهذا نجد للعلمين يلعبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للوُلدان . وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك . إنما هي بتعليم هذه الملكة بمخاطبة اللسان وكلام العرب . نعم صناعة النحو أقرب إلى مخالطة ذلك . وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق في العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر يصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ . واعتبر ذلك في أهل الأمصار . فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول ، كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم . ولقد نقل ابن الرقيق^(١) أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له : « يا أخى ومن لا علمت فقد أعلمني أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع اللين نائى ، وعاقنا اليوم فلم يتهياً لنا الخروج . وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كتبوا هذا باطلا ، ليس من هذا حرفاً واحداً ، وكتابي إليك ، وأنا مشتاق إليك إن شاء الله . » وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري شبيها بما ذكرنا . وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة ، ولم تزل كذلك ، لهذا العهد . ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرق . وأكثر ما يكون فيها الشعراء طائرين

(١) هكذا في جميع النسخ ، ويرجح الدكتور وإن أنه حرف من ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب « المنة » .

للأعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم ، وذلك في دولة الديلم والسلجوقية ، وغالطوا أهل الأمصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته ، وصار متعلمها منهم مقصرا عن تحصيلها . وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور وإن كانوا مكثرين منه . والله يخلق ما يشاء ويختار ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق ، لا رب سواه .

٥٤ - فصل في إنقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

إعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين : في الشعر المنظوم ، وهو الكلام الموزون المقفى ، ومعناه الذى تتكون أوزانه كلها على روى واحد وهو القافية ؛ وفى النثر وهو الكلام غير الموزون . وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام . فاما الشعر فمعه المدح والهجاء والرثاء وأما النثر : فمعه السجع الذى يؤتى بها قطعاً ، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ؛ ومنه المرسل وهو الذى يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل لإرسالا من غير تقييد بقافية ولا غيرها ، ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم .

وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلًا مطلقاً ولا مسجعاً . بل تفصيل آيات ينتهى إلى مقاطع يشهد النون بانتهاه الكلام عندها . ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ، ويثنى من غير

لا تلك ، وأتبع أثره بعده ، وبالجمله فشأن هذه الملكة بالأندلس أكثر ، وتعليمها أيسر وأسهل ، بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظة عليها وعلى علوم الأدب وسند تعليمها ، ولأن أهل اللسان المعجمى الذين تفسد ملكتهم إغما هم طارئون عليهم ، وليست عجمتهم أصلا للغة أهل الأندلس . والبربر في هذه العدة هم أهلها ولسانهم لسانها ؛ إلا في الأمصار فقط ، فهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ووطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الأندلس .

واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية ، فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة وإجادتها ، لبعدهم لذلك العهد عن الأعاجم ومخالفتهم إلا في القليل . فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم ، وكان فحول الشعراء والكتاب أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق . وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من نظمهم ونثرهم ، فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم ، وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم ، وملتهم العربية وسيرتهم وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغنائهم وسائر مغانيهم له ، فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب . وبقى أمر هذه الملكة مستحكما في المشرق في الدولتين ، وربما كانت فيهم أبلغ ممن سبواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد ، حتى تلاهى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم ، وصار الأمر

التزام حرفت يكون سجعاً ولا قافية ، وهو معنى قوله تعالى : **وَاللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُثَابَرَةً مُنَانِي تَقْشِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** (١) . وقال : وقد فصلنا الآيات (٢) .

ويسمى آخر الآيات منها فواصل ، إذ ليست أسجاعاً ، ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ، ولا هي أيضاً قواف . وأطلق اسم الثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه ، واختصت بأسم القرآن (٣) للغة فيها كأنهم للشريا ، ولهذا سميت السبع الثاني . وانظر هنا مع ما قاله المفسرون في تحليل تسميتها بالثاني يشهد لك الحق بوجهان ما قلناه .

واعلم أن لكل واحد من هذه القنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه ، مثل النسيب المختص بالشعر ، والحمد والدعاء المختص بالخطب ، والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك . وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنشور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض ، وصار هذا المنشور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترق إلا في الوزن . واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه ، وخطروا

الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه . وخصوصاً أهل المشرق . وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه . وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تعبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب . وهذا الفن المنشور المقتضى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر . فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه . إذ أساليب الشعر تناسبها اللوذية وخطب الجد بالهزل والإطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك في الخطاب . والتزام التقفية أيضاً من اللوذية والتزيين ، وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه . والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسيل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجع إلا في الأقل النادر ، وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له ، ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقتها لمقتضى الحال ، فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وكناية واستعارة . وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم . وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجزة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقتها لمقتضى الحال . فهجروا عن الكلام المرسل لبعده أمله في البلاغة

واعتلم أن لكل واحد من هذه القنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه ، مثل النسيب المختص بالشعر ، والحمد والدعاء المختص بالخطب ، والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك . وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنشور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض ، وصار هذا المنشور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترق إلا في الوزن . واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه ، وخطروا

(١) آية ٣٣ من سورة الزمر .

(٢) (آية ١٢٦ من سورة الأنعام) « وهذا صراط ربك مستقيماً » قد فصلنا الآيات لقوم يهكرونها .

(٣) وهي سورة اللغاة ، فانه يطلق عليها سبع الثاني .

والنفساح خطوبه . وولعوا هذا السجع يلقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البليغة ، ويفضلون عما سوى ذلك . وأكثر من أخذ هذا الفن وبالع فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعرأه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخولون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تنجيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجعون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسبون بنية الكلمة صامها بمصادف التجنيس : فتأمل ذلك بما قيمناه لك نقف على صحة ما ذكرناه . والله الموفق للصواب بمنه وبره ، والله تعالى أعلم .

٥٥ - سهل في أنه لا يتحقق الإجابة في في المنظوم والنثر معاً إلا للأكل

والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكة في اللسان ، فإذا تيسقت إلى سله ملكة أخرى فصيرت بالمثل عن تمام الملكة الإلحاق ، لأن تمام الملكات ويصير لها للبطائع التي على القطرة الأولى أسهل وأيسر . وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت متنازعة لها في البدء القابلة وجائفة عن سرعة القبول ، فوقع التنازع وتعلب التام في الملكة . وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق . وقد برهنا عليه في موقعه ينحو من هذا البرهان^(١) . فاعتبر مثله في اللغات فإنها ملكات اللسان وهي بمنزلة

(١) يشير بذلك لما ذكره في الفصل الثاني والعشرين من إحياء الفلاس ، وعنوانه : فصل في أن من حصل له ملكة في صناعة نقل أن يجد بعضا ملكة أخرى .

٥٦ - فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم . ويوجد في سائر اللغات . إلا أنا الآن إنما نتكلم في الشعر الذي للرب . فإن أمكن أن تجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم ، وإلا فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه . وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى ، إذ هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة . وتسمى كل قطعة من هذه القطعيات هندهم بيتاً . ويسمى الحرف الأخير الذي تنفتح فيه رويًا وقافية . ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدية وكلمة .

وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده . وإذا أُفرد كان تاماً في بابيه في مدح أو تشبيب أو رثاء . فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك في البيت ما يستقل في إفادته . ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك . ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود بأن يوطئ المقصود الأول ومعانيه إلى أن تناسب المقصود الثاني ، ويبعد الكلام عن التنافر ، كما يستطرد من التشبيب إلى المدح ، ومن وصف البيداء والطول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف ، ومن وصف المملوح إلى وصف قومه وعساكره ، ومن التفجع والزاء في الرثاء إلى التأثر وأمثال ذلك .

ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه ، فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس . ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض . وليس كل وزن يتفق في الطبع استعمالته العرب في هذا الفن ، وإنما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور . وقد حصروها في خمسة عشر بحرًا ، بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظامًا .

واعلم أن فن الشعر من بيوت الكلام كان شريعاً عند العرب ، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم ، وشاهد صوابهم وخطئهم ، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم . وكانت ملكته

ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقتهم فاعلم أنها عبارة عندهم عن النوال الذي ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذي يفرغ فيه ، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله

ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه ، فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس . ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض . وليس كل وزن يتفق في الطبع استعمالته العرب في هذا الفن ، وإنما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور . وقد حصروها في خمسة عشر بحرًا ، بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظامًا .

واعلم أن فن الشعر من بيوت الكلام كان شريعاً عند العرب ، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم ، وشاهد صوابهم وخطئهم ، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم . وكانت ملكته

العرب فيه الذى هو وظيفة العروض . فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية . وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعها اللهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعله البناء فى القالب أو التساج فى المنوال ، حتى يتمم القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه . فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة : فسؤال الطول فى الشعر يكون بخطاب الطول كقوله :

يا دارَ مَيَّةٍ بالعلياء فالسند

ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله :

قفا نسأل الدار التى خف أهلها

أو بامتنيكاه الصحب على الطلل كقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله :

ألم تسأل فتخبرك الرسوم ؟

ومثل تحية الطول بالأمر لمخاطب غير معين

بتحيتها كقوله :

حى الديار بجانب العزل

أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله :

أسقى طولهم أبجش هزيم

وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

ياببرق طالع منزلاً بالأبرق

واخذُ السحاب لها حداة الأيتق

أو مثل التفجع فى الجزع باستدعاء البكاء كقوله :

كذا فليجلى الخطب وليفدح الأمر

فليس لمين لم يفرس ماؤها علر

أو باستعظام الحادث كقوله :

أرايت من حملوا على الأعواد ؟

أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله :

منابت العشب لاحام ولاراح

مضى الردى بطويل المرح والباع

أو بالإتيار على من لم ينفع له من الجمادات كقول الخارجية (١) :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً

كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو بتهنئة قريه (٢) بالراحة من نقل وطنه كقوله :

ألقى الرماح ربيعة بن يزرا

أودى الردى بقريحك المغوار

وأشال ذلك كثير فى سائر فنون الكلام ومذاهبه .

(١) من ليل بنت طريف .

(٢) القرع انعم قناب والمغوار .

القياسية . فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان نظراً في المستعمل من تراكيبيهم لافياً يقتضيه القياس .

ولهذا قلنا إن المحصل لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم . وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنشور ، فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الضنين ، وجاءوا به مفصلاً في النوعين . ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة ، وفي المنشور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً ، وقد يقلبونه بالأسجاع ، وقد يرسلونه ، وكل واحد من هذه معروفة في لسان العرب . والمستعمل منها عندهم هو الذي يبنى مؤلف الكلام عليه تأليفه ، ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرّد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كل مطلق يحلو حلوه في التأليف كما يحلو البناء على القالب ، والنشأ على المنوال . فلهاذا كان فن تأليف الكلام منفرداً عن نظر النحوى والبيانى والعروضى . نعم إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط، فيه لا يتم بدونها ، فإذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها أساليب ، ولا يفيد إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً . وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو قلنا ذكر بعده حداً أو رسماً للشعر تفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض . فإننا لم نقف عليه لأحد من المتقدمين فيما رأيناه .

ونتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل ، إنشائية وخبرية ، إسمية وفعلية ، متفقة وغير متفقة ، مفصولة وموصولة ، على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربى في مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك به ما تستفيدة بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلى المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها . فإن مؤلف الكلام هو كالبناؤه أو النشأ ، والصورة الذهنية المنطقية كالقالب الذى يبنى فيه أو المنوال الذى ينسج عليه ، فإن خرج عن القالب في بنائه أو على المنوال في نسجه كان فاسداً . ولانقول إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك ، لأننا نقول : قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية وقياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس ، وهو قياس على صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الإعرابية . وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تشيع التراكيب في شعر العرب ، لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام بإطلاق . وإن القوانين العلمية من العربية والبيان لا يفيد تعليمه بوجه . وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه ، وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم نندرج صورتها تحت تلك القوانين

لم يجريا على أساليب العرب من الأمم ، عند من يرى أنَّ الشعر يوجد للعرب وغيرهم ؛ ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج إلى ذلك ، ويقول مكانه الجارى على الأساليب المخصوصة (١) .

وإذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع إلى الكلام في كيفية عمله فنقول :

اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً أولها : الحفظ من جنسه أى من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب . وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذو الرمة وجرير وأبي نواس وجبيل والبحري والرضي وأبي فراس . وأكثره شعر كتاب الأغاني ، لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله ، والمختار من شعر الجاهلية . ومن كان خالياً من المحفوظ ، فنظمه قاصر ردي . ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ ، فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وإنما هو نظم ساقط ، واجتناب الشعر أولى ممن لم يكن له محفوظ . ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشهد القريحة للشعج على النوال يقبل على النظم ، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ . وربما يقال إن من شرطه

وقول العروضيين في حده : إنه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر الذى نحن بصدده ولا رسم له . وصناعتهم إنما تنتظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة . فلا جرم أنَّ حدَّهم ذلك لا يصلح له هنا . فلا بد من تعريف يعطينا حقيقة من هذه الحنية فنقول : الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده مما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به . فقولنا الكلام البليغ جنس . وقولنا المبني على الاستعارة والأوصاف فصل مما يخلو من هذه ، فإنه في الغالب ليس بشعر . وقولنا المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنثور الذى ليس بشعر عند الكل . وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده مما قبله وبعده بيان للحقيقة ، لأن الشعر لا يكون أبياته إلا كذلك ولم يفصل به شيء . وقولنا الجارى على الأساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجز منه على أساليب العرب المعروفة ، فإنه حينئذ لا يكون شعراً إنما هو كلام منظوم ، لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور . وكلما أساليب المنثور لا تكون للشعر . فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً . وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أنَّ نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لأنهما

(١) يرجع . وإنَّ الله قد صقلت جملة من هذه العبارة ، وتقديرها يكون الكلام كما يل : « ويرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء » ، لأنهما لم يجريا على تلك الأساليب . وقولنا أساليب العرب . فصل له من شعر غير العرب من الأمم عنه من يرى أن الشعر يوجد للعرب وغيرهم ... الخ » .

لبيان ذلك المحفوظ لتصحى رسموه الحرفية الظاهرة إذا هي صادة عن استعمالها بعينها ، فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثاله من كلمات أخرى ضرورية .

ثم لا بد له من الخطوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار ، وكلما المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور . ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جسام . ونشاط ، فذلك أجمع له وأنشط . للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذى فى حفظه . قالوا وغير الأوقات لذلك أوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر ، وفى هؤلاء الجمام . وربما قالوا : إن من بواعثه العشق والانتشاء ، ذكر ذلك ابن رشيقي فى كتاب « العملة » وهو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله . قالوا فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر ، ولا يكره نفسه عليه . وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه ، ويبنى الكلام عليها إلى آخره ، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها فى محلها ، فربما تجيء نافرة قلقة . وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذى عنده فليتركه إلى موضع الأليق به . فإن كل بيت مستقل بنفسه ، ولم تبق إلا المناسبة فليتحير فيها كما كما يشاء . وليراجع شعره بعد الخلاص منه

بالتنقيح والتقد . ولا يضمن به على التبرك إذا لم يبلغ الإجابة ، فإن الإنسان مفتون بشعره إذ هو نبات فكره وإختراع قريحته . ولا يستجمل فيه من الكلام إلا الأنصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية ، فليهجرها ، فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة . وقد حظير أئمة اللسان عن المؤكد وارتكاب الضرورة^(١) . إذ هو فى سعة منها بالعدل عنها إلى الطريقة المثل من الملكة . ويجتنب أيضاً المقد من التراكيب جهده ، وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم . وكذلك كثرة المعاني فى البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم ، وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أولى . فإن كانت المعاني كثيرة كان حشوياً ، واستعمل اللحن بالنقص عليها ، فمنع اللوق عن استيفاء مذكره من البلاغة . ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى اللحن . ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبى إسحق^(٢) ابن خلفجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد ، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمرى بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر ، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر ، والحاكم بذلك هو اللوق ،

(١) أى حرروا استعمال الألفاظ المرافقة ، وهى التى اصطنعها المؤلفون ، وحرروا ارتكاب الضرورة أى تغيير إعراب الكلمة أو بنيتها خلا لضرورة الشعر .

(٢) ولد ببلدة شرقية ، ويطلق عليها العرب جزيرة شرقية سنة ٥٥٠ وتوفى بها سنة ٥٢٢ .

يؤثرون الغريب منه على ما
 كان سهلاً للصامعين مبيناً
 ويرون المحال معنى صحيحاً
 وعصبي الكلام شيئاً ثميناً
 يجهلون الصواب منه ولا يد
 رون للجهل أنهم يجهلون
 فهم عند من سوانا يلامو
 ن وفي الحق عندنا يعلمونا
 إنما الشعر ما يناسب في النظم
 وإن كان في الصفات فنونا
 فأتى بعضه يشاكل بعضاً
 وأقامت له الصدور المتونا
 كل معنى أنك منه على ما
 تمنى لو لم يكن أن يكونا
 فتناهى من البيان إلى أن
 كاد حسناً يبين للناظرينا
 فكان الألفاظ منه وجوه
 والمعالى ركن فيها حيونا
 قائما في المرام حسب الأمانى
 يتحلى بحسنه المنشدونا
 فإذا ما مدحت بالشعر حراً
 رمت فيه مذاهب السهينا
 فجعلت النسيب سهلاً قريباً
 وجعلت المديح صدقاً مبيناً
 وتنكب ما يهجن في السمع
 وإن كان لفظه موزونا
 وإذا عاقرضته بهجاء
 عبت فيه مذاهب المرفثينا

وليجنب الشاعر أيضاً الحوشى من الألفاظ والمقعر^(١)،
 وكذلك السوق المبذل بالتداول بالإستعمال
 فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً فيصير
 مبتذلاً ويقرب من عدم الإفادة ، كقولهم النار
 حارة والسماء فوقنا . وعقدار ما يقرب من طبقة
 عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان
 ولهذا كان الشعر في الريانيات والنيويات قليل
 الإجابة في الغالب ولا يخلق فيه إلا الفحول ، وفي
 القليل على العصر ، لأن معانيها متداولة بين
 الجمهور فتصير مبتذلة لذلك .

وإذا تعلم الشعر بعد هذا كله فليروضه
 ويعاوده فإن القرينة مثل الضرع يلدو بالامتراء .
 ويجف بالتروك والإهمال .

وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في
 كتاب « العسدة » لابن رشيقي . وقد ذكرنا
 منها ما حضرنا بحسب الجهد . ومن أراد استيفاء
 ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البقية من ذلك .
 وهذه نبذة كافية والله الممين .

وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية
 ما يجب فيها . ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه
 لابن رشيقي^(٢) :

لعمري صنعة الشعر ماذا

من صنوف الجهال منه لقينا

(١) لم في كلامه تقصيرا وتقصير تشق وتكلم بأفنى فيه «
 (القاموس) . ويطلق مجازاً كل التكلف والبحث عن الغريب من
 الألفاظ .

(٢) ليس لابن رشيقي ؛ وإنما هو الثاني أبي العباس من شعراء
 عصر بني بويه . ولعله على من عبد الله بن وصف . (د. وافي)

أصفيته بنفسه ووصيته
وخصصته بخطريره ونمينه
فيكون جزلا في اتساق صنوفه
ويكون سهلا في اتفاق فنونه
وإذا بكيت به الديار وأهلها
أجريت للمحزون ماء شثونه
وإذا أردت كناية عن ربية
باينت بين ظهوره ويطونه
فجعلت سامعه يشوب سُكوكَه

بشوته وظنونه ببيقته
٥٧ - فصل في أن صناعة النظم والنثر إنما هي
في الألفاظ لا في المعاني

اعلم أن صناعة الكلام نظما ونثراً إنما هي في
الألفاظ، لا في المعاني، وإنا المعاني تبع لها، وهي
أصل. فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم
والنثر إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من
كلام العرب، ليكثر استعماله وجريه على لسانه،
حتى تستقر له الملكة في لسان مضر، ويتخلص
من العجمة التي ربي عليها في جيله، ويفرض نفسه
مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلقن لفتهم كما
كما يلقنّها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم
في لسانهم. وذلك أنا قدمنا^(١) أن اللسان ملكة
من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها
على اللسان حتى تحصل. والذي في اللسان والنطق
إنما هو الألفاظ، وأما المعاني فهي في الضمائر.
وأيضا فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طلوع

فجعلت التصريح منه دواء
وجعلت التعريض داء دفيناً
وإذا ما بكيت فيه على الفا
دين يوماً للبين والظاعنين
حلت دون الأسمى وذلك ماكا
ن من السمع في العيون مصونا
لم إن كنت حائبا شيت بالوء
د وعيداً وبالصعوبة لينا
فتركت الذي عتبت عليه
حنراً آمناً عزيزاً مهيناً
وأصبح القريض ماقارب النظم
م وإن كان واضحا مستبيناً
فإذا قيل أطمع الناس طرا
وإذا ريم أعجز المعجزينا
ومن ذلك أيضا قول بعضهم:
الشعر ما قومت زيغ صدور
وشددت بالتهذيب أس متونه
ورأيت بالإطئاب شغب صلوعه
وفتحت بالإيجاز عور هيونه
وجمعت بين قريبه وبعيله
وجمعت بين مُجِئِه ومَعِينِه^(١)
وإذا مدحت به جوادا ماجدا
وقضيته بالشكر حق ديونه

(١) جمعت البئر تراجم ما رواها وأجست كذلك فهي حجة، وجم
للاء تركه يجمع كأجمة فالله بهم - وللاء المعين الظاهر الجاري على
وجه الأرض، فهو ضد الهيم، ومنه قوله تعالى: «قل أرأيتم إن
أصبح ماؤكم غورا لن يأتاكم مياه عين» (آية ٣٠ من سورة تبارك
أو الملك).

(١) في الفصل السابع والأربعين من هذا الباب وحواشه وصل
في أن اللغة ملكة صناعة.

أو الصباغ تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبية أو ترسل البيهقي^(١) أو العماد الأصهباني ، لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك . يظهر ذلك البصير الناقد صاحب الذوق . وعلى مقدار جودة المحفوظ . أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إيجاد الملكة من بعدهما . فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقى الملكة الحاصلة لأن الطبع إنما ينسج على منوالها . وتنمو قوى الملكة بتغذيتها . وذلك أن النفس وإن كانت في جيلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات . واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكفيها من خارج ؛ فهذه يتم وجودها ، وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها . والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدرج كما قلنا . فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر ؛ وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل ؛ والعلمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار ؛ والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول ، والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع ، حتى تحصل له ملكة الرجوع إلى حسه الباطن وروحه ، ويتقلب رياناً ؛ وكذا صائرها . وللنفس في كل واحد منها لون تشكيك به . وعلى حسب

(١) هو المردوف باسم القاضي القاضي ، وهو عبد الرحيم بن علي البيهقي نسبة إلى بيسان وهو بلد بالشام . (د. والي) .

كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا تحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه . وهو بمثابة القوالب للمعاني . فكما أن الأواني التي يتعرف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد في نفسه ؛ وتختلف الجودة في الأواني الملوقة بالماء باختلاف جنسها لاختلاف الماء ؛ كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تصنيفه على المقاصد ، والمعاني واحدة في نفسها . وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن تثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه . والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون .

٥٨ - فصل في أن حصول هذه الملكة بكثرة

الحفظ وجودتها بجودة الحفظ

قد قدمنا^(١) أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ ، وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ . فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتاني^(٢) أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع

(١) في الفصل الثمين من هذا الباب وعنوانه : فصل في تعليم اللسان العربي .

(٢) حبيب هو أبو تمام . والعتاني هو شاعر من شعراء صدر العروة الميمنية ، وهو من الطبقة الثانية من شعراء الميمنية ، أي من طبقة أبي نواس وأبي النعمان ومسلم لأن طبقة خضري للولتين كيشار . (د. والي) .

وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخييرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسيل وانتقائهم له الجيد من الكلام .

ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر ، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة ، فقلت له أجد استصعاباً على في نظم الشعر متى رمته مع بصرى به وحفظي لجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب ، وإن كان محفوظي قليلاً وإنما أتت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات ، وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعلم في المجالس ، فامتلاً محضوذي من ذلك ، وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب ، ففاق القريحة عن بلوغها . فنظر إلى ساعة مُعجِباً ثم قال : لله أنت ! وهل يقول هذا إلا مثلك ؟ !

ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر ، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منشورهم ومنظومهم . فإننا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجريير والفرزدق ونُصَيْب وغيلان ذى الرمة والأحرص ويشار ، ثم كلام السلف من العرب

مانشآت الملكة عليه من جودة أو داعة تكون تلك الملكة في نفسها . فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها إنما تحصل بحفظ العالي في طبقة من الكلام . ولها كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة . وما ذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية وال عبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة ، لأن العبارات عن القوانين والعلوم لاحظ لها في البلاغة . فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتولنت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم . وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلئ من حفظ النقي الحر من كلام العرب .

أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المَرْيُوتِيَّة قال : ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن ، وكان المقدم في البصر باللسان لمهده ، فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوى ولم أنسبها له ، وهو هذا :

لم أدر حين وقفت بالأطلال

ما الفرق بين جليدها والبال

فقال لي عن البدئية هذا شعر فقيه . فقلت له ومن أين لك ذلك ؟ قال من قوله « ما الفرق » إذ هي من عبارات الفقهاء وليس من أساليب كلام العرب . فقلت له : لله أبوك ! إنه ابن النحوى .

ظهر لي في ذلك ، ولله السبب فيه . وذكرت له هذا الذي كتبت . فسكت معجباً . ثم قال لي : يا فقيه هنا كلام من حقه أن يكتب بالذهب . وكان من بعدها يؤثر محلي ويصيح في مجالس التعلم إلى قولي ، ويشهد لي بالنباهة في العلوم ، والله خلق الإنسان وعلمه البيان .

(٥٩ - فصل في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع وكيفية جودة المصنوع أو قصوره)

[اعلم أن الكلام الذي هو البارة والخطاب إنما سره وروحه في إفادة المعنى . وأما إذا كان مهملاً فهو كاللوات التي لا حبرة به . وكما الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدّها عند أهل البيان لأهم يقولون : هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال . ومعرفة الشروط ، والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية لمقتضى الحال هو فن البلاغة . وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استقرت من لغة العرب وصارت كالقوانين .

فالتراكيب بوضعها تفيد الإسناد بين المستندين بشروط ، وأحكام هي جل قوانين العربية .

وأحوال هذه التراكيب من تقديم وتأخير ، وتعريف وتنكير ، وإضمار وإظهار ، وتقييد وإطلاق ، وغيرها - يفيد الأحكام المكتشفة من خارج بالإسناد وبالتخاطبين حال التخاطب (١) بشروط ، وأحكام هي قوانين لقرن يسمونه علم المعاني من فنون البلاغة . فتتدرج قوانين العربية لللك في قوانين علم المعاني ، لأن إفادتها الإسناد

في الدولة الأموية وصدرًا من الدولة العباسية ، في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك ، أرفع طبقة من البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كثوم وزهير وعلمة بن عتبة وطرفة بن العبد ، ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم . والطبع السليم والنوق الصحيح شاهدان بذلك للنقاد البصير بالبلاغة . والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما ، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية من لم يسمح هذه الطبقة ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا من أولئك ، وأرصف مبنى وأعدل تنقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة . وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل النوق والتبصر بالبلاغة

ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لهدهنا - وكان شيخ هذه الصناعة ، أخذ يستبث عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوين (١) ، واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه - فسألته يوماً ما بال العرب الإسلاميين أهل طبقة في البلاغة من الجاهليين . ولم يكن ليستنكر ذلك بلوقه . فسكت طويلاً ثم قال لي : والله ما أدري ! فقلت أعرض عليك شيئاً

(١) أي هذا علم الأمور والمعاني التي تحيط بالإسناد من خارج وضع الجملة والتي تحيط بالتخاطبين حال التخاطب .

(١) من أشهر علماء النحو والفقه .

يعنون به الكلام الذى كملت طبيعته وسجيته ،
من إفادة مدلوله المقصود منه ، لأنه عبارة وخطاب
ليس المقصود منه النطق فقط ، بل التكلّم
يقصد به أن يفيد سامعه ما فى ضميره إفادة تامة
ويدل به عليه دلالة وثيقة

ثم يتبع تراكيب الكلام فى هذه المسجبة التى
له بالأصالة ضروب من التحسين والتزيين بعد
كمال الإفادة ، وكأنها تطيبها رونق الفصاحة ،
من تنميق الأسجاع ، والموازنة بين جمل الكلام
وتقسيمه بالأقسام المختلفة الأحكام ، والتورية
باللفظ المشترك عن الخفى عن معانيه . والمطابقة
بين المتضادات ، ليقع التجانس بين الألفاظ .
والمعاني فيحصل للكلام رونق وللة فى الأصابع ،
وحلاوة وجمال كلها زائدة على الإفادة وهذه
الصنعة موجودة فى الكلام المعجز فى مواضع متعددة
مثل : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلّى »^(١)
ومثل : « فلما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى .. »
إلى آخر التقسيم فى الآية^(٢) ، وكذا : « فلما من
طفى ، وأثر الحياة الدنيا . . . » إلى آخر الآية^(٣)
وكذا « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »^(٤) ،
وأمثاله كثيرة . وذلك بعد كمال الإفادة فى أصل
هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها . وكذا
وقع فى كلام الجاهلية منه لكن حقا من غير

جزء من إفادتها للأحوال المكتشفة بالإسناد . وما
قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال
لخلل فى قوانين الإعراب أو قوانين المعانى كان
قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال ، ولحق بالمهمل
الذى هو فى عداد الموات . ثم يتبع هذه الإفادة
لمقتضى الحال التفنن فى انتقال الذهن بين المعانى بأصناف
الدلالات . لأن التركيب يدل بالوضع على معنى
ثم ينتقل اللحن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه
فيكون فيه مجازاً إما باستعارة أو كناية كما
هو مقرر فى موضعه . ويحصل للفكر بذلك الانتقال
للة ، كما تحصل فى الإفادة وأشدّ ، لأن فى جميعها
ظفراً بالمدلول من دليله ، والظفر من أسباب الللة
كما علمت . ثم لهذه الانتقالات أيضاً شروط .
وأحكام كالقوانين صبروها صناعة وسموها بالبيان
وهى شقيقة علم المعانى المقيد لمقتضى الحال ، لأنها
راجعة إلى معانى التراكيب ومدلولاتها ، وقوانين
علم المعانى راجعة إلى أحوال التراكيب أنفسها من
حيث الدلالة . واللفظ . والمعنى متلازمان متضامنان
كما علمت . فإذا علم المعانى وعلم البيان هما جزءا
البلاغة ، وبها كمال الإفادة والمطابقة لمقتضى الحال .
فما مصر من هذه التراكيب عن المطابقة وكمال
الإفادة فهو مقصر عن البلاغة ، ويلتحق عند
البلغاء بأصوات الحيوانات العجم ، وأجلد به
يكون عربياً ، لأن العربى هو الذى يطابق به إفادته
مقتضى الحال ، فالبلاغة على هذا هى أصل الكلام
العربى وسجيته وروحه وطبيعته

ثم اعلم أنهم إذا قالوا الكلام المطبوع فوهم

(١) آتى ١ ، ٢ من سورة الليل .

(٢) « فلما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فاستسره اليسرى .
ولما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فاستسره اليسرى » آيات

١٠ - ١١ من سورة الليل .

(٣) آيات ٢٧ - ٢١ من سورة النازعات .

(٤) آتى ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف .

عند أهلها ، واختلقت اصطلاحاتهم في ألقابها . وكثير منهم يجعلها مندرجة في البلاغة ، على أنها غير داخلة في الإفادة ، وإنما هي تعطى التحسين والرونق . وأما المتقلمون من أهل البليغ فهي عندهم خارجة عن البلاغة . ولذلك يذكرونها في القنون الأدبية التي لا موضوع لها ، وهي رأى ابن رشيقي في كتاب « العملة » له وأدباء الأندلس .

وذكروا في استعمال هذه الصنعة شروطا منها أن تقع من غير تكلف ولا اكترات فيها يقصد منها . وأما الضو فلا كلام فيه ، لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من حيب الاستهجان ، لأن تكلفها ومعانيها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام فتخل بالإفادة من أصلها ، وتذهب بالبلاغة رأسا ، ولا يبقى في الكلام إلا ملك التحسينات . وهذا هو الغالب اليوم على أهل مصر . وأصحاب الأذواق في البلاغة يسخرون من كلّفهم بهذه القنون ويعلمون ذلك من القصود عن صوابه . سمعت شيخنا الأستاذ أبا البركات البلقيني وكان من أهل البصر في اللسان والقريحة في ذوقه يقول : « إن من أشهى ما تقترحه على نفسي أن أشاهد في بعض الأيام من يتنحل فنون هذا البديع في نظمه أو نثره وقد عوقب بشئ العقوبة ونودي عليه » يحذر بذلك تلايمه أن يتعاطوا هذه الصنعة فيكفون بها ويتناسون البلاغة .

ثم مع شروط استعمالها عندهم الإقلال منها ، وأن تكون في بيتين أو ثلاثة مع التصيد فتكنى في زينة الشعر ورونقه . والإكثار منها حيب ،

قصد ولا تعد . ويقال إنه وقع في شعر زهير . وأما الإسلاميون فوقع لهم ضحوا وقصدا ، وأتوا منه بالمعجب . وأول من أحكم طريقته حبيب بن أوس والبحري ومسلم بن الوليد ، فقد كانوا مولعين بالصنعة ويأتون منها بالمعجب . وقيل إن أول من ذهب إلى معانيها بشار بن برد وابن هرمة . وكانا أكثر من يستشهد بشعره في اللسان العربي . ثم اتبعهما كلثوم بن عمرو والثعالي ومنصور التميمي ومسلم بن الوليد وأبو نواس . وجاء على آثارهم حبيب والبحري . ثم ظهر ابن المعتز فحتم على البليغ والصناعة أجمع .

ولتذكر مثالا من المطبوع الخالي من الصنعة ، مثل قول قيس بن ذريح :

وأخرج من بين البيوت لعل
أحدث عنك النفس في السر خاليا
وقول كثير :

وإلى ونهياي بعزة بعد ما
تخلّيت عما بيننا وتخلت
لكالمزجي ظل الغمامة كلما

نبوأ منها للمقبل اضمحلت
فتأمل هذا المطبوع الفقيد الصنعة في إحكام تأليفه وثقافة تركيبه فلو جاءت فيه الصنعة من بعد هذا الأصل زادته حسنا .

وأما المصنوع فكثير من لدن بشار ثم حبيب وطبقتهما ، ثم ابن المعتز فحتم الصنعة ، التي جرى المتأخرون بعلدهم في ميدها ، ونسجوا على متوالهم . وقد تعددت أصناف هذه الصنعة

٦٠ - فصل في ترفع أهل المراتب عن التعال
الشعر

اعلم أن الشعر كان ديوتا للعرب ، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم . وكان رؤساء العرب منافسين فيه ، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديابجه على فحول الشان وأهل البصر لتمييز حوله (١) ، حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم كما فعل أمروؤ القيس بن حُجر والناطقة اللبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلمقة بن عتبة ، والأعشى وغيرهم من أصحاب الملقات السبع ، فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومهم وعصبيتهم ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالملقات . ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأعرضوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا . ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحى في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجوا حينئذ إلى دينهم منه . وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش لذلك المهذ مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة ، وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبا به . ثم جاء من بعد ذلك الملك [الفضل] والدولة العزيزة وتقرب إليهم العرب

(١) ينظر لاعتبار مقنونه .

قاله ابن وثيق وغيره . وكان شيخنا أبو القاسم الشريف السبقي مُتَّفَق (١) اللسان العربي بالأتدلس لوقته يقول : هذه الفنون البديعة إذا وقعت للشاعر أو للكاتب فيقبح أن يستكثر منها ؛ لأنها من محسنات الكلام ومزيناته . فهي بمثابة الخيلان في الوجه ، يحسن بالواحد والاثنتين منها ، ويقيح بتعدادها .

وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام النثور في الجاهلية والإسلام . كان أولا مرصلا ، معتبر الموازنة بين جملة وتراكيبه ، شاهدة موازنه بفواصله من غير التزام مسجع ولا اكتراث بصنعة ؛ حتى سبغ إبراهيم بن هلال الصابي كاتب بني بويه ، فتعاطى الصنعة والتقفية وأتى من ذلك بالعجب . وعاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات السلطانية . وإنما حملة عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة الخلافة المتفقة لمسوق البلاغة . ثم انتشرت الصناعة بعده في منشور المتأخرين ، ونسى عهد الترميل ، وتشابهت السلطانيات بالإخوانيات ، والمرييات بالسوقيات ، واختلط المرعى بالهمل . وهذا كله يدل على أن الكلام المصنوع بالمعانة والتكلف قاصر عن الكلام المطبوع ، لقلة الاكتراث فيه بأصل البلاغة . والحاكم في ذلك اللوق . والله عظيمكم وعلمكم مالم تكونوا تعلمون .

(١) والمضى أنه يرجع إليه الفضل في إشاعة ثقافة العربية ونثر
اللسان العربي .

أوميروس الشاعر^(١) وأثنى عليه ، وكان في حمير أيضا شعراء متقدمون . ولما فسد لسان مضر ولتتهم دونت عقابيسها وقوانين إعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة ، فكانت لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب جملة ، وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات . وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتعاريف وخالفت أيضا لغة الجيل من العرب لهذا العهد ، واختلقت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق ، فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره ، وتخالفتها أيضا لغة أهل الأندلس وأمصاره . ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع في أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة في أعداد التحركات والسواكن وتقابلها موجودة في طباع البشر ، فلم يهجر الشعر . يفتقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا فحول وفرسان ميدانه ، حسبما اشتهر بين أهل الخليقة ، بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في اتحاله ووصف بنائه على مهبج كلامهم . فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعراف على ما كان عليه سلفهم المستعربون ، ويتأثرون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء ،

بشعارهم يملحونهم بها ، ويجيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ، ويقرضون على استهزاء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان ، والعرب يطالبون ولدهم بحفظها . ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدراً من دولة بني العباس . وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للأصمعي في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بانتحاله والتبصر بجيد الكلام ورديته وكثرة محظوته منه . ثم جاء خلف من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصرها باللسان ، وإنما تعلموه صناعة ، ثم مدحوا بشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم ، طالبين معروفهم فقط لاسوى ذلك من الأغراض ، كما فعله جيب والبحري والمنشي وابن هانيه ومن بعدهم إلى هلم جرا . فصار غرض الشعر في الغالب إنما هو الكلب والاستجداء للحاب المنافع التي كانت فيه للأولين كما ذكرناه آنفا . وأنف منه لذلك أهل الهم والمراتب من المتأخرين . وتغير الحال ، وأصبح تعاطيه هجنة في الرئاسة وعلمة لأهل المناصب الكبيرة والله مقلب الليل والنهار .

٦١ - فصل في أشعار العرب وأهل الأمصار

لهذا العهد

اعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة ، سواء كانت عربية أو عجمية . وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك ، وذكّر منهم أرسطو في كتاب المنطق

(١) انظر تاليف ١٨٤٢ من منشورة د. راني .

ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام. وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم. وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون^(١). فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم. وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي. وربما يلحنون فيه ألقاباً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية، ثم يخنون به. ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام، وهي من منازل العرب البادية ومسكنهم إلى هذا العهد. ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويهم ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمرج والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين، ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة، وفيهم الفحول والمتأخرون. والكثير من المتحليين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكرون هذه الفنون التي لهم إذا سمعها، ويمج نظمهم إذا أنشد، ويحتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها. وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم. فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظرة. وإلا فالإعراب لا تدخل له في البلاغة، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولتقتضى الحال من الوجود فيه، سواء كان الرفع

• • •

(تنبيه)

أثبت ابن خلدون في الفصل كثيراً من الأشعار العامة المغربية ونظراً لعدم إمكان الإفادة منه للعجز عن فهمه فقد آثرنا حذفه، ونحيل من يريد تتبعه على منشورة د. وافي ص ١٤٣٧ وما بعدها إلى آخر الجزء الرابع ط. (لجنة البيان العربي) قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه: أتممت هذا الجزء الأول^(١) بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتعليق في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة. ثم نقحته بعد ذلك وهذبته وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت في أوله وشرطته: وما العلم إلا من عند الله العزيز الحكيم^(٢).

(١) يقصد به ما ساء «الكتاب الأول» وهو الذي يظن عليه الآن «مقدمة ابن خلدون».

(٢) ليست له آية قرآنية، وإنما هو ظاهرها ذلك. وقوله تعالى «وما لأمر إلا من عند الله العزيز الحكيم» (آخر آية ١٢٦ من سورة آل عمران).

(١) «سب المرأة نسباً ونسباً شبيهاً في الشعر».

الفهرس

الصفحة

الموضوع

١٢٧	التاسع عشر في أن من موافق الملك حصول المدة للقبيل والانتقاد إلى سوسام
١٢٨	المشرون في أن من علامات الملك التناقص في الخلل الحميدة وبالعكس
١٢٩	الحادي والعشرون في أنه إذا كانت الآلة وحشية كان ملكها أوسع
١٣٠	الثاني والعشرون في أن الملك إذا ذهب من بعض الشعوب من أمة
١٣١	قلا يد من عودة إلى حسب آخر منها ما دامت لهم العصبية
١٣٢	الثالث والعشرون في أن الغلوب مولع أبدا بالانتداء بالغالب
١٣٣	الرابع والعشرون في أن الآلة إذا طبت وصارت في ملك غيرها
١٣٤	أسرع إليها الفناء
١٣٥	الفخس والعشرون في أن الغرب لا يتغلزون إلا على البساط
١٣٦	السادس والعشرون في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع
١٣٧	إليها الخراب
١٣٨	السابع والعشرون في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة
١٣٩	دنية من تيرة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على أجملة
١٤٠	الثمن والعشرون في أن العرب أبعد الأمم من السياسة
١٤١	التاسع والعشرون في أن البداوي من القبائل والمصالح
١٤٢	مفلوون لأهل الأمصار
١٤٣	الياب الثالث في الدول العامة والملك والخلافة العامة أما
١٤٤	السلطانية الفصل الأول في أن الملك والدولة العامة إنما
١٤٥	يحصلان بالعصبية
١٤٦	الثاني في أنه إذا استقرت السلولة وعمدت فقد ستمتني
١٤٧	عن العصبية
١٤٨	الثالث في أنه قد يحدث لبعض أهل انتصاب الملكي دولة
١٤٩	ستميتي من العصبية
١٥٠	الرابع في أن الدول الصامة الاستيلاء ، الطبيعة الملك
١٥١	أصلها الدين
١٥٢	الفخس في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة
١٥٣	السادس في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم
١٥٤	السابع في أن كل دولة لها حصص من الممالك والأوطان
١٥٥	لا تزيد عليها
١٥٦	الثامن في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على
١٥٧	نسبة القاطنين بها في القوة والكرمة
١٥٨	التاسع في أن الأوطان الكثيرة القبائل لا تز تسيطر فيها دولة
١٥٩	الماخر في أن من طبيعة الملك الانفراد بالحد
١٦٠	الحادي عشر في أن من طبيعة الملك الترقى
١٦١	الثاني عشر في أن من طبيعة الملك القوة والسكران
١٦٢	الثالث عشر في أنه إذا استحكمت طبيعة الملك أقيمت الدولة
١٦٣	على الهدم
١٦٤	الرابع عشر في أن الدولة لها أمصار طبيعية كما للأشخاص
١٦٥	الخامس عشر في انتقال الدول من البداية إلى الحضارة
١٦٦	السادس عشر في أن الترف يزيد السلولة في أولها قوة
١٦٧	إلى لونها
١٦٨	السابع عشر في أنوار الدولة واختلاف أحوالها
١٦٩	الثامن عشر في أن أكار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها
١٧٠	التاسع عشر في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل
١٧١	عصبية بالوالي والمصطنع
١٧٢	المشرون في أحوال الموالى المصطنع في الدول

الصفحة

الموضوع

١٧٣	خطبة المؤلف ويبدأ أهمية فن التاريخ
١٧٤	مقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مفاهيه والآلاء لا يرضى
١٧٥	للمؤرخين من المفاصل وذكر فيه من أسبابها
١٧٦	الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخليفة وما يرضى فيها في
١٧٧	البدو والحضر والتقلب والكسب والملابس والمصناعات
١٧٨	والعلوم ونوعها وما لذلك من العلل والأسباب
١٧٩	الياب الأول في العمران البشري وفيه مقدمات (الأولى في
١٨٠	أن الاجتماع الانساني ضروري)
١٨١	الثانية في قسط العمران من الأرض والإسكان إلى بعض مفاهيه
١٨٢	من الأحجار والآباء والأقاليم
١٨٣	كثرة القدمة الثانية في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر
١٨٤	حرارة من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك
١٨٥	الثالثة في المنفل من الأقاليم ، والمنصرف ، وتأثير الهواء في
١٨٦	الوان البشر والكثير من أحوالهم
١٨٧	الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر
١٨٨	الخامسة في اختلاف العمران في القصب والجوع وما ينشأ
١٨٩	عن ذلك من الآثار في أمدان البشر وأخلاقهم
١٩٠	السادسة في أصناف المدركين للغب من البشر مافطرة أو
١٩١	بالرياضة ويتشعب الكلام في الوحي والرويا
١٩٢	الياب الثاني في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل
١٩٣	(الفصل الأول في أن أجدال البدو والحضر طبيعة)
١٩٤	الثاني في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي
١٩٥	الثالث في أن البسوة أقدم من الحضر وسابق عليه ، وأن
١٩٦	البادية أصل العمران والامصار مد لها
١٩٧	الرابع في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر
١٩٨	الخامس في أن أهل البسوة أقرب إلى المجاعة من أهل
١٩٩	الحضر
٢٠٠	السادس في أن معاناة أهل الحضر لاحكام مفسدة للباس
٢٠١	لهم ، ذاهية بالفتنة منهم
٢٠٢	السابع في أن سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية
٢٠٣	الغلب في أن العصبية إنما تكون من الانتماء بالنسب أو ماني
٢٠٤	مفسده
٢٠٥	التاسع في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في
٢٠٦	المفر من العرب ومن في مناصم
٢٠٧	العاشر في اختلاف الأنساب كيف يقع ؟
٢٠٨	الحادي عشر في أن الرئاسة لا تزال في نصاها القصور من
٢٠٩	أصل العصبية
٢١٠	الثاني عشر في أن الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير
٢١١	تسببهم
٢١٢	الثالث عشر في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة
٢١٣	الرابع عشر في أن البيت والشرف للوالي وأهل الإقطاع
٢١٤	لما هو يواليهم بآبائهم
٢١٥	الخامس عشر في أن نهاية الحصب في القصب الواحد الرينة
٢١٦	أكرم
٢١٧	السادس عشر في أن الأم الوحشية أقدم على التقلب ممن
٢١٨	سواها
٢١٩	السابع عشر في أن أنفاية التي تجري إليها العصبية من الملك
٢٢٠	الثامن عشر في أن من موافق الملك حصول الشرف والتماس
٢٢١	التفصيل في النعم

الفصل

الفرس

فصل فيما يجب مراعاة في اوضاع المدن وما يبحث اذا غلب
من تلك المراجعة ٢١٢
فصل في المساجد والبيوت الطينية في العالم ٢١٤
فصل في اهل المدن والامصار بافريقيا واقرب للبلد ٢١٥
فصل في اهل البياض والامصار في امة الاسلامية قليلة بالنسبة
الى قوتها والى من كان قبلها من الدول ٢٢٢
فصل في اهل البياض التي كانت تحتها العرب يتبع الجيا
الخراب الا في الال ٢٢٣
فصل في مبادئ الخراب في الامصار ٢٢٤
فصل في تفاضل الامصار واهل المدن ٢٢٥
فصل في اسرار المدن ٢٢٧
فصل في تصور اهل البادية من سكنى مصر القائل القهران
فصل في ان الانظار في اختلاف احوالها بآثاره والمقرر مثل
الامصار ٢٢٩
فصل في تأثر المقار والضياع في الامصار ٢٣٠
فصل في حاجات المتولين من اهل الامصار الى الجيا
والدافعة ٢٣١
فصل في ان الضعفاء في الامصار من قبل الدول وانها ترمي
باصال الدولة وروسها ٢٣٢
فصل في ان الضعفاء غاية الضعف ونهاية لضعف وانها
مؤنة يفسده ٢٣٤
فصل في ان الامصار التي تكون كراس للظلم فخر بآثار
الصفوة ٢٣٧
فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصانع دون بعض ٢٣٩
فصل في وجود العمية في الامصار وتقليد بعضهم على بعض ٢٤٠
فصل في قلة اهل الامصار ٢٤١
الباي الخاص في العاش ووجهه (فصل في حقيقة الرزق
واكتسب وخرجه وان اكتسب هو ثمة الامتياز البشرية) ٢٤٢
فصل في وجود العاش واصفاته ومبادئه ٢٤٥
فصل في ان الخدمة ليست من العاش الطبيعي ٢٤٦
فصل في ان ابتناء الاموال من الدفاني والكنوز ليس بطبيعي
طبيعي ٢٤٧
فصل في ان الجاه مقيد للمال ٢٥٠
فصل في ان السعادة والكتب اما يحصل غالبيتها لأهل
الفسوق والتناق ٢٥١
فصل في ان القاميين بقوم الدين لا يحكم قروهم في القامية
فصل في ان الفلاح من ماضي المستغنين واهل الضافية
من البع ٢٥٥
فصل في معنى التجارة ومبادئها ٢٥٥
فصل في اى اصناف الناس يتعرف التجارة ٢٥٥
فصل في ان خلق التجار نازلة من خلق الاشراق والظلم ٢٥٦
فصل في نقل التجار والبائع ٢٥٦
فصل في الاحتكار ٢٥٧
فصل في ان رخص الامصار مفر بالحقيرين بالرخص ٢٥٨
فصل في ان خلق التجار نازلة من خلق الرقصة بطيعة
من الرمة ٢٥٩
فصل في ان الصانع لا يد ايا من العلم ٢٥٩
فصل في ان الصانع اما تكل بكامل الممران وكثيره ٢٦٠
فصل في ان رموح الصانع في الامصار اما هو رموح
الحضارة واول افعها ٢٦١
فصل في ان الصانع اما تسخير وكذا ان تطلبها ٢٦٢
فصل في ان الامصار اذا غلبت انضباط انضبطت منها
الصانع ٢٦٢
فصل في ان الحرب ابد الناس من الصانع ٢٦٣
فصل فيما حصلت له ملكة في صناعة قتل ان يجهده بطيعة

الفصل

الفرس

الحادي والمثرون فيما يرضى في الدول من حرج السلطان
والاستعداد عليه ٢٦٦
الثاني والمثرون في ان انطليخ على السلطان لا يشاركه في
اللقب الخاص بالملك ٢٦٧
الثالث والمثرون في حقيقة الملك واصفاته ٢٦٧
الرابع والمثرون في ان ارفع الحد مفر بالملك ومفسد له
في الاكثر ٢٦٨
الخامس والمثرون في معنى الخلافة والامامة ٢٦٩
السادس والمثرون في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب
ودروعه ٢٧١
السابع والمثرون في مذاهب الشيعة في حكم الامامة ٢٧٥
الثامن والمثرون في ان انقلاب الخلافة الى الملك ١٨٠
التاسع والمثرون في معنى البيعة ١٨٦
العاشر في ولاية العهد ١٨٧
الحادي والثلاثون في الخطط الدينية الخلافة ١٩٥
الثاني والثلاثون في اللقب باسم المؤمنين وانه من سمات الخلافة ٢٠٢
الثالث والثلاثون في خراسان التبا والطريق الملة الانصارية
واسم اكروم عند اليهود ٢٠٥
الرابع والثلاثون في مراتب الملك والسلطان والقباه ٢٠٩
الخامس والثلاثون في التفاوت بين مراتب السيف والقلم
في الدول ٢٢٨
السادس والثلاثون في خيرات الملك والسلطان الخاصة به ٢٢٩
السابع والثلاثون في الحروب ومذاهب الامة في ترتيبها ٢٤١
الثامن والثلاثون في الجيا وسبب قتلها وكثيرها ٢٤٨
التاسع والثلاثون في غرب الكرس في اواخر الدولة ٢٥٠
الاربعون في ان التجارة من السلطان مفر بالارمايا مفسدة
للجيا ٢٥٠
الحادي والاربعون في ان قرة السلطان وحاشيته اما تكون
في وسط الدولة ٢٥٢
الثاني والاربعون في ان تنص المطامير من السلطان تنص في
الجيا ٢٥٥
الرابع والاربعون في الجيا كيف يقع في الدولة وانه يحكم
معد الهرم ٢٥٩
الخامس والاربعون في انقسام الدولة الواحدة بدولتين ٢٦٠
السادس والاربعون في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع ٢٦٢
الثامن والاربعون في اصناف نطاق الدولة اولا لم تضاهه
طورا بعد طور ٢٦٥
فصل في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع ٢٦٧
في ان الدولة المستعدة اما تسو على الدولة
المتقرة بالاطالة لا بالنارحة ٢٦٨
فصل في وفور الممران اكبر الدولة وما يقع فيها من كثرة
الوئان والجيا ٢٧١
فصل في ان الممران البشري لا يد له من سياسة بتتكم
بها امره ٢٧٢
فصل في امر الناطمي وما يذهب اليه الناس في شاته وكشف
النظام من ذلك ٢٧٩
فصل في حدان الدول والام وفيه الكلام على معنى الجيفر
الباي الرابع في البلدان والامصار وسائر الممران (فصل في
ان الدول اقدم من المدن والامصار) ٢٠٩
فصل في ان الملك يدعو الى نزول الامصار ٢١٠
فصل في ان المدن العظيمة والهيال الرقصة اما يشيدها
الملك الكثر ٢١٠
فصل في ان الهيال النبطية جدا لا يستقل بيتها الدولة
الواحدة ٢١١

المصنف	الموضوع	الصفحة
ملكة أخسرى	٢٦٤
فصل في الإشارة إلى أهيات الصنائع	٢٦٤
فصل في صناعة الفلاحة	٢٦٥
فصل في صناعة البناء	٢٦٥
فصل في صناعة التجارة	٢٦٦
فصل في صناعة الحياة والطبابة	٢٦٦
فصل في صناعة التدريس	٢٧٠
فصل في صناعة الطب	٢٧٢
فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية	٢٧٥
فصل في صناعة الوراقة	٢٨٢
فصل في صناعة الفناء	٢٨٤
فصل في أن الصنائع تكسب صاحبها مهلاً ومغسلاً	٢٨٤
الكتاب والصواب	٢٨٩
الكتاب السادس في العلوم وأصنافها (فصل في الفكر الإنساني)	٢٩٠
فصل في أن عالم الحوادث الخفية إنما يتم بالفكر	٢٩١
فصل في العقل التجريبي وكيفية حصوله	٢٩٢
فصل في علوم البشر وعلوم الملائكة	٢٩٢
فصل في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام	٢٩٤
فصل في أن الإنسان جاعل بالثلاث عالم بالكتب	٢٩٥
فصل في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري	٢٩٦
فصل في أن التعليم العلم من جملة الصنائع	٢٩٦
فصل في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتظم الحضارة	٣٠٠
فصل في أصناف العلوم الواردة في العمران لهذا العهد	٣٠٠
فصل في علوم القرآن من التفسير والتراجم	٣٠٢
علوم الحديث	٣٠٥
علم الفرائض	٣١٧
علم أصول الفقه وما يطلق به من الجفر والفلاحيات	٣١٨
علم الكلام	٣٢٢
فصل في كشف الغطاء عن التشابه من الكتابين والسنة وما حدث لأجل ذلك من طوائف السنية والشيعة	٣٢١
علم التصوف	٣٢٨
علم صير الرؤيا	٣٢٨
العلوم العقلية وأصنافها	٣٥١
العلوم المبدئية	٣٥٥
العلوم الهندسية	٣٥٨
علم الهيئة	٣٦٠
علم المنطق	٣٦١
الطبيعيات	٣٦٤
علم الطب	٣٦٤
الفلاحة	٣٦٥
علم الألبان	٣٦٦
علم البحر والصيد	٣٦٧
علم الكيمياء	٣٧٢
فصل في أبطال الفلسفة وفساد متعلقاتها	٣٨٧

تيسيه هام

اعتمد في نشر هذه المقدمة على الطبعة التي أصدرتها « لجنة البيان العربي » بتحقيق الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي :

وما ذكر في هذه الطبعة من تعليقات ملخص من بعض تعليقاته ونحت إشرافه و تحليل على طبعته لمن يريد مزيداً من التفصيل ،

(دار الشعب)

